
تشنغ يوي تشن
لمحة عن
الثقافة في الصين
ترجمة
د. عبد العزيز حمدي عبدالعزيز
مكتبة
مؤمن قريش

تشنغ يوي تشن

لمحة عن الثقافة في الصين

ترجمة: د. عبد العزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

DS706 .C5412 2012

تشنغ يوي تشن.
لمحة عن الثقافة في الصين / تأليف تشنغ يوي تشن ؛ ترجمة و تقديم عبد العزيز حمدي عبد العزيز.-أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة و الثقافة، كلمة، 2012.
ص. 831 ؛ 17×24 سم.

ترجمة كتاب : .... 中国文化要略
تدمك: 978-9948-17-116-4
1-الصين-تاريخ. 2-الحضارة الصينية.
أ-عبد العزيز، عبد العزيز حمدي.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الصيني:

中国文化要略
程裕祯　著
外语教学与研究出版社
北京　2003



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

لمحة

عن الثقافة في الصين

المحتويات

الفصل الرابع: أسماء الأسر والأفراد والألقاب والكُنى

الفصل الخامس: الرموز الصينية

الفصل السادس: الفكر الأكاديمي في الصين

الفصل الحادي عشر: إنجازات علمية في الصين القديمة

الفصل الثاني عشر: الهندسة المعمارية التقليدية

الفصل الثالث عشر: الأدب الكلاسيكي

ملاحق

مقدمة: بقلم المترجم

نشأت إرهاصات الثقافة الصينية في العصر الذي وصفه الفيلسوف الألماني كارل ياسبرس Karl Jaspers بـ «عصر المحاور» الذي يقع بين عامي 800 و 200 قبل الميلاد في تاريخ العالم، وتشكلت دعائم هذه الثقافة انطلاقاً من تضارب آراء «المدارس الفكرية المائة» في أواسط الألفية الأولى قبل الميلاد، وقامت على أكتاف الشرائعيين والطاويين والكونفوشيوسيين. وأنجبت الصين حضارة عريقة في الشرق الأقصى تضاهي الحضارتين اليونانية والرومانية في أوروبا، وتتجذر جذورها في أعماق التاريخ، واستمتعت –عبر قرون طويلة– بعزلة فريدة أغدقت عليها بظروف ملائمة من التواصل الحضاري، والتميز الثقافي، وعدم التغيير والركود خلافا لما شهدته الحضارتان المصرية والهندية؛ حيث كان يكتنف الصين أكبر المحيطات وَشُمّ الجبال وصحراء من أوسع صحارى العالم. ولذلك، أنتجت الصين أيضاً ثقافة فريدة ومتميزة لم يسبق لها مثيل لدى أي شعب آخر في العالم، وذلك بفضل وحدة سكان الصين العرقية، ونظامها الإقطاعي ثم الإمبراطوري الذي أصبح عاملاً مهماً في وحدة ثقافتها ونظامها وعاداتها عبر القرون، فقد استمر الحكم الإقطاعي في الصين حوالي ألفي سنة فقامت ثقافة غنية وحضارة عريقة لا تضاهى بثقافة شعب آخر في العالم، وعاش الصينيون في عزلة تامة وبمنأى عن الأحداث التي تدور خارج بلادهم، وأحاط الأباطرة الصين بسياجات حديدية فولاذية. وفي ظل الانفصام عن العالم الخارجي وداخل الأسوار الحديدية، سيطرت روح العلم والعقل والفلسفة على الصينيين، وانخرطوا في الإبداع الفني والثقافي، وانتجوا أخلد الآثار وأرفع الثقافات. وكان الكونت كيسرلنج Count Keyserling يُكِّن إعجاباً منقطع النظير للصين وشعبها وثقافتها، وذكر في خاتمة كتابه Creative Understanding: «لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية، وأنشأت أعلى ثقافة عامة عرفت في العالم كله... وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا ... وليس ثمة من يجادل في تفوق الصين في كل شأن من شؤون الحياة ..»..

وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره في المقاطعتين الصينيتين خونان ومنشوريا الجنوبية على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجري الحديث وجدت في تلك البلاد متأخرة

بألفي عام عن مثيلتها في عصر ما قبل التاريخ في مصر وسومر. ويُشبه بعض ما وجد من الأدوات في الرواسب الباقية من العصر الحجري الحديث، في شكله وتسنينه، المدى الحديدية التي يستخدمها سكان الصين الشمالية في هذه الأيام لحصاد الذرة الصينية. ونرجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف سنة متواصلة غير منقطعة، وهو عهد ما أطوله، وقلّ أن يوجد له في غير الصين نظير. وعرفت الصين مدنية من أقدم المدنيات القائمة في العالم وأغناها، وشهدت سجلاً حافلاً من الفلسفة الواقعية المثالية العميقة، وأخلاقاً قديمة لم نر لها نظيراً عند شعوب العالم، فقد كان المجتمع الصيني في العصر القديم مجتمعاً راقياً متمدناً حين كانت بلاد اليونان مساكن البرابرة. ولا غرو أن ينادي ليبنتز Leibntiz – بعد أن درس الفلسفة الصينية– بضرورة تطعيم فلسفة الشرق والغرب كلتيهما بالأخرى، وارتياد الصين وتبادل المدنيتين الصينية والأوروبية.

وتسمى الصين «جنة المؤرخين»؛ ذلك أنها ظلت مئات وآلافاً من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون هل ما يقع فيها ولا يقع فيها. وتاريخ الحضارة الصينية أكثر امتداداً وتعقيداً عن تاريخ أية أمة في الغرب وأقل تشعباً، بدرجة ضئيلة، عن تاريخ الحضارة الأوروبية كلها. والسجلات التاريخية الصينية متصلة وشاملة بقدر هائل، والثقافة التاريخية الصينية متطورة جداً. ومعقدة لعدة قرون[1]. فالصين تاريخ متصل ومتواصل لا ينقطع من الجد إلى الحفيد، والتاريخ هو عصب المعرفة في الصين، وهو أيضاً الحبل السري الذي يربط بين أبناء الأمة الصينية من أقصاها إلى أقصاها، كما ربط بين الأسر الحاكمة عبر العصور التاريخية المختلفة[2]. ولذا تستأثر الصين بنصيب الأسد من الكتب والمراجع والسجلات التاريخية الأقدم.. والأكثر كماً ونوعاً.. والأكثر ثراءاً في العالم... ولا ينازعها منازع، وإن ظلت مقبورة في الأقبية والسراديب ردحاً طويلاً. وحافظت الصين على بكارتها التاريخية والثقافية والفلسفية دون المساس بتقاليدها وعاداتها وأخلاقها لعدة قرون خلت. واستمر الصينيون وحدهم ينظرون إلى ثقافتهم الآسيوية كجزء من ماضيهم الخاص بهم، مما ولّد عندهم وعي حيازة ثقافة

---

(1) The Cambridge History of China, Volume 10, general Editor's Preface, Cambridge University Press, 1978

(2) ولذلك زودنا صدر هذا الكتاب الذي بين أيدينا بالجدول الزمني للأسر الحاكمة في الصين، واستبيان المناطق والمقاطعات التي كانت تسيطر عليها تلك الأسر من خلال خارطة التقسيم الإداري في الصين.

مستمرة منذ خمسة آلاف سنة دون أي انقطاع، وعي هو جزء مهم من هويتهم وكبريائهم[3].
وفي هذا الخصوص يقول البروفيسور الألماني Wolfgang Franke أن:

«الصين أقدم بلد في العالم والتي اضطرت إلى يومنا هذا أن تبقى كياناً سياسياً وثقافياً دون المساس بالتقاليد. والأحداث الثورية في العقود الأخيرة، على الرغم من التغيرات الجمة، تؤكد من جديد الوحدة الأساسية التي تجمع بين الماضي والحاضر في الصين. وتظل صين اليوم لُغزا مبهماً إذا افتقدنا معرفة ماضيها وتاريخها. والحاضر الحي يقدم -بطريقة ما- الكثير من أجل شرح تقاليدها»[4].

وكانت الفلسفة الأخلاقية في الصين مصدراً من مصادر الحضارة الإنسانية التي لا تنضب، وعنصراً لا يستهان به من عناصرها، ومستقى ثراً لكثير من جوانب حياتها. وأنجبت الصين ثُلة من الفلاسفة والعلماء والمفكرين الذين نبغوا في كل الميادين ووهبوا أجيالهم والأجيال التالية تراثاً غنياً مليئاً بالعناصر الفعالة والقوى الخلاقة والطاقات المبدعة، مما جعل الصينيين سدنة العلم والفكر والحضارة في عصور الظلام الأوروبي. فنجد أقدم فيلسوف في العالم الفيلسوف الصيني لاوتسي- وُلد في عام 600 ق.م.- يفرق بين الطبيعة والحضارة كما سيفعل روسو من بعده بعشرين قرناً أو تزيد. وحكيم الصين وفيلسوفها كونفوشيوس يتحدث عن الإنسان الأعلى قبل أن يجيء نيتشه بنظرية السوبرمان بما يقرب من خمسة وعشرين قرناً. وتأثر الفلاسفة الاقتصاديون الطبيعيون بآراء لاوتسي، وتشوانغ تسي. وكان روسو يتحدث على غرار طريقة لاوتسي. ولا أدل على سمو الصينيين من أنهم سبقوا السفسطائية وسقراط وأفلاطون والنزعة العقلية اليونانية والنزعة المادية الحديثة في تفسير الأخلاق خاصة. بل لقد سبقوا أيضاً انتفاضة العقل على العقل. ولذلك، سنلقى كانط الصيني قبل كانط الألماني بأكثر من ألفي عام. وسنشهد حضور جان جاك روسو وهوبز ولوك في الصين قبل حضورهم في أوروبا بقرون طويلة[5]. وتتجلى عظمة هذه العبقريات الفلاسفية في مقولة فولتير والتي جاء

(3) انظر كتاب «الصين -عودة قوة عالمية» من إصدارات مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، دراسات مترجمة رقم 15، ص 38، عام 2003.

(4) انظر كتاب «Magnificent China». من إصدارات Joint Publishing Co, (HK), 1987

(5) د. محمد عبد الرحمن مرحبا «المرجع في تاريخ الأخلاق»، ص 244، عام 1988. طرابلس- لبنان.

فيها: «لقد قرأت كتب كونفوشيوس بعناية، واقتبست فقرات منها، ولم أجد بها إلا أنقى المبادئ الخلقية التي لا تشوبها أقل شائبة من الشعوذة».

وتشعبت الحضارة الصينية باتساع الرقعة الجغرافية التي نمت فيها وازدهرت، وظهرت عبقريات وبرزت مواهب وتفتقت قرائح وتفجرت مواهب، وتجسد ذلك في كوكبة من العلماء الذين كانوا بمنزلة المنائر التي تكشح الدياجير، وتفري الظلمات كأنها كواكب درية يهتدي بنورها مواكب البشر، وأفاءت على الدنيا فيضاً متصلاً من الابتكارات والاختراعات المدهشة التي أذهلت العالم بأسره منذ ما يربو على ألف عام. ففي القرنين الأول والثاني للميلاد شهدت أسرة هان في الصين صناعة الورق، بينما أوروبا لم تعرف هذه الصناعة إلا في القرن الثالث عشر، بعد مرور ألف وخمسمائة سنة على اختراع الصينيين له. واخترعت الصين الطباعة في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي في أسرة تانغ لاستنساخ أعداد كبيرة من الكتب البوذية واستطاع الصيني بيه شينغ Bi Sheng اختراع الطباعة المتحركة في الفترة 1041– 1048، والتي حذا حذوها المخترع الألماني جوتنبرج واخترع الطباعة بالأحرف المتحركة في عام 1440، حتى عرفت أوروبا آنذاك طباعة الكتب بعد مرور أكثر من سبعمائة سنة على الاختراع الصيني. وأشارت السجلات التاريخية الصينية إلى البوصلة المغناطيسية في الصين للمرة الأولى في القرن الرابع قبل الميلاد، وأخذتها أوروبا عن الصين، حيث ذكرتها الكتب الأوروبية للمرة الأولى في عام 1190، أي بعد مرور ألف وخمسمائة عام على اختراعها في الصين. وفي نحو عام 850 في الفترة المتأخرة من أسرة تانغ اخترعت الصين البارود، وذلك عند اضطلاع الخيميائيين بالبحث عن إكسير الحياة المانح للخلود، بينما تشير بعض النصوص الأوروبية إلى البارود للمرة الأولى في عام 1285م. كما برز التفوق الصيني في التقنية الصناعية، حيث استطاع الصينيون إنتاج حديد الزهر في القرن الرابع قبل الميلاد، بينما أنتجت أوروبا الحديد في نهاية القرن الثالث عشر أي بعد نحو ألفي عام. وفي القرن الخامس الميلادي طور الصينيون طريقة لصنع الفولاذ سبقوا فيها طريقة سيمنس –مارتين لعام 1864م.

ويصف الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون هذه الاختراعات في كتابه «Novum organum » الصادر في عام 1620 قائلاً: «أنها الاختراعات التي غيرت وجه العالم، ومنها

انطلقت تبدلات لا حصر لها. ولا وجود لإمبراطورية أو دين أو نجم كان له سيطرة أكبر أو تأثير أعظم على تطور البشرية من هذه الاختراعات». ويدحض ذلك الاقتناعات غير الصحيحة لدى الأوروبيين من أن اختراعاتهم كانت وراء قيام ما يطلق عليه اليوم اسم «الحضارة الغربية» أن الاختراعات الصينية قدمت فرصة سانحة لأوروبا مكنتها من الانتقال بسرعة من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، ويعود الفضل في نشر هذه الحقائق إلى الكيماوي البيولوجي وعالم الصينيات الإنجليزي جوزيف ندهام Joseph Needham الذي كرس جهوده على بحث علوم وتقنيات الصين القديمة في عمله الرائع «علوم الصين وحضارتها» الذي يقع في أربعة مجلدات ضخام وأحدثت تغييراً في النظرة الأوروبية بصورة لم يحققها أي كاتب غربي آخر.

فقد تناست أوروبا أن جميع الشعوب هي دائنة ومدينة يمد بعضها بعضاً ويأخذ بعضها من بعض، وشعلة المعرفة لابد أن تنتقل من قوم إلى قوم، كأنما ليس من الممكن إشعالها لو انطفأت مرة ، إن تبادل الأفكار والآراء بالاقتباس والاستنارة والنقل أمر طبيعي جداً. لا يستلزم دائماً استرقاقاً وعبودية. فالإنسان اجتماعي تعاوني، لاسيما في عمله العقلي الذي هو عنوان مجده. وإن لعمله دائماً ينابيع يستقي منها وأصولاً يبني عليها[6].

ولعل من نافلة القول إن نذكر – في هذا المقام– أن الصين بقيت أقوى قوة بحرية في العالم منذ أسرة سونغ حتى المرحلة الاستكشافية الأخيرة التي أمر بها الإمبراطور شوان دي في عام 1433م. ونخص هنا بالذكر الملاح الصيني المسلم الأشهر شينغ خه Zheng He (1371– 1435) الذي وُلد في مقاطعة يونان بجنوب الصين واسمه الأصلي (ما) ويعني بالعربية (محمد)، ويعد من مشاهير المسلمين الصينيين ورائد الملاحين في العالم، وحقق العديد من الإنجازات التي لا تضاهى في مجال الملاحة البحرية، واكتشف العديد من الطرق البحرية في البحار والمحيطات قبل كولومبوس بأكثر من نصف قرن. كما قام بالعديد من الرحلات البحرية إلى أكثر من ثلاثين دولة في البحر الشرقي والمحيط الهندي في الفترة من 1405 إلى 1433، وتوغلت رحلاته حتى وصلت إلى البحر الأحمر وبلاد فارس في الشمال الغربي والبحر الشرقي في أفريقيا. وكان أسطوله الجبار يتألف من 317 سفينة شراعية، وفي وسط الأسطول تبحر 62» سفينة كنز» ذات تسع سوار والتي كانت أكبر سفن تم صنعها في العالم آنذاك والبالغ طولها

(6) نقلا عن كتاب «المرجع في تاريخ العلوم عند العرب»، اصدارات دار الجيل– بيروت، عام 1998م.

135متراً. أما السفن الثلاث التي أبحر بها كولومبوس عام 1492 إلى الصين– الهند والتي قادته خطأً إلى أمريكا، فلم تكن أطوالها مجتمعة تتعدى 66 متراً، وكان من الممكن وضعها داخل سفينة واحدة من هذه السفن الصينية. مما جعل الصين تبلغ ذروة قوتها وعنفوان شبابها. وكان بريق الإمبراطور يشع على كافة الأصقاع الآسيوية، كما سيطرت الصين على جميع البحار الآسيوية: البحر الياباني والصين الشرقي في الشمال، وبحر الصين الجنوبي والمحيط الهادي بأسره.

ويستشرف ديورانت صاحب كتاب «الحضارة» المستقبل قائلاً: «وأكبر الظن أن الصين ستنتج من الثروة مالم تنتجه قارة من القارات حتى أمريكا نفسها، وأن الصين ستتزعم العالم في نعيم الحياة وفنها كما تزعمته مراراً في الزمن القديم في التنعم وفي فنون الحياة».

وهذا الكتاب المترجم عن الصينية يتيح لنا إطلالة طيبة على بانوراما الحضارة الصينية، والثقافة الصينية، وتاريخ التطور الثقافي والأدبي والفكري والديني في الصين. كما أنه كتاب جامع في أبوابه ومباحثه، يسد ثغرة كبيرة فيما وصلنا من الفكر الصيني حيث وصلتنا أفكاره وملامحه في صورة شتيتة تراوح بين العلم والفن والفلسفة والأسطورة دون رابط يجمع بينها. كما يعتبر هذا الكتاب –على نحو من الأنحاء– جولة فكرية عظيمة وجريئة وواسعة الخيال ومثيرة، إنه عمل سيغرس البذور التي ستنمو وتصبح أزهاراً يانعة تسد الفجوة المعرفية والمعلوماتية التي تعاني منها المكتبة العربية عن حضارة الصين وتاريخها وثقافتها.

والكتاب يمثل حالة خاصة وفريدة بعض الشيء من حيث تعدد مجالاته وموضوعاته واشتماله على بعض النصوص الصينية التراثية، وبعض المصطلحات الصينية الخاصة. وقد توخينا الالتزام الشديد بالنص الأصلي معنى وروحاً ومجاراة الأسلوب الصيني الأصلي دون محاولة إضفاء لمسات عصرية عليه من حيث الجمال التعبيري والزخرفة اللغوية، وذلك حرصاً على نقل خصائص هذا الكتاب الزاخر بالعطر الصيني وأريج الحضارة الصينية ومكنونات العقل الصيني. كما تتحلى صوتيات اللغة الصينية بالطبيعة الخاصة دون سائر اللغات الأخرى، ولم يكن ميسوراً أن نُحمّل الأبجدية العربية مالا تطيق من هذه الصوتيات، ومن ثم تتعدد

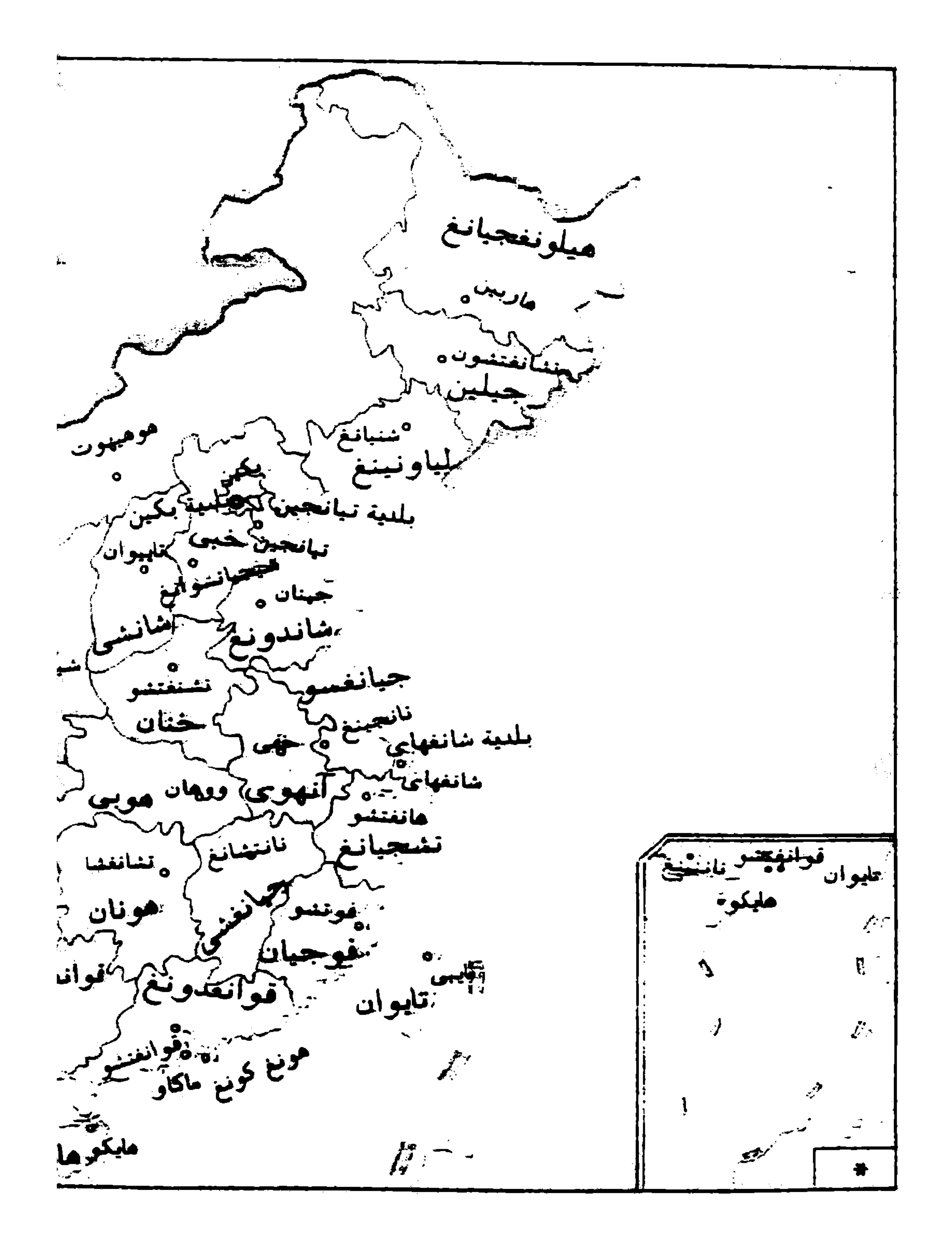
أساليب وطرائق نطق الأسماء الصينية. وقد يجد القارئ بعض الجمل والتعبيرات والنصوص غير المألوفة ونؤكد أنها غير صادرة عن خلل في الترجمة أو ركاكة في التعبير.

ونهدي ترجمتنا إلى جماهير القراء في الأمم الناطقة بالضاد، آملين أن تسهم إسهاماً كبيراً في تثقيفهم وتوسيع مداركهم وتنويع ثمارهم ودفعهم إلى أرحب الآفاق.

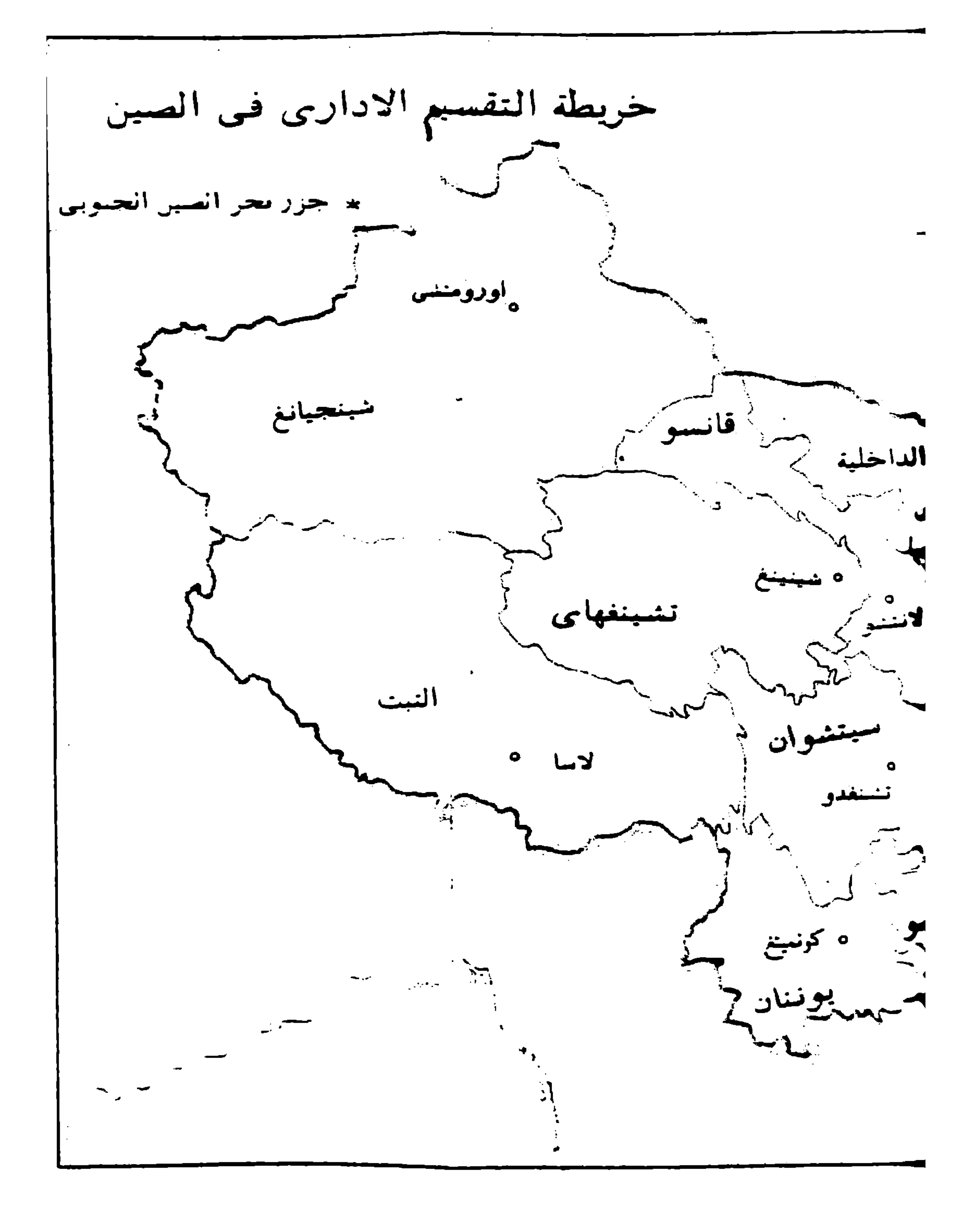
والله نعم المولى والمثيب..

د/ عبد العزيز حمدي

القاهرة – في أول يوليو عام 2010



هيلونغجيانغ
هاربين
جيلين
شنيانغ
لياونينغ
هوهيهوت
بكين
بلدية تيانجين
بلدية بكين
خبي
تيانجين
تايوان
جينان
شاندونغ
شانشي
جيانغسو
تشنغتشو
ختان
نانجينغ
بلدية شانغهاي
شانغهاي
آنهوي
ووهان
هوبي
هانغتشو
تشجيانغ
نانتشانغ
تشانغشا
هونان
فوتشو
فوجيان
قوانغدونغ
تايوان
هونغ كونغ
ماكاو
هايكو
هليكو



خريطة التقسيم الادارى فى الصين
* جزر بحر الصين الجنوبى
اورومتشى
شينجيانغ
قانسو
الداخلية
شينينغ
تشينغهاى
التبت
لاسا
سيتشوان
تشنغدو
كونمينغ
يونان

جدول الأسر التاريخية الصينية

اسم الأسرة	تاريخ البداية و النهاية
شيا	2070 ق.م – 1600 ق.م
شانغ	1600 ق.م – 1046 ق.م
تشو الغربية	1046 ق.م – عام 771 ق.م
تشو الشرقية عصر الربيع والخريف	770 ق.م – 476 ق.م
وعصر الممالك المتحاربة	475 ق.م 221 ق.م
تشين	221 ق.م – 207 ق.م
هان الغربية	206 ق.م – 24 م
هان الشرقية	25 م – 220م
الممالك الثلاث (وي، شو، وو)	220 م – 265م
جين الغربية	265م – 316 م
جين الشرقية	317 م – 420 م
الأسر الجنوبية والشمالية	420 م – 589 م
سوي	581 م – 618 م
تانغ	618 م – 907 م
الأسر الخمس	907 م – 960 م
سونغ الشمالية	960 م – 1127 م
سونغ الجنوبية	1127 م – 1279م
يوان	1271 م – 1368 م
مينغ	1368 م – 1644 م
تشينغ	1644 م – 1911 م

الفصل الأول

نبذة عن معنى الثقافة

في الوقت الحاضر تنتشر كلمة «الثقافة» في كافة أصقاع مجتمع اليوم وأضحت معلومة للجميع ويعرفها النساء والأطفال أيضاً. وتعددت أنواع الثقافات مثل «ثقافة السياسة»، و«ثقافة المؤسسات التجارية»، و«ثقافة باحة المدرسة»، و«ثقافة الأزياء»، و«ثقافة البناء»، و«ثقافة الطعام والشراب»، و«ثقافة الشاي»، و«ثقافة الخمر» وغيرها. ولذا، اليوم عن أي ثقافة نتحدث؟ وقد كان من السهل تعريفها وإدراك مغزاها منذ عدة سنوات خلت. إننا نتحدث -في هذا المقام- عن مفهوم «الثقافة» باقتضاب حتى يتمكن القراء من فهم مضمون ومحتويات هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

المبحث الأول

معنى كلمة «الثقافة»

منذ ألفي سنة ونيف ذكرت سجلات وثائقية معنى كلمة «الثقافة». وقد بدأ الصينيون شرح كلمة «الثقافة» تقريباً في أسرة تشو Zhou (القرن 11 ق.م. تقريباً– 711 ق.م). فقد جاء في كتاب «التغيرات» آنذاك ما معناه أن الحاكم يستطيع أن يدرك التغيرات الموسمية من خلال مراقبة الظواهر الفلكية، كما أنه يرقب جميع الظواهر في المجتمع الإنساني حتى يتمكن من إدارة شؤون البلاد عن طريق الوسائل التربوية المؤثرة. كما ظهرت كلمة «الثقافة» في أسرة هان Han (206ق.م– 220 م) ولكن كان إدراك الناس لمعناها ومغزاها مختلفاً. وذكر الباحث الشهير ليو شنغ في كتاب «أحاديث» أن: «جميع الحروب التي اندلعت كانت من أجل إخضاع الإنسان، والثقافة لا تغير ذلك، ثم ظهر قتل الإنسان». وذكر الناس في أسرة جين (265– 420) أن: «الثقافة انسجام داخلي، والعسكرية سيطرة خارجية». ويشير ذلك إلى مفهوم يتناقض مع الوسائل العسكرية التي تحتكم إليها الدولة. وفي عبارة أخرى، أنها وسائل الدولة من الثقافة والتربية في إدارة شؤون البلاد. وقام العالم والباحث كونغ ينغدا في أسرة تانغ Tang (618– 907) بشرح وتفسير ما جاء في كتاب «التغيرات» المذكور أعلاه فيما يتعلق بمعنى الثقافة؛ فهو يرى أن ثقافة المجتمع الإنساني تشير بصورة أساسية إلى الأشياء النفيسة التي تتبوأ قمة الهرم من الفنون والأدب والأعراف الاجتماعية. ومفهوم «الثقافة» المحدد لدى الأقدمين قد بدأ منذ أسرتي هان وتانغ واستمر تأثيره حتى أسرة مينغ Ming (1368– 1644) وتشنغ Qing (1644– 1911). ولذا ذكر قويان وو في كتابه «سجل معارف يوميه» أن: «مقولة الثقافة» تشتمل على المظاهر الخارجية لسلوك المرء وجميع الأنظمة في الدولة». ويدل ذلك على أن مفهوم الثقافة في الصين القديمة يشير إلى شيءٍ يتسم بالمحدودية في عالم الفكر.

وكلمة «ثقافة» في الغرب مصدرها الكلمة اللاتينية Cultura وتعني الحراثة والزراعة، والمعيشة والتدريب والانتباه. وكلمة «ثقافة» في اللغة الفرنسية Culture معناها أيضاً زراعة الأرض، ولكن يتسع نطاقها ويشمل قولبة أخلاق المرء وتهذيبها، والمعنى هنا يشمل الجانبين المادي والمعنوي في حياة الإنسان. ويبين ذلك أن معنى «الثقافة» في الغرب أكثر اتساعاً

وعمقاً عن نظيره في ثقافة الصين القديمة. وفي كتابه «الثقافة البدائية» وضع عالم الثقافة البريطاني Tailor تعريفاً للثقافة بأنها: «تشمل كل من المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والعادات، بالإضافة إلى أي فرد يصبح عضواً اجتماعياً مشهوراً، والوحدة الكلية المعقدة ذات القدرة والكفاءة والعادات الداخلية». وتتمتع هذه الفكرة بالتأثير الهائل واضطلعت بالدور الرائد في دراسات الثقافة، ويمكننا أن نعتبرها مرجعية في فهم «الثقافة» ومعرفتها في الوقت الحاضر. وفيما بعد قام الناس تباعاً بوضع تعريفات محددة لـ«الثقافة في ضوء إدراكهم ومعرفتهم. وبعض تلك التعريفات يركز على التاريخ، والبعض الآخر يشدد على المعايير والمقاييس، وبعضها يركز على الجانب النفسي، وبعضها يميل إلى الهيكلية، وبعضها يؤكد على الإرث وغيرها. وشهدت الثقافة أكثر من مئة تعريف حتى يومنا هذا.

وقدم منظرو الماركسية شرحاً جديداً لـ«الثقافة»، حيث قسموها إلى نوعين هما: العام والضيق. ويعتقد فيلسوف روسي أن: «الثقافة هي الناتج الإجمالي للثروة المادية والفكرية التي خلفتها البشرية في المسيرة العملية للتاريخ الاجتماعي. فالثقافة –من منظور المغزى الضيق– هي إجمال لشكل الحياة الفكرية الاجتماعية التي تبلورت ملامحها وتطورت على أساس أسلوب الإنتاج المادي المحدد في التاريخ». وقد تبنى هذا التعريف بصورة أساسية كتاب «القاموس المحيط» الذي صدر في الصين عام 1979. ولكن لم يوافق المجتمع على وجهة النظر هذه، فما زال هناك محاولات كثيرة تدور حول تعريف الثقافة. وتحاول جميع المؤلفات التي تتناول علم الثقافة وصدرت في الصين في السنوات الأخيرة أن تضع تعريفاً للثقافة متقناً غاية الإتقان.

وأياً كانت التعريفات الجمة لكلمة «الثقافة»، فهناك نقطة واضحة وجلية وهي أن الإنسان يمثل جوهر مسألة الثقافة، فالإنسان يتمتع بالمقدرة على ابتداع الثقافة. وتعد الثقافة تجسيداً لحكمة البشرية وقدرتها الإبداعية. والإبداع الثقافي يختلف باختلاف الأمم والأجناس. فالإنسان يبدع الثقافة ويتمتع بها أيضاً، وفي الوقت نفسه تفرض عليه قيودها وأصفادها، ولكنه لا يتوقف البتة عن الإبداع الثقافي في نهاية المطاف. وكلنا نعتبر مبدعين ثقافيين، ونتمتع جميعاً بالثقافة، ونعدل ونغير الثقافة أيضاً. وعلى الرغم من أن الإنسان يتعرض للقيود الثقافية، لكنه يأخذ بزمام المبادرة في الحقل الثقافي دائماً وأبداً. وإذا لم توجد

المبادرة الخلاقة من جانب الإنسان، فالثقافة تفقد بريقها وحيويتها، بل وتفقد حياتها أيضاً. والجانب الأساسي في فهم الثقافة ودراستها يظهر في مراقبة ودراسة الأفكار والسلوكيات والسيكولوجية التي ابتدعها الإنسان ووسائل ذلك الإبداع وتبلوره في صورته النهائية. وهناك أقاويل كثيرة ومتعددة فيما يتعلق بهيكل الثقافة الذي تم تقسيمه إلى أربعة مستويات هي:

(1) **المستوى الثقافي المادي:** ويشير إلى مجموع الأنشطة الإنتاجية المادية للفرد ومنتجاته، كما أنه يشير إلى الواقعية المحددة والملموسة مثل ملابس الناس وطعامهم وتصرفاتهم وغيرها.

(2) **المستوى الثقافي النظامي:** ويشير إلى سلوكيات الناس الشخصية المعيارية التي تؤسس أثناء الممارسات الاجتماعية بصفتها معيار تنسيق العلاقات المتبادلة.

(3) **المستوى الثقافي السلوكي:** ويشير إلى العادات والتقاليد المتعارف عليها لدى الفرد في إطار التبادلات الاجتماعية طويلة الأمد، كما يعتبر هذا المستوى نوعاً من السلوكيات الاجتماعية، وليست سلوكيات فردية كما يهوى الفرد ويحلو له.

(4) **المستوى الثقافي النفسي:** يشير إلى سيكولوجية الناس الاجتماعية وأيديولوجيتهم، ويشمل ذلك مفاهيم القيم وأخلاق الجمال لدى الناس، وأسلوب تفكيرهم والنتاج الأدبي والفني الناجم عن ذلك. ويمثل ذلك بيت القصيد في الثقافة، كما أنه يعد جزء جوهرياً في فهم الثقافة.

المبحث الثاني

أهمية فهم الثقافة الصينية

إن الثقافة الصينية تمثل القوى الخلاقة العظيمة للأمة الصينية التي تطورت عبر تاريخ عميق الأغوار. ومنذ آلاف السنين تشرق الثقافة الصينية رونقاً وروعة في التاريخ الصيني، وتحظى بالاحترام والتقدير من جانب أجيال الأمة الصينية عبر مراحل التاريخ المختلفة. كما أنها أثرت في تاريخ وثقافة العالم الغربي بعد افتتاح «طريق الحرير» في عهد أسرة هان. كما انتشرت انتشاراً كبيراً وتعاظم نطاق تأثيرها في المجتمع الدولي الحديث الذي يزخر بالتبادلات. ويشهد العالم زيادة في أعداد المهتمين بالثقافة الصينية يوماً بعد يوم. وفي الوقت الحاضر تفتح الدول الغربية مدارس تعليم اللغة الصينية ويزداد بحاث الصينولوجيا (المدققون في الشؤون الصينية) أكثر فأكثر، ويزدهر في الغرب مرة أخرى المذهب الكونفوشيوسي، وفلسفة لاوتسي وتوانغ تسي، ودراسة كتاب «التغيرات». وفن تمثيل أوبرا بكين أخذ بمجامع قلوب المشاهدين في أوروبا وأمريكا. وهناك بعض الطلاب الأوروبيين والأمريكيين الذين يدرسون الأوبرا ويمثلونها في نشوة وابتهاج غامر ويقدمونها بصورة حية تكاد أن تتكلم، وفن الطهي جعل كل الأصدقاء في العالم الذين تذوقوا الطعام الصيني يمتدحونه دائماً ومن الصعب أن ينسوه طيلة حياتهم. وأصبحت دراسة الروايات الكلاسيكية الصينية مثل «حلم المقصورة الحمراء» في العالم علماً مشهوراً وبارزاً. كما أصبح كتاب «فن الحرب» بمثابة استراتيجية الإدارة لدى رجال الأعمال في الغرب. وشهدت السنوات القليلة الماضية اضطلاع فرنسا وأمريكا وألمانيا ومنظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة بتنظيم «مهرجان الثقافة الصينية» وتقدم الأنشطة الثقافة الصينية. وهناك مدينة صينية صغيرة «على مقربة من مدينة ميونخ الألمانية يقطنها عدة آلاف من السكان الذين يتطلعون بشغف للثقافة الصينية، وينظمون –منذ عشر سنوات– «مهرجان الثقافة الصينية» سنوياً الذي يعج بالضجيج والضوضاء، ويعرضون فيه رقصة الأسد وفوانيس التنانين. كما تشهد مدينة ممفيس الأمريكية نشاطات مماثلة تقريباً في سنوات لاحقة. وعلى سبيل المثال «مهرجان الثقافة الصينية» الذي أقيم في أكتوبر عام 1984، المسائل التي ناقشها قدمت لنا استنارة كبيرة؛ حيث كان الموضوع

الرئيسي للأنشطة هو «الإسهامات التي قدمتها الصين للعالم»، وتمحورت المناقشات على موضوع: معرفة الغرب بالصين منذ القرن السادس عشر، ووجهة نظر الكونفوشيوسيين الجديدة تجاه الإنسانية، ومن منظور عالمي معرفة مفهوم التاريخ وعلم التاريخ في الصين، وتاريخ الاقتصاد الصيني، والعلوم التقليدية في الصين، والأدب الصيني، ووسائل إدارة شؤون البلاد في الصين القديمة، والفن الصيني والفن العالمي أيضاً. وتركزت الرؤية من خلال هذا المنظور على وضع الصين في إطار بيئة عالمية من أجل تقصي حقائقها ودراسة مكانتها ودورها. وليس من قبيل التفرد والتميز، أن يصدر عالم بريطاني كتاب بعنوان «الصين– بلد الاكتشافات والاختراعات» في عام 1986، قدم فيه بأسلوب سلس وبسيط وواضح مئة من الاختراعات الصينية التي تتبوأ المكانة الأولى في العالم». وأشار المؤلف في مقدمة كتابه إلى أن: «العالم الحديث» يعتمد على الاكتشافات الرئيسية التي ربما أكثر من نصفها مصدره الصين... والصينيون أنفسهم والغربيون لا يدركون هذه الحقيقة. وأن الزراعة الحديثة، والملاحة الجوية الحديثة، وصناعة النفط الحديثة، ومراقبة الأحوال الجوية الحديثة، والموسيقى الحديثة، وعلم رياضيات النظام العشري، والأوراق النقدية، والشماسي، وأدوات صيد السمك، والعربة اليدوية، والصاروخ متعدد المراحل، والألغام البحرية، والأسلحة النارية، والمظلات، وبالون النار، والمركبة الفضائية، والبراندي، والويسكي، والشطرنج، وفن الطباعة، بل وحتى التصميم الجوهري للقاطرة البخارية –كل ذلك مصدره الصين.

وجاء في الكتاب المذكور أعلاه أيضاً أن الصين إذا لم تعرف دفة المركب والبوصلة والسارية، لم يتمكن كولومبس من الوصول إلى أمريكا، وربما لم يتمكن الأوروبيون إقامة العديد من الإمبراطوريات الاستعمارية. وكذلك إذا لم تعرف الصين ركاب السَرْج، فأوروبا لا تعرف عصر الفرسان في القرون الوسطى، وبالمثل إذا لم يستخدم الصينيون الأسلحة النارية والبارود، فإن عصر الفرسان لا ينتهي في أوروبا. وخلص هذا الكتاب إلى أن الصينيين لم يعرفوا إنجازاتهم معرفة كاملة حتى يومنا هذا. ويجب أن يكون الشرق والغرب شركاء حقيقيين على أساس التفاهم المشترك. ويبرز ذلك للعيان اهتمام الغربيين بالثقافة الصينية ودراستها، وليس إطلاقاً التطفل عليها، بل يسعون حقاً إلى معرفة أنفسهم وتغييرها.

ويجب على الصينيين أيضاً معرفة أنفسهم وتغييرها. ولكن معرفة الذات تتطلب –في

المقام الأول- إدراك الذات، وتغيير الذات يحتاج -أولا- التمكن من الذات. ويمكن أن نقول:

(1) **إن الصينيين لم يفهموا أنفسهم حقاً.** لقد ظل اهتمام الناس يتركز منذ ردح طويل على الصراع الطبقي ومسألة البناء الاقتصادي، وأغفلوا دراسة التقاليد الثقافية التاريخية، بل الأدهى من ذلك أنهم تبنوا أسلوباً «يساري التفكير» تجاه الثقافة التقليدية، واعتبروا التقاليد الرائعة من نفايات الإقطاع أو ثقافة رجعية يجب نبذها ودحضها. ولذلك، عندما اندلعت شرارة «الثورة الثقافية الكبرى» تم إقصاء والتخلص من العديد من كنوز الثقافة القومية التي شكلت أخلاق الأمة الصينية منذ أمد بعيد، ووصفت تلك الكنوز آنذاك بأنها من «الأشياء الأربعة القديمة». وعانى نشر الثقافة الصينية وتقييمها من الفراغ لحين من الزمن. وتخلو أذهان الناس من «الثقافة»، ولا يعرفون ماهية الأخلاق والآداب. وفي الوقت الحاضر، وعلى الرغم من أن الناس يتشدقون بمناقشة الثقافة القومية. ويسود اتجاه بين جيل الشباب مفاده «ازدراء القديم والسخرية من الحاضر» و«تعظيم الأجانب وتملقهم» بسبب أن هؤلاء الشباب يعرفون قليلاً أو يجهلون كل الجهل معارف الثقافة القومية في الصين. وشهدت السنوات الأخيرة تدني المزايا الكلية للأمة الصينية، ووهنت قبضة القيود الأخلاقية، ويفتقر المجتمع إلى آداب المبادئ والسلوك، والعلاقات بين الأفراد يعوزها الاحترام والثقة. والأدهى من ذلك، أن بعض الناس يعتبرون الضلال بمثابة الطريق الصحيح، ولا يميزون بين العزة أو الذل، ولا يفرقون بين الخير والشر، ويتجاسرون على ارتكاب الآثام، بالإضافة إلى التبجح بلا حياء. ويعتبر ذلك في حد ذاته بمثابة الأسباب التي جعلت الكثيرين لا يفهمون التقاليد الثقافية للأمة الصينية.

(2) **مازالت معرفة الذات لدى الصينيين صعبة.** التاريخ الصيني ضارب جذوره في الأعماق، ويجابه الصينيون صعوبة كبيرة في معرفة الذات. وخمسة آلاف سنة من الأنواء والأمطار شكلت الصينيين، فهل يعتبر ذلك نقيصة أم محمدة؟ وهل يحافظ الصينيون على القديم أم يخلقون الجديد؟ وهل يسود التسامح المتبادل بين الصينيين أم يغرقون في حروب أهلية متواصلة؟ ومن الصعب أن ندرك ذلك بوضوح، ومن الصعب أيضاً أن تدعي أنك فهمت ذلك. ومنذ عدة سنوات خلت، ألف الكاتب التايواني بويانغ كتاباً بعنوان «قبائح الصينيين» وصف فيه الثقافة الصينية بأنها «ثقافة مُرطبان صلصة الصويا»، مما أثار ضجة عنيفة على

جانبي المضيق بين مادحين وقادحين. وفي الواقع، أنه وصف جانباً فقط من الثقافة الصينية بغرض إثارة انتباه الصينيين. وإذا استطعنا تشريح الصينيين تاريخياً، وتحليل ذواتهم تحليلاً كاملاً ومعرفة مكانتهم وإسهاماتهم التاريخية في العالم بصورة حقيقية، فإننا يمكن أن نكتب كتاباً عنوانه «الصينيون العظماء!» ومعرفة ذات الصينيين هي في الحقيقة معرفة مميزاتهم ونقائصهم بصورة واضحة وجلية، ولا يشعرون بالنظرة الفوقية وازدراء الآخرين لأنهم يتحلون بالعظمة، ولا يفقدون الثقة بأنفسهم لأن لديهم قبائح. ومن المستحيل تحقيق هذه المعرفة إذا لم تتوافر المعرفة الكافية بالذات.

(3) لا يزال الصينيون لا يستطيعون الثقة بأنفسهم بصورة جيدة. والسبب في ذلك أنهم يفتقرون إلى الإدراك الكافي والمعرفة بأنفسهم. والعزلة عن العالم الخارجي طويلة الأمد جعلت الأباطرة والأمراء والحاشية والشعب يشعرون بأنهم مركز العالم، واعتقدوا أن «الإمبراطور ابن السماء» هو الأول في العالم، ونشأت بين جوانحهم حالة نفسية من الجهل والغرور والصلف، حطمتها الثقافة الغربية في وقت قصير جداً. وقاد ذلك إلى نشوء حالة نفسية أخرى من عبادة الأجانب داخل أعماق بعض الناس. وتختل موازين تلك الأحوال النفسية في التاريخ الصيني الحديث. وفي الوقت الحاضر، يضطلع الصينيون بسياسة الانفتاح على العالم الخارجي، ولذا تعرضت التقاليد الثقافية لضربة قاصمة من الثقافة الأجنبية مرة أخرى. وفيما يبدو أن هذه الضربة أفقدت الصينيين القدرة على ضبط النفس. وظهر أناس يؤيدون من جديد الكونفوشيوسية، كما ظهر آخرون يؤيدون الفرنجة الكاملة، وتفاقمت في المجتمع سيكولوجية تعظيم الأجانب وتملقهم إلى درجة لا يمكن التغاضي عنها. ويوضح ذلك أن الصينيين ليس في وسعهم التمكن من أنفسهم. ومن ثم، معرفة الذات معرفة صحيحة تعتبر مهمة ملحة. وشهدت السنوات القليلة الماضية اهتماماً بالثقافة الصينية على نطاق واسع، وصدرت مطبوعات وكتب عديدة ومتنوعة في هذا الصدد، وأدخلت المعاهد العليا مقررات الثقافة الصينية تباعاً، مما يجعل المرء يشعر بالغبطة.

المبحث الثالث

الخصائص القومية للثقافة الصينية

الثقافة –مثل البشر– تتحلى بنوعين من الخصائص الخارجية والداخلية، وتتجسد الخصائص الخارجية في مظهرها؛ أي في شكلها، أما الخصائص الداخلية فتظهر في طباعها؛ أي في فكرها. واشتجرت آراء الباحثين في داخل الصين وخارجها حول هذين الجانبين. وعلى الجملة، تتجلى خصائص الثقافة الخارجية في جوانب أربعة:

(1) وحدة الثقافة. إن «الثقافة الصينية في مراحل تطورها على ضفاف الأنهار شكلت مركزاً يتمحور على الثقافة الصينية، وفي الوقت نفسه، شكلت وحدة ثقافية لجميع القوميات داخل الصين. واضطلعت هذه الوحدة بعملية التذويب والصهر القوية، ولم تعرف الانشقاق أو أفل نجمها في أي لحظة في التاريخ الصيني، ولا تزال تستطيع الحفاظ على كمالها واتحادها تحت وطأة اللحظات الحاسمة للأزمات التي تعيشها البلاد من اضطرابات داخلية، وغزو أجنبي، وقلاقل سياسية وتمزق البلاد من الداخل. وهذه الخاصية من الصعب أن نعثر عليها في ثقافة أي قومية أخرى في العالم». (انظر: كتاب «لمحة عامة عن الثقافة الصينية»)

(2) التواصل الثقافي: لم تشهد الثقافة الصينية التوقف والانقطاع في تاريخ تطورها؛ حيث تطورت بصورة مطردة في حلقات متصلة، وتختلف عن الثقافات في مصر وبابل واليونان التي شهدت في تطورها التوقف والفراغ، وحدوث فواصل زمنية أو قفزات وثابة. ونلقي نظرة على الأدب الصيني نجده يتطور دائماً منذ كتاب «الشعر الصيني القديم» في أوائل أسرة تشو في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ونثر ما قبل أسرة تشين (221 ق.م 203 ق.م)، والمقامات الشعرية في أسرتي هان، ووي Wei (220 – 256) إلى أشعار أسرة تانغ، والشعر الصيني «تسي» في أسرة سونغ Song (960– 1279)، والأوبرا الصينية القديمة يوانتشيوي، والروايات في أسرتي مينغ وتشنغ. كما تطور علم التاريخ على هذا المنوال.

(3) القدرة على الاستيعاب: تستطيع الثقافة الصينية أن تضم أخلاطاً من الأفكار والمعلومات. ولا يشر ذلك قط إلى مختلف المدارس الفكرية في الصين القديمة التي تعلمت من خلال المجادلات نقاط القوة من الآخرين لسد ثغرات ضعفها وتحقيق الانسجام المتبادل، بل

ويشير أيضاً إلى قدرة ثقافة قومية هان –أكبر قوميات الصين– على استيعاب ثقافات الأقليات القومية المحيطة بها منذ ردح طويل، ناهيك عن الإشارة إلى رحابة صدر الثقافة في الصين واحتضانها الثقافة الأجنبية وتمثلها عن طريق تشجيع الصالح ونبذ الطالح مثل تصيين الديانة البوذية. ولكن هذه القدرة على الاستيعاب ضعفت في أواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشنغ. ولكن خصيصة الثقافة الصينية تكمن في قدرتها على الاستيعاب حتى أصبحت ثقافة كبرى. (انظر: تشانغ داي نيان «مدخل إلى الثقافة الصينية»)

(4) **التنوع الثقافي:** على الرغم من أن الثقافة الصينية تمثل وحدة كاملة، ولكن نظراً لمساحتها الشاسعة المترامية الأطراف وتعدد القوميات، فإن ثقافة المناطق الداخلية وثقافة القوميات تظهر الاختلاف الثري متعدد الألوان. وتشكلت في التاريخ الصيني ثقافة أسرة تشو، وثقافة أسرة جين Jin (265– 420)، وثقافة أسرة تشين (221 ق.م– 207 ق.م)، وثقافة أسرتي يان وتشاو، وثقافة أسرتي تشي ولو، وثقافة أسرتي وو ويوه، وثقافة أسرتي باو وشو، بالإضافة إلى ثقافة منغوليا، وثقافة قومية مياو، وثقافة التبت، والثقافة الإسلامية في بعض المناطق. وجسدت كل تلك الثقافات خصائصها المميزة المتفردة وإشراقاتها الرائعة. وكثرت الأحاديث والأقاويل عن الخصائص الداخلية للثقافة الصينية، ومن الصعب إجمالها وتلخيصها. ونقول بصفة عامة، هناك نظرية «الخصائص الفلسفية» التي قدمها فينج يو لان، حيث كان يعتقد أن الثقافة الصينية تتمتع بالخصائص الفلسفية وتتمحور عناصرها الرئيسية على المذهب الكونفوشيوسي الذي أثرى حكمة الحياة وشكل ملامح السيكولوجية المميزة للأمة الصينية، ورسم صورة المزارعين التقليديين وجسد الطبيعة الخاصة للمثقفين في الصين. كما قدم رين جي يوي «نظرية الخصائص الدينية» انطلاقاً من اعتقاده أن الثقافة الصينية انصهرت في بوتقة الأديان الثلاثة الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية، حيث تتسم خصائص المذهب الكونفوشيوسي والفلسفة المثالية الكونفوشيوسية في أسرتي سونغ ومنغ بالطابع الديني. واندماج التيار الفكري لتلك الديانات الثلاث شكل التاريخ الديني والتاريخ الأيديولوجي من ما بعد أسرتي منغ وتشنغ إلى حوالي ألف سنة تقريباً من حرب الأفيون عام 1840. وهناك أيضاً «نظرية خصائص علم الجمال» التي طرحها الباحث لي تسه خو الذي يرى أن تقاليد الثقافة الصينية تتبوأ المكانة الرئيسية من البداية حتى النهاية في الفلسفة

السياسية والاجتماعية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجالات الأربعة التي تستخدم الثقافة وهي الزراعة والطب والفن والعسكرية، وتسعى فلسفتها إلى الشعور بالجمال والتفاؤل وليس الشعور بالشقاء والإثم. وهناك نظرية رابعة مفادها «نظرية الخصائص الأخلاقية» التي قدمها ليانغ شو منغ الذي يرى أن الثقافة الصينية قائمة على أساس علاقة مدارات المجتمع، وتهتم اهتماماً شديداً بالعطف الأبوي وبر الوالدين، والاحترام بين الأخوة والأشقاء والأصدقاء، وإخلاص الحكام والحكماء والوزراء وغيرهم. كما تسعى وراء المساعدة الجماعية المتبادلة وتختلف عن مايشهده العالم الغربي من «الأنانية الفردية» و«التمركز الذاتي» اختلافاً كبيراً، وتتسم هذه النظريات الأربع بالأهمية وترتبط ارتباطاً كبيراً بالدراسة التي تهتم بالفرد. وظهرت في السنوات الأخيرة أيضاً بعض الاستنتاجات التي ذكرت أن الثقافة الصينية تتحلى بالخصائص الآتية:

أولاً: تجسد الثقافة الصينية الفكر الإنساني بجلاء، وتختلف عن الثقافة الغربية التي تعتمد على الاستبداد بالرأي في اللاهوت. وعلى الرغم من أن الصين يوجد بها أديان أيضاً، ولكنها لم تتغلغل في كافة مناحي الحياة اليومية المعتادة. وعلى النقيض من ذلك، تمثل المبادئ الأخلاقية لنظام المشيخة العشائرية الرابطة الأساسية لصيانة المجتمع بأسره في حياة الصينيين. ومنذ زمن بعيد ومعيار سلوك الصينيين ليس الامتثال والانصياع لإرادة الإله، بل الانسجام مع المعايير الأخلاقية التي تشجعها الكونفوشيوسية. ويوجد في الفكر الصيني مفهوم «السماء»، وكان الأباطرة يقدمون القرابين للسماء عبر مراحل التاريخ المختلفة، ولكن -من حيث الجوهر- فإن المقصود بالسماء هنا الطبيعة. وما يطلق عليه الناس «القانون الطبيعي» هو في الحقيقة يعتبر بمثابة النظام الأخلاقي في المحتمع الإنساني.

ثانياً: تهتم الثقافة الصينية بالتناغم الاجتماعي ومبدأ الوسط، وتختلف عن الثقافة الغربية التي تؤكد على الاختلافات والمجابهة، وتؤيد «تماثل الأفكار المتعددة في العالم، والطرق تتلاقى» (انظر كتاب «التغيرات»)، و«تشجع الاستقبال الثنائي والاندماج، والتنوع والوحدة بين المذاهب المختلفة، والأنواع المتباينة، والتأثير المتبادل بين ثقافات وأفكار الأمم المختلفة، وذلك في نطاق الأفكار الرئيسية». (انظر: تشانغ داي نيان «مدخل إلى ثقافة الصين»). وتدعو الفلسفة التقليدية الصينية إلى «الانسجام بين الأشياء المختلفة» الذي يعني أن جميع

الأشياء ذات الطبيعة المختلفة يمكن أن تندمج في تناغم حتى يمكن إنتاج أشياء جديدة. وتعتقد أن «طريق الوسط» في الصين القديمة هو «الأساس الوحيد في العالم» و«الحجة الكبرى في العالم»، وأن جميع الموجودات في الكون والمجتمع الإنساني إذا لم تنحرف عن خطها المستقيم، وإذا التزم الجميع بمكانه في هدوء ودعة، فإنه يمكن تحقيق «الوفاق» المثالي، وهو في حد ذاته يعتبر الوضع الأفضل للحياة والمجتمع.

ثالثاً: تزخر الثقافة الصينية بمشاعر التعلق بالأرض والفرح والطرب، وتختلف عن الثقافة الغربية التي تسعى وراء المخاطر والإثارة والتحفيز. والصين القديمة كانت –دائماً– بمثابة مجتمع الاقتصاد الطبيعي الذي يرتكز على الزراعة، والناس يتعلقون بالأرض ويعشقونها ويسعدون بها، واعتبروا الأرض حياتهم ومصدر ثقتهم واعتمادهم، ولذلك يعيشون حياة يومية منتظمة ومستقرة، ويحرثون الأرض ويزرعونها، ويتطلعون إلى السلام والوئام في العالم، ويحققون الاكتفاء الذاتي من الطعام والملبس، ويحلمون بـ«جنة عدن» إذا اندلعت الحروب والقلاقل. وتولد عن سيكولوجية التعلق بالأرض والبهجة الطروب مشاعر عميقة من التعصب للقرية والبلدة. وكل الذين نزحوا من قراهم وبلداتهم يتوقون جميعاً إلى مسقط رأسهم، ويتذكرون الماضي، ويبحثون عن جذور العائلة والسؤال عن أجدادهم. وفي الواقع، يختلف ذلك عن الثقافة الغربية اختلافاً كبيراً.

المبحث الرابع

مستقبل الثقافة في الصين

في الوقت الحاضر، تشهد الثقافة الصينية مرحلة تغيرات عميقة وتطورات ضخمة. ومنذ أن انتهجت الصين سياسة الإصلاح والانفتاح على العالم الخارجي، تسللت إليها تأثير ثقافات كافة الدول في العالم، ولاسيما تأثير ثقافة الدول الغربية (ويشمل ذلك الجوانب الإيجابية والسلبية)، وتسارعت وتيرة العمل والحياة في داخل الصين، مما جعل الناس يغيرون بصورة مطردة أسلوب الحياة، وخاصة بعد إقامة اقتصاد السوق في السنوات الأخيرة، طرأ تغير لم يسبق له مثيل على أزياء الناس وطعامهم ومسكنهم وسلوكهم قلباً وقالباً وشكلاً ومضموناً، كما اختلفت الأفكار والاهتمامات والمبادئ الأخلاقية ووجهة النظر إلى القيم اختلافاً كبيراً عن التقاليد القديمة لدى الصينيين. وعلى الجملة، أن الثقافة الصينية تجتاز الآن تغييراً هائلاً لم تعرفه منذ فجر التاريخ.

إلى أي مدى تتغير الثقافة الصينية؟ ينتاب البعض مخاوف من فقدان التقاليد ويبذلون قصارى جهدهم للحفاظ عليها عن طريق تغيير المذهب الكونفوشيوسي. ولذا يحاولون تأسيس المدرسة الكونفوشيوسية الجديدة. وهناك ثُلة أخرى تكره التغيير البطيء ومقت الأخذ بخناق التقاليد، ويطالبون بالتخلي عن التقاليد، ويسعون وراء التجديد الشامل وتأييد «الفرنجة الكاملة». وينأى هذان الأسلوبان عن أحوال الصين ولا يمكن تطبيقهما. والنظام في الدولة والحكومة بالصين قائم على أساس الماركسية، أو نقول قائم على توجيهات وإرشادات الماركسية. ويعتبر المذهب الكونفوشيوسي جزءاً رئيسياً في الثقافة القديمة ويختلف كلية عن الأيديولوجية المرشدة في الصين اليوم، ويمكن أن يصبح جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الاشتراكية الجديدة إذا خضع بعض أجزائه وعناصره للتغيير. وفي هذا المقام يتعين علينا الإشارة إلى أن حياة المذهب الكونفوشيوسي كانت قائمة على خدمة مجالات اندثرت بصورة أساسية ويشمل ذلك الاقتصاد الطبيعي لصغار المزارعين، والنظام البيروقراطي الإقطاعي والهيكل الاجتماعي لنظام المشيخة العشائرية. وإعادة بناء المدرسة الكونفوشيوسية وإحيائها يعدان ضرباً من التفكير الذي يتجافي مع الحقيقة. ومن ناحية أخرى، يشكل التاريخ تقاليد أية ثقافة،

وتتمتع العادات بقوة الاستمرار الضخمة حالما يتم تشكيلها. والصينيون لا يمكن أن يختاروا التقاليد، كما لا يمكنهم التخلي عنها أيضاً، ولكن في وسعهم البحث عن التطور والتقدم والسعي وراء التجديد والتغيير بلا انقطاع في ظل قيود التقاليد.

والفيلسوف الصيني المعاصر تشانغ داي نيان لا يدخر وسعاً في إحداث «التغيير الشامل» في الثقافة الصينية، ويمكن إجمال أفكاره الأساسية في النقاط التالية:

(1) تحقيق الوحدة الشاملة بين حقيقة ذيوع الماركسية والتقاليد الرائعة للثقافة الصينية. وفي عبارة أخرى، تحليل تقاليد الثقافة الصينية، ونبذ القشور واستبقاء الجوهر، ودحض الزائف واستبقاء الحقيقي عن طريق الديالكتيكية المادية الماركسية. وحقيقة انتشار الماركسية تعتبر بمثابة المرشد والموجه، كما تعد تجسيداً للتقاليد الرائعة للثقافة الصينية.

(2) تحقيق الاندماج الشامل بين تقاليد الثقافة الصينية الرائعة، والإنجازات التقدمية التي أحرزتها الثقافة الغربية الحديثة، ويعني ذلك نقد اتجاه وراثة الأشياء التي تستحق الإرث في الثقافتين.

(3) فيما يتعلق بالتقاليد الثقافية في الصين، يجب الاهتمام أيضاً بالتآلف بين المدارس الكونفوشيوسية والطاوية والموهية والشرائعية؛ حيث المدرسة الكونفوشيوسية التي تتمحور على الفكرة القيمة «الوفاق»، وروح النقد لدى الطاويين، وتهتم المدرسة الموهية بأسلوب دراسة العلوم الطبيعية والمنطق الشكلي، ويتمسك الشرائعيون بـ«قوة» تأثير وجهة نظرهم القائلة بسيادة القانون وتوطيده في البلاد. ونعتقد أنه بموجب إشراق فكرة «التجديد الشامل»، وما دام الصينيون لا يتمسكون بالقديم، ولا يشعرون بالرضا الذاتي الأعمى، ولا يدحضون العناصر الرائعة في الثقافة الأجنبية، ولا يقومون بتعظيم الأجانب وتملقهم، ويفقدون ذواتهم، ويقلدون الآخرين تقليداً أعمى، فإنهم قادرون على تحليل عناصر الثقافة الصينية بأسلوب واقعي ومعرفة إسهاماتها وتأثيرها في التاريخ، ووراثة واستيعاب جميع الأشياء المفيدة في الثقافة القديمة، ناهيك عن اقتباس واستيعاب كافة الإنجازات الرائعة في الثقافة الأجنبية، وتأسيس ثقافة جديدة للاشتراكية تتسم طبيعتها وهيكلها ووظيفتها بالتجديد الكامل. وهذا كله يمكن إنجازه بصورة كاملة.

الفصل الثاني

جغرافية الصين

ترتبط نشأة ثقافة أي قومية وتطورها ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية التي تحتضن هذه الثقافة. والبيئة الطبيعية في المناطق المختلفة تنجب ثقافات متباينة. ومنذ العصور الغابرة نشأت الثقافة الصينية في التربة الخصبة الثرية في شرق آسيا، ومن ثم تشكلت خصائص الثقافة الصينية التي تتباين عن الثقافات الأوروبية والأمريكية والعربية. ويعرف الجميع هذه الحقيقة التي تنأى عن الشك والارتياب. وتتجسد خصائص بيئة الثقافة الصينية في النقاط الثلاث الآتية:

(1) قدمت الأراضي الفسيحة والفضاء الرحب مساحة عريضة تسمح بالمناورة وإطلاق العنان لبقاء الأمة الصينية وتطورها واضطلاعها بالإبداع والابتكار. وتقع الصين في شرق آسيا، وتطل على المحيط الهادئ المترامي الأطراف في الجنوب الشرقي، وتشرف على قلب قارة أوروبا في الغرب والجنوب الغربي والشمال الغربي. وقد وصف الصينيون الأولون ذلك في سجلاتهم ووثائقهم منذ زمن بعيد. وعاشت الأمة الصينية وتكاثرت في تلك المنطقة الشاسعة، وتمتعت بنطاق حيوي فسيح الأرجاء من أجل إبداع ثقافتها الخاصة واستقراء تاريخها الخاص. وإذا نظرنا إلى المركز السياسي في الصين عبر العصور، نجد أنه انتقل إلى منطقة حوض النهر الأصفر في أسرتي شانغ وتشو (القرن 16 ق.م– 221 ق.م)، وإلى مدينتي تشانغآن ولوايانغ في الفترة التاريخية لأسرتي هان وتانغ (206 ق.م– 907)، كما شهدت تلك الفترة تأسيس مدينة نانكين في جنوب نهر اليانجتسي. وبعد أن تولت أسرتا تانغ وسونغ مقاليد الحكم، جعلتا بكين وهانتشو عاصمة للبلاد تباعاً. ثم باتت بكين مركز الصين في أسرتي منغ وتشنغ (1368– 1911). ويوضح ذلك بجلاء أن نطاق نشاط الأمة الصينية كان عريضاً وفسيحاً، وإبداع ثقافتها لم يكن في حاجة إلى الاستعانة بأراضي الآخرين. ويعد ذلك السبب الرئيسي الذي جعل خلق الثقافة الصينية يتحلى بالاستقلالية منذ فجر التاريخ، وكُتب لها الخلود ولم تندثر، كما يعتبر بمثابة العامل البيئي الذي جعل الثقافة الصينية تتسم بخاصيتي العزلة ونزعة المحافظة.

(2) قدمت التضاريس المعقدة والمناخ المتنوع أحوال التطور الملائمة للثقافة الصينية ذات المضمون الثري والخصائص المتنوعة المتعددة. وتضاريس الصين مرتفعة في الغرب، ومنخفضة في الشرق، وفرق الانحدار كبير جداً.. وتمتد السلاسل الجبلية -بسبب التضاريس- من الشرق إلى الغرب، وتنبع معظم الأنهار من الغرب وتصب في الشرق. وتحتل الهضاب والتلال ثلثي مساحة الصين، أما الأحواض والسهول فتمثل ثلث المساحة تقريباً. ويوجد في الصين أربع هضاب كبرى هي: هضبة تشينغهاي- التبت، هضبة منغوليا الداخلية، هضبة التراب الأصفر وهضبة يونان- قويتشو، وتتمركز جميعها في الجزء الغربي والشمالي، ومن بينها هضبة تشينغهاي- التبت التي يصل ارتفاعها فوق سطح البحر إلى حوالي 4500 متر، ولذا يطلق عليها «سقف العالم»، ومن هنا تنبع بعض أنهار الصين الرئيسية مثل: النهر الأصفر، نهر اليانجتسي، نهر لانتسانغ. وتنتشر الأحواض في المنطقة الجبلية الواقعة في شرق هضبة تشينغهاي -التبت، وتضم أحواض: تاريم، تشوفقار، تشاي، دامو، وسيتشوان، ويطلق عليها «الأحواض الأربعة الكبرى». أما التلال والسهول تنتشر في الشرق، ومن بينها أربعة سهول هي: سهل شمال الصين الشرقي، وسهل شمال الصين، وسهل نهر اليانجتسي الأوسط والأسفل، وسهل دلتا نهر اللؤلؤ، وتُعرف بـ«السهول الأربعة الكبرى». ويقع الجزء الأكبر من أراضي الصين في المنطقة الدافئة الشمالية، ولذلك يسودها المناخ الموسمي بوضوح، وتتغير اتجاه الريح بصورة جلية في موسمي الصيف والشتاء، ناهيك عن تأثر الأراضي الداخلية فسيحة الأرجاء بالمناخ القاري بصورة كبيرة نسبياً. إن الطبوغرافيا والتضاريس المعقدة وتنوع المناخ أثرت تأثيراً كبيراً على لباس الناس وغذاؤهم ومسكنهم وسلوكهم، حيث لا يمكن إغفال هذه الأحوال في تحديد طريقة إنتاجهم وأسلوب حياتهم.

(3) أثرت المناظر الطبيعية الخلابة المنتشرة في كافة أنحاء البلاد تأثيراً عميقاً في السيكولوجية الثقافية والشعور بالجمال لدى الأمة الصينية، فالصين تتمتع بأرض واسعة شاسعة، وتكثر وتتنوع فيها الجبال والأنهار؛ فالجبال سامقة باسقة تتبارى قممها في إظهار الحُسن والجمال، وتتقاطع الأنهار والبحيرات أفقياً وطولياً، والأنهار مرجعها البحر، مما شكّل بيئة جبال وأنهار تتحلى بالشعور العميق والتسامح الرائع. ومعظم أسماء الأماكن في الصين انبثقت من أسماء الجبال والأنهار التي تطل عليها أو تقترب منها، مما جسد أعماق سيكولوجية الأمة الصينية التي تعتمد على الجبال

والأنهار. كما أُطلق على التراب الوطني والسلطة السياسية أسماء الجبال والأنهار، وعكس ذلك المشاعر الخاصة للأمة الصينية من دمج «الإنسان والطبيعة» في وحدة عضوية واحدة، ولاسيما ازدهار «أشعار الجبال والأنهار» و«رسومات المناظر الطبيعية» عبر العصور، وظلت باقية لا يأفل نجمها، مما أبرز بشكل أكبر الروح القومية الخالدة التي تنبض بقوة وحيوية في البيئة الطبيعية. ولذلك أظهرت الكلمات التي تصف الجبال والأنهار ولع الصينيين الشديد بالبيئة الطبيعية، والشعور بالجمال الذي استمدوه منها كان وفيراً وزاخراً.

المبحث الأول

النهر الأصفر ونهر اليانجتسي والحضارة الصينية

النهر الأصفر ونهر اليانجتسي هما أطول أنهار الصين، ويجريان من الغرب إلى الشرق، وقسّما أراضي الصين، من الجنوب إلى الشمال، إلى ثلاث مناطق طبيعية، وأدى ذلك إلى تكوين تضاريس طبيعية وأحوال مناخية مختلفة وتقديم الغذاء الأكثر وفرة من أجل حياة الأمة الصينية وتطورها. وإذا قلنا إن البشرية لا يمكن أن تبقى وتنمو بدون ماء، إذن، لا غنى للأمة الصينية عن النهر الأصفر ونهر اليانجتسي في حياتها وتطورها. وإذا لم يوجد النهر الأصفر ونهر اليانجتسي، فربما لا يوجد الشعب الصيني الذي يمثل أبناء الإمبراطور الأصفر، ولذا أطلق الصينيون عليهما «النهر الأم»، ولا يبالغون في ذلك إطلاقاً.

وعلى الرغم من أن طول النهر الأصفر أقل من نهر اليانجتسي، وهو ثاني أطول نهر في الصين، ولكنه الأكثر استحواذا على اهتمام الناس لارتباطه بنشأة الحضارة الصينية وتطورها، وهناك فكرة تتوسد أذهان الأمة الصينية مفادها أن: «النهر الأصفر مهد الحضارة الصينية القديمة». ويبلغ طول النهر الأصفر 4464 كيلو متراً، ومساحة حوض النهر 750 ألف كيلو متر مربع، وينبع من جبال بايانكارا حيث يبدأ مجرى النهر. وتتجمع مياه الثلوج بعد ذوبانها مع مياه الأمطار في بحيرتين هما: تشالنج وألينج، ثم يتغير مجرى النهر فوق هضبة تشينغهاي حتى يصل إلى مدينة لانتشو ويتخذ شكل قوس، ويخترق هضبة التراب الأصفر في مقاطعتي شنشي وشانشي، ويجرف التيار جزءاً كبيراً من التربة، ويدفع كمية كبيرة من الطمي، ولذا تبدو مياه النهر صفراء وأطلق عليه «النهر الأصفر». وبعد أن يجتاز النهر مدينة مينغ جين ويتغلغل في الهضبة، تترسب كميات الطمي في قاع النهر وتجعل ارتفاعه يتراوح من 4–5 أمتار، ويصل إلى عشرة أمتار في بعض الأماكن، واشتهر في العالم بـ«النهر فوق سطح الأرض»، ومن ثم سبب فيضانات عبر مراحل التاريخ. وتفيد الإحصائيات غير الكاملة أنه في أكثر من ألفي سنة خلت، أحدث النهر الأصفر تصدعات في السدود على التوالي وفاضت مياهه أكثر من ألف وخمسمائة مرة. وعلى الرغم من أن فيضانات النهر الأصفر متكررة في التاريخ، ولكن كانت مياهه بمثابة الغذاء المقوي للأمة الصينية وارتوت منه الحضارة الصينية.

وكما ذكرنا آنفاً، فإن وادي النهر الأصفر كان أول موطن للأجداد الصينيين في العصور الغابرة. وحتى يومنا هذا، تم اكتشاف أكبر كمية من الإرث الثقافي للعصر الحجري الحديث في مناطق اتسمت بالتركيز النسبي في كل من الحوض الأوسط والحوض الأسفل في النهر الأصفر وهضبة التراب الأصفر. وثقافة العصر الحجري الحديث في الحوض الأوسط في هذا النهر تركزت في مناطق قوانغتشو وجينان ويوشي. أما مركز هذه الثقافة في الحوض الأسفل في هذا النهر كان في تاي شان. وكانت المياه والتربة في تلك الأراضي الواسعة آنذاك مواتية للزراعة، وجمع الأجداد الأولون حبوباً برية وقاموا بزراعتها وتدجينها حتى أصبحت حضارة زراعية متطورة. وذكر كتاب «الشعر الصيني القديم» نيفاً ومائة نوع من النباتات البرية. وتأسست في وادي النهر الأصفر خمس عواصم من أصل «سبع عواصم كبرى» عرفتها الصين. وذلك بسبب الاقتصاد الزراعي المتطور وتأسيس مراكز سياسية في العصور التاريخية. والسبب الرئيسي يكمن في أن النهر الأصفر وفروعه المتعددة قدمت للأجداد الذين تمركزوا فيه في العصر القديم تسهيلات كثيرة في الري والنقل النهري، كما شكلت وديان جبلية وأحواض في مناطق مجرى النهر، ناهيك عن المناخ المعتدل وحرية التنقل، مما جعل تلك المناطق بمنزلة الموطن المثالي لجذب الناس. وكانت النشأة الأولى لثقافة وادي النهر الأصفر ونضجها في ظل تلك الأحوال، ولذا أصبح النهر الأصفر أقدم مهد للثقافة الصينية.

ونهر اليانجتسي هو أطول أنهار الصين، ينبع من جبال تانغقولا في جنوب غربي مقاطعة تشينغهاي، ويبلغ طوله أكثر من 6300 كيلو متر، ويمر بإحدى عشرة مقاطعة ومدينة ومنطقة حكم ذاتي هي: تشينغهاي، التبت، سيتشوان، يونان، توشنغ تشينغ، خوبي، خونان، جيانغشي، آنهري، جيانغصو، شانغهاي. وتبلغ مساحة حوض النهر أكثر من 180 كيلو متراً مربعاً. وفروع نهر اليانجتسي متعددة وكثيرة وتنتشر على طول مجرى النهر، وشبكة مياه الأنهار ضخمة. ويبلغ فرق الانحدار من منبع النهر إلى مصبه في البحر أكثر من 6600 متر، ويختزن ثروة مائية تمثل أكثر من40٪ من الموارد المائية في الصين، ويحتل المقام الأول في البلاد من حيث مساحة الأراضي التي يرويها، والسكان الذين يشربون ماءه، كما يتبوأ المركز الأول في طول مسافة الملاحة النهرية. ومن أجل تنمية الثروات المائية الغزيرة في وادي النهر، تم تشييد أكثر من عشرين محطة هيدروليكية كبيرة ومتوسطة، بالإضافة إلى تدشين العمل في

مشروع الري العملاق «المضايق الثلاثة» الذي جذب أنظار العالم من كل صوب وحدب، وسوف يضطلع بتحسين أحوال تخزين المياه على ضفتي النهر فور الانتهاء من تشييده، مما يعزز حصاد الإنتاج الزراعي الضخم.

وقال الشاعر دو فو Du Fu (712– 770) في أسرة تانغ: «نسمع حفيف أوراق الأشجار في الغابة الفسيحة، وتتدفق مياه نهر اليانجتسي بلا انقطاع». ونهر اليانجتسي يشبه حزاماً من اليشم الأزرق الذي يلفت الأنظار ويلتف حول خصر الأراضي الصينية، وحياته الخالدة جعلته بمنزلة المنطقة الثانية التي تغذي الحضارة الصينية. ففي المقام الأول، الإرث الثقافي في العصر الحجري الحديث الذي اكتشف في حوض نهر اليانجتسي يحتل المرتبة الثانية بعد منطقة وادي النهر الأصفر، ويتركز بصورة أساسية في منطقة تشوان ديان، والحوض الأوسط في نهر هان وسهول صووان. ويتركز الحوض الأسفل لنهر اليانجتسي في سهول تايهو، والحوض الأوسط في سهول جيانغهان. ثانياً: في منطقة الحوض الأوسط والأسفل تطورت ثقافة زراعة الأرز التي كانت رمزاً لهذه المنطقة في ضوء الخلفية التاريخية لانتقال مركز الثقافة الصينية إلى الجنوب تدريجياً. ونظراً لاعتدال المناخ، وزيادة كمية الأمطار المتساقطة وتسهيلات النقل النهري، نشأت أيضاً ثقافة التجارة المتطورة (مثل تجارة النقل النهري)، وثقافة الفنون اليدوية الحريرية (مثل الخزف الصيني، الحرير، كنوز المكتب الأربعة: الريشة، سبكة الحبر، المحبرة، الورق) وثقافة البستنة (مثل زراعة وتربية الأزهار) وثقافة الحدائق (مثل الحدائق الخاصة في جنوب حوض نهر اليانجتسي). وعقد مقارنة بين تلك الثقافات والثقافة التي نشأت بجلاء في وادي النهر الأصفر، يبرز للعيان الخصائص الثرية والمتنوعة التي تتحلى بها الثقافة الصينية.

المبحث الثاني
حدود الصين عبر عصور التاريخ

تقع الصين في شرق قارة آسيا، وتبلغ مساحتها 9,6 مليون كيلو متر مربع، بما يعادل 15٪ من إجمالي مساحة اليابسة في العالم، وتساوي حجم قارة أوروبا. وفي أقصى الشرق تلتقي مقاطعة هيلونغجيان ونهر أوسولي، وتتوغل الصين في أعماق آسيا غرباً، والفرق الزمني بين الشرق والغرب يزيد عن أربع ساعات، وتقع جزر نانشا في قلب بحر الصين الجنوبي في أقصى الجنوب، ومن أقصى الشمال حتى الشمال الشرقي يمتد نهر هيلونغ في محافظة موخه، وتبلغ المسافة بين الجنوب والشمال حوالي 5500 كيلو متر. ويفيد المسح الحقيقي في عام 1986 أن إجمالي مساحة أراضي الصين الجديدة تبلغ 1،045،000 كيلو متر مربع.

وشهد تكوين خريطة الصين الواسعة عملية تطوير. وأسرة تشين Qin (221 ق.م- 207ق.م) التي وحدت الصين للمرة الأولى وضعت إرهاصات خريطة الصين. وقبل هذه الأسرة، وفي فترة شيا وشانغ (القرن 21 ق.م تقريباً -القرن 16 ق.م تقريباً) كانت مناطق الصين التي توحدت تتواجد في الحوض الأوسط والحوض الأسفل في النهر الأصفر، حيث كانت حدود مقاطعات شانشي وخنان وشنشي مركزاً لتلك المناطق بصفة خاصة. وفي أوائل أسرة تشو الغربية (القرن 11 ق.م تقريباً- 711 م) عاش الأمراء والحكام الإقطاعيون في تلك المناطق الموحدة آنذاك. وتشمل مقاطعة قانصو في الغرب، وجنوب نهر اليانجتسي في الجنوب، ومقاطعة شاندونغ في الشرق، ومقاطعة لياولينغ في الشمال. وبعد أن شهدت فترة الربيع والخريف (770ق.م-- 476 ق.م)، وعصر الممالك المتحاربة (475 ق.م -221 ق.م) القتال بالسلاح الأبيض وضم الأراضي، تأسست روابط ثقافية بين الممالك حيث وحّد إمبراطور أسرة تشين الصين، وامتدت حدود هذه الأسرة إلى البحر الأعظم في الشرق، ولونغشي في الغرب، وسور الصين العظيم في الشمال، وقوانغشي في الجنوب.

وبعد أسرة تشين، اتسع نطاق خريطة الصين الأصلية بشكل أكبر في أسرتي هان الغربية (206 ق.م- 24م) والشرقية (25م- 220م) اللتين دام حكمهما أكثر من أربعمائة سنة. وعلى الرغم من الحكم الانفصالي وانتشار الاضطرابات وقلاقل الحروب في عصر الممالك الثلاث

(220- 256) والأسر الجنوبية والشمالية (420 -581)، ولكن انتقل السواد الأعظم من المهاجرين إلى الجنوب، مما جعل المناطق الواسعة في جنوب نهر اليانجتسي تحقق تنمية، وانتقل مركز الثقل الاقتصادي للمجتمع الصيني تدريجياً من وادي النهر الأصفر إلى الجنوب. وقامت أسرة سوي (581- 618) بتوحيد الصين في عام 589، حتى ازدهرت الصين ازدهاراً كاملاً في عهد أسرة تانغ (618 م- 907م)، وامتدت حدودها وقتئذ إلى البحر الأعظم شرقاً، وبحر شيان غرباً، ومنطقة جزيرة كويه في شمال مقاطعة هيلونغجيان في الشمال الشرقي، وبحر الصين الجنوبي جنوباً.

وبعد أن منيت انتفاضة المزارعين بالفشل في أواخر أسرة تانغ، ودخل التاريخ الصيني مرحلة الانقسام التي يطلق عليها الأسر الخمس والممالك العشر (907 - 960م). وبعد انتهاء الصراعات والحروب بين أسرتي سونغ الشمالية (960 -1127) ولياو (916- 1125) من جهة، وبين أسرتي سونغ الجنوبية (1127- 1279) وجين (1115- 1234) من جهة أخرى بحلول عام 1279م عندما انتصرت أسرة يوان (1271- 1368) على أسرة سونغ الجنوبية، توحدت الصين مرة أخرى آنذاك وتأسس نظام المقاطعات القائم حتى الآن، وانضم إليه أربع مقاطعات جديدة هي: منغوليا في الشمال، ولياولينغ في الشرق، وقانصو ويونان. كما انضمت التبت إلى خريطة الصين بصورة رسمية في ذلك الحين. وذكرت سجلات تاريخ أسرة يوان هذه الحدود؛ حيث اتسع نطاق خريطة الصين كثيراً عن العصور الماضية.

وتغيرت خريطة الصين كثيراً بعد زوال أسرتي منغ وتشنغ، حيث تعرضت أراضي الصين للتجزئة وتقطيع الأوصال. وأسست أسرة مينغ Ming (1368 - 1644) ثلاثة عشر مركزاً إدارياً لإداره شؤون مقاطعات: شانغدونغ، شانشي، حنان، شنشي، هواقوانغ، سيتشوان، تشجيانغ، جيانغشي، فوجيان، قوانغدونغ، قوانغشي، يونان، وقويتشي، كما أسست مراكز مماثلة تتولى إدارة شؤون حوض نهر هيلو نغجيان ووادي نهر أوسولي. وقبل أسرة تشنغ Qing (1644- 1911) كانت المناطق الواقعة تحت السيطرة تمتد من بحيرة باأركشي في الشمال الغربي إلى بحيرة كويه شمال مقاطعة هيلونغجيان في الشمال الشرقي، وجزيرة تايوان والجزر التابعة لها في الجنوب الشرقي، وكافة الجزر في بحر الصين الجنوبي في جهة الجنوب. وبعد أن تقوضت دعائم أسرة تشنغ، احتلت القوى الكبرى الصين التي باتت تحت رحمتها،

وعجزت عن المقاومة وتعرضت كرامتها للامتهان والذل. وبمقتضى معاهدة «آيهوي» المبرمة بين الصين وروسيا في عام 1858م، احتلت روسيا القيصرية أكثر من عشرة آلاف كيلو متر مربع من الأراضي الصينية الواقعة في جنوب وايشنغ آنلينغ، وفي شمال مقاطعة هيلونغجيان، كما احتلت في عام 1860 زهاء 440 ألف كيلو متر مربع من الأراضي الواقعة في شرق وجنوب بحيرة بأركشي، بالإضافة إلى أنها نهبت -بعد عام 1881- أكثر من 70 ألف كيلو متر مربع من أراضي المنطقة الواقعة في غرب الصين.

كما هيمن المستعمرون البريطانيون والبرتغاليون على هونغ كونغ ومكاو في نفس الفترة. وحسب اتفاقية حل مشكلة هونغ كونغ التي وقعتها الصين وبريطانيا، وفكر الزعيم الصيني دينغ شياو ينغ في إقامة «دولة واحدة ونظامان»، عادت هونغ كونغ إلى أحضان الصين في أول يوليو عام 1997 بعد أن انسلخت عن الأراضي الصينية زهاء مائة عام ونيف. وبالمثل تسلمت الصين مقاليد السلطة في مكاو في20 ديسمبر عام 1999. لقد انتهى عصر هيمنة القوى الكبرى على الصين وفرض سيطرتها عليها ولن يعود أبداً. وتشتمل خريطة الصين اليوم على 23 مقاطعة هي: خبي، شانشي، لياولينغ، جيلين، هيلونغجيان، جيانغسو، تشجيانغ، آنهوي، فوجيان، جيانغشي، شاندونغ، خنان، خوبي، خونان، قوانغدونغ، خينان، سيتشوان، قويتشو، يونان، شنشي، قانصو، تشينغهاي، تايوان، بالإضافة إلى خمس مناطق ذات حكم ذاتي تابعة للأقليات القومية هي: منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم، منطقة تنينغشيا الذاتية الحكم القومية هوي، منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم، منطقة التبت الذاتية الحكم، منطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ، ناهيك عن أربع بلديات مركزية هي: بكين، تيانجين، شانغهاي، تشونغ تشينغ، فضلاً عن منطقة هونغ كونغ الإدارية الخاصة، ومنطقة مكاو الإدارية الخاصة. ويمثل ذلك كله دولة الصين التي تتمتع بأكبر مساحة في قارة آسيا، وتضم أكبر تجمع بشري في العالم، والتنمية الاقتصادية فيها الأكثر قوة وحيوية.

المبحث الثالث

تطوير تحديد المناطق الإدارية القديمة بالصين

تحديد المناطق الإدارية تضطلع به الدولة من أجل تنظيم وتطبيق الإدارة في مناطق الدولة، ويعتبر ذلك إجراء لتسييس معالم الجغرافيا والسكان، وتتمتع الصين بتاريخ عريق في هذا الخصوص. وقد قيل إن الصين كانت مجزأة إلى ولايات في زمن الإمبراطور الأصفر، وأصبحت تضم اثنتي عشرة ولاية في عهد الإمبراطور ياو. وذكرت سجلات قديمة أن تقسيم البلاد إلى ولايات وأقاليم كان حسب الفواصل الطبيعية بين الجبال والأنهار؛ حيث الاندماج بين المناطق الطبيعية المحددة وحدود ممالك الأمراء والحكام، وأصبح ذلك يمثل خريطة الصين السياسية. وعلى الرغم من أن تلك الممالك –قبل أسرة تشين– كانت مقسمة إلى ولايات أو محافظات، ولكن كانت المناطق الإدارية في الصين آنذاك مازالت لا تشكل نظاماً كاملاً.

وتم تطبيق نظام «الولايات والمحافظات» من أسرتي تشين وهان إلى أسرة جين. وبعد أن وحَّد إمبراطور أسرة تشين الصين، قسم البلاد إلى ست وثلاثين ولاية، بالإضافة إلى محافظات تأتي في المرتبة الثانية. ومع تعاظم رقعة خريطة أسرة تشين، زاد عدد الولايات، وأصبحت البلاد تضم أكثر من ألف محافظة. واقتفت أسرة هان أثر نظام نظيرتها تشين، ولكن ظلت البلاد مقسمة إلى ولايات. وما يُطلق عليه «ممالك» يشير إلى إقطاعيات الأمراء والحكام والتي تتفاوت مساحتها. وبسبب أن هؤلاء الحكام والأمراء أعاقوا تنفيذ الأوامر السياسية المركزية، انتهج الإمبراطور هان وو سياسة «التقليص والتطويق» التي تهدف إلى تقليص اقطاعات الأمراء والحكام وإضعاف قوتهم رويداً رويداً، ووطد دعائم تركيز سلطة الدولة المركزية بشكل أكبر، وقسم البلاد إلى ثلاث عشرة منطقة في عام 106 ق.م. وكانت تلك المناطق ليست مناطق إدارية، بل هي مناطق إشراف ومراقبة، وكانت بداية تدشين «المناطق الإدارية» في تاريخ الصين. وفي أواخر أسرة هان الشرقية أصبحت تلك المناطق أكبر من الولاية والمحافظة. وكان هناك ثلاثة أنواع من المناطق الإدارية الحكومية هي: المناطق الإدارية والولايات والمحافظات. واستمر هذا التقسيم الإداري الحكومي للمناطق في أسرتي وي وجين وفي مرحلة الأسر الجنوبية والشمالية بصورة أساسية. ولكن تقطعت أوصال السلطة

السياسية جراء نشوب الحروب بين الشمال والجنوب، ومن ثم تتضاءل نطاق المناطق الإدارية الحكومية وأصبحت مجرد اسم وليست حقيقة. وبعد تأسيس أسرة جين تغير النظام الإداري إلى الولاية (أو المنطقة الإدارية) والمحافظة.

وشهدت الصين من أسرتي تانغ إلى جين تطبيق «نظام المناطق الإدارية» في تقسيم البلاد بصورة أساسية؛ حيث قامت حكومة تانغ بتقسيم البلاد إلى عشرة مناطق إدارية حسب التضاريس الطبيعية من الجبال والأنهار. وفي البداية لم تكن تلك المناطق تتسم بالطابع الإداري، ثم تم تكليفها بمهام التفتيش وأصبحت تتمتع بخاصية الإشراف والمراقبة. وفي أسرة هان الغربية زادت تلك المناطق من 10– 15منطقة في عام 733م. وكانت كل منطقة تضم مقراً للتفتيش، بالإضافة إلى المكتب السياسي الدائم، ومنذ ذلك الحين ارتفعت مكانة المنطقة الإدارية وتبوأت المكانة الأولى، وجاءت بعدها الولاية في التنظيم الإداري، وتشكل نظام من ثلاث درجات: المنطقة الإدارية والولاية والمحافظة. وبالإضافة إلى ذلك، قامت أسرة تانغ بتحويل بعض الولايات ذات المكانة الخاصة إلى «مقر حكومي»، وشيدت «مقر الحاكم العسكري» في بعض الأمكنة المهمة، وأنشأت «مقر حماية العاصمة» في المناطق الحدودية. وعلى هذا النحو، وضعت أسرة تانغ إرهاصات النظام الحكومي. وفي أوائل أسرة سونغ الشمالية كانت البلاد مقسمة إلى ثلاث عشرة منطقة إدارية زادت إلى خمس عشرة، وثماني عشرة، وثلاث وعشرين منطقة على التوالي. ويختلف النظام الإداري في أسرة سونغ عن نظيره في أسرة تانغ؛ ففي النظام الأول كانت المنطقة الإدارية تنقسم في الغالب إلى عدة أجهزة إدارية تضطلع بمهام الإشراف والمراقبة والوظائف الإدارية التنفيذية، ويتلوها في الترتيب المقر الحكومي والولاية والمقر العسكري، ومقر المراقبة والتفتيش. وتتماثل وظائف المقر الحكومي والمنطقة الإدارية وخصائصهما في كل من أسرتي تانغ وسونغ، ويشبهان الولاية في أسرتي تشين وهان. ويوجد في «المقر العسكري» جيش لحماية المنطقة الإدارية، ويشرف «مقر المراقبة» على إنتاج المحاجر، والإنتاج الحيواني في المنطقة الإدارية.

أما الأسر يوان، ومينغ وتشنغ فقد طبقت نظام «المقاطعات التابعة» بصورة أساسية. ففي أوائل أسرة يوان، كانت مقاطعة «تشونغ شو» بمنزلة الحكومة المركزية تقع تحت إدارتها المباشرة المناطق المتاخمة للعاصمة مثل: شانشي وخبي وغيرهما. ثم تم تقسيم المناطق الأخرى

إلى عشر مقاطعات تتبع المقاطعة المركزية «تشونغ شو» وهي: لينغبي، لياولينغ، خنان، شنشي، شيتشوان، قانصو، يونان، تشجيانغ، جيانغشي، هوقوانتشي، ويطلق عليها جميعاً «مقاطعات تابعة»، والتي يتلوها في الترتيب الوحدة الإدارية والولاية (المقر الحكومي) والمحافظة. وبعد تأسيس أسرة مينغ، شهد نظام المقاطعات التابعة اصلاحاً كبيراً؛ حيث ألغيت تسمية هذا النظام، وتفكك الدمج بين الجيش والحكومة في أسرة يوان، وأصبح الاهتمام بالإدارة الشعبية، وتم تقسيم البلاد إلى ثلاث عشرة مقاطعة هي: شانغدونغ، شانشي، خنان، شنشي، سيتشوان، هوقوانغ، تشجيانغ، جيانغشي، فوجيان، قوانغدونغ، قوانغشي، يونان، وقوايتشي، فضلاً عن مدينتي بكين العاصمة ونانكين اللتين يخضعان للإشراف المباشر من قبل الحكومة المركزية. وبعد تأسيس أسرة تشنغ، استمر تقسيم البلاد إلى مقاطعات ظلت تحتفظ بأسمائها بصورة أساسية حتى يومنا هذا.

وبعد ثورة 1911، طبقت البلاد نظاماً يتألف من ثلاث درجات بصفة عامة هي: المقاطعة، وحدة خاصة، محافظة. وفي مرحلة أمراء الحرب الشماليين (1912– 1927) كانت توجد ثلاث وعشرون مقاطعة أصلاً في أسرة تشنغ، وتأسست أربع مناطق خاصة، بالإضافة إلى ثلاث مناطق خاضعة للإدارة المباشرة هي: تشينغهاي، التبت، منغوليا الخارجية. وأثناء حكم حزب الكومنتانغ (القوميون) كان يوجد تسع وعشرون مقاطعة في كافة أنحاء الصين، فضلاً عن التبت ومنغوليا. كما تأسست مدن: شانغهاي، نانكين، بكين، تيانجين، تشينغداو، شيآن باعتبارها بلديات مركزية. وبعد عام 1922، أُنشئت العديد من المناطق الخاصة تباعاً تحتل المرتبة الثانية بعد المقاطعات ويشرف عليها قيادات إدارية متخصصة، ويُطلق على أجهزتها مكاتب الحكومات المحلية، وتعتبر بمثابة وكالة لحكومة المقاطعة وتتولى الإشراف على الكثير من المحافظات. ولم يتغير هذا النظام الأساسي تقريباً حتى الوقت الحاضر.

المبحث الرابع

أصل تسمية المقاطعات والمدن والمناطق ذاتية الحكم

لم تشهد المناطق الإدارية في الصين تغيرات كبيرة منذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية في أول أكتوبر عام 1949 حتى الآن. وفي الوقت الحاضر، يوجد في الصين ثلاث وعشرون مقاطعة، وأربع بلديات مركزية، وخمس مناطق ذاتية الحكم، بالإضافة إلى منطقتي الإدارة الخاصة. وعلى الجملة، نقول إن الصين تضمَ أربعاً وثلاثين مقاطعة ووحدة إدارية هي: مدينة بكين، مدينة شانغهاي، مدينة تيانجين، مدينة تشونغ تشينغ؛ ومقاطعات: خبي، شانشي، لياولينغ، جيلين، هيلونغجيان، جيانغصو، تشجيانغ، آنهوي، جيانغشي، فوجيان، شاندونغ، خنان، خوبي، خونان، قوانغدونغ، خينان، سيتشوان، يونان، قوايتشي، شنشي، قانصو، تشينغهاي، تايوان؛ منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم، منطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ، منطقة التبت الذاتية الحكم، ومنطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوي، ومنطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم، منطقة هونغ كونغ الإدارية الخاصة، منطقة مكاو الإدارية الخاصة.

مدينة بكين: كان يُطلق عليها «جينغ» اختصاراً، واسمها القديم «جي Ji:»، وفي أوائل أسرة تشو الغربية، شيدت مملكة يان عاصمة هنا، ولذا سميت «يان جينغ»، وأصبحت عاصمة هذه المملكة في عصر الممالك المتحاربة. وبعد أن توحدت الصين على أيدي إمبراطور أسرة تشين، أصبحت ولاية قوانغيانغ. وكانت من إقطاعات الأمراء والحكام في مملكة يان وقوانغيانغ. كما كانت مركز حكم مملكة يان في عهد أسرتي وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية. قامت أسرة سوي بتغيير اسمها إلى «منطقة يوي الإدارية»، وأصبحت بلدة عسكرية مهمة لشمال الصين في أسرة تانغ. وفي عام 936م أسست قومية تشيدان في بكين عاصمة ثانية لمملكة ياو، أُطلق عليها «حكومة شي جين»، كما أُطلق عليها «العاصمة الوسطى» عندما قامت قومية نيوي تشين بنقل عاصمة مملكة جين إليها. وهزمت أسرة يوان مملكة جين، واتخذت بكين عاصمة لها وأطلقت عليها «دادو» (العاصمة الكبرى). وهزم الإمبراطور تشو يوان تشانغ أسرة يوان، وأنشأ عاصمة في نانكين، وغيَّر اسم عاصمة يوان من «دادو» إلى «بينغ»،

وفي عام 1403م اعتلى تشو دي سدة الحكم عنوة وأطلق على نفسه لقب إمبراطور، ونقل العاصمة إلى هنا وغيَّر اسمها إلى «بكين» (بيجينغ Beijing). ومنذ ذلك الحين بدأ اسم بكين واستمر حتى يومنا هذا، وتاريخه يرجع إلى حوالي ستمائة سنة. وكانت بكين عاصمة أسرة تشنغ أيضاً. وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، أعلنت بكين عاصمة للصين الجديدة، وأصبحت بلدية تحت الإشراف المباشر من جانب الحكومة المركزية.

مدينة تيانجين: تُسمى «جين» اختصاراً مكانها الأصلي في قلب البحر، ثم خرجت إلى حيز اليابسة بعد تأسيس أسرة سوي، وأصبحت محوراً للمواصلات بين الجنوب والشمال رويداً رويداً. كما أصبحت ميناء في أسرة يوان تتدفق إليه السفن بلا انقطاع، التجمعات السكانية هناك جعلتها تتحول إلى بلدة اسمها «بلدة هاي جين» (بلدة المعبر عبر البحر). وقد قيل إن في أوائل أسرة مينغ توجه أمير مملكة يان إلى نانكين حيث قاد الجيوش صوب الجنوب، ونظراً لأن ابن السماء الإمبراطور عبر المكان هنا «جين»، ولذا أطلق عليه «تيانجين». وفي أوائل أسرة تشنغ، أصبحت تيانجين بلدة عسكرية مهمة لحماية العاصمة، وأصبحت المركز السياسي في أواخر هذه الأسرة. وكانت تيانجين بلدة مركزية أثناء حكم حزب القوميين. وبعد تأسيس الصين الجديدة، كانت جزءاً من مقاطعة خبي، ثم أصبحت بلدية مركزية.

مدينة شانغهاي: تقع على مقربة من البحر، وتشتهر بصيد الأسماك، ومن أدوات الصيد التي كان يستخدمها الصيادون ما يطلق عليه «خو»، ولذا سميت شنغهاي بـ«خو» اختصاراً. وكانت جزءاً من مملكة وو في فترة الربيع والخريف، كما كانت اقطاعة الأمير تشون شين في مملكة تشو أثناء عصر الممالك المتحاربة. ولذا سميت أيضاً «شين». ثم بدأ استخدام اسم «شانغهاي» منذ أسره سونغ جراء استقبال شانغهاي آنذاك العديد من السفن، وزادت الكثافة السكانية فيها، وأُنشيء مركز لعقد الصفقات في مكان يدعى «شانغهاي بو»، ثم تم اختصار الاسم تدريجياً حتى أصبح «شانغهاي». وتأسست شركة في المرسى لتقديم الخدمات والإشراف على السفن هناك أثناء حكم أسرة سونغ الجنوبية. ثم أصبحت شانغهاي محافظة رسمية في عام 1291. وشيدت أسرة مينغ أسوار المدينة لصد قراصنة اليابان، وأنشئت أسرة تشنغ الجمارك والتعزيزات العسكرية من أجل حماية الإدارة التجارية ورفع كفاءة الحذر العسكري. وبعد حرب «الأفيون» 1840م جعلها المستعمرون تفتح موانيها بالقوة أمام

التبادل التجاري وأصبحت أكبر مدينة مستعمرة في شرق آسيا وكانت بلدية مركزية أثناء حكم حزب القوميين.

مدينة تشونغ تشينغ: تقع في جنوب شرق حوض سيتشوان، وبين نهر اليانجتسي ونهر جيالنغ، ومن ثم أُطلق عليها «منطقة جيانغ». كانت مركز الحكم أثناء حكم الأسر سوي، وتانغ وسونغ. وكان اسمها القديم «يو»، ولذا أُطلق عليها أيضاً «منطقة يو». في عام 1939 كانت في تقسيم حكومة حزب القوميين بلدية مركزية، ولم يتغير وضعها الإداري في بداية تأسيس الصين الجديدة، وبعد ذلك عادت إلى تقسيم مقاطعة سيتشوان. وقررت الدورة الثامنة لنواب الشعب الصيني التي عقدت في 14 مارس 1997 تأسيس البلدية المركزية «تشونغ تشينغ».

مقاطعة خبي: تقع في شرق جبل تاي شنغ، وفي شمال النهر الأصفر، وكانت تابعة لمملكتي يان وتشاو قديماً. وفي أسرة تانغ تأسست «منطقة خبي الإدارية»، واستمرت دون ثمة تغير حتى الأسر الخمس. وبعد أسرة سونغ، انقسمت إلى منطقتين هما: «منطقة خبي الشرقية» و«منطقة خبي الجنوبية». وكانت مقاطعة تابعة للمقاطعة المركزية «تشونغ شو» في أسرة يوان. وكانت عاصمة أسرة مينغ وتحت إشراف ادارتها المباشرة. أسرة تشنغ غيَّرت اسمها إلى مقاطعة تشلي، وأعادت حكومة القوميين تسميتها القديمة «مقاطعة خبي» في عام 1928، واستمرت هذه التسمية حتى بعد التحرير.

مقاطعة شانشي: تقع في غرب جبل تاي شنغ، كانت تابعة لمملكة جين في فترة الربيع والخريف. وفي عصر الممالك المتحاربة انقسمت إلى ثلاث ممالك: هان، تشاو، ووي. كانت عاصمتها تشانغآن في أسرة تانغ، وأطلق عليها «خه دونغ» لأنها تقع في شرق النهر الأصفر، ولذا تأسست منطقة بهذا الاسم كما جاء في أوبرا بكين «السفر إلى خه دونغ». كانت عاصمتها ما يعرف اليوم باسم بكين في أسرة يوان، ثم أطلق عليها شانشي لأنها تقع في غرب جبل تاي شنغ، ولم تشهد تغيراً في أسرتي مينغ وتشنغ. عاصمة المقاطعة «تاييوان».

منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم: تقع في الجزء الشمالي بالصين، وتتاخم أراضي منغوليا وروسيا. وفي الأصل، كان اسم منغوليا يطلق على عشيرة تقطن هضبة منغوليا كما ذكرت سجلات ووثائق أسرة تانغ. وفي مطالع القرن الثالث عشر الميلادي، أسس جينكيزخان

إمبراطورية المغول، ثم توغل فجأة إلى الجنوب، وقضى على مملكة جين وأسس أسرة يوان. وجرت العادة على تقسيم منغوليا إلى منغوليا الداخلية ومنغوليا الخارجية منذ أسرتي مينغ وتشنغ. وتقع منغوليا في جنوب الصحراء الكبرى بالصين، وفي شمال سور الصين العظيم، وتمتد شرقاً من تشه ليمو إلى المنطقة الفسيحة خه تاو غرباً. وتأسست منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم في أول مايو عام 1947، وعاصمتها مدينة «هوهھوت».

مقاطعة لياو لينغ: تقع في حوض نهر لياو، كانت تحت الإدارة المباشرة لمملكة يان في عصر الممالك المتحاربة، وتأسست ولاية لياولينغ ومركزها السياسي في مدينة لياولينغ، وأسست أسرة يوان مقاطعة لياو لينغ التابعة، وتولت أسرة مينغ الإدارة والإشراف على العاصمة. وفي أوائل أسرة تشنغ كانت هذه المقاطعة مكان ولادة هذه الأسر الحاكمة التي غيَّرت اسمها إلى مقاطعة «فنغتيان». وفي عام 1929 استولى جيش الشمال الشرقي على منطقة لياوخه بناء على أوامر الحكومة المركزية لحزب القوميين، وغيَّر اسمها إلى «لياولينغ»، ولا يزال يستخدم إلى الآن. عاصمة المقاطعة «شينيانغ»، وتسمى المقاطعة «لياو» اختصاراً.

مقاطعة جيلين: تقع في وسط المنطقة الشمالية الشرقية، وعلى ضفتي نهر سونغهوا. وكانت جزءاً من ولاية فويوي أثناء حكم أسرة هان، كما كانت تابعة لمملكة يوهاي في أسرة تانغ. وسيطرت عليها قومية «نيوي تشين» في أسرة مينغ. وتأسست مدينة جيلين لينود (مدينة جيلين اليوم) على ضفتي نهر سونغهوا في عهد أسرة تشنغ والتي قررت تسميتها مقاطعة جيلين حتى اليوم. عاصمة المقاطعة مدينة «تشانغتشون». وتسمى المقاطعة «جي» اختصاراً.

مقاطعة هيلونغجيان: تقع في شمال شرق الصين، كانت جزءاً من ولاية فويو في أسرة هان. كان كتاب «تاريخ لياو» أول من ذكر اسم «هيلونغجيان»، وترجع هذه التسمية إلى أن لون مياه النهر أسود (هيه)، ويتلوى مثل التنين (لونغ)، ولذا أطلق عليها «هيلونغجيان». سيطرت عليها قومية «نيوي تشين» أثناء حكم أسرة مينغ. وتأسست مدينة على امتداد نهر هيلونغ كانت «المقر العسكري» للمقاطعة التي تبلورت معالمها في أواخر أسرة تشنغ التي قررت تسميتها مقاطعة «هيلونغجيان» حتى الوقت الحاضر. عاصمة المقاطعة مدينة «هانتشو». ويُطلق على المقاطعة لقب «هيه» اختصاراً.

مقاطعة تشجيانغ: تقع على ساحل بحر الصين الشرقي، ويجري داخلها نهر تشيانتانغ كان

يسمى قديماً «تشجيانغ»، ولذا أُطلق نفس الاسم على المقاطعة. كانت تابعة لمملكة يوي في فترة الربيع والخريف، والمملكة تشو في عصر الممالك المتحاربة. وكانت جزءاً من يانغتشو في أسرة هان. أسست أسرة تانغ منطقتين إداريتين في الغرب والشرق أطلقت عليها اسم «تشجيانغ». وأسرة تشنغ أنشئت هذه المقاطعة. وعاصمة المقاطعة مدينة «هاربين». وتسمى المقاطعة «تشجا» اختصاراً.

مقاطعة جيانغصو: تقع في الحوض الأسفل لنهر اليانجتسي، وعلى ساحل البحر الأصفر، كانت جزءاً من مملكتي وو وتشو في فترة الربيع والخريف والممالك المتحاربة. كما كانت جزءاً من بحر الصين الشرقي في أسرة تشين، وتم بناؤها في أسرة تشنغ في عام 1667 عاصمة المقاطعة مدينة «نانكين». وتسمى المقاطعة بالاسم المختصر «صو».

مقاطعة آنهوي: تقع في شمال غرب منطقة هوادونغ. يخترقها نهر اليانجتسي ونهر هواي من أولها إلى آخرها. ويوجد بها جبل تيان تشو وكان يسمى قديماً جبل وان. كانت تابعة لمملكتي وو وتشو في فترة الربيع والخريف والممالك المتحاربة، وكانت جزءاً من مدينة يانغتشو في أسرة هان، وبدأ تشييدها في أسرة تشنغ عام 1667م. عاصمة المقاطعة «خهفيي». وتسمى المقاطعة «وان» اختصاراً.

مقاطعة فوجيان: تقع على امتداد ساحل بحر الصين الجنوبي وبحر الصين الشرقي قبالة مقاطعة تايوان. كانت تابعة لمملكتي يو وتشو في فترة الربيع والخريف وفي عصر الممالك المتحاربة. وكانت ولاية «مين تشونغ» في أسرة تشين، وتابعة لمدينة يانغتشو في أسرة هان، وأطلق عليها اسم «فوجيان» في أسرة تانغ، وكانت منطقة فوجيان الإدارية في أسرة سونغ، ومقاطعة فوجيان التابعة للمقاطعة المركزية تشونغ شو في أسرة يوان، ثم سميت مقاطعة فوجيان في أسرتي مينغ وتشنغ. عاصمة المقاطعة مدينة «فوتشو» ويوجد بها نهر «مين»، ولذا أطلق على المقاطعة اسم «مين» اختصاراً.

مقاطعة جيانغشي: تقع على الضفة الجنوبية لنهر اليانجتسي في الحوض الأوسط والحوض الأسفل، كانت تابعة لمملكة تشو في فترة الربيع والخريف وفي عصر الممالك المتحاربة. كانت ولاية «جيونيغ» في أسرة تشين، وتابعة لمدينة يانغتشو في أسرة هان، ثم أطلق عليها «جيانغشي» في أسرة تانغ، ثم أطلق عليها مقاطعة جيانغشي في أسرتي مينغ وتشينغ. عاصمة

المقاطعة مدينة «نانتشانغ»، ويجري داخلها نهر «قان»، ولذا سميت المقاطعة بـ«قان» اختصاراً.

مقاطعة شاندونغ: تقع في الحوض الأسفل للنهر الأصفر، وعلى امتداد ساحل البحر الأصفر وبحر بوهاي. كانت تابعة لمملكتي تشو ولو في فترة الربيع والخريف وفي عصر الممالك المتحاربة. أسست أسرة تشين ثلاث ولايات هناك، وأصبحت منطقة إدارية مشهورة في أسرة جين. وأطلق عليها مقاطعة شاندونغ في أسرة تشنغ. عاصمة المقاطعة مدينة «جينان». وتُعرف المقاطعة بالاسم المختصر «لو».

مقاطعة خنان: تقع في الحوض الأوسط والحوض الأسفل في النهر الأصفر. كانت تابعة لولاية يو في العصر القديم، وأكثر المناطق التي ازدهرت فيها الثقافة الصينية القديمة. كانت تضم عدة مناطق إدارية في فترة الربيع والخريف وفي عصر الممالك المتحاربة. أطلق عليها منطقة خنان الإدارية في أسرة تانغ، يحدها النهر الأصفر جنوباً، ونهر هاواي شمالاً، ومنذ ذلك الحين بدأ يُطلق عليها اسم «خنان»، ثم «مقاطعة خنان» في أسرتي مينغ وتشنغ. عاصمة المقاطعة مدينة «جينغتشو». وتسمى المقاطعة «يو» اختصاراً.

مقاطعة خوبي: تقع في الحوض الأوسط لنهر اليانجتسي، وفي شمال بحيرة دونغ تينغ، ولذا أُطلق عليها «خوبي» (شمال البحيرة). كانت منطقة إدارية تحت سلطة مملكة تشو في فترة الربيع والخريف والممالك المتحاربة. بدأ استخدام اسم «خوبي» في أسرة سونغ. في أوائل أسرة تشنغ انقسمت إلى مقاطعتين هما: خوبي، وخونان. عاصمة المقاطعة «مدينة ووهان»، كان يطلق على المقاطعة قديماً «اقليم أه»، ولذا اسمها المختصر هو «أه» أيضاً.

مقاطعة خونان: تقع على الضفة الجنوبية في الحوض الأوسط لنهر اليانجتسي، معظم أراضيها في جنوب بحيرة دونغ تينغ، ولذا أطلق عليها اسم «خونان» (جنوب البحيرة). كانت منطقة إدارية خاضعة لسلطة مملكة تشو في فترة الربيع والخريف والممالك المتحاربة. وكانت ولاية «تشانغشا» في أسرة تشين. بدأ استخدام اسم «خونان» في أسرة تانغ، وتجزأت إلى مقاطعتين في أسرة تشنغ هما: خوبي وخونان. عاصمة المقاطعة «مدينة تشانغشا». والاسم المختصر للمقاطعة هو «شيانغ».

مقاطعة قوانغدونغ: تقع في جنوب نانلينغ على ساحل بحر الصين الجنوبي. كانت ولاية

«نانهاي» في أسرة تشين. كان جزء من أراضيها تحت سيطرة مملكة نانيوي في أسرة هان. كانت منطقة لينغنان الإدارية في أسرة تانغ. تقع معظم أراضيها في منطقة قوانغتشي وجنوب السهول الوسطى. وكانت تنقسم إلى منطقتين في أسرة سونغ الشمالية هما: قوانغذونغ وقوانغشي، ثم أُطلق عليها اسم مقاطعة قوانغدونغ في أسرتي مينغ وتشنغ. عاصمة المقاطعة «قوانغتشو». الاسم المختصر للمقاطعة هو «يوه».

منطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ: تقع على الحدود الجنوبية، وتتاخم حدود فيتنام. كانت ولاية قويلين في أسرة تشين. وأسست أسرة تانغ هنا المنطقة الإدارية لينغنانشي. كما كانت ولاية قونغنانشي في أسرة سونغ، وكانت تابعة لمقاطعة هوقوانغ شينغ في أسرة يوان، وأنشئت أسرة تشنغ هنا مقاطعة قوانغشي، ثم تأسست منطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ في مارس عام 1958. ومقر حكومة المنطقة في نانينغ. والاسم المختصر للمنطقة هو «قوي».

مقاطعة خينان: تقع في وسط بحر الصين الجنوبي قبالة مقاطعة قوانغدونغ، بدأ يُطلق عليها اسم «خينان» أثناء حكم الممالك الثلاث. قرر المؤتمر الوطني لنواب الشعب الصيني في أبريل 1988 اقتطاع جزء من مقاطعة قوانغدونغ وتأسيس مقاطعة خينان. عاصمة المقاطعة «هايكو». والاسم المختصر للمقاطعة هو «تشيونغ».

مقاطعة سيتشوان: تقع في المنطقة الجنوبية الغربية في أعلى مجرى نهر اليانجتسي. كان يطلق عليها منطقة سيتشوان الإدارية في أسرة سونغ، وأسست أسرة يوان مقاطعة سيتشوان التابعة، ثم أصبحت مقاطعة سيتشوان في أسرتي مينغ وتشنغ. عاصمة المقاطعة «تشينغدو». ويُطلق على المقاطعة أيضاً اسم «تشوان».

مقاطعة قوايتشي: تقع في المنطقة الجنوبية الغربية بالصين، في أوائل أسرة يوان أطلق عليها اسم «قوايتشي». وأسست أسرة مينغ منطقة قوايتشي الإدارية، ثم أنشئت أسرة تشنغ مقاطعة قوايتشي. عاصمة المقاطعة مدينة «قوايانغ». والاسم المختصر للمقاطعة هو «تشيان».

مقاطعة يونان: تقع على حدود الصين الجنوبية الغربية، وتتاخم حدود بورما ولاوس وفيتنام. كانت تقع قديماً في جنوب يونيلينغ؛ ولذا أطلق عليها اسم «يونان». كانت مملكة تشين أثناء حكم الممالك المتحاربة، ومملكة نانتشاو في أسرة تانغ، ومملكة دالي في أسرة سونغ

وتأسست مقاطعة يونان التابعة للمقاطعة المركزية تشونغ شو في أسرة يوان، ثم أصبحت مقاطعة يونان في أسرتي مينغ وتشنغ. عاصمة المقاطعة مدينة «كوينمينغ». وتسمى المقاطعة «تشين» أو «يوان» اختصاراً.

منطقة التبت الذاتية الحكم: تقع في حدود الصين الجنوبية الغربية، وتتاخم كل من الهند وبوتان، ونيبال وبورما وسيكيم. تأسست هذه المنطقة في سبتمبر عام 1965، ومقر الحكومة في مدينة لاسا، واسم المنطقة المختصر هو «زينغ».

مقاطعة شنشي: تقع في الحوض الأوسط للنهر الأصفر، أُطلق عليها هذا الاسم «شنشي» منذ أسرة تشو الغربية. وكانت منطقة إدارية خاضعة لسلطة مملكة تشين. وأسست أسرة سونغ منطقة شنشي، وأنشئت أسرة يوان مقاطعة شنشي التابعة، ثم أصبحت مقاطعة شنشي في أسرتي مينغ وتشنغ. عاصمة المقاطعة مدينة «شيآن» والاسم المختصر للمقاطعة هو «تشين» أو «شن».

مقاطعة قانصو: تقع في المنطقة الشمالية الغربية بالصين، وتلتقي مع حدود منغوليا. أسست أسرة يوان مقاطعة قانصو التابعة للمقاطعة المركزية تشونغ شو، ثم أنشئت أسرة تشنغ مقاطعة قانصو. عاصمة المقاطعة مدينة «لانتشو». الاسم المختصر للمقاطعة هو «تشين».

منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى: تقع في المنطقة الشمالية الغربية، وفي الحوض الأوسط للنهر الأصفر. كانت ولاية بيدي في أسرة تشين، ومملكة شيشيا في أسرة سونغ. وأسست أسرة يوان مقاطعة شيشيا التابعة للمقاطعة المركزية تشونغ شو، ثم تغير اسمها إلى «مقاطعة نينغشيا التابعة»، وأصبحت منطقة نينغشيا في أسرتي مينغ وتشنغ، وتأسست مقاطعة ينعشيا في عام 1928. وأنشئت منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوي في أكتوبر عام 1958. ومقر الحكومة الخاصة بالمنطقة في مدينة «ينتشوان». والاسم المختصر للمنطقة هو «نينغ».

منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم: تقع على الحدود الشمالية الغربية في الصين، وتتاخم حدود ثماني دول هي: منغوليا، روسيا، كازاخستان، قازاقستان، طاجيكستان، أفغانستان، باكستان، الهند. كانت مقر حماية المنطقة الغربية في أسرة هان، كما أسست هناك أسرة تانغ مقرا لحماية كل من بيتينغ وشيآن. وكانت منطقة شيلياو في أسرة سونغ. أقامت أسرة تشنغ

محمية عسكرية في مدينة ايلي للسيطرة على المنطقتين الواقعتين في شمال وجنوب جبال تيان شان (الجبال السماوية)؛ حيث كانت حكومة هذه الأسرة تعتزم توسيع نطاق حدود جديدة. ولذا أُطلق على هذه المنطقة «شينجيانغ» (الحدود الجديدة). وفي عام 1884 تأسست مقاطعة شينجيانغ، ثم أقيمت منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم في أكتوبر 1955. ومقر الحكومة في العاصمة أورومتشي. واسم المنطقة المختصر هو «شين» (الجديد).

مقاطعة تايوان: أكبر جزيرة في الصين، تقع في أعالي بحر الصين الجنوبي وبحر الصين الشرقي قبالة مقاطعة فوجيان وبينهما بوغاز تايوان. مصدر اسمها يرجع إلى قومية «تايوا وان» وهم السكان الأصليون في الجزيرة. وكانت تسمى قديماً «داو ايي»، و«ايي تشو»، و«ليو تشيو». في أسرة سونغ الجنوبية، كانت بحيرة بينغ وجزيرة ليه جزءاً من منطقة فوجيان الإدارية، وأسست أسرتا يوان ومينغ مديرية تفتيش هناك، احتلها فيما بعد مستعمرون هولنديون وإسبان. ثم استعاد جينغ تشينغ قونغ تايوان في أواخر أسرة مينغ. وفي أوائل أسرة تشينغ تأسست حكومة تايوان، وتغير اسمها إلى مقاطعة تايوان في عام 1585، واحتلتها اليابان في عام 1895، ثم عادت إلى أحضان الصين في عام 1945. عاصمة المقاطعة «تايبيه». واسم المختصر للمقاطعة هو «تاي».

منطقة هونغ كونغ الإدارية الخاصة: تقع على ساحل بحر الصين الجنوبي، وتطل على المدخل الشرقي لنهر اللؤلؤ، وتتاخم مدينة شين جين في مقاطعة قوانغدونغ، وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء هي: جزيرة هونغ كونغ، جيولونغ، شيش جيه. كانت جزءاً من مدينة شين جين في أسرة تشنغ، واحتلتها بريطانيا غداة حرب الأفيون في عام 1842 لمدة نيف ومائة عام، ثم عادت إلى أحضان الصين في أول يوليو 1997؛ وذلك بمقتضى البيان المشترك بين الصين وبريطانيا الصادر في عام 1984، وتطبيق مبدأ «دولة واحدة ونظامان». وكذلك تطبيق شعار «أهالي هونغ كونغ يحكمون هونغ كونغ». الحكومة المركزية في بكين مسؤولة عن الشؤون الخارجية والدفاع في المنطقة، بينما تتولى حكومة المنطقة المركزية سائر الشؤون في المنطقة وتعالجها حسب «القانون الأساسي لمنطقة هونغ كونغ الإدارية الخاصة».

منطقة مكاو الإدارية الخاصة: تقع على الحافة الجنوبية لدلتا نهر اللؤلؤ. وتلتقي مع حدود مدينة نهر اللؤلؤ في مقاطعة قوانغدونغ شمالاً. كانت –في الأصل– جزءاً من محافظة الجبل

العطري في تلك المقاطعة، وتتألف من ثلاث مناطق هي: شبه جزيرة مكاو، جزيرة تايبا، جزيرة كولون على ساحل الصين الجنوبي. وتبلغ مساحتها أكثر من 193 ألف كيلو متر مربع. وفي عام 1553 تذرع مستعمرون برتغاليون بذريعة تجفيف بضائعهم التي غمرتها المياه، واحتلوا الساحل واستأجروه عنوة، وبعد حرب الأفيون وسعوا نطاق تواجدهم وسيطرتهم بصورة مطردة حتى عام 1887 عندما أجبروا أسرة تشنغ على إبرام معاهدة لشبونة بين الصين والبرتغال، ومعاهدة إعادة العلاقات التجارية بين الصين والبرتغال، وأصبحت مكاو مستعمرة برتغالية. ووقعت الصين والبرتغال البيان المشترك في 26 مارس عام 1987، الذي جاء فيه أن الصين تستعيد سيادتها على مكاو في 20 ديسمبر 1999. وبعد عودتها إلى الصين، تأسست منطقة مكاو الإدارية الخاصة، وتطبيق مبدأ «دولة واحدة ونظامان» و«أهالي مكاو يحكمون مكاو»، و«تحقيق مستوى عالٍ من الحكم الذاتي». وتتولى حكومة المنطقة شؤون مكاو حسب القانون الأساسي للمنطقة الإدارية الخاصة.

الفصل الثالث

تطور التاريخ في الصين

التاريخ هو عملية تطور البشرية، إنها عملية التطور التدريجي من العصر القديم حتى الوقت الحاضر. وشهدت حكمة البشرية وإبداعها التنمية وزيادة المستوى، وحققت الثقافة الثراء والتطور بلا انقطاع داخل هذه العملية. إن قطع الصلة بين الماضي والحاضر، وتفتيت أوصال التاريخ يعني قطع صلة الرحم بالثقافة أيضاً. ونصبح نحن البشر الذين نعيش في عالم اليوم ماء بلا نبع، وشجرة بلا جذور، ونفقد جذورنا وأصلنا. ومن ثم، يتعين -في المقام الأول- فهم التاريخ الصيني حتى نفهم الثقافة الصينية.

المبحث الأول

مصدر الثقافة الصينية

أين يوجد مصدر الثقافة الصينية؟ إنه لا يوجد في أفريقيا ولا في أوروبا كما زعم بعض الباحثين في الغرب، بل إنه يوجد في الأراضي الصينية التي يقطنها الصينيون وتبلغ مساحتها 9,6 مليون كيلو متر مربع. وكما ذكرنا آنفاً، فإن أراضي الصين فسيحة ومترامية الأطراف، وتضاريس الجغرافيا معقدة، وتخترقها الأنهار والجبال طولاً وعرضاً، وتتحلى بتنوع المناخ، وقدم ذلك الظروف المواتية للزراعة والإنتاج الحيواني وصيد السمك. والنهران الكبيران في الصين: النهر الأصفر، ونهر اليانجتسي يخترقان أراضي البلاد شرقاً وغربا، وجعلا البيئة الطبيعية الشاسعة «مهداً للثقافة». وكان الإنسان البدائي الذي عاش هنا يتمتع بالأراضي الواسعة والموارد الطبيعية التي وفرت له أسباب العيش والحياة. ومن ثم، تمكنت الثقافة الصينية من الاستمرار والدوام لعدة آلاف من السنين، وبالتالي استطاع مركز الثقافة الصينية حرية الحركة والتنقل، ويرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الجغرافية. وأثبتت الكشوف الأثرية أن الأجداد الأولين الصينيين قد عاشوا هنا منذ بواكير التاريخ. وعُثر في مقاطعة يونان –في مايو 1969– على «إنسان يوانمو» الذي يرجع تاريخه إلى مليون وسبعمائة سنة ويعتبر أقدم إنسان عرفته الصين حتى الآن. وفي الفترة من1963– 1964 عُثر أيضاً على «إنسان لانتيان» في مقاطعة شنشي ويرجع تاريخه إلى 800 ألف سنة وفي عام 1927، تم اكتشاف «إنسان بكين» لأول مرة على مقربة من تشوكوديان جنوب غربي بكين، ويعود تاريخه إلى حوالي600 ألف سنة. وقد استخدم «إنسان بكين» الكثير من الأدوات الحجرية واقتبس النار من الغابات المحترقة بفعل الصواعق وحفظها طوال السنة. وينتمي ذلك كله إلى الإنسي المنتصب أوالإنسان القرد (النسناس). ثم ظهر بعد ذلك الإنسي المتعقل أو الإنسان الحديث؛ حيث إنسان مابا(قوانغدونغ) في حوض نهر اللؤلؤ، وإنسان دينغتسون في حوض النهر الأصفر بمقاطعة شانشي، وإنسان تشانغيانغ في مقاطعة خوبي، وإنسان خهتاو في منطقة منغوليا الداخلية، وإنسان ليوجيان في قوانغشي، وإنسان الكهف الأعلى في بكين، وإنسان تسيانغ في سيتشوان، ويتراوح تاريخ ذلك من 200 ألف إلى عشرة آلاف سنة، مما يوضح أن الإنسان

البدائي دخل المرحلة الأولية للمجتمع القبلي.

وتطور مستوى الإنسان في الصناعة اليدوية، وخاصة في صناعة الأدوات الحجرية، ولذا حلت الأدوات الحجرية المصقولة والمتقنة نسبياً محل الأدوات البدائية الحجرية الخشنة تدريجياً، وكان ذلك إيذاناً ببداية العصر الحجري الحديث،ويتراوح تاريخه من عشرة آلاف سنة إلى أربعة آلاف سنة. وفي هذه المرحلة خطا الصينيون خطوة واسعة نحو بوابة الحضارة، وبدؤوا تاريخ حضارتهم. وتتجلى خصائص هذا العصر في التحول من استخدام الأدوات الحجرية إلى الاكتشاف وصناعة الفخاريات والأدوات النحاسية، والتطور من صيد السمك إلى الزراعة، ومن العشيرة إلى التجمع العائلي، ومن الملكية العامة إلى الملكية الخاصة، ومن المجتمع القبلي إلى المجتمع الطبقي. ويعود تاريخ المجتمع العشائري الأمومي إلى فترة ما قبل هذه المرحلة. و«ثقافة يانغشاو» المنتشرة على نطاق واسع في حوض النهر الأصفر هي الأكثر قدرة على تجسيد ثقافة المجتمع العشائري الأمومي. وترجع تسمية «ثقافة يانغشاو» إلى قرية يانغشاو التي شهدت أقدم اكتشاف لهذه الثقافة والتي تقع في محافظة شينغتشي بمقاطعة خنان، وآثار ثقافة يانغشاو التي تم العثور عليها في أنحاء الصين تعد بالآلاف، ولكن آثار بانبوه في مدينة شيآن بمقاطعة شنشي هي الأكثر شهرة. والفخاريات التي عُثر عليها كثيرة ومتعددة، ومرسوم على معظمها نقوش وزخارف ملونة، ولذا أطلق عليها «الفخار المزخرف»، وبالتالي تغير اسم «ثقافة يانغشاو» إلى «ثقافة الفخار المزخرف». وعرفت الصين المجتمع العشائري الأبوي قبل نحو خمسة آلاف سنة تقريباً، وتنتشر آثاره الثقافية في حوض النهر الأصفر وحوض نهر اليانجتسي، وعُثر على أقدمها وهي «ثقافة لونغشان» في بلدة تحمل هذا الاسم في مدينة تشانغتشيو في مقاطعة شاندونغ. وصناعة الفخار في ثقافة لونغشان تمتاز بالدقة والجمال واللون الداكن، وأطلق عليها «الفخار الأسود»، ولذا تغير اسم «ثقافة لونغشان» إلى «ثقافة الفخار الأسود».

ودارت نقاشات في الماضي أرتأت أن تطور تيار الثقافة الصينية بدأ من الغرب إلى الشرق. وقدمت الكشوف الأثرية البرهان الحاسم الذي لا يقبل الشك ومفاده أن مهد الحضارة الصينية ليس فقط في حضن النهر الأصفر، بل كانت هذه الحضارة منتشرة مثل سماء مرصعة بالنجوم تنثر ضوءها على أرض الآلهة (اسم شاعري للصين) المترامية الأطراف ومساحتها

9,6 مليون كيلو متر مربع. كما أن تيار الثقافة الصينية لم يبدأ قط من الغرب إلى الشرق، بل تدفقت تيارات ثقافية من كل حدب وصوب وتجمعت في نقطة التقاء حيث تغلغل كلُ منها في الأخرى وشهدت التفاعل المتبادل، مما شكل التنوع الثقافي الموجه الذي دام أكثر من ألفي سنة منذ أسرتي تشين وهان. ويقسم الخبراء المتخصصون —حسب نتائج الكشوف الأثرية— مصدر الثقافة القديمة إلى مناطق كثيرة، من بينها توجد «أربع مناطق كبرى» قيل إنها تمدنا بالمعلومات في هذا الشأن، هي:

(1) **منطقة ثقافة حوض النهر الأصفر:** تعتبر أحد المهود المهمة للحضارة الصينية فقد أُكتشف في هذه المنطقة الفسيحة الشاسعة عدة ثقافات الواحدة تلو الأخرى على النحو التالي: «ثقافة بيلي قانغ» في مدينة شينجيانغ بمقاطعة خنان ويعود تاريخها إلى ثمانية آلاف سنة تقريباً، و«ثقافة يانغشاو» في محافظة شينغتشي بمقاطعة خونان وتاريخها حوالي خمسة أو ستة آلاف سنة، و«ثقافة داونكو» في مدينة تايآن بمقاطعة شانغدونغ ويترآوح تاريخها من خمسة إلى ستة آلاف سنة، و«ثقافة لونغشان» في مدينة تشانغتشو بمقاطعة شانغدونغ ويتراوح تاريخها من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف سنة، و«ثقافة ماجيا ياو» في محافظة لينتاو بمقاطعة قانصو وتتمتع بتاريخ أربعة أو خمسة آلاف سنة، و«ثقافة تشجيا» في محافظة تشينغخه بمقاطعة قانصو يعود تاريخها إلى أربعة آلاف سنة تقريباً، و«ثقافة أرليتو» في مدينة يانشي بمقاطعة خنان، ويتشابه عصرها مع عصر أسرة شيا (2070 ق.م —1600 ق.م)، ويعتقد باحثون أنه من المرجح إلى حد كبير أنها ثقافة أسرة شيا.

(2) **منطقة ثقافة حوض نهر اليانجتسي:** وتشمل مناطق جيانهان، تايهو، باشو. وقد عُثر في تلك المناطق على عدة ثقافات بدائية هي: «ثقافة خهميدو» في مدينة يوتاو بمقاطعة تشجيانغ ويعود تاريخها إلى حوالي سبعة آلاف سنة، و«ثقافة ماجيا بينغ» في مدينة جياشينغ بمقاطعة تشجيانغ ويرجع تاريخها إلى خمسة أو ستة آلاف سنة، و«ثقافة ليانغتشو» في مدينة يوهانتشو بمقاطعة تشجيانغ يتراوح تاريخها من أربعة إلى خمسة آلاف سنة تقريباً، و«ثقافة تشيوي جيالينغ» في محافظة جينغشان بمقاطعة خوبي يعود تاريخها إلى حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف سنة.

(3) **ثقافة حوض نهر اللؤلؤ:** عُثر على آثار الثقافة البدائية في أماكن كثيرة في هذه المنطقة، من بينها «آثار شيشيا» في مقاطعة قوانغدونغ ويعود تاريخها إلى أربعة أو خمسة آلاف سنة، بالإضافة إلى اكتشافات أخرى أثبتت أن منطقة نهر اللؤلؤ من المهود التي شهدت ولادة الحضارة الصينية.

(4) **منطقة ثقافة الشمال والشمال الشرقي:** تتمثل ثقافة هذه المنطقة في «ثقافة هونغشان (الجبل الأحمر)» في منطقة منغوليا الداخلية، ويرجع تاريخها إلى الفترة الوسطى والمتأخرة لـ«ثقافة يانغشاو»، ويعود تاريخها إلى خمسة آلاف سنة تقريباً. وشهدت السنوات الأخيرة، اكتشاف «آثار نيو لينانغ» في الجزء الغربي بمقاطعة لياولينغ، وتشتمل تلك الآثار على مقابر حجرية قديمة، ومعبد للنساء وتمثال رأس معبودة؛ مما يبرهن على وجود أنشطة الطقوس الدينية من تقديم القرابين في العصر البدائي في تلك المنطقة منذ خمسة آلاف سنة خلت، كما تم العثور على نماذج مصغرة للممالك الصينية. ويوضح ذلك أن الثقافة البدائية في منطقة الشمال والشمال الشرقي تتسم بالأهمية في معرفة مصدر الحضارة الصينية.

وهناك بعض الخبراء الذين ذكروا «ست مناطق كبرى» في هذا الصدد هي: (1) المنطقة المجاورة لمدينة شينوجين. (2) مقاطعة شانغدونغ وبعض المناطق المجاورة. (3) مقاطعة خوبي والمنطقة المجاورة لها. (4) منطقة الحوض الأسفل في نهر اليانجتسي. (5) منطقة الجنوب ومحورها دلتا نهر اللؤلؤ. (6) منطقة الشمال ومركزها منطقة سور الصين العظيم. ويبيِّن لنا ذلك أن الحضارة الصينية نشأت محليا وترعرت محليا، وليست آتية من مناطق خارجية، ولم يتكون مهدها في زمن واحد وفي مكانٍ واحد، بل كانت تنشر نورها في كل صقع، واندمج فيها عدة تيارات متنوعة ومتعددة. وشهدت منطقة السهول الوسطى في حوض النهر الأصفر الثقافة البدائية المتطورة نسبياً، وتعد منطقة رئيسية لمصدر الحضارة الصينية وكان تطور الثقافة البدائية في كل منطقة ليس متوازناً، وكانت الأكثر نضجاً منذ القدم في منطقة السهول الوسطى التي دخلت مجتمع الحضارة منذ حوالي خمسة آلاف سنة خلت. أما الأجداد الأولون في سائر المناطق فقد شهدوا هذا المجتمع تباعاً في فترة تتراوح من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف سنة.

المبحث الثاني

الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة

هناك قول مأثور في العصر القديم مفاده: «منذ أن خلق بان كو العالم، فإن الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة يعيشون بين ظهرانينا حتى الآن». وذكرت أساطير أن «بان كو» هو البطل الذي فصل السماء عن الأرض، وهو الإله الكبير الذي خلق العالم. إذن، من هم الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة؟ إنهم الأجداد الأولون للصينيين كما قيل، وهم أيضاً شخصيات أسطورية في التاريخ الصيني. وهناك عدد غير قليل من الوثائق التاريخية المتناثرة والمبعثرة التي سجلت أحوالهم. ولكن تتسم كلها بالنكهة الأسطورية الكثيفة، والنسب بينهم متعارض ويشعر المرء بالاضطراب والارتباك الفكري. ومن هم هؤلاء الأباطرة والملوك؟ لقد تباينت الأقوال في سجلات الكتب القديمة. وهناك ستة أقوال حول تحديد أسماء «الأباطرة الثلاثة». هي: (1) تيان هوانغ، دي هوانغ، رين هوانغ. (2) تيان هوانغ، دي هوانغ، تاي هوانغ. (3) فوشي، شين نونغ، تشو رونغ. (4) فوشي، نيونوا، شين رونغ. (5) سوي رين، فوشي، شين رونغ. (6) فوشي، شين رونغ، هوانغ- دي. وهناك أيضاً ثلاثة أقوال حول تحديد أسماء «الملوك الخمسة»، هي: (1) فوشي، شين رونغ، هوانغ -دي، يوي، شون. (2) هوانغ -دي، تشوان شيوي، دي كو، يوي، شون. (3) شاو هاو، تشوان شيوي، دي كو، يوي، شون. ومن منظور التطور الاجتماعي والمعرفة العلمية، فإن ترتيب الأباطرة الثلاثة على هذا النحو: سوى رين، فوشي، شين رونغ جسد عملية انتقال الآباء والأجداد الصينيين البدائيين من عصر الأدوات الحجرية القديم إلى العصر الحجري الحديث. ويرمز سوى رين إلى اكتشاف البشرية النار واستخدامها، بينما يجسد فوشي مرحلة صيد السمك، كما يبرز شين فونغ للعيان بداية عصر الحراثة والفلاحة. ولكن عبادة الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة عبر مراحل التاريخ كانت على التالي: فوشي، شين نونغ، هوانغ -دي باعتبارهم الأباطرة الثلاثة، أما الملوك الخمسة كان ترتيبهم على هذا النحو: شياو هاو، تشوان شيوي، دي كو، يوي، شون. والمعنى الأصلي لكلمة «هوانغ» (إمبراطور) هو: «كبير»، أما المعنى الأصلي لكلمة «دي» (ملك) هو: «لقب يطلق على الملك». وعاش هؤلاء الأباطرة والملوك في العصور الغابرة

المجهولة التي لم تعرف مثل تلك الألقاب. واستمر هذه الحال إلى ما بعد فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة. واعتقد الناس أنهم يعتبرون شخصيات تستحق أن يطلق عليها ألقاب مثل الإمبراطور والملك، فأطلقوا عليهم «الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة» احتراماً واجلالاً لهم.

إذن، هل كان يوجد هؤلاء الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة في نهاية المطاف؟ لا يمكن أن نجزم ببساطة، وكذلك لا يمكن أن ننفي بسهولة. وأياً كان وجودهم بصورة غير محددة، فإن أسماءهم ومآثرهم المشهورة أبرزت للعيان المراحل المختلفة لتطور المجتمع البدائي. وهناك احتمال كبير أنهم يرمزون ويجسدون ملامح مرحلة اجتماعية معينة، ومن المرجح إلى حد كبير أيضاً أنهم أسماء لعشائر وقبائل أو أسماء لقادة اتحاد القبائل. وإذا نظرنا إلى الصلات وسجلات النسب بينهم نجدها تعاني من الفوضى والاضطراب ولكن البحث الدقيق يقودنا إلى روابط تاريخية يمكن البحث عنها. وطبعاً تغص الوثائق التاريخية بأسماء مثل تلك الشخصيات، ولكنها تتفوق على الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة، والأسماء المشهورة يقدر عددها ببضع عشرات. ولكن لماذا كان الاهتمام بالأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة؟ ربما كان ذلك نتيجة اختيار الكونفوشيوسيين لتلك الشخصيات. وقدموا المعالجة التاريخية لها. فالكونفوشيوسيون اختاروا السماء والأرض والإنسان رمزاً إلى «الكفاءات الثلاث»، ولذلك جمعوا الأباطرة الثلاثة معاً، وكذلك ارتأوا أن «العناصر الخمسة» تتألف من المعدن، الخشب، الماء، التراب، والنار. ولذا أطلقوا لقب «الملوك الخمسة» تشبها بتلك العناصر. وقد أشاد الكونفوشيوسيون كثيراً بتلك الشخصيات، ومن ثم اعتبرهم الناس آلهة منذ أسرتي تشين وهان. وفي عام 747م أصدر إمبراطور أسرة تانغ شوان زونغ أوامره من أجل تشييد معبد للأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة وتقديم القرابين لهم. وجاء في مرسومه أن: «الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة خلقوا أشياء تدوم جيلاً بعد جيل، وأقوالهم خالدة وباقية، ويستحقون تقدير الناس وإجلالهم». وفي عام 960م بعث إمبراطور أسرة سونغ رسولا لزيارة مقابرهم وأقام مقرا لحراستها، وقدم لهم القرابين في موسمي الربيع والخريف. واستمر هذا التكريم حتى أسرتي مينغ وتشينغ. ولذلك لا يزال عدد غير قليل من آثارهم باقية إلى الآن.

فوشي: تذكر الأسطورة أنه وُلد في مدينة تيانشيو بمقاطعة قانصو، وهو الجد الأول

للشعب الصيني، له رأس إنسان وجسم ثعلب، وتزوج بشقيقته الصغرى نيونوا، وبدأ إنجاب الأولاد والبنات، وتكونت الخلائق في العالم. ويبين ذلك أن عصر فوشي شهد مرحلة الزواج الجماعي من ذوي روابط الدم والرحم. وعُثر في مقاطعة شانغدونغ على تمثال يحتوي على صورة منقوشة على طوبة توضح السفاد بين فوشي ونيونوا؛ حيث يبدو في رأس إنسان وجسم ثعلب، وهو تسجيل تصوري للأسطورة. وقد قيل إن فوشي يرقب الظواهر الفلكية في السماء، وتضاريس الجغرافيا في الأرض، واخترع الرموز الثمانية في التنجيم. كما علَّم الناس صيد السمك بالشباك وصيد الحيوانات، وعلمهم أيضاً طهي الفرائد في المطبخ حتى تصبح طعاماً لذيذاً، ولذلك أطلق عليه «طباخ القرابين». وعكست هذه الأسطورة حياة صيد السمك والحيوانات، ناهيك عن المعرفة الأولية بالطبيعة والاستفادة منها في عصر البشرية البدائي. كما جسدت أسطورة «نيونوا تصقل حجراً وترقع السماء» آمال الإنسان في تغيير الطبيعة منذ بواكير التاريخ. كما ذكرت أسطورة أخرى أن فوشي أسس عاصمة في محافظة هواي يانغ بمقاطعة خنان، وفي الواقع كانت مملكة تشين (مقاطعة خنان اليوم) القاعدة الرئيسية لأنشطة قبيلته. وفي ضوء تقييم سجلات الوثائق المختلفة، فإن عصر فوشي ونيونوا قد شهد المجتمع العشائري الأمومي، وكان نطاق أنشطة قبيلتهما في الجزء الشمالي في مقاطعة خنان، وفي الجزء الغربي في شاندونغ، وخبي ومنطقة جنوب شانشي. ومن ثم، يعد بناء معبد فوشي ومقصورة التنجيم في أسرة مينغ برهاناً على أن ولادة فوشي كانت في مقاطعة قانصو. ويزور هذا المعبد السكان المحليون من الجد إلى الحفيد احتفالاً بمولد فوشي في اليوم السابع من الشهر الثالث في السنة القمرية الصينية.

شين نونغ: هو إله الشمس في الأساطير الصينية القديمة، ويطلق عليه أيضاً «يان—دي». ويُحكى أن رأسه رأس ثور، وجسمة جسم إنسان، وعلَّم الناس صناعة الأدوات الزراعية، وزراعة خمسة أنواع من الحبوب، وعقد الصفقات التجارية، ويتبوأ كل شخص مكانه المناسب، كما عرف صناعة الفخار والصهر في تصنيع الفؤوس، وحفر الآبار واستخراج المياه. كما تذوق العديد من الأعشاب واختراع الدواء، ثم عاجلته المنية إثر أصابته بالتسمم وتهرؤ أمعائه. ويوضح ذلك أن عصر شين نونغ شهد المرحلة الأخيرة من المجتمع العشائري الأمومي، وتحول من مرحلة صيد السمك والحيوان إلى مرحلة الزراعة، وظهر الإنتاج

الزراعي والأنشطة التجارية من المقايضة. كما أحرزت مجالات الاستفادة من الطبيعة وحماية الإنسان تقدما محدوداً. كما يطلق عليه «إله الزراعة»، وترمز ملامح رأسه التي هي رأس ثور إلى ثقافة الزراعة. وقد قيل إن مسقط رأسه في مدينة باوجي بمقاطعة شنشي. كما قيل أيضاً أنه ولد في ليشان بمدينة سويتشو بمقاطعة خوبي. وينطوي ذلك على احتمال كبير أن قاعدة الأنشطة كانت مختلفة بين شجرة نسب شين نونغ أويان– دي. وعلى الجملة، فإن مجال أنشطتهما تركزت بصورة أساسية في خونان ومنطقة خوبي. ويقال إن منطقة شين نونغ المشهورة في أنحاء الصين وحتى جيالين كانت المكان الذي جمع فيه الأعشاب الطبية.

هوانغ– دي: من أشهر أباطرة الصين. ويبدأ كتاب «سجلات تاريخية» تسجيل التاريخ بدءاً من الإمبراطور هوانغ –دي. وذكرت كتب تاريخية أن لقب هوانغ– دي هو قونغ سون، وأنه ابن زعيم قبيلة. كما أفادت سجلات أخرى أنه شقيق الإمبراطور يان–دي. وربما يوضح ذلك روابط الدم التي تربط بين قبيلتي هوانغ ويان. وقد قيل إن هوانغ–دي ولد في مقاطعة شانغدونغ، ثم انتقل إلى مقاطعة خبي، ويقول آخرون مقاطعة خنان. وفي البداية لم تستقر قبيلة هوانغ-دي في مكان، ثم اتحدت مع قبيلة يان–دي التي تقطن الجنوب، وانتصرت على قبيلة تشي يوي الشمالية في منطقة خبي، وبعد ذلك بفترة وجيزة انتقلت إلى الجنوب. وكانت منطقة السهول الوسطى المجال الحيوي لأنشطة هوانغ– دي حيث لون التربة يبدو أصفر، ولذا أطلق عليه هوانغ–دي (الإمبراطور الأصفر). ويُحكي أنه اخترع الملابس، وشيد البنايات، وصنع العربات والسفن والأقواس، واخترعت زوجته لي زو دودة القز، واخترع المؤرخ تسانغ جيه الكتابة، ونشأ التنجيم وتطور وأصبح تاريخاً وبدأ التقويم السنوي ومراقبة الظواهر الفلكية. ويبرز ذلك أن ثقافة المجتمع في عصر الإمبراطور الأصفر أحرزت تقدماً كبيراً. وبدأ تكوين المجتمع العشائري الأبوي آنذاك. وظهرت الملكية الخاصة، وبدأ التمييز بين الغني والفقير. ومن ثم نشبت حروب وحوادث السلب والنهب. وجاء في سجلات قديمة أن هوانغ–دي خاض حرباً مع قبيلة تشي يوي، كما حدث اقتتال بينه وبين يان–دي، حتى سيطر وأحكم قبضته على أراضي الصين في نهاية المطاف. ويقال إن هوانغ دي استخرج النحاس من مقاطعة خنان، ثم صنع طنجرة ثلاثية القوائم ذات أذنين واتخذها رمزاً للصين، وبعد ذلك اعتلى ظهر تنين وصعد إلى السماء، ولم يتحمل الوزراء فراقه وأجهشوا بالبكاء،

وشدوا ملابسه حتى لا يفارقهم، ولكنه وصل إلى جبل تشياو وصعد إلى عنان السماء. ودفن الناس ملابسه وقبعته وقوسه في «مقبرة هوانغ–دي» في محافظة هوانغلينغ بمقاطعة شنشي. وذكرت سجلات تاريخية أخرى أن عدد أبناء هوانغ –دي بلغ خمسة وعشرين ابناً. والملوك المشهورون في التاريخ مثل: يوي، شون، ياو، وحكام أسر شيا، شانغ، تشو هم جميعاً أبناء وأحفاد الإمبراطور الأصفر. وآثار هوانغ–دي منتشرة وكثيرة في أنحاء الصين؛ حيث تنتشر في خبي، شانغدونغ، شنشي، قانصو، خونان. والجبل الأصفر المشهور في العالم سُمي بهذا الاسم نسبة إلى الإمبراطور الأصفر. ويوضح ذلك بجلاء أن هوانغ–دي وقبيلته اضطلعا بدورٍ كبير في تطوير الثقافة الصينية. ولا غضاضة أن يكون هوانغ–دي الإنسان الأول الذي وضع إرهاصات الأمة الصينية.

شاوهاو: يُحكى أن شاو هاو هو ابن الإمبراطور فوشي، وحكم البلاد أكثر من ثمانين عاماً، ودفن في يونيانغ شان، مما يدل على أنه ربما كان ينتمي إلى نسب قبيلة فوشي، وبعد أن انتقل إلى منطقة شاندونغ أصبح من قبيلة دونغ يي في المجتمع البدائي. وفي الوقت الحاضر، يوجد قبر شاو هاو في شاندونغ؛ شكله مربع من الجوانب الأربعة، ويتألف من حجارة مرصوصة فوق بعضها في شكل جبل، مما يجعله يشبه إلى حد ما الأهرامات في مصر.

تشوان شيوي: يحتل المرتبة الثانية بين الملوك الخمسة، وهو حفيد الإمبراطور هوانغ–دي. ذكر كتاب «سجلات تاريخية» أنه يستطيع تحديد فصول السنة حسب الظواهر الجوية والجغرافية، وزرع الحبوب، وحدد معايير ومقاييس السلوك ومراسم تقديم القرابين حسب توجيهات الشياطين والآلهات، وأدار شؤون البلاد من خلال طرائق التربية والتعليم، مما يدل على أن الثقافة وقتئذ أحرزت تقدماً هائلاً.

دي كو: يحتل المرتبة الثالثة بين الملوك الخمسة، وهو ابن حفيد هوانج –دي، وابن أخ تشوان شيوي، وجده هو ابن هوانغ–دي الذي يدعى شوان. تولى مقاليد السلطة في البلاد وهو في الثلاثين من عمره خلفاً للملك تشوان شيوي. وصفه كتاب «سجلات تاريخية» بأنه زعيم وقائد يتحلى بالذكاء والفطنة. ويقال إنه كان له أربعة أولاد، من بينهم الملك يوي. ودفن كل من تشوان شيوي ودي كو في مقاطعة خنان.

يوي وشون: يعتبران من الأفاضل الأكفاء والمشهورين في العالم القديم، وامتدحهما الشعر

القديم كثيراً وقدرهما تقديراً عظيماً. وذكر كتاب «سجلات تاريخية» أن يودي هو ابن دي كو، وشيد عاصمة للبلاد بعد أن تولى السلطة في مقاطعة شانشي، وحكم البلاد ثمانية وتسعين عاماً. وكان خيرًاً مثل السماء، حكيماً مثل الإله، وعاش حياة بسيطة، وكرس اهتمامه على حياة الشعب، وأسس العديد من الأجهزة والإدارات الحكومية التي تختص بالشؤون المختلفة، وحدد مراسم تقديم القرابين، اهتم بالموسيقى والرقص، ولذا نعم الشعب بحياة الهدوء والطمأنينة. ويدل ذلك على أن عصر يوي عرف ملامح وخصائص الدولة، وجسد المراسم وآداب المعاملة. أما شون فقد وُلد في مقاطعة تشجيانغ، ويقول آخرون في مقاطعة شانشي. ذكرت سجلات تاريخية أنه الحفيد السادس للملك تشوان شيوي، وماتت أمه في طفولته، وتزوج والده مرة أخرى، وأنجبت له الزوجة الثانية ابناً. وكان الزوج والزوجة يفضلان الابن الأصغر وينحازان له، وحاولا الضير به مرات عليه، ولكنه كان مفعماً ببر الوالدين، ثم اختاره يوي أن يكون خليفته، وزوجه فتاتين، وطلب منه –حتى يختبر قدرته وكفاءته– أن يزرع الأرض، ويصطاد السمك، ويصنع الفخار على ضفة النهر، وقد قيل إنه أبلى بلاء حسناً في الاضطلاع بذلك كله. وبعد أن تولى الحكم، أنشأ عاصمة في مقاطعة شانشي، وأمر يوي أن يكبح جماح الفيضان، ومن ثم نعمت البلاد بالاستقرار وانتشر السلام في ربوعها، عاجلته المنية أثناء قيامه بجولة تفقدية في سنواته الأخيرة ودفن في مقاطعة خونان.

ياو: ليس من الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة، ولكن يطلق عليه في التاريخ، بالإضافة إلى الملك تانغ وو، والملك تشو وو، «الملوك الثلاثة». وياو شخصية مرموقة معروفة للجميع قديماً وحديثاً لأنه أحرز نجاحاً هائلاً في القضاء على الفيضان. وذكر كتاب «سجلات تاريخية» أن ياو هو حفيد الملك تشوان شيوي، ومن أبناء عشيرة يوي. وتأسست مدينة ياو تشو في مقاطعة خنان التي تحوي «بئر الملك ياو الذي حبس فيه تنين الطوفان». وتحكي الأسطورة أن ياو قضى على الفيضان حتى وصل إلى هذه المدينة حيث حبس تنين الطوفان في بئر، ثم توقف الفيضان بعد ذلك. ويقال أيضاً أنه أصيب بمرض عضال في ساقه بعد أن كبح جماح الفيضان، ولذا أطلقت عليه الأجيال التالية «ياو أبو خطوة». وتولى سلطة البلاد بعد يوي وأسس دولة وشيد عاصمة في مقاطعة خنان، ثم نقلها إلى محافظة شيا في مقاطعة

شانشي، ولذا أطلق على دولته لقب «شيا». وأقام الناس الكثير من الهياكل والقصور والمعابد والمنصات التي تحمل اسم الملك يوى لمآثره الخالدة في كبح جماح الفيضانات في الصين، ولاسيما في مقاطعة آنهوى التي تعد أهم منطقة بالنسبة لهذا الملك الذي تزوج هناك في حفل مهيب حضره الملوك والأمراء. وهناك قرية عند أقدام جبل يوي في هذه المقاطعة لا يزال يطلق عليها اسم يوي. ويُحكي أن يوي تزوج فتاة، ومن أجل أن يفتح ثغرة في الجبل تحول إلى باندا سوداء، ولم يدخل بيته على الرغم من أنه مرَّ أمامه ثلاث مرات، ولم يتوقع أن زوجته التي جاءت للاطمئنان عليه أصابها الخوف والهلع عندما رأته، ولاذت بالفرار وأطلقت العنان لساقيها، ولم تهتم بالجنين في بطنها، وهرولت حتى بلغت جبلاً يُسمى سونغ، وهناك تحولت إلى حجر ضخم، وطاردها زوجها، وصاح بصوت عالٍ: «ابني في بطنك»، ثم انشق هذا الحجر وخرج منه طفل يدعى «تشي». ولا يزال هذا الحجر موجوداً حتى اليوم ويطلق عليه «حجر أم تشي». وشيدت أسرة هان معبد والدة تشي، وأصبح «تشي» يرمز إلى مجتمع العبودية.

وتأسيساً على تحليل بعض متخصصي التاريخ والأدب، ينتمي الأجداد الأقدمون للصينيين إلى ثلاث مجموعات بصفة عامة هي: «مجموعة هواشيا» في الشمال الغربي، و«مجموعة دونغ يي» في الشرق، و«مجموعة مياو مان» في الجنوب. وتتألف مجموعة هواشيا من قبيلتي هوانغ–دي، ويان–دي، ونشأت في منطقة شنشي وقانصو، وتركز نشاطها بصورة أساسية في حوض النهر الأصفر، وهي المنطقة التي انتشرت فيها ثقافة يانغشاو، وثقافة لونغشان في خنان، وينتمي إلى هذه المجموعة يان –دي من الأباطرة الثلاثة، وهوانغ أر–دي، والملوك الخمسة: تشوان شيوي، دي كو، يوي، شون، ياو. وكانت مجموعة دونغ يي تقطن في شانغدونغ وشرق مقاطعة خنان وفي منطقة وسط المقاطعة آنهوي؛ إنها المناطق التي انتشرت فيها ثقافة داونكو، وثقافة لونغشان، وينتمي إلى هذه المجموعة شاو هاو من الملوك الخمسة. أما نشاط مجموعة مياو مان فيتركز بصورة أساسية في مقاطعة خوبي وخونان ومنطقة جيانغشي حيث تشكلت الملامح التاريخية لثقافة خهميدو وثقافة ليانغتشو. ويمكن أن نقول إن الملك فوشي يرمز إلى هذه المجموعة. وتشابكت مصالح هذه المجموعات الثلاث فيما بينها وشهدت صراعات عنيفة، كما تشكلت تجمعات واتحادات مختلفة ومتعددة. وذكرت

وثائق ما قبل أسرة تشين أن قبيلتي يان وهوانغ كونتا اتحاداً وهزمتا قبيلة دونغ يي، ووضعتا حجر أساس التحالف الكبير بينهما في الحوض الأوسط والحوض الأسفل في النهر الأصفر. وفيما بعد حدث تأثير متبادل بين تلك المجموعات في خضم الحروب التي اندلعت بينها، وشكلت تدريجياً ما يطلق عليه اليوم الأمة الصينية.

المبحث الثالث
حضارة أسرة شيا

ذكرت وثائق تاريخية أن يوي العظيم الذي روض الفيضان هو مؤسس أسر شيا Xia (من القرن 21 ق.م – القرن 17ق.م)، وكان ذلك إيذاناً بدخول الصين مجتمع العبودية. تولى مقاليد السلطة في أسرة شيا سبعة عشر ملكاً طوال فترة حكم هذه الأسرة التي دامت أربعمائة وثلاثين عاماً وأكثر. ولكن مازال تاريخ أسرة شيا مجرد كتابات بسيطة بصورة أساسية حتى الآن، ولم نحصل على حقائق هذه الأسرة من علم الآثار القديمة. وكانت أسرة شيا تقيم في منطقة شمال غرب مقاطعة خنان وجنوب مقاطعة شانشي، وكانت عاصمتها دائمة التنقل، ويقال إن يوي أسس عاصمة في يانغتشانغ (مدينة دينغنيغ في مقاطعة خنان اليوم) ثم انتقل إلى مدينة يويتشو في مقاطعة خنان، ثم إلى محافظة شيا في مقاطعة شانشي، وتركز نشاطه فيما بعد في هذه المنطقة. وذكرت سجلات تاريخية بعض أحوال أسرة شيا في النقاط الآتية:

أولاً: بلغت قوة الإنتاج في المجتمع مستوى مرتفعاً، وحقق الإنتاج الزراعي تطوراً واضحاً. وكان ترويض يوي للفيضان بمثابة عملية واسعة النطاق لإصلاح أراضي الدولة، وحقق ذلك –بلاشك– دفعة قوية للإنتاج الزراعي. وقد قيل إن الإمبراطور يوي استخدم النحاس في صناعة الأدوات الحربية و«الطناجر التسع»، مما يوضح أن أسرة شيا شهدت الأدوات البرونزية.

ثانياً: عرفت أسرة شيا الملكية الخاصة، حيث كان يمتلك الأفراد السلع والبضائع، وشهد المجتمع في أسرة شيا ظاهرة أن المذنبين كانوا عبيداً، وكذلك أسرى الحرب كانوا من العبيد أيضاً، ويدل ذلك على تأسيس نظام العبودية.

ثالثاً: أسست أسرة شيا نظام حكم للبلاد يكاد يكون كاملاً حيث كان يشمل على: (1) نظام توريث السلطة جيلاً بعد جيل. (2) نظام خاص بموظفي الحكومة، حيث تضم الوظائف الحكومية المسؤولين الذين شكلوا المجموعة البيروقراطية. (3) نظام المناطق الإدارية، حيث انشطرت البلاد إلى «تسعة أقاليم»، ويوجد مسؤول محلي في كل إقليم.

وعلى الرغم من أن حضارة أسرة شيا لم تستطع حتى اليوم، العثور على دليل تاريخي وواقعي، لكن ليس من السهل التشكيك في وجودها تاريخياً، وأن حكمها دام أكثر من أربعمائة سنة، وهي فترة لا يمكن إنكارها. وبعد تأسيس الصين الجديدة، واصل الأثريون عملية البحث والتنقيب في المنطقة التي تمركزت فيها أنشطة هذه الأسرة. وفي عام 1959، عثر عمال الآثار على منطقة ثقافية مهمة في أرليتاو بمقاطعة خنان، كما اكتشفوا قصراً مستطيل الشكل، بالإضافة إلى أساس بناية وبئر وخندق تخزين. كما اكتشفوا أعداداً كبيرة من الأدوات التي تشمل الأدوات البرونزية، وأدوات يشمية، وسجلات وثائقية يرى الخبراء أن ثقافة أرليتاو من المرجح إلى حد كبير أنها ثقافة أسرة شيا التي تضمنتها تلك السجلات.

المبحث الرابع

المجتمع الصيني في أسرتي شانغ وتشو

شهدت أحوال المجتمع في أسرة شانغ Shang (من القرن 17 ق.م –القرن 11 ق.م) سجلات مكتوبة ودلائل على وجود الآثار أيضاً، ولذا التاريخ في أسرة شانغ أكثر وضوحاً وشفافية عن أسرة شيا. وكان شانغ يانغ أول حاكم في أسرة شانغ، وكان رئيس وزرائه يدعى «يي ين»، وقد قيل إنه كان طباخاً، وشرح لشانغ يانغ الحجة في حكم البلاد استناداً إلى خبرته في الطهي. وتمكين شانغ يانغ من بذل الجهود في إنعاش الوطن بموازرة رئيس وزرائه، حتى تطورت وأصبحت قوية وتمكنت من هزيمة شياجيه آخر ملوك أسرة شيا وحكم البلاد وأسس عاصمة في مقاطعة خنان، ويقول آخرون في آنهوي. وتأرجحت هذه الأسرة بين الازدهار والانحطاط، وحكمها ثلاثون من الملوك المدونة أسماؤهم في نقوش العرافين، وتنقلت عاصمتها بين ست مدن. وفي عام 1384 ق.م، نقل الملك بان قنغ العاصمة إلى مدينة «ين» في آنيانغ في مقاطعة خنان، لذا سميت هذه الأسرة «ين شانغ» حتى هزمها الملك تشو وو، بعد أن عاشت أكثر من ستمائة سنة تقريباً. وأصاب مدينة «ين» دماراً فظيعا غداة زوال أسرة شانغ، ولذلك أطلق عليها «أطلال ين». وحظيت هذه الأطلال بالشهرة في أواخر أسرة تشنغ عندما تم اكتشاف نقوش الكتابة على عظام الحيوانات. وفي الوقت الحاضر تم كشف النقاب عن «اطلال ين» في مساحة أكثر من عشرين كيلو متراً، وعُثر فيها على منطقة القصور والقبور، ومنطقة الصناعة اليدوية وحُفر دفن العبيد أحياء. وفي عام 1976، عُثر في منطقة الأطلال أيضاً على قبر زوجة الملك الثاني والعشرين في أسرة شانغ، بالإضافة إلى ألف وأربعمائة ونيف من الأدوات البرونزية والأدوات اليشمية وغيرهما من الآثار. وقد عُثر في مقابر الملوك في «أطلال ين» على طنجرة كبيرة تسمى «سيمو وو دينغ» وزنها 875 كيلو جراماً، وتمثل أعلى مستوى بلغته صناعة الأدوات البرونزية.

وعرفت أسرة شانغ النقوش الكتابية التي سجلت أحوال المجتمع، وأهمها النقوش الكتابية على عظام الحيوانات الموجودة في «أطلال ين». وتشمل الكتابة المنقوشة على عظام الحيوانات ودروع السلحفاة تنبوءات العرافين في البلاط الإمبراطوري ويمتاز مضمونها

بالثراء والوفرة، وجسدت كافة جوانب المجتمع في أسرة شانغ. وتوضح سجلات الوثائق والآثار التي تم اكتشافها مايلي: (1) أن أسرة شيا كانت دولة متطورة عاشت في كنف نظام العبودية، وكان الأرستقراطيون ملاك العبيد يمتلكون أعداداً غفيرة من العبيد. وكان ذبح العبيد ظاهرة استشرت في المجتمع آنذاك. (2) كانت أجهزة الحكم والإدارة في أسرة شانغ كثيرة وقوية، وكان الملك هو الحاكم الأعلى، ويأخذ بزمام كافة السلطات والاستبداد بالرأي، ثم يليه مسؤول الشؤون الحكومية، بالإضافة إلى موظفي تقديم القرابين في جميع الأديان. وكانت هذه الأسرة تتمتع بالقوة العسكرية الضخمة التي جذبت أنظار الناس. (3) زاد الإنتاج في المجتمع بشكل أكبر عن أسرة شيا، وظهر ذلك جلياً في صناعة الأدوات النحاسية التي تميزت بالإتقان والجودة، كما أحرزت العلوم الفلكية تقدماً كبيراً في تحديد شهور السنة، والفرق بين الشهر الكبير والشهر الصغير، وبين السنة البسيطة والسنة الكبيسة. وكان استخدام ذلك جلياً آنذاك. كما انتشر على نطاق واسع استخدام العملات، مما يوضح ازدهار الصفقات التجارية. (4) ازدهار أنشطة القرابين الدينية، ويستجدي العرافون كل شيءٍ من الآلهة والشياطين. وقد سجلت هذه الأحوال بصورة مستفيضة على عظام الحيوانات. والآن شيدت الصين «متحف أطلال ين» في مدينة ين ويزخر بالآثار والاكتشافات الثرية التي أبرزت للعيان التاريخ والثقافة في أسرة شانغ.

أما أسرة تشو Zhou فقد أسسها تشي ابن الحورية جيانغ يوان. ويُحكي أن تشي هو أول من زرع الذرة التي كانت الغذاء الرئيسي للشعب. وصار تشي مبجلاً بين الناس بوصفه إله الزرع. وكان شعب تشو دائم التنقل والترحال، فقد استقر بادئ الأمر في مقاطعة شانشي حتى عهد الملك «ون»، وبعد وفاته تولى ابنه «وو» مقاليد السلطة وقاد جيشاً ودحر أسرة شانغ وأسس أسرة تشو التي حكمها اثني عشر ملكاً، ونقل العاصمة من فنغ إلى هاوجينغ. وبسبب تأسيس الأسرة الجديدة، في الإقليم الغربي، أطلق المؤرخون عليها اسم «تشو الغربية» التي عاشت أكثر من مئتين وخمسين عاماً.

وكان المجتمع في أسرة تشو الغربية هو مجتمع العبودية، واستمر في تطبيق «نظام حقول المربعات التسعة». وكان هذا النظام ظهر في عصر شانغ، فعممته أسرة تشو الغربية في الحوض الأوسط والحوض الأسفل للنهر الأصفر. ويسخر العبيد للزراعة في هذه الحقول التي قسمت

على شكل مربعات. كما التزمت أسرة تشو الغربية بتنفيذ «نظام الإقطاع» للحفاظ على السلطة السياسية. وكان هناك نظام طبقات قائماً على ملكية الأرض. وقد منح الملك بعض الأراضي مع سكانها للأمراء، ثم منح الأمراء قسماً منها لكبار موظفيهم. وبذلك تشكلت طبقة تملك أرضاً مع فلاحيها. ولم يكن للمزارعين أراضٍ وإنما كانوا يزرعون قطعاً صغيرة يتسلمونها من الملاك لسد حاجاتهم، بينما كانوا يزرعون للملك والأمراء وكبار الموظفين بدون مقابل. ويملك المزارعون وسائل الإنتاج والمساكن ومزارع الخضراوات، لكنهم كانوا تابعين لصاحب الإقطاعة.

ونظام الطبقات في تشو الغربية كان مرتبطا بالنظام الأبوي الذي يقصر حق الإرث على الابن الأكبر. وكان الابن الأول من الزوجة الشرعية عند الأرستقراطيين يرث المكانة السياسية والثروة. وكان يسمى «تسونغ تسي» (الوريث الشرعي). فكان هناك دائماً تسونغ تسي للملكية، وتسونغ تسي للمقاطعة، وتسونغ تسي للوزارة. وكان هؤلاء الورثة، على اختلاف مكانتهم السياسية، ملاكاً للأراضي بمختلف المستويات.

كما نفذت أسرة تشو الغربية نظام «المراسم والمجاملة والعقوبات»، فالمراسم والمجاملة تستخدم داخل الأسر الأرستقراطية؛ حيث تحدد كل أسرة مراسم الزواج والجنازة، وتقديم القرابين، والقصور والملابس وغيرها من النظم التي تميز الطبقات العليا عن الطبقات الدنيا. أما العقوبات فتستخدم في اضطهاد الشعب وقمعه من أجل الانصياع للسلطة السياسية. وكان الاقتصاد في أسرة تشو الغربية أكثر تقدماً عن أسرة شانغ. وكانت الأسر المالكة والأمراء يتولون إدارة التجارة والصناعة. وكانت صناعة الأدوات البرونزية أهم صناعة يدوية آنذاك. كما عرف الإنتاج الزراعي حوالي مئة نوع من المحاصيل، ولذا أصبحت الأجيال التالية تمتلك أهم المحاصيل الزراعية.

المبحث الخامس

فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة

في عام 770 ق.م أفل نجم أسرة تشو الغربية، ولكن لم يسقط حكم الأسرة، فقد نقلت العاصمة إلى مدينة لوايانغ في العام التالي، وكان ذلك في عصر تشو بينغ وانغ؛ حيث بدأت دولة جديدة لنفس الأسرة التي أصبحت تعرف بأسرة تشو الشرقية. وينقسم عصر أسرة تشو الشرقية إلى فترة الربيع والخريف (770 ق.م– 476 ق.م)، وعصر الممالك المتحاربة (475 ق.م– 221 ق.م).

شهد المجتمع الصيني في فترة الربيع والخريف مرحلة تغيرات هائلة، وتفتت أوصال نظام العبودية رويداً رويداً، وبدأ إرهاص النظام الإقطاعي. وتدهورت سلطة البلاط الإمبراطوري في أسرة تشو، ومن ثم وهنت قوة سيطرة الأمراء والحكام يوماً بعد يوم، وأدى ذلك إلى تقوية شوكة الممالك الصغيرة أكثر فأكثر، ونشبت بينهما حروب مستمرة من أجل السيطرة على الأراضي، ونهب الثروات وسيطرة كل منها على الأخرى، وظهرت ملامح «الحرب غير العادلة في فترة الربيع والخريف». وأصبحت كل من: تشي، جين، تشو، تشين، وو، تشنغ «ممالك قوية»، كما ظهر من عرفوا باسم «المسيطرون الخمسة» وهم: تشي هوان قونغ أمير تشي، وجين ون قونغ أمير جين، وتشين مو قونغ أمير تشين، وسونغ شيانغ قوانغ أمير سونغ، وتشو تشوانغ وانغ أمير تشو.

وشهد الإنتاج تغييراً كبيراً في فترة الربيع والخريف، حيث تطورت الأدوات الحديدية، وتحطم نظام المربعات التسعة. وأحرزت القوة الإنتاجية تقدماً جعل من الممكن استزراع مساحة كبيرة، وزادت مساحة الحقول الخاصة بالإضافة إلى الحقول العامة، وملاك العبيد أصبحوا ملاك أراضٍ إقطاعيين. وبدأ نظام العبودية التحول إلى أقنان. وفي عام 594 ق.م، طبقت إمارة «لو» نظام فرض ضرائب على الأراضي الزراعية سواء أكانت حقولاً خاصة أو عامة. ثم حذت كل إمارة حذو إمارة لو، ولذا دخل هذا النظام التاريخ. وكان هذا أول تشريع لضريبة الأرض في تاريخ الصين. وتشكلت ملامح علاقات الإنتاج في النظام الإقطاعي. وتعاظم نفوذ الوزراء وكبار الموظفين الذين كانوا ينتمون أصلاً إلى الممالك،

وحلوا محل زعماء عشائرهم وأصبحوا من الحكام الجدد. ونهب إقطاعي كبير مملكة تشي، بينما تقاسمت الممالك الثلاث: هان، تشاو، وي أراضي مملكة جين.

كان نهب أراضي مملكة جين من جانب الممالك الثلاث: هان، وي، تشاو إيذاناً بدخول التاريخ الصيني عصر الممالك المتحاربة وتوطدت أركان النظام الإقطاعي بصورة رئيسية. وابتلعت العديد من الممالك الكبيرة مثيلتها الصغيرة، ولم تبق حتى بداية عصر «الممالك المتحاربة» إلا الممالك السبع المسماة «الكبريات السبع» وهي: تشي، تشو، يان، هان، تشاو، وي، تشين. وكان التغيير الكبير الذي طرأ على الوضع في المجتمع الصيني هو التحول من الانقسام إلى التوحيد. وعلى الصعيد الاقتصادي استخدمت الأدوات الحديدية الزراعية والثور على نطاق واسع، مما دفع تطور الإنتاج الزراعي بشكل أكبر، وزادت المنتجات الزراعية ومنتجات الحرف اليدوية. كما زاد تبادل السلع، ولذا تطورت المواصلات البرية يوماً بعد يوم، وقويت العلاقات بين الممالك. وعلى صعيد تكوين الأمة الصينية، فبعد التحولات والتغيرات التي شهدتها المجتمعات في أسر شيا، شيانغ، تشو الغربية، وانصهار القبائل والعشائر في بوتقة واحدة رويداً رويداً، تكونت الأمة الصينية باعتبارها أمة مشتركة قوية. واضطلعت الممالك السبع بالمنافسة القوية فيما بينها والإصلاحات الداخلية، ويحتاج ذلك إلى نظريات إرشاد وتوجيه، وإلى أصحاب المواهب والكفاءات، وأبرزت كل مملكة للعيان دورها السياسي بشكل أكبر، ولذا ظهرت «مائة مدرسة فكرية تتبارى». واستطاعت مملكة تشين الكائنة في شمال البلاد من توسيع نطاق حدودها وعززت قوتها وازدهارها واستطاعت توحيد الصين لأول مرة في التاريخ.

المبحث السادس

إمبراطورية تشين وإمبراطورية هان

قررت إمبراطورية تشين التقدم بكامل قوتها تجاه الشرق واكتسحت ست ممالك، ووحدت البلاد بأسرها. وفي غضون عشر سنوات من 230 ق.م – 221 ق.م، استطاع ملك تشين الأول ينغ تشنغ أن يقضي على تلك الممالك الست ويحطمها تحطيم الأشجار النخرة، وبذلك وحد الصين كلها، وأسس إمبراطورية إقطاعية موحدة. وبعد أن وصل ملك تشين إلى سدة الحكم، اتخذ ثمة إجراءات من أجل توطيد أركان الإمبراطورية وإدارة شؤونها:

(1) تأسيس نظام الإمبراطور، والقبض على زمام السلطة العليا، وأطلق على نفسه «شي هوانغ دي» (الإمبراطور الأول)، وقرر توريث الحكم في أسرته إلى الأبد، والإمبراطور هو الأسمى والأعلى ويستبد بجميع الأمور، وبعد سلطة الإمبراطور، تأسس نظام «ثلاثة دوقات وتسعة وزراء» من أجل خدمة الإمبراطور.

(2) إلغاء نظام الإقطاعات للأمراء، وتطبيق نظام المقاطعات والمحافظات، ويتولى البلاط الإمبراطوري تعيين رؤساء المقاطعات والمحافظات.

(3) إلغاء ملكية الأراضي للأرستقراطيين، والسماح بالاتجار الحر في الأرض، وتوحيد مقاييس الأطوال والكيل والوزن، وتحقيق وحدة العملة والقوانين واللغة المكتوبة، كما تم توحيد أطوال العجلات وأشكال الملابس والتقاويم.

(4) في محاولة للسيطرة على الفكر، أمر الإمبراطور الأول بحرق الكتب خلا كتب الطب والفلك والزراعة، وسن العديد من القوانين المتعسفة، واستغل القوة العاملة والثروة المادية للشعب بلا حدود، وأجبر أهل الشمال من قبائل شينغونو (الهون) وتسخيرهم في بناء سور الصين العظيم، وشق الطرق والقنوات، وبناء المقابر، مما أثار غضب وضيق الجماهير الكادحة. وكان نتيجة ذلك اندلاع أول انتفاضة فلاحية فور وفاته بزعامة تشين شنغ (؟– 208 ق.م)، وكذلك وو قوانغ (؟–208 ق.م) وكان ذلك أول انتفاضة فلاحية عارمة شهدها المجتمع الإقطاعي في الصين، والتي وجهت ضربة قاصمة لإمبراطورية تشين. وأياً كانت الإجراءات التعسفية والاستبداد في هذه

الإمبراطورية، بيد أن إمبراطورها وحد الصين جميعها، ويعتبر ذلك حدثاً تاريخياً عظيماً في تاريخ الصين، ويتحلى ذلك بأهمية كبيرة في توحيد جميع قوميات الصين فيما بعد، وفي تطوير التاريخ الصيني وإحراز التقدم الثقافي.

إن الانتفاضة الفلاحية لم تخمد جذوتها، بل تعاظمت مع تقادم الزمن، وأدت إلى ظهور قوتين جديدتين بقيادة ليو بانغ (256 ق.م– 195 ق.م)، وشيانغ يوي (232 ق.م – 202ق.م) وكان الأول موظفاً صغيرا في أسرة تشين، والثاني من عائلة أرستقراطية بدويلة تشو استطاع أن يقود جيشاً وانتصر على قوات ليو بانغ، وأسس أسرة جديدة وشيد عاصمتها في تشانغآن (شيآن في مقاطعة شنشي اليوم). وعُرفت الأسرة الجديدة باسم «إمبراطورية هان الغربية» (206 ق.م – 24م).

وبعد تأسيس أسرة هان الغربية، استخلصت الدروس والعبر من النتائج الوخيمة الناجمة عن قوانين الاعتساف والضرائب التي أثقلت كاهل الشعب، وبدأت تطبيق نظام «النقاهة واستعادة القوى»، ولذا نعمت البلاد بالاستقرار بصورة مطردة، وحققت ثروة هائلة وأصبحت قوية بعد أربعين عاماً من حكم هذه الأسرة. وفي عهد الإمبراطور هان وو دي (140 ق.م– 87 ق.م) تمت السيطرة على القوى الانفصالية بشكل أكبر، وتقوية نظام سلطة الدولة المركزية، وتنفيذ سياسة إشراف الدولة على الملح والحديد، وتعزيز سيطرة السلطة المركزية على الاقتصاد في كافة أنحاء البلاد. كما شن الإمبراطور وو دي سلسلة طويلة من الحروب الواسعة ضد قبائل سينغونو (أهل الهون) التي كانت تشن غارات على الحدود، حتى استسلمت وتحولت أراضيها إلى اقطاعه تابعة للهان الغربية، واتسع نطاق أراضي إمبراطورية هان الغربية والتي شهدت مرحلة من الازدهار، ولذلك أطلق على سكان السهول الوسطى «الهانيون»، والأجداد الأولون لقومية هواشيا تغير اسمها تدريجياً إلى «قومية هان»، وانبثق منها فيما بعد مصدر كل من: «لغة الهان» (اللغة الصينية)، و«رموز الهان» (رموز اللغة الصينية) و«ثقافة الهان» (الثقافة الصينية).

وفي أواخر أسرة هان الغربية، استولى الأرستقراطيون والبيروقراطيون وملاك الأراضي على مساحات كبيرة من الأراضي، مما أصاب المزارعين بالإفلاس والتشرد. وتقوضت دعائم الأمن وانتشرت القلاقل في المجتمع أكثر فأكثر. كما

انتزع الأرستقراطي وانغ مانغ (54 ق.م– 22م) السلطة العليا من أسرة هان وأطلق على نفسه لقب إمبراطور وأسس أسرة جديدة أطلق عليها «شين» (9– 24م)، وطبق نظام «الاعتماد على القديم وتغيير النظام» من أجل تخفيف حدة الأزمة الاجتماعية، ولكن أحدث ذلك فوضى عارمة في البلاد وأدى إلى اندلاع انتفاضات فلاحية بقيادة قوتين عسكريتين بصورة أساسية هما: قوة بقيادة وانغ كوانغ ووانغ فنغ في مقاطعة خبي، وتمركز المتمردون في أعماق الغابات، فأُطلق عليهم «جيش الغابات الخضراء». وكانت القوة الأخرى بقيادة فإن تسونغ في مقاطعة شاندونغ الذي استطاع أن يجمع حوله الآلاف من المزارعين وتكوين جيش عُرف باسم «جيش الأهداب الحمراء». لأن مقاتليه كانوا يصبغون أهدابهم بلون أحمر، وفي نهاية المطاف، استطاع ليوشيو (؟ –57م) أن يستولي على السلطة العليا وقضى على القوى الانفصالية في سائر الأماكن الأخرى، واستطاع توحيد البلاد، وأسس عاصمة في مدينة لوايانغ، ونصب نفسه إمبراطوراً معلناً تأسيس أسرة جديدة هي الهان الشرقية (25– 220 م).

استطاعت أسرة هان الشرقية الحفاظ على قوة الدولة وازدهارها، وكذلك الحفاظ على حدود الدولة كما كانت في أسرة الهان الغربية، وأصبح الاقتصاد أكثر ازدهاراً. ولكن بعد مرور ستين عاماً من تأسيس أسرة هان الشرقية، استشرى الفساد السياسي في البلاد، ناهيك عن التناحر والاقتتال بين المسؤولين في البلاد، ووقع الشعب في شرك لُجة عميقة ونيران محرقة، مما أدى إلى اندلاع «انتفاضة العمائم الصفراء» في عام 184م بقيادة تشانغ جياو (؟– 184م). وعلى الرغم من إخفاق هذه الانتفاضة بسبب قمع الحكام، ولكن نجم عنها نشوب صراعات بين القوى الانفصالية الكبيرة والصغيرة، وبرز تساو تساو (155– 220م) من بين تلك القوى المتناحرة واستطاع توحيد شمال البلاد، ثم ما لبث أن واجه مقاومة مشتركة من جانب صون تشوان ويو بي، وانهزمت قواته وعاد أدراجه إلى الشمال، ويعرف ذلك في التاريخ باسم «حرب الجدار الأحمر». وبعد وفاة تسا تساو، أسس ابنه تساو بي مملكة وي، واتخذ لوا يانغ عاصمة لها، وأسس صون تشوان مملكة وو وجعل عاصمتها في نانكين بعد أن احتل الحوض الأسفل والأوسط لنهر اليانجتسي. أما ليوبي (161– 223) فقد فرض سيطرته على سيتشوان وأسس مملكة

شو (221– 263م) واتخذ تشنغدو عاصمة لها. ودخل التاريخ الصيني مرحلة «الممالك الثلاث المتحاربة» التي استمرت من 200م إلى 280م.

المبحث السابع

مملكة وي وأسرة جين والأسر الجنوبية والشمالية

عاشت مملكة وي، وأسرة جين والأسر الجنوبية والشمالية ثلاثمائة سنة ونيف، وتمثل أخطر المراحل في التاريخ الصيني من الفوضى والاضطراب، والقلاقل والزعازع. وادى الاندماج بين القوميات ونشوب الحروب بينها إلى نشوء أوضاع تتسم بالضعف والازدهار أيضاً. وعلى الرغم من أن الممالك الثلاث وي، تشو، وو سنت خاضت حروباً مستمرة بلا انقطاع، ولكن انتهجت كلُ منها سياسة مغايرة للأخرى، بما يحقق تطوير المجتمع، كما شهد أيضاً اقتصاديات تلك الممالك تطوراً ملحوظاً، وخاصة إقامة معسكرات عمل من الجنود والفلاحين في شمال البلاد، وتأسيس صناعة السفن في مملكة وو، وجهود مملكة شو المضنية الهادفة إلى تحسين العلاقات بين القوميات، جعل ذلك كله التطوير الاقتصادي في المنطقة يتحلى بالقوة الدافعة. ووصلت قوات مملكة وو إلى مقاطعة تايوان، وبدأت بينها وبين البر الرئيسي الصيني الاتصالات السياسية. وفي عام 263م ابتلعت مملكة وي، أقوى الممالك الثلاث، مملكة شو. ثم انتزع سيما يان (236– 290) وزير أسرة وي الأول سلطاتها العليا حيث أسس أسرة جين التي سميت «جين الغربية» (265– 361). وفي عام 280، أي بعد مرور خمسة عشر عاماً من تأسيس هذه الأسرة، أسقط سيما يان أسرة وو فوحد الصين.

ولكن أسرة جين الغربية تربعت على العرش لمدة أكثر من خمسين عاماً، ثم أفل نجمها، وذلك بسبب أن البيروقراطيين الأرستقراطيين عاشوا حياة البذخ والترف وعاثوا في البلاد فساداً. وأدى دلك –بلا ريب– إلى زيادة الأعباء الملقاة على كاهل الفلاحين. كما زادت وتيرة التناقض الحاد بين القوميات، فقد انتقلت أقليات من الشمال إلى داخل منطقة سور الصين العظيم وكانت تتحدى دائماً الحكم التعسفي لأسرة جين. وحدثت صراعات في البلاط الإمبراطوري لهذه الأسرة للتكالب على السلطة وتحقيق المآرب الشخصية والنهب، ووقع اقتتال بين بعض أفراد الطبقة الحاكمة، وبدت للعيان ظاهرة «الاضطراب والفوضى في صفوف ثمانية ملوك». واستغل زعيم قبائل شينغنو ليو يوان في مقاطعة شانشي تدهور الأوضاع داخل أسرة جين، فأعلن معارضته لها ونصب نفسه إمبراطوراً، وبعد أن خلفه ابنه

في الحكم ليو تشونغ شن هجوماً على مدينتي لوايانغ وتشانغآن تباعاً، وأسر زعماء هذه الأسرة معلناً زوال ونهاية حكم أسرة جين الغربية. وفي غضون ذلك ، انشطرت الصين إلى جزأين الشمال والجنوب، حيث تأسست أسرة جين الشرقية (317– 420) على أنقاض أسرة جين الغربية في الجنوب، واستمر حكمها أكثر من مئة سنة. أما الشمال فقد عُرف ما يُطلق عليه في التاريخ الصيني «الأقليات الخمس والدويلات الست عشرة». وفي أواخر القرن الرابع، حاولت أسرة أسسها أرستقراطيو قومية وي اكتساح الشمال، ووضعت خطة للهجوم على قوات جين الشرقية بقيادة فوجيان في عام 383م، ووقعت المعركة الحاسمة بين الجانبين في نهر فيشوي في مقاطعة آنهوي. وكانت النتيجة انهيار هذه الأسرة، وعاد الوضع في أقاليم الشمال إلى ما كان عليه، ودخلت الصين عصر الأسر الجنوبية والشمالية (420– 589م).

وفي عام 420 توج ليو يوي أحد زعماء أسرة جين الشرقية نفسه إمبراطوراً عقب نفي إمبراطور أسرة جين الشرقية، معلناً بذلك قيام أسرة سونغ (420– 479). وفي المئة وستين سنة التي تلت تأسيسها ظهرت على التوالي أسر ثلاث غيرها، هي: أسرة تشي (479 – 502)، وأسرة ليانغ (502– 557)، وأسرة تشن (557– 589)، وسميت هذه الأسرة الأربع التي انحصر نفوذها في جنوب الصين بـ «الأسر الجنوبية» في تاريخ الصين.

وفي الوقت نفسه، نهضت قومية شيانبي في غرب منغوليا الداخلية وشمال شانشي، وأقامت أسرة وي الشمالية (386– 534)، ثم وحدت وادي النهر الأصفر عام 439، ووضع ذلك نهاية للقوى الانفصالية التي هيمنت على شمال الصين منذ سقوط أسرة تشين. وفي وقت لاحق، انشطرت أسرة وي الشمالية إلى: وي الشرقية (534– 550)، وي الغربية (535– 557) بيد أن هذا الوضع لم يدم طويلاً حتى حلت أسرة تشي الشمالية (550– 577) محل وي الشرقية. وكذلك تبدلت وي الغربية بأسرة تشو الشمالية (557– 581)، التي ابتلعت تشي الشمالية في نهاية الأمر. وعُرفت هذه الأسر الخمس التي ظهرت بالتتابع في مناطق الصين الشمالية باسم «الأسر الشمالية».

وعلى الرغم من المجابهة الشرسة بين الأسر الجنوبية والشمالية، ولكن ظل الاقتصاد والثقافة في المجتمع يحرزان تطوراً مطرداً، ولاسيما في جنوب نهر اليانجتسي حيث رحل الشماليون إلى الجنوب وجلبوا معهم تقنية الإنتاج الزراعي المتقدمة التي عززت التنمية

الاقتصادية في هذه المنطقة بشكل أكبر. ومن الأحداث التاريخية المهمة التي شهدتها هذه الفترة قيام إمبراطور وي الشمالية بنقل العاصمة إلى لوايانغ، ونشر سياسة قومية الهان، ودراسة آداب السلوك والمراسم في أسرة قومية الهان، واستخدام ألقاب هان، وتشجيع الزواج بين قبيلتي هان وشيانبي، مما حقق الاندماج الواسع النطاق بين القوميات التي تقطن في الشمال، وفي الواقع، أن الأوضاع التي شهدتها مملكة وي، وأسرة جين والأسر الجنوبية والشمالية من الفوضى العارمة وظهور القوى الانفصالية يعد في حد ذاته تجسيداً للصراع بين القوميات، والاندماج بين القوميات أيضاً، ويمثل ذلك مرحلة مهمة بالنسبة للعائلة الكبرى وهي الأمة الصينية.

المبحث الثامن

عصر أسرتي سوي وتانغ

إن التنمية الاقتصادية والامتزاج بين القوميات في الجنوب والشمال قدما الظروف المواتية لإعادة توحيد الصين من جديد. ففي عام 581م استولى يانغ جيان (541– 604) الذي كان كبير الوزراء في أسرة تشو الشمالية وكان من قومية هان، على السلطة، ونصب نفسه إمبراطوراً لأسرة سوي الجديدة (581– 618م) وعاصمتها تشانغآن، واطلق على نفسه لقب «ون دي» كإمبراطور، كما قاد حملة إلى جنوب الصين وأسقط أسرة تشين التي كانت الأسرة الأخيرة من الأسر الجنوبية، ووضع نهاية لحالة التمزق التي تسود الصين خلال أكثر من مائتين وسبعين عاماً، وسارت الصين على درب التوحيد مرة أخرى، وفي بداية أسرة سوي، استطاع الإمبراطور ون دي الذي حكم البلاد من 589– 604م، إعادة بناء البلاد من الداخل، وتعزيز سيادة القانون، وتوسيع الدولة. ولذلك تطور الإنتاج بشكل أكبر، وزاد عدد السكان. ولكن عندما توفي الإمبراطور ون دي في عام 604، وخلفه ابنه الإمبراطور يانغ دي (569– 618) حكم البلاد حكماً استبدادياً، واضطلع بالبناء والعمران على نطاق واسع، وإرسال الحملات العسكرية التوسعية إلى الخارج، مما جعل الشعب يعاني من الشقاء ويعيش في الفاقة، وساد البلاد الفوضى والاضطراب. وفي عام 618م اغتيل الإمبراطور يانغ دي في يانغتشو بمقاطعة قانصو على يد أحد جنرالاته. وبهذا كانت نهاية مملكة سوي التي استمرت 37 عاماً.

أدت الانتفاضات الفلاحية في أواخر عهد أسرة سوي إلى انقلاب عسكري في تاييوان بمقاطعة شانشي قام به لي يوان (566– 635)، أحد كبار الموظفين في حكومة سوى، ونصب نفسه إمبراطوراً ومعلنا تأسيس أسرة تانغ (618– 907). وأعاد هذا الإمبراطور الجديد بمساعدة ابنه لي شي مين (599– 649) حكم طبقة ملاك الأراضي على نطاق واسع، وذلك بعد الانتهاء من قمع انتفاضات المزارعين وتصفية السلطات المحلية. وتسلم لي شي مين عصا السلطة من أبيه في عام 626م، وأصبح أشهر أباطرة الصين وحمل لقب الإمبراطور تانغ تاي تسونغ وامتد حكمه ثلاثة وعشرين عاماً من 626– 649م.

ويعتبر عصر أسرة تانغ في تاريخ الصين من أزهى العصور التي شهدت تطوراً وازدهاراً بعد

أسرة هان، حيث التطور، والازدهار الاقتصادي والسلطة السياسية التي تفوقت على حكم أسرة هان. ولذلك تبوأت أسرة تانغ مكانة مرموقة ومتقدمة في العالم آنذاك، وخاصة في عهد الإمبراطور لي شي مين الذي عاصر أفضل الفترات في التاريخ الصيني التي شهدت التنمية والازدهار. واستخلص الإمبراطور الدروس والعظات من زوال أسرة سوي، واهتم بتنفيذ سياسة القانون، وكرس جهوده من أجل حياة الشعب، وشجع حرية الرأي، واستفاد من أصحاب المواهب والكفاءات، واضطلع بسياسة التنوير في جميع المجالات، واستطاع إقامة مجتمع ينعم بالرخاء والرفاهية والاستقرار. وبعد ذلك تولى العرش الإمبراطوري وو تسي تيان وهي أول إمبراطورة في تاريخ الصين حكمت البلاد في الفترة من 690– 704م، وكانت تمتاز بالخبرة والحكمة والكفاءة، واستغلال المواهب في المجتمع، وانتهجت سياسة تشجيع التنمية الزراعية، ومن ثم استطاعت الحفاظ على قوة الدولة وازدهارها. وعندما عاجلتها المنية، خلفها في الحكم ابنها لي شيان فو، وعلى الرغم من الانقلابات والكوارث داخل أروقة البلاط الإمبراطوري، لكن تمكن الإمبراطور شوان زونغ من السيطرة على تقاليد الأمور في البلاد، وظلت البلاد غنية عامرة بالسكان. لقد بلغت إمبراطورية تانغ ذروة الازدهار، وتوسعت حدودها بصورة لم يسبق لها مثيل، وحقق الاقتصاد ازدهاراً منقطع النظير، واتسع نطاق التبادلات والاتصالات مع الدول الأجنبية بصورة لم تعرفها الصين من قبل، وأثرت ثقافتها المزدهرة في الدول المتاخمة لها. وفي أواخر أيام الإمبراطور شوان زونغ تدهورت الإمبراطورية من سيئ إلى أسوأ؛ حيث استشرى الفساد في أنحاء البلاد، ودست طواغيت السلطة أنفها في شؤون البلاد. وبعد انقضاء أكثر من مئة سنة، استأثر بالسلطة الوزراء وكبار الموظفين وتكالبوا على مقاليد السلطة، ونشبت بينهم صراعات مريرة، وزاد نفوذ القوى الانفصالية في خارج البلاد، واندلعت –في نهاية المطاف– انتفاضة عارمة بزعامة هوانغ تشاو.

ولكن كان الإخفاق من نصيب انتفاضة هوانغ تشاو، وتفتت أوصال إمبراطورية تانغ وبدأت شمسها تميل نحو المغيب. وشهدت الصين الانقسامات الكبرى والقوى الانفصالية، ويعرف ذلك بمرحلة «الإمبراطوريات الخمس والممالك العشر» (907– 960). وشهدت هذه المرحلة تعاقب العديد من الأسر في شمال الصين، وانتشرت الحروب والصراعات على نطاق

واسع، ومُني الاقتصاد بخسائر جسيمة، بينما كان جنوب البلاد ينعم بالاستقرار إلى حد ما، وبالتطور الاقتصادي المستقر أيضاً، ونزح عدد كبير من أهل الشمال إلى الجنوب، وانتقل مركز الثقل الاقتصادي في الصين إلى الجنوب بصورة مطردة.

المبحث التاسع

الأسر سونغ ويوان ومينغ وتشينغ

لم تستمر حالة الفوضى والانقسامات التي شهدتها الإمبراطوريات الخمس والممالك العشر. ففي عام 960 تمرد تشاو كوانغ ين (927– 976) القائد العام لقوات أسرة تشو اللاحقة واستولى على السلطة وأنشأ إمبراطورية سونغ الشمالية متخذاً من كايفنغ عاصمة لها. وحكم البلاد في الفترة من 960 إلى 975، استطاع خلالها توحيد الجزء الأكبر من أراضي الصين. ولكن نهضت عدة قبائل بدوية في الشمال وأصبحت تتقوى يوماً بعد يوم مثل قبيلة خيتان التي أسست «مملكة لياو»، وقبيلة تشيانغ التي أسست مملكة شيا الغربية (1038– 1227). ومن ثم تجابه أسرة سونغ الشمالية –منذ ولادتها– ثورة عدوانية خارجية شديدة البأس أصابتها بالضعف والوهن، ناهيك عن تضخم الهياكل البيروقراطية بصورة لم يسبق لها مثيل وزادت حدة الأعباء العسكرية، وتفاقمت حدة التناقض الطبقي داخل البلاد، والسعي وراء المصالحة وتحقيق الانسجام مع البلدان الخارجية والحفاظ على السلام المشوب بالذل والخنوع. وعلى الرغم من تنفيذ حكام أسرة سونغ الشمالية «إصلاحات وانغآن شي» بهدف إثراء الدولة وتقوية الجيش، ولكن في ظل تعنت وتزمت القوى المحافظة، أخفقت تلك الإصلاحات في تحقيق الهدف المنشود، وتعاظمت حدة المشاكل الاجتماعية، وباتت السياسات الخارجية والداخلية تعاني من مأزق لا مخرج منه، واندلعت انتفاضات ضد أسرة سونغ الشمالية. وفي هذه الأثناء، نشأت قبيلة نيويتشن في الشمال الشرقي، وأسست إمبراطورية جين (1115– 1234) التي قضت على مملكة لياو، واتجهت قواتها نحو الجنوب في محاولة للقضاء على إمبراطورية سونغ التي كان إمبراطورها هوي تسونغ وزمرته الحاكمة في حالة انحطاط وفساد شديدين، وبذلك انتهت أسرة سونغ الشمالية بعد أن استولت قوات نيفويتشن على كايفنغ عاصمة سونغ في عام1126. وتشهد الصين مرحلة المجابهة بين الجنوب والشمال (1127– 1279)؛ بين أسرة سونغ الجنوبية ومملكة جين.

نزح الإمبراطور قاو تسونغ مع موظفيه السياسيين والعسكريين إلى جنوب نهر اليانجتسي وأسس في لينآن (هانغتشو اليوم) إمبراطورية سونغ الجنوبية في عام 1127. في السنوات الأولى

من تأسيس سونغ الجنوبية، تعرض حوض النهر الأصفر للغزو والنهب من قبل قوات نيويتشن، فهب الفلاحون هنالك يحملون الأسلحة ضد الغزاة، وظهر من بينهم أبطال وطنيون مثل يوه فيي (1103– 1142). ولكن حكومة سونغ الجنوبية كانت في قبضة المستسلمين بزعامة تشين قوي الذي امتنع عن تأييد القوات الفلاحية العاملة في مؤخرة العدو وغدر بالأبطال الوطنيين.

في عام 1206، نهض المغول الذين كانوا يعيشون في حوض نهر أونان في شمال شرقي هضبة منغوليا بقيادة زعيمهم المشهور جنكيزخان (1115– 1227) وأصبحوا قوة تهز العالم. وخلال أكثر من ثلاثين عاماً بين 1218– 1253، قهرت قبائل المغول جميع الدول الواقعة في غرب الصين، فتغلبوا على مملكة شيا الغربية، ثم زحفوا إلى أقصى الغرب واستولوا على آسيا الوسطى وروسيا وبعض بلدان أوروبا الشرقية. وفي عام 1234، دمروا إمبراطورية جين التي أسستها قبيلة نيويتشن في حوض النهر الأصفر.

وكانت أسرة سونغ الجنوبية تتعرض دائماً لهجمات المغول بدءاً من عام 1234 ولمدة ستة وأربعين عاماً. وقد لجأ المغول إلى استراتيجية التطويق قبل أن يشنوا هجوماً مباشراً على سونغ الجنوبية، فاحتلوا يونان والتبت عن طريق تشينغهاي، ثم دخلوا فيتنام، ثم استولوا على سيتشوان. وفي 1276 استولوا على لينآن عاصمة سونغ الجنوبية بقيادة كوبلاي خان الذي حكم من 1260 إلى 1294، وما يُطلق عليه في تاريخ الصين الإمبراطور شي تسو في أسرة يوان. ورغم مقاومة الجيش والشعب في ظروف صعبة، إلا أن القوات المنغولية استولت على قوات سونغ الجنوبية ونشرت سيطرتها على أنحاء الصين.

وعلى الرغم من أن أسرة يوان (1271– 1368) كانت إمبراطورية أسستها الأقليات التي كانت تقطن في شمال الصين، لكنها كانت أسرة مترامية الأطراف إستطاعت بجدارة توحيد الصين بصورة لم يسبق لها مثيل، فقد تمكنت من توحيد وتطوير أركان الصين التي تتألف من عدة قوميات مختلفة، ووضعت أساس الحدود الصينية فيما بعد. ولكن أسرة يوان انتهجت سياسة التعسف الوحشية ضد القوميات؛ حيث قسم حكام يوان السكان إلى أربع درجات: المغول في الدرجة الأولى، وشعب سمو (من المناطق الغربية) في الدرجة الثانية، وشعب الهان في الثالثة، وشعب الهان الجنوبي في الأخيرة. ونفذوا سياسة التميز العنصري ضد قومية

الهان بصفة عامة وأهل الجنوب، وخلق ذلك التناقضات القومية الحادة. بالإضافة إلى الفساد السياسي المستشري في البلاد والكوارث الطبيعية في أواخر أسرة يوان، مما أثار الغضب والحنق في أنحاء البلاد وتجسد في «انتفاضة الشالات الحمراء المسلحة الكبرى». واستطاع تشو يوان تشانغ (1328– 1398) الاستفادة من قوة هذه الانتفاضة، واستطاع أيضاً تصفية خصومة الآخرين، ووحد الصين كلها، وأسس العاصمة نانكين، إيذاناً بتأسيس أسرة مينغ (1368– 1644).

وبعد موت تشوان يوان تشانغ، استولى على العرش ابنه الرابع المعروف بالإمبراطور تشنغ تسو (1360– 1424) ونقل العاصمة إلى بكين، وأحكم قبضته على شمال الصين. وفي خلال حكم أسرة مينغ الذي بلغ أكثر من مائتي سنة، تطور الاقتصاد السلعي تطوراً هائلا، وازدهرت التجارة الرأسمالية، وشهدت المدن الصناعية والتجارية رخاء بصورة مطردة، مما يدل على وجود إرهاصات علاقات الإنتاج الرأسمالي. ولكن تدهورت الأوضاع بصورة خطيرة داخل البلاد جراء السلطة الاستبدادية لخصيان القصر، وحلت النكبات والكوارث بالشعب والبلاد إلى أبعد حد، بالإضافة إلى قراصنة اليابان الذين سببوا أضراراً بالغة وكوارث جسيمة بأهل المدن الساحلية. كما بدأ الإمبرياليون الغربيون احتلال مقاطعتي تايوان ومكاو، ودشنوا تاريخ المستعمرات في الصين.

في أواخر أسرة مينغ، تعززت قوة قبيلة نيوتيشن أكثر فأكثر، وتوحدت البلاد مرة أخرى تحت قيادة الزعيم نرهاشي الذي أسس أسرة «جين اللاحقة» في عام 1616، وغيروا اسمها فيما بعد إلى أسرة تشنغ التي حددت دوماً سلطة أسرة مينغ، ثم اندلعت انتفاضة فلاحية عارمة في داخل البلاد بسبب قمع المزارعين، وذلك بقيادة لي تسي تشنغ، وفي عام 1644 اقتحمت قواته مدينة بكين وانهت حكم أسرة مينغ بانتحار الإمبراطور تشونغ تشنغ (1628– 1644) شنقاً على تلال جينغشان خلف القصر الإمبراطوري في بكين.

حاولت أسرة تشنغ استغلال التناقض الداخلي في الانتفاضة المسلحة بقيادة لي تسي تشنغ، واستطاعت التواطؤ مع الخائن وو سان قوي ودحرت الانتفاضة واقتحمت بكين، واستطاعت حكومة تشنغ توحيد الصين كلها. ومن أبرز الأحداث السياسية الهامة التي شهدتها تلك الفترة كان توحيد تايوان مع الوطن الأم في عام 1662، وترسيم حدود الصين مع

روسيا، بالإضافة إلى ترسيم حدود كل من تشنغهاي ومنغوليا وشينجيانغ والتبت وإدماجها في الحكومة المركزية، ووضعت بذلك إرهاصات خريطة الصين حتى الوقت الحاضر. وانتهجت حكومة تشنغ سياسة تشجيع الإنتاج الزراعي وزيادة السكان حتى جعلت التنمية الاقتصادية في المجتمع تتفوق على أسرة مينغ.

تميزت الإمبراطورية تشنغ في عهد الإمبراطور تشيان لونغ (حكم البلاد من 1736–1795) بقوتها وازدهارها. ومنذ عام 1756 عززت سلطتها وحكمها في التبت وشنجيانغ. ولكن الفساد استشرى منذ السنوات الأخيرة من حكم الإمبراطور تشيان يونغ، واندلعت الثورات الشعبية بعد أن اعتلى الإمبراطور جيا تشنغ العرش، مما جعل إمبراطورية تشنغ تسير في طريقها إلى الانحطاط. وفي 1774، رفع وانغ لون راية الانتفاضة ضد أسرة تشينغ. كما وقعت انتفاضات تحت قيادة جمعية اللوتس الأبيض وجمعية القوة السماوية، مما أضعف حكم تشينغ إلى حد كبير. وفي عام 1840 شنت بريطانيا حرب الأفيون على الصين واحتلتها، وأجبرت أسرة تشنغ على فتح الموانئ الصينية أمام التجارة البريطانية، واقتطعت جزءاً كبيراً من الأراضي الصينية، ودخلت الصين عصر المستعمرة وشبه المستعمرة.

المبحث العاشر
مرحلة التاريخ الحديث

منذ أن احتل الإمبرياليون الغربيون تايوان ومكاو في الصين، بعثوا إلى الشرق المبشرين والمبعوثين الدبلوماسيين بلا انقطاع، من أجل القيام بالتبشير وتأسيس علاقات دبلوماسية مع الصين وتنمية التبادل التجاري. وأرسل المستعمرون البريطانيون كميات كبيرة من الأفيون إلى الصين وسببوا أضراراً فادحة للشعب الصيني. وفي عام 1838م تحرك لين تسه شيوي (1785– 1850) طبقاً للأوامر وتوجه إلى قوانغتشو لمكافحة الأفيون. وفي تلك الأثناء، أرسلت بريطانيا أكثر من خمسين ألف صندوق من الأفيون إلى الصين. وفي العام التالي، تمكن لين تسه شيوي من جمع الأفيون وحرقه وفرض حظراً على تجارة الأفيون ونقله إلى الصين. ومن أجل أن يحمي الاستعمار البريطاني مصالحة وكرامته، أرسل السفن الحربية التي هاجمت ودكت بالمدافع مقاطعتي قوانغدونغ وتشجيانغ، وكانت النتيجة هزيمة جيش أسرة تشنغ التي أجبرت في عام 1842 على إبرام معاهدة «نانكين» مع بريطانيا، ودفعت بمقتضاها للأخيرة تعويضات حرب وتنازلت عن جزء من أراضي هونج كونج، وفتحت خمسة موانئ تجارية هي: قوانغتشو، فوجيان، وشيامين، ونينغبو، وشانغهاي. وكان ذلك إيذاناً ببدء تاريخ الإذلال للأمة الصينية في العصر الحديث.

ولكن الشعب الصيني رفض معاهدة الإذلال هذه، واندلعت مقاومة مستمرة ضد المستعمرين في قوانغتشو وفي سائر الأماكن الأخرى، مما أدى إلى نشوب حرب الأفيون الثانية في عام 1856م. واجتاحت القوات البريطانية –الفرنسية المشتركة أراضي الصين الشمالية، كما تحرك الأسطول الروسي وأجبر حكومة تشينغ على إبرام «المعاهدة الصينية –الروسية»، تنازلت الصين عن أراضٍ مساحتها أكثر من مئة ألف كيلو متر مربع في شمال مقاطعة هيلونغجيان لروسيا. وبعد ذلك، أجبرت روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا أسرة تشينغ على إبرام معاهدة أخرى المعروفة باسم معاهدة «تيانجين» من أجل فتح المزيد من الموانئ التجارية والسماح لتلك الدول بالتبشير بحرية والاستمرار في دفع تعويضات. ولا يمكن إطفاء جذوة جشع القوى الاستعمارية وتعاظم مطالبها الاستعمارية. ففي عام 1860،

قامت القوات البريطانية –الفرنسية بالتقدم إلى تيانجين ودخلت بكين وحرقت القصر الصيني يوان مينغ يوان، واضطرت أسرة تشنغ أن تبرم معها معاهدة «بكين» التي زادت من أعباء التعويضات على كاهلها والسماح للدول الأجنبية بأن تتمتع بـ«سلطة القضاء القنصلي» و«استخدام البحار والخطوط الجوية في داخل البلاد».

وفي تلك الفترة، أسس هوانغ شيو تشيوان (1814– 1864) جمعية «عبادة الرب»، وقاد انتفاضة فلاحية عارمة في قوانغشي في عام 1851، واحتل مدينة نانكين وأسس مملكة تاييبنغ السماوية. وفي عام 1853، أنشأت تاييبنغ حكوماتها في نانكين، وأول عمل قامت به هو إصدار «نظام الأرضي السماوي» وهو يقضي بإلغاء نظام ملكية الأرض القديم، ووجوب تهيئة قدر معين من الأرض لكل فلاح لضمان معيشته، وأظهر ذلك روح حكومة تاييبنغ الثورية المعادية للإقطاع، وجسد من جهة أخرى أحلام التوزيع المتساوي المطلق للأراضي، ولكن لم يكتب النجاح لجهود مملكة تاييبنغ في تحقيق أحلامها المثالية في المجتمع، حيث تآمرت قوى أسرة تشينغ مع القوى الاستعمارية على اقتحام مدينة نانكين، ومن ثم تم إجهاض هذه الثورة الفلاحية. ولكن بدأ الفساد ينخر في جسد أسرة تشنغ، وبدا انهيارها وشيكاً وحتمياً.

وبعد قمع وفشل ثورة مملكة تاييبنغ، أدرك بعض القادة الثوريين من خلال الممارسة العملية قوة الأجانب وأسلحتهم، ويجب التعلّم من الأجانب، وشن الثوري لي هونغ تشنغ حملة تقوية البلاد اعتمادا على نفسها، وتركزت أهدافها على إرسال الطلاب الصينيين للدراسة في الدول الأجنبية، وشراء الأسلحة والمعدات الأجنبية، وإقامة المصانع في البلاد واستغلال المناجم، ويعرف ذلك بـ «حملة الشؤون الأجنبية» في تقوية الصين. ولكن واجهت هذه الحملة معارضة شديدة من جانب متصلبي الرأي والمتزمتين داخل القصر الإمبراطوري.

وفي عام 1894، شهدت كوريا اضطرابات داخلية، وأرسلت حكومة تشنغ مساعدات عسكرية إلى كوريا بموجب طلبها، كما أرسلت الحكومة اليابانية قوات عسكرية إلى هناك أيضاً. ونشبت الحرب الصينية– اليابانية (1894– 1895)، وأجبرت اليابان حكومة تشنغ على توقيع معاهدة شيمونوسكي في عام 1895، التي تخلت بموجبها عن شبه جزيرة لياو دونغ وتايوان وجزر بنغهو لليابان. وبذلك تعرضت الصين للإذلال وامتهان كرامتها من قبل القوى الاستعمارية في الشرق والغرب. لقد فعلت الدول الإمبريالية مستفيدة من الطبقة

الحاكمة الفاسدة في الصين أقصى استفادة، وما طاب لها، ونهبت الصين بأحقر الوسائل ، وألقت هذه الحالة المزرية الشعب الصيني في حضيض الشقاء، بينما أدت في المقابل إلى تطوير الوضع الثوري في الداخل. وظهرت أفكار الإصلاح البرجوازي في بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر وقدم كانغ يو وي (1858– 1927) مذكرة إلى الإمبراطور قوانغ شيوي في عام 1895 يعارض فيها معاهدة شيمونوسكي ويطرح مقترحات من أجل الإصلاح السياسي، وهكذا بدأت الحركة الإصلاحية وكان مؤيدها أيضاً ليانغ تشي تشاو، ولذا عرفت هذه الحركة باسم «إصلاح كانغ وليانغ». ولكن هذه الإصلاحات واجهت معارضة شديدة من جانب المحافظين في البلاط الإمبراطوري بزعامة الإمبراطورة الأم تسي شي، مما أصاب هذه الحركة بالفشل الذريع. وكانت النتيجة أن تسي شي تحركت وتسببت في اعتقال الإمبراطور قوانغ شيوي وسجنته وأعلنت استئناف وصايتها على العرش في 21 سبتمبر 1898، وأعدمت ستة من الإصلاحيين من بينهم تان سي تونغ، وفر كانغ وليانغ إلى اليابان.

لم تكف الدول الإمبريالية عن غزو الصين واحتلالها، مما أثار سخط وحنق الشعب الصيني. ومنذ عام 1898 فصاعداً تشكلت منظمة من فلاحي شاندونغ عرفت باسم «يي خه توان» لمناوأة الإمبريالية، وكان شعارها «مساعدة أسرة تشنغ وإبادة الأجانب»، ثم ما لبث أن تعاظمت قوتها وانتشرت بسرعة في شمال البلاد، وفي الوقت نفسه، استغلت أسرة تشنغ هذه المنظمة لمعاداة الأجانب. وفي يونيو عام 1900، كونت روسيا واليابان وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا وإيطاليا والنمسا قوات مشتركة وهاجمت بكين للمرة الثانية، وأجبرت حكومة تشنغ على توقيع معاهدة عام 1901. وبموجبها دفعت الصين تعويضاً مقداره 450 مليون تايل مس الفضة، وسمحت للقوات الإمبريالية أن ترابط في كل النقاط الاستراتيجية في المدن الصينية، ولم تعد الصين دولة تتمتع بالاستقلال وتقطعت جميع السُبل بأسرة تشنغ. وأصبحت الإمبراطورة الأم تسي شي والإمبراطور قوانغ شي في مهب الريح ولقيا حتفهما تباعاً، وتولى مقاليد الحكم الإمبراطور الصغير باو يي، وكان عمره آنذاك ثلاث سنوات فقط. وفي عام 1911 قاد الدكتور صن -يات- صن انتفاضة وو تشانغ في قوانغتشو تحت قيادة الحزب الثوري والتي أحدثت ضجة كبرى في كافة أنحاء البلاد. وأسس الحزب الثوري حكومة مؤقتة في نانكين، وتم اختيار صن- يات- صن رئيساً لهذه الحكومة وتنازل باويي

عن الحكم. وعرف ذلك في التاريخ باسم «ثورة 1911». وتم تأسيس جمهورية الصين في عام 1912، ومات رغم أنفه تاريخ الأسر الإقطاعية الحاكمة الذي دام عدة آلاف من السنين في الصين.

لم ترغب الإمبريالية عن طيب خاطر في التنازل عن مصالحها في الصين، واعتمدت على قوتها في معاضدة أمراء الحرب في الصين، واستطاع أمير الحرب في الشمال يوان شي كاي اغتصاب سلطة رئيس الجمهورية المؤقت، وبدأ يفرض سيطرته على الصين من خلال نشوب الحرب بين أمراء الشمال. وفي عام 1915، استعاد يوان شي كاي النظام الإمبراطوري ونصب نفسه إمبراطوراً، وثارت ضده معارضة شديدة في كافة أنحاء البلاد، ثم لقي حتفه بعد مرور ثلاثة وثمانين يوماً على تنصيبه نفسه. وهكذا كان النظام الإقطاعي يتخبط في نزاعه الأخير ورحل عن هذا العالم ولم يعد يستطيع مقاومة التيار الثوري الجارف. وبعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا في أكتوبر 1917، انتشرت الماركسية في شتى بقاع الصين، وتأسس الحزب الشيوعي الصيني في يوليو عام 1921، وبدأ تاريخ الصين يشهد مرحلة جديدة ومشرقة.

الفصل الرابع

أسماء الأسر والأفراد والألقاب والكُنى

ترمز أسماء الأسر إلى علاقة أواصر الرحم في الهيكل الاجتماعي، وأضاف إليها أعضاء المجتمع بعض النصوص واللوائح في عملية التطوير بهدف تنسيق هذا الهيكل والحفاظ عليه، ثم تبلورت ملامح نظام أسماء الأسر. ويتعدد ويتنوع نظام أسماء الأسر في جميع الدول والأمم بسبب العناصر المتباينة من القوميات واللغات والأديان وغيرها. وعلى سبيل المثال، أسماء الأسر في الدول الغربية تتحلى بطابع ديني كثيف، بينما تتسم في الصين بخاصية نظام المشيخة العشائرية بصورة أساسية. ومن ثم، تعتبر أسماء الأسر نوعاً من الخصائص الثقافية، ومضمونها ثري وغزير جداً.، كما تعتبر نظاماً ثقافياً، وملامحها الثقافية الشاملة بارزة للعيان. ولا يستثنى من ذلك نظام أسماء الأسر في الصين.

ونظام أسماء الأسر الذي نتحدث عنه في الصين يشير إلى هذا النظام الذي يستخدمه السواد الأعظم من الشعب الصيني وقائم بصورة أساسية على سكان قومية هان، ويتحلى ببعض الخصائص التالية: (1) هو ثمرة علاقة قرابة الدم بين القبائل ويجسد نظام المشيخة العشائرية وتاريخه موغل في القدم، ويعد من أقدم أنظمة أسماء الأسر في العالم. وإذا أردنا أن نبحث أغوار مصدر اسم أسرة شخص ما، يمكن أن نعود إلى عدة آلاف خلت من السنين. ويُعد ذلك شيئاً قلما نراه في تاريخ العالم. (2) نظام أسماء الأسر اندمج مع نظام الطقوس الإقطاعي في مرحلة المجتمع الإقطاعي، حيث تباهى الأفراد بالكُنية والقبلية، ورفع مكانة الأسرة الكبيرة والعريقة، وأصبح الوسيلة القوية للحفاظ على نظام الحكم الإقطاعي. ومثال ذلك انتشار نظام «أسر الحسب والنسب» في مرحلة أسرتي وي وجين. (3) على الرغم من أن نظام أسماء الأسر يتمحور على أسماء الأسر العريقة في قومية هان، بيد أنه جذب واستوعب العديد من العناصر الثقافية لدى القوميات الأخرى، ولذلك أصبح رمزاً لاتحاد الأمة واندماجها في بوتقة واحدة. ويمكن أن نرى في الحياة الواقعية أن اسم أسرة «تشانغ» ليس بالضرورة أن يكون من قومية هان، وكذلك اسم أسرة «مو رونغ» ليس بالضرورة أن ينتمي إلى الأقليات.

المبحث الأول

نشأة أسماء الأسر وتطورها

متى نشأ اسم الأسرة في الصين؟ نعتقد -بصفة عامة- أن ذلك يمكن أن يرجع إلى المجتمع القبلي الذي تترأسه المرأة، حيث انقسم الناس آنذاك إلى عدة قبائل حسب نظام قرابة الدم بالأم، واتخذت كل قبيلة من الطوطم أو تضاريس مسكنها علامة تدل على تميزها عن سائر القبائل الأخرى، وهذه العلامة هي «شينغ» أي اسم الأسرة الذي كان يكتب في أسرة جين بمعنى وجود الإنسان، ثم تغير وأضيف إليه رمز المرأة. وذكر «قاموس شرح المفردات» أن: «اسم الأسرة هو حياة الإنسان، وهو مقدس منذ القدم، حيث الأم تستلهم السماء وتنجب ابناً، ولذا يطلق عليه ابن السماء، وهو يعرف الأم ولا يعرف الأب، فقد وهبته المرأة الحياة والوجود». وكما جاء في الأساطير أن الجد الأول لقومية شانغ يدعى تشي، أنجبته أمه بعد أن التهمت بيضة طائر أسود، وكذلك الجد الأول لقومية تشاو أنجبته أمه جيان يولان بعد أن وطئت آثار أقدام إله، ويعكس ذلك أحوال الزواج في المجتمع الذي ترأسه المرأة إلى حد كبير. وقد قيل إن أسماء الأباطرة والملوك في العصور الغابرة كانت تقترن برمز المرأة، مثل الأباطرة: يان، هوانغ، شاو وو، يوي شون، وشياو يوي وغيرهم. ونشأت «الكُنية» متأخرة عن اسم الأسرة بسبب تكاثر أبناء وأحفاد القبيلة ذات قرابة الدم من أم واحدة، وازداد عدد السكان، وتشعبت قبيلة الأم الواحدة إلى عدة قبائل فرعية انتقلت وعاشت في عدة أماكن مختلفة، وكانت كل قبيلة فرعية تسعى إلى تميزها من حيث «شي» أي الكُنية عن سائر القبائل الفرعية. وتعددت الكُنى بسبب انقسام القبيلة إلى عدة قبائل فرعية. ولذلك يمكننا القول إن اسم الأسرة يمثل قرابة الدم في نظام تترأسه المرأة، بينما الكُنية تمثل فرع القبيلة، واسم الأسرة لا يتغير، ولكن الكُنية يمكن أن تتغير، واسم الأسرة يميّز رابطة الرحم، والكُنية تميز الأبناء والأحفاد. ويعد ذلك في حد ذاته الفرق الأساسي بين اسم الأسرة والكُنية في المرحلة المبكرة الأولى.

وعندما تأسست الأسر الثلاث شيا، شانغ، وتشو، كانت وظيفة اسم الأسرة الحفاظ على الفروق الأصلية واتسم بالطابع الطبقي الكثيف، وخاصة الكُنية التي يحصل عليها المرء

بمقتضى منحة الحاكم إقطاعة. وذكر كتاب «الأحداث التاريخية في مملكة لو» تأليف زوا تشيو مينغ، أن ابن السماء يثبت أقدام المرء صاحب الأخلاق النبيلة ويعينه ملكاً أو أميراً، ويُمنح اسمه حسب مولده، ويحصل على إقطاعة من النظام الإقطاعي القديم، ومن هنا تتحدد كُنيته. ويكتسب الحاكم لقب أبيه بعد وفاته، ويتخذ الخلف من اسم الموظف كنيته، وكذلك من اسم المحافظة التي يحصل فيها على إقطاعة. ويوضح ذلك أن الكُنية في ذلك الحين كانت ترمز إلى المكانة الأرستقراطية، الكبراء يتمتعون بالكُنية، والوضعاء يفتقرون إليها. وكان الرجل من الطبقة الأرستقراطية آنذاك يظفر بالكُنية، وإذا طرأ تغيير على إقطاعته أو وظيفته أو إقامته، تساير الكُنية هذا التغيير. وهذا ما تطلق عليه كتب التاريخ «تصنيف الرجال من كبراء ووضعاء حسب الكُنية». أما بالنسبة للفتاة فيمكن أن يطلق عليها عدة ألقاب حسب الترتيب التالي: مينغ، تشونغ، شو، جي. وبالإضافة إلى ذلك، طبقت الأسر الثلاث شيا، شانغ، تشو نظاماً صارماً مفاده: «لا يجوز الزواج بين أسماء الأسر المتشابهة. ولذلك عندما تتزوج الفتاة يضطلع اسم الأسرة بتوضيح قرابة الدم، ومن ثم يجب أن يسبق اسم الأسرة أحد الألقاب المذكورة أعلاه، فمثلاً نقول مينغ جيان، وتشونغ جيان. وعندما يقول الناس «الفتاة مينغ جيان»؛ فذلك لا يعني إطلاقاً أن اسم أسرة الفتاة مينغ، اسمها جيان، بل يعني أن اسم الأسرة جيان وحامل هذا الاسم فتاة. وبعد أن تتزوج الفتاة، يمكن أن تضع قبل اسم أسرتها المملكة التي انحدرت منها قبل زواجها، فمثلاً عقيلة دوق أسرة وي تدعى تشوانغ، واسم أسرتها جيان وجاءت إلى مملكة تشي يمكن أن نسميها «تشي جيان» وكذلك «وي جيان»، وحتى بعد وفاة زوجها يمكن أن تكتسب لقبه فتسمى «تشوانغ جيان» أو «وي تشوانغ جيان». وفي عصر أسرة تشو، كان لا يمكن التزاوج بين أبناء مملكتي جين ولو، لأن أسماء الأسر فيهما متشابه، ولكن تزاوجت الأجيال في مملكتي تشين وجين، لأن اسم الأسرة في مملكة تشين كان ينغ، ومن ثم أصبح المثل القائل: «المشاعر الفياضة والزواج الحميم بين الأسر في مملكتي تشين وجين» البديل في الزواج بينهما. ويُعد ذلك بمثابة ما تطلق عليه كتب التاريخ «اسم أسرة الفتاة يميزها في زواجها».

وفي أسرتي تشين وهان تقريباً، اندمج اسم الأسرة والكُنية في وحدة عضوية واحدة، ولا نجد اختلافاً بينهما في كتاب «سجلات تاريخية» للمؤرخ الشهير سيما تشيان. وإذا

قلنا إن أول إمبراطور في أسرة تشين يجب أن تكون كُنيته تشاو لأنه وُلد في مدينة تشاو، فذلك يوضح أن الاختلاف بين الاسم والكُنية لم يعد يتمتع بثمة أهمية بعد تأسيس المجتمع الإقطاعي الموحد.

المبحث الثاني
المصدر الأساسي لأسماء الأسر

مصدر اسم الأسرة معقد جداً.، وهناك العديد من الأطروحات والكتب المشهورة في التاريخ التي تناولت هذا الموضوع. وذكرنا في المبحث السابق كتاب «الأحداث التاريخية في مملكة لو» الذي أجمل مصادر خمسة لأسماء الأسر. وكتاب «معرفة العادات والتقاليد» لمؤلفه بينغ شاو في أسرة هان الشرقية قد توصل إلى تسعة مصادر ترتبط بأسماء الأسر، وجاء فيه: «قد يكون اسم الأسرة انبثق من الكُنية، أو من لقب مولود بعد وفاة أبيه، أو من مرتبة النبلاء أو الأشراف، أو من الأسماء الحكومية الرسمية، أو من اللقب، أو من محل الإقامة، أو من الأحداث، أو من الوظيفة». أما كتاب «تونغ جي– فصل نبذة عن القبائل» لمؤلفه تشينغ تشياو في أسرة سونغ فقد أسهب في استقراء مصادر أسماء الأسر وذكر اثنين وثلاثين مصدراً في هذا الشأن. ويسعنا في هذا المقام أن نشير إلى عدة مصادر أساسية لأسماء الأسر نجملها في النقاط التالية: (1) إن أقدم أسماء الأسر نشأت وأصبحت تتحلى بالمغزى الحقيقي واستخدمها الخلف بصفتها كُنية، وتقترن برمز الأنثى. وجاء في الأسطورة أن اسم أسرة البطل دايوي هو «نيه»، ومازال أبناؤه وأحفاده يتوارثون هذا الاسم حتى وقتنا الحاضر في مقاطعة تشجيانغ في مدينة نشاوشين عبر مائة وأربعة وأربعين جيلاً إلى الآن، والحفيد الذي ينتمي إلى الجيل المائة واثنين وأربعين ويدعى نيه يوان بي يعمل أستاذاً في كلية طب مدينة هاربين عاصمة مقاطعة هيلونغجيان. (2) تُنسب أسماء الأسر إلى أسماء الممالك. ومثال ذلك بعد تأسيس أسرة تشو، منح الإمبراطور ابن السماء الألقاب والأملاك للنبلاء، وشمل ذلك أبناء القبيلة ذات أسماء الأسر المتشابهة، والأبطال من ذوي أسماء الأسر المتباينة وأبناء وأحفاد أسرتي شيا وشانغ. وحصل هؤلاء جميعاً على مساحات مختلفة من الأراضي، وأسس الأمراء والحكام العديد من الممالك مثل: لو، وي، جين، تانغ، يوي ينتسب أسماء الأسر فيها إلى اسم أسرة الملك «جي»، أما الممالك الأخرى مثل: سونغ، تشي، وتشين وجياو تنتمي إلى أسماء أسر مختلفة. كما يستطيع حكام الممالك أن يوزعوا أراضيهم على تشينغ دافو (لقب فئة من الموظفين الكبار في الصين القديمة) ويطلق عليهم «تساي باي». ثم تعاظمت قوة هؤلاء

الموظفين وأسسوا ممالك خاصة بهم مثل: وي، تشاو، هان، ثم أصبح أسماء هذه الممالك بمثابة أسماء للأسر. وعلى سبيل المثال، في مملكة تشاو، كان جد هذه المملكة ويدعى «زاوفو» يعمل حوذيا لدى الملك مو في أسرة تشو، واسم أسرته ينغ مثل الجد الأول لأسرة تشين. وقد قيل إن الملك مو قام بجولة تفقدية في المناطق الغربية بالصين وقاد زاو فو عربته على أحسن وجه، ولذا منحه الملك إقطاعه في مملكة تشاو، ولذا أصبح اسم أسرته يحمل اسم هذه المملكة. وأصبح أحفاد هذا الحوذي من الموظفين الكبار في مملكة جين. وأوبرا بكين (يتيم أسرة تشاو) تصف مقتل شخص يدعى تشاو شوا في عهد الدوق جين لينغ في مملكة جين، وأنجبت زوجته طفلاً يتيماً يدعى تشاو وو، وقام خادم تشاو ويدعى صون تشو جيو وصديقه تشينغ ينغ بوضع خطة لحماية هذا اليتيم الذي يحمل اسم أسرة تشاو، وقاما بإخفائه في جوف الجبل، وجعلا ابن تشينغ ينغ يُقتل بدلاً من اليتيم. واستعاد ابنه تشاو وو وظيفته، وحمل حفيد أحفاده في الجيل الثالث اسم الأسرة تشاو، وكان يدعى تشاو شينغ تسي الذي أسس مملكة تشاو في عام 475 ق.م، وعاصمتها جين يانغ في مقاطعة شانشي اليوم، ثم انتقل إلى مدينة هان دان في مقاطعة خبي اليوم، وأصبحت مملكة تشاو من الممالك السبع الكبرى. ومن ثم، المصدر الأساسي لاسم أسرة تشاو يكمن في مقاطعة شانشي وانتشر في مقاطعة خبي اليوم. وفي أسرة هان الغربية، كان هناك أمير يسيطر على نانيوي يدعى تشاو توا، كما سيطر عليها تشاو يوان في الممالك الثلاث، وتشاو كوان ين في عهد الإمبراطور سونغ تاي زو كانوا جميعاً من مقاطعة خبي في الوقت الحاضر. (3) انتساب أسماء الأسر إلى الوظائف في العصر القديم مثل: سيما كونغ، سيتو، شي، لي، تشيان، زونغ، شواي. فعلى سبيل المثال، اسم الأسرة سيما، كان اسمها أصلاً تشينغ، وفي عهد الملك تشوان في مملكة تشو، كان رجل يدعى تشينغ باو لين فو تولى وظيفة سيما (مسؤول عن شؤون الحكومة والجيش). ولذلك أُطلق على أحفاده في العصور اللاحقة سيما بدلاً من تشينغ، مثل: سيما تشيان، سيما يي، سيما قوانغ. (4) اسم الأسرة ينتمي إلى اسم الجد أو الأب أو من لقبهما. ويعد ذلك من الخصائص الجلية لنظام المشيخة العشائرية. وبموجب هذا النظام يطلق على ابن الإمبراطور لقب «وانغ تسي»، ويطلق على ابن وانغ تسي لقب «وانغ صون»، بينما اسم أسرة ابن وانغ صون يكون حسب اسم الجد أو لقبه، ويطلق على أبناء الحكام والأمراء لقب «قونغ تسي»،

وابن قونغ تسي يسمى «قونغ صون»، وابن قونغ صون يكون اسم أسرته طبقاً لاسم الجد أو لقبه. ومثال ذلك الإمبراطور جينغ وانغ في مملكة تشو، كان اسم أسرة نجله وانغ تسي، واسمه الشخصي تشو، ويكون اسمه الكامل وانغ تسي تشو، ويكون اسم أسرة حفيده تشو. وفي مملكة سونغ، كان الدوق هوان من الحكام، واسم أسرة نجله كان «قونغ تسي»، واسمه الشخصي يي، ولقبه «تسي يوي»، ويكون اسمه قونغ تسي يي، واسم ابنه قونغ صون يو، واسم أسرة ابن قونغ صون يو هو «يوي» ويتماثل ذلك مع أسماء الأسر مثل: نيو، قوان، كه، فينغ، يوي، تشيو، لياو وغيرها. (5) اسم الأسرة حسب الترتيب السنّي أو الولادة، ويعتبر ذلك تجسيداً لنظام المشيخة العشائرية. ففي أسرة تشو، استخدم الناس أسماء: مينغ (باو)، تشونغ، شو، جي في الترتيب الولادي للأبناء والأحفاد، ويمكن أن يكون أسماء أسر الخلف بهذا الترتيب الولادي أيضاً. فمثلاً اسم أسرة مينغ كان جدها هو الابن الثاني للدوق هوان في مملكة لو، ويدعى هذا الابن تشينغ فو، ويقول المثل: «أن تشينغ فو لا يعرف الموت، ومن الصعب أن تندثر مملكة لو». ويوضح ذلك أن تشينغ فو كان من مثيري الشغب والقلاقل، وأطلق عليه «تشونغ صون» لأن ترتيبه الثاني من حيث الميلاد، ولكنه ارتكب جريمة قتل الملك، وشعر الجيل اللاحق بالخزي والعار، وغيروا اسمه إلى «مينغ صون» لأن ترتيبه الأول بين أبناء المحظية، وأصبح اسم أسرته مينغ، ومن ذريته الفيلسوف الصيني مينشيوس. (6) انتساب أسماء الأسر إلى ألقاب النبلاء، وألقاب الآباء بعد الوفاة. ومن ألقاب النبلاء الأكثر شيوعاً وبروزاً وانغ (الملك) وخو (الماركيز). واسم أسرة وانغ لا ينتمي إلى جد واحد، ولكن يرتبط بالأجداد الأولين الذين حصلوا على إقطاعة وأصبحوا من الملوك، أو يمت بصلة بالأجداد الذين كانوا يسمون أصلاً وانغ. وكانت أسماء أسر وانغ في الأصل تسمى، جي، تسي، سي، على نطاق واسع في الصين. وألقاب الآباء بعد الوفاة تشمل: ون، وو، مو، شوان، مين، جيان وغيرها. فعلى سبيل المثال، ذرية الدوق وو في مملكة سونغ، كان اسم أسرتها وو، وخلف الدوق مو في مملكة سونغ، كان اسم الأسرة «مو» أيضاً، وكذلك سلالة الدوق هوان في مملكة تشي، اسم أسرتها كان «هوان» أيضاً. (7) اشتقاق أسماء الأسر من أسماء مناطق الإقامة والسكن. كان هناك بعض الأشخاص الذين يفتقرون إلى مؤهلات للحصول على إقطاعة، ومن ثم اختاروا اسم أسرتهم حسب المكان الذي يقطنون فيه. ومثال

ذلك الأفراد الذين يعيشون في فو يان، اسم أسرتهم هو «فو»، والناس الذين يعيشون في ضفاف تشي (البحيرة) اسم أسرتهم «تشي»، وكذلك الناس الذين يقيمون تحت أشجار ليو (الصفصاف) اسم أسرتهم «ليو». بالإضافة إلى أسماء الأسر التي يحميها الأفراد حسب مناطق إقامتهم مثل: شيمين، دونغ قوي، نان قونغ، دونغ فنغ، شي ليوي. (8) أسماء الأسرة حسب الوظائف أو القدرات الفنية مثل: تو (جزار)، تاو (صناع الخزف)، تشين (صناع الفخار)، بو (التنجيم)، وو (السحر). وكان الأفراد من ذوي أسماء الأسر حسب الوظيفة أو المهنة ينتمون إلى الأرستقراطيين من الدرجات الدنيا في أسر شياو شانغ وتشو، ومن ثم لم يحصلوا على إقطاعات، ولكن يمكن أن يتحلوا بأسماء الأسر وأُطلق عليهم «العمال من شتى الأطياف والألوان»، وكان اسم الذرية مشتقاً من الوظائف والمهن التي كان يمارسها آباؤهم وأجدادهم. (9) أسماء الأسر تنتمي إلى أحداث مهمة. أسماء الأسر في هذا المجال ليست كثيرة، ولكنها تتحلى بالأهمية الكبيرة. فعلى سبيل المثال، اسم الأسرة لين، كان جدها الأول يدعى بي قان وهو عم الملك تشو في أسرة شانغ، وقد اغتيل عندما كانت زوجته حُبلى ولاذت بالفرار إلى لين (غابة) وأنجبت طفلاً هناك. وقام الملك في أسرة تشو بمنح ذرية بي قان اسم الأسرة لين رمزاً لحادثة اختفاء الزوجة في غابة. وفي عهد الإمبراطور هان وو دي في أسرة هان، كان رئيس الوزراء تيان تشيان تشيو طاعناً في السن، ووافق الإمبراطور بصفة خاصة له أن يدخل القصر الإمبراطوري وهو يستقل السيارة (تشه)، وأطلق عليه الناس «رئيس الوزراء يستقل سيارة»، ولذا اتخذت ذريته تشه اسماً للأسرة. (10) تحاشي استخدام أسماء الأسر التي تغيرت والأسماء التي يمنحها الإمبراطور. ومثل هذه الأحوال قليلة جداً.. الإمبراطور لي لونغ جي في أسرة تانغ عندما اعتلى العرش غيَّر اسم أسرته إلى تشو، وكذلك الإمبراطور لي تشون عندما وصل إلى سدة الحكم غيَّر اسم أسرته من تشون يوي إلى يوي. كما كان الأباطرة ينسبون دائماً اسم أسرتهم إلى الأبطال من ذوي المآثر الذين ينتمون لهم تعبيراً عن احترامهم وتقديرهم. ومثال ذلك، العديد من الأبطال الذين ساهموا في تأسيس أسرة تانغ، كان اسم أسرتهم هو «لي»، مثل الاسم شوه شي جي تغير وأصبح لي جي. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يكون منح ألقاب وأسماء الأسر وسيلة من وسائل القمع والتخويف، ففي أسرة سوى عندما فشلت مؤامرة يانغ شوان فإن ضد الإمبراطور، عُلق بالحبل وقُطعت

شياو (رأسه)، ولذا أُطلق على ذريته اسم الأسرة شياو. (11) استخدام أسماء بعض الأقليات التي أصبحت جزءاً من أسماء الأسر في قومية هان، مثل: يوي ون، شيان يوي، وي تشي، مو رونغ، تشانغ صون، خهلا وغيرها. ففي أسرة وي الشمالية، انتهج الإمبراطور شياو ون دي سياسة الاندماج بين القوميات، وأمر سكان قومية شيان بيه أن يغيروا أسماء الأسر الخاصة بهم، وبموجب ذلك غيَّر أصحاب المقام الرفيع في هذه القومية اسم أسرتهم من توا بو إلى يوان، كما غيّر الأرستقراطيون أيضاً أسماء الأسر إلى مو، لو، خه، ليو، لوا، يوي، وي وغيرها. وفي الفترة من أسرة سوي إلى أسرة تانغ، كان هناك تسع دويلات في المناطق الغربية بالصين، وبعد أن تأسست تانغ، تغير أسماء الأسر وأصبحت على غرار أسماء تلك الدويلات مثل: كانغ، تساو، شي، خه، آن وغيرها من الأسماء الأخرى. وفي الواقع، إن العديد من أسماء الأسر في الوقت الحاضر مثل: تشانغ، وانغ، لي تشاو، ليو، تساو، وو، لوا، باو، خه، مو، جين، قوا، دونغ، كانغ، هي أسماء أسر في قومية هان، كما أنها أسماء أسر في الأقليات أيضاً.

المبحث الثالث
الأسر العريقة وأسماء الأسر المتداولة في العصر القديم

كانت أسماء الأسر تمثل مسألة مهمة جداً. في المجتمع الإقطاعي في الصين، ولا ترمز إلى قرابة الدم فحسب، بل ترمز إلى الحسب والنسب والمكانة المرموقة أيضاً. ومنذ أسرتي هان ووي، كانت أسماء الأسر تضطلع بالتمييز بين مستوى الكبراء والوضعاء جراء انتشار نظام الحسب والنسب على نطاق واسع. وأحرزت أسماء أسر الأباطرة والملوك وأقاربهم والأبطال مكانة نبيلة، وتمتعت ببعض الامتيازات الاجتماعية، وتستطيع السيطرة على الوضع السياسي آنذاك، وكوّنت عشائر غنية وحسيبة رويداً رويداً. وفي أسرة هان الشرقية، كان «ليو» اسم أسرة عشيرة الإمبراطور الأول والأكثر انتشاراً وتداولاً، ناهيك عن ما يُطلق عليه «أسماء الأسر الأربع الخاصة بالماركيز»، وأسماء أسر أقارب الملك من جهة الأم أو زوجته تشمل: «فان، قوي، ين، ما». والإمبراطور مينغ في أسرة هان أسس مدرسة خاصة لأبنائه وأخوته الذين يمثلون أسماء أربع أسر. وعندما تأسست أسرة جين الشرقية، كانت هناك بعض العشائر الثرية تقطن السهول الوسطى ورحلت مع الملك سيما روي إلى جنوب حوض تشجيانغجيانغ وأصبحت تحمل «أسماء أسر الغرباء والمهاجرين» بصورة أساسية مثل: وانغ، شيه، يوان، شياو، بالإضافة إلى أسماء الأسر النبيلة المحلية مثل: «جو، تشانغ، قو، لو»، ويطلق على هذه الأسماء الاسم الجامع «اسم أسرة وو». وأصبحت هاتان المجموعتان من الأرستقراطيين تمثل أعمدة الحكم لمدة مائتي عام وأكثر في الأسر الجنوبية، ومن بينهما كان اسما أسرتي وانغ وشيه يتمتعان بالثراء والمكانة السامية، والسلطة السياسية الأكثر قوة وتفوقاً، والزواج المتواصل بين أجيالهما، وأنجبا ثُلة من المشاهير تباعاً مثل: الاخوان وانغ دون ووانغ داو، والأب وابنه وانغ شي جي ووانغ شيان جي، والعم وابن أخيه شيه آن وشيه شوان، والشاعران الكبيران شيه لين يون وشيه تياو. وتذكر سجلات تاريخية، أن الماركيز جينغ في الأسر الجنوبية كان يعول كثيراً على مكانة تلك الأسر واعتزم أن يقيم صلات نسب وقرابة مع أسرتي وانغ وشيه، فأسدى إليه الإمبراطور ليانغ وو دي النصح قائلاً: «أسرتا وانغ وشيه من الأسر ذات الثراء والمكانة المرموقة ولا يمكن الزواج منهما، وتستطيع زيارة أسرتي جو وتشانغ

وتجرب حظّك». واعتمدت السلطة السياسية في الأسر الشمالية على أسماء الأسر الكبيرة المشهورة، ففي مقاطعة شانغدونغ توجد «أسماء أسر مأخوذة من أسماء الولايات الكبيرة» مثل: وانغ، تسوي، لو، جينغ، وكذلك في قوان تشونغ مثل: وي، بيه، ليو، شيوه، يانغ، دو. أما في منطقة دابي فتوجد «أسماء الأسر الخاصة بالأقليات» وتشمل بصورة رئيسية: يوان، تشانغ، صون، يوي ون، يوي، لو، يوان، دو. وكانت أسماء أسر رئيس الوزراء والوزراء وكبار الموظفين تأخذ عادة من أسماء تلك الأسر جميعاً. وانتشرت الفحوص الإمبراطورية في عصر أسرتي سوي وتانغ، وشهدت الطبقة الحاكمة عدداً كبيراً من الأسر الشعبية الفقيرة، ولكن ظل مفهوم أسرة الحسب والنسب ذائعاً على نطاق واسع. وأمر الإمبراطور لي شيمنغ في أسرة تانغ إعداد كتاب «تاريخ القبائل في أسرة تانغ». وعلى الرغم من أن هذا الكتاب وضع اسم أسرة لي في المرتبة الأولى، ولكن كان هناك أسماء أخرى مازالت تتحلى بالمكانة المرموقة مثل: جينغ، تسوي، لو، وانغ، واسم الأسرة لي يمثل الأسر الغنية رفيعة المستوى في لو نغشي (مدينة تيان شيوي في مقاطعة قانصو اليوم). واسم أسرة تسوي يرمز إلى المكانة النبيلة في باو لينغ (منطقة محافظة لي في مقاطعة خبي). وبالمثل اسم أسرة لو يمثل الأسر العريقة والأرستقراطية في فإن يانغ (في منطقة بكين اليوم)، واسم أسرة جينغ يمثل الأسر الثرية ذات المكانة السامية في ينغ يانغ (مقاطعة خنان اليوم)، واسم أسرة وانغ يشير إلى مثل الأسر في تاي يوان بمقاطعة شانشي. وبالإضافة إلى أسماء تلك الأسر الخمس، هناك أيضاً في هذه المقاطعة أسرتي بيه وشيوه، ويطلق على أسماء تلك الأسر كلها «الأسر السبع». ورئيس الوزراء وكبار المسؤولين في أسرة تانغ ينبثق منشؤُهم الطبقي من أروقة تلك الأسر رفيعة المستوى. وفي الرواية الكلاسيكية «النافذة الغربية» كانت الفتاة تسوي تتزوج أصلاً ابن أخو المدام العجوز ويدعى جينغ قونغ تسي، ولكنها وقعت في غرام الشاب تشانغ جون روي، ولم تأل العجوز جهداً في معارضة هذا الزواج، لأن التزاوج بين أسرتي تسوي وتشانغ يُعد خطأً فادحاً. وفي الوقت الحاضر، عندما يتقابل الناس يسألون: «ما اسم أسرتك؟». وفي الواقع، إن ذلك يعتبر تطوراً لحالة التمييز بين الكبراء والوضعاء عن طريق معرفة اسم الأسرة في المجتمع الإقطاعي.

إن التقدير الكبير للأسرة ذات الحسب والنسب ولاسيما ذائع الانتشار أدى إلى ظهور ما يطلق عليه «شعور جون وانغ»؛ ويعني ذلك تطلع الناس بشوق وإعجاب إلى اسم أسرة

تقطن في ولاية معينة جيلاً بعد جيل، وفي الواقع إن ذلك يشير إلى التأثير الاجتماعي الذي يحدثه اسم الأسرة. ويولي الناس اهتماماً بالمنشأ الطبقي، ويحرصون على الحسب والنسب، ويعد ذلك سيكولوجية اجتماعية واسعة الانتشار في المجتمع الإقطاعي. وعلى سبيل المثال، الأديب هان يوي في أسرة تانغ أطلق على نفسه «تشانغ لي رين»، وسماه الناس آنذاك «هان تشانغ لي»، وكتب الشاعر الكبير لي باي شاهدة قبر والد هان يوي وسماه «نانيانغ رين». وفي الحقيقة، إن هان يوي ووالده ينتميان إلى خه يانغ (مدينة مينغ تشو في مقاطعة خنان اليوم)، وذلك لأن اسم الأسرة هان في ذلك الحين كان مقترناً باسم المدينتين تشانغ لي ونانيانغ ويمنحان الشعور بالإعجاب والاحترام. وبالإضافة إلى ذلك، اسم أسرة ليو ينتشر في بينغ تشينغ (مدينة شيوي تشو في مقاطعة جيانغصو اليوم)، واسم أسرة تشين في ينغ تشوان (منطقة مدينة شيوى تشانغ في مقاطعة خنان اليوم)، واسم أسرة تشو في لونان (منطقة محافظة تساي في مقاطعة خنان اليوم)، واسم أسرة تشانغ في نانيانغ (مقاطعة خنان اليوم)، واسم أسرة وانغ في تاي يوان في مقاطعة شنشي، واسم أسرة دو في جينغ جاو (مدينة شيآن بمقاطعة شنشي اليوم). وأسماء تلك الأسر يمنح المرء ما يطلق عليه «شعور جون وانغ». وأياً كانت الأماكن التي تنتشر فيها أسماء تلك الأسر، فإن الناس يقولون: «بينغ تشينغ ليو»، و«ينغ تشوان تشين»، و«لونا تشو»، و«تاي يوان وانغ»، و«جينغ جاو دو» من أجل الشعور بالفخر والاعتزاز. وفي المنطقة المحيطة بمدينة بوتيان في مقاطعة فوجيان يعلق الناس على باب ديارهم لافتة مكتوباً عليها «السمعة الطيبة بينغ تشينغ»، و«السمعة الطيبة ينغ تشوان»، و«السمعة الطيبة تاي يوان» وغيرها. وعندما يقرأ المرء ذلك يعرف اسم الأسرة التي تقطن هذه الديار.

وغابت شمس نظام الحسب والنسب، وانتشر «شعور جون وانغ» مع التقدم الاجتماعي، ولكن ظلت بعض أسماء أسر معينة في العصر الحديث تحدث تأثيراً يخطف الأنظار من كل صوب وحدب بسبب أن تلك الأسر تتمتع بدلائل خاصة ودور خاص في سيرة الثقافة والاقتصاد في المجتمع، فمثلاً لقب الأسرة تشيان في منطقة تشجيانغ مازال يحدث تأثيراً عظيماً إلى الآن. والأجداد الأولون الذين يحملون هذا اللقب في تلك المقاطعة، قدموا الحاكم تشيا ليو الذي أسس مملكة وو يوي في الأسر الخمس، وانتشر أبناؤه البالغ عددهم

أكثر من ثلاثين ولداً في كافة الولايات والمحافظات واعتلوا المناصب، وانتشرت ذريتهم أيضاً في منطقة تشجيانغ. واسم أسرة تشيان انتشر في مقاطعة تشجيانغ منذ أسرتي مينغ وتشينغ مثل الشاعر تشيان تشيان يي الذي ظهر في أواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشينغ، والشقيقان العالمان تشيان داشين وتشيان داجاو في أسرة تشينغ، والعالم في العصر الحديث تشيان شوان تونغ، وفي العصر الحاضر تشيان شيوه سينغ، وتشيان وي تشانغ، وتشيان تشنغ ينغ، وتشيان تشي تشين (وزير خارجية الصين الأسبق)، والتايواني تشيان فو، كانوا جميعاً ينحدرون من أصل أسرة تشيان التي كانت تقطن في هذه المنطقة.

المبحث الرابع
اختلاط أسماء الأسر وشجرة الأسرة

إن نشأة أسماء الأسر وتغيراتها كان نتيجة التطور الاجتماعي، أما اختلاط أسماء الأسر كان تجسيداً للتحولات الاجتماعية. وكانت الأسرة أو القبيلة تستخدم دائماً شجرة الأسرة أو نسب القبيلة لتسجيل التحولات التي مرت بها من البداية حتى النهاية، والعلاقات بين أفراد العشيرة جيلاً بعد جيل. ومن ثم، أصبحت شجرة الأسرة أو نسب القبيلة من المعلومات المهمة لدراسة التحولات التاريخية والشخصيات التاريخية.

ويجدر بنا القول إن اسم العشيرة تركز أصلاً بصورة أساسية في مكان ما منذ وقت مبكر نسبياً، وبعد ذلك أصبح متشابكاً ومختلطاً رويداً رويداً ومتزامناً مع التحولات التاريخية والحراك السكاني، وتشكلت أوضاع أعقد من ذنب الضب، ونلخص أسباب ذلك بصفة عامة في النقاط الأربع التالية:

(1) **توزيع الأباطرة إقطاعات على الأبناء والأخوة والأبطال:** منذ أسرة تشو، يوزع الإمبراطور ابن السماء اقطاعات على جميع الأبناء والوزراء وخلف الأسرة السالفة، وأسس العديد من ممالك الحكام والأمراء، وأصبح هناك الكثيرون من حاملة اسم الأسرة «شي» فيما بعد. وأسس ليو بانغ أسرة هان» الغربية، ووزع اقطاعات في بادئ الأمر على حكام من ذوي أسماء الأسر المتباينة، ثم عدل عن ذلك واقتصر توزيع الإقطاعات على الملوك والحكام الذين ينتمون إلى اسم أسرته، ومن ثم انتشر اسم أسرة ليو في شتى البقاع. وأنشأ الإمبراطور ليون شيوي في أسرة هان الشرقية، وهو خلف الملك ليو فا الذي استقر في تشانغآن، وهو أيضاً حفيد ليو بانغ من الجيل التاسع، ولكنه كان من أهالي نانيانغ تساي يانغ (مدينة زاو يانغ في مقاطعة خوبي اليوم). وفي عصر الممالك الثلاث، كان ليو بي أصلاً من سكان تشوه تشو (تابعة لمقاطعة خبي اليوم، ويعتبر ليو شينغ وليو فا شقيقين من جهة الأب فقط. وكان أباطرة أسرة تانغ يوزعون اقطاعات على جميع الأبناء والأشقاء في جميع الأماكن، وعندما اعتلى الإمبراطور جو يوان تشينغ العرش في أسرة مينغ، وزع اقطاعات على أولاده وأبناء أخوته في جميع الأنحاء. وعلى هذا النحو، انتشر اسما أسرتي لي وجو في كافة أصقاع الصين.

(2) الاضطرابات والقلاقل الناجمة عن الحروب: أفادت سجلات تاريخية أن الحروب اندلعت في أواخر أسرة هان الشرقية «وتدفق أكثر من مائة ألف أسرة من سواد الشعب في قوان تشونغ إلى جينغ تشو». كما استعر أتون الحرب في الشمال في فترة أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، ونزح عدد كبير من السكان إلى الجنوب، كما تدفقت الأقليات إلى الجنوب أيضاً واستقرت في السهول الوسطى، ولم يؤد ذلك إلى تشابك واختلاط أسماء الأسر فحسب، بل دفع الاندماج بين القوميات إلى الأمام. وذكرنا آنفاً أن عصر جين الشرقية شهد الأسرتين وانغ وشيه، وانتقلت أسرة وانغ إلى لينغ يي في شاندونغ، كما انتقلت نظيرتها شيه إلى تاي كانغ في خنان، ثم نزحتا إلى الجنوب وأصبحتا من أسماء الأسر المتداولة في جنوب حوض تشانغجيانغ.

(3) التعيين في وظائف: كان تعيين الموظفين يتم في أماكن مختلفة في العصر القديم، ثم استقر الأبناء والأحفاد في تلك الأماكن وكونوا اسم أسرة محلية. وتأسيساً على سجلات «شجرة أسرة باي» التي عُثر عليها في لوايانغ، فإن الشاعر باي جيوي يي كان أصلاً من خلف الجنرال باي تشي في أسرة تشين، وأقامت أجيال الجد الأول في تاي يوان (محافظة تايهو في مقاطعة شانشي اليوم) حتى الجيل الثامن والعشرين الذي رحل إلى مدينة هان في مقاطعة شنشي بسبب الوظيفة، وبعد ذلك انتقل الجيل الرابع من هذه المقاطعة واستقر في وينان لنفس السبب، ثم انتقل الجيل السادس إلى شين جينغ في مقاطعة خنان، وبعد ذلك كانت ولادة شاعرنا باي جيوي يي الذي عمل موظفاً في خريف عمره في لوايانغ، ولذا استقر أبناؤه وأحفاده هناك، وفي الوقت الحاضر يقطن قرية باي تشي أكثر من ألف وستمائة نسمة، من بينهم 95٪ ينتمون إلى اسم الأسرة باي وجميعهم من خلف باي جيوي يي. وكذلك مثل صوشي كان جده الأول الشاعر في أسرة تانغ صو وي داو، وعمل رئيساً للوزراء في عهد الإمبراطورة وو تسي تيان، وكان أصلاً من تشاو تشولون تشينغ (محافظة لون تشينغ في مقاطعة خبي)، ثم تدنت مكانته وعمل حاكم إقليم اقطاعي وانتقل إلى ميي تشو (مقاطعة سيتشوان اليوم)، واستقر ابنه هناك حيث أصبح أصل أسرة صو، وشهدت أسرة سونغ ثلاثة أجيال من هذه الأسرة: الجد والأب والابن.

(4) المهاجرون: انتهجت الدولة الإقطاعية وسائل الإكراه تجاه المهاجرين بهدف استكمال

سكان المناطق الحدودية النائية أو تلافي النقص في أعداد السكان في بعض المناطق التي ذاقت مرارة الحروب والمجاعات. وقام الإمبراطور تشين الأول بإقصاء خمسمائة ألف نسمة إلى لينغ شانغ، وأصبح هؤلاء في الشمال جزءاً من قومية كهجيا في قوانغدونغ. وفي مملكة وي (من الممالك الثلاث) تم تهجير حوالي «خمسة آلاف مزارع» من منطقة خبي اليوم إلى منطقة مقاطعتي شنشي وقانصو جراء المجاعات في قوان تشونغ. وقد تكررت هذه الأحوال عبر مراحل التاريخ. وفي أوائل أسرة مينغ، تضاءل عدد السكان في خبي وشاندونغ وجيانغهوي بسبب اندلاع الحرب في أواخر أسرة يوان، ومن ثم قامت حكومة مينغ بتهجير الناس خارج شانشي في ست دفعات متتالية. ويقع مركز تجمع هؤلاء المهاجرين في معبد بوذي على مقربة من أشجار الخرنوب الضخمة في محافظة هونغ دونغ في مقاطعة شانشي. واليوم في مناطق ضواحي العاصمة بكين: داشنيغ، تونغ شيان، شون يي لا تزال توجد قرى يطلق عليها أسماء ولايات في شاندونغ، ومازالت تحتفظ بها إلى الآن، وجاء قاطنو تلك القرى من بعض هذه الولايات. وهناك بعض المناطق في جيانغهوي مازالت تردد أنشودة: «تسألني من أين جاء أجدادي الأولون؟ جاؤوا من جوار أشجار الخرنوب في محافظة هونغ دونغ بمقاطعة شاندونغ».

والتطورات والتحولات التي تشهدها أسماء الأسر والعشائر تسجل عادة في شجرة الأسر في العصر الإقطاعي. وتعتبر شجرة الأسرة من المصادر والمراجع القديمة ولا يمكن أن نجعلها من حثالة العصر الإقطاعي، بصرف النظر عمّا إذا كان ازدهارها بفضل نظام الحسب والنسب. وطبعاً الهدف من إعداد شجرة الأسرة في المجتمع الإقطاعي هو تسجيل قرابة الدم في العشيرة والعلاقات في الأجيال اللاحقة. ولكن -من الناحية الموضوعية- احتفظت شجرة الأسرة ببعض المعلومات التاريخية الحقيقية في مراحل تاريخية خاصة ومحددة، وقدم ذلك مساهمة عظيمة لنا في دراسة الأحوال الاقتصادية والسياسية والتغير الديموغرافي في مرحلة تاريخية معينة. فعلى سبيل المثال، سجل «شجرة العشيرة للقديس كونفوشيوس» يعد فرعاً من شجرة أسرة كونفوشيوس في مدينة يوي يانغ واحتفظ به خلف هذا القديس ويعتبر شجرة الأسرة الأكثر كمالاً التي أعدتها عشيرة كونفوشيوس، وسجلت تفاصيل تتابع الأجيال في هذه العشيرة. وفي عام 1980، عُثر على «شجرة عشيرة يوي» التي احتفظ بها خلف يوي فيي

وتسجل انتقال أبناء وأحفاد يوي إلى مقاطعة يونان. كما عُثر على «شجرة عشيرة لي» في جينغ ين، تسجل بوضوح أن المواطن الأجنبي جيانا في أسرة يوان تولى وظيفة في جينغ دين، ولذا استقر أبناؤه وأحفاده هناك وأصبحوا من قومية هان تماماً، ويبرز ذلك للعيان أحوال الاندماج بين القوميات. وفي مدينة شنغهاي «شجرة عشيرة رونغ» تسجل بإسهاب عملية انتقال عشيرة رونغ يي رين من شاندونغ إلى ووشي ثم إلى شنغهاي، مما يجعل الناس يدركون بعض أحوال التطور الصناعي في مرحلته الأولى لدى القوميات الصينية في العصر الحديث. وهناك مسألة تستحوذ على اهتمام الناس دائماً وهي أن أسرة شيا الغربية التي يذكرها التاريخ افتقدت الذرية والخلف اللذين يحفظان لها البقاء والوجود بعد أن دمرها تماماً القائد المنغولي جينكزخان. وفي أكتوبر عام 1995، تم اكتشاف شجرة أسرة لي في أسرة شيا الغربية، وتقع في تسعة أجزاء قد حفظها لي بيه يه وهو حفيد الجيل الثالث والعشرين للإمبراطور لي في أواخر هذه الأسرة. وتزخر هذه الأجزاء بالمعلومات التاريخية. وبالإضافة إلى ذلك، تم اكتشاف شجرة أسرة لي خو تشون في أسرة تانغ الجنوبية في محافظة آنفو بمقاطعة جيانغشي، وتسجل شجرة هذه الأسرة أنه بعد زوال مملكة لي، لاذ أعمامه بالفرار إلى هذه المقاطعة حيث عاشت ذرية أسرة لي هناك.

المبحث الخامس

إحصاء أسماء الأسر في كافة أنحاء الصين

في أوائل أسرة سونغ، اضطلع مثقف من تشيان تانغ (مدينة هانتشو اليوم) بتأليف كتاب عنوانه «أسماء مئة أسرة» جمع بين دفتيه أسماء الأسر المتداولة دائماً في ذلك الحين، حيث بلغ عدد أسماء الأسر الأحادية 408 والثنائية 76 اسماً.. واستهل هذا الكتاب موضوعه بأسماء الأسر: تشاو، تشيان، صون، لي. وذلك لأن أسرة إمبراطور سونغ اسمها تشاو، وأسرة إمبراطور مملكة وو يوي في تشيان تانغ تدعى تشيان، وأسرة الإمبراطورة تدعى صون، وأسرة محظية الإمبراطور تسمى لي. ولكن أسماء الأسر في متن هذا الكتاب قليلة جداً.، ولا تجسد بصورة كافية أحوال أسماء الأسر في كافة أنحاء الصين. وظهرت -فيما بعد- العديد من الكتب التي تناولت أسماء الأسر المعنية وقدمت إحصاءات متباينة حول تعداد تلك الأسماء. وفي أسرة مينغ ظهر كتاب «مفتاح أسماء الأسر» من تأليف تشين شي يوان جمع فيه أسماء الأسر الأحادية والثنائية بصورة مشتركة وبلغ عددها 3625 اسماً. وفي العصر الحديث، قام زينغ لي خه بإعداد «معجم المشاهير في الصين» وحدد فيه 4129 من أسماء الأسر. وفي عام 1984 أصدرت دار نشر البريد والبرق الشعبية كتاب «مجموعة أسماء الأسر الصينية»، وتضمن 5730 من أسماء الأسر. وتأسيساً على الإحصاءات التي جاءت في أحدث الكتب المنشورة «المعجم الكبير في أسماء الأسر الصينية»، فإن التاريخ الصيني سجل 11,969 اسماً.، من بينها أسماء أحادية بلغت 5327 اسماً.، أما الثنائية فكان عددها 4329 اسماً.، وأسماء الأسر الأخرى وصل إلى 2313 اسماً. ولكن أسماء الأسر المتداولة في الوقت الحاضر لا يتجاوز عددها مائتي اسم تقريباً؛ من بينها مائة اسم أسرة أحادي فقط تعد الأكثر انتشاراً. وأظهرت المعلومات التي نشرتها «صحيفة الشعب اليومية» في 3 مايو عام 1987، أن اسم أسرة لي الأكثر تداولاً من بين أسماء الأسر في قومية هان في الصين، ويمثل 7,9٪ من سكان هذه القومية تقريباً، ثم تأتي أسرتا وانغ وتشانغ في المرتبة الثانية بنسبتي 7,4٪، 7,1٪ تقريباً على التوالي. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أسماء أسر أخرى مثل: ليو، تشين، يانغ، تشاو، هوانغ، تشو، وو، شيوه، صون، خو، جو، قاو، لين، خه، قوي، ما. وتمثل هذه الأسماء البالغ عددها تسعة عشر اسماً أكثر من نصف سكان الصين.

المبحث السادس

أسماء الرضاعة والأسماء الرسمية والكُنى

يهتم الصينيون باسم الأسرة لأنه يعتبر أصلهم ويبين تبعيتهم، ولكن يحرصون أيضاً على الاسم الشخصي لأنه يمثل الذات ووجودها. كما كان الصينيون في العصر القديم يختارون عادة كُنية أو عدة «كُنى» تعبيراً عن فكرة تدور في أذهانهم وتجسيداً لمراميهم ومساعيهم. ويطلق الصينيون على اسم الشخص «مينغ تسي» في الوقت الحاضر، و«مينغ» في العصر القديم، وأصبحت «تسي» لا تستخدم على نطاق واسع في المجتمع الحالي. وطبعاً أصبحت «الكُنية» تنتمي إلى مقولة تاريخية بشكل أكبر.

ومفهوم «مينغ» (اسم الشخص) موغل في القدم، ربما ظهر في المجتمع العشائري البدائي، وذكر قاموس «شرح المفردات» أن: «مينغ تعبير عن الذات، ويتألف من الرمزين كو (الفم) وشي (المساء). وفي المساء تكون الظلمة ولا يمكن الرؤية، والاسم الذي ينطق به الفم ليبدد هذه الظلمة هو اسم الشخص». وهذا الاسم الذي ينطق به الفم يطلق عليه الصينيون بصفة عامة «اسم الطفولة» (اسم الرضاعة)، ثم شهدت الأجيال اللاحقة الاسم الدارج «الاسم الرسمي» جراء التطور الاجتماعي واتساع نطاق التبادلات الاجتماعية.

ومنذ القدم يحرص الصينيون حرصاً شديداً على التسمية، وترتبط نقطة انطلاق هذه التسمية ارتباطاً وثيقاً بالحياة الاجتماعية في ذلك العصر. ويعرف الجميع انتشار الخرافات والخزعبلات في مجتمع أسرة شانغ، وكانت الحياة الاجتماعية آنذاك بسيطة وسهلة، وانطلقت التسمية لدى الناس من يوم الولادة، والأكثر بروزاً ووضوحاً في هذا الشأن أن ثلاثة عشر ملكاً في هذه الأسرة اتخذوا كلهم تقريباً أسماءهم من الجذوع السماوية العشرة، بينما أتخذ الآخرون الفروع الأرضية الاثني عشر كأسماء لهم. وبعد تأسيس أسرة تشو، اتسم نظام المراسم والتشريفات بالمعايير المحددة، كما أصبح هناك العديد من القواعد واللوائح الخاصة بالتسمية. وعلى سبيل المثال، ذكر كتاب «زوا تشوانغ» أن: «التسمية تنطلق من خمس حالات هي: شين، يي، شيانغ، جيا، ليه». و«شين» هي التسمية التي تنطلق من خمس حالات هي: شين، يي، شيانغ، جيا، ليه». و«شين» هي التسمية التي تنطلق من أحوال

الولادة، و «يي» هي التسمية التي تستند إلى الأخلاق والسلوكيات الحميدة، و«شيانغ» هي تسمية التشابه مع شيءٍ ما، و«جيا» هي استعارة اسم شيء ما، و«ليه» هي التسمية التي تنطلق من المواضع المتشابهة بين المولود وأبيه. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك قواعد تنص على أن التسمية لا تستخدم أسماء كبار المسؤولين الحكوميين والدولة، والجبال والأنهار، والأمراض التي لا يصرح باسمها، والحيوانات، والأدوات والمنتجات الحريرية. وقد تجسدت هذه القواعد واللوائح عندما اضطلع الأقدمون بالتسمية، فمثلاً عندما وُلد ابن كونفوشيوس أهداه دوق مملكة لو سمكة شبوط (لي)، ولذا كان اسمه كونغ لي. وبعد فترة الربيع والخريف والممالك المتحاربة، طرأت تغيرات سريعة وهائلة على نظام المراسم الاجتماعية، وأصبحت ظاهرة التسمية تبرز للعيان بشكل أكبر ملامح الطبقات الدنيا في المجتمع، وانتشرت الأسماء الوضيعة والقبيحة؛ فمثلاً كان اسم ابن دوق مملكة جين «يوي» (اصطبل)، وابنته «تشيه» (حظية)، كما أُطلق على ابن دوق مملكة لو اسم «غه» (الشر) وغيرها. كما كان يحلو للناس آنذاك أن يحشروا بين اسم الأسرة والاسم الشخصي حروفاً مساعدة عديمة القيمة مثل: «جي» و«بو»، ونجدها في بعض الأسماء مثل: تشوجي وو، ليوي بو وي وغيرهما. وعندما تعاظمت قوة الدولة وازدهرت في عصر أسرة هان، تضرع الناس إلى الإله برجاء العمر المديد والشباب الدائم، واستخدموا في التسمية كثيراً من «آنقوى» (تأسيس الدولة)، «يانيان» (تمديد السنين)، «يانتشو» (العمر المديد)، «تشيان تشيو» (ألف خريف في العمر)، تشيوي بينغ» (درء المرض) وغيرها. وفي أواخر أسرة هان الغربية، كانت العودة إلى القديم، وفرض الإمبراطور المؤقت مانغ حظراً على استخدام الاسم الثنائي، وتداول الناس الاسم الأحادي في أغلب الأحايين. وظلت الأسماء الأحادية تتداول على نطاق واسع حتى أسرة هان الشرقية والممالك الثلاث، ومن ثم أسماء الشخصيات في كتاب «تاريخ الممالك الثلاث» كلها أحادية تقريباً. وفي أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، زادت الأسماء الأحادية عن نظيرتها الثنائية، ولذا ازدهرت الأخيرة مرة أخرى، وأصبح الناس يرغبون في استخدام اللقب «جي» عند التسمية جراء التأثر بالجو العام للتعبير عن ترفع المثقفين وكبار الموظفين عن السياسة والاعتبارات الدنيوية، وظهر ذلك في الأسماء مثل: وانغ فو جي، وانغ شيان جي، قو كوين، بيه سونغ جي، يانغ شيان جي، ليو لاو جي، وغيرها. كما اقترن بالتسمية آنذاك

كلمات بوذية بسبب انتشار الديانة البوذية، وظهر ذلك في الأسماء مثل: وانغ سنغ بيان (الحوار البوذي)، وانغ سنغ تشي (الحكمة البوذية)، ليو سنغ جينغ (المشهد البوذي)، ليو سنغ شي (عادة بوذية)، تسوي سنغ خو (حماية بوذا) وغيرها. وتأثرت التسمية بأحداث العصر بعد انقضاء عدة أجيال متلاحقة. ففي العصر الحديث، وبعد تأسيس الصين الجديدة، تداول الناس في التسمية كثيراً كلاً من: «جيان قوي» (تأسيس الدولة) و«آي قوي» (الوطنية). وفي فترة «الثورة الثقافية الكبرى» استخدمت التسمية كثيراً كلمات: «وي دونغ» (حماية الشرق)، «شيانغ دونغ» (التقدم نحو الشرق)، «شيانغ هونغ» (التقدم صوب الأفق الأحمر)، «لي شين» (تأسيس الجديد) وغيرها.

وكان الصينيون في العصر القديم يتمتعون باسم الطفولة (الرضاعة) والاسم الرسمي أيضاً، وانبثق الاسم الرسمي من تطور اسم الطفولة، ولذا كانت التسمية العامة «مينغ تسي». وكان الأقدمون يهتمون بالمراسيم والتشريفات، ولذا كانوا يحرصون حرصاً شديداً على اختيار اسم الطفولة والاسم الرسمي. ويستخدم اسم الطفولة في علاقات وتبادلات المرء بهدف إظهار التواضع أو في التسمية المتواضعة، أو في المخاطبة من الأعلى إلى الأدنى، ومن الكبير إلى الصغير، بينما يستخدم الاسم الرسمي في المخاطبة من الأدنى إلى الأعلى، ومن الصغير إلى الكبير، أو في تسمية الاحترام. وفي أحوال عديدة يعد استخدام اسم الطفولة دائماً ضرباً من البذاءة. ومن منظور اختيار الاسم الرسمي عبر العصور المتلاحقة، هناك علاقة وثيقة بين اسم الطفولة والاسم الرسمي، ويمكننا القول إن «اختيار الاسم الرسمي يكون حسب اسم الطفولة»، وهو ما يطلق عليه الأولون» التقارب والتوازن في المعنى بين اسم الطفولة والاسم الرسمي، ويعد ذلك بمثابة مبدأ اختيار الاسم الرسمي. ونجمل العلاقة بين اسم الطفولة والاسم الرسمي في النقاط التالية تقريباً.

(1) تشابه المعنى في اسم الطفولة والاسم الرسمي: فعلى سبيل المثال، الشاعر العظيم تشيوي يوان في مملكة تشو كان اسمه في الطفولة بينغ، واسمه الرسمي يوان، و«بينغ» و«يوان» مترادفان ومعناهما (سطح مستو)، وفي أسرة هان شيا قونغ اسمه الرسمي جينغ قونغ، و«قونغ» و«جينغ» مترادفان ومعناهما (الاحترام)، والقائد العسكري جو كه ليانغ اسمه الرسمي كونغ مينغ، و«ليانغ» و«مينغ» مترادفان ومعناهما (الوضوح)، والعالم قانغ دونغ شو

في أسرة تشينغ اسمه الرسمي جي، و«شو» و«جي» مترادفان ومعناهما (النبات). وغيرها من الأسماء الكثيرة الأخرى.

(2) **علاقة الترابط في معنى اسم الطفولة والاسم الرسمي**: ومثال ذلك الفيلسوف الصيني كونفوشيوس في مملكة لو، كان اسمه في الطفولة كونغ تشيو، واسمه الرسمي تشونغ نيه لأنه عاش في منطقة تشونغ نيه. وتشاو يون في الممالك الثلاث اسمه الرسمي تسي لونغ لأن الأجداد كانوا يعتقدون أن «يون (السحب) تتبع لونغ (التنين)، وفينغ (الريح) تتبع جو (النمر)»، ولذا هناك علاقة بين «يون» و«لونغ». والجنرال المشهور يوي فيي في أسرة سونغ الجنوبية اسمه الرسمي بينغ جيوي لأن هناك علاقة بين فيي (يطير) وبينغ (جناح طائر)، والعالم بان ليه في أسرة تشينغ اسمه الرسمي تسي قينغ، لأن هناك ارتباطاً في المعنى بين ليه (المحراث) وقينغ (الحراثة). وغيرها كثير من الأسماء الأخرى.

(3) **التضاد في معنى اسم الطفولة والاسم الرسمي**: ومثال ذلك دوق مملكة جينغ اسمه في الطفولة صون خيي واسمه الرسمي تسي شين، وهناك تضاد بين خيي (اسود) وشين (البشرة البيضاء)، وتشاو شواي في مملكة جين اسمه الرسمي تسي يوي، وهناك تضاد بين شواي (يقلل) ويوي (يزيد)، وفي أسرة هان كان وو بينغ اسمه الرسمي جيوي قاو، ويظهر التضاد في قاو (مرتفع) وبينغ (مُستوٍ)، والشاعر يان شو في أسرة سونغ الشمالية كان اسمه الرسمي تونغ، ويظهر التضاد في شو (الخاص) وتونغ (العام). وغيرها كثير من الأسماء الأخرى.

(4) **المعنى في اسم الطفولة والاسم الرسمي ينبثق من التنشيط المتبادل بين العناصر الخمسة** (المعدن، الخشب، الماء، النار، التراب): ومثال ذلك دوق مملكة تشو كان ابنه اسمه رين خوا في الطفولة، واسمه الرسمي تسي شين، «رين» يرمز إلى الماء، و«شين» إلى المعدن، فاسم الطفولة رين والاسم الرسمي شين يعنيان أن المعدن ينصهر ويسال مثل الماء. والأباطرة في أسرة مينغ اختاروا أسماءهم من العناصر الخمسة، فالأب اسمه مو (الخشب)، وابنه خوا (النار)، وحفيده تو (تراب) وهلم جراً.

(5) **اختيار الاسم الرسمي حسب الترتيب السني أو الولادي على هذا النحو**: باو، تشونغ، شو، جي. فعلى سبيل المثال، دوق مملكة لو كان اسم ابنه في الطفولة تشينغ خو، واسمه الرسمي تشونغ (الابن الثاني)، والجد الأول في أسرة هان ليو بانغ كان اسمه الرسمي جي (الابن الرابع)، وفينغ تسونغ يوي في أسرة مينغ اسمه الرسمي تشونغ هاو (الابن الثاني)، والأديب شيوه فو

تشينغ اسمه الرسمي شو يون (الابن الثالث). وغيرها من الأسماء الأخرى.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه آنفاً، تختار الأسماء أيضاً من الأقوال المأثورة القديمة والأمثال.

وكان الأقدمون الصينيون يضيفون إلى الاسم الرسمي «كُنية» أيضاً، ويعد ذلك ظاهرة فريدة في الثقافة الصينية. وعلى الرغم من أن مصدر الكُنية عريق منذ القدم، ولكن لم تتداول الكُنية إلا بعد أسرتي تانغ وسونغ، وانتشرت في أسرتي مينغ وتشينغ، ويرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بالتطور الأدبي منذ أسرتي تانغ وسونغ، كما يمت بصلة مباشرة بتأثير الثقافة الكونفوشيوسية والطاوية على طباع الأدباء والمثقفين. فمن ناحية، تسود المجتمع سيكولوجية احترام وتبجيل وتقدير الأدباء والعلماء والمثقفين، ومن ناحية أخرى، يحاول رجال القلم والأدب استخدام وسائل مهذبة ولبقة ومعقدة للتعبير عن أفكارهم المثالية وطباعهم وأخلاقهم التي تترفع عن الشؤون الدنيوية. وكان ذلك بمثابة الأسباب التي أدت إلى شيوع وانتشار «الكُنية الشخصية» على نطاق واسع، وكان اختيار الكُنية ينطلق من طباع وأخلاق الأدباء والمثقفين وكبار الموظفين وهويتهم وبيئة مسكنهم. ولكن مغزى الكُنية ليس أكثر من السعي وراء الأهداف والغايات، والتماس التشجيع الذاتي، وتجسيد أحوال البيئة، وإظهار المقتنيات القيمة، ووصف معالم وملامح الأشياء، والنهل من الإيحاء الفني الأدبي، وتجسيد الكفاءة الشخصية والتخصص. وتُختار الكُنى من اسم الشخص أو اسم مكان إقامته، فعلى سبيل المثال، الشاعر العظيم دو فو في أسرة تانغ، كانت كُنيته «شاو لينغ ياي لاو» لأنه كان يقيم في منطقة شاو لينغ، وكذلك نظيره لي باي في نفس الأسرة، كانت كُنيته «تشينغ لان جيوي شي» لأنه شب عن الطوق وكبر في قرية تشينغ لان، والرسام تشو يونغ في أسرة مينغ، كانت كُنيته «تشي تشي سينغ» لأن في يديه أحد عشر إصبعاً، وكذلك الرسام جينغ بان تشياو في أسرة تشينغ، كانت كُنيته «تشينغ تانغ مينشيا زوقو» وغيرها من الكُنى المنوطة بالعديد من أسماء المشاهير والأدباء والفنانين عبر الأسر المتعاقبة.

الفصل الخامس

الرموز الصينية

تعتبر الكتابة -من منظور علم الثقافة- حاملة الثقافة لأنها سجلت المدار التاريخي والنتائج المثمرة للتطور الثقافي. وحققت حكمة الأولين وإنجازاتهم المبدعة الانتشار الأبدي بفضل سجلات الكتابة، كما أن ذكاء الخلف ونبوغهم حصل على التنوير والتقدم بشكل أكبر من خلال هذه السجلات. وإذا افتقرت البشرية إلى الكتابة، فربما لا تزال تعيش في عصر الجهل والهمجية. ومن ثم، لم تكن الكتابة بمثابة إشراقة فجر دخول البشرية عصر الحضارة فحسب، بل تعتبر أيضاً الأداة التي حملت ثقل الحضارة البشرية وجعلتها تظفر بالاستمرارية والتطور الدائم.

وكانت عملية تطور الحضارة البشرية من نشأة اللغة أولاً، ثم الكتابة بعد ذلك، لأن اللغة الشفهية عجزت عن تلبية الاحتياجات الخاصة بالتبادلات بين الناس وتسجيل الأحداث، ثم تكون نظام رموز المعلومات لتسجيل مضمون اللغة الشفهية. ولذلك، ترمز نشأة الكتابة إلى التقدم التاريخي العظيم في حضارة المجتمع، كما ترمز إلى إمكانية تراكم أفكار الإنسان وأحاسيسه وإرادته. ويصبح ذلك ثروة فكرية عظيمة. وشهدت الكتابة تطوراً دائماً مع تطور المجتمع. وقياساً على القواعد العامة، فإن التطورات والتغيرات التي مرت بها الكتابة كانت دائماً من الحِس إلى العقل، ومن المحسوس إلى التجريد، ومن التعقيد إلى البساطة. إذن، الرموز الصينية **Chinese Characters** تعتبر بمثابة الكتابة المتداولة بين أبناء الأمة الصينية، فكيف نشأت هذه الرموز، وكيف تطورت؟

المبحث الأول
نشأة الرموز الصينية

هناك ثلاث روايات في العصر القديم حول نشأة الرموز الصينية. الرواية الأولى تذكر أن الإمبراطور الأسطوري فوشي اخترع الرموز الصينية لأنه ابتكر الرموز الثمانية في التنجيم، وبالتالي انبثقت الكتابة من رموز التنجيم هذه. وترى الرواية الثانية أن مصدر الرموز الصينية يكمن في ربط عقدة للتذكر، وقد قيل إن ربط عقدة للتذكر بدأ منذ عصر إله الزراعة، ولذا هناك اعتقاد مفاده أن أقدم الرموز الصينية ابتكرها إله الزراعة. أما الرواية الثالثة تقول إن مخترع الرموز الصينية هو تسانغ جيه مؤرخ الإمبراطور الأصفر. وقد رفض لفيف من الخبراء الرواية القائلة بأن مصدر الرموز الصينية يكمن في رموز التنجيم الثمانية. وعلى الرغم من أن رموز التنجيم هذه تعد نوعاً من رموز المعلومات، ولكن مضمونها مازال مبهماً وغامضاً إلى الآن. والرمزان الأساسيان في رموز التنجيم هما » — » و« -- » يختلفان اختلافاً كبيراً —من حيث الشكل— عن نقوش النظام ودروع السلاحف في أسرة شانغ والنقوش البرونزية القديمة، ولا يمكن أن يكونا الدليل إلى هذه النقوش. ولا تحبذ ثُلة من الخبراء رواية ربط عقدة للتذكر، انطلاقاً من اعتقادهم أن ربط العقدة كان طريقه لتسجيل الأحداث استخدمها البدائيون جميعهم تقريباً ولم تتطور وتصبح نوعاً من الكتابة. إذن، قولنا أن تسانغ جيه اخترع الرموز الصينية يعد حقيقة أم وهما؟

وانتشرت رواية تسانغ جيه مخترع الرموز الصينية على نطاق واسع منذ القدم في المرحلة المتأخرة في عصر الممالك المتحاربة. ومن هو تسانغ جيه؟ لقد تعددت الروايات أيضاً في هذا الخصوص. وذكر البعض أنه من الملوك والأباطرة في العصر القديم السحيق الذين عاشوا في الفترة من إله الزراعة إلى الإمبراطور الأصفر، وذكر آخرون أنه كان معاصراً للإمبراطور يان. كما يرى البعض أنه عاش في عصر الإمبراطور فوشي، بينما يرى سيما تشيان وبان قو وغيرهما من المؤرخين أنه كان مؤرخ الإمبراطور الأصفر. ونخلص إلى استنتاج عام في ضوء هذه الروايات مفاده أن المجتمع الذي عاش فيه تسانغ جيه كان تقريباً في المرحلة المبكرة للمجتمع العشائري الأبوي منذ أكثر من أربعة آلاف سنة خلت. وتأسيساً على الكتب

والسجلات القديمة، تذكر أن «تسانغ جيه كانت رأسه تحوي أربع عيون، وكان من الآلهة، وكان يرفع رأسه ويحدق في السماء يستطلع مواقع النجوم، ويطأطئ رأسه ويتأمل تموجات دروع السلاحف وآثار أقدام الطيور، وجمع في جعبته كافة الأشكال الجميلة ودمجها في بوتقة واحدة، وأنشأ الرموز التي نطلق عليها الكتابة القديمة قبل أسرة تشين».

إذن، وفي نهاية المطاف، هل تسانغ جيه اخترع الرموز الصينية أم لا؟ ومن منظور مسيرة التطور في المجتمع، ففي المجتمع البدائي انخفض مستوى الإنتاج وتدنى المستوى الثقافي، ومن المستحيل بصورة أساسية أن يضطلع إنسان بمفرده باختراع وابتكار نوع من رموز الكتابة، ومن منظور نشأة الرموز الصينية، فإنها تحتاج إلى عملية طويلة جداً.، وأي إنسان ليس في مقدوره أن ينجز هذه العملية بمفرده، ولذلك القول بأن تسانغ جيه مخترع الرموز لا يمكن تصديقه.

ولكن لا يجوز أن ندحض العلاقة بين تسانغ جيه والكتابة دحضاً كاملاً. ونستطيع أن نلقي نظرة عابرة على بعض المعلومات المتعلقة بمصدر الرموز الصينية في بعض سجلات الكتابة المذكورة آنفاً. وما يطلق عليه: «استطلاع مواقع النجوم، وتأمل تموجات دروع السلاحف وآثار أقدام الطيور» يشير في الواقع إلى علامات الصور، وما يعرف بـ «جمع في جعبته كافة الأشكال الجميلة» يشير إلى جمال الصور حقاً، ويقودنا ذلك إلى القول إن أقدم مصدر للرموز الصينية يجب أن يكون علامات الصور والأشكال في المجتمع البدائي.

وكان المجتمع البدائي يغص بالعشائر، وكانت كل عشيرة تتحلى ببعض الطواطم الخاصة بها، واعتبر أفراد العشيرة هذه الطواطم بمثابة تسمية أو لقب شرف للعشيرة ورسموها غالباً على الأدوات التي تستخدم دائماً، بل وحتى على أجسامهم لإظهار تمييزهم عن سائر العشائر الأخرى. وبعد ذلك، اتحدت العشائر فيما بينها وكونت اتحاد القبائل، ورسمت الأدوات والمواعين الكثير من الطواطم من شتى الأنواع. وفي السنوات الأخيرة، وخاصة بعد التحرير، تم اكتشاف العديد من أطلال القرى تباعاً التي تنتمي إلى العصر الحجري الحديث، وعُثر بين تلك الأطلال على جميع أنواع الفخار مرسوم عليها تصميمات زخرفية وأشكال متعددة الأنواع، وربما يوجد بينها عدد غير قليل من الطواطم. وعلى سبيل المثال، أطلال بانبو التابعة لحضارة يانغشاو في مدينة شيآن عُثر فيها على فخار يضم رسومات

الغزال البري، والحصان البري، والسمك الكبير والضفادع، ونخمن أن هذه الأشكال تتسم بالمغزى الرمزي. وبالإضافة إلى ذلك، عُثر على أوانٍ فخارية في أطلال عديدة، منقوش على فوهاتها العديد من العلامات البسيطة نسبياً، ربما ترمز إلى عددها أو صاحبها وصناعها. ومثال ذلك أيضاً في أطلال يانخهه التابعة لحضارة داونكو في مقاطعة شاندونغ -توجد العلامتان ، ، شكلهما يشبه كثيراً العلامتين ، في نقوش برونزية قديمة. وأثرت هذه الأشكال والعلامات تأثيراً مباشراً في نشأة الرموز الصينية. ويعتقد بعض الباحثين أن هذه النقوش والعلامات هي نماذج مصغرة للرموز الصينية، ولذلك لدينا الأسباب التي تقودنا إلى الاعتقاد بأن تسانغ جيه الذي تحدث عنه الأقدمون من المرجح إلى حد كبير أنه كان قبيلة بدائية أو زعيم هذه القبيلة. وشهدت مسيرة أنشطة هذه القبيلة استيعاب وترتيب الأشكال وعلامات تسجيل الأحداث لدى القبائل الأخرى بسبب اتساع نطاق التبادلات والحاجة إلى نقل المعلومات، وأصبحت من القبائل البدائية التي تتمتع بالنصيب الأكبر من التقدم الثقافي آنذاك. وإذا اعتمد تقديرنا وتخميننا على مقولة «أن تسانغ جيه كان مؤرخ الإمبراطور الأصفر»، فإن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تسانغ جيه كان فرعاً في شجرة قبيلة هذا الإمبراطور. وفي الوقت الحاضر، توجد آثار تسانغ جيه في مدينة تشو قوانغ بمقاطعة شاندونغ، وفي كايفنغ بمقاطعة خنان، وفي محافظة نانيوي بمقاطعة خنان، وفي مدينة شيآن ومحافظة باي شيوه بمقاطعة شنشي. وتشمل هذه الآثار قبر تسانغ جيه ومعبده أو طاولته الخاصة باختراع الرموز، ومن بينها يعد معبد تسانغ جيه في محافظة باي شيوه الأكبر حجماً، وطاولته لاختراع الرموز مازالت في حالة جيدة ومحفوظة في مدينة شيآن. وعلى الرغم من أن هذه الآثار القديمة فسرها الخلف تفسيراً متكلفاً حسب الأساطير والروايات. ولكن نوضح من منظور إيجابي، أن نطاق نشاطات قبيلة تسانغ جيه وتأثيرها كان واسع النطاق. وفي داخل هذا النطاق الرحب استوعب أفراد هذه القبيلة علامات تسجيل الأحداث والأشكال لدى سائر القبائل الأخرى، واضطلعوا -في المقام الأول- بترتيب العمل وتنسيقه، ومن المرجح إلى حد كبير أنهم دفعوا تكوين الرموز الصينية إلى الأمام.

المبحث الثاني
أقدم الرموز الصينية الموجودة حالياً

تُعد نقوش العظام أو نقوش السلاحف في أسرة شانغ قبل الميلاد والنقوش البرونزية القديمة أقدم الرموز الصينية. وما يطلق عليه «نقوش دروع السلاحف والعظام» هو الكتابة المنقوشة على دروع السلاحف وعظام الحيوانات، وقد قيل إنه في عام 1899م كان وانغ يي رونغ عالم النقوش في أسرة تشينغ أول مكتشف لها وعثر عليها في قرية شياو تون في مدينة آنيانغ بمقاطعة خنان. وقبل ذاك العام كان الناس لا يعرفون الكتابة على تلك الدروع والعظام التي اعتبروها عقاقير طبية وباعوها للصيدليات. وبعد اكتشاف وانغ يي رونغ، اعتقد الناس أن ذلك يمثل الكتابة القديمة التي تتنوع بين تشوان شو (خط الأختام الصينية)، وتشوون (نوع من الخط الصيني القديم). ومن سوء الطالع، أنه عندما بدأ وانغ أبحاثه، ما لبث أن استشهد في العام التالي لاقتحام تحالف الدول الثماني (اليابان، وإنجلترا، والولايات المتحدة، وروسيا، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا والإمبراطورية النمساوية- المجرية) مدينة بكين في عام 1900. وبحلول عام 1910، أكد الباحث المشهور لوا تشينغ يوي أن قرية شياو تون بمدينة آنيانغ كانت العاصمة القديمة لأسرة شانغ قبل الميلاد. ثم استمرت الاكتشافات بصورة متتالية، وتم العثور على أكثر من مائة ألف من العظام ودروع السلاحف معاً، واكتشاف حوالي أربعة آلاف وخمسمائة من مفردات هذه النقوش، من بينها استطعنا معرفة زهاء ألف وسبعمائة كلمة، معظمها عبارة عن الدعاء في مراسم القربان والتنجيم لدى حكام أسرة شانغ -ين. واعتبرت الأوساط الأكاديمية ذلك الدعاء دائماً بمثابة بداية الكتابة الصينية، ولكن نتائج أبحاث الآثار الجديدة أثبتت أنه ليس أقدم النقوش على العظام ودروع السلاحف. وفي الفترة من عام 1985- 1986، اكتشف العاملون في العاديات والآثار أطلال قرية في المجتمع البدائي في فترة حضارة لونغشان في منطقة تشنغآن بمدينة شيآن، وعثروا على أكثر من عشر عظام حيوانات منقوش عليها كتابة العلامات الأحادية التي تتألف من خطوط المقاطع الصينية المتعددة والمتنوعة، وتم التعرف عليها من خلال أبحاث الخبراء؛ وهي عبارة عن كلمات تشمل: «الإنسان»، «الغنم»، «ثلاثة»، «يتراجع»، «عشرة آلاف». والخط في هذه الكلمات واضح وجلي،

وتركيبها متماسك ومترابط، ونقوشها دقيقة وبارزة، وتتحلى بخصائص الكتابة وتعتبر أقدم نقوش العظام ودروع السلاحف التي تم اكتشافها، ولذلك تعتبر أقدم الرموز الصبينية، وتاريخها يربو على أربعة آلاف سنة إلى الآن، ويتزامن ذلك مع عصر الإمبراطور الأصفر كما جاء في الأسطورة. وفي عام 1997، اكتشف العاملون في مجال الآثار القديمة بعض قطع العظام ودروع السلاحف التي تحوي نقوشاً في أطلال شيجيا في محافظة هوان تاي في مقاطعة شاندونغ، وتعد جزءاً من الكتابة في فترة حضارة لونغشان. وقد دفعت الاكتشافات نقوش العظام ودروع السلاحف هذه تاريخ الكتابة في الصين إلى الأمام زهاء ألف سنة ونيف. وفي الوقت الحاضر، يُطلق على نقوش العظام ودروع السلاحف مصطلح «نقوش العظام ودروع السلاحف البدائية». وعلى هذا النحو، حديثنا عن نقوش العظام ودروع السلاحف يمثل مرحلتين هما: نقوش العظام ودروع السلاحف في العصر البدائي، ونقوش العظام ودروع السلاحف في أطلال ين في أسرة شانغ.

وبعد اكتشاف نقوش العظام ودروع السلاحف، ظهرت نقوش برونزية قديمة كانت بمنزلة الكتابة على الأدوات والأواني النحاسية البرونزية في أسرتي شانغ وتشو، من بينها كانت نقوش عصر أسرة تشو الأكثر عدداً. وهناك تشابه كبير -من حيث الشكل- بين النقوش البرونزية في أسرة شانغ ونقوش العظام ودروع السلاحف في أطلال ين، بينما كانت النقوش البرونزية في أسرة تشو بسيطة جداً.، وشكلها أكثر تنظيماً وترتيباً، مما يوضح أن الرموز الصينية أحرزت تقدما هائلاً في أسرة تشو. وفي أواخر عصر الممالك المتحاربة، اقترب شكل الخط بصورة تدريجية من شياو تشوان (شكل من أشكال الخط الصيني القديم).

المبحث الثالث

نقوش الأسطوانات الحجرية في عهد الممالك المتحاربة

كان تطور الرموز الصينية من نقوش العظام ودروع السلاحف إلى النقوش البرونزية القديمة، ومن النقوش البرونزية القديمة إلى تشوان شو، ومن تشوان شو إلى لي شو (الخط الديواني الصيني القديم)، ثم ظهر ما نستخدمه في الوقت الحاضر من خط رشيق وخط نسخي. ولكن في الواقع أن تشوان شو ينقسم إلى: داتشوان (نوع من الخطوط الصينية انتشر في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة) وشياو تشوان. ومازال شياو تشوان ينتشر في نطاق أكبر نسبياً إلى الآن، أما داتشون فقد استخدم قط في نقوش الأسطوانات الحجرية. ولذا، استحوذت نقوش هذه الأسطوانات على اهتمام الباحثين عبر العصور المتلاحقة.

إذن، ماهي نقوش الأسطوانات الحجرية؟ هي الكتابة المنقوشة على عشرة أحجار، شكلها يشبه الطبلة، وتمثل أيضاً أقدم الكتابة المنقوشة الحجرية الموجودة حالياً، ومحفوظة في متحف المدينة المحرمة في العاصمة بكين لأنها تمثل كنوز الدولة. وعلى جانبي القاعة الكبرى في معبد كونفوشيوس في بكين توجد نسخ مطابقة لهذه النقوش التي يرجع تاريخها إلى فترة تشيان لونغ في أسرة تشينغ. والنقوش على الطبول الحجرية عبارة عن رباعيات شعرية، وتحوي كل طبلة مقطوعة رباعية، ولذا هناك عشر رباعيات مضمونها يدور حول الإشادة بمآثر الملوك والأباطرة في الصيد البري، وأسلوب الخط في هذه الرباعيات لا يشبه النقوش البرونزية القديمة، ولا يشبه شياو تشوان أيضاً، وشكل حروفها أكثر دقة وتنظيماً عن النقوش البرونزية القديمة، ويقترب تركيبها من شياو تشوان، ومن الواضح أنه نوع من الخط اجتاز عملية الانتقال من هذه النقوش إلى شياو تشوان، ويتحلى بالقيمة البحثية العظيمة في تاريخ تطور الرموز الصينية، ومن ثم استحوذ على اهتمام الباحثين عبر الأجيال المتتالية. وذكرت مصادر ومراجع تاريخية قديمة أن الطبول الحجرية تم العثور عليها في أوائل أسرة تانغ في محافظة تشيان شان بمقاطعة شنشي، ثم وُضعت في العراء في تشين تسانغ (على مقربة من مدينة باوجي). وفي تلك الأثناء، كان جينغ يوي تشينغ مسؤولاً في مدينة فينغ شيانغ، ونقلها إلى معبد كونفوشيوسي في هذه المدينة من أجل حمايتها والحفاظ عليها، ولكنها فُقدت

جميعها بسبب الاضطرابات الناجمة عن حروب الأسر الخمس. وفي أسرة سونغ، قام محافظ هذه المدينة ويدعى سيماتشي بالبحث عنها في شتى البقاع حتى عثر على تسعة طبول، ثم عثر على الطبلة الباقية في عام 1052م. وفي أسرة سونغ الشمالية، تم نقل هذه الطبول إلى بيان جينغ للحفاظ عليها، وأمر الإمبراطور وي زونغ في هذه الأسرة بطلاء نقوشها بالذهب إظهارا لقيمتها الغالية. وعندما تعرضت بيان جينغ لهجوم قوات أسرة جين، اعتقد الجنود أن هذه الطبول غريبة وعجيبة ونقلوها إلى يان جينغ (بكين اليوم) في عام 1128م. وفي أسرة يوان، تعرضت هذه الطبول للضياع والفقدان مرة أخرى داخل أوساط الشعب، ثم عثر عليها تشينغ جون المدرس في مدرسة الحكومة، وأخبر رئيس الوزراء بذلك الذي أرسل عربة من وزارة الدفاع التي نقلتها إلى هذه المدرسة. وظلت في الحفظ والصون في مدينة بكين. وفي عام 1933، نقلتها حكومة الكومنتانغ (القوميون) إلى مدينة نانكين ودفنتها تحت الأرض، ولكن بعد تحرير الصين تم التفتيش عنها والعثور عليها ونقلها إلى بكين مرة أخرى. ويُعد ذلك تاريخاً موجزاً يبرز للعيان مدى اهتمام الأجيال المتلاحقة بنقوش الأسطوانات الحجرية.

أما بخصوص عصر نقوش الأسطوانات (الطبول) الحجرية، يرى المثقفون والباحثون في العصر القديم أنها صُنعت في عهد الملك شوان في أسرة تشو، وتجسد ذلك في أشعار هان يوي في أسرة تانغ، ويي ياو تشين، وصوشي في أسرة سونغ. وكان المؤرخ جينغ تشياو في أسرة سونغ الجنوبية أول من ذكر أن نقوش الأسطوانات الحجرية كانت في أسرة تشين وأثار اهتمام وانتباه بعض الباحثين. ولكن مازال هناك نفرٌ قليل يستمسك بالقول القديم. وبحلول العصر الحديث، مالت الآراء إلى التوحيد، واعتقدت أن الكتابة المنقوشة على الأحجار قد بدأت في مملكة تشين في فترة الربيع والخريف، وتاريخها يمتد تقريباً من 779ق.م إلى ما قبل عام 325م، وتعتبر من الآثار المهمة لدراسة تطور الرموز الصينية وفن النقش الحجري.

المبحث الرابع
الأصول الستة للمقاطع الصينية
في تركيب الرموز الصينية

منذ القدم وقبل أسرة تشين، بدأ الناس دراسة الرموز الصينية. وكان كتاب «تشوون- نوع من الخط الصيني القديم» ثمرة هذه الدراسة إذ ذاك، ولكن كان نصيبه الضياع للأسف الشديد. وشهدت أسرة تشين ظهور ثلاثة كتب في هذا الموضوع هي: «تسانغ جيه» للمؤلف لي سي، و«البحث عن تاريخ الرموز» مؤلفه تشاو قاو، و«المعارف الواسعة» لمؤلفه خو وو جينغ. وفي أسرة هان تم جمع هذه الكتب الثلاثة في مجلد واحد وأطلق عليه «تسانغ جيه». وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك كتاب آخر عنوانه «المعرفة السريعة» من تأليف شي يوه. وكانت هذه الكتب كلها تستخدم في تعلم القراءة والكتابة لدى الأطفال بصورة أساسية، ولذا أُطلق عليها الاسم الجامع «مدرسة ابتدائية». وفي أسرة هان الشرقية، قام شيوه شين بتلخيص إنجازات السلف في كتاب يحمل العنوان «شرح المفردات»، حلل فيه ستة تراكيب تشكل الرموز الصينية أطلقت عليها الأوساط الأكاديمية «ليوشو» (الأصول الستة للمقاطع الصينية). وقد ظهر هذا الاسم للمرة الأولى في كتاب «مراسم أسرة تشو»، ولكنه لم يشر إلى ماهية «ليوشو». وأشار بان قو في أسرة هان الشرقية في كتابه «أسرة هان- فصل الأدب والفن»- أشار بوضوح إلى: «المقطع التصويري، المقطع الناطق بذاته، مدلول لفظة مأخوذ من معاني أجزائها، تقليد الأصوات، الشرح بمترادفات، ومقطع مستعار للدلالة على معنى آخر»، وأطلق على ذلك «ليو شو» التي تعتبر «أساس اختراع الرموز الصينية». وبعد فترة قصيرة، قدم شيوه شين شرحاً تفصيلياً نسبياً لـ«ليو شو» في كتابه المذكور أعلاه. ولكن كان ترتيبه للكلمات والتسمية يختلفان عن بان قو وغيره. وتبنى علماء فقه اللغة (الفيولوجيا) في الأجيال اللاحقة تسمية شيوه شين، وترتيب بان قو. ونشرح ذلك باقتضاب في النقاط التالية:

(1) **المقطع التصويري**: جاء في كتاب «شرح كلمات» أن المقطع التصويري هو رسم شكل شيء ما من خلال استخدام الخطوط المتعرجة وبموجب الخطوط العريضة لهذا الشيء، ويطلق على ذلك كلمة تصويرية مثل «الشمس، القمر»، وغيرها. ومن الجلي أن الكلمة التصويرية

انبثقت من الكتابة التصويرية، ومثل هذه الكلمات ليست قليلة في الرموز الصينية. ويمكننا القول إن العديد من الكلمات الأحادية المقطع التي ترسم الأشياء بصورة محددة تنتمي إلى الكلمة التصويرية. فعلى سبيل المثال، نجد كلمة «الشمس» في نقوش العظام ودروع السلاحف تتخذ هذا الشكل ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، وفي خط شياو تشاون . وكذلك كلمة «القمر» في نقوش العظام ودروع السلاحف شكلها هكذا ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، وفي خط شياو تشون . وكلمة «التنين» في نقوش العظام ودروع السلاحف شكلها ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، وفي خط شياو يوان . وأيضاً كلمة «باب» في نقوش العظام ودروع السلاحف شكلها ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، وفي خط شياو تشوان . وغيرها كثير من الكلمات التصويرية الأخرى في هذا الخصوص.

(2) **المقطع الناطق بذاته:** يذكر كتاب «شرح كلمات» أن المقطع المعبر عن ذاته بذاته هو أنه نستطيع أن نعرف ما يرمز إليه عندما ننظر إليه، وبعد إمعان النظر فيه بدقة نستطيع آنذاك أن نعرف معناه، مثل الرمزان «上» (أعلى) و«下» (أسفل) في اللغة الصينية. وتتحلى مثل هذه الرموز بعلامات إشارة توضح معناها، فعلى سبيل المثال، الرمز «上 – أعلى» في نقوش العظام ودروع السلاحف شكله ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، وفي خط شياو تشوان . وأيضاً الرمز «下 – أسفل» في نقوش العظام ودروع السلاحف ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، وفي خط شياو تشوان . ويتحلى كل رمز من هذين الرمزين بعلامات إشارة عبارة عن شرطة أفقية صغيرة. وأيضاً الرمز «本– الجذر» أصله الرمز «木» ويعني الخشب، ثم أضيفت شرطة أفقية صغيرة في أسفل الرمز كعلامة إشارة، وأيضاً الرمز «甘–حلو المذاق» شكله الخارجي عبارة عن فم إنسان تتوسطه شرطة أفقية صغيرة كعلامة إشارة إلى المذاق الحلو.

(3) **مدلول لفظة مأخوذ من معاني أجزائها:** أشار كتاب «شرح كلمات» إلى أن مدلول لفظة مأخوذ من معاني أجزائها يعني الدمج بين رمزين أو أكثر، وصهر معانيها في بوتقة واحدة، ولذا يظهر التوجه نحو معنى جديد. ولذلك، الرموز الصينية في هذا المضمار متحدة ومقترنة برموز أخرى. فمثلاً الرمز «武» (عسكري) يكتب في نقوش العظام ودروع السلاحف

هكذا ، في أعلاه فأس حربه (سلاح قديم في الصين)، وفي أسفله أصابع قدم، ويعبر عن التحرك وحمل فأس حربه؛ ويعني القيام بحملة عسكرية. ومثل مدلولات الألفاظ هذه في الرموز الصينية كثيرة جداً.، ومعظمها من الأفعال وتمحيص معانيها الأصلية يتحلى بالمتعة دائماً، فمثلاً الرمز «旅» (يقوم برحلة) معناه الأصلي حماية راية الحرب، ويكتب في نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، ويشير الشكل إلى جندي فوق عربة يحمي راية الحرب. وأيضاً الرمز «聂» (معناه يتكلم بهدوء)، وأيضاً الرمز «安»، يعني أن الفتاة في الغرفة تشعر بالأمان والطمأنينة. بالإضافة إلى العديد من الرموز الصينية ذات المدلولات اللفظية الأخرى.

(4) **تقليد الأصوات**: يذكر كتاب «شرح كلمات» أن تقليد الأصوات يعني أن الرمز «(جيانغ) معناه النهر»، والرمز » 河 (خه) معناه النهر أيضاً» ينتميان إلى جنس واحد هو الماء، ولذا كان جزء من المقطع الصيني يرمز إلى الماء وهو « 氵 » على جانب الرمز، والجزء الآخر من المقطع استخدم الصوت «工 و可»، ودمجهما معا يكون الكلمة الصوتية. وتعددت مثل تلك الرموز الصينية فيما بعد، وانقسمت إلى ستة أنواع من حيث التركيب:

(أ) الشكل في الجانب الأيسر، والنطق في الجانب الأيمن، مثل الرمز «江 » -الشكل «: 氵 » في الجانب الأيسر، والنطق «工» في الجانب الأيمن.

(ب) الشكل في الجانب الأيمن، والنطق في الجانب الأيسر، مثل الرمز «期»- الشكل «其» في الجانب الأيمن، والنطق « 月» في الجانب الأيسر.

(ج) الشكل في أعلى والنطق في أسفل، مثل الرمز «空» - الشكل «穴» في أعلى، والنطق «工» في أسفل.

(د) الشكل في أسفل والنطق في أعلى، مثل الرمز «基» - الشكل «其» في أعلى، والنطق «土» في أسفل.

(هـ) الشكل في الداخل والنطق في الخارج، مثل الرمز « 闷 » - الشكل 心» في الداخل، والنطق «a» في الخارج.

(و) الشكل في الخارج والنطق في الداخل، مثل الرمز « 固 » - الشكل 口 «في الخارج، والنطق « 古 » في الداخل.

(5) **الشرح بمترادفات:** جاء في كتاب «شرح كلمات» أن الشرح بمترادفات يعني تركيب رموز من صنف واحد تتحلى برأس المقطع المتشابهة في اللغة الصينية، وإذا كان معناها متماثلاً، فإن كلاً منها يشرح معنى الآخر. ويظهر ذلك بجلاء في الرمزين «كاو– 考 ، لاو 老»، حيث رأس المقطع فيهما واحد، ومعناهما متشابه أيضاً وهو (الطاعن في السن)، ولذلك أضاف الكتاب المذكور أعلاه أن: «لاو وكاو معناهما متشابه «و» كاو ولاو معناهما متماثل أيضاً». ويوضح ذلك أن هناك شرطين للشرح بمترادفات هما: تشابه رأس المقطع في اللغة الصينية، وتشابه المعنى في الرموز، وتركيب الرمز الذي يخالف ذلك، لا يصبح من قبيل الشرح بمترادفات وتظهر مثل هذه المترادفات كما في الرمزين «تشوان 船» و «تشو舟» ومعناهما السفينة، وكذلك «ليانغ 梁» و «تشياو 桥» ومعناهما الجسر، وأيضاً «دينغ 顶» و «ديان 颠» ومعناهما سقف البيت. وهلم جراً.

(6) **مقطع مستعار للدلالة على معنى آخر:** ذكر كتاب «شرح كلمات» أن استعارة مقطع للدلالة على معنى آخر يعني أن الكلمات تفتقر إلى الكلمة المراد استخدامها، ولكن لا نستخدم كلمة جديدة، بل نستعير كلمة جاهزة ونستخدمها في غرض غير غرضها الأصيل. وتظهر مثل هذه الكلمات كثيراً في الضمائر أو الحروف، مثل كلمة «我 – أنا» شكلها في نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ، ومعناها الأصلي سلاح، واستعيرت للدلالة على ضمير المتكلم، وما زالت تحتفظ بمعناها الأصلي. وكذلك كلمة « 自 – الذات» تكتب على نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ، ومعناها الأصلي الأنف، ثم استخدمت كضمير وحرف جر، ثم أصبحت كلمة صوتية للأنف أيضاً. وكلمة «耳 –الأذن»، تكتب على النقوش ودروع السلاحف هكذا ، ومعناها الأصلي الأذن، واسخدمت كأداة شكلية، ولكن معناها الأصلي ظل باقياً يستخدم بالتوازن مع معناها المستعار. وأخيراً كلمة «且 – في الوقت نفسه» معناها الأصلي الجَدّ، تكتب على نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ، واستعيرت لتستخدم كحرف عطف، ثم تمحورت إلى الرمز «祖 » تعبيراً عن معناها الأصلي.

المبحث الخامس
الأفكار الرئيسية في تركيب الرموز الصينية

تطورت الرموز الصينية من الكتابة التصويرية وكتابة الإشارات وأصبحت اليوم مقاطع صينية تتحلى بالخصائص الفريدة المميزة، ولم تكن أبداً نتيجة عشوائية وارتجالية لشيء ما، بل ارتبطت ارتباطاً وثيقاً باهتمام الصينيين بالحقائق، والانخراط في التفكير والتأمل، ويشمل ذلك التفكير العقلاني في كافة الموجودات، والوحدة العضوية بين الإنسان والطبيعة والتكامل بين الذات والموجودات في الكون. وإلقاء نظرة على تكوين الرموز الصينية، نجد أن من بين الأصول الستة للمقاطع الصينية؛ يمثل المقطع التصويري، والمقطع الناطق بذاته، ومدلول لفظة مأخوذة من معاني أجزائها وتقليد الأصوات طرائق اختراع الرموز الصينية، بينما الشرح بمترادفات ومقطع مستعار للدلالة على معنى آخر يمثلان طرق استخدام هذه الرموز. ومن بين طرق اختراع الرموز، تُعد الكلمة التصويرية هي الأكثر أهمية من بين هذه الطرق الأربع. وإجراء مسح شامل على الكلمات التصويرية، نجد أنها اقتبست من الأشياء في الكون، واستلهمت أفكار وخيال الإنسان، واستوعبت الأدوات في العالم؛ فالأشياء هي الوجود الموضوعي بين السماء والأرض وهي الشروط الأساسية التي يعتمد عليها الناس في المعيشة، والإنسان هو روح كافة الموجودات بين السماء والأرض، ويتحلى بحكمة الإفادة منها وتقويمها، والأدوات هي ثمرة تأثر الإنسان بالعالم الطبيعي وتبلور حكمته وفطنته. ولكن نقول -على الجملة - إن موجودات الكون والإنسان والأدوات هي كيانات موضوعية انطلق منها تكوين الرموز الصينية بصورة أساسية. وفي ضوء ذلك، عكس تركيب الرموز الصينية الأفكار التالية:

(1) **الرسم الواقعي**: الكلمات التصويرية مثل: «الإنسان، الحصان، الشمس، القمر، الجبل، الماء» قد انبعثت جميعها من الأشياء المادية ورسمت الواقع في الطبيعة ولا توجد ثمة ضرورة أن نتناولها بالتفصيل. وحتى مدلولات الألفاظ المأخوذة من معاني أجزائها قد حاولت بقدر الإمكان استخدام شيئين أو أكثر من الأشياء الحقيقية المحددة لترمز إلى معانيها. فعلى سبيل المثال، كلمة «家– البيت» تكتب في نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ،

وفي النقوش البرونزية القديمة « » وتعني يوجد خنزير في الغرفة، ويرمز ذلك إلى الملكية الخاصة. وقد بدأت الملكية الخاصة في المجتمع البدائي تقريباً من امتلاك الخنازير. وطبعاً هناك بيت يوجد به غرفة داخلها خنزير. وأيضاً كلمة «保 – يحمي» معناها الأصلي يربي، ثم تضخم معناها وأصبح يمثل الحماية وتكتب في نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، ويدل الشكل على أن الإنسان الكبير يربي الطفل الصغير ويحيطه بالرعاية والعناية. وكذلك كلمة «牢 – زريبة» معناها الأصلي زريبة الأبقار، وتكتب في نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، وخارج هذا الشكل يوجد هيكل الزريبة وفي داخله بقرة.

(2) الوحدة الكلية لجسم الإنسان: تركيب الرموز الصينية يتخذ قاعدة مفادها أن الإنسان يحس بكافة الموجودات، ووجود الأشياء المادية يتأثر بالإنسان، وفي عبارة أخرى أن الإنسان يمثل مركز العالم المادي، وهو العنصر الأساسي للموجودات كلها. وتأسيساً على ذلك، تكونت رموز صينية لا حصر لها، انطلاقاً من استخدام المواضع الكلية لدى الإنسان مثل: الجسد، والمواضع الجزئية مثل: «الرأس، الوجه، العين، الأنف، الأذن، الحاجب، الفم، اليد، القدم، الأسنان، الشفة، القلب، العظام، لحم الإنسان» فضلاً عن أفعال الإنسان مثل الكلام والمشي وغيرها. وحتى أحاسيس وأفعال الحيوانات حلت محلها أجهزة الإنسان أو مواضع معينة في جسمه، مثل فم الحيوان وأذنه وأنفه وقدمه لم يخترع لها رموز خاصة، واستخدمت الرموز الصينية في: «يأكل البقر، يأكل الكلب، يأكل الخنزير» الرمز «口» الذي يشير إلى فم الإنسان، والأحرى من ذلك أنها استخدمت الرمز نفسه في التعبير عن عواء الذئب، وزمجرة النمر وزئير الأسد. إذن الرمز «孕 – الحمل»، من صاحب هذا الفعل؟ إنه الجنين في بطن الإنسان، ويظهر هذا الرمز الموضع الكلي لجسم الإنسان؛ حتى الرمز «尾 –الذيل» يكتب في نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ، ومعناه الشعر في رِدف الإنسان.

(3) تجسيد الأحوال المادية والحياة الفكرية في المجتمع البدائي: ظهرت الرموز الصينية –بادئ ذي بدء– في المرحلة المتأخرة للمجتمع البدائي وأوائل مجتمع العبودية في الصين. وانتاج المجتمع في هذه المرحلة تركز بصورة أساسية على الزراعة، وتربية المواشي، وصناعة الفخار، والفولاذ المسبوك وغيرها من الحرف الفنية اليدوية، كما تجسدت الحياة الفكرية في أنشطة

القربان بصورة رئيسية. وقد تجسد ذلك في مجال اختراع الرموز، مثل الرموز التي لها علاقة بالحقل مثل: «الرجل، أرض زراعية، ضاحية» وغيرها، والرموز المعنية بالنباتات المنتجة للحبوب مثل: «الدُخن الأصفر، الدُخن اللزج، الحصاد، الخريف، الخير» وغيرها، والرموز ذات الصلة بالبيت مثل: «البقرة، الغنم، الخنزير، الحصان، الكلب»؛ بالإضافة إلى المنتجات الفخارية مثل: «لي (قدر قديمة ثلاثية القوائم) دنغ (طنجرة ثلاثية القوائم ذات أذنين قديمة العهد)، والأواني، ويو (نوع من الأباريق الأثرية)» وغيرها من الرموز الأخرى. وقد أظهرت هذه الرموز الأحوال المادية في ذلك العصر. ومن ناحية أخرى، تبلور الوجود المادي الطبيعي في ذلك الحين بصورة أساسية في الجبال والأنهار والشمس والقمر، بالإضافة إلى المعدن والخشب والماء والنار والتراب؛ وهي الأشياء التي تستحوذ على اهتمام الناس بصفة خاصة، والأشياء التي يراها الناس دائماً مثل: «الحشرات، الحشائش، الطيور، الأسماك، الغزال»، والأشياء التي يستخدمها الإنسان دائماً مثل: «الملابس، الطعام، العربة، الغرفة، اليشم». و «شكل» معظم رموز تقليد الأصوات يرجع مصدره إلى هذه الرموز التي أصبحت الجزء الرئيسي في تكوينها. والرمز «示»، ورأس المقطع الصيني «礻» في تكوين الرموز الصينية يعتبران بمثابة بيت القصيد الأكثر إيضاحاً للرموز الصينية لأنهما جسدا العبادة البدائية وأنشطة القربان في ذاك العصر البدائي. ويكتب الرمز «示» في نقوش العظام ودروع السلاحف هكذا ، وفي النقوش البرونزية القديمة ، وكان ذلك نوعاً من الحجر الجنّي أو يقدسه الأقدمون، وكان بمثابة مكان إقامة الأجداد الأولين أو مكان تقديم القربان لهم، وتطلق عليه الأوساط الأكاديمية «حجر التاج»، ولا تزال توجد بقاياه في مدينتي هاي تشينغ وقاي تشو في مقاطعة لياولينغ، ويطلق عليها السكان المحليون «ظلة حجرية». والرموز التي تتألف من المقطع الصيني «示» معظمها يمت بصلة إلى العبادة، والتهاني والأماني، والقربان.

المبحث السادس
إصلاح الرموز الصينية وتحديثها

منذ عدة آلاف من السنين خلت، قدمت الرموز الصينية إسهامات عظيمة ورائعة من أجل تسجيل الثقافة الصينية ونشرها والحفاظ عليها. ومنذ أواخر أسرة تشينغ، ظهرت ثُلة من البحاث المتحمسين الذين يتدارسون خطة إصلاح الرموز الصينية، مثل تنفيذ تبسيط الرموز الصينية، واستخدام الحروف الرومانية والعلامات في شكل أرقام بسبب أن أشكال الرموز الصينية معقدة جداً.، ومن الصعب دراستها ومعرفتها. كما ظهرت كوكبة من الباحثين غداة الحركة الثقافية 4 مايو 1919، أيدت بقوة إضفاء طابع الحروف اللاتينية على الرموز الصينية؛ فقد اقترح الفيلسوف الصيني تشيان شوان تونغ إصلاح الرموز الصينية من خلال وسيلتين هما: استخدام الأبجدية الصوتية الصينية، واستخدام الأبجدية الرومانية. وبعد ذلك، قام آخرون بإعداد «طريقة استخدام الأبجدية الصوتية الرومانية في اللغة الصينية»، وبذلوا الجهود المضنية من أجل ادخال الحروف اللاتينية في الرموز الصينية. وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية في عام 1949، أنشئت لجنة إصلاح الرموز الصينية (اللجنة الوطنية لأعمال اللغة المنطوقة والمكتوبة اليوم) بهدف دفع إصلاح الرموز الصينية إلى الأمام، ثم نشرت بعد ذلك «قوائم ترتيب المجموعة الأولى من الكلمات التي تكتب بطريقتين»، و «خطة تبسيط الرموز الصينية»، و «القوائم الشاملة للرموز المبسطة». كما اضطلعت ببحث وإعداد «خطة الأبجدية الصوتية في اللغة الصينية». وحققت هذه الإجراءات فائدة كبيرة من أجل إصلاح الرموز لا يمكن إنكارها. ولكن المطالبة بتغيير الرموز الصينية حاملة الخاصية المميزة والفريدة للثقافة الصينية، إلى الأبجدية الصوتية تُعد ضرباً من المستحيل ولا يمكن تحقيقها. وشهدت وظائف الرموز الصينية وآفاق دراستها في المستقبل وضعاً فريداً وحيوياً مع التطور السريع في الحاسوب واستخدامه. وفي عام 1980، قام الرعيل الأول من الباحثين برئاسة يوان شياو يوان بتأسيس «جمعية دراسات تحديث الرموز الصينية»، بهدف إضفاء الطابع العلمي على أبحاث الرموز الصينية واستشراف مستقبل هذه الرموز ودفع تحديثها إلى الأمام، وتشكل التيار الساخن داخل أروقة أبحاث الرموز الصينية بفضل تأثير هؤلاء الباحثين. وخلاصة

أبحاث هذه المرحلة قدمت العديد من المعارف الجديدة للرموز الصينية، وأرتأت هذه الأبحاث أن الرموز تتحلى بالكتابة ذات الرموز التعبيرية، وهناك علاقة وثيقة بين الشكل والصوت والمعنى، كما يزخر تركيب مقاطع الرموز الصينية، بالأفكار التي تستدعي كل منها الأخرى، وتستطيع تنوير خيال الإنسان وقدرته الإبداعية، وتستطيع الرموز الاندماج في تكنولوجيا الحاسوب وتشكل الشبكة العنكبوتية للمعلومات الإلكترونية. وتبنى السيد آنتسي في هونغ كونغ وجهة نظر أكثر حداثة في تحليل تركيب الرموز الصينية، وتنبأ في مؤلفه «كشف أحجية الرموز الصينية» (الطبعة الإنجليزية) –تنبأ بأن: «القرن الحادي والعشرين سيكون عصر إبراز قوة الرموز الصينية» وكل هذه المعارف والأطروحات أثرت تأثيراً هائلاً في تطوير الرموز الصينية. وأثبتت الحقائق في السنوات القليلة الماضية، أن الرموز الصينية تستطيع أن تساير بصورة كاملة تطور التكنولوجيا الحديثة للحاسوب. والرموز الصينية القديمة لا تعرقل التحديث. وفي الواقع، أن استخدام الحروف اللاتينية في الرموز الصينية لا يمكن أن يحل مشكلة تطوير هذه الرموز. إذن، كيف يمكن أن تتطور الرموز الصينية؟ وكيف يمكن أن تتسم بالطابع العلمي؟ ويعد ذلك من الموضوعات الجديدة التي يجب أن يبحثها فقه اللغة في الصين.

الفصل السادس

الفكر الأكاديمي في الصين

إن الأفكار الفلسفية والنظريات لدى الفلاسفة عبر العصور هي التي شكلت جوهر الثقافة الصينية. وأبرز هؤلاء الفلاسفة للعيان حكمة الأمة الصينية التي لا حد لها، وجسدوا أيضاً ملامحها وخصالها عن طريق تأملهم العميق ومعرفتهم بكافة الموجودات في الكون وفي المجتمع والحياة. وأياً كانت التغيرات الهائلة التي طرأت على الفكر الصيني منذ قدوم الماركسية إلى الصين واختلاف معايير سلوك الناس في العديد من المجالات من ذي قبل، بيد أن دراسة روح وفكر الأمة الصينية لا يزال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدار سلسلة أفكار الفلاسفة الأولين، وخاصة طبقة المثقفين التي نالت قسطاً كبيراً من التعليم العالي ولا تزال تتمسك بالموطن الفكري الذي وضعت الكونفوشيوسية والطاوية إرهاصاته. ولا يزال الصينيون هم الصينيون.

المبحث الأول

مذهب كونفوشيوس – مينشيوس

يعتبر مذهب كونفوشيوس –مينشيوس أول نظرية في تاريخ الثقافة الصينية، كما يعتبر مؤسسه كونفوشيوس نجماً ساطعاً في تاريخ الثقافة الصينية أيضاً. والنظرية التي أسسها كونفوشيوس ومنيشيوس يطلق عليها «رو- أي المذهب الكونفوشيوسي أو الكونفوشيوسيون»، وهم أقدم المسؤولين الرسميين المكلفين بالتربية الأخلاقية والموسيقى والطقوس والمراسم، أمثال: العرافين والسحرة والمؤرخين ومتخصصي المراسم لدى الأرستقراطيين ملاك العبيد. وفيما بعد انتشر هؤلاء المسؤولون بين صفوف الشعب تدريجياً مع تغيرات المجتمع؛ حيث كان بعضهم مسؤولاً عن المراسم لدى الأمراء والحكام وأصبح «كونفوشيوسياً رفيع المقام»، وبعضهم استطاع فقط الاضطلاع بمراسم الجنازة وتقديم القرابين وأصبح «كونفوشيوسياً ضئيل الشأن»، وتفوق هؤلاء الكونفوشيسيّون بمعارفهم وأخلاقهم على الناس العاديين لأنهم كانوا ضالعين وعلى دراية كاملة بالشعر والطقوس والمراسم»، ويعاملون الآخرين بـ «أدب جم وتهذيب». وبعد ظهور كونفوشيوس، أصبحت النظرية التي أسسها كونفوشيوس يطلق عليها «المذهب الكونفوشيوسي»، كما أصبحت الكونفوشيوسية اسماً. خاصاً يطلق على أتباعه ومريديه الكثيرين الذين يتمتعون بالتأثير واسع النطاق. وبعد ذلك حمل مينشيوس وشون تسي لواء المذهب الكونفوشيوسي وقاما بتطويره وأصبح التيار الفكري الأكثر تأثيراً في فترة الربيع والخريف وفي عصر الممالك المتحاربة. وفي عصر الإمبراطور هان وو دي تبوأ المذهب الكونفوشيوسي مكانة مرموقة وقاد بوصلة توجيه الحياة في المجتمع الصيني لعدة آلاف من السنين.

وحديثنا عن المذهب الكونفوشيوسي يبدأ –في المقام الأول– بالحديث عن كونفوشيوس. فقد وُلد (551 ق.م – 479 ق.م) في فترة الربيع والخريف، واسمه الأصلي تشيو، ومسقط رأسه كان في إمارة لو (مقاطعة شاندونغ اليوم). وفي أواسط العمر، كان مسؤولاً عن تنفيذ عقوبات السجن في تلك الإمارة، وكان رحالة جوالة في مختلف البلدان. أما طوال حياته، فقد كانت مهمته الأساسية أن يعلّم أتباعه ومريديه والتف حوله أكثر من ثلاثة آلاف طالب.

وسجل مريدوه أحاديثه وآراءه في كتاب «حوارات كونفوشيوس» الذي يعد مرآة تعكس أفكاره بصورة أساسية.

ونقول -في الواقع- إن أفكار كونفوشيوس الرئيسية تتمحور على «الخير»، ومغزى «الخير» يشتمل على كل الأخلاق الجميلة. إذن، ما معنى «الخير»؟ يقول كونفوشيوس إن: «الإنسان الخير يحب الناس»، ويعني ذلك الحب المتبادل بين البشر. وماهي وسيلة «حب الآخرين»؟ إنك تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك، وتمنح الآخرين ما تطمح إليه نفسك من منافع وفوائد من جهة، ومن جهة أخرى، الأشياء التي لا ترغب فيها نفسك، والأعمال التي لا ترغب في إنجازها، لا تحاول إطلاقاً أن تفرضها على الآخرين، ولا تفرض آراءك على الناس فرضاً. والإنسان الذي يتحلى بـ «النزعة الخيرية» لا يعامل الآخرين بما لا يحب الآخرون أن يعاملوه به، ويبين ذلك أن «الإخلاص» هو «الرغبة في التقدم الذاتي ومساعدة الغير في إحراز التقدم وتلبية الاحتياجات الذاتية ومساعدة الآخرين على تلبية احتياجاتهم أيضاً» أما الإيثار فهو: «أن يحب الإنسان لنفسه ما يحبه للآخرين». وإذا استطاع الإنسان الخيّر تحقيق ذلك يكون إنساناً عالي الهمة كبير النفس، ويتسم بالمثل العليا. وفي هذا الخصوص، يظهر كونفوشيوس معاملة البشر على قدم المساواة واحترامهم والسعي الدؤوب وراء تحقيق كمال الأخلاق في طباع الفرد، مما يجسد بجلاء «الفكر الإنساني» لدى كونفوشيوس.

لقد انطلق كونفوشيوس من فكرة «الخير»، وقدم مجموعة من المفاهيم الأخلاقية لإصلاح الذات وتحقيق الخير، ناهيك عن الأفكار الأساسية للتربية الأخلاقية. ويقول كونفوشيوس إن حب الآخرين هو تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ويعني ذلك الانتقال من حب الذات إلى حب الوالدين والأشقاء، وحب الزوجة والأصدقاء، إنه كذلك الانتقال من حب الأسرة إلى حب المجتمع، ومن المجتمع إلى الدولة، أي التحول التدريجي من الصغير إلى الكبير، ومن الداخل إلى الخارج، كما أشار إلى ذلك في كتاب «العلم الكبير» من: «تهذيب الذات، ترتيب البيت، حكم الدولة، إحلال السلام في العالم». وإذا لم يستطع المرء أن يهذب الذات، فهل نستطيع أن نتحدث عن الأمور الأخرى من ترتيب البيت وتنظيمه، وحكم البلاد وتحقيق السلام في العالم؟» ولذلك يقول كونفوشيوس ويدعو إلى الفكرة السياسية القائلة بأن «بر الوالدين هو جوهر الخير» ويؤيد في المقام الأول «تعديل الأسماء»، ويعني

ذلك استعادة النظام الاجتماعي والقانون في ضوء عدم وجود معايير محددة، وإلا «إذا لم تكن الأسماء صحيحة لا يوافق الكلام حقائق الأشياء، وإذا لم يوافق الكلام حقائق الأشياء لا تتم الأمور، وإذا لم تتم الأمور لا تزدهر الآداب والموسيقى، وإذا لم تزدهر الآداب والموسيقى لا تنزل العقوبات على من يستحقها، وإذا لم تنزل العقوبات على من يستحقها لا يعرف الرعية كيف يحركون أيديهم وأرجلهم، ولذلك يعتبر الرجل الكامل الخلق ضرورياً أن توافق الأسماء مسمياتها حتى يمكن أن يتكلم بها وأن يعمل بما يتكلم، والرجل الكامل الخلق لا يتهامل في كلامه»، ثم يدعو كونفوشيوس إلى «الثقة» في الحاكم، بمعنى أن الحكومة يجب أن تظفر بثقة الشعب. ويقول كونفوشيوس: «لو تداولت أيدي الصالحين شؤون الدولة لمدة قرن واحد لتهذب الظالمون كلهم أجمعون ولاستغني عن عقوبة الإعدام». وأردف قائلاً: «إذا كان سلوك الرئيس نفسه مستقيماً يطيعهُ المرؤوسون من غير أن يأمرهم، وإن كان غير مستقيم لا يطيعونه ولو أمرهم»، وانطلق من هنا كونفوشيوس مؤيداً حكم البلاد عن طريق التربية الأخلاقية، ولا يحبذ استخدام السلطة الاستبدادية والقوة الغاشمة. ويتحلى كونفوشيوس بالأفكار التربوية التعليمية ذات القيمة العالية التي مازالت تتوارثها الأجيال حتى الوقت الحاضر. وكان كونفوشيوس يدعو إلى «اقتناء المعارف بالصمت، ودراسة العلوم بغير ملال، وتعليم الناس بلا تعب» ناهيك عن التمسك بخصال أربع: لا يتبع المرء الهوى، ولا يستبد بما يرى، وليس معانداً، وليس أنانياً» وغيرها من الأفكار والمبادئ ذات الأهمية التربوية بالنسبة للإنسان. وطبعاً، تنطوي أفكار كونفوشيوس على بعض الأشياء المتخلفة مثل دعوته إلى استعادة الطقوس في أسرة تشو، والاستخفاف بالعمل الجسماني الشاق وازدراء المرأة. ويعد ذلك نوعاً من المحدودية التاريخية. ولا يمكن إغفال القيمة الثقافية لأفكاره جراء تلك المفاهيم المتخلفة ونزعة المحافظة.

وكان مينشيوس من كبار الأساتذة في المذهب الكونفوشيوسي من الجيل الثاني الذي حمل لواء الفكر الكونفوشيوسي وقام بالترويج له. ومينشيوس (385 ق. – 304 ق.م) من أهالي مقاطعة شاندونغ. ويقال إنه كان من أتباع حفيد كونفوشيوسي تسي سي، ولم يكن مسؤولاً طوال حياته، بل كان متخصصاً في سرد القصص والحكايات. وتجسدت أفكاره بصورة أساسية في الكتاب المعنون (مينشيوس) الذي قام بتأليفه مع بعض مريديه. ونظراً

لإسهاماته العظيمة في المذهب الكونفوشيوسي، اعتاد كونفوشيوسيون في الأجيال اللاحقة الربط بين كونفوشيوس ومنيشيوس؛ فيقولون «مذهب كونفوشيوس– منيشيوس» أو «نظرية كونفوشيوس– مينشيوس».

إن مذهب مينشيوس من إقامة «حكومة خيرية» قائم على أساس نظرية الطبيعة الإنسانية الخيرية، حيث اعتقد أن كل كائن بشري يحمل في داخله إرهاصات النزعة الخيرية، وقال إن: «الشعور بالرحمة يعتبر بداية الخير (أو الإنسانية). والشعور بالخجل والكراهية بداية الاستقامة، والشعور بالتواضع هو بداية الطقوس، والإحساس بالصواب والخطأ بداية الذكاء (أو الحكمة)، ويعتبر «الشعور بالرحمة هو الأهم من بين تلك المشاعر والأحاسيس» والذي يعني أن «كل امرئ يحمل في داخله شعوراً مفاده أنه لا يتحمل رؤية معاناة الآخرين». وانطلاقاً من ذلك، توصل مينشيوس إلى فكرة «الحكومة الخيرية» اعتقاداً منه أن كل امرئ يتحلى بمشاعر الشفقة والرحمة التي يتولد منها «الخير»، وقام بتعظيم تلك المشاعر وتوسيع نطاقها ليستفيد منها في الجانب السياسي بما أطلق عليه «حكومة خيرية». كما قدم أفكاره في الجانب السياسي حيث كان يرى: «بالنسبة للدولة، يعتبر عامة الناس أهم شيء على الإطلاق، ثم تقديم الذبائح لآلهة الأرض والمحاصيل يأتي في المرتبة الثانية، ثم يأتي الحاكم الذي يعتبر الأقل أهمية». مؤكداً بذلك أهمية الشعب وأبرز للعيان المكانة التي يجب أن يتبوأها الشعب في الهيكل السياسي. ويعتبر ذلك من الأفكار الرائعة الممتازة في ذلك العصر. وفي الوقت نفسه، انطلق مينشيوس من أفكار كونفوشيوس القائلة بأن «الإنسان الخير يحب الآخرين»، وطرح مفهوم «سياسة البر»، وأن تحقيق هذا المفهوم يحتاج إلى تهذيب وتأديب الشعب. إن مذهب مينشيوس من «النزعة الخيرية الطبيعية» و«سياسة البر» ترك أثراً عميقاً في المذهب الكونفوشيوسي في الأجيال اللاحقة حقاً.

وكان هناك مُعلم كونفوشيوسي عظيم قبل أسرة تشين يدعى شون تسي. كوانغ هو الاسم الأصلي لشون تسي (313 ق.م تقريباً– 238 ق.م) ولقب عائلته تشنغ، وهو من مواطني مملكة تشاو في نهاية عصر الممالك المتحاربة. وكانت حياته –بصفة عامة– حافلة بالأنشطة والتنقل والترحال حيث تجول في ممالك تشاو، يان، تشو، تشين وتشي وغيرها من الممالك الأخرى. التف حوله العديد من أتباعه ومريديه، ومن بينهم السياسي المخضرم في أسرة تشين لي سي.

وألف كتاباً بعنوان «شون تسي» يشمل جميع أفكاره وآرائه.

وكان شون تسي -مثل كونفوشيوس ومينشيوس- يؤيد «المراسم وآداب المعاملة والعدالة»، ولكن تختلف نقطة انطلاقه وأفكاره المحورية عن أقرانه، فقد أكد مينشيوس «النزعة الفطرية الخيرية»، بينما يؤكد شون تسي على الطبيعة الإنسانية الشريرة». وتعتبر نظرية الطبيعة الإنسانية الشريرة لشون تسي بمثابة الأساس النظري لأفكاره السياسية وتهدف إلى معارضة «نظرية الطبيعة الإنسانية الخيرية» التي قدمها مينشيوس، وفي الواقع، إن جوهر هاتين النظريتين متشابه، وينطلق من النظرية القائلة بأن طبيعة الإنسان التجريدية فوق الطبقات، ولكن أسلوبهما في الجدل وعرض الحقائق مختلف، وهدفهما مشترك ويثبت عقلانية وضرورة الحكم الإقطاعي.

وحول نظريته بشأن الطبيعة الإنسانية ذكر شون تسي أن: «الطبيعة الإنسانية شريرة كانت أو خيرية تعد شيئاً مصطنعاً»، وفي عبارة أخرى أن الطبيعة الإنسانية كانت شريرة في بادئ الأمر، ثم أصبحت خيرية بعد تعديل بنيتها لاحقاً، وحسب نظريته هذه فإن الطبيعة الإنسانية تتسم بالنزعة الطبيعية وتعد نوعاً من المادة الخام وزيفها كانت نتيجة معالجة هذه المادة، وإذا لم توجد «الطبيعة الإنسانية» فإنه لا يوجد شيء يمكن «معالجته»، وبالتالي من المستحيل أن تصبح «الطبيعة الإنسانية» خيرية من تلقاء نفسها. وتختلف أفكار تشون تسي عن أفكار نظيره مينشيوس في الجانب السياسي؛ فالأخير يرى أن الشعب يتحلى بالأهمية القصوى ويحتل المرتبة الأولى، ويأتي الحاكم في مرتبة ثانية، بينما يرى الأول أهمية توطيد أركان سلطة الحاكم ولا يعير اهتماماً للدور الذي يضطلع به الشعب. وقدم شون تسي إنجازات بارزة تجسدت في مقولته بأن السماء لا يمكن أن تتدخل في شؤون البشر، وأن العالم الطبيعي والمجتمع الإنساني لكلٍ منهما قوانين تطوره، ومن ثم السبب الرئيسي في الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية يكمن في الإنسان وليس في السماء. ويرى بعض الباحثين أن شون تسي ينتمي إلى المدرسة الشرائعية لأنه يؤيد «سيادة القانون»، ولكن تنفيذ سيادة القانون هذه ينطلق من المراسم والمجاملة واللياقة، بمعنى أن السيطرة على أفعال المرء وتصرفاته هي الأساس والجوهر في تطبيق القانون، ويمثل ذلك بحذافيره جوهر المذهب الكونفوشيوسي.

وبعد أسرة هان، تبوأ المذهب الكونفوشيوسي مكانة مرموقة، وشهد تغيراً هائلاً من

المضمون إلى الشكل. وباتت الأفكار الكونفوشيوسية جوهر الفكر لدى المفكر البارز في هذه الأسرة دونغ تشونغ شو، حيث أصبحت العقيدة الأيديولوجية بمثابة الأيديولوجية الشرعية للحكم في ذلك الحين. ولا تتصف أفكار دونغ بالخصائص الأصلية للمذهب الكونفوشيوسي في مرحلة ما قبل أسرة تشين، بل تعد مذهباً كونفوشيوسياً خضع للتغيير حتى يتوافق مع المتطلبات السياسية للطبقة الحاكمة الإقطاعية في أسرة هان، وتمحورت على أيديولوجية كونفوشيوس- مينشيوس، وتبنت أفكار المدارس الفكرية الأخرى التي تخدم الحكم الإقطاعي، مذهباً سياسياً إقطاعيا مضمونه يحتوي على فكرة «الاتصال بين السماء والإنسان»، والسلطة المركزية للمدرسة الشرائعية (القانونية) والتفاعلات والتغيرات بين القوى (الفضائل) الخمس، وكوّن دونغ أيضاً مذهباً قوامه «التفاعل بين السماء والإنسان»، وأسس أيديولوجية لاهوتية تركزت على «الأركان الثلاثة» (سلطة الملك على الرعية، سلطة الأب على الابن، سلطة الزوج على الزوجة) والمكارم الخمس الأزلية (البر، الاستقامة، الأدب، الحكمة، الإخلاص).

وفي أوائل أسرة هان الشرقية، ظهر المفكر البارز وانغ تشونغ (27 ق.م—97م) الذي وُلد في مدينة شانغ يوي بمقاطعة تشجيانغ، وانحدر من الطبقات الاجتماعية الدنيا، وفي صدر شبابه درس بالأكاديمية الملكية في العاصمة لوايانغ، وكان على دراية كبيرة بالمذاهب المختلفة لمئة مدرسة، وعمل موظفاً صغيراً في إحدى المحافظات، ثم استقال من عمله واعتكف في بيته وكرس حياته لتأليف الكتب وخلف وراءه كتاب «حوارات في الميزان» الذي يعد من أهم أعماله ويتألف من خمسة وثمانين فصلاً، ويحتوي على مائتي ألف كلمة. وكان دونغ لا يؤمن بالديانات، ويسعى للبحث عن الحقائق استنادا إلى الوقائع، ويمقت الزيف والخداع، وتتسم أفكاره وأسلوبه بالأسلوب العلمي والروح العملية. ورفض الاعتراف بأن السماء تتحلى بالإرادة وتقرير المصير؛ فقد ارتأى أن الكوارث والنكبات هي مجرد ظواهر طبيعية وليست لها علاقة بالإنسان، وعندما ينتهي أجل الإنسان ويلقى حتفه يكون مثل النار التي تنطفئ جذوتها، ومن غير الممكن أن تكون هناك روح انفصلت عن الجسد وتبقى بمفردها، وأقر أن التجربة الحسية هي أساس تحصيل المعرفة، مؤكداً الاستناد إلى الحقائق في إقرار واختبار مصداقية المعارف، ويؤيد وجود الخير والشر في هذه الدنيا، وأنه يمكن تغيير

الحياة، وعارض بشدة تعظيم القديم والاستخفاف بالحاضر، ونبذ البهرجة والزخرفة والنفاق في الأقوال. وقد كانت أفكاره هذه -بلا شك- بمثابة حبوب اليقظة والانتباه في خضم تيار الإيمان بالخرافات الدينية الذي انتشر في أسرة هان، كما أن بريقها لا يزال يضيء صحائف تاريخ الفكر الصيني.

المبحث الثاني
أفكار لاوتسي وتشوانغ تسي

تعتبر أفكار لاوتسي وتشوانغ تسي بمثابة ثاني أهم نظرية أثرت في تطوير الثقافة الصينية، ويمثل هذه النظرية لاوتسي الفيلسوف الذي عاش قبل ظهور أسرة تشين، بالإضافة إلى نظيره تشوانغ تسي. ولاوتسي (571 ق.م تقريباً– 472 ق.م) لقب عائلته لي، واسمه أر ER، وهو من مواطني إقليم كو في ولاية تشو (اليوم مدينة قوي دا في مقاطعة خنان). وكان لاوتسي مؤرخاً رسمياً في البلاط الملكي لأسرة جو، ومسؤولاً عن الكتب والسجلات التاريخية في الدولة. وبعد ذلك اعتزل الناس وزهد الدنيا واعتكف على تجسيد أفكاره وآرائه في كتاب «لاوتسي»، ويطلق عليه أيضاً «الطريق إلى الفضيلة» الذي كتبه في زمن بعيد جداً. قد يرجع إلى أواسط فترة الممالك المتحاربة وقبل ظهور كتاب «تشوانغ تسي». كما أن المفكر العظيم لاوتسي هو مؤسس المدرسة الطاوية.

وهناك اختلافات بارزة بين الطاويين والكونفوشيوسيين؛ فالكونفوشيوسية ترمز إلى «علم الاندماج في العالم»، وتتناول بصورة أساسية التربية السياسية، ويضطلع دورها بالتركيز على المجتمع، أما بالنسبة للفرد فإنها تهتم اهتماماً شديداً بتهذيب طباعه وخصاله. أما الطاوية فهي «علم اعتزال العالم»، وتتناول بالشرح الكون والحياة، ويتركز دورها وتأثيرها على الفرد، بل وتهتم في المقام الأول بالجانب الروحي لدى الإنسان. وأهم فكرة لدى لاوتسي أنه جعل «الطاو» أهم مقولة في فلسفته، وهو الوسيلة في مراقبة ومعرفة العالم الموضوعي. إذن، ماهو «الطاو»؟ الطاو في فلسفة لاوتسي يعبر عن الحالة الأولية للكون، وكان موجوداً قبل خلق كافة الموجودات في السماء والأرض، ويعني ذلك كما يطلق عليه أنه: «شيء ما لا شكل له ولا هيئة، ولكنه كاملاً وموجوداً قبل خلق السماء والأرض». كما أن الطاو يعبر عن «أصل العالم»، ويعتقد لاوتسي أن كافة الموجودات والكائنات انبثقت من «الطاو». وفي عبارة أخرى، أن «الطاو يلد جميع الأشياء في العالم. والطاو أنجب الموجود الأول الذي بدوره أنجب الموجود الثاني، ثم أنجب الموجود الثاني الموجود الثالث الذي أنجب بدوره جميع الموجودات في العالم». ويؤكد لاوتسي أن: «الطاو يقتدي بذاته»، انطلاقاً من اعتقاده أن

الموجودات في الكون تغيرت وتطورت بصورة طبيعية. ولذلك يقول الحكيم لاوتسي:

لا أقول بأي فعل، والناس يتغيرون من تلقاء ذواتهم

أميل إلى حالة السكون، والناس ينصلحون من تلقاء ذواتهم

ألزم عدم التدخل، والناس يزدهرون من تلقاء ذواتهم

متحرر من الرغبات، والناس يسيرون بسطاء كالجلمود الخام من تلقاء ذواتهم.

وتشمل فلسفة لاوتسي الكثير من خلاصة الأفكار القيمة؛ إنها الأفكار الديالكتيكية العفوية. وأقر لاوتسي بأن الأشياء تتألف من الشيء ونقيضه مثل: الوجود والعدم، الصعب والسهل، الطويل والقصير، الأعلى والأدنى، الجمال والقبح، الأمام والخلف، القوي والضعيف، الحياة والموت، الذكاء والغباء، النصر والهزيمة. وأن الشيء ونقيضه ليسا منعزلين في الوجود، بل يتفاعلان بصورة متبادلة، وذكر أن: «الوجود والعدم أنجب كل منهما الآخر، والصعب والسهل يكمل كل منهما الآخر، ويوضح ذلك وحدة الأضداد عند لاوتسي».

وفي الوقت نفسه، أدرك لاوتسي بعض مظاهر التحولات المتبادلة بين الأضداد، وأكد أن: «السعادة تكمن في التعاسة، والتعاسة تتوارى في السعادة» وأشار إلى أن الأشياء قد تتحول إلى نقيضها، ولكن اعتقد أن مثل تلك التحولات تحدث دون قيد أو شرط. وانطلق من هذه الأفكار الديالكتيكية وأسس إستراتيجيته الفكرية قائلاً: «إن عودة الأشياء إلى أصولها تمثل حركة الطاو، ولذا كان يرى أن الأشياء تعود إلى أصولها بعد أن تبلغ غايتها القصوى، ولم يؤيد دفع تطور الأشياء إلى الأمام بصورة إيجابية، بل دعا إلى الحيلولة دون تطورها الكامل وفرض القيود عليها أو إعاقتها من خلال الإبقاء عليها في حالة من الاعتدال من أجل تجنب تحولها إلى نقيضها، ومن ثم اعتقد أن: «القوة والصلابة هما رفيقا الموت، بينما اللين والضعف هما رفيقا الحياة». والحفاظ على حالة اللين والضعف تعتبر بمنزلة وسيلة لتجنب الموت والتغلب على القوى. وقد أكد لاو تسي بإفراط على «اللين والضعف»، مما جعل أفكاره تنطوي على عناصر سلبية من التقهقر إلى الوراء، ومعالجة الأمور بتركها على طبيعتها ورفض التقدم.

حمل تشوانغ تسي لواء لاوتسي، وكان خير خلف في تجسيد التيار الرئيسي للمدرسة الطاوية. وتشوانغ تسي (369 ق.م تقريباً– 286 ق.م) اسمه الأصلي تشو، وعاصر الفيلسوف الصيني مينشيوس وإن جاء متأخراً عنه بعض الشيء. وذكرت سجلات تاريخية أن تشوانغ

تسي من مواطني مينغ التي تقع في الوقت الحاضر في مقاطعة شانغدونغ، وكانت في الأصل جزءاً من هذه المملكة أيضاً. وكان تشوانغ موظفاً صغيراً في تشيوان بمدينة مينغ. أما بخصوص مؤلفاته، فإن كتاب (تشوانغ تسي) يعتقد أنه من تأليف تشوانغ تسي ذاته وبعض مريديه وأتباعه ويعد من المصادر الأساسية والرئيسية لدراسة أفكاره الفلسفية.

ولب لباب أفكار تشوانغ تسي تتمحور على «دع المقادير تجري في أعنتها» وترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي، وكان –مثل أستاذه لاوتسي– اعتبر «الطاو» المقولة الأسمى في نظامه الفلسفي، وكانت نظرية المثالية الذاتية ونظرية اللاأدرية لديه نتيجة حتمية لمذهب النسبية الذي اعتبره أساس نظرية المعرفة وأظهرت كتاباته ومؤلفاته أفكاره الفلسفية التي تترفع عن الشؤون الدنيوية، وانطلاقاً من اعتقاده أن الإنسان يتعين عليه معرفة الطبيعة والامتثال لقوانينها، ويستغلها في إزالة التناقض داخل الذات حتى يحقق الإنسان الاندماج مع الطبيعة. مما يجعل روح الإنسان طليقة العنان. ومن أجل تحقيق ذلك، دعا الناس إلى التعامل مع الحياة بأسلوب ينصاع تماماً للطبيعة، وقدم مجموعة من وسائل تهذيب النفس والتأمل الباطني مثل التخلص من كافة المفاهيم الغثة، والحفاظ على الهدوء والاطمئنان الذاتي، وعدم السعي وراء الشهرة والمجد الزائل. ويمثل ذلك النقطة المحورية في الاستجابة والتعامل مع الشؤون الدنيوية من خلال قلب صافٍ ونفس هادئة، ومعرفة العالم الموضوعي وتقييمه من خلال انتهاج أسلوب الاقتباس من الطبيعة والتعلّم منها. وقد أثرت أفكار تشوانغ تسي هذه تأثيراً هائلاً في أفكار المثقفين في الأجيال اللاحقة، ناهيك عن إدراك معايير علم الجمال في الإبداع الأدبي.

المبحث الثالث

نظرية المدرسة الموهية

عندما ازدهر المذهب الكونفوشيوسي وبلغ شأواً كبيراً، كان هناك مذهب فكري آخر تأثيره واسع النطاق، وكان يطلق عليه المدرسة الموهية Mohist School. وفي فترة الممالك المتحاربة أُطلق على المذهب الكونفوشيوسي والمدرسة الموهية «مذهبان كبيران وبارزان». وكان موه تسي (468 ق.م –376 ق.م) مؤسس المدرسة الموهية، اسمه الأصلي دي، ولقبه موه، وينحدر أسلافه الأوائل من أسرة سونغ، ومكث فترة طويلة في مملكة لو حيث درس أفكار الكونفوشيوسية، ولكنه –فيما بعد– ارتد عن المذهب الكونفوشيوسي وأسس مذهب المدرسة الموهية. وكان مسؤولاً في أسرة سونغ، ثم تدنت مكانته الاجتماعية وعمل نجاراً، وتجول في العديد من الدويلات لنشر أفكار مذهبه، وكثر أتباعه ومريدوه، وعمَّ بينهم التنظيم الصارم، واستطاع أن يدافع عن العدالة بصراحة وخاض الحمم اللاهبة من أجل ذلك. وكتاب (موه تسي) من إعداد وتحرير أتباعه ويمثل المرجعية الأساسية في المدرسة الموهية.

ومعظم أفكار المدرسة الموهية تركز على مصالح الطبقات الدنيا من الكادحين. واقترح موه تسي عشرة موضوعات رئيسية هي: «الحب الشامل»، «مناهضة النزعة العسكرية»، «الاتفاق مع الفضيلة»، «الاتفاق مع الأعظم»، «الاقتصاد في إقامة الجنائز»، «الاقتصاد في الإنفاق»، «مناهضة الموسيقى»، «مناهضة الإيمان بالقضاء والقدر (الجبرية)»، «إرادة السماء»، «الإيمان بالأرواح». ويبدو أن دعوة المدرسة الكونفوشيوسية إلى «حب الآخرين» تشابهت مع دعوة المدرسة الموهية إلى «الحب الشامل»، ولكن يختلفان من حيث المغزى، فقد كانت المدرسة الكونفوشيوسية تؤيد «إعطاء الأولوية للقرابة والنسب والاهتمام بالأقرباء الأقربين والأبعدين، وحب الآخرين حسب درجاتهم الاجتماعية، بينما كان الحب الشامل لدى المدرسة الموهية مجدداً، بمعنى الاهتمام بـ «المنفعة المتبادلة بين الناس بغض النظر عن درجاتهم الاجتماعية». وانطلقت المدرسة الموهية من «الحب الشامل»، وارتأت أن الحرب تكبد الشعب خسائر فادحة، ولذا أيدت «مناهضة النزعة العسكرية» ومناوأة الحرب غير العادلة وضم أراضي الغير. و«الاتفاق مع الفضيلة» في المدرسة الموهية كان معياره «الحب

الشامل»، وما دام الإنسان قادراً على هذا الحب، فإنه يستطيع أن يكون مسؤولاً بصرف النظر عن أصله وفصله، ومن ثم «ليس من اللازم أن يكون المسؤولون من الطبقات العليا، والشعب من الطبقات الدنيا دائماً، ويجب اختيار الكُفء واستبعاد الذين يفتقرون إلى المهارة»، ويوضح ذلك مناهضة النظام الأرستقراطي العبودي الذي تتوارثه الأجيال بصورة كاملة، ويتسم ذلك بوعي تحقيق المساواة بين الطبقات. ويتناول «الاتفاق مع الأعظم» بصورة أساسية توحيد الأفكار، وتوحيد قرارات الحكومة، وتدعو المدرسة الموهية إلى الاقتصاد في الثروة وكبح جماح رغبات الإنسان، ومن ثم عارضت ما كانت تؤيده الكونفوشيوسية من «الاهتمام المفرط والمبالغة في مراسم الجنازة»، وعارضت إهدار الأموال والوقت فيما لا يعود بالنفع على الشعب، وشجعت «الاقتصاد في إقامة مراسم الجنازة» و«الاقتصاد في الإنفاق» و«مناهضة الموسيقى». ويعني «مناهضة القضاء والقدر» – في الواقع– إن المدرسة الموهية تؤيد أن الإنسان يعتمد على مجهوداته الذاتية من أجل تغيير بيئة حياته وعدم الخضوع لمصيره. و«إرادة السماء» و«الإيمان بالأرواح» يؤكدان وجود «قوة الإله» و«إله الأرواح»، ويعكس ذلك محدودية أفكار المدرسة الموهية، بالإضافة إلى دعوتهم ذات الصبغة الدينية، ومحاولتهم استغلال ما يطلق عليه قوة قانون «إرادة السماء» و«الإيمان بالأرواح» بهدف إرهاب الحاكم وتحذيره.

ولم تقتصر إسهامات المدرسة الموهية على التنظير فقط، بل قدمت منجزات بارزة في مجال العلوم الطبيعية والمنطق الشكلي. فعلى سبيل المثال، قدمت المدرسة الموهية في مرحلتها المتأخرة الأشكال الثلاثة الأساسية للتفكير وهي: المفاهيم والتقييم والاستنتاج، وحتى توصلت إلى الأشكال الأربعة للاستنتاج. وفي علم الهندسة، شرح الموهيون العلاقة بين النقطة والخط والسطح والدائرة. أما في علم الميكانيكا، فقد شرحوا مبادئ القدرة الذاتية والعلاقة بين القوة والحركة والوزن، وجسدوا حكمة وذكاء الأمة الصينية تجسيداً كاملاً.

المبحث الرابع

نظرية المدرسة الشرائعية

كانت نظرية المدرسة الشرائعية (القانونية) مذهباً ظهر في مرحلة ما بعد فترة الممالك المتحاربة، كما كانت أيضاً من التيارات الفكرية الرئيسية التي أثرت تأثيراً هائلاً في المجتمع الصيني القديم. كما كان المفكر العظيم هان فيي يمثل أفكار هذه المدرسة في مرحلتها المتأخرة. وينحدر هان فيي (280 ق.م تقريباً– 233 ق.م) من أسرة أرستقراطية قديمة في مملكة هان، وكان حاذقاً في كتابة المقال، وأبدى شغفا واهتماماً لدراسة قانون العقوبات، وكان هو ولي سي من مريدي الفيلسوف الصيني مينشيوس، وعندما وصلا إلى مملكة تشين، قام لي بتدبير المكائد والاتهامات ضد هان فيي بسبب كفاءته وقدراته الفائقة في التأليف والكتابة والتي استحوذت على إعجاب ملك مملكة هان. ودفع هذا العمل الخسيس هان فيي إلى الانتحار في غياهب السجن، وخلف وراءه أهم آثار هذه المدرسة وهي كتاب «هان فيي تسي».

وقبل هان فيي أو في عصره، ظهرت كوكبة من القانونيين مثل: شين يوهان، شانغ يانغ، وجين داو وغيرهم من الذين قدموا عدة شروح للقانون، وكانت أفكارهم الأساسية تدور حول أهمية اتساق الأسماء مع الحقائق، وأرتأوا أن الحاكم يجب أن يتحلى بتقصي الحقائق طبقاً للأسماء، وأن تكون أوامره وقوانينه صارمة حتى يتمتع بالكفاءة في إذعان الآخرين لتنفيذ أوامره وأحكامه. وقد اهتم شانغ يانغ بـ«أهمية القانون»، وشرح بوهاي بصورة أساسية «فن الحكم»، بينما ركز جين داو اهتمامه على شرح أهمية «السلطة». ولكن جمع هان فيي العناصر الثلاثة: القانون وفن الحكم والسلطة في بوتقة واحدة، وأصبح القانوني الذي يجسد فكرة القانون. وماهي «السلطة»؟ هي النفوذ الذي يتمتع به الحكام والأمراء. ويرى هان فيي أن الحاكم يجب أن يقبض في يديه على مقبضين أو مقبض الحياة والموت لأنهما يمثلان أداتين رئيسيتين للسلطة، وبذلك يسيطر الخوف على الحكوميين، ولا يستطيع الوزراء اغتصاب العرش، ولا يجرؤ أقارب الحاكم وأنسابه على مساومته، وهكذا يمكن تطبيق القوانين. ويتعين على الحاكم الاعتماد على «فن الحكم» لمراقبة تصرفات وألاعيب الوزراء والمسؤولين الذين ينتهكون القوانين. ويرى هان فيي أن فن الحكم هو وسيلة الحاكم لإماطة اللثام عن مؤامرات

الوزراء وموظفي الحكومة، وأن حكم البلاد لابد أن يتسم بالقوانين الصارمة والعقوبات الرادعة. ودعا هان في إلى تغليظ العقوبات وتنفيذ حكم القانون لأن ذلك يؤدي إلى تقليص عدد المجرمين أكثر من الحديث عن النزعة الطبيعية الخيرية، ومن ثم كان القانونيون يرون أن المراسم والطقوس، والنزعة الإنسانية الخيرية ومشاعر وأحاسيس الفرد بددت أهمية القانون وكرامته. وفي الواقع، إن أفكار المدرسة الشرائعية كانت حجر الزاوية في نظرية الحفاظ على السلطة المركزية الاستبدادية للحكام في عصور الإقطاع اللاحقة.

المبحث الخامس

دراسة المؤلفات الكونفوشيوسية في أسرة هان

شهدت الساحة الفكرية الأكاديمية -من ما قبل أسرة تشين إلى عصر أسرة هان- التيار الفكري الرئيسي من «دراسة المؤلفات الكلاسيكية» في أسرتي هان الغربية والشرقية بفضل تمجيد الأباطرة آنذاك للمذهب الكونفوشيوسي وإعلاء شأنه. ودراسة المؤلفات الكلاسيكية هو علم بحث وتوضيح ونشر أهداف وطرائق أمهات الكتب الكونفوشيوسية القديمة التي تمتاز بالمضمون الثري الواسع النطاق، وتكاد تغطي كافة المجالات الثقافية في الصين القديمة، ويشمل ذلك السياسة والاقتصاد والأخلاق والفلسفة والطقوس والأدب والفن والقانون والدين والعادات الشعبية في المجتمع التقليدي الصيني.

وبدأ علم «دراسة المؤلفات الكونفوشيوسية» بدراسة «الكتب الستة القديمة»، وتطور حتى تم دراسة وبحث «الكتب القديمة الستة عشر». وكان كتاب «تشوانغ تسي» أقدم كتاب ذكر «الكتب الستة القديمة» وتشير إلى المؤلفات الستة التي ظهرت قبل أسرة تشين وهي: «كتاب التاريخ»، «الموسيقى»، «كتاب التغيرات»، «حوليات الربيع والخريف»، «كتاب الشعر». وقام كونفوشيوس بمراجعة وتعديل تلك المؤلفات حتى أصبحت المواد التعليمية التي ينهل منها أتباعه ومريدوه، ولذلك أطلق عليها أيضاً «الفنون الستة». وفي أسرة هان أسس الإمبراطور وو دي «المعهد الإمبراطوري»، واكتشف فقدان كتاب «الموسيقى»، ولذا أسس مجموعة «الدكاترة الخمسة» ليشرحوا للطلاب والمريدين أمهات الكتب الخمسة (كتاب الأغاني، كتاب التاريخ، كتاب تقلبات الزمن، كتاب الطقوس وحوليات الربيع والخريف). وكانت الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية في ذلك الحين معظمها ليس قديماً قدم ما قبل أسرة تشين، بل انتشرت وتناقلتها الألسن بين الطلاب والأساتذة من عصر الممالك المتحاربة، وبحلول عصر أسرة هان تم تجميعها وإعدادها في كتب الكتابة الديوانية الصينية القديمة المنتشرة إذ ذاك، ولذا يطلق عليها «المؤلفات القديمة ذات الكتابة الديوانية الصينية القديمة». واضطلع دكاترة المعهد الإمبراطوري بشرح تلك المؤلفات للطلاب والمريدين. ولكن ذلك لا يقودنا إلى القول إنه كانت لا توجد «مؤلفات بالكتابة القديمة قبل أسرة تشين، بل استخدم هؤلاء الدكاترة

الكتب القديمة قبل ظهور هذه الأسرة والمكتوبة بنوع من الخط الصيني القديم يطلق عليه «تشو ون». وفي أوائل عصر الإمبراطور جينغ في أسرة هان، اكتشف الناس أن التشققات الجدارية في بيت كونفوشيوس استخدمت خط الأختام القديم المعروف بـ «تشوان شو» في كتابة كتابي «مراسم أسرة تشو» و«حوارات كونفوشيوس». واستطاع الشقيق الأكبر للإمبراطور وو دي أن يحصل على كتب ومؤلفات الكتابة القديمة قبل أسر تشين من داخل صفوف عامة الشعب وأهداها إلى البلاط الإمبراطوري. وأن مؤلفات ما قبل أسرة تشين ونظيرتها المكتوبة بالخط الديواني الصيني «لي شو» بينها اختلافات ليس في نوع الكتابة قط، بل أيضاً في فصول الكتاب ومضمونه وشرحه وتقييمه. وجعل ذلك الباحثين لكل واحد منهم حجته وسنده وتشكل تدريجياً مذهبان كبيران في مجال دراسة المؤلفات الكونفوشيوسية هما: «مذهب الكتابة القديمة قبل أسرة تشين»، و«مذهب الخط الديواني لي شو».

وكان دونغ تشونغ شو (179 ق.م – 104 ق.م) في أسرة هان الغربية رائد الباحثين لمذهب الخط الديواني الصيني لي شو، واعتقد أن كونفوشيوس قام بمراجعة وتعديل الكتب الستة من أجل تقديم أسباب تغير النظام وتأسيس نظام قانوني لا يقبل الجدل جيلاً بعد جيل. ومن ثم يعتبر كونفوشيوس الزعيم الروحي لدراسة المؤلفات الكونفوشيوسية. وتركز اهتمام هؤلاء الباحثين على نشر وتعميم «الكلمات الدقيقة والمعاني العميقة» للمؤلفات الكلاسيكية، ولم يدخروا وسعاً في السعي وراء نظرية تحقق وحدة أسرة هان الإقطاعية، ولذلك حظوا بالاهتمام والعناية الفائقة من جانب حكام وملوك أسرة هان الغربية وأسسوا «علم الحكومة» الذي بدأ في الأفول والمغيب في أواخر هذه الأسرة. أما بحاث مذهب الكتابة القديمة قبل أسرة تشين فإنهم يمجدون أسرة تشو ويعتقدون أن الكتب الستة هي كتب تاريخية قديمة قام كونفوشيوس بإعدادها وتنسيقها، وتكمن أهميتها الحقيقية في دراستها لأنها تهتم إلى حد ما بالاسم والوصف وشرح النصوص القديمة ويتحلى معظمها بخاصية الدراسة النصوصية. وبعد أسرة سونغ، نبذت الكونفوشيوسية شرح النصوص القديمة التقليدية وتفسيرها، وقاموا بتشريح «حكم وحجج الحياة» في النصوص الأصلية للمؤلفات الكونفوشيوسية، وأسسوا «علم الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية» في أسرتي سونغ ومينغ، ودشنوا مرحلة جديدة في المذهب الكونفوشيوسي. وسوف نتناول هذا الموضوع في الصفحات القادمة.

المبحث السادس

المذهب الفلسفي «شيوانشيوي» في أسرتي وي وجين

يعتبر «مذهب شوانشيوي» تياراً فكرياً فلسفياً انتشر في أسرتي وي وجين، وتمحور على أفكار الفيلسوف تشوانغ تسي بصورة أساسية، كما اندمج مع النصوص الكلاسيكية الكونفوشيوسية، وكوّنا نظرية جديدة. وتحدث الفيلسوف العظيم لاوتسي عن «شوانشيوي» قائلاً إنه: «لغز الألغاز وسر الأسرار»، مشيراً إلى النبوءات عميقة الغور، وإلى الأحوال المعنية والعلاقات أو الحجج التي نعجز عن استخدام الكلمات لكي نجسدها بصورة واضحة وجلية. والعلم الذي يتناول دراسة تلك الأحوال والعلاقات أو العلل ذات النبوءات الغامضة العريضة يطلق عليه «علم الميتافيزيقا». وظهرت كوكبة من العلماء المشهورين البارزين المتخصصين في هذا العلم في أسرتي وي وجين، وأطلق عليهم «متخصصو الغيبيات».

وعلى حد علمنا إن «علم الميتافيزيقا» ظهر في وقت مبكر من الممالك الثلاث (220م — 265م) وقام كل من خه يان (190 م— 249م) ووانغ بي (226 — 249) بتأسيس علم الميتافيزيقا وقتئذ، حيث أظهرا شغفاً واهتماماً بأفكار تشوانغ تسي. وقام خه يان بتأليف كتابي «نظرية الأخلاق» و«شرح حوارات كونفوشيوس». أما وانغ بي فقد كتب «تعليقات على التغيرات في أسرة تشو» و«تعليقات الفيلسوف لاوتسي». وطرح خه ووانغ نظريتهما القائلة بـ«العدم» انطلاقاً من اعتقادهما بأن «جميع الأشياء في السماء والأرض يرجع مصدرها إلى العدم»، ويعني ذلك أن العدم هو الشيء الأصلي والحقيقي لجميع الأشياء في الكون. كما يعد جي كانغ وروان جي من الرواد الأوائل للتيار الفكري الميتافيزيقي في أسرتي وي وجين، وقد ظهرا على الساحة الفكرية بعد خه ووانغ بفترة وجيزة، وقاما بالدعاية والترويج لأفكارهما، مما جعل «علم الميتافيزيقا» يشهد تطوراً وازدهاراً. وكان خه ووانغ من «الفضلاء السبعة» والشخصيات البارزة في ذلك العصر، وأفكارهما الأساسية تتركز على النشر والدعاية لأفكار النزعة الطبيعية لدى المدرسة الطاوية، وتوجيه طعنة نجلاء للقيم الأخلاقية الكونفوشيوسية الزائفة. وكان الدارسون آنذاك يقومون بالتقليد وعدم التقيد بالأعراف الإقطاعية وسلوكهم وتصرفاتهم تتسم بالهمجية، وجعل ذلك «الطبيعة الإنسانية» و«القيم الأخلاقية

الكونفوشيوسية» على طرفي نقيض تماماً. كما كان شيانغ شيو وقوا شيانغ من أبرز ممثلي التيار الميتافيزيقي في أسرة جين الغربية، وعارضا بشدة تفشي ظاهرة عدم الالتزام بالأخلاق وآداب السلوك، وبذلا قصارى جهدهما لتحقيق الوحدة بين «الطبيعة الإنسانية» و«القيم الأخلاقية الكونفوشيوسية» من جهة، وبين «المدرسة الكونفوشيوسية» و«المدرسة الطاوية». وفي أسرة جين الشرقية أفل نجم علم الميتافيزيقا بعد أن انتشرت البوذية والطاوية باعتبارهما من الديانات التي عرفتها الصين آنذاك. وقد أثرت فلسفة «شوانشيوي» أو «علم الميتافيزيقا» تأثيراً هائلاً في الحياة الاجتماعية في أسرتي جين ووي والأسر الجنوبية والشمالية لمدة ثلاثمائة سنة ونيف.

والمفهوم الحقيقي لـ«علم الميتافيزيقا» -حسب شروح المعاصرين- هو علم إبراز ماهية الشيء وطبيعته وأصله انطلاقاً من الفكر الأساسي وهو أن «أصول الأشياء تنطوي على الوجود والعدم»، ناهيك عن البحث عن أصول الكون، ويحاول تقصي حقيقة الشيء في حد ذاته وطبيعته من خلال الاستعانة بالظواهر التي يغص بها الكون. فأصل الكون هو «العدم»، والأشياء المتعددة الألوان والأطياف هي «الوجود»، و«العدم» هو أصل «الوجود»، و«الأصل» هو أساس «الفرع»، و«الأحادية» هي أساس «الكثرة»، و«الهدوء» أصل «الحركة». أما بالنسبة لفطرة الإنسان، يعتقد علم الميتافيزيقا أنها طبيعية، ومظاهر الطبيعة الإنسانية يجب أن تتوافق مع الطبيعة الكونية، ولا يمكن أن تتصف بأية تقليد أو تكليف. وعلى الرغم من تباين آراء علماء الميتافيزيقا فيما يتعلق بالعلاقة بين الطبيعة والقيم الأخلاقية الكونفوشيوسية، لكن مازالت آراؤهم مختلفة أيضاً حول الطبيعة الإنسانية. إن علم الميتافيزيقا وطرائقه في التحليل الذهني في أسرتي جين ووي مثل: «الزهو الذي يفقد الإنسان لُبه» و«الفهم الصامت جراء الغرور والزهو» أثرت تأثيراً عميقاً في الأدب والفن في الصين.

المبحث السابع
الفلسفة المثالية للكونفوشيوسية في أسرتي سونغ ومينغ

في الواقع كانت «الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية» بمثابة نظرية المذهب الكونفوشيوسي في أسرتي سونغ ومينغ التي بذلت جهوداً مضنية من أجل الترويج والدعاية لـ«الطاو العظيم» والذي يطلق عليه أيضاً «المدرسة الفلسفية الكونفوشيوسية». وتأثرت نشأة الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية بعاملين، أولهما: التغيرات التي طرأت على المذهب الكونفوشيوسي بعد أن تخلى دارسو الكونفوشيوسية في أسر وي وجين وسوى وتانغ عن علم الأسلوب الإنشائي التقليدي عديم القيمة والتحول إلى البحث عن «أصل الطاو – الطريق الكونفوشيوسي» و«أصل الطبيعة الإنسانية» في المذهب الكونفوشيوسي، وتجسد ذلك في الآراء والأفكار التي طرحها هان يو، ولي هوا في أسرة تانغ. وثانيهما: ذيوع أفكار البوذية وضخ دماء جديدة في شريان المذهب الكونفوشيوسي. وكان الشقيقان اللذان لقبهما تشينغ الأكثر اهتماماً بتطوير الكونفوشيوسية الجديدة. فقد وُلد تشنغ هاو (1032– 1085) أو الأخ الكبير تشينغ، وتشينغ ايي (1032– 1107) أو الأخ الصغير تشينغ، في لوايانغ. ولذا أُطلق على تعاليمهما مدرسة لوايانغ. وكانت أفكارهما متطابقة بصورة أساسية، وقدما شروحاً منتظمة لمفهوم لي «المبدأ» انطلاقاً من وجهة النظر المثالية، وحظيا بامتداح الكونفوشيوسيين الجدد في العصور اللاحقة باعتبارهما يمثلان «الأيديولوجية التقليدية». وقد ظهر لي (المبدأ) كمنهج فلسفي قبل تأسيس أسرة سونغ بفترة طويلة، ولكن الأخوين تشينغ اضطلعا بتأكيد مفهوم المبدأ (ويعرف أيضاً بالمبدأ الإلهي) بصفته أعظم مقولة فلسفية. وذكر الأخ الكبير تشينغ أنه: «لا يوجد أحد سواه استخدم مصطلح المبدأ الإلهي». وذكر الشقيقان تشينغ أن: «الأشياء كلها في العالم عبارة عن لي «المبدأ»»، ويوجد لي «مبدأ» واحد فقط في العالم، كما اعتبرا لي «المبدأ» بمثابة شيء لا يولد ولا يندثر ويتصف بالأبدية، وأن هذا «المبدأ» لا يعتبر المبدأ الأسمى في العالم الطبيعي فحسب، بل في المجتمع الإنساني أيضاً، كما يتغلغل داخل الإنسان والأشياء في العالم، وأنه حر طليق ليس له مكان، ويجسد الأركان الثلاثة والمكارم الأزلية الخمس في الأخلاق الاجتماعية

وعلى هذا النحو، تم تأليه القيم الأخلاقية الكونفوشيوسية التي تحمي النظام الإقطاعي بصفتها «المبدأ الإلهي» الذي لا يسمح المساس به إطلاقاً.

وكان جو شي من أتباع مريدي الجيل الرابع للأخ الصغير تشينغ، ويعد أهم شخصية اضطلعت بتطوير الكونفوشيوسية الجديدة حتى أسرة سونغ الجنوبية، واستطاع تأسيس نظام كامل من المثالية الأخلاقية الكونفوشيوسية بعد ورث أفكار الكونفوشيوسيين في أسرة سونغ الشمالية وحقق الاندماج بين البوذية والطاوية، وقدم نظرية شاملة واعتقد أن المطلق الأسمى يعتبر كياناً شاملاً وهو أصل الكون، والمطلق في حد ذاته يتألف من المبدأ (لي) والأثير (تشي)، والمبدأ (لي) أقدم من الأثير (تشي) في الوجود، ولذلك فإن المطلق الأسمى هو المبدأ (لي) أيضاً، وهو «مبدأ جميع الأشياء والموجودات في السماء والأرض» واعتقد جوشي أن الطبيعة الإنسانية خيرية لأنها تنبثق مباشرة من «مبدأ» المطلق الأسمى. ولكن الكائنات الشريرة في حياتها اليومية تتعرض بصورة يتعذر اجتنابها لتأثيرات الأثير المختلفة، ولذلك يوجد الخير والشر، ويجسد ذلك التفاعل المتبادل بين الين واليانغ وغاز الأثير. ويطلق على ذلك خصائص الطبيعة الإنسانية التي تشمل الخير والشر أيضاً، وتتشابه مع الماء الذي يتصف -في الأصل- بالصفاء والنقاء، ولكن إذا وضعناه في حوضين مختلفين أحدهما نظيف والآخر قذر، فإن الماء يتحول إلى الماء النظيف والماء القذر. أما بالنسبة للإنسان، فإن طبيعة عامة الناس قاتمة ومظلمة ومن السهل أن تتجاوب مع التأثيرات القذرة والطالحة، مما يجعل طبيعتهم الخيرية -أصلاً- تتعرض للخداع والتضليل، ومن المرجح أن يصبحوا أشراراً، ويعد ذلك بمنزلة مثالية نظرية الطبيعة الإنسانية لدى جوشي.

ولكن نظرية جوشي الفلسفية من تغيير الطبيعة الإنسانية عارضها لوجيو يوان (1139-1193) الذي وُلد في مقاطعة جيانغشي، وكان معاصراً لجوشي. أقر لوجيو بأن «المبدأ» في الأخلاق الإقطاعية يعتبر كيان العالم، ولكن أفكاره تتحلى بالمثالية الذاتية وتؤيد أن العقل هو «المبدأ». وعارض لوجيو ما ذكره جوشي من أن «المبدأ» خارج العقل، ونبذ طريقته من تقصي حقائق الأشياء خارج الذهن، ووصفها بأنها مفككة ومشوشة وتهتم بالشكليات المحلية، ودعا إلى تقويم موقف طبقة ملاك الأراضي أولاً، ثم يصبح الناس قديسين بعد ذلك من خلال تهذيب عقولهم مباشرة. وأكد لوجيو الوحدة العضوية بين

«المبدأ» و«العقل»، وأن جميع المعارف والحقائق تكمن داخل الذات الإنسانية، ومن ثم نشب جداً. عنيف بين لو وجو، وبذلك وصل تطور الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية إلى الذروة.

وفي أواسط أسرة مينغ، قام وانغ يانغ منغ بتطوير مثالية لوجيو يوان تطوراً هائلاً حتى أصبحت نظاماً فلسفياً كاملاً ودقيقاً للمثالية الذاتية. وأصبح وانغ يانغ المعّبر الرئيسي عن المثالية الذاتية واهتم بتهذيب العقل على وجه أخص. ووُلد وانغ يانغ منغ (1472– 1528) فيما يعرف اليوم بمدينة هانتشو وأدرك وهو في مبدأ شبابه أن جميع الأشياء في العالم توجد في عقله ولا يحتاج إلى طلب الأشياء التي تقع خارج عقله، وقدم رؤاه تجاه العالم في فرضية أساسية مفادها أنه: «لا يوجد شيء خارج العقل». و«كما لا يوجد أي مبدأ خارج العقل»، ويعني ذلك أن كل شيءٍ في العالم يعد نتيجة العقل. واستغل وانغ تأثير الإدراك الذاتي استغلالا كبيراً، وقام بتنظيم دور الإدراك الذاتي إلى أقصى درجاته واعتبره مصطلحاً ينأى عن الماديات. وتوصل إلى استنتاج مفاده إدراك الموجود القائم فعلاً، ولذا فالإدراك يحل محل جميع الأشياء، واعتبر وانغ الإدراك بمثابة الوعي الذاتي وأطلق عليه «العقل» الذي ينبثق منه العالم الخارجي. ووضع ذلك نهاية للعلاقة بين الوجود والإدراك، وقام بتنظيم الإدراك الذاتي للإنسان. وكرس وانغ حياته من أجل شرح أفكاره، والتف حوله العديد من المريدين. وانتشرت آراء «مدرسة وانغ» في كافة أنحاء البلاد، ثم انبثق منها فيما بعد العديد من المذاهب والنظريات.

وتزامن مع انتشار «مدرسة وانغ»، ظهور مفكر غريب جداً. يدعى لي جي (1527– 1602) وكان عنيداً مكابراً، ساخطاً على الحياة، وناقماً على مفاسد المجتمع، ويتحلى بالعواطف الجياشة، وعارض القيم الأخلاقية الكونفوشيوسية، كما عارض الاستبدادية في الحكم، وشجع التحرر الذاتي وتحرير المجتمع، ونبذ الإيمان الأعمى بالأقدمين، وأيد دراسة الفضيلة وتحقيق الرضا الذاتي، ويعتقد أن المؤلفات الكلاسيكية الكونفوشيوسية ليست «نظرية تصلح لكل الأجيال». وأعلن على الملأ أن الأنانية من طباع الإنسان، وليست شريرة. وقد جسدت هذه الأفكار الوعي الاجتماعي في مرحلة إرهاصات الرأسمالية، واعتبرها الحكام الإقطاعيون بمثابة هرطقة، كما وصفه البعض بأنه «ساحر»، وتعرض لنكبات وكوارث

كثيرة، وفي أواخر حياته، وجهت إليه تهمة «الجرأة على تشجيع الاضطرابات والافتراء على الشعب»، وزُج به في غياهب السجن حيث انتحر هناك ودُفن في ضواحي بكين. ويمكن القول، إن لي جي كان رجلاً غريب الأطوار في تاريخ الفكر الصيني.

المبحث الثامن
الأفكار الأكاديمية ودراسة النصوص القديمة في أسرة تشينغ

أفل نجم الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية في أسرة تشينغ، واعتكف الكونفوشيوسيون على دراسة المؤلفات الكلاسيكية جراء التغيرات والتحولات التي طرأت على الفكر والمجتمع، وخير مثال على ذلك ظهر في اهتمام المدرسة الكونفوشيوسية في أسرة هان بالتثقيف والتعلّم والدراسة النصوصية، وأطلق على تعلّم الدراسة النصوصية «مدرسة تبسيط الأسلوب» أو «مدرسة الدراسة النصوصية». وازدهرت هذه المدرسة في أسرة تشينغ وتفوقت على إنجازات الأقدمين.

ومدرسة تبسيط النصوص القديمة يرجع أصلها إلى أواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشينغ واضطلع بها كوكبة من ثقاة بحاث الكونفوشيوسية، أمثال: قويان وو، هوانغ زونغ جي، وانغ فوجي، يان يوان وغيرهم الذين اتسموا بالجرأة على نبذ هرطقة وهراء الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية في خضم الآلام التي تحاصر البلاد والتي تهدد بقاءها، وشجعوا بجسارة مدرسة تحقيق مصالح ومنافع الشعب التي تتمتع بالأساس الوطيد، ثم اتجهت هذه المدرسة إلى دراسة النصوص القديمة.

وُلد قويان وو (1613 – 1682) في مقاطعة جيانغصو. وقدم بعض الأفكار الجديدة في مجال طريقة البحث والدراسة، ففي المقام الأول يجب أن يتحلى التعلُّم بالفكر الجديد المبتكر، وتقديم المسائل التي تطرح على بساط البحث أفكاراً وأراء جديدة بدلاً من أن ترسم خطى وتقليد الأولين. ان دراسة الكلاسيكيات القديمة يجب أن تهدف إلى الإفادة منها في الوقت الحاضر حتى تتسم بالممارسة العلمية في تلبية احتياجات الواقع في الحياة، ولا تكون –إطلاقاً– تكراراً للنتاج المعرفي القديم في ثوب جديد. كما دعا قو إلى بحث ودراسة الأدلة والبراهين وصحة ما جاء في مؤلفات الأقدمين من خلال تقصي الحقائق الاجتماعية والتمسك بالدراسات النقدية التي تضطلع بتدقيق جميع الأدلة المتاحة الإيجابية والسلبية أيضاً في مجابهة السلف الأولين بصورة عمياء ومعارضة الحدس الذاتي.

وكان هوانغ زونغ شي (1610 – 1695) من أبرز علماء الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية،

وكان أيضاً حاذقاً في دراسة التاريخ، ويؤمن إيماناً راسخاً بالأفكار الديمقراطية، وصاحب أول مؤلف عن تاريخ الفلسفة في الصين، وعبرت آثاره وأعماله عن أفكاره التقدمية، ووجهت أفكار التنوير عنده ضربة قاصمة للدكتاتورية والاستبدادية وقال إن الحكام لا يتمتعون بالحقوق الإلهية، وقدم نظريته التي تمحورت على الطبيعة الإنسانية، وذكر أنه: «منذ الخليقة والإنسان يتصف بالأنانية والنفعية، ومشاعر الإنسان تجسد ذلك في الحياة». وكان هوانغ يسعى إلى إقامة مجتمع يؤسس فيه نظام اجتماعي يضطلع بحماية حقوق الأفراد، وذكر يجب تأسيس السلطة التشريعية التي يجب أن تكون في خدمة الأمة بدلاً من البلاط الملكي. ولم يحطم ذلك الأفكار التقليدية الكونفوشيوسية التي تمنح الحكام الحقوق الإلهية فحسب، بل أثار الشكوك والارتياب في استبدادية النظام الإقطاعي أيضاً. وكان يرى أن الحاكم ينبثق من بين صفوف عامة الشعب، مما يشير بجلاء إلى فكرة المساواة لدى الطبقة البرجوازية في العصر الحديث.

وكان يان يوان (1635 – 1704) المولود في مقاطعة خبي، أكثر راديكالية في تأكيده الممارسة العلمية وانتقاده الكونفوشيوسية الجديدة عن هوانغ زونغ جي، ودحض كلياً الكونفوشيوسية الجديدة في مختلف أشكالها، وعارض «التعلم العقيم» لدى الكونفوشيوسية الجديدة، وشجع «التعلم العملي» الذي يشتمل على الوظيفة الحقيقية للفنون الست الليبرالية لدى كونفوشيوس. ولا يجب فصل التعلُّم عن الحقيقة إطلاقاً.

أما الفيلسوف وانغ فوجي (1612 – 1692) فقد اعتزل الناس، واعتكف في بيته وانخرط في التأليف والكتابة، وخلف وراءه أكثر من سبعين كتاباً، وقام بإجمال وتطوير النظرية المادية القديمة والأفكار الديالكتيكية، ودفع الفلسفة الكلاسيكية الصينية إلى القمة. وكان يرى أن الكون يتألف من مادة «الاثير»، و «المبدأ» هو القانون الموضوعي، وكان من كبار المفكرين في تاريخ الفكر الصيني.

وتطلق الكثرة الكاثرة على علم «دراسة النصوص الكلاسيكية» في أسرة تشينغ المدرسة الهانية للنصوص القديمة، ويشير ذلك إلى حقبة تشيان –جيان إشارة إلى حكم الإمبراطور تشيان لونغ (1735 – 1796) والإمبراطور جيا تشينغ (1796 – 1820) حيث تحول الفكر الأكاديمي والمصالح من ذروة التنوير في القرن السابع عشر إلى حقبة دراسة النصوص القديمة

المتعلقة بالتفاصيل التافهة. وقد استمرت هذه المدرسة ردحاً طويلاً وتمتعت بالتأثير البالغ واتصفت بالأهمية والمكانة المرموقة في التاريخ الأكاديمي في المرحلة المتأخرة للمجتمع الإقطاعي في الصين على غرار مكانة الكونفوشيوسية الجديدة في أسرتي سونغ ومينغ.

وقد ظهر –في البداية– دراسة تعلُّم هان كرد فعل لمناهضة الكونفوشيوسية الجديدة بغرض تقديم التعلُّم العملي لتحقيق مصالح المجتمع من خلال الدراسات الجادة التي تحل محل أحاديث الهراء والزيف حول العقل والطبيعة الإنسانية. ولكن هذه الدراسة اتجهت أكثر وأكثر نحو التقنيات الدقيقة في البحث، وفقدت تماماً صورة عالم الحقيقة، ويعكس ذلك ذروة دراسة تعلُّم هان في أواسط أسرة تشينغ.

وأثارت الأساليب التقليدية والأفكار الطبقية المحدودة ردود أفعال قوية من جانب الباحثين في أواسط أسرة تشينغ مثل: تشانغ شيه تشينغ، جياو شون، ثم قونغ تسي جين، وكانغ يو وي الذين واجهوا الوضع الخطير الداخلي والغزو الأجنبي، وقادهم ذلك إلى الاعتقاد بأن تعلُّم هان غير عملي وعقيماً وغير ذي جدوى في حل المشاكل التي حلت بهم، وانضم معظمهم إلى مدرسة النص الجديد بريادة تونغ ويانغ بصفتهما أساساً أيديولوجيا لحركات الإصلاح التي اضطلعوا بها. واستمر الوضع هكذا حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما قطعت هذه المدرسة شوطاً طويلاً إلى الأمام للسيطرة على الساحة الفكرية والأكاديمية وحلت محل تعلُّم هان الذي ازدهر في حقبة شيان– جيان. ويجب أن نعترف بالتراث الأكاديمي القيم الذي شهدته الأوساط الأكاديمية في منتصف أسرة تشينغ. واضطلع هؤلاء الباحثون بالدراسات الجادة والشاقة للكلاسيكيات القديمة وقاموا بإعادة ترتيبها في شكل منظم مقروء كما كانت في أصولها تقريباً. وقام روان يوان بجمع معظم أعماله في مجموعات عديدة قدمت أهم المصادر لدراسة الكلاسيكيات القديمة.

وقصارى القول، كان النظام الأكاديمي لدى قو يوان وو مفعما بالنشاط والحيوية بفضل تأكيد الممارسة العملية، ولكن تعلُّم هان في حقبة تشيان –جيا وقع في شرك العجز الذهني رويداً رويداً بعد أن اعتكف الباحثون في البرج العاجي لمجرد دراسة النصوص القديمة بعيداً عن عالم الحقيقة الذي عاشوا بين جدرانه. وتعد هذه الحقيقة انعكاساً للتدهور السريع الذي شهده المجتمع الإقطاعي في الصين.

الفصل السابع

المعتقدات والأديان

يعتبر الدين تكوينا ثقافياً نادراً وفريداً. ويجسد الدين نوعين من العلاقة: العلاقة بين الإنسان والطبيعة، والعلاقة بين الإنسان والمجتمع، كما يجسد تقييم الإنسان وأسلوبه وطريقة معالجته تجاه هذين النوعين من العلاقة. ولكن وبغض النظر عن أي دين من الأديان؛ فالإنسان داخل أطر هذه العلاقة يبدو ضعيفاً وعاجزاً وخائر القوى، ويخضع للطبيعة ويسمح لها بالسيطرة عليه، ويهمل أو يبطل قوته الذاتية وفاعليته.

ولكن، لا يعني ذلك إطلاقاً أن الثقافة الدينية عديمة الجدوى. بل على النقيض من ذلك تماماً، نظراً لأنها أثرت في أفكار البشرية وأحاسيسها وأسلوب حياتها في زمن محدد ومكان محدد، وأخذت بخناق الرفاهية الاجتماعية والتطور التاريخي، ناهيك عن أن تكوينها الثقافي مازال موجوداً إلى الآن ويواصل تأثيره، ولذلك فإن هذه الثقافة تعد من الظواهر الاجتماعية الأكثر قيمة في إدراك ومعرفة تاريخ البشرية والثقافة القومية. وهناك بعض الأبحاث التي أجريت على ثقافات دينية متباينة، واكتشفت اختلاف الأمم من حيث السيكولوجية والأيديولوجية والتسامح والقدرة على التحمل وملكة الخيال، كما يوجد بين الأمم التفاوت الذي يصيب المرء بالدهشة الشديدة.

وعلى سبيل المثال، الصين تختلف عن كافة الدول الأوروبية والدول في غرب آسيا، ونشأ فيها الدين منذ العصر البدائي، وتشكّل دين الطاوية، وشهدت الصين البوذية والإسلام تباعاً، ولكن لم يظهر فيها أبداً ثمة دين من الأديان يسيطر على وعي وأحاسيس الشعب بأسره، بل لم يتشكل فيها ما يطلق عليه «دين الدولة»، ولذلك تعايشت فيها جميع الأديان جنباً إلى جنب، فضلاً عن عبادة تعدد الآلهة، فالأديان مرتبطة ومختلطة ويستوعب كل منها الآخر، حتى دينك يحوي ديني، وديني يشتمل على جزء من دينك، والاختلاف الديني ينطوي على التماثل، والتشابه يحمل في طياته الاختلاف. وأي دين يدخل الصين يخضع للتصيين ويتحلى بملامح الصين وخصائصها بغض النظر عن ماهيته وموطنه الأصلي. ويتضح ذلك بجلاء في البوذية، كما يبرز للعيان مقدرة الثقافة الصينية القوية الفريدة على الدمج والانصهار. وكان الحاكم الإقطاعي في العصور المتلاحقة لا يعارض انتشار كافة الأديان ووجودها ما دام مؤسسو هذه الأديان لا يهددون مكانة «ابن السماء» الإمبراطور ويعترفون بمكانته الشرعية حتى ولو كان لا يؤمن بأي دين. وطبعاً هناك بعض الحكام

الذين يذكرهم التاريخ بأنهم دمروا الأديان، ولكن يعتبر ذلك موجة في نهر كبير. وأكثر ما يحرص عليه عامة الشعب في الصين المنفعة الحقيقية، وبغض النظر عن ساكيموني (مؤسس البوذية)، والإله بوذا أو الإمبراطور اليشمي (إله الطاوية)، فانهم يسجدون ويقدسون أي إله ما دام يضطلع بإغاثة المحتاجين ومواساة المنكوبين، ويغدق عليهم السعادة ويقاوم الكوارث. وفي الواقع، إن السواد الأعظم من الصينيين يعبد إله المال وإله الأرض، وآلهة الرحمة التي تمنح النساء الإنجاب، ويكون أكثر ورعاً وتقوى وإيجابية وقوة عند تقديس إله السماء، والإله الطاوي أو عبادة مؤسسي البوذية في الأجيال الثلاثة.

المبحث الأول

الإيمان بتعدد الآلهة والعبادات الثلاث الكبرى

الحضارة في الصين هي حضارة زراعية، واعتمد المزارعون التقليديون على الاقتصاد الزراعي الصغير الذي يحقق الاكتفاء الذاتي، وأصبح أساس هذا الاقتصاد بمثابة سيكولوجية ثقافية جعلت الصينيين يحرصون على المنفعة الحقيقية، والإيمان بالأديان لديهم هو السعي وراء من يؤازرهم في محنتهم المتعلقة بالإنتاج وفي معيشتهم ووجودهم بصورة مباشرة، ولذلك يؤمن الصينيون بتعدد الآلهة، بل حتى أوجدوا عبادة متزمتة ومتعنتة لبيئة حياتهم التي تؤثر تأثيراً مباشراً في حياتهم الواقعية. والذين يعرفون تاريخ الثقافة الصينية يمكن أن يدركوا أن الأشياء في عيون الصينيين تعتبر آلهة تنتشر في كافة الأصقاع، وفي كل الأزمان، وحتى هناك الإله زاو وانغ الذي يحمي فرن إعداد الطعام، والإله مين الذي يحمي البيوت. ولكن، كانت عبادة الصينيين للسماء والأرض، والأسلاف والأجداد، والأباطرة والمعلمين الأكثر بروزاً بصفة عامة.

وكانت هذه العبادات الثلاث بمنزلة معرفة الأقدمين بها وتنويرهم لها. وذكر الفيلسوف الصيني شون تسي والمؤرخ الشهير سيما تشيان في أعمالهما أن: «السماء والأرض هما أساس الحياة، والأجداد الأولون هم أصل الأمة، والأباطرة والمعلمون هم أساس حكم البلاد. إذا لم توجد السماء، فهل يكون هناك حياة؟ وإذا لم يوجد الأجداد، فمن أين يأتي الإنسان؟ وإذا لم يوجد الأباطرة والمعلمون، فكيف ندير شؤون البلاد؟ ولا نعرف الأمان والطمأنينة إذا ضاعت هذه العبادات الثلاث. ومن ثم، الطقوس والمراسم من أجل السماء، ومن أجل الأرض، واحترام الأجداد وتبجيل الأباطرة والمعلمين، إنها طقوس العبادات الثلاث». ومن هنا ندرك أن السماء والأرض هما بيئة حياة الإنسان ووجوده، والأجداد الأولون هم روابط الفيسيولوجيا للبشر، بينما الأباطرة والمعلمون هم شخصيات تقود المجتمع إلى التقدم. وإذا فقدت هذه العبادات، فمن المستحيل أن ينعم الإنسان بالهدوء والسلام في هذه الدنيا، ولذلك تقديس هذه العبادات يعتبر شيئاً طبيعيا. ويمكننا القول، إن هذه العبادات الثلاث وتقديم القرابين لدى الأسلاف في الصين جسد جوهر الإيمان لدى الشعب الصيني.

أولاً: عبادة السماء والأرض، والجبال والأنهار والقرابين

كانت عبادة إله السماء، وإله الأرض الأكثر تقديساً من بين جميع العبادات في العصر القديم بالصين. وكان يطلق على إله السماء «هوانغ تيان» وإله الأرض «خوتو»، واسمهما الجامع «هوانغ تيان وخوتو». وشرح الكلمات بيّن أن «هوانغ» تعني «الكبير»، و«خو» تعني «السميك»؛ فالسماء العريضة الكبيرة تغطي الموجودات وتسقط الجفاف والأمطار في الدنيا، والإله خوتو يحمل كافة الموجودات في الكون ويمنحها المأكل والملبس والأدوات المستخدمة في العالم. ويجب على الناس عبادة وتقديس الإلهين إذا أرادوا حصاد وفيراً من الحبوب، وتحاشي المصائب والكوارث، وأن تحلّ بهم السعادة ويشعرون بالأمان والاستقرار ويتمتعون بالعمر المديد.

وظهرت هذه العبادة والتقديس في طقوس قرابين الدولة الإقطاعية. وقد تعددت وتنوعت مراسم تقديم القرابين للسماء والأرض في العصر القديم بالصين. ولكن كان «فنغ شان» الأكثر مهابة وإجلالاً، إنها الطقوس العظيمة التي تتبوأ المرتبة الأولى في اهتمامات المجتمع الإقطاعي.

وما يطلق عليه «فنغ شان» هو تقديم الملوك والأباطرة القرابين للسماء والأرض، و«فنغ» هو المذبح السماوي فوق قمة جبل تاي، و«شان» هو تقديم القربان للأرض في تل على مقربة من هذا الجبل والمشهور نسبياً ويدعى ليانغفو، وتشير كتب التاريخ دائماً إلى «فنغ جبل تاي، وشان ليانغفو». والهدف الرئيسي من تقديم هذه القرابين هو أن الإمبراطور بعد أن يعتلي العرش، يقدم الحاكم ابن السماء القرابين للسماء والأرض تعبيراً عن أن حكمه يتوافق مع إرادة السماء والشرعية الآلهية. وفي أي زمان كان يوجد مصدر طقوس هذه العبادة؟ استشهد المؤرخ سيما تشيان في كتابه «سجلات تاريخية» بكلمات رئيس وزراء شهير يدعى قوانغ تشونغ في مملكة تشي في فترة الربيع والخريف، ويعتقد أن هذه الطقوس بدأت في عصر وو هوى قبل الإمبراطور فوشي، واستمرت في الأجيال المتلاحقة وشملت اثنين وسبعين أسرة حاكمة؛ من بينها الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة، وأسرة شيا، وأسرة شانغ. ولكن ذكرت أبحاث أن أقدم هذه الطقوس يمكن أن ترجع إرهاصاتها الأولية إلى فترة الربيع والخريف. إذن، لماذا تقام في جبل تاي؟ كان القدماء يعتقدون أن الجبال الخمسة هي

أضخم جبال الصين، ويعد جبل تاي الأكثر مهابة واجلالاً، والأكثر قرباً إلى السماء من بين هذه الجبال الخمسة، ويمكن من فوق قمته إجراء حوار مع السماء، وفي الوقت نفسه جبل تاي هو جبل الشرق، وجهة الشرق هي موطن الحياة، وإرهاص كافة الموجودات، وملتقى الين (السالب) واليانغ (الموجب). وابن السماء يتلقى أوامره من السماء، ولا تكتمل مراسم تنصيبه على العرش إلا بتقديم القرابين لإله السماء. وتفيد كتب تاريخية أن أول ملك قام بتقديم هذه القرابين هو الإمبراطور الأول في أسرة تشين، ثم الإمبراطور هان وو دي. ذكر كتاب «سجلات تاريخية – فصل فنغ شان» أن الإمبراطور الأول في أسرة تشين تولى العرش لمدة ثلاث سنوات، وقام بجولة تفقدية في ولايات ومحافظات الشرق، وقدم القرابين لإله السماء في جبل تاي، ولإله الأرض في ليانغفو، بيد أنه لم يعرف كيفية تقديم هذه القرابين، واستدعى كوكبة من المثقفين الكونفوشيوسيين ليستطلع آراءهم، وذكروا أن إمبراطور تشين يجب أن يستقل عربة مكسوة عجلاتها بنبات التيفا، كما يفرش طريق الجبل بعيدان الأرز والقمح حتى لا تتلف النباتات والأشجار في جبل تاي. ولكن ارتأى الإمبراطور أن هؤلاء المثقفين يهذون وقرر بنفسه إعداد هذه الطقوس، وأمر بتمهيد الطرق من الجبل وتسلق بنفسه قمة تاي، ثم ثبت هناك نصباً تذكارياً يتغنى بأمجاده ومآثره، ولم يخطر بباله أن تهطل الأمطار أثناء عودته، واختبأ أسفل شجرة سرو أُطلق عليها «أشجار السرو الخمس الكبرى»، وكان ذلك إيذاناً ببداية تقديم القرابين للأشجار في الصين. و«أشجار السرو الخمس الكبرى» الموجودة حالياً في بكين في شمال جسر بويوان عند بوابة تونغ تيان ليست هذه الأشجار الخمس، بل هي أشجار زرعتها أسرة تشينغ. وقد فسر المثقفون الكونفوشيوسيون أن هطول الأمطار على رأس الإمبراطور وزوال حكمه بعد اثني عشر عاماً كانا نتيجة عدم تبني الإمبراطور اقتراحهم، ومن آثار حفيظة وغضب إله السماء. قدم الإمبراطور هان وو دي قرابين السماء والأرض في عام 110 ق.م. ولكن كيف أقام هذه القرابين، حيث لا يوجد إجماع بل اختلاف آراء الكونفوشيوسيين وكبار الوزراء الذين طلب منهم الإمبراطور إجراء الدراسات والاستعدادات لمدة عدة سنوات، ولم يتوصلوا إلى خطة في هذا الشأن. واضطر الإمبراطور إلى إعداد خطة بنفسه وقدم القرابين مرتين لكل من إلهي السماء والأرض، وفي عبارة أخرى، إنه يقدم القرابين لإله الأرض أولاً في تل ليانغفو، وأقام مذبحاً في أسفل جبل

تاي وقدم القربان لإله السماء، ثم اصطحب نفراً قليلاً من كبار الوزراء وصعد إلى جبل تاي مرة أخرى وقدم قربان إله السماء، وبعد أن نزل من الجبل، قدم قربان إله الأرض في جبل سوران. وبعد الانتهاء من طقوس القرابين، أمر الإمبراطور بتغيير عنوان حكمه إلى «يوان فنغ ويوان تيان» إشارة إلى أنه كان أول من غيَّر قرابين «فنغ شان». وبعد ذلك، أسس الإمبراطور ليو شيوه أسرة هان الشرقية واستعد اثنين وثلاثين عاماً منذ توليه الحكم لتقديم قرابين «فنغ شان». وفي عهد الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ، ناقش حشدُ من الوزراء اقتراحات «فنغ شان» مرات عديدة. وكان هذا الإمبراطور يعتزم المضي قدماً في هذا الشأن، ولكنه نظر بعين الاعتبار إلى إرهاق الجماهير وتبذير الأموال، ولذلك قرر إلغاء هذه المراسم في نهاية المطاف. ولكن نجله قاو زونغ عارض رغبات والده، وأقام هذه القرابين ثلاث مرات، ولم يعر اهتماماً لاستنزاف الأموال، وفي أكتوبر عام 665م انطلق من العاصمة الشرقية لوايانغ يرافقه لفيف كبير من رجال العلم والعسكريين والجنود ومستلزمات القربان، وساروا عدة آلاف من الكيلو مترات، وانضم إلى موكب الإمبراطور حاشية الساسة في جميع الممالك المجاورة ومعهم سجاد اللباد والغنم والأبقار والخيول واكتظت بهم الطرقات، وشعر الجميع آنذاك أن نطاق طقوس فنغ شان هذه المرة لم يسبق لها مثيل. وكان هذا الإمبراطور يرغب في تقديم القرابين للجبال الخمسة، ولكنه لم يستطع تحقيق رغبته لاعتلال صحته ووهن جسده. أما الإمبراطورة الوحيدة في تاريخ الصين وو تسي تيان عندما اعتلت العرش، قدمت قربان إله السماء في جبل سونغ، وفي عام 696 قدمت قربان إله السماء في جبل سونغ، وقربان إله الأرض في جبل شاوشي، واستغلت الإنجازات العظيمة في هذه القرابين وغيرت عنوان حكمها إلى «وان سوي دنغ فنغ»، وغيرت أيضاً اسم محافظة يانغ تشينغ إلى محافظة «دنغ فنغ». وشهدت أسرة تانغ آخر طقوس هذه القرابين في عهد الإمبراطور شوان زونغ في نوفمبر 725م، وترأست المحظية تشونغ شو لينغ مراسيمها. وذكرت سجلات دونتشنغ شي في أسرة تانغ أنه حسب الأقدمين بدءاً من قربان فنغ شان للدوقات الثلاث (ماتو، ماتونغ، سيما) إلى أقل من مؤرخ يرقى درجة واحدة. وكان تشنغ بي صهر تشانغ شوي في الدرجة التاسعة، وترقى إلى الدرجة الخامسة على حين غرة وانضم إلى صفوف البلاط الإمبراطوري، ولم يعرفه الإمبراطور شوان زونغ وسأله عن أصله وفصله، ولكنه لم يجب، فقال مسؤول يقف

بجانبه في خفة دم: «إنها قوة جبل تاي». وقد قيل فيما بعد إن ذلك أصبح يطلق على من يرى والد الزوجة لقب «جبل تاي» أو «أيو يوي». وبعد زوال أسرة تانغ، أصبح الإمبراطور تشين زونغ في أسرة سونغ آخر الأباطرة والملوك في تاريخ الصين الذين اضطلعوا بطقوس قرابين فنغ شان التي شهدتها القاعة الرئيسية في معبد داي في مدينة تايآن ومازالت موجودة إلى الآن. وفي نهاية المطاف، لم يضطلع الأباطرة والملوك في الأسر المتلاحقة بمثل هذه الطقوس لأنها صعبة وغير ملائمة.

وقربان «خوتو» هو مراسم تقديم القرابين لإله الأرض بصفة خاصة في الدولة الإقطاعية. وتتناقض سجلات الكتب والمراجع القديمة حول تاريخ الإله خوتو. فقد ذكر كتابا «الجبال والأنهار» و«تاريخ الطقوس» أن هذا الإله كان يدعى «خو لونغ» (التنين الضخم) لأنه كان حاذقاً في تسوية أراضي القارات التسع التي تتألف منها المعمورة، وأطلق عليه «توتشنغ» (المسؤول عن شؤون الأرض في العصر القديم) وقدمت له القرابين باعتباره إله الأرض ولكن انطلاقاً من المعتقدات في العصر البدائي، فإن الأسلاف قدموا القرابين لإله الأرض اعترافاً بفضله وامتناناً له، لأنه يحمل الموجودات في الكون وينمي إنجازات الآلاف من أبناء الشعب. وكان الناس يرسمون صورته في شكل امرأة بسبب أن السماء تمثل اليالغ (الموجب)، والأرض تمثل الين (السالب). وكان الإمبراطورون في أسرة هان أول من قدم قرابين للإله خوتو في حفلة مهيبة في التاريخ. وفي عام 163 قبل الميلاد، تقبل هذا الإمبراطور اقتراح الموظف الكونفوشيوسي شين يوان بنغ بتقديم القرابين للإله خوتو أولاً، ثم أسس معبد فيفيانغ في محافظة تحمل الاسم نفسه بمقاطعة شانشي اليوم، كما قام بجولة تفقدية في الشرق في عام 113 قبل الميلاد، وأسس معبد خوتو في هده المحافظة، وقدم القرابين له بمصاحبة لفيف كبير من الوزراء، وبات ذلك من الأنظمة الثابتة المحددة رويداً رويداً. ولكن لماذا شُيد معبد خوتو في فينيانغ؟ تروي حكاية أن طنجرة كبيرة (دونغ) فقدت في أسرة تشو، وكانت ترمز إلى تأسيس الدولة في العصر القديم. وَلا نعرف نصيب الحقيقة في الرواية التي تحوي سنداً ودليلاً على أن الموظفين المحليين غرروا بالإمبراطور عمداً، وذكروا أنهم عثروا على طنجرة كبيرة على مقربة من هذا المعبد في شهر يونيه في العام التالي لتأسيسه، وقد قيل إن الإمبراطور أرسل من يتحرى حقيقة هذا الأمر واستقبله في قصر قان تشوان الذي يزخر

بالمقتنيات الثمينة، ولذلك تغير عنوان حكم الإمبراطور إلى «يوان دينغ». وبعد ذلك قام الإمبراطور هان وو دي بجولات تفقدية كثيرة في الجزء الشرقي ليخطب ود الملائكة وقدم القرابين للإله خوتو مرات عديدة. وحذت الأجيال اللاحقة حذو تقديم قرابين لهذا الإله، ولا يزال معبده في حالة جيدة إلى الآن في مقاطعة شانشي.

وبالإضافة إلى قيام الأباطرة والملوك بتقديم القرابين لإله السماء في جبل تاي، وقرابين إله الأرض في فينيانغ، كانت هناك أيضاً طقوس قرابين السماء والأرض تجسدت في قرابين المعابد، وقرابين الضواحي. وهذان النوعان من القرابين بدأا في أسرة تشو. ففي أسرة تشو الغربي، شُيدت معابد قرابين إله السماء ويقدم له القرابين ابن السماء (الحاكم) بنفسه. وبعد فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة، تأسست معابد إله السماء في ولاية يونغ (في مقاطعة شنشي اليوم). وقد قيل إن قوان تشونغ اختار تضاريس الأرض الأعلى في يونغ والأكثر قرباً من السماء. وفي هذه المرحلة، تعددت أسماء آلهة السماء وتشابكت وتعقدت جراء تغلغل مذاهب العناصر الخمسة في الاعتقاد الديني. واعتقد الناس أن الإله تاي يي هو إله السماء الأعظم والأسمى يؤازره خمسة آلهة كلُ على حده في إدارة شؤون الاتجاهات في السماء؛ وهي: تشنغ دي (الخشب) المسؤول عن الشرق، وباي دي (المعدن) المسؤول عن الغرب، وتشي دي (النار) المسؤول عن الجنوب، وخبي دي (الماء) المسؤول عن الشمال، وهوانغ دي (التراب) المسؤول عن المركز. وقبل أسرة هان، كانت ولاية يونغ تضم أربعة معابد للآلهة وتتشح باللون الأبيض، والأخضر، والأصفر، والأحمر، ثم أضاف الإمبراطور ليو يانغ في أسرة هان معبد الإله الأسود. وتذكر كتب التاريخ كثيراً أن «الإمبراطور هان ون دي ونظيره هان وو دي يعشقان ولاية يونغ، وأسسا معابد تاي يي»، ودلك في إشارة إلى إقامة معابد قرابين الآلهة في هذه الولاية، أما بخصوص قرابين الضواحي، فهي مراسم تقديم القرابين لإلهي السماء والأرض في ضواحي العاصمة، وتطلق عليها كتب التاريخ «الضواحي»، سواء في كتاب «تاريخ الطقوس» أن القواعد واللوائح في أسرة تشو كانت تنص على تقديم قرابين السماء في الضاحية الجنوبية عند حلول الانقلاب الشتوي، وتقديم قرابين الأرض في الضاحية الشمالية عند قدوم الانقلاب الصيفي، وذلك لأن الانقلاب الشتوي يتحول إلى اليانغ (الموجب)، والسماء تنتمي إلى اليانغ، بينما الانقلاب الصيفي

يتحول إلى الين (السالب) والأرض جزء من الين. ونظراً لأن الأقدمين كانوا يدركون مفهوم «السماء دائرية والأرض مربعة»، فقد وضعت أسرة تشو نظام «إقامة قرابين السماء في مذبح دائري، وقرابين الأرض في مذبح مربع». وقد حذت الأسر المتلاحقة حذو هذا النظام واقتفت أثره. وعلى سبيل المثال، ذكر كتاب «ما بعد أسرة هان» أن في العام التالي لتولي الإمبراطور ليو شيو مقاليد الحكم في أسرة هان، كان أول من قدم قرابين السماء في الضاحية الجنوبية، وأنشأ مذبحين شكلهما دائري ويتألفان من طابقين في جنوب مدينة لوايانغ، وفي جنوب المذبح الداخلي يوجد مكان الإله هوانغ دي إله السماء، وفي الأركان الأربعة للمذبح الخارجي توجد أماكن خمسة مخصصة لآلهة الألوان: الأخضر، الأبيض، الأصفر، الأسود، الأحمر. والحوائط المحيطة بطابقي المذبح الخارجي لونها قرمزي وترمز إلى القصر القرمزي في السماء، وفي الجدران الداخلية المحيطة كان موقع إله الشمس في الشرق، وإله القمر في الغرب، بالإضافة إلى سائر الآلهة الأخرى مثل الريح والمطر والبرق، وبعد ذلك، تأسست مذابح قرابين الأرض المربعة في الضاحية الشمالية من مدينة لوايانغ، وكان يخصص مكان لإله الأرض في أعلى المذبح، ناهيك عن أماكن جميع الآلهة الجبال والأنهار. وكانت مراسم تقديم القرابين على هذا النحو تقريباً في جميع الأجيال المقبلة. ولا تزال مدينة بكين تحتضن إلى الآن مذابح القرابين الخاصة بالسماء والأرض والجبال والأنهار التي أقامتها أسرتا منغ وتشنغ مثل: تيان تان (المذبح السماوي)، ودي تان (المذبح الأرضي)، وري تان (مذبح الشمس)، ويوي تان (مذبح القمر) وغيرها كثير.

تشكّل الجبال والأنهار جزءاً من أرض المعمورة، كما ترمز إلى الأراضي الفسيحة. وكان الأسلاف يعبدون الجبال بسبب أنها سامقة وباسقة، وتغطيها السحب وتتشح بالضباب، وتستطيع إثارة الرياح وسقوط الأمطار، كأن الآلهة والأرواح تقطنها. كما عبدوا الأنهار الكبرى لأن مياهها في تدفق مستمر وتجلب المنافع والضرر أيضاً، وقوة آلهتها بلا حدود. وتقديم القرابين من جانب الملوك والأباطرة الإقطاعيين يعني خدمة السماء والأرض، واحترام الجبال والأنهار، وحماية المعمورة بما فيها فوائد الأنهار. وكانت القرابين في العصر القديم تقدم لكلٍ من: «الجبال الخمسة»، و«الشوامخ الخمسة»، و«الأنهار الأربعة»، و«البحار الأربعة»، باعتبارها تمثل الأهمية القصوى لدى الصينيين وتمثل سيطرة حكم الإمبراطور

على شتى بقاع البلاد. والجبال الخمسة هي: الجبل الشرقي تاي، والجبل الغربي هوا، والجبل الجنوبي هونغ، والجبل الشمالي لي هينغ، والجبل الأوسط سونغ، وهي تمثل الجهات الخمس لأنها الجبال الأعلى. أما الجبال الشوامخ الخمسة فتشمل كلاً من: يي شان في الشرق (مقاطعة شاندونغ اليوم)، ووشان في الغرب (مقاطعة شنشي اليوم)، هوي جي شان في الجنوب (مقاطعة تشجيانغ اليوم)، يي وو ليو شان في الشمال (مقاطعة لياولينغ اليوم)، هواشان في الوسط (مقاطعة شانشي اليوم). وكان يعتقد الأقدمون أن هذه الشوامخ تمثل أكبر الجبال وأضخمها ولا يضاهيها سوى الجبال الخمسة. والأنهار الأربعة هي: نهر هوي في الشرق، نهر اليانجتسي في الجنوب، ونهر هوانغ في الغرب، ونهر جي شيوي في الشمال، وتعتبر بمثابة الأنهار الأربعة الكبرى التي تتدفق بصورة مباشرة في أرض الصين الداخلية. وقد تغيّر مجرى نهر جي شيوي مرات عديدة، ولم يستطع أن يصب مياهه بصورة مباشرة في البحر. وتشمل البحار الأربعة: البحر الشرقي، البحر الجنوبي، البحر الغربي (بحيرة تشينغهاي) والبحر الشمالي (أو بحر بوهاي) واعتقد الأقدمون أن الصين تقطن داخل أروقة هذه البحار، ولذا أطلقوا عليها «داخل البحار»، وأطلقوا على خارج الصين «خارج البحار»، وذكرت أسطورة أن الإمبراطور الأصفر كان يقدم القرابين للجبال والأنهار، كما قيل أيضاً أن الإمبراطور شون «حلق في الجبال، ورأى جميع الآلهة»، أو يقولون «الإمبراطور يوي يشرف على الجبال والأنهار وقرر تقديم القرابين لها». ولكن طقوس الجبال والأنهار التي يمكن تصديقها إلى حد ما من المرجح أنها حدثت في أسرة تشو. ويذكر كتاب «الطقوس. فصل نظام وانغ» أن: «ابن السماء يخرج للصيد مرة واحدة كل خمس سنوات. ويضطرم النار في الحطب ويقدم القرابين للجبال والأنهار» في شهر فبراير (الخريف) في جبل تاي، وفي مايو (الصيف) في الجبل الجنوبي، وفي أغسطس (الربيع) في الجبل الغربي، وفي شهر نوفمبر (الشتاء) في الجبل الشمالي. ويوضح ذلك أن حدود أسرة تشو كانت فسيحة ومترامية الأطراف، ولذلك استطاعت تأسيس هذا النظام. وبعد أن اضطلع إمبراطور أسرة تشين الأول بتوحيد الصين، اتسعت أراضيها، ولذلك قُدمت القرابين لاثني عشر جبلاً مشهوراً ولأربعة عشر نهراً كبيراً في معابد مخصصة لهذا الغرض أقيمت على مقربة من هذه الجبال والأنهار. وكان الإمبراطور هان وو دي يقوم بجولة تفقدية في الجبال الخمسة، وبسبب أن

الجبل الجنوبي هونغ كان بعيداً، فاستبدله بجبل تيان جو في مقاطعة آنهوي لإظهار الاحترام والتبجيل، ولكن الأجيال اللاحقة تمسكت بأن الجبل الجنوبي هو جبل هونغ. ويحكى أن هذا الإمبراطور رأى في الجبل الأوسط شجرة سرو قديمة وسامقة وتتحلى بالمهابة والاجلال، فأطلق عليها «الجنرال العظيم»، ثم رأى أيضاً شجرة سرو قديمة أضخم من الجنرال العظيم، وشعر بأنه ليس من اللائق أن يستعير التسمية الأولى، فسمّاها «الجنرال الثاني»، وبعد فترة رأى شجرة سرو قديمة وضخمة أيضاً، اضطر أن يطلق عليها «الجنرال الثالث». ويعتبر ذلك بمنزلة المرة الثانية التي تقدم فيها القرابين للأشجار في الصين. وفي الوقت الحاضر، ما زالت شجرتا «الجنرال العظيم» و«الجنرال الثاني» موجودتين، بينما شجرة «الجنرال الثالث» ذبلت في أسرة مينغ ربما لأنها شعرت بالظلم والاعتساف. وقبل هذه الأسرة، كانت مراسم قرابين الجبل الشمالي تقام في معبد الجبل الشمالي في مقاطعة خبي، ثم أصبحت تقام في معبد هينغ تشو في مقاطعة شانشي في أسرة تشينغ. ولا تزال معابد الجبال الخمسة تحتفظ بحالتها الجيدة، وأكبرها في جبل سونغ. وفي أسرتي سوي وتانغ، كانت تقدم القرابين للجبل الراسخ الشرقي في ولاية يي (مقاطعة شاندونغ اليوم)، وتقام قرابين النهر الشرقي هوي في ولاية تانغ (مقاطعة خنان اليوم)، وقرابين البحر الشرقي في ولاية تساي (مقاطعة شاندونغ اليوم)، وقرابين الجبل الراسخ الجنوبي هوى جي في ولاية يوه (مقاطعة تشجيانغ اليوم)، وقرابين النهر الجنوبي نهر اليانغتسي في ولاية لونغ (مقاطعة شنشي اليوم)، وقرابين النهر الغربي الكبير والبحر الغربي في نفس الولاية، بينما قرابين الجبل الراسخ الشمالي يي وو ليوي في ولاية ينغ (مقاطعة لياولينغ اليوم)، وقرابين النهر الكبير الشمالي في جي يوان (مقاطعة خنان اليوم)، وقرابين البحر الشمالي في ولاية لوا (مقاطعة خبي اليوم). وفي الوقت الحاضر، توجد معابد الجبل الراسخ الشمالي فقط في مقاطعة لياولينغ، ونهر هوي في مقاطعة خنان، ونهر جي في مدينة جي يوان، وإله البحر الجنوبي في قوانغتشو، ومازالت في حالة جيدة.

ثانياً: عبادة الأجداد والأسلاف وتقديم القرابين

الأجداد هم أساس استمرار البشرية. وكانت عبادة «الرجل» في الأزمان الغابرة انعكاساً لعبادة الأجداد حتى أوائل أسرة تشو عندما تأسس نظام المشيخة العشائرية الذي قام بتنظيم عبادة الأجداد. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، لم يقتصر تقديم القرابين للأجداد على الأباطرة والملوك فحسب، بل يجب على الموظفين وسواد الشعب الاضطلاع بذلك أيضاً. وقبل أسرة تشين، كان ابن السماء والملوك والأمراء وكبار الموظفين والطبقة المتوسطة يقدمون القرابين لأجدادهم في معابد أجداد الحاكم، وذلك لأن قواعد نظام المشيخة العشائرية تقضي على أن اختلاف عدد المعابد وتباين أحجامها لدى الذين يمتلكون معابد الأجداد؛ فمثلاً في أسرة تشو، كانت اللوائح تنص على أن ابن السماء يمتلك سبعة معابد، والحاكم أو الأمير خمسة معابد، وكبير الموظفين ثلاثة معابد، والمثقف من الطبقة المتوسطة معبد واحد فقط. وبعد توحيد الصين على يد إمبراطور أسرة تشين الأول، تم السماح للأباطرة أن يتملكوا معابد أجدادهم، واضطر الموظفون والعامة تشييد معابدهم، ومن هنا باتت معابد الأجداد الساحة المخصصة لتقديم القرابين للأجداد من قبل الملوك والأباطرة وأطلقت عليها الأسر المتعاقبة «معبد أجداد الإمبراطور»، ويتم تشييدها في العاصمة في الجهة اليسرى لقصر الإمبراطور حسب نظام الطقوس المعمول به. والآن يوجد في العاصمة بكين «قصر ثقافة الشعب العامل» كان بمثابة معبد أجداد الإمبراطور لتقديم الأباطرة القرابين لأجدادهم في أسرتي مينغ وتشينغ، كما يعتبر مثالاً حياً يجعلنا ندرك كيفية تقديم القرابين في هذا المعبد في العصر القديم. وينقسم هذا القصر إلى ثلاث قاعات كبرى للاحتفالات: في الأمام والوسط والخلف. والقاعة الأمامية هي ساحة أنشطة تقديم القرابين حسب نظام مراسم هذه القرابين للأجداد الأوائل والأباطرة الأوائل في نهاية كل عام، والقاعة المتوسطة دُفن فيها الإمبراطور، وتقدم فيها القرابين للأباطرة الذين رحلوا من الأسرة الحاكمة؛ ومن بينهم الجد الأكبر أو أول مؤسس للأسرة الحاكمة في الوسط، ثم الآباء في الجانب الأيسر، والأبناء في الجانب الأيمن. وعندما يموت الأباطرة والحكام يكون لقب الأسرة الحاكمة يجلب لهم الاحترام والتبجيل، ويعني ذلك الإشارة إلى الألقاب التي تمتعوا بها أثناء أنشطة تقديم القرابين مثل: مينغ تاي زو، وتشينغ شي زو وغيرها. أما القاعة الخلفية في المعبد فهي تستخدم في تقديم القرابين لأجداد الإمبراطور وهم في العادة يمثلون

الأجيال الخمسة التي أسست الأسرة الحاكمة، ومن بينهم الأجداد الأولون (الأرومة العريقة) في الوسط، ثم الآباء في الجانب الأيسر، والأبناء في الجانب الأيمن.

ويقدم الأباطرة والملوك القرابين لأجدادهم الأولين في معبد أجداد الإمبراطور، بينما يقدم الموظفون وعامة الشعب القرابين لأجدادهم في معبد الأجداد. ويتجمع أفراد العائلة والقبيلة في مكان واحد حيث تجري مراسم قرابين الأجداد أو شخصيات القبيلة المشهورة أو بناء معابد خاصة بهم. ونظراً لتقاليد النظام العشائري التي دامت عدة آلاف من السنين، فكانت مثل هذه المعابد للأجداد لا تحصى، ولكن باتت الآن نادرة وقليلة. فعلى سبيل المثال، يعد «معبد أجداد أسرة تشو» مشهوراً إلى حد ما في مدينة تشانغ تشو بمقاطعة جيانغصو، وهو مكان تقديم القرابين لأجداد قبيلة تشو المحلية. وكانت عائلة القائد العسكري تشو تشيو باي في طفولته فقيرة وعجزت عن دفع إيجار المسكن، فاضطر أن يقيم داخل هذا المعبد الذي أصبح الآن «سراي إحياء ذكرى تشو تشيو باي». و«أطلال الحكومة الديمقراطية التي تمثل العمال والمزارعين» في مدينة روي جين في مقاطعة جيانغشي كانت –في الواقع– «معبد أجداد عائلة شيه» المحلية. وينتمي إلى هذه المعابد أيضاً «معبد أجداد تشين العظيم» في مدينة قوانغتشو. وفي الوقت الحاضر، يعتبر معبد «أجداد بيه» في بلدة لي يوان في محافظة ونشي في مقاطعة شانشي أقدم معابد الأجداد في الصين. وكانت عائلة شيه من قبيلة خدونغ في العصر القديم وأنجبت على مر العصور العديد من الأكفاء الممتازين الذين قدموا إسهامات عظيمة في تاريخ الصين، مثل بيه شيو عالم الخرائط في أسرة جين، وبيه سونغ جي المؤرخ في الأسر الجنوبية، وبيه جيوي المسؤول عن التجارة في أسرة سوى، وبيه شنغ جيان ونجله اللذين كانا من كبار الموظفين في إدارة المراسم في عهد الإمبراطور قاو زونغ في أسرة تانغ، وبيه قوانغ تنغ رئيس الوزراء في عهد الإمبراطور شوان زونغ في نفس الأسرة، وبيه دو رئيس الوزراء في عهد الإمبراطور شيان زونغ في أسرة تانغ أيضاً وغيرهم كثيرون. وتم تشييد معبد أجداد شيه في عام 629، ويحتفظ داخله بمعلومات منقوشة على الأحجار تحكي تاريخ قبيلة شيه عبر المراحل التاريخية المختلفة وسجل شجرة القبيلة منذ أسرة جين، ويعتبر متحفاً لهذه القبيلة حقاً.

ثالثاً: عبادة الأباطرة والمعلمين، والحكماء والفضلاء وتقديم القرابين

في الواقع أن الأباطرة والمعلمين والحكماء والفضلاء هم شخصيات تاريخية قدمت إسهامات بارزة في عملية التطوير، ولكنهم في أذهان الأسلاف شخصيات غير عادية تتحلى بصفات الألوهية، ومن ثم عبدوهم وقدسوهم و«الإمبراطور» هو الملك والحاكم عبر الأسر المتلاحقة. وكان الحكام الإقطاعيون عبر عصور التاريخ تقريباً يقدمون القرابين للأباطرة والملوك الأوائل. ومنذ أسرة تانغ، كان بناء المعابد في العاصمة من أجل تقديم القرابين للأباطرة عبر الأسر الحاكمة. ويعد معبد «الأباطرة عبر الأسر الحاكمة» داخل بوابة فوتشنغ في العاصمة بكين، هو المعبد الوحيد الذي مازال يحتفظ بأسماء الأباطرة في الصين، وتم بناؤه في عام 1530م على غرار معبد الأباطرة في نانكين، وفي مرحلة بداية إنشاء المعبد، كانت تقدم القرابين للأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة، والأباطرة: دايوي، وتشنغ يانغ، وو في أسرة تشو، والأباطرة قاو زونغ، وقانغ وو دي في أسرة هان، وتاي زونغ في أسرة تانغ، وتاي زوا في أسرة سونغ وغيرهم من الأباطرة الذين بلغ عددهم خمسة عشر إمبراطوراً، وهم يعتبرون مؤسسي الأسر الحاكمة، وكانت تضع لوحات جنائزية وليس تماثيل لهم، ولم تقدم القرابين للإمبراطور الخامس في أسرة يوان (المانشو) ويدعى كوبلان، والسبب كما ذكر مينغ داي ليو في كتابه «نبذة عن شاهدات الأباطرة» أن: «في بداية تأسيس المعبد، كانت تماثيل أجداد أسرة يوان تتراص في صفوف. وطلبت الأكاديمية الإمبراطورية في الصين الإقطاعية من المحقق التاريخي يوي لاي أن يقدم مذكرة إلى الإمبراطور، وقد قيل إن الإمبراطور تاي زوا كان يقدم القرابين بنفسه في معبد الأباطرة في نانكين (العاصمة الجنوبية) عندما تم الانتهاء من تشييده، ورأى آثار دموع وجوه تماثيل أجداد أسرة يوان فقال ضاحكاً: «لقد فقدتم إمبراطوريتكم لأنها في الأصل ليست ملكاً لكم، أما أنا فقد استعدت إمبراطوريتي التي هي في الأصل ملكاً لي، فما الذي يجعلكم تذرفون الدموع وتشعرون بالندم، ثم توقف تدفق الدموع». وتأسيساً على ذلك، طلب الإمبراطور جيا تشنغ إزالة تمثال كوبلاي من المعبد. ولكن بعد تأسيس أسرة تشينغ، تم تقديم القرابين إليه كما فعل الإمبراطور جو يوان تشانغ. ولكن أسرتي مينغ وتشينغ لم تقدما القرابين لإمبراطور أسرة تشين الأول؛ لأنهما كانتا تعتقدان تقريباً أنه «ملك مستبد».

أما «المعلمون» فهم هؤلاء الفضلاء الذين يستطيعون تقديس الفضيلة عبر الأجيال المتعاقبة، وتشير التقاليد في هذا الخصوص إلى الفيلسوف كونفوشيوس ونظيره قوان قونغ، وهما يمثلان الثقافة والسلام اللذين جسدا الآلتين الكبيرتين اللتين تديران شؤون الحكم في الصين؛ إنهما الدعامتان الأساسيتان اللتان تعتمد عليهما الدولة الإقطاعية منذ ردح طويل. وتمثل عبادة هذين الشخصين والإيمان بهما ظاهرة فريدة ومتميزة في الثقافة الصينية، ولكن طقوس تقديم القرابين لهما مختلفة بصورة جلية. وفي الواقع، تقديم القرابين لكونفوشيوس يعد انعكاساً لتقدير الدولة الإقطاعية واحترامها للتربية والتعليم، كما يعتبر نتيجة محتومة لتبجيل الفن الكونفوشيوسي وتمحورت أفكار الحكم على المذهب الكونفوشيوسي. وتقديم القرابين لشخصية قوان قونغ بالرغم من أنها تهدف إلى الدعاية لإخلاصه وعدالته وشجاعته العسكرية، بيد أنها اتسمت بالطابع الديني الكثيف. ونحن نعرف أن كونفوشيوس أحرز أسمى الألقاب «صاحب المنجزات العظيمة والتقديس المطلق، ومؤازر نشر الثقافة وأستاذ الجيل الأقدم»، وينتمي ذلك إلى مقولة الفلسفة المقدسة ولا ينأى عن العالم الدنيوي، فهو الأستاذ القديم صاحب أعظم المنجزات وأسمى مكانة، أما قوان قونغ يختلف عن ذلك، فأسمى لقب حصل عليه هو «الإله العظيم المقدس صاحب الإخلاص والولاء والعدالة»، ويعد ذلك جزءاً من نظام الآلهة في الطاوية، واندمج في الأوساط الدينية ويختلف الحكم عليه عن سائر الأفراد. ويبرز ذلك للعيان بصورة كافية الاختلاف بين تقديم القرابين لكل من كونفوشيوس وقوان قونغ من حيث الجوهر. أما من حيث الشكل، كانت قرابين كونفوشيوس الأكثر مهابة واجلالاً من نظيرتيها لدى قوان قونغ، ونستطيع إدراك ذلك من خلال حجم معابد كونفوشيوس ومعابد قوان قونغ وسجلات الوثائق المعنية بهذا الشأن. ولكن يجب أن نقر أيضاً، بأنه نظراً لأن قوان قونغ أخذ مكانته في نظام الألوهية الطاوية، وإضفاء الطابع الفني على الرواية الطويلة «الممالك الثلاث»، جعله ذلك بمثابة إله الحماية في معتقدات عامة الشعب وأثر تأثيراً هائلاً في تقييمهم، متفوقاً على كونفوشيوس في هذا المضمار. وتركزت الآثار المترتبة على تقديس كونفوشيوس بين صفوف المثقفين الذي يهتمون بالتعليم وتبجيل الدراسة، إن هدف المطالعة هو كسب المعارف والشهرة ويمثل ذلك الاتجاه الرئيسي لهؤلاء المثقفين، أما آثار تقديس قوان قونغ فقد جعلت قطاعاً عريضا من عامة الشعب يشعرون

في سويداء قلوبهم بالأمان والاستقرار لأنه يوجد إله قوي يضطلع بالحماية، وهو ما تسعى إليه كافة الفئات في المجتمع. ومن ثم، انتشرت معابد قوان قونغ على اختلاف أحجامها وأشكالها في القرى النائية والمناطق القاصية، أما معابد كونفوشيوس اقتصر تشييدها في المدن والمناطق الكبرى، وانحصرت قوة تأثير كونفوشيوس بشكل أكبر بين صفوف المثقفين.

ويذكر التاريخ أن تقديم القرابين لكونفوشيوس بدأ في العام التالي لوفاته، أي في عام 478 قبل الميلاد. وقام دوق مملكة لو بترميم بيت كونفوشيوس ومنحه لوحة جنائزية، وقدم له القرابين كل سنة تخليداً لذكراه. وليس من الصعب أن ندرك أن حاكم مملكة لو جعل كونفوشيوس شخصية بارزة تنتمي إلى أبناء مملكته، مما زاد إعجاب الناس بكونفوشيوس وتقديسهم إياه. ولكن لم تذكر الكتب التاريخية أن الناس في العصور اللاحقة قدموا القرابين له أولا. ولكن أصبح المذهب الكونفوشيوسي العلم المهم في المجتمع، وأكد أن كونفوشيوس شخصية تاريخية تحظى بالاحترام والتبجيل. وفي عام 195 قبل الميلاد، وأثناء عودة الإمبراطور ليو بانغ في أسرة هان من مسقط رأسه إلى مدينة تشانغآن، مر بولاية تشيغو حيث مسقط رأس كونفوشيوس وقدم له القرابين بنفسه، وكان ذلك إيذاناً ببداية تقديم الأباطرة والملوك الإقطاعيين القرابين لكونفوشيوس. ويوضح ذلك بالضبط، أن تأثير كونفوشيوس لم يندثر على مدى أكثر من مائتي سنة بعد أن قدم له دوق مملكة لو القرابين. ولكن، كيف جال بخاطر الإمبراطور ليوبانغ أن يقدم القرابين لكونفوشيوس على حين غرة؟ ففي العام الميلادي الأول منح الإمبراطور بينغ دي في أسرة هان كونفوشيوس لقب «المحترم صاحب المآثر المؤكدة التي تستحق التمجيد»، وكان ذلك بداية منح الألقاب للقديس كونفوشيوس. والسبب واضح وجلي، أنه مر زهاء نصف قرن منذ تبجيل الإمبراطور وو دي في أسرة هان النظرية الكونفوشيوسية، وأصبحت مكانة المذهب الكونفوشيوسي وتأثيره واضح جداً. وفي عام 29م، قدم الإمبراطور ليو شيوه في أسرة هان الشرقية القرابين بنفسه لكونفوشيوس، وقرر في عام 57م إقامة طقوس تقديم القرابين لكونفوشيوس في المدارس، مما يوضح ويؤكد احترامه وتبجيله إياه بصفته عالماً تربوياً. وفي عام 424م تم تعيين موظف متخصص في شؤون معابد كونفوشيوس، كما نصت اللوائح في عام 442م أن تقديم القرابين يكون مصحوباً بالموسيقى، مما يظهر ارتفاع مكانة القرابين بشكل أكبر. وبعد ذلك، وفي عام 630م، أمر الإمبراطور في

أسرة تانغ إقامة المعابد في كافة الولايات والمحافظات والاضطلاع بتقديم قرابين كونفوشيوس في كافة أصقاع البلاد، ومن هنا أصبح كونفوشيوس موضوعاً يجب أن يسجد له المثقفون. وفي عام 739، منح الإمبراطور شوان زونغ في هذه الأسرة كونفوشيوس لقب «ملك المعارف والعلوم»، ثم أضيف إلى هذا اللقب «القديس الأول في نشر العلوم والمعارف» في عام 1008م، ثم تغير وأصبح «ملك المعارف والعلوم صاحب القديس الأعظم». وفي عام 1055م، منح الإمبراطور رين زونغ في أسرة سونغ ذرية كونفوشيوس لقب «استمرار تقديس المحترم كونفوشيوس»، ثم تغير أيضاً وأصبح «توريث تقديس كونفوشيوس من جيل إلى جيل». وفي عام 1530، مُنح كونفوشيوس لقب «أستاذ الجيل الأقدم صاحب التقديس الأعظم»، واستمرت هذه الحال حتى بعد تأسيس أسرة تشينغ، وقررت حكومتها منح كونفوشيوس من جديد لقب «أستاذ الجيل الأقدم صاحب المعارف والعلوم والإنجازات العظيمة والتقديس الأعظم» من أجل اجتذاب مثقفي قومية هان، ورفعت مكانة كونفوشيوس إلى الذروة. وتفيد معلومات وإحصاءات، أن التاريخ شهد من أسرة هان إلى أسرة تشينغ عشرة أباطرة قدموا بأنفسهم القرابين لكونفوشيوس في مسقط رأسه شيفو، وكان من بينهم الأباطرة في فترة لونغ شيان في أسرة تشينغ الأكثر عدداً. وكانت طقوس قرابين كونفوشيوس تتحلى بالمهابة والإجلال؛ حيث يرتدي الإمبراطور ملابس القرابين ويصطحبه حشد من الوزراء الذين يسجدون ثلاث مرات، ويركعون تسع مرات، وهم في غاية الخشوع والورع، ويجسدون كل مظاهر الاحترام والإجلال لكونفوشيوس، ولا تنقطع دقات الطبول وعزف الموسيقى.

وقد بدأت أنشطة تقديم القرابين قوان قونغ متأخرة نسبياً، حيث ارتبطت شهرته بتطور الطاوية في المرحلة المتأخرة. وبعد انقضاء إحد وأربعين عاماً على وفاته، أي في عام 260

منحه الحاكم ليو تشان لقب «النبيل المهيب الجليل»، ولم تقدم له القرابين. وفي عام 589م، شيد أبناء مسقط رأسه معبداً صغيراً له في بلدة شيه تشو بمدينة يون في مقاطعة شانشي اليوم لتقديم القرابين له، وبعد ذلك لم يتمتع بثمة تأثير كبير زهاء أربعمائة سنة ونيف، واعتبرته منطقة ولاية جنيغ من الآلهة وقدمت له القرابين. وفي أسرة سونغ، طبقت شهرته الآفاق فجأة، ففي عام 1102م، اعتقد الإمبراطور هوي زونغ في أسرة سونغ والذي اعتنق الطاوية، اعتقد أن قوان قونغ تجسد في الإخلاص والعدالة، ومنحه لقب «المحترم صاحب الحظوة

والإخلاص»، واعتبره من مساعدي زعيم الطاويين تشانغ، وبعد ست سنوات منحه لقباً آخر هو «مهيب الطلعة رابط الجأش». وفيما بعد، تناقلت الألسن رواية طاوي ومفادها أن قوان قونغ لاحت روحه مرات عديدة في ولاية جينغ، ومن ثم احتدمت المنافسة بين البوذية والطاوية على إغرائه واجتذابه إلى جانبها ليكون إله الحماية والقانون لهذا الدين أو ذاك، ولذا ارتفعت مكانته وعلا شأنه بين الناس، كما حظي بلقب «الروح الطاهرة العادلة الجسورة والملك الشجاع» في عام 1328م. كما منحه الأباطرة الذين اعتنقوا الطاوية في العصور المختلفة لقب «من الأباطرة العظام، والقديس الحاكم المحترم، ويتمتع بمكانة الإله السامية»، وكان ذلك إيذاناً بانضمامه إلى نظام الآلهة الطاوية بصورة رسمية. وفي عام 1652 منحته أسرة تشنغ لقب «الملك العظيم المقدس مهيب الطلعة والإله المخلص العادل» من أجل إغراء وجذب احترام الشعب والوزراء في قومية هان، ثم أمر الإمبراطور بتشييد المعابد له في كافة الأماكن لتقديم القرابين له، ثم سرعان ما انتشرت معابده على اختلاف أحجامها في القرى والمدن في كافة أنحاء البلاد. وجاءت قرابين قوان على مستوى نطاق البلاد كلها متأخرة عن نظيرتيها لدى كونفوشيوس بحوالى ألف سنة ونيف.

ومن المعتقدات التي تستحق الإشارة إليها، الإيمان بـ «مازو» الذي ينتشر على جانبي مضيق تايوان على وجه الخصوص، ولم يأفل نجمه ولم تغب شمسه منذ زمن بعيد. ويُطلق على «مازو» أيضاً لقب «المحظية السماوية»، و «زوجة الإمبراطور» و «محظية الإمبراطور المقربة»، ويُطلق عليها «إله البحر» أيضاً على جانب المضيق، وفي الواقع هي فتاة كانت ولادتها في أوائل أسرة سونغ، وتدعى لين، وهي من أهالي جزيرة ميشو في مدينة بوتيان بمقاطعة فوجيان، وسميت «الفتاة الصامتة»، لأنها لم تعرف البكاء والصراخ منذ ولادتها، وتؤمن منذ نعومة أظافرها بآلهة الرحمة في البوذية، وكانت حاذقة في استطلاع الظواهر الجوية، ويمكن أن تتنبأ بالأمواج في البحار وتجعل الصيادين المحليين يتجنبون العديد من الكوارث البحرية، ولذا أُطلق عليها «إله الروح» بعد أن عاجلتها المنية، وتقدم لها القرابين ولا ينقطع حرق البخور من أجلها، وتنتشر معابدها (أو قصر زوجة الإمبراطور، أو قصر المحظية السماوية) في شتى بقاع تايوان ويقدر عددها بالمئات، ويخرج الناس عن بكرة أبيهم في العديد من الأماكن ويقدمون لها القرابين في يوم ميلادها.

كما أن الايمان بالحكماء والفضلاء من المعتقدات التقليدية في الصين. وما يُطلق عليهم «الحكماء والفضلاء» هم شخصيات بارزة قدمت تضحيات وإسهامات من أجل التطور التاريخي للأمة الصينية، ويؤمن الناس بهم ويقدمون لهم القرابين، ولا يزالون يقدرون ويحترمون قدراتهم وفكرهم، ويؤكدون مكانتهم التاريخية وتأثيرهم الثقافي. ومن ثم، تقديم القرابين لهم يعد ظاهرة تاريخية تتحلى بالمغزى الثقافي الأهم. ومنذ دوق أسرة تشو في أوائل أسرة تشو الغربية، والشاعر تشيوي يوان في عصر الممالك المتحاربة، وتشانغ ليانغ وهان شين في آسرة هان، وجوكه ليانغ في الممالك الثلاث، دوانغ شي جي وتاو يوان مينغ في أسرتي وي وجين، إلى الشعراء لي باي، ودو فو، وصوشي، ويوي فيي في أسرتي تانغ وسونغ -كان هؤلاء جميعاً موضع احترام وتقديس من الأجيال المتلاحقة التي شيدت لهم المعابد المتخصصة من شتى الألوان والأشكال لتقديم القرابين لهم. ونستطيع أن ندرك من خلال أنشطة هذه القرابين احترام وتبجيل الأمة الصينية للحكماء والفضلاء، وتوريث التقاليد الممتازة، وفتح آفاق المستقبل أمام الفكر العظيم من تطهير الذات وتطويرها.

المبحث الثاني
البوذية

أولاً: انتشار البوذية

هناك اعتقاد سائد يرى أن البوذية أسسها ساكياموني في أراضي الهند القديمة في الفترة من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ولذلك يطلق عليها في الصين «ديانة ساكيا موني». كما يطلق على مسؤولي إدارة شؤونها ورهبانها لقب «مريدو ساكيا موني». ومتى دخلت البوذية إلى الصين؟ لقد تعددت واختلفت روايات بحاث البوذية عبر التاريخ، كما أن السجلات المكتوبة في هذا الشأن مختلفة ومتناقضة. وعلى الجملة، هناك عدة روايات حول انتشار البوذية نسردها كالآتي: رواية ترى أنها انتشرت في الصين في عهد الملك يان تشاو وانغ في عصر الممالك المتحاربة، ورواية دخولها الصين في عهد الإمبراطور الأول لأسرة تشين، ورواية دخولها الأراضي الصينية في عهد الإمبراطور هان وو دي في أسرة هان، ورواية انتشارها في أواخر أسرة هان الغربية، فضلاً عن رواية دخولها في عهد الإمبراطور مينغ في أسرة هان الشرقية، وغيرها من الروايات الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع. وكانت أكثر هذه الروايات ذيوعاً إلى حد ما هي الرواية التي تذكر انتشار البوذية في الصين في عهد الإمبراطور مينغ، وظهرت لأول مرة في كتاب «نظرية الحق والشك عند ساكيا موني» في أواخر أسرة هان الشرقية، وفي الكتاب المترجم في أسرة هان بعنوان «اثنان وأربعون فصلاً من الكتاب البوذي المقدس»، ثم سُجلت في كتاب «ما بعد أسرة هان»، وفي غيرها من الكتاب والمصادر التاريخية، ثم انتشرت انتشاراً واسعاً على وجه الخصوص في مرحلة أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية. وتقول الفكرة الأساسية أنه في عام 64م رأى الإمبراطور مينغ في أسرة هان في حُلمه إلهاً جسم إنسان، يطير أمام القاعة الأمامية وتتسلط عليه أشعة الشمس، وفي اليوم التالي سأل بعض الوزراء من يكون هذا الإله؟ فأجاب كبير الوزراء فوبي ضاحكاً: «سمعت أنه يوجد إله في المناطق الغربية (تعبير قديم في أسرة هان يشير إلى منطقة شينجيانغ الإسلامية اليوم وأجزاء آسيا الوسطى) يدعى «فو» (بوذا)، يستطيع الطيران وتحمل أشعة الشمس جسده، فأرسل الإمبراطور تساي ين، وتشين جينغ وغيرهما إلى هذه المناطق

للبحث عن المذهب البوذي، والتقيا هناك اثنين من الرهبان الهنود في مملكة دايوي هناك في عام 67م، يطلق عليهما جيا ياما تانج، وجوفا لانا، وفي الوقت نفسه حصلا على تمثال بوذا أيضاً وكتاب البوذية، وعادا إدراجهما إلى العاصمة لوايانغ على ظهر حصان أبيض. وفي البداية طلب هذا الإمبراطور من هذين الراهبين المكث في معبد هونغلو (إدارة الاستقبال والمراسل في البلاط الإمبراطوري)، وفي نفس الوقت اختار مكاناً وشيد معبداً لتوفير الظروف الملائمة لتقديم القرابين، وهو ما يطلق عليه الآن معبد الحصان الأبيض. واضطلع هذان الراهبان بترجمة كتاب بوذا المقدس «اثنان وأربعون فصلاً» داخل المعبد، ويعد ذلك أقدم كتاب بوذي عرفته الصين.

ولكن منذ العصر الحديث، يرتاب الباحثون الصينيون والأجانب كثيراً في مثل هذه الروايات بسبب أن الإمبراطور مينغ يحلم بالبوذية ويرسل من يبحث عنها، وهذا يعد أمراً غريباً وشاذاً في حد ذاته. وذكر كتاب «ما بعد أسرة هان» أن ليو ينغ ملك مملكة تشو وشقيق هذا الإمبراطور من الأم، شيدا معبداً في بيته لعبادة بوذا، وكان الأخوان غير شقيقين وتربطهما علاقة وثيقة، ويجب أن يعرف الإمبراطور مينغ بوجود البوذية، فكيف يحلم بالبحث عن المذهب البوذي؟ وقد تعددت الأقوال حول الرسول الذي أرسله ليستطلع هذا الأمر، فذكر البعض أنه تشانغ تشيان (كان معاصراً للإمبراطور هان وو دي)، ويرى البعض الآخر أنه كان تساي ين، وفريق ثالث يرى أنه مُفسر أحلام الإمبراطور ويدعى فويي الذي أشار الكتاب المذكور أعلاه إلى أنه كان طفلا غريراً في المدرسة في عهد الإمبراطور، ولذلك نعتقد أن بحث الإمبراطور مينغ عن المذهب البوذي ليس حقيقة، وما يطلق عليه أن الحصان الأبيض حمل كتاب البوذية، واضطلع جيايا ماتانج وجوفالانا بترجمة كتاب البوذية تشير إلى البوذيين في العصور اللاحقة الذين قصدوا إظهار مآثرهم غير العادية عبر عصور التاريخ.

إذن، ماهي حقيقة دخول البوذية إلى الصين في نهاية المطاف؟ يعتقد باحثون حالياً بصفة عامة أنه يمكن إلى حد ما تصديق أن البوذية وصلت الصين في أواخر أسرة هان الغربية أو في الفترة التي تمتد بين أسرتي هان الشرقية والغربية. ويؤيد هذه المقولة ويؤازرها كلُ من رين جي يوي في الكتاب الذي أعده بعنوان «تاريخ البوذية في الصين»، والباحث الياباني ليان تيان ماو تشيونغ في مؤلفه «موجز تاريخ البوذية في الصين». ويستند ذلك إلى دليل أساسي

مفاده أن بيه سونغ جي في كتاب «تاريخ الممالك الثلاث» استشهد بما ذكره يوي هوان في مؤلفه الشهير «سيرة أهل المناطق الغربية» في الممالك الثلاث، وهو أنه في عصر الإمبراطور آي في أسرة هان الغربية في عام 2 ق.م، كان مبعوث مملكة ديوان ترك أثراً لدى التلميذ جينغ لوكوي. كما ذكر كتاب «ما بعد أسرة هان» أن شقيق الإمبراطور مينغ من الأم ويدعى ليونيغ ملك مملكة تشي كان يعبد في بيته الإمبراطور الأصفر، ولاوتسي (الطاوية) والبوذية، كما أنفق المال لإعالة الرهبان، مما يوضح أن البوذية انتشرت في الطبقة العليا داخل النخبة الحاكمة في أوائل أسرة هان الشرقية. ونخلص من هذه المعلومات التاريخية إلى أن البوذية دخلت الصين في الفترة بين أسرتي هان الغربية والشرقية تقريباً.

وعندما دخلت البوذية إلى الصين، اعتبرها الناس نوعاً من الإلهة وعبدوها مثلما أضفوا الألوهية على الإمبراطور الأصفر والفيلسوف لاوتسي مؤسس الطاوية، وقدموا لهم القرابين في البلاط الإمبراطوري، وفي بيوت بعض الملوك والحكام الأرستقراطيين، وكان سواد الشعب آنذاك يفتقر إلى معتقدات. وتذكر سجلات وثائقية أنه ربما الإمبراطور هوان في أسرة هان كان أول من اعتنق البوذية، وشيد معبداً في قصره لتقديس الإمبراطور الأصفر ولاوتسي والبوذية. وكان يانفو شياو أول من ترهبن من قومية هان وذكرته سجلات بأنه كان معاصراً للإمبراطور في أسرة هان، ويرجع ذلك إلى المرحلة المتأخرة لأسرة هان الشرقية، بينما كان تشو شي شينغ أول من دخل الرهبنة وأصبح راهباً رسمياً، وكان معاصراً لفترة الممالك الثلاث. ويوضح ذلك أن تأثير البوذية في البداية كان محدوداً للغاية.

وشهدت البوذية تطوراً بارزاً في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، وتجلى في الجوانب التالية:

(1) **اتساع نطاق ترجمة كتاب البوذية بصورة ملحوظة**، وعلى الرغم من أن ترجمة البوذية تمحورت بصورة أساسية على رهبان المناطق الغربية، ولكن الحوار بين الذين تتلمذوا على أيديهم وهم من قومية هان زاد عددهم كثيراً، ومثال ذلك الراهب جوفا من المناطق الغربية في أسرة جين الغربية قيل إنه ترجم مائة وخمسين جزءاً من الكتب البوذية المقدسة، واضطلع ذلك بدورٍ مهمٍ في نشر البوذية في الصين، وكذلك الراهب جيوي مالواشي في فترة ما بعد أسرة تشين، حظي بالترحيب عندما وطئت قدماه العاصمة تشانغآن، ومكث في معبد شياو

ياويوان (معبد تساو تانغ في مقاطعة شنشي اليوم) وترجم العديد من هذه الكتب وتتلمذ على يده أكثر من ثلاثة آلاف من المريدين، وقدم إسهامات مهمة وعظيمة في نظرية البوذية في الصين من خلال ترجمته للعديد من الكتب مثل: «النظرية الوسطى، و«مائة نظرية»، و«اثنتا عشرة نظرية»، و«حارس بوذا» و«كتاب البوذية وأزهار اللوتس» وغيرها. وعندما عاجلته المنية دُفن في هذا المعبد وشيد له مريدوه باغوده داخله مازالت قائمة حتى اليوم في معبد تساو تانغ.

(2) **ازدهار أنشطة نشر البوذية بشكل أكبر؛** حيث تأسست مراكز أنشطة البوذية الكبيرة نسبياً، كما في لوايانغ وتشانغآن (مدينة شيآن في مقاطعة شنشي اليوم)، وجيان كانغ (مدينة نانكين في مقاطعة جيانغضو اليوم)، ولوشان وغيرها. وكان الراهب المشهور في أسرة جين الشرقية ويدعى هوي يوان ينظم طقوساً بوذية تقام على أرواح الموتى في معبد دونغ لين في لواشان وتصطحبه الجماهير لتلاوة نصوص البوذية، وحققت البوذية ازدهاراً كبيراً في لوشان على حين غرة. وفي أسرة جين عام 402م أسس هذا الراهب منصة القسم أمام تمثال بوذا داخل المعبد تطلعاً إلى الأرض الطاهرة (الجنة الغربية في البوذية)، وشكّل جمعية «اللوتس الأبيض»، وشارك فيها مائة وثلاثة وعشرون شخصاً من شتى البقاع.

(3) **بناء العديد من الأديرة البوذية وبيوت الرهبان، وإقامة التماثيل الحجرية والكهوف الحجرية،** وحسب الإحصاءات التي ذكرها يانغ شوان في كتابه «تاريخ معابد لوايانغ»، أن أسرة وي الشمالية، كان يوجد بها 1376 معبداً في لوايانغ، وأربعة آلاف معبد في يهدو بمملكة تشي (في مقاطعة خبي اليوم). وعرفت الأسرة الجنوبية عدداً غير قليل من المعابد؛ ففي مملكة ليانغ (502– 557) كان يوجد بها 2846 معبداً. وجاء في أشعار الشاعر دومو في أسرة تانغ أن تلك الأسر كان يوجد بها 480 معبداً، ويعد ذلك رقماً ضئيلاً جداً.

(4) **ذيوع وانتشار أنشطة البحث عن المذهب البوذي في المناطق الغربية.** كان الراهب تشو شي شينغ في الممالك الثلاث، أول صيني تطأ قدماه المناطق الغربية بحثاً عن المذهب البوذي. وحذا حذوه واقتفى أثره أناس زاد عددهم يوماً بعد يوم في أسرتي جين الغربية والشرقية وفي الأسر الجنوبية والشمالية، وكان هدفهم تجميع النصوص البوذية المقدسة، وزيارة الأماكن البوذية المقدسة، والبحث عن كبار الرهبان وزيارتهم، والسعي وراء العلم وتحصيل المعرفة،

مما دفع تطور البوذية في الصين إلى الأمام.

(5) في جانب الاعتقاد الديني الفكري كان هناك شح لا يفي باحتياجات المرحلة المنصرمة، ولذا كان السعي وراء التخلص من الآلام بصفة عامة، والتضرع والتوسل أيضاً إلى البوذية أملاً في الفوز بالأرض الطاهرة (عالم السعادة القصوى في الجنة الغربية البوذية)، مما أغرى العديد من الناس الذين يرزحون تحت وطأة الآلام. ولا ريب أن ذلك أدى دوراً مهماً في انتشار البوذية. والتحول في هدف العقيدة الدينية يوضح أن قوة البوذية تتلاءم مع البيئة الصينية وتستطيع أن تفتح آفاقاً جديدة لذيوعها وانتشارها.

ولكن لماذا أحرزت البوذية مثل ذلك التطور البارز في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية؟ تكمن أسباب ذلك بصفة عامة في النقاط التالية:

(1) انتشرت الفوضى والقلاقل في أنحاء البلاد في المرحلة المتأخرة لأسرة هان الشرقية، وذاقت كافة الفئات الاجتماعية مرارة الصعاب والآلام التي لا تحصى، ثم تطلعت في خضم آلامها وأحزانها المزرية إلى البحث عن المؤازرة المعنوية وراحة البال، وكل ما تدعو إليه البوذية من الاعتقاد الديني من الخلاص الذاتي وإقامة جنازة بوذية لتعدية روح الميت إلى شاطئ الخلاص يتوافق تماماً مع تحقيق هذه الآمال. ويمكن أن نقول إن ذلك يمثل الأساس الاجتماعي.

(2) في هذه المرحلة، انتشر علم الغيبيات في المجتمع، وكان مجرد كلام حماسي. وتقدس الغيبيات أفكار لاوتسي وتشوانغ التي تؤيد أن «العدم هو الجوهر، والوجود نتج عن العدم»، وتنكر وجود الأشياء في العالم الخارجي، ومن ثم كان من السهل أن تندمج مع الأفكار التي تدعو إليها البوذية من التنسك واعتزال العالم، ولذا انتشر بسرعة أحد كتب البوذية التي تؤيد أن «كل المذهب البوذي هراء في هراء». وفي الواقع، إن علم الغيبيات فقد قوته الزاخمة بعد زوال أسرة جين الشرقية، وحل محله علم البوذية. وأرتأت البوذية أن «الأسماء والحقائق لا وجود لها»، وهذا يعد -في الواقع- تطوراً للفكرة القائلة إن «العدم هو الجوهر» بشكل أكبر، ويمكن القول إن ذلك يعتبر بمثابة الأساس الأيديولوجي.

(3) تشجيع الطبقة الحاكمة ومصالحها. حققت الفكرة الرئيسية التي دعت إليها البوذية فائدة كبيرة للطبقة الحاكمة، وعلى الرغم من اختلاف هذه الفكرة عن نظيرتها في المذهب الكونفوشيوسي التي تؤيد الإخلاص وبر الوالدين والشرف والاستقامة، وقناعة الإنسان

بواقعه، ولكنها كانت تدعو مريدي البوذية إلى الرهبنة والتنسك بكل جد واجتهاد، والسعي وراء التخلص من الروح الأساسية وقبول جزاء الكرما، وتقمص المجموعة الأولى من المواعظ الدينية. ولم يمثل ذلك تهديداً للنظام الحاكم، بل على العكس ساعد على حماية هذا النظام. وفي غضون خمسمائة سنة تمتد من أسرة هان الشرقية إلى الأسر الجنوبية والشمالية، أدرك الحكام الإقطاعيون تأثير البوذية رويداً رويداً، واهتموا بها وشجعوها بقوة تدريجياً. وبعض الحكام قدرها تقديراً عظيماً بسبب افتتانه وإيمانه المطلق بها. وفي أسرة جين الشرقية، دعا الإمبراطور جين تشينغ ونظيره آي دي الرهبان الأجانب المشهورين ليشرحوا البوذية في القصر الإمبراطوري، وتجهيز الأرض لبناء الأديرة. وفي الأسر الجنوبية، اعتقد الإمبراطور سونغ ون دي أن البوذية تسهم في تعميم التربية والتعليم، وكان يناقش دائماً مع الرهبان المشهورين مبادئ البوذية، وحتى الإمبراطور سونغ وو دي طلب من الرهبان المشاركة في إدارة شؤون البلاط الإمبراطوري، وأطلق عليهم «رئيس الوزراء صاحب الملابس السمراء»، لأنهم كانوا يرتدون ملابس ذات لونين الأحمر والبني. وأثنى الإمبراطور ليانغ وو دي على البوذية ثناء عظيماً لدرجة الذروة، وحتى هجر بيته أربع مرات وتنسك في معبد تونغ تاي (معبد جي نياو في مدينة نانكين اليوم)، ثم افتداه رئيس الوزراء بالمال وعاد أدراجه. وكان ذلك من أساليب التبرع بالمال للمعابد حتماً. والسلطة السياسية في مملكة وي الشمالية في فترة الأسر الشمالية أشادت كثيراً بالبوذية، وكانت تدعو الرهبان دائماً إلى القصر والصلاة من أجل القديسين. كما أنشأ الإمبراطور شيان وندي معبداً في القصر للتدريب على الخلوة البوذية، وعبادة بوذا وتلاوة النصوص البوذية. والإمبراطور شياو وندي سمح للأديرة أن تجمع ضرائب الحبوب من الشعب على وجه الخصوص. وأقام الإمبراطور شوان وو دي المعابد على نطاق واسع في مدينة لوايانغ لدعوة أكثر من ألف راهب أجنبي، ورحب بهم في قاعة القصر ليشرحوا البوذية، وكان يدون بنفسه محاضراتهم في هذا الشأن. وكان ذلك بمنزلة الأساس الطبقي. والأسباب المذكورة أعلاه في المجالات المختلفة جعلت البوذية تحرز تطوراً مطرداً في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، وكان ازدهار البوذية في أسرتي سوي وتانغ قائماً على هذا الأساس.

وفي أسرتي وي وتانغ، ولاسيما في أسرة تانغ، بلغت البوذية أوج تطورها، بسبب أن

الأباطرة والحكام في هاتين الأسرتين آمنوا بالبوذية إيماناً شديداً، وانتهجوا سياسة نشطة وإيجابية في مؤازرة البوذية، وانتشر بناء الأديرة في شتى البقاع، وحلق الرهبان والراهبات رؤوسهم ترهباً. وتعتبر المرحلة المبكرة في أسرة تانغ بمثابة إمبراطورية عظيمة موحدة تنعم بالثراء الاقتصادي والازدهار الثقافي، والقوة العسكرية الضخمة، وانتهجت سياسة تتسم بالتسامح والتشجيع الكبير إزاء جميع الأديان، والبوذية تغلغلت بنفسها داخل صفوف الشعب لأنها تتواءم بشدة مع احتياجات عامة الشعب الصيني من حيث المعتقد الديني والطقوس والمراسم. واتسمت البوذية في هذه المرحلة بالخصائص الآتية:

(1) **انتشار البوذية وذيوعها في نطاق واسع**: كانت تراجم البوذية في أسرة تانغ تفوق نظيرتيها في الأسر السابقة من حيث الحجم أو الجودة، وأحرزت أعظم الإنجازات. وكانت الدولة تتولى الإشراف على العاملين في حقل تراجم البوذية قي هذه الأسرة، وفي غضون مائة وثمانين سنة وأكثر من عام 629– 811، قامت الدولة بتنظيم إدارة الترجمة، ودعت الرهبان الأجانب المشهورين إلى ترجمة البوذية، واضطلع بهذا العمل حوالي ستة وعشرين من كبار الأساتذة، من بينهم شوان زانغ، وين جينغ وغيرهما من كبار أساتذة البوذية الذين عرجوا على المناطق الغربية للحصول على الكتب البوذية المقدسة، وكانوا يتقنون اللغة السنسكرتية، وترجمتهم صائبة ودقيقة، وجودة ترجمة هذه الكتب عالية. ولا توجد سوى أسرة تانغ التي ترجمت 2159 كتاباً. وتراجم البوذية المتعددة لم تقدم للرهبان المراجع والمصادر الكلاسيكية في البحث والدراسة فحسب، بل قدمت المعلومات الضرورية لبحاث البوذية، ولذا شهدت البوذية ازدهاراً عظيماً في عصر أسرة تانغ، وظهر العديد من النظريات البوذية الشهيرة.

(2) **إثراء ممتلكات الأديرة**: تشمل ثروة الأديرة الأراضي التي تمتلكها وسائر الممتلكات الأخرى. وكانت تضم الأديرة في أسرة تانغ العديد من الأراضي الزراعية الشاسعة المعطاءة التي يزرعها الرهبان والراهبات، والجواري، ومستأجرو الأديرة، ولذلك كان الكاهن العجوز رئيس المعبد دائماً في صورة مالك الأراضي الدنيوي، وكان ذلك بفضل سياسة التشجيع من قبل الدولة وصدقات ملاك الأراضي البيروقراطيين. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الأديرة تبني حولها النُزُل والحانات ومصانع العربات التي يديرها التجار مقابل إيجارات عالية، وفي الوقت نفسه، قامت الأديرة بإدارة الأعمال المصرفية من تقديم القروض التي

يطلق عليها «الكنوز التي لا تنضب»، وتحقق أرباحاً فاحشة باسم الرحمة. وشكّل ذلك كله الاقتصاد القوي والمدمر لدى الأديرة البوذية.

(3) توطيد أركان المذاهب الدينية: ذيوع البوذية أكثر فأكثر حتم عليها أن تتوافق مع احتياجات كافة الفئات والأوساط الاجتماعية، وتسعى وراء تحقيق التنمية شكل أكبر، ومن أجل ذلك، يجب أن يكون هناك أنظمة مختلفة للنظريات والرهبنة والتنسك. وفي أوائل مرحلة أسرتي وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية، ظهرت المذاهب المتعددة والمتنوعة التي انبثقت من صفوف الحواريين الذين ورثوا الأنظمة وبحثوا الكتب البوذية المختلفة، مثل مذهب النرفانا وغيره من المذاهب الأخرى. وفي عصر أسرتي سوي وتانغ، كان هناك بعض الأديرة الكبيرة التي اعتمدت على الترويج لإحدى الكتب البوذية وإبرازه للعيان من أجل حماية مكانتها الاجتماعية ومصالحها الاقتصادية، وكذلك من أجل اجتذاب أكبر عدد من الحواريين، ولذا تشكلت العديد من المذاهب المتباينة، وأصبح بعضها يمثل أهم خصائص البوذية في الصين.

ثانياً: مذاهب البوذية في الصين

(1) مذهب سان لون (النظريات الثلاث): انبثق اسمه من دراسة الكتب الثلاثة: (النظرية الوسطى)، و(مائة نظرية)، و(اثنا عشر مدخلاً للنظرية). وكان Kumaradjiva أول من نشر وترجم كتاب «النظريات الثلاث»، ولذلك أطلق عليه الجد الأقدم، وتداول مريدوه هذا المذهب حتى تبلورت ملامحه على يد الراهب جيه تسانغ. والمعتقد الديني لهذا المذهب يرى أن كافة الموجودات مجرد أوهام وخيال، ولكن يعتقد اللادينيون أنها أشياء حقيقية وموجودة، بينما يعتقد الرهبان أنها أشياء فارغة وليست أشياء حقيقية، وهذا ما يطلق عليه «المعنى الحقيقي» و«المعنى الدنيوي». ومادامت كافة الموجودات «ليست موجودة، وليست غير موجودة»، إذن، فإن كل الموجودات لا تنمو ولا تندثر، ولا دائمة ولا مؤقتة، ولا متماثلة ولا متباينة، ولا تظهر ولا تختفي، ويطلق على ذلك «اللاءات الثمانية». وفي عام 625م، انتشر هذا المذهب في اليابان بفضل الرهبان الكوريين.

(2) مذهب المراحل الثلاث: ويطلق عليه أيضاً «ديانة المراحل الثلاث» أو «مذهب بوذا العام». وكان شين شينغ في الأسر الشمالية مؤسس هذا المذهب البوذي الذي يقسم البوذية

إلى ثلاث مراحل حسب مراحلها وأماكنها وجماهيرها. وعقيدة هذا المذهب الدينية ترى أنه مادام عامة الشعب لا تمتثل للقواعد الدينية، ولا تستطيع فهم قوانين البوذية، فإنها تظل قابعة في المرحلة الثالثة، ويجب عليها التنسك وتحمل الإهانات والتخلص من النوايا الشريرة، حتى تكون بعد الموت جثامينها صدقة وتنهشها الطيور والحيوانات، ثم تستخدم عظامها في بناء باغودات. وانتشر هذا المذهب في نطاق واسع في البداية لفترة من الوقت، ولكنه تعرض للخطر مرات عديدة بسبب أن معتقداته الدينية وطريقة التنسك فيه تختلف اختلافاً كبيراً عن سائر المذاهب الأخرى، ثم اندثر في أسرة سونغ.

(3) **مذهب تيان تاي (المذبح السماوي)**: انبثقت تسمية هذا المذهب من موطن تأسيسه ونشأته في جبل تيان تاي في مقاطعة تشجيانغ، ومؤسسه الحقيقي هو الراهب تشي يي الذي عول كثيراً في معتقداته على كتاب «فاهوا»، ولذا عُرف مذهبه أيضاً باسم «مذهب فاهوا». وُلد تشي يي في فترة الأسر الجنوبية والشمالية، وترهبن في جبل تيان تاي في عام 575، وأنشأ معبد قوي تشينغ. ويعتقد أن كل الأشياء البوذية حقيقية، وكافة الموجودات مترابطة ومتصلة، ويحوي القلب ثلاثة آلاف من العوالم، وتنوع الأشياء جسد الحقيقة مثل جوهر البوذية، ولذا انبثقت كافة الموجودات كلها من القلب. وفي أسرة تانغ، قدم الراهب الشهير تشان ران فكرة مفادها «لا توجد مشاعر وأحاسيس، بل توجد خصائص بوذية»؛ بمعنى أن النبات والجبال والأحجار تتحلى كلها بالطابع البوذي، وورث عنه ذلك الراهبان داو سوى، وشنغ مان. وبعد ذلك، انتشر هذا المذهب في اليابان بفضل الراهب الياباني زوي تشوان. وفي مطالع القرن الثاني عشر أسس الراهب الياباني ري ليان مذهب «ري ليان تشنغ» بموجب كتاب «فاهوا»، وتعتبر جمعية «خلق القيمة» التي تتحلى بالقوة والحيوية في المجتمع الياباني في الوقت الحاضر فرعاً لهذا المذهب.

(4) **مذهب هوايان**: اعتمد هذا المذهب على الكتاب الديني «هوايان»، ومن ثم أُطلق عليه، هذا الاسم. وهناك اعتقاد أن مؤسس هذا المذهب هو دو شون في أواخر أسرة سوى وأوائل أسرة تانغ، وكان يقيم الطقوس البوذية ويشرح معتقده الديني في معبد هوايان في جبل تشونغ نان في مدينة تشانغآن، وبعد مماته دُفن في هذا المعبد، ولا تزال باغودته قائمة إلى الآن. ولكن هذا الراهب لم يتبلور بصورة رسمية إلا في عهد الجد الثالث، واسمه فاتسانغ، كما يطلق عليه

«المُعلم الأول الكفء»، ولذلك سُمي هذا المذهب أيضاً «مذهب الكفء الأول» والمعتقد الديني لديه يؤيد أن القلب هو المصدر الأساسي لكافة الموجودات، ووجود العالم الموضوعي يوجد في إطار الإحساس بالعالم الذاتي. وانتشر هذا المذهب في اليابان بفضل الرهبان الذين انتقلوا إلى اليابان في عهد أسرة تانغ وأسسوا مذهب «هوايان» الياباني.

(5) مذهب فاشيانغ (صور الأشياء البوذية): تتمحور نظريته على تحليل الصور المتعددة والمتنوعة لكافة الأشياء وتقصي أسباب نشأتها، ولذلك أُطلق عليه هذا الاسم، ومؤسسه هو الراهب شوان زانغ ومريدوه كوي جي. وأقام أتباعهما معبد «الرحمة والفضل» في تشانغآن، ولذلك أطلق على هذا المذهب «مذهب الرحمة والفضل»، كما أُطلقَ عليه أيضاً «مذهب المعرفة الوحيدة»، لأنه كان يؤيد أن كافة الأشياء البوذية تتحلى بالمعرفة الوحيدة (الروح الذاتية)، ولا يوجد شيء خارج القلب (العالم الموضوعي). واعتمد هذا المذهب كثيراً على كتاب المؤسس الأول شوان زانغ «نظرية المعرفة الوحيدة». وسمات الاعتقاد الديني لدى المذهب هي تقديم البراهين على أن كافة الأشياء الموضوعية هي الأشياء المتفرقة المنبثقة من روح الإنسان الذاتية، وذلك من خلال التحليل السيكولوجي المثقل بالتفاصيل التفاهة، وفي الوقت نفسه، يدعو إلى أن كل المخلوقات الحية ليست تتحلى بالبوذية، وهي أيضاً المخلوقات التي لا تحظى بالترحيب لأنها لا تتطلع إلى أن تكون بوذية، ولم تصبح بوذية حقاً. ولذلك، مالت شمس هذا المذهب إلى المغيب بسرعة، وتقطعت أنفاسه حتى العصر الحديث، ثم حظي باهتمام الناس بعد ذلك.

(6) مذهب وصايا دينية: يركز هذا المذهب على بحث الوصايا (القواعد) الدينية ونشرها بصورة أساسية، ويعتمد كثيراً على الكتاب الديني «الوصايا الدينية الأربع». كما يطلق على هذا المذهب «نان شان»، لأن مؤسسه الحقيقي كان يقطن تشونغ نان شان. ونظرية الوصايا الدينية في هذا المذهب بسيطة إلى حد ما، وتقسم الوصايا الدينية إلى أربع هي: جيهفا (الوصايا الدينية التي حددتها البوذية)، وجيهشنغ (الممارسة العملية المحددة للانصياع للوصايا الدينية)، وجيهشيانغ (المظاهر المحددة لهذه الوصايا)، وجيهتي (تأثير الرهبان الباطن لدى الحواريين). وهناك مؤلفات كثيرة تدعو إلى هذا المذهب، ومن أتباعه المشهورين هونغ جينغ ومريدوه جيان تشين الذي توجه نحو الشرق وأسس مذهب الوصايا الدينية الياباني.

(7) **مذهب جينغ تو (الأرض الطاهرة)**: هذا المذهب متخصص في الأرض الطاهرة التي تشهد بعث بوذا الأعظم في عالم السعادة القصوى الغربي (أمتيابها)، ولذا أطلق عليه هذا الاسم. وقد قيل إن هذه الأرض تحوي حوض الكنوز السبعة الذي يزخر بأزهار اللوتس، وكل الذين يتوجهون إلى هذه الأرض يتقمصون أولاً جسداً جديداً في شكل هذه الأزهار ويعيشون فيها عندما تتفتق. وقام الراهب الشهير في أسرة جين الشرقية ويدعى هوي يوان بإعداد لفيف من المتخصصين في الأرض الطاهرة، وأسس «جمعية اللوتس»، ولذا أُطلق على هذا المذهب «مذهب اللوتس» الذي اعتمد كثيراً على كتاب «أمتيابها» وغيره. وكان تان لوان في الأسر الشمالية وفي أسرة وي الشرقية الجد الأول للمذهب وقضى أيامه الأخيرة في معبد شوان تشونغ في مقاطعة شانشي اليوم حيث قام بالترويج والدعاية لأرض الطهارة البوذية. وفي أسرة تانغ، كان الرهبان داو تشوا، شان داو، ويي شوان يلقون المحاضرات الدينية البوذية في هذا المعبد، واستمروا في الدعاية لهذا المعتقد الديني. وبعد موت داو تشوا، توجه شان داو إلى تشانغآن لشرح البوذية، وبعد وفاته أقام له مريدوه معبداً؛ وهو المعبد الذي وصفته أشعار أسرة تانغ ويعرف باسم «شيانغ جي». وفي القرن الثاني عشر، ألفت الأوساط البوذية في اليابان العديد من المؤلفات حسب أفكار الراهب شان داو، وأسست مذهب الأرض الطاهرة الياباني.

(8) **مذهب ميي**: ويسمى «ديانة ميي» أيضاً، ويبحث كتاب «حارس بوذا» وغيره، وسُمي بهذا الاسم لأنه يرى أن الهدف الديني هو تلقين أسرار (ميي ميي) تاشاغاتا (بوذا)، وتأسست في أسرة تانغ بفضل الرهبان الهنود الثلاثة وهم: شان وو وي، جين قانغ تشي، وبوكونغ، الذين قاموا بالدعاية لتعاليم بوذا وظفروا بالاحترام والتبجيل من جانب البلاط الإمبراطوري، ولاسيما بوكونغ الذي عاصر ثلاثة أجيال من أباطرة تانغ هم: شوان زونغ، صو زونغ، وداي زونغ، وأقام الطقوس الدينية البوذية في معبد داشين شان في تشانغآن وترجم العديد من الكلاسيكيات السرية. وكان مريدوه يقدرون بعشرات الآلاف من بينهم هوي ليانغ، وهوي قوي، أحرزوا أعظم المنجزات. وأقام هوي الطقوس البوذية في دير تشنغ لونغ في تشانغآن، وترهبن هناك الشاعر جياداو في أسرة تانغ، وجاء في أشعاره أن: «عش الطيور فوق الأشجار على حافة البحيرة. والراهب يطرق باب القمر» مشيراً بذلك إلى هذا الدير. وتتلمذ الراهب

الياباني كونغ هاي على يد هوي قوي، وأسس مذهب تشين يان بعد أن عاد أدراجه إلى اليابان.

(9) مذهب تشان (جلسة تأمل بوذية): معنى «تشان» الأصلي هو التهذيب الذاتي الفكري، وطمأنينة النفس وتحديد مركز النفس، ويعد ذلك من طرائق التطهير الذاتي في البوذية الهندية، وأصبح مذهباً بصورة تدريجية بعد دخوله الصين، وأوجد نظاماً كاملاً من التنظير البوذي، وتهذيب الذات، كما أصبح بمثابة التنمية الأكثر نموذجية لعملية تصيين البوذية، ومن سماته نشر تعاليم البوذية قط، وعدم استخدام الكتابة، والدعوة إلى أن القلب هو بوذا، ومعرفة القلب تكون بالرؤية الجلية، ولذا لا توجد ثمة ضرورة لحفظ الكتاب المقدس البوذي عن ظهر قلب، وتطهير الذات يكون من خلال جلسة تأمل وخلوة بوذية. وأصل الرهبان يذكر أن الراهب الهندي بوتاداما هو الجد الأول وترمز إليه عباءته وسلطانيته اللتان ورثتهما الأجيال المتعاقبة. وقد وصل هذا الراهب إلى الصين في عصر الأسر الجنوبية والشمالية، وترهبن في معبد شاولين في جبل سونغ، وقد قيل إنه ظل ينظر إلى الجدار لمدة عشر سنوات لم ينبس ببنت شفة أبداً، ثم ورث هوى كه عباءته وأصبح الجد الثاني. ويضم هذا المعبد دير الجد الأول والثاني إلى الآن، ويحكى أن الرهبانين داما، وهوي كه كانا يمارسان الخلوة البوذية داخله، وورث هوي كه عباءة الراهب تسان وأصبح الجد الثالث وأقام طقوساً بوذية في جبل تشو الذي يُطلق عليه اليوم معبد الجد الثالث في مقاطعة آنهوي. كما أصبح المريد داوشين الجد الرابع بعد أن ورث عباءة الراهب ونشر البوذية في جبل بواخه في مقاطعة خوبي أما الجد الخامس فهو أحد مريدي داوشين. ويدعى هونغ رين ونشر البوذية في جبل فينغ ماو في هذه المقاطعة أيضاً. وكان شين شيو المريد الأول للراهب هونغ رين ويمكن أن يرث عباءته وسلطانيته، ولكن طلب هذا الراهب من مريديه أن يقرض كل واحد منهم بيتا من الشعر يعبر عن آرائه في الخلوة البوذية. فكتب شين شيو بيتاً من الشعر، جاء فيه: «الجسد مثل الإشراق البوذي، والقلب مثل منصة المرآة الجلية، ويجب أن نمسحها بجد حتى لا يتراكم عليها الغبار». وفي تلك الأثناء، كتب الراهب المسؤول عن الطعام هوي نينغ بيتاً آخر من الشعر جاء فيه: «في الأصل لا توجد شجرة بوذا، ولا حتى منصة المرأة البوذية، فكيف تتراكم عليهما الأتربة؟» وأرتأى هونغ رين أن هوي نينغ رؤاه واضحة وشفافة، فمنحه عباءته وسلطانيته سراً، ثم نزح الأخير إلى

الجنوب ووصل إلى معبد قوانغشاو في قوانغتشو، وهناك وجد كوكبة من الرهبان يناقشون مشكلة الريح تهز العلم الجنائزي، فقال بعضهم الريح تتحرك، وذكر آخرون العلم يتحرك، ولكن هوي نينغ أرتأى أن القلب يتحرك فاستحوذ على إعجاب الرهبان وقدسوه وجعلوه معلمهم، ونشر البوذية في معبد نانهوا في مقاطعة قوانغدونغ وأصبح الجد السادس. وكان هوي نينغ يؤيد «الفهم السريع» في الجنوب وأُطلق على ذلك «نان تشان» بمعنى «الخلوة البوذية الجنوبية». بينما كان شين شيو يؤيد «الفهم البطيء» في تشانغآن، ويطلق على ذلك «بيي تشان» بمعنى «الخلوة البوذية الشمالية». وبعد ذلك، أفل نجم «بيي تشان»، وذاع صيت «فان تشان» وأصبحت التيار الرئيسي، ثم انقسمت إلى «الأسر الخمس والمذاهب السبعة» وانتشرت في كافة الأصقاع.

وبعد أسرتي سونغ ويوان، تطورت المذاهب البوذية جيلاً بعد جيل، ولاسيما مذهب «نان تشيان» كان الأكثر تأثيراً. وفي أسرة تشنغ تحول اهتمام الطبقة الحاكمة إلى الديانة اللامية Lamaism من أجل إحكام قبضتها على الفئات الأرستقراطية في الأقليات القومية التي تقطن منطقتي التبت ومنغوليا، وترسيم الحدود في البلاد، وأدى ذلك إلى انتشار هذه الديانة في تلك المنطقتين.

ثالثاً: انتشار الديانة اللامية والداي والبانتشين

الديانة اللامية هي البوذية التبتية التي انتشرت في منطقة التبت، ومن ثم أطلق عليها «البوذية التبتية». و«لاما» كلمة تبتية معناها «الرفيع»، «الأرقى»، وهي تسمية يطلقها أهل التبت على الرهبان من ذوي المقام الرفيع، والمعرفة الواسعة. وقد انتشرت البوذية الهندية في التبت منذ زمن بعيد، ولكن كان انتشارها وئيدا، وتأثيرها ضعيفاً، لأن التبت كانت تفتقر إلى الكتابة إذ ذاك. وكان ينتشر فيها الديانة المحلية «بنبوه» وتتحلى بخصائص العصر البدائي. وفي القرن السابع الميلادي، تأثر زعيم قبيلة توفان في الصين القديمة بأميرة نيبال تشي تشونغ، وأميرة أسرة تانغ ون تشنغ، وبدأ اعتناق البوذية، وأسس اللغة المكتوبة، وترجمة الكتاب البوذي المقدس، وشيد الأديرة، ولذا تطورت البوذية تدريجياً وهيمنت على الساحة الدينية لمدة مائتي سنة ونيف تقريباً، ويعتبر ذلك بمثابة «مرحلة الانتشار الأمامية» للبوذية. وفي

عام 838م، ورث لانغمادا زعامة هذه القبيلة، وكان يمثل قوة الديانة المحلية المعادية للبوذية، ولذا أمر بالقضاء على البوذية، وإجبار الرهبان على العودة إلى الدنيا والتخلص من الرهبنة، وتحطيم التماثيل البوذية، وحرق الكتب البوذية أو رميها في البحر، واقتحم الأديرة وحولها إلى زرائب حيوانات، ووجه طعنة نجلاء للبوذية التبتية لمدة أكثر من مائة سنة. وفي عام 970م تقريباً، شهدت البوذية التبتية البعث من جديد بفضل قوة وأنشطة الشخصيات المرموقة في الطبقة الحاكمة العليا. ومن أجل اجتذاب أكبر عدد من الرهبان، حرصت البوذية في ذلك الحين على استيعاب الخصائص القومية لمنطقة التبت، ولاسيما معرفة بعض الأحوال المتعلقة بالطقوس الدينية للديانة بنبوه والآلهات. ويختلف نظام التوارث باختلاف أسلوب التنسك. وفي أواسط القرن الحادي عشر، تشكلت المذاهب الأربعة الكبرى: نينغما (المذهب الأحمر)، غادانغ (المواعظ البوذية)، بكار يغيودبا (المذهب الأبيض)، ساجيا (المذهب الملون). وفي مطالع القرن الخامس عشر، تأسس مذهب غلوغبا (المذهب الأصفر) أيضاً. وسيطر المذهبان الملون والأصفر على الشؤون السياسية والدينية في التبت تباعاً بفضل مؤازرة حكومتي أسرتي يوان وتشينغ، ويطلق على ذلك «مرحلة الانتشار الخلفية» للبوذية التبتية.

وكان انتشار البوذية في التبت قائماً على أساس الكتاب الديني للمذهب السري البوذي القادم من الهند بصورة أساسية، واستيعاب بعض طقوس الديانة المحلية، وشكّل ذلك «المذهب السري التبتي» الذي يتحلى بسمات منطقة التبت. ويتسم كلُ من المذهبين الملون والأصفر بالتنظيم الصارم للأديرة ونظام تعليم كتاب بوذا، وانتشرا فيما بعد في منطقة تشنغهاي، ومنغوليا الداخلية وفي الدول المتاخمة لمنغوليا والتبت.

مذهب نينغما (المذهب الأحمر): ظهر في منطقة التبت في وقت مبكر نسبياً، وكان يفتقر إلى اسم في البداية. ونظراً لأن تعاليم هذا المذهب تنتمي إلى مرحلة الانتشار الأمامية، فإن كتابه المقدس يتمحور بصورة أساسية على كتاب المذهب السري البوذي الذي تم ترجمته في هذه المرحلة. ويتمتع هذا المذهب بأقدمية بعد نشأة المذاهب الأخرى فيما بعد مرحلة الانتشار الخلفية، ولذا أُطلق عليه «نينغما» لأنها تعني في اللغة التبتية «القديم»، كما أُطلق عليه «المذهب الأحمر» أيضاً لأن رهبانه يرتدون القبعات الحمراء. وكتب هذا المذهب المقدسة تنقسم إلى ثلاث درجات وأسلوبها مختلف، ومن بينها ما توارثه الأبناء من الآباء أو توارثه

الأجيال المتعاقبة.

مذهب غادانغ (المواعظ البوذية): تعني «غادانغ» أن كلام بوذا كله عبارة عن إرشادات وتدعو إلى توجيه وإرشاد العوام عن طريق تعاليم وتوجيهات البوذية من أجل قبول مبادئ البوذية، وتشكل هذا المذهب في عام 1056 تدريجياً، ويحرص على الوصايا الدينية، ويؤكد التهذيب الذاتي الحقيقي، ويهتم ويروج للثواب والعقاب من خلال الكرما، والتجوال والتقمص والتسامي عن الحياة والموت، واندمج في مذهب غلوغبا (المذهب الأصفر) عندما نشأ في القرن الخامس عشر.

مذهب بكاريغيودبا (المذهب الأبيض): كلمة «بكاريغيودبا» تعني «توارث البوذية عن طريق اللغة الشفهية»، وفي عبارة أخرى، أن حارس بوذا يستنطق من فمه الخاص ويلقن الأجيال المعتنق الديني من المواعظ والترانيم البوذية، وأطلق على هذا المذهب «المذهب الأبيض»، لأن رهبانه يرتدون عباءة الراهب البيضاء، ومن أهم ملامحه الزهد والتنسك، وفروعه كثيرة ومتعددة، ومن بينها مذهب غما عجيوي الذي كان أقدم نظام «توريث الأنشطة البوذية عبر الأجيال» في خضم انتشار البوذية في التبت.

مذهب ساجيا (المذهب الملون): بدأ في أسرة سونغ، وانتشر في أسرة يوان، وجاءت تسميته من معبد ساجيا الذي كان يشرف عليه، كما أُطلق عليه «المذهب الملون» لأن جدران المعبد مرسوم عليها الأزهار الحمراء والبيضاء والسوداء، وقامت عشيرة كونشي؛ وهي من عشائر التبت المشهورة بتأسيس هذا المذهب وقررت في البداية توريث المكانة الدينية الشرعية بين أبناء العشيرة، ولذلك لم يحظر الزواج، ولكن بعد الإنجاب لا يمكن ملامسة الزوجة مرة أخرى. وظفر الجد الخامس لهذا المذهب بلقب «الكاهن الأعلى» ويدعى لواتشيو جيان زان، وأصبح مسؤولاً عن شؤون البوذية، وكان ذلك إيذاناً ببداية تحقيق الاندماج بين السياسة والدين في التبت، وحظي هذا المذهب بذروة الاحترام في أسرة يوان، ثم أفل نجمه في أواخر هذه الأسرة، وينتشر فقط في منطقة ساجيا المزدهرة.

مذهب غلوغبا (المذهب الأصفر): أحدث المذاهب التي شهدتها منطقة التبت، ولا يزال يتمتع بالقوة والمهابة حتى وقتنا الحاضر. وأُطلق عليه «المذهب الأصفر» لأن رهبانه يرتدون عباءات وقبعات لونها أصفر، ومؤسسه الراهب زونغ كهيه من قومية تشينغهاي- التبت.

وفي مطالع القرن الخامس عشر الميلادي، شعر هذا الراهب بالآلام، لأن انتشار وصايا البوذية أصابه الترهل والتراخي، وأصبحت حياة الرهبان مضطربة وقلقة، ولذا عقد العزم على إدخال إصلاحات على هذا المذهب، واعتمد على مذهب غادانغ (المواعظ البوذية) بصورة رئيسية، وحقق الدمج بين المعتقدات الدينية في المذاهب المختلفة، وأسس نظاماً موحداً وشاملاً للمعتقدات والقواعد الدينية، وطلب من الرهبان التطبيق الصارم للوصايا الدينية، والرهبنة وعدم الزواج طوال الحياة، وتنظيم وترتيب الأديرة، وتنفيذ نظامها بكل دقة، واستيعاب العديد من الحواريين والمريدين، وإعداد قوانين تأسيس الجمعيات، ولذا ازدهرت البوذية وأُطلق عليها «غلوغبا»، ويعني ذلك «القواعد الأحسن، اللوائح الأفضل». وبعد موت زونغ كهيه، اضطلع مريدوه تباعاً ببناء الأديرة ونشر البوذية، وتحوي منطقة تشينغهاي-التبت ستة معابد كبرى هي: غاندان وسيرا ودر يبونغ في لاسا عاصمة التبت، ومعبد تاشيلهوبنو في مدينة شينغاسي، ومعبد تار في تشينغهاي، ومعبد لابرانغ في قانصو، ويطلق عليها «المعابد الرئيسية الستة لمذهب غلوغبا» وفي عام 1542م، تبني هذا المذهب نظام توريث بوذا الحي بين الأجيال لحل مشكلة توريث مكانة بوذا الحي، ويعني ذلك أن بوذا الحي قبل وفاته يحدد الاتجاه الذي يشهد البحث عن طفل تناسخي يتبوأ مكانته عند وفاته، ونظراً لإنجاب العديد من الأطفال في آن واحد، وليس طفلاً واحداً، فقد تغير هذا النظام في فترة تشيان لونغ بأسرة تشينغ الحاكمة، وأصبح نظام «سحب القرعة من الجرة الذهبية لبوذا الحي بين الأجيال»، وقد تقرر في نهاية المطاف تطبيق هذا النظام عند اختيار الداي لاما، والبانتشين لاما، وتوريث المكانة الشرعية لبوذا الحي.

إن «الداي» و «البانتشين» هما تسميتان كبيرتان في نظام توريث بوذا الحي بين الأجيال. وتسمية «الداي» بدأت في عهد الجيل الثالث الدالاي لاما جيانان جياتسوا. وفي عام 1543م، اعتبر هذا الدالاي لاما بمثابة الطفل التناسخي لزعيم المذهب الأصفر في الجيل السابق، وحظي بالترحيب وأُرسل إلى معبد سيرا في لاسا، وكان عمره آنذاك ثلاث سنوات فقط، وكان يتحلى بالذكاء الشديد، ويستطيع شرح وتفسير البوذية وهو في سن الثانية عشرة، ولذلك تمتع بالمكانة والشهرة الكبيرة في التبت. وفي عام 1577 في أسرة مينغ قَبل دعوة زعيم قبيلة توموتيه المنغولية، وتوجه إلى منطقة منغوليا لنشر البوذية، وفي العام التالي، أبدى هذا

الزعيم احترامه وتقديره له ومنحه لقب الدالاي لاما الذي يعني «العارف بكل شيءٍ في البوذية، وحارس بوذا» امتناناً لمآثره في إعداد المريدين والأتباع، ومن هنا كانت بداية ظهور لقب «الدالاي لاما». و«الدالاي» كلمة منغولية تعني «البحر العظيم»، وكلمة «لاما» تبتية تعني «الرفيع الأرقى»، وفي عبارة أخرى، أن هذا اللقب يحمل معنى «العارف بكل شيءٍ في البوذية، والذي لا يقهر والراهب العظيم مثل البحر الكبير». وعلى الرغم من أن جيانان جياتسوا حظي بلقب التقدير «الدالاي لاما»، ولكنه لم ينل موافقة الحكومة المركزية بصورة رسمية. وفي عام 1652م، سافر الدالاي من الجيل الخامس إلى بكين واستقبله الإمبراطور، وشيد له المعبد هوانغ (الأصفر) في القصر الإمبراطوري، ومنحه اللقب الرسمي «الدالاي لاما حارس بوذا الأمير العظيم ويقود البوذيين في العالم». ومنذ ذلك الحين فصاعداً، لم يتمتع الدالاي لاما بالشرعية إلا إذا منحته الحكومة المركزية اللقب الرسمي.

أما تسمية البانتشين، فقد جاءت متأخرة عن نظيرتها «الدالاي». وفي عام 1645م، اعتزم قائد القوات المنغولية المرابطة في التبت إضعاف السلطة السياسية والدينية التي يتمتع بها الجيل الخامس الدالاي لاما، ومنح رئيس معبد تاشيلهو بنو في شيغاتسي لقب «البانتشين لاما»، وكان ذلك البداية الرسمية لتسمية البانتشين. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، طبق هذا المعبد نظام توريث بوذا الحي بين الأجيال من أجل إيجاد حل لمشكلة التوريث البوذي. وكان رئيس هذا المعبد يدعى جيهجيان زانسوان ويمثل الجيل الرابع من البانتشين، أما الأجيال الثلاثة السابقة فقد حظيت بالاعتراف بأنها حاملة لهذا اللقب بعد وفاتها. وفي عام 1713، منحت حكومة تشينغ بصورة رسمية لقب البانتشين للجيل الخامس وقررت توارثه بين الأجيال على غرار الدالاي، ويجب أن يحظى بموافقة الحكومة الرسمية. وكانت التسمية الكاملة لهذا اللقب هي: «بان تشين غأرداني»، ومعناها كالآتي: «بان» كلمة من اللغة السنسكرتية معناها «العالم صاحب المعارف العميقة» و«تشين» كلمة تبتية معناها «العظيم، الكبير»، و«غأرداني» من لغة قومية المانشو معناها «مجوهرات نفائس»، ويكون مضمون التسمية الكاملة على هذا النحو: «العالم العظيم مثل النفائس صاحب المعارف الغزيرة».

رابعاً: أفكار مناوأة البوذية وصراع القضاء عليها

الأفكار الرئيسية في البوذية تنكر وجود الكيان الحقيقي لعالم الأشياء الموضوعية، كما تدحض مقدرة الإنسان على تعديل العالم الذاتي الذي يضطر إلى انتهاج أسلوب الانزواء الذاتي في مجابهة الحقائق المتغيرة مراراً وتكراراً والحياة التي تغص بالتناقضات، ولذا يبذل قصارى جهده من أجل تحقيق الخلاص الروحي. وتحدد العقيدة البوذية تعريفا للحياة الواقعية مفاده: «اللادومية»، و«اللاكيان»، و«الآلام الثمانية». وتعني «اللادومية» إن حياة الإنسان متغيرة وقلقة، ويعجز عن السيطرة عليها، و«اللاكيان» يعني أن كافة الموجودات في العالم تفتقر إلى الكيان الحقيقي المستقل، حتى جسم الإنسان تتجمع فيه كافة المشاعر والأحاسيس والروح بصورة مؤقتة. وانطلق الفكر البوذي بصورة أساسية من «اللادومية» و«اللاكيان». أما «الآلام الثمانية» في الحياة تشمل: آلام الحياة، وآلام الهرم، وآلام المرض، وآلام الموت، وآلام الكراهية، وآلام الفراق، وآلام العجز عن تحقيق الأماني، وآلام القلق والحزن والغضب. وأسباب هذه الآلام لا تكمن في بيئة المجتمع، ولا في روح الإنسان، ولكنها تكمن في طمع الإنسان وهواجسه، وفي سلوكه ووعيه، وقاد ذلك إلى استمرارية الحياة والموت، ويكون الثواب والعقاب حسب السلوكيات الحسنة والخبيثة. ولذلك، يجب تلاوة نصوص الكتاب البوذي المقدس، والتنسك، والالتزام بالوصايا الدينية، ويعبر الإنسان عن رغباته ومعرفته تجاه العالم الدنيوي بصورة كاملة، ويتجاوز مجال تناسخ (تقمص) الموت والحياة، وبلوغ الهدف الأسمى من التغير والتحول، ويطلق على هذا «النرفانا» و«التطهر الروحي». ومن أجل بلوغ هذا الهدف، حددت البوذية لمعتنقيها مجموعة من الأسباب التي يجب إدراجها وفهمها، كما يجب إتقان طرق التنسك والرهبنة والالتزام الصارم بالعديد من القواعد الدينية.

وتنقسم البوذية- من منظور النظرية الأساسية والعقيدة- إلى بوذية العجلة الكبرى Greater Vehcile (الماهايانا)، والعجلة الصغرى Little Vehcile (هينايانا). وتشير بوذية العجلة الصغرى إلى المذهب البوذي الأوليّ التقليدي، أما بوذية العجلة الكبرى فتشير إلى المذهب الذي تأسس فيما بعد وتغيراته. وفي الفترة من القرن الثاني إلى القرن الأول قبل الميلاد تقريباً، دعا لفيف من معتنقي البوذية إلى الإصلاح، ونظموا ما يعرف بـ «جماعات بوذا»، ودحضوا تقاليد البوذية، وحرصوا قط على التطهر الروحي، وعدم الاكتراث بخلاص كل

المخلوقات الحية؛ مثل المركب الصغير الذي يستطيع نقل عدد قليل من الناس، ولذا يطلق عليه «العجلة الصغرى». واعتقدوا أنهم «العجلة الكبرى» التي تستطيع انتشال هذه المخلوقات من الآلام والعبور بهم إلى شاطئ الأمان والسعادة. وتعتقد العجلة الكبرى (الماهايانا) أن الماضي والحاضر والمستقبل، والاتجاهات العشرة في العالم تحوي عدداً لا حصر له من بوذا، من بينهم ساكياموني. وكل إنسان مادام يتجول في العالم ويعطف على الناس ويساعدهم في عبور بحر الآلام، ويضطلع بالتطهر الذاتي المستمر حسب وصايا البوذية، فإنه يستطيع بلوغ الأرض الطاهرة في المملكة البوذية، ويستطيع أيضاً التطهر والخلاص ويصبح بوذياً. وفيما بعد انتشرت بوذية العجلة الصغرى في كافة دول جنوب شرق آسيا، وأطلق عليها «بوذية المذهب الجنوبي»، بينما انتشرت بوذية العجلة الكبرى في الصين وكوريا واليابان، وأطلق عليها «بوذية المذهب الشمالي».

وما دامت البوذية تعتبر ديانة أجنبية، ولذلك بعد أن دخلت الصين، لا يمكن أن لا تحدث مجابهة بينها وبين الديانة الكونفوشيوسية المحلية في الصين على الصعيدين الفكري والنظري؛ وبالمثل لا يمكن إلا أن تحدث بينها وبين الديانة الطاوية المحلية معارضة. وفي الوقت نفسه، النظام الفلسفي في البوذية قائم على المثالية لا يمكن لا يتعارض مع المادية واللادينية الموجودة في الصين منذ القدم. ومن ناحية أخرى أن الطبقة الحاكمة (الأباطرة والملوك الإقطاعيون بصورة أساسية) تنطلق من اعتقادها الشخصي أو مصالح الحكم، ولذلك قاومت قوة البوذية. وعلى هذا النحو، شهد التاريخ الصيني صراعاً معقداً ومتشابكاً ومتواصلاً أحياناً، ومتقطعاً أحياناً أخرى ضد البوذية، ووقعت أربع حوادث كبرى لوأد البوذية.

وكان فان تشين في الأسر الجنوبية والشمالية من أوائل المفكرين المناهضين للبوذية منذ زمن مبكر نسبياً. وفي تلك الأثناء، أدى الانتشار السريع للبوذية إلى حدوث جدل عنيف بين البوذية والكونفوشيوسية في مجال الأفكار الفلسفية. وفي الأسر الجنوبية، تركز الجدل على موضوعين هما: اندثار الروح، والآخرة يوجد بها جزاء الكرما (العمل) أم لا. ويمكن أن نقول إن الكونفوشيوسية ترى تلاشي الروح تماماً، ولا يوجد جزاء في الآخرة، بينما تدعو البوذية إلى خلود الروح، ووجود جزاء الكرما في الآخرة. وكان فان تشين ممثل المعسكر الكونفوشيوسي في هذه المرحلة، وانطلق من موقفه اللاديني، وألف كتاب «روح

خالدة» فنّد فيه هراء البوذية تفنيداً منظماً، ويذكر التاريخ أنه حدثت مجادلات عنيفة في مرات عديدة بينه وبين الملك وو ورئيس الوزراء شياو تسي ليانغ في مملكة ليانغ وغيرهما من معتنقي البوذية، وشن فيها هجوماً مشتركاً ضد الرهبان ورجال الدين الذين وصفوه بأنه «مجادل حاذق ومفوه، يستطيع أن يقنع ألف شخص في اليوم». وذلك ليس بسبب أنه يمتلك مهارات فائقة في النقاش والمجادلة، بل لأن كلماته تنطق بالحقيقة، وفي ذات مرة، دعا رئيس الوزراء الرهبان لإجراء مناقشة معه في جزاء الكرما، وسأله: إذا كنت لا تؤمن بجزاء الكرما، فكيف تميز بين الفقراء والأغنياء، وبين الوضعاء والنبلاء؛ فأجاب قائلاً: الإنسان يعيش في الدنيا مثل الأزهار فوق شجرة، عندما تهب الريح يسقط بعضها على حصيرة، بينما يسقط البعض الآخر في حفرة البراز، أيوجد هنا ما يسمى بجزاء الكرما؟ وأدرك رئيس الوزراء أنه لا يستطيع مجادلته ونقاشه، واضطر بصفته مسؤولاً رفيع المستوى إلى أن يقنعه بالتخلي عن مناوأة البوذية.

وفي أسرتي سوى وتانغ، انتشرت البوذية انتشاراً واسعاً، مما سبب أضراراً فادحة كانت الأكثر وضوحاً في اقتصاد المجتمع وحياة الشعب. وانبرى لفيف من المثقفين بمناهضة البوذية تباعاً انطلاقاً من حماية التقاليد الكونفوشيوسية أو انطلاقاً من حماية استقرار السلطة السياسية الإقطاعية. ومثال ذلك، رئيس الوزراء فويي في أسرة تانغ أصدر أوامره بإلغاء البوذية في مرات كثيرة، لأنه كان يعتقد أن البوذية «لا تقدم الولاء والإخلاص للحكام، ولا تعرف البر بالوالدين، وحليقو الرأس يحيون الملك بيدين مضمومتين (إشارة إلى عدم الاحترام الكبير)، ويتسكعون هنا وهناك طلباً للطعام، ويغيرون ثيابهم تهرباً من دفع الضرائب... ويتصدقون بالنزر اليسير، ويطالبون بمضاعفة الجزاء عشرات آلاف المرات، ويصومون يوماً واحداً ويطلبون طعام مائة يوم». كما قام بإعداد كتاب «سيرة النبلاء» جمع فيه الشخصيات المعارضة للبوذية منذ أسرتي وي وجين، وقدم فيه الهداية والعظة للأجيال المتعاقبة، ولكن من سوء الطالع كان نصيبه الضياع والفقدان فيما بعد.

وكان دورين جيه من الشخصيات المشهورة في أسرة تانغ المعارضة للبوذية. وكان رئيس الوزراء للإمبراطورة ووتسي تيان من الساسة ذوي الرؤى الثاقبة. وكانت هذه الإمبراطورة تؤيد الانتشار الواسع للبوذية، كما وصلت إلى سدة الحكم على أكتاف البوذية، وخصصت

الأموال الضخمة لصناعة تماثيل بوذا في لوايانغ، ولذا كتب إليها دورين يسدي إليها النصح قائلاً: «أن بناء المعابد اليوم يفوق نطاق القصر الإمبراطوري، ويتحلى بكل مظاهر الأبهة والعظمة، وتزخر جدرانه بالرسوم التي تنهك قوة العمال. وهذه الأعمال ليست من الشياطين، بل إن الرهبان استعبدوا الشعب، والسماء لا تمطر ذهباً، بل يجب التنقيب عنه في الأرض، ألم يلحق ذلك أضراراً بالسواد الأعظم من الشعب؟ كما أشار إلى أن إهدار البوذية لثروة المجتمع يمثل التهديد الأكبر للسلطة السياسية الإقطاعية. كما كان شين تيفو في أواسط أسرة تانغ معارضاً حازماً للبوذية، وأشار إلى أن البوذية: «تشق الأرض، وتشيد المعابد، وتقيم القصور، وتلحق الأضرار بالحياة، وتحدث صراعاً داخل أروقة الدولة وتسبب الأذى للإنسان، والقاعات الكبرى والممرات الكبرى تشعر بالفخر والأبهة. الرهبان يلحقون الضرر بالحياة دون رحمة أو شفقة، يؤذون الإنسان ولا يرحمون الأشياء، العظمة تملأ جوانحهم ولا يعرفون طهارة النفس والنقاء، فأين مشاعر وضمير هؤلاء القديسين والحكماء؟!» وتتشابه رؤاه مع نظيره دورين جيه، واعتقد أن البوذية تضر بالدين والسياسة، وعلى الرغم من حدة آرائهما لكنهما لم تحدث أثراً، بيد أن المظاهر التي أشارا إليها لا يمكن إنكارها بلا شك.

وكان هان يوي شخصية مرموقة معارضة للبوذية في أواسط أسرة تانغ، انطلاقاً من موقفه المؤازر للتقاليد الكونفوشيوسية. وكان يرى أن انتشار البوذية حطم «الطاو» لدى الكونفوشيوسيين، وتنسك رهبان البوذية أفسد «الخير» لدى المدرسة الكونفوشيوسية، ودعا إلى حرق كتب البوذية، ومصادرة الأديرة، وتفريق شمل الرهبان والحواريين، وإعادة تربيتهم وإعدادهم على أيدي الكونفوشيوسيين. وفي عام 819م، أقام الإمبراطور شيان رونغ في أسرة تانغ مراسم ضخمة لنقل عظام بودا من معبد فامين في محافظة فولونغ في مقاطعة شنشي (عُثر على هذه العظام في قصر أسفل باغودة هذا المعبد في عام 1987م) لتقديم القرابين لبوذا، ولكن هان يوي عارض الأفكار البوذية في كتاب «نرفض استقبال عظام بوذا»، دعا فيه أيضاً إلى قذف عظام بوذا وتماثيل بوذا في النهر والنار، واجتثاث جذور البوذية إلى الأبد، وأثار ذلك حفيظة الإمبراطور الذي كاد أن يفقد صوابه، وأمر أن يحط من مكانته إلى حاكم إقطاعي لإقليم تشو. وفي أسرة تانغ، كانت العلاقات بين كبار المسؤولين والرهبان عادة شائعة، وأهدى العديد من الشعراء قصائدهم للرهبان ووصفوهم بأنهم «الإنسان الأعلى» تعبيراً عن

احترامهم وإعجابهم، ويستثنى من ذلك الأديب هان يوي الذي أهدى رباعيات للرهبان كانت كلها تشجب الزيف في البوذية، ومثال ذلك رباعيته «إهداء ترجمة بوذية للرهبان» جاء فيها: «لا تقل من أين أتت البوذية، ولا تقل من اخترق دروب الصحراء من الرهبان، لا توجد سوى الصين التي تنعم بالازدهار، فلا داعي أن تحدث القلاقل والزعازع!» ويوضح ذلك أن فكر هان يوي لا يقبل المصالحة أو التوفيق مع البوذية.

ولكن، يجب أن نعرف أنه كانت هناك قوة أخرى نطلق عليها «البوذية المدمجة» التي تزامنت مع تيار مناوأة البوذية، وكانت عبارة عن الاندماج المتبادل بين القوة الأساسية في الكونفوشيوسية والبوذية من جهة، وبين الطاوية والبوذية من جهة أخرى. وكان هذا التيار الفكري واضحاً وجلياً في أسرتي وي وجين، ويرى إمكانية التوفيق والانسجام بين «الوصايا الخمس» في البوذية، و«المكارم الأزلية الخمس (البر، الاستقامة، الأدب، الحكمة، الإخلاص)» في الكونفوشيوسية، بينما كان يرى البعض صهر الأديان الثلاثة في بوتقة واحدة. وورث الباحثون في الأجيال اللاحقة هذه الأفكار وطورها حتى بلغت الذروة في أسرة سونغ. وعلى سبيل المثال، كان تشانغ شان ينغ في أسرة سونغ يرى أن الكونفوشيوسية تشفي أمراض الوجه، والطاوية دواء للأوعية الدموية، والبوذية تشفي داء العظام، والوشائج بين الأديان الثلاثة يمكن أن تكون علاجاً لأصل الداء. إن بقاء البوذية وتطورها يتوافقان ويتواءمان كثيراً مع احتياجات الصينيين وتقاليدهم مثل الدعوى إلى نشر «أعلى درجات البر بالوالدين» لدى ساكياموني، والسماح بالتنسك دون حلق شعر الرأس، وعدم التقيد بالقواعد الدينية، وهذا ما يطلق عليه «الناسك في بيته»، ونشر فكرة مفادها أن مبدأ البوذية يتغلغل في سويداء القلب وأيد ذلك مذهب تشان (الخلوة البوذية). وبعد نشأة الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية وانتشار مذهب تشان البوذي في أسرة سونغ، يمكن أن نقول إن عملية تصيين البوذية قد بلغت نهايتها، وبالتالي أصاب الوهن والضعف الأفكار المناهضة للبوذية بعد زوال أسرة سونغ.

وشهد التاريخ أربع حوادث كبرى لوأد شأفة البوذية بصورة أساسية، وقعت في أسرة وي الشمالية (386– 534) في عهد الملك تاي وو، وفي أسرة تشو الشمالية (557– 581) في عهد الملك وو، وفي أسرة تانغ في عهد الإمبراطور وو زونغ، وفي عصر الملك تشاي رونغ

في أسرة تشو الأخيرة (951– 960). والأسباب المباشرة للقضاء على البوذية في هذه الحوادث الأربع متباينة، بيد أنها تعد انعكاساً للصراع بين الثقافتين الصينية والأجنبية، وتعبيراً عن المعارضة والصراع بين الأديان الثلاثة. والسبب الرئيسي الذي دفع الإمبراطور تاي وو في اسرة وي للقضاء على البوذية هو رغبته في اظهر «حبه وولاءه للسكان الأصليين لقومية هان، وكراهيته ونبذه للأجنبي (البوذية)»، ويبدي للعيان أيضاً أن السلطة السياسية في أسرة وي الشمالية ورثت شرعية الإمبراطور فوشي، وإله الزراعة والإمبراطور الأصفر، واعتقد أن البوذية تُعد «شيئاً زائفاً عبر التاريخ» و«ألحقت الأضرار بالأجيال المتعاقبة»، وبفضل تشجيع مريدي الكونفوشيوسيين ويمثلهم تسوي هاو، ومريدو الطاوية وعلى رأسهم كاوتشاين. ولذا، صدرت الأوامر بحرق البوذية في عام 446م، والمطالبة بـ «التخلص من الزائد، وتثبيت أقدام الحقيقة، واستعادة حكم فوشي وإله الزراعة»، كما صدرت الأوامر بتحطيم التماثيل البوذية وحرق الكتب البوذية، ودفن جميع الرهبان أحياء تباعاً. وكان ولي العهد آنذاك من معتنقي البوذية الورعين، وقام بتسريب أوامر والده سراً، وطلب من الرهبان والراهبات الانزواء والاختفاء، ومواراة التماثيل والكتب والوثائق البوذية في مكان سرى. ثم ما لبث أن بُعثت البوذية من جديد إبان وفاة الإمبراطور. وكان الإمبراطور وو دي في أسرة تشو الشمالية لديه السبب نفسه للتخلص من البوذية، فقد كان يعتقد أن «البوذية غريبة آتية من المناطق الغربية، ولا يحبذ أن يكون ملكاً عليها»، ولا توجد ثمة ضرورة لاحترام البوذية وتقديرها، واستدعى كبار موظفيه والطاويين والرهبان تسع مرات لمناقشة ترتيب هذه الأديان الثلاثة، وقرر أن الكونفوشيوسية الأكثر احتراماً وتبجيلاً. وفي عام 574 صدرت الأوامر بحظر الديانتين البوذية والطاوية. وأوجه الاختلاف بين هذين الإمبراطورين في أن تاي وو يعبد الطاوية، والقضاء على البوذية يؤازر الطاوية ويوطد مكانتها، بينما الإمبراطور وو دي يقدس الكونفوشيوسية، والتخلص من البوذية يحظر تقديم القرابين حتى للطاوية. وفي أسرة تانغ، وبعد حقبة «اضطرابات آنشي»، استشرى الفساد السياسي، وتفتتت أواصر البلاد إلى ولايات ومحافظات، وتدهورت الأحوال الاقتصادية أكثر فأكثر، وتفاقمت حدة التناقضات الاجتماعية، وزادت حدة آلام الشعب وصعوباته. وشهدت البوذية تطوراً كبيراً في ظل هذه الأحوال المتردية، حيث اتسع نطاق الأديرة، وزاد عدد الرهبان والراهبات وأثر ذلك على

ريع الضرائب في البلاد والخدمة العسكرية الإلزامية، وزادت التناقضات بشكل أكبر بين السلطة السياسية في الدولة والبوذية. ويعد ذلك بمثابة السبب الرئيسي في ضلوع الإمبراطور وو زونغ في أسرة تانغ، وأسرة تشو الأخيرة بتدمير البوذية. وجاء في المرسوم الإمبراطوري الخاص بحرق البوذية الصادر في عام 845 م: «تغص العاصمتان الشرقية والغربية وكافة أنحاء البلاد بمريدي البوذية الذين يزداد عددهم زيادة هائلة، كما تعاظم نطاق الأديرة، مما أدى إلى استنزاف القوة العاملة في تشييدها، واغتصاب قوة الشعب واستغلالها في التزيين ... وفلاح واحد لا يزرع أرضه، يعني أن هناك فرداً يتضور جوعاً، وإذا لم تغزل المرأة. يعني أن هناك شخصاً يئن من البرد القارس. واليوم أعداد الرهبان والراهبات لا يحصى، وجميعهم يعتمدون على المزارعين في الحصول على طعامهم، كما يعولون كثيراً على مربي دودة القز للحصول على الملابس». ولذا، صدرت الأوامر بحرق أكثر من أربعة آلاف وستمائة معبد، وعودة أكثر من مائتين وستين ألفاً من الرهبان والراهبات إلى العلمانية، ومصادرة حقول إنتاج حبوب مساحتها عشرات الآلاف من تشينغ (وحدة مساحة صينية تعادل 6,6667 هكتارات). كما تم حرق ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستة وثلاثين معبداً مرة واحدة في عام 955م في أسرة تشو الأخيرة، وأُستخدم نحاس المعابد المحترقة في صك النقود. ولكن، كانت البوذية في الصين آنذاك تتمتع بأحوال البقاء والتطور من تلقاء نفسها، فالبوذية في حد ذاتها تتسلح بالوسائل العديدة لحماية نفسها، ولذلك كان تدميرها في المرات الأربع السابقة مجرد خدش في وجهها الخارجي، دون المساس بداخلها، وكان تدميرها ظاهرياً وليس جوهرياً، ولاسيما في المرتين الأخيرتين كان تدمير المعابد عبارة عن دمجها وتصغير مساحتها، وليس تدميرها تدميرا كاملاً، ولذلك كانت البوذية تستعيد مجدها التليد في أعقاب كل مرة تتعرض فيها للتخريب. وعلى سبيل المثال، كان قرار الإمبراطور تاي وو دي في أسرة وي بحرق البوذية بدافع من تسوي هاو. وبعد انقضاء أربع سنوات من هذا القرار، أمر الإمبراطور ذاته بحرق عشيرة تسوي هاو لأنها أثارت حفيظته، كما تعرض للقتل أكثر من مائتي شخص لضلوعهم في تبعية الجريمة. وبعد ذلك، أُغتيل ولي العهد أيضاً. والأدهى من ذلك، أن الإمبراطور أُغتيل أيضاً على أيدي كبار موظفيه في قصره بعد فترة قصيرة. والأحداث الدموية المتتالية والمتعاقبة جعلت الناس يعتقدون أن اغتيال الإمبراطور كان عقاباً له، لأنه أمر بتدمير البوذية، ولذا

أمر خلفه ون تشين وي فور اعتلائه العرش بإحياء البوذية من جديد والتي تطورت بصورة مضطردة حتى أسرة وي الشمالية، وكان تشييد الكهوف الحجرية في داتونغ بمقاطعة شانشي في ظل هذه الأحوال. كما أن كتاب «تاريخ الأديرة في لوايانغ» يجسد مرحلة الازدهار الهائل التي بلغتها البوذية في هذه الأسرة.

خامسا: الديانة البوذية والثقافة الصينية

إن انتشار البوذية في الصين أفسد أفكار الناس حقاً، واستنزف الثروات الاجتماعية، ومن ثم عرقل التقدم الاجتماعي والتطور التاريخي وترك أثراً سلبياً في المجتمع. وهذه حقيقة تؤيدها القرائن التاريخية. ولكن يجب أن ندرك أن انتشار البوذية أثر في الثقافة الصينية أيضاً. واندمج الفكر الفلسفي والبوذي والشكل الفني البوذي في التقاليد الصينية، وشكل ذلك الثقافة البوذية الصينية التي تختلف عن الثقافة البوذية الهندية، وأثرى بشكل أكبر الثقافة الصينية قلباً وقالباً. وهذه حقيقة تاريخية أيضاً يجب أن يعرفها الجميع. والمهمة التي نضطلع بها اليوم هي بحث واجمال وحماية الثقافة البوذية التي تشكلت ملامحها، وبذل الجهود المضنية لاحتواء تأثيرها السلبي، حتى نجعل بقاءها يتوافق بأقصى حد ممكن مع بناء الثقافة المادية الاشتراكية والحضارة الفكرية.

(1) **الديانة البوذية وتاريخ الفلسفة الصينية:** إن تاريخ الفلسفة الصينية بعد نشأته هو في حد ذاته تاريخ صراع متداخل بين المادية والمثالية واللادينية والدينية. ولكن بعد قدوم البوذية إلى الصين، تشكلت نظرية المعرفة في البوذية والثقافة الصينية والصراع الفكري بينهما، وأدى ذلك إلى ظهور وضع مختلط ومتشابك ومعقد. والنقطة المحورية في الفلسفة البوذية تنكر وجود العالم الحقيقي الموضوعي، وتحاول أن تتصور وجود «عالم السعادة القصوى الغربي، ليكون نقيضاً للعالم الواقعي. وقدمت جميع المذاهب البوذية البراهين على زيف العالم الموضوعي من منظور زوايا متباينة ودلائل مختلفة. وفي الوقت نفسه، أثبتت بكل الوسائل المتاحة أن العالم الفكري الذاتي مطلق، ولذا تنتمي الفلسفة البوذية إلى النظام الفكري المثالي. ولكن مذهب تشان البوذي يدعو إلى أن «البوذية تعتمل داخل كل نفس، ولا تبحث عنها خارج الجسد»، مما ينكر بشكل أكبر «عالم السعادة القصوى الغربي». الذي تحاول أن تتخيله البوذية التي

أقرت فقط الوجود المطلق للعالم الفكري الذاتي. وعلى هذا النحو، غيَّر هذا المذهب المثالية الموضوعية في الفلسفة البوذية إلى مثالية ذاتية. وفي خضم هذه الفلسفة، شهدت الأديان الثلاثة الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية التنافر المتبادل، والتأثير المتبادل، وكذلك الصراع المتبادل والاستيعاب المتبادل، وشكلت هذه الأديان التكامل في النظام الفكري المثالي، وامتص الفكر المثالي غذاءه من الفلسفة البوذية منذ أسرة سونغ تقريباً. والفلسفة المثالية الكونفوشيوسية لدى جو- تشنغ اقتبست بعض أفكار مذهب هوايان البوذي، كما أن فلسفة العقل لدى لو- وانغ تمثلت بعض أفكار مذهب تشان البوذي. ولكن شهدت اللادينية والفكر المادي النمو المستمر والتطور في خضم صراع انتقاد الفلسفة البوذية، وبلغا مستوى عالياً من التطور على يد وانغ فوجي الذي كان معاصراً للفترة بين أسرتي مينغ وتشنغ. ونذكر في هذا المقام، أن تاريخ الفلسفة الصينية ما بعد أسرتي هان وتانغ لا ينأى بصورة أساسية عن تاريخ الفكري البوذي، كما أصبح جزءاً مهماً من تاريخ الفلسفة الصينية أيضاً.

(2) **الديانة البوذية والأدب الصيني**: كان تأثير الأدب الصيني واضحاً وجلياً. ففي المقام الأول، من حيث الموضوع الأدبي هناك العديد من القصائد التي لا تحصى التي وصفت البوذية عبر التاريخ. وقصائد الشعر في أسرة تانغ كلها، قد تم جمع زهاء خمسين ألف قصيدة في هذه الأسرة، عُشرها تقريباً له علاقة بالبوذية. وقد أشادت هذه القصائد بمناظر الأديرة، وامتدحت عادات الرهبان وصداقتهم، وبعضها تم نظمه في غاية الدقة والجمال ويفيض بالقوة والحيوية. ومنذ أسرتي تانغ وسونغ، يتمتع الرهبان المشهورون بمكانة مرموقة في المجتمع، وأقام لهم الأدباء الأنصاب التذكارية لتسجيل مآثرهم، وتركوا العديد من الأعمال النثرية التي تزخر بالمبادئ البوذية. ثانياً: الأسلوب الفني. نظراً لأن البودية تسعى وراء الخلاص الذاتي وتدعو إلى اعتزال العالم، وحتى مذهب تشان يروج للبحث عن البوذية في أعماق القلب، مما جعل ذلك الأوساط الأدبية تكوّن مذهباً فنياً خفيف الظل منذ زمن بعيد، وتبحث في علم الجمال عن «الأسلوب الطريف خارج السحر والجاذبية» و«المعنى الضمني». وكان الشاعران وانغ وي، وي فينغ وو في أسرة تانغ يقدران كثيراً البوذية الأكثر انتشاراً، وكان تجسيد هذا الأسلوب الأكثر شهرة. وحتى أدباء المذاهب الأخرى، تأثروا بدرجات متفاوتة بالفكر البوذي في وجهة نظرهم تجاه العالم وفي الممارسة العملية للإبداع الأدبي، ومثال

ذلك الشاعر باي جيوي يي في أسرة تانغ، وشي في أسرة سونغ. ثالثاً: نظرية الشعر التي تدعو إلى «دراسة الشعر». من خلال مذهب تشان» منذ أسرتي تانغ وسونغ، وتحرص أن يتحلى الإبداع الشعري بـ «الترفع عن الشؤون الدنيوية، و«الإيمان الفني الغامض»، انطلاقاً من الاعتقاد بأن «شرح مذهب تشان مثل قرض الشعر، لا يوجد اختلاف بينهما». وحتى الشاعر تشانغ لوتشينغ في أسرة سونغ يقول في شعره: «دراسة الشعر مثل دراسة مذهب تشان، وتكمن قيمتهما في كشف غموض الأشياء الجميلة. تجول في الخارج وفكر ملياً بعمق، وتستطيع أن ترى كافة الموجودات، تنتشر السحب في الجبال، وتحاشَ أشعة الشمس عندما تنظر إلى السماء، وتأمل أركان الكون وأنت مبتهج ومنشرح الصدر، تر الإشراق المتألق والضياء اللامع، وإذا أردت أن تعبر عن ذلك، لا يوجد سوى الشعر يحقق رغبتك». وتتدفق مثل هذه الآراء مثل تيار الماء بلا انقطاع. وأخيراً، كتائب الإبداع الأدبي، حيث شهد تاريخ الأدب الصيني كوكبة من الشعراء الرهبان، وتطلق عليهم كتب التاريخ لقب «رهبان الشعر»، ومن أشهرهم في أسرة تانغ: خان شان، جيا روان، تشي جي، قوان شيوه، الذين خلفوا وراءهم دواوين من الشعر للأجيال اللاحقة. كما عرفت أسرة سونغ بعض هؤلاء الشعراء مثل: تشونغ شيان، ون نينغ، زوكهه، هوي هونغ، حتى في أسرة تشينغ، كان هناك الشاعر باتشي توتوا، وفي العصر الحديث الشاعر صومان شو، ويتبوأ هؤلاء الشعراء مكانة مميزة في تاريخ الأدب الصيني.

(3) **البوذية والفن:** إن الرسم والنقش – على وجه الخصوص – هما الأقدر على إبراز تأثير البوذية في الفن. وعندما دخلت البوذية إلى الصين، اقتفى أثرها فن الكهوف الحجرية في الهند وفي المناطق الغربية. ويعرف الناس أن الفن البوذي الهندي في العصر القديم تبلورت ملامحه بصورة أساسية في الرسوم الجدارية والطقوس الجدارية داخل الكهوف الحجرية، ويتجسد فن الكهوف الحجرية في منطقة بيشاور الباكستانية، وهضبة داخان في الهند، ويعود تاريخه إلى الفترة من القرن الثالث إلى القرن الأول قبل الميلاد. وتشتهر الكهوف الحجرية في باكستان بالنقوش، أما نظيرتها في الهند تشتهر بالرسوم الجدارية. وحذا فن الكهوف الحجرية في الصين حذوهما، وتطور هذا الفن ومظاهر تأثيره ويبدو واضحاً في «طريق الحرير» الذي نتذكّره دائماً. وشهدت منطقة شينجيانغ هذا الفن كما في كهفي ألف

بوذا في محافظتي باي تشينغ، وكوتشيه. وقد بدأ عصر الصخور منذ زمن بعيد في الهضبة الوسطى بالصين، ويتماثل أسلوبه الفني مع نظيره في منطقة بيشاور الباكستانية. ولكن نقوش الكهوف الحجرية في هذه الهضبة استوعبت تدريجياً أسلوب الفن الصيني واندمج فيه، كما أن نقوش الصور تقلد صور الصينيين، وتحتفظ طبعاً ببعض سمات فن النقش الهندي. ويظهر ذلك في جميع الأديرة الكبرى، التي تشمل ثماني عشرة من الأرهات Arhats (الكاهن البوذي). وخمسمائة صورة لهؤلاء الأرهات تتنوع بين صور الصينيين وصور الهنود. أما بخصوص الرسوم الجدارية، فقد تطورت هذه الرسوم الدينية وموضوعها البوذية تطوراً هائلاً بعد انتشار البوذية، وظهر رسامون مثل الرسام الديني الشهير وو داوتشي وغيره. أما فيما يتعلق بطرائق التعبير، فقد تغلغلت حياة التنسك لمؤسسي البوذية ساكياموني في الباغودات والبنايات التقليدية في الصين، وجعلت مشاعر وأحاسيس الصينيين أكثر قرباً ومودة.

(4) الديانة البوذية واللغة الصينية: انتشار البوذية جعل العديد من الكلمات البوذية، والاقتباسات البوذية، وأقوال الرهبان تتغلغل في الحياة الاجتماعية وفقدت معناها البوذي الأصلي، واتسمت بالمغزى الاجتماعي وأصبحت بمنزلة الأمثال، والأقوال المأثورة، والحِكم والأقوال المألوفة التي يستعملها الناس دائماً. فعلى سبيل المثال، مقولة «لا تشوبه ذرة من غبار» في اللغة البوذية تشير إلى «المطهرات الستة» وهي: اللون، والصوت، والرائحة، والطعم واللمس والمذهب البوذي» التي تتحلى بالمقدرة على إزالة كافة الأفكار المشوشة والهواجس عندما يقوم المرء بالتنسك، وبعد أن أصبحت هذه المقولة من اللغة الاجتماعية بات معناها «الواضح الجلي النقي». وكذلك المقولة البوذية «أحنى رأسه إعجاباً وتقديراً» تشير إلى أسلوب التحية في البوذية، إشارة إلى أن الركبتين والمنكبين والجبهة تلامس الأرض. وأيضاً يقولون في البوذية «ضربة تعيد الشخص إلى صوابه» إشارة إلى طريقة عبادة المُعلم في المذهب الفرعي لينجي (في مقاطعة خبي اليوم) التابع للمذهب البوذي تشان. ولكن أصبح معنى هذه المقولة «التحذير، الإنذار» في الوقت الحاضر. ومؤسس هذا المذهب الفرعي هو يي شوان، وعندما كان يعبد المُعلم سأله أن يعلمه مبادئ البوذية، وسأله المُعلم ثلاث مرات وضربه أيضاً ثلاث مرات، ثم ضربه بقوة حتى نهض من غفوته، ثم أصبح بوذيا على هذا المنوال، والذين يتعلمون مذهب تشان يُضربون دائماً على رؤوسهم أو يصيحون صيحة

صاخبة ويجيبون عن الأسئلة فوراً لمعرفة مدى استيعابهم للمبادئ البوذية. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أيضاً «بحر الآلام بلا شطآن، وانظر خلفك تجد بر الأمان»، و«إنزال سكين القتل، وثبت أقدامك في الأرض وكن بوذياً»، و«كلام منطقي واضح»، و«قلوب موحدة المشاعر»، و«القوانين والمحرمات البوذية»، و«هدهدته الأوهام»، و«يشرح استناداً إلى تجاربه الشخصية»، و« أشرقت الحقيقة أمامه فجأة»، و«بلغ السيل الزبى»، و«غفور رحيم» وغيرها كثير من الأقوال التي انبثقت من الكتب الدينية البوذية، واللغة البوذية والقصص البوذية. إن اللغة التي تطورت من الحياة البوذية نجدها في العديد من الأقوال مثل: «الراهب تشينأر لا يلمس رأسه»، و«عندما يرفع الراهب الشمسية لا يوجد شعر ولا سماء»، و«الراهب لا يستطيع الهرب من الدير»، و«المعبد صغير وبوذا كبير»، و«لا تحرق البخور مادمت لا ترى بوذا الحقيقي»، و«تحتضن أقدام بوذا مؤقتاً»، وغيرها.

سادساً: الآثار البوذية والمواقع البوذية التاريخية المشهورة

تدعو البوذية إلى الرهبنة واعتزال العالم، ولذلك كان بناء معظم الأديرة في جوف الجبال والغابات حيث الهدوء والطمأنينة، وأدى ذلك إلى تكوين «الجبال المشهورة في الصين التي يقطنها الرهبان». ومنذ عدة سنوات خلت، أنفق الناس من كافة الأوساط الاجتماعية أموالاً ضخمة تلبية لاحتياجات اعتناق البوذية، والصلاة لبوذا، وتبجيل بوذا، وحماية بوذا، وشيدت القوة البشرية الكهوف الحجرية، والتماثيل البوذية، والباغودات البوذية والأديرة البوذية التي لا يحصى عددها، وخلفت العديد من الآثار البوذية والمواقع البوذية التاريخية المشهورة ذات القيمة التاريخية العالية، ونجملها في السطور التالية:

(1) **الجبال البوذية الأربعة الضخمة المشهورة:** وتشمل كلاً من جبل ووتاي في مقاطعة شانشي، وجبل غمي في مقاطعة سيتشوان، وجبل جيوي هوا في مقاطعة آنهوي، وجبل بوتوه في مقاطعة تشجيانغ. وكيف تكونت هذه الجبال الأربعة المشهورة؟ والبوذية في الصين تنتمي إلى بوذية العجلة الكبرى (الماهايانا) التي تبجل وتقدس الأربعة العظام بوذا وهم: ونجو، بوشيان، دي زانغ، قوانين. وما يطلق عليه بوذا يشير إلى الناسك المتعبد الذي يستطيع أن يفيد كل المخلوقات الحية ويمكن أن يكون بوذياً في المستقبل، ولكن معتنقي البوذية يعتبرونه —في

الواقع- يقدم القربان للبوذية. وتعتقد بوذية العجلة الكبرى أن ونجو بوذا يتحلى بـ «الذكاء العظيم»، وبوشيان بوذا بـ «الكفاءة العظيمة»، ودي زانغ بوذا بـ «الآمال العظيمة»، وقوانين بـ «الرحمة الكبرى». وتحكي الرواية أن استحضار أرواحهم كان في أربعة أماكن متفرقة داخل الصين، ومن ثم، تشكلت الجبال البوذية الأربعة الضخمة المشهورة. وقد قيل إن الطقوس الدينية لاستحضار روح ونجو بوذا كانت تقام في جبل ووتاي، وفي أسرة هان الشرقية بدأ تشييد الأديرة في الجبل، وفي الأسرة الجنوبية والشمالية، كان يضم الجبل أكثر من مائتي دير، زاد عددها إلى أكثر من ثلاثمائة وستين ديراً في أسرتي سوي وتانغ، وتضاءل عددها بعد أسرة سونغ، وظهرت الديانة اللامية بعد أسرتي يوان ومينغ، وكان يوجد مائة واثنان وعشرون ديراً في أسرة تشينغ، ويبقى الأن منها تسعة وأربعون ديراً فقط. وتختلف أحجام هذه الأديرة، ولكن جميعها يوجد بها «قاعة ونجو» المتخصصة لتقديم قربان ونجو بوذا. وأعلى تمثال في الجبل لونجو بوذا يعتلي ظهر الأسد ويبلغ ارتفاعه تسعة أمتار. وكان يانغ وو ليانغ يترهبن في جبل يوانتاي بينغ شينغ. وكان الإمبراطور كانغ شي في أسرة تانغ، والإمبراطور تشيان لونغ في أسرة تشينغ يقيمان في دينغ بوذا يعبدان البوذية هناك، وتحكي الروايات أن جبل غميي شهد الطقوس الدينية لاستحضار روح بوشيان بوذا، وبلغ عدد الأديرة التي شُيدت عبر العصور أكثر من مائتي، يبقى منها الآن أكثر من عشرة. ويحوي الجبل التمثال البرونزي لبوشيان بوذا يعتلي ظهر الفيل ويبلغ ارتفاعه أكثر من سبعة أمتار، ووزنه واحد وثلاثون ألف كيلو جراماً، ويعد من مخلفات أسرة سونغ. وهناك ثمة علاقة تربط بين شكل طقوس البوذية في جبل جيو هواي والكوريين، فقد ذكرت سجلات تاريخية أن ملك كوريا جين تشياو جيوي زار الصين في عهد الإمبراطور قاو زونغ في أسرة تانغ لعبادة البوذية، وترهبن في هذا الجبل، وعاش حتى سن التاسعة والتسعين عاماً ومات وهو جالس القرفصاء، ولم تتعفن جثته وبدت ملامحها تشبه دي زانغ بوذا، واعتقد الناس أنها روح دي زانغ، ولذا دفنوا هذه الجثة في باغودة وقدموا لها القربان. وزاد عدد الأديرة في جبل جيو هواي أكثر فأكثر في العصور اللاحقة، وعندما بلغت الذروة كان عددها أكثر من مائتي دير، وتقام طقوس تقديم القربان لجثة الملك الكوري المذكور أعلاه في «قصر الجثة اللؤلؤة» في الجبل. كما توجد علاقة بين جبل بوتوه واليابانيين فقد قيل إنه بعد الأسر الخمس وفي عصر مملكة ليانغ (502- 557)، زار

الراهب الياباني هوي خه الأماكن الدينية في جبل روتاي، وحصل على تمثال قوانين، وركب السفينة في الجنوب عائداً إلى بلاده، ولكن جابه العواصف العاتية والأمواج المتلاطمة على مقربة من جبل بوتوه اليوم، ولاحت أمام عينيه جميع الأشياء في قاع البحر، ولم تجرؤ السفينة على المضي قدماً إلى الأمام، واعتقد هذا الراهب أن روح قوانين تأبى الرحيل، فرست السفينة على الشاطئ وشيدت في الجزيرة «معبد قوانين الذي يأبى الرحيل»؛ لأن الكتب البوذية ذكرت أن قوانين بوذا يقطن في بوتوه. وبدأ بناء الأديرة على نطاق واسع في أسرة سونغ، وبلغ عدد الأديرة الكبيرة ثلاثة، والصوامع ثمان وثمانين وغيرها من الأديرة الصغيرة الأخرى في أواخر أسرة تشينغ. ويقدم القربان لتماثيل قوانين داخل هذه الأديرة، وأعلى تمثال يبلغ ارتفاعه أكثر من ثمانية أمتار.

(2) **الأديرة الأربعة البوذية الكبرى:** وتشمل دير لينغيان في مقاطعة شاندونغ، ودير قوي تشينغ في مقاطعة تشجيانغ، ودير باوتشوان في مقاطعة خوبي، ودير تشيشيا في مدينة نانكين. وما يطلق عليه «تشيان لين» هي الأديرة البوذية الضخمة. وتم بناء هذه الأديرة الأربعة الكبرى في عصر أسرتي سوي وتانغ، وعكست ذروة الانتشار والازدهار للبوذية في ذلك الحين، وحافظت الأسر سونغ ويوان ومينغ وتشينغ على النطاق الواسع للأديرة، ومثال ذلك دير باوتشوان في أسرة سونغ يتبوأ مكاناً دائرياً بطول خمسة كيلو مترات، ويضم تسع بنايات سامقة، وثماني عشرة قاعة كبرى، وأكثر من ثلاثة آلاف وسبع غرف لإقامة الرهبان.

(3) **الكهوف الحجرية الثلاثة الكبرى:** وتشمل أضخم الكهوف الحجرية وهي: يوان فينغ، دونغ هوانغ، لونغمين، وإذا أضفنا إليها الكهف الحجري في جبل مايجي، إذن، يكون لدينا الكهوف الحجرية الأربعة الكبرى. وقد بدأ بناء الكهوف الحجرية يوان فينغ في مقاطعة شانشي في أسرة وي الشمالية عام 460م، يوجد منها الآن ثلاثة وخمسون كهفاً، ويبلغ عدد التماثيل أكثر من خمسين ألف تمثال، معظمها تشبه ملامح بوذا الأعظم ويبلغ ارتفاع تمثاله أكثر من ثلاثة عشر متراً بصفة عامة، وأضخم تمثال موجود هناك في الكهف الخامس وهو تمثال لبوذا الجالس ارتفاعه سبعة عشر متراً. وبدأت كهوف لونغمين الحجرية في مدينة لوايانغ بمقاطعة خنان في أسرة وي الشمالية في عام 494م، وتماثيل بوذا الأعظم فيها قليلة. وذكر الأقدمون أن الكهوف تزخر بالأنصاب التذكارية والنقوش الجدارية والمتنوعة. ويوجد الآن

أكثر من ألفين ومائة كهف، أما التماثيل المختلفة الأحجام يبلغ عددها أكثر من مائة ألف تمثال. وقد بدأ حفر الكهوف الحجرية في دونغ هوانغ في مقاطعة قانصو في عام366م، وتعتبر من الكنوز الفنية الشاملة التي تتألف من الأبنية العالية والرسوم وفن النحت، وتبلغ مساحة الرسوم الجدارية أكثر من خمسة وأربعين ألف متر مربع، وتتراص هذه الرسوم على الجانبين بارتفاع مترين وتشكل ممراً بطول خمسة وعشرين كيلو متراً. وفي عام 1900م (يقول آخرون عام 1899) عُثر على كهف زانغ جينغ في الكهف الحجري السابع عشر، يحوي وثائق قيمة ومتعددة يرجع تاريخها من القرن الرابع إلى القرن العاشر الميلادي، بالإضافة إلى الآثار التي يتراوح عددها من خمسين ألفا إلى ستين ألفا، ويمثل ذلك معلومات قيمة للغاية في دراسة الثقافة الصينية، ولكن للأسف نهب الأجانب أكثر من ثلثي المنشورات البوذية اليتيمة في دونغ هوانغ. إن هذه الآثار التاريخية والكنوز الفنية في كهف زانغ أثارت شغف البحاث واهتمامهم الكبير في داخل الصين وخارجها، وكان ذلك إيذاناً بنشأة علم «دونغ هوانغ» الذي يحظى بشهرة واسعة في العالم.

(4) **التماثيل العشرة الضخمة لبوذا الكبير الجالس:** ويشير ذلك إلى تماثيل بوذا الكبير الحجرية التي تم نحتها بصورة مستقلة، وتتوسط الكهف الحجري ولا تحسب أنها في داخله، لأن هذه التماثيل تلاصق الجبل حيث يتم نحتها. ويوجد في الصين تماثيل ضخمة لبوذا الكبير الجالس ارتفاعها أكثر من عشرين متراً هي: (1) بوذا الكبير ليه شان في مقاطعة سيتشوان، ارتفاعه واحد وسبعون متراً، ويعتبر الأكبر في الصين، وتبلغ مساحة قاعدة القدم 19,92 متر، يمكن أن يجلس عليها مائة شخص ونيف، وكان حفره في أسرة تانغ واستغرق تسعين عاماً. (2) بوذا الكبير تايوان في مقاطعة شانشي، ارتفاعه حوالي ثلاثة وستين متراً، تحيط به أعمدة حجرية عددها مائة وستة وعشرون عموداً، منقوش عليها مذهب هوايان البوذي، بدأ حفره في عام 551م، واستغرق خمسة وعشرين عاماً، ويعتبر أقدم تمثال لبوذا الكبير المحفور في الصين، ولكن فقد شهرته بعد أن أصابه التلف الشديد جراء نمو الحشائش والنباتات على مقربة منه، ويشهد الآن تطوراً لاستعادة مجده، ولكن فقد رأسه. (3) بوذا الكبير قانقو في محافظة قانقو بمقاطعة قانصو، ارتفاعه ثمانية وثلاثين متراً، بدأ حفره في أسرتي تانغ وسونغ. (4) بوذا الكبير بينغ شان في مقاطعة سيتشوان، ارتفاعه سبعة وثلاثون متراً، وتاريخ حفره غير معروف. (5)

بوذا الكبير رونغ شيان في مقاطعة سيتشوان، ارتفاعه 36,67 متر، بدأ حفره في أسرة سونغ. (6) بوذا الكبير جون شيان في مقاطعة خنان، ارتفاعه سبعة وعشرون متراً، بدأ حفره في الأسر الجنوبية والشمالية. (7) بوذا الكبير تونغ شان في مدينة تشونغ تشينغ، ارتفاعه سبعة وعشرون متراً، بدأ حفره في أواخر أسرة سونغ. (8) بوذا الكبير بينشيان في مقاطعة شنشي، ارتفاعه أربعة وعشرون متراً، بدأ حفره في الأسر الجنوبية والشمالية، ويضطلع بحمايته قصر بوذي، ويستطيع الناس رؤية رأسه من مكانٍ قاص، وقدمه من مكان قريب. (9) بوذا الكبير شيمين في مدينة جيانغ جينغ في تشونغ تشينغ، ارتفاعه ثلاثة وعشرون متراً، بدأ حفره في أسرة مينغ. (10) بوذا الكبير تسي يانغ في مقاطعة سيتشوان، ارتفاعه واحد وعشرون متراً، بدأ حفره في أسرتي تانغ وسونغ، ويوضح ذلك أن مقاطعة سيتشوان وحدها تحوي ستة تماثيل من هذه التماثيل البالغ عددها عشرة.

(5) **التماثيل الأربعة الضخمة لبوذا النائم:** معظمها منحوت في الصخر، كما يوجد بعضها منحوت في خشب موتاي. التمثال الأول في جبل مالونغ في تشونغ تشينغ، يبلغ طوله الكلي أربعة وخمسين متراً، الجزء الظاهر طوله ستة وثلاثين متراً، والجزء الداخلي طوله ثمانية عشر متراً، بدأ حفره في عام 1930 تقريباً. والتمثال الثاني في مقاطعة قانصو، طوله 34,5 متر، منحوت في خشب موتاي، في عام 1098 في نظام شيا الغربية (1038– 1227)، ويقوم قصر بوذي بحمايته الآن. والتمثال الثالث في محافظة دازو بمدينة تشونغ تشينغ، طوله واحد وثلاثون متراً، منحوت في الصخر من الأعمال الفنية لأسرة سونغ. والتمثال الرابع في مقاطعة سيتشوان في محافظة آنيوي، طوله ثلاثة وعشرون متراً، منحوت في الصخر أيضاً، بدأت أعمال حفره متأخرة نسبياً في الجمهورية الصينية (1912– 1949).

(6) **التمثالان البوذيان الخشبيان الكبيران:** يتخذان شكل التمثال الواقف بصفة عامة. ويوجد تمثال بوذا الكبير الخشبي الضخم في معبد بونينغ في مقاطعة سيتشوان، ارتفاعه 22,23 متر، ويشتمل على ألف عين وألف يد على غرار تمثال قوانين (إلهة الرحمة)، مصنوع من أخشاب الصنوبر، والسرو، وزيزفون الصين، والدردار، والتنوب الصيني، ويعد أضخم تمثال خشبي لبوذا في الصين. والتمثال الثاني لبوذا الكبير يونغخه قونغ في مدينة بكين، ارتفاعه ثمانية عشر متراً (بالإضافة إلى ثمانية أمتار تحت الأرض). يشبه تمثال بوذا الواقف ميليه، مصنوع

من خشب الصندل الأبيض، اشتراه الدالاي الجيل السابع من نيبال، واستغرق نقله إلى بكين ثلاث سنوات، وانفق الإمبراطور تشيان لونغ في أسرة تشينغ تكاليف نحت التمثال التي بلغت ثمانين ألف ليانغ (ليانغ يساوي خمسين جراماً).

(7) التمثالان البوذيان البرونزيان الضخمان: التمثال الأول يمثل بوذا المستقبل في معبد تاشيلهونبو في منطقة التبت، ارتفاعه الكلي 26,2 متر، ارتفاع القاعدة 3,8 متر، ارتفاعه الصافي 22,4 متر، ومناكبه عريضة وفسيحة تتسع لسيارة ماركة التحرير، وأُستخدم في صبه أكثر من مائة وعشرة آلاف كيلو جرام من النحاس في الفترة من 1914 – 1916، ويعتبر أضخم تمثال بوذي برونزي في الصين. أما التمثال الثاني فهو تمثال بوذا البرونزي في معبد لونغ شينغ في مقاطعة خبي، يحتوي على ألف عين وألف يد على غرار تماثل إله الرحمة قوانين، ارتفاعه الكلي اثنان وعشرون متراً، وقاعدته صخرية ارتفاعها متران، وقد تم صب التمثال في أسرة سونغ في عام 971م، ويعتبر من أضخم التماثيل البوذية البرونزية.

(8) طباعة الكتب الدينية «دازانغ» في أسرة جين: هي عبارة عن سلسلة كتب ضخمة يتمحور موضوعها على الكتب الدينية البوذية المقدسة بصورة أساسية، وتشمل المؤلفات البوذية المشهورة في الصين والهند، وتُعد ثمرة تطور البوذية، وتجسيداً حيوياً للفكر البوذي وتاريخ البوذية، ولذلك تعتبر رمزاً للثقافة البوذية. وقد بدأت الصين طباعة هذه السلسلة بالحفر في أسرة سونغ، ولكن أقدم طبعة لهذه السلسلة تمت في مدينة تشينغدو بمقاطعة سيتشوان، ومن ثم يطلق عليها طبعة سيتشوان، ثم انتقلت بعد ذلك إلى اليابان وكوريا، ثم استمر ترجمتها بالحفر أيضاً إلى اللغة التبتية، واللغة المنغولية، واللغة اليابانية ولغة نظام شيا الغربية. ولكن تعد طباعة التفريغ Discharge Printing لهذه السلسلة في أسرة جين من عام 1148 – 1173 بمثابة الأقدم والأكثر اكتمالاً، وتتضمن أكثر من ستة آلاف وتسعمائة جزء من أقوال ومبادئ وكتب البوذية، وتحفظ الآن في معبد قوانغ شينغ في محافظة هونغ دونغ في مقاطعة شانشي، وتم العثور عليها في عام 1933.

(9) جبل النقوش الحجرية للكتب البوذية: يعتبر من الكنوز القومية، في معبد يون جيو في منطقة فانغشان بالعاصمة بكين، ويشتمل على النقوش الحجرية للكتب البوذية التي تحظى بشهرة عالمية، ولذا أُطلق عليها جبل النقوش الحجرية للكتب البوذية. وتذكر كتب تاريخية أن

هذه النقوش بدأها الراهب جينغ وان في أسرة سوى الذي تلقى درساً قاسياً من أحداث تدمير البوذية في أسرة وي الشمالية، ولذلك أقسم أن يستخدم النقش الحجري في تسجيل الكتب البوذية وحفظها إلى الأبد، وأصبح هذا النقش بمثابة الكهف الحجري المحفور بالقرب من معبد يوان جيو في فانغشا اليوم، ومنحوت على جدرانه الأربعة كتب بوذية ومحفوظة داخله. وقدم إمبراطور أسرة سوى آنذاك وكل الوزراء وكبار الموظفين أموالاً طائلة لدعم هذا العمل الديني، واستمر هذا الراهب في نقش الكتب البوذية على الصخور حتى أسرة تانغ، واضطلع مريدوه بهذا العمل بعد وفاته، ولكن توقف مؤقتاً في أواخر أسرة تانغ وفي الأسر الخمس، ثم استأنف العمل على نطاق واسع في أسرتي لياو وجين، حتى انتهى في عهد الإمبراطور كانغ شي في أسرة تشينغ واستغرق حوالي ألف سنة، وتم حفر أكثر من ألف جزء من الكتب البوذية على أكثر من خمسة عشر ألف قطعة حجرية محفوظة في تسعة كهوف حجرية وفي بعض المغارات، وأصاب العطب القليل منها، أما الجزء الأكبر فمازال يحفظ في حالة جيدة، ويعد من التراث الثقافي الأكثر قيمة في تاريخ البوذية الصينية.

(10) رُفات ساكياموني: تم اكتشافها في يونيو عام 1987 في قصر أسفل قاعة باغودة معبد قادمين في محافظة فوفينغ في مقاطعة شنشي، ويعد ذلك من أهم الاكتشافات البوذية في تاريخ البوذية في العالم، وما يطلق عليه إصبع بوذا وروحه وعظامه يشير إلى رُفات الجسد الحقيقي لمؤسس البوذية ساكياموني. وقد جاء في الديانة البوذية، أنه بعد موت ساكياموني، قام الإمبراطور آيوي الذي كان يؤمن بالبوذية، بتقطيع جثمانه إلى أربعة وثمانين ألف قطعة، ودُفن في أربعة وثمانين ألف مكان في كافة أنحاء العالم، ولذلك تم بناء أربعة وثمانين ألف باغودة. وقد قيل إن إصبع بوذا دُفن في معبد فامين. وقدم الأباطرة والملوك في أسرة تانغ قرابين كثيرة لرفات بوذا داخل المعبد، واعترض على ذلك الكاتب هان يوي وسلم الإمبراطور شيان زونغ مذكرة «نرفض استقبال عظام بوذا». وكان الأباطرة والمحظيات في أسرة مينغ يحرقون البخور داخل المعبد، ولذلك ظهرت الأوبرا التقليدية «معبد فامين». وذكر تاريخ المحافظة أنه عُثر على عظام بوذا عند فتح القصر الأرضي أسفل الباغودة عند ترميمها في أسرة مينغ. ولكن ماهية الأحوال الحقيقية مازالت تمثل لغزاً. وفي عام 1981، انهارت الباغودة الأصلية، وتقرر إعادة بنائها من جديد. وفي عام 1986، عند تطهير قاعدة الباغودة، عُثر داخل القصر

الأرضي على قطع من عظام بوذا، من بينها قطعة تحفظ في أربعة صناديق ثمينة التي تُصنع من تابوت داخلي يحيط به تابوت خارجي منقوش عليه كلمات: «احتراماً وتقديراً من الإمبراطور إلى الصناديق الأربعة الثمينة التي تحتضن عظام ساكياموني»، ويوضح ذلك أن هذه القطعة من عظام بوذا تعد جزءاً من جسد بوذا الحقيقي، أما القطع الأربع الأخرى فهي مقلدة وليست حقيقية، وفي الوقت نفسه، عُثر أيضاً داخل القصر الأرضي على عدد كبير من الأدوات المعدنية والمنتجات الحريرية التي يعود تاريخها إلى أسرة تانغ والتي كان يستخدمها البلاط الإمبراطوري، مما يثبت بالبراهين حقيقة اضطلاع الأباطرة والملوك في هذه الأسرة بتقديم القرابين لرُفات بوذا.

المبحث الثالث

الطاوية

أولاً: نشأة الطاوية والاعتقاد الديني الرئيسي

الطاوية ديانة نشأت وترعرعت في التربة الصينية، وجاءت نشأتها بصورة رسمية متأخرة عن البوذية، ولكن مصدرها موغل في القدم. وعلى الجملة، يكمن مصدر الطاوية في المجالات الآتية:

(1) **الديانة البدائية والسحر:** في المجتمع القديم في العصور الغابرة، كان الناس لا يستطيعون فهم تغيرات الأشياء الطبيعية والمظاهر المتقلبة بالإنسان من الحياة والموت والمرض والكهولة، واعتقدوا أن هناك قوة (قوة الإله) تتفوق على قوة الطبيعة وتضطلع بدور السيطرة والهيمنة على كل شيء، ومن ثم نشأت عبادة الطبيعة والأجداد الأولين، ثم كان تقديم القرابين والتضرع والابتهال طلباً للرعاية والعناية من قبل الشياطين والآلهة، وهذا ما يطلق عليه «السحر». والإنسان الذي يضطلع بأنشطة السحر يطلق عليه «الساحر»، وكان الناس يعتقدون في ذلك الحين أن الساحر يستطيع أن يؤسس العلاقة بين الإنسان والشياطين والآلهة، والاعتماد على السحر جعلهم يتضرعون ويبتهلون طلبا للسعادة ومكافحة الكوارث. وورثت الطاوية هذا السحر واستوعبته.

(2) **نشأة «إكسير الحياة» في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة:** يعتبر «إكسير الحياة» نوعاً من الفن الغريب يبشر بالعمر المديد دون كهولة، ويدعو إلى جمع الأعشاب واستخلاص إكسير الحياة في محاولة أن يتحلى الإنسان بالروح الخالدة، ويطلق على ذلك «فن الروح الخالدة». كما يُطلق على الذين يتقنون هذا الفن ويعشقون الآلهة والشياطين «صناع إكسير الحياة». وانتشر «إكسير الحياة» انتشاراً واسعاً بعد فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة، وكان الإمبراطور الأول في أسرة تشين والإمبراطور هان وو دي في أسرة هان يؤمنان بالخرافات والخزعبلات، وبعثا أناساً يبحثون عن جبل الجن في البحر، ويتضرعون ويتوسلون هناك طلباً للعمر المديد والشباب الدائم. وكان إكسير الحياة والإيمان بالآلهة والجن من المصادر المهمة للديانة الطاوية.

(3) مذهب الين (السالب) واليانغ (الموجب) والعناصر الخمسة (المعدن، الماء، النار، التراب، الخشب): انتشرت أفكار الين واليانغ والعناصر الخمسة انتشاراً واسع النطاق في الفترة بين أسرتي تشين وهان، وكان صاحب هذه الأفكار زويان معاصراً لعصر الممالك المتحاربة، وتأثرت به الطاوية والكونفوشيوسية وصناع إكسير الحياة (الخلود). وقد تجسد ذلك في كتابي «تاريخ الطقوس» و«ليوي شي – فترة الربيع والخريف»، وفي الكتب الدينية الطاوية، حتى أصبح أساس النظرية المهمة لعلم إكسير الحياة في الديانة الطاوية وخارجها.

(4) مذهب هوانغ-لاوتسي: يرى الطاويون أن مؤسس الديانة الطاوية هو الإمبراطور الأصفر الذي ذكرته الأساطير، والفيلسوف الصيني لاوتسي في فترة الربيع والخريف، واعتقدوا أنهما يدعوان إلى إدارة شؤون البلاد من خلال أسلوب الهدوء والطمأنينة، و«الطاو» الذي يعبدوه الطاويون يتحلى بالسحر والألغاز، ويروج الطاويون لنظرية المحافظة على الصحة التي تشتمل على مغزى العمر المديد، وقد تمثلت الطاوية كل هذه الأفكار، وبالإضافة إلى ذلك، اضفاء طابع السحر والأحجية والألوهية على هوانغ دي (الإمبراطور الأصفر) ولاوتسي بلا انقطاع، حتى ظهر في أسرة هان الشرقية «ديانة هوانغ- لاوتسي» بعد أن ظفرا بلقب مؤسس ديانة. ويعتبر ذلك بمنزلة مقدمة الديانة الطاوية.

إذن، متى نشأت الديانة الطاوية بصورة رسمية؟ لقد نشأت في أواسط أسرة هان الشرقية تقريباً. ونقول بصورة أكثر دقة، هناك رأيان في هذا الخصوص، أولهما يعتقد أنه كان هناك رجل يدعى يوجيه معاصراً للإمبراطور شون في أسرة هان، زعم أنه حصل على كتاب يقع في مائة وسبعين جزءاً، واسمه «الكتاب المقدس تاي بينغ»، أهداه أتباعه إلى الإمبراطور، ومضمون الكتاب معقد للغاية، ويتناول بصورة أساسية الين واليانغ والعناصر الخمسة وتعويذات الآلهة والملائكة. وكان ذلك بمثابة بداية الطاوية. أما الرأي الآخر، يرى أن مؤسس الطاوية هو تشانغ لينغ الذي كان معاصراً ليوجيه تقريباً. وكان تشانغ لينغ في الأصل محافظا لمدينة تشونغ تشينغ اليوم في فترة أسرتي هان ومينغ، ثم اختفى في جبل خومينغ في مقاطعة سيتشوان، وألف كتاب الطاوية في أربعة وعشرين جزءاً، ومنح فيه لاوتسي لقب مؤسس الديانة الطاوية. وعلى هذا النحو، أسس نوعاً من الديانة، وعلَّم الناس الندم على ذنوبهم حتى يصبحوا طاويين، وشفى أمراض الناس بفضل تعويذة الماء، ثم ما لبث أن التف حوله

كوكبة من الحواريين، ويجب أن يقدم كل معتنقي الطاوية خمسين لتراً من الأرز حتى يكونوا طاويين حقاً، ولذا أُطلق على هذه الديانة «طاوية الأرز». وبعد ذلك، أطلق الحواريون على تشانغ لينغ لقب «المُعلم السماوي»، ولذا أطلق عليه «المعلم السماوي للطاوية» أيضاً. وفي أواخر أسرة هان الشرقية، أطلق الأشقاء الثلاثة: تشانغ جياو، تشانغ باو، تشانغ ليانغ وهم من مواطني مقاطعة خبي، أطلقوا على كتاب «تاي بينغ» لقب الكتاب المقدس للطاوية، وأن لاوتسي هو مؤسس هذه الديانة، وأسسوا «الطاو تاي بينغ»، ووأدوا الأمراض باستخدام تعويذة الماء، وجمعوا حشداً كبيراً من المريدين الذين شنوا انتفاضة المناشف الصفراء، ويُعد ذلك بمثابة مذهب الطاوية في المرحلة المبكرة.

وما يطلق عليه «الطاو» أو «الطاو العظيم» هو يمثل أساس الايمان بالطاوية، وهو مفهوم مقتبس من الطاويين، ولذلك يرتبط بثمة علاقة ويختلف عن «الطاو» الذي شرحه الفيلسوف لاوتسي. وتعتقد الديانة أن الكون والين واليانغ وكافة الموجودات انبثقت من الطاو. وفي عبارة أخرى، أن «الطاو» هو الشيء في ذاته، وهو أيضاً حامل كل ما في السماء والأرض، وهو موجود في كل مكان، وخالق كل شيء، ولا يتغير ولا يتحول، ويفرض سيطرته على كل شيءٍ، وهو خالق العالم التجريدي الذي لا يضاهي ويشمل كل شيءٍ وخالق كل شيءٍ. وفي الوقت نفسه، تعتقد الطاوية أن «الطاو» هو الفضاء الواضح النقي، وهو موجود بذاته لذاته، ويستطيع الناس فهم «الطاو» إذا تحلوا بالهدوء والطمأنينة ودعوا المقادير تجري في أعنتها، ولا تستهويهم شهرة ولا مغنم ولا آمال جامحة. كما ترى الطاوية أن لاوتسي هو تجسيد لـ«الطاو». وتعتقد الطاوية أن «الطاو» قديم قدم العالم منذ الأزل، وخلق الأثير الأول في العالم الذي ابتق منه «السماوات الثلاث الصافية» وهي: «تشينغ وي تيان»، و«يويوي تيان»، و«داتشي تيان»، وهذا ما يطلق عليه «تحليل الأثير إلى السماوات الثلاث». والآلهة العظام الثلاثة التي يقدمها الدين البوذي يقيمون في هذه السماوات كلُ على حده، فعلى سبيل المثال الآلهة الثلاثة: «يوانشي تيان زونغ»، و«لينغ باو تيان زونغ»، و«داوده تيان زونغ» يقيمون في هذه السماوات كل على حده. ولقن هؤلاء الآلهة الناس أسرار الكتب الطاوية السماوية، ولذلك أُطلق على كتب الطاوية الدينية لقب «الكتب الدينية الحقيقية للآلهة الثلاثة». وما يعرف بـ«الآلهة الأربعة» هم آلهة سماوية من بين آلهة الطاوية ومكانتها أقل من الآلهة الثلاثة

المذكورين آنفاً. والآلهة الأربعة هي: (1) الإمبراطور العظيم الأصفر يو، يتولى مسؤولية السلطة السياسية في الحدود السماوية. ويصدر الأوامر للآلهة الآخرين، ويعادل الإمبراطور في الأرض. وقد قيل إنه ولي عهد الجنة الطاوية وتخلى عن العرش وكرس حياته لدراسة الطاوية، واجتاز ثلاثة آلاف ومائتي كارثة وأصبح الملاك الذهبي، كما تغلب على عشرات الألوف من النكبات وأصبح الإله اليشمي في الطاوية. ويعتبر هذا الإله أعظم إله سماوي بين الآلهة الشعبية في الصين. (2) الإمبراطور العظيم للقطب الشمالي، يساعد الإله اليشمي في السيطرة على الشمس والقمر والنجوم والفصول الأربعة. (3) الإمبراطور العظيم الأصفر السماوي يساعد الإله اليشمي في السيطرة على القطبين الجنوبي والشمالي، وعلى الأرض والسماء والإنسان، وإدارة شؤون الحرب في العالم. (4) معبودة الأرض الصفراء مسؤولة عن تكاثر الين واليانغ، وجمال الأشياء في العالم، والسيطرة على الأرض والجبال والأنهار. وبالإضافة إلى ذلك، يحوي أصل نسب الآلهة والملائكة في الديانة الطاوية المعبودة وانغمو المسؤولة عن الملائكة، والإله المسؤول عن الكتب السماوية، والآلهة الأربعة المسؤولون عن الإعدام والأشهر والأيام، فضلاً عن ستة وثلاثين إلاهاً مسؤولين عن النجوم في السماء، واثنين وسبعين إلاهاً مسؤولين عن جهنم.

وتجسدت خصائص الطاوية الرئيسية في أنها حافظت على العديد من المعتقدات الشعبية وإكسير الحياة، وعلى نظرية الديانة الطاوية، وطبيعة عقيدتها الدينية، ويتوافق ذلك بصورة وثيقة مع الثقافة التقليدية وعادات وتقاليد الحياة في الصين، كما حافظت على عناصر الديانة الطبيعية في التاريخ، ومن ثم تتسم ببعض عناصر الإيمان بالخرافات والخزعبلات. كما أن المضمون الديني للطاوية وتنظيم الدعاية للطاوية اشتملا على الطاويين، والآلهة والملائكة، وإكسير الحياة، وطرد الشياطين من أجل شفاء الإنسان من الأمراض. وهدف الإيمان في الطاوية العمر المديد حتى يصبح المرء ملاكاً، وتحقيق المنفعة الواقعية عن طريق المحافظة على الصحة، ويعني ذلك الاهتمام بالمصالح الحالية. والديانة الطاوية هي ديانة كان السعي إليها منذ أمد بعيد، ويتلاءم ذلك كثيراً مع تقاليد الصينيين.

ثانياً: تطور الديانة الطاوية ومذاهبها

بعد نشأة الطاوية، كان تطورها أسرع من الديانة البوذية. فعلى سبيل المثال، تشانغ جياو مؤسس طاوية تاي بينغ، بلغ عدد مريديه مائة ألف انتشروا في العديد من الولايات آنذاك مثل تشينغ، يوي، شيوه، جينغ، يانغ وغيرها، وذلك في غضون عشر سنوات ونيف في الفترة من 170 –183م، كما تطورت الطاوية وأصبحت تضطلع بالانتفاضات الفلاحية على نطاق واسع. كما أن طاوية الأرز مثلاً، اعتمد تشانغ لو، حفيد تشانغ لينغ، على جماهير الطاوية الحاشدة وشن هجوماً على هان تشونغ واحتلها، وأسس هناك السلطة السياسية الإقليمية التي تجمع بين الدين والسياسة استمرت أكثر من ثلاثين عاماً حتى قام القائد العسكري تساو تساو بتدميرها بعد أن أدرك بفطنته قوة الطاوية في انتفاضة المناشف الصفراء والسلطة السياسية لدى تشانغ لو، وانتهج سياسة تفتيت الأوصال والتجزئة وفرض القيود على المنافع تجاه الطاوية بعد تدمير تشانغ لو. وهناك ثلاثة أسباب تقريباً وراء إحراز الطاوية مثل هذا التطور السريع وتحقيق بعض النجاحات، ونجمل هذه الأسباب في السطور التالية: (1) الأفكار الفلسفية التي تتمحور عليها الطاوية نبتت في التربة الصينية وانتشرت لمدة تتراوح من أربعمائة إلى خمسمائة سنة من عصر الممالك المتحاربة إلى أواخر أسرة هان الشرقية وأحدثت تأثيراً واسع النطاق وتمتعت بقاعدة قومية محددة، والآلهة التي تؤمن بها الطاوية انبثقوا من الأساطير القديمة في العصر السحيق، والحكايات الشعبية، ومن جميع نظريات الجغرافيا والفلك التي تعتبر آلهة مألوفة لدى جماهير الشعب في الصين. (2) العلاقة المباشرة بين وسائل انتشار البوذية والمصالح الشخصية الحيوية لكافة الفئات الشعبية. يؤمن الناس بطاوية تاي بينغ أو طاوية الأرز مادام تناول الدواء يدرأ الداء، حتى ولو كان مرة واحدة. (3) أن شعار الايمان بالطاوية يجعلك ملاكاً يتسم بقوة الإغراء الشديد، حيث تشعر بالشباب الدائم ولا تعرف الوهن، وتصبح من الملائكة، ويعتبر ذلك –بلا شك– مخرجاً للذين يلجون في الايمان بالخرافات ويعانون من الصعاب والمشاق. ولكن، على الرغم من التطور السريع للطاوية، بيد أن تأثيرها لم يكن كبيراً مقارنة بتأثير البوذية فيما بعد، والسبب في ذلك أن قوة الخداع والتضليل في الدعاية لنشر الطاوية ليست قوية مثل نظيرتها في البوذية. تحرص البوذية على الخلاص والتطهر، وتبشر بدخول عالم السعادة القصوى الغربي بعد الموت.

والخلاص الروحي يمكن أن يتعلمه الناس من خلال الممارسة العملية، ولكن لا يستطيعون معرفة عالم السعادة القصوى الغربي إلا بعد الموت، فالخلاص الروحي حقيقة، ولكن عالم السعادة القصوى يُعد وهماً، وهنا البوذية تثبت الزيف عن طريق الحقيقة. ومن الطبيعي، أن تكون قوة الخداع والتضليل كبيرة. أما الطاوية تحرص على العمر المديد، وتهتم أن يكون المرء ملاكاً، فمن المستحيل العمر المديد، ولم يدرك أحد الملائكة، فكلاهما يعد ضربا من التضليل والزيف، وتثبت الطاوية الوهم من خلال الأشياء الزائفة، ولذا قوة الخداع والتضليل ضعيفة جداً..

ومرحلة التطور المهمة التي عرفتها الطاوية كانت في فترة أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، وذلك بسبب أن تطور البوذية حفّز تطوير الطاوية، وفي عبارة أخرى، أن الطاوية يتحتم عليها تطوير قدرتها على المجابهة والتصدي على الصعيدين العلمي والنظري، وتسمو بمكانتها بموجب تضاؤل تأثير البوذية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أدرك الأباطرة والملوك الإقطاعيون قوة الطاوية التي جسدتها الانتفاضات الفلاحية منذ أواخر أسرة هان الشرقية، ومن ثم استغلوا الطاوية في تخدير الشعب وتوطيد أركان مكانة الحكام. وشهدت الطاوية بروز أربع شخصيات قدموا اسهامات عظيمة من أجل تطوير البوذية في ظل هذه الأحوال. والشخصية الأولى تدعى قه هونغ (284– 364) من أهالي مقاطعة جيا نغصو اليوم، وكُنيته «باوبوتسي». وفي صدر شبابه كان مولعاً بفن إرشادات وتوجيهات الآلهة والملائكة، وكان عم والده يدعى قه شوان من صناع إكسير الحياة المشهورين في الممالك الثلاث، وتعلم قه هونغ الطاوية على أيدي مريديه، كما عمل مسؤولاً صغيراً في البلاط الإمبراطوري. وقد قيل إنه ترامى إلى مسامعه أن شمال فيتنام اليوم ومنطقة قوانغدونغ وقوانغتشو في الصين شهدا استخلاص إكسير الحياة، فطلب السفر إلى هناك وعمل محافظا، وعبر مدينة هانتشو حتى وصل إلى قوانغتشو، واستقر في جبل لوافو، واعتكف على تأليف كتابه المشهور في استخلاص إكسير الحياة ويحمل كُنيته «باو بوتسي» الذي يقع في سبعين جزءاً، وحقق فيه الاندماج بين أفكار الطاوية السماوية الخالدة وأفكار الكونفوشيوسية، وشرح بصورة منظمة نظرية وطريقة «دواء إكسير الحياة السماوي الخالد، وتغيرات الشياطين والغيلان، والمحافظة على الصحة تقود إلى العمر المديد»، وأثرى النظرية الطاوية وتطورها

بصورة كبيرة. ويوجد الآن العديد من الأماكن التاريخية المشهورة والحكايات التي تتحدث عن مآثره. والشخصية الثانية تدعى كاو تشيان جي (365– 448) طاوي كبير في أسرة وي الشمالية، ومن أهالي ضاحية تشينغ بينغ بالعاصمة بكين، وعندما بلغ الثامنة عشرة، اعتكف في جبل سونغ للتثقف والتعبد، وبعد سبع سنوات ظفر بمكانة «المُعلم السماوي»، وصدرت له الأوامر بترتيب وتنظيم الطاوية، وبدأ يحدث تأثيراً هائلاً في الأوساط الطاوية، وبعد انقضاء ثماني سنوات، زعم أن لاوتسي طلب منه مساعدة «معتنقي طاوية تاي بينغ»، ونال الثقة الغالية للإمبراطور تاي وو دي في أسرة وي الشمالية وحفزه على تدمير البوذية، وكان شعاره «إزالة القوانين الزائفة عند تشانغ لينغ، وتشانغ هينغ، وتشانغ لو»، واعداد قوانين جديدة للموسيقى والإشادة والاطراء والنصح والتوجيه، وتخصيص نظام المراسم والطقوس من أجل الطاوية، كما أضاف وسائل جديدة لصناعة حبوب الخلود وغرس الطاقة الحيوية مثل تناول هذه الحبوب والاعتكاف لاستخلاص إكسير الخلود، وأسس «طاوية المُعلم السماوي الشمالية» من أجل خدمة الدولة. وتدعى الشخصية الثالثة لوشيو جينغ (406– 477) طاوي مشهور في سونغ (420– 479) إحدى الأسر الجنوبية، ولُد في مقاطعة تشجيانغ، واعتكف للتثقف والتعبد في سنواته الأولى، وكان يعشق التجوال وبيع حبوب الخلود، وبعد ذلك اعتكف في جبل لو، وبفضل تشجيع الأسرة الحاكمة قام بترتيب وتنسيق الكتب الدينية الطاوية بصورة منظمة وإعداد معايير وطقوس عديدة للامتناع عن اللحم والخمر، مما جعل النظرية الطاوية وتنظيمها أكثر اكتمالاً بشكل أكبر، وأطلق على ذلك «طاوية المُعلم السماوي الجنوبية». وكان لوشيو يقيم طقوس الطاوية في ذلك الحين في جبل لو. أما الشخصية الرابعة والأخيرة تدعى تاو هونغ جينغ (456– 536م) من مريدي الجيل الثاني الطاوي لوشيو جينغ، وكان يتمتع بمستوى مميز في النظرية الطاوية، والدواء الطاوي، واستخلاص إكسير الحياة، وتبرز منجزاته في تاريخ تطور البوذية في أنه جمع أكثر من سبعين من الآلهة والملائكة التي تقدسهم الطاوية، وألف كتاب «صور الآلهة والملائكة الحقيقية»، صنف فيه الملائكة والآلهة إلى درجات ومستويات لأنه كان يعتزم إنشاء نظام ضخم ودقيق ومصنف تصنيفاً صارماً لدرجات نسب الآلهة والملائكة حتى تكوَّن الطاوية نظاماً كبيراً للاعتقاد الديني.

وتمثل أسرتا تانغ وسونغ مرحلة انتشار الطاوية وتطورها بشكل أكبر حيث تعمقت نظرية

الطاوية بصورة مطردة، وبدأت تكتمل ملامح النظام الطاوي باستمرار. وانتهج معظم الحكام الإقطاعيين سياسة تقديس الأديان، واستفادوا من الطاوية في توحيد خدمة حكمهم. ومنح الإمبراطور قاو زونغ في أسرة تانغ الفيلسوف لاوتسي لقب الجد الأول للأسر حاملة اللقب لي، بل ومنحه لقب «الإمبراطور» أيضاً. وأمر جميع الولايات ببناء الأديرة لتقديم القرابين لهذا الفيلسوف. كما أمر الإمبراطور شوان زونغ في نفس الأسرة أن تقتني جميع العشائر والقبائل كتاب «لاوتسي»، وقرر أن هذا الكتاب هو الكتاب الطاوي الحقيقي، كما تم تصنيف المؤلفات الطاوية الأخرى مثل «تشوانغ تسي» من الكتب الدينية الطاوية. وأصبح تأليف الكتب الطاوية ودراستها مادة مؤلفة أكثر فأكثر وحفّز ذلك نظرية الديانة الطاوية، وفي أسرة سونغ، اضطلعت الدولة بترتيب وتخزين الكتب الطاوية، وشيد البلاط الإمبراطوري الأديرة، وأطلق الإمبراطور وي زونغ في هذه الأسرة على نفسه لقب «إمبراطور مؤسس الديانة الطاوية»، وأمر بالبحث عن الملائكة والطاو في كافة أنحاء البلاد، وأسس نظام الحصول على الدكتوراه في كتاب «الطاو» في الجامعة الإمبراطورية، مما جعل الطاوية تحقق التطور الكبير. وفي أسرتي يوان ومينغ، حظيت الطاوية بالاحترام والتبجيل، وحتى الإمبراطور شي زونغ في أسرة مينغ أطلق على نفسه أحد الألقاب الخاصة بالآلهة الطاويين، ولم يكترث بشؤون الحكم، وانخرط بنفسه في الصيام الطاوي والاحتفالات الدينية الطاوية، وأمر أن يتولى الطاويون المذاهب الرسمية في البلاط الإمبراطوري، مما وثق العلاقة بين الدين والسياسة، وبعد منتصف أسرة مينغ، فقدت الطاوية قوتها تدريجياً باعتبارها ديانة رسمية للطبقة العليا، ولكن ظلت العادات والتقاليد بين الشعب تتسم بالقوة والحيوية. وفي أسرة تشينغ، أفل نجم الطاوية وفقدت قوتها تدريجياً جراء تحول اهتمام الحكام إلى البوذية.

وكل ديانة تنقسم في أغلب الأحايين إلى مذاهب متعددة. ولا يستثنى من ذلك الديانة الطاوية. ونظراً لاختلاف مصادر نشأتها، فقد انقسمت منذ القدم إلى مذهبين كبيرين هما: مذهب داندينغ ومذهب فولو. وتطور المذهب الأول من إكسير الحياة، وتبرز ملامحه في استخلاص إكسير الحياة والحصول على حبوب الخلود، والتضرع للعمر المديد وأن يصبح المرء من الملائكة. أما المذهب الثاني فقد تطور من السحر، وتبلورت ملامحه في عبادة الآلهة والروح الخالدة، ورسم علامات وترديد ترنيمات، وطرد الشياطين والأرواح الشريرة،

والابتهال للسعادة ومقاومة الكوارث. ولكن أنشطة هذين المذهبين في الديانة الطاوية مختلفة، وكوَّنا نوعاً من التميز بينهما، ويفتقر كلُ منهما إلى النظام الصارم. ونقول في اقتضاب، إنه منذ زمن بعيد، في عصر الأسر الجنوبية والشمالية، شكلت الطاوية مذهب لوقوان، ومذهب ماوشان، ومذهب شانغ تشينغ، ومذهب لينغ باو، وانتشرت هذه المذاهب جنباً إلى جنب مع طاوية المُعلم السماوي. وبدأ مذهب لوقوان في لوقوان بمقاطعة شنشي اليوم، ولذا أطلق عليه هذا الاسم، وزعموا أنه تأسس في الممالك الثلاث، وانتشر في أسرة وي الشمالية، وانتشر عبر الأسر المتعاقبة حتى أسرة يوان واندمج في «طاوية تشوان جين» (الطاوية الحقيقية الشاملة). ويضطلع هذا المذهب قلباً وقالباً باستخلاص إكسير الحياة والتعبد والتثقيف، ورسم علامات طرد الشياطين والآلهة من أجل شفاء المرضى. وفي ممارسة البوذية، لم يأل هذا المذهب وسعاً في ترويج مقولة «لاوتسي علَّم الغرباء»، انطلاقاً من اعتقاده أن نشأة الطاوية ترجع إلى اضطلاع لاوتسي بتعليم الغرباء عند عبوره منطقة الجمرك. و«مذهب ماوشان» ترجع تسميته إلى جبل ماو في مقاطعة جيانغصو اليوم حيث التعبد والتثقف واستخلاص إكسير الحياة، ويستخدم بصورة أساسية العلامات والتعويذات لطرد الشياطين والغيلان، واستخلاص إكسير الحياة، وممارسة فن التوجيه والإرشاد، واندمج في طاوية «تشينغ- يي» في أسرة يوان. وانبثقت تسمية شانغ تشينغ من تعلُّم الكتاب الديني «شانغ تشينغ»، وتشكل في أواخر أسرة جين، وانتشر في الأسر المتلاحقة حتى اندمج في طاوية «تشينغ-يي» في أسرة يوان، ويدعو هذا المذهب إلى التأمل والتعبد داخل النفس، وعدم الاكتراث باستخلاص إكسير الحياة. وجاءت تسمية «مذهب لينغ لو» من نصوص كتاب «لينغ باو» وأسسه قه شوان وقه هونغ، واهتم بقوانين الصيام والطقوس الدينية، واعتمد بصورة أساسية على الطاوى لوشيو جينغ في الأسر الجنوبية، وقام بإصلاح الطاوية، وأسس طاوية «المُعلم السماوي الجنوبية». والتقت كل من «الطاوية الجنوبية» و«الطاوية الشمالية» معاً في عملية التطوير رويداً رويداً، وشكلا طاوية «تشينغ-يي» الموحدة في أسرة يوان. وانطلاقاً من ذلك، أصبحت طاوية «تشينغ-يي» وطاوية «تشوان جين» اللتين تأسستا في أسرة جين بمثابة المذهبين الكبيرين اللذين انتشرا جنبا إلى جنب ردحاً طويلاً.

وتتمحور طاوية «تشينغ - يي» على طاوية المُعلم السماوي واندمج فيها مذاهب تيانغ

تشينغ، ولينغ باو، وماوشان، وتشكل مذهب ديني كبير يحتفظ بالعديد من خصائص مذهب فولو (استخدم علامات في طرد الشياطين). وكان جبل لونغجو في مقاطعة جيانغسي القاعدة الأساسية التي انطلق منها المذهب الكبير، وينتمي إلى المُعلمين السماويين في الأسر اللاحقة إلى ذرية الطاوي الشهير تشانغ لينغ، كما حظي المذهب باحترام وتقدير الأباطرة منذ أسرتي تانغ وسونغ. وفي أسرة يوان عام 1304م، أطلق على كل من تشانغ وتساي، وهما من الجيل الثامن والثلاثين للمُعلم السماوي، لقب «مؤسس ديانة تشينغ-يي»، وكانا الزعيمين الرئيسيين لمذهب فولو في الجبال الثلاثة: لونغجو، قه زاو، ماو. ويسمح هذا المذهب للطاوي بالزواج، وورثت الأجيال المتعاقبة المُعلم السماوي، وانتشر انتشاراً واسعاً في أسرة مينغ.

أما طاوية تشوان جين (الحقيقة الشاملة) فقد تأسست في أسرة جين، ومؤسسها وانغ تشونغ يانغ، وكُنيته «تشونغ يانغ تسي»، وكان مهموماً وكئيباً جراء إخفاقه في تحقيق طموحه الشخصي، فهجر بيته وترهبن وتثقف بالطاوية، وبنى قبراً لنفسه في جبل تشونغ فإن ليقطن فيه وأطلق عليه «قبر الحي والميت»، وزعم أنه قابل الآلهة التي لقنته أسرار صناعة حبوب الخلود وغرس الطاقة الحيوية وبراعة الملائكة، وتوجه إلى منطقة شانغدونغ ونشر فيها الطاوية، والتف حوله سبعة من المريدين، أُطلق عليهم «الطاويون الحقيقيون السبعة». وتدعو هذه الطاوية إلى الدمج بين الأديان الثلاثة الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية، وعدم الاهتمام بعلامات طرد الشياطين، ولا باستخلاص إكسير الحياة، بل اهتمت بالمحافظة على الصحة والتهذيب، ولكن يجب على الطاويين الرهبنة. وكان تشيو تشو جي المسؤول عن الطاوية في كافة أنحاء البلاد في أسرة يوان، وحققت طاوية تشوان جين تطوراً هائلاً. وفي عام 1219م، كان الملك المنغولي جينكيزخان في جبل شيوه في المنطقة الغربية واستدعى هذا المسؤول الذي اصطحب ثمانية عشر مريداً للمثول بين يدي الملك الذي بدوره سأله عن طريقة إدارة الشؤون في العالم، فأجابه: «احترام السماء وحب الشعب». ثم سأله أيضاً: وكيف تكون المحافظة على الصحة؟» فأجابه: «القلب النقي الصافي ونبذ جشع الطموحات»، فأحبه الملك ووثق فيه، ومنحه لقبي «الملاك السماوي» و«الطاوي الحقيقي صاحب العمر المديد»، وأقام في قصر العمر المديد في بكين، وأصبح مسؤولاً عن الطاوية في الصين، وبعد وفاته دُفن في هذا القصر، وانتشرت مآثره في المناطق الغربية، وتولى حواريوه ترتيب وتبويب كتاب

«رحلة طاوي حقيقي إلى المناطق الغربية».

وبالإضافة إلى ذلك، نشأت في شمال الصين طاوية «تاي–يي»، وطاوية «جيندا»، وغيرهما من المذاهب الأخرى في أسرة جين، ولكن كان انتشارها قصيراً، وتأثيرها ضئيلاً أيضاً.

ثالثاً: الثقافة الطاوية والمواقع التاريخية الطاوية

الاعتقاد الديني الأساسي في الطاوية يكمن مصدره في أفكار الطاويين والأساطير القديمة، واستوعب الفكر الكونفوشيوسي والروح البوذية في عملية التطور، وشكّل الثقافة الطاوية التي تتسم بالخصائص الفريدة المميزة، وأثر ذلك تأثيراً هائلاً في تطور الثقافة القديمة في الصين. ففي المقام الأول، تشتمل بعض أنشطة الطاوية على الفكر العلمي المحدد، وقدم ذلك إسهامات محددة لتطوير بعض التقنيات العلمية. فعلى سبيل المثال، استخلاص إكسير الحياة يمثل إرهاص البداية الحقيقية لصناعة صهر المعادن والصناعة الكيماوية في الصين، ويرتبط ذلك باختراع البارود واستخدامه، كما أن جمع الأعشاب الطبية للمداواة تمثل المصدر المباشر للأنشطة الرياضية مثل: تشي قونغ (نوع من الرياضة التقليدية الصينية)، وألعاب الووشو، وتايجتشوان (نوع من ملاكمة الظل)، ولا تزال نظرية المحافظة على الصحة تُعد موضوعا يحظى باهتمام الأبحاث. ثانياً: تأثير البوذية في الإبداع الفني الأدبي. أن أفكار التحول إلى ملاك في الطاوية وتكوين عالم الملائكة حفَّز قوة الخيال لدى الأدباء والمثقفين، وأثرى الطابع الرومانسي في الإبداع الأدبي. ويعتبر الشاعر لي باي في أسرة تانغ النموذج الأكثر بروزا وجلاء في هذا الشأن. وفي الوقت نفسه، المادة الأدبية في روايتي «تغيرات الآلهة» و«رحلة إلى الغرب»، وفي القصة الشعبية الشهيرة «قصة ثمانية ملائكة» مقتبسة بصورة مباشرة من أنشطة الآلهة والملائكة في الطاوية. ثالثاً: الطاوية تتغلغل في العادات الشعبية. اندمج عدد قليل من الأعياد التقليدية في الطاوية، وآمن الناس بالعديد من الآلهة والملائكة في الطاوية على نطاق واسع، مما أثر تأثيراً عميقاً في الهيكل النفسي الثقافي لديهم.

كما أن انتشار الطاوية جعل المواقع التاريخية الطاوية المشهورة تنتشر في شتى بقاع الصين، ويكون عددها أقل من البوذية. ونظراً لأن الطاوية في مرحلتها المبكرة لم تصمم تماثيل للآلهة،

ولم تقدم لها القرابين إلا بعد عصر أسرة سونغ، ولذلك كانت صناعة التماثيل في الطاوية والكهوف الحجرية الطاوية محدودة للغاية ومستواها الفني لا يمكن أن يضاهي البوذية.

المعبد الطاوي الأول: اعتبرت الطاوية مقصورة لوقوان بمثابة أقدم معبد طاوي، وتقع هذه المقصورة في مقاطعة شنشي، وتزعم حكايات أنه في البداية مكث في هذا المكان مسؤول يدعى ينشي في أسرة تشو، وأقام بناية من الحشائش ليرقب الظواهر الجوية، ورأى أثير بنفسجي على حين غرة قادماً من الشرق، وكان ذلك إيذاناً بقدوم القديس، ثم ما لبث أن رأى القديس لاوتسي يأتي إلى المكان على ظهر بقرة كما كان متوقعاً، وبنى له هذه المقصورة خصيصا له، وطلب منه بأدب جم أن يشرح كتاب «الطاوية»، ثم أطلق الطاويون على هذا المكان «المكان المقدس»، وتوسعت أرجائه عبر التاريخ، ومازال الجزء الأكبر منه في حالة جيدة، وأصبح الآن منتزه الغابة الوطنية لمقصورة لوقوان.

وهناك معابد طاوية أخرى مهمة نذكر منها:

قصر تاي تشينغ في محافظة لويي في مقاطعة خبي. وكانت هذه المحافظة أصلاً أرضاً جرداء في مملكة تشو، وهي مسقط رأس لاوتسي، وبدأ بناء معبد طاوي هنا في عهد الإمبراطور هان دي في أسرة هان الشرقية، ولا يزال يوجد في القصر الكتاب الذي ألفه الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ وعنوانه «شروح الأخلاق والفضيلة» (كتاب الطاوية).

قصر شانغ تشينغ في مدينة قويشي بمقاطعة جيانغشي، وهو مكان إقامة الطقوس الدينية الطاوية من جانب المُعلم الطاوي السماوي عبر عصور التاريخ. وتحكي رواية أن تشانغ تشينغ وهو حفيد الجيل الرابع الطاوي تشانغ لينغ انتقل من هان تشونغ إلى جبل لونغجو في هذه المدينة ومكث فيه عبر الأسر المتلاحقة حتى نهاية أسرة تشينغ وبداية الجمهورية الصينية. والرواية الكلاسيكية الصينية «كلنا أخوة» وصفت جبل لونغجو. ويوجد مقر المُعلم السماوي الضخم على قبره من هذا القصر، وهو مكان إقامة المعلم السماوي وأسرته عبر الأجيال المتعاقبة.

المعبد الطاوي بان يون في مدينة بكين، وهو أول معبد كبير لطاوية تشوان جين، كما يعد من المعابد الكبرى التي يضطلع فيها مريدو هذه الطاوية بالتنسك والرهبنة، وبدأ إنشاؤه في أسرة تانغ، وتغير اسمه إلى قصر تاي جي في أسرة جين، وأصبح اسمه قصر (العمر المديد) في

أسرة يوان لأن الطاوي الحقيقي طويل العمر تشيو تشو جي كان يتولى شؤون الطاوية في هذا المكان، ويحمل هذا الاسم منذ أسرة تشينغ إلى الآن. ويوجد داخل القصر قاعة الجيل الخامس للطاوي تشيو، وهي تمثل قبره أيضاً.

قصر يونغ ليه في محافظة روي تشينغ في مقاطعة شانشي. وقد قيل إن يونغ ليه أصلاً هو ملاك يدعى ليوي دونغ بينغ في قصة الملائكة الثمانية المشهورة. وأصبح هذا القصر مزاراً في أسرة تانغ، وانتشرت طاوية تشوان جين في أسرة يوان، واحترمت هذا الملاك واعتبرته من الأجداد الخمسة في الشمال. والمبنى ضخم وتوسعت أرجائه ويوجد داخله رسوم جدارية تحظى بشهرة عالمية.

وهناك الكثير من الجبال الطاوية المشهورة، ويقولون يوجد «ستة وثلاثون من كهوف الجنة السماوية، واثنان وسبعون جنة أرضية». وتعتقد الطاوية أن الجبال السامقة والكهوف الغائرة تمثل الأماكن التي تقطن فيها الآلهة والملائكة حيث حبوب الخلود وبث الطاقة الحيوية، ولذلك الجبال المشهورة في الصين كلها تقريباً تعتبر بمثابة كهوف الجنة السماوية وكهوف الجنة الأرضية. وهناك معابد طاوية مشهورة إلى حد ما في الوقت الحالي تتركز داخل الجبال المشهورة نذكر منها على سبيل المثال:

جبل تاي شان: يعد الأهم والأضخم بين الجبال الخمسة المشهورة في الصين، ويقع في داخل مدينة تايآن في مقاطعة شاندونغ وتطلق عليه الطاوية «كهف الجنة الثاني الصغير»، ويزخر الجبل بالمعابد الطاوية. ويوجد معبد داي في سفح الجبل لتقديم القرابين لإله الجبل تاي شان الأكبر. كما يوجد مزار معبودة الجبل في قمته. وبالإضافة إلى ذلك، يوجد حوض وانغجو، وفصر داومو، وقاعة يوى تشوان.

جبل هوا في مدينة هواينغ في مقاطعة شنشي، وكان يعرف قديماً باسم الجبل الغربي، وأطلقت عليه الطاوية «كهف الجنة الرابع الصغير». ويحوي الجبل العديد من قصور الطاوية، منها قصر يوي تشوان حيث أنه المكان الذي ترهبن فيه الطاوي الشهير في أسرة سونغ الشمالية تشين توان. فضلاً عن، قصر جين يوي، ومعبد الطاوية الشرقية، والمعبد الطاوي تشون شيان (مجموعة الملائكة)، ومعبد يونيو (المعبودة اللؤلؤة) وقاعة الجد ليي.

جبل تشينغ تشينغ في مقاطعة سيتشوان، وهو المكان الذي تلقن فيه أتباع الطاوية تعاليمها

على يد تشانغ لينغ مؤسس طاوية الأرز. ويوجد في الجبل قصر شانغ تشينغ، وكهف المُعلم السماوي، وغيرها من البنايات الطاوية.

جبل ماو في مقاطعة جيانغصو، شهد اضطلاع الطاوي تاو هونغ جينغ في الأسر الجنوبية باستخراج إكسير الحياة والتنسك وتأليف الكتب الطاوية. وشيدت الطاوية أكثر من عشرين معبداً في عصر أسرتي سوي وتانغ، وشهدت أسرة تشينغ العديد من المعابد الطاوية أيضاً. وحطم الجيش الياباني معظم هذه المعابد أثناء المقاومة الصينية ضد الاحتلال الياباني. وتشهد بعض المعابد الطاوية المشهورة عمليات الترميم في الوقت الحاضر بصورة تدريجية.

جبل لوافو في مقاطعة قوانغدونغ، وأطلقت عليه الطاوية «كهف الجنة السابع الصغير»، وقد قيل إن الطاوي قه هونغ في أسرة جين الشرقية قام باستخراج إكسير الحياة في هذا الجبل، الذي يضم المعبد الطاوي الضخم تشونغ شيوه، وهو من المعابد التي شيدها هذا الطاوي. وبالإضافة إلى ذلك، هناك الآثار القديمة التي تشمل تطهير حبوب الخلود وفرن استخلاص إكسير الحياة، وكانا من مقتنيات الطاوي قه هونغ.

جبل وودانغ في مقاطعة خوبي، وكان يطلق عليه قديماً «جبل تاي خه»، أُنشئت فيه العديد من البنايات في أسرة تانغ، وشهد تطوراً كبيراً في أسرة مينغ. وكانت الطاوية تعتقد أن التنين الأخضر، والنمر الأبيض، وعصفور الدوري الأحمر، وإله السماء الشمالية يعتبرون آلهة الحماية. كما ترى الطاوية أن إله السماء الشمالية هو روح الإمبراطور هوانغ (الأصفر) التي نقشها في الجنة عبر الأجيال، وكان أمير جنة «النقاء والسعادة»، ثم اعتكف في جبل تاي خه لتصنيع حبوب الخلود وأصبح ملاكاً، وأطلق عليه الإله اليشمي لقب إله السماء الشمالية يقوم بحماية الشمال، وتغير اسم هذا الجبل إلى اسمه في الوقت الحاضر. وعندما وصل الإمبراطور يونغ ليه في أسرة مينغ إلى بكين زعم أنه من شجرة هذا الإله، وبعد أن اعتلى العرش، قام بترميم جبل وودانغ، وتوجد أضخم قاعة نحاسية في الصين في أعلى قمته، وتضم تمثالاً لهذا الإله يشبه كثيراً هذا الإمبراطور. والرياضة التقليدية الصينية الشهيرة وودانغ تشوان انطلقت من هذا الجبل.

جبل لاو في جزيرة تشينغداو في مقاطعة شاندونغ، أصبح مكاناً طاوياً مشهوراً بعد أسرتي سونغ ويوان، ويضم العديد من المعابد الطاوية، ومعبداً طاوياً وحيداً. وحظي طاويو

هذا الجبل بالشهرة في الصين بعد أن وصفهم كتاب «طرائف وعجائب الملائكة» من تأليف بوسونغ لينغ.

المبحث الرابع
الإسلام

أولاً: نشأة الإسلام والعقيدة الدينية

يطلق على الإسلام في الصين «دين هوي»، و«دين مكة»، و«دين النقاء والصفاء»، كما يُطلق عليه بالإضافة إلى البوذية والمسيحية– الأديان الثلاثة الكبرى في العالم. ويُطلق على مريده لقب «مسلم»، وما يُعرف بـ «الإسلام» يعني «الطاعة» في اللغة العربية، وكلمة «المسلم» في اللغة العربية تعني «المطيع». وظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ثم انتشر في مناطق عديدة في آسيا وأفريقيا، ولاسيما في غرب آسيا وشمال أفريقيا وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا. ونبيُّ الدين الإسلامي هو محمد من ذرية أرستقراطية آفلة، وهو من عائلة بني هاشم في قبيلة قريش، ووُلد في مكة (في العربية السعودية اليوم) في عام 270، وكان يتيم الأبوين منذ نعومة أظافره، وتولى تربيته جده وعمه حتى شب عن الطوق. وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره سافر مع عمه إلى سوريا للتجارة، ورأى بعينيه بعض الأحوال الاجتماعية في المنطقة العربية، ثم عمل لدى أرملة شابة ثرية في مكة وتولى شؤون تجارتها، وكان عمره آنذاك خمسة وعشرين عاماً، ثم تزوجها بعد ذلك، وشهد المجتمع الاضطرابات والقلاقل وتفاقمت حدة التناقضات الطبقية جراء الحروب المتتالية التي نشبت في شبه الجزيرة العربية إذ ذاك، وكان من الناحية الموضوعية –البحث عن قوة قادرة على تحقيق توحيد المجتمع واستقراره، ثم كان الإسلام مقدّرا له أن يظهر.

وكان محمد في سن الأربعين وقتئذ، وحظي بتأثير وتنوير اليهودية والمسيحية ومناهضة عبادة تعدد الآلهة، كما أنه أصلاً من منبت فقير، وشعوره المؤرق بالفوضى في الحياة، ومجابهة الأوضاع الاجتماعية في المنطقة العربية، دفعه ذلك كله، إلى الدعاية للتعاليم الإسلامية في المرحلة المبكرة من الحساب يوم القيامة، والبعث، والأخيار الذين يساعدون الفقراء يدخلون الجنة، والأشرار يدخلون النار، واستفاد من ممتلكات البيت وقدم صدقات لإغاثة المنكوبين، وأصبح المؤازر الداعم للفقراء بسرعة، وفي عام 612م نشر الدين الإسلامي في مكة جهاراً علناً، والدعاية بأن الله هو الوحيد المهيمن المسيطر على الكون، ودعا الناس إلى نبذ عبادة

تعدد الآلهة. وكانت أفكار محمد الدينية ونشأته الدينية تمثل تهديداً مباشراً لعبادة تعدد الآلهة لدى الأرستقراطيين ملاك العبيد، ومن ثم تعرض لمقاومة الطبقة الأرستقراطية واضطهادها في مكة، وفي عام 622م هاجر إلى المدينة (في العربية السعودية اليوم)، واستمر في الدعاية للدين الإسلامي بفضل مؤازرة بعض القبائل المحلية، وازدهرت قوة الإسلام ازدهاراً شديداً. وبدأ بناء القوة العسكرية في تلك الفترة، واضطلع بإصلاح الأنظمة السياسية والاقتصادية والعسكرية والدينية، وأسس المجتمع الديني الذي يجمع بين الدين والسياسة، وكان الزعيم السياسي والعسكري والديني. وفي هذه المرحلة، قهر بعض القبائل اليهودية بقوة السلاح، وشن حروباً كثيرة على الأرستقراطيين في مكة. وفي عام 630م طوق جيش محمد مكة، واضطر أرستقراطيو مكة إلى المصالحة مع محمد، وأعلنوا دخولهم في الإسلام، وأقروا أنه صاحب السلطة العليا، كما أقر محمد بمصالحهم الدينية والاقتصادية، وأصبح المعبد الأبيض لديانة تعدد الآلهة مركزاً لعبادة الدين الإسلامي. وظفر بالنصر في نهاية المطاف. وفي العام التالي، اعتنقت القبائل في شبه الجزيرة العربية الإسلام تباعاً، واستعادت هذه الجزيرة وحدتها، وتأسست الدولة الإسلامية الكبرى التي تجمع بين الدين والسياسة، وزعيمها هو محمد. وفي عام 632م توفي محمد في المدينة، وأصبح الإسلام بمنزلة الأيديولوجية المهيمنة على المنطقة العربية.

وتتمحور العقيدة الإسلامية على كتاب «القرآن الكريم» الذي تؤمن به، ويقع في ثلاثين جزءاً، ويحتوي على مائة وأربع عشرة سورة، وأكثر من ستة آلاف ومائتي آية، وينقسم إلى جزأين كبيرين بصفة عامة هما: «السور المدنية» و«السور المكية»، وفي البداية كان أتباعه يملونها من الذاكرة أو يسجلونها على جلود الحيوانات وسعف النخيل والألواح الحجرية، ثم تم جمعها وترتيبها في مجلد فيما بعد، مضمونه ضخم جداً، ويشمل على العقيدة الإسلامية الرئيسية والواجبات الأساسية، وتجميع الأفكار ومقاييس الأخلاق في المجتمع العربي، وكافة الأنشطة في المجتمع الديني، وشروحه لديانة تعدد الآلهة واليهودية والمسيحية، فضلاً عن القصص والحكايات والحكم الشعبية العربية التي استشهد بها محمد في أثناء نشر الدين الإسلامي. والإيمان بالإسلام يتركز على «الاعتقادات الدينية الستة الكبرى»، وهي: (1) الإيمان بأن الله هو الإله الأوحد، «لا إله إلا الله وحده لا شريك له». ويعتقد الإسلام أن

الله خالق كل شيءٍ في الكون، وهو المهيمن المسيطر على كافة الموجودات، ويوجد في كل مكان، وهو الإله الأبدي السرمدي، وتصفه اللغة الفارسية بـ «الهدى»، ويطلق عليه المسلمون الصينيون لقب «جين تشو» (الإله الحقيقي). (2) الايمان بأن محمداً هو رسول الله: يذكر الدين الإسلامي أن الله في مراحل مختلفة أرسل العديد من الأنبياء إلى المناطق المتباينة، وهم بمثابة «رُسُل» اصطفاهم الله لإدارة شؤون الدنيا، وبث الطمأنينة في نفوس الناس، وإنقاذ البشرية، وكان محمد آخر هؤلاء المبعوثين، وأُطلق عليه «خاتم الأنبياء والرسل»، ينشر الإرادة الإلهية على وجه الخصوص، وينّور البشر. (3) الايمان بالملائكة: يعتقد الإسلام أن السماء يوجد بها عدد لا يحصى من الملائكة، وهم عبارة عن مجموعة من المخلوقات أرسلهم الله، ولا يمكن تمييزها من حيث الجنس ولا رؤيتهم بالعين، ولكنها منتشرة في السماء والأرض، وقدرتها هائلة ونفوذها واسع، وكثيرة التقلب والتغير، وتنصاع لأوامر الله، ويضطلع كلُ منها بمسؤولياته الخاصة. (4) الايمان بأن «القرآن الكريم» هو كتاب الله المستنير.

ويعتقد الإسلام أن القرآن الكريم هو لغة الله، ويعد ذلك عقيدة دينية لا تتغير ولا تتبدل منذ الأزل، وتعتبر معيار حياة المسلمين. (5) الايمان بأن الله يقدّر كل شيءٍ مسبقاً. فالإسلام يعتقد أن ثراء الإنسان وفقره، وعلو شأنه وانحطاطه، والخير والشر، والسعد والنحس، والموت والحياة، وازدهار الدول واضمحلالها، كل ذلك يقرره الله ويدبره، ولا يمكن التنبؤ به، ولا يمكن تغييره أيضاً. (6) الايمان بـ «البعث بعد الموت» و «الحساب والآخرة». ويذكر الإسلام أنه عندما تنتهي حياة المرء ويلقى حتفه، يبعث من رُفاته ذات يوم بأمر الله، من أجل الحساب في الآخرة، ويحكم الله بدخوله الجنة ويقيم فيها إلى الأبد أو يدخل النار ويعيش فيها إلى الأبد، وذلك حسب أعماله في الدنيا من الخير والشر. وقرر الإسلام أن يلتزم معتنقوه بـ «الفرائض الخمس» من أجل توطيد إيمانهم، وتشمل هذه الفرائض: (1) الشهادة، يجب على معتنقي الإسلام تلاوة القرآن الكريم دائماً والصلاة والتضرع إلى الله، والجهر بقراءة آيات الذكر الحكيم في القرآن الكريم التي تدل على أن الله واحد لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وغيرها من النصوص القرآنية. (2) الصلاة، يجب على المسلمين تأدية الصلوات الخمس وهي: الفجر، الظهر، العصر، المغرب، العشاء. بالإضافة إلى «صلاة الجمعة» في المساجد جماعة. وقبل الصلاة يجب الوضوء وتطهير الجسد لدرء الأدران والشرور. و«الاغتسال»

هو غسل الجسم كله، ويكون قبل صلاة الجمعة بصفة عامة، أما غسل بعض مواضع في الجسم فيعرف باسم «الوضوء»، ويكون عادة قبل الصلوات الخمس. (3) الصوم، يجب على المسلمين صيام شهر رمضان من كل سنة، ويستثنى من ذلك المريض والحُبلى والرضيع والمسافر والجندي أثناء الحرب.

ورمضان هو الشهر التاسع في التقويم الإسلامي، ويمتنع فيه المسلمون عن تناول جميع أنواع المشروبات والمأكولات وملامسة الزوجة منذ بزوغ الفجر حتى غروب الشمس. ويذكر الإسلام أن شهر رمضان أنزل فيه «القرآن الكريم»، وهو الشهر المبارك وأفضل الأشهر كلها، ويجب على المسلمين الصيام تجسيداً لتقواهم وخشوعهم. (4) الزكاة؛ هي جبي ضريبة سماوية حيث يجبي الإسلام ضريبة من المسلمين، وتحدد قيمتها حسب الممتلكات والثروة سنوياً، وتُحصل بمقدار أربعة أعشار التجارة والثروة النقدية بصفة عامة، وبمقدار العشرين بالنسبة للمنتجات الزراعية أو بمقدار العشر، ويكمن هدف الزكاة في مساعدة الفقراء وإغاثتهم. (5) الحج، يقرر الإسلام أن كل مسلم قوي البنية وقادر مادياً يجب عليه زيارة الكعبة وتأدية فريضة الحج مرة في العمر، وتبدأ مناسك الحج في الثلث الأول من الشهر الثاني عشر في التقويم الإسلامي (ذي الحجة)، ويصادف اليوم الأخير عيد الأضحى، وبالإضافة إلى ذلك، يتحلى الإسلام أيضاً بنظام تحريم بعض المأكولات، حيث ينص «القرآن الكريم» على أن المسلم يجب أن يتناول الأطعمة النظيفة الحلال، ويحرِّم تناول لحم الميت والخنزير والدم.

ثانياً: صراع المذاهب في الإسلام

بعد وفاة الرسول محمد، استخدمت النخبة الحاكمة الإسلامية الوسائل العسكرية والتجارية لنشر الإسلام في الخارج بصورة مطردة. وفي غضون أقل من ثلاثين عاماً، انتشرت قوة الإسلام في قارتي آسيا وأفريقيا ومناطق جنوب غرب أوروبا. واستمر توسع الإسلام وانتشاره في الدولة الأموية والدولة العباسية، وفي عهد الإمبراطورية العثمانية، حتى وصل إلى العديد من المناطق الشاسعة. وفي عملية انتشار الإسلام وتطويره، كانت تحدق به مشكلة الخلافة داخل أروقة السلطة العليا، وأبرزت الصفوة الحاكمة للعيان بلا انقطاع الصراع

المستمر على السلطة والمغنم، وتشكلت مذاهب سياسية متعددة، ما لبثت أن تطورت وأصبحت مذاهب دينية. ونظراً لأن الإسلام يطبق نظام الجمع بين الدين والسياسة، ونظراً لأنه منذ نشأته الأولى يتحلى بالقوة العسكرية والدينية، ومن ثم، فإن صراع المذاهب في الإسلام كان معظمه متزامناً مع الصراع العسكري العنيف. وأسماء هذه المذاهب متعددة ومتنوعة، والمشاعر المتناقضة خطيرة جداً.. وعلى الجملة، فإن هذه المذاهب انقسمت إلى مذهبين متعارضين كبيرين هما: المذهب الشيعي والمذهب السُّني. ويطلق على خلف الرسول محمد لقب «خليفة». وكان هناك أربعة من الخلفاء الراشدين هم: أبو بكر الصديق، عمر، عثمان، وعلي. ومن بينهم كان الخليفة علي ينحدر من بني هاشم، كما كان من أبناء عم الرسول محمد وصهره. ويرى المذهب السني أن الخلفاء الراشدين الأربعة ينحدرون من قبيلة قريش، وهم الورثة الشرعيون للرسول محمد، ولذا حظي بتأييد الخليفة عبر التاريخ، وأصبح المذهب الأكثر قوة، وأتباعه الأكثر عدداً، والسواد الأعظم من مسلمي العالم ينتمون إليه، كما أن المسلمين في الصين يعتنقون هذا المذهب بصفة عامة. أما مذهب الشيعة، فقد تشكل في خضم صراعه مع نظيره السني.

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، شعرت جماهير الشعب بالاستياء جراء استشراء الفساد والديكتاتورية الأرستقراطية، وانتهز علي وأتباعه هذه الفرصة السانحة وأسسوا مذهباً. وبعد اغتيال عثمان، اعتلى علي بن أبي طالب عرش الخلافة، وأعلن أتباعه أن علياً ينتمي إلى بني هاشم، وهو الوريث الحقيقي للرسول محمد، وقدروه تقديراً عظيماً ووصفوه بـ «الأعلى»؛ لأنه لم يقترف ثمة جريرة، وكان ذلك هو المذهب الشيعي. وشهد التاريخ الإسلامي دائماً التعارض والصراع بين هذين المذهبين، كما وصف الإسلام مذهب الشيعة بـ «الهرطقة والبدعة»، ولذا تعرض للاضطهاد والهجوم من جانب نظيره السني، وكان يؤيد كل غريب وعجيب، ولذلك شكّل تكتلات دينية متباينة، وينتشر بصورة أساسية في اليمن وإيران والعراق وسوريا وأفغانستان وباكستان. وفي الصين، شهد الإسلام نوعين من المذاهب هما: المذهب الجديد، والمذهب القديم، والاختلاف بينهما ليس كبيراً، ويطبقان القواعد الإسلامية ويهتمان بالعادات الإسلامية، والمذهب الجديد بمفرده يؤكد الإصلاح والتغيير، ويدعو إلى التعليم المسجدي الذي يضع «اللغة العربية واللغة الصينية على قدم

المساواة». وبالإضافة إلى ذلك، يوجد في منطقة شينجيانغ الإسلامية مذهب القبعة البيضاء (مذهب الجيل الأبيض) ومذهب القبعة السوداء (مذهب الجيل الأسود) وقد اندثرا في مطالع القرن العشرين.

ثالثاً: انتشار الإسلام في الصين

دخل الإسلام الصين في عصر أسرة تانغ (618 – 907م) تقريباً. وقد قيل في عام 651م في عهد الإمبراطور قاو زونغ في هذه الأسرة، أرسل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رسولاً إلى مدينة تشانغآن للمثول بين يدي الإمبراطور الصيني وقدم له أحوال الإمبراطورية العربية والعقيدة الإسلامية. واعتبر باحثون وعلماء ذلك بداية تاريخ دخول الإسلام إلى الصين. وتحكي رواية أخرى أنه في أوائل عصر الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ، وصل أربعة من مريدي محمد إلى الصين لنشر الإسلام، هم: واحد في قوانغتشو (كانتون)، وواحد في مدينة يانغتشو، واثنان في تشوانتشو (مدينة الزيتون). وهناك رواية ثالثة تحكي أنه في عام 757م في عهد الإمبراطور صوزونغ، كانت توجد فرقة من الجيش العربي تؤازر جيش تانغ في تثبيت دعائم الاستقرار إبان «اضطرابات آنشي»، وبعد الانتهاء من مهمتها مكثت في العاصمة تشانغآن وأقامت فيها، واكتسب جنودها الجنسية الصينية، وكان معظمهم من معتنقي الإسلام. ولا غضاضة –على وجه العموم –أن نعتقد أن الإسلام دخل الصين في أوائل أسرة تانغ تقريباً، ثم تطور بعد ذلك رويداً رويداً.

وفي مرحلة أسرتي تانغ وسونغ، زاد عدد التجار العرب الذين جاؤوا إلى الصين تدريجياً، وأسسوا جسراً مهماً للتبادل التجاري والثقافي بين الشرق والغرب. واستقر نفرُ غير قليل منهم في العاصمة الصينية وفي المدن الساحلية. ونظراً لأن معتنقي الإسلام يؤدون الصلاة دائماً، ولذا تجمعوا وسكنوا في مكان واحد، وكونوا ما يطلق عليه «الزقاق الأجنبي»، وشيدوا المساجد داخل الزقاق، وبنوا مقابر جماعية بجوارها. وأقام هؤلاء الأشخاص ردحاً طويلاً، وأصبحت ذريتهم من مسلمي الصين. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، غزا جنكيزخان الغرب، وأجبر مسلمي المناطق الغربية وعدد من الإيرانيين والعرب على الانتقال إلى شرق الصين والإقامة هناك. وكان هؤلاء جميعاً يعملون كجنود في جيش أسرة يوان،

يحاربون وقت الحرب، ويزرعون الأرض في الأوقات العادية، ثم استقروا في الصين بعد ذلك، وتزوجوا من السكان المحليين وتكاثروا وزاد عدد أفراد أسرتهم، وتشكلت القومية الإسلامية «هوي» بصورة تدريجية، وتطلق عليها الكتب التاريخية لقب «هوي هوي». وكان توزيع هؤلاء الجنود بصورة رئيسية في منطقة ممر خهشي، وخنان، وشاندونغ، وشنشي، ويونان، وفي أماكن قليلة أخرى. وفي البداية احتفظوا بأسماء أسرهم الأصلية، ثم استخدموا الأسماء الصينية بعد ذلك. فعلى سبيل المثال، في أوائل أسرة يوان، كان يوجد شخص يدعى علاء الدين، فارسي الأصل، ولد في الصين ويعتنق الإسلام، وأصابه الثراء لاشتغاله بالتجارة، وقدم هو وشقيقه الأصغر مساعدات للمغول في غزوهم المناطق الغربية، وفي مقابل ذلك حصلوا على أراضٍ ومساكن في العاصمة، وظل أبناؤهما وأحفادهما يتمسكون باسم الأسرة الفارسي، بينما استخدم أبناء أحفادهما اسم الأسرة الصيني، وكان يدعى ابن الحفيد «دين خهينان» وأصبح الشاعر المسلم المشهور في أسرة يوان. وكان حكام هذه الأسرة يهتمون بالإسلام والشخصيات الإسلامية المرموقة، وتولى عدد غير قليل من المسلمين وظائف مختلفة في حكومة أسرة يوان، كما شيدت هذه الحكومة مدرسة الدولة هوي هوي من أجل أبناء قومية هوي، كما أقامت المساجد في كافة المناطق الإسلامية، ومن ثم انتشرت مقولة مفادها «في أسرة يوان انتشر مسلمو هوي هوي في كافة أنحاء الصين». وفي مطالع أسرة مينغ، شكّل أبناء هوى هوى جماعة قومية، وتحول الإسلام من الاعتقاد الفردي في الأصل إلى اعتقاد جماعي قومي، واتسع نطاق قاعدته الاجتماعية اتساعاً كبيراً، وأصبح جزءاً لا يتجزأ من الاعتقاد الديني في الصين.

رابعاً: الإسلام والثقافة الصينية

إن انتشار الإسلام في الصين ترك تأثيراً محدداً في الثقافة الصينية، وعلى الرغم من أن تأثيره ليس عميقاً وواسعاً مثل التأثير البوذي، ولكن لا يمكن إغفاله كما كان الحال في الماضي. ففي **المقام الأول** –وكما ذكرنا آنفاً– فإن انتشاره أثر في تكوين القوميات الصينية، ودفع الاندماج بين تكوين قومية هوي الإسلامية وكافة القوميات الأخرى. وفي الوقت الحاضر، يبلغ عدد سكان قومية هوي سبعة ملايين ومائتين وعشرين ألف نسمة، ويحتلون المرتبة

الثالثة بين القوميات في جميع أنحاء الصين، ويعيشون مع قومية الهان أكبر قوميات الصين، ويستخدمون لغة الهان (اللغة الصينية) في الكتابة، ويرتبطون ارتباطاً وثيقاً بثقافة الهان، ولكن يتمسكون بالكثير من العادات الإسلامية، ونظراً لانتشار الايمان بالإسلام في نطاق واسع، وعلاقاتهم الثقافية المحددة مع الأقليات الأخرى التي تعتنق الإسلام، ولذا اضطلعوا بدور خاص في تحقيق الوحدة الكبرى بين جميع القوميات في الصين، ومن بينهم كوكبة كبيرة قدمت إسهامات بارزة في تاريخ تطور الأمة الصينية، وكان الملاح العظيم «تشينغ خه» في أسرة مينغ من مسلمي قومية هوي في مقاطعة يونان. **ثانياً**: تغلغلت الثقافة العربية في الصين مع قدوم العرب من جهة الشرق ودخول الإسلام، وكان أهم ما يمثل هذه الثقافة الفلك والتقويم والرياضيات والطب وغيرها من العلوم التي أحدثت تأثيراً مهما في العلوم والتقنية في الصين، وكذلك مثل تقويم هوي هوي الإسلامي الذي أُستخدم في الصين زهاء أربعمائة سنة من أسرة يوان إلى أوائل أسرة تشينغ. وفي الواقع، كان هذا التقويم هو التقويم الشمسي الذي كان يستخدم في المنطقة العربية، ويستخدمه المزارعون في الزراعة على وجه الخصوص، وأدى دوراً مهماً في إصلاح التقويم الصيني بعد إقراره في أسرة يوان. وكذلك الأرقام العربية التي يستخدمها الصينيون دائماً، قدمت تسهيلات إلى حد ما في مجال الكتابة والحساب. **ثالثاً**: تعزيز التبادل الثقافي بين الشرق والغرب. وتقع المنطقة العربية بين أوروبا وآسيا، وتمثل جسر التبادل التجاري والاقتصادي والثقافي بين الشرق والغرب، ونقل التجار العرب من الصين أثناء عودتهم إلى بلادهم اختراعات الصين مثل: تقنية صناعة الورق، وتقنية استخلاص إكسير الحياة (الخلود)، والبوصلة، وفن الطباعة والبارود، ثم انتقلت هذه الاختراعات إلى أوروبا. وعلى الرعم من اضطلاع التجار العرب بهذه الأنشطة التبادلية، ولكنها ترتبط بانتشار الإسلام وقدومه إلى الصين. وتبلورت ثمرة هذا التبادل الثقافي في توسيع نطاق تأثير الثقافة الصينية في الخارج، وأثرى المحتوى التاريخي للثقافة الصينية أيضاً.

خامساً: المواقع التاريخية الإسلامية المشهورة حالياً

شهدت الصين الفن المعماري العربي بسبب انتشار الإسلام فيها، وكان أكثر بروزاً في

المساجد والمآذن، ومقابر المسلمين. ويوجد في الصين الآن العديد من المواقع التاريخية الإسلامية المشهورة، وخاصة في المنطقة الشمالية الغربية. حيث بناء المساجد الأقدم نسبياً، وتوجد أربعة مساجد كبرى في الصين، وهي:

(1) **مسجد هوا يشنغ**: في مدينة قوانغتشو، بدأ بناؤه في أسرة تانغ، وقد قيل إن الصحابي سعد بن أبي وقاص كان أول من وضع حجر الأساس لهذا المسجد عندما جاء إلى الصين لنشر الإسلام في مطالع أسرة تانغ، وأطلق عليه «هوايشنغ» (الحنين إلى النبي) تعبيراً عن الحنين إلى النبي محمد. وشهد المسجد عمليات ترميم بلا انقطاع عبر الأجيال المتلاحقة، ومازال في حالة جيدة إلى الآن، ويحوي منارة ارتفاعها 36,3 متر وتتحلى بطراز الفن المعماري العربي. ويوجد الزقاق الذي كان يقيم فيه العرب في أسرة تانغ في المنطقة المتاخمة للمسجد. وبالإضافة إلى ذلك، يوجد ضرائح الأولياء الصالحين في مدينة قوانغتشو أيضاً. ويزعم البعض أن سعد بن أبي وقاص دُفن فيه، وبعد ذلك دُفن فيه أيضاً الكثير من المسلمين، وأصبح من مقابر المسلمين، كما أصبح من المناطق التاريخية المشهورة في قوانغتشو.

(2) **مسجد تشينغ جينغ (الصفاء والنقاء)**: في مدينة تشيو انتشو (مدينة الزيتون)، ويُطلق عليه «مسجد تشيلين»، بدأ بناؤه في عام 1009 في أسرة سونغ الشمالية، أي في عام 400هـ؛ وبعد مرور ثلاثمائة سنة، قام رجل من القدس يدعى «احما» بترميمه. واتسم بناء بوابة المسجد بالطراز العربي المشهور من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر، وتوجد نقوش «القرآن الكريم» على جدار المسجد وفي حالة جيدة إلى الآن. وبالإضافة إلى ذلك، يوجد في مدينة تشيوا نتشو الضريح المقدس الإسلامي، يطلق عليه السكان المحليون «ضريح الخليفة الثالث والرابع»، وتحكي رواية أن الخليفتين الثالث والرابع وهما من الخلفاء الأربعة الراشدين وصلا الصين في أوائل أسرة تانغ لنشر الإسلام، ودُفنا هناك عندما وافتهما المنية في مقبرتين متوازيتين، تم تشييدهما من الجرانيت، وعلى جانبي كل مقبرة تُوضع شاهدة القبر المسجل عليها مآثرهما في إسهاب. وتحوي تشيو انتشو الكثير من الآثار الإسلامية لأنها كانت ميناء مهماً للاتصال بالعالم الخارجي منذ القدم. وفي قرية دايتشين الواقعة بالقرب من مدينة جينجيانغ يوجد معبد أجداد «الدين»

الذي شُيد في أسرة مينغ، وقاطنو هذه القرية من عائلة «الدين» هم من ذرية العرب.

(3) مسجد شيانخه (الكركي): يقع في مدينة يانغتشو. سُمى بهذا الاسم للشبه بين مبانيه والكركي. وقد قيل إن حفيد الرسول محمد من الجيل السادس عشر ويدعى بهاء الدين قد شيد هذا المسجد عندما وفد إلى الصين لنشر الإسلام في أسرة سونغ الجنوبية. وتم بناء قاعة الصلاة في داخل المسجد على غرار الفن المعماري التقليدي الصيني، وتعد ثمرة الدمج بين الطرازين العربي والصيني. ويوجد الآن في مدينة يانغتشو مقابر عائلة بهاء الدين، ويطلق عليها المحليون «مزار هوي هوي»، ومبنية على الطراز العربي الشائع.

(4) مسجد تشنجياو (مسجد العنقاء): في مدينة هانغتشو، سُمي بهذا الاسم لأن بناءه يشبه العنقاء الناشرة جناحيها، ويطلق عليه أيضاً «تشينجياو» (الدين الحقيقي)، تم بناؤه في أسرة تانغ، وأعيد بناؤه في أسرة يوان على يد علاء الدين العربي، ويضم الآن قاعة الصلاة الكبرى التي تعد من آثار أسرة يوان. والمساجد الأربعة الكبرى القديمة المذكورة أعلاه جسدت تاريخ انتشار الإسلام في الصين، وسطرت صحائف الصداقة بين الصين والدول العربية.

ويعتبر مسجد عيد كاه في مدينة كاشغر بمنطقة شينجيانغ الإسلامية أكبر مساجد الصين قاطبة، وتم بناؤه في أسرة تشينغ، وتتسع قاعة الصلاة فيه لما يتراوح بين ستة وسبعة آلاف مُصلٍ في آن واحد، وتضم أكثر من مائة وأربعين من الأعمدة الخشبية المحفورة عليها الأزهار التي تبهر الناظرين إليها.

ويتحلى مسجد هواجيويه في مدينة شيآن بالطراز المعماري التقليدي الصيني، وكان بناؤه على غرار تشييد القصور الصينية بصورة كاملة، وقد سُمي بهذا الاسم لوقوعه في زقاق هواجيويه (التوعية) غربي برج الطبول بالمدينة، وتشمل مبانيه خمساً من ساحات الدار، وخمساً من قاعات الصلاة، والدرابزينات الصخرية، ناهيك عن منظر منتزه، كما يشمل تصميمه على برج رؤية الهلال والمآذن. وقد قيل إنه تم بناؤه في أسرة تانغ، والمباني الباقية الموجودة حالياً يرجع تاريخها إلى أسرة مينغ.

وبالإضافة إلى ذلك، يوجد في الصين بعض المساجد التي تتمتع بالتاريخ العريق والشهرة

مثل: مسجد نيوجيه (البقرة) في بكين، ومسجد تونغشين في منطقة نينغشيا الإسلامية، ومسجد سونغجيانغ في شانغهاي، ومسجد تاييوان في مقاطعة شانشي.

المبحث الخامس

المسيحية

أولاً: نشأة المسيحية وانقسامها

كانت المسيحية داخل نظام العبودية في الإمبراطورية الرومانية في منتصف القرن الأول الميلادي تقريباً، وبلغ الاضطهاد الطبقي ذروته في هذه الإمبراطورية وقتئذ، وعانت ألوف مؤلفة من العبيد من الوحشية والاضطهاد، حتى الذين ينعمون بالحرية، وقعوا في شرك الفقر المدقع واليأس والإحباط، وخاضوا غمار مقاومة شرسة، وشنوا العديد من انتفاضات العبيد، من بينها انتفاضة السبارتاكوسيين أعضاء الحزب الاشتراكي المتطرف الذي ظهر في ألمانيا في عام 1918، و«حرب اليهود»، وهما يقدمان الدليل الدامغ على هذه الأحوال المتردية. ولكن تعرضت مثل هذه الانتفاضات للقمع الشديد جراء تعاظم قوة السلطة السياسية لملاك العبيد في البلاد. وانتابت جماهير الشعب من كافة الفئات مشاعر الكآبة والانقباض واليأس، وبدأت تفكر في البحث عن مخرج ينتشلهم من مأزق الكوارث والنكبات. وفي ذلك الحين، انتشرت اليهودية في فلسطين وإسرائيل ودعت إلى عبادة يسوع (تطلق عليه المسيحية «عيسى») بصفته الإله الواحد، واعتقدوا أنه المخّلص الفادي الذي سوف يجيء إلى عالم البشر وينقذ البشرية. وتأسيساً على ذلك، استوعبت اليهودية أفكار الخرافات السائدة آنذاك من الجنة والنار وخلود الروح، والأفكار الفلسفية التي يروج لها الفلاسفة في بلاد الإغريق وروما من الصبر والجلد، والاعتزال والتنسك، وتشكلت المسيحية في صورتها الأولى رويداً رويداً. ويوضح ذلك، أن المسيحية كانت نتيجة قمع نظام العبودية في عصر الإمبراطور الروماني.

وجاءت تسمية المسيحية من يسوع المسيح الذي كانت تؤمن به، وترى العقيدة الإسلامية أن الدين المسيحي تأسس في المنطقة التي يطلق عليها اليوم فلسطين وإسرائيل بفضل يسوع المسيح ومريديه، وتذكر أيضاً أن يسوع وُلد في عصر أوجتسو (27 ق.م – 14م) في الإمبراطورية الرومانية، وينحدر من أسرة نجار يهودي، وأمه مريم ولدته بعد أن «حبلت فيه بفعل الروح القدس»، وبدأ الدعاية لـ«بشائر» الرب وهو في الثالثة عشرة من عمره، وجمع حوله اثني عشر من مريديه، من بينهم الصيادون والمزارعون والفقراء والموظفون

في الحكومة. وكان يتحلى يسوع بالعديد من أمارات «المعجزة الإلهية»؛ فهو يستطيع أن يجعل الأعمى مبصراً، ويحيي الروح الميتة، ويطعم خمسة آلاف شخص بإعطائهم سمكتين وخمس زجاجات وغيرها. وحظيت تعاليمه الدينية بالإيمان من جانب قطاع عريض من الجماهير، ولكنه تعرض للمقاومة من جانب الكهنة اليهود والحكام في روما، وأخيراً حكم عليه الحاكم اليهودي العام الذي بعثته روما ويدعى بيلادو -حكم عليه بالإعدام وهو ما يعرف بـ «المسيح يصلب من جديد».

والمسيحية في مرحلتها المبكرة كانت تدعو إلى أفكار مفادها أن المخلّص يحرر البشرية من الآلام والمعاناة، وجسد آمال ورغائب الطبقة المضطهدة إلى حد ما، ومن البديهي أن تظفر بإيمان الكثيرين، وفي الوقت نفسه، تعرضت للوحشية والضرر من جانب الحكام أيضاً. ولذلك، يمكن أن نقول إن المسيحية في مرحلتها المبكرة كانت ديانة المضطهدين، ولكن مع انتشارها بين جماهير الشعب وانضمام بعض الفئات الثرية إليها تدريجياً، قامت بالدعاية للطاعة وضبط النفس، والتضرع للرب أن ينعم عليها بالثواب بعد الممات. وكان هدف المسيحية الأساسي يتلاءم مع احتياجات الحكام. وفي عام 313م، أعلن الحاكم العسكري في الإمبراطورية الرومانية القوانين والمراسيم التي اعترفت بالمكانة الشرعية للمسيحية، وأكدت العقيدة المشتركة للمسيح والرب (الكاثوليكية)، وعززت سلطة الكنيسة والبابا. وفي عام 380، أعلن الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول الكبير (346- 395) صراحة أن المسيحية هي الدين الرسمي للدولة.

وشهدت المرحلة المقبلة تعاظم قوة السلطة السياسية والقوة الاقتصادية للمسيحية بصورة مطردة، وأصبحت الكنيسة الرومانية سيداً إقطاعيا والأكثر نفوذاً والأكثر ثراء في غرب أوروبا. وفي عام 756م أصبحت تمتلك الأراضي الخاصة بها، وأسست دولة البابا المستقلة. ولكن المسيحية مثل سائر الأديان الأخرى، شهدت في عملية تطورها تأسيس مركزين بصورة تدريجية هما: مركز روما الغربي، ومركز القسطنطينية الشرقي. وخاضت الكنيسة الشرقية ونظيرتها الغربية صراعاً عنيفاً طويل الأمد بسبب النزاع على السلطة والمغنم، وبعد تجزئة الإمبراطورية الرومانية إلى جزأين شرقي وغربي، تفتت أوصال المسيحية إلى مذهبين في عام 1004م هما: الكاثوليكية بزعامة بابا روما، والأرثوذكسية (الكنيسة الشرقية) ومركزها

عاصمة روما الشرقية.

وفي القرون الوسطى، كانت المسيحية بمنزلة العمود الفقري للحكم الإقطاعي بصورة كاملة، وأداة التوسع والاحتلال في الخارج. وتعد غزوات الصليبيين للشرق، التي بدأت في القرن الحادي عشر، بمنزلة حرب احتلال شنها فاتيكان روما وقام بالترويج لها، ومن أجل أن يحمي فاتيكان روما حكمه، فرض حظراً على حرية التفكير لدى الناس، ونصب العداء للأبحاث العلمية، وانتهج وسائل قمعية وغير إنسانية تجاه ما يطلق عليه «حركة الهرطقة»، وأسس «مركز فض المنازعات الدينية» الذي يعتبر محكمة دينية، وقتل بوحشية ثلاثمئة ألف شخص في غضون مئة يوم، من بينهم عالم الفلك الإيطالي برونو (1584– 1600) الذي أُعدم إحراقاً بالنار لأنه أيد مقولة عالم الفلك البولندي كوبرنيكوس ومفادها أن الأرض وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها. وفي القرن السادس عشر، رفع المواطن الألماني مادين لودا راية الإصلاح الديني وعارض الحكم الإقطاعي لبابا روما، واستجاب لذلك المزارع الألماني المفكر Thomas Muner (1490 تقريباً– 1525) وأثار حرب المزارعين ضد الكنيسة. وفي ظل الصراع الديني هذا، خرجت إلى حيز الوجود البروتستانتية وتطورت لأنها أصبحت تمثل مصالح الطبقة البرجوازية الناشئة في أوروبا، وأعلنت انفصالها عن الكاثوليكية في روما وانتهجت أسلوب المقاومة ضدها، ولذا أُطلق عليها «ديانة الاحتجاج». وبعد ذلك، انقسمت البروتستانتية إلى عدة مذاهب منها: مذهب الكنيسة المشيخية، ومذهب الكنيسة الإنجليكانية، ومذهب المعمداني، ومذهب الكنيسة المستقلة.

ثانياً: العقيدة المسيحية والتنظيم

تعتمد المسيحية على الكتابين الدينيين «العهد القديم» و«العهد الجديد». ويعتبر «العهد القديم» من إرث اليهودية، ومكتوب باللغة العبرية القديمة، وتكوَّن في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي، ويدور مضمونه بصورة أساسية على أساطير اليهود حول مصدر العالم والبشرية وتعاليم اليهودية وعقيدتها. أما «العهد الجديد» فهو الكتاب الديني الذي ينتمي إلى المسيحية ومكتوب باللغة اليونانية، وتكوَّن في الفترة من القرن الأول الميلادي إلى القرن الثاني الميلادي، ومضمونه يركز على أنشطة المسيحية وعقيدتها في المرحلة

المبكرة. وفي الوقت الحاضر، يتداول «العهد القديم والجديد» وهو الكتاب الذي تقرر في صورته النهائية في القرن الرابع الميلادي، وهو ثمرة الخلط بين اليهودية وأفكار كافة المذاهب المسيحية في المرحلة المبكرة.

وتذكر العقيدة المسيحية أن الرب (الكاثوليكية) هو خالق العالم، وهو الخير الكامل، والحكمة الشاملة، والحب الشامل، ويجب على الشعب احترامه وتقديره وخشيته والانصياع له والامتثال لقضائه. كما تذكر هذه العقيدة أن جد البشرية الأول آدم وحواء خالفا نواهي الرب، وأكلا التفاحة المحرمة، واقترفا «أول جريمة»، ومن ثم ذاقا مرارة الآلام، وعولا كثيراً على الفادي يسوع للتكفير عن جريمتهما، وإذا امتثل المرء لإرادة الرب فسوف يدخل الجنة بعد الموت، وإلا خضع للحساب يوم القيامة ويدخل النار ومن أجل بلوغ هذا الهدف حثت المسيحية معتنقيها على الالتزام بـ«الوصايا العشر»: (1) الإيمان بالرب، وعدم الإيمان بالآلهة الأخرى. (2) حظر تصنيع الطواطم أو عبادتها. (3) عدم العبث باسم الرب. (4) تقديس يوم العطلة الأسبوعية (يوم الأحد). (5) الاحترام والبر بالوالدين. (6) تحريم القتل. (7) تحريم الزنا. (8) تحريم السرقة. (9) عدم تزييف الآراء. (10) تحريم اغتصاب ممتلكات الآخرين. أما فيما يتعلق بالمراسم الدينية، فإن الكاثوليكية والكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) لديها ما يطلق عليه الأشياء السبعة المقدسة: (1) العماد: مراسم الدخول في المسيحية. (2) توطيد أركان الإيمان لدى معتنقي المسيحية. (3) إظهار الندم على الذنوب، يظهر معتنقو المسيحية الذنوب التي اقترفوها لرجال الدين المسيحي وإبداء ندمهم. (4) القربان المقدس يرمز إلى رغيف القربان من لحم ودم يسوع، ويدل على أن المرء ظفر بحياة يسوع. (5) منح الكهنوت المسيحي زيت القربان قبل الموت، ويدل ذلك على التخلص من الذنوب التي ارتكبها في الآخرة. (6) مراسم قداس رجال الدين المسيحي. (7) الزواج السعيد لمعتنقي المسيحية. أما الأشياء المقدسة في البروتستانتية فتشمل العماد والعشاء الرباني.

وتنظيم المسيحية يعتبر الكاثوليكية الأكثر صرامة، وبابا روما هو الزعيم الأعلى للكاثوليكية، ويعتقد أنه «يمثل المسيح في دنيا البشر»، وسلطته البابوية في الفاتيكان، وهي تطبيق نظام تركيز السلطة الإقطاعية للدولة، وتحكم قبضتها على الكاثوليكية ومعتنقيها في أنحاء العالم، والدول الكاثوليكية تنقسم إلى المقاطعات الكاثوليكية والمناطق الكاثوليكية،

ويدير شؤونها رجال الدين المسيحي.

ورجال الدين المسيحي في الكاثوليكية يتألفون بصورة أساسية من: كبار الأساقفة وهم ما نتحدث عنهم دائماً بأنهم رؤساء الأساقفة (الكردينال)، ويعينهم بابا روما وله سلطة اختيارهم ويتولون بصفة عامة المناصب المهمة في السلطة البابوية في روما وفي الكنائس في جميع دول العالم. والمطران الرئيسي هو زعيم الكنائس الكاثوليكية في جميع الدول، والأسقف العام هو الأسقف المسؤول عن الكاثوليكية في مقاطعة، وكاهن كاثوليكي يعمل في الوحدة القاعدية في الكنيسة ومسؤول عن شؤون المسيحيين بصورة مباشرة، والرهبان والراهبات الذين يضطلعون بنشر الدين المسيحي ويعملون في خدمة الكنيسة طوال حياتهم. ويتميز تنظيم كنائس المسيحية الشرقية بالاستقلالية في جميع الدول، وتجمعها روابط مرنة. كما يوجد المؤتمر الأعلى للكنائس الشرقية غير المحدد ويضطلع بدور التنسيق بين هذه الكنائس. ورجال الدين المسيحي في الكنيسة الشرقية يتألفون بصورة أساسية من: رئيس (البطريرك)، رئيس الأساقفة، الأسقف، رئيس الكهنة، الكاهن، الراهب. وتنظيم الأنشطة في البروتستانتية أكثر مرونة، ودرجات رجال الدين بسيطة نسبياً، ولا يوجد سوى قس بروتستنتي والمبشر بالمسيحية. والقس مسؤول عن الأنشطة الدينية ويعمل في كنيسة بصفة عامة، أما المبشر فهو ينتمي إلى رجال الدين من ذوي الدرجات الدنيا في الكنيسة.

ثالثاً: انتشار المسيحية في الصين

انتشرت المسيحية في الصين منذ زمن بعيد، في عام 635م في أسرة تانغ. وتفيد السجلات المكتوبة على شاهدة عابة الضواحي في مدينة شيآن حول انتشار المسيحية في الصين أن المسيحية كان يطلق عليها «دين جينغ»، ودخلت الصين من خلال الطريق البري آتية من بلاد فارس، وبدأت الانتشار في الصين بموافقة حكومة أسرة تانغ، وازدهرت حيناً من الوقت عن طريق نشر «الوصايا العشر والكنائس في مئة مدينة». ولكن في عام 845م، عندما دمر الإمبراطور وو زونغ في هذه الأسرة البوذية، فرض الحظر على المسيحية أيضاً، وبعد ذلك، وفي القرن الثالث عشر الميلادي، غزا القائد المنغولي جينكيزخان وخلفه الغرب، وربطوا الشرق والغرب، وأدى ذلك إلى إحياء دين جينغ (المسيحية) في الصين ودخول كاثوليكية روما،

وأنشأ الإمبراطور إدارة تشونغ فو للإشراف على شؤونها، وكان معظم معتنقيها من المغول والأجانب. وبعد زوال أسرة يوان (المانشو)، فرض الحظر على كاثوليكية روما مرة أخرى، وتم تدميرها حتى النصف الثاني في أسرة مينغ عندما انتشرت المسيحية في الصين من جديد على يد المبشر الإيطالي اليسوعي ماتيو ريتشي الذي دمج المذهب الكاثوليكي في المذهب الكونفوشيوسي في الصين، ولذا تطورت الكاثوليكية في الصين تطوراً سريعاً. وفي أوائل أسرة تشينغ، أنعمت هذه الأسرة على المبشرين بالمناصب الهامة، وتعزز انتشار الكاثوليكية أيضاً. وبعد ذلك، أثار الفاتيكان في روما جدلاً عنيفا في مسألة «التشريفات الصينية»، وأعلن ما يُعرف بـ«العهد المحظور». مما أثار سخط حكومة تشينغ، وأمر الإمبراطور كانغ شي حظر دخول المبشرين الغربيين إلى الصين والتبشير بالمسيحية، ولكن لم يفرض حظراً شاملاً على الأنشطة الدينية المسيحية بين صفوف الشعب.

وفي منتصف القرن السابع عشر الميلادي تقريباً، انتشرت الكنيسة الشرقية في الصين، وفي عام 1689م قبل توقيع «المعاهدة الصينية- الروسية» شهدت الصين أنشطة الكنيسة الشرقية. وفي عام 1715م بعث القيصر الروسي أول بعثة من المبشرين. وبعد توقيع معاهدة «ترسيم الحدود بين الصين وروسيا» في عام 1727، أصبحت هذه البعثة هيئة دائمة وقامت بتعزيز أنشطة نشر المسيحية في الصين واتسع نطاقها وتطورت ووصلت إلى شرق الصين وشمالها، كما انتشرت في الشمال الغربي كله أيضاً، وبلغ عدد معتنقي المسيحية عشرة آلاف نسمة قبل عام 1949.

وانتشرت البروتستانتية في الصين في مرحلة حرب الأفيون، وبدأت مع قدوم سكرتير الشركة البريطانية- الهندية الشرقية إلى الصين مالي صون الذي أصدر الترجمة الصينية لـ«العهد القديم والجديد» في عام 1823 وانتشرت البروتستانتية انتشاراً واسعاً مع تعاظم قوة المحتلين الغربيين في الصين، وتمتع بعض مذاهبها بالتأثير القوي نسبياً مثل: مذهب لوثر، مذهب الكنيسة المشيخية، ومذهب الكنيسة الإنجليكانية، ومذهب الكنيسة المستقلة.

الفصل الثامن

التعليم في العصر القديم

كان المجتمع الإقطاعي في الصين يهتم اهتماماً كبيراً بالتعليم، وتجلى هذا الاهتمام بصورة أساسية في جانبين هما: (1) إبراز المكانة السامية للمُعلم، وتشجيع المجتمع بأسره على احترامه وتبجيله. وجاء في كتاب «الطقوس» إن: «احترام المُعلم يعد المشكلة الأصعب في منظومة التعليم، وبعد احترام المُعلم يأتي احترام المبادئ والمذاهب، وبعد احترام المبادئ والمذاهب، يتعلم الشعب كيفية احترام التربية والتعليم». وفي عبارة أخرى، إن احترام المُعلم يعد الأكثر صعوبة في العملية التعليمية، ومادام يكن المجتمع الاحترام للمُعلم، فإنه يمكن احترام المبادئ، ومادام هناك احترام للمبادئ، يمكن أن نجعل الإنسان يحترم التعليم. وفي كتابه «نظرية الطقوس» جسد فيلسوف الصين شون تسي مكانة المُعلم ودوره وأبرزها للعيان بشكل أكبر، ووضع السماء والأرض، والأجداد الأوائل، والملك والمُعلم على قدم المساواة، وأعرب عن إعتقاده أن الحاكم والمُعلم هما أساس إدارة شؤون البلاد، ولذلك قال: «إن الدولة تنعم بالازدهار عندما تحترم المُعلم وتبجله، والدولة التي تحتقر المُعلم وتحط من مكانته، تنهار ويأفل نجمها»، وخلص إلى أن: «من يقتدي بالمُعلم يكون كنزاً ثميناً، ومن لا يقتدي بالمُعلم يكون نكبة وكارثة». ويمكن أن يقودنا ذلك إلى الاعتقاد أن شون تسي أكد مكانة المُعلم ودوره من منظور إستراتيجي رفيع المستوى. وبعد ذلك، سرد الفيلسوف هان يوي في مقال «نظرية التعليم» شرحاً أكثر تحديداً، أشار إلى أن دور المُعلم يتبلور في «نشر الأخلاق، وتعليم التخصص وإزالة الضلال من العقول»، مؤكداً أن وجود المُعلم يرتبط بوجود المعرفة والحقيقة. ولا شك أن هذه الأفكار أثرت في الجو العام الاجتماعي وأسهمت في نجاح التقاليد الرائعة للتعليم. ومن ثم، تمتع كونفوشيوس في المجتمع الإقطاعي بالتأثير الشامل، وكان من أسباب احترام المُعلم عبر الأسر الحاكمة، ولذا اضطلع المجتمع الإقطاعي بتبجيل كونفوشيوس وتنظيم أنشطة إحياء ذكراه بكل إجلال وتقدير، وينطوي ذلك في حد ذاته على مغزى احترام المُعلم. وكانت المدارس في العصر القديم عندما يبدأ تأسيسها أو فتح أبوابها للدراسة تشهد حفلات تقديم «الخضراوات» و«إظهار الاحترام»، بهدف إحياء ذكرى المُعلم والحكيم معلمي السلف وحكماء الماضي. وتقتصر طقوس حفل «الخضراوات» على تقديم الخضراوات الطازجة، وهي طقوس ومراسم متواضعة، أما طقوس «إظهار الاحترام» فتشهد تقديم قربان حيواني وأقمشة قطنية وحريرية، وهي طقوس مهيبة. وأياً

كانت مظاهر الطقوس، فهي تعبر عن حقيقة مفادها: «إن احترام المُعلم يتبوأ المكانة الأولى في التعليم، وإذا أراد المرء أن يتعلم، فيجب عليه أن يضع احترام المُعلم في المرتبة الأولى». ثانياً: توكيد المكانة السامية للتعليم، وتوجيه المجتمع قاطبة إلى احترام العملية التعليمية. وهناك قول مأثور قديم مفاده: «لا يوجد سوى التعليم يحتل مكانة رفيعة المستوى، أما الأشياء الأخرى تأتي في مكانة متواضعة». وعلى الرغم من أن ذلك يزدري العمال والمزارعين والتجار والجنود، إلا أن هدفه الأساسي يكمن في تأكيد المكانة النبيلة للقراءة والمطالعة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك كثرة كاثرة من الناس يعلقون على أبواب ديارهم لافتة مكتوب عليها مقطع شعري مؤلف من بيتين هما: «الزراعة والتعلُّم من الموروثات الموغلة في القدم، وقرض الشعر ومطالعة الكتب تتوارثهما الأجيال في الآجال البعيدة». وهنا يُعد التعلُّم والزراعة من الأعمال العظيمة تتوارثهما الأسر في الصين، ويعكس ذلك خاصتين أساسيتين للثقافة القديمة في الصين هما: الاهتمام بالزراعة، والحرص على التعليم. ولذلك، كان الملوك والحكام، والوزراء وسواد الناس في المجتمع الإقطاعي يعتبرون التعلُّم مهمة مقدسة لفترة طويلة ولا يسمح لأي عمل من شأنه الازدراء أو تشويه هذه المهمة. وفي العصر القديم، أطلق الناس على كوكبة كبيرة من المثقفين لقب «المثقفون الفقراء» بسبب أوضاعهم الاقتصادية المزرية، بيد أنهم حظوا باحترام الناس على نطاق واسع في مجال المعرفة ومراسم الطقوس. وفي الدولة الإقطاعية، كانت الفحوص الإمبراطورية وسيلة للحصول على منصب عالٍ وراتب كبير بهدف إغراء ثُلة من المثقفين للمشاركة في الحياة السياسية، وتحفيز السيكولوجية الثقافية التي تحترم التعلُّم إلى حد كبير.

وكان الاهتمام بتهذيب الأخلاق، وإهمال التدريب على اكتساب الكفاءة والمهارة الفنية بمثابة الخاصية البارزة في تقاليد التعليم بالصين. وفي عبارة أخرى، الاهتمام بتوريث الألقاب والتقاليد بين المعلمين والطلاب، وإغفال القدرة على الإبداع والاختراع، وكان الهدف الأساسي من ذلك يكمن في إعداد موظفين رسميين من كافة الأوساط الاجتماعية تحتاجهم الطبقة الحاكمة، وليس إعداد الأكفاء على اختلاف ألوانهم ومشاربهم الذين يساهمون في بناء الدولة. ونخلص من ذلك إلى أن السياسة الرئيسية للتعليم التقليدي في الصين هي تعليم المرء كيف يكون إنساناً، وليس تعليمه الابتكار والإبداع، ولا فتح آفاق جديدة للتقدم، ولا تغيير المجتمع. ويمكن القول إن أفكار هذه السياسة التعليمية عريقة ومستمرة عبر التاريخ، وكلمة «التعليم» في اللغة الصينية تتألف من مقطعين: المقطع الأول يدل على إدراك المرء لمعنى الكلمات، وعُثر عليه منقوشاً على عظام الحيوانات ودروع السلاحف، ويعني تربية الطفل من خلال ضربه بالعصا، وتبدو على رأسه علامتان جراء الضرب، مما يظهر أن تربية الطفل وإعداده كان من خلال ضربه بالعصا وجعله ينصاع

لإرادة الجيل الأكبر سناً، لذلك ذكر «قاموس المفردات» أن: «التعليم هو اقتداء الصغير بالكبير». أما المقطع الثاني فهو مقطع صوري صوتي، وشكله في الخط الصيني القديم (تشوان) عبارة عن طفل في وضع مقلوب؛ حيث كان الأقدمون يعتقدون أن الطفل في الوضع المقلوب هو طفل ليس مطيعاً وعاق لوالديه، ويقومون بإرشاده وهدايته بفضل رابطة الرحم والقرابة. ولذلك ذكر القاموس المذكور أعلاه أن هذا المقطع يعني تهذيب الطفل حتى يكون إنساناً طيباً وخيّراً. ويوضح ذلك أن المقطعين في كلمة «التعليم» معناهما في فكر الأسلاف غرس الأخلاق الحميدة في داخل الإنسان، وبالطبع طريقة الإعداد والتهذيب ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعصا في العملية التربوية، وكان الفيلسوف الصيني مينشيوس أول من استخدم مقطعي كلمة «التعليم» معاً. وفي كتاب «مينشيوس» الإنسان النبيل يتمتع بثلاث مباهج؛ من بينها أن «تنعم عليه السماء بالكفاءة العالية وتقوم على تعليمه». وهنا مغزى كلمة «التعليم» لا يختلف كثيراً عن مغزاه في وقتنا الحاضر، ومعناه: «التدريب، التهذيب، الإعداد، التربية». وهدف التعليم لدى مينشيوس يركز على المرء ذي الكفاءة العالية، وليس الاهتمام بالشعب بأسره كما هو في عصرنا الحاضر. إن التقاليد التعليمية التي تشكلت في الصين عبر مراحل التاريخ يمكن إدراكها وفهمها بصورة أساسية من خلال استعراض كافة أشكال التعليم الإقطاعي ومحتوياته بصفة عامة.

المبحث الأول

التعليم المدرسي في العصر القديم

الأصول القديمة للتعليم في الصين عريقة وموغلة في القدم، ويمكن أن يرجع تاريخها إلى المجتمع البدائي؛ حيث قام الناس وقتئذ بصيد البحر، وصيد البر، والزراعة والحراثة بصورة أساسية وغيرها من الأنشطة الإنتاجية، واندمجت أحوال التعليم البدائي في أروقة الممارسة العملية لهذه الأنشطة، وتركزت الأنشطة التعليمية على التدريب على كيفية تصنيع الأدوات واستخدامها، فضلاً عن تجارب الإنتاج الأخرى. وجاء في الأساطير الصينية أن «صوى رين علّم الناس ثقب الخشب للحصول على النار»، و«فوشي علّم الشعب حبك الشبكة وصيد السمك»، و«إله الزراعة علّم الناس الحراثة والزراعة». وجسد ذلك بعض أحوال التعليم البدائي في الصين، حيث تحققت الوحدة بين التعليم والإنتاج، ولكن افتقر التعليم إلى تنظيم أو شكل محددين، كما لا توجد أماكن مخصصة ومحددة للتعليم، ولا نظام تعليمي أيضاً. وبعد ظهور المجتمع البدائي، وبسبب تطور قوة الإنتاج واتساع نطاق تقسيم العمل في المجتمع، أصبحت مسألة الثقافة الاجتماعية أكثر أهمية من المجتمع البدائي وحققت ازدهاراً كبيراً، وظهر المثقفون من ذوي العمل الذهني والفكري واضطلعوا بتلقين أبناء ملاك العبيد الأرستقراطيين الدروس في المراسم والموسيقى ورمي السهام على وجه الخصوص، وبدأ التعليم التحرر من ربقة العمل الإنتاجي، واحتكره هؤلاء الأرستقراطيون، وتبلورت ملامح التعليم في المجتمع البدائي.

واشتجرت الآراء وتعددت الأقوال في الإجابة عن هذا السؤال: متى ظهرت المدارس في الصين في نهاية المطاف؟ لقد أثبتت سجلات مكتوبة أن الصين قد عرفت المدارس الرسمية في عصر أسرة شيا. وذكر كتاب «مينشيوس» أن: «التعليم كانت تُلقى محاضراته في شيانغ، شيوي، شيويه، شياو. وشيانغ معناها التربية، وشياو التعليم، وشيوي تعلّم رمي السهام. وكان يُطلق على التعليم في أسرة شيا «شياو»، و«شيوي» في أسرة شانغ، و«شيانغ» في أسرة تشو، و«شيويه» في الأسر الثلاث السابقة بصورة مشتركة، ويهدف إلى تبصير المرء بمدارات المجتمع». وكانت شيانغ، وشيوي، وشيويه وشياو بمثابة أسماء مدارس إذ ذاك. وكانت هناك

مدارس تحتوي على آثار تاريخية تثبت بالدليل أن ما نعرفه إلى الآن أن عصر شانغ كان أقدم العصور التي شهدت المدارس في الصين، لأن نقوش العظام في أطلال ين سجلت أسماء مدارس في عصر أسرة شانغ مثل: شيانغ، شيوي، شيويه، وقو تسونغ وغيرها. وألقاء نظرة على سجلات وثائقية تجعلنا ندرك أن مدارس «شانغ» و«شيوي» تنتمي إلى التعليم الريفي يدرس فيها أبناء عامة الشعب، بينما مدارس «شيويه» تنتمي إلى تعليم الحكومة وتقوم بتربية وإعداد أبناء الطبقة الأرستقراطية، ومن المرجح أن «قوتسونغ» هي مدارس تعليم طقوس القرابين. وانتشرت طقوس تقديم القرابين على نطاق واسع لأن الناس في أسرة شانغ كانوا يؤمنون بالخرافات والخزعبلات، وكان يصاحب إقامة هذه الطقوس العزف على الآلات الموسيقية، وموظف الموسيقى المسؤول يكون رجلاً أعمى، ولذلك فإن «قو» تعني الرجل الأعمى.

وتوطدت أركان النظام الديني رويداً رويداً عندما تأسست أسرة تشو. ومن أجل تقوية النظام الديني، فقد أحرز بناء مدارس التربية والتعليم تقدماً كبيراً، وأصبح نظام التعليم أكثر كمالاً، وهياكل المدارس أكثر تجهيزاً، وعلى وجه العموم، نقول إن المدارس في أسرة تشو الغربية (1046 ق.م – 771 ق.م) كانت تنقسم إلى نوعين هما: مدارس الأرياف، ومدارس الدولة. ومدارس الدولة هي مدارس مركزية وتضم «الجامعة» و«المدرسة الابتدائية». وكان بناء المدرسة الابتدائية في الجانب الأيسر جنوب قصر الملك، بينما تقام الجامعة في الضاحية الجنوبية لعاصمة الدولة. ويطلق على جامعة الإمبراطور ابن السماء في أسرة تشو لقب «بي يانغ»، وعلى جامعة الأمراء والحكام «يان قونغ». ولذلك ذكرت الكتب القديمة أن «ابن السماء يطلق عليه بي يانغ، ويطلق على الحكام والأمراء لقب بان قونغ». ومساحة جامعة ابن السماء كبيرة نسبياً وتضم خمس كليات؛ من بينها «بي يانغ» وتسمى أيضاً جامعة، وتحوطها بركة دائرية من الجوانب الأربعة ويدرس فيها الإمبراطور بنفسه ويقيم فيها الولائم والمآدب، وجنوب البركة يُعرف بـ «تشنغ جيون». ويشهد التدريب على الرقص والموسيقى، أما شمال البركة فيطلق عليه «شانغ شيانغ» حيث تنظيم وجمع المعلومات التاريخية، أما شرقها يُعرف بـ «دونغ شيوي» حيث التدريب على الأسلحة الحربية، وغربها يُطلق عليه «قو تسونغ» ويخصص للتدريب على آداب المراسم، وتحظى كلية «بي يانغ» بالمرتبة الأولى من

بين الكليات الخمس، ولذلك يطلق على الجامعة الاسم الجامع «بي يانغ»، ومن بين الكليات الأربع الأخرى تحظى كلية «تشنغ جيون» بالمكانة الأولى. أما جامعة الأمراء والحكام يكون حجمها قليلاً إلىٰ حد ما، وتحوط المياه نصفها حسب القانون، ولذا أُطلق عليها «بان قونغ». واختلفت المواد الدراسية والتعليمية وقتئذ بسبب وجود نوعين من المدارس: مدارس الدولة ومدارس الأرياف. والمواد الدراسية في مدارس الدولة هي: الأخلاق، السلوكيات، الفنون، المراسم، وتتضمن بصورة محددة الفنون الستة وهي: الأنظمة والقوانين الخاصة بالطقوس الدينية، والموسيقى والرقص، ورمي السهام، وقيادة العربات، والتاريخ، والرياضيات. والموضوعات الرئيسية في الجامعة تتركز على الشعر، التاريخ، المراسم والموسيقى، أما المدرسة الابتدائية تتمحور على التاريخ والرياضيات. والهدف من التعليم كما ذكر كتاب «سجلات المراسم –فصل الجامعة» أن: «هدف التعليم يكمن في الأخلاق المثالية وحب الشعب وتحقيق الكمال» وفي عبارة أخرى، إن التعليم يهدف إلى غرس الأخلاق النبيلة في الطقوس، وتعلم حب الشعب بكل حرارة، وإعداد الإنسان الصالح الذي يحقق منافع الشعب.

وكانت الدولة تتولى الإشراف على مدارس التعليم في أسرتي شانغ وتشو، وهو ما ذكرته الكتب القديمة من أن «التعليم في أيدي السلطات المحلية»، وذلك بسبب أن الأرستقراطيين وأبنائهم هم الذين يُسمح لهم بدخول المدارس وتلقي التعليم. وفي فترة الربيع والخريف، شهدت الساحة السياسية أن «الإمبراطور ابن السماء فقد سلطاته، وانتشر التعليم في كافة الأصقاع»، وذلك جراء تطور القوة الإنتاجية، وبدء نشأة علاقة الإنتاج في النظام الإقطاعي، والتطورات السريعة في الهياكل الاقتصادية والسياسية التي تزامن معها حدوث تغيرات في البناء الفوقي لنظام التعليم. وظهر التعليم الخاص عندما قام لفيف من المثقفين بإلقاء المحاضرات على حشد من الناس والدعاية لأفكارهم وآرائهم. وكان كونفوشيوس أول مؤسس للتعليم الخاص، وأسس المذهب الكونفوشيوسي الذي يهتم بالشعر والتاريخ والمراسم والموسيقى، وفي الوقت نفسه يحرص على صقل الكفاءات والمواهب في آداب الحديث والأخلاق والطقوس والرسميات. وتزامن مع ظهور المدرسة الكونفوشيوسية ونظيرتها المدرسة الموهية التي تكترث بتنمية القدرات الفنية والتقنية العملية في مجال الإنتاج، وفي الوقت نفسه، إجراء الأبحاث في الميكانيكا،

وعلم الضوء والهندسة. وأفل نجم المدرسة الموهية في العصور اللاحقة، وانتشرت المدرسة الكونفوشيوسية في شتى ربوع البلاد. وبات التعليم الحكومي والتعليم الخاص على قدرٍ متساوٍ من الأهمية بعد كونفوشيوس، مما شكل طريقين مزدوجين للتعليم القديم في الصين. وبحلول عصر الممالك المتحاربة، ومع تطور الاقتصاد والثقافة، اتسع نطاق التعليم الحكومي والتعليم الخاص، وأسست إدارة التعليم نظاماً كاملاً نسبياً. وعلى سبيل المثال، قام ملك ولاية تشي بتأسيس «قصر الدراسة جي شيا» في العاصمة، التحق به في ذلك الحين عدة آلاف من الطلاب لدراسة الأدب والترويج لأفكارهم. وفي جوٍ مفعم بالنشاط والحيوية داخل قصر الدراسة، اضطلع هؤلاء الطلاب بالمناقشات وإلقاء المحاضرات والتعبير عن آرائهم. وتم تعيين رئيس جامعة (يُطلق عليه «جي جيو») في قصر الدراسة وغيره من القادة من أجل الإشراف على الأنشطة الأكاديمية للطلاب وتنظيمها. وكان الفيلسوف الصيني تشون تسي رئيساً للجامعة في قصر الدراسة آنذاك، ويعتبر مقاله المعنون بـ «نصيحة الدراسة» أقدم نظرية في علم أصول التربية في الصين. وما يُطلق عليه في العصر القديم «جي جيو»؛ يعني: «يجب تقديم القرابين للأجداد قبل تناول الطعام، وتبادل الأنخاب مع الأكبر سناً قبل احتساء الخمر»، ثم أصبح اسماً. يُطلق على الموظف المسؤول الذي تتساوى مكانته مع رئيس الجامعة في الوقت الحاضر.

وبعد أن توطدت دعائم النظام الإقطاعي، ومن أجل إعداد رعيل من الأكفاء الذين تحتاجهم الطبقة الحاكمة انتهجت الدولة سياسة في الثقافة والتربية قوامها «المذهب الشرائعي في الداخل، والمذهب الكونفوشيوسي في الخارج»، وأنشئت المدارس بكل جهد ونشاط والتي التحق بها الوجهاء للدراسة. وكان التعليم ينقسم إلى نوعين في أسرة هان هما: التعليم الحكومي والتعليم اللاحكومي، وكان الأول الأكثر تطوراً. وكانت «الجامعة الإمبراطورية» و«مدرسة بوابة هونغ دو» من بين المدارس الحكومية التي أسستها السلطة المركزية. كما كان هناك «مدارس جيون قوي» التي أقامتها الحكومات المحلية، بالإضافة إلى شياو، شيانغ، شيوي. والجامعة الإمبراطورية في أسرة هان بدأت في عهد الإمبراطور هان وو دي. وتذكر سجلات تاريخية أنه أصدر أوامره ببناء هذه الجامعة في العاصمة في عام 124 ق.م. وكان يعمل بها المعلمون الحاصلون على الدكتوراه

في أمهات الكتب الخمسة (كتاب الأغاني، كتاب التاريخ، كتاب تقلبات الزمن، كتاب الطقوس وحوليات الربيع والخريف) التي تقوم بتأهيل وإعداد خمسين من الحواريين (طلاب هذه الجامعة فيما بعد). وكانت الجامعة الإمبراطورية أول جامعة تؤسس بصورة رسمية في تاريخ الصين. وبعد ذلك تطور نطاق الجامعة باستمرار، وزاد عدد طلابها بصورة مطردة ووصل عددهم إلى ثلاثة آلاف طالب في عهد الإمبراطور تشينغ دي في أسرة هان. وأسست أسرة هان الشرقية عاصمتها في مدينة لوايانغ، وأنشئت الجامعة الإمبراطورية في جنوب العاصمة، وبلغ عدد الطلاب الذين جاؤوا إليها من شتى بقاع البلاد أكثر من ثلاثين ألف طالب، حتى قبائل الهون أرسلت أبناءها لتلقي العلوم في هذه الجامعة. وبالإضافة إلى الجامعة الإمبراطورية، كانت هناك أيضاً «بوابة هونغ دو»؛ وهي مدرسة علمية متخصصة تأسست في عام 187م في عهد الإمبراطور لينغ وي في أسرة هان، وقد سميت بهذا الاسم لأنها شُيدت في أسفل بوابة هونغ دو، ويدرس فيها الطلاب بصورة أساسية: النثر المسجوع، والرسم والخط على غرار كلية الثقافة والفنون في الوقت الحاضر، وبلغ عدد طلابها أكثر من ألف طالب. وشهدت المدارس الحكومية في المحليات تطوراً هائلاً في أسرة هان. وكانت توجد مدارس «جيون قوي» في عهد الإمبراطور هان وو دي. وما يُطلق عليها «جيون قوي» هي مناطق إدارية تنفيذية رفيعة المستوى، و«جيون» هي الحكومة المركزية المباشرة، ومحافظ المنطقة الإدارية يطلق عليه «جيون شاو»؛ و«قوي» يحكمها الأمراء الإقطاعيون. والمدارس الحكومية «جيون» و«قوي» في المحليات يُطلق عليها مدارس جون قوي. وفي العام الثالث الميلادي تم إعداد اللوائح والقوانين بجلاء التي تنص على إنشاء مدارس شيوه في جيون قوي، وشياو في المحافظة، وشيانغ في الريف، وشوي في القرية الطبيعية. وعلى هذا النحو تشكل نظام التعليم الإقطاعي بصورة رسمية من الجامعة الإمبراطورية المركزية إلى مدارس شيوه في جيون قوي، وشياو، وشيانغ وشيوي.

وشهدت مرحلة أسرتي وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية ازدهار الجامعة الإمبراطورية حيناً، والاضمحلال حيناً آخر، وأصاب الضعف التعليم الحكومي، وذلك جراء القلاقل والزعازع الناجمة عن شن الحروب باستمرار. وتجسد التغيير الذي طرأ

على التعليم في هذه المرحلة في تأسيس «مدارس قوي تسي» في أسرة جين عام 276م والتي كانت تستقبل فقط أبناء الموظفين الذين على كادر أعلى من الدرجة الخامسة، بينما أصبحت الجامعة الإمبراطورية مجرد مدرسة يلتحق بها أبناء الموظفين الذين دون الدرجة السادسة، وكان ذلك نتيجة حتمية لنظام أسرة الحسب والنسب. وفي ولاية تشي الشمالية تغير اسم مدارس قوي تسي إلى «معابد قوي تسي» يقوم بالتدريس فيها حَمَلة الدكتوراه ومساعدو هيئة التدريس. وفي الأسر الجنوبية أنشأ الإمبراطور سونغ ون دي المدرسة الكونفوشيوسية، ومدرسة شوان (الفتيات)، ومدرسة التاريخ، ومدرسة الكتابة، وتعادل هذه المدارس الأقسام العلمية الأربعة التابعة للجامعة. وبعد توحيد البلاد في أسرتي سوي وتانغ، عزز ذلك السيطرة على التعليم في المدارس. وكان الإمبراطور ون دي في أسرة سوي يدير شؤون مدارس قوي تسي، والجامعة الإمبراطورية، ومدارس سيمين انطلاقاً من «معابد قوي تسي» من أجل النهوض بالتعليم. وتغيّر اسم «معابد قوي تسي» إلى «الأكاديمية الإمبراطورية» في عهد الإمبراطور يان وي في أسرة سوي. وعلى هذا النحو، كانت وظيفة الأكاديمية الإمبراطورية تناظر إلى حد كبير وظيفة وزارة التربية والتعليم. وورثت أسرة تانغ الأنظمة في أسرة سوي، ولكن نظام المدارس فيها كان أكثر تحيزاً وكمالاً. وكانت المدارس المركزية تنقسم إلى نوعين هما: مدارس أهل البيت ومدارس الأقرباء الأبعدين، ويُطلق عليهما «المدارس الست والمركزان الثقافيان». والمدارس الست تنتمي إلى مدارس أهل البيت وتحت قيادة موحدة من الأكاديمية الإمبراطورية، وتشمل هذه المدارس مدرسة قوي تسي، والجامعة الإمبراطورية، ومدرسة سيمين، ومدرسة القانون، ومدرسة التاريخ، ومدرسة الرياضيات، وكانت المدارس الثلاث الأولى تتحلى بالخصائص الجامعية، بينما المدارس الثلاث الأخرى على غرار الكليات المتخصصة. والمركزان الثقافيان ينتميان إلى مدارس الأقرباء الأبعدين ويتمتعان بسمات الجامعة، ويطلق عليهما «مركز هونغ ون» و«مركز تشونغ ون»، ومؤهلات طلابهما تتفوق على مدرسة قوي تسي، ويقتصر القبول فيهما على أقارب الإمبراطور وأبناء الموظفين الذين على كادر أعلى من الدرجة الثالثة. وبالإضافة إلى هذين المركزين الثقافيين، كان يوجد أيضاً مدرسة الطب داخل أروقة مدرسة الأقرباء الأبعدين ويشرف عليها أطباء

الإمبراطور، كما يشرف سكرتير المحافظة على المدارسة الابتدائية (مدارس احتياطية تابعة لهذين المركزين) كما تشمل مدارس أهل البيت «مدرسة تشوانغ تشوان» التي يدرس فيها الطلاب فلسفة لاوتسي وتشوانغ تسي وتشرف عليها وزارة المعابد. وكان النظام التعليمي داخل المدارس كاملاً في أسرة تانغ، ولذلك كان النظام أكثر صرامة في امتحان الالتحاق بالمدارس والتوزيع على الأقسام العلمية؛ فعلى سبيل المثال، كان إجمالي طلاب مدرسة قوي تسي ثلاثمائة طالب، يلتحق بها أبناء الموظفين المدنيين والعسكريين الذين على كادر أعلى من الدرجة الثالثة، وإجمالي طلاب الأكاديمية الإمبراطورية كان خمسمائة طالب، يدرس فيها أبناء المدنيين والعسكريين الذين على كادر أعلى من الدرجة الخامسة، وإجمالي طلاب مدرسة سيمين ألف وثلاثمائة طالب، يدرس فيها خمسمائة طالب من أبناء الموظفين المدنيين والعسكريين الذين على كادر أعلى من الدرجة السابعة، ويمكن تكملة باقي أعداد الطلاب البالغ عددهم ثمانمئة من أبناء عامة الشعب. والأقسام العلمية داخل كل مدرسة تحدد عدد سنوات التخرج حسب محتويات المواد الدراسية بها، وفي الوقت نفسه، يخضع الطلاب للامتحان كل عشرة أيام، وامتحان سنوي وامتحان التخرج. وإذا رسب الطالب يتعين عليه الدراسة من جديد، والطالب الراسب لمدة ثلاث سنوات، يتم تمديد سنوات دراسته بحد أقصى تسع سنوات، وإذا تكرر رسوبه مرة أخرى، فإنه يُرغم على ترك الدراسة قانوناً. ويتمتع الطلاب بالطعام المجاني في مدارس شياو، ولكن يجب عليهم تقديم هدايا «شوشيو» للمعلمين. وما يُطلق عليه «هدايا شو شيو» عبارة عن هدايا يقدمها الطلاب للمعلمين عندما يتقابلون للمرة الأولى احتراماً وتقديراً لهم. وقد قيل إن عصر كونفوشيوس قد شهد إقامة مثل تلك المراسم، حتى أصبحت قانوناً حضارياً في أسرة تانغ. وتختلف قيمة وأهمية الهدايا باختلاف طبيعة المدرسة؛ حيث يقدم الطلاب في مدرسة قوي تسي والجامعة الإمبراطورية ثلاثة أثواب حريرية هدايا للمُعلم، بينما في مدرسة سيمين يقدم الطلاب ثوبين من الحرير، وثوباً واحداً في سائر المدارس الأخرى. وبالإضافة إلى النسيج الحريري الرقيق، كانت الهدايا تشمل أيضاً الخمور واللحوم والكميات غير محددة. ويكون حفل تقديم الهدايا مصحوباً بمراسم تقديم النقود، والهدف هو توثيق العلاقة بين المعلمين والطلاب. ويجب الإشارة

على وجه الخصوص إلى أن المدارس الست في أسرة تانغ كان يدرس بها عدد غير قليل من الطلاب الأجانب القادمين من تايلاند وكوريا واليابان وغيرها. وكان طلاب اليابان الأكثر عدداً. وكانت نتيجة بعض الطلاب اليابانيين ممتازة واضطلعت بدورٍ هائل في دفع التبادل الثقافي بين الصين واليابان.

المبحث الثاني

الأكاديمية الإمبراطورية في أسرتي مينغ وتشينغ

كما ذكرنا آنفاً، أن الأكاديمية الإمبراطورية كانت في الأصل جهازاً إدارياً يتولى إدارة شؤون التعليم، ثم اندمجت مع مدرسة قوي تسي في إطار عملية التطوير والتغيير، وحلت محل هذه المدرسة في أسرة مينغ، وأصبحت تتحلى بخاصيتي الجهاز التنفيذي الإداري وأعلى جامعة في الصين. وفي أسرة تشينغ حلت هذه الأكاديمية أيضاً محل الجامعة، وباتت الجامعة الوحيدة الأعلى في البلاد، ولكن تضاءلت صلاحيتها بصورة كبيرة ولم تعد الجهاز القيادي الإداري في مجال التعليم. والأكاديمية الإمبراطورية التي نشاهدها اليوم في بكين هي أعلى جامعة عرفتها الأسر الثلاث: يوان ومينغ وتشينغ، وبدأ تشييدها في عام 1306م، ويتاخم شرقها معبد كونفوشيوس حسب قوانين المجتمع الإقطاعي التي تنص على: «بناء معبد كونفوشيوس في الجهة اليسرى، وبناء الجامعة في الجهة اليمنى». وعندما ندلف إلى البوابة الكبرى للأكاديمية والتي يُعلق فوقها قوس تذكاري بالمينا الملونة ونجتازها، نجد قصر يطلق عليه «بي يونغ»، وهو بمثابة المبنى الرئيسي للأكاديمية الذي تحوطه بركة دائرية من الجوانب الأربعة ويطلق عليها بركة «بان»، واسمها وتصميم المبنى مقتبسان من الاسم القديم والشكل القديم اللذين كانا في جامعة أسرة تشو. ومنذ أسرة هان، أُنشئت العديد من قصور «بي يونغ» في الجامعة الإمبراطورية ليلقي فيها الإمبراطور المحاضرات. وفي كل مرة يلقي فيها الإمبراطور المحاضرات في الجامعة الإمبراطورية (أو الأكاديمية الإمبراطورية) يجلس الموظفون والطلاب القرفصاء على الجوانب الأربعة لبركة بان، ويصغون باهتمام شديد إلى محاضرة الإمبراطور. وفي شمال قصر «بي يونغ» توجد قاعة «يي لون»، وهي قاعة القوانين والأخلاق، وهي أيضاً مكان تلقي الطلاب المحاضرات والدراسات ومناقشة الكلاسيكيات الكونفوشيوسية، وهي تناظر ما يطلق عليه اليوم قاعة احتفال أو اجتماع. وعلى جانبي قصر «بي يونغ» توجد ست قاعات هي: «شواي شينغ»، تشينغ شين»، «تشونغ تشي»، «شيوي داو»، «جينغ يي»، «قوانغ يه»، وتعد هذه القاعات بمثابة المكان الذي يتعلم فيه الطلاب على غرار الفصول الدراسية في الوقت الحاضر، وأسماء تلك القاعات تجسد بصورة كاملة

الاحتياجات الأساسية للمجتمع الإقطاعي؛ بمعنى الاهتمام بالأخلاق والعلاقات العائلية، وإغفال التخصص والقدرة الفنية. كما توجد أربعة مكاتب على جانبي قاعة «يي لون»، هي: مكتب «ديان باو» المسؤول عن الوثائق الرسمية والشؤون المالية، ومكتب «شينغ يان» المسؤول عن النظام والانضباط، ومكتب «ديان جي» المسؤول عن المكتبة، ومكتب «باوشي» المسؤول عن مناقشات أساتذة الجامعة للكلاسيكيات الكونفوشيوسية. وتعتبر هذه المكاتب بمنزلة الأجهزة الإدارية والتنفيذية المسؤولة عن إدارة شؤون الدراسة.

ورئيس الأكاديمية هو المسؤول رفيع المستوى في الأكاديمية الإمبراطورية ويطلق عليه عادة «جي جيو»، ويكون من بحاث الكونفوشيوسية الذين يتمتعون بالمعارف الواسعة، والعلم الغزير والشهرة الطيبة، وقد تولى هذا المنصب الأديب الصيني العظيم في أسرة تانغ هان يوي. وكان الباحث الشهير ياو سوي في أسرة يوان أول رئيس للأكاديمية الإمبراطورية. وكان يطلق على نائب رئيس الأكاديمية «سي يه»، ويساعد رئيس الأكاديمية في إدارة كافة شؤون الأكاديمية مثل نائب رئيس الجامعة الدائم في وقتنا الحاضر، وتولى هذا المنصب الشاعر الصيني العظيم تشانغ جي في أسرة تانغ. وبعد وظيفة نائب رئيس الجامعة، تأتي الوظائف التالية «جيان تشين» يعمل في مكتب شينغ يان، و«ديان باو» يعمل في مكتب «ديان باو» و«ديان جي» يعمل في مكتب ديان جي، ويماثل ذلك رئيس المكتبة بالجامعة في الوقت الحاضر، وقد تولى هذا المنصب تشانغ شيوه تينغ في أسرة تشينغ. وأساتذة الجامعة ومساعدو أعضاء هيئة التدريس يجلسون على انفراد في مكتب الأساتذة والقاعات الست المذكورة أعلاه ويضطلعون بمسؤولية شرح الكلاسيكيات الكونفوشيوسية، وهم يشبهون الأستاذ الجامعي والمدرس الجامعي في الوقت الحاضر.

ويطلق على الطلاب الذين يدرسون في الأكاديمية الإمبراطورية «جيان شينغ»، ولم تفرض عليهم شروط المنشأ الطبقي في أسرتي مينغ وتشينغ كما كان الحال في أسرة تانغ، ولكن كانوا ينقسمون إلى أربع فئات بسبب اختلاف مؤهلات الالتحاق بالأكاديمية على النحو التالي: «جيوي جيان» هم طلاب ناجحون على مستوى الناحية وقتئذ، ولكنهم رسبوا في امتحان العاصمة واختارتهم وزارة هان لين وأرسلتهم للالتحاق بالأكاديمية، و«قونغ جيان» هم الطلاب الذين وقع عليهم الاختيار في جميع المدارس للالتحاق بالأكاديمية؛ و«ين جيان»

هم الطلاب الذين يلتحقون بالأكاديمية اعتماداً على مؤازرة آبائهم، و«لي جيان» هم أبناء عامة الشعب الذين يتبرعون بالمال ويسمح لأبنائهم الالتحاق بالأكاديمية بسبب العجز في أعداد طلاب الأكاديمية. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أيضاً الطلاب الأجانب الذين يدرسون بالأكاديمية يطلق عليهم «يي جيان». والمقررات الدراسية التي يدرسها الطلاب في الأكاديمية هي شروح مذهب تشانغ- تشو لـ«الكتب الأربعة» (رسالة العلم الكبير، رسالة المحجة الوسطى، كتاب حوارات كونفوشيوس وكتاب مينشيوس)، و«أمهات الكتب الخمسة» وغيرها من الكلاسيكيات الصينية، فضلاً عن المقرر الإلزامي من دراسة رسالة ذات أجزاء ثمانية. والطالب الذي يجتاز امتحان «الكتب الأربعة» ويرسب في الكتب الكلاسيكية الأخرى يلتحق بالمدرسة الابتدائية في قاعات جينغ يي، تشونغ تشي، وقوانغ يه، ويدخل الامتحان بعد عام ونصف العام، وإذا كان بنيان مقاله سلس ومتماسك، يرقى إلى المدرسة الإعدادية في قاعتي شيوي داو، وتشينغ شين، وبعد عام ونصف العام يدخل الامتحان أيضاً، وإذا اجتاز امتحان التاريخ وكانت مقالته متماسكة وسلسة ويتحلى بقدرات التفوق يرقى إلى المدرسة الثانوية في قاعة شوان شينغ ويتخرج بعد عام.

وكانت الأكاديمية الإمبراطورية تنفذ نظام «حفلة عشاء» و«التطبيق العملي» في أسرة مينغ. وحفلة العشاء عبارة عن أن يقوم رئيس مكتب شؤون المطعم بإعداد وتجهيز الموائد والكراسي والأدوات في قاعة الطعام، ويجلس رئيس الأكاديمية في الجنوب، ونائبه في الشمال، ويجلس رئيس المكتبة والأساتذة من الشرق إلى الغرب، أما الطلاب فيجلسون خلفهم في صفين من الشرق إلى الغرب، وكل طباخ مسؤول عن خمسة وعشرين شخصاً، وقبل دخول المطعم يدوي صوت جرس كبير قائلاً: «لا تتفوه بكلمات أثناء تناول الطعام، ويجب أن تجلس في هدوء وطمأنينة» ومغزى حفلة العشاء لا يكمن في تناول الطعام، بل في تلقين الطلاب دروساً في المراسم وآداب اللياقة بغرض تربية الطلاب وإعدادهم إعداداً صارماً في الالتزام بالأفعال الحميدة والسلوكيات والمظهر. والتطبيق الميداني هو توزيع طلاب الأكاديمية على جميع الأقسام في دار الوالي لدراسة الشؤون الحكومية وإدراك الإدارة الحكومية حتى يكونوا على استعداد تام بالمؤهلات الضرورية لتولي المناصب الحكومية، وفي البداية يتدربون لمدة نصف عام، ثم تختصر إلى ثلاثة شهور، ويتدربون نهاراً، ويعودون

أدراجهم في المساء. ونتائج التدريب الميداني توزع على ثلاث درجات: العليا، المتوسطة، الدنيا. ويختار أصحاب الدرجة العليا للعمل وسد العجز في الموظفين، ويستمر أصحاب الدرجة المتوسطة في التدريب الميداني، أما أصحاب الدرجة الدنيا فيرجعون إلى الأكاديمية لرفع المستوى والمزيد من الدراسة. وكانت معاملة طلاب الأكاديمية في أسرتي مينغ وتشينغ الأكثر سخاء، حيث تمنحهم الحكومة الملبس والمأكل والمسكن، وتقوم برعاية أسر الطلاب المتزوجين، كما تمنح الطلاب الغُزاب الأموال اللازمة لمهر الزواج، وتتحمل أيضاً نفقات سفر الطلاب لزيارة أقاربهم وذويهم. ولكن فرضت الحكومة سيطرة صارمة على الأفكار والسلوكيات، حيث القوانين الصارمة والحازمة الخاصة بالدوام في المدرسة، والحياة اليومية، وتناول الطعام والشراب، وارتداء الملابس، والاستحمام، وطلب الإذن في المدرسة وغيرها من آداب السلوكيات في التعليم الأكاديمي. وتنص قوانين الأكاديمية في أسرة تشينغ على أن: «من لم يمتثل للقوانين ويرتكب مخالفة مرات عديدة، ويصر على انتهاك القوانين لمدة ثلاثة شهور، يبلغ مكتب شينغ يان (النظام والانضباط) بالمخالفات الحقيقية التي ارتكبت للنظر فيها ويصدر أوامره بعودته إلى داره ولا يُسمح له بالتخرج. أما الذي يدمن الخمر والعراك، ويروج الشائعات ويفبرك الأحداث، ويحط من قدر المُعلم، فهو من مرتكبي المخالفات الشنعاء، ويجب ابلاغ مسؤولي مدرسته بتصرفاته الذميمة مهما كانت مآثره الدراسية والذين بدورهم يبلغون مكتب النظام والانضباط لمعاقبة المخالف. «وكذلك تطبق القوانين الصارمة على كل من يعاكس فتاة ويطاردها ويروج للدعارة،ويلعب الميسر، وينتهك حرمة المنشآت الحكومية، ويمارس الاستفزاز والتحرش، وإثارة القلاقل، وعقوبة الخطيئة الصغرى الجلد بالسوط، أما عقوبة الخطيئة الكبرى فهي الإعدام.

المبحث الثالث

ازدهار وانهيار معاهد العلوم التقليدية

تعتبر معاهد العلوم التقليدية من الأشكال الخاصة للتعليم الإقطاعي في الصين، ويمتد عمرها إلى أكثر من ألف سنة من أسرة سونغ إلى أواخر أسرة تشينغ، ويختلف نظامها الإداري وطرق التدريس بها اختلافاً كبيراً عن الأكاديمية الإمبراطورية والجامعة الإمبراطورية، وتتحلى بالتأثير الهائل في تاريخ التعليم الصيني. وإذا أردنا أن نفهم التعليم القديم في الصين، لا يمكن إغفال أحوال التعليم داخل أروقة معاهد العلوم التقليدية.

وفي الواقع، أن معاهد العلوم التقليدية تشبه بعض الشيء ما يطلق عليه اليوم الجامعة الخاصة، وقد تطورت وخرجت إلى حيز الوجود من الأبنية التعليمية. وتفيد سجلات محلية أن معهد «دين تشانغ جيو جيان لي» هو أقدم معهد ظهر في الصين في مقاطعة سيتشوان عام 635م، ولكنه لم يكن مؤسسة تعليمية تلقى فيها المحاضرات ويرتادها الأتباع والحواريون، ولكنه كان مكاناً خاصاً للدراسة والبحث والمطالعة. وبعد ذلك، ذكرت سجلات الكتب التاريخية تأسيس معهد «لي جينغ شيوه» في عام 718م. ومعهد «جي شيان قونغ» في عام 725م. وكان بناء هذه المعاهد داخل القصور ليس بهدف إلقاء المحاضرات والدراسة، ولكنها كانت تستخدم في جمع كتب الدولة وتنسيقها وترتيبها ومقارنتها وضبطها. ومنذ البداية، لم تضطلع هذه المعاهد بوظيفة التدريس سواء كانت معاهد خاصة أو معاهد الدولة. وفي أواسط وأواخر أسرة تانغ تأسست بعض المعاهد الخاصة التي بدأت الاضطلاع بالتدريس والتحق بها الطلاب والمريدون، وكان ذلك إيذاناً بولادة معاهد التعليم في الصين.

وشهدت السنوات الأولى لأسرة سونغ ظهور معاهد التعليم وازدهارها في الصين. وبعد تأسيس أسرة سونغ، قامت –بادئ ذي بدء– بوضع نهاية لمحاولات تقسيم البلاد والانفصال في الأسر الخمس والدويلات العشر»، وحققت توحيد البلاد. ولكن كرس البلاط الإمبراطوري جهوده لغزو الجنوب الذي كان لا يزال يموج بحركات الانفصال عن السلطة السياسية المحلية، ولم يكن لدى الإمبراطور الوقت الكافي للاهتمام بالثقافة والتعليم، وافتقرت الأبنية التعليمية إلى التطور تقريباً. والأكاديمية الإمبراطورية، التي كانت من

موروثات ما بعد أسرة تشو، أصبحت هيكلاً فارغاً. ونظراً لأن الدولة ركزت اهتمامها أولاً على توحيد البلاد وتوطيد دعائم الاستقرار، وبث في النفوس الرغبة القوية في صعود سُلم الارتقاء، ولذا أعرب المثقفون المنتشرون بين أوساط الشعب عن آمالهم في تحقيق مآثر وشهرة عن طريق التعليم. وقد بدأ التعليم ينهض في ظل التحول التاريخي إذ ذاك، وارتأى حكام أسرة سونغ أن المعاهد الخاصة وضعت حلولاً للمشاكل الاجتماعية. ومن ثم قدموا الدعم إلى هذه المعاهد بصورة إيجابية على الصعيدين السياسي والمادي، ويمثل ذلك المد الأعلى الأول للتعليم في المعاهد داخل الصين. وظهرت في هذه المرحلة بعض المعاهد ذات النطاق الواسع نسبياً، والتي أُطلق عليها في التاريخ «المعاهد الأربعة الكبرى في أوائل أسرة سونغ». ولكن الحقيقة المؤكدة أن هناك سجلات تاريخية قد ذكرت أنه كان يوجد ستة معاهد كبرى في أوائل أسرة سونغ هي: «شي قو»، «سونغ يانغ»، «يوه لو»، «جيوي يانغ»، «باي لو»، و«ماوشان» (في مقاطعة جيانغضو اليوم). وحققت هذه المعاهد شهرة واسعة النطاق في كافة أنحاء البلاد بفضل «الدعم المادي والمنح» التي قدمها الأباطرة لتعضيدها.

ولكن سرعان ما أصبحت المعاهد في أسرة سونغ الشمالية (960م – 1127م) هامدة خاملة، وموحشة ومهجورة بسبب محدودية الوقت، والسبب في ذلك يكمن في أن أسرة سونغ نقلت بؤرة الموضوع الجوهري في التعليم إلى «مدرسة قوان» (مدرسة الدولة) رويداً رويداً، فمن ناحية، أن الأكفاء الذين تقوم المعاهد بإعدادهم لم يستطيعوا تلبية الاحتياجات الهائلة داخل الأسرة الحاكمة نفسها، وفي خارج البلاد أيضاً. ومن ناحية أخرى، أن بعض الوزراء في أسرة سونغ الشمالية الذين يتحلون بالجهد الكبير في مجال التعليم والدراسة مثل وانغآن شي، قد اجتازوا الفحوص الإمبراطورية لاختيار الأكفاء. وأدرك السواد الأعظم من المتعلمين أنهم لا يستطيعون الحصول على فرصة الارتقاء بأنفسهم إلا من خلال الالتحاق بـ «مدرسة قوان»، ومن الطبيعي أن يعزفوا عن الدراسة في المعاهد الأخرى، ومن ثم بات التعليم في المعاهد مهجوراً وموحشاً. واستشرى الفساد في مدرسة قوان بقدوم أسرة سونغ الجنوبية، وأصبحت المدارس في الولايات والمحافظات اسماً. لا حقيقة، ولكن ازدهار تعلم الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية يحتاج إلى أماكن للدراسة وإلقاء المحاضرات، وفي هذه الأثناء، قام رائد الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية جوشي بإحياء أنشطة التعليم في معهد «باي لو»، ومعهد

«يوه لو»، وألقى بنفسه محاضرات فيهما، وقام بتوجيه الطلاب والحواريين وإرشادهم، ثم ما لبثت شتى البقاع التعلم منه والاقتداء به، وأصبح ذلك عادة شائعة في البلاد، ولذا تطورت المعاهد تطوراً هائلاً، وشكّل ذلك المد الأعلى الثاني للدراسة في معاهد الصين وقتئذ. وتفيد إحصائيات، أنه كان يوجد سبعة وثلاثون معهداً فقط في أسرة سونغ الشمالية، ومائة وستة وثلاثون معهداً في أسرة سونغ الجنوبية، وعلى وجه الخصوص المعاهد الأربعة: يوه لو، باي لو دونغ، لي تسه (في مقاطعة تشجيانغ اليوم)، شيانغ شان (في مقاطعة جيانغشي اليوم)، وأصبحت المراكز الأكاديمية الأكثر تأثيراً في مجال الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية بعد أن تولّى رئاستها والإشراف عليها رواد هذه الفلسفة أمثال: جوشي، لوجيو يوان. ولا غرو أن يطلق على هذه المعاهد «المعاهد الأربعة الكبرى في أسرة سونغ الجنوبية». وانتهجت حكومة أسرة يوان تجاه المعاهد سياسة تبلورت ملامحها في تشجيعها والإفادة منها، وتعزيز السيطرة عليها، وبذلت قصارى جهدها حتى تجعل المعاهد تقتدي بطرق التدريس في مدرسة قوان (مدرسة الدولة). وبعد تأسيس أسرة يوان، قامت الحكومة المركزية أولاً بتأسيس معهد «تاي جي» في مدينة يان جينغ تحت إشراف الدولة، وتختلف طبيعته تماماً عن المعاهد في أسرة سونغ الجنوبية. وبعد توحيد منطقة جنوب حوض تشانغجيان، رغب لفيف كبير من مشاهير المذهب الكونفوشيوسي عن التعيين في حكومة أسرة يوان، وتراجعوا عن إلقاء المحاضرات في مدرسة شان لين. ولم تتمتع حكومة يوان بالقوة والنفوذ في مجابهة الصعوبات والمشكلات، ومع ذلك ظفرت بالتشجيع والمؤازرة، ولذا ازدهرت معاهد يوان إلى حد ما، ولكن سيطرت هذه الحكومة على قيادة المعاهد؛ حيث كان رؤساء المعاهد والمشرفون عليها تعينهم الحكومة أو يظفرون بموافقتها. وفي أوائل أسرة مينغ، نأي الاهتمام والتركيز عن مدرسة قوان (مدرسة الدولة)، وحظي الفحص الإمبراطوري بالتشجيع، ولذا أفل نجم المعاهد مرة أخرى، وغابت شمسها عن الساحة التعليمية. وبعد أواسط أسرة مينغ، ساد الظلام السياسي، واستشرى الفساد في الفحوص الإمبراطورية، وقام علماء الكونفوشيوسية، مثل وانغ شو رين، وتشاو روا شيوي، باستغلال المعاهد في الدعاية للأفكار الأكاديمية والآراء السياسية وتحفيز حركة التحرر الفكري، ولذا ازدهر التعليم في المعاهد مرة أخرى، وأصبح ذلك يمثل المد الأعلى الثالث للتعليم في المعاهد القديمة بالصين. ومن سمات التعليم في المعاهد في هذه المرحلة

تحقيق الاندماج بين الأنشطة الأكاديمية والأنشطة السياسية بصورة وثيقة، وترتب على ذلك، أن الأنشطة السياسية هددت نظام الحكم الاستبدادي. ومن ثم، تعرضت المعاهد للخطر وفرض القيود عليها مرات عديدة. و«قضية مدرسة دونغ لين» الشهيرة وقعت أحداثها في مدينة ووشي المتاخمة لهذه المدرسة التي أصبحت مركز المعاهد في ظل رئاسة قوشيان تشينغ في ذلك الحين، بهدف «السخرية من سياسة الأسرة الحاكمة وتقييم الشخصيات البارزة»، وتوجيه سهام الهجوم المسمومة نحو رئيس الخصيان في القصر ويدعى وي تشونغ شيان، وجذب ذلك الجماهير للاستماع إلى المحاضرات، مما أثر في المجتمع تأثيراً هائلاً، ولذلك اعتبر البعض ذلك بمثابة ظهور «جماعة دنغ لين» التي تعرضت للوحشية والقمع مرات عديدة. وظهرت مقالات سردت الأحداث التاريخية للصراع العنيف بين هذه الجماعة ورئيس جماعة الخصيان. وفي السنوات الأولى لتأسيس أسرة تشينغ انتابتها الشكوك والارتياب في أن هذه المعاهد هي أماكن لحشد الجماهير وتعبئتها، ولذلك قمعتها وقيدت حريتها بكل قوة، ثم وافقت بعد ذلك على تأسيس معهد في كل عاصمة مقاطعة في عام 1733م، وتعيين رئيس المعهد يكون من جانب الحكومة، وتتحمل الدولة نفقاته، ويلتزم التعليم فيه بكافة الاستعدادات للفحص الإمبراطوري، وعلى هذا النحو أصبح المعهد تحت إشراف الحكومة كاملاً ومجهزاً.

ومحتوى المواد الدراسية في المعاهد لا يختلف كثيراً عن نظيره في مدارس الدولة عبر مراحل التاريخ، ولكن كانت المعاهد عبر الأسر الحاكمة قائمة على أساس دراسة وبحث الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية، وذلك لأن تطوير المعاهد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه الفلسفة في أسرة سونغ. ويمكننا القول إن المعاهد والفلسفة المثالية الكونفوشيوسية يرتبطان قلباً وقالباً. وكانت المواد الدراسية الأساسية تشمل الآتي: «الكتب الأربعة» و«أمهات الكتب الخمسة»، أما المواد الدراسية الإضافية وقراءات المراجع فكانت عبارة عن مؤلفات ومقتطفات من أقوال علماء الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية. وكانت أهم طرق التدريس أن يدرس الطلاب بأنفسهم، فضلاً عن قيام المعلمين بتدريبهم وتعليمهم. وكانت جميع المعاهد تولي اهتماماً كبيراً بالتعلم الذاتي. وقدم المفكر الصيني الشهير جوشي ستة مبادئ أساسية في الدراسة هي: (1) التمسك بالطموح والاحترام. (2) التقدم بانتظام وخطوة خطوة. (3) الاطلاع على

الأفكار الجيدة وتمحيصها. (4) التواضع ورحابة الصدر. (5) التذكر دائماً القيام بالتجربة والملاحظة. (6) الاجتهاد وبذل الجهود المضنية. وأهم خاصية تميزت بها الدراسة هي نظام «جيانغ هوي» الذي أسسه جوشي، ويعني نظام المناظرة الأكاديمي. وشهدت أسرتا سونغ ومينغ المذاهب المختلفة في الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية، ولكن كان نظام «شيانغ هوي» في المعاهد بمثابة مناظرة أكاديمية بين المذاهب والنظريات المتباينة. فعلى سبيل المثال، كانت هناك اختلافات في الرؤى الأكاديمية بين جوشي، ولوجيو يوان. وعندما كان جوشي يلقي محاضراته في مدرسة «باي لو دونغ» بصورة أساسية ويشرح أن «الرجل الكامل الخلق واقف على البِرّ، والرجل الناقص الخلق واقف على الربح»، كان يدعو في الوقت نفسه زميله لوجيو يوان أن يشاركه في المحاضرة في آن واحد. ووضع جوشي إرهاصات مهيبة للمراسم في المحاضرات، ومن هنا تشكلت تقاليد «جيانغ هوي» في المعاهد من ضرورة توكيد الهدف المحدد، والنصوص، والموعد المحدد والمراسم المهيبة. ودفع هذا النظام التبادل الأكاديمي وتطور الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية إلى الأمام، واضطلع بدور إيجابي وفعال في هذا الشأن.

وكانت الهيئة التنظيمية للمعاهد بسيطة نسبياً في بادئ الأمر، ثم أصبحت معقدة يوماً بعد يوم بعد أن تولت الحكومة الإشراف عليها، وعلى سبيل المثال، المعاهد في عصر أسرة تشينغ تضم كوكبة من الإداريين التنفيذيين الذين يشرفون على شؤون الدراسة على النحو التالي: (1) المسؤول الأول عن المعهد ويدعى «شان تشانغ»، ويتولى إدارة شؤون المعهد ويدعو مشاهير الكونفوشيوسيين للتدريس. (2) المسؤول عن شؤون التعليم بصورة أساسية ويدعى «تانغ شانغ». (3) المسؤول عن الشؤون المالية واللوجستيات ويدعى «قوان فان». (4) المسؤول عن الاستقبال ويدعى «ديان يه». (5) المسؤول عن الكلاسيكيات ويدعى «جينغ شانغ». (6) المسؤول عن المراسم والموسيقى ورمي السهام ويدعى «شيوه شانغ». (7) المسؤول عن استقبال الضيوف وارشادهم ويدعى «ين تسانغ». (8) المسؤول عن الطعام ويدعى «هوافو». (9) المسؤول عن الحراسة والدوريات الليلية ويدعى «مين داو». ويتم توزيع الطلاب على الفصول في المعهد، وتختلف وظائف كل فصل عن الآخر، فبعضها مخصص للكتابة والخط، وبعضها للتدريب على الأسلحة، وبعضها لمطالعة الكلاسيكيات، وبعضها للتدريب على

الفنون. وتتحلى قوانين الدراسة في المعهد بالوضوح والشفافية، والصرامة والحزم. وكان جوشي أول من وضع نظاماً كاملاً لقوانين الدراسة في المعاهد؛ حيث قام بإعداد «قوانين الدراسة في مدرسة باي لو دونغ»، وترسمت خطاه المعاهد الأخرى في العصور اللاحقة. ولكن طرأ على هذه القوانين بعض التعديلات والإضافات حيث قام اثنان من مريدي جوشي بإعداد «مبادئ الدراسة» التي جاء فيها: «يجب على كل دارس أن يلتزم التزاما صارماً بالمراسم، وينصاع لأوامر الكبير، ويعتدل في جلسته، ويستقيم في مشيته، ويصغي ويرى باهتمام شديد، ويلتزم بالآداب واللياقة في الأفعال والأقوال، ويتسم مظهره بالمهابة، ويتهندم في أحسن ثياب، ويرتدي قبعة مستقيمة، ويقتصد في تناول الطعام والشراب، ويحاسب النفس بدقة عند الاستئذان، ويركز في المطالعة والقراءة، ويكتب بالخط النموذجي الصيني، ويضع الطاولات الصغيرة بنظام وتناسق، وينظف الحجرة ولا تشوبها شائبة، ويحدد موعداً للقاءات، ويدخر وقتاً لعمل المنجزات بعد التخرج ويتسلى بالفنون المفيدة». وفي عام 1685، ترأس خه لاي تانغ مدرسة باي لو دونغ، وحدد سبعة بنود في قواعد الدراسة هي: (1) التركيز على الأخلاق والسلوكيات الجيدة. (2) مطالعة الكتب بتركيز عظيم واهتمام شديد. (3) الرؤية الواضحة والفكر المستنير. (4) التواضع في طلب المنافع. (5) إنجاز المهام والأعمال بإخلاص شديد. (6) تقييم الأشخاص بحق وصراحة. (7) الدراسة المشتركة بقلب واحد، ويمكن أن نتعلم ونقتبس من بعض هذه البنود في الوقت الحاضر.

ولا يزال يوجد -إلى الآن- عدد غير قليل من معاهد العلوم التقليدية في العصر القديم منتشرة في شتى بقاع الصين وتعتبر عينات تاريخية تجسد شواهد ثقافية داخل أروقة هذه المعاهد الصينية. ومن بين المعاهد الستة الكبرى في أوائل أسرة سونغ، لا يزال يوجد بحالة جيدة كل من معهد باي لو دونغ في مدينة لوشان، ومعهد يوه لو في مدينة تشانغشا تشيو، ومعهد سونغ يانغ في مدينة سونغ شان، ومن بينها أثر معهد باي لو دونغ تأثيراً كبيراً في تاريخ التعليم بالصين، لأنه حظي بعناية فائقة من قبل جوشي.

وكان هذا المعهد بمثابة مدرسة «قوي» في مدينة لوشان في أسرة تانغ الجنوبية، ثم أصبح معهد باي لو دنغ في أوائل أسرة سونغ. وكان جوشي ونظيره في أسرة سونغ الجنوبية العلامة في الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية تشانغ شي يحاضران في معهد لو يوه، وأصبح الآن جامعة

خونان التي تعد -في الواقع- جامعة حكومية عمرها ألف سنة. وبالإضافة إلى ذلك، هناك عدة معاهد لعل من أهمها: «معهد بحيرة الأرز» في مقاطعة جيانغشي، الذي شهد أول مناظرة بين جوشي ولوجيو يوان، وأُطلق على هذه المناظرة «مناظرة الوزة» في التاريخ. أما معهد ناسشي يمثل مسقط رأس جوشي ودراساته في صدر شبابه. وكان من بين طلاب معهد باي لو في مقاطعة جيانغشي البطل القومي ون تيان شيانغ.

المبحث الرابع

التثقيف البيتي في العصر القديم

كان التثقيف البيتي في العصر القديم بمثابة تكملة للتعليم المدرسي على غرار التثقيف البيتي في العصر الحديث. ونظراً لأن التعليم المدرسي لم يتطور بصورة كافية في العصر القديم، ولذلك كانت الأغلبية التي تتلقى التعليم من أبناء الطبقة الأرستقراطية، وكان من الصعب للسواد الأعظم من أبناء عامة الشعب الالتحاق بالمدارس وتلقى التعليم، مما أدى إلى تعاظم أهمية التثقيف البيتي. وتبين السيرة الذاتية للعديد من الشخصيات التاريخية أنها أحرزت منجزات كبيرة بفضل الاجتهاد في الدراسة في ظل التعليم والرقابة الصارمة من جانب الوالدين والأخوة الكبار. وعلى سبيل المثال، فيلسوف الصين العظيم مينشيوس، سردت كتب التاريخ قصة «والدة مينشيوس تنقل مسكنها ثلاث مرات» وهي تعد مثالاً للتثقيف البيتي في المرحلة المبكرة. وذكر كتاب «رموز ثلاثة» أن: «والدة مينشيوس قد اختارت الجار قبل الدار آنذاك»، وبين ذلك أن والدة مينشيوس تدرك تأثير البيئة في تعليم الأطفال، ولذلك قدحت زناد أفكارها ونقلت مسكنها من المقابر إلى السوق، ثم من السوق إلى جوار مدرسة، حتى تمكن ابنها من الدراسة والتدريب على المراسم، مما جعل أمه تشعر بالغبطة الشديدة، وذكرت: أنه حقاً المكان الذي يجب أن يقطن فيه ابني. وفي مرحلة أسرتي وي وجين، كان هناك مؤرخ يدعى هوانغ بوميي ألف كتاباً رائعاً بعنوان «الملوك والحكام في قرن»، وقد تبناه عمه منذ نعومة أظافره، وعندما تجاوز العشرين بقليل أفرط في التسكع هنا وهناك، ورغب في الدراسة، وذرفت عمته الدمع وأسدت إليه النصح مراراً وتكراراً حتى هزت أركانه، وتركت كلماتها انطباعاً شديداً في نفسه، وبذل قصارى جهده حتى أصبح علاّمة في نهاية المطاف. كما كان يوه فيي –منذ البداية– يتعلم القراءة والكتابة مع والده، وينصت إليه وهو يشرح التاريخ، وقبل أن يلتحق بالجيش علمته والدته أن يضحي بنفسه من أجل الوطن. وفي أواخر أسرة مينغ، كان هناك طفل عبقري يسمى «شيا وان تشون» عقد العزم على التضحية من أجل الوطن بفضل التربية والتعليم من قبل والده، وفي الخامسة عشرة من عمره قاوم فساد أسرة تشينغ بجوار والده، ومن سوء الطالع أنه أُعتقل بعد ذلك، وعاجلته المنية وهو في ريعان

شبابه في السابعة عشرة من عمره. وقد جسد طموحه وعبقريته، وذكاءه وفطنته عندما وبخ بقسوة الجنرال العسكري الخائن لوطنه هونغ تشين تشو وجعله لا يجد مكاناً يستر فيه عاره. وهناك أمثلة لا يمكن إحصاؤها في هذا المضمار. وقد أنجب التاريخ الصيني كثرة كاثرة من الأكفاء الذين حققوا إنجازات تباعاً من خلال تتابع جيلين الأب والابن، أو ثلاثة أجيال من الجد والحفيد، أو عدد من الأخوة. وقدم ذلك إسهامات كبيرة لتطوير المجتمع. وعلى الرغم من أن هذه الأحوال يمكن أن نعثر فيها في الوقت الحاضر على مثال أو مثالين، ولكن ليس بصورة بارزة كما كان في العصر القديم لأسباب تتعلق بالتثقيف البيتي.

وتأسيساً على سجلات وثائقية، يجدر بنا القول إن أقدم تثقيف بيتي عرفته الصين كان في أسرة تشو الغربية (1046 ق.م – 771 ق.م). وكان دوق تشو حصل على إقطاعة في مملكة لو، ولكنه اضطر أن يبقى في العاصمة لمساعدة الملك تشينغ وانغ لأنه كان غريراً، وطلب من نجله أن يسافر إلى لو. وعندما كان الابن على وشك الرحيل قال له والده مثقفاً ومعلماً أياه: «أنا ابن الملك ون وانغ، والشقيق الأصغر للملك وو وانغ، وعم الملك تشينغ وانغ، ويمكن القول إن مكانتي ليست متواضعة. ولكن عندما أتناول الطعام، أرجع المأكول مكروها ثلاث مرات، وأهرول إلى استقبال الضيوف، خشية أن افتقد رؤية أحد الأكفاء. وعندما تصل إلى مملكة لو، أحذرك أن تستقبل الضيوف بفظاظة». وربما يعتبر ذلك أقدم تثقيف بيتي في صحائف سجلات وثائقية. ولكن دوق تشو لم يؤسس نظاماً للفكر التربوي. ولذا يعتبر كونفوشيوس أول مؤسس للتثقيف البيتي غير مدافع. وذكر كتاب «حوارات كونفوشيوس» أن: «كونفوشيوس كان يقف يوماً منفرداً، ومر ابنه لي يو بالقاعة مسرعاً فقال له: هل درست سفر القصائد؟ قال: لا. فقال: إذا لم تدرس سفر القصائد لا تستطيع البيان. فتقهقر ابنه وأخذ يدرس سفر القصائد. ووقف كونفوشيوس يوماً آخر منفرداً ومر ابنه بالقاعة مسرعاً أيضاً فقال: هل درست سفر الآداب؟ فقال: لا. فقال كونفوشيوس: إذا لم تدرس سفر الآداب لا ترسخ قدماك. فتقهقر وأخذ يدرس سفر الآداب». وهنا هدف التعليم، ومضمون التعليم لدى كونفوشيوس، يتسمان بالوضوح والشفافية. ويلقن ابنه دروساً في سفر القصائد والآداب كما يفعل مع غيره من مريديه وأتباعه، فضلاً عن توطيد أقدامه في المجتمع، وتكريس علمه من أجل منافع المجتمع.

وبعد أسرة هان، وبسبب المكانة الخاصة والتأثير الخاص للمذهب الكونفوشيوسي، حرصت أسر المثقفين وكبار الموظفين الإقطاعيين وأسر عامة الشعب أيضاً، على أن يكون تعليم سفر القصائد وسفر الآداب من المضامين الأساسية للتثقيف البيتي على غرار المواد الدراسية في عصرنا الحاضر، واعتبرت الإخلاص وبر الوالدين، واللياقة وآداب المعاملة والاستقامة بمثابة المتطلبات الرئيسية في التثقيف البيتي، ومن هنا بدأ التثقيف البيتي يتسم بالمعايير والمقاييس النموذجية رويداً رويداً. وفي أواخر عصر الأسر الجنوبية والشمالية، وفي أوائل أسرة سوي، ظهر عالم تربوي يدعى «يان جي توي»، قيل إنه من الجيل اللاحق لمريدي كونفوشيوس، وكان واسع الإطلاع وغزير المعرفة، واهتم بالتثقيف البيتي اهتماماً شديداً، وكان حاذقاً في الاقتباس من تربية الأسرة عبر العصور، وجسد ممارسته العملية في تربية الأسرة وألف كتاباً بعنوان «يان وتربية الأسرة» يحتوي على اثني عشر فصلاً، ويشمل كافة مجالات التثقيف البيتي في الأسرة الإقطاعية، ويعتبر الجزء الخاص بوصف السيكولوجية الثقافية القومية وحماية الاستقرار في المجتمع أهم وخلاصة موضوعات الكتاب ويتحلى بالإيجابية والفعالية. كما احتوى مضمون الكتاب على احترام الكبير، وحب الصغير، والدراسة بجد واجتهاد، والاقتصاد في الإنفاق والبساطة، والشرف والاستقامة من أجل الآخرين وغيرها من الموضوعات الأخرى التي تتسم بالمغزى الايجابي إلى الآن. ومن ثم يمكن أن نقول إن كتاب «يان وتربية الأسرة» يعتبر أول كتاب متخصص في التثقيف البيتي ظهر في الصين. وبعد ذلك ظهرت: «معايير الأسرة»، و«مبادئ الأسرة»، و«نصائح الأسرة»، و«قيود الأسرة». وغيرها. وانتشرت تربية الأسرة على نطاق واسع بعد أسرتي مينغ وتشينغ، وتجسد ذلك بجلاء في كتاب «حكمة ترتيب شؤون الأسرة» لمؤلفه جو باولو في أسرة تشينغ، الذي ركز على الحِكَم والأقوال المأثورة في تربية الأسرة، ويتحلى بالمضمون الثري، والاقتراب من الحياة، ويروق المثقفين والجماهير في آن واحد، ناهيك عن سهولة فهمه وتذكّر موضوعاته.

المبحث الخامس

المدارس الخاصة القديمة في أسرة تشينغ

كان التعليم في المدارس الخاصة القديمة متطوراً نسبياً داخل منظومة التعليم في أسرة تشينغ. وكان تعليم هذه المدارس لا ينتمي إلى تعليم المدارس كلية، ولا يعد جزءاً من التثقيف البيتي تماماً أيضاً، وانما كان يُعد من تعليم المدارس الابتدائية الشعبية بموجب مراحل تعليمه، وكان يُطلق عليه مسميات مختلفة مثل: مينغ قوان، وجياشو، وزو شيوه وغيرها. ويمكن تصنيف أحوال إنشاء المدارس الخاصة في ذلك الحين إلى ثلاثة أنواع: (1) يدعو الأثرياء المُعلم لتعليم أبنائهم في البيوت، ويطلق عليه مدرسة «جياو قوان» و«زوا قوان». (2) ينشئ المُعلم في بيته مركزاً يتعلم فيه الطلاب والحواريون، ويسمى ذلك مدرسة «جياشو» أو «سي شو». (3) يقدم السكان المحليون الأموال اللازمة ويطلبون من المعلمين تأسيس مركز في الأماكن العامة لتعليم أبناء الفقراء والمحتاجين، ويطلق على هذه العملية «يي شيوه» أو «يي شو». وقد شهدنا هذه الأنواع الثلاثة في الأعمال الأدبية، وفي الأعمال المرئية أيضاً. وكان أديب الصين لوشون يتلقى دروسه في «مدرسة المزايا الثلاث» التي تنتمي إلى مدارس التعليم الخاص في الصين.

والطلاب الذين يدرسون في المدرسة الخاصة القديمة يطلق عليهم «شيوه تونغ»، وتتراوح أعمارهم من الخامسة إلى الثالثة عشرة، وعدد الطلاب في كل فصل يتراوح -بصفة عامة- من أربعة طلاب إلى عشرين طالباً، وطرق التدريس تنتهج بصورة أساسية التعليم على انفراد. ويلتحق الطالب بالمدرسة الخاصة في سن الخامسة أو السادسة، ويبدأ أولاً تعلم القراءة والكتابة حتى يتقن معرفة ألف رمز صيني، ثم يبدأ دراسة كتب «كتاب الرموز الثلاثة»، و«مائة لقب عائلي»، و«مقالة ألف رمز»، كما يقرأ بصورة مباشرة الكتب الأربعة، ويبدأ في الغالب بمطالعة «رسالة العلم الكبير»، ثم «رسالة المحجة الوسطى»، وبعد ذلك يدرس كتاب «حوارات كونفوشيوس»، و«كتاب مينشيوس». وكانت طريقة التدريس في هذه المدارس هي أن يقف الطالب بجوار طاولة المُعلم، ويقرأ المُعلم أولاً، ثم يردد الطالب ما يسمعه، ويقرأ المُعلم عدة مرات أو عشر مرات، ثم يطلب من تلميذه أن يعود إلى مقعده

ويقرأ بنفسه، وبعد ذلك يرجع إليه ويقف أمامه مرة أخرى ويُسّمع ما حفظه عن ظهر قلب. وعندما يتأكد المُعلم أن الطالب حفظ الدرس عن ظهر قلب مطرداً وعكساً، يبدأ تعلم درس جديد. وعندما يتمكن الطلاب من قراءة معظم فهرس المحتويات بإتقان وسلاسة، يبدأ المُعلم الشرح للطلاب جملة جملة. وبالإضافة إلى ذلك، تتضمن المواد التعليمية دروس تعلم الخط والتدريب يوماً بعد يوم، ولذلك كان خريجو هذه المدارس يتمتعون بالمهارة في فن الكتابة. وبعد أن يقطع الطلاب شوطاً محدداً في الدراسة، يبدؤون تعلم المقابلة والتضاد استعداداً لقرض الشعر فيما بعد. وكان كتاب «تنوير قانون الأصوات» المقرر المدرسي الرئيسي في هذا الخصوص. ويدرس الطلاب أمهات الكتب الخمسة ويتدربون على كتابة المقال من ثمانية أجزاء على أساس فهم الكتب الأربعة، وذلك استعداداً لدخول الفحص الإمبراطوري. والقوانين واللوائح صارمة في المدارس الخاصة، ويتمتع المُعلم بالسلطة المطلقة، فمثلاً، إذا ارتكب الطالب مخالفة أو افتقد الاحترام، فإن عقاب الخطيئة الصغرى تذنيب الطالب بأن يظل واقفاً ويركع، أما عقاب الخطيئة الكبرى فهو الضرب على الأيادي والردف، واستمر تطبيق هذا النظام من العقوبة الجسدية حتى عشية التحرير في الصين.

الفصل التاسع

نظام الفحوص الإمبراطورية

يعتبر نظام الفحوص الإمبراطورية من أكثر الأنظمة التي استمرت ردحاً طويلاً في التاريخ الصيني. وكان نظام قبول الأكفاء يتألف من الثالوث: نظام الفحوص الإمبراطورية، ونظام التعليم في العصر القديم والنظام البيروقراطي الذي شكّل المجتمع الإقطاعي. ويقوم التعليم بإعداد أصحاب الكفاءات والمواهب، وتضطلع الفحوص الإمبراطورية باختيار الأكفاء، ويستفيد النظام البيروقراطي من هؤلاء الأكفاء، والفحوص الإمبراطورية هي الحلقة الرئيسية في هذا الثالوث. وحدد ذلك بعض خصائص نظام الفحوص الإمبراطورية، وهي: (1) هو وسيلة لتدشين التعليم ووضع نهاية لمرحلة انتقاء الأكفاء، ولذلك يعتبر جزءاً من التعليم القديم ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعليم من البداية إلى النهاية. (2) المعيار الأساسي لاختيار المواهب في الفحوص الإمبراطورية ليس المقدرة الحقيقية على حل المشاكل؛ بل هو مستوى إدراك وفهم الكلاسيكيات الكونفوشيوسية. وفي عبارة أخرى، ليس الاهتمام بالقدرة والكفاءة بصورة أساسية، بل النظر بعين الاعتبار إلى الموهبة الأدبية. (3) يتمحور نظام القيم الذي أسسته الفحوص الإمبراطورية على تعليم المرء كيفية اكتساب الثروة والمناصب الرسمية الرفيعة، وأن يكون مجرد أداة وخادماً للإمبراطور بصورة كاملة. ويكمن الهدف الأكبر في تصرفات وأعمال المقبولين في الحصول على منصب عالٍ وراتب كبير، والفوز أيضاً بمنصب نبيل لنفسه ولزوجته ولذريته، ومعيار السلوك هو الامتثال لإرادة الإمبراطور في إدارة الشؤون. وهناك قول مأثور مفاده: «المواظبة على التعلُّم على الرغم من الصعوبات والبرد القارس لمدة عشر سنوات، يجعلك مشهوراً بين عشية وضحاها»، ويصف ذلك سيكولوجية المثقفين في العصر القديم. (4) تبلورت ملامح هيكل المجتمع الذي أوجدته الفحوص الإمبراطورية في الاهتمام بالموظف والاستخفاف بالشعب، وتبجيل الموظف الحكومي وازدراء سواد الناس، ولذلك تأسس مجتمع الموظفين الحكوميين. وقبول مُجاز الفحوص الإمبراطورية يجعله سيد الشعب على حين غرة، ويمكن أن يتربع على هامات الناس انطلاقاً من استغلاله السلطة في الاستبداد والظلم، بينما يرزح السواد الأعظم من الشعب تحت وطأة المرارة والمعاناة. ولذلك حالما يظهر شخص أو شخصان لديهما الرغبة في التمسك بالعدالة من أجل الشعب، فمن الطبيعي أن يكونا من منقذي الشعب، وهذه هي سياسة «موظف نظيف اليدين» التي لم يأفل نجمها منذ نيف وألف

سنة خلت. والخصائص المذكورة أعلاه هي عبارة عن بعض المعارف التي حصلنا عليها من تقصي حقائق الفحوص الإمبراطورية انطلاقاً من رؤى التاريخ الثقافي، وليس بموجب رفض نظام الفحوص الإمبراطورية - من حيث الأساس- رفضاً قاطعاً. وتعد الفحوص الإمبراطورية ظاهرة تاريخية، استطاعت أن تتشكل وتتطور عبر مراحل التاريخ، واندثرت في الوقت الحاضر لأسباب تاريخية عميقة الجذور. وعلى الرغم من مساوئ ونقائص الفحوص الإمبراطورية ومظاهر الفساد العديدة الناجمة عنها أثناء مراحل تطورها، بيد أنه لا يسعنا إلا الإقرار بأن هذه الفحوص كانت من أجل الدولة الإقطاعية واكتشفت واختارت كوكبة كبيرة من النوابغ والأكفاء الذين كان من بينهم ثُلة قدموا إسهامات بارزة من أجل إحراز التقدم في المجتمع وتطوير الأمة الصينية، وبينهم بعض الأشخاص الذين كانوا ركيزة الدولة والشعب وتركوا أثراً هائلاً إلى الآن. وتتحلى الفحوص الإمبراطورية بالمزايا العديدة التي يمكن اقتباسها والتعلُّم منها، وخاصة الاحتكام إلى الكفاءة والمقدرة في اختيار الأكفاء وقبولهم وليس التقيد بالأهلية والأقدمية.

المبحث الأول

نظام اختيار الأكفاء في الفحوص الإمبراطورية

كانت إدارة شؤون البلاد في الصين في العصر القديم ترتكز بصورة أساسية على أسلوبين هما: احترام الأكفاء وأصحاب القدرات واختيار النوابغ. ويشير «الأكفاء» إلى الأفراد من ذوي الأخلاق والكفاءة والقدرة؛ أما «المثقفون» فهم أهل الخبرة والمعرفة والمقدرة. ويعتبر هذان الأسلوبان بمثابة وسيلة واحدة مفادها اختيار الأكفاء وتوظيفهم. والذين يُعتبرون من الساسة في التاريخ مثل الحكام والوزراء يدركون عادة التواضع للعلماء والحكماء، ويعينون أصحاب المواهب، ويستخدمون الأكفاء، وعلى العكس، الساسة الذين يفتقرون إلى القدرة يقومون دائماً بإقصاء المعارضين في الرأي، ويحسدون النبلاء ويبغضون الأكفاء. ومن ثم، ذكر المؤرخ الصيني بان قو في كتابه «النمر الأبيض» أن: «إدارة شؤون البلاد تعتمد في الأساس على احتضان الأكفاء وعندما تحصل على الأكفاء يعم الاستقرار في البلاد، وعندما تفقدهم تنتشر الاضطرابات». وعرفت أسرة تشو في العصور الغابرة أحوال اختيار المثقفين وتعيينهم كموظفين رسميين؛ فقد ذكر كتاب «المراسم» أن: «المسؤول عن شؤون التعليم والموسيقى يقيم منجزات النابغين والأكفاء ويخبر الملك بأحوالهم، ثم يفحصهم مسؤول الشؤون العسكرية ويتقصى أحوالهم وقدراتهم ويبلغها للملك أيضاً، حتى يمكن الموافقة على قبولهم ويصبحون موظفين حكوميين رسميين يتحلون بالمكانة، ويتقاضون رواتبهم». ويُعد ذلك في حد ذاته الربط بين الأكفاء والرواتب العالية. ولكن قبل فترة الربيع والخريف، وبسبب سيطرة ملاك العبيد الأرستقراطيين على السلطة السياسية، كان اختيار الموظفين يطبق بصورة أساسية «نظام توريث الوظائف وتوريث الرواتب من جيل إلى جيل»، ويعني ذلك أن هؤلاء الأرستقراطيين اعتمدوا على علاقة الدم ورابطة الرحم، وجعلوا أولادهم وأحفادهم يعتلون مناصب الموظفين جيلاً بعد جيل، والملك لا يمكن أن يضطلع بالتعيين والعزل حسب مشيئته، وكان اختيار الموظفين المثقفين للعمل كموظفين مجرد وسيلة إضافية لا أكثر من ذلك. وشهدت فترة الربيع والخريف زيادة عدد المثقفين أكثر فأكثر، وتعاظمت أهمية دورهم يوماً بعد يوم بسبب تطور الاقتصاد والثقافة في المجتمع، والتغيرات التي طرأت

على العلاقات الطبقية. وعندما تولى قوان تشونغ منصب رئيس الوزراء في مملكة تشي، شكّل أربع فئات اجتماعية هي: «المثقفون، المزارعون، العمال، التجار»، وكان المثقفون يحتلون المرتبة الأولى. وفي ظل احتدام المنافسة في الشؤون السياسية والعسكرية، قامت كل مملكة بتسجيل أسماء أهل المواهب والقدرات لاختيار الأكفاء مثل: يان تشو وانغ الذي أسس مكتب تشو هوانغ لتسجيل أسماء الأكفاء على نطاق واسع، وقام الأرستقراطيون والمثقفون وكبار الموظفين بفتح أبواب ديارهم على مصراعيها من أجل إعداد الأكفاء وتدريبهم بغرض تعزيز شهرتهم وصيتهم مثل: مينغ تشينغ جيون، وشين لين جيون، وتشون شينغ جيون، وبينغ يوان جيون، وقد وصل عدد الأكفاء إلى أكثر من ألف شخص يمثلون شتى الألوان والأطياف والأوساط الاجتماعية. ومن ثم، أطلق على نظام اختيار الأكفاء «موظف غريب في البلاط الملكي»، بمعنى اختيار جنرال الجيش ورئيس الوزراء وبعض الوزراء من العسكريين ذوي الدرجات الدنيا أو من بين عامة الشعب مادامو يتحلون بالمهارة والبراعة في علم أو فن ولديهم المهارة المهنية والحرفية، مما يجعلهم يتمكنون من إيجاد حلول فورية للمشاكل الملحة التي تجابه الملك أو الحكام الآخرين، ومن ثم يستطيعون إظهار قدراتهم ومهاراتهم على الساحة السياسية. وكانت الفترة من أسرة تشين إلى أسرة هان، بمثابة الدخول إلى عصر تركيز سلطة الدولة الإقطاعية، واحتاجت الطبقة الحاكمة عدداً كبيراً من ذوي الكفاءات والمهارات الذين على استعداد التضحية من أجلها، ولذا اتسع نطاق اختيار الأكفاء في أسرة هان. وكانت طريقة «الاختيار الأساسية تنقسم إلى: (1) تشاجيوي. (2) تشنغ بي. وما يطلق عليه «تشاجيون» هو قيام كبير الموظفين والمركيز ومحافظ الولاية المحلية وغيرهم من كبار الموظفين باختيار الأكفاء من ذوي الأخلاق النبيلة والقدرات الفائقة وترشيحهم للبلاط الإمبراطوري الذي يعينهم في الوظائف. واختبار «تشاجيوي» يستهدف موظفي الحكومة وطلاب المدارس المحلية بصورة أساسية، وتشمل موضوعاته: الإعلان عن الرأي بلا خوف ولا مواربة، والنابغون أصحاب القدرات الخاصة، والشرف والاستقامة والبر بالوالدين، وإتقان معرفة الكلاسيكيات الصينية. ويخضع مرشحو الوظائف للامتحان من جانب البلاط الإمبراطوري في أغلب الأحايين، حيث يطرح عليهم الإمبراطور أسئلة في المجال السياسي أو في الكلاسيكيات الصينية، يطلق عليها «تسه ون»، وكانت هذه الأسئلة تُقسم إلى مستويين

حسب درجة الصعوبة والسهولة، ويطلب من المرشحين سحب الأسئلة والإجابة عنها، وتُعرف هذه العملية بـ «شه تسي» أو «دوي تسه»، ثم يعينهم البلاط في الوظائف حسب إجادتهم في الامتحان مثل دونغ تشونغ شو الذي تم تعيينه عن طريق «دوي تسه» بعد أن اختير من بين أكثر من مائة متقدم من الأكفاء في عصر الإمبراطور هان وو دي في عام 140 ق.م، بالإضافة إلى ترشيح «تشاجيوي»، فإن الأكفاء يستطيعون ترشيح أنفسهم مثل الأديب ملك الفكاهة المشهور في التاريخ دونغ منغ شو الذي تم تعيينه بموجب ترشيحه لنفسه على غرار دونغ شو، بعد أن حظي بالثقة في المناقشة والمحاورة أمام الإمبراطور هان وو دي الذي عينه في البلاط. وما يُعرف بـ «تشنغ بي» هو توظيف المشاهير أصحاب السمعة الطيبة بدعوة من الإمبراطور والحكومة؛ و«تشنغ» هي دعوة الإمبراطور، و«بي» هي دعوة الحكومة. ونذكر في هذا الخصوص، «يانغ شيونغ» صاحب الموهبة الأدبية المشهور آنذاك، والذي أمر الإمبراطور بتعيينه مباشرة في «الحرس الإمبراطوري»، وكذلك العالم جيا تشانغ هينغ تم توظيفه في الحرس الإمبراطوري أولاً، ثم رقُي وأصبح رئيس المؤرخين. وبالإضافة إلى ذلك، طبقت أسرة هان نظام «تعيين الأبناء» الذي يعين ألفي موظف في الكادر الوظيفي وقتئذ، والذين يستطيعون الاحتفاظ بمزايا الاختيار يعينوا أبناءهم في وظيفة خادم بالقصر الإمبراطوري مثل صو وو الذي تمتع بمزايا هذا الاختيار وعمل موظفاً. وما تذكره كتب التاريخ في أسرة هان من «تعيين الصغار في وظائف بالقصر بفضل آبائهم «يشير إلى نظام تعيين الموظفين. ولكن أنظمة تعيين الموظفين في أسرة هان أبرزت للعيان المساوئ والنقائص بصورة مطردة. **ففي المقام الأول**، شهد نطاق اختيار المرشحين المحدودية من أجل أبناء البيروقراطيين والأثرياء. ثانياً: أصبح المال هو معيار الاختيار، ولذلك كان الأكفاء المقبولين ليسوا بالضرورة يتحلون بالكفاءة والقدرة، فقد اخترقت الثروة صفوف المسؤولين الضالعين بهذا العمل. وفي أوائل هان الشرقية، انتشرت أغنية في جنبات الشوارع تقول كلماتها: «الأكفاء المقبولون لا يعرفون القراءة والكتابة، والشرفاء المختارون لا يعرفون البر بالوالدين». وأدرك القائد العسكري الشهير في ذلك الحين تساو تساو هذه المساوئ، ولذلك شجع «اختيار الأكفاء فقط»، وأعلن بصورة مباشرة «أوامر البحث عن الأكفاء». وعندما اعتلى نجله تساو بي عرش السلطة في أسرة وي، تبنى اقتراح كبير موظفي قسم المراسم وأعد قانون «الدرجات التسع في تعيين

الموظفين» الذي ينص على تقسيم المقبولين إلى تسع درجات هي: الدرجة العليا، والدرجة العليا المتوسطة، والدرجة العليا السفلى، وهكذا في الدرجة المتوسطة والدرجة الدنيا. وبعد موافقة الإمبراطور على القانون، يتم تعيين المختارين في وظائفهم حسب جدول الانتظار، والذين لا يعرفهم البلاط معرفة جيدة من الصعب أن يتولوا منصب كبير الموظفين. وفي أواخر أسرة وي طرأ تغيير جديد على هذا القانون الخاص بتعيين الموظفين مفاده أن الأسر الغنية الثرية ذات النفوذ الكبير قبضت على زمام تعيين الموظفين، حتى أنها كانت تعينهم بصورة مباشرة، وكان معيار التعيين هو الحسب والنسب في المقام الأول، ومن ثم برزت أمام العيان ظاهرة «الدرجة العليا خاوية من الفقراء، والدرجة الدنيا لا تعرف الأغنياء»، وبات اختيار المقبولين بمثابة الضمان لتأسيس نظام أسر الحسب والنسب. وفي الأسر الجنوبية والشمالية، اعتمد الأبناء والأخوات في تلك الأسر على الثراء والنفوذ والبيروقراطية، لـ«اقتحام مدار الاختيار والتدرج في المناصب حتى كبير الموظفين». وتعرض قانون «الدرجات التسع في تعيين الموظفين» لهجوم طبقة ملاك الأراضي الذين انبثقوا من عامة الشعب، ووصل إلى مرحلة خطيرة يصعب الحفاظ عليه جراء افتقار الموظفين إلى الكفاءات والقدرات واستشراء الفساد السياسي. وبعد أن تأسست أسْرة سوي، أمر الإمبراطور ون دي بإلغاء نظام الدرجات التسع في التوظيف، وقرر أن كل ولاية تختار وترشح الأفراد الذين يجب عليهم اجتياز الامتحان حتى يتمكنوا من التعيين، ومن ثم كان ذلك إيذاناً بتدشين نظام الفحوص الإمبراطورية.

المبحث الثاني
نشأة نظام الفحوص الإمبراطورية وتطوره

في عام 587م، ألغى الإمبراطور ون دي في أسرة سوي نظام الدرجات التسع في تعيين الموظفين، وقرر اختيار الموظفين عن طريق الامتحان، كما أسس قسمي الأخلاق، والقدرات لاختيار أصحاب الكفاءات والمواهب في عام 588م. كما أسس الإمبراطور يانغ دي في نفس الأسرة قسم «اختبار الفحوص الإمبراطورية» في إطار الموضوعات الدراسية العديدة في عام 607م، ومعيار اختيار الأشخاص هو إجادتهم في الإجابة عن الأسئلة السياسية أو أسئلة الكلاسيكيات القديمة التي يطرحها الإمبراطور ويطلق عليها «تسه ون». ويعتبر ذلك بمثابة البداية الحقيقية لنظام الفحوص الإمبراطورية. وتطبيق هذا النظام يُعد تغييراً تاريخياً طرأ على نظام توظيف الأفراد في العصر القديم بالصين، وأصبح فيما بعد الأساس السياسي للحكم الإقطاعي الذي دام أكثر من ألف سنة لأنه قوض دعائم النظام الفاسد الذي يتخذ من الحسب والنسب والطبقية معياراً في اختيار الأشخاص منذ أسرتي وي وجين، كما تخلّص الوضع السياسي من احتكار الأثرياء وزعماء القبائل السلطة السياسية في البلاد، ومنح فرصاً سانحة لزيادة أعداد المثقفين من صغار ومتوسطي ملاك الأراضي حتى يعتلوا سُلم الارتقاء وتعضيد قوتهم السياسية.

وورثت أسرة تانغ نظام الفحوص الإمبراطورية الذي بدأ في عصر أسرة سوي وطورته وجعلته كاملاً. وأطلق على هذا النظام «الفحص الإمبراطوري» لأن طريقته الأساسية تقوم على إعداد وتحديد الموضوعات الدراسية واختيار المثقفين من خلال الامتحان. وكانت طريقة الامتحان في أسرة تانغ تنقسم بصورة أساسية إلى الامتحان في قسمي «تشانغ» و«تشي». وامتحان «تشانغ» يقام كل سنة ويضم مالا يقل عن عشرات الموضوعات، وعلى وجه الخصوص أقسام الخريجين على مستوى الناحية، والكلاسيكيات، والفحص الإمبراطوري، والقانون، والكتابة والمقاطع الصينية، والرياضيات والتاريخ، ويجب أن يكون عدد المرشحين في قسمي الكلاسيكيات والفحص الإمبراطوري الأكثر عدداً، والمشاركون من بينهم في الفحص الإمبراطوري الأكثر احتراماً، والمرشحون للامتحان

الأكثر عدداً، ومن ثم يكون اختيارهم الأكثر دقة وصرامة. وكان رئيس الوزراء في أسرة تانغ من خريجي الفحص الإمبراطوري، لأن تعيين الذين يختارون هذا الفحص كان سريعاً نسبياً. أما امتحان «قسم تشي» فهو عبارة عن اختيار الأكفاء من قبل البلاط الإمبراطوري حيث يحدد الإمبراطور الموضوعات بصورة مؤقتة ويُطلق عليها «القسم الخاص»، وتتحلى مضامينها بالتعددية والتباين. وينقسم الطلاب المثقفون للامتحان «تشانغ» إلى نوعين هما: (1) طلاب المدارس المركزية والمحلية، وأُطلق عليهم «شينغ تو». (2) متعلمون ومثقفون من خارج المدارس ويمكنهم التقدم للامتحان بتسجيل أسمائهم في الولاية والمحافظة ويشاركون في امتحان العاصمة بعد اجتياز امتحان المحافظة، ويُطلق عليهم «شيانغ قونغ»، وكانت إدارة الموظفين تشرف على امتحان «تشانغ» في البداية، وكان رئيس الامتحان هو رئيس هذه الإدارة أيضاً. ولكن وبسبب مكانته المتواضعة، تقرر أن يقوم رئيس قسم المراسم (يعادل نائب وزير اليوم) بالإشراف على الامتحان في عهد الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ، ولذا أُطلق عليه «امتحان المراسم». وكان الامتحان يقام في تشانغآن عاصمة تانغ، كما كان يقام أحياناً في تشانغآن (العاصمة الغربية)، وأحياناً أخرى في لوايانغ (العاصمة الشرقية) في أواسط هذه الأسرة. وكان موعد الامتحان في فصل الربيع سنوياً. وكانت تختلف معايير الاختبار ومضمون الامتحان بين الأقسام. فعلى سبيل المثال، كان قسم الفحص الإمبراطوري يقرر أن «أسئلة الامتحان تشمل خمسة أسئلة حول الشؤون الحالية، و«تيه جينغ»، وكتاب «المراسم»، أو كتاب «الربيع والخريف». ويتبوأ المكانة الأولى من يجيب عن جميع الأسئلة ويجتاز الامتحان، بينما الإجابة عن أربعة أسئلة فقط، يجعل المتقدم يحتل المكانة الثانية. وما يُطلق عليه «تيه جينغ» يعني كتابة الكلاسيكيات عن ظهر قلب (غيباً)، حيث يختار رئيس الامتحان صفحة من كتاب الكلاسيكيات، ويغطي جانبيها الأيمن والأيسر، ويترك سطراً في منتصفها، ثم يقص أقصوصة ويلصقها على كلمات هذا السطر، ويطلب من المتقدم أن يكتب غيباً تلك الكلمات، وإذا كتبها صحيحة يجتاز الامتحان. وفي عهد الإمبراطور قاو زونغ في أسرة تانغ، تم إضافة مادة المقال لقسم الفحص الإمبراطوري التي تحتوي على الشعر والمقامة، وذلك لاختبار الموهبة الأدبية للمتقدمين. وكانت تفرض قيود صارمة على موضوع الشعر والقوافي، ويجب أن يكون الموضوع مقروناً بالكلمتين «فو ده»، وهذا النوع من الشعر

صعب نظمه، وتنتمي إليه قصيدة «وداع في السهول القديمة» للشاعر الكبير باي جيوي يي في أسرة تانغ. أما امتحان «تشي» فكان في الغالب يشرف عليه الإمبراطور بنفسه، كما كانت معايير الامتحان ومضمونه حسب ذوق الإمبراطور أيضاً.

ويُطلق على الأكفاء المقبولين للامتحان عدة ألقاب: «جي دي»، «جيويه دي»، «دينغ دي» و«دينغ كه»، ويطلق على الراسبين لقب «لوا دي». ففي قسم الفحص الإمبراطوري يطلق على طلاب «جي دي» لقب «جينغ شي دي»، وعلى الطالب الأول «تشوانغ يوان» أو «توانغ تو»، وعلى الطلاب الجدد في هذا القسم «تونغ نيان»، ويعتبرون طلاباً ينتمون لرئيس الامتحان. والطلاب قبل أن يظفروا بلقب «جي دي» هم من عامة الشعب ويُطلق عليهم «باي يي» أو «بو يي»، وبعد اللقب يعتبرون من ذوي المكانة ويتحلون بمؤهلات التعيين كموظفين. والخطوة التالية هي اجتياز امتحان القبول من جانب إدارة الموظفين حتى يستطيعون الحصول على وظيفة. ويشمل امتحان القبول أربعة جوانب التي تقرر إذا كان المتقدم للامتحان مؤهلاً حسب المستوى المطلوب أم لا، وتشمل تلك الجوانب: الهيئة والملامح، آداب الحديث، الخط والكتابة، القدرة التعبيرية. وتنقسم موضوعات هذا الامتحان إلى «المعارف الواسعة» و«القدرات الفائقة عن الآخرين». وتعني «المعارف الواسعة» اختبار القدرة على شرح المقالة بصورة أساسية، أما «القدرات الفائقة» فهي القدرة على تقييم مجريات الأمور وإصدار الأحكام بصورة رئيسية. وقد اجتاز الأديب ليو زونغ امتحان مادة «المغارف الواسعة» في الفحص الإمبراطوري وأصبح موظفاً مسؤولاً عن ضبط ومقارنة السجلات والكتب القديمة. كما تولى نفس الوظيفة الشاعر باي جيو يي بعد أن اجتاز امتحان تفوق القدرات وتميزها عن الآخرين. ومن الطبيعي أن يتمتع الناجحون بمكانة رفيعة بعد اجتياز الفحص الإمبراطوري، ويقيم الطلاب الجدد -بعد اجتياز هذا الفحص- مأدبة في حديقة المشمش، ويجمع طالبان من الطلاب الوسيمين الأزهار المشهورة لتزيين المأدبة، ويطلق عليهما «مُكلفان بجمع الأزهار». كما يطلق على المأدبة «مأدبة الأزهار المجمعة». ولذلك عندما نجح الشاعر مينغ جياو في الفحوص الإمبراطورية نظم بعض أبيات من الشعر، جاء فيها:

كانت الأيام والسنون في الماضي
موحشة وكئيبة ولا تستحق الذكر
وأنا منشرح الصدر في هذا العصر
وعندي حظوة بلا حدود
اعتلي ظهر الجواد ونسمات الربيع
تداعب وجهي، وتمتلئ نفسي بالزهو
وفي يوم واحد أجول وأطوف في جميع
حدائق العاصمة تشانغآن.

ثم يدلف هؤلاء الطلاب إلى قاعة «تشو جينغ» في جنوب العاصمة، ويتجمعون في هذه القاعة لتبادل التهاني، ويسمى هذا اللقاء بـ «لقاء تشو جينغ»، وبعد ذلك يعرجون على أسفل الباغودة البوذية تسي ين (مثل باغودة الوزة البرية اليوم) لتوقيع الأسماء، ويُعرف ذلك بـ «لقاء توقيع الأسماء» أو «توقيع الأسماء عند برج الوزة البرية» بهدف ترك سمعة طيبة تتداولها الأجيال، وذلك مثل الشاعر باي جيوي يي الذي اجتاز الفحص الإمبراطوري في عام 800م، وكان عمره تسعة وعشرين عاماً آنذاك وأصغر المتقدمين لهذا الامتحان البالغ عددهم سبعة عشر طالباً، ولذلك ذكر في أشعاره: «في لقاء توقيع الأسماء عند برج تسه ين، كنت أصغر الناجحين، وكان عددهم سبعة عشر طالبا».

وورثت أسرة سونغ نظام الفحص الإمبراطوري برمته من أسرة تانغ، وأجرت عليه بعض الإصلاحات المهمة، وتجلى ذلك في ثلاثة جوانب أساسية هي: (1) بالنسبة لامتحان المراسم، يعين الإمبراطور الموظف المسؤول عن رئاسة الامتحان بصورة مباشرة، وليس رئيس المراسم كما تنص عليه اللوائح، ويعد ذلك بمثابة تعزيز سيطرة الإمبراطور على امتحان الفحص الإمبراطوري حتى يجعل المقبولين من الأكفاء أكثر مواءمة لتحقيق رغبات وآمال الحاكم الأعلى. (2) أسس الإمبراطور تاي زو في أسرة سونغ نظام امتحان القصر؛ حيث يخضع الناجحون في الفحص الإمبراطوري لامتحان الدرجة العليا ويترأسه الإمبراطور بنفسه ويقرر ترتيب أسماء المقبولين. وكان ذلك بمثابة ضربة قاصمة للعلاقات الخاصة التي تربط

رئيس الامتحان بالطلاب منذ أسرة تانغ، وجعل المقبولين يتقدمون بالشكر والعرفان بالجميل من سويداء قلوبهم للإمبراطور وحده. وفي عهد الإمبراطور تاي زونغ في أسرة سونغ، تم تقسيم الناجحين في الفحص الإمبراطوري والمقبولين في امتحان القصر إلى ثلاث درجات يطلق عليها «سان جيان». وأطلق الإمبراطور على الدرجة الأولى تسمية «جي دي»، وعلى الدرجة الثانية «تشوشين»، والدرجة الثالثة «تونغ تشوشين»، ويتمتع أصحاب تلك الدرجات بمؤهلات التعيين في الوظيفة، ويترقى بعضهم إلى منصب كبير الموظفين بسرعة. وبعد امتحان القصر يقيم الإمبراطور مأدبة في «الحديقة الملكية تشونغ لين»، وتسمى المأدبة «مأدبة تشونغ لين». وفي أسرة سونغ الشمالية، كان يُطلق على الأول في الامتحان «بانغ شو»، وعلى الطالبين الثاني والثالث «بانغ يان»، كما يمكن أن يطلق عليهم جميعاً «تشوانغ يوان». وبعد أسرة سونغ الجنوبية، كان يطلق على الناجح الأول في الامتحان لقب «تشوانغ يوان» بصفة خاصة؛ و«يانغ يان» و«تان هوا» على الطالبين الثاني والثالث تباعاً. وكانت الأسر الحاكمة توصي بتطبيق هذا النظام. (3) في عهد الإمبراطور شين زونغ في أسرة سونغ، كانت قوي تسي جيان (مدرسة الدولة) تطبق قانون المراحل الثلاث في التعليم، يطلق على مرحلة الالتحاق بالمدرسة «واي شه»، ثم ينقل الطلاب إلى المرحلتين التاليتين حسب نتائجهم في الامتحان، والتي يطلق عليهما «نيه شه» و«شانغ شه» على التوالي. وفي المرحلة النهائية «شانغ شه» الطالب الذي يحصل على الدرجة العليا يمكن تعيينه موظف مباشرة، وطالب الدرجة المتوسطة يستطيع المشاركة في امتحان القصر بصورة مباشرة، بينما طالب الدرجة الدنيا يمكن أن يشارك في امتحان المقاطعة، وكانت أسرة سونغ تولي اهتماماً خاصاً للمتقدمين والمرشحين في الفحص الإمبراطوري ومعرفة مدى إدراكهم للفلسفة المثالية الكونفوشيوسية وتطبيقها بسبب التطور الكبير الذي شهدته هذه الفلسفة آنذاك، حتى أصبحت المعيار الأسمى والأعلى في اختيار المثقفين في الفحص الإمبراطوري في الأسر اللاحقة. ومن ثم، يمكن القول إن أسرة سونغ تمثل مرحلة مهمة في تطوير الفحوص الإمبراطورية في الصين.

المبحث الثالث

امتحان المستويات الثلاثة في أسرتي مينغ وتشينغ

بعد أن تربعت أسرة يوان على العرش بعد زوال نظيرتها سونغ، طبقت نظام الفحص الإمبراطوري أيضاً، ناهيك عن تنفيذ امتحان المستويات الثلاثة وهي: امتحان شيانغ (امتحان المقاطعة)، امتحان هوي (امتحان المراسم في العاصمة)، امتحان يوي (امتحان القصر). وكانت أسئلة الامتحان حسب كتاب (شروح الأسلوب الانشائي التقليدي في الكتب الأربعة) للمؤلف جوشي. وعلى الرغم من أن نظام الفحص الإمبراطوري شهد مرحلة التمام والكمال في أسرتي مينغ وشينغ، لكنه عرف أيضاً المساوئ والمفاسد في تلك الأسرتين، كما يتشابه النظام فيهما بصورة أساسية، إلا أن أسرة تشينغ كانت تقسم اختبار المقبولين إلى قوميتي مان وهان، ويختلف مضمون امتحان المتقدمين التابعين لتلك القوميتين. كما كان الامتحان الرسمي في الفحص الإمبراطوري في تلك الأسرتين الحاكمتين ينقسم إلى ثلاث مستويات: امتحان يوان، امتحان شيانغ، امتحان هوي لاختيار المقبولين، ويتمحور مضمون الامتحان على رسالة ذات أجزاء ثمانية بصورة أساسية، ومستوى كل امتحان مُحكم ومثقل بالتفاصيل التافهة. والتعيين في الوظيفة يحتم اجتياز امتحان البلاط بعد امتحان هوي.

وفي الواقع، كان امتحان يوان في أسرتي مينغ وتشينغ يتطلب اجتياز ثلاثة امتحانات أخرى هي: امتحان الولاية، امتحان الحكومة، وامتحان يوان، ويطلق عليها الاسم الجامع «امتحان تونغ شينغ»، ويُطلق على المشاركين في الامتحان لقب «تونغ شينغ» جميعاً بلا استثناء وبغض النظر عن أعمارهم، والناجح في هذه الامتحانات الثلاثة يُعرف بـ «شينغ يوان»، كما يُطلق عليه أيضاً «شوشينغ» و«شيانغ شينغ»، وتطلق عليه الأعراف الإقطاعية «شيو تساي» (الخريج على مستوى الناحية) وعندما يتحلى بمؤهلات المستوى المطلوب يستطيع المشاركة في الامتحان الأعلى. ونتحدث -**في المقام الأول**- عن امتحان الولاية الذي يشرف عليه محافظ الولاية ويقام في شهر فبراير من كل سنة في أغلب الأحيان. و«تونغ شينغ» المشارك في الامتحان يسجل اسمه في دار الوالي بالولاية ويملأ استمارة

تحوي اسمه ومسقط رأسه وأحواله الشخصية عبر ثلاثة أجيال ويطلب من خمسة من أقرانه المتقدمين للامتحان نفسه أن يكونوا له كفيلاً بصورة متسلسلة، ويُطلق عليهم «تونغ تسي جيه»، كما يجب على «لين شينغ» (هو شينغ يوان يتلقى إعانة معيشة من الحكومة بصورة محددة) وهو من خريجي الناحية في نفس الولاية، أن يكون كفيلاً، ويُطلق عليه «لين باو»، ويضمن أنك لست ابناً أو حفيداً انتحل مسقط رأسه، ولا أخفي سر وفاة أحد، ويضمن أيضاً المنشأ الطبقي لك بأنه ناصع البياض، وإنه ليس فاجراً، ولا ممثلاً مشهوراً، ولا ساعياً في الدواوين القديمة، ولا عبيداً، وذلك حتى تستطيع التقدم للامتحان. والناجح في امتحان الولاية يسمى «تشوان»، ويُطلق على صاحب المركز الأول «شيان آنشو». ثانياً: امتحان الحكومة برئاسة رئيس الحكومة ويقام دائماً في شهر أبريل، وطريقة التسجيل فيه تكون على غرار امتحان الولاية بصورة أساسية. والناجح الأول في امتحان الحكومة يسمى «فوآنشو». ثالثاً: امتحان يوان برئاسة ملحق تعليمي يبعثه البلاط الإمبراطوري، ويتناوب رئاسة هذا الامتحان في الحكومات المحلية الأخرى، وإجراءات التسجيل تشمل تونغ تسي جيه، ولين باو، بالإضافة إلى باي باو، وتتم مراجعة أسماء المتقدمين بدقة عند دخولهم قاعة الامتحان. والناجح في امتحان يوان يتمتع بمؤهلات الخريج على مستوى الناحية، ويُرسل للدراسة في مدرسة الولاية أو مدرسة الدولة ويطلق عليه «جينغ شيوه» والحاصل على المركز الأول يسمى «يوان آنشو» ويجب أن يرتدي السروال الأزرق عندما يبدأ الدراسة. ويمكن تقسيم طلاب «شينغ يوان» حسب نتائجهم إلى قونغ شينغ (طالب يدرس في مدرسة قوي تسي جيان «مدرسة الحكومة»)، وين شينغ، وزينغ شينغ (يتم زيادة أعداد طلاب لين شينغ بصورة استثنائية) ويتحلى هؤلاء الطلاب بمؤهلات دخول امتحان شيانغ.

وفي أسرتي مينغ وتشينغ كان امتحان شيانغ يقام في داخل نطاق المقاطعة، ويجب أن يكون المتقدمون فيه من خريجي الناحية «شيو تساي»، والناجح في الامتحان يطلق عليه «جيوي رين». ويعين البلاط الإمبراطوري أحد موظفيه لترأس الامتحان تفوق مكانته الملحق التعليمي، بيد أنه يعود إلى مقاطعته الأصلية بعد انتهاء مهمته. ويقام امتحان شيانغ مرة كل ثلاث سنوات، أي أنه يتزامن مع لقاء الفرع الأول من فروع الأرض الاثني عشر،

والفرع الأرضي الرابع، والفرع الأرضي السابع والفرع الأرضي العاشر، وموعده في الشهر الثامن الربيعي، ولذا يسمى «تشيووي»، ويقام في قاعة قونغ يوان في كل مقاطعة (ويشمل ذلك العاصمة أيضاً)، وأسوار تلك القاعة سامقة ويزرع فيها الأشواك، ولذا تسمى أسوار «جينغ وي». وتقسم قاعة قونغ يوان إلى عدة خيام للامتحان ويؤدي فيها الطلاب الامتحان ويخضعون لتفتيش صارم. ويتواكب إعلان نتائج الامتحان مع تفتق زهور القرفة، ولذا يُطلق على قائمة أسماء نتائج الطلاب «قائمة أزهار القرفة». ويُطلق على جميع الناجحين في امتحان شيانغ لقب «جيوي رين»، ويسمى الناجح الأول «جيه يوان»، ومعناه إرساله للعمل في البلاط الإمبراطوري. ويُعتبر الناجحون في هذا الامتحان أنهم انضموا إلى الطبقة الحاكمة بصورة رسمية، ويمكن أن يطلق الناس عليهم لقب «سيد»، ويستطيعون المشاركة في امتحان هوي ويستمرون في رفع المستوى العلمي، ناهيك عن طلب التعيين في التدريس أو في شؤون التعليم كموظفين رسميين، والمشاركة في الانتخابات وتولى منصب محافظ ولاية احتياطي. وقدمت رواية «مقابح مثقفي البلاط الإمبراطوري» وصفاً لامتحان شيانغ.

وفي أسرتي مينغ وتشينغ، كان امتحان هوي هو امتحان على مستوى الدولة كلها، ويقام مرة كل ثلاث سنوات أيضاً، أي أنه يقام بالتزامن مع لقاء الفرع الأرضي الثاني، والفرع الأرضي الخامس، والفرع الأرضي الثامن والفرع الأرضي الحادي عشر، وموعده في الشهر الثالث الربيعي، وتترأسه إدارة المراسم، ولذلك يُطلق عليه «لي وي» أو «تشون وي»، ويتواكب مع إعلان نتائج الامتحان تفتق أزهار المشمش، ومن ثم يُطلق على قائمة أسماء الناجحين «قائمة المشمش»، ويعين الإمبراطور بنفسه رئيس الامتحان، وعادة يكون من كبار الموظفين من الدرجة الأولى أو الثانية، ويجب أن يكون منشؤه الطبقي ينتمي إلى «جينغ شي»، والمتقدمون للامتحان يجب أن يكونوا «جيوي رين»، وعملوا موظفين أولاً. وتتحمل الحكومات المحلية نفقات سفر «جيوي رين» من المقاطعة إلى العاصمة، ويقام الامتحان في قاعة امتحان بكين الواقعة في ناحية أكاديمية العلوم الاجتماعية في الوقت الحاضر. والناجحون في امتحان هوي يطلق عليهم جميعاً لقب «قونغ شي»، والناجح الأول يُسمى «هوي يوان». وبعد انتهاء امتحان

هوي، يقام امتحان القصر في قاعة ياو خه ديان بالمدينة المحرمة في بكين، والإمبراطور هو رئيس الامتحان، وأحياناً ينوب عنه كرسي العرش، أو يأمر الإمبراطور وزيراً يقرأ أسئلة الامتحان، وكان الأمير يضطلع بهذا العمل بصفة عامة في أسرة تشينغ، والمتقدمون للامتحان يجب أن يكونوا من ذوي «قونغ شي»، ولا يظفرون بلقب «جينغ شي» إلا بعد اجتياز الامتحان. وتكون قائمة أسماء الناجحين من الذهب. ويقسم امتحان القصر المقبولين إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى تشمل ثلاثة أسماء. الاسم الأول في هذه الفئة يسمى تشوانغ يوان، والثاني بانغ يوان، والثالث تان هوا. كما يُطلق على الاسم الأول من الفئة الثانية «تشوان لو». وبعد تحديد ترتيب الأسماء العشرة في المقدمة، يستقبلهم الإمبراطور أولاً، ويُعرف ذلك بـ «تشوان لو»، ثم يستقبل جميع الحاصلين على «جينغ شي» في قاعة تاي خه، ويُطلق على ذلك «داتشوان لو». وعند الاستقبال يُعلن مرسوم إمبراطوري ترتيب الأسماء، وفي الوقت نفسه، يعلن منح الفئة الأولى لقب «جينغشي ذي دي»، والفئة الثانية «جينغشي تشوشين»، والفئة الثالثة «تونغ جينغ شي تشوشين». وبعد مراسم احتفالية «داتشوان لو»، تقيم إدارة المراسم «مأدبة تشونغ لين»، وترتب زيارة لمعبد كونفوشيوس، وتحفر أسماء الطلاب من ذوي «جينغ شي» على شاهدة تعلق على مدرسة قوي شي لين (مدرسة الدولة). وهناك أيضاً امتحان البلاط بعد الانتهاء من امتحان القصر بهدف توزيع الوظائف على المؤهلين، ولا يشارك في امتحان البلاط أصحاب ألقاب تشوانغ يوان، بانغ يان، وتان هوا. ويحصلون على وظائفهم حسب اللوائح. كما كانت هناك قواعد أخرى تنظم امتحان يُعرف بـ «تشينغ كه»، ويتمتع الطلاب بفرصة واحدة لدخوله كل ثلاث سنوات. كما كان البلاط الملكي ينظم امتحاناً يطلق علبيه «انكه» عند صعود الإمبراطور العرش أو أثناء إقامة احتفالات الدول الأخرى بصفة خاصة من أجل جذب الأكفاء والنوابغ. وهناك نُصب تذكاري يحوي على توقيع مائة وثمانية عشر من ذوي ألقاب «جينغ شي» في أسر يوان ومينغ وتشينغ يتوسط صحن معبد كونفوشيوس في بكين في الوقت الحاضر، (كانت أسرة يوان الأقل عدداً). كما بلغ عدد الذين حفروا أسماءهم من حاملي هذا اللقب واحداً وخمسين ألفاً وستمائة وأربعة وعشرين شخصاً في الفترة من 1416 إلى 1904 التي شهدت آخر امتحانات «أنكه» في

نظام الفحص الإمبراطوري في الصين عام 1904، حيث قام كلُ من شين جيون رو، وتان يان كاي بحفر أسمائهما على هذا النصب. ووُلد شين في مقاطعة تشجيانغ، وكان –بعد تحرير الصين– نائب رئيس اللجنة الدائمة لنواب الشعب الصيني ورئيس محكمة الشعب العليا. أما تان فمسقط رأسه في مقاطعة خونان، وقبل التحرير كان عميداً لمعهد الإدارة في حكومة حزب الكومنتانغ (القوميون). ويمثل شين وتان الامتحان الأخير في نظام الفحص الإمبراطوري في الصين.

المبحث الرابع

المزايا والمساوئ في نظام الفحوص الإمبراطورية

كان نظام الفحوص الإمبراطورية –مثل سائر الأشياء الأخرى– يحمل في أركانه تأثيرات سلبية منذ تأسيسه للوهلة الأولى. وقد برزت للعيان مساوئ هذا النظام في أوائل أسرة تانغ، وتجسد ذلك بجلاء في جانبين هما: (1) الفحوص الإمبراطورية جعل المُتعلم (أو المثقف) تترسخ في أعماقه حالة نفسية قوامها الاعتماد على الحظ والصدفة العفوية، واعتقد أن قيمته تزداد أضعافاً ويعلو نجمه عندما تطأ قدماه عتبة البوابة الإمبراطورية، ومن ثم كرس مجهوده على تعميق مقاله بعبارات براقة والحفظ عن ظهر قلب، وليس تكريس وقته والإفادة من قدراته الفنية. (2) ينتشر في البلاد عدد كبير من طلاب «جيوي رين»، وعدد الأشخاص المقبولين محدود للغاية، ومن الصعب اجتياز الامتحان، ومن ثم لم يبق أمامهم إلا البحث عن واسطة وسند، وتقديم الرشاوى والتسلل من الثغرات والدخول من الأبواب الخلفية، ويهدرون أوقاتهم ويبددون قواهم الذهنية انطلاقاً من أن الغاية تبرر الوسيلة عندهم. وعانى الطلاب من ذوي الشرف والكرامة من الرسوب مرات عديدة. وفي أسرتي مينغ وتشينغ، أصبح معيار الفحوص الإمبراطورية في اختيار الأكفاء هو رسالة ذات أجزاء ثمانية، وتفاقمت نقائصه بصورة خطيرة عن الأسر السابقة. وشكل هذه الرسالة متزمت ومتصلب ويكبل الفكر بالأصفاد، ولا يمكن أن يبرز للعيان كفاءة وحكمة المرء، ويضطر المتقدمون للامتحان دراستها، ولذا تطمس ذكاءهم وفطنتهم وتبدد قدرتهم الإبداعية. والفساد استشرى داخل أروقة نظام الفحوص الإمبراطورية منذ أسرتي مينغ وتشينغ؛ حيث تغص قاعات الفحص بحالات الغش التي لا تنقطع من جانب الموظفين المسؤولين عن الامتحان والطلاب، ولا جديد تحت الشمس. وفي عام 1711م شهدت قاعة «قونغ يوان» في نانكين (العاصمة الجنوبية) امتحان شيانغ لجنوب تشجيانغ. وأقام الموظف المسؤول عن الامتحان ونائبه علاقات سرية مع اثنين من المتقدمين هما: زوا بينان، وتشاو جين، واختلسا الأموال وانتهكا الأنظمة والقوانين، وحصلا على رشوة من تجار الملح في مدينة يانغتشو، وعندما أعلنت نتائج الامتحانات، كانت قائمة أسماء الناجحين تضم العديد من أبناء وأخوة هؤلاء التجار، وكان

نتيجة ذلك أن أكثر من ألف طالب من ذوي «جيوي رين» (ناجح على مستوى تشجيانغ) حملوا إله المال ودلفوا إلى معبد كونفوشيوس وأعربوا عن احتجاجهم، كما كتبوا على لافتة كلمات تسخر وتهزأ من هذا الموظف ونائبه، وغيروا اسم القاعة «قونغ يوان» إلى «القاعة المُباعة». وأرتأي الإمبراطور كانغ شي خطورة الأحداث وتفاقم وتيرة الأوضاع، فاضطر أن يقطع رأس تشاو جين من أجل مواساة هؤلاء الطلاب وتهدئة روعتهم، وربما يعتبر ذلك أكبر قضية غش وتزوير في الامتحانات شهدها نظام الفحوص الإمبراطورية في تاريخ الصين كله. وحتى امتحان ديان (القصر) كان الإمبراطور يختار المقبولين بصورة عشوائية أحياناً، وليس حسب المعايير المقررة، ومثال ذلك الإمبراطور يونغ ليه عندما رأى اسم متقدم في الامتحان، واعتقد أن اسمه فأل شؤم ويجلب النحس للبلاد، خفض درجته العلمية من الأولى إلى الثانية؛ ويعد ذلك شيئاً سخيفاً ومضحكاً حقاً.

ولكن لا يمكن أن ننكر نظام الفحوص الإمبراطورية إنكاراً كاملاً بسبب هذه المساوئ. وكما ذكرنا آنفاً، نظراً لأن هذا النظام حطم قيود نظام الحسب والنسب، ومنح فرصاً مواتية للكثرة الكاثرة من مثقفي صغار ومتوسطي ملاك الأراضي أن يشاركوا في إدارة شؤون البلاد وإظهار كفاءتهم وقدراتهم، مما جعل الدولة والشعب يستفيد من الأكفاء على نطاق واسع نسبياً في مسيرة التاريخ الطويلة، وكان هناك الأكفاء من ذوي القدرات الحقيقية واجتازوا الفحص الإمبراطوري وساروا على درب إدارة شؤون البلاد، وفي الواقع إنهم أسهموا بذكائهم ومعارفهم وحكمتهم في تطوير الصين شعبا وحكومة. والشخصيات التاريخية المشهورة –من ما بعد أسرة تانغ إلى ما قبل الحركة الثقافية في 4 مايو 1919– انبثق معظمها من المنشأ الطبقي «جينغ شي»، وبعضها كان من أصحاب اللقب «تشوانغ يوان». ولا بأس أن نقتبس من المعلومات الواردة في «معجم مشاهير الصين عبر العصور» من تأليف قسم التاريخ في جامعة نانكين؛ حيث سرد المعجم سجلاً للشخصيات التاريخية المشهورة من أسرة تانغ حتى قبل الحركة الثقافية والتي بلغ عددها أكثر من ألفين وأربعمائة وثمانين شخصية، من بينها زهاء ألف شخصية من الأباطرة والملوك والقواد العسكريين ورجال الدين وقادة الانتفاضات الفلاحية، وسائر الشخصيات الأخرى البالغ عددها أكثر من ألف وأربعمائة وثمانين شخصية تولت وظائف في البلاط الإمبراطوري بكافة الوسائل الممكنة أو اضطلعت

بالأنشطة الثقافية الأخرى. ويحوي الرقم الأخير أكثر من ثمانمئة شخصية اجتازت الفحوص الإمبراطورية وحصلت على لقب «جينغشي جي دي» بما يمثل 60٪ تقريباً. ويوضح ذلك أن نظام الفحوص الإمبراطورية -في الواقع- قد اختار كوكبة كبيرة من الأكفاء والنابغين من أجل الطبقة الحاكمة الإقطاعية. ويجب أن نقول، كان من بينهم لفيف كبير يمتلك الكفاءات والمهارات حقاً، ولذا أحرزوا إنجازات هائلة. وإذا كانوا يمثلون جيلاً عادياً، فلا يمكن أن يخلفوا شهرة عظيمة تداولتها الأجيال، ولا تسجل أسماؤهم في صحائف معجم الشخصيات التاريخية المشهورة، حتى ولو ظفروا باللقب المذكور أعلاه. وهذه هي النقطة الأولى. أما النقطة الثانية؛ فهي أن الشخصيات ذات السمعة السيئة في التاريخ ومن أرباب التملق والمكر، لم يتبوأ معظمها المناصب العليا عن طريق امتحان الفحوص الإمبراطورية، مثل لي لينفو رئيس الوزراء في أسرة تانغ الذي كان كلامه كالعسل وفعله كالأسل، ويانغ قوي تشونغ، وقاو تشيو في أسرة سونغ الشمالية، وجيا سي داو في أسرة سونغ الجنوبية، وكذلك وي تشونغ شيان في أسرة مينغ، وخه كون في أسرة تشينغ. وكانت هذه الشخصيات تفتقر إلى العلم والمعرفة، وتدثرت بالجهل، واستطاعت الصعود إلى أعلى بفضل الاعتماد على القدر والشر، وكانت تقبض على زمام السلطة أحياناً، ومارست البغي والظلم وعرقلت سير التاريخ، وجلبت المصائب على البلاد وعلى الشعب. وكانت هناك قلة قليلة من الوزراء العذارين مثل: تساي جينغ، وتشين هوي، ويان قاو. ومنذ أسرة تانغ، كان السواد الأعظم من علماء المعرفة والثقافة، والرسامين والخطاطين، والعلماء، والساسة والأبطال الوطنيين جسدوا طموحاتهم ومقدرتهم من خلال اجتياز الامتحان والحصول على لقب «جينغشي جي دي». نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: وانغ وي، هان يوي، باي جيو يي، ليو زونغ يوان، دو مو، وانغآن شي، سيما قوانغ، شين كوا، ونيتان شيانغ، لوجيو يوان، وانغ شيو رين، لو يوي، لي فانغ، وانغ شي، يانغ، يانغ شين، وغيرهم كوكبة كبيرة من أصحاب المعارف الواسعة والعلم الغزير في كافة المجالات، وكان من بينهم وانغ شي بانغ، ونيتان شيانغ، ويانغ شين من المشاهير الحاصلين على لقب الدرجة الأولى في الامتحان «تشوانغ يوان». ونقول على وجه العموم، أن نفراً من الموظفين الذين اجتازوا الفحوص الإمبراطورية كرسوا حياتهم وبذلوا جهوداً مضنية في الدراسة وتحصيل العلم لأنهم انبثقوا من أسر فقيرة تعاني من شظف

العيش، ولذلك استمسكوا بالشرف والنزاهة إلى حد ما بعد أن تولوا وظائفهم. ويتذكر الناس منهم جيداً كو تشونغ، فإن تشونغ يان، باو تشينغ. وكان ليوي مينغ تشينغ معاصراً لكوتشونغ، وأرسل في طفولته إلى كهف بال تابع لمعبد بوذي، وأقام هناك يعوله راهب بوذي، وكرس وقته للدراسة والإطلاع، وبعد ذلك نجح في الفحوص الإمبراطورية وحظي بلقب الدرجة الأولى «تشوانغ يوان»، وعمل رئيساً للوزراء لمدة ثلاث دورات. وسردت مسرحية «مذكرات الكهف المنهال» قصة حياته، ووصفته كتب التاريخ بأن: «فطرته جُبلت على التسامح ورحابة الصدر وكرم الأخلاق، ويدرك ما يعتمل في نفوس الآخرين من الأعمال الخيرية ويوليهم المناصب». وذات مرة قدم له شخص ما هدية عبارة عن مرآة قديمة وزعم أنها تعكس الأشياء على بعد مئة كيلو متر، فقال ليوي مينغ: «وجهي أقل حجماً من هذه المرآة، ولست في حاجة إلى مرآة تعكس الأشياء على بعد مئة كيلو متر» وذات مرة سأله الإمبراطور رين زونغ في أسرة سونغ قائلاً: «أي الأبناء لديكم مؤهلاً أن يكون مسؤولاً؟ فأجاب قائلاً: «أولادي كلهم أغبياء مثل الكلاب والخنازير، ولكن ابن أخي ليوي يي جيان يتمتع بكفاءة رئيس الوزراء». وبعد ذلك تمكن الابن من اجتياز الفحوص الإمبراطورية، وتولى منصب رئيس الوزراء -كما كان متوقعاً- لمدة عشر سنوات في عهد هذا الإمبراطور. ونعمت البلاد بالأمان والاستقرار داخلياً وخارجياً. وعلى الرغم من أنه لا يمكن الاحتكام إلى تلك الأمثلة على سبيل التعميم والإجمال، ولكن يمكن أن نوضح أن طريقة الامتحان في الفحوص الإمبراطورية اختارت واستفادت من عدد غير قليل من الأكفاء الصالحين إلى حد ما. ويجب أن يكون ذلك حقيقة ماثلة أمام العيان. ولذلك من الخطأ أن نرفض الفحوص الإمبراطورية عامة.

الفصل العاشر

الكتب القديمة والسجلات التاريخية

تعتبر الصين من الدول التي تحتفظ بأكبر عدد من الكتب القديمة والسجلات التاريخية في العالم؛ التي سجلت واحتفظت بالمنجزات الثرية للثقافة التقليدية في الصين، وأسهمت في العديد من الاختراعات والإبداعات في الصين الحديثة. ولكن، لم يستطع أحدٌ أن يقدم إجابة صائبة وشافية في وقتنا الحاضر حول عدد هذه الكتب والسجلات الموجودة حالياً. وفي حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين، اضطلع شخص ما بعمل إحصائيات أولية لهذه الكتب في ضوء قوائم الكتب الموجودة حالياً، واعتقد أن عدد المؤلفات القديمة في الصين زهاء 10,585 كتاباً وتضم 171,885 جزءاً، وفي عام 1959، قامت مكتبة شانغهاي بإعداد كتاب «السجل الشامل لسلاسل الكتب في الصين» جمعت فيه 38,891 من المؤلفات والكتب القديمة. ويعتقد آخرون أنه إذا حذفنا الكتب المكررة، وأضفنا سلاسل الكتب التي لم تجمع من كتب الطبعات الخشبية المستقلة، وكتب البوذية، وكتب الطاوية، والروايات الشعبية، والأدب الارتجالي، والسجلات المنقوشة على البرونز والحجارة، فإن إجمالي الكتب يقدر بحوالي ما يتراوح بين سبعين وثمانين ألفاً وأكثر. ويعتبر ذلك رقماً هائلاً حقاً.

وتتألف الكتب القديمة والسجلات في الصين القديمة بصورة أساسية من كتب ألواح البامبو، وكتب من طبعات حريرية، وكتب من طبعات ورقية، وكتب من طبعات خشبية، ناهيك عن الكتب الحجرية المنقوشة. ويمكن القول إن كتب ألواح البامبو هي أقدم الكتب في الصين، حيث كانت تغمس فرشاة الكتابة في الحبر ويُكتب بها على ألواح البامبو أو ألواح الخشب، ثم تربط الألواح بعضها ببعض وتصبح كتاباً. وفي نقوش العظام ودروع السلاحف في أسرة شانغ نجد الكلمة التصويرية لـ«الكتاب» عبارة عن عدة ألواح بامبو مربوطة ويلصق بعضها ببعض ويطلق عليها «كتاب ألواح البامبو». وكان يستخدم حبل الكتان أو حبل من جلد البقر في ربط ألواح البامبو هذه. وكتب ألواح البامبو التي تستخدم حبلاً من جلد البقر يطلق عليها «وي بيان»، ولذا كان هناك المثل القائل: «وي بيان سان جيوه» (حبل كتاب البامبو تقطع ثلاث مرات) إشارة إلى الدراسة بجد واجتهاد. وحسب استنتاجات سجلات الكتب القديمة مثل أسرة تشين، فإن كتب ألواح البامبو ظهرت في أسرة شانغ تقريباً، لأن كتاب «كتب من العصر القديم» جاء فيه: «كان

الأسلاف الأولون لديهم سجلات مكتوبة على ألواح البامبو، ولكن لم نعثر حتى الآن على ثمة اكتشاف يقدم الأدلة الثبوتية في هذا الشأن. وفي غضون ألف عام ونيف من فترة الربيع والخريف إلى أسرتي هان والممالك الثلاث، كانت كتب ألواح البامبو هي الكتب الرئيسية التي تتداول في المجتمع، والتي تستخدم في وثائق ومذكرات البلاط الإمبراطوري، وفي الإبداع الشعري لدى المثقفين والأدباء. وهناك اكتشافات مهمة كثيرة لهذه الكتب في الماضي والحاضر؛ ومن أقدمها نسبياً المؤلفات الكلاسيكية الكونفوشيوسية الشهيرة التي يطلق عليها «الكتب الأدبية القديمة». والتي عُثر عليها منقوشة على جدران مسكن كونفوشيوس القديم في عهد الإمبراطور وو دي. وبالإضافة إلى ذلك، شهدت أسرة جين في عهد الإمبراطور وو اكتشاف عشرات من كتب ألواح البامبو في مقبرة شيانغ وانغ في مقاطعة خنان اليوم، ويطلق عليها «الكتب القديمة المأخوذة من المقبرة»، ومن بينها الكتابان المألوفان «حوليات كتب ألواح البامبو» و«سيرة الإمبراطور مو». وهذان الاكتشافان من كتب ألواح البامبو يرجع تاريخهما إلى عصر الممالك المتحاربة. وفي عام 1975، تم اكتشاف بعض من هذه الكتب في منطقة خودي بمقاطعة يوان مينغ في مقاطعة خوبي، ويرجع تاريخها إلى أسرة تشين، وكانت من الكتب الأدبية والقانونية في هذه الأسرة، وتعد من المعلومات المهمة لدراسة تاريخ أسرة تشين. وفي عام 1930، وفي سبعينيات القرن العشرين، كان هناك اكتشافان في وادي النهر في مقاطعة قانصو، عُثر خلالهما على أكثر من ثلاثين ألفاً من كتب ألواح البامبو المتناثرة، معظمها كان من المذكرات والوثائق الحكومية وسجل الأدوات، ويقدم معلومات موثوق فيها لدراسة الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في المناطق الحدودية لأسرة هان. وفي عام 1972، تم اكتشاف كتب من ألواح البامبو تنتمي إلى أسرة هان الغربية في مقبرة أسرة هان في منطقة شاندونغ اليوم، وكان بينها العديد من الكتب العسكرية المهمة مثل: «المفكر العسكري الإستراتيجي وي ليان»، و«فن الحرب عند صون تسي»، و«فن الحرب عند صون بينغ». وفي أكتوبر عام 1996، وفي مدينة تشانغشا بمقاطعة خونان تم اكتشاف عشرات الآلاف من كتب ألواح البامبو والألواح الخشبية، وكانت جميعها عبارة عن حوليات، وتتحلى بالقيمة التاريخية الغالية لدراسة الاقتصاد والعسكرية والسياسة في مملكة وي في الممالك الثلاث، كما تعتبر أهم الاكتشافات القديمة والأكثر عدداً في مجال الوثائق الرسمية والكلاسيكية في السنوات القليلة الماضية في الصين. وفي يوليو 1997، تم العثور أيضاً في هذه المدينة على عدة مئات من وثائق البامبو في أسرة هان الشرقية، وسدت الفراغ التاريخي في وثائق تشانغشا من أسرة هان الغربية إلى الممالك الثلاث.

كما انتشرت أيضاً الكتب المطبوعة على الحرير جنباً إلى جنب مع كتب ألواح البامبو، والألواح الخشبية،

وكانت الكتب الأولى تستخدم المنتجات الحريرية في الكتاب. وذكرت الكتب القديمة أنه كانت توجد: «الكتابة علي ألواح البامبو والحرير»، ويعني ذلك الكتابة على ألواح البامبو والألياف الحريرية. والحرير خفيف الوزن ومرن، ويتلاءم مع الكتابة والرسم، ولكن تكاليف إنتاجه عالية، ومن الصعب استخدامه على نطاق واسع، وكان يستخدم قط في القصر الإمبراطوري وفي الأسر الأرستقراطية. وتفيد سجلات تاريخية، أن البلاط الإمبراطوري في أسرة هان احتفظ بالعديد من هذه الكتب. وفي عام 1973، وفي مقبرة ماوانغ دوي في أسرة هان الموجودة حالياً في مدينة تشانغشا في مقاطعة خونان، تم اكتشاف مجموعة من الكتب المطبوعة على الحرير مثل: «الفيلسوف لاوتسي»، و«كتاب التغيرات»، و«سياسة الممالك المتحاربة» وغيرها، بالإضافة إلى العثور على ثلاث خرائط مرسومة على الحرير توضح مناطق توزيع قوات الجيش، وتُعد أقدم خرائط إلى الآن.

وكانت الكتب المطبوعة على الورق من الأنواع الأخرى المتداولة للكتب، ونعرف من السجلات التاريخية أن الكتب المطبوعة على الورق في الصين ظهرت في أسرة هان الشرقية، وتزامن تداولها مع كتب ألواح البامبو والكتب المطبوعة على الحرير في آن واحد، وكانت من الكتب الأساسية آنذاك أيضاً. وفي عصر الممالك المتحاربة، ومع تطور فن صناعة الورق، وظهور الورق بكميات كبيرة، حلت الكتب المطبوعة على الورق محل كتب ألواح البامبو والكتب المطبوعة على الحرير، وأصبحت الشكل الأساسي للكتب المتداولة، وتعتبر النسخة المتهالكة من كتاب «تاريخ الممالك الثالث» أقدم الكتب المطبوعة على الورق الموجودة حالياً في الصين.

وشهدت الكتب المطبوعة على الورق تطوراً هائلاً في أسرتي سوي وتانغ، وتقدمت زخرفة الكتب بلا انقطاع أيضاً، وقدم ذلك إمكانية كبيرة لتخزين الكتب لدى بعض هواة جمع الكتب، وبعد ذلك، تم اختراع تقنية الطباعة بالأكليشه والطباعة بالحروف المتحركة، مما جعل نشأة الكتب وتداولها أكثر سرعة، كما أحرزت صناعة تخزين الكتب تطوراً بشكل أكبر. وفي مطالع القرن العشرين، عُثر في الكهف الحجري ماو قاو في دونغ هوانغ على الكتاب المحفور «حارس بوذا» في عام 868م، وكتاب «ترنيمات بوذية» في عام 1954 في تشينغداو في مقاطعة سيتشوان ويرجع تاريخه إلى أسرة تانغ، ويعتبر من أقدم الكتب المحفورة نسبياً في الوقت الحاضر. وبعد أسرة سونغ، تطورت صناعة الطباعة تدريجياً، كما زادت طباعة الكتب ونشرها يوماً بعد يوم، ولم تعد هناك مشكلة أمام تكوين الكتب القديمة ذات الأحجام الكبيرة.

وتتجسد أهم خصائص الكتب والمؤلفات القديمة في الصين في الثراء الوفير والمؤلفات الكلاسيكية في

المرتبة الأولى. والثراء الوفير يمثل النطاق الشاسع الذي يحتضن أمهات المؤلفات القديمة ودمجها في وحدة عضوية واحدة يعمق المعارف والعلوم والتخصص ويشكل ثقافة الكتب القديمة القيمة في الصين. وما يطلق عليه «الثراء الوفير» يشمل: الفلك والجغرافيا والتاريخ والفلسفة والأدب والفن والأديان والعسكرية والاقتصاد والزراعة والطب والطهي، ناهيك عن الأنظمة المختلفة عبر مراحل التاريخ، ويشمل ذلك أيضاً ثقافة البشرية في المجالات المختلفة، ويوضح أبحاث وإسهامات الصينيين في كافة المجالات. وما يعرف بـ «المؤلفات الكلاسيكية في المرتبة الأولى» يشير إلى المكانة المرموقة التي تتبوؤها مؤلفات الكونفوشيوسين الشهيرة بين المراجع والمصادر القديمة، وفي الوقت نفسه، يشير أيضاً إلى المؤلفات العديدة المشهورة الخاصة بالتآليف الكونفوشيوسية المشهورة وأبحاثها وشروحها. ولا تزال تعتمد طريقة تصنيف الكتب والمؤلفات القديمة إلى الآن على «دراسة المؤلفات الكونفوشيوسية والتاريخ والفضلاء والحكماء والمجموعات الأدبية»، ودراسة الكتب القديمة عبر مراحل التاريخ أنشأ ما تتحلى به الثقافة الصينية على وجه الخصوص من «دراسة المؤلفات الكونفوشيوسية» التي تعتبر الأصل، والعلوم الأخرى هي الفرع، ولذا «دراسة المؤلفات الكونفوشيوسية» هي وثاق الشبكة، والعلوم الأخرى هي الشبكة، وشكّل ذلك ظاهرة فريدة من تخزين الكتب منذ ألف سنة تقريباً، ناهيك عن مبدأ الاشتغال بالدراسة والبحث.

المبحث الأول

الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية

في مدينة نينغبو بمقاطعة تشجيانغ توجد بناية سامقة لتخزين الكتب يعود تاريخها إلى أسرة مينغ ويطلق عليها «تيان ييقه» مزخرفة بمقطع شعري مؤلف من بيتين (دوبيت) مفاده: «يضم هذا المكان الجبال الشامخة الباسقة، والغابات الكثيفة والبامبو المزدهر، ويقرأ الناس هنا الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة، وكتاب الرموز الثمانية في التنجيم وجغرافية القارات التسع». ويُكتب في أعلى الدوبيت: «المناظر الخلابة للحدائق المزدهرة أمام هذه البناية». ونستطيع أن ندرك أن ذلك يشير إلى المعارف الواسعة التي تحتضنها هذه البناية مثل الشوامخ السامقة والغابات الكثيفة. وقد قيل إن «الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة» و«كتاب الرموز الثمانية في التنجيم وجغرافية القارات التسع» يشير إلى الكتب والمؤلفات القديمة في الأزمنة الغابرة السحيقة. وفي مقدمة كتاب «كتب من العصر القديم» ذكر الباحث تونغ آنقوي في أسرة هان أن: «كتب الأباطرة الثلاثة: فوشي، إله الزراعة، وهوانغ (الأصفر) يطلق عليها «سان فين»، وكتب الملوك الخمسة: شاو خو، تشوان شيوه، ديكو، ياو، وشون يطلق عليها «وو ديان»». وأسهب الباحث كونغ ينغ دي في أسرة تانغ في شرح ذلك؛ وذكر أن: «سان فين» تتحدث عن أعمال الأباطرة الثلاثة وحكمتهم الأعلى والأسمى، و«فين» معناها «الكبير»، أما «وودبان» تتناول مآثر الملوك الخمسة وحكمتهم التي تنهل منها الأجيال المتعاقبة على مدى مائة جيل، و«ديان» معناها «دائماً». ولكن كونغ أشار إلى حقيقة مهمة في الوقت نفسه مفادها أن الباحث الكبير في دراسة المؤلفات القديمة في أسرة هان الشرقية ويدعى تشونغ شوان قد شكك في حقيقة وجود «سان فين» و«وودبان»، بالإضافة إلى أن أقدم سجلات الفهارس القديمة في كتابي «كتاب أسرة هان» و«كتاب ما بعد أسرة هان» لم تذكر كتب الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة، ولم يعرفها الناس في الأجيال المتلاحقة. ولكن في أسرة سونغ أبدى مسؤول يدعى تشانغ شانغ ينغ للعيان هذه الكتب على حين غرة، وزعم أنه حصل عليها من عامة الشعب، وكان مضمونها زائفاً ولا يمكن تصديقه، واعتقد الناس أن هذه الكتب من تزييف تشانغ وهدفه السعي وراء الجاه والشهرة بكل وسيلة، وقام أناس في

أسرة مينغ بنقش هذه الكتب ودمجها في «سلسلة كتب أسرتي وي وجيه» وأنيط بها شروح روان شيان في أسرة جين، وكان ذلك بمثابة إضافة الوهم إلى الأشياء الزائفة. ولذلك، ما يطلق عليه «سان فين» و«وودیان» يعد في الواقع شيئاً وهميا من نسيج الخيال، وهناك احتمال كبير أنهما ظهرا في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة. واختلق الناس هذه الكتب القديمة في خضم تفسيرهم المكلف لمآثر الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة. ولكن مازالت تسمية الكتب القديمة في الصين متداولة وهي: «فين ديان».

وقد قيل إن «الرموز الثمانية في التنجيم والقارات التسع» هي من الكتب القديمة أيضاً. وبموجب شروح تونغ ينغ دي، أن الكتاب الذي يتضمن الثمانية في التنجيم يطلق عليه «باصو»، و«صو» معناها «الاستطلاع والبحث»، ويطلق على الكتاب الذي يسجل القارات التسع «جيو تشيو»، و«تشيو» معناها «التجمع، الاحتشاد»، بمعنى تجمع القارات التسع. ولكن ماهية الأحوال الحقيقية بالتفصيل لم يستطع أحد أن يشرحها لأنها أصلاً لم يرها أحد.

ولكن «أمهات الكتب الخمس والكتب الأربعة» هي من المؤلفات والكتب القديمة القيمة حقاً، وهي تعد في الواقع المؤلفات الكونفوشيوسية القديمة. وما يطلق عليه «أمهات الكتب الخمس» بدأ في عصر أسرة هان، وبدأت تظهر المقولة عندما أسس الإمبراطور هان وو دي الجامعة الإمبراطورية وأقبل الطلاب على الحصول على درجة الدكتوراه في هذه الكتب. وأمهات الكتب الخمس في هذه الأسرة تشمل «كتاب تقلبات الزمن»، و«كتاب التاريخ»، و«كتاب الأغاني»، و«كتاب الطقوس» و«حوليات الربيع والخريف»، وبعد ذلك حل كتاب «تاريخ المراسم» محل كتاب «الطقوس»، وتم دمج كتاب «قصص الربيع والخريف» في كتاب «حوليات الربيع والخريف»، وما زال يطلق على ذلك أمهات الكتب الخمس إلى الآن. أما مقولة «الكتب الأربعة» فقد جاءت متأخرة نسبياً. وقام جوشي في أسرة سونغ الجنوبية بشرح «كتاب الحوار»، واقتبس من كتاب «تاريخ المراسم» جزأين هما: «العلم الكبير» و«مذهب الوسطية» وقسمهما إلى فصول وشرحهما جملة جملة، وأضاف إليهما شروحه في آن واحد، كما أضاف إليهما كتاب «مينشيوس» أيضاً، وأطلق على ذلك الاسم الجامع «مجموعة شروح فصول وجمل الكتب الأربعة» واعتبره مادة تكميلية لمدخل

مطالعة وقراءة المذهب الكونفوشيوسي، وبدأ يظهر ما يُعرف بـ «الكتب الأربعة» وقتئذ. وبالضبط منذ ذلك الحين فصاعداً، أصبحت هذه الكتب جوهر المطالعة في الأجيال المتعاقبة وأساس الامتحان الإمبراطوري، ومعيارها شروح جوشي. وتحقق الدمج بين أمهات الكتب الخمس والكتب الأربعة وأصبحت بمنزلة المواد التعليمية الأساسية التي يتحتم على المثقفين في المجتمع الإقطاعي مطالعتها، كما كانت أصل إحساس المرء بالهدوء والطمأنينة في معترك الحياة.

وفي معرض حديثنا عن أمهات الكتب الخمس والكتب الأربعة، لا يمكن لا نتناول «الكتب القديمة الثلاثة عشر»؛ لأنها تعتبر بمثابة النطاق الواسع لأمهات الكتب الخمس والتي استحوذت على اهتمام الباحثين عبر مراحل التاريخ. وكما ذكرنا آنفاً أن أمهات الكتب الخمس في أسرة هان تم حفرها وتعليقها في الجامعة الإمبراطورية من توجيه وإرشاد طلاب هذه الجامعة، وكان ذلك إيذاناً ببداية تقاليد النقوش الحجرية للكتب والمراجع القديمة في الصين. وفي فترة حكم شي بينغ عام 175م في أسرة هان الشرقية قام الباحث تساي يونغ باستخدام الخط الديواني في الصين

القديم في نسخ كتب «كتاب التاريخ»، و«أشعار ملكة لو»، و«كتاب تقلبات الزمن»، و«حوليات الربيع والخريف»، و«سيرة قونغ يانغ»، و«كتاب الطقوس»، و«كتاب الحوار»، وهي الكتب السبعة القديمة التي تم حفرها على ستة وأربعين نصباً حجرياً أمام الجامعة الإمبراطورية في الضاحية الجنوبية لمدينة لوايانغ في مقاطعة خنان اليوم، وأُطلق عليها «النقوش الحجرية للكتب القديمة في فترة شي بينغ» أو «المجموعة الكاملة لنقوش الكتب القديمة». وفي العام التالي لفترة حكم تشينغ شي عام 241م في مملكة وي في الممالك الثلاث، تم حفر كتب «كتاب التاريخ»، و«حوليات الربيع والخريف»، و«قصص الربيع والخريف» على حوالي سبعة وعشرين نصباً حجرياً ووضعت أمام الجامعة الإمبراطورية في هذه الناحية، ويُطلق عليها «النقوش الحجرية للكتب القديمة في تشينغ شي» أو «النقوش الحجرية بالخطوط الثلاثة» لأن أُستخدم في حفرها الخط القديم قبل أسرة تشين، وخط شياو جوان (شكل من أشكال الخط الصيني القديم)، والخط الديواني الصيني القديم في أسرة هان. وتظهر هذه النقوش الحجرية المذكورة أعلاه في حالة رثة. وكانت الكتب القديمة في الامتحان الإمبراطوري في أسرة

تانغ تشمل «تاريخ المراسم»، و«مراسم أسرة تشو»، و«كتاب الطقوس»، و«قصص الربيع والخريف»، و«سيرة قونغ بينغ»، ويضاف إليها كتب: «كتاب الأغاني»، و«كتاب التاريخ»، و«كتاب تقلبات الزمن»، ويُطلق عليها الاسم الجامع «الكتب القديمة التسعة»، ثم أضيف إليها «كتاب البر بالوالدين»، و«كتاب الحوار»، و«قاموس المفردات أريا»، وتم دمجها جميعاً وأطلق عليها «الكتب القديمة الاثنا عشر». وتوجد في جامعة قوي تسي (الدولة) النقوش الحجرية التي شهدتها الفترة من 833 إلى 837، ومازالت تحتفظ بـ «النقوش الحجرية لفترة حكم كي تشينغ 837م» إلى الآن، والتي تضمها غابة الأنصاب في مدينة شيآن، وتعد أقدم النقوش الحجرية في الصين. وبعد ذلك، أمر الإمبراطور مينغ تشانغ في مملكة خوتشو (950– 960) في الأسر الخمس بحفر كتب: «كتاب البر بالوالدين»، و«كتاب الحوار»، و«قاموس المفردات أريا»، و«كتاب تقلبات الزمن»، و«كتاب الأغاني» و«كتاب التاريخ»، و«كتاب الطقوس»، و«تاريخ المراسم» و«مراسم أسرة تشو»، و«قصص الربيع والخريف»، وهي الكتب القديمة العشرة، ويطلق عليها «النقوش الحجرية للكتب القديمة في فترة قوانغ تشينغ» لأن حفرها كان في فترة الحكم التي تحمل الاسم ذاته في عام 938م. وفي فترة حكم جيايوي في أسرة سونغ الشمالية، أمر الإمبراطور سونغ رين زونغ بحفر كتب: «كتاب تقلبات الزمن»، و«كتاب الأغاني»، و«كتاب التاريخ»، و«كتاب مراسم أسرة تشو»، و«كتاب تاريخ المراسم»، و«قصص الربيع والخريف»، و«كتاب البر بالوالدين»، و«كتاب الحوار»، و«مينشيسوس»، وهي الكتب القديمة التسعة التي يطلق عليها «النقوش الحجرية للكتب القديمة في فترة حكم جيايوي». وظهرت تسمية «الكتب القديمة الثلاث عشرة» في أسرة مينغ لأن أسرة سونغ دمجت كتاب «مينشيسوس في إطار الكتب القديمة؛ وفي عبارة أخرى تم إضافة هذا الكتاب إلى الكتب الاثني عشر القديمة في أسرة تانغ. وفي فترة حكم تشيان لونغ في أسرة تشينغ،

رأى مثقف من مقاطعة جيانغصو ويدعى جيانغ هينغ «النقوش الحجرية للكتب القديمة في فترة حكم كاي تشينغ»، وشعر بالسخط الشديد لأن الأيادي عبثت بهذه الكتب والخطوط فيها مختلطة والكتابة مشوشة، ثم أقسم أن يكتب بنفسه هذه الكتب القديمة الثلاث عشرة، واستغرق اثني عشر عاماً حتى أنجز مهمته، وأهداها للبلاط الإمبراطوري الذي استغرق ثلاث سنوات في حفرها على مائة وتسعين نصباً حجرياً تشتمل على أكثر من ستمائة وثلاثين

ألف كلمة، ويُطلق عليها «النقوش الحجرية للكتب القديمة في فترة حكم تشيان لونغ» التي مازالت موجودة في حالة جيدة في معبد كونفوشيوس في بكين، وفي الممر الضيق لمدرسة قوي سي (الدولة)، وربما تعتبر أضخم نقوش حجرية للكتب القديمة تم حفظها على نطاق واسع في الصين.

المبحث الثاني

كتب وسجلات تاريخية وتصنيفها

إن تقديس القديم والاكتراث بالتاريخ من الخصائص البارزة في الثقافة الصينية. وكان «اقتباس العبّر من التاريخ، والقديم مرآة تعكس الدروس» بمثابة عقيدة دينية تقريباً لدى الحكام الإقطاعيين عبر مراحل التاريخ، ومن ثم كان تأريخ الحوادث يتحلى بالأهمية القصوى. وقد قيل إنه في الأزمان الغابرة في عهد الإمبراطور الأصفر، كان تنظيم الدولة يشمل وظيفة المؤرخ المسؤول عن كتابة التاريخ. وفي أسرة تشو، كانت هناك وظيفة «تاي شي» (المؤرخ) في الحكومة المركزية، وكان مسؤولاً عن التقويم الفلكي وتسجيل الوقائع التاريخية. وتولى المؤرخ سيما تشيان (145 ق.م تقريباً– ؟) ووالده سيماتان وظيفة «تاي شي» في عهد الإمبراطور هان وو دي. وكتابة التاريخ عبر العصور المختلفة والأجيال المتلاحقة جعل المؤلفات التاريخية في الصين تتسم بالوفرة والثراء، وتطور علم التاريخ وبلغ الذروة. وربما من الصعب جداً. إحصاء عدد الكتب التاريخية الموجودة حالياً. وهناك طريقتان لتصنيف هذه الكتب والسجلات هما: يمكن تصنيف هذه الكتب التاريخية –من حيث الأسلوب– إلى ثلاثة أنواع هي: «التاريخ الزمني»، و«تاريخ الأعلام»، و«تاريخ الأحداث الكبرى». كما يمكن تصنيفها –من حيث المضمون السردي– إلى «التاريخ الرسمي»، و«تسجيل الوقائع»، و«تاريخ الأنظمة»، و«تاريخ غير رسمي»، و«ترجمة حياة».

ونتناول – في **المقام الأول**– التأريخ الزمني الذي تبلورت بدايته في كتابي «فترة الربيع والخريف» و«تاريخ مملكة لو» حتى بلغ مرحلة النضج في كتاب «تسي تشي تونغ جيان» (عبّر التاريخ في إدارة شؤون البلاد) للمؤرخ سيما قوانغ (1019 – 1086)، والكتاب عبارة عن سرد الأحداث التاريخية حسب تسلسلها الزمني ودمجها لتأسيس نظرية تاريخية من أجل تلخيص الدروس والعبر من التاريخ. وكتاب «فترة الربيع والخريف» يسجل تاريخ مملكة لو على مدى مائتين واثنتين وأربعين سنة من 722 ق.م – 481 ق.م. ومعظم الأقدمين يذكرون أن مؤلفه هو كونفوشيوس، ولكن الحقيقة أن مؤلفه هو مؤرخ في هذه المملكة، وجاء تأليفه حسب التأريخ الزمني وأوجد سابقة في تاريخ التأريخ الزمني في الصين؛ لأن سجلاته بسيطة

وموجزة، ثم أضيف إليها الشروح والتفسيرات، وتجسد ذلك في الكتب الثلاثة: «قصص الربيع والخريف»، و«سيرة قونغ يانغ»، و«سيرة قوليانغ». وفي أسرة سونغ، تضافرت جهود المؤرخ سيما قوانغ مع فإن زويوي، وليو شو في إعداد كتاب «تسي تشي تونغ جيان» على غرار تأليف كتاب «فترة الربيع والخريف» بغرض «التعلُّم من الأشياء الجميلة، ونبذ الأشياء البغيضة»، واقتباس الأحداث التاريخية لتكون منارة ساطعة في إدارة شؤون البلاد، والكتاب سرد تاريخي من 403 ق.م – 959م، وبذلك يغطي فترة تاريخية مدتها ألف وثلثمائة واثنين وستين عاماً، وأصبح مؤلفاً تاريخياً مشهوراً لأنه يزخر بالمعلومات الوفيرة، ومضمونه دقيق ووثيق، ومناسب وملائم، وأسلوبه سهل وواضح، ويحتوي على العديد من الآراء الصائبة والدقيقة. وبعد نشر هذا الكتاب، توالت العديد من كتب التاريخ الخاصة بالتأريخ الزمني، ومثال ذلك في أسرة سونغ شهدت كتاب «مقالات في تكملة عبّر التاريخ في إدارة شؤون البلاد» لمؤلفه بيه يوان الذي سجل الفترة الزمنية من 960 – 1368م، وفي أواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشينغ، استغرق تان تشيان –بصفته مؤرخاً عادياً– أكثر من ثلاثين عاماً في التأريخ الزمني لتاريخ أسرة مينغ في كتابه «قوي تشيوه» ويشمل الفترة من 1328 – 1645م، ولكن من غير المتوقع أنه سُرقت مسودات الكتاب فور الانتهاء منها، وبكى المؤلف بحرقة شديدة، ثم شمر عن ساعديه وكتب المسودة الثانية التي جاءت أفضل بكثير من نظيرتها الأولى. وبالإضافة إلى ذلك، يندرج في سلسلة كتب التاريخ هذه كل من كتاب «تاريخ أسرة مينغ» للمؤلف تشين خه في أسرة تشينغ، وكتاب «أحداث تاريخية ساطعة في أسرة مينغ» للمؤلف شيا شيه في أسرة تشينغ.

ثانياً: «تاريخ الأعلام». كان كتاب «سجلات تاريخية» للمؤرخ سيما تشيان فاتحة كتب التاريخ في هذا الخصوص، ثم حذت حذوه الأجيال المتعاقبة على مر العصور، وأصبح يمثل الأسلوب الأساسي في تسجيل التاريخ الرسمي في الصين. وتاريخ الأعلام يمثل وثاق الشبكة وتتغلغل فيه الوثائق التاريخية وينفرد بفصول خاصة في تسجيل تاريخ الأنظمة. وإذا قلنا إن التأريخ الزمني هو تسجيل التاريخ أفقياً، فإن تاريخ الأعلام هو تسجيل التاريخ طولياً. والأسلوب المحدد في كتاب «سجلات تاريخية» يتبلور في بداية الكتاب «بينجي» (تسجيل مآثر الملوك والأباطرة)، و«تيان بيان» (الشخصيات والأحداث التاريخية حسب زمانها)،

و«شي جيا» (تسجيل مآثر الحكام والأمراء، وأسماء الحكماء والفضلاء)، و«شو» (تسجيل الأنظمة)، و«ليه جوان» (تسجيل الشخصيات التاريخية الأخرى). ويغطي الكتاب من أوله إلى آخره الفترة من الإمبراطور الأصفر إلى الإمبراطور هان وو دي في أسرة هان، وينقسم إلى اثنتي عشرة مرحلة تاريخية، وعشرة جداول زمنية، وثمانية أنظمة تاريخية، وثلاثين أسرة أرستقراطية، وسبعين سيرة. وبعد ذلك، ظهر كتاب «كتاب أسرة هان» للمؤلف بان قو، و«كتاب ما بعد أسرة هان» في الأسر الجنوبية للمؤلف قان يه، و«تاريخ الممالك الثلاث» للمؤلف تشين شو في أسرة جين، و«كتاب أسرة جين» للمؤلف فانغ شوان لينغ في أسرة تانغ، و«كتاب أسرة سونغ» للمؤلف شين يوه في الأسر الجنوبية، و«كتاب مملكة تشي في الأسر الجنوبية» للمؤلف شياو تسي شيانغ في الأسر الجنوبية، و«كتاب مملكة ليانغ»، و«كتاب تشين» للمؤلف تياو سي ليان في أسرة تانغ، و«كتاب أسرة وي» للمؤلف وي شو في الأسر الشمالية، و«كتاب مملكة تشي في الأسر الشمالية» للمؤلف ليباي ياو في أسرة تانغ، و«كتاب أسرة تشو» للمؤلف لينغ قوا دافين في أسرة تانغ، و«تاريخ الأسر الجنوبية»، و«تاريخ الأسر الشمالية» للمؤلف لي يان شو في أسرة تانغ، و«كتاب أسرة سوي» للمؤلف وي تشينغ في أسرة تانغ، و«كتاب تانغ القديم» للمؤلف ليو شوى في الأسر الخمس، و«كتاب تانغ الجديد» في أسرة سونغ للمؤلف أويانغ شيوي، و«تاريخ الأسر الخمس القديم» للمؤلف شيوه جيوي تشينغ في أسرة سونغ، و«تاريخ الأسر الخمس الجديد» للمؤلف أويانغ شيوه في نفس الأسرة، و«تاريخ أسرة سونغ»، و«تاريخ مملكة لياون» و«تاريخ مملكة جين» للمؤلف توتوا في أسرة يوان، و«تاريخ أسرة يوان» للمؤلف سونغ ليان في أسرة مينغ، و«تاريخ أسرة مينغ» للمؤلف تشانغ يان يوي في أسرة تشينغ، ويُطلق على جميع كتب التاريخ المذكورة أعلاه الاسم الجامع «كتب التاريخ الأربعة والعشرون»، وإذا أضفنا إليها كتاب «تاريخ أسرة يوان الجديد» الذي انتهى تأليفه في عام 1920، إذن، نقول «كتب التاريخ الخامسة والعشرون». واضطلع بتأليف كتب التأريخ هذه –بادئ ذي بدء– المؤرخون بصفة شخصية ومستقلة حتى أنجزوها. وأمر الإمبراطور بتسجيل أحداث التاريخ بدءاً من المؤرخ شين يوه في الأسر الجنوبية، وكان يتولى رئيس الوزراء وكبار الموظفين تنظيم مجموعات تسجيل التاريخ دائماً، أو يعين الإمبراطور ثُلة من المؤرخين تتولى المسؤولية المشتركة في هذا الشأن. وتطورت هذه الأحوال وأصبحت

أكثر جلاء في أسرة تانغ، ولذا شهدت هذه الأسر معظم كتب التاريخ. وجسد هذا التحول الاهتمام الكبير في تسجيل التاريخ في الدولة الإقطاعية، وأبرز للعيان أن تسجيل التاريخ يعتبر من الشؤون المهمة التي تتبوأ المكانة الأولى في اهتمامات الدولة في إدارة شؤونها.

ولكن لم تندثر أحوال اضطلاع الأفراد بكتابة التاريخ بصفتهم الشخصية، بل إن بعض الإبداعات الجديدة في هذا المجال كانت تعتمد دائماً على فكر الإبداع لدى المؤرخ الذي يسجل التاريخ بمفرده، ومثال ذلك المؤرخ جينغ تشياو في أسرة سونغ الذي ألف كتاب «التاريخ العام» على غرار أسلوب كتاب «سجلات تاريخية» الذي يشتمل على مائتي مجلد، ويتناول الفترة الزمنية من الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة إلى أسرة سوي، وبعض فصوله يمتد تاريخها إلى أسرة تانغ، ويحوي خمسة ملايين كلمة، وينقسم إلى «سجل الملوك والأباطرة»، و«سيرة الملكات والمحظيات»، و«سجل حياة شخص ما»، و«موجز تاريخ الأحداث»، و«سيرة عشيرة الملك»، و«سيرة العظماء»، ومن بينها «موجز تاريخ الأحداث» يسجل تغيرات الأنظمة عبر العصور من خلال تطورها، ويعتبر ذلك بيت القصيد في الكتاب، ويشمل عشرين موضوعاً من القبائل، العواصم والمدن، الطقوس والمراسم، ألقاب الأباطرة وكبار الوزراء بعد وفاتهم، الأدوات والملبس، الموسيقى، الوظائف، الانتخابات، التعذيب، النقوش على البرونز والحجارة، والحشرات والنباتات، ويتحلى ذلك بالقيمة المرجعية العالية في دراسة الثقافة الصينية. وعلى الرغم من أن هذا الموجز ينتمي إلى التاريخ العام مثل كتاب «سجلات تاريخية»، ولكن يبرز للعيان تغيرات الأنظمة، وقدم أفكاراً جديدة لكتابة التاريخ. وفي فترة حكم تشيان لونغ في أسرة تشينغ أمر الإمبراطور بإعداد كتاب «تكملة التاريخ العام» الذي يعتبر امتداداً لكتاب «التاريخ العام»، حيث يتماثل التصنيف فيهما، ولكن الكتاب الأول يتناول تاريخ أسرتي يوان ومينغ، وأصبحت مجموعة تأليف وكتابة التاريخ يعينها الإمبراطور.

ثالثاً: تاريخ تسجيل الأحداث الكبرى: تمثل فيه الأحداث التاريخية وثائق الشبكة، ويتم تصنيفها إلى مجموعات حسب المعلومات التاريخية. وكل مجموعة تسرد حادثاً تاريخياً مهماً، ويخصص له الكتاب فصلاً مستقلاً. وتتمكن هذه الطريقة في تسجيل التاريخ من التخلص من نقائض التاريخ الزمني حيث سرد حدث تاريخي واحد في أكثر من مجلد ومن الصعب

البحث عن بدايته ونهايته، وكذلك عيوب تاريخ الأعلام حيث يتكرر الحدث التاريخي في أكثر من فصل، ولا يمكن التمييز بين الحدث التاريخي والشخصية التاريخية. ويعد المؤرخ يوان شو في أسرة سونغ الجنوبية مؤسس تاريخ تسجيل الأحداث الكبرى، الذي أرتأى أن كتاب «تسي تشي تونغ جيان» شامخ وضخم ويضم مائتين وأربعة وتسعين مجلداً، ومن الصعب البحث فيه عن الأحداث التاريخية، ولذا اقترح فكرة جديدة تتمحور على أن الحدث التاريخي هو وثاق الشبكة، وتجزئة الكتاب إلى موضوعات عديدة وإعادة كتابته شريطة أن يشتمل على مائتين وتسعة وثلاثين موضوعاً خاصاً، وبذلك ابتدع أسلوباً جديداً في كتابة كتب التاريخ. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، ظهرت تباعاً الكتب التالية: «تاريخ الأحداث الكبرى في أسرة سونغ»، و«تاريخ الأحداث الكبرى في أسرة يوان» للمؤلف تشين يانغ تشين، و«تاريخ الأحداث الكبرى في قصص الربيع والخريف» للمؤلف قاو شي تشي في أسرة تشينغ، بالإضافة إلى الباحثين الآخرين الذين ألفوا كتباً مثل: «تاريخ الأحداث الكبرى في أسرة لياو»، و«تاريخ الأحداث الكبرى في أسرة جين»، و«تاريخ الأحداث الكبرى في أسرة مينغ»، و«تاريخ الأحداث الكبرى في أسرة تشينغ».

ونتناول في هذا المقام أيضاً بعض كتب التاريخ الأخرى، مثل النوع الأول: «تسجيل الحقائق»، وهو عبارة عن تسجيل تاريخ أقوال وأعمال الملوك والأباطرة بكل صدق وأمانه، ولذا أطلق على هذا النوع من كتب التاريخ «تسجيل الحقائق»، وقد تطور في أسرة هان انطلاقاً من «ملاحظات الحياة اليومية»، و«تسجيل مذكرات يومية»، مثل كتاب «ملاحظات الحياة اليومية المحظورة» في عهد الإمبراطور هان وو دي. وذكر «كتاب أسرة سوي» أن أقدم تسجيل للحقائق في الصين ظهر في الأسر الجنوبية والشمالية في كتابين عنوانهما واحد هو «تسجيل حقائق الإمبراطور ليانغ» ويسجل أقوال وأعمال كل من الإمبراطور ليانغ وو دي ونظيره ليانغ يوان وي كلُ على حده، ولكن كان نصيبهما الضياع والفقدان. ومن كتب ملاحظات الحياة اليومية وتسجيل الحقائق الموجودة حالياً: «ملاحظات الانتفاضات الكبرى في أسرة تانغ» للمؤلف ونديا في هذه الأسرة؛ حيث يسرد انتفاضة الجيش في مدينة تايوان بزعامة الأب وابنه: لي يوان ولي شي مينغ حتى تأسست أسرة تانغ. وهناك سجلات حقائق لكافة الأباطرة في أسرة تانغ منذ الإمبراطور قاو زو في هذه الأسرة، ولكن لم يبق

منها سوى كتاب «تسجيل حقائق الإمبراطور شون زونغ» من تأليف هان يوي. وسجلات حقائق الأباطرة في أسرة سونغ ضاعت جميعها تقريباً. ولا يوجد منها سوى جزء ضئيل من كتاب «تسجيل حقائق الإمبراطور تاي زونغ». ولا يزال كتابا «سجل حقائق أسرة مينغ»، و«سجل حقائق أسرة تشنغ» في حالة جيدة ويتواجدان في البر الرئيسي الصيني وتايوان. أما النوع الثاني من كتب التاريخ فهو كتب التاريخ المتخصصة في تاريخ الأنظمة عبر عصور التاريخ، وتتحلى بالقيمة المرجعية على وجه الخصوص في دراسة تاريخ الأنظمة في إطار تاريخ الثقافة الصينية وتاريخ الأدوات. ورائد هذا النوع من كتب التاريخ هو المؤرخ دويوي في أسرة تانغ، واستغرق ثلاثين عاماً ونيفاً في تأليف كتاب «الأنظمة العامة» ويغطي الفترة الزمنية من العصور الغابرة إلى الإمبراطور صو زونغ إلى الإمبراطور داي زونغ في أسرة تانغ، ويسرد تاريخ الأنظمة وتقسيمها على النحو التالي: النظام المالي والأراضي، نظام الفحوص الإمبراطورية، مراقبة موظفي الحكومة، نظام الوظائف الحكومية، نظام المراسم، نظام الموسيقى، النظام العسكري والقانوني، نظام تطور الطبوغرافيا، تسجيل حدود الأراضي مع الدول المتاخمة، ويتمحور الكتاب على الحدث التاريخي، وترتيبه قائم على أساس التسلسل الزمني للأسر المتعاقبة، وجمع المعلومات التفصيلية الخاصة بكافة الأنظمة، وسجل الجديد من نظريات السلف، كما تتضمن أيضاً آراء وأفكار المؤلف نفسه. ولذلك، اهتمت الأجيال اللاحقة بدراسة هذا الكتاب، وقالوا عنه إنه: «يتحلى بالإسهاب والإطناب ولا تشعر بالضجر والملل، ويتسم بالإيجاز والبساطة، ولكنه ينطوي على الأشياء المهمة، ويجسد جوهر الأشياء الأصلية وحقائقها، ويقدم ذلك كله فائدة جمة للتعلُّم الحقيقي».

وفي أواخر أسرة سونغ الجنوبية وأوائل أسرة يوان، اضطلع المؤرخ مادوان لين من مقاطعة جيانغشي بإضافات تاريخية على أساس كتاب «التاريخ العام»، حيث وسع نطاق المعلومات من عهد الإمبراطور تيان باو في أواخر أسرة تانغ إلى نظيره جياو بينغ في أسرة سونغ الجنوبية، وألف كتاب «وثائق البحث التاريخي» في ثلثمائة وثمانية وأربعين مجلداً، ويضم أربعة وعشرين من الأبحاث الوثائقية التاريخية تشمل الأنظمة السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية، ناهيك عن سائر الأنظمة الأخرى. وتوكيد كل بحث وثائقي حسب التسلسل الزمني للعصور التاريخية، ويستهله بمقدمة موجزة، ويوضح الفكرة الجديدة في

التصحيح والتدقيق، ثم يزيله بالملاحظات والتعليقات، ويسرد أفكاره الشخصية، وقدم معلومات قيمة وتسهيلات كبيرة للباحثين في العصور اللاحقة. وبعد ذلك، استمر إصدار مثل هذه الكتب التاريخية بلا انقطاع، وعلى غرار كتب «تاريخ الأنظمة العامة»، و«التاريخ العام» و«وثائق البحث التاريخي» التي يطلق عليها الاسم الجامع «سان تونغ» (كتب التاريخ الثلاثة) حتى بلغ عددها «جيوتونغ» (الكتب التاريخية التسعة) من «تكملة تاريخ الأنظمة العامة)، و«تكملة التاريخ العام»، و«تكملة وثائق البحث التاريخي»، و«تاريخ الأنظمة في أسرة تشينغ»، و«التاريخ العام في أسرة تشينغ»، و«وثائق البحث التاريخي في أسرة تشينغ»، وإذا أضفنا إلى هذه الكتب «تكملة وثائق البحث التاريخي في أسرة تشينغ»، فيكون لدينا «الكتب التاريخية العشرة».

ومن الكتب التاريخية الأخرى التي تتناول تاريخ الأنظمة، ما يُطلق عليه «تاريخ الأنظمة في كل أسرة حاكمة»، حيث السرد الكامل للأنظمة في كل عصر وفي كل أسرة حاكمة ويتحلى بطبيعة تاريخ الأسر الحاكمة. وقد بدأ تأليف مثل هذه الكتب التاريخية في أسرة تانغ عندما ظهر في عهد الإمبراطور دازونغ في هذه الأسرة كتاب «تاريخ الأنظمة في أسرة تانغ» الذي يعتبر أول مؤلف في هذا الخصوص، وسرد مؤلفه الحقائق التاريخية في تسع مراحل تاريخية في أسرة تانغ من الإمبراطور قاو زونغ إلى نظيره دازونغ، ثم ظهر كتاب «تكملة تاريخ الأنظمة في أسرة تانغ» لمؤلفه يانغ شاو فو الذي سجل الحقائق التاريخية بعد عهد الإمبراطور دازونغ. وفي أوائل أسرة سونغ الشمالية، اضطلع وانغبو باضافات على التاريخ في أواخر أسرة تانغ، وألف كتاب «الكتاب الجديد عن الأنظمة في أسرة تانغ»، ويوجد حالياً بعنوان «الأنظمة في أسرة تانغ» ويقع في مائة مجلد، وتشمل موضوعاته شجرة نسب الأباطرة، المراسم، العَطور، العربات، الملابس، المدارس، العقوبات، الإقطاعية، البوذية، نظام الوظائف، الأطعمة، والخلف والذرية في أربع مراحل تاريخية، واستشهد بالاقتباسات ذات المعلومات الغزيرة. وبعد ذلك، ألف وانغبو كتاب «تاريخ الأنظمة في الأسر الخمس» أيضاً، ثم ظهرت كتب «تاريخ الأنظمة» في الأسر والعصور الأخرى.

وهناك الكثير من كتب التاريخ غير الرسمي، من بينها «المملكتان وو ويوه في فترة الربيع والخريف» للمؤلف تشاو يه في أسرة هان الشرقية، و«تاريخ الأديرة في لوايانغ» للمؤلف يانغ

شوان جي في أسرة وي الشمالية، و«نظام حكم الإمبراطور تاي زونغ» للمؤلف وو جينغ في أسرة تانغ، وغيرها من الكتب المهمة إلى حد ما. وكتاب «المملكتان وو ويوه في فترة الربيع والخريف» يسرد مآثر هاتين المملكتين في أواخر فترة الربيع والخريف، ولكن اندمجت فيه بعض الروايات ووصف الشخصيات، مما جعله يتأرجح بين الكتب التاريخية والرواية. وكتاب «تاريخ الأديرة في لوايانغ» يسجل بصورة أساسية الأديرة والحدائق في لوايانغ عاصمة مملكة وي الشمالية، ويشرح تاريخ كل دير ونظامه، ويتضمن ذلك المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والمجالات الأخرى في أسرة وي الشمالية، مما جعله يتحلى بالقيمة التاريخية العالية. أما كتاب «نظام حكم الإمبراطور تاي زونغ» يسجل نظام وإدارة شؤون البلاد في عهد هذا الإمبراطور، ويقدم إجابة شافية عن كل ما يتعلق بالكثير من الأمراء وكبار الموظفين وأحوال الدولة، ويستطيع أن يجعل المرء أن يدرك الأسباب التي أدت إلى نشأة «نظام حكم تاي زونغ»، ويتمتع الكتاب بالنطاق الواسع، ويتسم بالموضوعات الخاصة من تاريخ السياسة في فترة هذا الإمبراطور.

ومن كتب التراجم التاريخية «سير النساء العفيفات» الذي سجل مآثر المرأة الصينية في العصر القديم في الحفاظ على العفة والطهارة، ووضع إرهاصات كتابة تراجم المرأة الصينية. وكتاب «سير كبار الرهبان» للمؤلف هوي جياو في الأسرة الجنوبية، سرد مآثر كبار معلمي البوذية قبل عصر مملكة ليانغ ويقدم معلومات مهمة لدراسة تاريخ البوذية الصينية. وبالإضافة إلى ذلك، هناك كتاب «سير العلماء» للمؤلف يوان روان في أسرة تشينغ، الذي يعتبر السيرة الوحيدة للعلماء في العصر القديم في الصين.

المبحث الثالث

المراجع المبوبة والقواميس والمعاجم

المرجع هو عبارة عن جمع المعلومات وإعدادها في جميع المجالات أو في مجال معين؛ بحيث يصبح من المصادر التي يراجعها المرء بعد تبويب هذه المعلومات. وأقدم مرجع ظهر في فترة الإمبراطور تساو بيه في أسرة وي التي شهدت اضطلاع كبار الوزراء آنذاك بتصنيف «أمهات الكتب الخمس» وتبويبها، ثم تقديمها للإمبراطور للإطلاع عليها، ولذا أطلق عليها «مطالعات الإمبراطور»، وقد فقدت النسخة الأصلية، وتوجد النسخة المجمعة لهذه الكتب في الوقت الحاضر. وتعتبر «مجموعات الكتب في بيتانغ» أقدم مرجع موجود حالياً من إعداد يوشي فإن في أواخر أسرة سوي، وكان يعمل رئيساً للمكتبة الوطنية، وبيتانغ هو مكان يقع خلف هذه المكتبة؛ حيث اضطلع هناك يوشي بتسجيل وتبويب هذا المرجع، ولذا أطلق عليه هذا الاسم، ويقع في مائة وستين مجلداً، وينقسم إلى تسعة عشر جزءاً في موضوعات الأباطرة، الملكات والمحظيات، فن السياسة، العقوبات، الدرجات والمناصب الإقطاعية، نظام الوظائف، الطقوس والمراسم، والفن والأدب، الموسيقى، الإنجازات العسكرية، الأزياء والحلى، اللباس، مظاهر المراسم، المواصلات، الخمور، المواسم، الأرض، كما تم إعادة تصنيف الجزء الثاني في ثمانمئة واثنين وخمسين فرعا من العلوم. وفي مطالع أسرة تانغ، قام أويانغ شون بإعداد أول مرجع في هذه الأسرة بعنوان «جمع وتصنيف الآداب والفنون»، واعتمد المرجع من أوله إلى آخره على الكتب القديمة قبل هذه الأسرة وعددها ألف وأربعمائة كتاب وأكثر، ومضمونه ثري ووفير، ومبوب تبويباً يسجل المصادر والمراجع، ونظراً لأن المعلومات المجمعة والاستشهادات داخله تدور بصورة رئيسية على الفنون والآداب، ولذا أُطلق عليه «جمع وتصنيف الآداب والفنون»، وموضوعات الكتاب تشمل المواسم والفلك، والأرض، المحافظات، الولايات، الجمال والأنهار، السحر الطاوي، الأباطرة، الملكات والمحظيات، الإنسان، المراسم، الموسيقى، الوظائف، الدرجات والمناسب الإقطاعية، إدارة شؤون البلاد، العقوبات، المقالات النثرية،

قصور الأمراء، ألعاب عسكرية، الأسلحة، المنازل والبيوت، المنتجات، الملابس، الأزياء والحلى، مظاهر المراسم، المواصلات، الأطعمة، الأدوات والمواعين، المهارات الفنية، النار، الدواء، المحاصيل والحبوب، والأقطان والحرائر، النباتات، الفاكهة، الحيوانات، الحشرات، الكوارث، الرياحين، البشري والحظوظ السعدية، ثم العناوين الفرعية حيث يشمل كل فرع المعلومات المقتبسة من الكتب القديمة، ثم الاستشهاد من الشعر، ويتحلى بالقيمة المرجعية العالية. ومن المراجع الأخرى التي شهدتها أسرة تانغ «مذكرات المبتدئين في التعلُّم» من تأليف مينغ شيوه جيان في عهد الإمبراطور شوان زونغ، واستخدمه الأباطرة وذويهم في كتابة المقال عند بدء التعلُّم في الأجيال اللاحقة، وينقسم هذا المرجع إلى ثلاثة وعشرين مجلداً، ولكن حجم معلوماته لا يضاهي مرجع «جمع وتصنيف الآداب والفنون»، ولكن أفكاره تتفوق عليه.

وشهدت أسرة سونغ مرجعين كبيرين مشهورين هما: «تاي بينغ يوي لان» و«تسه فو يوان قوي». والمرجع الأول «تاي بينغ يوه لان» أمر الإمبراطور تاي زونغ في أسرة سونغ لي قانغ بإعداده وترتيبه، وكان اسمه الأصلي «الأقسام الشاملة تاي بينغ»، وكان هذا الإمبراطور يقرأ ثلاثة مجلدات من هذا المرجع يومياً، حتى انتهى من مطالعته في غضون سنة وتغير اسمه إلى الاسم الحالي، وهنا يكمن مورد المثل القائل: «المطالعة تجلب فوائد جمة» ويضم هذا المرجع ألف مجلد، وتحتوي مقدمته على موضوعات: السماء، الأرض، الإنسان، الأشياء، الشؤون المهمة، وينقسم إلى خمسة وخمسين جزءاً، مما يجعله يتفق في الرأي بالصدفة مع «كتاب التغيرات» الذي جاء فيه أن: «الأرقام في السماء والأرض عددها 55 رقماً، منها الأرقام السماوية (الأرقام الفردية) 1، 3، 5، 7، 9، ومجموعها 25، أما الأرقام الأرضية (الأرقام الزوجية) 2، 4، 6، 8، 10، ومجموعها 30، وبذلك يكون إجمالي الأرقام الفردية والزوجية 55 رقماً» ويظهر ذلك للعيان أن هذا المرجع شامل وجامع للمعلومات، ويحتوي أيضاً على عناوين فرعية تحت كل جزء ويبلغ عددها 4558 عنواناً فرعياً، وقدم إسهامات ضخمة لحفظ المعلومات والوثائق في العصر القديم لأنه اقتبس واستشهد من حوالي 1690 كتاباً في العصر القديم، ولكن اقتباساته من الكتب القديمة هذه كان نصيبها الضياع، وقيمته التاريخية تقدر تقديراً

عالياً. أما مرجع «تسه فو يوان قوي» من إعداد وتبويب كل من وانغ تشين روي، ويانغ ايه بأمر من الإمبراطور تشين زونغ في أسرة سونغ، ويعد من المراجع الضخمة المبوبة تبويباً عظيماً للمعلومات التاريخية، ويجمع مآثر وإنجازات الحكام والأباطرة والوزراء منذ العصر القديم السحيق إلى الأسر الخمس، ويغطي تاريخ سبعين عاماً من قبل هذه الأسرة، وهدفه هو اقتباس العبر والدروس من القديم. وما يطلق عليه «تسه فو» هو مخزن المكتبة، و«يوان قوي» معناها السلحفاة الكبيرة، حيث كان يعتقد الأقدمون أن السلحفاة تستطيع التنبؤ بالمستقبل، وتسدي النصح والإرشاد للإنسان، ولذا أُطلق الاسم الجامع على هذا المرجع «تسه فو يوان قوي» الذي يقع في ألف مجلد، وتم تبويبه حسب الموضوعات والشخصيات، وينقسم إلى الأباطرة والملوك، عروش الأباطرة غير الشرعية، انتهاك حقوق الآخرين، قصور الأمراء، نسب الأباطرة، أقرباء الملك أو الإمبراطور من جهة الأم أو الزوجة، كبار الموظفين، الجنرالات والقادة العسكريين، الوزارات، مسؤولو الدستور، البلدان المجاورة، الوزراء المسؤولون عن الأدب، منتقدو الأباطرة وكبار المسؤولين، تاريخ الدولة، المدارس، الطقوس، مسؤولو المراسم، ألقاب الأباطرة والملوك، حماية البيئة، شروح وتعليقات، الجزية والأتاوات، مبعوثو السياسة لتنفيذ الأوامر، وزارة الداخلية، المحافظون، قصور الوزراء، حاشية الوزارة، وزارة الخارجية، المناصب العسكرية، وهناك تبويب تحت كل جزء، فمثلاً إذا أردت أن تبحث مشكلة «المصاهرة السياسية»، يمكن أن تبحث عنها في المعلومات ما قبل أسرة سونغ في «باب المصاهرة» في جزء «وزارة الخارجية».

وشهدت أسرة مينغ أضخم مرجع جذب الأنظار من كل صوب وحدب ويحظى بشهرة كبيرة وهو «المعجم الكبير يونغ ليه»، قام بإعداده وتبويبه كل من شيه جين (1369– 1415م)، وتياو قوانغ شياو، وذلك بأمر من الإمبراطور تشينغ زو في هذه الأسرة، وشارك في هذا العمل الضخم حوالي 2169 باحثاً، واستغرق إعداده خمس سنوات، وسماه الإمبراطور «المعجم الكبير يونغ ليه» الذي يشتمل على 22937 مجلدا، منها ستون مجلداً للفهارس والموضوعات، وتم تجليده في 11095 جزءاً، ويحتوي على حوالي 370 مليون كلمة، ويمتاز بالنطاق الضخم الشاسع، والمعلومات الغزيرة الثرية،

ويشبه دائرة المعارف، ويعد من المشاريع الضخمة في تاريخ الثقافة الصينية، وبعد الانتهاء من إعداده، تم نسخه مرة أخرى وحفظه في مكتبة «ون يوان» في مدينة نانكين، ثم تم نقله إلى بكين بعد ذلك، ولم يطبع أبداً لأن مجلداته ضخمة جداً. ومجلدة بالقماش، واستمر هذه الحال حتى أواخر فترة حكم جيا تشينغ حيث نُسخ نسخة طبق الأصل وحفظها في مكتبة «التاريخ الإمبراطورية» في نانتشي تسي في بكين. وقد دُمرت النسخة الأصلية عندما اضمحلت أسرة مينغ تقريباً، وحفظت أسرة تشينغ النسخة طبق الأصل في أكاديمية هان لين، وبعد ذلك تناثرت مجلداته وتعرضت للسلب والحرق من جانب تحالف الدول الثماني التي اقتحمت بكين، ولم يبق سوى أربعة وستين مجلداً في أواخر هذه الأسرة. وبعد تحرير الصين، استمر جمع المجلدات المفقودة حتى بلغت مائة مجلد، وعدد المجلدات المحفوظة حالياً وصل إلى مائتين وخمسة عشر مجلداً، وتسرب خارج البلاد أكثر من مائة وستين مجلداً. وكان إعداد وتبويب المرجع «المعجم الكبير يونغ ليه» أقدم من الموسوعة البريطانية والموسوعة الفرنسية بأكثر من ثلثمائة سنة، ويحتل مكانة مرموقة في تاريخ الثقافة العالمية، ولكن من سوء الطالع ليس في جعبتنا وسيلة لنرى مجلداته الكاملة.

كما شهدت أسرة تشينغ المرجع الضخم الكبير «مجموعات الكتب قديماً وحديثاً» والذي أشرف على إعداده وتبويبه تشين مينغ ليه في فترة حكم الإمبراطور كانغشي ونظيره يونغ جينغ، ويعتبر أضخم المراجع المحفوظة حالياً، ومصطلحاته الأكثر اكتمالاً، واستخدامه الأكثر انتشاراً، ويحتوي على مائة وستين مليون كلمة، ومقسم إلى ست مجموعات من المراجع والمصادر، واثنين وثلاثين كتاباً مرجعياً، و6109 أجزاء، في كل جزء يدرج أولاً مجموعة المعلومات، ثم الاقتباسات من الكتب القديمة التي تثبت مصادر بعض الأشياء. وثانياً سرد النظرية الهامة، ثم تعليقات الكتب القديمة على كل الأشياء، ثم إضافة الصور التوضيحية للشرح والتفسير، وبعد ذلك جمع ما يتعلق بالمضامين من الأشعار، واللغة الصينية الكلاسيكية، وقصائد من طراز «تسي» الصينية بالمقامات، وإضافة المعلومات الأخرى ذات الصلة بالموضوع، ومضمونه خصب وثري، وتبويبه منظم جيداً، ويقدم تسهيلات كبيرة لدراسة جميع المهن والأعمال. فعلى سبيل المثال،

إذا أردت أن تعرف أوصاف «أزهار الأقحوان» وشرحها وسردها في العصر القديم، تبحث في «قسم الأزهار» في «كتاب النباتات داخل مجموعة المصادر والمراجع الشاملة»، وبذلك تستطيع الحصول على المعلومات التي تحتاجها. وبعد الانتهاء من إعداد وتبويب مرجع «مجموعات الكتب قديماً وحديثاً»، تم طبعه أربع مرات، ونسخه محفوظة في المكتبات الشهيرة الكبرى في الصين.

وتتمتع القواميس والمعاجم بتاريخ عريق في الصين، وأنواعها متعددة ومتنوعة، وذلك لأن الصين تزخر بالوثائق التاريخية الثرية والمختلفة، ونشأت العديد من المعاجم لتلبية احتياجات دراسة هذه الوثائق. وفي هذا المقام نقدم بعض أنواع المعاجم: (1) «معجم شرح المفردات وأصولها» من إعداد شيوه شين في أسرة هان الشرقية، ويعتبر أقدم معجم في الصين، وربما في العالم أيضاً، ويشمل 9353 كلمة، وتسرد مصطلحاته أولاً بالخط الصيني القديم تشوان شو، ثم شرح معناها وتفسيرها، وبعد ذلك تحليل هيكل شكل الرمز الصيني حسب «الأصول الستة للمقاطع الصينية»، وبموجب ذلك تأسس «علم الرموز الصينية» في الصين. (2) «معجم أريا» لا نعرف مؤلفه، ويعتقد أنه من مؤلفات أسرة هان بصفة عامة، ويعتبر من المعاجم التي تشرح النصوص القديمة «شون قو». وما يعرف بـ «شون قو» هو شرح معنى الكلمات واللهجات. و«شون» هو شرح معنى الكلمة بلغة سلسة وسيطة، و«قو» هو شرح اللغة القديمة باستخدام اللغة الحديثة أو شرح اللهجات باستخدام اللغة الشائعة. و«معجم أريا» المحفوظ حالياً يضم تسعة عشر قسماً وفصلاً؛ الفصول الثلاثة الأولى لشرح الكلمات بصفة عامة، والفصول الستة عشر الأخيرة مصنفة لشرح العبارات والتعابير، وتشرح أسماء جميع الأشياء، ويعتبر هذا المعجم أقدم معجم متخصص في شرح النصوص القديمة والتعليق عليها في الصين، كما يعد الصورة المصغرة لتأليف المعاجم في العصور اللاحقة، وتأثيره التاريخي لا يحتاج إلى برهان. (3) قاموس «قوانغ يون» من إعداد وتبويب تشين بانغ نيان، وتشيو يونغ في أسرة سونغ، ويعد أقدم قاموس للقوافي موجود حالياً في الصين، ويضم 26194 كلمة، وتم تبويبه حسب الحروف الصوتية، ومن ثم تبويب الرموز ذات النطق المتشابهة معاً، ويمكن أن نعتبره قاموساً مبوباً حسب الحرف الصوتي. وبعد ذلك، قام دينغ دو

وآخرون في أسرة مونغ بإضافات على أساس قاموس «قوانغ يون»، وإعداد قاموس «جي يون» يحوي خمسين ألف كلمة. (4) «قاموس كانغشي» من إعداد تشانغ يو شو وآخرون بأمر الإمبراطور كانغشي، ولذا جاءت تسمية هذا القاموس من اسم مكتب الإمبراطور بيه ون» في قصره تشانغ تشون، ويحوي 12057 من المقاطع الصوتية الأحادية، ثم تسجل الاقتباسات الشعرية والنثرية التي بلغت 550 ألفاً، وترتيبها حسب الحرف الصوتي، ومصطلحاته تسرد أولاً المقطع الأحادي، ثم شرحه وتفسيره، وبعد ذلك تبويب الكلمات حسب عدد المقاطع الصوتية، وينوط بها أمثلة من استخدامها في الكتب القديمة.

المبحث الرابع

التاريخ المحلي والحوليات المحلية

مصطلح «الحوليات المحلية» هو الاسم المختصر لـ«السجلات المحلية». وما يطلق عليه السجلات المحلية هو الكتب التاريخية التي تسجل الحوادث في المناطق الإدارية، وتتحلى بخاصيتين في آن واحد هما: الجغرافيا والتاريخ، ونظراً لأن مضمون هذه السجلات واسع النطاق جداً، والمناطق التي تسجلها شاسعة جداً، لذا تتمتع بقدر وفير من المعلومات الثرية جداً، ومن ثم استحوذت على اهتمام الناس بدرجة عالية، وجسدت إلى حد كبير إحدى الخصائص الثقافية التقليدية للكتب والمصادر القديمة في الصين. وتفيد الإحصاءات غير الكاملة، أن عدد السجلات المحلية المتوارثة الموجودة إلى الآن يبلغ زهاء أكثر من ثمانية آلاف وخمسمائة نوع، وتقع في حوالي مائة ألف مجلد وأكثر.

وتتحلى أنواع السجلات المحلية بالتعددية والكثرة، ويطلق عليها الاسم الوطني «السجلات الموحدة»، ومثال ذلك، «السجلات الموحدة في أسرة يوان»، و«السجلات الموحدة في أسرة مينغ»، و«السجلات الموحدة في أسرة تشينغ» وغيرها. ويطلق على «السجلات المحلية» في المقاطعة اسم «السجل العام»، مثل «السجل العام لمقاطعة خوبي»، و«السجل العام لمقاطعة خنان» وغيرها. أما السجلات المحلية في الإقليم، والمنطقة الإدارية، والولاية، والمحافظة فيطلق عليها كلٌ على حده تسمية «سجلات الإقليم» و«سجلات المنطقة الإدارية»، و«سجلات الولاية»، و«سجلات المحافظة». بالإضافة إلى ذلك، هناك أيضاً «سجلات الممرات»، و«سجلات الجمال»، و«سجلات الأديرة»، و«سجلات المعابد». وفي بعض الأماكن يوجد بها «سجلات البلدة» و«سجلات القرية». وهناك بعض السجلات المحلية التي يطلق عليها «الخريطة التوضيحية»، وهي الخريطة المنوط بها الكتابة التوضيحية، ومثال ذلك «الخريطة التوضيحية لإقليم وو»، ويطلق على بعضها «كاو» بمعنى «البحث الوثائقي، الدراسة الوثائقية»، ومثال ذلك البحث الوثائقي لسجل مدينة بكين في أسرة تشينغ.

ومصادر السجلات المحلية في الصين موغلة في القدم، ويسجل كتاب «حوليات الربيع

والخريف» في فصل «مآثر الإمبراطور يو» يسجل المنتجات والمحاصيل، الضرائب، وحدود البلاد ومساحتها قبل عصر الدول المتحاربة، ويعتبر ذلك النموذج المصغر للسجلات المحلية في الصين حقاً. وهناك أيضاً «كتاب الجبال والأنهار» الذي يسجل الجبال والأنهار والطبوغرافيا والطرائف والغرائب في العصور الغابرة، ومنح السجلات المحلية الاستنارة والتوجيه في العصور اللاحقة. وكانت هناك كتب الجغرافيا التي سجلت العادات والتقاليد داخل الصين، حتى كتب بان قو «كتاب أسرة هان» وخصص فيه جزء بعنوان «سجلات الجغرافيا». وفي مطالع أسرة هان الشرقية، ظهر كتاب «شروح عادات وتقاليد نانيانغ» الذي ذكر بصفة خاصة ظروف البيئة والعادات المحلية في مسقط رأس الإمبراطور ليو شيوه في أسرة هان، ويمكن القول إنه يعد أقدم سجل محلي في الصين، ومن سوء الطالع كان نصيبه الضياع والفقدان. وأقدم سجل محلي موجود حالياً في الصين هو «سجل هوايانغ» للمؤلف تشان جيو في أسرة جين الشرقية (317—420). و«هوايانغ» هي مقاطعة سيتشوان اليوم. ويسجل هذا الكتاب بإسهاب التطور السياسي، وظروف البيئة والعادات المحلية، والمنتجات والمحاصيل، وأسر الحسب والنسب وأسر النبلاء في هذه المقاطعة. وشهدت الأسر الجنوبية والشمالية العديد من السجلات المحلية المشهورة، ولكن ضاع معظمها. وفي مرحلة أسرتي سوي وتانغ، ونظراً لتوحيد الصين على نطاق واسع آنذاك، ومن أجل فهم أحوال الولايات والمناطق الإدارية في البلاد، أمر البلاط الإمبراطوري بإعداد وكتابة السجلات المحلية الوطنية، وكان ذلك إيذاناً بتدشين تقاليد كتابة السجلات المحلية من قبل الحكومة المركزية، ومثال ذلك، «سجل المحاصيل والعادات المحلية في جميع الولايات»، و«سجل خرائط تشيو نينغ»، و«مجموعة الخرائط التوضيحية في المناطق الإدارية» في أسرة سوي، بالإضافة إلى «سجل كوادي»، و«سجل خرائط الولايات والمحافظات في أسرة يوان»، ويمثل ذلك السجل الشامل الوطني من إعداد الحكومة المركزية. وفي عام 780م، قرر البلاط الإمبراطوري في أسرة تانغ، إعداد خرائط توضيحية لكافة الولايات والمناطق الإدارية مرة كل سنة وإرسالها للحكومة المركزية، ثم تغير إلى مرة كل خمس سنوات. و«سجل خرائط الولايات والمحافظات في أسرة يوان» يعتبر سجلاً تم إعداده من جانب رئيس الوزراء لي جيه بو على أساس الخرائط التوضيحية لجميع الولايات والمحافظات، وسجل بإسهاب الحدود، والجبال والأنهار، والتطورات، والقلاع،

والضرائب، والموانئ، والمحاصيل، والمواقع الأثرية المشهورة في جميع الولايات والمحافظات في ذلك الحين، وأصبح اسم هذا السجل «سجل الولايات والمحافظات في أسرة يوان» بسبب ضياع الخرائط التي كانت موجودة في متن السجل. وشهد إعداد وكتابة السجلات المحلية تطوراً كبيراً في أسرتي سونغ الجنوبية والشمالية، حيث كرر البلاط الإمبراطوري التعليمات والأوامر الخاصة بإصلاح السجلات المحلية وإعداد الخرائط المتعلقة بهذا الشأن، وإثارة اهتمام المثقفين والباحثين في هذا المجال بشكل أكبر، مما جعل عدد السجلات المحلية يشهد زيادة هائلة، كما جعل مصطلحات إعداد هذه السجلات أكثر اكتمالاً. والسجلات المحلية قبل أسرة سونغ، كان مضمون هذه السجلات يقتصر بشكل أكبر على الجغرافيا الطبيعية، ولكن اتسع نطاقها بعد هذه الأسرة، وأصبح يشمل تاريخ ثقافة البشرية مثل «سجل تاي بينغ هوان يوي» الذي حذا حذو المصطلحات في «سجل الولايات والمحافظات في أسرة يوان»، واستوعب إنجازات «سجل هوايانغ»، وبالإضافة إلى تناول أحوال الجغرافيا، فقد أصبح مضمونه ثرياً من سرد الأسماء والألقاب، والشخصيات البارزة، والعادات والتقاليد، ثم يذكر تفاصيل الشخصيات ووظائفها ومراتبها النبيلة، والفنون والآداب. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أصبحت السجلات المحلية شاملة وجامعة ومضمونها ثري، وتغيرت المصطلحات بصورة واضحة، مما جعل هذه السجلات تدخل مجال علم التاريخ انطلاقاً من جغرافية السجلات المحلية، مما ضاعف القيمة الأكاديمية والقيمة العملية لهذه السجلات. ويوجد أكثر من عشرين نوعاً من السجلات المحلية المتوارثة من أسرة سونغ، ومعظمها يتحلى بالمصطلحات الكاملة، والبحث الوثائقي مدعم بالأدلة والبراهين، والاهتمام الشديد بتسجيل الأحداث، مما يوضح بلورة السجلات المحلية في صورتها النهائية، ونظراً لاتساع نطاق الحدود في أسرة يوان، والإحساس العميق بأهمية كتابة السجلات، فقد تم الانتهاء من إعداد «السجلات الموحدة في أسرة يوان» في عام 1303م، ويشمل على ألف وثلثمائة مجلد، ويسجل بصورة كاملة التطورات قديماً وحديثاً، الجبال والأنهار، الآثار القديمة، الطبوغرافيا، الشخصيات البارزة، العادات والتقاليد، الإنتاج المحلي، ويعتبر أول سجل موحد للبلاد يتسم بالنطاق الواسع في تاريخ الصين، وقدم مثالاً ونموذجاً لإعداد وكتابة السجلات الموحدة في أسرتي مبينغ وتشينغ. وحظي إعداد السجلات المحلية بالاهتمام الشديد من جانب الحكومة المركزية

والمحليات، وأصبح الاضطلاع بكتابة السجلات في شتى البقاع عادة شائعة، ولذا تحسنت نوعية السجلات المحلية إلى حد ما. وبلغ عدد كتب السجلات زهاء ألف وخمسمائة نوع وأكثر في أسرة مينغ، مازال يوجد منها أكثر من مائة نوع في الوقت الحاضر. وشهدت أسرة تشينغ مرحلة ذروة ازدهار وكتابة وإعداد السجلات المحلية، ولاسيما في الفترة من تشيان لونغ إلى جيا تشينغ. وتمثل «السجلات الموحدة في أسرة تشينغ»، التي خضعت للتهذيب والتنقيح ثلاث مرات، ذروة نضوج السجلات المحلية في الصين كلها. كما قررت حكومة تشينغ بوضوح تنقيح السجلات المحلية لكل من المقاطعات والمناطق الإدارية والمحافظات والأقاليم مرة كل ستين عاماً، وذكرت إحصاءات «الفهرس الشامل للسجلات المحلية في الصين» أن عدد السجلات المحلية بلغ أكثر من خمسة آلاف وثمانمئة نوع في أسرة تشينغ، ويفوق ذلك بكثير العدد الإجمالي للسجلات في الأسر السابقة.

وتتباين مضامين الحوليات المحلية، كما تختلف تفاصيلها، ولكن موضوعاتها متشابهة ومتماثلة. ومثال ذلك، «تاريخ ولاية وو» إعداد فان تشينغداد في أسرة سونغ، و«تاريخ محافظة ووقونغ» إعداد كانغ هاي في أسرة مينغ. ويحتوي «تاريخ ولاية وو» على خمسين مجلداً، ويشمل موضوعات: التطورات، الحدود الفاصلة، عدد الأسر ومجموع السكان، الضرائب والإيجارات، الأتاوة المحلية، العادات والتقاليد، المدن والعواصم، المدارس، المعسكرات، العطور، المستودعات، الأسواق والمصانع الصغيرة، الآثار القديمة، الألقاب والمناصب الإقطاعية، رؤساء المناطق، المسؤولون والموظفون، معابد الأسلاف، الحدائق والمقاصير، الجبال، التلال، الجسور والكبارى، الأنهار، المشاريع المائية، الشخصيات البارزة، الناجحون على مستوى الناحية في الامتحان الإمبراطوري، المنتجات المحلية، المعابد الطاوية، معابد المدينة، معابد خارج المدينة، سجل المحافظة، المقابر، القصص والأساطير، معابد البوذية، السحر في الطاوية، العجائب والطرائف، الروايات والحكايات الشاذة، الوثائق البحثية، الأغاني والأشعار المختلفة، وتقع السجلات المختلفة في تسعة وثلاثين باباً، مما يجعل القارئ يدرك معالم مدينة صويتشو آنذاك من نظرة واحدة. و«تاريخ محافظة وو قونغ» في ثلاثة مجلدات موزعة على سبعة أبواب، ويشمل الجبال والأنهار، المدن والعواصم، الآثار القديمة، البيوت والقبور، الإدارة الحكومية، المدارس، المعابر والجسور، الأسواق، معبد الأسلاف،

معابد الطاوية، معابد البوذية، عدد الأسر وإحصاء السكان، المنتجات، المعلمون والحرفيون، الفنون والآداب. ويجسد ذلك معالم هذه المحافظة أمام القارئ للوهلة الأولى.

والتاريخ المحلي أوجد «عِلْم الحوليات المحلية» الذي تشكل في خضم الممارسة العملية لاعداد وكتابة التاريخ المحلي، وإجمال النظريات والآراء في هذا المضمار. ويتسم تنقيح التاريخ المحلي بالخبرة الوفيرة الثرية منذ القدم، ولكن كان يفتقر إلى أبحاث النظرية المنظمة قبل أسرة تشينغ. ودخل تنقيح الحوليات المحلية مرحلة الازدهار الكبيرة في هذه الأسرة، وشارك في هذا العمل عدد غير قليل من الباحثين المشهورين الذين انخرطوا في الممارسة العملية، وشكلوا سلسلة من الأفكار حول ماهية تنقيح الحوليات المحلية، مما جعل نشأة علم الحوليات المحلية سريعة وتطورت فيما بعد. ومن الشخصيات البارزة في هذا المجال المؤرخ الشهير تشانغ شيوه تشينغ في فترة تشيان لونغ، ونظريته التاريخية المشهورة «الأدب والتاريخ في التاريخ العام» التي تؤيد إدارة شؤون البلاد من خلال علم التاريخ، وكشف النقاب عن النقائص والعيوب في المراحل التاريخية المختلفة. وقد ترأس هذا المؤرخ كتابة وإعداد «حوليات محافظة يونغ تشينغ» و«حوليات خهيتشو»، و«التاريخ الشامل لمقاطعة خوبي»، كما قدم آراء صائبة وعميقة حول تهذيب وتنقيح الحوليات المحلية.

وظهر مذهبان كبيران في علم الحوليات المحلية في أسرة تشينغ جراء الفهم المتباين لطبيعة هذا العلم ومحتوياته وتأثيره. وكان المذهب الأول: «المذهب التاريخي» ويمثله تشان شيوه تشينغ، ويدعو إلى أن علم الحوليات المحلية هو سرد التاريخ الكامل لمنطقة ما وينتمي ذلك إلى التاريخ الحقيقي، ولذلك أنشأ مصطلح «الأساليب الثلاثة»، وهي: «تقليد التاريخ الرسمي لسيرة الإعلام ليكون مرجعاً في الحوليات المحلية، ومحاكاة أسلوب الاحتفالات لاقتباس طرائف ونوادر، وحذو أسلوب مؤلفات مختارة وأعمال فنية لتقديم الأدلة والبراهين، وتتضافر جهود هذه الأساليب الثلاثة معاً، ولا يمكن الاستغناء عن أحدها، ولا يمكن دمجها أبداً. ويهتم هذا المذهب بالتاريخ، ومضمون كتب الحوليات مسهب، والمعلومات غزيرة مثل خزانة أضابير الحكومة، ولذا قيمته التاريخية عالية جداً.. أما المذهب الآخر فهو «مذهب الجغرافية» ويمثله كلٌ من داي تشين، وهونغ ليانغ جيه، ويؤيدان الحوليات المحلية تسرد أحوال الجغرافيا بصورة أساسية، فمثلاً يرى داي تشين أن: «تاريخ التطورات قديماً وحديثاً

يتبوأ المكانة الأولى» و«الحوليات المحلية تركز على البحث الوثائقي للجغرافية» و«يجب الاهتمام بتطورات أحوال الجغرافيا». ويدعو نظيره هونغ ليانغ جيه إلى أن: «التطورات تمثل الأهمية القصوى في حوليات منطقة ما». وعلى الجملة، أن هذا المذهب في الحوليات لا يكترث بالوثائق التاريخية، وبالإضافة إلى الجغرافية، يشمل سجلات مقتضبة للشخصيات والموظفين. ويتميز كل مذهب منهما بالخاصية المميزة، ولكن نظرية المذهب التاريخي هي الأكثر تأثيراً.

وتتمتع الحوليات المحلية بالقيمة المرجعية العالية في مجال الدراسات والأبحاث؛ لأن سجلاتها تتصف بالإسهاب والتفاصيل الكاملة. فعلى سبيل المثال، يمكن أن نحصل على المعلومات المناسبة في هذه الحوليات؛ ففي مجال العلوم الطبيعية نجد مصادر المناجم، والظواهر الجوية، والجراد، والزلازل، وفي مجال العلوم الاجتماعية نجد العادات الشعبية، والمشاعر والأحاسيس الفنية، اللهجات والأقوال الشائعة؛ فمثلاً، «تاريخ محافظة لونغدا» في منطقة نينغشيا، يلخص خبرات التنبؤات السابقة لحدوث الزلزال، ويجملها فيما يعرف بـ «الإنذارات الستة لوقوع الزلزال»، ويشير ذلك إلى: ماء البئر تكون هادئة وساكنة أصلاً، ثم تتعكر على حين غرة، وتكون مثل الحبر الصيني، ويطفو على سطحها الطمي والرواسب. (2) عندما تهب الريح على صفحة الماء في الأحواض والبرك يزبد بلا انقطاع ويغلي مثل غليان الشاي. (3) تعلو أمواج البحر عندما تلامسها الريح، وتتدافع مياهه ويدوي زئير الأمواج، ويعتبر ذلك من الأحوال العادية، ولكن إذا كانت الريح دافئة ولطيفة، ولا يهب إعصار تيفوني، وتجيش مياه البحر فجأة، وتدوي أمواج هادرة غير عادية، فذلك ينذر بوقوع زنزال. (4) عندما تلمع صفحة السماء فجأة، وسط دياجير حلكة منتصف الليل، وينثر الضوء شعاعه في كافة الأنحاء، ولكن هذا الضوء غير عادي ولا يشبه نظيره في الظهيرة. (5) الجو صحو والشمس دافئة، والسماء صافية ونقية، ثم يظهر كسف من السحب فجأة، يتلوى مثل الأفعى الكبيرة ويتمدد أفقياً في الأفق البعيد الرحب، ويظل على هذه الحال مدة طويلة. (6) في عز الصيف تلتهب الحرارة ويتصاعد البخار، ويتصبب المرء عرقاً مثل هطول الأمطار، ويشعر فجأة بالجو المعتدل البارد مثل الثلج، ويهاجم الهواء البارد جسمه، وترتعد أوصاله وعضلاته. ولم نعثر في الكتب القديمة الأخرى على مثل الإجمال الشامل لتنبؤات وقوع الزلازل، ولا

يزال يتمتع ذلك بالقيمة المرجعية في أنشطة الناس الخاصة بالتنبؤات والتكهنات. وكذلك «تاريخ محافظة تشيوي وه» أثبت بالدليل أن عاصمة مملكة جين شينتيان ليست في تشيوي وه، بل في خوما، وكما هو متوقع تم العثور على «أطلال شينستيان» في خوما بعد تحرير الصين. ويبرز ذلك للعيان القيمة العالية التي تتمتع بها الحوليات المحلية. وفي العصر الحديث، قام أحد الأشخاص بإجمال فوائد الحوليات المحلية في النقاط الست التالية: (1) خطايا وأسرار النظام الاجتماعي لا نجدها في كتب التاريخ الرسمية، ولكن نجد موجز محتوياتها في الحوليات المحلية. (2) الشخصيات البارزة في العصور السابقة لا يمكن تسجيل أسمائها في كتب التاريخ الرسمية، ولكن نجد أسماءها وألقابها دائماً في الحوليات المحلية حتى نستطيع العثور عليها من خلال معرفة الأماكن باعتبارها وثائق الشبكة. (3) تحتوي الحوليات المحلية على العديد من الحقائق التي تعكس بالتفصيل المنتجات، والأسعار والضرائب، ويمكن أن ندرك من خلالها تحولات الأوضاع الاقتصادية. (4) تسجل الحوليات المحلية العديد من مشاريع تشييد البنايات وازدهارها واضمحلالها، ويمكن أن ندرك من خلالها ملامح ازدهار الثقافة. (5) تسجل الحوليات المحلية اتحاد القبائل وانفصالها بإسهاب، وظهور وانزواء أسرار الحسب والنسب، ويسهم ذلك دائماً في تقديم الأدلة والبراهين بالتعاون مع الحقائق التاريخية الأخرى.

ومنذ زمن بعيد، تنطلق العناصر الإمبريالية بنهم إلى القيمة العلمية التي تتمتع بها الحوليات المحلية. وفي عام 1859، قام الأمريكان بجمع الكتب القيمة في الصين عن عمد، من بينها حوليات محلية يبلغ عددها خمسة آلاف وخمسمائة نوع وأكثر، ويوجد في جامعة هارفارد وحدها أكثر من مائة نوع من هذه الحوليات الخاصة بأسرتي سونغ ومينغ؛ مثل «السجلات الموحدة في أسرة مينغ» التي تشمل تسعين مجلداً طُبع في المقر الرسمي للإمبراطور في أسرة مينغ عام 1461م، وكل مجلد ممهور بخاتم الإمبراطور تشينغ زو الخاص بهذه الأسرة، وتحوي السجلات المجموعة الكاملة من المجلدات. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أيضاً «خريطة قوانغيوي» في مجلدين وطبعت في عام 1566م في أسرة مينغ. كما يوجد في جامعة هارفارد أيضاً أقدم «السجلات الشاملة قوانغشي» الموجودة حالياً، و«تاريخ محافظة لواتشينغ». وتستحوذ اليابان على عدد أكبر من هذه الحوليات يفوق الولايات المتحدة. كما توجد

حوليات محلية محفوظة في كل من إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، والسويد، وهولندا، وبلجيكا وإيطاليا.

وفي الوقت الحاضر، يوجد في داخل الصين العديد من الحوليات المحلية المحفوظة. وتستأثر مكتبة بكين بنصيب الأسد حيث تحتضن زهاء ستة آلاف مجموعة كاملة، وتتبوأ مكتبة شانغهاي في المرتبة الثانية بحوالي خمسة آلاف مجموعة، ومكتبة نانكين في المرتبة الثالثة بحوالي أربعة آلاف مجموعة. كما تحتفظ مكتبات الجامعات بالحوليات المحلية، وتأتي جامعة بكين في الصدارة، ثم جامعة نانكين في المركز الثاني، وجامعة المعلمين في بكين في المركز الثالث. ومكتبة تيان يي في نينغبو المذكورة آنفاً تحتفظ بالحوليات المحلية في أسرة مينغ ذات الطابع الخاص، ويوجد بها حالياً أكثر من مائتين وسبعين نوعاً، تتمتع جميعها بالمعلومات الوثائقية ذات القيمة العالية، ومن بينها مائة وأربع وستون من النسخ الوحيدة الباقية، مثل: «تاريخ تشاو تشو»، و«تاريخ روتشو»، و«تاريخ محافظة شين» وكلها من إعداد تشنغدا، و«تاريخ منطقة يانتشوفو»، و«تاريخ تشين تشو» من إعداد دانلي، و«تاريخ هوانغتشو» إعداد هونغ جي، وغيرها من الحوليات المحلية القيمة. ومنذ عام 1961، تم الطبع التصويري لمائة وسبعة أنواع من «مختارات حوليات أسرة مينغ في مكتبة تيان يي»، وأبرزت للعيان فعاليتها وتأثيرها.

المبحث الخامس

جمع الكتب وحفظها على المستويين الرسمي والشخصي

كان الأقدمون يضطلعون بأنشطة جمع الكتب وحفظها من أجل حماية الكتب القديمة والإفادة منها منذ القدم ونشأ تاريخ جمع الكتب في الصين عبر الأجيال المتعاقبة التي جمعت الكتب وحفظتها. وذكرت سجلات تاريخية، أن أسرة تشو عرفت المؤرخين والمسؤولين عن تسجيل الأحداث المهمة وجمع وثائق الدولة وحفظها، وهذه الوثائق تعتبر بمنزلة كتب الدولة إذ ذاك. وجاء في كتاب «سجلات تاريخية» أن الفيلسوف لاوتسي كان «مسؤولاً عن غرف جمع الكتب وحفظها في أسرة تشو». وهذه الغرف هي المكان المخصص لجمع الكتب وحفظها في القصر الإمبراطوري في هذه الأسرة. وكتب التاريخ والسجلات التاريخية تعتبر لاوتسي أول رئيس لمكتبة الدولة بصفته مؤرخا ومسؤولاً عن غرف حفظ الكتب في عصره. وبعد أن وحد الإمبراطور الأول في أسرة تشين البلاد وضم أراضي الممالك الست، تعاظم حجم الكتب في الدولة وتفوق على الكتب المحفوظة في أسرة تشو بشكل أكبر، ولكن من أجل تعزيز السيطرة على الأيديولوجية، قرر هذا الإمبراطور تنفيذ إجراء: «حرق الكتب وإعدام المثقفين»، من حرق كتب التاريخ، عدا كتب تاريخ أسرة تشين، وحرق جميع المؤلفات المشهورة في المدارس الفكرية المائة، ولم ينج من حريق الإمبراطور إلا كتب التقنية الفنية. ويعتبر هذا الإجراء بمنزلة الكارثة الأولى في تاريخ حفظ الكتب في الصين. وعلى الرغم من ذلك، كان العوام يتمسكون بتخزين الكتب ومجابهة خطر الموت والتضحية بحياتهم، وتحكي رواية أنه كان يوجد مثقفان في ذلك الحين قاما بنقل الكتب المحفوظة في دارهما في مدينة شيان يانغ بمنأى عن الأنظار، وكرسا جهودهما ليلاً ونهاراً لنقلها بحراً إلى «كهف أريوي» في شمال غرب محافظة يوان لين في مقاطعة خنان اليوم، ومكثا هناك سراً يقومان على حراسة الكتب وحمايتها، ثم قدماها هدية لأسرة هان عندما تأسست بفضل الإمبراطور ليوبانغ. ولذلك أصبح «كهف أريوي لتخزين الكتب» من الآثار الثقافية المقدسة في الصين.

وحظيت الثقافة بالاهتمام المناسب بعد تأسيس أسرة هان، وشُيدت –في المقام الأول– ثلاث بنايات سامقة لحفظ الكتب داخل القصر الإمبراطوري وي يانغ؛ هي: «بناية شيتشو»،

و«بناية تيانلو»، و«بناية تشيلين»، وكان ذلك بمنزلة إرهاصات نظام تخزين الكتب في الأسرة الإمبراطورية في تاريخ جمع الكتب وحفظها في الصين، وجرت العادة أن يطلق الناس على هذه البنايات «مخازن الدولة للكتب». واستخدمت أسرة هان الحجارة في تشييد غرف تخزين الكتب لدرء مخاطر النار والماء. ويُعرف ذلك بـ «الغرف الحجرية»، كما استخدمت النحاس في تغليف خزائن الكتب التي يطلق عليها «الخزائن المعدنية»، وحذت الأجيال اللاحقة حذو أسرة هان في هذا الخصوص. وزاد تخزين الكتب بصورة مطردة، وخرجت إلى النور كميات ضخمة من الكتب النادرة والمختبئة التي كانت في حوزة الأفراد في أسرة تشين، وذلك بعد أن انتهجت الحكومة المركزية في أسرة هان سياسة إهداء الكتب إلى البلاط الإمبراطوري على نطاق واسع، ولذا زادت البنايات المخصصة لتخزين الكتب داخل القصر مثل: «بناية يوان»، و«بناية قوانغ نيه»، كما شيدت مخازن الكتب الحكومية خارج القصر مثل: «تاي شي»، و«تاي تشانغ»، و«تاي شيوه». وفي عهد الإمبراطوري آي دي في هذه الأسرة، وصل عدد الكتب المحفوظة لدى الأسرة الحاكمة أكثر من ثلاثة وثلاثين ألفاً. وكان الأباطرة في أسرة هان الشرقية يقدرون كثيراً المثقفين ويهتمون بالثقافة، كما اهتموا بجمع الكتب وحفظها والإفادة منها أيضاً. وكانت الكتب -بصفة عامة- تحفظ في «دونغ قوان»، و«لا تاي»، و«رينتشو قه»، و«شوان مينغ ديان»، و«تاي شيوه». ولذلك نشأت وظيفة «السكرتير المشرف» على وجه الخصوص في عهد الإمبراطور هوانغ في أسرة هان، ويضطلع بمسؤولية جمع الكتب الأدبية وحفظها بصفة خاصة، ويعتبر ذلك أول وظيفة متخصصة لرئيس مكتبة الدولة عرفتها الصين عبر تاريخها، وحذت حذوها الأجيال في العصور اللاحقة.

ولكن تخزين الكتب في الأسر الإمبراطورية تعرض للكوارث جراء استشراء الاضطرابات والزعازع الناجمة عن الحروب منذ أواخر أسرة هان الشرقية إلى أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية. وكان هناك بعض الأباطرة الذين كانوا يقدرون الثقافة ويهتمون بالأدب ويعشقون كتب الشعر، ولذلك -بعد أن وصلوا إلى سدة الحكم- اضطلعوا بجمع الكتب النادرة على نطاق واسع، وشيدوا البنايات لحفظها وتخزينها، وكانت أعدادها ضخمة وهائلة، ولكن تعرضت للحرق والنهب بسبب الاضطرابات الناجمة عن الحروب. وكان الإمبراطور وو دي في مملكة ليانغ يحفظ كميات كبيرة من الكتب في قصره، ولكنها حُرقت

كلها جراء اندلاع «تمرد خوجينغ»، واستطاع نجله أن يخمد هذا التمرد، وجمع أنواعاً مختلفة من الكتب بلغ عددها أكثر من مائة وأربعين ألفاً، ولكن قبل أن تأسره قوات أسرة وي الشمالية، أصدر أوامره بحرقها كلها على غير المتوقع. وعندما سُئل بعد هذا الحدث، لماذا حرقت الكتب؟ أجاب قائلاً: «قرأت العديد والعديد من الكتب، وما فائدتها اليوم؟! لذا قررت حرقها». ويبين ذلك السيكولوجية المعادية للثقافة لدى الحكام الإقطاعيين عندما يجابهون هزيمة نكراء على الصعيد السياسي.

وتوحدت الصين في مرحلة أسرتي سوي وتانغ، وشهد الاقتصاد والثقافة تطوراً بصورة مطردة، وتضاعف اهتمام الدولة من جمع الكتب وحفظها. وبعث الإمبراطور في أسرة سوي أناساً للبحث عن «الكتب النادرة والمختلفة» في شتى البقاع، حتى جمع الإمبراطور يانغ في هذه الأسرة أكثر من ثلثمائة وسبعين ألفاً من هذه الكتب، متفوقاً على جميع الأسر الحاكمة السابقة في هذا الخصوص. وفي عهد الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ، تولى كلُ من: يوشي فان، وي تشينغ، ويان شيقو سكرتارية الإشراف على الكتب تباعاً، وابتاعوا الكتب في جميع أنحاء البلاد، واختاروا من بين أبناء وأحفاد كبار المسؤولين أصحاب المهارات الخاصة في فن الخط، لكي ينسخوا الكتب، ثم حفظها في أمانة تخزين الكتب. وصدر المرسوم الإمبراطوري في عهد الإمبراطور شوان زونغ في هذه الأسرة، الذي أمر «المسؤولين وكبار الموظفين وعامة الشعب» بإهداء الكتب المختلفة إلى البلاط الإمبراطوري، وتضطلع الدولة بنسخها عن طريق المتخصصين، ثم حفظها وتخزينها. ولذا تأسست مصلحة مراجعة وتدقيق الكتب في «معهد العلوم التقليدي جيشيان» و«معهد العلوم التقليدي لي تشينغ»، ويتولى مشرفو الكتب في أمانة تخزين الكتب مسؤولية تصنيف الفهارس والمحتويات، وسجلوا عناوين كتب بلغ عددها أكثر من أربعين ألفاً وثمانية آلاف، مما ضاعف عدد الكتب المحفوظة القديمة والجديدة، ووصل العدد الإجمالي للكتب المحفوظة الرسمية مائة وستين ألفاً ونيفاً. وتطور جمع الكتب بصورة رسمية بعد أسرتي سونغ ويوان، وإلا لم تنشأ الأعمال الثقافية المتلألئة من المراجع والمعاجم المذكورة في المبحث السابق. ولكن، تطور جمع الكتب وحفظها من جانب الأفراد يوماً بعد يوم، جعل جمع الكتب وحفظها من قبل الدولة يأفل نجمه ويبدو شاحباً وباهتاً، وأصبح الزهور اليانعة في حدائق تاريخ الثقافة الصينية.

وفي الواقع، أن الصين شهدت اضطلاع الأفراد بجمع الكتب وحفظها منذ زمن بعيد. ومن البديهي أن كونفوشيوس كان يجمع بعض الكتب عندما يلقي دروسه على مريديه. وتذكر سجلات تاريخية أن هوي شي صاحب مذهب التمييز بين الأسماء في عصر الممالك المتحاربة، كان من جُماع الكتب آنذاك، وكانت «كتبه تملأ خمس عربات»، ولذلك يقول الصينيون دائماً: «كتب كثيرة مثل كهف أريوي، ومعارف واسعة مثل العربات الخمس»، إشارة إلى المعارف الوفيرة والمعلومات الغزيرة لدى الإنسان. وكما ذكرنا آنفاً، أن الكتب كانت تطبع آنذاك على ألواح البامبو والألواح الخشبية، وتتسع العربات الخمس لعدد قليل منها حقاً، ولهذا السبب كان من الصعب جداً. جمع الكتب وتخزينها وقتئذ، وبعد الانتشار الواسع لاختراع فن طباعة الورق في أواسط أسرة هان الشرقية، أصبح نسخ الكتب سهلاً نسبياً، ومن المرجح، أن جمع الكتب من جانب الأفراد بدأ يتطور في ذلك الحين أيضاً، حتى تمكن تساي يونغ جمع عشرة آلاف من الكتب في أواخر أسرة هان. وانتشر نسخ الكتب ولفائف الكتب انتشاراً واسعاً منذ أسرتي وي وجين، حتى الإمبراطور يوي ران في أسرة تانغ حينما زاد عدد الدكاكين الخاصة بالكتب عن أي عصر سابق. وكان جماع الكتب العظيم ليبه معاصراً لأسرة تانغ الوسطى، وقد قيل إنه كان في جعبته أكثر من ثلاثين ألف كتاب. وبعد ظهور طباعة الأكليشيه في أواسط عصر أسرة تانغ، وتدشين عصر سونغ على وجه الخصوص، حلت هذه الطباعة محل معظم كتب النسخ اليدوي، وتطورت الطباعة الرسمية والطباعة الخاصة جنباً إلى جنب، ولذا أصبح من السهل إلى حد ما اقتناء الأفراد الكتب، وأصبح عادة شائعة أن يقتني البيروقراطيون وكبار الموظفين الكتب وتخزينها في الصين القديمة، وظهر عدد كبير من جُماع الكتب المشهورين، مثل: وانغبو، وسونغ ميتشو، وسيما قوانغ الذين يبحثون عن الكتب النادرة في كافة الأصقاع، ويسألون الغادي والرائح عن الكتب، وجمعوا كتباً كثيرة تفوق نظيرتها لدى الدولة، وتطورت صناعة الطباعة بشكل أكبر في أسرة مينغ، وازدهر جمع الكتب من جانب الأفراد بشكل أكبر أيضاً، وظهر العديد من جماع الكتب المشهورين وبنايات تخزين الكتب الشهيرة، ولاسيما في مقاطعتي جيا نغصو وتشجيانغ حيث التطور الثقافي النسبي، وحيوية الأفراد في جمع الكتب قلما شوهد مثلها في العالم. وتذكر الإحصائيات في كتاب «موجز تاريخ جمّاعة الكتب في مقاطعتي

جيا نغصو وتشجيانغ» أن الفترة من أسرة جين إلى أواخر أسرة تشنغ، شهدت ثلثمائة وتسع وتسعين جمّاعة كتب مشهورة، ومائة وست وثمانين بناية تخزين الكتب الشهيرة في هاتين المقاطعتين اللتين تحتلان المرتبة الأولى في هذا الخصوص، ومازالتا تحتفظان بأكبر عدد من هذه البنايات حتى وقتنا الحاضر. كما شهدت أسرتا مينغ وتشينغ بنايات تخزين الكتب الشهيرة مثل: «بناية تيان ييقه» في نينغبو بمقاطعة تشجيانغ التي شُيدت في الفترة من 1561– 1566، وكان مديرها من كبار قادة الجيش آنذاك، ويدعى فإن تشين. وكانت شجرة أسرته تعشق الكتب وجمعها وحفظها وتتمسك بابتياع الكتب النادرة في داخل البلاد، وعندما عاجلته المنية، ورث أبناؤه وأحفاده ما يقرب من سبعين ألفاً من الكتب المحفوظة المتراكمة. ولا تزال هذه البناية في حالة جيدة وتعتبر أقدم بناية لحفظ الكتب في الصين، وجاءت تسميتها من «كتاب التغيرات» ومعناها مكافحة النار، وكان تصميمها عبارة عن طابقين علوي وسفلي، ويتكون الطابق العلوي من قاعة كبيرة وضخمة، ويضم الطابق السفلي ست غرف. كما يوجد مبنى مشهور لتخزين الكتب في مدينة تشانغشو بمقاطعة جيا نغصو يطلق عليه «بناية جي قو»، والمسؤول عنه يدعى ماوجين في أواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشينغ، وجمع الكتب المطبوعة على نطاق واسع في أسرتي سونغ ويوان، ونسخ الكتب النادرة، وبلغ عدد الكتب التي جمعها وحفظها أكثر من أربعة وثمانين ألفاً. كما تضم هذه المدينة البناية المشهورة في تخزين الكتب التي يُطلق عليها «جيانغ يون لوا» ومديرها المسؤول هو تشيان جيانغ يي كان معاصراً لأواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشينغ، ويمكن مضاهاة الكتب المحفوظة لديه بمثيلتها لدى الدولة، ولكن من سوء الطالع التهمتها النيران تماماً. وكانت «بناية هاي يوان» لتخزين الكتب مشهورة جداً. في مدينة لياو تشينغ بمقاطعة شاندونغ، وكان مديرها يانغ يي زنغ معاصراً للفترة بين الإمبراطور داو قوانغ ونظيره شيان فينغ في أسرة تشينغ، وتولى وظيفة في النقل النهري، وكرس حياته لجمع الكتب الوفيرة، واضطلعت الأجيال الثلاثة في أسرته من الجد إلى الحفيد بإعداد وتسجيل العديد من فهارس الكتب، وقام حفيده ويدعى يانغ باو يي بإعداد «فهارس كتب سونغ ويوان في بناية هاي يوان»، حيث جمع أكثر من أربعمائة وستين كتاباً، ويتحلى هذا العمل بالقيمة العالية في تصحيح وتدقيق الكتب القديمة. وكانت «بناية بيسونغ» في مدينة هوتشو بمقاطعة تشجيانغ من بنايات تخزين الكتب في أواخر أسرة

تشينغ، وعدد الكتب المحفوظة فيها يفوق نظيرتها في بناية تيان ييقه، وكانت تشبه كثيراً المكتبات الحديثة في الوقت الحاضر، وتفتح أبوابها أمام الجمهور، ولكن للأسف الشديد، اشترى اليابانيون جميع الكتب المحفوظة داخلها في عام 1907، وتحفظ اليوم في «مستودع كتب جينغ جيا» في العاصمة طوكيو. وبالإضافة إلى ذلك، يوجد في مدينة تشانغشو أيضاً «بناية تيه تشين تونغجيان» لتخزين الكتب، ومديرها كان معاصراً لأسرة تشينغ ويدعى تشو يونغ، ويعتبر هو ونظيره يانغ يي زنغ مدير «بناية هاي يوان» من مشاهير جمّاعة الكتب، ولذا يقولون: «تشو في الجنوب، ويانغ في الشمال». ويوجد حالياً العديد من بنايات تخزين الكتب في حالة جيدة، وبالإضافة إلى «بناية تيان ييقه» توجد أيضاً «بناية يوي هان» في محافظة روى آن، و«بناية ور قوي» في مدينة يوتياو، و«قاعة جيايه» في مدينة جيا شنيغ، وكلها تقع في مقاطعة تشجيانغ.

ونعود إلى الوراء قليلاً، ونتناول جمع الكتب من قبل الدولة في أسرة تشينغ، لأن ذلك يعتبر استمراراً لجمع الكتب وحفظها في الأسر السابقة، وأثر تأثيراً هائلاً في اضطلاع الأفراد بجمع الكتب، وشكل أسلوبه الخاص المتميز والفريد في هذا الشأن. وصدر المرسوم الإمبراطوري في عام 1773م بجمع نفائس الكتب القيمة في أنحاء البلاد، وتأليف الموسوعة الضخمة «الكتب الكاملة حسب الأقسام الأربعة». واهدى خلف وذرية فإن تشين مسؤول «بناية تيان ييقه» الكتب التي كانوا يحفظها إلى الإمبراطور تشيان لونغ، مما جعله يشعر بالغبطة الشديدة، ورأى أن هذه الكتب لم تتلف من أسرة فإن التي حفظتها لعدة مئات من السنين، وأرسل أناساً يفحصون تصميم بناء هذه البناية، وقرر بناء «بناية ونجين قه» على غرارها في منتجع شان تشوانغ في مدينة تشينغدا، ثم استمر إقامة بنايات تخزين الكتب، حيث شيدت «بناية ون يوان قه»، و«بناية ون يوان قه» في قصر يوان مينغ يوان في داخل مدينة بكين، فضلاً عن «بناية ونسشو قه» داخل القصر القديم في مدينة شين يانغ، ويطلق على هذه البنايات الاسم الجامع «بنايات حفظ الكتب الأربعة داخل القصور الإمبراطورية» أو مخازن الكتب الأربعة الشمالية». وبالإضافة إلى ذلك، ننظر بعين الاعتبار إلى التطور الثقافي في مقاطعتي جيانغصو وتشجيانغ، ولاسيما في مدينة يانغتشو حيث شيدت «بناية ونهوى قه»، و«بناية ونزونغ قه» في مدينة تشين جيانغ، و«بناية ونسلان قه» في هانتشو، ويطلق

عليها الاسم الجامع «مخازن الكتب الثلاثة خارج القصور الإمبراطورية» أو «مخازن الكتب الجنوبية». وفي عام 1787م، تم الانتهاء من تأليف موسوعة «الكتب الكاملة حسب الأقسام الأربعة» التي تشتمل على 36,304 أجزاء، و79,337 مجلداً، وتحفظ في سبع بنايات لتخزين الكتب بصورة مستقلة، من بينها «بناية ونهوى قه» في يانغتشو، و«بناية ونزونغ قه» في تشين جيانغ، وقد دمرتهما نيران الحرب في فترة الإمبراطور شيان فينغ. كما قام تحالف القوات البريطانية- الفرنسية بتدمير «بناية ونهوي» في قصر يوان مينغ يوان في بكين، ولذلك لم يبق في الوقت الحاضر سوى أربع بنايات لتخزين الكتب القديمة. وتحتضن مكتبة قانصو الكتب التي كانت محفوظة في «بناية ونهوي» في مدينة شين يانغ، كما تُحفظ في مكتبة مقاطعة تشجيانغ كتب «بناية ونلان» في مدينة هانتشو، بينما توجد في تايوان الكتب التي كانت محفوظة في «بناية ون يوان» في المدينة المحرمة في العاصمة الصينية بكين.

المبحث السادس
الكتب المطبوعة وأمهات الكتب

إن جمع الكتب وحفظها يهتم اهتماماً شديداً بالكتاب المطبوع سواء أكان جمع الكتب من جانب الدولة أم من الأفراد على حد سواء، كما لا يمكن إلا أن يظهرَ القراء اهتماماً بالكتاب المطبوع أيضاً من أجل الحصول على المعارف الموثوق فيها والمبثوثة بين دفتي الكتب القديمة التي ينوء بحملها ثور ويضيق بها بيت على رحبها، إذن، ما هو «الكتاب المطبوع»؟ مفهوم الكتاب المطبوع في مرحلته الأولية كان بسيطاً جداً، وهو يشير إلى استخدام حفر كليشه في طبع الكتاب. وقبل ظهور طباعة الأكليشه في الصين، كانت الكتب كلها تعتمد على النسخ اليدوي، ويطلق عليها «الكتب المنسوخة» أو «الكتب المكتوبة باليد». والمفهوم المبدئي للكتاب المطبوع يتعارض مع النسخ اليدوي أو الكتابة باليد. ولكن، مع تقدم تقنية الطباعة وتطور الثقافة، زادت الكتب والمراجع بصورة مطردة، وظهرت كميات ضخمة من الكتب المتشابهة التي تتباين من حيث الأزمنة، والأمكنة، وورق الطباعة، وأشكال الحروف المطبعية، ثم طرأ تغيرُ هائل على مفهوم الكتاب المطبوع، وأصبح مضمونه يشمل تطور العصر الذي شهد طبع الكتاب أو نسخه، وورق الطباعة والأحبار، وأشكال الحروف المطبعية، وأشكال التصميم والتجليد، ناهيك عن مميزات وعيوب الكتاب. وفن تجليد الكتب هو التمييز بين الكتب المطبوعة المختلفة بأسلوب علمي، وإجراء مقارنة بين مميزات وعيوب جميع الكتب المطبوعة والكتب المنسوخة. فمثلاً، كتاب الخرز النافر «الأعمال الكاملة للأديب لي تاي باي»، إذا رغبت في معرفة العصر الذي طبع فيه، وجودة طباعته جيدة أم سيئة، فذلك يحتاج إلى بحث طريقة طباعته، ودار طباعته، ونوع الأحبار والأوراق المستخدمة في عملية الطباعة، ناهيك عن أشكال الحروف المطبعية، والعلامات المطبوعة على الكتاب (اسم المؤلف ودار النشر) من أجل أن تصدر تقييماً صائبا على طباعة هذا الكتاب. ويحتاج ذلك إلى المعرفة الوفيرة في مجال فن تجليد الكتب. وعلى سبيل المثال، شكل الحرف المطبعي، كان طبع الكتب في أسرة سونغ يستخدم نوعين من الحروف المطبعية هما: الحرف المطبعي السميك، والحرف المطبعي الرفيع، وكان الحرف المطبعي الرفيع يقلد شكل الخط عند

الخطاط أويانغ شون ونظيره ليو قونغ تشوان، والحرف المطبعي السميك يقلد شكل الخط لدى الخطاط يان تشين تشينغ، أما في أسرة يوان فكان طبع الكتب يقلد الخط لدى الخطاط تشاو مينغ فو. ولذلك، أصبح التمييز بين أشكال الحروف المطبعية من القواعد الأساسية للتمييز بين الكتب المطبوعة في أسرتي سونغ ويوان. وبعد أسرة مينغ، أصبحت أشكال الحروف المطبعية خليطاً بلا نظام، وأصبح من الصعب الاعتماد على هذه الأشكال وحدها للتمييز بين الكتب المطبوعة، بل يجب في الوقت نفسه الاعتماد على العلامات والدلائل الأخرى.

وكانت ولادة مفهوم «أمهات الكتب» على أساس التمييز بين الكتب المطبوعة. وما يطلق عليه «أمهات الكتب» هي الكتب ذات الطباعة الجيدة والدقيقة. ونظراً لأن أسرة سونغ شهدت تطور جمع الكتب وحفظها من جانب الأفراد، فقد كان القراء وجمّاعة الكتب يهتمون كثيراً بأهمية أمهات الكتب والمصادر، وارتأوا أن الكتاب الذي ينتمي إلى أمهات الكتب يجب أن يخلو مضمونه من النقص والإهمال في الكلمات، كما يجب أن تخلو كتابته من الأخطاء الإملائية. ولكن كان الأقدمون في أغلب الأحايين يقعون في شرك الأخطاء الإملائية ويعانون من النقص والإهمال في الكلمات كثيراً عند نسخ الكتب أو طباعتها، وإذا قمنا بتقييم أمهات الكتب حسب هذا المعيار الذي أوجده الناس في أسرة سونغ، فيمكن اصطفاء عدد قليل من النسخ الباقية القيمة، ويثير ذلك الحزن والأسى في النفس. ومن ثم، طرح تشانغ جي تونغ في أواخر أسرة تشينغ، «الشروط الثلاثة في أمهات الكتب»، وهي: أولاً: «التمام والكمال»، ويعني خلو مضمون الكتاب من النقص والإهمال في الكلمات أو الاختزال والاختصار. ثانياً: «الدقة والإتقان»، ويعني مراجعة مسودة الكتاب وشروحه بكل دقة وأمانة. ثالثاً: «الأقدمية»، ويعني أن الكتاب عاش فترة طويلة إلى حد ما. وكيف نحكم على أن كتاب ما يتمتع بالأقدمية؟ كان المعيار في ذلك يحتكم إلى الحد الفاصل بين أسرة مينغ وما قبل هذه الأسرة. والكتاب الذي يفي بشرط من الشروط الثلاثة المذكورة أعلاه يعتبر من أمهات الكتب. ومفهوم أمهات الكتب لدينا في الوقت الحاضر يتحلى بـ «ثلاث خصائص» هي: (1) خاصية «الآثار التاريخية» نظراً لتقادم الأعوام والسنون على إصدار الكتاب. (2) خاصية المعلومات الأكاديمية» حيث يتسم مضمونه بالقيمة المرجعية المهمة. (3) خاصية «النموذج الفني» من حيث مراعاة الدقة في الطباعة، والتصميم والتجليد الرائع الممتاز.

ونقول بصورة محددة، إن الكتب التي تدخل في نطاق أمهات الكتب وتتفق مع شروطها هي: الكتب المطبوعة في أسرة مينغ وقبل هذه الأسرة، الكتب المطبوعة والمنسوخة القليلة المتوارثة من فترة حكم تشيان لونغ في أسرة تشينغ وما قبل هذه الفترة، والكتب المطبوعة في مملكة تايبين السماوية (1851– 1864)، والكتب التي طبعتها سلطة المزارعين السياسية، والكتب المطبوعة والمنسوخة القليلة المتوارثة من قبل ثورة 1911، والمخطوطات ذات القيمة المرجعية المهمة في الدراسات الأكاديمية قبل هذه الثورة أيضاً، ملاحظات وتعليقات المثقفين البارزين والكتب المطبوعة والمنسوخة ذات القيمة المرجعية قبل ثورة 1911، جميع الكتب المطبوعة بالحروف المتحركة وتجسد تقنية الطباعة وتمثل مستوى الطباعة في مرحلة معينة في الصين. وفي الوقت الحاضر، تخضع الكتب القديمة والمصادر والمراجع التي تحفظ في جميع المكتبات بالصين للمقارنة والتقييم في ضوء هذه المعايير والمقاييس، ناهيك عن تأليف وطبع «فهارس أمهات الكتب في الصين» لتقديم المراجع والمصادر للباحثين والدارسين، ويعتبر ذلك مهمة عظيمة لترتيب وتنسيق الكتب القديمة تضطلع بها الصين بعد تأسيسها.

المبحث السابع
تصنيف الكتب

تهتم الصين اهتماماً كبيراً بتصنيف الكتب منذ العصر القديم بغرض جمعها وحفظها واستخدامها والإفادة منها. وقام المؤرخ ليو شانغ في أسرة هان الغربية بترتيب وتصحيح وتدقيق كتب الأسر الحاكمة حسب أوامر الإمبراطور تشينغ في هذه الأسرة، وتركزت دراسته وعمله بصورة أساسية على تصحيح الأخطاء الإملائية، والترتيب والتنسيق، ثم كتابة النسخة الرسمية، وأخيراً كتابة فهرس الكتاب، وبعد ذلك، جمع فهارس كل الكتب الذي يطلق عليه «بيه لو» ويعد أقدم مؤلف مشهور في «علم الفهرسة» (الببيوغرافيا) في الصين. وورث ليو شين -فيما بعد- مهنة والده ليو شيانغ، وألف كتاب «التصنيفات السبعة» على أساس «بيه لو». وما يطلق عليه «التصنيفات السبعة» هو تصنيف محتويات الكتاب حسب طبيعتها. وجاء في «كتاب أسرة هان» أن هذه التصنيفات تشمل: الفهرس العام، والكتب الستة (الشعر، التاريخ، الطقوس، التغيرات، حوليات الربيع والخريف)، والفلاسفة، الشعر والمقامات، كتب فنون الحرب، الألاعيب السياسية، فن الطب والتنجيم. وفي الواقع إذا استثنينا الفهرس العام، توجد ستة تصنيفات فقط، ولكن وبسبب تسمية التصنيفات السبعة، فقد جرت العادة أن يطلق عليها «طريقة التصنيفات السبعة»، ويعد ذلك أقدم طريقة لتصنيف الكتب في الصين. ولذلك، يعتبر الأب وابنه ليو شيانغ، وليو شين من مؤسسي علم الفهرسة في الصين، كما أنهما يعتبران أقدم خبيرين في تصحيح وتدقيق الكتب القديمة.

وبعد تطبيق «طريقة التصنيفات السبعة» في تصنيف الكتب، ظهرت طريقة «التصنيفات الأربعة». وألف شون شيوه كتابه «الدليل الجديد في تصنيف الكتب» آنذاك، حيث قسم الكتب إلى أربع فئات هي: الأولى والثانية والثالثة والرابعة؛ تشمل الفئة الأولى الكتب الستة المذكورة أعلاه، وتذكر الفئة الثانية الفلاسفة وكتب فنون الحرب والألاعيب السياسية، وتسرد الفئة الثالثة الأحداث التاريخية والأحوال القديمة، وتسرد الفئة الرابعة الشعر والمقامات. وبعد ذلك، وعندما كان لي تشونغ يضطلع بترتيب وتنسيق الكتب النادرة المحفوظة لدى الأسر الحاكمة، أجرى تعديلاً على مضمون الفئتين الثانية والثالثة، فأصبحت الفئة الأولى تشمل

الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية، والفئة الثانية تحوي الكتب التاريخية، والفئة الثالثة تتناول الفلاسفة، والفئة الرابعة تشتمل على الشعر والمقامات. وحذت الأجيال اللاحقة حذوه ردحاً طويلاً بعد أن وضع حجر الأساس في تصنيف الكتب تأسيساً على التصنيفات الأربعة: «الكتب الكلاسيكية، التاريخ، الفلاسفة، المجموعات الأدبية».

وقد بدأت هذه التصنيفات الأربعة في أسرة سوي (581– 618). وجاء في «كتاب أسرة سوي»– فصل تاريخ الكتب الكلاسيكية» أن مجموعة ضخمة من الوثائق منذ أسرة هان الشرقية قد تم تصنيفها بموجب الأقسام الأربعة: «الكتب الكلاسيكية، التاريخ، الفلاسفة، المجموعات الأدبية»، ولم تدرج البوذية والطاوية في هذه الأقسام الأربعة، ومن هنا نشأت تسمية «الأقسام الأربعة». ويشمل «قسم الكتب الكلاسيكية»: الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية والمؤلفات المشهورة التي تناولتها بالبحث والدراسة والشرح، و«قسم التاريخ» يحوي جميع الكتب التاريخية والمؤلفات التي تناولتها بالدراسة والتنظير، و«قسم الفلاسفة» يشتمل على مؤلفات المشاهير –عدا مؤلفات الكونفوشيوسيين المشهورة– في فن الحرب، والقانون، والزراعة، والطب، والفلك، والتنجيم؛ و«قسم المجموعات الأدبية» يحوي أعمال الأدباء عبر العصور التاريخية مثل: الشعر، والنثر، وقصائد من الشعر الصيني طراز «تسي»، والمقامات، وتشيوي (نوع من الشعر الغنائي). وعلى الرغم من استخدام طريقة «التصنيفات السبعة»، ولكن ظل التيار الرئيسي في تصنيف الكتب يسير على نهج الأقسام الأربعة. وقبل تحرير الصين، تم طباعة كتابي «مجموعة كتب الأقسام الأربعة» و«ملاحظات على الأقسام الأربعة» وغيرها من الكتب الأخرى التي تعتبر الكتب النموذجية المشهورة التي اختيرت من بين الكتب التي تم تصنيفها حسب الأقسام الأربعة عبر العصور المختلفة، ولا تزال تستحوذ على اهتمام الأوساط الأكاديمية إلى الآن.

وذكرنا آنفاً كتاب «الكتب الكاملة حسب الأقسام الأربعة»، وهي الكتب التي تم اختيارها وتصنيفها حسب الأقسام الأربعة، واضطلع الباحث الكبير المشهور جي يون (ويطلق عليه أيضاً جي شياو لان) بتأليف كتاب «الفهرس العام للكتب الكاملة حسب الأقسام الأربعة» (ويسمى أيضاً «موجز الفهرس العام للكتب الكاملة حسب الأقسام الأربعة») الذي يقع في مائتي مجلد، وذلك في خضم عملية تأليف وإعداد كتاب «الكتب الكاملة حسب الأقسام

الأربعة». واضطلع الفهرس العام بالتقييم الواضح والموجز والدراسة الوثائقية لمحتويات كل قسم من حيث المزايا والنواقص، والأوضاع المتوارثة ومآثر الأدباء، ولذا يتسم بالقيمة الأكاديمية العالية، ويقدره الباحثون تقديراً كبيراً في الأجيال المتعاقبة. وإذا لم يستطع الناس قراءة الكتب والمصادر القديمة والضخمة ذات المعارف الواسعة مثل البحار، فمن الأحرى الإطلاع على «الفهرس العام» حتى يتحلوا بالفهم الأساسي لمصادر الأفكار الأكاديمية وتطور أحوالها في العصر القديم. ولكن «الفهرس العام» كان من الصعب أن يتحاشى الأخطاء، ولذلك في العصر الحديث قام بعض الباحثين بطرح الآراء الصائبة لتصحيح مواطن القصور والأخطاء في الفهرس العام، ومثال ذلك كتاب «تصحيح وتكملة موجز الفهرس العام للكتب الكاملة حسب الأقسام الأربعة» للمؤلف خويوي جين، وكتاب «تحليل وتحقيق موجز الأقسام الأربعة» للمؤلف يوي جياشي.

وكان تأليف وإعداد الفهرس العام يتصف دائماً بالتعقيد الشديد عبر العصور بسبب اتساع نطاق وضخامة الكتب والمصادر القديمة. وعلى الجملة، كانت هناك ثلاثة أنواع من الفهرس العام هي: «فهرس التاريخ»، و«الفهرس الرسمي»، و«فهرس جمّاعة الكتب». ويشير «فهرس التاريخ» إلى فهرس الكتب التي سجلتها كتب التاريخ، ومؤسس هذا النوع من الفهارس هو المؤرخ بان قو في أسرة هان، وسجل المعلومات الوثائقية المتوارثة آنذاك في كتابه «كتاب أسرة هان– فصل تاريخ الآداب»، واقتفت أثره كتب التاريخ في الأجيال اللاحقة، ويقول البعض فصل «تاريخ الآداب والفنون»، والبعض الآخر يقول فصل «تاريخ الكتب الكلاسيكية»، ومضمونه يسجل موضوعات الكتاب ويسرد المصادر الأكاديمية. وبعد انقضاء خمسة وعشرين عاماً من التداول والانتشار، كان هناك بعض الكتب التي تحتوي على فهارس التاريخ، مثل: «كتاب أسرة هان»، و«كتاب سوي»، و«كتاب تانغ القديم»، و«كتاب تانغ الجديد»، و«تاريخ أسرة سونغ»، و«تاريخ أسرة مينغ، و«مخطوطة تاريخ أسرة تشينغ». وبدأ «الفهرس الرسمي» على يد الأب وابنه ليو شانغ، وهو فهرس تم إعداده بعد أن أشرفت الحكومة على ترتيب وتنسيق الكتب في الدولة. وهناك العديد من الفهارس الرسمية في العصور المختلفة مثل: «الفهرس العام ون تشونغ» في أسرة سونغ، و«الفهرس العام ون يوان قه» في أسرة مينغ. و«الفهرس العام للكتب الكاملة حسب الأقسام

الأربعة». أما «فهرس جمّاعة الكتب»، فهو من إعداد وتأليف جمّاع الكتب، ونشأ وتطور مع قيام الأفراد بجمع الكتب وحفظها، وظهر في أسرة سونغ للمرة الأولى. وتتحلى هذه الفهارس بالمضمون الضخم، والمصطلحات المتباينة، ومعظم الفهارس الموجودة والمحفوظة حالياً تنتمي إلى أسرتي مينغ وتشينغ.

الفصل الحادي عشر

إنجازات علمية في الصين القديمة

ذكر العالم البريطاني جوزيف نيدهام في مؤلفه الضخم «تاريخ العلوم والتقنية في الصين» أن الصينيين: «أحرزوا بعض الاختراعات العلمية والتقنية في العديد من المجالات المهمة، وتفوقوا على الشخصيات الأسطورية التي صنعت المعجزة اليونانية الشهيرة، وامتلكوا الثروة الثقافية التي قدمها العرب للعالم الغربي في العصر القديم وحاولوا مجاراتهم أيضاً. وفي الفترة من القرن الثالث الميلادي إلى القرن الثالث عشر الميلادي، تمتع الصينيون بمستوى علمي في مجال المعارف أعجز الغرب من أن يشق غباره ولا يستطيع اللحاق بهم» وفي ألف سنة ونيف تمتد من أسرتي تشين وهان إلى أسرتي سونغ ويوان، تبوأت العلوم والتقنية الصينية موقع الريادة في العالم ردحاً طويلاً، وقدمت إسهامات ضخمة في عملية تطور الحضارة البشرية. ولكن بعد القرن الثالث عشر الميلادي، تجمدت العلوم والتقنية الصينية في مرحلة التجربة، ولم تحرز نظريات تلك العلوم تقدماً كبيراً، والسبب الرئيسي في ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهيكل الأخلاق في المجتمع الصيني، وخصائص استخدام العلوم والتقنية في الصين والوحدة الكلية لمفاهيم الأبحاث العلمية.

والمجتمع القديم في الصين هو نموذج لمجتمع الأخلاق؛ حيث تربعت الأفكار الكونفوشيوسية على العرش وأكدت بصورة أساسية على «تهذيب النفس، وترتيب البيت ترتيبا متناسقاً، وإدارة شؤون البلاد واحلال الأمن والسلام في ربوع البلاد»، كما شددت على تهذيب أخلاق الإنسان وتحقيق كمال الشخصية الإنسانية، وأن الهدف من العملية التربوية والتعليمية هو اضطلاع الموظفين من كافة الأوساط الاجتماعية بالحفاظ على نظام الحكم الإقطاعي، ومن ثم يتعارض ذلك مع النشاطات العلمية والتقنية والتي أُعتبرت «هرطقة وبدعة». ومجلد ما يتناول تاريخ أربع وعشرين أسرة حكمت الصين، ويتمتع بالتاريخ الطويل الذي يغص بأسماء الأباطرة والملوك ورؤساء الوزراء، والباحثين والأدباء، ومآثر التمسك بالعفة حتى الموت، ولكنه لم يفسح -عن عمد- فصلاً للمخترعين في المجالات العلمية. وإلقاء نظرة على العلوم والتقنية في الصين نجدها تتحلى بالطابع النفعي الكثيف؛ حيث أن جميع العلوم والأبحاث هدفها الأسمى يكمن في أن تستخدمها «الدولة». فعلى سبيل المثال، أحرز علم الفلك منجزات مبهرة في الصين القديمة وكان متطوراً نسبياً، ولكن أنشطة أبحاثه العلمية كان هدفها البحث عن أساس لـ«تلقي الأوامر من السماء» من أجل

توحيد البلاد في ظل الأسر الحاكمة. كما كان علم الزراعة متطوراً جداً، وبلغ عدد الكتب المؤلفة في المجال الزراعي أكثر من ثلاثمائة كتاب فقط، بيد أن ذلك يعد تجسيداً لمفهوم «الدولة القائمة على أساس الزراعة» و«الشعب يعتبر المحاصيل إلهاً» عبر الأسر الحاكمة الفائتة؛ وحتى «الاختراعات الأربعة الكبرى» كانت ترتبط بتحقيق منفعة ومصالح الدولة. ولذلك، كانت معظم المؤلفات العلمية في الصين القديمة عبارة عن تلخيص واستنتاج للتجارب، وليست أبحاثا نظرية، وجميع الاختراعات التي تم تسجيلها كانت من أجل البحث عن حلول للمشكلات الواقعية بين الدولة والحياة الاجتماعية، وليست محاولة لتحقيق اختراق وتقدم كبير في مجال الأبحاث، أما بالنسبة لطرائق البحث، فإن العلوم في الصين تركز على البحث الكلي الشامل وتولى اهتماماً للسيطرة والتمكن من الأشياء من منظور الوحدة الكلية، ولا تفصل هدف البحث عن العلاقة المعقدة من أجل دراسة الأشياء وجوهرها وخاصيتها بصورة مستقلة، وسبر أغوارها بدقة. وجعلت تلك الأسباب العلوم والتقنية في الصين القديمة تتجمد في مستواها السابق، ولن تعرف السير على درب التطور والتحديث.

المبحث الأول

علم الفلك والتقويم الصيني

يجب أن نذكر أن علم الفك في الصين القديمة كان متطوراً جداً، كما كانت منجزاته رائعة وانتشرت على نطاق واسع في أصقاع البلاد، حتى كان المزارعون رجالاً ونساء يدركون: «عندما يهبط برج شين إلى أسفل يبدأ التقويم الصيني التقليدي»، و«يتألف برج شين من ثلاثة نجوم تراها في السماء كأنها معلقة على باب دارك» و«القمر بجوار برج بُي –أحد منازل القمر الثمانية والعشرين أي مدارته التي يدور فيها حول الأرض» ولكن أصبح ذلك من أقوال الأسلاف والأجداد الغامضة والعويصة في الوقت الحاضر.

وقد بدأ علم الفلك القديم في الصين انطلاقاً من مراقبة الظواهر الجوية. وذكر كتاب «تشوايي» أن: «مراقبة الظواهر الفلكية من أجل معرفة تغيرات الزمن»، ويبين ذلك أن هدف الأقدمين من مراقبة الأحوال الجوية هو إدراك تغيرات الزمن. ومراقبة الظواهر الجوية في الأسر المالكة الفائتة أدت إلى تراكم معلومات كثيرة حول علم الفلك، وتركت آثاراً قديمة تنتمي إلى علم الفلك في كافة أنحاء العالم. ويوجد مرصد مراقبة الظواهر الجوية في بلدة تشاو تشينغ بمقاطعة خنان، ومكتوب على شاهدة هذا المرصد أنه شُيد في أسرة تشو الشرقية، وهناك قام زينغ ابي هانغ (683م – 727م) عالم الفلك في أسرة تانغ بإصلاح التقويم ومراقبة الظواهر الفلكية. وتوجد أقدم آثار مرصد فلكي في الضاحية الجنوبية للمدينة العريقة لوايانغ التي تقع اليوم في مقاطعة خنان، ويُطلق عليه الاسم القديم «مرصد لينغ»، وفي أسرة هان قاد عالم الفلك تشانغ هانغ (78م –139م) أبحاث الفلك هناك لمدة أكثر من عشر سنوات، وانتهى من تأليف كتابه الشهير «لينغ شيان» وقدم بعض الآراء العلمية مثل: «المظهر الخارجي للسماء مترامي الأطراف، وأطراف الكون بلا حدود»، واخترع «مؤشر الزلزال» و«المُحلَّقة» Armillary Sphere، وقد قام عالم الفلك في أسرة يوان كوا شو جينغ (1231– 1316م) بتشييد مرصد مراقبة الظواهر الجوية في بلدة تشاو وتشينغ بمقاطعة خنان، ومازالت تحتفظ حتى اليوم بمزولة صينية قديمة كانت تستخدم في ملاحظة ظلال الشمس.

وقد بدأ الشعب الصيني في مراقبة الظواهر الفلكية منذ زمن سحيق، ولذا اكتشف كُلف

الشمس في وقت مبكر جداً.. وكانت كلمة «الشمس» مكتوبة على نقوش العظام في عهد أسرة شانغ، وتتوسطها بقعة سوداء في قرصها الدائري مما يدل على البقع الشمسية. وفي الوقت الحاضر، أقر العالم تسجيلاً خاصاً بـ «كُلف الشمس» يرجع تاريخه إلى عهد الإمبراطور هان تشنغ في عام 28ق.م. وجاء في كتاب «أسرة هان» أنه: «في أواخر الشهر الثالث القمري الصيني يكون لون قرص الشمس في الشرق أصفر، ويحتوي على أثير أسود مثل الخيط ويتوسط مركز الشمس». وهذا التسجيل سرد بصورة تفصيلية أوقات البقع الشمسية وموقعها. ولكن السجلات الواردة في كتب التاريخ ذكرت كُلف الشمس في عام 43 ق.م، في حين أن أوروبا ذكرت ذلك في عام 807م للمرة الأولى؛ متأخرة عن السجلات الصينية بحوالي ثمانية قرون. وتفيد إحصائيات أن الصين تمتلك مائة وستة سجلات مكتوبة عن البقع الشمسية في الفترة من 43 ق.م. إلى 1638ق.م. ويوجد أيضاً -على سبيل المثال- خمسمائة ونيف تسجيل عن نجم مذّنب في الفترة من أسرة شانغ إلى أواخر أسرة هان. وكان قد ظهر أقدم تسجيل في عام 1034 ق.م، مما يوضح أقدمية السجلات الصينية عن نجم مذّنب. كما أقر العالم أن أقدم تسجيل عن مذّنب «هاليه» كان في عام 613 ق.م، بينما أقدم تسجيل في أوروبا عن نجم مذّنب يرجع تاريخه إلى عام 11ق.م، وأقدم تسجيل لمذّنب «هاليه» كان في عام 66 م. وفي عام 1974 عُثر في مقابر أسرة هان الغربية بمقاطعة جيا نغصو على «رسم توضيحي لمدار مذّنب «هاليه» أقدم بمائة سنة وأكثر عن صورة مذّنب «هاليه» القدس الذي ينتمي إلى القرن الأول الميلادي. وبالإضافة إلى ذلك، تعتبر سجلات الصين عن نجم مستعر، ونجم متجدد أعظم، والكسوف الشمسي، وخسوف القمر الأقدم والأكثر ثراء ووفرة في العالم. وتحدث كتاب «أسرة هان» في شهر يونيو صيف عام 134ق.م. عند ظهور نجم مذّنب ونجم مستعر. وتم العثور على نقوش العظام في أسرة شانغ تحتوي على تسجيل الكسوف الشمسي خمس مرات. كما ذكر كتاب «الربيع والخريف» حدوث الكسوف الكلي في يوم 22 فبراير عام 720 ق.م. وفي معرض تقييمه لمنجزات علم الفلك في العصر القديم بالصين، وذكر المفكر الفرنسي فولتير أنه: «لا توجد سوى الكتب والمؤلفات التاريخية التي يمتلكها كل شعب من شعوب العالم والتي تسجل بلا انقطاع التقاء الكسوف الشمسي مع القمر. وبعد أن تأكد علماء الفلك الفرنسيون من صحة تقديراتهم ومقياسهم ألجمتهم الدهشة جراء

اكتشافهم أن كل سجلاتهم تقريباً كانت حقيقية وموثوقاً بها».

ويتناول الناس في أحاديثهم دائماً «النجوم والكواكب السبعة»، لأن ذلك يعتبر من المعارف المهمة لدى علم الفلك القديم في الصين حيث يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الصينيين. وما يُطلق عليه «النجوم والكواكب السبعة» يشير إلى الشمس والقمر والكواكب السيارة الخمسة الكبرى وهي: المعدن، الخشب، الماء، النار، التراب. ويدل شروق الشمس وغروبها على زمن يوم واحد، والهلال والبدر يشيران إلى الفترة الزمنية شهر، وعندما تبدأ الشمس والقمر دورتهما من جديد حيث انتهيا، فإن ذلك يشير إلى مرور عام كامل، أما المعدن، الخشب، الماء، النار، التراب فيستخدمها الناس إشارة إلى المراقبة الحقيقية للكواكب السيارة الخمسة الكبرى. وكان يُطلق على «فينوس» في العصر القديم لقب «نجم» و«الزُهرة» أيضاً، وعندما ينبلج نور الفجر في الشرق يطلق عليه «تشي منغ»، وعندما يظهر في الغرب في وقت الغسق سمي «تشانغ فنغ»، ووصف «كتاب الأغاني» ذلك مرات عديدة. وكان «المُشتري» يسمى قديماً «سوى شينغ»، أو يسمى «سوى» اختصاراً. واعتقد الأقدمون أن المُشتري يدور دورة حول السماء مرة واحدة كل اثني عشر عاماً، وفي ضوء ذلك يحددون الزمن. و«عُطارد» يسمى أيضاً «تشين شين»، و«المريخ» يطلق عليه قديماً «ينغ هوا»، و«زحل» يسمى أيضاً «تشينغ شين». ولكن ما ذكرته الكتب القديمة من «الماء» و«النار» لا يشير إطلاقاً إلى «المُشتري»، بل يشير إلى «دينغ شين» و«قلب العقرب» في «نجم ثابت». كما يتناول الناس في أحاديثهم في الغالب ما يطلق عليه «ثمان وعشرون مجموعة من النجوم الثابتة» تقع على مقربة من فلك البروج والدائرة الاستوائية السماوية، وكل مجموعة تتألف من عدد كبير من النجوم، وتنقسم هذه المجموعات إلى أربعة أجزاء حسب موقعها ويتم التنسيق بينها حسب الطرائق الأربع الخاصة بحماية الآلهة في العصر القديم بالصين.

وشهد تكوين هذه المجموعات من النجوم الثابتة عملية طويلة جداً، وهناك مواضع عدة في «كتاب الأغاني» تصف هذه العملية، أما كتاب «ليه شي –الربيع والخريف» فقد ذكر الأسماء الكاملة للمجموعات ذات النجم الثابت. وفي عام 1978 تم العثور على أغطية توابيت أثرية في مقابر بمقاطعة خوبي، تحتوي على صور كاملة وأسماء مجموعات النجم الثابت، مما يدل على أنها تكونت في فترة الممالك المتحاربة. وأهمية هذه المجموعات تكمن –في المقام

الأول- في اعتقاد الأقدمين أنها تنتمي إلى «نجم ثابت» وموقعها ثابت أزلي لا يتغير، ولذا يمكن استخدامها في عمل «إحداثيات» الكواكب السيارة الأخرى، ويقدم ذلك تسهيلات في مراقبة مواقع الشمس والقمر والكواكب السيارة. ثانياً: إن الأسلاف قاموا بالربط الوثيق بين الفلك والجغرافية، وجعلوا كل منهما يناظر الآخر، فكل مجموعة نجوم ثابتة تقابل منطقة جغرافية يطلق عليها «الحد الفاصل»، وهناك مدونات كثيرة حول هذا الموضوع في العديد من المؤلفات التاريخية القديمة.

وكان تطوير التقويم السنوي ونشأته تدريجياً بالتزامن مع الإنتاج الزراعي البدائي، وفي عبارة أخرى، أن هناك علاقة وثيقة ومباشرة بين التقويم في الصين والإنتاج الزراعي، ولذا يشمل التقويم الصيني على أيام شمسية محددة تبلغ قوامها أربعة وعشرين يوماً. وما هو التقويم؟ هو وسيلة حساب الزمن اعتماداً على الدورة الزمنية لكل من السنة والشهر واليوم. وقد ذكر كتاب «شانغ شو» أن السنة تنقسم إلى أربعة فصول، وعدد أيامها 366 يوماً، كما أشار إلى الشهر الكبيس في التقويم القمري الصيني. ومنذ أسرة شانغ، تم استخدام ستين من الجذوع السماوية والفروع الأرضية لحساب زمن اليوم الواحد، وتحديد زمن الشهر من خلال البدر والهلال، واستخدمت هذه الطريقة عبر آلاف السنين، حتى الإمبراطور هان وو دي حيث تم إعداد «تقويم تاي تشو»، وتكوَّن أول تقويم كامل في الصين، ثم قامت الأسر الملكية اللاحقة بتغيير التقويم حتى أسرة يوان، وقام آنذاك كوا شو جينغ بإعداد «تقويم شوشي» الذي تبلور في صورته النهائية. واستخدمت أسرة منغ «تقويم داقونغ» الذي كان في الواقع تقويم أسرة يوان الذي أعدّه كوا شو جينغ.

ويعرف الجميع أن «اليوم» عبارة عن الفترة الزمنية لدور الأرض دورة واحدة، و«الشهر» يحسب في ضوء دورة تغيرات حجم القمر، وهو ما يطلق عليه العلم الحديث «الشهر القمري»، أما «السنة» فهي عبارة عن زمن دوران الأرض حول الشمس دورة واحدة، ويُطلق عليها «السنة المدارية». وبذل الأقدمون جهوداً مضنية من أجل مراقبة تغيرات الشمس والقمر، ثم استخدموا فيما بعد «مزولة صينية قديمة» تتألف من «بياو» و«قوي»، وما يطلق عليه «بياو» عبارة عن عمود أو ركيزة مثبت على سطح الأرض، أما «قوي» فهي عبارة عن مسطرة مثبتة في وضع مستو في اتجاه الجنوب -الشمال، و«بياو» و«قوي» في وضع رأسي،

وتتسلط أشعة الشمس على «بياو»، وتسقط على «قوي». وعندما تنتقل الشمس إلى أقصى الشمال وتتبوأ أعلى مكانتها، ويكون ظل العمود الأقصر، فإن ذلك يدل على أن الشمس بلغت أقصى شمال المعمورة، ويعني ذلك «نهاية الصيف»، وعلى العكس تماماً، فعندما يكون ظل العمود الأطول، فيدل على أن الشمس بلغت أقصى جنوب الأرض، ويشير ذلك إلى «نهاية فصل الشتاء». وتوجد سنة مدارية بين كل فصلين شتاء. وفي فترة الربيع والخريف، حدد الصينيون عدد أيام السنة المدارية بـ 365,25 يوم؛ وفي عام 1199م استخدم يانغ تشونغ بو في أسرة سونغ الجنوبية هذه القيمة العددية وحدد عدد أيام هذه السنة بـ 365,2425 يوم، واستخدم «تقويم شو شي» -الذي أعدّه كوا شو جينغ في أسرة يوان- نفس القيمة العددية. وهذه القيمة العددية تقل 26 ثانية عن الزمن الفعلي لدورة دوران الأرض حول الشمس، كما تنقص يوماً كل ثلاث سنوات و320 يوماً، وتتفق تماماً مع التقويم الميلادي «جاليليو» الذي يستخدم في العالم الحديث.

وفي الواقع، أن التقويم القديم في الصين كان عبارة عن التقويم الشمسي والتقويم القمري، والسنة العادية تتألف من اثني عشر شهراً، وكل شهر كبير يشمل ثلاثين يوماً، ويبلغ عدد الأشهر الكبيرة ستة شهور، وعدد أيام الشهر الصغير تسعة وعشرين يوما، ويبلغ عدد الأشهر الصغيرة ستة شهور أيضاً، وعلى هذا النحو، عدد أيام السنة يبلغ 354 يوما، وتنقص 11,25 يوم عن السنة المدارية، كما تنقص أكثر من شهر كل ثلاث سنوات، ولذلك يتراكم شهر كل ثلاث سنوات، ويُطلق على السنة التي تشهد ذاك الشهر «سنة كبيسة».

واستخدم الأقدمون -بصفة عامة- العدد الترتيبي في تحديد زمن الشهر، ولكن بدء السنة يكون من الشهر الأول القمري وبالتسلسل الشهر الثاني والشهر الثالث وهكذا. وفي فترة الربيع والخريف، كان تحديد زمن الشهر من خلال الفروع الأرضية الاثنا عشر، ويطلق عليه «شهر جيان». وكانت نهاية الشتاء في أغلب الأحايين في الشهر الحادي عشر الذي يُطلق عليه «شهر جيان تسي» بينما أطلق على الشهر الثاني عشر «شهر جيان تشو». وفي ضوء هذا التسلسل تبدأ دورة جديدة في اتجاه فصل الصيف. أما تحديد الفترة الزمنية لدورة الشمس، فقد عُثر في أطلال ين بأسرة شانغ على نقوش عظام الحيوانات مسجل عليها استخدام الجذوع السماوية والفروع الأرضية في تحديد زمن دورة الشمس. وما يطلق عليه «الجذوع

السماوية والفروع الأرضية» يعد تجسيداً لمفهوم السماء والأرض من التقويم الشمسي والتقويم القمري (الين واليانغ). ويعتبر هذا المفهوم السماء جذعاً، والأرض فرعاً. ويبلغ عدد «الجذوع السماوية» عشرة، و«الفروع الأرضية» اثنا عشر. وتشكل الجذوع السماوية والفروع الأرضية مجموعة مؤلفة قوامها ستين وحدة، وطريقة تكوين هذه المجموعة يكون من خلال اقتران العدد الفردي من الجذوع السماوية بنظيره في الفروع الأرضية، وبالمثل يقترن العدد الزوجي من الجذوع السماوية بنظيره من الفروع الأرضية، ويُطلق على ذلك «دورة ستين سنة»، وكل وحدة تمثل يوما. وتبدأ دورة ستين سنة من الدوران مرة أخرى، ويستمر الدوران بلا انقطاع. وقد استخدمت هذه الطريقة من أواسط أسرة تانغ إلى عام 1911م، وكان استخدامها في العالم الأطول زمناً.

كما أوجد الأقدمون ما يعرف بـ «الأيام الشمسية المحددة وعددها أربعة وعشرين يوماً من أجل جعل التقويم أكثر انسجاماً واتساقاً بالظواهر الجوية والمواسم (الفصول) الطبيعية والإفادة منه في ترتيب وإعداد مواسم الإنتاج الزراعي. وتفيد المعلومات التاريخية، أن الصين كانت أبكر الدول التي ظهر فيها «الاعتدالان» و«الانقلابان الشمسيان»، ويشير ذلك إلى الربيع، الاعتدال الخريفي، الشتاء، والانقلاب الصيفي. كما جاء في كتاب «الربيع والخريف» تلميح إلى أيام شمسية محددة من بدء الربيع، الاعتدال الربيعي، بدء الصيف، بدء الخريف، الاعتدال الخريفي، بدء الشتاء. وفي أوائل أسرة هان الغربية ظهرت جميع أسماء الأيام الشمسية المحددة. وفي الواقع، أن ما يطلق عليه «الأيام الشمسية المحددة» وعددها أربعة وعشرين يوماً يشير إلى أربعة وعشرين موقعاً للأرض في مدار دورانها حول الشمس، وباختلاف مواقع الشمس، يختلف الطقس ودرجات الحرارة وكمية الأمطار. وفي ضوء تلك التغيرات المناخية قرر الأقدمون أسماء الأيام الشمسية المحددة.

المبحث الثاني
علم الزراعة

تعتمد الصين على الزراعة في تأسيس الدولة منذ العصور الغابرة، واعتبرت الإنتاج الزراعي أساس الحياة والتنمية، وربما قد لا توجد دولة في العالم مثل الصين تضع الزراعة دائماً وأبداً في المرتبة الأولى منذ آلاف السنين، ثم يليها السياسة الاجتماعية والإنتاج الاقتصادي، ومن ثم حظي البحث الزراعي باهتمام الناس عبر التاريخ وحقق منجزات كثيرة جداً.

وأثبتت الآثار القديمة أن الصين عرفت الزراعة البدائية المتطورة نسبياً في المرحلة المبكرة للعصر الحجري الحديث منذ زهاء سبعة آلاف سنة. وقد عُثر على أقدم أرز غير مقشور في العالم في «أطلال خميدو» بمحافظة يوي تياو في مقاطعة تشجيانغ. كما تم اكتشاف الدُخن وخندق تخزينه بين أطلال حضارة يانغشاو في حوض النهر الأصفر. كما عُثر –فيما بعد– على وثائق تحوي سجلات عن اهتمام الأسر شيا، وشيانغ، وتشو بالإنتاج الزراعة، وكان الجد الأول لأسرة تشو ويدعى «خوجي» خبيراً في الإنتاج الزراعي، وقد قيل إنه علَّم الناس الحراثة والزراعة، ولذلك مازالت توجد «مقصورة تعلُّم الزراعة» تخليداً لذكراه في محافظة وو قونغ بمقاطعة شنشي. وقبل فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة، استخدم الناس بصورة أساسية الأدوات الزراعية المصنوعة من الحجر والعظام، وكان من أهمها المحراث ذو الشوكتين، وشفرة المحراث التي يشق بها الأرض وتتخذ شكل المجرفة، وفي فترة الربيع والخريف على الأقل، استخدم بعض الناس الأدوات الحديدية التي حلت محل الأدوات الحجرية تدريجياً، ولذا زادت نسبة الإنتاج اليدوي زيادة هائلة، ودفع ذلك سرعة تنمية الإنتاج الزراعي إلى الأمام.

وتبلورت خبرات الإنتاج الزراعي وتقدمت فنون الإنتاج في المجال الفكري، حيث شهدت خبرات الإنتاج وتقنية الإنتاج أيضاً الأبحاث والاستنتاجات، مما أدى إلى ظهور علماء الزراعة والمؤلفات والكتب الزراعية الشهيرة. وقد ظهر في عصر الممالك المتحاربة «كتاب إله الزراعة» و«كتاب البرية القديم»، ولكنهما اندثرا ولا نعرف شيئاً عن مضمونهما. واليوم لا يوجد في جعبتنا سوى كتاب «ليه شي – الربيع والخريف» الذي نستطيع أن نطالعه،

ويقع في أربعة فصول هي: «الفلاح»، «الأرض»، «بنسات»، «أوقات الزراعة»، ناهيك عن بعض المعلومات المتناثرة في كتب ومؤلفات المدارس الفكرية المائة، ويحوي هذا الكتاب أيضاً على وثيقة تخبرنا بأقدم علم تصنيف الأرض في الصين، كما سجل طريقة تقسيم الأراضي حسب خصوبتها. وقدمت هذه الفصول الأفكار الزراعية التي انتشرت منذ آلاف السنين، وأوضحت مبادئ الانتفاع بالأرض، وشرحت العلاقة بين العناصر الثلاثة الأساسية في الإنتاج الزراعي: السماء والأرض والإنسان، وقدمت اجمالاً لقانون الإنتاج «لا تخالف مواسم الزراعة».

وقبل تأسيس أسرتي وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية، كان مركز الثقل الاقتصادي في الصين يقع في وادي النهر الأصفر بصورة أساسية، وكان الإنتاج الزراعي هناك متطوراً نسبياً، وفنون الإنتاج متقدمة إلى حد ما أيضاً، ولذا تركزت الأبحاث الخاصة بعلم الزراعة في هذه المنطقة. وفي أسرة هان الغربية قام سي شينغ بتأليف كتاب «كتاب سي شينغ» قدم فيه إجمالاً للأراضي التي أصابها الجفاف في شمال الصين، ونظام الزراعة في منطقة قوانغ تشونغ، بالإضافة إلى مبادئ الإنتاج: «الوقت المناسب، التربة الخصبة، الأسمدة، الحرث المبكر والحصاد المبكر» وفي عهد أسرة وي الشمالية، قام جياسي شيه بتأليف كتابه «فن إدارة شؤون الشعب» سرد فيه بانتظام تلخيصاً لخبرات الإنتاج الزراعي في حوض النهر الأصفر، وأبرز للعيان أفكار علم الزراعة من اتخاذ إجراءات تتناسب مع الظروف المحلية وأحوال المناخ في الزراعة، وقدم طرائق الحراثة الدقيقة والعناية الأدق بالمزروعات، والحفاظ على رطوبة التربة ونثر السماد، وذلك حسب خصائص الإنتاج الزراعي في شمال البلاد، وأصبح هذا الكتاب من أهم المؤلفات في المجال الزراعي في تاريخ الصين. وبعد أسرتي سوي وتانغ، انتقل مركز الثقل الاقتصادي في الصين إلى جنوب البلاد، وتطور هناك الإنتاج الزراعي بصورة مطردة. وكان الأرز من المحاصيل الرئيسية. وألف تشين فو كتاب «كتاب الزراعة» في أسرة سونغ الجنوبية ناقش فيه طريقة زراعة الأرز باعتباره محصولاً رئيسياً، بالإضافة إلى القنب والدُخن وتربية الأبقار وإنتاج الحرير الخام عن طريق تربية دودة القز، وينسجم مضمونه مع الظروف الواقعية، وأفكاره تنبثق من الممارسات العملية. كما قام وانغ تشين بتأليف كتاب يحمل نفس العنوان «كتاب الزراعة» في أسرة يوان. وقدم هذا الكتاب

إجمالاً لفنون الزراعة في الحقول الجافة في حوض النهر الأصفر، وحقول الأرز في جنوب اليانجتسي؛ وفي الجزء الأول المعنون بـ (خبرة تربية دودة القز وإنتاج الحرير الخام) سرد المؤلف النظرية الشاملة للكتاب كله، وفي الجزء الثاني (دليل مائة محصول زراعي) شرح المؤلف فن زراعة الدُخن والأرز والقمح وغيرها من الغلال، وزراعة البطيخ والخضراوات، وحماية المزروعات وحصدها وتخزينها، أما في الجزء الثالث (دليل صور الأدوات الزراعية) رسم المؤلف صوراً للأدوات الزراعية التي استطاع الحصول عليها، كما تضمن الكتاب تشييد مشاريع الري والإفادة من مياه الري، ولذا يتحلى بقيمة علمية وتقنية عالية جداً..

وفي أسرتي مينغ وتشينغ، دخلت العلوم والتقنية الغربية إلى الصين رويداً رويداً، وكان لها تأثير محدود على أبحاث علم الزراعة. وفي الوقت نفسه، ونظراً لأن فن الإنتاج الزراعي شهد تراكم الخبرات عبر آلاف السنين، ولذا كان يزخر بالموضوعات التي يمكن إجمالها وبحثها بقدوم هاتين الأسرتين. إن التبادل والتفاعل بين العلوم والتقنية الفنية في كل من الصين والغرب، أنجبا العالم الصيني الكبير شيوي قوانغ تشي (1562 – 1633) صاحب الكتاب العظيم «الكامل في السياسة الزراعية» الذي يقع في ستين جزءاً، وتشمل موضوعاته الحراثة الزراعية، استصلاح الأراضي، مشاريع الري، تصنيع الأغذية، فن زراعة أشجار الفاكهة وغيرها من الموضوعات الأخرى، وعلى وجه الخصوص، التركيز على إلقاء الضوء على معسكرات إحياء أرض موات، هندسة ومشاريع الري والاستعدادات لمجابهة الكوارث الطبيعية، وكان ذلك من الخصائص البارزة في هذا الكتاب الذي قدم أيضاً إجمالاً شاملاً لخبرات إنتاج الحرير الخام من خلال تربية دودة القز والمنشآت الزراعية منذ أسرة سونغ. وبعد نشوب حرب الأفيون، ارتكس المجتمع الصيني لعدة سنوات في شرك التدهور والاضمحلال، واقترح بعض المثقفين النهوض بالزراعة من أجل إثراء البلاد وتقوية جيشها، فضلاً عن الاهتمام باجتذاب التقنية الزراعية من الدول الغربية واليابان، وبدأ الناس تدشين أساس التعليم الزراعي بعد «الثورة الإصلاحية». وفي عام 1897، اضطلع لو جينغ يوي وآخرون بإعداد وتحرير ونشر سلسلة كتب «علم الزراعة» التي دفعت التنمية الزراعية في الصين في العصر الحديث.

وزبدة القول، إن الأبحاث الزراعية في الصين تولي اهتماماً كبيراً لإيجاد حلول للمشاكل

الواقعية في الإنتاج الزراعي، وتكرس جهودها على كل موضوع متعلق بالمجال الزراعي مثل: استصلاح التربة، ونثر السماد بصورة معقولة، والاختبارات السليمة للمزروعات، ومقاومة الجفاف والحفاظ على رطوبة التربة، وشكل ذلك نظاماً تقنياً كاملاً، وقدم إسهامات جديرة بتنمية البشرية ووجودها.

المبحث الثالث

علم الرياضيات

يمكن أن يرجع أصل الرياضيات في الصين إلى العصر الحجري الحديث في المجتمع البدائي. ونقول بدقة إن الرياضيات كانت نتيجة الحساب عن طريق ربط العقد. وفي المرحلة المتأخرة للمجتمع البدائي تقريباً اكتشف الأجداد الأولون طريقة حساب «النظام العشري» واستخدموها في الحياة والإنتاج ونقوش العظام في أسرة شانغ والنقوش البرونزية القديمة في أسرة تشو تحتوي على ثلاثة عشر رقماً هي: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، 1000، 10000. كما ذكر كتاب «شانغ شو» في مواضع عدة مئة مليون، مليون ومليون وغيرهما من الأرقام الأخرى، مما يدل على نضوج ومهارة الأجداد الصينيين في استخدام النظام العشري. ويمكن القول، إن طريقة حساب النظام العشري تعتبر مساهمة كبرى قدمها الصينيون للحضارة في العالم.

وتاريخ تطور الرياضيات الرائع في الصين لا يمكن إلا أن يذكر كتابي «الرياضيات في أسرة تشو» و«فن حساب تسع مسائل» اللذين ظهرا في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي. يسجل الكتاب الأول أن شان قاو في أسرة تشو شرح في المثلث قائم الزاوية العلاقة أن طول إحدى أضلاعه ثلاث وحدات، ويبلغ طول ضلعه الأخرى أربع وحدات، ويبلغ فيه طول الوتر خمس وحدات، وما يطلق عليه «الضلع الأصغر في المثلث القائم الزاوية، والضلع الأكبر في المثلث القائم الزاوية ووتر المثلث» قد أصبح أقدم تسجيل للنظرية الفيثاغورية في العالم. أما الكتاب الثاني فقد ترك أثراً عميقاً في تطوير علم الرياضيات في الأسر الحاكمة في العصور اللاحقة، وتأثيره وأهميته متكافئتان مع تأثير وأهمية كتاب «مبادئ الهندسة» لعالم الرياضيات اليوناني إقليدس في تطوير الرياضيات في الغرب. ومؤلف الكتاب الثاني مجهول ولا نعرف عنه شيئاً، وتناقلت الألسن حتى الوقت الحاضر أن ليو هوي في أسرة جين، ولي تشون فينغ في أسرة تانغ قاما بشرح مواد الكتاب. وما يعرف بـ «فن حساب تسع مسائل» يقصد به حلّ تسع مسائل، وبلغ إجمالي المسائل الحسابية في دفتي الكتاب 246 مسألة مسجلاً بذلك العمليات الحسابية الأربع (الجمع، الطرح، الضرب والقسمة) وطريقة حساب النسبة الأكثر تقدماً في العالم إذ ذاك، واستخدم الكتاب طرائق

فك العدد المربع، وتجذير العدد المكعب وعلى هذا الأساس يحل معادلة ثنائية ذات المجهول الواحد ومعادلات آنية أحادية الدرجة، كما أن مفهوم العدد السالب وأصغر مضاعف مشترك في شروح الكتاب يعتبران الأقدم من شروح الهند وأوروبا. وكان ليو هوي أول من طرح فكرة «الحد الأقصى» في شروح كتاب «فن حساب تسع مسائل»، واستخدم فن التربيع بمهارة واقتدار، وحَسب درجة الدقة بما يعادل 3,1416 في النسبة بين المحيط والقطر. ثم جاء بعده عالم الرياضيات العظيم زو تشونغ تسي (429– 500م) في عهد الأسر الجنوبية والشمالية، وكان أكثر دقة في تحديد النسبة بين المحيط والقطر، وذكر أنها تتراوح من 3,1415926 إلى 3,1415927، وكان ذلك الأكثر تقدماً في العالم في ذلك الحين، والأقدم بحوالي ألف سنة وأكثر عن درجة الدقة التي حددها الهولندي Antunes، ثم تحطم هذا الرقم بحلول القرن الخامس عشر على يد عالم الرياضيات العربي غياث الدين الكاشي، وعالم الرياضيات الفرنسي Vieta في القرن السادس عشر.

وشهد عالم الرياضيات مرحلة مزدهرة من المنجزات الرائعة في أسرتي سونغ ويوان، وظهرت ثُلة من علماء الرياضيات البارزين. ففي أسرة سونغ الشمالية، قدم جيا شيان في كتابه «تفاصيل طريقة حساب تسع مسائل للإمبراطور هوانغ» أرقاما دليلية (أس) لجدول مُعامل نظرية ذات حدين لعدد صحيح موجب، مما سهل عملية البحث عن حل لمعادلات الدرجة العليا، وذلك قبل أوروبا بحوالي أربعمائة سنة.

ومن السمات البارزة في طريقة الحساب هي «الحساب بالمحسب» الذي تطور من استخدام أزلام البامبو لعمل فيشة لإجراء العمليات الحسابية، وانتشر استخدام هذه الطريقة على نطاق واسع في أواخر أسرة يوان. والحساب بالمحسب عبارة عن مِحسب يستخدم إطارين علوي وسفلي، والإطار العلوي يحتوي على خرزتين، وكل خرزة تساوي العدد خمسة، والإطار السفلي يشمل خمس خرزات، كل خرزة تساوي العدد واحد، وشكلت طريقة الحساب هذه صيغة مسجوعة تنتشر على نطاق واسع حتى الوقت الحاضر. وهناك كتب كثيرة تناولت بالشرح والتحليل طريقة «الحساب بالمِحسب» بصورة تفصيلية، وامتد تأثير هذه الطريقة وبلغ أقصى مداه في أسرة مينغ. كما انتشر «الحساب بالمحسب» في اليابان وكوريا الجنوبية.

المبحث الرابع
علم الطب

يحتل علم الطب الصيني مكانة فريدة ومتميزة في تاريخ الطب العالمي، ويعتبر من الموروثات الأكثر قيمة في الثقافة الصينية التقليدية. ومن أهم خصائص الطب الصيني المفهوم الكلي الشامل للتشخيص والعلاج، حيث اعتبر جسم الإنسان والوظائف الفيسيولوجية وحدة كلية، وبالتالي اعتبر الوظائف الفيسيولوجية للجسم والبيئة الطبيعية وحدة كلية أيضاً، كما اعتبرت عملية العلاج بمثابة السعي وراء تحقيق هدف الشفاء، واعتقد أن وظائف أجهزة الجسم تتقاسم الآلام والآمال، واعتقد أيضاً أن البيئة الطبيعية تؤثر في الوظائف الفيسيولوجية لجسم الإنسان، وأن أطوار المرض لدى الإنسان تعتبر – في الواقع– عملية تأثير البيئة الخارجية في داخل جسم الكائن الحي، أنها عملية تبدأ من الخارج إلى داخل، ومن القوة إلى الضعف. ومن ثم يؤكد الطب الصيني في عملية التشخيص على «طرق التشخيص الأربع» و«مجموعة الأعراض الثمانية الرئيسية». وتشمل «طرق التشخيص الأربع» هي: الملاحظة، التسمّع والشم، الاستفسار، جس النبض. أما «مجموعة الأعراض الثمانية الرئيسية» هي: اليانغ (الإيجابي)، الين (السلبي)، خارجي، باطني، البرودة، الحرارة، القوة، الضعف. وعلى أساس طرق التشخيص الأربع وفي ضوء علاقة وحدة الضدين في هذه المجموعة، يضطلع الأطباء بالتحليل الدقيق الشامل لعملية علاج المريض.

ويمكننا القول إن هذه النظرية الطبية وطرق العلاج في الطب الصيني تتمتع بتاريخ عميق الأغوار، وتأثرت تأثراً عميقاً بوجهة نظر الفلسفة الصينية القديمة القائلة بـ «تحقيق الاندماج بين الإنسان والطبيعة» و«مذهب الين واليانغ والعناصر الخمسة». وذكرت سجلات وثائقية أن المجتمع البدائي منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة خلت بدأ يعرف الطب والدواء. وجاء في الأساطير الصينية أن إله الزراعة تذوق مائة نوع من الأعشاب وأصبح مخترع الطب والدواء. وشهدت فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة ظهور كتاب «هوانغ دي نيه» الذي وضع إرهاصات نظرية الطب الصيني. ويمكن القول أيضاً إن بيان تشيوه في عصر الممالك المتحاربة، وتسانغ فونغ في أسرة هان الغربية يعتبران من علماء الطب البارزين في المرحلة

المبكرة للمجتمع الصيني، وقدم لهما المؤرخ الصيني العظيم سيما تشيان في موسوعته «سجلات تاريخية». ومن أمثال اللغة الصينية: «مريض لا أمل له في الشفاء» و«إخفاء المرض خوفاً من العلاج» موردهما ينبثق من قصة قيام الطبيب بيان تشيوه بعلاج المرضى، أما الطبيب تسانغ فونغ فهو أول من اخترع سجل (إضبارة) المريض في تاريخ الطب الصيني، واضطلع هذان الطبيبان بتأسيس معبد الأدوية الملكي في الصين.

وعاصر الطبيبان الشهيران تشانغ جينغ، وهو توا أسرة هان، وقدما إسهامات ضخمة من أجل تطوير الطب في الصين. وُلد تشانغ تشونغ جينغ (150م تقريباً– 219م) في مدينة نانيانغ في مقاطعة خنان، وكان محافظاً لمدينة تشانغشان في هذه المقاطعة. وانتشرت الحمى التيفودية في ذلك الحين، وخلفت وراءها الكثير من الوفيات، وبذل تشانغ جهوده المضنية لاستخلاص الدروس القديمة وكتب العديد من الوصفات العلاجية، وألف الكتاب الطبي الشهير «نظرية الحمى التيفودية»، فضلاً عن كتاب «نبذة عن نقص المعدن» الذي يقع في جزأين. وقام تشانغ بإجمال وإعداد أكثر من مائتي وصفة علاجية، وحقق المبدأ الموحد من «النظرية الطبية، ومبدأ العلاج، والوصفة العلاجية، وتعاطي الدواء»، وطرائقه الفعالة في العلاج الطبي كانت بارزة ومشهورة ومازال الناس يستخدمونها حتى الآن، وحظي باحترام وتبجيل الناس لمنجزاته العظيمة في المجال الطبي وأطلقوا عليه «قديس الطب»، وشيدوا في مسقط رأسه المعبد الطبي الفخم المهيب تخليداً لذكراه. أما الطبيب هوا ته (145م تقريباً– 208م) فهو من أهالي مدينة هاوتشو في مقاطعة آنهوي، ومن أبرز إنجازاته أنه كان أول من أدخل الجراحة في الطب الصيني. وذكرت رواية «الممالك الثلاث» قصة علاجه للقائد قوان يوي بالتسمم وكشط العظام، ومازال الناس يستخدمونها حتى الوقت الحاضر. ومن سوء الطالع أنه اغتيل على يد القائد العسكري تساو تساو، ولم يكتب لمؤلفاته الطبية الذيوع والانتشار. ولكن كتابه «الأعشاب الطبية لدى إله الزراعة» يحتوي على أكثر من ثلاثمائة نوع من الأعشاب الطبية ودفع تطوير الدواء الصيني في الأجيال اللاحقة إلى الأمام.

وفي الأسر وي، وجين، وسوي، وتانغ، أحرز الطب الصيني والدواء الصيني تقدماً عالياً وخلص إلى استنتاجات جديدة من حيث النظرية والتطبيق. ففي المقام الأول، وفي أسرة جين قام وانغ شو بإعداد كتاب «الأوعية الدموية» في ضوء تلخيص خبرات العصور السابقة، وشرح

بالتفصيل جميع الأمراض التي يجسدها نوع النبض، وألف قه هونغ كتاب «استعدادات العلاج السريع».بموجب التطور الطبي في أسرة جين، وجمع العديد من الوصفات العلاجية الفعالة، وفي أسرة سوي قام تشاو يوان فنغ وآخرون بتأليف كتاب «مصدر جميع الأمراض» ووصفوا أحوال المرض وأطواره على وجه الخصوص، وأكدوا أسماء العديد من الأمراض. أما الطبيب الشهير صون سي مياو (581م – 682م) في أسرة تانغ، فقد نذر حياته ومجهوداته من أجل تطوير العلاج الطبي والكتابة والتأليف في المجالات الطبية، وقام بتأليف كتابين هما: «وصفات علاجية مهمة» و«وصفات علاجية تكميلية مهمة» يشملان أكثر من ستة آلاف وصفة علاجية، وأطلق عليهما دائرة معارف الطب الصيني الضخمة. وظل يمارس نشاطه الطبي في محافظة ياو بمقاطعة شنشي لفترة طويلة، والتي مازالت تحتفظ بالنصب الحجري المنقوش عليه أسماء الكتب التي ألفها صون في مجال الدواء حتى الوقت الحاضر. وفي عام 657م، قامت حكومة أسرة تانغ بتعبئة لفيف من الأشخاص قاموا بتأليف كتاب «أعشاب طبية جديدة» على أساس توسيع نطاق موضوعات كتاب «الأعشاب الطبية لدى إله الزراعة» وتكملة الصرح الطبي الذي شيده الطبيب تاو هونغ جينغ في عهد الأسر الجنوبية الشمالية، وحقق هذا الكتاب ذيوعاً وانتشاراً في كافة أنحاء البلاد، ويعتبر أول دستور أدوية في الصين، كما يعد أقدم دستور دولة للأدوية في العالم.

وبعد أسرتي سونغ ويوان، ازدهرت اكتشافات النظرية في الطب الصيني يوماً بعد يوم، وظهرت العديد من التيارات الفكرية في المجال الأكاديمي؛ وكان من أهمها «النظريات الأربع الكبرى في أسرتي جين ويوان»، وهي: «نظرية خافض الحرارة» بريادة ليو خه جيان الذي يؤيد تناول الدواء أولاً للحد من ارتفاع حرارة الجسم، و«نظرية تقوية الجسم» التي تتمحور على الطحال والكبد، وتؤيد بريادة لي دونغ تان تنشيط دورة التنفس اليانغ (مواطن القوة في الجسم) في علاج الأمراض، و«نظرية مكافحة الأمراض» بريادة تشانغ تسي خه التي تعارض استخدام المقويات بصورة سيئة؛ و«نظرية تقوية الين (مواطن الضعف في الجسم)» التي استوعبت مميزات النظريات الثلاث السابقة وأيد رائدها جو دانغ شي خفض حرارة الجسم لتقوية المواضع السلبية (الضعيفة) في جسم الإنسان. كما ظهر لفيف كبير من الأطباء المشهورين الذين قدموا منجزات رائعة في مجال الطب الصيني في أسرتي مينغ وتشينغ.

وكان الإنجاز الطبي العظيم في علم الطب في أسرة مينغ الطبيب لي شي جين (1518– 1593) الذي قام بإعداد الكتاب الضخم في دستور الأدوية المعنون بـ «الخلاصة الوافية في العقاقير الشافية»، وقضى زهاء ثلاثين عاماً في إجراء المسوحات على عدة مئات من الوثائق، وتقصي الحقائق والبحث بنفسه حتى سجل 1892 نوعاً من الأدوية والعقاقير، وترك صفحات مضيئة من أجل علم الطب في الصين.

ويعد الوخز والتشييح (الإبر الصينية) من المنجزات الباهرة في الطب الصيني، ويعتبران من الطرق العلاجية التي ليس لها نظير في العالم بأسره. وما يطلق عليه «الوخز والتشييح» هو استخدام طريقتين في وخز المواضع المحددة في جسم الإنسان باستخدام إبرة والتشييح، حتى يصل الوخز إلى الممرات الحيوية في الجسم وتحقيق التكيف بين عمل الطاقة الحيوية وحالة الدم بهدف إزالة أسباب المرض. والنظرية التي تعول عليها الإبر الصينية هي «نظرية الممرات الحيوية والفرعية في الجسم» الموغلة في القدم. وترى هذه النظرية أن مواضع الوخز هي مواقع في أحشاء الإنسان وفي الممرات الحيوية والفرعية في الجسم يُنقل إليها الطاقة والحيوية حتى يتحقق الاتصال بين مواضع الوخز وممرات الأحشاء ويطلق على ذلك الممرات الحيوية والفرعية في الجسم. ولذا، الوخز بالإبر عبارة عن إثارة وتنبيه الجزء الخارجي، ثم التحول والانتقال –عن طريق مواضع الوخز– من الممرات الحيوية والفرعية في الجسم إلى الأحشاء المعنية. أما بخصوص البحث والاستنتاج في طريقة العلاج بالإبر الصينية، فقد شهدت أسرتا وي وجين كتاب «مبادئ الوخز بالإبر الصينية» من تأليف هوانغ بوميي الذي يعتبر أقدم كتاب متخصص في الإبر الصينية في العالم، وفي أسرة سونغ الشمالية، قام خبير الإبر والتشييح وانغ وي يي بصنع تمثال برونزي في صورة إنسان يوضح مواضع الوخز باستخدام العلاج بالإبر الصينية، وذلك كنموذج للوخز بالإبر، ثم ألف كتابه «صور مواضع الوخز بالإبر الصينية في تمثال الإنسان البرونزي» مما ساعد على نشر العلاج بالإبر الصينية واستخدامها على نطاق واسع. وفي أسرة مينغ ظهر الكتاب القيم «الإنجازات الرائعة في الوخز بالإبر» لمؤلفه شي تشو، وكتاب «الكامل في الوخز بالإبر» للطبيب شيوه فينغ، فضلاً عن كتاب «خلاصة الإبر الصينية» من تأليف تشاو وو، وأصبحت هذه الكتب الثلاثة بمثابة «المؤلفات الضخمة الثلاثة الكبرى في الإبر الصينية» في أسرة منغ. كما عرفت أسرة تشينغ بعض الكتب

في علم الإبر الصينية، ولكنها افتقرت إلى المستوى الجديد المرتفع بصفة عامة. وبعد تأسيس الصين الجديدة، تأسست الهيئة المتخصصة في أبحاث الإبر الصينية ومستشفى العلاج بالإبر الصينية، مما دفع تطوير تحديث العلاج بالإبر الصينية إلى الأمام.

المبحث الخامس
علم الأرض

تمتلك الصين أراضي فسيحة الأرجاء ومترامية الأطراف، ومناظر الجبال والأنهار تخلب الألباب، وملامح الطوبوغرافية فريدة وعجيبة، والمنتجات وفيرة، ومن ثم جذبت اهتمام الناس من كل صوب وحدب منذ القدم، ومن هنا انطلقت أبحاث علم الأرض Geoscience. وجاء في الأساطير أن البطل دايوي كبح جماح الفيضان، وتقصى حقائق الجبال والأنهار وقسم العالم إلى «تسع قارات»، وانطوى ذلك على تدشين الأبحاث في الجغرافية. وفي فترة الممالك المتحاربة وما بعدها ظهرت بعض الكتب مثل: «بطل الفيضان دايوى»، «كتاب الجبال والبحار»، «المعجم القديم» التي تناولت دراسة الجغرافيا والمنتجات والمحصولات وعرفت أسرة هان الشرقية كتاب «كتاب المياه» الذي سجل أحوال أكثر من مئة وثلاثين نهراً، ولكن كانت موضوعاته مقتضبة، وأضاف لي داو يوان (466 أو 472م– 527م) في أسرة وي الشمالية تفاصيل إلى محتوياته واتسع نطاق أبوابه وفصوله، وغيّر اسمه إلى «شروح كتاب المياه» سجل فيه مصدر أكثر من ألف ومائتين وخمسين نهراً رئيسياً وفرعياً، ومجاري الأنهار، بالإضافة إلى علم المياه وتضاريس الأرض والمحصولات والآثار في المناطق الواقعة على ضفاف الأنهار، ولذا أصبح كتاباً ضخماً في علم الجغرافيا يتحلى مضمونه بالثراء والوفرة.

وبدأت الصين في رسم الخرائط منذ القدم لتلبية احتياجات الإدارة التنفيذية، والأنشطة العسكرية وأبحاث الجغرافية. وسجل كتاب «شانغ شو» أنه عند بناء مدينة لوايانغ في أوائل أسرة تشو الغربية، تم رسم خريطة لمنطقة يانغ با. وفي كتاب «رسم الخرائط» يحتوي موضوعاته على المعلومات الضرورية عن الجبال والأنهار، والطرق، ومواقع المدن والخرائط المرسومة الصغيرة والكبيرة. وفي عام 1973، عُثر في مقابر أسرة هان بمقاطعة خنان على عينات لثلاث خرائط يرجع تاريخها إلى أكثر من ألفي سنة، وتتميز بمستوى عالٍ في فن المسح والرسم، وكان من بينها «خريطة تضاريس منطقة خنان» التي رسمت الطرق المائية والسلاسل الجبلية والطوبوغرافيا بمهارة واقتدار، كما حددت مواقع المدن بدقة، وأبرزت للعيان الأساس المتين لنظرية فن رسم الخرائط في ذلك الحين. وتجدر الإشارة إلى أن فنان رسم الخرائط في أسرة جين

يدعى بيي شيو (224م– 271م) أشرف على رسم «خريطة مناطق يوي قونغ» و«خريطة رئيس دير بوذي» وحدد مقياس الرسم «ثلث الدسيمتر (عُشر المتر) يساوي خمسين كيلو متراً، أي أنه رسم الخرائط على شبيكة مستطيلة الشكل. واستعان بنظرية النقاط الست في رسم الخرائط هي: «النسبة، الموقع، المسافة الميلية، المرتفعات والمنخفضات، المتعرجات، الخطوط المستقيمة» حتى استطاع المسح والرسم على الطبيعة، ومن ثم جعل مستوى رسم الخرائط ونظريتها يضاهيان المستوى المتقدم في العالم وقتئذ. ولذلك ذكر العالم البريطاني جوزيف نيدهام أنه: «منذ عصر فيي شيو في القرن الثالث الميلادي، كان رسم الخرائط على شبكية مستطيلة الشكل، وكل مربع فيها يساوي خمسين كيلو متراً. وأُستخدم النظام العشري في رسم الخرائط، مما كتب للصينيين قصب السبق في هذا المجال بحوالي ألف سنة قبل العرب والأوروبيين».

وأنجب تاريخ الأرض في الصين العالم الفذ العبقري شيوه شياكه الذي عاصر أواخر أسرة مينغ، وُلد في مدينة يانغ بمقاطعة جيانغصو، ويتحلى بإرادة فولاذية والقدرة على التحمل والجلد، وقام برحلات جغرافية ليس لها مثيل في التاريخ وتقصى حقائق الحياة، واستغرقت رحلاته أربعة وثلاثين عاماً حيث «وطئت أقدامه وسكن شم الجبال، وتحمل الجوع والبرد القارس»، وطاف وجال في ست عشرة مقاطعة في جنوب وشمال نهر اليانجتسي، وذاق مرارة المعاناة والتعب في رحلاته الشاقة لدرجة من الصعب أن نتصور شخصية هذا الرحال الذي تقصى حقيقة جغرافية الأماكن التي زارها على الطبيعة، وسجل مذكرات رحلاته يوماً بيوم وجمعها في كتاب فريد منذ عهد بعيد سماه «رحلات شيوه شياكه». وسرد هذا الكتاب أحوال الزراعة والصناعة اليدوية والمناجم والمواصلات في المناطق التي زارها، بالإضافة إلى وصف حياة الأقليات المحلية وعاداتهم وتقاليدهم، والأكثر أهمية وقيمة في هذا الكتاب أن مؤلفه تقصي الملامح الطوبوغرافية للأحجار الكلسية في المنطقة الجنوبية الغربية ودرسها بعمق، وقدم وصفاً صائبا وحيويا لخصائص وأسباب تكوين الغابات والكهوف والمجاري الجوفية في تلك المنطقة.

المبحث السادس
الاختراعات الأربعة الكبرى

تأتي «الاختراعات الأربعة الكبرى» في مقدمة الإسهامات الباهرة التي قدمتها الصين لتطوير ثقافة البشرية، وتشمل هذه الاختراعات: فن صناعة الورق، والبوصلة، والبارود، وفن الطباعة، إنها المعجزات العلمية والتقنية التي غيرت مسيرة التاريخ في العالم.

ونتحدث أولاً عن فن صناعة الورق. نعرف أن الأجداد الأولين الصينيين –قبل اكتشاف الورق– استخدموا دروع السلاحف، وعظام الحيوانات والأدوات البرونزية في تسجيل الأحداث، ويطلق على ذلك «نقوش العظام أو دروع السلاحف في عهد أسرة شانغ» و«نقوش برونزية قديمة»، ثم استخدموا –فيما بعد– شرائح البامبو وألواح الخشب. وتزامن ذلك تقريباً مع استخدام الناس نسيج الحرير الرقيق في الكتاب، ويُعرف ذلك بـ «الكتابة على الحرير». وهذا النسيج الحريري المستخدم في الكتابة ليس ثقيل الوزن، ولكنه غالي الثمن، وأثر ذلك على حفظ المعلومات وتبادلها. وأكتشف الناس في عملية صناعة المنسوجات الحريرية مُشاقة الحرير الرقيقة جداً. والتي يمكن استخدامها في الكتابة، ويُطلق على ذلك «ورق مصنوع من ألياف الحرير». ومن سوء الطالع، أن مصدر المادة الخام المستخدمة في صناعة هذا الورق محدود جداً، ولذا لا يمكن تصنيع كميات كبيرة من الورق، ولكن حصل الناس على تنوير من هذه العملية وأدركوا كيفية الحصول على ألياف من النباتات، ومن ثم تم اختراع الورق المصنوع من ألياف نباتية فيما بعد. وبعض مقاطع الرمز الصيني لكلمة الورق باللغة الصينية يرجع تاريخها إلى بداية استخدام المنسوجات الحريرية في صناعة الورق للمرة الأولى. وفي عام 1957، تم اكتشاف أقدم ألياف نباتية استخدمت في صناعة الورق في الصين؛ حيث عُثر على ورق مصنوع من القُنب في مقابر أسرة هان الغربية في مدينة شيآن، مما يدل على أن الصين عرفت الورق قبل اختراع تساي لون الورق في أسرة هان الشرقية. ولكن جودة هذا النوع من الورق كانت خشنة وغير مصقولة، وليست مناسبة للكتابة، ويمكن استخدامها فقط في التغليف. وفي الفترة من 1973– 1974 عُثر في أطلال أسرة هان على فرخين من ورق القُنب لونهما أبيض ناصع، وسمكهما موزع توزيعا عادلاً، ويبدو أنه

يمكن استخدامهما في الكتابة. وتكمن عظمة تساي لون في استخدامه لحاء الشجر، والقُنب والخرق البالية في صناعة الورق، ورفع جودة الورق بشكل أكبر، وأُطلق عليه «ورق تساي هوا» في التاريخ. ولذا، مكانة تساي لون وإسهاماته في صناعة الورق لا تزال باقية وخالدة ولا تضاهيها منجزات أخرى.

وبعد تساي لون، وفي أواخر هان الشرقية، ظهر مخترع كفوء آخر في صناعة الورق، اسمه تسو بوه، وكنيته تسي يي، حظى بإطراء الناس لأن الورق الذي اخترعه كان جودته عالية، ولذلك في عهد الأسر الجنوبية والشمالية، كتب صو تسي ليانغ رسالة إلى وانغ زينغ شيوه، يقول فيها: «ورق تسي يي جميل ورائع ويتحلى بلمعان مشرق». وفي هذه المرحلة، شهدت مواد خام تصنيع الورق نمواً وتطوراً، وأحرزت ماكينات صناعة الورق تقدماً كبيراً، كما أحرزت تقنية معالجة الورق مستوى جديداً، وظهر إلى حيز الوجود الورق الملون. وبعد أسرتي سوي وتانغ، دخلت صناعة الورق إلى مرحلة من الازدهار الكامل، وباتت مواد تصنيع الورق أكثر وفرة، حيث أستخدم لحاء القنب، ولحاء شجر التوت، وعيدان الأرز، والبامبو الطري، وزادت فوائد الورق وأنواعه؛ حيث ظهر ورق شوان، وورق شو، وورق صو، وورق شي واحتدمت المنافسة بين هذه الأنواع من الورق، وأصبحت تقنية صناعة الورق أكثر نضجاً، واتسع نطاق استخدام الورق ولم يعد يقتصر على الكتابة. ويمكننا القول إنه قبل الماكينات الحديثة في صناعة الورق في العصر الحديث، كانت تقنية صناعة الورق في الصين تتبوأ المكانة الأولى دائماً وأبداً في العالم.

وفي القرن الرابع الميلادي، انتقلت تقنية صناعة الورق الصينية أولاً إلى كوريا الجنوبية واليابان، وفي القرن الثامن الميلادي، انتشرت هذه التقنية في بلاد العرب، ثم دخلت أوروبا بفضل العرب، وبذلك انتهى تاريخ استخدام الأوروبيين جلود الغنم في الكتابة. ولكن بعد قدوم العصر الحديث، ومع تطور الثورة الصناعية في أوروبا واختراع استخدام الميكنة في صناعة الورق وتطور تقنية صناعة الورق بصورة مطردة، أدى ذلك كله إلى تقهقر تقنية صناعة الورق الصينية إلى خلف المستوى العالمي في هذا الخصوص.

ثانياً نتحدث عن البوصلة. في المرحلة المبكرة لفترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة، اكتشف الشعب الصيني خاصية جذب الحديد في الحجر المغنطيسي الطبيعي

بظاهرة تحديد الاتجاه الجنوب- الشمال. وقد سجل كتاب «قوانغشي» ذلك كله. وتزامن ذلك تقريباً مع استفادة الناس من خاصية الحجر المغنطيسي الطبيعي وصنعوا البوصلة في صورتها الأولية، وأطلقوا عليها «سينان»، وكان شكلها يشبه مقبض معلقة صغيرة، وقطرها دائري الشكل ومثبت على سطح أملس ومقسم إلى أربعة وعشرين اتجاهاً، ويشير مقبض المعلقة إلى الجنوب أوتوماتيكيا. ونظراً لحدوث احتكاك بين هذا السطح وقاع سينان، فكان الاتجاه الذي تشير إليه من الصعب أن يكون صحيحاً ودقيقاً. وتطورت بوصلة سينان حتى عصر أسرة سونغ وتغير شكلها وأصبح يطلق عليها «بوصلة السمكة» و«بوصلة الإبرة». وبوصلة السمكة تستخدم رقائق حديدية دقيقة تتخذ شكل سمكة وتخضع للمغنطة حتى تكتسب خاصية الجذب المغنطيسي، وعند استخدامها نجعل السمكة تطفو على سطح الماء ويشير رأس السمكة إلى الجنوب. أما بوصلة الإبرة فهي تستخدم إبرة فولاذية ممغنطة، وطرق استخدامها وصفها العالم شين كو (1031م- 1095م) في أسرة سونغ الشمالية في الكتاب الذي يحمل عنوان «حديث مكتوب حول مينغشي». وبعد ذلك، صنع الناس «بوصلة» عن طريق الدمج بين بوصلة الإبرة والسطح الأملس الذي يشمل على أربعة وعشرين اتجاهاً. وبعد تصنيع البوصلة، استطاع الناس مشاهدة الأماكن التي تشير إليها البوصلة؛ حيث كانت تستطيع تحديدها بدقة وبصورة صائبة. ولكن اكتشف الناس أيضاً أن بوصلة الإبرة لا تشير إلى الجنوب بصورة كاملة، لأن المغنطيسية الأرضية في الكرة الأرضية يوجد بها زاوية انحراف. وكان الكتاب المذكور أعلاه أقدم كتاب سجل هذه الحقيقة، وجاء فيه: «استخدم الناس حجرا مغنطيسيا وصنعوا إبرة تستطيع أن تشير إلى الجنوب، ولكنها كانت تميل إلى الشرق قليلاً، ولا تشير إلى الجنوب بصورة كاملة».

وتجسدت أقصى فائدة للبوصلة في الملاحة البحرية؛ حيث أثرت في صناعة الملاحة البحرية تأثيراً فاصلاً في التاريخ. وذكر جو يوي في كتاب «الحديث عن بانغتشو» الذي ظهر في أسرة سونغ الشمالية -ذكر أن: «الملاح على دراية كبيرة بالجغرافيا، وفي الليل يهتدي بنور النجوم، وفي النهار يهتدي بنور الشمس، ويهتدي بالبوصلة في الجو الممطر المعتم». وذكر وو تسي مو في أسرة سونغ الجنوبية: «عندما تمخر السفينة عباب البحر، وتهطل الأمطار ويصبح الجو معتما، لا توجد سوى البوصلة يمكن الاعتماد عليها، وربان السفينة يجب أن يكون حريصاً

ولا يرتكب ثمة خطأ حيث مصائر الركاب في يده». وفي أسرة مينغ طاف الملاح الصيني المسلم تشينغ خه بالعالم الغربي سبع مرات وحقق مآثر عظيمة في الملاحة البحرية، ولا يمكن تقليل أهمية دور البوصلة في رحلاته البحرية.

وانتقلت البوصلة إلى المنطقة العربية في أسرة سونغ بسبب التطور الكبير الذي أحرزته صناعة الملاحة في الصين في أسرة سونغ وازدهار التبادل والاتصال بين الصين وكافة الدول العربية آنذاك. وفي عام 1180م تقريباً انتقلت البوصلة من العالم العربي إلى أوروبا. وهنا يكمن السبب في أن كولمبس استطاع اكتشاف العالم الجديد، وطاف ماجلان حول الكرة الأرضية، وتقديم إمكانية إقامة المستعمرات والأسواق.

ثالثاً: نتحدث عن البارود. البارود عبارة عن خليط من المساحيق الثلاثة النترات والكبريت والفحم النباتي. وكان اكتشافه نتيجة الممارسة العملية طويلة الأجل لاستخلاص إكسير الحياة (الخلود) في أسرة مينغ. وذكر كتاب «الأعشاب الطبية لدى إله الزراعة» في أسرة هان أن أسرة مينغ قد سجلت بجلاء أن الكبريت الكلسي يستطيع إذابة المعادن وأُطلق عليه «مادة غريبة». وفي أواخر أسرة تانغ، تم اكتشاف البارود، وبدأ الناس يستخدمونه. وذكر كتاب «استخلاص إكسير الحياة» في أسرة تانغ أنه: «يوجد الكبريت وثاني كبريتيد الزرنيخ الطبيعي، وخلطهما يكّون نطرون الذي يمكن إشعاله وتندلع منه ألسنة النيران». وأشار صون سي مياو في كتابه «أفضل نظريات استخلاص إكسير الحياة» إلى الطريقة المحددة لصناعة البارود.

وبعد اختراعه، أُستخدم البارود أولاً في المجال العسكري، وكان القوة المحركة في صناعة أسلحة القتل. ويعتبر ذلك بمثابة ثورة في تاريخ صناعة الأسلحة. وفي القرن الحادي عشر الميلادي، شهدت أسرة سونغ بعض الأسلحة مثل: الصاروخ، وكرة النار ونيران جيلي وغيرها. وقام قونغ لينغ، ودينغ دو وآخرون بإعداد كتاب «نظرة شاملة على الأسلحة» سجلوا فيه للمرة الأولى كلمة «المدفع»، بالإضافة إلى ثلاث وصفات تركيبية للبارود المستخدم في صناعة الأسلحة. وفي أواخر أسرة سونغ، استخدم جيش سونغ «صاروخ صاعقة» في حربه ضد قوات أسرة جين، وبعد ذلك بقليل استخدمت أسرة جين «لغم جينغ تيان» في حربها ضد المغول. وبقدوم أسرة يوان، بدأ ظهور المدفع على شكل أنبوب مصنوع من النحاس أو الحديد، وأُطلق عليه «الجنرال الحديدي» لأن قوته الضاربة عظيمة وشديدة. وقدمت الأعمال

الأدبية مثل الرواية الكلاسيكية «كلنا أخوة» وصفاً لخبير في صناعة المدفع. وشهدت أسرة يوان صناعة نوع آخر من صاروخ البارود تتماثل طريقة انطلاقه مع الصاروخ في العصر الحديث. ومع مجيء أسرة مينغ ظهرت في آن واحد عدة أنواع من الصواريخ مثل: «صاروخ قوس النار واسع النطاق»، و«صاروخ عش الدبابير» و«صاروخ مائة قوس»، بالإضافة إلى الألغام البحرية والألغام البرية التي تنفجر أوتوماتيكياً، وعلى وجه الخصوص صاروخ «تنين النار ينطلق من الماء».

وفي أواخر أسرة تانغ تقريباً، كان النطرون المادة الأساسية في صناعة البارود، وقد انتقل إلى العرب والفرس، وأُطلق عليه «الثلج الصيني» أو «الملح الصيني» لأنه كان ناصع البياض. وفي حوالي القرن الثالث انتقل البارود إلى المنطقة العربية بفضل التجار، ونظراً لأن العرب كانوا يطلقون على الصين آنذاك «تشيدان»، ولذا أُطلق على أسلحة البارود التي نقلوها من الصين «بندقية تشيدان» أو «صاروخ تشيدان». وفي حملات المغول على الغرب، حصل العرب على الأسلحة النارية الصينية، وتعلم الأوروبيون صناعة البارود والأسلحة النارية عندما خاضوا حروباً ضد العرب.

وأخيراً نتحدث عن فن الطباعة. ظهر فن الطباعة في الصين في عمل الأختام القديمة وفي الكتابة المنقوشة على الحجر. وفي أوائل أسرة سوي، بدأ الناس يستخدمون طريقة حفر مقاطع مطبعية لطبع صورة بوذا وكتب التقويم. وخلاصة هذه الطريقة إن الكتابة أو الصور تستخدم كتابة نافرة وتغرس بالمقلوب على ألواح خشب الكمثري أو ألواح خشب النخيل القوية شديدة الصلابة، ثم تغطي بحبر الطباعة وتكتسي بالأوراق استعداداً لبدء عملية الطباعة. وبقدوم أسرة تانغ، ظهرت الكتب على نطاق واسع نسبياً التي استخدمت مقاطع مطبعية بصورة تدريجية. وفي عام 1900م، وفي كهف تشيان فو في مدينة دونغ هوانغ عُثر على كتاب «صورة بوذا» في عام 868، يحتوي على نقوش جميلة ورائعة، وصور جميلة وجذابة، ويعتبر في الوقت الحاضر أقدم مطبوعة في العالم باعتراف الجميع، وأقدم من صورة «القديس كريستوفر» المطبوعة في أوروبا بحوالي ستمائة سنة.

وبعد الأسر الخمس (907— 960) تطورت الطباعة عن طريق حفر مقاطع مطبعية بشكل أكبر، ودخلت مرحلة الازدهار في أسرة سونغ، وتم طباعة ونشر العديد من الكلاسيكيات

والكتب الدينية والتاريخية وكافة أنواع المطبوعات الأخرى. وتزامن ذلك مع تواجد المطبوعات الحكومية، ومطبوعات رجال الأدب والمثقفين، فضلاً عن الطباعة بالحروف الخشبية تحت إدارة الأفراد الذين يسعون إلى تحقيق أرباح، ولذلك ازدهرت صناعة تخزين الكتب في أسرة سونغ ازدهاراً هائلاً، وفي عام 971م، قام تشانغ تونغ شين في مدينة تشينغداو في مقاطعة سيتشوان بطباعة موسوعة «تخزين الطباعة» التي اشتملت على 1046 جزء، و5048 مجلداً، وبلغ عدد المقاطع المطبعية أكثر من مائة وثلاثين ألف مقطع.

ولكن استخدام طريقة حفر مقاطع مطبعية ليس مناسباً ويضيع الوقت هباء، ومن الصعب حفظها حيث يتشوه شكلها ويفسد جراء العثة بسبب أحوال الطقس في أغلب الأحايين، وحتى لا يمكن تصحيح الحروف الخاطئة. وفي تلك الأثناء، ظهرت طباعة الحروف المتحركة بفضل المخترع بي شينغ وهو من سواد الناس؛ حيث استغل خبراته العملية الثرية ومحاولاته المستمرة لاكتشاف أسرار الطباعة حتى تمكن خلال الفترة من 1041– 1048 في أسرة سونغ من تصنيع حروف صلصالية، واضطلع بالطباعة عن طريق تنضيد الحروف، وحقق إنجازاً عظيماً في تاريخ الطباعة. ثم استخدمت أسرة يوان حروف متحركة مصنوعة من القصدير في إطار تطور حروف الطباعة. وكان هناك اعتقاد في الماضي مفاده أن عالم الزراعة في أسرة يوان ويدعى وانغ جين قد اخترع حروف الطباعة المتحركة المصنوعة من الخشب ورتبها حسب نطقها، ورفع فعالية العمال في انتقاء واختيار الحروف. ولكن حسب الدراسات البوذية في أسرة شيا الغربية التي اكتشفها فانغ تاه تشونغ في منطقة نينغشيا الإسلامية ذات الحكم الذاتي في سبتمبر في عام 1991، فإن هذه الدراسات كانت في أواخر أسرة شيا الغربية (في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي) واستخدمت الحروف المطبعية الخشبية المتحركة، مما يزيد أقدمية اختراع تقنية الطباعة بتلك الحروف إلى أكثر من مائة سنة. وعندما تأسست أسرة مينغ ظهرت الحروف المتحركة النحاسية، كما ظهرت الحروف المتحركة المصنوعة من الرصاص في القرن السادس عشر. ويمكن القول، إن البشرية كانت –دائماً وأبداً– تستخدم تقنية طباعة الحروف المتحركة التي اخترعها بي شينغ قبل ظهور نظام تنضيد الحروف الإلكترونية في القرن العشرين.

وانتقل فن الطباعة الصيني إلى اليابان في القرن الثامن الميلادي تقريباً، وإلى مصر في حوالي

القرن الثاني عشر الميلادي، وانتقل إلى بلاد الفرس قبل ذلك بكثير. وفي حوالي القرن الثالث عشر الميلادي تقريباً استطاعت أوروبا طبع أول صورة باستخدام طباعة حفر المقاطع المطبعية. وشهدت حضارة البشرية الانتشار والذيوع والتنمية والتبادل بشكل أكبر بفضل اختراع فن صناعة الورق والطباعة. وقدر الفيلسوف البريطاني فرانسيس بيكون الاختراعات الأربعة الكبرى في الصين تقديراً عالياً، وذكر أن فن الطباعة والبارود والبوصلة هي: «الأشياء الثلاثة التي غيرت ملامح العالم. الشيء الأول في مجال الكتابة، والشيء الثاني في مجال الحرب، والشيء الثالث في مجال الملاحة البحرية، ولذا حققت جميعها تغيرات لا تحصى. وكانت تلك التغيرات هائلة وباهرة لدرجة أنه لا توجد إمبراطورية، ولا يوجد مذهب ديني، ولا توجد شخصية شهيرة تستطيع أن تختلق القوة الأكثر بأساً وعظمة وتحدث التأثير الهائل في حياة البشرية بدرجة تفوق هذه الاختراعات الثلاثة».

الفصل الثاني عشر

الهندسة المعمارية التقليدية

تعيش البشرية العناصر المادية الأربعة الأساسية التي طورتها من الطعام واللباس والمسكن والمواصلات. والأدوات الثقافية في ثقافة البشرية تدور حول نشأة هذه العناصر وتطورها. والقوميات التي تقطن مناطق متباينة تختلف احتياجاتها من هذه العناصر اختلافاً شديداً بسبب أن البيئة الجغرافية تؤثر تأثيراً عميقاً في حياة البشرية. وأدى ذلك إلى تشكيل الأدوات الثقافية ذات الخصائص المتباينة. ونقول بصفة عامة، أن الأبنية ظهرت -في المقام الأول- لتلبية احتياجات الناس من المسكن، كما ظهرت بنايات الأنشطة الأخرى مع تعقيدات الحياة الاجتماعية وتغيراتها يوماً بعد يوم. ولذلك، نقول إن الأبنية تنتمي بصورة أساسية إلى مقولة الثقافة المادية. ومن المرجح غالباً أن تصميمها وتشييدها يجسدان الخصائص التاريخية والوعي بمقياس الجمال، والتقاليد الثقافية لدى قومية ما.

ويعرف الجميع، أن المجتمع البدائي في الزمن القديم في العصر الحجري القديم لم يشهد ثمة أبنية اصطناعية. وكانت التجمعات البشرية والبدائية تستغل المغارات والكهوف الطبيعية وتأوي إليها وتعتبرها مسكناً لها. ومثال ذلك، أننا نعرف إنسان بكين، والناس الذين كانوا يقيمون في كهوف على قمم الجبال في تشوكوديان في بكين. وقد سجلت كتب مثل هذه الأحوال المعيشية والسكن؛ فعلى سبيل المثال، ذكر «كتاب التغيرات»: «كان الأقدمون يقيمون في كهوف وفي البراري». وجاء في «كتاب الطقوس»: «كان الأجداد الأولون والملوك في الماضي يفتقرون إلى القصور والمساكن، وفي الشتاء يقيمون في الكهوف، وفي الصيف يعيشون في الأكواخ». وذكر كتاب «موه تسي» أيضاً: «في بداية حياة الإنسان البدائي كان يفتقر إلى المساكن والغرف، ولذلك حفر كهوفاً في بطن الجبال والتلال ليقيم فيها». ولكن شعر الناس -فيما بعد- أن هذه الكهوف تكون رطبة نسبياً في فصل الصيف، وبدؤوا يقيمون بعض المصاطب فوق سطح الأرض وكذلك الطبقات الترابية واعتبروها بمثابة جدران وحوائط في الجهات الأربع، ووضعوا فوقها بعض الهياكل الخشبية البسيطة والتي كانت مرتفعة عن سطح الأرض، والتي عملت على تهوية -ولو بصورة ضئيلة- «أشباه الحياة داخل الكهوف» أو «حياة الكهوف البسيطة»، وقد رأى الناس مثل هذه الكهوف في أطلال بانبو في المدينة العتيقة شيآن. وفي مدينة يوتياو في مقاطعة تشجيانغ، اكتشف في أطلال ثقافة خهميدو

-التي يرجع تاريخها إلى العصور السحيقة- أقدم آثار «الهياكل الخشبية النقرية والألسنة الخشبية» إلى الآن. ولذلك، تعتبر أشباه الحياة في الكهوف هذه أقدم بناية للمساكن التي عرفتها البشرية. ويعني ذلك الولوج إلى العصر الحجري الحديث. وتطورت البنايات فوق سطح الأرض رويداً رويداً على أساس حياة الكهوف البسيطة السهلة. وأفادت تقارير أن عمال الآثار عثروا على أطلال بناية على شكل قصر يرجع تاريخها إلى العصر الحجري الحديث في محافظة تشينآن في مقاطعة قانصو، وتنقسم هذه البناية إلى الغرفة الرئيسية، وغرف على الجانبين الأيمن والأيسر، وغرفة المؤخرة، والباب الأمامي، وشكلها مستطيل، والبوابة الرئيسية تتجه جنوباً، ومن المرجح أنها تعد ساحة الأنشطة العامة لعشيرة ما أو لتحالف القبائل.

وقسم خبراء دراسات تاريخ الهندسة المعمارية القديمة تطور هندسة المباني القديمة في الصين إلى ست مراحل هي:

(1) مرحلة النشأة والتكوين: وتبدأ من المرحلة المتأخرة في المجتمع البدائي إلى فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة. وتتجلى خصائص هذه المرحلة في اتساع حجم المدن باستمرار، وأصبحت القصور بمثابة بنايات عالية، كما كانت البنايات الكبيرة مغلقة وقائمة بذاتها، وشكلت نظاماً محدداً للهندسة المعمارية، واستخدمت مواصفات ومقاييس أحجام كافة البنايات من تحديد الموقع والاتجاه وغيرهما.

(2) مرحلة النضج من أسرتي تشين وهان إلى مرحلة الممالك الثلاث: وتتجسد خصائص هذه المرحلة في اتساع نطاق وحجم تشييد القصور، وكانت هندسة البنايات المرتفعة رائعة وجميلة، وتطورت هندسة الهيكل الحجري تطوراً سريعاً أيضاً. ومن الأبنية النموذجية في هذه المرحلة قصر إفانغ الذي شيد في عصر الإمبراطور الأول لأسرة تشين، ومقصورة تونغ تشيوه التي شيدها رئيس الوزراء تساو تساو في فترة الممالك الثلاث. إن الحجر الكبير للمباني والهيكل المعقد جسدا مستوى الهندسة المعمارية في هذه المرحلة.

(3) مرحلة استيعاب الفن المعماري البوذي في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية: تظهر خصائص هذه المرحلة في ظهور العديد من البنايات البوذية مع انتشار الديانة البوذية في الصين، واستوعبت الهندسة المعمارية الموجودة أصلاً في الصين الفن المعماري البوذي، وأقامت العديد من الأديرة والباغودات والكهوف وغيرها من البنايات البوذية من شتى الألوان والأشكال، ومثال ذلك، ما سجله كتاب «تاريخ المعابد في العاصمة لوايانغ».

(4) مرحلة الذروة في أسرتي سوي وتانغ: تتجلى خصائص هذه المرحلة في اتساع حجم ونطاق المدن والقصور بصورة لم يسبق لها مثيل، وبلغ التنظيم والتخطيط والتشكيل مستوى عالياً جداً، مثل مدينة تشانغآن في أسرة تانغ أصبحت أكبر مدينة في العالم في عهد هذه الأسرة، والتخطيط الإنشائي والعمراني ترك أثراً كبيراً في دولة بوهان (دولة قديمة تقع في منطقة سلطنة بروناي في الوقت الحاضر –المترجم) واليابان. وبإلقاء نظرة فاحصة على آثار المباني الباقية في الوقت الحاضر، نجد أن الزخارف المعمارية الهندسية تتحلى بمستوى فني مرتفع جداً.

(5) مرحلة التغير والتحول في أسرتي سونغ ويوان: ظهرت خصائص هذه المرحلة في تضاؤل حجم بناء المدن، وافتقرت البنايات المرتفعة إلى السمة المميزة من الحجم الضخم والاتساع الكبير كما كانت في أسرتي سوي وتانغ، ولكن شهدت الهندسة المعمارية بعض التغيرات. وفي الوقت نفسه، تحطمت تشكيلة المباني المغلقة المتاخمة داخل المدن، وظهرت تباعاً البنايات التجارية الضخمة التي تعج بالحركة والحيوية، ومثال ذلك، وصف عاصمة أسرة سونغ الشمالية في كتاب «وصف أحوال عيد النقاء والصفاء».

(6) مرحلة التقدم التدريجي في أسرتي مينغ وتشينغ: تجسدت خصائص هذه المرحلة في قولبة وتبلور الشكل النهائي بصورة تامة وكاملة في الأبنية الضخمة والمرتفعة ذات التصميم العمومي، وكان تطور الهندسة المعمارية آنذاك يسير بخطوات وئيدة، مما يوضح ويبرز للعيان أن الوعي الإقطاعي المتغلغل في تشكيلة البنايات قد تراكم وبات نوعاً من التيار السيكولوجي. ولكن، وفي الوقت نفسه، شيد الناس في المناطق المختلفة بنايات تتحلى بالأسلوب المعماري الفني المتباين. وكانت المقارنة بين دار ذات باحة ضخمة في الجنوب، ودار شرقية رباعية في الشمال الأكثر بروزاً وجلاء في هذا الخصوص.

ومن منظور الأهمية المعمارية والهندسية بصفة عامة، تتجلى الهندسة المعمارية التقليدية في الصين بالخصائص الأربع التالية:

(1) شهدت الهندسة المعمارية «تركيب الهيكل الخشبي» على نطاق واسع، وهنا نشأ الأسلوب الفني المميز والفريد في الإنشاءات المعمارية في الصين. وتعددت طرق تركيب الهيكل الخشبي جراء اختلاف المناطق وتعدد أنواع وأشكال البنايات، ولكن كانت طريقة العوارض الرافعة الأكثر أهمية آنذاك. وما يطلق عليه «طريقة العوارض الرافعة» يعد بمثابة تركيب روافد السقوف الصينية التي

يشاهدها الناس دائماً، ويكون هيكلها الرئيسي والأساسي قائماً على أعمدة العوارض. وكانت القصور والأديرة والمعابد والبنايات الأخرى الأكثر استخداماً لطريقة تركيب العوارض الرافعة.

(2) تستخدم تشكيلة الهندسة المسطحة المعمارية «الغرفة» كوحدة تشكل البناية الأحادية، ثم تستخدم هذه البنايات في تشييد فناء، ثم استخدام هذا الفناء كوحدة أحادية لإنشاء مجموعة مبانٍ. وكان التصميم الإنشائي يستخدم شكل المستطيل أو المربع في المباني الأحادية أو في مجموعة بنايات، كما كان يستخدم دائماً الجنوب والشمال، باعتبارهما المحور العمودي، والشرق والغرب باعتبارهما المحور الأفقي في المباني الرئيسية والثانوية على حد سواء، فضلاً عن استخدام الأسوار والجدران والممرات المتعرجة في إنشاء وحدة كلية من المباني المرتفعة. وهذه التشكيلة الهندسية المعمارية تجسد طريقة التفكير المغلقة في العصر القديم، وتعكس الوعي الاقتصادي لصغار المزارعين في عملية البناء والتشييد.

(3) الوعي بمقياس الجمال المعماري يسعى دائماً وراء الهدوء والتنسيق، والتناظر والتماثل، والاهتمام الشديد بالنظام والترتيب، والتوافق مع الطقوس والمراسم. وتهتم المباني الرئيسية بالفخامة والعظمة والارتفاع حتى تبدو مهيبة وجليلة، والمباني الثانوية تبرز للعيان جمال المباني الرئيسية. والكثير من البنايات تستغل طبوغرافيا الأرض عن عمد وتقيم أبنية مبعثرة ومتباعدة، ومرتفعة ومنخفضة، وتجعل التشكيلة المعمارية المسطحة التي تتحلى بالتنسيق والتناظر، وتظهر التغيرات من شتى الألوان والأشكال في الوحدة الإنشائية الشاملة. أما إنشاء الحدائق فلا يهتم بالتنسيق والترتيب، والتناظر، بل يهتم بالتغيرات المعقدة والإيحاءات الشعرية في التصميم.

(4) في التشكيل الفني، تستخدم الهندسة المعمارية في الصين السقوف الضخمة التي تظهر الأطناف، وهذا ما يطلق عليه دائماً «السقوف الضخمة». كما أن تشييد القصور والأديرة والمعابد والبنايات الضخمة الأخرى يكون في الغالب على أساس منصة مرتفعة. والبناية ذات المنصة المرتفعة والسقف الضخم تمنح المرء شعوراً من الاستقرار والثبات، والمهابة والإجلال، والفخامة والعظمة. أما فيما يتعلق بتشكيل مجموعة أبنية يكون الاهتمام واضحاً في التمييز بين الرئيسي والثانوي، وبين المرتفع والمنخفض، بدءاً من البوابة الرئيسية حتى آخر باحة في المبنى، وذلك على غرار أوبرا تقليدية أو مقطوعة موسيقية تظهر للعيان المقدمة، وبيت القصيد، والخاتمة.

المبحث الأول

أسوار المدينة وخنادقها في العصر القديم

يعتبر إنشاء المدن من أهم ملامح الهندسة المعمارية التقليدية في الصين، وذلك بسبب أن المدن كانت تعد رمزاً لتأسيس الدولة لدى الأرستقراطيين ملاك العبيد في المرحلة الأولية، فضلاً عن أن المدن فيما بعد كانت دائماً مركزاً لكافة الطبقات والفئات في المجتمع الإقطاعي. لكن متى ظهرت المدن في الصين؟ ذكرت كتب قديمة أن: «زعيم القبيلة شياقون أنشأ المدينة»، أو «الإمبراطور يوي شيد مدينة»، ويعني ذلك أن الأسطورة ذكرت أن عصر دايوي شهد بداية إنشاء المدن. وتخبرنا نتائج الاكتشافات الأثرية القديمة التي أجريت في السنوات القليلة الماضية، أن الصين شهدت إنشاء المدن قبل عصر دايوي، ففي عام 1974 عُثر في محافظة «لي» الواقعة في شمال مقاطعة خونان على أطلال ثقافة قديمة في مدينة تشانغ تشاوشان»، يرجع تاريخها إلى أكثر من ستة آلاف سنة، وأطلال هذه المدينة مازالت في حالة جيدة وكاملة، وبلغت مساحتها ثمانية وثمانين ألف متر مربع، وأسوار المدينة الخارجية يحوطها نهر حماية المدينة، وتعد تلك أقدم مدينة عرفتها الصين، وأنشأت الصين هناك «مركز الدراسات الثقافية والأثرية لمنطقة سهول ليبانغ في الصين في مرحلة ما قبل تدوين التاريخ». وبالإضافة إلى ذلك، الملك فوشي في الأسطورة، شيد العاصمة تشين (محافظة هواي يانغ في مقاطعة خنان اليوم)، وعُثر فيها على «مقصورة بينغ ليانغ في أطلال المدينة القديمة» في مرحلة ثقافة لونغشان، ويرجع تاريخ هذه المدينة –بعد المسح التاريخي– إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، ومن المرجح أنها ترتبط بأنشطة قبيلة هذا الملك الأسطوري. وبعد الدخول في مجتمع العبودية، أصبحت المدينة ترمز إلى الدولة، لأن الأمراء والحكام الإقطاعيين يستطيعون إقامة المدن التي تتلاءم أحجامها ونطاقها مع مراتبهم النبيلة. وفي مرحلة الممالك المتحاربة، ضعفت مكانة الإمبراطور ابن السماء في مملكة تشو، واستطاع الأمراء والحكام تشييد المدن حسب أهوائهم ومشيئتهم، ومن ثم ظهرت إلى حيز الوجود الكثير من المدن الكبيرة جداً. مثل مدينة لينتشي في مملكة تشي، ومدينة هاندان في مملكة تشاو. وبعد أن قام الإمبراطور الأول في أسرة تشين بتوحيد الصين، نفذ نظام الولايات والمحافظات، وأصبحت المدن بمثابة

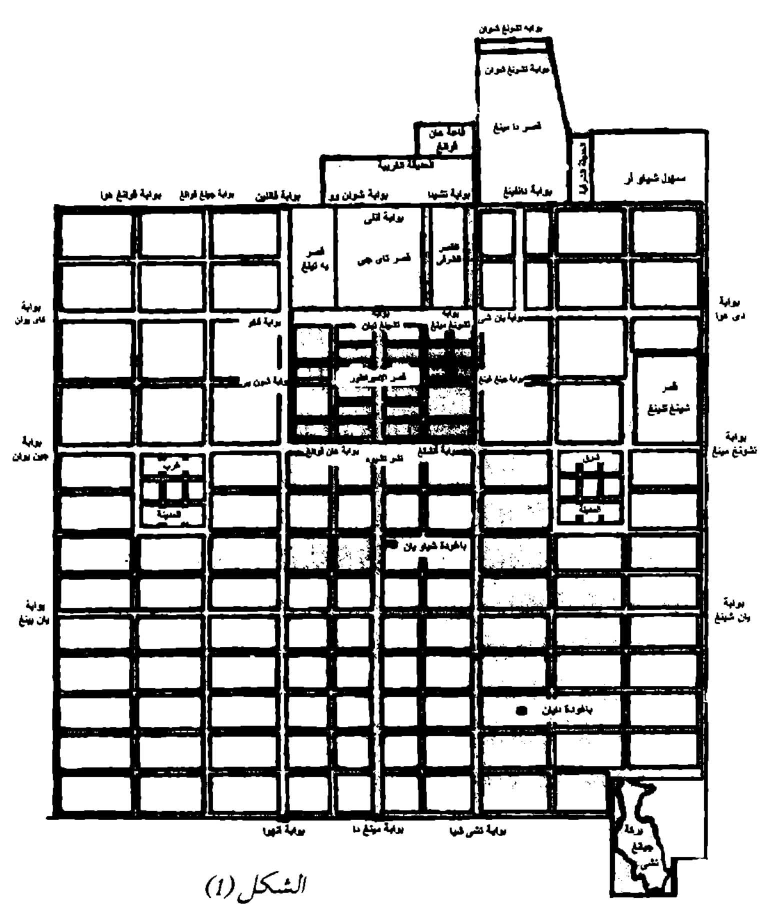
أمكنة أجهزة الدولة الحاكمة، وحذت الأسر في العصور اللاحقة، من أسرة هان إلى أسرة تشينغ، حذو هذا النظام بصورة أساسية.

وكان يطلق على المدينة في العصر القديم اسم «تشينغ تشي». ومن المرجح أن هاتين الكلمتين «تشينغ» و«تشي» تجسدان أفكار التصميم المعماري للمدينة في ذاك العصر. فكلمة «تشينغ» تشير إلى أسوار المدينة، بينما كلمة «تشي» تشير إلى النهر الذي يحوط المدينة من الخارج، ويطلق عليه العامة «نهر حماية المدينة». ويمكن أن نعتبر هذا التصميم بمثابة التصميم الدفاعي المغلق. وفي مجتمع العشيرة، كانت المدينة من أجل حماية أعضاء العشيرة من غارات الأعداء، ومن أجل حماية أمن وسلامة أسياد العبيد الأرستقراطيين في المجتمع العبودي، والدفاع عن المكانة الشرعية للحكام من كافة الطبقات في المجتمع الإقطاعي. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف، كان تصميم المدينة يتطلب ما يطلق عليه «أسوار من حديد وخنادق من مياه محرقة». وفي التصميم المعماري المحدد، يجب تقسيم المدينة –في المقام الأول– إلى جزأين هما: «المدينة» و«سور المدينة الخارجي»، ويوجد مقر إقامة الحكام في داخل المدينة، بينما مساكن وبيوت عامة الشعب تقام في سور المدينة الخارجي. وسور المدينة الخارجي أو الجانب الملحق بالمدينة أو الجوانب الأربعة التي تطوق المدينة تطلق الكتب القديمة عليها «في الداخل توجد المدينة، وفي الخارج يوجد سور المدينة الخارجي». ثانياً: تشييد أسوار مرتفعة وخنادق عميقة، وفي الوقت نفسه، يتم إنشاء بوابة مستديرة كالهلال فوق بوابة المدينة من أجل ضمان سلامة وأمان المدينة. ثالثاً: فوق سور المدينة، يتم بناء برج البوابة وشرفات السور والمصاطب المستطيلة، ويستغل في الدفاع والحماية وقتل الأعداء عند نشوب الحرب. وهذا النوع من التصميم أوجد أحوال الانغلاق والعزلة في المدن القديمة على هذا النحو: (أ) الانغلاق الكامل للمدينة، ويعني ذلك استخدام الأسوار العالية والخنادق العميقة لعزل المدينة بأسرها عن العالم الخارجي، وإنشاء بوابات للمدينة فقط تسمح للناس بالدخول والخروج في أوقات محددة. (ب) الانغلاق الجزئي في المدينة، ويعني ذلك تنفيذ «نظام الأحياء المجاورة» في المدينة من فترة الربيع والخريف إلى أسرتي سوي وتانغ؛ حيث تقسيم التجمعات السكانية في المدينة إلى الكثير من الأحياء، ثم تشييد أسوار مرتفعة لعزل الشوارع والأزقة داخل هذه الأحياء، وإقامة بوابات من أجل الحماية، وتغلق ليلاً ويحظر مرور المشاة. وفي أسرة سونغ

الشمالية، تحطم نظام الأحياء المجاورة المعزولة جراء تطور التجارة والاقتصاد، ولكن لم تتغير أحوال الانغلاق الكامل.

والاكتشافات الأثرية في الوقت الحاضر، عثرت على العديد من أطلال المدن القديمة وأسوار المدن وخنادقها التي في حالة جيدة وكاملة تماماً، ويتحلى ذلك بالقيمة التراثية الثقافية العالية جداً. ومثال ذلك، شهدت السنوات الأخيرة اكتشاف أطلال عاصمة يرجع تاريخها إلى المرحلة الأولية في عصر أسرة شانغ، وذلك في مدينة يانشي في مقاطعة خنان، وتعد هذه الأطلال الأقدم التي تم اكتشافها إلى الآن، كما أن حجمها يعتبر الأكبر، وأحوالها تعد الأفضل بين أطلال المدن القديمة. وتأسيساً على الدراسات في هذا الخصوص، فإن أطلال هذه العاصمة من المرجح أنها كانت أول عاصمة شيدها الملك تانغ في أسرة شانغ بعد أن أسس دولته، ويطلق على هذه العاصمة «شيباو»، ومعظم أطلالها مستطيلة الشكل، ويبلغ عرضها من الشرق إلى الغرب حوالي ألف ومائتي متر، وطولها من الجنوب إلى الشمال يصل إلى ألف وسبعمائة متر، وكان بناء أسوارها من خلال دك التراب، ويبلغ سمكها زهاء ثمانية عشر متراً، ويتراوح ارتفاع أسوارها الباقية من متر إلى مترين، وتم العثور على سبع بوابات في المدينة، والعديد من الطرق المتشابكة والمتقاطعة حتى وقتنا الحاضر، فضلاً عن أطلال ثلاثة قصور ضخمة. ومن الاكتشافات الأثرية الهامة «أطلال مدينة يونغ» في محافظة فينغ يوي في مقاطعة شنشي والتي كانت عاصمة مملكة تشين في فترة الربيع والخريف. وبعد البحث والتدقيق، كان طول هذه العاصمة من الجنوب إلى الشمال يبلغ ثلاثة آلاف ومائتي متر، وعرضها من الشرق إلى الغرب يصل إلى ثلاثة آلاف وثلثمائة متر، ومساحتها الإجمالية تصل إلى أكثر من عشرة كيلو مترات، وحجمها أكبر من العاصمة لوايانغ في أسرة تشو الشرقية، ويوجد داخلها منطقة تضم ثلاثة قصور، ناهيك عن منطقة المقابر في الضاحية الجنوبية. واكتشاف أطلال هذه المدينة يوضح أن تشكيلة تصميم إنشائها كانت ضخمة وكبيرة، ومبانيها تتحلى بالفخامة والعظمة، وتعد من أهم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين.

وأضخم المدن في التاريخ الصيني مدينة داشينغ في أسرة سوي، ومدينة تشانغآن في أسرة تانغ، وكانت مساحتها تقدر بـ 84,1 كيلو متر مربع، بما يعادل سبع مرات وأكثر من مساحة المدينة القديمة شيآن في أسرة مينغ التي مازالت باقية إلى الآن، وأكبر سبع مرات أيضاً من



الشكل (1)

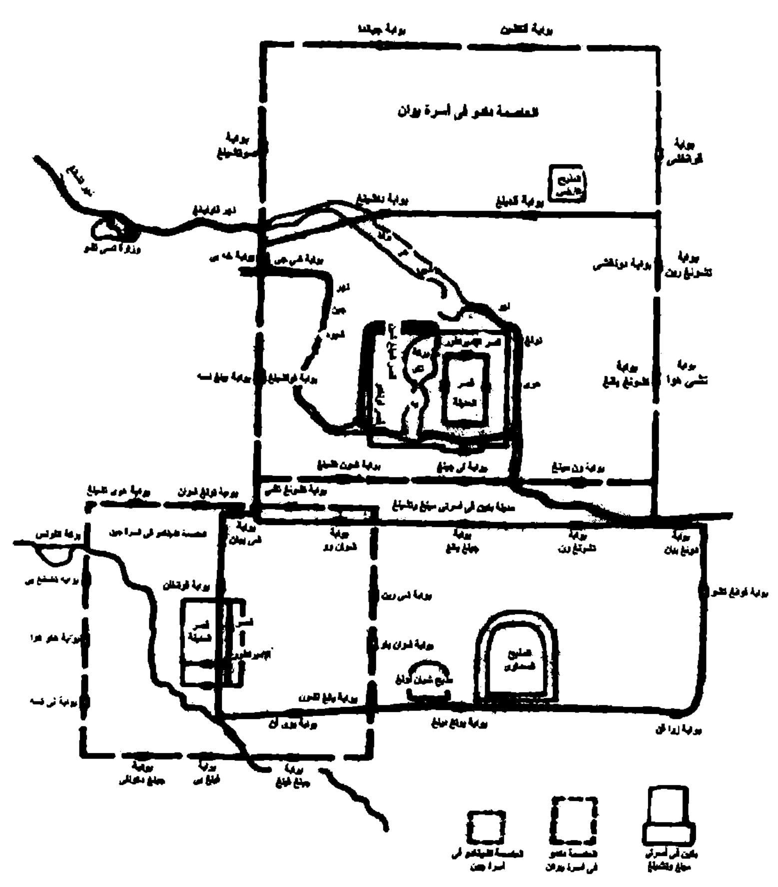
المصدر: كتاب (الهندسة المعمارية القديمة في الصين)

مساحة المدينة القديمة بايتشين تينغ الأقدم منها بحوالي مائة سنة. وتم إنشاء مدينة داشينغ في أسرة سوي في عام 582م، وكانت من تصميم المهندس نينغ ونيي. وبعد تأسيس أسرة تانغ، حذت حذو النظام القديم وغيرت اسمها وأصبحت مدينة «تشانغآن». وتتألف هذه المدينة من ثلاثة أقسام هي: مدينة السور الخارجي، ومدينة الإمبراطور، ومدينة القصور. وشيدت ثلاث بوابات في كل جهة من الجهات الأربع: الشرق، والغرب، والجنوب، والشمال من بينها «بوابة مينغدا» تعد الأكبر ومثبتة في منتصف الجانب الجنوبي بالضبط، وتعد البوابة الرئيسية للمدينة كلها. والمدينة مقسمة في الداخل إلى مائة وثمانية أحياء (زادت إلى مائة وعشرة أحياء في أسرة تانغ)، وتضم السوق الشرقي، والسوق الغربي، وتحوي أحد عشر

شارعاً واسعاً تمتد من الجنوب إلى الشمال، ناهيك عن أربعة عشر شارعاً فسيحاً من الشرق إلى الغرب، من بينها ستة شوارع رئيسية يبلغ عرضها أكثر من مائة متر، كما يبلغ عرض الشارع الكبير تشو تشيوه مائة وخمسين متراً ويمتد من بوابة تشو تشيوه في مدينة الإمبراطور إلى بوابة مينغدا. ويتمتع هذا الشارع بالفخامة والضخامة، ويعكس الأحوال المزدهرة والمنعشة في عصر أسرتي سوي وتانغ (انظر الشكل رقم -1).

ومدينة بكين في أسرتي مينغ وتشينغ هي أكبر مدينة شهدتها الصين في المرحلة المتأخرة للمجتمع الإقطاعي، وكانت مساحتها تصل إلى 60,2 كيلو متر، وتم تشييدها على أساس «العاصمة دادو في أسرة يوان» التي أسسها خو بيليه، وكانت مستطيلة الشكل، وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء هي: العاصمة، مدينة الإمبراطور، مدينة القصور، وكانت مدينتا الإمبراطور والقصور تميلان إلى الجنوب، وتقعان في منتصف المحور بين الجنوب والشمال. وتم إقامة ثلاث بوابات في كل جانب من الجهات الثلاث: الشرق، الغرب، الجنوب (البوابات في الشرق هي: قوانغشي، تشونغ رين، تشيهوا. والبوابات في الغرب هي: صوتشينغ، خهيي، بينغ تسه. أما البوابات الجنوبية فتشمل: شون تشينغ، ليتشينغ، ون مينغ). كما كانت هناك بوابتان في الشمال هما: جيندا، وآنستشين. وفي أواخر أسرة يوان، تم إضافة البوابات المستديرة كالهلال فوق أسوار المدينة وأُطلق عليها «البوابات الإحدى عشرة في العاصمة». وبعد تأسيس أسرة مينغ، نقلت سور المدينة الشمالي إلى الجنوب بمسافة 2,5 كيلو متر، وزحزحت سور المدينة الجنوبي قليلاً نحو الجنوب، وتم إزالة البوابتين «صوتشينغ»، و«قوانغشي». وغيرت اسم بوابة «جيندا» إلى «داشينغ»، واسم بوابة «آنتشين» إلى «آنديغ». وبعد فترة قصيرة، غيرت هذه الأسرة أيضاً اسم بوابة «تشونغ رين» إلى «دينغ جي»، وبوابة «خهيي» أصبحت بوابة «شي جي»، وبوابة «بينغ تسه» تغير اسمها وأصبح «فوتشينغ»، وكذلك بوابة «تشيهوا» أصبحت بوابة «تشاو يانغ»، وبوابة «شون تشينغ» باتت بوابة «شوان وو»، و«بوابة ليتشين» أصبحت بوابة «جينغ يانغ»، وبوابة «ون مينغ» أصبحت بوابة «تشونغ ون»، ويطلق على هذه البوابات التسمية العامة «بوابات العاصمة التسع». وفي أواسط أسرة مينغ، تم تشييد الكثير من أسوار المدينة الخارجية للدفاع عن المدينة في مجابهة هجمات قبائل منغوليا الشمالية. ونظراً للموارد المالية والثروات المادية غير الكافية، فقد

شُيدت مدينة خارجية في الجنوب، وأقيمت ثلاث بوابات صوب الجنوب هي: «يوآن»، و«يونغآن»، و«زوا آن»، بالإضافة إلى بوابتين من الشرق إلى الغرب هما: قوانغ ينغ (تغير اسمها إلى قوانغشآن في أسرة تشينغ)، و«قوانغ تشيو»، وشكلتا مسطحاً محدباً، وحذت أسرة تشينغ هذا التقسيم ولم تحدث تغيراً. (انظر الشكل رقم -2) وكانت بكين في العصر القديم تشتمل على ثلاثة أنهار لحمايتها حيث كانت تحوي المدينة الخارجية والمدينة الداخلية ومدينة القصور. وكانت مدينة بكين تضم شارعين رئيسيين يتوازيان مع المحور الأوسط، ويمتدان إلى بوابة تشونغ ون، وبوابة شوان وو. ونظراً لازدهار وتطور الاقتصاد والتجارة في أسرتي مينغ وتشينغ، فقد تركزت في الشوارع داخل المدينة المهن والحرف اليدوية، ونجد هناك أسواق



(الشكل رقم -2)

المصدر: كتاب (القصور والحدائق عبر العصور في الصين)

الغنم، والأرز، والزهور، والجواهر، والجياد وغيرها من الأسواق الأخرى.

ولا يزال يوجد الكثير من المدن وأسوارها وخنادقها الموجودة على سطح الأرض. وتعد مدينة «شيآن» التي شُيدت في أسرة مينغ أكبر هذه المدن وأضخمها ومازالت باقية في حالة جيدة، وتتشابه إلى حد كبير مع المدينة الإمبراطورية داخل مدينة تشانغآن التي يرجع تاريخها إلى أسرة تانغ، ويحوطها نهر في الخارج، وأقيمت بوابات في الجهات الأربع، وأقيم خارجها أسوار مستديرة كالهلال، وهذا التصميم المعماري والتشكيلة تتجسد بصورة نموذجية في بنايات المدن والولايات والمحافظات في شمال الصين. وتتبوأ المدينة العريقة «جينغ تو» المرتبة الثانية، وهي محافظة جيانغ لين في مقاطعة خوبي اليوم، وقد تأسست في عصر الممالك الثلاث، والمدينة الحالية الباقية قد أُنشئت في أوائل أسرة تشينغ، ويبلغ طول محيطها 6,4 كيلو متر، وتضم بوابتين في كل من الشرق والشمال، وبوابة واحدة في الغرب والجنوب، ومازالت حتى اليوم معظم أسوار المدينة والنهر حامي المدينة في حالة جيدة. أما في المرتبة الثالثة، تأتي المدينة القديمة «بينغ ياو» في مقاطعة شانشي، والتي تم بناؤها في أوائل أسرة عصر مينغ، ويبلغ طول محيطها 6,4 كيلومتر، وتبدو مربعة الشكل تماماً، ويحوطها نهر في الخارج لحمايتها، وتضم ست بوابات؛ حيث توجد بوابتان في الشرق ومثلهما في الغرب، وبوابة واحدة في كل من الشمال والجنوب، ومازالت الأسواق والطرقات داخل المدينة تحتفظ بالتخطيط العمراني في أسرة مينغ. وتحتل مدينة «نينغ يوان وي» المرتبة الرابعة، وتقع في مدينة شينغ تشينغ في مقاطعة لياو لينغ اليوم، يبلغ طول محيطها 3,2 كيلو متر، وأقيم فيها أربع بوابات، كما أُنشئت بوابات مستديرة كالهلال فوق أسوار المدينة، وتم إقامة برج الطبل في مفترق الطرق داخل المدينة. وفي أواخر أسرة مينغ، كان جيش يوان تشونغ هوان المشرف على المعارك وتوجيهها يربض في هذه المدينة وصد هجمات نيوأرخهتشي (1559 — 1626) الجد الأكبر لأسرة تشينغ مرات عديدة. كما توجد مدينة قديمة يطلق عليها «تشاو جيا تشينغ» أو «تشاو جيا باو» في محافظة جينغ تاو في مقاطعة فوجيان، وهي مدينة عريقة مبنية على الطراز المعماري في أسرة سونغ ولا تزال في حالة جيدة إلى الآن، ولكن حجمها صغير جداً، ويبلغ محيطها كيلو متر واحد أو أكثر قليلاً، ويقطنها حوالي مائة واثنين أسرة لقبها العائلي تشاو، وهم أبناء وأحفاد تشاو قوان ميي الشقيق الثالث للإمبراطور تشاو توان ينغ في أسرة

سونغ. وفي أواخر أسرة سونغ الجنوبية، احتضن رئيس الوزراء لوشيو فو الإمبراطور الرضيع ورمى نفسه في النهر وانتحر غرقاً، وبعد ذلك انتقل أقرباء هذا الإمبراطور وهم الجيل الرابع عشر وجزء من خدم الوزراء إلى مقاطعة فوجيان واعتزلوا الحياة هناك. وفي أسرة مينغ، في القرن السادس عشر الميلادي تقريباً، أنشأ هؤلاء الأحفاد، بل شيدوا من جديد مدينة صغيرة في المكان الأصلي الذي كان يضم مدينة صغيرة أصلاً. ولا تزال المدينة الداخلية والمدينة الخارجية وأبنية الأجهزة والدواوين الحكومية وسائر المباني الأخرى تحتفظ بتصميم الفن المعماري في أسرة سونغ الجنوبية حتى الوقت الحاضر.

المبحث الثاني

الهندسة المعمارية في تشييد القصور

تزامن تشييد القصور مع نظام تركيز سلطة الدولة الإقطاعية، وأصبحت المكان المخصص لإقامة الملوك والأباطرة وإدارة شؤون الدولة. وقبل ذلك، كان القصر، والغرفة، والردهة والقاعة الرئيسية في البيت، يشير ذلك كله إلى أبنية الإقامة والسكن، بيد أن مواقع السكن وأحجامه تختلف فقط. وكان يطلق على هذه الأبنية لقب «قونغ شي». وذكر كتاب «التغيرات» أنه: «في العصر القديم، كان الإنسان يقطن الكهوف ويعيش في البراري أيضاً، ثم أقام في قونغ شي في العصور التالية». وذكر كتاب «سياسة الدول المتحاربة» أنه عندما كان المستشار صوتشين «يعبر مدينة لوايانغ، وعلم والداه بحضوره، قاما بتنظيف قونغ والشوارع، وعزفت الموسيقى، وتم تجهيز الخمور واستقباله في الضاحية قبل وصوله إلى العاصمة الإمبراطورية». ويوضح ذلك، أن قونغ شي هي عبارة عن بنايات يقطنها سواد الناس ولا تتسم بالتمييز بين الطبقات. وكانت البنايات في العصر القديم تنقسم إلى جزأين هما: المقدمة، وتعرف باسم «تانغ» (القاعة الرئيسية)، والجزء الخلفي ويطلق عليه «شي» (الغرفة)، ومن ثم، انبثق منهما المثل القائل: «اصعد إلى القاعة، ثم ادخل الغرفة» (ويعني هذا المثل ترقى سلَّم المعرفة والتدرج في المعرفة والتبحر فيها). والكلمتان «ديان» و«تانغ» مترادفتان وتشيران كثيراً إلى الجناح الرئيسي في البيت الكبير المرتفع. وبعد أسرتي تشين وهان، أصبحت القصور بمثابة التسمية التي تطلق على الأبنية المخصصة للأباطرة والملوك، ثم أصبحت -فيما بعد- المكان المخصص للآلهة أيضاً. وفي هذا المقام، نتناول بصورة أساسية القصور التي كان يتمتع بها الأباطرة.

يتمتع المجتمع الإقطاعي في الصين بتاريخ طويل، وكل أسرة حاكمة جديدة وصلت إلى سُدة الحكم، كانت تشيد عدداً كبيراً من القصور. واضطلع المفكر قودان وو، الذي كان معاصراً لأواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشينغ، بجمع المعلومات الوثائقية الخاصة بالعواصم والقصور عبر العصور المختلفة، وألف كتاباً بعنوان «تاريخ العواصم والقصور عبر عصور التاريخ». وتأسيساً على السجلات التي ذكرها هذا الكتاب، فإنه لا يوجد عدد محدد يذكره

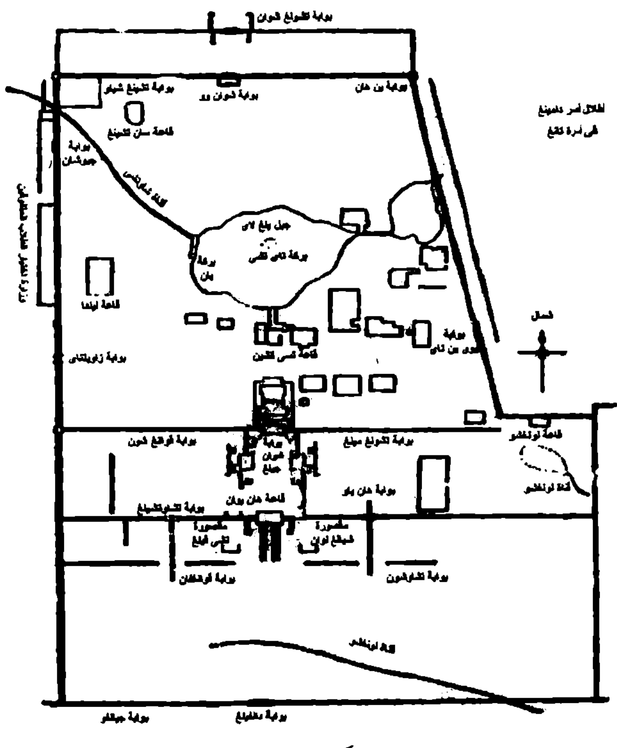
التاريخ بشأن القصور. ويعد الإمبراطور الأول مؤسس أسرة تشين صاحب أكبر عدد من القصور التي عرفها التاريخ. وذكرت الموسوعة التاريخية «سجلات تاريخية» أن إمبراطور تشين بدأ بناء القصور على نطاق واسع بمجرد أن تولى عرش البلاد، وكان «الإمبراطور يحاكي القصور في كل مملكة يهزمها، ويشيد على غرارها القصور في عاصمة أسرة تشين وتدعى شيان يانغ وتطل على نهر وي جنوباً، ونهر جينغ شرقاً، وكانت الجسور تربط بين قصور الإمبراطور»، وحتى «بلغ عدد القصور الخاصة للإمبراطور في نطاق أقامته ثلثمائة قصر، أما القصور الخاصة به الواقعة في خارج هذا النطاق بلغت أكثر من أربعمائة قصر»، ويعد ذلك بإيجاز عالماً من القصور، ولا ندري حجم الموارد البشرية والثروات المادية والمالية في مدينة داو (المدينة الجزيرة) الخاصة بإمبراطور تشين (عثروا على أطلال بنايات العديد من القصور التي تم بناؤها أثناء تجوال وسياحة هذا الإمبراطور في بحر بوهاي) ويبرهن ذلك على حقيقة السجلات التاريخية، ويوضح أن هناك أسباباً تكمن وراء شهرة جزيرة إمبراطور أسرة تشين.

ونعرف من الاكتشافات الأثرية، أن المجتمع العبودي في العصر القديم كان يقدم لأسياد العبيد الأبنية التي يقيمون فيها ويستخدمونها، وكانت مساحة مساكنهم كبيرة نسبياً. وبعد تأسيس نظام السلطة المركزية، ومن أجل إظهار المكانة السامية والرفيعة للإمبراطور ونفوذه وسلطته في كافة أنحاء البلاد، كان تصميم القصور يهتم اهتماماً خاصاً بالفخامة والضخامة، والمهابة والروعة والجمال، ولذا عكست السيكولوجية الثقافية الفريدة والمتميزة في الصين، بما يتوافق مع الاحتياجات السياسية لأفكار السيطرة على عشرات الآلاف من عامة الشعب. ومثال ذلك، في عام 212 ق.م، ضم إمبراطور أسرة تشين قصر «شيان يانغ» الصغير الموجود أصلاً، ثم أرغم سبعمائة ألف عامل على بناء قصر جديد أطلق عليه «قصر تشاو»، وقبل وفاته تم الانتهاء من بناء قاعة المقدمة فقط التي أطلقت عليها الأجيال في العصور اللاحقة «قصر أفانغ». فتذكر سجلات تاريخية، أن هذه القاعة تمتد من الشرق إلى الغرب بمساحة خمسمائة خطوة، وطولها من الجنوب إلى الشمال يبلغ خمسين تشانغ (وحدة قياس صينية تعادل ثلاثة أمتار ونصف المتر)، ويمكن أن تستوعب عشرة آلاف فرد، ويمكن رفع سارية علم فيها بارتفاع خمسة تشانغ»، وبعد أن واصل الجيل الثاني لهذا الإمبراطور عملية البناء، أصبحت

هذه القاعة قصراً رائعاً وفخماً يتألف من «طابق أرضي، ومقصورة ضخمة». ولكن، من سوء الطالع، أن شيانغ يوي زعيم انتفاضة المزارعين اقتحم حدود البلاد، واضرم النار في هذا القصر لمدة ثلاثة شهور ونيف. ومازالت قرية أفانغ في ضواحي مدينة شيآن اليوم تحتفظ بأطلال قاعة المقدمة هذه، وتوضح إلى حد ما فخامة وعظمة تشييد القصور آنذاك.

وبعد أن أسس الإمبراطور ليوبانغ العاصمة تشانغآن في أسرة هان، بدأ يقيم في قصر «تشانغ ليه» (المرح الدائم)؛ وهو قصر أسرة تشين القديم بعد إدخال تعديلات عليه، ثم أمر الإمبراطور شياوخه بأن يبني قصراً جديداً له. وتفيد سجلات تاريخية أن القصر الذي شيده شياوخه كان يطلق عليه قصر «وي يانغ»، ويتألف من أكثر من قاعة رئيسية، ويبلغ محيطه أحد عشرة كيلو مترات، وعندما رأى الإمبراطور فخامة وعظمة القصر، تعمد أن تظهر عليه أمارات الغضب قائلاً: «استمر العمل الشاق الكادح في هذا القصر لعدة سنوات، ولا نعرف إذا كان النجاح أو الإخفاق من نصيب دولتنا، فلماذا شيدت قصراً مفرطاً في الفخامة والعظمة؟ فقال شياوخه «الإمبراطور ابن السماء والبلاد كلها هي بيته، وإذا لم يكن قصرك بهذه المهابة والإجلال، فكيف توطد أركان حُكمك وتعزز نفوذك وسلطاتك؟! بل يجب أن لا تتفوق عليك الأجيال اللاحقة». فضحك الإمبراطور وتبدل غضبه بهجة وغبطة، وانتقل إلى القصر الجديد «وي يانغ» مسروراً مغتبطاً. والإمبراطور هان وو دي شيدا قصراً أكثر مهابة وعظمة في غرب قصر «وي يانغ» عُرف باسم قصر «جيان جينغ» يغص بالقاعات والمقاصير مثل الأشجار في الغابة، ويضم العديد من البوابات. ويطلق على قصور «تشانغ لين»، و«وي يانغ»، و«جيان جينغ» التسمية العامة «القصور الثلاثة في أسرة هان». وشهدت السنوات القليلة الماضية المزيد من أعمال البحث والتنقيب من جانب عمال الآثار حول أطلال قصر وي يانغ، وعثروا على معلومات أثرية كثيرة برهنت على أن هذا القصر هو أضخم قصر عرفته الصين في العصر القديم قبل أسرتي مينغ وتشينغ، واستخدمه الأباطرة لأكثر من ثلثمائة وستين سنة تمتد من أسرة هان الغربية، وقبل أسرة تشين إلى أسرة تشو الغربية.

والقصور الثلاثة في أسرة تانغ هي: «قصر تاي جي»، و«قصر دامينغ»، و«قصر شينغ تشينغ». وقصر تاي جي هو في الأصل قصر داشينغ الذي شيده الإمبراطور ون دي في أسرة سوي، ويقع في داخل أسوار مدينة شيآن، وتم بناؤه في المحور الأوسط لمدينة تشانغآن في



(الشكل رقم-3)

المصدر: كتاب (تاريخ الهندسة المعمارية في الصين)

أسرة تانغ. وتنقسم مدينة القصور إلى ثلاثة أقسام: الجزء الأوسط وفيه قصر تاي جي ويمتد من الجنوب إلى الشمال، ويضم خمس قاعات كبرى هي: القاعة الرئيسية «تاي جي»، و«قاعة ليانغ يي»، و«قاعة قان لو»، و«قاعة يوان جيا»، و«قاعة تشينغ شيانغ»، وكانت هذه القاعات بمنزلة المكان الذي يدير فيه الإمبراطور لي يوان ونجله لي شيمين شؤون البلاد السياسية. والجزء الشرقي يضم «قصر دونغ»؛ وهو مكان إقامة ولي العهد. والجزء الغربي يشمل «قصر يه تينغ»؛ وهو مكان النساء العاملات لدى الأسر البيروقراطية بعد تعرضهن للقسوة والعنف للعمل لدى الدوائر الحكومية. ويُطلق على البوابة الشمالية لقصر تاي جي لقب «بوابة شوان وو»، وتعسكر فيه قوة ضخمة لحراسة القصر الإمبراطوري، وقد شهد هذا القصر «انقلاب بوابة شوان وو» الشهير. ويقع قصر دامينغ في سهول لونغشو في شمال شرق مدينة شيآن، وطبيعة الأرض هناك مرتفعة نسبياً، وشيده لي يوان من أجل والده فور

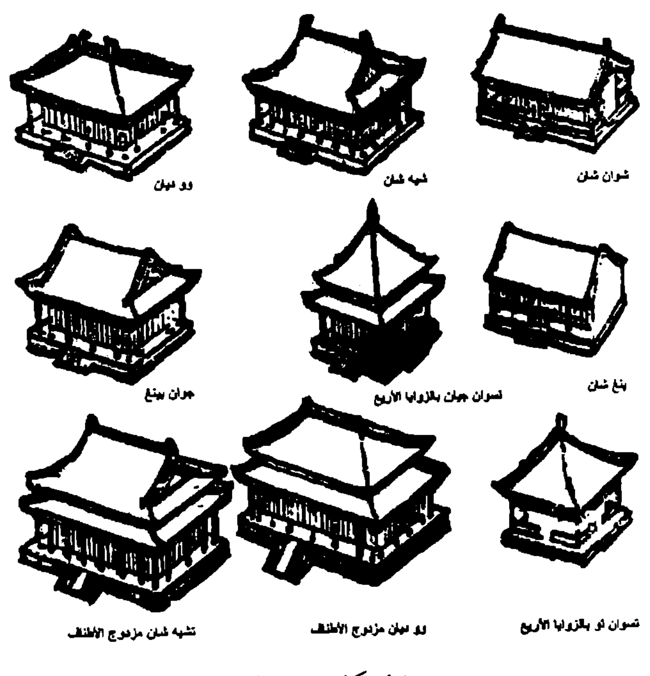
توليه عرش البلاد، وهو المصيف المخصص للإمبراطور قاو زونغ لي في أسرة تانغ وكان مصاباً بمرض الروماتيزم، ولذا كان يمقت قصر تاي جيَ لأنه كان رطباً، وانتقل إلى قصر دامينغ لإدارة شؤون البلاد من هناك، وبعد ذلك اتخذه أباطرة تانغ مركزا لإدارة شؤون البلاد. وفي المحور الجنوبي داخل القصر، تم تأسيس ثلاث قاعات كبرى هي: «هاي يوان»، و«شوان جينغ»، و«تسي تشين»، وتعتبر القاعة الأولى الأكثر فخامة ومهابة، وتوجد على جانبيها مقصورتان متصلتان بعضهما ببعض هما: «تشي فينغ» و«شيانغ لوان». وهناك قاعة ضخمة أخرى يطلق عليها «قاعة ليندا» في داخل قصر دامينغ، وتتجه ناحية الغرب قليلاً، ومساحتها تعادل مساحة قاعة تاي جي في المدينة المحرمة في بكين ثلاث مرات، وهي المكان المخصص الذي يقيم فيه الإمبراطور مأدبة حكومية رسمية، ويستقبل فيها الضيوف الأجانب. وبعد أن قمع الإمبراطور صوزونغ في أسرة تانغ «اضطرابات آنشي»، أقام في هذه القاعة مأدبة ضخمة لثلاثة آلاف وخمسمائة فرد. (انظر الشكل رقم –3) وقصر شينغ تشينغ كان في الأصل مقر إقامة الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ قبل أن يتولى عرش البلاد، ثم أجرى عليه تعديلات وأصبح قصراً إمبراطورياً، ولذلك حجمه صغير نسبياً، ولكن فخامته وعظمته لا تقل شأناً عن القصرين الآخرين. والحديقة الجنوبية يتوسطها «بركة تنين»، وتعتبر «قاعة شينغ تشينغ» الجزء الأساسي والرئيسي للقصر في الجهة الشمالية. وقد شهدت هذه القاعة قصة الغرام بين الإمبراطور شوان زونغ والمحظية الأولى يانغ، وقد أصبحت الآن حديقة شينغ تشينغ في مدينة شيآن.

وقصور أسرة سونغ الشمالية توجد في مدينة كايفنغ اليوم، وقصور أسرة سونغ الجنوبية في مدينة هانتشو اليوم، أما قصور أسرتي جين ويوان توجد في مدينة بكين اليوم بصورة أساسية. ولا نتناول هذه القصور بالشرح المسهب في هذا المقام، ولكن نكتفي بتوضيح العصور التي شهدت بناء هذه القصور وتشييدها. فعندما تولى الجد الأكبر لأسرة مينغ جو يوان العرش، وأسس العاصمة نانكين، شيد في المقام الأول مدينة قصور أسفل أقدام جبل تشونغ، وهي بمثابة القصر الإمبراطوري في مدينة نانكين، وبعد ذلك اتخذ من مسقط رأسه (محافظة فينغ يانغ في مقاطعة آنهوي اليوم) عاصمة ثانية، وفي عام 137م، أمر مائة وأربعين ألفاً من الجنود والمزارعين والعمال بناء «العاصمة الوسطى»، وكانت فخامتها وعظمتها تضاهي

وتفوق بكثير على القصر الإمبراطوري في نانكين، والمدينة المحرمة الموجودة في بكين اليوم. ولكن بعد مرور ستة أعوام توقف البناء مرة أخرى. وفي أواخر أسرة مينغ، قام تشانغ شيان تشونغ بحرق قصر مينغ المعروف باسم فينغ يانغ، كما التهمت نيران الحرب القصر الإمبراطوري في مدينة نانكين في عهد أسرة تشينغ الحاكمة، ولم يتبق من هذين القصرين سوى ركام الحريق. والتصميم المعماري في إنشاء المدينة المحرمة في بكين يحاكي نظيره في القصرين المذكورين أعلاه عندما قام الإمبراطور تشو لي في أسرة مينغ بنقل العاصمة إلى بكين، وحجم هذه المدينة يناهز حجم المدينة المحرمة في نانكين، وتبلغ مساحتها سبعمائة وعشرين ألف متر مربع، وتشمل تسعة آلاف حجرة ونيف. وكان ترتيب جميع أنواع الأبنية في تصميم المدينة المحرمة في بكين يتفق تماماً مع السلطة الملكية الأعظم والنفوذ الإمبراطوري المطلق، وجعل ذلك هذه المدينة تبدو بمنزلة وحدة كلية معمارية موحدة ومنسجمة، وتبرز للعيان التمييز بين الرئيسي والثانوي، ونظامها يوضح التفرقة بين الجليل والوضيع. والهيكل المعماري الشامل يحذو حذو النظام القديم واستخدم تشكيله «الأجهزة الإدارية في المقدمة، وغرف النوم في الخلف»، حيث تم إنشاء ثلاث قاعات كبرى في مقدمة القصر الملكي هي: قاعة خه، وتشونغ خه، وباو خه، وتعتبر بمثابة مكان عقد اجتماعات الإمبراطور وإدارة شؤون الدولة، والفخامة والعظمة تبرزان جمال القصر الواسع المكشوف، وإذا وقف المرء خارج هذه القاعات ينتابه شعور متناقض من المهابة والإجلال تجاه السلطة الإمبراطورية، ومشاعر الازدراء والاحتقار تجاه الفرد العادي، بالإضافة إلى تشييد ثلاثة قصور في خلف القاعات الداخلية هي: قصر تشيان تشينغ، وقصر جياو تاي، وقصر تونغ نينغ، ومخصصة كلها لإقامة الإمبراطور والإمبراطوره، ثم أصبحت مكاناً لإدارة شؤون البلاد المعتادة بعد رحيل الإمبراطور يونغ تشينغ في أسرة تشينغ. كما تم بناء ستة قصور تمتد من الشرق إلى الغرب، والشوارع الأفقية والعمودية، والساحات الواضحة المعالم، وتشكيلة الأبنية متقاربة وكثيفة بما يتلاءم مع احتياجات الإقامة والمعيشة، وتظهر الجاذبية والتشوق إلى الحياة.

ويتحلى بناء وتشييد القصور في الصين بالقواعد المحددة والصارمة في التصميم المعماري، من بينها تكون تشكيلة سقف القاعة وتزيينها وزخرفتها الأكثر بروزاً وتجسيداً في هذا الخصوص. وتصميم القاعات في الصين ينفذ السقف الضخم، وأشكال السقوف

تحوي ستة أنواع بصورة أساسية هي: شوان شان، ينغ شان، ووديان، شيه شان، جوان بينغ، تسوان جيان (انظر الشكل رقم -4). وشكل «السقف شوان شان» عبارة عن سقفين منحدرين يشكلان سنام السقف الرئيسي وأربعة سقوف هابطة، والجانبان الأيسر والأيمن للسقوف يمتدان خارج الجدران. و«السقف ينغ شان» عبارة عن سقفين منحدرين أيضاً، ولكن جانبي الجدران متناسقان ومتوازيان مع السقف. و«سقف ووديان» عبارة عن أربعة



(الشكل رقم -4)

المصدر: كتاب (تاريخ الأبنية في العصر القديم)

سقوف منحدره تلتقي معاً وتشكل سنام السقف الرئيسي وأربعة سنامات مائلة، وأربعة مدعمة. و«سقف جوان بينغ» عبارة عن التقاء سقفين منحدرين في الأمام والخلف، ولا يستخدم سنام السقف، بل يستخدم الشكل المقوس المنحني. وسقف «تسوان جيان» يعد نوعاً من السقف المخروطي الشكل، وسطحه المستوي يمكن أن يكون دائرياً ومربعاً أو أي شكل آخر متعدد الجوانب، ويستخدم كثيراً في تشييد المقاصير. والكشوف الأثرية ورسوم التماثيل والطوب في أسرة هان توضح أن أشكال السقوف المتعددة هذه قد نشأت وتكونت

في عصر أسرة هان. وأصبح سقف ووديان مزدوج الأطناف -في عملية التطوير- أكثر أشكال السقوف تقديراً واحتراماً، ويستخدم فقط في قصور أقارب الإمبراطور وفي بعض القاعات الرئيسية في البنايات الخاصة والمتميزة، مثل قاعة تاي خه في المدينة المحرمة في بكين، وقصر تشيان تشينغ، والقاعة الرئيسية في معابد الأجداد. ويأتي «سقف تشيه شان» في المرتبة الثانية ويستخدم كثيراً من برج البوابة، وقوس البوابة، مثل برج البوابة في ميدان تيان آنمين (السلام السماوي). ويمكن أن يستخدم عامة الشعب سقوف القاعات الأخرى. وحظي تزيين سقف القاعة بالاهتمام الشديد أيضاً، وكان يستخدم حيوانات من شتى الألوان والأشكال، يطلق عليها التسمية العامة «ونشو»، أي حلبة سقف خط التقاطع الأعلى بين سطحين منحدرين، شكلها مثل ذيل الباشق، (وهو من الجوارح، يشبه الصقر، ومن فصيلة العُقاب النسرية، ويتميز بجسم طويل ومنقار صغير- المترجم) أو «حيوان ميمون الطالع». وإعداد حُلى «ونشو» التي تظهر مستوى درجة القصر، وترتب عادة في أرتال وترية العدد، أكثر ما يكون في تسعة أرتال، ولكن قاعة تاي خه في المدينة المحرمة خالفت هذه العادة، ويوجد بها عشرة صفوف من هذه الحلى. ويُعلق على طرفي سنام السقف الرئيسي زوجان من هذه الحلى يطلق عليها «تشي -ون» (أي طائر الباشق). وتأسيساً على سجلات كتب قديمة أن: «ونشو» يعد نوعاً من الأسماك البحرية يستطيع أن يخمد النيران، وكان يستخدم في تزيين قصر جيان تشينغ في أسرة هان، كما غُرس في ظهره سيف، وقد قيل إن ذلك خشية أن يترك مهام عمله من الحماية والحراسة. وهناك قول آخر مفاده، أن «ونشو» هو الشقيق الثاني لملك تنين البحر الذي كان ينافس شقيقه الأكبر على اعتلاء العرش، وتشاور واتفق معه على أن الغلبة تكون لمن يلتهم سنام السقف، ولم يتوقع أن يطعنه شقيقه الأكبر بالسيف في ظهره وقضى نحبه وسمَّره في سنام السقف. ومن منظور السيكولوجيا الثقافية في المجتمع الإقطاعي، نجد أن تعليق «ونشو» من أجل تحاشي النار ودرء الكوارث. أما فيما يتعلق بالحيوانات الصغيرة المعلقة في أسنمة السقف الأربعة فهي كالتالي: جنية تمتطي العنقاء، ويأتي بعدها في الترتيب التنين، والعنقاء والتنين يرمزان إلى التناغم والحظ السعيد، والأسد يرمز إلى الشجاعة والقوة، وفرس النهر والحصان السماوي يرمزان إلى السعادة وفأل الخير، والحيوان الأسطوري سوان ني يرمز إلى الإرادة الصلبة، وسمك يا الأسطوري يستطيع إخماد

النيران، والحيوان الأسطوري جيباو يرمز إلى العدل، وثيران المصارعة ترمز إلى إطفاء جذوة النار المشتعلة، وحيوان شينغ شي هو القرد، وبالإضافة إلى الجنية، يكون هناك عشرة حيوانات ترمز إلى الحظ الميمون والهدوء والطمأنينة، وإخماد لهب النيران وكبح جماح الكوارث، وموازرة العدالة، وطرد الشرور والأذى، ويعد ذلك تجسيداً لبعض جوانب السيكولوجية الثقافية أيضاً. ويقل عدد حلى «ونشو» المعلق في سقوف القاعات الأخرى حسب مستواها ودرجاتها، ويستثنى من ذلك قاعة «تاي خه».

المبحث الثالث

الضرائح الإمبراطورية

الإمبراطور في حياته يرفل في قصور فخمة وعظيمة، ويصدر منها الأوامر والتوجيهات، كما يفكر في الاحتفاظ بهذا المجد والشرف بعد وفاته، ولذلك كان كل إمبراطور يشيد لنفسه ضريحاً. إذن، لماذا يطلق على قبر الإمبراطور «ضريحاً»؟ وماهي أحوال هيكل ضريح الإمبراطور وشكله وتطوره؟ الإجابة عن ذلك تبدأ من معرفة أصل بناء القبر. والمجتمع البدائي شهد دفن الميت. ولكن هناك سجلات وثائقية واكتشافات أثرية تخبرنا أنه كانت لا توجد مقابر قبل أسرة تشو، وتذكر كتب قديمة أن: «الوجهاء كانوا يدفنون فقط في مقابر في العصر القديم، وكان القبر آنذاك عبارة عن كومة من التراب ويزرع أمامها شجرة كعلامة مميزة». وفي مرحلة أسرة شانغ، كانت توجد أبنية فوق سطح الأرض من أجل تقديم القربان للأموات فقط، ولا توجد أبنية أخرى، بل لا توجد تلة صغيرة من التراب نعتبرها قبراً. وبدأ ظهور التلال الترابية باعتبارها مقابر في عصر أسرة تشو تقريباً، وكانت مكانة الميت تحدد حجم التل الترابي باعتباره قبره، فإن كانت مكانته رفيعة ونبيلة يكون قبره كبيراً من التل الترابي، وكانت مقابر كبار الشخصيات تشبه التل، ولذلك كان يطلق آنذاك على مقابر بعض الأباطرة «مقبرة التل»، ومثال ذلك، «مقبرة التل لمملكة تشاو» التي دفن فيها الملك وولينغ وانغ في هذه المملكة، و«مقبرة يان» للملك جاو في مملكة يان، وغيرها كثير. وفيما بعد، اتسع نطاق مقابر بعض الأباطرة، حتى أصبحت تشبه الجبل، ومن ثم، أُطلق على هذه المقابر اسم «الجبل» أو «المدفن يشبه الجبل»، وأضيف إليها قاعة غرفة التوابيت أمام القبر التي تقطن فيها روح الميت، وقاعة القربان التي يستخدمها الأبناء والأحفاد في تقديم القرابين للآباء والأجداد، ودمج ذلك كله في وحدة يطلق عليها التسمية المعتادة «ضريح». ولكن —في الواقع— كان هناك قصر تحت الأرض أيضاً، بالإضافة إلى مبنى الضريح فوق الأرض، ويعد هذا القصر بمثابة العالم الحقيقي الذي يتحرك فيه الإمبراطور بعد وفاته، ولذلك يجب أن يشمل ضريح الإمبراطور على قصر تحت الأرض. وفي هذا المقام، نقدم باقتضاب تركيب هيكل الإمبراطور وشكله وتطوره انطلاقاً من ثلاثة جوانب هي: قبر الإمبراطور، وفناء قبر

الإمبراطور، وقصر الإمبراطور تحت الأرض في ضريحه.

أولاً: نتحدث عن قبر الإمبراطور: كان يطلق على القبر في المرحلة الأولية «حفرة التابوت»، ويعني ذلك، تكديس تراب التلة الصغيرة على شكل مربع مخروطي صغير في النصف الأعلى، وكبير في النصف الأسفل، ولكن قمته تكون مستوية، ويبدو في شكل مخروطي (هرمي) مقلوب، ولذلك يطلق عليه «حفرة التابوت». وكان تصميم مقابر الأباطرة والملوك في أسرتي تشين وهان على غرار هذا الشكل. ومثال ذلك، «قبر الإمبراطور الأول في أسرة تشين» في محافظة لينتشينغ في مقاطعة شنشي، وتذكر سجلات أن ارتفاعه بلغ أكثر من خمسين تشانغ (وحدة قياس صينية تعادل ثلاثة أمتار وثلث المتر- المترجم)، ومحيطه أكثر من ألفين وخمسمائة متر، وكان يطلق عليه: «ليشان» في ذلك الحين، ولكن بعد مرور ألفي سنة ونيف من عوامل التعرية والتخريب المتعمد، تضاءل ارتفاعه ومحيطه إلى أكثر من النصف تقريباً، ويبدو مربعاً، وقمته مدببة الشكل. وقبر الملك هان ون دي في مدينة شينغ بينغ في مقاطعة شنشي يطلق عليه «قبر ماو» وشكله مخروطي مقلوب، والآثار المتبقية منه اليوم، وما ذكرته كتب تاريخية وسجلات وثائقية يكاد لا يكون بينهما فرق. والمقابر في المرحلة المتوسطة كانت تستغل «الجبل» بصورة أساسية، وليس التل الترابي الاصطناعي. وكان شكل القبر هذا الأكثر انتشاراً وبروزاً في أسرة تانغ، وتفيد كتب تاريخية أن الإمبراطورة من عائلة تشانغ صون كانت توصي عندما اقتربت نهاية حياتها، أن تكون مراسم دفنها بسيطة وعادية حيث كان الجبل قبرها، ولا توجد ثمة ضرورة لبناء قبر، وربما كان ذلك بمثابة اللطف والنية الطيبة من جانب الإمبراطورة، ولكن النتائج في الواقع تخبرنا أن عملية الإنشاءات في المقابر كانت ضخمة وهائلة وتتحلى بالفخامة والأبهة والعظمة. ولذلك، حذت أسرة تانغ حذو هذه المقابر. وقبر الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ يطلق عليه «قبر جاو» ويقع في جبل جيوزونغ في محافظة ليتشوان بمقاطعة شنشي اليوم؛ حيث كان دفنه مع الإمبراطورة تشانغ صون. وهذا الجبل شاهق ومرتفع، وقمته العليا شديدة الانحدار، و«قبر جاو» عبارة عن قصر تم حفره أسفل هذه القمة، وقد قيل إن عمقه يصل إلى مائتين وثلاثين متراً ونيفاً، وعملية إنشائه كانت الأضخم ولا يمكن أن يتصورها المرء. ويضم «قبر تشيان» رفات الإمبراطور قاو زونغ في أسرة تانغ والإمبراطورة وو تسه تيان معاً، ويقع في جبل ليانغ بمحافظة تشيان

في مقاطعة شنشي، وتم حفر هذا القبر أسفل القمة العليا لهذاالجبل الذي يشمل على قمتين في جهة الجنوب، ويتقابلان وجهاً لوجه في الشرق والغرب، وشيدت باغودة بوابة القصر فوق القمة العليا، مما شكل بوابة ضيقة تتمتع بالمهابة والإجلال بصورة غير عادية، وقلما نرى مثلها في مقابر أباطرة الصين. وفي المرحلة المتأخرة، تعد مقابر أسرتي مينغ وتشينغ المثال النموذجي في هذا الخصوص حيث تصميمها على شكل «باو تشينغ وباو دينغ»، وهو عبارة عن بناء أسوار من القرميد والطوب دائرية الشكل فوق قصر قبر الإمبراطورة، تم تكديس أكوام من التراب داخل الأسوار، بحيث تكون قمم التلال الترابية دائرية وترتفع قليلاً عن هذه الأسوار، وهذا ما يطلق عليه «باو تشينغ وباو دينغ»، ويتجلى ذلك في المقابر الثلاث عشرة في أسرة مينغ في بكين، والمقابر الشرقية في أسرة تشينغ في محافظة زو نغهوا، والمقابر الغربية للأسرة ذاتها في محافظة يه في مقاطعة خبي.

ثانياً: فناء قبر الإمبراطور: كان حجم تشييد فناء قبر الإمبراطور ضخماً جداً. لإظهار نفوذه وسلطته واحترامه الأسمى الأعلى. ومثال ذلك، فناء قبر الإمبراطور الأول لأسرة تشين الذي برزت ملامحه الأساسية بعد سنوات من البحث والتنقيب؛ حيث أن منطقة القبر تشبه مدينة صغيرة، وتشمل أسوار المدينة وبداخلها الطرق الداخلية والخارجية على شكل مربع كبير داخله مربع صغير آخر، ويبلغ محيط المدينة الخارجية أكثر من ستة آلاف متر، وتوجد أربع بوابات في كل من المدينتين الخارجية والداخلية، والقبر في منتصف الجنوب في المدينة الداخلية، وقاعة القربان في منتصف الشمال، والتماثيل الجنائزية التي تم اكتشافها اليوم، كانت في الجهة الشمالية للبوابة الشرقية في المدينة الخارجية، ويقودنا ذلك إلى القول إن هذه التماثيل تعد جزءاً من جيش الحماية والحراسة لقصر قبر الإمبراطور تحت الأرض. وقبر ماو للإمبراطور هان وي دي شمل أسوار المدينة أيضاً ولكنها أقل حجماً من نظيرتها في قبر إمبراطور أسرة تشين، ويبلغ محيطها ألفاً وستمائة متر فقط. أما فناء قبر الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ مساحته ثلاثمائة ألف مو (وحدة مساحة صينية تعادل 0,0667 هيكتار)، ومحيطه يبلغ ستة وستين كيلو متراً، ويغص بأشجار السرو، لذا أطلق عليه «مدينة السرو». وتم بناء مدينة مربعة صغيرة تطوق الجهات الأربع للقبر داخل الفناء، وتوجد أربع بوابات في الجهات الأربع على النحو التالي: البوابة الشرقية ويطلق عليها «تشينغ لونغ»، والبوابة الغربية ويطلق

عليها «باي خو»، والبوابة الجنوبية ويطلق عليها «جو تشيوه»، والبوابة الشمالية تُعرف بـ«شوان وو»، وكان تشييد قاعة القربان قبالة القبر داخل بوابة جو تشيوه، وبناء المذبح في داخل بوابة شوان وو، بالإضافة إلى بناء غرف تحت الأرض مخصصة لموظفي حراسة القبر في جهتي الغرب والجنوب، ثم تصطف مقابر الأبطال وأقرباء الإمبراطور في جنوب وغرب قبر الإمبراطور على شكل مروحة ويبلغ عددها مائة وسبعين قبراً. وكانت مقابر أباطرة أسرتي هان وتانغ مبعثرة ومتباعدة، وكل قبر يشبه الباحة أو الفناء الخاص به، ويكون على حده، ولا يربطها ثمة رابط. بينما مقابر أباطرة أسرة سونغ كانت مجمعة نسبياً، ولكن كل قبر له الباحة الخاصة به أيضاً. وكانت المقابر الثلاث عشرة في أسرة مينغ في العاصمة بكين إيذاناً بنشأة «نظام تجميع المقابر» من خلال بناء فناء كبير موحد يضم داخله جميع المقابر، ويشكل النظام الخاص به، ولم يعد يدفن الأبطال في فناء قبر الإمبراطور، ويسمح لأقاربه فقط بالدفن داخل الفناء، وحذت أسرة تشينغ حذو نظيرتها مينغ في بناء المقابر، وشهدت في البداية المقابر الشرقية في مدينة زو نغهوا في مقاطعة خبي، ثم ابتدعت فكرة جديدة في عهد الإمبراطور يونغ جينغ، وقررت «عدم دفن الأبناء مع الآباء»، ثم شيدت المقابر الغربية في محافظة يه اليوم في المقاطعة نفسها خارج المقابر الشرقية. وفناءات القبر في أسرتي مينغ وتشينغ متشابهة على وجه العموم، وعلى سبيل المثال، المقابر الثلاث عشرة في أسرة مينغ، يجمعها فناء واحد مشترك وتحوطها أسوار في الجهات الأربع بطول أربعين كيلو متراً، والبوابة الرئيسية في الجنوب، ويمتد المحور الأوسط من الجنوب إلى الشمال بطول سبعة كيلو مترات، ويوجد أمام البوابة الرئيسية قوس تذكاري حجري ضخم (يمثل بداية فناء القبر)، والبوابة الحمراء الضخمة (بوابة الفناء الرئيسية، وتبدأ منها الجدران المحيطة وتمتد يمنة ويسرة) والبوابة المزخرفة (مثبت داخلها نصب تذكاري يشمل مآثر وأمجاد الإمبراطور مينغ تشينغ)، وتماثيل حجرية تمثل أحياء (توجد على جانبي الطريق المقدس، وعددها يبلغ ثمانية عشر زوجاً على كل جانب ومرتبة على النحو التالي: الأسد، الحيوان الأسطوري شياجي، والجمل، والفيل، ووحيد القرن الصيني، والحصان، ورُعية عسكرية، ورعية مدنية، ورعية مآثر جليلة. والأسد يعبر عن العظمة والهيبة والوقار والشجاعة، وحيوان تشه جي يعبر عن دفع الأذى ومؤازرة العدالة، والجمل والحصان يشيران إلى حدود الدولة الفسيحة واسعة الأرجاء، ويرمز وحيد

القرن الصيني إلى فأل الخير والحظ الميمون، والحصان هو وسيلة ركوب الإمبراطور، وتماثيل الأشخاص الحجرية يطلق عليها «وينغ تشونغ»، وتحكي رواية أن وينغ تشيونغ كان جنرالاً عسكرياً عظيماً، وكان يعمل لدى الإمبراطور الأول لأسرة تشين، وقدم نجاحات عظيمة في دحر قوات قبيلة أهل الهون، وبعد وفاته، صنع الإمبراطور له تمثالاً نحاسياً ووضعه أمام بوابة القصر إحياء لذكراه، وبعد ذلك، تم صنع تمثال حجري يشبه هذا التمثال النحاسي ووُضع أمام القبر وأطلق عليه لقب «وينغ تشونغ» أيضاً، وبوابة لينغ شينغ، ثم يمتد الطريق إلى الأمام صوب الممر الطويل لقبر الإمبراطور مينغ تشينغ الذي تطوقه الجدران المحيطة، ويضم مجموعة كاملة من الأبنية فوق سطح الأرض، مثل: «بوابة لوين»، و«قاعة لوين»، و«مقصورة مينغ»، و«باو تشينغ وباو دينغ». والمقابر الأخرى تفتقر إلى الطريق المقدس الخاص بها، والأبنية فوق الأرض متشابهة بصورة أساسية، ولكن تختلف أحجامها.

ثالثاً: قصر مقبرة الإمبراطور تحت الأرض: يسمى هذا القصر «قصر شوان»، و«قصر يوان» أيضاً، وهو مكان مخصص للتوابيت الداخلية، وهو مدينة قصر الإمبراطور في العالم الآخر أيضاً، ومن ثم بناء هذا القصر يكون في غاية الروعة والفخامة والعظمة. وذكرت الموسوعة التاريخية «سجلات تاريخية» أن قصر مقبرة الإمبراطور الأول لأسرة تشين تم تشييده بالحجر المعرق، ومطلي باللون الأحمر، ويحتوي على قاعة القصر وتصميمها يتسع لمائة من الموظفين، ويغص بالمجوهرات والنفائس والأدوات اليشمية، ويُضاء بالشموع المصنوعة من زيت السمك، ومدجج بالأقواس والسهام التي تمنع سرقته، وتغمره المياه الفضية مثل الأنهار والبحار الكبيرة، ومرسوم على سقفه الأجرام السماوية، ومساحته كبيرة مثل الجبال والأنهار، وعندما ووري الثرى جثمان هذا الإمبراطور، دُفن معه الذين شاركوا في بناء وتشييد القصر أحياء، ناهيك عن دفن جميع وصائف القصر والنساء غير الحوامل أحياء أيضاً. وذكر كتاب «تعليق على كتاب الممرات المائية» أن زعيم الانتفاضة الفلاحية شيانغ يوه عندما اقتحم حدود البلاد، سخر ثلاثمائة رجل في البحث والتنقيب عن هذه المقبرة وحفرها، ونقل المجوهرات من داخلها لمدة شهر، ولم تنفد هذه المجوهرات، ثم أضرم النار في الأبنية الخاصة بالمقبرة فوق سطح الأرض، وفيما بعد، دلف إلى غرفة التوابيت طفل يرعى الغنم بحثاً عن غنمة هربت إلى داخل المقبرة، وكان يحمل في يده مشعلاً أحدث كارثة وأشعل النار التي

هدمت قصر المقبرة تماماً. ولكن المسوح العلمية في السنوات الأخيرة، أثبتت أن قصر مقبرة الإمبراطور الأول في أسرة تشين مازال في حالة جيدة تماماً، وأن ما ذكره الأقدمون مجرد اختلاق، وخطأ تتداوله الأجيال. وتأسيساً على استنتاجات الخبراء من سجلات وثائقية، فإن قصور الأباطرة في العصر القديم تختزن نفائس ومجوهرات من الصعب أن يحصيها المرء، ومن بينها قبر الإمبراطور الأول في أسرة تشين، وقبر جاو للإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ، وقبر تشيان للإمبراطور وو تسي تيان، يعد الأكثر جذباً للأنظار من كل حدب وصوب، ومثال ذلك، أن المخطوطة الحقيقية المعنونة بـ «مقدمة لديوان أشعار مقصورة لان» للخطاط الأشهر وانغ شي جي من المرجح أنها ضمن مقتنيات قبر جاو. ويشهد الوقت الحاضر، بعض مقابر وقصور الأباطرة التي تم اكتشافها والعثور عليها، وأصبحت متاحة للزيارة أمام الجمهور منها: في محافظة جيانغسنيغ بمدينة نانكين يوجد قبران لأسرة تانغ الجنوبية؛ للإمبراطور لي بيان، ونظيره لي جينغ، تم اكتشافهما في الفترة من 1950– 1951، وقبر يونغ في مدينة تشينغدو بمقاطعة سيتشوان، وهو قبر الإمبراطور وانغ جيان في مملكة تشو، وتم اكتشافه في عام 1942، وقبر دينغ من المقابر الثلاث عشرة الملكية في أسرة مينغ في مدينة بكين، ودُفن فيها الإمبراطور جو يه جون في هذه الأسرة، وتم اكتشافه في عام 1956، ومقابر يوه وهي المقابر الشرقية لأسرة تشينغ وتشمل مقابر الأباطرة في عهد حكم تشيان لونغ في هذه الأسرة، وقبر دينغ الشرقي، وهو قبر الإمبراطورة الأم تسي شي، وتم العثور عليه في عام 1928 من جانب أحد أمراء الحرب الشماليين ويدعى صون ديان ينغ الذي حفره وسرقه، ومقابر تشونغ، وهي المقابر الغربية في أسرة تشينغ، وتشمل مقابر الأباطرة في عهد حكم قوانغ شيوه في الأسرة ذاتها، وتم اكتشافها في عام 1931.

هناك قول مأثور مفاده: «الأكفاء في الجنوب، والجنرالات في الشمال، والتراب الأصفر يضم رفات الأباطرة في مقاطعة شنشي». وتنتشر مقابر أباطرة أسرتي هان الغربية وتانغ بصورة مركزة في منطقة قوانغ تشيونغ في هذه المقاطعة، ولم يتبق من هذه المقابر سوى ركام أكوام التراب، بيد أنها لا تزال تبدي للعيان فخامتها وعظمتها. أما مقابر الأباطرة في الأسر الثلاث: سونغ، مينغ، وتشينغ فمازالت تحفظ في حالة جيدة إلى الآن، ولاسيما مقابر أسرتي مينغ وتشينغ حالتها الأكثر اكتمالاً. وتتركز مقابر أباطرة أسرة سونغ الشمالية في مدينة قونغيه

بمقاطعة خنان، ويطلق عليها -بالإضافة إلى قبر والد الإمبراطور الأول في هذه الأسرة ويدعى تشاو كوان ين ويُعرف باسم «قبر نغآن»- التسمية العامة «الأباطرة السبعة والمقابر الثمان». أما الإمبراطوران هوي، وتشين فقد لقيا مصرعيهما في صحراء شمال البلاد، ولا تتضمن هذه المقابر قبرهما. وفي الوقت نفسه، هناك أكثر من ثلاثمائة من المقابر عبارة عن مقابر أقارب الإمبراطور الملك وكبار الوزراء، وقد اندثرت أبنية المقابر فوق الأرض، ولم يتبق منها سوى التماثيل الحجرية للإنسان والحيوان. وتوجد مقابر أباطرة أسرة سونغ خارج مدينة شاو شينغ في مقاطعة تشجيانغ، وعددها ست مقابر، ويطلق عليها «المقابر الست في أسرة سونغ الجنوبية»، ولا يكاد يبقى أثر للأبنية الأخرى التي كانت صغيرة الحجم أصلاً جراء تخريبها وتدميرها من قبل أسرة يوان (المانشو).

بالإضافة إلى المقابر الثلاث عشرة الملكية في أسرة مينغ في مدينة بكين، تنتشر مقابر أباطرة أسرة مينغ في خمسة أماكن هي:

(1) مقابر أجداد أسرة مينغ في محافظة شيوي يي بمقاطعة جيا نغصو، بعد أن تولى جو يوان جينغ العرش سعى وراء تبجيل وتقدير أجداده الأولين في أربعة أجيال ومنحهم لقب الإمبراطور، وشيد مقابر في هذه المقاطعة لجده الأكبر، وأبي جده، وجد أبيه، وتزخر بخصائص الفن المعماري في أسرة يوان، ويتبقى منها في الوقت الحاضر التماثيل الحجرية أمام هذه المقابر.

(2) قبر إمبراطور أسرة مينغ في محافظة فينغ يانغ في مقاطعة آنهوي، وهو القبر الذي شيده الإمبراطور جو يوان جينغ لوالديه، وكان يحوطه ثلاثة أسوار في الماضي، والآن لم يتبق سوى الفبر، والتماثيل الحجرية وشاهدة القبر التي كتبها هذا الإمبراطور بنفسه.

(3) قبر شياو في مدينة نانكين، وهو قبر المؤسس الأول في أسرة مينغ الإمبراطور جو يوان جينغ، وكان التصميم المعماري للقبر ضخم جداً، يتبقى منه الآن أجزاء قليلة، ولكن مازال يحتفظ بفخامته وأبهته.

(4) قبر الإمبراطور تاي وي في شمال جبل يوتشوان في مدينة بكين، وهو قبر الإمبراطور جو تشي يوي في عهد حكم دازونغ في أسرة مينغ، وهو أيضاً قبر خارج نطاق المقابر الثلاث عشرة في أسرة مينغ. وفي عام 1449م، هاجمت القبيلة المنغولية «والا»

مدينة بكين، فأرسل الإمبراطور جوتشي تشين حملة تأديبية لصد هجمات هذه القبيلة، ولكنه وقع في الأَسْر في منطقة تومو باو، وتولى شقيقه الأصغر جوتشي يوي مقاليد الحكم بمؤازرة يوشيان وآخرين، وأصبح الإمبراطور جينغ تاي دي، وفي العام التالي، أطلق سراح جوتشي تشين، الذي انتهز فرصة مرض الإمبراطور جينغ تاي دي وحاول استعادة عرش الإمبراطورية، وعندما مات هذا الإمبراطور دفنه في شتان حسب طقوس الأمراء والحكام، وليس حسب مراسم تشييع جنازة الأباطرة، ومن ثم فقد هذا الإمبراطور لقبه ولم يظفر به إلا بعد موت جوتشي تشين، ولذا تم إعادة بناء قبره من جديد حسب المراسم الخاصة بالأباطرة.

(5) قبر شيان في مدينة تشونغ شيانغ في مقاطعة خوبي، وهو قبر جوي يوي يوان في أسرة مينغ، الذي لم يكن إمبراطوراً في حياته، ثم أصبح إمبراطوراً بعد وفاته. وكان الإمبراطور جوخو تشاو ليس له وريث، وأصدر أوامره وكتب وصيته أن يتولى عرش البلاد بعده جوخو تسونغ وهو ابن عمه جو يوي يوان، وأصبح هذا الابن الإمبراطور جياتشنغ الذي بعد أن تولى العرش، نشب جدل عنيف داخل البلاط الإمبراطوري حول قضية الاعتراف بوالده الراحل، وكان هناك فريقان؛ الأول بزعامة المثقف الجامعي يانغ تينغ خه ونجله يانغ جين ويؤيدان أن والد الإمبراطور هو جوتي تانغ حسب الأعراف والمراسم الإمبراطورية، بينما الفريق الآخر بزعامة تشانغ تسونغ يرى أن جوتشي يوان هو الد الإمبراطور حسب علاقة رابطة الدم، ويُعرف ذلك باسم «الجدل العنيف حول قضية المراسم في أسرة مينغ»، وكان نتيجة هذا الجدل أن الإمبراطور جياتشنغ اعترف بوالده جو يوي يوان وخلع عليه لقب الإمبراطور وشيد له قبراً في هذه المدينة.

أما مقابر أسرة تشينغ فتنتشر في داخل دائرة حكم هذه الأسرة في المقابر الشرقية والمقابر الغربية، كما أنها تنتشر في أربعة أماكن خارج الحدود هي:

(1) مقابر العاصمة الشرقية في ضواحي مدينة لياو يانغ في مقاطعة لياو نينغ، وكانت أصلاً مقابر لجد أبو نيو أرخهيتشي المؤسس الأول لهذه الأسرة، وأبيه، وعمه الأكبر، وشقيقه الأصغر، وابن أخيه، وأثناء حكم شون جي في هذه الأسرة، تم نقل قبر جد

أبو نيوأرخهيتشي وأبيه إلى قبر يونغ في محافظة شينبينغ.

(2) قبر يونغ في محافظة شينبينغ لقومية مان ذات الحكم الذاتي في مقاطعة لياو نينغ. كما يعتبر قبر الأجداد الأولين للمؤسس نيوأرخهيتشي، وأبو جده، وجد أبيه، وأبيه.

(3) قبر فو في شمال شرق مدينة شينيانغ، وهو قبر نيوأرخهيتشي.

(4) قبر جاو في المنطقة الشمالية بمدينة شينيانغ، وهو قبر الإمبراطور هوانغ تاي جي، ويعد من أكبر مقابر أسرة تشينغ خارج حدودها.

المبحث الرابع
سور الصين العظيم والممرات الجبلية

يحظى سور الصين العظيم بشهرة في كافة أنحاء العالم، ويشبه التنين الضخم يحلق فوق قمم الجبال الشاهقة الشامخة في الشمال. وفي الوقت الحاضر، لا يجسد سور الصين العظيم حكمة الأمة الصينية وروح الإباء لديها فقط، بل يعد رمزاً للثقافة الصينية، ويعد من «المعجزات السبع الكبرى» في العالم القديم. وفي السنوات القليلة الماضية، نشطت الأبحاث والدراسات الخاصة بسور الصين العظيم، وحاولت سبر غور تاريخه وأحواله الراهنة، وأبرزت للعيان أهميته الثقافية بصورة كاملة، وشكلت «علم سور الصين العظيم» تدريجياً. وفي هذا المقام، نتناول دراسة سور الصين العظيم من خلال موضوعين أساسيين هما:

أولاً: الأحوال الأساسية لسور الصين العظيم: هناك خطأ في أفهام الناس العاديين مفاده أنهم يعتقدون أن الإمبراطور الأول في أسرة تشين (259 ق.م – 221 ق.م) هو الذي بدأ تشييد سور الصين العظيم. وفي الواقع، أن بناء سور الصين العظيم بدأ في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة في القرن السابع قبل الميلاد. وتأسيساً على سجلات وثائقية، فإن دولة تشو هي أول دولة بدأت بناء هذا السور في الجنوب. وفي عام 656 ق.م، شيدت دولة تشو سوراً، ولم يطلق عليه السور العظيم، بل كان يسمى «السور المربع»، وذلك في منطقة الحدود بين دولتي تشو وتشي (في منطقة مقاطعتي خنان وشاندونغ تقريباً اليوم) من أجل صد هجمات دولة تشي. وبعد انقضاء أكثر من أربعمائة سنة، شيدت كل دولة تباعاً على حدودها سوراً مثل: تشي، وي، جينغ، هان، تشين، يان، تشاو من أجل حماية أمنها وسلامتها، وصد غارات الدول الأخرى. وكانت هذه الأسوار نظاماً قائماً بذاته، ولا يربطها ثمة رابط. ومن بين هذه الدول، كانت تشين، ويان، وتشاو بمثابة الدول الثلاث في الشمال التي تجابه خطر قبيلة شينونغنو (أهل الهون). ولذا شيدت أسواراً على حدودها الشمالية من أجل الدفاع الذاتي والتصدي لهجوم هذه القبيلة الأرستقراطية. وفي الوقت الحاضر، يمكن مشاهدة «بقايا أطلال سور دولة تشاو» على بعد مائة وثلاثين كيلو متراً تقريباً من مدينة باوتاو في منطقة منغوليا الداخلية ذات الحكم الذاتي.

وفي عام 221 ق.م، دمر الإمبراطور الأول في أسرة تشين الدول الست (هان، وي، تشو، يان، تشاو، تشي)، ووحد أرجاء البلاد، ومن أجل التصدي لهجوم قبيلة الهون الأرستقراطية، وتوطيد أركان نظام تمركز السلطة المؤسس حديثاً، بعث في التو الجنرال مينغ تيان ونجله الأكبر فوشي اللذين: «قادا قوات قوامها ثلاثمائة جندي اتجهت صوب الشمال وطردت قبيلة رونغ وي، وضمت أراضي خنان، وشيدت أسواراً، واستغلت وعورة الأرض والتضاريس واستخدمتها كمواقع استراتيجية ومواقع حصينة، وضمت أراضي لينتاو إلى لياودونغ بمساحة تقدر بأكثر من خمسة آلاف كيلو متر». واستغرق هذا المشروع عشر سنوات، حتى تم ربط أسوار الدول الثلاث: تشين وتشاو ويان في وحدة واحدة، وشكلت نظاماً عسكرياً دفاعياً قوياً. ومن هنا كانت بداية ظهور «سور الصين العظيم» في شمال البلاد. لذا يجب أن نتذكر قولاً صائباً مفاده أن الإمبراطور الأول في أسرة تشين هو الذي ربط أسوار هذه الدول الثلاث ووضع إرهاص سور الصين العظيم.

وبعد الإمبراطور الأول في أسرة تشين، بدأت عشر أسر حاكمة تباعاً بناء أسوار مثل: هان، وي الشمالية، وي الشرقية، تشي الشمالية، تشو الشمالية، سوى، لياو، جين، سونغ، مينغ. ومن بين هذه الدول، كانت أسرتا هان ومينغ أسوارهما الأكثر ضخامة. وكان السور العظيم ينقسم إلى سور خارجي، وسور داخلي، أسرة هان الغربية شيدت على طول السور العديد من المقاصير، والحواجز والموانع، وأبراج الإنذار، والمنارات المضاءة، وغيرها من المنشآت العسكرية، وشكلت نظاماً دفاعياً كاملاً عبارة عن «منارة مضاءة على بعد كل ألفين وخمسمائة متر، وتلال ترابية على بعد كل خمسة آلاف متر، وإقامة حصون على بعد كل خمسة عشر كيلو متراً، وإقامة سور على بعد خمسين كيلو متراً». واليوم يمكن مشاهدة أطلال سور أسرة هان داخل أراضي مقاطعة قانصو، ولاسيما جزء السور الذي مازال في حالة جيدة على مقربة من ممر يوي مين في مدينة دونغ هوانغ. وكانت مهام سور الصين العظيم في أسرة هان، بالإضافة إلى صد هجمات قبيلة الهون، حماية وتأمين مواصلات «طريق الحرير البري»، ومعسكرات عمل الجنود والفلاحين في المناطق الغربية وعلى طول السور العظيم. وبدأت أسرة مينغ بناء السور العظيم في عهد الجد الأكبر لهذه الأسرة جو يوان جينغ، واستمرت الاضطلاع بذلك لمدة أكثر من مائتين وسبعين عاماً. وما إن بدأت أسرة

مينغ بناء السور، أرسل الإمبراطور جو يوان جينغ الجنرال العسكري العظيم شيوهوا لبناء سور عظيم في ممر جو يونغ وفي غيره من الممرات الجبلية الأخرى. وعندما نقل الإمبراطور جولي العاصمة إلى بكين في أسرة مينغ، كان أكثر اهتماماً بالوظائف الدفاعية للسور العظيم، لأن هذه العاصمة الجديدة تتاخم الحدود الشمالية، وخصص كميات ضخمة من الثروات المادية والمالية والبشرية لتشييد السور العظيم الذي امتد إلى مسافة أكثر من ستة آلاف متر. وبعض القادة العسكريين المشهورين مثل تشيجي قوانغ، وتان لون، وغيرهما من المسؤولين اضطلعوا بالمهام الدفاعية للسور العظيم، بتوجيه وإرشاد الجنود في عملية بناء السور العظيم. واليوم السور العظيم الذي يمتد من ممر شانهاي إلى ممر جويونغ هو من إشراف وتوجيه الجنرال العسكري تشيجي قوان. ويمثل ذلك السور العظيم في ممر هوانغيان في مدينة تيانجين، والسور العظيم في جبل جين شان لينغ في مدينة لوانبينغ في مقاطعة خبي، والسور العظيم في قو بيكو في منطقة ميوان في بكين، والسور العظيم في موتيان يوي في هواي رونغ في بكين، والسور العظيم في بادا لينغ في منطقة تينغ تشينغ في بكين، وكانت عملية إنشاء السور في هذه المناطق شاقة وضخمة، والتصميم المعماري في غاية الجمال والروعة، ويستحوذ على إعجاب الآخرين.

والهدف من بناء السور العظيم يكمن في الدفاع العسكري بصورة كاملة. ولكن التاريخ أثبت أن قوة مقاومة العدو لا تكمن في بناء سور طويل، بل تكمن في سياسة الدولة وقدرة الشعب. ولذلك، عندما أصاب الفساد السياسة، وأصاب اليأس والإحباط نفوس الشعب، لم يستطع السور العظيم حماية مصير أسرة حاكمة. وكتب جيانغ زونغ المعاصر لأسرة سونغ قصيدة شعر توضح هذه الحقيقة، وجاء فيها: «شيدت أسرة تشين سوراً عظيماً صلداً مثل السجون الحديدية، ولا تجرؤ قبيلة فإن رونغ على تخطي الحدود إلى لين تاو. وعلى الرغم من أن السور العظيم يطاول عنان الأفق، بيد أنه لا يضاهي ذكاء وحكمة الإمبراطور ياو». وانتفاضة الزعيم لي تشي تشينغ، وعبور قوات أسرة تشينغ الممر قدما الأدلة والبراهين على أن المدن الحصينة والدروع الحديدية لا تضاهي الحنكة السياسية. وبعد تأسيس أسرة تشينغ، وعلى الرغم من نشوب خلاف مرير حول مشكلة بناء السور العظيم أم لا، قرر حكام هذه الأسرة عدم بناء سور عظيم في نهاية المطاف، وهناك مقولة تنم عن آراء صائبة للإمبراطور

كانغشي في هذه الأسرة جاء فيها: «الإمبراطور يعتمد على كفاءته ومقدرته في إدارة شؤون البلاد، ولا يرغب التعويل على خوض غمار المخاطر والصعاب. ومنذ أن شيدت أسرة تشين السور العظيم حذت الأسر الحاكمة هان وتانغ وسونغ حذوها ومضت قدماً في بناء السور العظيم، ولكن هل نعمت حدودها بالأمان والاستقرار؟ في أواخر أسرة مينغ، أرسل جدي الأكبر حشداً هائلاً من القوات التي تقدمت وزحفت إلى الأمام، وسارت على الطرق المتهالكة والمتصدعة، ولم يجرؤ أحدُ على إعاقة مسيرتها. ويوضح ذلك، أن الطريق الوحيد لحماية الدولة هو تهذيب أخلاق الشعب وشعوره بالهدوء والطمأنينة، والمشاعر الشعبية تقدر البلاد تقديراً عالياً، وبذلك تكون الدولة قوية، وتقوي حدود البلاد من تلقاء ذاتها. وهذا ما يطلق عليه التصميم الجماعي سور لا يثغر». ومن ثم لم ينفذ الإمبراطور كانغشي ونظيره تشيان لونغ سياسة إرسال الحملات العسكرية لإخماد الأقليات القومية، بل انتهج سياسة التئام الشمل واجتذاب قلوب الجماهير بكل وسيلة ممكنة، وكان نتيجة هذه السياسة بناء «المعابد الثمانية في خارج حدود البلاد».

ثانياً: نتناول بعض المعارف المستقاة من السور العظيم:

(1) سور الصين العظيم هو مشروع نظام عسكري دفاعي، والاستراتيجية التي يجسدها هي استراتيجية دفاعية وليست استراتيجية هجومية، وذلك بسبب أحوال العزلة والانغلاق في المجتمع الإقطاعي الصيني. والمجتمع الإقطاعي قائم على أساس اقتصاد صغار المزارعين يسعى فقط وراء استمرار الحكم الإقطاعي (دوام مكانة الإمبراطور لأطول فترة، وحكم البلاد وأن يسودها الهدوء والاستقرار طويلاً)، وتلبية احتياجات المجتمع من التموين الذاتي والاكتفاء الذاتي، ومن ثم، الأسر الحاكمة عبر الأجيال المتعاقبة يمكن أن تشعر بالاغترار بالنفس، واعتقدت أنها «الأفضل والأحسن في العالم»، وقلما ترسل قوات تهاجم الدول الأخرى (يستثنى من ذلك الإمبراطور يان في أسرة سوي، والإمبراطور تاي زونغ ونظيره يوان تاي في أسرة تانغ) واستراتيجية الدولة الخارجية قائمة أساساً على الاستراتيجية الدفاعية المغلقة. ويمكن إجمال هذه النظرية الدفاعية في «مقاومة العدو خارج بوابة الدولة»، وجسد السور العظيم هذه الاستراتيجية.

(2) يعتبر السور العظيم نتيجة تطبيق الديكتاتورية الإقطاعية الموحدة، ولا يمكن تنفيذ عملية إنشاء السور العظيم الضخمة الهائلة العظيمة من خلال الاعتماد فقط على الوعي المنتشر من الاعتماد على اقتصاد صغار المزارعين، ولكن هذه العملية يجب أن تعتمد على الإرادة الصلبة، وهذه الإرادة موحدة أيضاً وديكتاتورية أيضاً، ويصف ذلك إصدار الأوامر التعسفية، كما أنها إرادة تتوافق مع المصالح الكلية في ذلك الحين. كما أن هذه الإرادة الفولاذية بدأ الإمبراطور الإقطاعي يجسدها منذ أن بدأ الإمبراطور الأول في أسرة تشين تدمير الدول الست، وتتسم هذه الإرادة بالصفة المميزة البارزة من الانصياع المطلق للأباطرة. ويتطلب ذلك أن الجماهير الشعبية تقدم أكبر التضحيات في أي وقت كما يشاء ويهوى الإمبراطور، والافتقار إلى ذلك يجعل بناء السور العظيم مستحيلاً.

(3) يبلور السور العظيم حكمة الشعب الصيني الكادح العامل، ويعتبر الكيان الحقيقي الذي يجمع بين القوة والحكمة، والروح والمادة معاً. وإذا فكر المرء ملياً في السور العظيم فمن الصعب عليه أن يتصور عملية إنشاء هذا السور العظيم الذي يتخطى القمم الجبلية الشاهقة والسامقة، ويغص بالمنعطفات، وارتفاعاته تتماوج هبوطاً وصعوداً. وتفيد إحصائيات أن الأمتار المكعبة من الحفريات والأحجار والطوب التي استخدمتها أسرة مينغ في تشييد السور العظيم في عهدها يمكن أن تبني سوراً ارتفاعه خمسة أمتار، وسمكه متر واحد، ويمكن أن يطوق الكرة الأرضية مرة واحدة. وفي العصر القديم، كانت القوة الإنتاجية متخلفة، ولا توجد آلات البناء والتشييد الحديثة، إذن، كيف تم نقل مثل تلك الأحجار المستطيلة الضخمة والطوب إلى الجرفة والقمم الجبلية السامقة؟ وكيف تم تصميم مثل تلك الأبراج والمحطات الدفاعية؟ وكيف تم تحقيق الانسجام والتوافق في عملية إنشاء وهندسة السور العظيم؟ وفي الوقت الحاضر، لا يزال يعتبر ذلك لغزاً محيراً بالنسبة لنا. ولكن، يمكن أن نؤكد إلى حد ما أن عملية إنشاء السور احتاجت القوة، واحتاجت الحكمة، واحتاجت مهارات فريدة ومميزة، ولذا لا نعرف مدى التضحيات التي قدمها الذين شاركوا في تشييده، ولا نعرف عدد الذين فقدوا حياتهم في سبيل ذلك؟ وإذا قلنا إن التنين من

ابتداع تصورات الأمة الصينية ومعتقداتها، إذن، فالسور العظيم هو الإبداع الذي جسد قوة وحكمة هذه الأمة. إنه الإبداع الذي ينطوي على المادة والروح، ولكنه يزخر بالجمال الكامن.

(4) السور العظيم شاهد عيان على الصراع والاندماج بين ثقافات القوميات في الصين، وقولنا إن وظيفة هذا السور هي مقاومة العدو الأجنبي، فالواقع أن السور في العصر القديم كان يضطلع بالتصدي لهجمات الأقليات القومية التي تقطن شمال الصين، والدفاع عن الثقافة البدوية في شمال الصين في مجابهة الصراع والدمار من جانب الثقافة الزراعية في السهول الوسطى. ولكن يذكر التاريخ أن القومية التي حكمت منطقة السهول الوسطى، هي قومية هان، بالإضافة إلى الأقليات القومية التي تقطن شمال البلاد إلى جنوبها. وكان هناك عشر أسر حاكمة شاركت في بناء السور العظيم بعد أسرة تشين؛ من بينها أربع أسر هي: هان وسوي وسونغ ومينغ تنتمي إلى قومية هان أسهمت في عملية الإنشاء، وسائر الأسر الست الأخرى تنتمي إلى الأقليات القومية وهي: أسرة وي الشمالية، ووي الشرقية، وتشي الشمالية، وتشو الشمالية، وتنتمي إلى قومية شيانغ بيه، وأسرة لياو من قومية تشيدان، وأسرة جين من قومية نيو تشين. ومن ثم، بناء السور العظيم في التاريخ لا يبرز للعيان قط التناقضات بين حكام قومية هان وحكام القوميات الأخرى، بل يميط اللثام عن التناقض بين العديد من حكام الأقليات القومية أنفسهم، كما يجسد التناقض بين الثقافة الزراعية في السهول الوسطى والثقافة البدوية في الشمال، ويعكس التناقض بين الثقافات البدوية المختلفة في الشمال. وكان نتيجة التناقض والصراع هو دفع الاندماج بين ثقافات القوميات. ويعد السور العظيم بالضبط شاهد عيان على هذه الظاهرة التاريخية. ويوضح ذلك أن السور العظيم يمثل التراث الثقافي للأمة الصينية بأسرها.

ويعتبر السور العظيم نظاماً دفاعياً كاملاً، وخاصة النظام الدفاعي في السور العظيم الذي شيدته أسرة مينغ؛ حيث كان يستخدم هيكلاً متعدد الطوابق من أجل ضمان فعالية الدفاع العسكري. والسور في هذه الأسرة يشتمل على ثلاثة خطوط دفاعية هي: الخط الدفاعي الأول من «ممر شانغهاي» إلى «ممر جيايوه». والخط الدفاعي الثاني من «ممر بيان» على حدود

مقاطعة شانشي، ويمر بـ«ممر يانمين» و«ممر بينغ شينغ»، ثم يتجه إلى الشمال الشرقي حتى يصل إلى «ممر جو يونغ»، ويمتد إلى الأمام حتى يلتقي مع خط الدفاع الأول، وقد أُطلق على الممرات الثلاثة التي تقع على هذا الخط وهي: «ممر بيان» و«ممر نينغ وو»، و«ممر يانمين» تسمية «الممرات الثلاثة الخارجية». أما خط الدفاع الثالث فيبدأ من «ممر جويونغ» ويتجه جنوباً ويخترق أراضي مقاطعة خبي، ويمر بـ«ممر تسي جينغ» و«ممر داوما»، وينتهي عند حدود محافظة جينغ شينغ، ويطلق على ذلك «الممرات الثلاثة الداخلية». وبناء الممرات يعول كثيراً على المواقع المنيعة والحصينة، حيث تم إنشاؤها في الغالب في المناطق الضيقة والوعرة بين جبلين، ومن ثم أُطلق عليها اسم «الممرات». وهناك القول القديم، ومفاده: «رجل واحد في ممر جبلي يصمد أمام عشرة آلاف». ويجسد ذلك بصورة كاملة الطبيعة الدفاعية للممرات. والقول السائد في أسرة مينغ أن الخطوط الدفاعية الثلاثة في داخل السور وخارجه تشتمل على تسعة ممرات كبيرة؛ وهي الممرات التي ذكرناها آنفاً، ومن بينها يعد «ممر شانغهاي» و«ممر جيايوه» الأكثر ضخامة وحجماً.

ولكن، إنشاء الممرات في الصين لم يبدأ في أسرة مينغ، ولا في أسرة تشين عندما شيد الإمبراطور الأول في هذه الأسرة السور العظيم. إن الممرات هي نتيجة الحكم الانفصالي بين الأمراء والحكام في فترة الربيع والخريف وفي عصر الممالك المتحاربة، ثم استخدمت الممرات في السور العظيم وانضمت إلى النظام الدفاعي داخل هذا السور. وأقدم ممر كان يستخدم في تفتيش بضائع التصدير، ولذلك أطلق عليه «نقطة جمركية». وبعد ذلك تفاقمت حدة الصراعات العسكرية بين هؤلاء الأمراء والحكام أكثر فأكثر، وتغيرت الوظيفة الأساسية للممرات إلى الدفاع العسكري. وجاء في كتب قديمة أن. «الممر داخل البلاد يفتش السلع التي تصدر إلى الخارج، ويمنع دخول الأعداء». ويبين ذلك بجلاء مكانة الممرات ووظيفتها. كما ذكرت كتب تاريخية أخرى أن من الممرات القديمة «ممر هانقو» على حدود يوشان، وأنشأته أسرة تشين في عصر الممالك المتحاربة، وأطلق عليه هذا الاسم لأن الوادي الجبلي عميق ووعر ويشبه العلبة. وذكرت الأسطورة أن الفيلسوف في العصر القديم لاوتسي عندما غادر البلاد إلى الخارج كان ذلك من خلال هذا الممر. وجاء في الموسوعة التاريخية «سجلات تاريخية» أن دولة تشي أرسلت مينغ تشينغ جون مبعوثاً لدولة تشين، ولكنه أُعتقل كرهينة،

وهرب في منتصف الليل من ممر هاقو. وكانت اللوائح والقواعد في دولة تشين تنص على فتح الممر عندما تصبح الديكة، وخشى هذا المبعوث أن ينكشف أمره عند انبلاج الفجر، لذا طلب من رفاقه أن يحاكوا صياح الديكة، ثم ما لبثت الديكة أن حذت حذوهم في جميع الجهات، حتى استطاع أن يلوذ بالفرار خارج الممر. وهنا يكمن مصدر المثل القائل: «حيلة صياح ديك أو نباح كلب». وفي عام 241 ق.م، قامت الدول الثلاث المتحالفة: تشاو، وي، وهان بمهاجمة دولة تشين، ولكنها منيت بهزيمة نكراء عندما وصلت إلى هذا الممر. وفي أواخر دولة تشين، هاجم الإمبراطور ليوبانغ عاصمة الدولة شيان يانغ، واستغل هذا الممر في صد زحف قوات الأمراء والحكام. وهذا هو «ممر هانقو الذي شيدته أسرة تشين» وأطلاله القديمة مازالت موجودة في شمال شرق مدينة لينباو في مقاطعة خنان. بالإضافة إلى «ممر هانغو الذي شيدته أسرة هان» في شرق محافظة شينآن في مقاطعة خنان اليوم. وفي عام 114 ق.م، ظفر يانغبو جنرال مركب الإمبراطور هان وو دي بلقب الأمراء والنبلاء، ولكن كان بيته خارج هذا الممر، وشعر بالخزي والعار من أن يكون مواطناً خارج الممر، وتبرع بالأموال لنقل بوابة الممر الشرقية إلى مسافة أكثر من مائة وخمسين كيلو متراً، حتى أصبح بيته داخل نطاق هذا الممر. كما أنشأت دولة تشين «ممر خولا» في مدينة رونغيانغ في مقاطعة خنان، وتحكي رواية أن الملك تشومو كان يربي نمراً في هذا المكان، لذا أُطلق عليه تسمية «ممر خولاو» (سجن النمر). ووصفت رواية (الممالك الثلاث) اندلاع الحرب بين ليو، وقوان، وتشانغ من جهة، وليبو من جهة أخرى، وكان هذا الممر هو ساحة هذه الحرب. ويقع «ممر جاو» في محافظة هانشان بمقاطعة آنهوي، وتم بناؤه في فترة الربيع والخريف، وملك دولة تشي قتل وو تسي شيوه، وحاول أن يهرب إلى دولة وو، ولكنه عجز عن اجتياز هذا الممر، وملأ القلق أعماق نفسه طوال الليل، وأصاب الشيب شعره في اليوم التالي: ويقع «ممر تونغ» في محافظة تونغ قوان في مقاطعة شانشي، وتم إنشاؤه في أواخر أسرة هان الشرقية، ويضم المناطق الاستراتيجية في ثلاث مقاطعات هي: شنشي، وشانشي، وخنان، وهي تشمل المناطق العسكرية والاستراتيجية على مر الدهر، وما زالت منطقة الممر باقية في حالة جيدة تماماً إلى الآن. والشاعر الكبير دوفو في قصيدته «موظف ممر تونغ» وصف أحوال المواقع الحصينة والمنيعة في هذا الممر، وهناك العديد من القصائد التي وصفت ممر تونغ عبر العصور

التاريخية. وبالإضافة إلى ذلك، هناك «ممر يومين» في مدينة دونغ هوانغ في مقاطعة قانصو، و«ممر جيانمين» في محافظة جيانقه في مقاطعة سيتشوان، و«ممر نيانغتشي» في محافظة بينغ دينغ في مقاطعة شانشي، و«ممر ووشينغ» في مدينة شينيانغ في مقاطعة خنان، و«ممر يويه» في مدينة بينغ شيانغ في منطقة قوانغشي لقومية تشوانغ ذات الحكم الذاتي. وتحظى هذه الممرات بالشهرة في التاريخ الصيني.

والمسح الشامل لإنشاء الممرات عبر عصور التاريخ يظهر أن إنشاء هذه الممرات عول كثيراً على طبوغرافيا الأرض من المناطق الوعرة والحصينة لإحراز النصر، ومن السهل حراستها وحمايتها، ومن الصعب الهجوم عليها. وعلى العموم، فإن معظم الممرات تم إنشاؤها بين ممر جبلين يقعان على حدود مقاطعتين، أو دولتين من أجل السيطرة على وسائل المواصلات وأهميتها الاستراتيجية، ومثال ذلك، طرق المواصلات الرئيسية بين كل من مقاطعتي: سيتشوان وشنشي، وخنان وشنشي، وخبي وشانشي، وخوبي وخنان، وجيانغشي وقوانغدونغ، شيدت الممرات من أجل الحراسة والحماية، وإذا قلنا إن الممرات في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة كانت تستخدم بصورة أساسية في التصدي لهجوم الدول المتاخمة، إذن، فإن الممرات بعد أسرتي تشين وهان، استخدمت في قمع الانتفاضات الفلاحية والقلاقل العسكرية. ومثال ذلك، «اضطرابات آنشي» قامت قوات أنلوشان بالهجوم حتى وصلت إلى ممر تونغ، وأرسل الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ القائد العسكري قهشوهان لحراسة الممر. وتمسك كل طرف بموقفه لعدة شهور، وصعب على جيش المتمردين أن يتحرك خطوة واحدة. وبعد ذلك، دفع الإمبراطور تحت تأثير رئيس وزرائه يانغ قوي تشونغ، وحث قائدة العسكري على أن يختار الممر ويشتبك في معركة مع المتمردين، وما إن نشبت المعركة حتى مُني بهزيمة ساحقة، ووقع في أسر القوات المتمردة، وفقد السيطرة على الممر، وهرب الإمبراطور إلى مقاطعة سيتشوان، واحتل جيش المتمردين العاصمة الإمبراطورية تشانغآن. ويرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بالأمن والسلامة. وفي أواخر أسرة مينغ، عبرت قوات انتفاضة القائد لي تسي تشينغ النهر الأصفر في الشرق، وتمركزت قوات هذه الأسرة في ممر نينغوو في شانشي لحراسة الممر، ونشبت بينهما معركة حامية الوطيس، واصلت بعدها قوات الانتفاضة الهجوم على الممر، وواصلت الزحف إلى داتونغ،

وشانهوا، وتشانغتشو، حتى اقتحمت بكين واحتلتها، وأفل نجم أسرة مينغ إلى الأبد. ويفسّر ذلك اضمحلال الأسر الحاكمة وانهيارها. ومن ثم، معرفة أحوال إنشاء الممرات عبر العصور التاريخية المختلفة يسهم في إدراك الاستراتيجية العسكرية في العصر القديم، وبعض جوانب وملامح الصراع بين القوميات وبين الطبقات أيضاً.

المبحث الخامس

الجسور في العصر القديم

إذا اعتبرنا سور الصين العظيم والممرات الجبلية بمثابة بنايات للفصل والحجز، إذن، فالجسور من إنشاءات الربط والاتصال. واستخدمت الممرات الجبلية والسور العظيم في مهام عسكرية بصورة أساسية بهدف حماية سلامة الدولة والشعب، أما استخدامات الجسور فتتركز في الاقتصاد والثقافة بصورة رئيسية من أجل تطور المجتمع وتقدمه. وبناء السور العظيم والممرات الجبلية كان بين الجبال، أما الجسور فيتم تشييدها فوق الأنهار والبحار. وفيما يبدو أن بين سور الصين العظيم والممرات الجبلية والجسور توجد ثمة علاقة ثقافية قومية كامنة.

وتتمتع الصين بالأراضي الفسيحة المترامية الأطراف، والجبال الجميلة الرائعة، وتتخللها الأنهار والبحار أفقياً وعمودياً، ومن ثم أصبح تشييد الجسور مسألة مهمة بالنسبة لتطوير الأمة الصينية، وفيما بعد أصبحت أيضاً من المنشآت التي تزين المشاهد والمناظر، وتجمّل البيئة مع تطور الفن المعماري في إنشاء الحدائق. وقرر ذلك أن بناء الجسور يجب أن يتحلى بالمنفعة العملية، ويبث البهجة في نفوس الناظرين. واضطلع الشعب الصيني العامل بتشييد العديد من الجسور التي في غاية الجمال والدقة في مرحلة التطور التاريخي الطويل، والتي بلورت الخبرات والتجارب الثرية، وشكلت أسلوبها الخاص المميز في الفن المعماري لإقامة الجسور، وأثرت تأثيراً مهماً في ثقافة البشرية.

ويعتقد خبراء أن الجسور في الصين ظهرت في المجتمع البدائي. وفيما يبدو أن الأقدمين استلهموا الاستنارة من الروافد الطولانية فوق سطح الماء، ووضعوا عوارض خشبية على النهر أصبحت نوعاً من الجسر الخشبي المميز، ويعرف ذلك باسم «جسر عوارض» الذي يمثل البداية الأولية لبناء الجسور. ولذلك، كلمة «الجسر» في اللغة الصينية تتألف من رمزين، كل رمز منهما يحتوي على المقطع الصيني الذي يعني «مو» (الخشب). ويعد «الجسر العائم» الذي يستخدم الزوارق مؤقتاً أقدم جسر رأيناه مسجلاً في الوثائق. وذكر «كتاب الأغاني»: «استخدام جسر من الزوارق فوق نهر وي في حفل الزواج». ويوضح ذلك أن ون وانغ

دوق أسرة تشو شيد جسراً عائماً فوق نهر وي عن طريق استخدام الزوارق. وبعد ذلك، تم استخدام هذا الجسر في الحرب، وشاع استخدامه على نطاق واسع في عصر الممالك المتحاربة. كما يعتقد بعض البحاث الأجانب، أن أقدم «جسر متحرك» (جسر معلق) ظهر في الصين. وأثبتت الوثائق المعنية أن أقدم «جسر متحرك» عرفته الصين شيده لي بينغ ونجله، كما أنهما شيدا سد «دوجينغ يان». وكان ظهور «الجسر المقنطر» الأكثر تأخراً من بين كافة أشكال الجسور في الصين، فقد تشكلت ملامحه في أسرة هان الشرقية تقريباً. ولذلك، الأشكال الأربعة الأساسية للجسور في الصين هي: جسر العوارض، جسر عائم، جسر متحرك، جسر مقنطر، اكتملت ملامحها وخرجت إلى حيز الوجود في أسرة هان الشرقية على أقصى حد. وبعد ذلك، أصبح الجسر المقنطر بمثابة الشكل الأساسي والرئيسي في إنشاء وتصميم الجسور لأنه يتحلى بالقدرة الكبيرة على التحمل والصمود، والقيمة العملية العالية، كما يستطيع أن يبرز للعيان بصورة كاملة تقدم تقنية تشييد الجسور، وقوة السحر الفنية الرائعة التي تتمتع بها.

وتتحلى الجسور في العصر القديم في الصين بالخصائص الثلاث الآتية:

(1) **الطابع الإقليمي**: إن جميع أشكال الجسور المختلفة يتباين تركيبها ومواد البناء المستخدمة في تشييدها جراء اختلاف المناطق التي أقيمت فيها. ومثال ذلك، منذ القدم، تنتشر الكثير من العواصم والمراكز الخاصة بالمقاطعات والمدن على ضفتي النهر الأصفر، ونقل السلع والمواد يعتمد كثيراً على العربات الكبيرة التي تجرها البغال والأحصنة وعربات اليد المسطحة، ولذلك كانت الجسور المقنطرة الحجرية، وجسور العوارض الحجرية المستوية والعريضة الأكثر ملاءمة فوق هذا النهر. وجنوب حوض تشانغجيانغ عبارة عن منطقة أنهار وبحيرات، ووسيلة النقل هي الزوارق بصفة أساسية، ولذلك تم تشييد الجسور المقنطرة الحجرية الفائقة، والمنطقة الجنوبية الغربية تكثر فيها المضايق النهرية، وتزخر بالتيارات المائية المتدفقة الجارفة، ومن الصعب بناء دعامات وركائز الجسور، ولذلك تستخدم هذه المنطقة الجسور المتحركة كثيراً. وفي الوقت نفسه، في المنطقة الجبلية في الشمال والجنوب، تكون فيها دعامات الجسور سميكة ووطيدة وثابتة، ويطلق عليها «الدعامات السميكة» من أجل مقاومة تدفق السيول الجبلية واندفاعها التي تدمر الجسور، ومنطقة البحيرات والأنهار في جنوب حوض تشانغجيانغ تكون دعامات الجسور فيها رفيعة وخفيفة، ولذا يطلق عليها

«الدعامات الرفيعة»، واستغلال أسفل الجسور في الملاحة المائية.

(2) المنفعة العملية: كان الأقدمون يشيدون الجسور، ويهتمون اهتماماً كبيراً باستخداماتها العملية، ويحرصون على إبراز الفائدة القصوى للجسور. ومثال ذلك، تم بناء الكثير من المقاصير والممرات الطولية فوق معظم الجسور القديمة من أجل حماية سطح الجسور، ويمكن أن يحتمي بها المشاة عندما تهطل الأمطار وتهب الريح، ويتخذونها كاستراحة أيضاً.

(3) الطابع الاجتماعي: كان تشييد الجسور من أجل المنفعة والمتعة الاجتماعية المشتركة. وفي العصر القديم، كان العديد من البنايات تنتمي في الغالب إلى الأباطرة والأشراف والأمراء والأرستقراطيين يستخدمونها بصورة خاصة، ولا يجوز أن تطأها أقدام عامة الناس. وكانت توجد الجسور التي تختلف عن ذلك، حيث جميع الجسور التي تم بناؤها فوق الأنهار والبحار والمضايق النهرية تطأها أقدام الأباطرة وعامة الشعب سواء بسواء، ولكن يستثنى من ذلك تلك الجسور التي أقيمت في القصور الإمبراطورية، والمقابر الإمبراطورية، وفي حدائق أقارب الإمبراطور. وهناك بعض الأمراء والأشراف والأرستقراطيين تظاهروا بالأخلاق الحميدة والصفات الصالحة، وخصصوا المال لإنشاء جسور من أجل عامة الناس، ومثال ذلك، رئيس الوزراء صاحب السمعة السيئة في أسرة مينغ ويدعى يانسمونغ، شيد «جسر واننيان» مازال باقيا إلى الآن في محافظة فينيه في مقاطعة جيانغشي وهي مسقط رأسه.

ومن منظور الإعجاب والتمتع بمقياس الجمال، يتجلى الأسلوب الفني في بناء الجسور في الصين في الجوانب الثلاثة التالية:

(1) التشكيل متعدد الملامح الجميلة: بعض الجسور شكلها مثل قوس قزح، وبعضها مقوس مثل الهلال، وبعضها يبدو خفيفاً رشيقاً كأنه يطير، وبعضها يبدو عظيماً وافر الجمال، وتجسد كل هذه التشكيلات النكهة الجمالية المختلفة. ويمتدح الشعر الكلاسيكي الجسور التي تبعث مشاعر الجمال والروعة في تشكيلاتها وتصميماتها. ومثال ذلك، «جسر تشاو تشو» في مقاطعة خبي معلق عليه الدوبيت الآتي: «ينبجس الماء من محيط اليشب، والمرء يمشي فوق ظهر تنين الطوفان»، وهنا تشبيه تشكيل هذا الجسر والماء أسفله باليشب وتنين الطوفان، ويزخر بمشاعر الجمال والعظمة.

(2) التناغم والانسجام بين تصميم الجسر والبيئة المحيطة: مما حقق الاندماج والتكامل بين

الأبنية الاصطناعية والمشاهد الطبيعية، ويعد ذلك من مواضع الفن الصيني بالضبط. وعلى هذا النحو، كانت كافة الأمكنة التي شهدت بناء الجسور تشكّل في الغالب مناظر رائعة تأسر الألباب، ومثال ذلك، «جسر لوقو شياو قوه» يعد من مناظر يان جينغ الثمانية، وجسر «دوان تشياو تسان شيوه» من المناظر الخلابة العشرة في البحيرة الغربية، وغيرها من المشاهد الطبيعية التي شكلت وحدة متكاملة تجمع بين هياكل الجسور وتراكيبها التي تستطيع أن تندمج في البيئة الطبيعية. وكذلك مثل «قصر لو تشياو» في جبل تسانغ يان في محافظة جينغ شينغ في مقاطعة خبي، حيث تم هناك بناء جسر فوق جُرف عمودي بين جبلين، ثم شُيد قصر أساسه هذا الجسر، وسطح الجسر عبارة عن وادٍ جبلي عمقه أكثر من سبعين متراً، وعندما ينظر إلى القصر من مكانٍ ناءٍ تجده يطاول عنان السماء، ويعتقد أنه قصر من قصور الملائكة. و«جسر ذو سبع عشرة فتحة» في القصر الصيفي في مدينة بكين، يمتد من الضفة الشرقية ويتصل بالجزيرة خو، وتشعر أنه من الفردوس عندما تنظر إليه من بعيد فوق «مقصورة البخور البوذي».

(3) النقوش والمباني الملحقة بالجسر تظهر الفن القومي المميز في الصين: ويرتبط ذلك دائماً بالعادات والتقاليد المحلية، والمشاعر الشعبية والتاريخ. ومثال ذلك، بناء المقاصير والباغودات والأقواس التذكارية وأعمدة السحب الرخامية على طرفي الجسر أو فوق الجسر نفسه، ناهيك عن النقوش على الدرابزين، ومقدمّة الجسر وتشمل الأسد، التنين، العنقاء، الزهور والنباتات، والشخصيات وغيرها.

وتذكر كتب تاريخية أسماء جسور تاريخية وعريقة ومشهورة نسبياً، منها:

(1) «جسر با»: في الضاحية الشرقية في مدينة شيآن، يمتد أفقياً فوق نهر «با»، وتم بناؤه في فترة الربيع الخريف. والجسر القائم حالياً هو الذي تم تشييده في أسرة سوي، وشهد الترميم في الأسر الحاكمة المتعاقبة. وترتبط شهرة جسر «با» بالتاريخ والأدب في الصين. وفي العصر القديم، كانت مدينة تشانغآن عاصمة للإمبراطورية عبر العصور التاريخية المختلفة، وكان هذا الجسر يمثل المكان الذي يجب أن يمر به كل من يدخل ويخرج من هذه العاصمة. ولذلك، الإمبراطور ليوبانغ في أسرة هان اقتحم عاصمة أسرة تشين شيانغ يانغ، وتقدم إلى آنلوشان واستولى على تشانغآن، وذلك على غرار الإمبراطور الأول في أسرة تشين الذي أرسل حملة تأديبية إلى دولة تشو، كما أن زعيم الانتفاضة لي شي تشينغ هاجم شيآن واحتلها، ولكنه

اضطر إلى الهرب إلى أحضان الإمبراطورة الأم تسي شي بعد أن احتل تحالف جيوش الدول الثمانية مدينة بكين. وكل هذه الأحداث التاريخية المهمة عبرت جسر «با». وشهد العصر القديم عادة كسر غصن الصفصاف عند توديع الأصدقاء والأقارب، وعلى جانبي جسر «با» تصطف أرتال أشجار الصفصاف، وكان أهالي مدينة تشانغآن يدلفون إلى هذا الجسر عند التوديع، ويتبادلون إهداء أغصان الصفصاف مع الأحباء والأصدقاء تعبيراً عن الشوق والحنين والمشاعر الحميمة. واستعار الشاعر موهكه هذا المشهد وجسد العواطف والمشاعر العاطفية، وجاءت معظم أشعاره تغص بالمشاعر الحزينة واللوعة وحرقة الفراق: «عندما تخضر أغصان الصفصاف في كل سنة، تكسو الأحزان التلال الترابية عند جسر «با»»، وهذا يعد إجمالاً للأعمال الأدبية في هذا الشأن.

(2) **الجسر الثاني التاريخي المشهور هو جسر «تشاو تشو»**: في محافظة تشاو في مقاطعة خبي، واسمه الأصلي «جسر آنجي» (انظر الصورة رقم -5)، شيده الحجار لي تشوان في عصر أسرة سوي ويعد أقدم جسر مقنطر ذي قوالب واسعة ومكشوفة في العالم. ونظراً لأن تشييد هذا الجسر كان عملاً رائعاً مدهشاً، وجسد الاندماج بين العلم المتقدم والفن، فإن المثقفين والأدباء أثنوا عليه ثناء رفيعاً، واعتقدوا أن «الفن المعماري رائع ومدهش في هذا الجسر ويعد الأول من نوعه في العالم قاطبة»، وأدى ذلك إلى نشأة الأسطورة العجيبة ومفادها أن النجار «لوبان» هو الذي شيد هذا الجسر.



(الشكل رقم -5)

جسر تشاو تشو *المصدر: كتاب «الهندسة المعمارية القديمة في الصين».*

(3) **الجسر الثالث المشهور تاريخياً هو «جسر لوقو» في بكين**: وتم بناؤه في عام 1189م، ولم تتغير ملامحه الأصلية على الرغم من عمليات الترميم والإصلاح، ويتمتع بتاريخ ثمانمئة سنة ونيف إلى الآن، ويعتبر أول جسر مقنطر حجري صيني قدمه الرحالة الإيطالي ماركو بولو للغرب، ولذلك أطلق عليه «أحسن جسر في العالم وليس له نظير». وهناك القول المأثور مفاده: «الأسود فوق جسر لوقو لا يحصى عددها». وفي عام 1962، نفذت طريقة وضع أرقام مسلسلة لإحصاء عدد الأسود التي يشتمل عليها هذا الجسر، وأظهرت وجود أربعمائة وخمسة وثمانين أسداً، كما تم العثور على بعض الأسود على مقربة من ركائز الجسر ليرتفع العدد إلى خمسمائة واثنين من تماثيل الأسود في السنوات الأخيرة.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك جسر «يوداي» في مدينة صوتشو في مقاطعة جيانغصو، وشُيد في عام 819م، ويعتبر أطول جسر حجري مقنطر في الصين القديمة، ويبلغ طوله ثلاثمائة وسبعة عشر متراً، ويحوي ثلاثاً وخمسين فتحة. وجسر «لوايانغ» في مدينة تشوانتشو في مقاطعة فوجيان، تم بناؤه في عهد الخطاط الشهير المعاصر لأسرة سونغ تساي شيانغ عندما كان محافظاً لهذه المدينة، ويبلغ طوله الآن أكثر من ألف ومائة متر، وعرضه سبعة أمتار، ولا يزال يحتفظ بشكله الأصلي حيث كان تصميمه على شكل زورق، ويحتوي على واحد وثلاثين ركيزة. وجسر «آنتسي» يقع في مدينة جين جيانغ في مقاطعة فوجيان، تم بناؤه في عام 1138م، وطوله يصل إلى أكثر من ألفي متر، بما يعادل (خمسة) وو لي (وحدة قياس صينية تعادل 500 متر)، ولذا أُطلق عليه «جسر وو لي»، ويعد أطول جسر قديم إلى الآن في الصين، ويعلق دوبيت على الجسر جاء فيه: «في العالم يوجد ألف بوذا انبثقوا من بوذا الأصلي، وطول جسر آنتسي لا يضاهيه جسر آخر في الدنيا».

وتضم مدينة تشاوشين في مقاطعة تشجيانغ أكبر عدد من الجسور في الصين. وحسب إحصائيات عام 1893م، يوجد في المدينة مائتان وتسعة وثلاثون جسراً، بما يعادل واحداً وثلاثين جسراً لكل كيلو متر مربع، في مقابل ستة جسور قط لكل كيلو متر مربع في المدينة الإيطالية فينيسيا في ذلك الحين. وانخفض عدد الجسور انخفاضاً هائلاً في مدينة تشاو شين في الوقت الحاضر، ولم يبق سوى أعداد ضئيلة جداً، ولكنها مازالت تحتفظ بأكبر عدد من الجسور القديمة في الصين، وأقدمها جسر «باتسي» الذي تم بناؤه في أسرة سونغ، وأشكال الجسور الأخرى متنوعة ومتباينة، وقد قيل إنها جميلة ورائعة وتترك انطباعاً مؤثراً في النفس.

المبحث السادس

الحدائق والمقاصير والباغودات في العصر القديم

إن القصور الفخمة الضخمة المهيبة، وسور الصين العظيم الرائع، والحدائق ذات التصميمات المعقدة كثيرة التغيرات تمثل الكنوز الثلاثة النادرة المثال في ثقافة البناء والتشييد في الصين، وشكلت الصفة الرئيسية المميزة للهندسة المعمارية في الصين القديمة. وجسدت القصور العبادة والطقوس والمعتقدات، ويعكس سور الصين العظيم العزيمة والإرادة والقوة، وأبرزت الحدائق الافتتان والمتعة والمشاعر والأحاسيس، ويزخر مظهرها الخارجي بالروح الكامنة الغنية الثرية.

ويمكننا القول إن الحدائق القديمة الصينية هي لفيفة الرسم الأساسية في كنز الثقافة الصينية، وسارت في طريقها الخاص المميز في تاريخ الحدائق العالمية بفضل أسلوبها الخاص والمميز والافتتان بها، ناهيك عن مفهومها التاريخي الثري وسعيها الدؤوب نحو الجمال والمتعة. وبعد أن قام ماركو بولو والمبشرون الذين جاؤوا إلى الصين منذ أسرتي مينغ وتشينغ بتقديم أحوال الحدائق الصينية في أوروبا، أثار ذلك دهشة الغربيين واهتمامهم بصورة كبيرة، وحاول الكثيرون محاكاة إنشاء حدائق صينية في أوروبا، ومن ثم شهد مطلع القرن الثامن عشر موجة محمومة من «الحدائق الصينية» في الغرب. ولكن، أدرك الأوروبيون –في نهاية المطاف– أنه من الصعب جداً إتقان والتمكن من فن إنشاء الحدائق الصينية، والافتقار إلى الأساس العميق لتاريخ الثقافة الصينية يجعل من الصعب جداً أيضاً تصميم وبناء حدائق صينية. وبعد ذلك، فترت حرارة «الموجة المحمومة» لإنشاء حدائق صينية رويداً رويداً من جانب الأوروبيين أنفسهم. واليوم، مع انفتاح الصين على العالم الخارجي والإصلاح، وتطور التبادل الثقافي بين الصين والبلدان الأجنبية، تأججت حمأة هذه الموجة من «إنشاء حدائق صينية» في الغرب، ولكن يضطلع بها هذه المرة فنانو تصميم الحدائق الصينية من الصينيين أنفسهم، وليس الأوروبيين، وتعتبر هذه الحدائق من صادرات المنتجات الثقافية، وتم تنفيذها وإنشاؤها فوق أراضي الدول الغربية. ومنذ الإصلاح والانفتاح، قامت الصين بتصدير الهندسة المعمارية التقليدية إلى الولايات المتحدة مثل: «مينغ شوان»، و«حدائق

دونغ فنغ» (حدائق الشرق)، و«سيتوي تشوانغ»، وفي إنجلترا أنشئت «حديقة يانشيوي»، و«حديقة قوي» في ألمانيا، و«قصر مينغ شينغ» في هولندا، و«حديقة صوتشو» في كندا. وطبعاً، الغربيون في عالم اليوم يشهدون مرحلة رفيعة المستوى نسبياً من فهم أحوال الحدائق الصينية والتمتع بها، ومثال ذلك، يوجد باحثون متخصصون في دراسة الحدائق الصينية في ألمانيا، وبلغت أعمالهم وآثارهم مرحلة التمتع بالجمال وشهدت مستوى عالياً نسبياً في علم الجمال. ويوضح ذلك، أن فن الحدائق الصينية قد تجاوز حدود الشرق ويتحلى بقوة السحر العالمية. ونتناول دراسة الحدائق الصينية من منظور الجوانب الثلاثة التالية:

أولاً: تصنيف الحدائق في الصين وتاريخ تطورها: يمكن تقسيم الحدائق في الصين إلى أربعة أنواع هي: حدائق الأسرة الإمبراطورية، والحدائق الخاصة، وحدائق المعابد، والحدائق العامة. ونظراً لأسباب تاريخية، يطلق على «حدائق الأسرة الإمبراطورية» اسم «حدائق الأباطرة» أيضاً، ويتم بناؤها في ناحية الشمال بصورة أساسية. أما معظم «الحدائق الخاصة» فيتم إنشاؤها في الجنوب. وما تبقى من «حدائق المعابد» لا يكاد يذكر، ومعظم «الحدائق العامة» تنتشر في مناطق الجبال والأنهار والآثار التاريخية. وجميع أنواع الحدائق في الصين تتمتع بتاريخ عميق الغور. وتحكي الأسطورة أن الإمبراطور هوانغ (الأصفر) شيد «يو» في جبال كوتلون، و«يو» تعني الحديقة، ومن المرجح أن تاريخها يرجع إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة حسب تاريخ الحدائق في الصين. وحسب ما ذكرت الموسوعة التاريخية «سجلات تاريخية» أن الملك تشو في أسرة شانغ قام «بتوسيع نطاق شاتشيوي يونتاي» التي تضم الكثير من الحيوانات، وفي داخل هذه الحديقة، كان هذا الملك يصب الخمر في أحواض، وتتكدس أكوام اللحم مثل الغابة، ويجعل الشباب والفتيات يلتقون داخلها وهم عرايا تماماً يلهون ويمرحون ويحتسون الخمر طوال الليل»، ويوضح ذلك أن الحديقة كانت بمثابة مسرح اللهو والبذخ والمتعة للملك تشو. وتفيد سجلات تاريخية أن هذه الحديقة هي أول حديقة في الصين، كما أنها تعتبر أقدم حديقة إمبراطورية في الصين. وعندما تأسست أسرة تشو الغربية، كان الملك ونتشو يمتلك «يو مساحتها ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع»، ويوجد بها مقصورة يطلق عليها «مقصورة لين»، و«حوض لينتشو»، وتضم العديد من الحيوانات والطيور، ويقوم «بستاني» برعايتها وإدارة شؤونها. وكلمة «يو» تعني «حديقة» في عصر تشو، ومن ملامحها المقصورة العالية وأحواض

المياه، والحيوانات، وتعتبر المقصورة العالية فيها من بقاع التمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية، وتتمتع بمكانة مهمة داخل الحديقة. وبعد عصر أسرة تشين، تغير الاسم «يو» إلى «يوان»، ثم دمجت الكلمتان معاً وأصبحتا «يوان يو»، وتعني هذه الأسماء كلها «حديقة». وعندما اعتلى الإمبراطور الأول في أسرة تشين عرش البلاد، قام بترميم يوان يو وضمها إلى القصر الإمبراطوري، وقدم سابقة في تشييد القصور الإمبراطورية للأجيال المتعاقبة. ومثال ذلك، أن هذا الإمبراطور شيد «شانغ لين يوان» (حديقة) مساحتها كبيرة جداً، وكان قصر خه انغ يمثل بناية صغيرة داخلها. وبالإضافة إلى ذلك، أقام الإمبراطور في العاصمة الإمبراطورية شيان يانغ «حوضاً ضخماً يصب فيه نهر وي، وأنشأ جبلاً اصطناعياً في منتصف هذا الحوض»، ويعتبر ذلك المثال الأول من نوعه لتشكيلة «جبال الجن في البحار» يمكن محاكاتها وتقليدها في أبنية قصور الأباطرة في العصور التاريخية اللاحقة. وفي عصر الإمبراطور هان وو دي، اتسع نطاق الحدائق بشكل أكبر على أساس التصميم المعماري للحدائق في أسرة تشين، وأصبحت تشتمل على أماكن لتربية الطيور النادرة، والحيوانات المختلفة، والمباني خارج نطاق القصر، ويبلغ محيطها أكثر من عشرة آلاف متر، وفي الوقت نفسه تم تشييد قصور في غرب مدينة تشانغآن، وحفر «حوض تاي يه» داخل القصر، ويتوسط هذا الحوض ثلاثة جبال اصطناعية ترمز إلى جبال الجن الثلاثة في البحر هي: «بانغ ليه»، و«فانغ تشانغ»، و«ينغ تشو». وبعد أسرتي سوي وتانغ، حذا تشييد قصور الأباطرة حذو هذه التشكيلة، واستعار الاسم القديم «حوض تاي يه» حتى عصر أسرتي مينغ وتشينغ. وفي الوقت الحاضر، تشونغ ناي هاي (متنزه الوسط الجنوبي)، وبيهاي (متنزه البحيرة الشمالية) في بكين هما عبارة عن حوض تاي يه في عصر أسرتي مينغ وتشينغ. ويدلنا ذلك على أن أقدم الحدائق التي ظهرت في الصين كانت تنتمي إلى حدائق الأباطرة، واجتازت عدة آلاف من السنين من التطور حتى تشكلت ملامحها الخاصة بها، وأصبحت وحدة كاملة تضم البلاط الإمبراطوري، ومقر إقامة الإمبراطور، وأماكن اللهو والتسلية والصيد، لقد أصبحت ساحة واسعة متعددة الوظائف. ويعتبر المنتجع الجبلي الصيفي للإمبراطور كانغشي في أسرة تشينغ في مدينة تشانغدا مثالاً نموذجياً في هذا الخصوص.

وبدأ تشييد الحدائق الخاصة في أسرة هان الغربية، وكان معظم أصحاب هذه الحدائق من الأرستقراطيين والأثرياء. ومثال ذلك، الملك ليو وو في مملكة ليانغ شيد «حديقة تو» (وتسمى

حديقة ليانغ أيضاً) في منطقة مدينة شانغ تشيو في مقاطعة خنان اليوم، ودعا الأديب الكبير سيما سيانغ وغيره من الأدباء ليكونوا أول ثُلة من المثقفين الذين احتسوا الخمر وقرضوا الشعر في حديقته. إنها حديقة الأرستقراطيين الخاصة. وبعد ذلك، شيد الرجل الثري يوان قوانغ هان حديقته الخاصة في خارج البوابة الشمالية لمدينة شينغ بينغ في مقاطعة شنشي اليوم. ويقال إن هذه الحديقة «تمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة ألفي متر، ومن الجنوب إلى الشمال بمسافة ألف وخمسمائة متر، وتتدفق جداول المياه داخلها، وتتخذ من الأحجار جبالاً يبلغ ارتفاعها أكثر من عشرة تشانغ (وحدة قياس صينية تعادل ثلاثة أمتار وثلث المتر) وتمتد إلى عدة مئات الأمتار»، كما تحتوي الحديقة على «المباني المتراصة والمقاصير متعددة الطوابق والأسوار الخارجية الممتدة»، وتربى داخلها الطيور النادرة والحيوانات المختلفة أيضاً. إنها تعد مثالاً نموذجياً لحديقة الأثرياء والوجهاء. وفي مرحلة أسرتي وي وجين، انتشر علم الغيبيات، وبدأت البوذية الانتشار في الصين، وأثرت تأثيراً هائلاً في الحياة الفكرية للمثقفين والأدباء، الذين بحثوا عن آمالهم وتطلعاتهم ومتعتهم بين الجبال والأنهار، ولذلك شهدت الحدائق الخاصة تطوراً هائلاً. ومثال ذلك، البيروقراطي شي تشونغ في أسرة جين الغربية شيد «حديقة جين قو» على مقربة من الجبال والأنهار في العاصمة لوايانغ، وأقام داخلها حوضاً وشيد قصراً، وتتكدس داخلها الأشجار الخضراء، والمقاصير داخلها مترابطة ومتراصة، وألف صاحب هذه الحديقة بالمشاركة من الشاعرين زوسي، ولوجي المقامة الشعرية بعنوان «شعر أربعة وعشرين صديقاً». وفي مرحلة أسرتي سوي وتانغ، شيد المثقفون والنبلاء الحدائق على نطاق أكثر اتساعاً، وشهدت ضواحي مدينتي تشانغآن ولوايانغ إنشاء العديد من الحدائق الخاصة، ومن أشهرها حديقة «وانغ تشوان بييه» التي أقامها الشاعر وانغ وي في أسفل جبل تشونغ نان في مدينة تشانغآن، وحديقة «لواياه تانغ» في جنوب مدينة لوايانغ التي أقامها بيي دو، وغيرها من الحدائق الخاصة التي تتبوأ مكانة مهمة في تاريخ الحدائق في الصين، ومنذ أسرة تانغ، تطور الاقتصاد تطوراً سريعاً في جنوب حوض تشانغجيانغ، وظهرت كوكبة كبيرة من المثقفين والوجهاء في مقاطعة تشجيانغ، وبالتالي ظهرت أعداد كبيرة من الحدائق الخاصة في الجنوب، وشكّل ذلك ذروة تشييد الحدائق مرات عديدة في أسرتي مينغ وتشينغ، ويعتبر معظم الحدائق الخاصة في الجنوب من تراث أسرتي مينغ وتشينغ.

وظهرت أعداد كبيرة من حدائق المعابد بعد دخول الديانة البوذية إلى الصين ونشأة الديانة الطاوية، وأقدم هذه الحدائق ربما يرتبط بأنشطة القرابين في العصر القديم. ونقول بصفة عامة، إن هذه الحدائق هي مبانٍ ملحقة بالمعابد، واستغلت -في أعماق الأحراج الجبلية- المناظر الطبيعية وتزينت بالزخارف الاصطناعية، أما في المدن فقد استعارت الأحواض والجبال الاصطناعية. وتعد حديقة «معبد جين» في مدينة تاييوان بمقاطعة شانشي أكبر حديقة معبد مازالت باقية إلى الآن، وكانت بمثابة معبد إحياء ذكرى تانغ شويوي مؤسس دولة جين منذ القدم، ثم أصبح حديقة لها ملامحها المحددة فيَ عصر أسرة وي الشمالية، وقد استغلت المناظر الطبيعية من الجبال والأنهار، وتأسست من سور يحوط قاعة الأم المقدسة ومعبد تانغ شو يوي. وحديقة «شي تسي» (حديقة الأسد) في مدينة صوتشو بمقاطعة جيانغصو كانت أصلاً حديقة خلف معبد بوتي جينغ تسونغ في أسرة يوان، ثم تم تدمير المعبد، وبقيت الحديقة وخضعت للترميم مرات عديدة حتى أصبحت في حالتها الراهنة.

أما الحدائق العامة، فقد ظهرت في عصر أسرة تانغ تقريباً، وتعد حديقة «تشو جيانغ تشي» في خارج مدينة تشانغآن مثالاً بارزاً في هذا الخصوص. وقد أصبحت الحدائق التي تنتمي إلى أسرة هان، والأحواض التي زرعت بأزهار اللوتس في أسرة سوي، والقنوات التي شقت في أحضان الطبيعة الرائعة أصبحت بمنزلة بقاع السياحة والترفيه والتجوال. ويقول الشاعر الكبير دوفو في قصيدته «أنشودة الفتاة الحسناء» إنه: «في اليوم الثالث من الشهر الثالث القمري، يكون الجو جميلاً والهواء عليلاً، وتغص شتى البقاع في مدينة تشانغآن بالحسناوات الجميلات». وهنا يصف الشاعر أحوال سياحة ونزهة الوجهاء والنبلاء وتمتعهم بالمناظر الطبيعية الخلابة. كما أصبحت البحيرة الغربية في هانتشو حديقة عامة للمتعة والسياحة والتسلية بعد أسرتي تانغ وسونغ حيث اتسع نطاقها وازدهرت يوماً بعد يوم. أما بخصوص البحيرة الغربية في فوتشو بمقاطعة فوجيان، وبحيرة مينغ الكبرى في جينان بمقاطعة شاندونغ قد ازدهرتا في وقت متأخر بعد الأسر الخمس (907– 960م)، وأسرة سونغ. وبعد ذلك، وعلى الرغم من زيادة أعداد الحدائق العامة، بيد أنها ظلت دائماً لا تضاهي حدائق الأباطرة والحدائق الخاصة. وكان ذلك نتيجة السياسة الإقطاعية والنظام الاقتصادي. ولكن ظهور الحدائق العامة وتطورها يمثل علامة مهمة في تاريخ تطور الحدائق في الصين، وأبرزت للعيان

ثقافة وفكر الإنسان في المجتمع الإقطاعي وسعيه وراء إحداث التحول الكبير ومفاده أن «الثقافة رفيعة المستوى» لدى الوجهاء والطبقات العليا تحطم الحدود وتفتح آفاقاً جديدة، وتتقدم نحو مجتمع أكثر اتساعاً بحثاً عن التطور في كافة الأنحاء، و«الثقافة الشعبية» لدى عامة الشعب يتعاظم نطاق نفوذها وتجعل الثقافة الشعبية، التي تتمتع بجذور قومية، تنتشر في أكبر مساحة ممكنة. وشهدت الحدائق العامة التقاء الثقافتين الرفيعة المستوى والجماهيرية، واللتين جعلتا ثقافة الحدائق في الصين تحقق تطوراً أكثر ثراء ووفرة.

ثانياً: الخصائص الفنية للحدائق في الصين: على الجملة، تتجسد هذه الخصائص بصورة أساسية في ثلاثة جوانب هي:

(1) السعي وراء تحقيق الوحدة والاندماج بين الإنسان والطبيعة: الحدائق في الصين بلا استثناء تجسد الطبيعة تجسيداً فنياً، وتتخذ الطبيعة مثالاً يقتدى به، فتحاكي الجبال والأنهار، وتخلق بيئة موضوعية موحدة ومتناغمة من أجل الإنسان باعتباره الكائن الحي الرئيسي في الكون. ويمكن إجمال الفكر الرئيسي في إنشاء الحدائق في هذه المقولة: «على الرغم من أن الحدائق من صنع الإنسان، ولكن يجب أن تضاهي الطبيعة». ويشير ذلك إلى معارضة التشبيه المُقحم والنقوش المتعمدة. ويعتبر هذا الفكر -في الواقع- تجسيداً فنياً للحدائق في إطار المفهوم الفلسفي من أن «الإنسان والطبيعة وحدة واحدة». ومنذ زمن بعيد، والحكماء في العصر القديم يستلهمون مشاعر الجمال من العالم الطبيعي. ويقول كونفوشيوس: «الأخيار يحبون الجبال، والحكماء يحبون الأنهار». ويمتدح الفيلسوف شون شي الجمال المطلق في السماء والأرض. إن مثل أفكار علم الجمال هذه أثرت تأثيراً عميقاً في فن إنشاء الحدائق في الأجيال المتعاقبة. وفي الواقع، أن الحدائق في الصين تتمحور على الجبال والأنهار بصورة أساسية، فالجبال هي العمود الفقري، والأنهار هي شريان الدم، وهما أساس وجوهر الطبيعة. ومن ثم، إنشاء حديقة يجب أن يحرص على تحقيق التناسق بين الجبل والنهر، حيث يتطلب التصميم المعماري أن الجبل يكون له شريان حياة، والنهر له مصدر مياه، والمياه تحوط بالجبل، وتدب الحياة في الجبل بفضل الماء. ونجد في تشكيلة الحدائق المحددة أن بعضها يمتد على النهر بصورة أساسية، وبعضها يعتمد على الجبل بصورة رئيسية، وبعضها يدمج الجبل والنهر معاً، ولذلك يمكن أن يطلق على الحدائق في الصين اسم «حوض جبلي».

(2) الاهتمام بإظهار المتعة والافتتان والسعي الروحي الدؤوب لدى الإنسان: فالحدائق في الصين على الرغم من أنها تجسد الطبيعة تجسيداً فنياً، إلاّ أن هذا التجسيد للطبيعة ليس بلا هدف، بل أنها تضفي على المناظر الطبيعية فكراً مثالياً محدداً وعقيدة محددة أيضاً، وتستلهم المناظر الطبيعية لتعبر عن الآمال والطموحات والمتعة واللذة لدى مالك الحديقة، وتلبي السعي الروحي والفكري لدى الإنسان. ولذلك، الحدائق الصينية في الغالب تستلهم المشاعر الكامنة، والحكمة والإشراق في المشاهد الطبيعية، وتمنح المناظر الخارجية المفهوم الثقافي الثري. وحدائق الأسرة الإمبراطورية تتأثر بأفكار روح سماوي منذ القدم، ولذلك يقام في الحديقة كثير من جبال الجن التي تحاكي نظيرتها في البحار، وذلك من أجل تجسيد تطلعات وآمال الملوك الإقطاعيين في أن يكونوا من الأولياء المخلدين، ويرفلون في المتعة والثراء، وتجسدت هذه الأفكار بصورة محددة في متنزه الوسط الجنوبي، ومتنزه البحيرة الشمالية في بكين، وجزيرة تشيونغ هوا، وقاعة مقصورة شيوي يوان، ومقصورة ينغ. كما تعكس الحدائق الخاصة، المشاعر الدفينة والمغزى الكامن لدى صاحبها، ومثال ذلك، حديقة «تشوه جينغ» (الغباء السياسي) في مدينة صويتشو شيدها وانغ شيان تشين المسؤول عن توجيه تهم التقصير والخيانة للموظفين في أسرة مينغ، وشعر وانغ بالاستياء من سياسة البلاط الإمبراطوري، واستقال من منصبه ومكث في بيته، واستعار ما جاء في «مقامة ظل موظف في البيت بلا عمل» –من تأليف بان يوه في أسرة جين– من «الغبي في إدارة الشؤون السياسية»، وأطلقه على اسم حديقته، وعلق آماله على التمتع بمناظر الجبال والأنهار، وجسد تطلعاته في الابتعاد عن البلاط الإمبراطوري. وحديقة «زوي باي تشي» في محافظة سونغ جيانغ في شانغهاي، قصة تشييدها أن الموظف الكبير في أسرة تشينغ ويدعى قودا شينغ كان معجباً بالشاعر باي جيوي يي في أسرة تانغ، وأسلوبه في احتساء الخمر وقرض الشعر في آن واحد، ولذا أنشأ هذه الحديقة وأطلق عليها الاسم المذكور آنفاً، ومعناه باي السكير. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أمثلة كثيرة من هذه الحدائق. كما أن الحدائق الصينية في الغالب تعتمد على خطوط ورسوم، ولوحات تقدير وثناء، في وصف المناظر في كافة الجهات إظهاراً للمطامح والميول لدى مالك الحديقة. ولذلك، توقيع الأسماء، ولوحات التقدير، ومعلقات الدوبيت داخل الحدائق لها دور في تجسيد المناظر والمشاعر والأحاسيس ومغزى الجمال الكامن. ومثال

ذلك، طائر العنقاء يجثم على أشجار البارسول الصيني الخضراء، والزورق يعود من مكان ناء وراء الأفق، الأثير يهب من الشرق، أكوام متكدسة من الغار، وكذلك مثل: مقصورة الأطلال على مناظر الربيع، باغودات التمتع بمناظر الجبال، مصاطب الاستمتاع بالشعر، بناية قوارب النزهة، ويعبق ذلك كله بالنكهة الشعرية والمشاعر الحميمة، ودراسة أسماء هذه المناظر والمشاهد، يمكن أن يعكس النشأة العميقة في الثقافة التقليدية.

(3) التحفظ في إبراز مناظر الحديقة والتعرجات والتغيرات داخلها يعارض صلابة التصميم وعدم المرونة، والرتابة والوتيرة الواحدة، وتغطية كل شيء داخل الحديقة. ولذلك، المناظر داخل الحديقة في الغالب تتسم بالانزواء والاختفاء، وليست بادية للعيان صراحة وللوهلة الأولى؛ فالمناظر والمشاهد بلا حدود داخل الحديقة تختفي وراء الجبل الاصطناعي لبوابة دخول الحديقة. والرسم يحرص على «الجبل البعيد سيبدو بلا أقدام، والشجر البعيد بلا جذور، والزورق البعيد بلا هيكل (نرى السارية فقط)، وإنشاء الحدائق يسير على هذا المنوال حيث المناظر الكامنة المنخفضة المتعددة الألوان والأشكال. ونقول بصورة محددة، إن إنشاء الحدائق يجب أن يعكس بصورة كاملة قوة حيوية الطبيعة، ويجب أن يظهر المناظر الطبيعية المتعددة التي لا حدود لها في إطار مساحة محددة، كما يجب أن يظهر تصميم الحدائق المناظر الصغيرة والمتوسطة في تصميم الحدائق الكبيرة، ويتعاقب داخلها الطبيعي وغير الطبيعي، ويمكن التمييز بين الرئيس والثانوي، والمواضع المرتفعة والمنخفضة يظهر كل منها الآخر، ويبرز البعيد والقريب جمال كل منهما، ويجب أن تتغير الحركة والنشاط داخل الحديقة. وكلما كانت مساحة الحديقة صغيرة، يجب أن يكون التغير كثيراً، شريطة عدم فقدان الوحدة الكلية العضوية في خضم التغيرات، وهنا تكمن صعوبة فن بناء الحدائق الصينية. ولذلك، الخبراء الصينيون والأجانب يقدرون تقديراً عالياً «حديقة وانغشي» في مدينة صويتشو؛ لأنها جسدت تجسيداً كاملاً هذه الخصائص في أسلوب تشييد الحدائق في الصين.

ثالثاً: لمحة عن الحدائق التاريخية المشهورة: هناك الكثير من الحدائق المشهورة في التاريخ الصيني، بعضها قد اندثر، وبعضها مازال باقياً إلى الآن. ومعظم الحدائق القديمة الموجودة حالياً تم إنشاؤها في عصر أسرتي مينغ وتشينغ، وحتى الحدائق التي أنشئت قبل أسرة مينغ خضعت للترميم والإصلاح مرات عديدة من جانب الأجيال المتعاقبة. وتعد حديقة «جيانغ

شو جويوان تشي» في محافظة شين جيانغ في مقاطعة شانشي أقدم أطلال حديقة يرجع تاريخها إلى العصر القديم ومازالت باقية في الوقت الحاضر، وقد شيدت في أسرة سوي عام 596م، وكانت أصلاً بستاناً يقع خلف دار الوالي في ولاية جيانغ القديمة، ويبقى الآن منها أجزاء قليلة جداً، ولكن مازال هيكلها الرئيسي يبدو واضحاً جداً، ويعتبر أطلال حديقة مازالت في حالتها الكاملة تماماً. والحديقة الإمبراطورية «يوان مينغ يوان» مشهورة في التاريخ في داخل الصين وخارجها، وتشمل على حديقة في شكل البدر في كامل استدارته، وحديقة الربيع الطويل، وحديقة عشرة آلاف ربيع، وتبلغ مساحتها أكثر من خمسة آلاف ومائتي مو (وحدة قياس صينية تعادل 0,0667 هكتار) وشيدت في عهد الإمبراطور كانغشي، وفي فترة حكم تشيان لونغ في أسرة تشينغ، وتبلور خصائص جميع الحدائق في منطقة جنوب حوض تشانجيانغ، وتبرز للعيان روعة جمال فن بناء الحدائق في العصر القديم بالصين، وشهدت تشييد مناطق جميع المناظر الطبيعية وبلغ عددها أكثر من مائة وأربعين منطقة منها: «فناء عشرة آلاف حديقة»، و«جنة الدنيا» وغيرها من الأسماء الجذابة الجميلة، ولكن من سوء الطالع دمرتها القوات البريطانية – الفرنسية المتحالفة وجيوش تحالف الدول الثماني.

والحدائق الإمبراطورية الثلاث الباقية في حالة كاملة في بكين هي: المتنزهات الثلاثة، والقصر الصيفي، والمنتجع الجبلي الصيفي للإمبراطور كانغشي في مدينة تشينغدا. ومعظم الحدائق الخاصة في الجنوب تتركز في المدن الثلاث: صويتشو، ويانغتشو، وهانتشو، وتستأثر مدينة صويتشو بنصيب الأسد من هذه الحدائق، وتذكر سجلات أواخر أسرة تشينغ الموثوق بها أن عدد الحدائق الكبيرة والصغيرة في هذه المدينة بلغ أكثر من مائتي حديقة، ولذلك أطلق عليها «مدينة الحدائق»، من بينها «حديقة تسانغ ليانغ تينغ»، و«حديقة شي تسي»، و«حديقة تشيوه جينغ»، و«حديقة ليو يوان» تعد الأكثر شهرة، ويطلق عليها التسمية العامة «الحدائق الأربع الكبرى الشهيرة في صويتشو». وتم بناء حديقة تسانغ ليانغ تينغ في أسرة سونغ، وحديقة شي تسي في أسرة يوان، وحديقة تشيوه جينغ في أسرة مينغ، وحديقة ليويوان في أسرة مينغ وترميمها كان في أسرة تشينغ، وتجسد بصورة أساسية خصائص فن بناء الحدائق في الأسر الأربع الحاكمة. وبالإضافة إلى ذلك، تتحلى كل من «حديقة تشو»، و«حديقة يي»، و«حديقة أو»، و«حديقة وانغشي» بالجاذبية والمتعة الفائقة. كما تحظى بالشهرة الكبيرة

«حديقة قه»، و«حديقة خه» في مدينة يانغتشو، و«حديقة جي تشانغ» في مدينة ووشي. و«حديقة يوه» في مدينة شانغهاي شيدها البيروقراطي فإن يونغ دوان من أجل والده، ويطلق عليها في الغالب «درة الحدائق المشهورة في الجنوب الشرقي»، وتتمتع بتاريخ عريق يمتد إلى أكثر من أربعمائة سنة. والحدائق الخاصة في قوانغدونغ كثيرة نسبياً، من بينها «حديقة خه» في دونغ وان، و«حديقة يوين شانغانغ» في مدينة فإن يوي، و«حديقة تشينغ هوي» في شوندا، و«حديقة شيأر شي تشي» في فوشان، ويطلق عليها التسمية العامة «الحدائق الأربع الشهيرة الكبرى في قوانغدونغ» والتي تأسست في أسرة تشينغ. والحدائق الخاصة في الشمال تتركز في مدينة بكين، ولا تزال باقية بصورة أساسية من أسرة تشينغ. ولكن حديقة ليانهوا تشي في مدينة باودينغ في مقاطعة خبي بُنيت في أسرة يوان، وتعاظم حجمها في أسرة مينغ، وأصبحت استراحة ملكية في أسرة تشينغ، وتعد من الحدائق التاريخية المشهورة النادرة في شمال الصين. وهناك حديقتان خاصتان ضخمتان تتمتعان بشهرة كبيرة في التاريخ هما: «حديقة شاويوان» في بكين شيدها الخطاط المشهور في أسرة مينغ ويدعى ميوان تشونغ، و«حديقة آنلان» في مدينة هاي نينغ في مقاطعة تشجيانغ، وشيدها البيروقراطي تشين يوان لونغ المعاصر لأسرة تشينغ. وأطلال حديقة شاويوان مازالت باقية في حرم جامعة بكين إلى الآن. وفي أسرة مينغ، شهدت ضاحية بكين الغربية الكثير من الحدائق الخاصة للأشراف والأمراء والأرستقراطيين، وكانت حديقة شاو يوان لعائلة ميي فريدة ومميزة وتتبوأ المكانة الأولى. وصاحب هذه الحديقة ميوان تشونغ يتمتع بمهارات فنية أتقنها بلا استثناء في قرض الشعر والكتابة والخط والرسم والنقوش الحجرية والشطرنج، ونجح في الفحوص الإمبراطورية في عام 1595م، وكان فنياً رفيع المستوى، وأطلق عليه –بالإضافة إلى نظيره الفنان دونغ تشي تشانغ_التسمية المشتركة «دونغ في الجنوب، وميي في الشمال». وبرز للعيان مستواه الفني الفائق في تصميم حديقة تشاو يوان غير العادي، وتبلغ مساحتها مائة مو، وتعلق لافتة على بوابة الحديقة مكتوب عليها «حي الريح والدخان». وتصميم الحديقة الداخلي يتمحور على نهر مزروع فيه أزهار اللوتس، وشُيد فوقه جسر، ويزرع البامبو على جانبي النهر، وتنتشر فيها المقاصير والمصاطب، ناهيك عن الأحجار الفريدة النادرة المثال من شتى الألوان والأشكال. وعشق ميوان للأحجار أصبح شيئاً نادر المثال، وكل الأحجار الفريدة والعجيبة

كان يشتريها بأسعار غالية، وأطلق على نفسه لقب «صديق الأحجار»، وكرس حياته لجمع وتكديس هذه الأحجار، ولذلك أطلق عليها «أحجار ميوان». وكان مصمم هذه الحديقة يدعو دائماً رجال القلم والمثقفين للتنزه في الحديقة وقرض الشعر والرسم من أجل إظهار مناظر حديقته الرائعة والجميلة، ورسم هذه المناظر في شكل فانوس متعدد الألوان وعلقه في الحديقة، وأطلق عليه «فانوس ميوان»، وانتهج ميوان الأسلوب الصحيح في تربية وتنشئة أبنائه، ولذلك تفوقوا ونبغوا في فنون الشعر والكتابة والرسم، وحققوا شهرة عظيمة في العاصمة، وأُطلق عليهم «الكنوز الأربعة الفريدة للفنان ميوان»، وكانت حديقة شاويوان التجسيد الجامع لهذه الكنوز الأربعة النادرة. وفي الوقت الحاضر، يوجد حجر ضخم يطلق عليه اسم «تشينغ تشي يوي» أمام قاعة السعادة الأبدية في القصر الصيفي. وهذا الحجر قطعه ميوان من جبل قانغ، وعندما كان ينقله إلى بكين طرد من وظيفته، ولذا تركه على جانب الطريق، وفي أسرة تشينغ قام الإمبراطور تشيان لونغ بنقله إلى القصر الصيفي. وحققت حديقة آنسلان في تشجيانغ شهرة لفترة من الوقت في عصر أسرة تشينغ، وفاقت شهرتها ومكانتها سائر الحدائق الأخرى في حوض نهر تشانغجيانغ، وصاحب الحديقة هو تشين يوان لونغ، وهو ناجح على مستوى الناحية في فحوص الإمبراطور كانغشي، وكان وزير الصناعة، ووزير المراسم، والمثقف الجامعي في الوزارة، وأُطلق عليه السكان المحليون لقب «الوزير العجوز». وكان يتمتع بعلاقات حميمة مع الإمبراطورين كانغشي، ويونغ جينغ. وعندما بلغ الثانية والثمانين عاماً تقاعد وعاد إلى مسقط رأسه، وشيد حديقة «سوي تشو»، وبعد مماته قام نجله تشين بانغ جي بتوسيع نطاق هذه الحديقة التي قام فيها الإمبراطور تشيان لونغ أربع مرات عندما زار منطقة جنوب حوض تشانغجيانغ ست مرات. ويوضح ذلك التصميم الرائع والبارز للحديقة لدرجة أنها استحوذت على اهتمام هذا الإمبراطور من جهة، كما أظهرت العلاقة الحميمة التي تربط بين عائلة تشين والأسرة الإمبراطورية. وشهدت هذه الحديقة الدمار والخراب في أسرة تشينغ، وتبقى منها أطلال قليلة في الوقت الحاضر.

وفي الواقع، إن الحدائق الصينية تتألف من تحقيق الاندماج بين الأنهار والجبال الطبيعية والأبنية الاصطناعية مثل: المقاصير والباغودات والمصاطب والتي تعد كلها جزءاً لا يتجزأ من إنشاء الحدائق، ولكنها يمكن أن تشكّل مناظر ومشاهد بمفردها، وتعتبر بنايات تستخدم

في الأغراض العملية، ومثال ذلك، يمكن استخدام المقاصير في ملاحظة الأجرام السماوية، وفي الأغراض العسكرية أيضاً، بينما الباغودات يمكن أن توفر الإقامة والمعيشة، وتخزين الكتب، وفي حفظ تماثيل بوذا. وتتسم المقاصير والباغودات بالتأثير السحري في تصميم وإنشاء الحدائق، ومثال ذلك، «البنايات الشامخة تتخطى حدود النهر، والمقاصير الشاهقة تطاول عنان السماء»، وتقام المقاصير بين الجبال، والبنايات العالية على ضفة جدول أو نهير، مما يجعل شكل الجبال ولون الماء أكثر جاذبية ورونقاً وجمالاً، ولم يفسد ذلك جمال الطبيعة إطلاقاً، بل أضاف المزيد من الجمال على جمال الطبيعة أيضاً، وحقق هدف صهر الذات الإنسانية والأشياء المادية في بوتقة واحدة، والاندماج بين المشاعر والعواطف والمناظر والمشاهد الطبيعية.

ونتحدث عن «تاي» (المقصورة): تتمتع المقصورة بتاريخ عريق في الصين. وذكر «قاموس شرح كلمات» أن: «تاي هي مكان الهدوء والاستقرار للناس»، ويوضح ذلك أن أقدم مقصورة ترتبط بالدفاع عن الحدود والأغراض العسكرية، وهي بناية على غرار نقاط التفتيش والحراسة من الحصون الحدودية، ولذلك ذكر كتاب «سياسة الممالك المتحاربة- فصل سياسة وي» أن: «ينتشر جنود حراسة الحدود بأعداد كثيرة، وتصطف مقاصير الحراسة والتفتيش على طول الحدود، وتغص الصوامع بالغلال». وقد شهدت مرحلة الممالك المتحاربة، إقامة العديد من مثل هذه المقاصير على الحدود بين الممالك آنذاك، ويتم تعيين مسؤول المقصورة ومهمته استطلاع أحوال العدو والاستعداد لملاقاة الأعداء. وفي عصر أسرتي تشين وهان، أصبحت مثل هذه المقصورة بمنزلة أدنى مصلحة إدارية؛ حيث كان بناء مقصورة كل خمسة كيلو مترات في القرية، وكل عشر مقاصير تشكِّل قرية، ورئيس المقصورة يتولى صيانة الأمن في منطقته وحل النزاعات بين السكان المحليين والإمبراطور ليوبانغ قبل أن يقود انتفاضته كان رئيساً لمقصورة «سي شيوه». وبعد أسرتي تشين وهان تقريباً، اندثرت الوظيفة السياسية التي كانت تضطلع بها المقصورة على كل خمسة كيلو مترات، ثم أصبحت المقصورة استراحة في السفر البعيد والرحلة الطويلة، وظهرت «المقصورة الكبيرة كل خمسة كيلو مترات، والمقصورة الصغيرة كل ألفين وخمسمائة متر»، وذكر الشاعر لي باي في قصائده: «أقف وحيداً فوق درجات السلّم اليشمي، والطيور تعود إلى أوكارها. وأنا لا

أعرف أين طريق عودتي؛ حيث توجد المقاصير الكبيرة، والمقاصير الصغيرة».

ولا تستطيع أن تحدد بدقة العصر الذي أصبحت فيه المقصورة نوعاً من أبنية المناظر والمشاهد في الحدائق، ولكن ربما كان ذلك تغييراً طرأ عليها بعد أن كانت استراحة للمسافرين، لأن الجلوس في الاستراحة يجعل المرء لا مفر أمامه من مشاهدة المناظر الطبيعية، ثم أصبحت المقصورة من أبنية مشاهدة المناظر مع تطور الحدائق، وقد شيد أناس مقاصير في الباحات وجعلوها بمثابة استراحات، ومثال ذلك، بني يانغ شيونغ «مقصورة شوان» في مملكة شو الغربية، وقد أشار إلى هذه المقصورة الشاعر ليو يوشي في قصيدته المعنونة بـ «نقوش غرفة متواضعة». وفي أسرة جين الشرقية، كان الخطاط وانغ شي جي وثُلة من الأصدقاء يقرضون الشعر، ويكتبون مقامات في «مقصورة لان» على مقربة من نهر، مما يوضح أن المقصورة آنذاك أصبحت نوعاً من المناظر، كما أصبحت تشكل وحدة متكاملة مع قمم الجبال الشاهقة والغابات الكثيفة والبامبو، ولذلك يستطيع الناس «التجول في المناظر الطبيعية وإطلاق العنان لأفكارهم ومشاعرهم»، و«تحقيق المتعة الكبيرة للسمع والبصر». وبعد أسرتي تانغ وسونغ، زادت مقاصير المناظر يوماً بعد يوم، وكان الناس يجلسون في المقصورة ويحتسون الخمر ويقرضون الشعر، والتمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية، وبرزت أمام العيان الوظيفة الثقافية للمقصورة أكثر فأكثر، وبعد ذلك اعتبر الناس المقصورة من أبنية الأنشطة التذكارية، واستخدموها في إحياء ذكرى بعض الشخصيات التاريخية والأحداث التاريخية. ومثال ذلك، «مقصورة فانغ فان» في منطقة وولينغ بو في محافظة هاي فينغ في مقاطعة قوانغدونغ، لاحياء ذكرى القائد العسكري ون تيان شيانغ، الذي قاد جيشه لمحاربة أسرة يوان، حتى وصل إلى هذه المنطقة وتناول طعامه، ثم طوقه جيش أسرة يوان على حين غرة، وأخفق جيش أسرة سونغ في حمايته، ووقع في الأَسْر، وأقامت أسرة مينغ هذه المقصورة إحياء لذكراه. و«مقصورة فينغ يو» في مدينة شاوشين في مقاطعة تشجيانغ لإحياء ذكرى الشاعرة وزعيمة الثورة تشيو جينغ. ومع تقدم المجتمع وتطوره، تعاظمت استخدامات المقاصير بصورة كبيرة جداً، ولذا ظهرت استراحة السفر، وكشك الهاتف، وكشك السلع، ومقصورة إرشاد المسافرين وغيرها كثير.

والتصميم الرئيسي للمقصورة تكون فيه قمة المقصورة مدببة. وسطحها المستوي يمكن أن

يكون على شكل دائري، وشكل مروحة، وشكل مستطيل، وشكل مربع، وشكل الأضلاع الستة، وشكل الأضلاع الثمانية وغيرها، ويمكن أن يكون على شكل دائرتين أو شكل مربعين في تصميم مقصورة سلسلة الحلقات أو مقصورة اكس شرقي Aix Galericulate. وقمة المقصورة يمكن أن تتألف من الأطناف المزدوجة. وتشييد المقاصير في الحدائق وفي منطقة المناظر الطبيعية يتركز معظمها بين الجبال (قمة الجبل أو سفح الجبل)، وعلى ضفاف النهر. والجدول، وفي مفترق الطرق من أجل تجسيد دورها ووظائفها بصورة كاملة في تحقيق متعة الإنسان في مشاهدة المناظر الطبيعية، والخلود إلى الراحة، ومتعة السياحة والتجوال، ولذلك توجد العديد من المقاصير في قلب البحيرات، وفي منتصف الطريق إلى قمة الجبل وغيرها، وعلى هذا النحو، تضطلع المقاصير بتزيين الجبال والأنهار، وتجميل البيئة، وتهذيب أخلاق الإنسان أيضاً، ومنحه متعة مشاعر الجمال.

ويوجد في بكين معظم المقاصير الموجودة حالياً، وتذكر الإحصائيات غير الكاملة أنها تشمل زهاء مائة مقصورة، ويتضمن القصر الصيفي أكثر من أربعين مقصورة. و«مقصورة كوارو» في الطرف الشرقي لجسر ذي السبع عشرة فتحة، تعد من اضخم المقاصير في الصين، ومساحتها أكثر من مائة وثلاثين متراً مربعاً. و«مقصورة تونغ» فوق جبل وان تشاو استخدم في تشييدها مائتان وسبعة أطنان من النحاس وقلما نرى مثلها في الصين. و«مقصورة وو» في جبل جينغ، و«مقصورة وولونغ» في منتزه البحيرة الشمالية، و«مقصورة شوان هاوي» في القبة السماوية، تتحلى كلها بالملامح الفنية الجميلة الرائعة. والمقاصير المشهورة الموجودة حالياً نادرة نسبياً، ومثال ذلك، «مقصورة لان» (في مدينة شاو شينغ في مقاطعة تشجيانغ) كانت المكان الذي كتب فيه الخطاط المشهور وانغ شي جي «مقدمة قصائد مقصورة لان»، و«مقصورة ليشيا» (في مدينة جينان بمقاطعة شاندونغ) ذكرها الشاعر دوفو في قصائده قائلاً: «مقصورة ليشيا عريقة وقديمة، ويكثر فيها الأذكياء والأكفاء في جينان». و«مقصورة يانشيوي» (في مدينة تشو تشو في مقاطعة آنهوي)، والأديب أويانغ شيوه ألف كتاباً بعنوان «تاريخ مقصورة زوى وينغ»؛ و«مقصورة فانغ خه» (إطلاق سراح طائر الكركي) في مدينة شيوه تشو في مقاطعة جيانغصو، بناها تشانغ تيان جي من أهالي منطقة يون لونغ شان في مدينة شيوه تشو، وكان معاصراً لأسرة سونغ، كما توجد مقصورة أخرى تحمل الاسم ذاته

في مدينة هانتشو بمقاطعة تشجيانغ شيدها الشاعر لين بو، وكانت مكان جذب وإطلاق سراح طائر الكركي أيضاً. وكذلك «مقصورة آيوان» (في مدينة تشانغشيا بمقاطعة خونان)؛ و«مقصورة تاوران» في مدينة بكين.

ونلقي المزيد من الضوء على «تاي» (المقصورة)، نجد «قاموس أريا» يذكر أن: «الأرض المرتفعة المربعة من الجهات الأربع هي المقصورة». ولكن -في الواقع- قطعة الأرض المستوية نسبياً من الأرض المرتفعة المستوية يطلق عليها اسم «مقصورة» أيضاً. وجاء في الأسطورة أن الإمبراطور هوانغ (الأصفر) كان يقطن في «مقصورة شوان يوان»، وجاء في أشعار لي باي أن: «الثلوج تكتسي جبل يان مثل الحصير، وتتساقط وتتطاير فوق مقصورة شوان يوان». ويوضح ذلك أن مفهوم المقصورة عريق وقديم في الصين أيضاً. وتأسيساً على ما ذكره كتاب «سجل الأحداث لتسوه تشيو مينغ» أن نجل الإمبراطور يو بعد أن اعتلى العرش كان يمتلك «مقصورة جون» التي شهدت مراسم توليه العرش، ومأدبة تهنئته، ويعد ذلك أقدم تسجيل تقريباً لاستخدام المقاصير في الأنشطة السياسية، والمكان المباشر لإقامة الحفلات دائماً فوق المقصورة في الأجيال اللاحقة. وتوجد مقصورة جون في مدينة يوتشو في مقاطعة خنان، والمقصورة الأصلية التهمها الفيضان، والمقصورة الحالية شيدتها الأجيال المتعاقبة فيما بعد. وشيد الملك تشوون وانغ في أسرة تشو «مقصورة لين» في حديقته، مما يوضح أن المقصورة ظهرت في الحدائق منذ زمن بعيد موغل في القدم. كما أن الحدائق الكبيرة في عصر الممالك المتحاربة كانت المقاصير تُشيد في قلبها دائماً، مثل «مقصورة جينغ هوا» التي يرجع تاريخها إلى أسرة تشوي وكانت مرتفعة فوق قمة جبل والصعود إليها يحتاج إلى الراحة في الطريق ثلاث مرات، ولذا أُطلق عليها «مقصورة الراحة ثلاث مرات». وشهدت الفترة من الممالك المتحاربة إلى أسرتي تشين وهان ذروة بناء المقاصير في التاريخ الصيني. وشيد الإمبراطور الأول في أسرة تشين «مقصورة تاي مينغ» التي استخدمت جميع أنواع الأخشاب النادرة في البلاد، وحشد لها جميع العمال المهرة الأكفاء. أما الإمبراطور هان وو دي فأنشأ «مقصورة جيان» تتألف من ثلاثة طوابق، وارتفاعها أكثر من ثلاثين تشانغاً، وقاعة يوجد بها اثنتا عشرة غرفة، ودرجات السلم من اليشم، ويبين ذلك الموجة المحمومة من إنشاء المقاصير في الصين. ونظراً لأن المقصورة تشرف من علٍ، لذلك يمكن الناس أن يصعدوا إليها ويشاهدوا المناظر

الطبيعية البعيدة، ومن ثم استخدمت في الأغراض العسكرية ورصد الأجرام السماوية، وكانت هناك مقصورة مشاهدة المناظر النائية، ومقصورة الإنذار، ومقصورة استعراض القوات، ومقصورة المرصد الفلكي، ومقصورة رصد النجوم. وبعد أسرتي تشين وهان، كانت العديد من المباني الإدارية التابعة للبلاط الإمبراطوري يتم تشييدها فوق المقاصير، ثم أطلق اسم «تاي» (المقصورة) على الأجهزة والوحدات الإدارية الحكومية، ومثال ذلك، «سان تاي» (المقاصير الثلاث، أي المباني الإدارية الثلاثة) في أسرة هان، وكذلك «المبنى الإداري الأوسط». و«المبنى الإداري الشرقي»، و«المبنى الإداري الغربي» في أسرة تانغ، ولذلك كان يطلق على مقر رئيس الوزراء لقب «تاي فو»، و«تاي هينغ»، و«تاي دينغ». كما أن تولي المرء وظيفة، يُطلق عليه «شانغ تاي» (أي صعد درجات السلّم الوظيفي)، والإقصاء من وظيفة يُعرف بـ «شيا تاي» (أي نزل من السلم الوظيفي، بمعنى الطرد من الوظيفة). والمقصورة باعتبارها نوعاً من المباني داخل الحدائق، ليست مقصورة منعزلة وعارية في أغلب الأحايين، بل تندمج مع الجوسق، وتعد بيتاً فوق سطح، وبناية عالية تشكل وحدة كلية من البنايات العالية الشامخة، ومن ثم ظهرت «مقصورة مطلة»، و«مقصورة ظليلة»، و«البنايات العالية» وغيرها من الأسماء الأخرى. وتصميم المناظر في الحديقة يحرص كثيراً على أن المقصورة المرتفعة تتاخم النهر أو الجدول، وتحقيق التناغم والانسجام بين المقصورة والنهر. ويوجد في التاريخ بعض أبنية السياحة والتجوال والمتعة التي يتمحور تصميمها على المقصورة بصورة أساسية، ومثال ذلك، «مقصورة قوصو» التي شيدها وو وانغ نهليه في فترة الربيع والخريف، و«مقصورة تونغ شيوه» التي شيدها رئيس الوزراء تساو تساو في فترة الممالك الثلاث، ناهيك عن «مقصورة جين خو»، و«مقصورة بينغ جينغ»، ولاسيما مقصورة تونغ شيوه، قبل تشييدها طلب تساو تساو من نجله ويدعى تساو جي أن يصعد إليها ويكتب قصيدة، وكتب «قصيدة صعود مقصورة». وقبيل وفاته، وإحياء لذكراه، أمر تساو تساو بأن يدفن جثمانه بجوار معبد شيمين باو، ونصب خيمة فوق هذه المقصورة، وقدم أنواع مختلفة من الفاكهة، ثم طلب من راقصة كانت ترافقه في حياته أن ترقص أمام قبره في اليوم الخامس عشر من كل شهرٍ. وبعد وفاة تساو تساو، وتنفيذاً لوصيته، تأثر المثقفون والأدباء أيما تأثر بذلك، وألفوا مقطوعة موسيقية في ديوان الموسيقى بعنوان «راقصة مقصورة

تونغ شيوه» (تسمى أيضاً «شكوي مقصورة تونغ شيوه»)، والأعمال الأدبية التاريخية التي تناولت هذا الحدث كثيرة ومتعددة. ولذلك، أحرزت هذه المقصورة شهرة ذائعة بين سائر المقاصير الأخرى، وأطلالها باقية إلى الآن.

والمقاصير التاريخية المشهورة الموجودة حالياً شهد معظمها الترميم المستمر وإعادة البناء في الأجيال المتعاقبة، ومثال ذلك، «مقصورة يوه وانغ» (في مدينة شاو شينغ في مقاطعة تشجيانغ) وهي مكان التدريب العسكري للملك قوجيان في مملكة يوه، و«مقصورة تشونغ» (في مدينة دان في مقاطعة خبي) وكانت المكان المخصص للملك وولين في مملكة تشاو لمشاهدة المناورات العسكرية وحفلات الرقص، و«مقصورة شيما» (في مدينة شوه تشو في مقاطعة جيانغصو) وهي ساحة سباق الخيول، وكان يجلس فيها القائد المتمرد شيانغ يوه لمشاهدة هذا السباق، و«مقصورة قه فينغ» (في محافظة بيه في مقاطعة جيانغصو)، و«مقصورة باي جيانغ» (في مدينة هان تشونغ في مقاطعة شنشي) وهي المكان الذي أصدر فيه الإمبراطور ليو بانغ أوامره أن يكون هان شين جنرالاً عسكرياً.

ونتناول في هذا المقام أيضاً ما يطلق عليه «لو+ قه»؛ وهما لا يوجد فرق كبير بينهما، وكلاهما من الأبنية التي تتألف من دورين فأكثر، ويكمن اختلافهما في أن «قه» تشمل في الغالب نوافذ في الجهات الأربع أو تصميمها قائم على درابزين ورواق منعطف، بينما «لو» (بناية عالية) تشمل ثلاثة جدران ونافذة واحدة. ولكن الأحوال الواقعية ليست على هذا النحو، فهناك بعض البنايات التي يطلق عليها «لو» وتحوي أربع نوافذ في الجهات الأربع. وأقدم مبنى «لو» كان يتألف من دورين، ولذلك ذكر «قاموس شرح كلمات» أن: «مبنى لو يضم دورين». وكان «لوقه» يعتبر غرفة معيشة تستخدمها فتيات الأسر الأرستقراطية على وجه الخصوص، ولذلك كان يوجد «شيوه لو» (لو التطريز)، و«قوي قه» (خدر الفتيات)، حتى بيوت المومسات كان يطلق عليها «تشينغ لو» (البناية الخضراء). وبالإضافة إلى ذلك، كانت بنايات «لوقه» تستخدم في تعليق الأجراس والطبول، وتخزين الكتب، والحفاظ على الإله بوذا، وتجميل بوابات المدن، ولذلك كانت توجد أبنية «تشونغ لو» (بناية الساعة)، و«قولو» (بناية الطبول)، و«تشينغ لو» (برج المدينة)، و«تسانغ شوقه» (بناية تخزين الكتب)، و«بناية إلهة الرحمة في البوذية»، و«بناية الإمبراطور اليشمي». وكانت بناية «لوقه» تشيد دائماً فوق

مقصورة داخل القصر الإمبراطوري في العصر القديم، وتعتبر المقر الرسمي لرئيس الوزراء، ولذلك كان يطلق على الوزارة «نيي قه» (وزارة في بناية قه)، ولكن كانت تشيد في الجبال والأنهار والبقاع رائعة الجمال، بصفتها من أبنية التمتع بالمناظر الطبيعية، وكان تصميمها يحرص على «الارتفاع الشاهق، وتدفق ماء نهر، وأسفلها مثل الأخدود الغائر» حتى تجعل الزائر الذي يصعد إليها للتنزه والمتعة تستطيع عيناه أن تحتضن المشاهد الجميلة والخلاقة في الطبيعة. ويقول الشعر في أسرة تانغ: «تسطع الشمس على الجبل في الصباح الباكر، ويتدفق ماء النهر الأصفر ويصب في البحر. والصعود إلى بناية عالية (لو) للتمتع بالمناظر الطبيعية على بعد خمسة آلاف متر». والشعر هنا يعبر عن حدود الجمال التي تتاخم حدود الأفق، وطبعاً، في الحدائق صغيرة المساحة لا يجوز أن تكون أبنية «لوقه» مرتفعة جداً، بل يجب أن تنسجم وتتناغم مع المناظر الأخرى وتلتزم بمقاييس الجمال.

وتوجد الأبنية العالية المشهورة التاريخية الموجودة حالياً في الجبال والأنهار وفي البقاع ساحرة الجمال. ونذكر منها -في المقام الأول- البنايات الثلاث الكبرى في جنوب حوض تشانغجيانغ وهي: بناية هوانغ خه (بناية الكركي الأصفر) في مدينة ووهان في مقاطعة خونان، وبناية يوه يانغ في مدينة يوه يانغ في مقاطعة خونان، وبناية تانغ وانغ في مدينة نانتشانغ في مقاطعة جيانغشي، وتم تشييد كل منها على حده في نهر تشانغجيانغ، وبحيرة دونغ تينغ، وعلى ضفة نهر تشيان، وتتحلى بالجمال الرائع من منظر البحيرة ولون الجبال، وكانت مقصد الأدباء والمثقفين لقرض الشعر، وكتابة المقامات، وخلفوا وراءهم العديد من الأعمال الرائعة. وبالإضافة إلى ذلك، بناية بانغ لان (في مدينة بانغ لان في مقاطعة شاندونغ) ويحكى أنها المكان الذي شهد عبور الأولياء الثمانية البحر، ويظهر مشهد السراب الرائع، وبناية بايونغ (في مدينة جينهوا في مقاطعة تشجيانغ) التي نظم فيها شين يوه ثماني قصائد في الأسر الجنوبية، وهي المكان الذي تشردت فيه الشاعرة لي تشينغ تشاو في أسرة سونغ، ولذلك هناك مقولة مفادها: «بناية بايونغ مشهورة على مدى الدهر، والأجيال المتعاقبة تشعر بالقلق في جبل جيانغ». وبناية يان يو (في مدينة جياشيغ في مقاطعة تشجيانغ) هي مقر اجتماع الحزب الشيوعي الصيني، وبناية وانغ جيانغ (في مدينة تشينغدو في مقاطعة سيتشوان) وهي مقر إقامة الشاعرة شيوه تاو في أسرة تانغ، وبناية داقوان (في مدينة كونمينغ

في مقاطعة يونان)، وتحظى بشهرة عظيمة بعد أن عُلق عليها الدوبيت الذي كتبه الأديب صو ران وينغ في أسرة تشينغ، وبناية جيا شيو (في مدينة قويانغ في مقاطعة قوايتشو) وغيرها كثير من الأبنية التاريخية المشهورة.

المبحث السابع

هندسة تشييد أبنية القرابين الدينية

كانت أنشطة القرابين الدينية في المجتمع الإقطاعي الصيني بمثابة الأنشطة الروحية التي تتحلى بالأهمية الكبيرة داخل جميع الفئات والطبقات الاجتماعية، وتعبر عن المعتقدات الفكرية لدى الناس، ولذلك كان الأباطرة والملوك أو عامة الشعب والمزارعون والتجار والعمال لا يضنون* بالأموال الطائلة من أجل تشييد أبنية القرابين الدينية، ويتسم حجمها بالضخامة، وتصميمها في غاية الدقة والجمال، وتنتشر على نطاق واسع، وتستحوذ على إعجاب وتقدير الجميع. ويمكننا القول إن الأبنية الأكثر عدداً والأحسن جودة في المجتمع الإقطاعي كان معظمها من مباني القرابين الدينية، وهي أيضاً المباني القديمة الأحسن والأكثر عدداً التي مازالت باقية إلى يومنا هذا، وتشمل أشكال مباني القرابين بصورة أساسية كل من: المساجد، والمعابد، والأديرة، والمعابد الطاوية، ومن بينها مازالت المساجد أكثر هذه الأبنية الباقية إلى الآن ومعظمها يتحلى بالمؤثرات الخارجية، أما سائر الأبنية الأخرى فهي منقولة ومنسوخة من مباني القصور والإقامة والسكن في الصين، بمعنى بروز المحور الأوسط، وتحقيق التنسيق والتماثل بين الجانبين الأيمن والأيسر، ورواق مدخل القاعة يشكل الفناء الأمامي والفناء الخلفي، والمباني مرتفعة ومنخفضة، والتميز واضح بين الرئيسي والثانوي، ويتضافر ذلك كله في إبراز الفعالية الفنية. وفي التصميم المعماري لهذه الأبنية لا يمكن إغفال احتياجات الأنشطة للمعتقدات الدينية والقرابين جراء سيطرة الأفكار الدينية، ولذلك تشكيلة هذه المباني أكثر نسيفاً وتنظيماً، وصرامة وإجلالاً من القصور ومباني الإقامة والسكن، وتبدو في حالة تتسم بالقولبة الشديدة.

وكان تصميم أبنية القرابين الدينية الموجودة حالياً على غرار المباني التقليدية التي يراعى فيها قواعد ونظام الطقوس، ومباني المعابد البوذية والطاوية الأكثر بروزاً، ومباني المعابد البوذية الباقية هي الأكثر عدداً. وأصل مباني المعابد البوذية في الصين يرجع إلى الهند، ولكن بعد أسرتي سوي وتانغ، لم يعد تصميم مسطحها وهيكل قاعتها يختلفان كثيراً عن القصور في الصين. وعلى الجملة، فإن المعبد البوذي الهندي يعد نوعاً من «الهيكل المعماري يجمع

بين الباغودا والمعبد»، ويعني ذلك بناء باغودا في قلب المعبد من أجل حفظ الرفات المقدس لبوذا. ومباني المعابد البوذية في المرحلة الأولية في الصين كانت عبارة عن الهيكل الذي يجمع الباغودا والمعبد معاً. وبعد عصر أسرة تانغ، انفصلت الباغودا عن المعبد، وبعد أسرتي سونغ ويوان، تخلص هذا الهيكل من المؤثرات الخارجية بصورة كاملة، وأصبح تصميمه على غرار الأسلوب المعماري الصيني في مباني القصور. ومثال ذلك، قبل أسرة سونغ، انتشر على نطاق واسع «نظام الغرف السبع في المعبد البوذي»، ويعني ذلك أن المعبد البوذي، يتألف من سبع غرف هي: بوابة الجبل، قاعة بوذا، قاعة الطقوس، قاعة الرهبان، قاعة الكتاب المقدس، غرفة التخزين، غرفة الاستحمام، والمبنى الرئيسي لا يطلق عليه اسم «قصر». وفي عام 1103م، كان المبنى الرئيسي لمعبد كونفوشيوس عبارة عن «قاعة داتشينغ»، والمبنى الرئيسي لمعبد قوان قونغ عبارة عن «قاعة تشونغ نينغ»، وحذا المعبد البوذي حذوهما وتأثر بتصميمهما، وبات المعبد البوذي يعني «قاعة داشيونغ باو». وبعد أسرة سونغ، تلاشي نظام الغرف السبع رويداً رويداً، واختلفت أحجام المعابد البوذية، كما اختلفت تشكيلتها في الغالب أيضاً جراء تباين المذاهب الدينية البوذية. وغالبية المعابد البوذية الباقية تم تعديل هيكلها أو إعادة بنائها من جديد في أسرتي مينغ وتشينغ، وجسدت التشكيلة المعمارية الرئيسية في هاتين الأسرتين الحاكمتين، والتي كانت –بصفة عامة– عبارة عن «قاعة بوابة الجبل»، وتتألف من ثلاث بوابات، من بينها توجد بوابة على الأقل يجب أن يكون تصميمها على غرار القصر، ثم نتقدم إلى الداخل حيث توجد «قاعة تيان وانغ»، و«قاعة داشيونغ باو»، و«قاعة إلهة الرحمة البوذية»، و«قاعة التخزين الأرضية»، و«مبنى حفظ الكتاب المقدس»، وتقام على الجانبين الأيمن والأيسر سائر مباني القاعات الأخرى. وهده تشكيلة المعابد البوذية في المناطق الفسيحة الأرجاء في الصين. أما بخصوص المعابد البوذية في منطقتي منغوليا والتبت يختلف تصميمها وتشكيلتها عن المعابد داخل الصين، وأحجامها ضخمة نسبياً أيضاً. ونظراً لأن معظم المعابد البوذية، يتم بناؤها في غابة جبلية، ولذلك يكون تصميم المعبد يتاخم الجبل ويتناسق مع تضاريس الأرض، وتتناثر الأبنية المرتفعة والمنخفضة، وتندمج مشاهد رجال القلم والمثقفين في المشاهد الطبيعية، ويمنحهم مشاعر جمالية زاخرة. وطبعاً، مباني البوذيين لا تدخر وسعاً في إبراز المغزى الديني والتعبير عن السعي الدؤوب والاجتهاد في العقيدة الدينية، ومثال

ذلك، بعض المعابد البوذية يوجد بها سُلم خارج بوابة الجبل يتكون من ثلاث وخمسين درجة، والترنيم سراً بما جاء في الكتاب البوذي المقدس ثلاثاً وخمسين مرة تقديراً واحتراماً لبوذا، وبعض المعابد يوجد أمامها سُلم مدرج من مائة وثمانين درجة تمثل مائة وثمانين نوعاً من الاضطراب والقلق النفسي، والصعود إلى نهاية هذا السلم يخلص الإنسان منها. ويتشابه في ذلك «قمة بوذا»، و«معبد الجبل الجنوبي» حيث تم بناؤهما على جبل يتألف من خمس مصاطب.

و«قونغ قوان» (معبد طاوي) من أبنية الديانة الطاوية، والمعابد الطاوية من هذا التصميم الموجودة حالياً تتفوق على عدد المعابد البوذية. والتصميم المعماري لمعبد «قونغ قوان» يحاكي المعبد البوذي، ولكن لا يشيد باغودا بصفة عامة، وهناك تباين في تصميم قاعاته جراء اختلاف طقوس القرابين الأساسية لإلهة الطاوية. وعلى الجملة، يشمل هذا المعبد على «بوابة الجبل»، و«قاعة سان تشينغ»، و«قاعة سي بيه» (وتسمى «قاعة سي يو» أيضاً)، و«بناية يوهوانغ» (الإمبراطور الشجي)، وبعض المعابد تشمل أيضاً «قاعة تشين وو»، و«قاعة لين قوان»، و«قاعة ليه زو»، و«قاعة سان هوانغ»، و«قاعة وانغمو» وغيرها. ومثال ذلك، «المعبد الطاوي باي يوق» في بكين، تشمل تشكيلة تصميمه بالترتيب على: بوابة مزخرفة، بوابة جبل، قاعة لين قوان، وقاعة يوهوانغ، قاعة لاوليه، قاعة تشيو زو، قاعة سيبو، وتتحلى كلها بالضخامة والعظمة، وملامحها تشبه كثيراً المعبد البوذي، ورسوم الزخرفة والزينة لا تزال تستخدم الرسوم الطاوية. و«المعبد الطاوي بونغله» في محافظة روى تشينغ في مقاطعة شانشي، وتم بناؤه من أجل تقديم القربان للقديس ليه دونغ بينغ، وهو من الأولياء الثمانية عند عبورهم البحر، كل واحد يبرز قدرته الخاصة، ويتألف المعبد من: بوابة المعبد، قاعة لونغ خو، قاعة سان تشينغ، قاعة تشون يانغ، وقاعة تشونغ يانغ، وتمثل هذه القاعات المبنى الرئيسي للمعبد، ورسومه الجدارية الداخلية التي تنتمي إلى أسرة يوان مشهورة في الصين وخارجها.

و«تسي مياو» (المعبد الطاوي التذكاري) ينتمي إلى الأبنية التقليدية الخاصة بنظام طقوس القرابين، وتصميمه ينطوي على معابد ثقافية كامنة، وينسجم مع نظام هذه الطقوس التقليدية، ومن الأمثلة النموذجية لهذه المعابد توجد في بكين مثل: المعبد السماوي، والمعبد الأرضي، ومذبح قرابين الشمس، ومعبد يوه، ومعبد شهجي. والمفاهيم التقليدية في الصين تعتقد

أن: «السماء في الجنوب، والأرض في الشمال، والشمس في الشرق، والقمر في الغرب»، و«السماء دائرية، والأرض مربعة»، ولذلك المعبد السماوي في ضاحية بكين الجنوبية، وتصميم مبانيه دائري، ومعبد هوانغ تشيو، ومعبد تشي نيان يوجد بهما درابزين، والأحجار تغطي أرضيتهما والأعمدة تتوافق مع الظواهر الفلكية، ويقع المعبد الأرضي في ضاحية بكين الشمالية وأبنيته على شكل دائرة ومثبت فوقه ما يرمز إلى مساحة الصين الشاسعة، ومذبح قرابين الشمس في ضاحية بكين الشرقية، ومعبد يوه (القمر) في ضاحية بكين الشمالية وتصميم أبنيته دائرية أيضاً. أما معبد شهجي فيرمز إلى الدولة، ويجسد الثقافة الزراعية ومثبت فوقه «تراب في خمسة ألوان»: اللون الأصفر في الوسط، والأخضر في الشرق، والأبيض في الغرب، والأحمر في الجنوب، والأسود في الشمال، ويرمز ذلك إلى المغزى العميق من أن «الإمبراطور يسيطر على كل العالم، ولا يوجد تراب ليس ملكاً له». وتصميم الوحدة الكلية المسطحة في المعابد الأخرى يكون على شكل معبد «سي مياو» ويشبه تشكيلة الفناء في القصور وأبنية السكن والإقامة. ونقول بصفة عامة، أن حجم المعبد أكبر من المبنى التذكاري لتقديم طقوس القرابين. وفي علم هندسة البناء، يُطلق على الفناء الذي يفصل بين المباني فوق المحور الأوسط والجدران اسم «مدخل». وكل فناء هو «مدخل» يزداد باطراد حسب تنظيم المبنى، والمعبد الطاوي يشتمل على مدخل واحد فقط، حيث توجد قاعة كبيرة قط بعد بوابة الدخول، ثم جناح (غرفة جانبية) في كل من الشرق والغرب. والمعبد الأكبر حجماً نسبياً يمكن أن يشتمل على «ثلاثة مداخل»، ومثال ذلك «معبد الشاعر تشيوي يوان» في مدينة نيلو في مقاطعة خونان. وتختلف أحجام المعابد، وباستثناء المعابد الرئيسية الصغيرة، فإن معابد تقديم القرابين للأباطرة والنبلاء والفضلاء، وقرابين الجبال الخمسة الشاهقة والبحار الأربعة أحجامها كبيرة نسبياً، وتبدأ من ثلاثة مداخل، وبعضها يشمل أربعة مداخل، وخمسة مداخل، وستة مداخل، وسبعة مداخل، وثمانية مداخل، وتشكل مجموعة من المباني التقليدية العظيمة. وحسب الاعتقاد السائد، فإن كونفوشيوس في مدينة تشوفو في مقاطعة شاندونغ تصميمه المعماري يحاكي قصور الأباطرة، ويتضمن تسعة مداخل، و«معبد تشونغ يوه» في سفح جبل سونغ في مقاطعة خنان، يشمل أحد عشر مدخلاً من بوابة تشونغهوا إلى بناية يوشو، ويطلق عليه، بالإضافة إلى معبد كونفوشيوس، والمدينة المحرمة في بكين، لقب

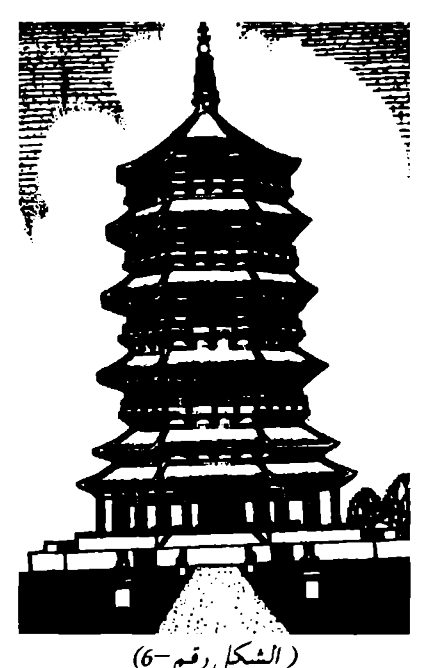
«المباني القديمة الثلاثة الكبرى في الصين». ومن المعابد الكبيرة الأخرى، معبد قوان دي في مدينة قون في مقاطعة شانشي، ومعبد الفيلسوف مينشيوس في مدينة تشوتشينغ في مقاطعة شاندونغ، ومعبد ووخو في مدينة تشينغدو في مقاطعة سيتشوان.

وأبنية الباغودات الموجودة حالياً كثيرة جداً، وتذكر إحصائيات أن الصين يوجد بها أكثر من ثلاثة آلاف باغودا، ناهيك عن أكثر من مائة باغودا تاريخها أقل من سبعمائة أو ثمانمئة سنة. وتعد الباغودا جزءمن المباني الدينية بصورة أساسية، كما أنها تعد نوعاً من المباني الأساسية في الديانة البوذية، ولٰكن مع تطور الأجيال المتعاقبة، اضطلعت الديانة الطاوية ومثقفو الكونفوشيوسية بتشييد الباغودات، حيث تم بناء بعضها في البقاع السحرية رائعة الجمال في الجبال والأنهار، ويجسد ذلك الصفة المميزة للباغودات من أنها تتاخم المناظر الطبيعية. ونظراً لأن معظم المعابد البوذية تم بناؤها في مناطق الجبال الجميلة والمياه الرقراقة، وفي العصور التاريخية المختلفة، كان يتم تدمير المعبد في أغلب الأحيان وتبقى الباغودة، ومن ثم أصبحت هذه المعابد بمثابة أبنية تضفي جمالاً وبهاء على المناظر الطبيعية. وتزخر الباغودات بالجمال والأبهة والجاذبية، كما أنها سامقة وشاهقة، وقائمة فوق قمة الجبل أو على ضفاف الأنهار، أو تكون قائمة بذاتها ومنظرها جذاب ورائع، أو تكون باغودتان متناظرتين، أو ثلاث باغودات قائمة معاً، مما يجعلها تزيد الجبال والأنهار بهجة وغبطة، وتضفي جمالاً وجاذبية على الأرض الشاسعة، وأصبحت من الأبنية الشاهقة ذات الأسلوب المميز والفريد.

وأصل تصميم الباغودا يرجع إلى الباغودا الهندية «صو دو بو»، وكانت تستخدم في حفظ «شهلى» (الرفات المقدس) لمؤسس البوذية ساكيا موني، ويشمل الرفات عظام بوذا، أسنان بوذا، شعر بوذا. ولذلك يطلق على الباغودا «باغودا شهلي» (باغودا الرفات المقدس). وبعد ذلك، استخدمت الباغودا في حفظ الكتاب البوذي المقدس ودفن كبير الرهبان، وظهرت «باغودا الكتاب المقدس» و«باغودا القبر»، ثم أصبحت بناية لإحياء الذكرى رويداً رويداً. وفي أواخر أسرة هان، انتشرت الباغودات مع قدوم الديانة البوذية إلى الصين. وتذكر سجلات تاريخية أن مدينة لوايانغ شهدت بناء أول باغودا ويطلق عليها «باغودا باي ما» (الحصان الأبيض)، وكانت مربعة الشكل، واستخدمت الأخشاب في تشييدها، وتقع في قلب فناء المعبد، وشكلها وتركيبها يتأثران تأثيراً لا فكاك منه من تشكيلة باغودا المعبد في

الهند. وبقدوم أسرة تانغ، استوعبت الباغودا أسلوب الصين في الهندسة المعمارية تدريجياً، واندمجت في أشكال التصميم المعماري الصيني، واستخدم في تصميمها تشكيلة المسطح من الأضلاع الستة، والأضلاع الثمانية، وغيرها من أشكال الأضلاع الأخرى، وخرجت إلى حيز الوجود باغودات من شتى الألوان والأشكال. أما بخصوص المواد التي استخدمت في بناء الباغودا، فقد كانت الأخشاب أقدم هذه المواد، وبعد عصر أسرة تانغ، تم استخدام الأحجار، والنحاس والحديد، والزجاج، والفخار والخزف، والذهب والفضة. ويمكن أن ندرك القوة الضخمة الكامنة التي تتحلى بها الثقافة الصينية في استيعاب الثقافة الأجنبية واحتضانها والاندماج فيها من خلال ظهور الباغودات وتطورها.

ويمكن تقسيم الباغودات إلى خمسة أنواع حسب شكلها هي: «شكل لوقه»، و«شكل الأطناف الكثيفة»، و«شكل لاما»، و«باغودا الزهور»، و«باغودا حارس بوذا وكرسي الملك» (انظر أشكال الباغودات من رقم 6–10)، وبناء باغودا على شكل لوقه يكون حسب الهيكل الخشبي متعدد الطوابق التقليدي الصيني، وأعدادها كثيرة جداً، وتمثل التصميم الرئيسي في تشييد الباغودات القديمة في الصين. وهناك باغودات تستخدم الحجارة في تشييدها على غرار الهيكل الخشبي، ومثال ذلك، باغودا «دايان» في شيآن. وتتجسد خصائص هذا النوع من الباغودات في أن المسافة بين الطوابق كبيرة، وتصميم كل طابق يحتوي على باب ونافذة وروافد السقوف الصينية، وتوجد أطناف خارج الباغودا، ويوجد سلم داخل الباغودا للصعود إلى أعلاها ومشاهدة المناظر القاصية. والباغودات الخشبية هي: باغودا خو تشيو في صويتشو، والباغودة الخشبية في محافظة ينغ، وباغودا ليو تشونغ في هانتشو، وباغودا تيه في كايفنج، وباغودا هاي ياو في ينتشوان. وظهرت باغودات الأطناف الكثيفة في أسرة وي الشمالية، وانتشرت في أسرتي لياو وجين، واستخدمت في الغالب الطوب والحجارة في تشييدها، وملامحها تتجسد في أن الطابق الأول من الباغودا مرتفع وضخم بصفة خاصة، وفي هاتين الأسرتين الحاكمتين، كانت باغودا الأطناف الكثيفة فيها الطابق الأول يضم نقوش محراب تمثال بوذا، وتمثال بوذا، ونوافذ وأبواب، ومن الطابق الثاني فصاعداً، المسافة صغيرة جداً. بين الطوابق وأطناف الباغودا متشابكة وكثيفة جداً، ولذلك لا يوجد بها نوافذ وأبواب، وبعضها يحتوي على مجرد تصميم لنافذة صغيرة فقط، وداخل

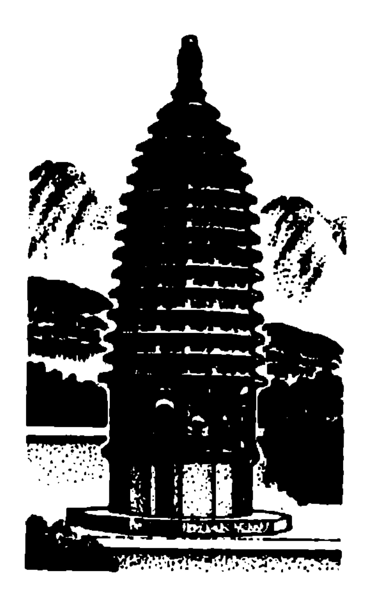


(الشكل رقم-6)
باغودة خشبية (على شكل بناية لوقه) في محافظة ينغ

الباغودا صلد وصلب ولا يوجد بها سلم، ولذلك لا يمكن الصعود إلى أعلاها. وهذا النوع من الباغودا يوجد بكثرة في المنطقة الشمالية الشرقية، ومن أشهرها باغودا بيي في أسرة لياو، وباغودا معبد تيان نينغ ومعبد تسي تشو في بكين، أما باغودا لاما فتنتشر في منطقتي منغوليا والتبت، ثم انتشرت في الشمال بعد أسرة يوان، وشكلها يشبه كثيراً باغودا «صو دو بو» في الهند، ومن أهم خصائصها أن شكلها مربع، وقاعدتها منخفضة، وهيكلها دائري ومنفتح، وقمتها مدببة، وتطلى باللون الأبيض، مثل الباغودا البيضاء في معبد مياو ينغ، والباغودة البيضاء في متنزه البحيرة الشمالية وكلاهما في بكين. بالإضافة إلى الباغودا البيضاء في البحيرة الغربية في مدينة يانغتشو.

أما باغودا الزهور، فقد ظهرت في أسرة تانغ، وانتشرت في أسرة لياو، ولكن ندر وجودها بعد أسرتي جين ويوان. وتبدو خصائصها في أن تصميم النصف العلوي يكون على شكل اللوتس، أو منقوش عليه ومزدان بمحراب تمثال بوذا، وتمثال بوذا، والأزهار والنباتات، وتظهر مثل الزهرة من مكان بعيد، ولذلك أُطلق عليها باغودا الزهور، ومن أشهرها باغودا الزهور في معبد قوانغ هوي في محافظة تشينغ دينغ في مقاطعة خبي، وباغودا الزهور في القاعة البوذية فانغ شانوان في بكين. وباغودا حارس بوذا وكرسي الملك عبارة عن بناء خمس باغودات صغيرة فوق منصة مربعة أو مستطيلة الشكل، بهدف تقديم القرابين لخمسة من آلهة بوذا الذين يحرسهم حارس بوذا. والرسوم الجدارية في الكهوف الحجرية في مدينة دونغ هوانغ تحتوي على هذا النوع من الباغودات، ولكن كان بناؤها واقعيا وفعليا في عصر أسرة مينغ، وعددها ضئيل للغاية، والموجود منها حالياً ومشهور نسبياً في الصين مثل: معبد الباغودات الخمس، ومعبد بييون ومعبد هوانغ في بكين، ومعبد الباغودات الخمس في مدينة هوهوت في منغوليا. وتصميم هيكل الباغودا ينقسم بصفة

عامة إلى أربعة أجزاء هي: القصر الأرضي، وقاعدة الباغودا، وهيكل الباغودا، ومعبد بوذي، وذلك لحفظ الرفات المقدس لبوذا، وأرقام الطوابق في الباغودا تستخدم الأرقام الفردية، حيث نجد الطابق الأول، الثالث، الخامس، السابع، التاسع، والحادي عشر، والثالث عشر، والباغودات العادية معظمها يتألف من سبعة طوابق، وأحد عشر طابقاً، وثلاثة عشر طابقاً. وتعد باغودا البوابات الأربع في محافظة ليتشينغ في مدينة جينان أقدم باغودة حجرية موجودة حالياً في الصين، وشكلها مربع وتتألف من طابق واحد، وتم بناؤها في عام 611م، وأقدم باغودة مبنية من الطوب موجودة حالياً هي باغودا معبد سونغ يوه في مدينة وينغ فينغ في مقاطعة خنان، وتضم ثلاثة عشر طابقاً من الأطناف المتشابكة الكثيفة، منها اثنا عشر طابقاً في شكل



(الشكل رقم-7)
باغودة معبد تسي تشو (شكل الأطناف الكثيفة)

أضلاع، وشُيدت في عام 520م في أسرة وي الشمالية، وأعلى باغودا مبنية من الطوب موجودة حالياً هي باغودا معبد كاي يوان في مدينة دينغتشو في مقاطعة خبي، وتشييدها على طراز بناية لوقه وعلى شكل ثمانية أضلاع وتحتوي على أحد عشر طابقاً، ويبلغ ارتفاعها أربعة وثمانين متراً، وشيدت في أسرة سونغ في عام 1055م، واستغرق بناؤها خمسين عاماً، وكانت تمثل نهاية حدود هذه الأسرة، وأُطلق عليها «باغودا لياودي» (باغودا توقع تحركات العدو) لأن الصعود إليها يجعلك تستطلع وتعرف أحوال العدو. وأقدم وأضخم باغودة خشبية موجودة حالياً هي الباغودة الخشبية في محافظة بينغ في مقاطعة شانشي، واسمها

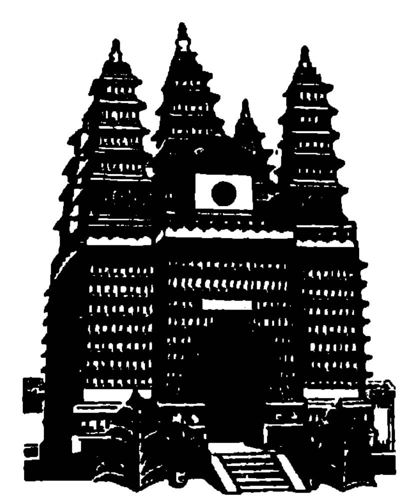


(الشكل رقم-8)
الباغودة البيضاء في متنزه البحيرة الشمالية (شكل لاما)



(الشكل رقم –9)
باغودة الزهور في معبد قوانغ هوي
(شكل الزهور)

الكامل «باغودا ساكا موني في المعبد البوذي»، مشيدة على طراز بناية لوقه، تضم ثمانية أضلاع وتتألف من تسعة طوابق وتم بناؤها في عام 1056م. وتعد باغودة تيه في مدينة كايفنج أقدم وأضخم باغودة زجاجية موجودة حالياً في الصين، ويطلق عليها «باغودا معبد يوقوي»، ويبدو زجاجها بلون الحديد، وهيكلها يحاكي الهيكل الخشبي، ومن طراز بناية لوقه تضم ثمانية أضلاع وثلاثة عشر طابقاً، وارتفاعها سبعة وخمسين متراً، وتم بناؤها في عام 1049م. وأعلى باغودة حديدية باقية إلى الآن هي الباغودا الحديدية في مدينة جيننغ في مقاطعة شاندونغ، وشكلها عبارة عن ثمانية أضلاع، ويوجد بها سلم من سبع درجات في أسرة سونغ، أصبح يضم تسع درجات في أسرة مينغ، وارتفاعها يبلغ 23,8 متر، يحوطها الحديد من الخارج، ومبنية بالطوب من الداخل، تحاكي الهيكل الخشبي في الباغودات. وبالإضافة إلى الباغودات الأحادية، يوجد أيضاً الباغودات المزدوجة في تايوان، وزوج من الباغودات أمام مدخل معبد باي في منطقة نينغشيا، ناهيك عن ثلاث باغودات قائمة معاً، ويطلق عليها دالي في مقاطعة يونان، والباغودات الثمانية في معبد تا أر في تشينغهاي، ومائة وثماني باغودات في تشينغ شيا في منطقة ننغشيا، وتعد هذه الباغودات كلها من الأبنية الجميلة الساحرة، وتعد من المناظر الخلابة الرائعة.



(الشكل رقم –10)
معبد الباغودات الخمس في هوههوت (شكل حارس بوذا وكرسي الملك)
المصدر: كتاب (الباغودات المشهورة في الصين)

المبحث الثامن

هندسة التزيين والزخرفة

المباني القديمة في الصين تتحلى بالفخامة والعظمة والأبهة، كما تحيط بها من الخارج هندسة التزيين التي تجعلها أكثر تناغماً وانسجاماً واجلالاً، ناهيك عن التغيرات التي تطرأ عليها. ويشاهد الناس دائماً المسلات الصينية، والبوابات التذكارية، وأبراج بوابات القصور، والجدران الحاجزة، وكلها تعد من أبنية هندسة التزيين والزخرفة التي تضطلع بدور التزيين والزخرفة، وفي الوقت نفسه، تستخدم في إحياء الذكرى والاستخدامات الأخرى.

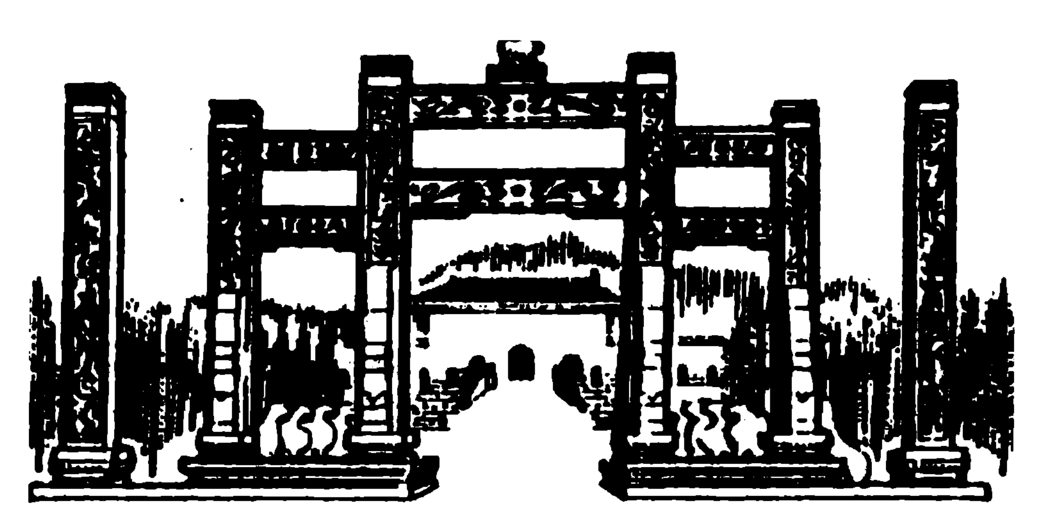
أولاً: المسلة الحجرية الصينية: تقام في العادة أمام بوابة المعبد، وأمام القبر، وفي أحد طرفي الجسر. وهناك أقاويل كثيرة حول نشأة وتكوين هذه المسلة. هناك من يرى أن نشأة هذه المسلة له علاقة بعلم الفلك، ويعتقد أن الأقدمين كانوا يستخدمون دائماً عموداً مستقيماً في تحديد الانقلاب الشتوي والانقلاب الصيفي، ثم أُستخدم هذا العمود في عملية البناء ولتحديد جهتي الشمال والجنوب، وبعد انقضاء فترة طويلة، حل العمود الحجري محل العمود الخشبي من أجل تزيين الإنشاءات وأصبح نوعاً من الأبنية الملحقة. وهناك قول آخر يعتقد أن نشأة هذه المسلة تطورت من «العمود الخشبي المخصص لإبداء الرأي» في العصر القديم، وتحكي الرواية في عهد الإمبراطورين الأسطوريين ياو وشوان، أنه كان يثبت خازوق خشبي عند مفترق الطرق الكبرى، ويتقاطع فوقه عارضتان خشبيتان أفقياً، ويطلب من الناس «التعبير عن رأيهم في هذين الإمبراطورين»، وكان يطلق على ذلك «خشبة إبداء الرأي»، وتستخدم في تجسيد النية الصادقة لدى الإمبراطور في قبول الرأي الآخر، وفي الوقت نفسه، يسهل على الناس معرفة الاتجاهات. وطبعاً، «خشبة إبداء الرأي» تعد نوعاً من الحكايات والأقاويل، ومن الصعب أن نجزم بأن الإمبراطور ياو هو المؤسس الأول لهذه المسلة. ولكن ، في العصر القديم، كان يوجد «جرس الإنذار الخشبي» وهو يعد نوعاً من الأدوات الخشبية التي يمكن قرعها وتحدث صوتاً. ويقول البعض إن الإمبراطور كان يستخدم هذا الجرس في استطلاع رأي الشعب، ويقرع سواد الناس هذا الجرس من أجل تنبيه سيادة الإمبراطور ابن السماء. ويرى آخرون أن هذا الجرس كان وسيلة الإمبراطور في الإعلان عن القرارات الحكومية،

حيث كان يبعث أحد الموظفين ويطلب منه قرع الجرس من أجل تحذير الشعب، ثم تم تثبيت الجرس أمام بوابة القصر الإمبراطوري وتلصق عليه الإعلانات. وربما شكل المسلة الحجرية له علاقة بشكل «الجرس الخشبي». ونعرف من سجلات تاريخية ونقوش نافرة على الطوب تم العثور عليها مؤخراً، أن المسلة الصينية كانت منتشرة إلى حد ما في عصر أسرة هان، وكان بعض مثل هذه المسلات قائم عند مفترق الطرق، وبعضها ينصب أمام المقابر، وكانت هذه المسلة مصنوعة من الخشب في هذه الأسرة وارتفاعها تشانغ (ثلاثة أمتار وثلث المتر)، وبها لوح خشبي يحوطها من الجهات الأربع، وكانت تشبه الزهرة. وفي عصر أسرة هان الشرقية، بدأ استخدام الأحجار في تشييد المسلة الصينية، وكانت تثبت أمام القبر بصفتها رمزاً للطريق المقدس. وفي الأسر الجنوبية والشمالية، شهدت المسلة نحت قرص دائري فوق قمتها، وفوق القرص حيوان سماوي جالس القرفصاء؛ وهو الحيوان الأسطوري ويدعى «بيه شيه»، وكان شكلها يشبه كثيراً المسلة التي نراها في الوقت الحاضر، ونصوص كتاب «تاريخ العاصمة لوايانغ» تذكر أن المسلة الصينية ظهرت على طرفي الجسور في أسرة وي الشمالية، وارتفاعها يصل إلى ثلاثين تشانغاً، ومثبت فوقها طائر العنقاء، وتبدو أنها تطاول عنان السماء. ويمكن أن نشاهد في كتاب «صور وأحوال عيد النقاء والصفاء» أن طرفي جسر قوس قزح يحتويان على أربع مسلات، ومثبت فوق قممها طائر الكركي، مما يوضح أن المسلة الصينية كانت من هندسة تزيين وزخرفة الجسور في أسرة سونغ. وفي الوقت الحاضر، تشتمل أحياء بكين على أكبر عدد ممكن من المسلات على هذا النحو: (1) توجد أربع مسلات حجرية على طرفي جسر لوقو، ويخترقها في أطرافها العليا لوح على شكل سحابة، وفوق قممها يوجد قرص دائري قاعدته من اللوتس وفوقها تمثال أسد حجري. (2) توجد أربع مسلات في مقدمة ومؤخرة ميدان تيان آنمين (السلام السماوي)، منقوش على أعمدتها تنين الطوفان، ويتخلل قممها لوح على شكل سحابة، وقممها دائرية على شكل قرص وفوقها مثبت حيوان خو (حيوان بري من آكلة لحوم البشر ويشبه الكلب- المترجم). ففي مؤخرة هذا الميدان توجد مسلتان في جهة الشمال ويطلق عليها «مخرج الإمبراطور» حيث يعلن من خلالهما أن الإمبراطور يغادر القصر في جولة تفقدية لأحوال الشعب، كما توجد مسلتان في مقدمة الميدان ذاته، ويطلق عليهما «انتظار عودة الإمبراطور» حيث يتم الإعلان من خلالهما أيضاً

أن الإمبراطور يعود إلى العاصمة لإدارة شؤون البلاد عائداً من جولة تفقدية وسياحية في الخارج. (3) توجد مسلتان أمام المبنى الإداري داخل البوابة الغربية بجامعة بكين، وهما من أطلال حديقة يوان مينغ يوان، تم نقلهما إلى هذه الجامعة. (4) توجد مسلتان وهما من أطلال مكتبة بكين في شارع ون جيه في البحيرة الشمالية في بكين.

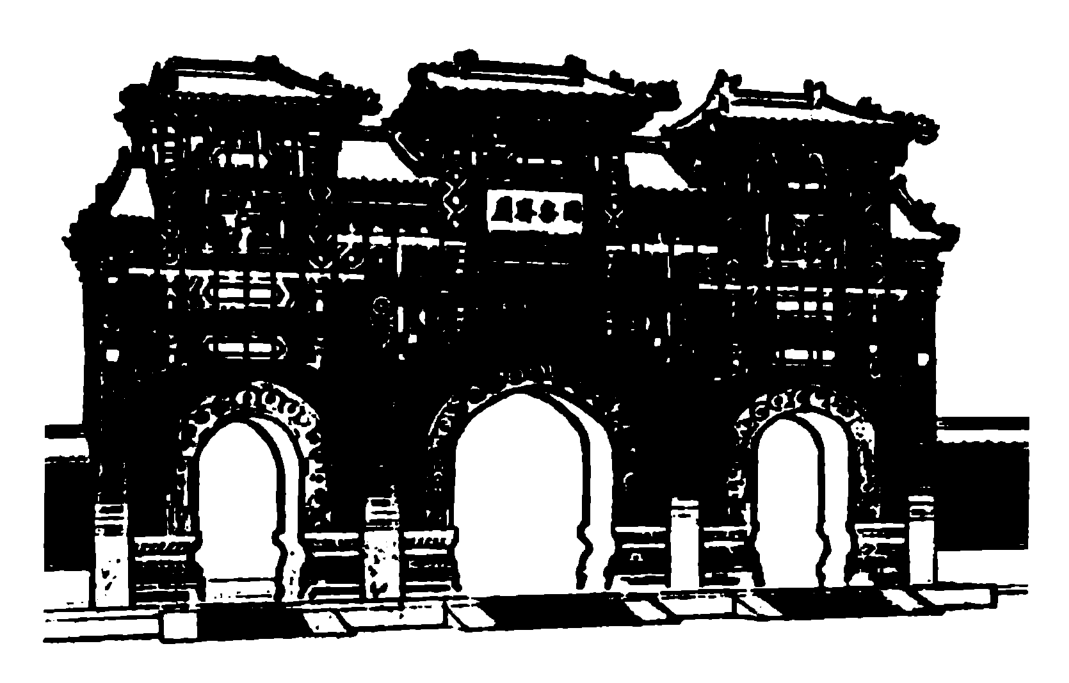
ثانياً: الأقواس التذكارية: ترتبط نشأة الأقواس التذكارية ارتباطاً محدداً بالمسلة الصينية، حيث يربط عمود خشبي بين مسلتين بصورة أفقية ويمكن أن يشكل بوابة ضخمة. وفي أسرتي سوي وتانغ، كانت المدن في الصين تنفذ نظام «البوابات المزخرفة في الأحياء»، وكان كل حي في المدينة تطوقه الجدران المحيطة من الجهات الأربع، وتقام بوابة مزخرفة في وسط الجدران، وهذه البوابة المزخرفة تتكون من عارضة خشبية أفقية أو لوح خشبي أفقي يثبت بين مسلتين. وإذا كان سكان منطقة ما داخل الحي يستحقون التكريم على الصعيدين العلمي أو الأخلاقي، فإنه يتم لصق إعلان على أعلى القوس ويسمى «إعلان التكريم». ومع تلاشي هذا النظام، بقيت البوابة المزخرفة قائمة بذاتها في مفترق الشوارع، وأصبحت بمثابة قوس تذكاري ومن هندسة التزيين والزخرفة. وكانت الأقواس التذكارية تعلق على طرفي الجسور، وأمام المعابد، وأمام المقابر، وفي مفترق الطرقات. وفي الوقت نفسه، احتفظت بدورها في التكريم الرسمي، وكانت تعلق هذه الأقواس كثيراً في العصر القديم من أجل المرأة العفيفة، والمرأة الشهيدة، والابن البار بوالديه، والوزير المخلص، والطالب المحلي في الامتحان الإمبراطوري الأعلى، وتطورت الأقواس التذكارية بدرجة أكبر وظهرت البوابات المزخرفة. وكان القوس التذكاري عبارة عن إضافة عارضة أفقية بين مسلتين، أما البوابة المزخرفة فهي تحاكي بناية لوقه حيث تشيد فوق العارضة الخشبية روافد السقوف الصينية والأطناف والأضلاع البارزة، وأصبحت بوابة تشبه بوابة بناية لوقه، وتحتوي غالباً على عدة فتحات (ثلاث فتحات أو خمس فتحات). والأقواس التذكارية والبوابات المزخرفة المتعددة الفتحات والمقامة في مفترق الطرق، كانت الفتحة الوسطى هي الأكبر بحيث تسمح بمرور المشاة والعربات. وكان يستخدم الخشب كثيراً في هذه الأقواس والبوابات في المرحلة الأولية، ثم استخدمت الأحجار كثيراً في أسرة مينغ، أو الطوب المرصع بالزجاج، وكانت أشكالها تحاكي الهيكل الخشبي، وكانت الأشكال الحجرية ينقش عليها كثيراً صور ورسوم في غاية الدقة والجمال. وفي العصر القديم، شهدت مدينة

بكين الكثير من البوابات المزخرفة، والآن لا يتبقى سوى أسماء أماكنها فقط؛ مثل دونغدان، وشيدان، حيث كان يوجد في كل منهما بوابة مزخرفة، واحدة في الشرق وأخرى في الغرب، أما في دونغسي، وشيسي يوجد في كل منهما أربع بوابات مزخرفة. كما تحتضن بكين في الوقت الحاضر عدداً غير قليل من مثل هذه الأقواس والبوابات التي يكثر معظمها في الحدائق والمعابد وفي المقابر مثل القصر الصيفي، والبحيرة الشمالية، وحديقة تشونغشان، ومعبد دونغ يوه، والمقابر الثلاث عشرة الملكية في أسرة مينغ، وفي القصور أيضاً. أما البوابات المزخرفة في الشوارع، توجد بوابتان فقط في شارع تشينغ شيان في بكين. وفي مقاطعة أنهوي، تتركز في محافظة شي الأقواس التذكارية والبوابات المزخرفة، ففي خارج هذه المحافظة، توجد «مجموعة الأقواس التذكارية تانغ يوه»، وهي عبارة عن سبعة أقواس تذكارية مترابطة وشكلها عجيب وغريب شيدتها العشيرة المحلية باو في عهد أسرتي مينغ وتشينغ من أجل تكريم الشخصيات البارزة من أبناء هذه القبيلة، وتم ترتيب هذه الأقواس حسب صفات الإخلاص، البر بالولدين، والطهارة والعفة، والخير، وتعكس باقتدار الخاصية الثقافية المميزة لهندسة التزيين، أما في داخل المحافظة توجد «البوابة التذكارية الحجرية شيوه قوي» وقلما نرى مثلها في أسرة مينغ ولها أربعة جوانب وثمانية أعمدة وشكلها مربع وشيدها الإمبراطور في أسرة مينغ لتكريم شيوه قوي لمآثره وإسهاماته الخالدة. كما توجد بوابتان تذكاريتان حجريتان في مدينة شينغ في مقاطعة لياولينغ شيدهما الإمبراطور تشونغ جينغ في أسرة مينغ لتكريم الأخوين زودا شو، وزودا ليه؛ وهما من الجنرالات العسكريين لمآثرهما في مقاومة أسرة تشينغ، ولكن لم يدر بخلده بعد أن انتهى من تشييدهما، أن الشقيقين غدرا بأسرة مينغ واستسلما لأسرة تشينغ، وتوجد حالياً بوابة زودا ليه فقط. ومن ناحية أخرى، توجد بوابتان مزخرفتان حجريتان في مدينة شان في مقاطعة شاندونغ، إحداهما تدعى «بوابة باي شو» ومنقوش فوقها كلمة «شو» (العمر المديد) مائة مرة، والأخرى تدعى «بوابة باي شي» ومنقوش فوقها «باي شي» (مائة أسد)، ولا يوجد نظير لها في البلاد كلها. وبالإضافة إلى ذلك، تم تشييد بوابات تذكارية ومزخرفة في غاية الدقة والجمال والروعة في جبل ووتاي في مقاطعة شانشي. (انظر الشكلين 11، 12)



(الشكل رقم-11)

بوابة مزخرفة



(الشكل رقم-12)

بنابة بايلو

المصدر: كتاب (أقواس البوابات والأقواس التذكارية في الصين)

ثالثاً: الأنصاب التذكارية. يرجع مصدر الأنصاب التذكارية إلى ما قبل أسرة تشين. وكانت هناك ثلاثة أنواع من هذه الأنصاب آنذاك، ولكنها كانت خالية من النقوش. النوع الأول يطلق عليه «نصب القبر التذكاري» مثبت في منتصف فناء القبر لتحديد ظل الشمس وتحديد الزمن. والنوع الثاني يطلق عليه «نصب المعبد التذكاري» مثبت في قلب فناء المعبد، ويستخدم في تقييد ذبائح أضاحي القرابين ويظل قائماً في مكانه للاضطلاع بهذه المهمة. والنوع الثالث يطلق عليه «شاهدة حجرية» توضع على جانب القبر، وتوجد فتحة فوقها، وتعتبر بمثابة عمود حجري يستخدم في سحب التوابيت الخارجية والداخلية عند إنزالها في القبر في قاع الأرض عند الدفن، وبعد انتهاء مراسم الدفن، تبقى هذه الشاهدة الحجرية في مكانها الأصلي، وفي الخلف يكتبون عليها بعض النصوص إحياء لذكرى الميت، ثم أصبحت من الأنصاب التذكارية فيما بعد. وقد عُثر على مثل هذه الشاهدات الحجرية التي تستخدم في سحب التوابيت عند الدفن في عملية التنقيب عن القبر الأول الضخم في أسرة تشين في مقاطعة شنشي. وتفيد اكتشافات أثرية، أن أسرة هان الغربية شهدت قيام بعض الأفراد بتشييد شاهدة القبر التذكارية، وقد أصبح ذلك عادة مألوفة ومنتشرة في أسرة هان الشرقية، ثم قام مسؤولون وفضلاء وأشراف، وأبناء وأحفاد بوضع شاهدات المقابر التذكارية، ومنقوش عليها نصوص تمتدح أخلاق ومآثر الميت والإشادة بأسر الحسب والنسب. وأصبحت إقامة أنصاب تذكارية عادة انتشرت انتشاراً واسعاً في أسرتي سوي وتانغ، وذلك ليس أمام المقابر فقط، بل وفي المعابد أيضاً، وبات بناء هذه الأنصاب أكثر دقة وروعة يوماً بعد يوم. وكانت الأسر الثرية والأرستقراطية لا تضن بالذهب على الأدباء البارزين والخطاطين المشهورين الذين يكتبون لها نصوص نقوش الشاهدة، ولذلك تتسم نقوش الشاهدات الموجودة حالياً من أسرة تانغ بالثراء والوفرة، وأصبحت من التراث التاريخي الثمين وفن الخط. وكانت الأنصاب التذكارية في العصر القديم تنقسم إلى نوعين، أحدهما مربع الشكل ويطلق عليه «نصب تذكاري»، والآخر شكله العلوي دائري، وأسفله مربع ويطلق عليه «بلاطة حجرية». وفي أسرتي سوي وتانغ، كانت اللوائح تنص على أنّ موظفي الدرجة الخامسة فأكثر ينصبون الأنصاب التذكارية التي تزدان برأس لي (تنين بلا أرجل في الأسطورة الصينية) ومشط قدم سلحفاة، أما سائر الأفراد فيمكن أن ينصبوا النصب التذكاري ولكن حظر عليهم استخدام رأس التنين

بلا أرجل ومشط قدم السلحفاة. وفي عصر أسرة مينغ، كانت تشكيلة رأس السلحفاة كبيرة جداً، مما يبرز قدرتها الفائقة علي تحمل المسؤولية، وجعلت الشكل العام للنصب التذكاري أكثر تناسقاً وتناغماً. أما بخصوص السلحفاة، فهي في الأصل ليست سلحفاة، بل كان يطلق عليها في العصر القديم «باشيا» وهو الابن التاسع للتنين الصيني ويتحلى بالقوة الخارقة ويحب المسؤوليات الجسام. والأنصاب التذكارية الموجودة في الصين كثيرة جداً، ومن الصعب أن يحصيها المرء. وأفضل مجموعة من الأنصاب التذكارية القديمة موجودة في غابة الأنصاب في مدينة شيآن في مقاطعة شنشي، وغابة الأنصاب في معبد كونفوشيوس في مقاطعة شاندونغ. وأكبر شاهدة قبر موجودة حالياً لصاحبها هان شي تشونغ في جبل لينيان في ضاحية مدينة صويتشو في مقاطعة جيانغصو، ويبلغ ارتفاعها ثلاثة تشانغات، ونقوش الشاهدة تحتوي على أكثر من ثلاثة عشر ألف كلمة، وهي بذلك تحتل المكانة الأولى في العالم. وبعد أن تولى الإمبراطور جولي العرش في أسرة مينغ، ومن أجل الإشادة بمآثر الإمبراطور جويوان جينغ، نحت شاهدة قبر له في أحجار جبل يانغ في ضاحية مدينة نانكين، وكان ارتفاعها ستين متراً، ولكنه لم يستطع نقلها أمام قبر الإمبراطور جويوان جينغ، وظلت هذه الشاهدة قابعة في مكانها في هذا الجبل إلى الآن، ويطلق عليها «حجر شاهدة القبر في جبل يانغ». وفي العصر القديم، كان هناك بعض الأباطرة يحبون أيضاً أن يقيموا أنصاباً تذكارية أمام مقابرهم، ولكن «خالية من النقوش»، ومثال ذلك، الإمبراطورة وو تسي تيان كانت تعتقد مآثرها وأعمالها الخالدة لا تحصى، ولا تكفي شاهدة قبرها أن تذكرها، ويرى البعض أنها كانت تعتقد أن أعمالها تخضع للتقييم من جانب الأجيال المتعاقبة، ولا يجوز أن تقيم بنفسها أعمالها في شاهدة قبرها. ومن الصعب أن نبت في هذا الأمر في نهاية المطاف. وفي المقابر الثلاث عشرة الملكية في أسرة مينغ معظم شاهداتها خالية من النقوش، وقد قيل إن الإمبراطور جويوان جينغ في حياته، انتقد نقوش الشاهدات قائلاً: «أن الشاهدات أمام مقابر الأباطرة عبارة عن نقوش ونصوص كتبها الأدباء المحذلقون، وأخشى أنها لا تكفي أن تقدم العظة والعبرة للأبناء والأحفاد في الأجيال المتعاقبة». وبعد ذلك لم يجرؤ المثقفون على كتابة شاهدات المقابر، وترتب على ذلك أن الإمبراطور يضطر إلى أن يكتب شاهدة قبره في حياته. ولكن المقابر السبع الأولى في مقابر أسرة مينغ المذكورة أعلاه، تم إقامة أنصاب تذكارية أمامها بصورة

رسمية في عام 1536م، وكان الإمبراطور الماجن السكير جيا جينغ لا يرغب في أن يكتب كثيراً من النصوص على شاهدة قبره، واضطر بعض الأباطرة في العصور اللاحقة إلى أن تظل شاهدات مقابرهم خالية من النقوش، لأن شاهدة قبر الإمبراطور زو زونغ كانت خالية من الكتابة أيضاً.

رابعاً: أبراج بوابات القصور. تعد هذه الأبراج من الأبنية الشاهقة أمام القصور في العصر القديم، وكان يطلق عليها قديماً «قوان» و«شيانغ وي»، ويعني ذلك الارتفاع الشاهق، وتكمن وظيفتها في لصق الإعلانات والأوامر الحكومية من جهة، وإبراز مكانة ومستوى صاحب القصر من جهة أخرى، ولذلك في فترة الربيع والخريف، كان هناك فرق بين قصر الإمبراطور وقصور الأمراء والحكام وسائر الأفراد، فالأول توجد به بنايتان شاهقتان خارج برجي بوابة القصر الإمبراطوري، أما الثاني فتوجد به بناية سامقة واحدة داخل برجي البوابة، ثم استخدمت الأجيال المتعاقبة «القصر الإمبراطوري» و«الأبراج العالية» و«برج السور» إشارة إلى القصور والعاصمة والبلاط الإمبراطوري أيضاً. وفي عصر أسرة هان، كانت تستخدم أبراج البوابة أمام المقابر لإظهار مكانة صاحب القبر ومستواه ودرجته، وفي الوقت نفسه كانت من هندسة التزيين وتقام خارج بوابة المعبد. وفي أسرة هان الشرقية، شهدت المعابد الثلاثة تاي شي، وتشاوشي، وتشي مو فوق جبل سونغ إنشاء أبراج البوابات، كلٌّ منها على حدة، وبعد مرور ألفي سنة من عوامل التعرية، تم تدمير المعابد وبقيت الأبراج، أطلق عليها التسمية العامة «الأبراج الثلاثة تشونغ تشيو». وتحتضن مقاطعة سيتشوان أكبر عدد من أبراج البوابات القديمة في الصين، وكلها من أبراج بوابات المقابر، ومن أشهرها «برج فاويي»، و«برج فينغ هوانغ» و«برج فإن مين»، وتعتبر جميعها من التراث المعماري في أسرة هان. وهذه الأبراج كلها منحوتة من الأحجار، وارتفاعها يتراوح بين أربعة وستة أمتار، وتحتوي على سقف في أعلاها، وقاعدة في أسفلها، وشكلها الخارجي يحاكي الهيكل الخشبي في بناية لوقه.

خامسا: الجدار الحاجز. يسمى «الجدار الحاجب» أيضاً، ويقام دائماً في داخل وخارج بوابات الوالي والمساكن والمعابد والحدائق، ويطلق على الجدار الذي يشيد خارج البوابة «الجدار الحاجز»، وداخل البوابة يُعرف بـ «الجدار الحاجب»، وكان يطلق عليهما التسمية

المشتركة «الحاجز» في العصر القديم. وذكر كتاب «شون تسي» أن: «الحاجز الخارجي يكون للإمبراطور، والحاجز الداخلي للأمراء والحكام». مما يوضح القواعد الصارمة في درجات ومستويات إنشاء الجدران الحاجزة في عصر ما قبل أسرة تشين. وفي السنوات الأخيرة، تم اكتشاف أطلال القصر الكبير في المرحلة الأولية لأسرة تشو الغربية، وذلك في محافظة تششان في مقاطعة شنشي، وتم العثور على أطلال الجدران الحاجزة في خارج البوابة الرئيسية لهذا القصر، وتتشابه تماماً مع ما ذكرته الوثائق في نظام الطقوس والمراسم. ويعتقد أن عصر يوان شهد ظهور الجدران الحاجزة داخل البنايات على نطاق واسع. ونفذ حكام أسرة يوان نظام «الوحدات الريفية» في القرى والأرياف، وكانت كل وحدة تتألف من خمسين أسرة، ورئيس الوحدة مسؤول عن الإنتاج وتحصيل الضرائب. وقررت الحكومة آنذاك أنه يجب على كل أسرة أن تشيد جداراً أمام فناء الدار، والأسرة التي تخالف هذا النظام تتعرض للعقاب حسب اللوائح بعد أن يسجل رئيس الوحدة اسمها على الجدار. وبعد أفول نجم أسرة يوان الحاكمة، ظل نظام تشييد هذا الجدار قائماً وأصبح نوعاً من المباني الملحقة. ومنذ أسرتي مينغ وتشينغ، انتشر هذا النظام انتشاراً واسعاً، حتى أصبح عادة شائعة أن تشاهد بناء الجدار الحاجز أمام العديد من الإدارات الحكومية والمعابد والأديرة والمساكن، ولذا كان هناك اهتمام شديد بتصميم الجدار الحاجز وتزينه والمواد المستخدمة في بنائه. ويعد «جدار التنانين التسعة» في مدينة داتونغ في مقاطعة شانشي أجمل وأروع جدار حاجز مازال موجوداً إلى الآن، ويبلغ طوله 45,5 متر، وارتفاعه ثمانية أمتار، وسمكه متران، وهو جدار بالمينا الملونة، ويحاكي الهيكل الخشبي في سقف قصر وو، وتحوطه تسعة تنانين والأطناف في الجهات الأربع، كأنما هو كائن حي، وكان أصلاً الجدار الحاجب أمام بوابة مقر ولي العهد في أسرة مينغ. كما يوجد جدار حاجز في معبد تشينغ هوانغ في مدينة هان تشونغ في مقاطعة شنشي بدأ بناؤه في أواخر أسرة مينغ، ويبلغ طوله أربعة عشر متراً، وارتفاعه خمسة أمتار، وسمكه 1,2 متر، وأصبح جداراً عازلاً بين المناطق السكنية بعد تدمير المعبد، وتم اكتشافه في السنوات القليلة الماضية، وفي مدينة شيانغ فإن في مقاطعة خوبي يوجد «جدار الظل الأخضر»، وكان أصلاً الجدار الحاجب أمام بوابة ولي العهد في أسرة مينغ، واستخدمت الأحجار في بنائه، ويزدان مسطحه باثنين من التنانين وبينهما كرة، كما يوجد الجدار الحاجز أمام معبد إله المدينة في

منطقة سونغ جيانغ في مدينة شانغهاي، وتم بناؤه في أسرة مينغ أيضاً، ويحوي الجدار على حيوان غريب اسمه «تان» (الجشع)، بالإضافة إلى قرون الغزال، وذيل الأسد، وحافر البقرة، وحراشف التنين، وقد قيل إن جشع هذا الحيوان كان لا يضاهى وليس له مثيل، وحاول أن يلتهم الشمس، فسقط في البحر العظيم ومات غرقاً، والمغزى في قصته أن يتخذ الإنسان عبرة وعظة من جشعه وطمعه. وهناك أيضاً جداران يحوي كلٌ منهما تسعة تنانين في البحيرة الشمالية والمدينة المحرمة في العاصمة بكين، وتم بناؤهما في أسرة تشينغ، وحجمهما ليس صغيراً أيضاً، ولكن لا يمكن مضاهاة مستوى جمالهما ودقتهما بجدار التنانين التسعة في مدينة داتونغ المذكورة أعلاه.

المبحث التاسع

دار الولاية ونادي الرابطة

توجد بنايتان -من الأبنية القديمة الموجودة حالياً في الصين- تستحقان الإشارة إليهما وذكرهما، وهما: دار الولاية، ونادي الرابطة، يطلق على دار الولاية لقب «يامين» أيضاً، وهي ساحة الإدارة الخاصة بالموظفين الرسميين الإقطاعيين، ووظيفتها ذات صبغة سياسية، أما «نادي الرابطة» فهو ساحة الأدباء والمتثقفين والتجار، ووظيفته ذات صبغة ثقافية واقتصادية، ولا توجد ثمة قواسم مشتركة بين هاتين البنايتين، ولكن وجودهما يقدم لنا فرصة لفهم هيكل المجتمع الصيني في العصر القديم.

أولاً: دار الولاية: تعرف الصين دار الولاية منذ القدم، وكان يطلق عليها آنذاك «يامين». وفي العصر القديم، كان الجنرال العسكري يقود القوات ويرفع علماً كبيراً إشارة إلى بوابة المعسكر. ونظراً لأن تزيين هذا العلم من أعلى يشبه «يا» (الأسنان)، فقد أطلق على العلم العسكري تسمية «علم يا» (أي العلم الذي يشبه الأسنان)، ومن ثم، أُطلق على بوابة المعسكر تسمية «بوابة يا» (بوابة الأسنان). كما جرى العرف في الأجيال المتعاقبة إطلاق تسمية «يا مين» على إدارة الموظفين المدنيين. وتخبرنا السجلات الوثائقية المعنية أن تسمية «يا مين» أُطلقت على الإدارة المدنية في عصر أسرة سونغ على الأقل.

ولا نستطيع أن نتصور الملامح الأساسية لمبنى دار الولاية الأقدم نسبياً، لأننا نفتقر إلى المعلومات المرجعية في هذا الخصوص. وصور دار الولاية التي سردها تاريخ المحليات تدلنا على أن دار الولاية في أسرتي مينغ وتشينغ كانت عبارة عن مجموعة من المباني تشمل ثلاث ساحات، وطبعاً تختلف أحجامها وارتفاعها. وبعد أن اندثرت دواوين الولايات في كافة الأصقاع في عصر أسرة تشينغ، وبعد أن أفل نجم دار الولاية في عهد هذه الأسرة، تغيرت وظيفة هذه الدار، ولذلك تلاشت ملامحها ومعالمها الأصلية. ومن حسن الطالع، أن هناك بعض الدواوين الخاصة بالولايات والمحافظات التي ما زالت باقية في حالة جيدة تماماً، ويمكن أن تقدم لنا المعرفة الأساسية في هذا الصدد؛ ومثال ذلك ديوان محافظتي نيه شيانغ، ويه في مقاطعة خنان، وديوان محافظتي سينغ ياو، وهواتشو في مقاطعة شانشي، ومقر الحاكم

العام في مدينة باوديغ في مقاطعة خبي.

وديوان محافظة نيه شيانغ بدأ بناؤه في عام 1304م، والديوان الموجود حالياً تعاظم نطاقه وخضع للترميم والإصلاح والبوابة الرئيسية للديوان تقود إلى القاعة الرئيسية بعد أن تجتاز ممر مبلط بالحجارة لونها أسود، وهذه القاعة هي مكان النظر في القضايا الكبرى والثانوية، والترحيب بالمرسوم الإمبراطوري، ومقر المبعوث الإمبراطوري وكبار الموظفين. وفي منتصف القاعة توجد غرفة تدفئة ترشد إلى مكان البهو الخارجي للديوان، وعلى جانبيها توضع أدوات التعذيب والأسلحة، كما يوجد حجران جاثمان أسفل القاعة، الحجر الأيسر للمدعي وجهة الادعاء، والحجر الأيمن للمتهم. وخلف هذه القاعة توجد مساكن في جهتي الشرق والغرب، وهي مخصصة لحاجب وساعي القصر في النوبات الليلية، وفي منتصفها توجد بوابة تشونغ قوانغ، وفي داخلها قاعة تشين جي وتعتبر القاعة الثانية وهي مكان النظر في القضايا العادية، ويوجد في خلف هذه القاعة البوابة الثانية؛ وفي داخلها توجد قاعة استقبال الضيوف التي يوجد في خلفها القاعة الثالثة، وتعتبر بمثابة المباني الإدارية الرسمية، ويوجد بستان خلف هذه القاعة. وفي شرق المحور الأوسط بالديوان، يوجد مقر وكيل المحافظة، ومكتب الشرطة، وقاعة استقبال، وبناية تشياو، والمعبد السماوي للديوان، ومقصورة شينغ مينغ، أما في ناحية الغرب، توجد المكاتب، ومساكن الموظفين، والسجن، ومعبد يوه شين، ومقصورة جينغ شان، وغيرها من الأبنية التي يمكن وصفها بأنها كاملة ومتناسقة وتضطلع بوظائفها في نظام وترتيب على أحسن وجه.

ثانياً: نادي الرابطة: يعتبر نادي الرابطة بمثابة دار الاجتماعات واللقاءات، ظهر في أواسط أسرة مينغ في القرن الخامس الميلادي تقريباً، وانتشر على نطاق واسع في أسرة تشينغ، وتتركز مثل هذه النوادي والجمعيات في خارج بوابة تشيان سان في بكين العتيقة، وتحدث ضجيجاً وعجيجاً بصورة غير عادية. ومن الواضح أن هذه النوادي والجمعيات تنقسم إلى نوعين انطلاقاً من المهام التي تضطلع بها، هما: «نادي أبناء البلد الواحد» ويؤسسه ملاك الأراضي والأسياد والوجهاء، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسياسة والثقافة، والنوع الآخر هو «نقابة زملاء المهنة نفسها» يؤسسها التجار، وترتبط بعلاقة وثيقة بالاقتصاد والتجارة. ويستقبل نادي أبناء البلد الواحد الأفراد الذين ينتمون إلى بلد واحد ويوفر لهم الإقامة ومكان الالتقاء والاجتماع.

ولذلك، كانت كل مقاطعة، وكل محافظة، وكل ولاية تتمتع بنادي الرابطة الخاص بها، ومن ثم أُطلق على نادي أبناء البلد الواحد الاسم المحلي للبلد الذي ينتمي إليه أفراد هذا النادي، ومثال ذلك، شهدت مدينة بكين العتيقة نادي رابطة مقاطعة قوانغدونغ، ونادي رابطة مقاطعة سيتشوان، ونادي رابطة فوتشو، ونادي رابطة شاوشين وغيرها. وفي عصر أسرتي مينغ وتشينغ، كانت تجري الفحوص الإمبراطورية مرة واحدة كل ثلاث سنوات في بكين، وكان يتدفق الناجحون على مستوى الناحية من كل مقاطعة إلى بكين تباعاً، ويقيمون في نادي الرابطة الخاص ببلدتهم كلٌ على حدة، والطالب الذي يجتاز الامتحان، يجب عليه الانتظار ثلاث سنوات، والطلاب القادمون من مقاطعة نائية صعبة الاتصال والمواصلات، يمكثون في نادي الرابطة انتظاراً للامتحان المقبل. وكان نادي الرابطة لا يقدم لهؤلاء الطلاب السكن فحسب، بل والطعام أيضاً شريطة الالتزام بعدم صُحبة النساء. ويستطيع القرويون القادمون من الأرياف الإقامة في نادي الرابطة الذي يحمل اسم مسقط رأسهم، ومثال ذلك، المصلح كانغ يووي في أسرة تشينغ، عندما حضر إلى بكين أقام في «نادي رابطة نانهاي»، والمفكر تان تسي تونغ أقام في «نادي رابطة ليويانغ»، وأديب الصين لوشون أقام في نادي رابطة شاوين». ونقابة زملاء المهنة نفسها يطلق عليها اسم المهنة، وتستقبل التجار من ذوي المهنة نفسها، وتقدم لهم وسائل الراحة والإقامة والاجتماع. ولكن هناك نوعان من نوادي الرابطة، أحدهما يشبه النقابة التي تستقبل أبناء البلد الواحد وتستقبل زملاء المهنة نفسها في آن واحد، والنوع الآخر يستقبل فقط زملاء المهنة نفسها من أبناء البلد الواحد، ومثال، «نادي رابطة ينغ هاو» في بكين القديمة، حيث كان يستقبل تجار المال والأعمال المصرفية من مقاطعة شانشي، و«نادي رابطة شي تشين» في مدينة تسي قونغ في مقاطعة سيتشوان ويستقبل تجار الملح من هذه المقاطعة. وكان نادي رابطة أبناء البلد الواحد الأكثر ازدحاماً من نقابة زملاء المهنة نفسها، ولكن مازال لدينا اعتقاد مفاده أن نادي الرابطة كان نتيجة الممارسات الاقتصادية حقاً، وأن نظام الفحوص الإمبراطورية قد نشأ منذ زمن بعيد في أسرة سوي، ولم يوجد آنذاك ثمة نادي رابطة، وكان المرشحون للفحوص الإمبراطورية يقيمون في الفنادق عندما يأتون إلى بكين. وبعد منتصف عصر أسرة مينغ، تطورت التجارة والاقتصاد بدرجة أكبر في الحضر، وظهرت إرهاصات الرأسمالية، وكان التجار من شتى البقاع

يتجمعون في المدن الكبرى وفي مفترق المواصلات الرئيسية. وكان هناك بعض التجار زملاء المهنة نفسها يتجمعون ويجتمعون من أجل تبادل المعلومات الخاصة بالممارسات التجارية والمنافسة، وكان ذلك إيذاناً بنشأة نادي الرابطة ووظيفته وتطوره تطوراً سريعاً. وربما كانت نوادي الرابطة هذه في بداية الأمر مجرد ملتقى للتجار من ذوي أبناء البلد الواحد، يعولون عليه كثيراً في حماية مصالحهم؛ إنه الملتقى الذي أوجده المثقفون أبناء البلد الواحد وكانوا يدلفون إليه، ومن هنا كانت نشأة نادي رابطة أبناء البلد الواحد. ومن ثم، في جعبتنا مبرر أن نعتقد أنه قبل نشأة نقابة زملاء المهنة نفسها، تم تفعيل نادي أبناء البلد الواحد فيما بعد، ولكن بسبب أن المجتمع الإقطاعي الصيني كان يعلي من شأن الثقافة ويزدري بالتجارة، ولذا فإن نوادي أبناء البلد الواحد ذات الصبغة السياسية والثقافية كانت الأكثر انتشاراً من نقابات زملاء المهنة نفسها.

وتنوعت أحجام نوادي الرابطة بين كبيرة وصغيرة، وكانت تشكيلتها الرئيسية تتركز بصورة أساسية على تصميم الساحات. وكانت بكين القديمة بمثابة العاصمة المهمة التي تغص بكافة أنواع نوادي الرابطة، وكان النادي الكبير يضم ساحتين أو ثلاث ساحات، والنادي الصغير يحوي ساحة واحدة فقط، ويوجد عدد ضئيل جداً. من مثل هذه النوادي في الوقت الحاضر. و«نادي رابطة بينغ يانغ» في زقاق شياو جيانغ خو خارج بوابة تشيانمين في بكين لا يزال يحتفظ بملامحه وتصميمه الأصلي إلى الآن، وكذلك مازال «نادي رابطة خو قوانغ» على مقربة من جسر خوقانغ يحتفظ بالمسرح الذي شُيد في العصر القديم. وإلقاء نظرة فاحصة على بعض نوادي الرابطة الكبيرة التي مازالت باقية، نجد أن خصائص تصميمها الهندسي قائم على تحقيق الاندماج بين خصائص الدار والمعبد في وحدة واحدة، ولذا تضطلع هذه النوادي بمهام الممارسات التجارية والاقتصادية من جهة، والتقديس والعبادة من جهة أخرى. وتشكيلة هذا التصميم الهندسي تتألف بصفة عامة من مجموعة من الأبنية التي تشمل: البوابة الرئيسية، ومبنى المسرح، ومبنى تشونغقو، والقاعة الرئيسية، والقاعة الوسطى، وقاعة المؤخرة. و«نادي رابطة مقاطعتي شنشي وشانشي» تم بناؤه بصورة مشتركة من جانب تجار هاتين المقاطعتين، ويحوي قاعة تقديم القربان للزعيم قوان يوي، وبعض هذه النوادي يندمج بصورة مباشرة في معابد الآلهة، ومثال ذلك، «نادي رابطة مقاطعة فوجيان» الذي

شيده أبناء هذه المقاطعة، ويضم قاعة تقديم القربان للملكة السماوية مازو. وتشييد مبنى المسرح داخل نادي الرابطة يكون أساساً من أجل التمثيل المسرحي بهدف التسلية والترفيه من جانب، وتقديس الآلهة ورد الجميل لهم من جانب آخر. ويخصص التجار الأموال اللازمة لتشييد هذه النوادي، ولذلك يجب الحرص الشديد في اختيار المواد المستخدمة في بنائها، وتصميمها يتسم بالفن اليدوي الهندسي الدقيق. ومن نوادي الرابطة المشهورة الموجودة حالياً، نادي رابطة خو قوانغ في مدينة بكين، ونادي رابطة قوانغدونغ في مدينة تيانجين، ونادي رابطة تشوان يو في مدينة صويتشو، ونادي رابطة فوجيان في مدينة يانتاي في مقاطعة شاندونغ، ونادي رابطة مقاطعتي شنشي وشانشي في مدينة تشينغ.بمقاطعة شاندونغ، ونادي رابطة مقاطعتي شنشي وشانشي في محافظتي وو، وشه تشي في مقاطعة خنان، ونادي رابطة شي تشين في مدينة تسي قونغ في مقاطعة سيتشوان، ونادي رابطة تشوان بانغ في محافظة وان فينغ في مقاطعة شنشي.

المبحث العاشر

دار شرقية رباعية ومساكن قديمة في بكين

كانت المساكن أقدم الأبنية التي ظهرت في حيز الوجود، واستخدمت أكثر أنواع وتصميمات المباني، ولذلك تعد أهم الأشكال المعمارية. ونظراً لأن الصين تتمتع بالأراضي الفسيحة الشاسعة التي يقطنها العديد من القوميات، ومن ثم، شهدت المساكن من شتى الألوان والأشكال والتصميمات المتباينة جراء اختلاف تضاريس الأرض وظروف المناخ وأساليب الحياة، ومثال ذلك، القصور ومساكن البيروقراطيين في جنوب حوض تشانغجيانغ، والعمارات السكنية، والكهوف الحجرية في سهول هوانغتو (التراب الأصفر)، والبنايات الصغيرة القائمة على الأعمدة والركائز في منطقة يونان، وساحة الدار لدى قومية الويغور، والقباب لدى قومية منغوليا. وعلى الجملة، إن الشمال في الصين يشهد البرد القارس وهبوب الرياح العاتية، والهندسة المعمارية هناك تلتزم كثيراً بجهة الجنوب بالضبط وجهة الشمال تماماً، وساحة الدار عريضة نسبياً، والجدران والسقوف سميكة إلى حد ما بما يسمح باستقبال أشعة الشمس بصورة كاملة، وتحاشي هبوب الرياح الباردة، أما في جنوب الصين فالجو حار ومفعم بالرطوبة، والتصميم المعماري هناك لا يلتزم بالضرورة بجهتي الشمال والجنوب، وباحة الدار صغيرة وضيقة نوعاً ما، والجدران والسقوف رفيعة وخفيفة، ولذا يشمل التصميم على الأبواب والنوافذ من أجل تجنب أشعة الشمس وتسهيل عملية التهوية.

والمساكن القديمة الموجودة حالياً في شتى البقاع تم بناء معظمها في عصر أسرتي مينغ وتشينغ، وتتحلى بالأشكال والتصميمات المتعددة والمتنوعة، وجذبت اهتمام وأنظار الباحثين من كافة أنحاء العالم. وفي هذا المقام، نقدم باقتضاب ثلاثة أنواع من هذه المساكن:

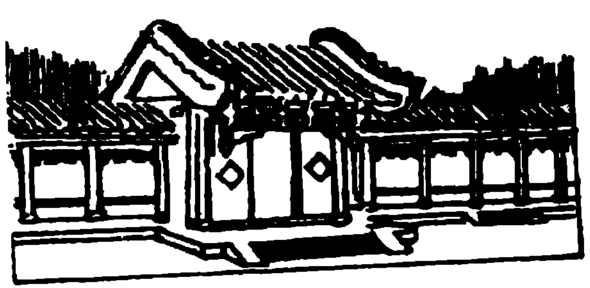
(1) تصميم مساكن على طراز مقاطعة آنهوي، تنتشر في محافظات شي، وجي شي، ويي في جنوب مقاطعة آنهوي. والتشكيلة الأساسية لتصميم المساكن من هذا الطراز تتخذ من بناية صغيرة تتألف من طابقين يحتويان على ثلاث غرف أو خمس غرف بمثابة الجناح الرئيسي في البيت، ويتم بناء الغرف على الجانبين أو في جانب واحد، وتطوقها جدران محاطة مرتفعة وتشكل باحة صغيرة وضيقة ومنور. والمساكن الكبيرة نسبياً يمكن أن تشمل

ساحتين أو ثلاث ساحات أو عدة ساحات، وتقام مصاطب الزهور في شكل الأصص أمام القاعة الرئيسية وفي خلفها، ويقام حوض ماء في منتصف الفناء. وفي أعلى البناية المقامة قبالة المنور يثبت درابزين ومقاعد بمساند يطلق عليها «مساند جميلة» تمنح قاطني المبنى فرصة التمتع بمشاهدة المناظر الجميلة. وتزدان العوارض الخشبية والأعمدة والدرابزين بالنقوش الرائعة الجميلة، وتبدو كأنها عالم الفن الجميل، ولكن القاعات لا تستخدم السقوف، والهياكل الخشبية الأخرى داخل الغرف لا تزدان بالنقوش، وتبدو في ثوبها القشيب من الجمال الطبيعي. وفي الوقت الحاضر، لا يزال يوجد أكثر من ثلاثمائة من الأبنية القديمة في قرية شي وي في محافظة يي، من بينها مازال أكثر من مائة وعشرين بناية في حالة كاملة إلى حد ما، تحتوي على طوابق وساحات متعددة، وأعمدة مزخرفة، وسقوفها منقوشة، وهي أبنية مرتفعة ومنخفضة، ومتناثرة ومتباعدة، ويجسد كل منها ملامحه وصفاته، ويطلق عليها «متحف المساكن القديمة».

(2) المساكن الفخمة للتجار البيروقراطيين في مدينتي هانتشو وصويتشو: في العصر القديم، كانت منطقة هانتشو وصوتيشو بمثابة المركز الاقتصادي والثقافي في جنوب حوض تشانغجيانغ، ويحتشد فيها البيروقراطيون والتجار الأثرياء، وكانت مساكنهم وبيوتهم تعكس مستوى الهندسة المعمارية في هذه المنطقة، كما تعتبر مثالاً نموذجياً للتصميم المعماري فيها أيضاً. وتتجسد خصائصها الرئيسية في تحقيق الدمج بين ساحة الدار والحديقة، والتشكيلة الرئيسية عبارة عن ساحة عميقة يوجد بها عدة مداخل، والساحة الصغيرة بها محور واحد وثلاث مداخل، أما الساحة الكبيرة فيوجد بها محوران أو ثلاثة محاور وخمسة مداخل. ويقام الجدار الحاجز عادة في المحور الأوسط، والبوابة الرئيسية (على شكل مدخل القاعة)، وقاعة جياو (غير مسقوفة كلها ولا تحتوي على نوافذ وأبواب، وعلى جانبيها يوجد مكتب المحاسبة وكِتاب عائلي)، والقاعة الكبرى (لإقامة حفلات المناسبات السعيدة)، والجناح الرئيسي (محل إقامة صاحب البيت، وأحياناً يشيد فيه بعض الغرف)، وعلى جانبي هذا المحور تبنى قاعة الزهور (يقيم فيها صاحب البيت المآدب وحفلات الشراب والاستماع إلى الموسيقى)، والمكاتب، وحديقة صغيرة، ومسرح وبعض الغرف الأخرى. وتشييد قاعة الزهور يكون عادة على مقربة من جدول ماء، وتخلو جوانبها الأربعة من الجدران ومكشوفة السقف،

أو يكون تصميمها على شكل قاعة تشوان (الزورق) التي يكون فيها جانب واحد فقط مكشوف، والطرق بين كافة المداخل ليست من الضروري أن تجتاز قاعة بوابة الوسط حيث يوجد ممر بين الجانبين، طويل وضيق ومظلم يطلق عليه «بيه نونغ». والسقف يكون دائماً على شكل قمة الجبل الصلدة، أو واجهة الجملون تعلو على أسطح الغرف وتشكل جداراً لإخماد النار، وألوان المبنى بسيطة وأنيقة.

(3) دار شرقية رباعية في شمال الصين، تعتبر الدار الشرقية الرباعية المثال النموذجي لهذه الدار التي جسدت تشكيلتها تأثير نظام المشيخة العشائري الإقطاعي في إقامة المساكن، وفي الوقت نفسه، أبرزت للعيان أن المساكن في الشمال بلغت مستوى عالياً نسبياً في الترتيب والتنسيق بين المقياس والفراغ في التصميم المعماري. وخصائص التصميم الهندسي لهذه الدار في الخارج يبدو حجمها صغيراً ومغلقاً ومعزولاً تماماً عن العالم، وفي الداخل يحرص التصميم على إظهار الفرق بين الرئيسي والثانوي، مما يشكل عدة ساحات كبيرة وصغيرة، وخارجية وداخلية، ولها عدة مداخل أيضاً، كما تهتم تشكيلة البناء اهتماماً شديداً بتحقيق التماثل العادل، والاتجاه نحو جهتي الجنوب والشمال بالضبط والتمام. والبوابة الرئيسية في جهة الجنوب بصفة عامة، وتقع في جنوب شرق المبنى بأسره، وتصميمها في الأسر الثرية يحاكي تصميم المسكن نفسه (بوابة مسقوفة)، أما مساكن الأسر المتواضعة فتستخدم تصميم الجدران. ويقام الجدار الحاجز خارج البوابة الرئيسية، وعندما يدلف المرء إلى الداخل يجابه جداراً عازلاً أمامه مصطبة زهور على شكل أصص. وبعد اجتياز المدخل والانحراف غرباً نجد الفناء الأمامي، الفناء بسيط وعادي، والغرف في المؤخرة منها غرفة البواب وغرفة الضيوف، كما يوجد فناء صغير بسيط في ركن. وهناك بوابة تفصل بين الفناء الأمامي والفناء الداخلي، ولا يسمح للغرباء بالدخول والمرور منه. وتقام هذه البوابة في المحور الأوسط، وتصميمها يكون عادة على غرار شكل «بوابة الأزهار المتدلية» أي أن أعمدة الأطناف في الأركان ليست هابطة، بل معلقة في الفضاء مثل الأزهار المتدلية (انظر الصورة رقم –13). والفناء الداخلي يتألف من الجناح الرئيسي في البيت والغرف الجانبية، والغرف في جهتي الشرق والغرب تشكل ساحة مربعة الشكل، وهي مكان إقامة ومعيشة الأسرة صاحبة البيت، ويقطن كبير الأسرة في الجناح الرئيسي، بينما الجيل الأصغر سناً يقيم في الغرف الشرقية

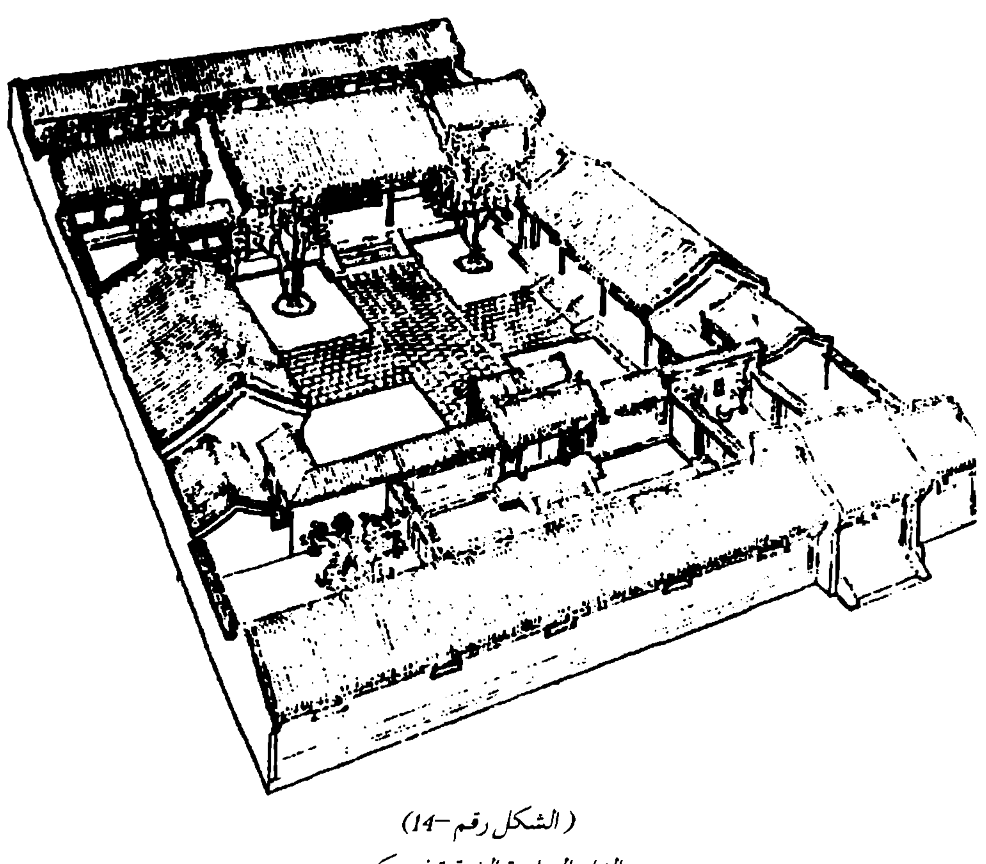


(الشكل رقم -13)
بوابة الأزهار المتدلية

والغربية، ويغص الفناء بالنباتات والزهور، وتربية الأسماك والطيور، مما يشكل بيئة يندمج فيها الإنسان والطبيعة. ويقام فناء صغير في بعض الأحايين في شمال جناح البيت الرئيسي، ويشمل المطبخ والمخزن وغرفة الخدم، ويطلق عليه «الغرف الخلفية المغطاة». وبناية هذه الدار -بصفة عامة- تستخدم الطوب الزيتي الرمادي وألوانها بسيطة وعادية وأنيقة، وتبرز للعيان بجلاء أوجه المقارنة بينها وبين هندسة بيوت أقارب الإمبراطور، كما أن مساكن وقصور الأرستقراطيين يُستخدم في تشييدها القرميد المطلي بالمينا، والرسوم الملونة، والبوابة الرئيسية ذات اللون الأحمر الزاهي. (انظر الصورة رقم -14).

والدار الشرقية الرباعية البسيطة تشتمل على فناء داخلي وآخر خارجي، أما الدار الشرقية الرباعية الكبيرة فهي عبارة عن تشكيلة من فناء عميق وواسع، ويحوي عدة مداخل تمتد إلى عمق الفناء وساحات على الجانبين. وأياً كان عدد المداخل التي يتضمنها الفناء، فإن جناح البيت الرئيسي وبوابة الأزهار المتدلية يقامان في المحور الأوسط، وتقام هذه البوابة في آخر مدخل بالفناء، ويعني ذلك فناء معيشة وإقامة صاحب البيت وأفراد أسرته. والمسافة بين الجنوب والشمال في زقاق بكين محدودة جداً، ويمكن أن تسمح فقط ببناء الدار الشرقية الرباعية التي تشتمل على أربعة أو خمسة مداخل، ولذلك فالمساكن الكبيرة تختار منطقة أخرى مناسبة تقدم تسهيلات إقامة حديقة. وكانت هندسة العديد من القصور الموجودة حالياً في بكين على هذا المنوال.

والقصور الموجودة في بكين حالياً تم تشييدها في أسرة تشينغ الحاكمة. وقصور بكين في أسرة مينغ بقي منها قصر واحد يطلق عليه اسم «وانغ خو جينغ». وهناك بعض قصور



(الشكل رقم-14)
الدار الرباعية الشرقية في بكين

المصدر: كتاب (تاريخ الهندسة المعمارية في الصين)

أسره نشينغ تم الحفاظ عليها لأنها ليست موغلة في القدم وأصبحت كيانات حقيقية لفهم ودراسة الدار الشرقية الرباعية الكبيرة في بكين. والهندسة المعمارية في أسرة تشينغ قائمة على أساس شكل الدار الشرقية الرباعية، وتشكيلة غرفها تتحلى بالنظام والقواعد المحددة، وقررت أسرة تشينغ أن هندسة الطرق داخل القصور يجب أن تكون متشابهة، والطريقان الشرقي والغربي بينهما اختلافات طفيفة، وتضم هذه الطرق بوابة القصر وخمس غرف، والممرات تعلو عن سطح الأرض، ويوضع أمام البوابة تماثيل أسود حجرية، وأعمدة إنارة، وأوتاد للجياد. وفي داخل البوابة، يوجد طريق القصر الرسمي ويقود إلى القاعة الرئيسة

ويطلق عليها قاعة «ينآن»، ويوجد في خلفها بوابة القصر الثانية التي يوجد داخلها القاعة الخلفية، ثم غرف النوم على الجانبين، كما توجد بناية الفتيات في مؤخرة القصر، كما تقام الغرف الأخرى والحدائق على جانبي الطريقين الشرقي والغربي. ويعتبر «قصر قونغ دانغ» في شارع غرب تشيانهاي القصر الأكثر اكتمالاً الموجود حالياً في بكين، ويرجع تاريخه إلى عصر أسرة تشينغ، وكان في الأصل قصر خه شين المثقف الجامعي ومن الأشراف في عهد حكم تشيان لونغ في هذه الأسرة، وأصبح قصر تشينغ وانغ في عهد الإمبراطور جيا تشينغ، وبعد ذلك قدم الإمبراطور شيان فينغ هذا القصر هدية إلى يي شين وهو من أقارب الملك قونغ، وأصبح قصر قونغ وانغ فيما بعد، وتنقسم تشكيلته إلى ثلاثة طرق: الطريق الشرقي، الطريق الأوسط، الطريق الغربي، كما شُيدت الحدائق في خلف القصر، وتم تدمير وتخريب الطريق الوسط والقاعة الرئيسية، وبقيت أبنية القصر الأخرى في حالة جيدة نسبياً، وحديقة القصر تغص بالتغيرات والتموجات، ومناظيرها هادئة وساكنة، ولذلك اعتقد البعض أنها حديقة «داقوان» التي وصفتها الرواية الكلاسيكية الصينية الشهيرة «حلم المقصورة الحمراء». كما يوجد قصر «فو وانغ» في شمال الطريق الداخلي لبوابة جي تشاو يانغ في بكين، وكان أصلاً «قصر يون شيانغ» الابن الثالث للإمبراطور كانغشي في أسرة تشينغ، ثم أصبح قصر يي هوي الابن التاسع للإمبراطور داو قوانغ، ويطلق عليه اسم «قصر جيويه»، وحالته جيدة نسبياً في الوقت الحاضر، وهو مقر دار العلوم للنشر حالياً. وهناك قصران يحملان الاسم «قصر يي هوي»، أحدهما يعرف بالقصر الجنوبي وهو مقر المعهد المركزي للموسيقى في الوقت الحاضر في العاصمة بكين. وكان يي قوانغ شيوه قد وُلد في هذا القصر ولا يجوز أن يقيم فيه مرة أخرى، ولذا تم بناء قصر جديد أُطلق عليه القصر الشمالي في خلف البحيرة الشمالية في بكين، وهو الآن مقر وزارة الصحة. وبعد وفاة الإمبراطور يي هوانغ، تولى نجله زاي فينغ العرش، وهو والد آخر أباطرة الصين ويدعى بويي. ولا يزال القصر الشمالي في حالة جيدة إلى حد ما في الوقت الحاضر، واقتطع جزء منه وأصبح مسكناً للسيدة سونغ تشينغ لينغ عقيلة مؤسس الجمهورية في الصين الدكتور صن– يات– صن. وبالإضافة إلى ذلك، مقر المجلس السياسي الاستشاري للشعب الصيني، ومقر لجنة التعليم بالدولة مازالا يحملان آثار قصور أسرة تشينغ إلى الآن.

وفي الوقت الحاضر، تعتبر بعض المساكن ذات الأفنية الواسعة التي يمتلكها التجار في مقاطعة شانشي بمثابة المساكن التي تجذب أنظار الناس واهتمامهم في كافة أصقاع الصين، وتتركز في هذه المقاطعة، وتتألف من أفنية كبيرة داخل الدار الشرقية الرباعية الصغيرة أو الكبيرة، وهي كبيرة وضخمة، وهندستها المعمارية في غاية الروعة والدقة، وأسلوبها فريد ومتميز، وتتحلى بالأهمية الثقافية العميقة، تبهر الأنظار وتأسر الألباب في الهندسة المعمارية التقليدية في الصين،وأثارت الاهتمام الكبير من قبل الشخصيات الصينية والأجنبية يوماً بعد يوم في السنوات القليلة الماضية، ويتدفق إليها سيل لا ينقطع من الزائرين والمتفرجين، ومن بينها «الفناء الكبير تشياوجيا» و«الفناء تشيوجيا» في محافظة تشي، و«الفناء الكبير تساو جيا» في محافظة تاي قو، والفناء الكبير «ري شينغ تشانغ» في محافظة بينغ تاو، و«الفناء الكبير وانغجيا» في محافظة لينشي، و«الفناء الكبير تسانغجيا» في محافظة يوي تسي، وغيرها من المساكن والبيوت الضخمة التي يمكن أن نطلق عليها تسمية «لؤلؤة المساكن في الهندسة المعمارية في شمال الصين».

المبحث الحادي عشر

المشاريع المائية الضخمة في العصر القديم

الصين دولة زراعية منذ القدم، والزراعة هي شريان الحياة وأصل الوجود فيها، ولذلك إقامة المشاريع المائية، ومقاومة الفيضان، ومكافحة الجفاف تحظى بالأهمية القصوى في حياة الأمة الصينية. وحوض النهر الأصفر يشهد الفيضانات منذ القدم، وأسطورة «البطل دايوي يكبح جماح الفيضان» تجسد الروح العظيمة للأجداد الأولين في صراعهم مع الفيضانات من أجل ضمان الوجود والتطور. وندرك من سجلات وثائقية أن مرحلة أسرة تشو الغربية شهدت تأسيس ديوان خاص يعمل فيه موظفون متخصصون في إدارة المشاريع المائية والإشراف عليها. كما شهد عصر الممالك المتحاربة إنشاء المشاريع المائية الكبيرة نسبياً. وذكر كتاب «سجلات تاريخية» أن شيمين باو في مملكة وي استطاع أن ينقل مياه نهر جينغ إلى مدينة يه لاستخدامها في الري، وحفر اثنتي عشرة قناة ري. وتحكي رواية أن صون شوأو في مملكة تشو شق قناة جرت فيها مياه نهر شاوبو لري الأراضي والحقول. ولكن، على الرغم من المشاريع المائية الخالدة التي ذكرها التاريخ، هناك مشاريع مائية ضخمة شيدها الإمبراطور الأول في أسرة تشين قبل توحيد الصين وبعدها، نقدمها في النقاط التالية:

(1) سد «دو جيانغ يان» الذي أقامه لي بينغ محافظ شوجون، ويوجد الآن في مدينة دوجيانغ يان في سهول تشينغدو في مقاطعة سيتشوان. وبعد أن أجرى لي بينغ والعمال المسح الشامل، شقوا أولاً شرياناً مائياً في جبل باوليه الذي يعترض تدفق مياه نهر مين، وأطلق على هذا الشريان «فتحة باو بينغ»، ثم شيدوا فوق المياه المتدفقة لهذه الفتحة سداً، وأدى ذلك إلى نشأة نهرين هما: «فيشيوه يوزوي»، و«فيشا يان». النهر الأول انقسم إلى النهر الخارجي والنهر الداخلي، والنهر الخارجي هو نهر مين الذي تتدفق مياهه، أما النهر الداخلي فيمر من هذه الفتحة ويصب في قنوات الري، ويستخدم النهر الثاني في التحكم في كمية المياه. وهذا المشروع المائي جعل مياه نهر مين تجتاز الخطر، ودرأ الأضرار وحقق منافع كبيرة، وجلب فوائد جمة لعشرات الآلاف من الحقول في سهول مقاطعة سيتشوان. ومازال الهيكل الرئيسي لسد دوجيانغ يان قائماً في مجرى تدفق نهر مين، ويعتبر معبد لي بينغ ونجله، ويطلق

عليه «معبد الملكين» مزاراً تقصده الأجيال المتعاقبة وتضاء الشموع ويحرق البخور داخله.

(2) «قناة الري جينغ قوي» التي شيدها مهندس الري جينغ قوي في مملكة هان، وتوجد الآن في محافظة جينغيانغ بمقاطعة شنشي، وطولها يمتد إلى مسافة أكثر من مائة وخمسين كيلو متراً. وقد قيل إن جينغ قوي كان جاسوساً لمملكة هان، وشق هذه القناة بهدف استنزاف الموارد البشرية، والثروات المائية والمالية في مملكة تشين، ثم افتضح أمره فيما بعد. وكانت مملكة تشين تعتزم قتله، ولكنه قال للإمبراطور الأول لهذه المملكة: «في البداية كنت جاسوساً، وبعد ذلك أنشأت هذه القناة التي حققت فوائد جمة لمملكة تشين، وبذلك أطالت مملكة هان عمر نظيرتها تشين إلى عدة آلاف من السنين، وقد حققت مآثر وأعمالاً خالدة تظل باقية لآلاف السنين عبر الأجيال المتعاقبة». وأقنعت هذه الكلمات الإمبراطور، وأدرك أن هذه المقولة منطقية، ثم أمره بأن يواصل عمله في إنشاء قنوات الري. وكما كان متوقعاً، وبعد الانتهاء من شق قناة الري هذه، زادت خصوبة التربة في مدينة قوانغ تشونغ، ولم تعد تعرف الجفاف وسنوات القحط، وأصبحت مملكة تشين قوية وغنية، وتغلبت على الممالك الأخرى، ووحدت البلاد. وشهدت القناة عملية الترميم والإصلاح عبر مراحل التاريخ. والحُفر المائية السبع الكبيرة الموجودة حالياً تقدم معلومات حقيقية لدراسة المشاريع المائية بالصين في العصر القديم.

(3) «قناة لين» التي شقها الجنرال شيلو في أسرة تشين، وتقع الآن في محافظة شينآن في منطقة الحكم الذاتي لقومية قوانغشي، واستمر إنشاؤها في الفترة من 223 ق.م – 214 ق.م. وكانت المواصلات صعبة آنذاك بين مقاطعتي قوانغدونغ وقوانغشي. وبعد أن وحد الإمبراطور الأول في أسرة تشين جنوب الشوامخ الخمسة، قام بتعبئة قوات الجيش واللوجيستات العسكرية، وأمر الجنرال شيلو أن يشق قناة تربط بين النهرين شيانغ، ولي، وتصب في نهر اليانجتسي ونهر اللؤلؤة، ويبلغ طولها أربعة وثلاثين متراً، وجعلت الشريان المائي في ذلك الحين يمتد ويصل إلى قوانغتشو في الوقت الحاضر. وأقيمت مشاريع مائية على طول امتداد قناة مين في أكثر من ثلاثين موقعاً، وكونت نظاماً متكاملاً من كبح جماح الفيضان، وتصريف الفيضان، والملاحة النهرية ونظام الري، ويتاخمها عدد كبير من المعابد والمقابر القديمة التي زادت من نكهتها التاريخية.

وتعتبر «قناة ديوان خه» التي تربط بين جنوب الصين وشمالها من المشاريع المائية الضخمة

التي تحظى بشهرة عالمية. وقد بدأ حفرها الإمبراطور يانغدي في أسرة سوي في عام 605م، وانتهى من إنشائها في عام 610م، وجزء من هذه القناة استفاد من المجرى المائي القديم هان الذي حفرته مملكة وو في فترة الربيع والخريف، ومجرى بيان الذي أُنشئ في أسرة هان، وكان مركزهما مدينة لوايانغ في خنان، وفي الشمال تمتد من بينغ يانغ، وتجتاز النهر الأصفر، وتمر بمدينة لينغ تشينغ حتى تصل إلى بكين مباشرة، وفي الجنوب كان حفرها في اتجاه الشرق حتى مدينة هواي ين، ثم تنحرف بعد ذلك صوب الجنوب، وتمتد من يانغتشو وتجتاز نهر تشانغ، ومن مدينة تشين جيانغ تمر بمدينة صويتشو حتى تصل إلى آخر حدودها في مدينة هانتشو، ويبلغ طولها أكثر من ألفين وأربعمائة كيلو متر، ولذا تعتبر أقدم وأكبر قناة تم حفرها في العالم، كما تعد أطول قناة في داخل الصين. وبعد أن أسست أسرة يوان العاصمة بكين، ومن أجل تقديم تسهيلات في حركة النقل، أزالت التعرجات في مجرى قناة دايون وجعلتها مستقيمة، وحفرت قناة أخرى هي قناة جي تشو في مدينة صوبي، واجتازت مقاطعة شاندونغ واتصلت بالقناة القديمة في مدينة لين تشينغ، وقصرت المسافة حتى أصبحت ألفاً وسبعمائة وأربعة وتسعين كيلو متراً. وافتتاح وتشغيل القناة دايون خه بين الشمال والجنوب في الصين، أديا إلى دفع التبادلات الاقتصادية والسياسية والثقافية إلى الأمام، وتقديم تسهيلات كثيرة لري الحقول والأراضي على جانبي القناة. ولم تفقد قناة دايون خه دورها الرئيسي في المواصلات بين الجنوب والشمال بصورة تدريجية إلا عندما تم تشغيل خطوط السكة الحديد في العصر الحديث، ولكن مازالت قيمتها التاريخية تتألق وتزدهر باعتبارها أعظم مشروع مائي شهدته الصين في العصر القديم.

الفصل الثالث عشر

الأدب الكلاسيكي

يعتبر الأدب الصيني الكلاسيكي -في إطار الثقافة الصينية- الجزء الأكثر إشراقاً وروعة، والأكثر قوة وحيوية، كما يعتبر الجوهرة المفعمة بالجمال الدائم والتي تزداد بريقاً بلا انقطاع أيضاً، ويتمتع الأدب الكلاسيكي الصيني بتاريخ موغل في القدم لا ينقطع منذ ثلاثة آلاف سنة بدءاً من ظهور «كتاب الأغاني»، وجسد مضمونه وشكله الفكر الرئيسي في الثقافة الصينية بقوة وحيوية، وأبرز للعيان المُثل العليا والمعتقدات الدينية والسعي وراء علم الجمال في الأمة الصينية. والأدب الصيني يظهر طبيعته الفريدة والمتميزة والمواهب الأدبية الفنية من خلال الترابط الوثيق بين الفكر والشكل، كما يحرز شهرة في العالم من خلال صعوده الدائم المتواصل، وانطلقت بدايته من الأساطير الساحرة الفريدة في العصور الغابرة في خضم تيار تاريخي متدفق منذ ثلاثة آلاف سنة ونيف، وتواصل نتاجه من كتاب الأغاني، وديوان شعر مملكة تشو، ونثر الفلاسفة، ثم مقامات ما بعد أسرة هان، والشعر النثري في أسرتي وي وجين، وشعر أسرة تانغ، وشعر «تسي» في أسرة سونغ، ويوانتشيوي (نوع من الأوبرا الصينية التقليدية)، والروايات في أسرتي مينغ وتشينغ. إن الأدب الصيني يُعد -في الواقع- ظاهرة أدبية مدهشة تتراوح بين الصعود والهبوط، بيد أنها تبدع الأعمال التي تتراكب مع جميع العصور عبر التاريخ بلا انقطاع.

ويتحلى الإبداع الأدبي في الصين القديمة بالخصائص القومية المميزة والجلية وتجسدت بصورة أساسية في النقاط الثلاث الآتية:

أولاً: يعكس الأدب الصيني -دائماً وأبداً- الروح العظيمة من الاهتمام بالحقائق والحياة. والشخصيات التي وصفتها الأساطير الموغلة في القدم بالصين تعتبر بمثابة الأبطال؛ حيث تنبض بالقوة والحيوية في حياة الأسلاف، وليست مثل الآلهة في الأساطير الغربية تصعد إلى السماء وتنأى عن الجماهير. والشخصية الأسطورية رينشي يثقب الخشب للحصول على النار ويشعل حجر القداحة، وإله الزراعة يعلم الشعب الزرع والحصاد، وقونغ قو يستشاط غضباً ويصدم جبل تشو، ونيووا تصقل حجراً وترقع السماء، وخويي يرشق الشمس بالسهام، ودايوي يروض مياه الفيضان. وفي الواقع إن هذه الشخصيات الأسطورية ربما كانت زعماء القبائل والعشائر، ويضطلعون بالأنشطة والابتداعات الخارقة، وكان ذلك نتيجة صراع الأسلاف من

أجل تغيير البيئة الطبيعية حقاً، وشخصياتهم الأسطورية هي في الواقع تُعد تجسيداً وانعكاساً لقوة الإنسان. وكانت أشعار «تسي»، والمقامات وروايات الأوبرا التقليدية في العصور اللاحقة أكثر اهتماماً وعناية بتطوير المجتمع ومصائر الناس، والشعراء احتضنوا الحياة بمشاعر دافئة جداً، حتى أن الشعراء الرومانسيين لم يغفلوا أساليب التعامل في الحياة، والروائيين أيضاً في الأجيال المتعاقبة كشفوا النقاب عن القبح والدمامة من خلال الملاحظة الدقيقة والعميقة، وسلطوا الأضواء على الجمال والسعادة، وعلى الرغم من أن رواية «رحلة إلى الغرب» هي رواية أسطورية اقتبست أسطورة عالمية لوصف المجتمع؛ بيد أنها صممت في متن أحداثها على تعليق الآمال على المثل العليا لدى الناس في مكافحة القبائح والشرور.

ثانياً: يؤكد الأدب الصيني منذ القدم الوظائف التربوية من الهداية والإرشاد، ويدعو إلى أن «الأعمال الأدبية حاملة للأخلاق»، وذلك لأن الأدب الصيني تأثر تأثراً عميقاً بأفكار الكونفوشيوسيين، ولم ينفصل أبداً عن مدار «تهذيب الذات، وترتيب شؤون البيت، وإدارة شؤون البلاد، وإحلال السلام والأمان في الدولة» في عملية تطوره، ولذلك أصبح الشعر الصيني، وشعر «تسي» (طراز من الشعر الصيني القديم)، والمقال والمقامات بمثابة وسائل التثقيف السياسي، وأظهر الأدباء المثل الاجتماعية والسياسية لديهم من خلال المؤلفات المشهورة والنظريات الأساسية، ومن بينهم عدد كبير تبنى أسلوب المشاركة الإيجابية في إخماد القلاقل والاضطرابات انطلاقاً من شعورهم بالقلق تجاه الشعب والدولة، ولم يغفلوا الاهتمام بحياتهم في كل لحظة، و«يعكفون على التأمل الداخلي» عندما تتعرض المثل العليا لديهم لانتكاسة.

ثالثاً: يتمتع الأدب الصيني بالطابع العاطفي القوي، حيث يعبر عن المشاعر والعواطف ويجسد الافتتان والشغف سواء كان نثراً أم شعرا أم أوبرا تقليدية، ويتماثل ذلك مع الأعمال الفنية الأخرى في الصين. وتُعد الصين موطناً للشعر، وكان الشعر الصيني، وشعر «تسي»، والأغاني والمقامات تمثل الأشكال الأساسية في الإبداع الأدبي الكلاسيكي في الصين. ويحبذ الأدباء والمثقفون في الصين استخدام الأشكال اللغوية من البلاغة الموجزة، والمعنى المبطن، والإشارة والتلميح في التعبير عن عواطفهم، وشكل ذلك التقاليد العاطفية الخاصة في الأدب الصيني، حتى مؤلف المرجع التاريخي الضخم «سجلات تاريخية» جسد فيه نكهة عاطفية قوية وشجية جعلت القراء يشعرون بالطرب والشجن الموسيقي، ولا غضاضة أن يصف أديب الصين لوشون هذا المرجع بأنه «يشبه مرثاه (لي ساو)، ولكن بدون قوافٍ».

المبحث الأول

دواوين الشعر الصيني وشعر «تسي» والشعراء

إن الصين –كما ذكرنا آنفاً– تعد موطناً للشعر، ويتبوأ الإبداع الشعري مكانة بارزة في تاريخ الأدب الصيني. وبعد أسرتي سوي وتانغ، أصبح هذا الإبداع من المقررات الأساسية المهمة في الامتحان الإمبراطوري، والامتحان في الشعر دفع الإبداع الشعري إلى الأمام وحقق له الازدهار. ويعرف الناس أن الشعر نشأ في أحضان العمل الجسماني، ويعبر عن مشاعر الناس وهم يخوضون غمار العمل الشاق، كما يعد نوعاً من الأشكال اللغوية التي تحقق الانسجام في القوة الجسمانية، ومن ثم يجب أن يكون أقدم الشعر هو الشعر الشعبي. ودواوين الشعر القديمة الموجودة حالياً تبرز للعيان هذه النقطة بجلاء.

ويُعد «كتاب الأغاني» أقدم ديوان شعر في الصين، ويجمع بين دفتيه الأعمال الشعرية في الصين من القرن السادس عشر قبل الميلاد إلى القرن السادس قبل الميلاد، ويجسد الإبداع الشعري في غضون خمسمائة سنة من أوائل أسرة تشو إلى أواسط فترة الربيع والخريف، ويحتوي على ثلثمائة وخمس قصائد، ولا يمكن تأكيد اسم مؤلفه، ولكن نؤكد أن هذه القصائد كتبها نفر غير قليل من عامة الشعب. وتم تأليف هذه القصائد قبل ولادة كونفوشيوس على أقصى حد، ثم قام كونفوشيوس بتنقيحها وترتيبها وتقييمها، وقدرها الكونفوشيوسيون عالياً واعتبروها من الكتب الكلاسيكية، وأصبحت من «أمهات الكتب الخمس».

والقصائد في «كتاب الأغاني» هي في الأصل عبارة عن كلمات أغاني ذات العزف الموسيقي الجماعي، ولذا تم تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء حسب النغمة الموسيقية، وهي: فينغ، يا، صونغ. وتشير «فينغ» إلى النغمة الموسيقية المحلية، ويعني ذلك الموسيقى الشعبية في كافة البقاع. و«يا» تشير إلى النغمة الموسيقية في الأماكن الواقعة تحت سيطرة البلاط الإمبراطوري لأسرة تشو. و«صونغ» تشير إلى الموسيقى التي تعزف في المعابد عند تقديم القرابين. وطرائق التعبير الفني في «كتاب الأغاني» تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي: بي، شينغ، فو. وتعني «بي» استخدام الأشياء الموضوعية في تشبيهات أفكار الشاعر ومشاعره و«شينغ» هو استخدام الصوت والمغزى والعناصر المتشابهة في بداية نظم القصيدة. و«فو» هو وصف الأشياء

الموضوعية بصورة تفصيلية ومباشرة. والقصائد في «كتاب الأغاني» تتمحور أشكالها على الرباعيات، وتكرار الجمل، والرنانة القوية، والجمل والعبارات الواضحة الجلية، والموسيقى التي تنزع الآهات من القلوب، ولذا تركت أثراً عميقاً في نشأة الإبداع الشعري في الأجيال اللاحقة، وأرست حجر الأساس الصلب لتطوير الشعر الصيني. ويجسد مضمون «كتاب الأغاني» الحقائق التاريخية آنذاك بصورة عميقة وحقيقية، وأصبح بمثابة نقطة انطلاق مضيئة لتقاليد الواقعية في الأدب الكلاسيكي الصيني، ولاسيما القصائد الشعبية التي تم جمعها من المناطق المختلفة أبرزت للعيان الحياة المأساوية التي يئن تحت وطأتها الشعب الكادح، وأشادت بالحب الطاهر الذي يجمع بين الشباب والفتيات، وجسدت مقاومتهم للاستغلال، والأماني في سويداء قلوبهم من التطلع إلى السعادة والطمأنينة بشغف. واضطلع الباحثون بدراسة «كتاب الأغاني» عبر العصور المختلفة، وأسسوا «علم دراسة وفهم قصائد كتاب الأغاني» داخل أروقة الثقافة الصينية.

وكان «ديوان شعر مملكة تشو» يعد نوعاً جديداً في الأسلوب الشعري ظهر بعد «كتاب الأغاني»، وجاءت ولادته في جوٍ مفعم بالثقافة في هذه المملكة في القرن الرابع قبل الميلاد، وتأثر تأثراً عميقاً بالمناظر الخلابة وثقافة السحر والشعوذة في الجنوب، ويتحلى بالنكهة المحلية الكثيفة، والجمل الموسيقية فيه تختلف طولاً وقِصراً، ونظم قصائده ينتهج الشكل الحر، ومن السهل جداً التعبير عن العواطف الجياشة، وذلك بسبب انتشار عادات السحر على نطاق واسع في أراضي مملكة تشو، ناهيك عن أن أنشطة القرابين كان يصاحبها أنواع مختلفة من الرقص والغناء. والشاعر الكلاسيكي العظيم تشيوي يوان (340 ق.م تقريباً– 238 ق.م) استخدم الأغاني الشعبية، وتدفق خياله الثري، وعبّر عن مشاعره الوطنية، وكتب رائعته «لي ساو»، فضلاً عن قصائد «جيوقه»، و«جيو جينغ»، و«تيان ون» التي حققت شهرة عظيمة في كافة الأنحاء. وبعد ذلك بقليل، ظهر الشاعر سونغ يوي ورائعته «جيوبيان»، كما ظهرت ثُلة في أسرة هان حذت حذو أسلوب الشعر في أسرة هان، وبفضل جهود ليو شانغ ووانغ يي في جمع وترتيب القصائد تم إعداد «ديوان شعر مملكة تشو»، كما يطلق على هذا الأسلوب الشعري «ساو» لأن مرثاة «لي ساو» للشاعر تشيوي يوان تمثل بيت القصيد في هذا الديوان. ولم يلتزم الديوان –من حيث الشكل– بالرباعيات كما في «كتاب الأغاني»،

بل استخدم الجمل الحرة المسترسلة وأثرى القوة التعبيرية للشعر في الصين. والشاعر تشيوي يوان بصفته المؤلف الرئيسي في الديوان شهد التغيرات في هذه المملكة من القوة والازدهار إلى الضعف والانكسار، وذاق مرارة الضربة القاصمة، ورأى بنفسه زوال شمس بلاده، وآلام الشعب وأحزانه، وعاش مصائبه ونكباته، وصهر ذلك كله في بوتقة واحدة، ونظم قصائده الشعرية المتلألئة مثل «لي ساو» التي أظهرت حب الشاعر لوطنه وإخلاصه له الذي لا يتزعزع وولاءه الصادق، وسعيه الدؤوب وراء المثل العليا، ودمج ذلك كله حتى أصبح قوة فكرية شديدة البأس على مر الدهور، كما أن الطابع الرومانسي الفريد والساحر أثر تأثيراً هائلاً في الإبداع الشعري في الصين. ويعبر تشيوي يوان في قصائده عما يجيش في صدره صراحة، ويرتقي المواضع النبيلة السامية، ويجول ببصره في الأفق الرحيب، ويسعى وراء الأشياء الجميلة والمثل العليا في شتى الأصقاع، مما جعل «لي ساو» أبكر قصيدة عاطفية طويلة في الصين، وبموجب ذلك أصبح مؤلفها أول شاعر عظيم يعبر عن عواطفه الجياشة الذاتية في تاريخ الصين، وسطعت أضواؤه على تاريخ الأدب الصيني، وتعلق بذاكرة الأجيال المتعاقبة، وشادوا المعابد وقدموا القرابين له في جميع الأماكن التي زارها في حياته. ولا تزال توجد معابد تشيوي يوان إلى الآن في محافظتي تسي قوي وميلوا في مقاطعتي خوبي وخونان تباعاً، ويظفر الباحثون والمثقفون بلقب «الشاعر ساو، والكاتب موه»، وأبحاثهم في «ديوان شعر مملكة تشو» شكلت «علم دراسة وفهم قصائد الشعر في مملكة تشو» في الثقافة الصينية. كما يُطلق على القوة الفنية الرائعة الضخمة في كتاب «كتاب الأغاني» و«ديوان شعر مملكة تشو«تسمية «فينغ ساو» (الآداب والفنون)، وشكلا أكبر مصدرين للشعر في تاريخ الصين.

وكانت الأغاني الشعبية القديمة في أسرتي هان ووي وفي الأسر الإمبراطورية الست (222– 589) تمثل قمة فنية أخرى في تطور الشعر الصيني. وكانت أسرة هان تقدر المذهب الكونفوشيوسي تقديراً عالياً، وتحرص على تعلُّم الشعر، فأنشأت «دار الأغاني الشعبية القديمة» بصفة خاصة، تضطلع بمسؤولية جمع الأغاني الشعبية، وإعداد المقطوعات الموسيقية الرئيسية، وترتيب وتنسيق الألحان الموسيقية الخارجية، وأطلقت الاسم الجامع «أشعار الأغاني الشعبية القديمة» على كلمات الأغاني التي جمعتها، كما أطلقت التسمية ذاتها –فيما بعد– على كلمات الأشعار التي يمكن اعتبارها من اللحن الموسيقي في أسرتي جين ووي وفي الأسر

الإمبراطورية الست، ناهيك عن الأعمال الفنية القديمة التي حذت حذو هذه الأغاني. وفي أسرة سونغ، قام قواماو تشيان بإعداد وتحرير «ديوان أشعار الأغاني الشعبية القديمة» جمع فيه كل الأعمال المعنية بهذه الأغاني من عصر أسرة هان إلى أسرتي سوي وتانغ. والأغاني الشعبية في أسرتي هان، ووي وقوامها «المشاعر تكمن في الموسيقى الحزينة، والقدر محتوم» تتحلى بالفكر الواقعي النابض، والسرد فيها أكثر قوة عن «كتاب الأغاني»، والنظم الشعري حر ومتعدد، ويركز على الوزن الخماسي، فضلاً عن الوزن الثلاثي والرباعي والسداسي والسباعي، ووضع إرهاصات الوزن الخماسي والوزن السباعي في الشعر الصيني، وعكس مضمونه بعمق جميع التناقضات في الحياة الاجتماعية منذ عصر أسرة هان، ومن قصائده المشهورة: «في الخامسة عشر يشارك في حملات الجيش»، و«الحرب في الضاحية الجنوبية»، و«رحلة إلى البوابة الشرقية»، و«رحلة امرأة مريضة»، و«شجر التوت بين دروب الحقول»، و«أسراب الطاووس تطير شرقاً وجنوباً»، وعلى وجه الخصوص القصيدة الأخيرة التي قدمت وصفاً كاملاً لمأساة حب، ورسمت صور شخصيات تنبض بالقوة الحيوية، وتمثل أفضل الشعر السردي الطويل في الصين القديمة. ومعظم الأغاني الشعبية في الأسر الجنوبية تروي مشاعر الحب النبيلة المتبادلة بين الجنسين، وتطلعات الحياة الطموح، والأسلوب واضح وجلي، أما في الأسرة الشمالية، فكان معظم الأغاني يسرد الآلام والمعاناة الناجمة عن اضطرابات الحروب، وانصهرت في بوتقة ثقافة الأقليات في الشمال، ومن قصائدها «شعر الفتاة مولان»، و«أغنية سهول تشي ليه»، اللغة بسيطة وواضحة، والأسلوب قوي وجذل. وجاء في القصيدة الأخيرة أن: «سهول تشي ليه أرض منبسطة تقع عند أقدام جبل يانغ، والسماء مثل القبة تحتضن البيوت، وتبسط دراعيها على البرية. السماء صافية وزرقاء، والبرية فسيحة الأرجاء، وتتمايل الحشائش مع هبوب الريح، وتظهر الأبقار والأغنام في الحقول»، ولذا يسطع بريقها ولا يخبو أبداً.

وظهرت قصائد الوزن الخماسي من تأليف الأدباء بفضل التأثير المباشر للأغاني الشعبية القديمة من أسرة هان إلى أواخر أسرة هان الشرقية، وكان من بينهم الأديب بان قو و«ملحمة يونغ»، والشاعر تشانغ هينغ وقصيدة «أغنية تونغ شينغ»، و«تسع عشرة قصيدة من الشعر القديم» ولا نعرف مؤلفها والتي استعارت المناظر الطبيعية للتعبير عن العواطف والمشاعر،

واستخدمت اللغة البليغة، وطرائق جديدة من المقامة والتشبيه، وأحرزت إنجازات فنية عالية، وأثرت في نشأة الإبداع الشعري في العصور اللاحقة بصورة عميقة. وبلغت قصائد الوزن الخماسي الذروة في فترة حكم جيانآن بفضل الأب وابنه تساو تساو (155– 220)، وتساو جي (192– 232)، والأدباء السبعة في هذه الفترة، الذين جابهوا الحقائق المشوشة والمختلطة في المجتمع، وجسدوا مشاعر الفتنة والاضطراب في قصائدهم، وتحسروا على حظهم التعس في الحياة، وأعربوا عن قلقهم إزاء إدارة شؤون البلاد، وجسدوا أمانيهم ورغباتهم أيضاً، وشكلوا أسلوباً شعريا يتسم بملامح عصرهم، أطلق عليه «قوة الأسلوب في فترة جيانآن» في التاريخ الأدبي. وفي هذا الخصوص، كانت منجزات تساو جي الأكثر رفعة، وظهرت في قصائده «الحصان الأبيض» و«الآلة الموسيقية كونغهفو» و«قصيدة سبع خطوات»، و«إهداء إلى وانغ بياو»، وكلها تتحلى بالأسلوب الأدبي الفني الرصين، والكلمات البليغة، والمشاعر الفياضة، وجذبت جمهور القراء قديماً وحديثاً. وعبرت الشاعرة تساي يان (وتسمى أيضاً تساي ون جي) في قصيدتي «أشعار الغضب والحزن» و«ثمانية عشر لحنا للناي» عبرت عن حظها العاثر وآلامها في الحياة، وتركت انطباعاً مأساويا في نفوس الناس، وتناقلتها الألسن على مر الدهر.

وتطور شعر الوزن الخماسي بشكل أكبر في الفترة بين أسرتي وي وجين، وكان من أبرز الشعراء في هذا الخصوص روان جي (210– 263م)، جي كانغ (224–263)، زواسى (250 تقريباً– 305 تقريباً)، تاو يوان مينغ (اسمه الأصلي تشيان، 365– 427م)، الذين جسدوا مشاعر البطولة والصفات السامية للشعراء الذين ذاقوا مرارة المشاق والصعاب من خلال استخدام القديم في رسم صورة الحاضر أو تسلية النفس وبث الغيظ الكظيم، وظهر ذلك جلياً في قصائد «أنشودة المشاعر»، و«شعر تسلية النفس»، و«ملحمة يونغ» للشعراء الثلاثة البارزين المذكورين أعلاه تباعاً، وانتشر المذهب الشعري «شيوا نشيوي» على نطاق واسع آنذاك جراء تأثير شيوا نشيوي (مذهب فلسفي في الصين القديمة). ولكن الشاعر تاو يوان مينغ استخدم الأسلوب الطبيعي الصريح والمباشر ووصف مشاعر التأثر بالمناظر الريفية والحياة الريفية، وكانت لغته طبيعية وبسيطة، ولا تكترث بالزخارف اللغوية، وهدفه في القصائد عريض وواضح وعميق وبعيد المدى، وأصبح مؤسس «مذهب قصائد ريفية» في

تاريخ الشعر الصيني، وآثاره الشعرية النموذجية مثل: «العودة»، و«العشق في الريف»، و«احتساء الخمور»، و«أنشودة البطل جيفكه»، و«شعر تاوهوا يوان» ورثت تقاليد الإبداع الشعري الممتازة في العصور السابقة. وكان الشاعر شيه لينغ يون (385– 433م) معاصراً لفترة الإمبراطور ليوسونغ في الأسر الجنوبية، وعاش على هواه في مناطق الجبال والأنهار في كوي جي، ويونغجيا، ولوشاق وغيرها من المناطق الأخرى، ونقب عن قوة الفن الساحرة الكامنة في المناظر الطبيعية من خلال الفن الشعري، ومهد الطريق أمام مذهب «شعر مناظر طبيعية» في تاريخ الشعر الصيني، ومن قصائده النموذجية: «صعود بناية»، و«الإقامة في شيمايان» وغيرهما، وجسدت تأثر الشاعر بالمناظر الطبيعية بصورة غير عادية. وكان الشاعر باو جاو (414 تقريباً– 466م) حاذقاً في قصائد الوزن الشعري السباعي؛ وأهم آثاره: «الطرق الوعرة» في ثماني عشرة قصيدة تفيض بالمشاعر الجياشة المتدفقة، وتهتم بالحقائق الاجتماعية، كما كان شاعراً يتحلى بالمنجزات العظيمة.

ويمكن القول إن مرحلة الأسر الجنوبية والشمالية تمثل مرحلة التحولات الكبرى في تطوير الشعر الصيني، وأهم ما يميزها ظهور «مقياس العظمة»، ومن أشهر الشعراء فيها: شين يوه، وشيه شياو اللذين ابتدعا أسلوباً شعرياً جديداً يحرص على مقياس العظمة والطباق والمقابلة في الإبداع الشعري الذي بدوره يهتم بتحقيق التكامل والتنسيق بين النغم والقافية واللحن واستخدام أشكال الطباق اللغوي؛ وذلك تأسيساً على قواعد النغمات الأربع. وقد ازدهر هذا الأسلوب الشعري في فترة حكم يونغ مينغ في أسرة تشي الجنوبية (479 – 502م)، ولذا أطلق عليه أسلوب «يونغ مينغ». ومن هنا بدأ الشعر الصيني التقدم في اتجاه التطور من الشكل الحر نسبياً إلى الحرص على العروض (قواعد النظم)، وأثر تأثيراً هائلاً في شعر ما بعد أسرة تانغ، وشعر «تسي» في أسرة سونغ، وأوبرا أسرة يوان. ويجسد هذه المرحلة الأديب يوي شين (513– 581م) الذي انتقل من الأسرة الجنوبية إلى الشمال، وكانت أعماله المبكرة جميلة ورائعة وتتحلى بالموسيقى النواحة، بينما كانت آثاره في أواخر حياته مثل: «مقامة أحزان جنوب اليانجتسي»، و«أنشودة ذكريات» التي تقع في سبع وعشرين قصيدة، كلها تنبض بالقوة وحزينة وكئيبة، واضطلعت بدور التبادل بين الجنوب والشمال، وورثها السلف ومهدت الطريق أمام الخلف.

ومضى التطور الشعري قدماً حتى أسرة تانغ حيث دخل مرحلة الازدهار الكبير. ومن منظور حجم القصائد وعدد الشعراء، إن عصر تانغ شهد إعداد وتحرير المعجم الضخم «قصائد تانغ الكاملة» الذي جمع بين دفتيه أكثر من ألفين وثلثمائة شاعر، وأكثر من ثمانية وأربعين ألفاً وتسعمائة قصيدة، ناهيك عن العديد من القصائد المتناثرة المتفرقة التي لا يمكن جمعها في محتويات المعجم، ويُعرف ذلك بالتطور الشعري الذي لم يسبق له مثيل. ومن حيث عروض الشعر، فقد تطور من «أسلوب يونغ مينغ» إلى «أسلوب الشعر الحديث» (شعر قواعد النظم) بصورة أساسية، الذي ينقسم إلى الوزن الثماني، الوزن السباعي الثماني، وزن الرباعي الخماسي، وزن الرباعي السباعي، كما كانت أوزان الشعر الأخرى المختلفة مثل: الوزن الخماسي والوزن السباعي تمثل نسبة غير قليلة، ونطلق عليها «مائة زهرة تتبارى». أما من حيث الأسلوب الشعري، فيُطلق عليه ألوان شتى ومتعددة، ومن الصعب دراسته حقاً، فقد يكون محزناً مهيباً أو مقفراً موحشاً أو دقيقاً أنيقاً أو فظاً غليظاً أو عميقاً ساكناً أو أنيقاً جميلاً أو غريباً موحشاً أو حراً شجاعاً. ونطاق مجموعات الكتّاب، فقد كانوا ينتمون إلى الطبقات العليا من الملوك والأباطرة وكبار الموظفين، والباحثين والعلماء المشهورين، وقد يكونوا من ذوي الدرجات الدنيا من الرهبان والراهبات والطاويين، بل حتى البغاة وكافة الأطياف الاجتماعية من كل لون وشكل يمكنهم جميعاً قرض الشعر، وانبثق من بينهم شعراء حظوا بالشهرة، ويتحلى كل منهم بصفاته ومميزاته، ولكن الشعراء من ذوي الملامح الخاصة والفريدة، والمميزة يتراوح عددهم بين الخمسين والستين شاعراً. وتطور الشعر في أسرة تانغ على هذا النحو، وبموجب عدة أسباب، ففي المقام الأول، التطور الهائل في السياسة والاقتصاد والثقافة في هذه الأسرة قدم الشروط المادية الوفيرة لإبداع الشعر. ثانياً: إن الامتحان الإمبراطوري في هذه الأسرة اشتمل على مادة المقامات، مما حفّز حماس وآمال الأدباء والباحثين والدارسين لنظم الشعر. ثالثاً: إن تطور الشعر ذاته ونضوجه شكّلا القوة المحركة الكامنة لتطور الشعر في عصر تانغ.

وفي بداية أسرة تانغ، كانت الأوساط الشعرية لا تزال تشهد بقايا الأسلوب الشعري المنمق في مملكتي تشي وليانغ. ففي البداية، ظهر الشاعر وانغ جي وقصيدته «آمال طموح»، والشاعر وي جينغ وقصيدته «سرد خواطر»، وكان أسلوبهما عادياً وناعماً ولطيفاً، حتى

ظهور «الشعراء المشاهير الأربعة في أوائل أسرة تانغ»، وهم: وانغ او، يانغ جيونغ، لوتشاو لين، ولوابينغ وانغ الذين أحدثوا تغييراً هائلاً في أسلوب الشعر، ورفع تشين تسي آنغ راية الإصلاح في الشعر عالياً، ودعا إلى «قوة الأسلوب في أسرتي هان ووي»، ودشن أسلوب الشعر القوي من خلال ممارسة الإبداع الشعري. ونظم كل من الشاعرين شين تشوان تشي وسونغ جي ون قصائد لويشي (مقطوعة شعريه من ثمانية أبيات) والرباعيات، وقدما اسهامات مهمة في تأسيس شعر قواعد النظم. وفي غضون أكثر من خمسين عاماً بدءاً من فترة حكم كايوان إلى عصر حكم دالي، بلغ شعر تانغ درجة عالية من الازدهار والإشراق، وأنجب مذهبين كبيرين، وشاعرين عظيمين سطعت أنوارهما في الساحة الشعرية. كان المذهب الأول «مذهب مناطق الحدود» بريادة قاوشي، وتسنغ شين، ووصف المناظر الطبيعية الخلابة والفاتنة في مناطق الحدود، وعبَّر عن مشاعر خوض الحروب في ميادين المعارك، وقدم إنجازات جديدة، كما جاء في قصائد: «رحلة إلى يانقه» للشاعر قاوشي، و«توديع مسؤول عسكري والثلوج تتساقط» للشاعر تسينغ شين، و«عبور الحدود» و«مرافقة الجيش» للشاعر وانغ تشينغ لين، وانتشرت هذه القصائد وذاع صيتها على مر الدهر. أما المذهب الآخر كان «مذهب قصائد ريفية» بريادة وانغ وي، مينغ هاو ران، ووصف المناظر الخلابة الجذابة للجبال والأنهار، وشكَّل مفهوماً فنياً رصيناً كما جاء في قصيدة «غسق الخريف في جبل»، و«زيارة صديق حميم في قرية»، و«أنشودة العودة إلى لومين في الليل» للشاعر مينغ هاو ران. والشاعران العظيمان هما: لي باي (701– 772م)، ودو فو (712– 770م). وكان لي باي حبله على غاربه، مستهتر بالأعراف والتقاليد، ويزدرى بالسلطات، وانتشرت قصائده مثل السحب المتهاوية والماء المنساب، وأسلوبه جذاب وواضح تماماً، ويتحلى بالطابع الرومانسي، وأُطلق عليه «ملاك الشعر». كما كانت قصائده مثل حصان مجنح يسبح في الفضاء ويسابق الريح، ومن أشهر أعماله «حلم رحلة في جبال الجن»، و«أنشودة جبل لوشان»، و«الطريق إلى شو». أما الشاعر دوفو كان مهموماً بشؤون وطنه وشعبه، مضطرب الخاطر كسير الفؤاد، وكلماته الشعرية موجزة وبليغة، ورائعة وبديعة، وأسلوبه رصين ومتزن وزاخر بالإيقاع، وأبرز للعيان الفكر الواقعي بشكل أكبر، وأُطلق عليه «قديس الشعر». وكانت قصائده مثل البقرة التي تحرث الحقل، بلورت التمرس وخوض غمار كافة المتاعب الحقيقية، ومن

أشهر آثاره «خواطر في خمسمائة كلمة»، و«أغنية ريح الخريف تهدم كوخي»، و«أغنية مركبات حربية»، و«أغنية الفاتنات الساحرات». والشاعران لي باي ودوفو ندان ملأت شهرتهما الآفاق، وأطلقت عليهما الأجيال في العصور اللاحقة «لي – دو»، حيث ارتبط اسم كل منهما بالآخر، ويعد ذلك –في الواقع– بالضبط ما يطلق عليه «قصائد لي – دو تسطع أنوارهما في عنان السماء». وأثر أسلوبهما المختلف في الإبداع الأدبي تأثيراً هائلاً في الأجيال المتعاقبة، ولذا تزدهر أراضي الصين الفسيحة بآثارهما المتعددة والمتنوعة؛ من بينها قاعة دوفو في مدينة تشينغداو في مقاطعة سيتشوان، وبناية تاي باي في مدينة ما آن شان بمقاطعة آنهوي، مما يجسد تأثيرهما ومنجزاتهما بجلاء عبر عصور التاريخ، وكانت صورة الشعر في أسرة تانغ الوسطى باهتة وشاحبة، وليست مزدهرة كما كانت في أسرة تانغ، وذلك جراء أفول نجم الدولة واضمحلالها، وتجرع الشعب الآلام والمعاناة، والشعر هو الأكثر جدارة في تجسيد معاناة الشعب، وبزغ آنذاك نجم الشاعر باي جيوي يي (732– 846م) الذي ورث تقاليد الواقعية عند الشاعر دوفو، وشجع مع نظيره يوان تشين حركة «الأغاني الشعبية الجديدة»، ودعا إلى اضطلاع الشعر بكشف النقاب عن حياة الشعب، وإماطة اللثام عن الأخطاء وتقديم النصائح، وأبدع العديد من الحكايات الاجتماعية الرمزية المنظومة التي تتحلى بالبساطة والفهم السهل، ولاسيما أعماله الأكثر شهرة «الأغاني الشعبية الجديدة»، و«أغنية الكراهية المريرة»، و«أغنية بيبا العود الصيني» والتي تألقت في أسرة يوان، وأصبح باي جيوي يي الشاعر الثالث في عصر تانغ. وشهدت هذه المرحلة العديد من الشعراء الكبار مثل: يوان جيه، قوكوانغ، ليو شانغ تشينغ، وي ينغ وو، هان يوي، جياداو، مينغ جياو، تشانغ جي، وانغ جيان، ليو زونغ يوان، لي خه وغيرهم، وعلى وجه الخصوص لي خه (790– 816م) صاحب الخيال الفريد المميز والطابع الرومانسي، والتعابير الرائعة الخلابة، وسار على دربه الخاص داخل أروقة الأوساط الشعرية، واتشحت ساحة الشعر بالحزن والكآبة في أسرة تانغ الأخيرة. وكان الشاعران لي شان ينغ، ودو مو أكثر الشعراء إنتاجاً وإسهاماً في نظم القصائد، وأُطلق عليهما «الفتيان لي –دو». ويتحلى لي شان بالتميز والتفرد، وتعتمد قصائده على الخيال والتصور، والمغزى العميق، وتزخر بالرمز وقيم علم الجمال.

وظهر في ساحة الشعر في أسرة تانغ نوع جديد من الشعر، أُطلق عليه «تسي» الذي تطور

انطلاقاً من «كلمات الأغاني الشعبية». وتضمنت أعمال الشاعر لي باي المبكرة وقصائد أسرة تانغ الوسطى عدداً غير قليل من شعر «تسي». وكان الشاعر ون تينغ جون في أسرة تانغ الأخيرة ينظم شعر «تسي» بصورة أساسية وانضم إليه الشاعر لي شان ين، وأُطلق عليهما «ون– لي». والشاعر ون تينغ جيونغ قدم شعراً جميلاً ورائعاً من طراز «تسي»، وجمعت أعماله مع الشاعر وي تشولمغ في «ديوان هواجيان»، ولذا سُمي بمذهب «هوا جيان». وفي الأسر الخمس، قدم الشاعر فينغ تينغ جي، والإمبراطور لي جينغ ونظيره لي يوان في أسرة تانغ الجنوبية أكبر الاسهامات في تطوير شعر «تسي». وكان لي يوي إمبراطوراً في المقام الأول، ثم سجيناً في نهاية المطاف، وتأرجحت حياته صعودا وهبوطا، وشهد التغيرات الضخمة والهائلة، وخلف وراءه العديد من الأعمال الخالدة.

وتطور شعر «تسي» حتى أسرة سونغ؛ حيث دخل مرحلة الانتشار الواسع النطاق، وأصبح قمة فنية في تاريخ الشعر الصيني. وفي بداية هذه الأسرة، اقتفت دوائر هذا الشعر الأسلوب الجميل الجذاب في الأسر الخمس بريادة الشاعرين: يان شو، يان جي داو (الأب وابنه). وأغنية «كبرياء صياد» للشاعر فإن تشونغ يان أدخلت شعر مناطق الحدود في دوائر شعر «تسي»، وأصبح أويانغ شيو (1007– 1072م) شاعراً كبيراً بفضل أعماله البارزة في شعر «تسي» التي تتحلى بالسحر والجاذبية، واللغة البسيطة السهلة، والمعنى العميق. وعلى خلاف عادته، تخلى الشاعر ليو يونغ عن عادته السيئة من تزويق وتنميق كتابته، واستوعب اللغة الشفهية، ودمجها في شعر «تسي»، وعبّر عن عواطفه ومشاعره بالأسلوب السهل السلس، وانتشر صوت أعماله لفترة مؤقتة، وقدم أعمالاً لا تُضارع في دوائر شعر «تسي» في أسرة سونغ الشمالية. وبعد ذلك، انقسم شعر «تسي» في أسرة سونغ إلى مذهبين كبيرين: أولهما بريادة الشاعر صوشي (1037– 1101) الذي وضع إرهاصاته، وحطم شعره سياج تقاليد «الزخرفة اللغوية»، وتمثل الحياة الاجتماعية، وكان نظمه الشعري قوياً ومتيناً، وأسلوبه حر شجاع، وحقق منزلة سامية، ولذا أطلق على هذا المذهب «المذهب الحر الشجاع»، وتمثله أوزان الموشحات الصينية. وأدى الشاعر تشين قوان دوراً بارزاً في نشأة المذهب الثاني من أسلوبه الواضح الجذاب في شعر «تسي»، واستخدم النغمة الطويلة في التعبير عن العواطف والمشاعر، والنظم الشعري جذاب ولبق، ويتشابه مع شعر ليو يونغ كثيراً، ولذا أطلق على هذا

المذهب «مذهب اللباقة البليغة» وتمثله أوزان الموشحات الصينية أيضاً. كما كان هناك «أغنية لؤلؤة الشباب» للشاعر خهتشو التي اشتهرت عبر العصور، وبلور الشاعر تشيوانغ يان المزايا الرائعة في هذا المذهب. وعبر عن مشاعره وعواطفه من خلال وصف الأشياء الموضوعية وبمهارة فنية فائقة. واجتاحت دوائر شعر «تسي» في أسرة سونغ الجنوبية موجة عارمة من الروح الوطنية جراء استشراء التناقض القومي على حين غرة. وكان أسلوب الشاعر لي تشينغ تشاو -أصلاً- أنيقاً وجميلاً وناعماً في شعر «تسي»، ثم أصبح حراً وشجاعاً بسبب التغيرات التي طرأت على البلاد. وكان الشعراء شين تشي بي، وتشانغ شياو شيانغ، وتشانغ يوان فان، ولو يوي يجيدون أسلوب مذهب الحر الشجاع، وتركز الموضوع الأساسي في شعر «تسي» لديهم على الحزن والغضب وحب الوطن، ولاسيما الشاعر شين تشي جي (1140– 1217) الذي كان يتمتع بمهارة فائقة في إدارة شؤون البلاد وتحقيق مصالحها، والطموحات السامية، والتجارب الشخصية، والطابع الأسطوري الخيالي، وشعره مفعم بالعواطف النبيلة الوطنية، واللهو والطرب، والغضب والبكاء، وأصبح ذلك كله من سمات أسلوبه الرائع، كما أصبح أشهر شاعر وطني نظم «شعر تسي» في تاريخ الصين، ومن أهم آثاره «أنشودة تنين الماء»، و«القرية الجنوبية» وغيرهما كثير. وشهدت المرحلة المتأخرة في أسرة سونغ الجنوبية منجزات رائعة إلى حد ما في شعر «تسي» بفضل الشعراء: جيانغ كوي، تشومي، وو ون ينغ.

وعلى الرغم من أن شعر «تسي» في أسرة سونغ لم يكن الأسلوب الشعري الوحيد في الأوساط الشعرية، ولكنه ظل يحتفظ بالأسلوب الفني المميز. وفي أوائل هذه الأسرة، حذا بعض الشعراء حذو لي شان ين وتبادلوا إهداء القصائد، وقاموا بإعداد وتحرير «مجموعة القصائد المهداة من شي كونغ» التي تزخر بالزخارف اللغوية والجمل الجميلة الزاهية، والمضمون الفارغ التافه، وأطلق عليها «أسلوب شي كونغ». وشجع أويانغ، وميي ياو تشين إصلاح أسلوب الشعر، حتى جاء الشاعر صوشي صاحب الإرادة الفولاذية، والخيال العريض العظيم، والمشاعر والعواطف الشاعرية الحرة المتدفقة، وقدرته الإبداعية التي لا تنضب، وأصبح النجم الساطع في سماء الأوساط الشعرية. وبعد ذلك، دعا الشاعر هوانغ تينغ جيان إلى أن نظم الشعر يجب أن: «يتحرى أصل وفصل كل كلمة»، وشجع «صهر الحديد ويصبح ذهباً، وتغيير المضغة والنظام»، وشكّل المذهب الشعري الشهير «مذهب

جيانغشي»، وترك تأثيراً هائلاً في دوائر الشعر في أسرة سونغ. وشهدت أسرة سونغ الجنوبية «الشعراء الأربعة الكبار»، وهم: يوي ماو، يانغ وانلي، فإن تشينغدا، لويوي. وكان لويوي (1125– 1210) شاعراً عظيما، تتحلى أشعاره بالصدق والإخلاص، والحماسة والكرم، والحزن والغضب، وشعر «تسي» لديه يجمع بين الدمع والدم، ونظم أكثر من أربعة عشر ألف قصيدة، وعندما كان يحتضر، كان آخر ما كتبه لابنه: «عند الاحتضار، نشعر أن كافة الأشياء عديمة القيمة وفارغة، ولكن ما يحز في النفس أن البلاد لم تحرز النصر. وعندما يوطد القادة العسكريون دعائم الاستقرار في السهول الوسطى، أخبرني بذلك عندما تقدم الأسرة القرابين». و«أغنية تشجيع الاتجاهات السليمة» للشاعر ون تيان شيانغ في أواخر أسرة سونغ عبرت عن الروح البطولية في التضحية بالحياة وفداء الوطن، ووضع نهاية الدوائر الشعرية في أسرة سونغ الجنوبية.

وانتشر لحن سانتشيوي، وتساجيوي (تمثيلية أو مسرحية شعرية قديمة) في أسرة يوان، بينما ازدهرت الرواية في أسرتي مينغ وتشينغ، ولم يعد شعر «تسي» يتمتع بالتأثير الهائل كما كان. وشهد عصر مينغ تعاظم دور «مذهب تاي قه» الذي يتسم بالأسلوب الرفيع الرصين الرزين، وفي منتصف هذا العصر ظهر «الشعراء الأوائل السبعة» بزعامة لي مينغ يانغ، وكه جيانغ مينغ، كما ظهر أيضاً «الشعراء الأواخر السبعة» بريادة لي بان لونغ، ووانغ شي تشين، وعارضوا جميعاً «مذهب تاي قه»، وشجعوا العودة إلى القديم، ثم تفرقت المذاهب الشعرية فيما بعد، ولكنها ظلت أسيرة أشعار أسرتي تانغ وسونغ. وكان الشاعر تشيان تشيان النجم المهيمن على الدوائر الشعرية في أوائل أسرة تشينغ، وقدم الشعراء: وو وي يه، وانغ شي تشين، نالان شينغ، تشو يي زونغ، عدداً غير قليل من القصائد المميزة، حتى ظهرت ثُلة من الشعراء أمثال: قونغ تسي تشين، ووه يوان، ولين تسي شيوه، الذين نظموا قصائد تزخر بالحماسة الوطنية المتدفقة، كما استخدم الشاعر هوانغ زونغ شيان الأشكال الشعرية في تجسيد الأحداث المهمة في تاريخ الثورة في العصر الحديث، وأُطلق عليها «الملاحم الشعرية».

المبحث الثاني

النثر والناثرون

يعتبر النثر في الصين القديمة دائماً «مهمة عظيمة لإدارة شؤون البلاد، وحدثاً عظيماً خالداً»، والأدباء يستطيعون إحراز الشهرة على مر الدهر بفضل اعتمادهم على المقال، وتظل أسماؤهم خالدة عبر الأجيال، ويمكنهم أيضاً التعبير عن مآثرهم وأخلاقهم الشخصية وأفكارهم في إدارة شؤون البلاد، ومن ثم يهتم الأدباء عبر العصور اهتماماً شديداً بالإبداع النثري. ولكن مفهوم النثر في الصين يعتبر فضفاضا نسبياً، ولا يشمل النثر بمعناه الأدبي الخالص فقط، بل يتضمن تعليقات سياسية حيوية، وسير ذاتية، ونظريات تاريخية. إن جوهر الثقافة الصينية المفعم بالثراء والخصوبة تتهادى كلماته وألوانه المشرقة بين السطور ويعد المنبع الذي لا ينضب والمصدر الذي لا ينفد.

وانطلق النثر الصيني من نثر ما قبل أسرة تشين (221 ق.م – 207 ق.م) وأسرة تشو الغربية، ويرجع تاريخ مصدره إلى أسرتي شانغ وتشو الغربية. ونثر ما قبل أسرة تشين ينقسم إلى نوعين هما: النثر التاريخي والنثر الفلسفي. وتركز النثر التاريخي بصورة أساسية في كتب: «تاريخ الممالك قبل أسرة تشين»، و«حوليات الصين»، و«تكتيك الممالك المتحاربة». والمضمون الأساسي في كتاب «شانغ شو» يتناول المراسم والأوامر الإمبراطورية وأحاديث الأمراء والأشراف وكبار الوزراء في أسرة شانغ وبداية أسرة تشو الغربية، ويعد أقدم كتاب في الصين يجمع بين دفتيه وثائق تاريخية، ويضم حالياً ثمانية وخمسين مقالاً، من بينها ثمانية وعشرون مقالاً في كتاب «شانغ شو بالخط الديواني الصيني» تحتوي على معلومات تاريخية موثوق بها. وعلى الرغم من صعوبة كلمات وعبارات كتاب «شانغ شو»، ولكنه يحوي العديد من التشبيهات والأوصاف التي تفيض قوة وحيوية. ويسجل كتاب «تاريخ الممالك قبل أسرة تشين» الحقائق التاريخية في ثماني ممالك هي: تشو، لو، تشي، جين، تشينغ، تشوي، وو، يوه، وكافة حقائق مملكة جين الأكثر تفضيلاً. وهناك وصف لملابسات بعض الأحداث التاريخية، واللغة بسيطة وسهلة الفهم مقارنة بكتاب «شانغ شو». وكتاب «حوليات الصين» يستخدم الحقائق التاريخية المحددة لتكملة وإثراء النصوص الموجزة في

كتاب «فترة الربيع والخريف»، ولغته بسيطة وواضحة، وعباراته مرنة وخفيفة، مما يساعد على السرد الكامل للأحداث ورسم صور الشخصيات من خلال التفاصيل. فعلى سبيل المثال، كتاب «فترة الربيع والخريف» يسرد قصة «الشقيق الأكبر تشينغ باو يهزم الشقيق الأصغر ديوان» في ست كلمات قط، بينما يسردها كتاب «فترة الربيع والخريف» في أكثر من ستمائة كلمة ويصفها وصفاً دقيقاً، ولاسيما أنه كان وصف الحروب بين الأمراء والحكام يهز أوتار القلوب. ويسجل كتاب «تكتيك الممالك المتحاربة» بصورة أساسية أقوال وأفعال المستشارين في عصر الممالك المتحاربة التي انقسمت إلى اثنتي عشرة مملكة هي: تشو الغربية، تشو الشرقية، تشين، تشي، تشو، وي، تشاو، هان، يان، سونغ، وي، تشونغشان. وتهتم مقالاته برسم صور الشخصيات، وماهرة في الوصف الفضفاض، وجاء وصف العديد من القصص ينبض بالحياة، وأصبحت من مقالات النثر المنثور في العصر القديم مثل: «جينغ جي ينصح ملك تشي»، و«جيا لونغ ينصح الملكة تشاو»، و«لوتشونغ ليان لا يتنصل من مسؤولية ملك تشين»، بالإضافة إلى بعض المقالات التي دأبت على وصف طباع الشخصيات وتفيض بالقوة والحيوية، مثل: «البطل جينغكهه يقتل ملك تشين»، و«فينغ شوان تابع للأمير مينغ تسانغ» وغيرهما. أما النثر الفلسفي فيتركز في كتب الفلاسفة، مثل كتاب «لاوتسي» يتميز باللغة الموجزة المقتضبة، وفلسفته عويصة وصعبة الفهم، وتتشابه كثيراً مع حكم الشعر الذي يتصف بالقوافي النثرية المتعددة. و«كتاب الحوار» يتحلى باللغة الموجزة، والأماني السخية، والحجج المنطقية ذات الطابع الفلسفي والعاطفي، والعديد من عبارته وجمله أصبحت من الأمثال والحكم في الأجيال المتعاقبة مثل: «إذا كنا نحن الثلاثة نمشي سوياً، فهناك على الأقل واحد من الاثنين الآحرين مؤهلاً بدرجة كافية لكي يكون مُعلمي»، و«في العجلة الندامة، وفي التأني السلامة»، و«إعادة الدراسة قد تكشف آفاقاً جديدة»، و«طالب علم لا يشبع»، و«يعلّم بلا كلل ولا ملل». وكتاب «موه تسي» أسلوب الكتابة فيه موجز ومقتضب، ويتحلى بالبراهين القاطعة الساطعة، ويجمع بين الاستدلال والاستقراء، ويمثل الإرهاصات الحقيقية لمقالات المناظرات. وكتاب «مينشيوس» تحول من المقتطفات والمقتبسات إلى الأطروحات الطويلة. وكان منشيوس حاذقاً في الحجة البليغة، وقلمه ماض، ورؤاه واضحة، ويتحلى بالمهابة والعظمة، ويستخدم التشبيه والحكاية كثيراً في شرح الحجج والمنطق، ويختلف أسلوبه

عن «كتاب الحوار» صاحب الأسلوب العميق الهادئ الرصين. ويعرف الجميع الأمثال القائلة: «البحث عن السمك في الشجرة»، و«يرى القشة في عين أخيه ولا يرى العود في عينه»، و«يشد الشتلة ليساعدها على النمو»، وكلها تتسم بالشغف والامتنان. وبدأ كتاب «مينشيوس» التخلص من المقتطفات، وبعض مقالاته تناولت أطروحات موضوعات خاصة، ومن سماته استخدام الحكاية في الشرح والتفسير، والتفكير التصويري. كما تستنطق مقالات الكتاب بصورة رائعة الإنسان والإله، النهر والبحر، الضفدع والسلحفاة، الرُخ والطير، كما أنها مقالات متعددة الرؤى تجمع بين السلاسة والوضوح، والخيال الفريد المتميز، ومفعمة بالحجة والمنطق، وأثرت تأثيراً عميقاً في الأدب الرومانسي في العصور اللاحقة. ومن الكتب الأخرى في هذا الخصوص، كتاب «تشوان تسي» الذي يمثل نضوج المقالات في المناقشة، وكتاب «هان فيي تسي» صاحب المنطق الدقيق المحكم، والفهم الشامل الكامل. وهذان الكتابان تتمتع مقالاتهما بالشهرة العريضة العظيمة. كما يتسم الكتابان «يانتسي يشرح فترة الربيع والخريف» و«ليشي يشرح فترة الربيع والخريف» بالقيمة الأدبية المحددة.

واستمر تطور النثر في أسرتي هان ووي وفي الأسر الست على أساس نثر ما قبل أسرة تشين، وتبلورت منجزاته الرئيسية في التعليق السياسي والسيرة التاريخية. وشهدت أوائل أسرة هان الغربية، أهم كاتبين في النثر هما: جيابى، وتشاو تسوه. ويعتبر كتاباً «نظرية زوال أسرة تشين» للكاتب جيابي، و«مقالات للإمبراطور في المحاصيل» للكاتب تشاو تسوه، من المؤلفات الخالدة، فالأول يتمتع بالآراء العميقة، والأسلوب المتدفق حماسة، وحلل الدروس التاريخية المستفادة من زوال أسرة تشين، والثاني يطرح الآراء الدقيقة والعميقة، والأفكار واضحة وجلية، ويشجع الزراعة ويكبح التجارة، ويوطد الاستقرار والأمان في حياة الشعب. ولكن سيماتشيان يعتبر أعظم ناثر في عصر هان، ومؤلفه الضخم «سجلات تاريخية»، على الرغم من أنه كتاب تاريخي، لكنه يمثل مجموعة أدبية ضخمة من السير والتراجم، ومنزلته في النثر تعد عملاً خالد الأثر في تاريخ الأدب الصيني. ورسم المؤلف -من خلال سلسلة من الأحداث التاريخية الكبرى- الخصائص البارزة والصور الجلية للعديد من الشخصيات التاريخية مثل: ليان يوه، لين شيانغ رو، ليويانغ، شيانغ يوي، وعندما نطالعه اليوم مازلنا نشعر بالجو الحقيقي النابض بالقوة والحيوية. وفي أسرة هان الشرقية، ألف بان قو «كتاب أسرة

هان» سرد فيه تاريخ أسرة هان الغربية سرداً دقيقاً ومحكما بأسلوب قوي وموجز، ويحوي العديد من المقالات المشهورة مثل: «سيرة الشاعر صوشي»، ولكن لا يمكن مضاهاته بكتاب «سجلات تاريخية». وعلى الجملة، كان النثر في أسرة هان الغربية أكثر سلاسة ووضوحاً، وقوة وعظمة، ووفرة وثراء عن نظيره في أسرة هان الشرقية.

وانتشر المذهب الفلسفي القديم شيوانشيوي في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، وشهدت الأفكار الأدبية تطوراً هائلا، وأصبح الإبداع الأدبي لدى الناس نشاطاً واعياً، وبدأ النثر التحرر من ربقة الفلسفة والتاريخ، واستقل بذاته، وأصبحت الخاصية المميزة للأدب والفن أكثر وضوحاً وجلاء، والطابع العاطفي أكثر نكهة وكثافة. وكان الأديب تساو تساو أول من ابتدع أسلوباً جديداً في عصره، وآثاره من «شعر الإمبراطور الخاص برد أملاك الدولة يعد تجسيداً لأخلاقي» و«مسألة البحث عن الأكفاء» عبرت عما يجيش في صدره من حماسة متقدة وجزالة قوية، وكتاب «رسالة إلى ووجي» من تأليف نجله تساو بيه، أسلوبه واضح وأنيق ورشيق ومؤثر جداً، والناثرون الآخرون مثل: تساو جي، وانغ تسان، كونغ رونغ جسدت مقالاتهم خصالهم ومميزاتهم. ومقالات الأديب جوقه ليانغ «تقرير عسكري قبيل تحرك الحملة» يختلط فيها السرد والعواطف كامتزاج الماء واللبن، والمشاعر صادقة ومخلصة، واللغة بسيطة وجذابة، وتثير مشاعر المرء إثارة عميقة. والأديب روان جي يقدر الفلاسفة أمثال: لاوتسي وتشوانغ، ويبغض العلمانية، وكتابه «سيرة راهب طاوي عظيم» تتخلله القوافي النثرية، وجسد مشاعره وعواطفه بحرية، وعبر عن أفكاره المثالية عن طريق إثارة مخاوف المرء من الدنيا وكراهية العلمانية. والأديب جي كانغ ثابت المبدأ، ويكره الشر كرهه لعدوه، ومقالاته في كتاب «قطع العلاقة مع شانجو يوان جيه» تغص بالفكاهة والضحك، والحزن والبكاء، ويبدو فيها مشبوب العاطفة مفعم بالقوة، يتناول الماضي والحاضر، كما يبدو قويا مهيباً مثل قوس قزح، وأبرز للعيان خصاله من الصدق والأمانة والنزاهة. ويزخر كتاب «تقرير حالة» للأديب لي ميي بالعواطف المهتاجة القوية، ويغص بالحزن والكآبة التي تؤثر في النفس، وأطلقت عليه الأجيال المتعاقبة الكتاب النموذجي. وبعد أسرة جين الغربية (265– 316م) تطور أسلوب الكتابة المتوازية المسجوعة، وأصبح أسلوباً أدبيا ينتمي إلى مذهب قديم، والناثرون آنذاك قلما نرى مثلهم. وبرز في ساحة

النثر كاتبان كبيران هما: وانغ شي جي، وتاو يوان مينغ. كتاب الأول «مظلة لان تينغ» تمتزج فيه المشاعر بالمناظر الطبيعية، والأسلوب جميل وأنيق، وأعمال الثاني تشمل «مشاهدات حديقة الخوخ»، و«العشق في الريف»، و«سيرة السيد ووليو» تعكس خصاله من المهابة والعظمة، والزهد في الشهرة والجاه، ويبدو فيها مشبوب العاطفة، وصادق العزم، ويجعل المرء يشعر بجمال الفن النثري.

وانتشار أسلوب الكتابة المتوازية المسجوعة أوجد النزعة الشكلية في الإبداع الأدبي التي أعاقت تطور النثر، وأخذت بخناق حياة أفكار الكونفوشيوسيين أيضاً. وعندما تأسست أسرة تانغ الوسطى، سطع في سماء ساحة النثر الكاتبان الكبيران هان يوي (768– 824)، وليو زونغ يوان (773م – 819م)، ورفعا شعار «العودة إلى القديم» في خضم «الحركة الأدبية الكلاسيكية». وجوهر هذه الحركة هو العودة إلى التقاليد الكونفوشيوسية المتوارثة، وتغيير الأسلوب الأدبي والشكل الأدبي، وكان شعارهما الرئيسي «الثقافة هي حاملة الأخلاق»، وبلغة العصر الحديث نقول إن المقالة يجب أن تتحلى بالفكر، ويجب أن تجسد وتعبر عن التقاليد المتوارثة التي يروج لها الكونفوشيوسيون، وتعارض المقالة العقيمة الجوفاء، وتناهض التقاليد وترسم خطوات السلف، وتنبذ التصنع والتكلف في الكتابة. وكان هان يوي يجهد نفسه في الممارسة العملية، وأبدع العديد من المقالات الرائعة مثل: «مبدأ المعلم»،و«رسالة إلى مينشيوس»، و«توديع لي يوان»، و«نقش على شاهدة ليو تسي فو»، و«مقالة قربان شيآر ليانغ»، التي بهرت بنورها الأنظار جراء ثراء الأسلوب والمضمون، وأصبحت قدوة الأجيال عبر العصور، كما أبدى الكاتب ليو زونغ يوان تعاطفه مع الشعب الكادح، وأماط اللثام عن دياجير الظلام التي كان يقبع فيها المجتمع آنذاك في عدة جوانب مختلفة، كما جاء في مقالات: «أقوال صائد ثعبان»، و«سيرة مزارع الشجر قوا توتوا»، و«سيرة الطفل تشيوتشي»، بالإضافة إلى مذكرات رحلاته داخل المناظر الطبيعية مثل: «ذكريات رحلة يونغتشو» أسلوبها سهل وواضح وجزل، ويتحلى الإيحاء الفني بالسمو والرفعة، والمغزى الكامن العميق، وعندما وصف العديد من المناظر الطبيعية، أرسل –في الوقت نفسه– العديد من التنهدات شوقاً أو تحسراً. والإبداع الأدبي والممارسة العملية عند الكاتبين هان وليو أرسيا دعائم مكانتهما السامية في تاريخ الأدب الصيني بلا منازع. وأشاد الشاعر صوشي بالكاتب

هان يوي ودعا إلى «إحياء مقالاته السابقة ونفض الغبار عنها»، ولا تشمل هذه المقولة ثمة مبالغة.

وأفل نجم الحركة الأدبية الكلاسيكية بعد هان وليو لفترة من الوقت. وفي أسرة سونغ، رفع الكاتب أويانغ شيوه راية «الحركة الأدبية الكلاسيكية» للمرة الثانية، وجذب الأنظار وبهرها بفضل مقالاته وأخلاقه آنذاك، وتربع على عرش الساحة الأدبية في عصر سونغ. وبعد ذلك، أبدى الناثرون مثل: وانغشي شي، صوشي، صوشون، صوتشه، زينغ قوي، قدرة أدبية فائقة في كتاباتهم النثرية التي خلدت أسماءهم إلى الآن، ولذا أطلقت الأجيال اللاحقة على هؤلاء الناثرين جميعاً لقب «الناثرون الثمانية الكبار في أسرتي تانغ وسونغ»، ولاسيما الناثرون الثلاثة: صوشون، صوتشه، صوشي من عائلة صو، ويتميزون بالقدرات الأدبية النثرية الفائقة، واجادة التعبير عن العواطف والمشاعر ويتفوقون على الأفراد العاديين، ومن بينهم كان صوشي يتحلى بالإنجازات الأكثر رفعة، ويستحق أن يوضع اسمه على قدم المساواة مع الناثرين الكبار: سيما تشيان، هان يوي، أويانغ شيوه. وكانت تعليقاته السياسية وحججه المنطقية محكمة ودقيقة، ومقالاته البسيطة مفعمة بروح الطرب والنكتة، ومقالاته المشهورة مثل: «شاهدات جيل شي تشونغ»، و«ذكريات منصة تشاو ران»، و«ذكريات ظلة لينغ شيو»، و«ذكريات ظلة فانغ خه» تجمع في بوتقة واحدة السرد النثري، ووصف المناظر الطبيعية والتعبير عن المشاعر والعواطف، وأبرزت للعيان خاصية الإبداع المتميزة لدى الكاتب بصورة كاملة. كما كان هناك الكاتب فإن تشونغ يان وكتابه «ذكريات برج يوه يانغ» الذي جاء فيه عبارة: «نتذوق مرارة المعاناة والقلق أولاً، ثم ننعم بالسعادة والبهجة بعد دلك» التي أصبحت حكمة إدارة شؤون البلاد في الصين عبر الدهور، والكاتب تشو دون يي يستنطق الأشياء في كتابه «ملاحظات على حب اللوتس»، وجاءت فيه عبارة: «ينبثق اللوتس من الوحل والطين، ولكنه ليس قذراً ودميماً، ويغسل نفسه ويبدو في أبهى صورة، ولكنه ليس فتانة مغرية»، التي أصبحت أيضاً معيار البحث عن الأخلاق والطباع الحميدة في الصين. وتتمحور معظم الكتابات النثرية على الوطنية في أسرة سونغ الجنوبية، وعبرت عن مشاعر قديمة وصريحة. وترك الأدباء خوتشوان، لويوي، شين تشي جي، تشين ليانغ، ون تيان شيانغ، مؤلفات نثرية تتسم بالأسلوب الحماسي المتدفق، والمشاعر الصافية المجلجلة

والتي تهز أوتار القلب.

وشَعَرَ النثر بالوحدة والوحشة إلى حد ما في أسرة يوان. وفي أوائل أسرة مينغ، ظهرت أعمال نثرية جديدة يمثلها كل من ليوجي، وسنغ ليان. الأول له مجموعة نثرية تجسد قلمه الحاد، وتضم حكايات ومقالات بسيطة ذات المغزى الكامن العميق؛ والثاني ماهر في كتابة نثر التراجم والسير، وله أعمال نثرية بارزة مثل: «سجلات المثقفين في مملكة تشين» و«توديع السيد ما». وبعد أواسط أسرة مينغ، شهدت الأوساط الأدبية ظهور «الأدباء السبعة الأوائل» بريادة لي مينغ يانغ، وخه جينغ مينغ، كما شهدت «الأدباء السبعة الأواخر» بزعامة لي بان لونغ، وانغ شي تشين، الذين عارضوا النزعة الشكلية في «مذهب تاي قه»، ودعوا إلى أن «النثر يجب أن يحذو جذو نظيره في أسرتي هان وتشين، ويجب أن يزدهر الشعر على غرار نظيره في أسرة تانغ»، واضطلعوا بدورٍ فعال ومحدد في تشجيع إصلاح الأسلوب الأدبي، بيد أن تقديسهم للقديم بصورة عمياء نجم عنه تأثيرات سلبية. ولذا نشأ مذهب «تانغ وسنغ» الذي يقدر الأدب الكلاسيكي في أسرتي تانغ وسونغ تقديراً عالياً، ويمثله الكتّاب: تانغ شون جي، ماو كون، قوي يوي قوانغ بصورة أساسية، ولاسيما الكاتب قوي صاحب المنجزات الأكثر رفعة. وفي مقاله «ذكريات غرفة شيانغ جي» يضفي على الأشياء طابع العواطف والمشاعر، ويبدو فيه بائساً ومؤثراً في الآخرين. وفي المرحلة المتأخرة في عصر مينغ، ظهر الأشقاء الكُتّاب الثلاثة: آي زونغ داو، آي هونغ داو، آي تشونغ داو، وشجعوا أن يتحلى النثر بـ «الفكر المميز المستقل»، ويتحرر من المجاملات، وأُطلق عليهم مذهب «قونغآن» لأنهم من أهالي قونغآن في مقاطعة خوبي، وأسلوبهم جميل وجذاب، ولا يكترث بالزخارف اللغوية، وترك انطباعاً عميقاً في نفوس القراء، ويتجسد ذلك في أعمال آي هونغ داو مثل: «ذكريات خوتشيو» و«ذكريات رحلة مانجينغ». كما كان هناك كتّاب من أهالي جينغ لينغ في مقاطعة خوبي مثل: تشونغ شينغ، تان يوان تشون، الذين أيدوا أن يعبر النثر عن «ذهنية تأملات في أعمال الماضي من جانب واحد»، مما أدى إلى تقليص نطاق موضوعات المقالات، وأطلق عليهم مذهب «جينغ لينغ». واشتهر الكاتب تشانغ داي في أواخر أسرة مينغ بالمقالات البسيطة الجديدة والواضحة والمفعمة بالقوة والحيوية، وموضوعاتها واسعة النطاق، وفي مختارات أعماله النثرية «ذكريات معبد تاو» و«ذكريات البحيرة الغربية» نجد الكثير من المقالات أسلوبها

جذاب وجزل، وهيكلها الفني دقيق ومحكم. ومقالة تشانغبو «نقش على شاهدة قبر خمسة أفراد» أثرت في القراءلعدة مئات من السنين لأنها مهيبة وحزينة وحماسية.

وينقسم النثر في أسرة تشينغ إلى ثلاث مراحل هي: النثر الممتاز في أوائل أسرة تشينغ جسد دائماً مناهضة فساد هذه الأُسرة، مثل مقال «تسلم رسالة الأم في السجن» للكتاب شياوان تشون، و«سيرة مسؤول الامتحان يان» للكاتب شاو تشانغ هينغ؛ ومرحلة أواسط أسرة تشينغ التي شهدت ظهور مذهب «تونغ تشينغ» بريادة وانغ باو، ليو داكوي، وياو ناي، ومذهب «يانفخو» بريادة يون جينغ، ودعا المذهبان إلى تشجيع الأدب الكلاسيكي في أسرتي تانغ وسونغ، والاهتمام بـ «الأفكار والآراء المعقولة»، ولكن كان تأثير المذهب الأول هائلاً، ومقال فانغ باو «ذكريات مختلطة في السجن»، ومقال ياو ناي «ذكريات صعود جبل تاي» علقا بذاكرة القراء في الأجيال المتعاقبة. وبعد حرب الأفيون، تأثرت الأوساط الأدبية في الصين بإنكار الإصلاحية البرجوازية، وطرأت تغيرات جديدة على النثر مضموناً وشكلاً، ومنح القراء انطباعات جديدة بفعل قوته الفنية الهائلة نسبياً في الصراعات العنيفة، ومثال ذلك مقال «ذكريات سراي البرقوق المريض» للكاتب قونغ تسي جين الذي أظهر فيه إصراره على تغيير الأحوال المزرية البائسة. ومقال «ملاحظات على الصين الفتية» للمفكر ليانغ تسي تشاو، ومقال كانغ يوي وي «جمعية تقوية الدولة» قدما عرضاً وافياً للأحداث الكبرى في الصين والدعاية لأفكار الإصلاح. وبالإضافة إلى ذلك، مقال «سيرة زوا زونغ» للكاتب تشانغ بينغ لين أشاد بالمآثر المهيبة للثوار الشبان، وتتخلله القوة العظيمة التي تشجع المشاعر الشعبية.

المبحث الثالث

النثر المسجوع والمقامات

النثر المسجوع هو شكل أدبي يجمع بين خصائص الشعر والنثر، ولا يشبه الشعر في أنه يمكن أن يكون موسيقى مرافقة للغناء، ولا يشبه أيضاً النثر في أن يكون خالياً من القوافي، ولكنه يكترث باختيار الكلمات الرائعة الفخمة، والأعمال الرائعة التي تحرص على التسجيع المرتب بصفة عامة، وتعبر عن العواطف والطموحات من خلال الوصف الدقيق للغاية، تنتشر بين دفتيها القوافي النثرية وتنغيم الأصوات، ويمنح المرء الاستمتاع بجمال الفن.

والمقامة تعتبر شكلاً من الأشكال الأدبية، ظهرت قبل عصر تشين، وازدهرت في أسرتي هان الشرقية والغربية، وشهدت الثراء والوفرة والتغيير في الأسر الحاكمة وي وجين وسوى وتانغ، ثم استمرت على هذا المنوال حتى الأسر سونغ ويوان ومينغ وتشينغ. وكان أقدم استخدام لكلمة «المقامة» في كتابي «مقالة في المقامة» للمؤلف شون تسي، و«أغنية شعبية في المقامة» للمؤلف سونغ يوي، وجسد الأسلوبان المختلفان في المرحلة الأولية تطور المقامة؛ لأن أحدهما من الجنوب، والآخر من الشمال. وفي كتابه «مقالة في المقامة» تأثر شون تسي بـ«كتاب الأغاني» بصورة واضحة من استخدام اللغة المسجوعة من الرباعيات، وأشكال النثر المختلفة. ومقامات سونغ يوي تأثرت بـ «ديوان شعر مملكة تشو» بجلاء من الأسلوب رفيق الذوق والفخامة، وورثت الأجيال المتعاقبة آثاره من المقامات مثل: «أغنية شعبية في مقامة»، و«مقامة قاو تانغ»، و«مقامة عاهرة»، و«مقامة دينغ توشي عاشق الفاتنات» وتناقلتها الألسن عبر مراحل التاريخ.

وشهدت المقامات تغييراً في أسرتي هان الغربية والشرقية، وأصبحت من الأشكال الأدبية الأساسية، وبلغت ذروة الازدهار. ويسجل «كتاب أسرة هان–فصل تاريخ الأدب» أن عدد المقامات بلغ أكثر من تسعمائة مقامة في عصر هان. ومقامات «عزاء الشاعر شيوي يوان» للكاتب جيايي، و«اعتراف ناسك» للكاتب هوي نانشياو شان، و«مقامة تشينا» تمثل المقامات النموذجية في مرحلة المقامات الأولية في هذا العصر. وبعد ذلك، أُطلق على الكُتَّاب سيما شيانغرو، بان قو، يانغ شيونغ، تشانغ هينغ لقب «كُتَّاب المقامات الأربعة الكبار

في عصر هان»، واضطلعت أعمالهم بـ «تفخيم وتعظيم مآثر الإمبراطور» و«تقدم وسيلة لإسداء النصح»، وأفرطت في استخدام الزخارف اللغوية بكل وسيلة ممكنة، وعلى وجه الخصوص، «مقامة تسي شيوي» و«مقامة الذهاب إلى غابة» للكاتب سيما شيانغرو، اللتين وضعتا تكوين أسلوب النثر العفوي في المقامات الكبيرة، وأبرزتا خصائص النثر العفوي في المقامات الكبيرة؛ وسردت المقامة الأولى الافتخار المتبادل بين كل من تسي شيوي في مملكة تشو، و وو في مملكة تشي، حيث تباهى كل منهما بمزايا مملكته، والمقامة الثانية تروي أن فانغ شيقونغ سمع حوار تسي شيوي و وو، فامتدح شجاعة الذهاب إلى الغابة ومآثر ولي العهد في أسرة هان في الصيد بإفراط. وبالإضافة إلى ذلك، توجد مقامات مشهورة في عصر هان مثل: «مقامة خنزير» و«مقامة تشانغ يانغ» للكاتب يانغ شيونغ، و«مقامة عاصمتي الدولة» للكاتب بان قو، و«مقامة عاصمتي البلاد» للكاتب تشانغ هينغ.

وعلى الرغم من أن المقامات في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، ورثت تقاليد وعادات المقامات في عصر هان، إلا أنها شهدت بعض التغيرات عند مقارنتها بمقامات أسرة هان، وفي عبارة أخرى، شهدت التحول من «التغني بأمجاد ومآثر الإمبراطور» بصورة مفرطة إلى التغني بالأشياء التي تجمع الذكريات الماضية، واتسع نطاق موضوعاتها بشكل أكبر، وتغيرت اللغة من النثر العفوي إلى أسلوب الكتابة المتوازية المسجوعة. وكان الأدباء في عصر جيانآن (196 – 220م) يجيدون فن النثر المسجوع بمهارة، وكان أكثرهم شهرة الكاتب تساو جي صاحب «مقامة حورية» و«مقامة صعود بناية» للكاتب وانغ تسان؛ حيث سرد عواطف ومشاعر الأشياء الجميلة، واللغة واضحة وأنيقة، أما «مقامة سرد ذكريات رحلة» للكاتب تساي يونغ، و«مقامة ببغاء» للكاتب ميي هينغ، فنجد فيهما وصف المشاعر والطموحات والآمال، والمغزى الكامن العميق. والعمل الأدبي الضخم «مقامة ثلاث عواصم» على الرغم من أنه اقتفى أثر أسلوب كتابة المقامات في أسرة هان، ولكن أسلوبه اتسم بالبطولة والشجاعة والاعتزاز، والكلمات رائعة وفخمة، وعلى غير المتوقع جعل ذلك التداول والنسخ يشهد تطوراً في البلاد، وظهر المثل القائل: «الشعبية الجارفة لعمل أدبي جديد تؤدي إلى نقص ورق الطباعة». وفي أسرتي وي وجين، تناولت المقامات آنذاك المذهب الفلسفي عند لاوتسي وتشوانغ تسي بسبب تأثير المذهب الفلسفي القديم «شيوا

نشيوي، وزادت المقامات الصغيرة ذات اللغة السلسة الواضحة الجلية يوماً بعد يوم، ومن بينها «مقامة جبل تيان تاي» للكاتب صون تشوا، و«مقامة مرتاح البال» للكاتب تاو يوان مينغ، و«مقامة توارد الخواطر» للكاتب بان يوه، وكلها تعتبر مقامات نموذجية في ذلك الحين. وتتجلى مقامات هذه المرحلة بالطباق والمقابلة والكلمات الرائعة الجذابة، واتساق النغمات، ومن بينها «مقامة مدينة موحشة» للكاتب باو تشاو، و«مقامة الكراهية» و«مقامة الوداع» للكاتب جيانغ يان، و«مقامة أحزان جنوب حوض تشانغجيانغ» للكاتب يوي تشين، وأصبحت هذه المقامات من الآثار الأدبية الخالدة في تاريخ الأدب الصيني.

وعلى الرغم من أن الإبداع الشعري كان يمثل التيار الرئيسي في عصر تانغ، إلا أن النثر المسجوع كان مجالاً أظهر الموهبة والكفاءة الأدبية لدى الأدباء والباحثين. ويمكن القول إن العديد من الشعراء المشهورين في عصر تانغ، كتبوا أعمال النثر المسجوع. ومثال ذلك، وانغ باو في «مقامة فكر الربيع» فهي تبرز تطلعاته إلى تدشين مستقبله الأدبي، وتشانغ جيوي لينغ في «مقامة ليتشي (ثمرة كالجوزة ولها جلدة قاسية وخشنة)» التي جسدت السعي الدؤوب لأصحاب المواهب الأدبية من ذوي الدرجات الدنيا لاعتلاء المناصب الرفيعة، ولي باي في «مقامة الرخ» يتباهى بنفسه وقدرته على غرار صراع الرخ في السماء. وبعد أسرتي تانغ الوسطى والأخيرة، حطم الشعراء قيود أسلوب الكتابة المتوازية المسجوعة في المقامات في ظل تأثير الحركة الأدبية الكلاسيكية، وأماطوا اللثام عن المشاكل الاجتماعية عن طريق النثر المسجوع، واهتموا بالحياة اهتماماً شديداً، ومثال ذلك، لي شان ينغ في «مقامة قملة»، ولو قوي مينغ في «مقامة دودة القز»، وليو زونغ يوان في «مقامة زجاجة» و«مقامة بقرة»، ودو في «مقامة قصر خهفانغ» على وجه الخصوص حيث استخدم في الكتابة طريقة شد الشتلة لتساعدها على النمو، واللغة الواضحة الجذابة، وخطابه ومناقشته واضحة وجلية، وأظهر التغيير الجديد في الطرائق الفنية في كتابة المقامات.

والنثر المسجوع في عصر سونغ ورث تقاليد إبداع المقامات في العصور السابقة، كما ورث شكل وتكوين المقامات القديمة ومقامات أسلوب الكتابة المتوازية المسجوعة، ولكن في ظل تحفيز الحركة الأدبية الكلاسيكية في أسرتي تانغ وسونغ، تأثر بتنوير الكاتب دومو في مقامته المذكورة أعلاه، وأوجد فن كتابة المقامة الذي يستخدم القوافي بحرية إلى حد

ما، واتسم ببراعة العرض الأدبي والجو الأدبي المفعم بالقوة والحيوية، والمقامات النموذجية في هذا الخصوص نذكر منها: «مقامة صوت الخريف» للكاتب أويانغ شيوه، و«مقامة أمام الأثر التاريخي تشي بي» و«مقامة خلف الأثر التاريخي تشي بي» للشاعر صوشي. وتتحلى هذه المقامات بالقوافي النثرية المتعددة والمختلفة، وأسلوب الكتابة مختلف، والخيال الثري الخصب، والقدرة على الإقناع دقيقة ومحكمة، والوصف الدقيق الحي للمشاهد والأشياء، ومثال ذلك، جاء في «مقامة أمام الأثر التاريخي تشي بي» عبارة: «الندى الناصع البياض يمتد كنهر اليانجتسي، والأنوار الساطعة على الماء تطاول أعنان السماء»، وكذلك في «مقامة خلف الأثر التاريخي تشي بي» جاء فيها: «الجبال شاهقة، والقمر ليس في كامل استدارته، وانحسار الماء يكشف الحجر»، وتمثل هاتان المقامتان لوحة فنية رائعة، وجسدتا أسلوب الكاتب في الحياة من رحابة الصدر والقلب الكبير، والتفاؤل، مما جعلهما من الأعمال البارزة الخالدة على مر الدهر.

وظلت مؤلفات النثر المسجوع مجرد صوت خافت يتلاشى تدريجياً بعد أسرتي جين ويوان، ولكن لا يمكن مضاهاتها بنظيرتها في العصور السابقة، وباتت الأعمال التي تستحق التأمل والتفكير تعّد على الأصابع. ومن المقامات التي تستحق المطالعة في أسرة جين، «مقامة منتصف الخريف» للكاتب يوان هاو ون، و«مقامة مطر غاضب» للكاتب هاو جينغ. كما قدم الأدباء السبعة الأوائل والأواخر في عصر مينغ بعض مؤلفات النثر المسجوع، ولكن الأسلوب في معظمها كان مثقلاً بالزخارف اللغوية، وقلما تعبر عن التطلعات والآمال. وحاول بعض الأدباء في عصر تشينغ تقليد مقامات أسرة هان، وتغنوا بأمجادهم ومآثرهم، ولذا ظل إبداع النثر المسجوع في أسرتي مينغ وتشينغ مجرد صدى لحن ينساب لأعمال أدبية بارزة.

المبحث الرابع

المسرح والمسرحيون

بعد أن اجتازت الأوبرا التقليدية في الصين عملية تطور طويلة حتى أسرة يوان، تكونت «المسرحية الشعرية» في عصر هذه الأسرة. ونظراً لازدهار اقتصاد الحضر في عهد أسرة يوان، نهضت الحياة في المدن مع هذا الازدهار، وتعاظمت احتياجات الحياة الثقافية لدى أهل الحضر من كافة الفئات والطبقات بشكل أكبر عن العصور السابقة، وانتهجت حكومة يوان سياسة قاسية في حكم الشعب، وشعر الكثيرون من الأدباء صعوبة صعود الارتقاء في وظيفة رسمية، ووقعوا في شرك الدرجات الدنيا، وانضموا إلى صفوف الغنائيين، وعبروا عن الأماني والرغبات التي تعتلج في صدورهم من خلال الإبداع الفني، وقدم ذلك البيئة الموضوعية الضرورية والأحوال المادية لتطوير الأوبرا التقليدية في أسرة يوان.

وازدهار وتطور الأوبرا التقليدية في عصر يوان يمثل مرحلة مشرقة في تاريخ الأدب الصيني، وبلغ عدد كُتّاب المسرح المشهورين الذين شملتهم الدراسات أكثر من مائتي كاتب، وسجلت متون الكتب أكثر من سبعمائة نوع من المسرحيات، يوجد منها أكثر من مائة وخمسين نوعاً تناقلتها الأجيال عبر العصور إلى الآن. وكانت هذه المسرحيات تنقسم إلى المسرحيات العاطفية، ومسرحيات القضايا القانونية المعقدة، ومسرحيات أساليب التعامل والأواصر الإنسانية، والمسرحيات التاريخية، وجسدت كلها حقيقة المجتمع المظلم آنذاك بصورة عميقة، ووصفت ما تعرضت له كافة الطبقات والفئات الاجتماعية من الوحشية والقمع، وعكست آمال وتطلعات جماهير الشعب في السعي وراء حياة جميلة وسعيدة. ومن الطبيعي أن يكون الكاتب المسرحي قوان هان تشينغ صاحب الإبداع المسرحي الأقدم، ومنجزاته الأكثر رفعة، وتأثيره الأكبر في هذا المجال.

وُلد قوان هان تشينغ (1230 تقريباً – 1300م) في دادو (مدينة بكين اليوم)، وتركز إبداعه الفني فيها طوال حياته، وربما سافر إلى مدينتي يانغتشو وهانتشو في أواخر أيامه، وأجاد الإبداع المسرحي ببراعة وشارك في التمثيل المسرحي بنفسه أيضاً، وبلغ نتاجه الفني زهاء سبعين مسرحية، ويوجد منها الآن حوالي ثماني عشرة مسرحية فقط، ومن آثاره النموذجية:

«ثلج في عز الصيف»، و«أنقذتها اللعوب»، و«السيد قوان يذهب إلى الوليمة» و«جوسق الضفة» و«سارق الزوجات»، «مسند المرآة اليشبي»، ويطلق عليه –بالإضافة إلى كل من – ماتشي يوان، باي يو، تشينغ قوان زو– لقب «كتّاب الأوبرا الأربعة الكبار في أسرة يوان». وتهتم أعماله المسرحية بتجسيد معاناة وصراع الشعب الكادح، ولاسيما تصوير آلام الفتيات والإشادة بذكائهن وشجاعتهن، ورسم لهن صوراً نموذجية فنية شخصية نموذجية. وتمتاز مسرحياته بالتنسيق المحكم، والصراع العنيف، والإعداد البارع، واللغة السلسة والبسيطة والطبيعية، والاستخدام الأمثل للكلمات، ولذا أثر تأثيراً هائلاً في تطوير المسرحيات في العصور اللاحقة.

وكان وانغ شي فو كاتباً مسرحياً بارزاً في أوائل أسرة يوان، وخلف وراءه حوالي أربع عشرة مسرحية مازالت موجودة إلى الآن، من بينها مسرحية «النافذة الغربية» التي حققت شهرة وأحرزت «لقب بطولة» في الصين. والمصدر الأصلي الأقدم لقصة النافذة الغربية يكمن في رواية «سيرة ينغ ينغ» للروائي يوان تشين في أسرة تانغ، ثم أصبحت من الأدب الشعبي على يد دونغ جيه يوان في عصر أسرة جين. واضطلع الكاتب المسرحي وانغ شي فو – تأسيساً على منجزات الروائي يوان تشين – بتطوير وتوسيع نطاق هيكل المسرحية، وتضخيم العقدة المسرحية، والمبالغة في الصراع، ورسم صوراً نموذجية للشخصيات، مما جعل المسرحية تبّز الغابرين وتهز المعاصرين.

وفي أسرة يوان كان المركز الرئيسي لأنشطة فن المسرحيات الشعرية في أيامها الأولى في الشمال، كما كانت العاصمة دادو (مدينة بكين اليوم) ومدينة بينغ يانغ (مدينة لينفين اليوم) في مقاطعة شانشي تمثلان أكثر المناطق ازدهاراً في فن الأوبرا التقليدي. ومن المسرحيات المشهورة آنذاك؛ «اليتيم تشاو» للمؤلف جي جون شيانغ، و«حصان يصعد قمة جدار» للمسرحي باي بو، و«الصفصاف» للكاتب شانغ تشونغ شيان، و«تشانغ يغلي ماء البحر» للكاتب لي هاو قو. ولا تزال منطقة لينفين في شانشي تحتفظ ببعض مسارح الأوبرا التقليدية في أسرة يوان حتى وقتنا الحاضر، ولا يمكن أن تكون بمثابة عينات حقيقية للمسرحيات الشعرية في هذه الأسرة، وتقدم معلومات قيمة للدراسة والبحث في هذا الخصوص. وانتقلت أنشطة المسرحيات الشعرية في أسرة يوان في مرحلتها الأخيرة إلى الجنوب، وأصبحت لينآن

عاصمة أسرة سونغ الجنوبية مركز الإبداع والتمثيل الفني، ولكن أحوال تطورها وازدهارها لا يمكن أن تضاهي تقدم وازدهار مسرحيات الشمال في آن واحد. وتجسدت منجزات الإبداع الأدبي في ذلك الحين بصورة رئيسية في مسرحيات: «حسناء تفقد روحها» للكاتب جينغ قوان زو، و«حلم يانغتشو» للكاتب تشياو جيه، فضلاً عن مسرحية «الصداقة الحميمة بين فإن وتشانغ» للكاتب قونغ تيان تينغ.

والمسرحيات التي انتشرت في أسرة مينغ كانت على غرار الأوبرا التقليدية، وتطورت على أساس «الأوبرا الجنوبية» التي انتشرت في الجنوب، واحتاج هيكل المسرحيات وتمثيلها في عصر مينغ المزيد من الحرية، وكانت أطول من المسرحيات الشعرية إلى حد ما، وأكثر فائدة في تجسيد القصص دائمة الحدوث. وكانت مسرحية «العود الصيني بيبا» للكاتب قاو تسي تشينغ من المسرحيات المهمة في أواخر أسرة يوان وأوائل أسرة تشينغ، فضلاً عن مسرحيات: «دبوس من خشب» للكاتب يوان كه دانتشيو، و«أرنب أبيض» (المؤلف غير معروف)، و«زيارة للقمر» للكاتب يوان شي هوي، و«مقتل كلب» (المؤلف غير معروف). وأُطلق على هذه المسرحيات تسمية «المسرحيات الأربع الكبرى». وقد قيل إن مسرحية «العود الصيني بيبا» تحكي قصة الزوج الأديب تساي يونغ وزوجته تشاو وو ليانغ في أواخر أسرة هان، وقام مؤلفها بالترويج للأخلاق الإقطاعية بإفراط في أحداث المسرحية التي تركت تأثيراً مهماً في نشأة إبداع المسرحيات منذ أسرة مينغ. وبعد ذلك، استمر ظهور العديد من المسرحيات الرائعة مثل: «قصة السيف اليشمي» للكاتب لي كاى شيان، و«زئير ريح» للكاتب وانغ شي تشين، و«قصة غسل الغزل» للكاتب ليانغ تشين يوي، ولاسيما المسرحية الأخيرة التي مهدت الطريق أمام استخدام ألحان كونتشانغ في مقاطعة جيانغصو في التغني بالتقاليد، ووضعت حجر أساس انتشار وتطور أوبرا كونتشيوي في العصور اللاحقة.

وأوبرا مينغ التقليدية بلغت ذروة التطور في النصف الثاني من عصر أسرة مينغ، حيث ظهر آنذاك مذهب «وو جيان» بريادة شين جينغ، ومذهب «لينتشو» بريادة تانغ شيان زو. والكاتب شين جينغ (1533 – 1610) من أهالي وو جيان في مقاطعة جيانغصو اليوم، وكرس جهوده من أجل بحث نظرية النغمات في الأوبرا التقليدية، ودعا إلى الالتزام بمقياس النغمة في الإبداع الأدبي، وألف سبع عشرة مسرحية؛ من أهمها: «قصة فارس»، و«قصة للتسلية»

و«قصة دفن سيف»، ويوجد منها الآن سبع مسرحيات كاملة نسبياً. ومن الأدباء الذين ينتمون لمذهب «وو جيان»، وانغ جي دا، بوشي تسين، يه شيان زو، قو داديان وغيرهم. والكاتب المسرحي تانغ شيان زو (1550 – 1616) من أهالي لينتشو في مدينة تواتشو في مقاطعة جيانغصو اليوم، وكان يقيم في «يوي مينغ تانغ»، ويُعد كاتباً مسرحياً خالد الذكر في تاريخ الأدب الصيني بعد الكاتب قوان هان تشينغ، وكان معاصراً للكاتب المسرحي البريطاني العظيم شكسبير، وإبداعه المسرحي يُذكر على قدم المساواة مع نظيره لدى شكسبير. وفي مجال الإبداع الأدبي والمسرحي، كان يعارض التقليد والمحاكاة، والاستمساك بالعروض، وتشجيع وصف العواطف والمشاعر، وورثت الأجيال المتعاقبة خمس مسرحيات قط من أعماله هي: «قصة دبوس خشبي بنفسيجي»، «قصة مزمار بامبو بنفسيجي»، و«قصة عودة روح» (تسمى أيضاً «ظلة عود الصليب»)، و«قصة أضغاث أحلام نانكه»، و«قصة مدينة هان دان»، من بينها مسرحيتا «قصة عودة روح» و«ظلة عود الصليب» الأكثر تأثيراً في الساحة الأدبية. وأصبحت الأنواع الأربعة من قصص المسرحيات تشمل عالم الأحلام فيما بعد، ولذا أُطلق عليها «الأحلام الأربعة في يوي مينغ تانغ».

والكاتب المسرحي لي يوي صاحب إنجازات كبيرة نسبياً في تأليف المسرحيات في أواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشينغ، وقد قيل إنه كتب أكثر من ستين مسرحية، ومن أبرزها: «حفنة ثلج»، و«معبر الإنسان والحيوان»، و«التغني بالاتحاد» و«عاهرة مشهورة». وبالإضافة إلى ذلك، هناك مسرحية «ربطة الألف (نقود) الخامسة عشرة» للكاتب تشو صو تشين، وكذلك مسرحيته «سجل خلصاء أسرة تشينغ» بالاشتراك مع لي يوي، وتتبوأ هاتان المسرحيتان مكانة محددة في تاريخ الأدب. وفي أوائل أسرة تشينغ، قدم كاتب الأوبرا التقليدية لي يوه إسهامات بارزة في نظرية الأوبرا التقليدية، وشق طريقه المميز بنفسه داخل أروقة تاريخ الأدب الصيني، وسرد بصورة منظمة خصائص أدب هذه الأوبرا وتمثيلها الفني في كتابه «أحاديث عبارة وخواطر مسترسلة» الذي يتحلى بالقيمة الأدبية المهمة.

ويعتبر الكاتبان هونغ شينغ، وكونغ شانغ رين من كُتّاب المسرح البارزين في أوائل أسرة تشينغ، وأُطلق عليهما «هونغ في الجنوب، وكونغ في الشمال». وُلد هونغ شينغ (1645 – 1714) في مدينة هانتشو اليوم بمقاطعة تشجيانغ، وجسدت مسرحيته «قصر المثقف تشانغ»

الحياة الاجتماعية والسياسية الواسعة النطاق في عصر أسرة تانغ، وامتدح الروح الوطنية لدى ثُلة من الوزراء الخلصاء ونصراء العدالة، وذلك من خلال وصف قصة المشاعر المتبادلة بين الإمبراطور منغ والمحظية يانغ قوي في أسرة تانغ. والكاتب تونغ شانغ رين (1648 – 1718) من أهالي تشوفو في مقاطعة شاندونغ، ومسرحيته «مروحة أزهار البرقوق» وصفت قصة المشاعر العاطفية بين الفتاة لي شيان جون والفتى خوفنغ يوي، ومن خلالها أبرز للعيان قصة زوال أسرة حاكمة صغيرة في جنوب أسرة مينغ، ورسم صورة نموذجية لهذه الفتاة، وخصالها من الإرادة الفولاذية والاستقامة، والإدراك الكامل والعميق لمعنى العدالة، ومشاعرها القلقة تجاه بلادها وشعبها، وقوتها وشموخها ولا تلين لها قناة، كما جسدت هذه المسرحية المشاعر الوطنية لدى المؤلف. وازدهرت الأوبرا التقليدية المحلية رويداً رويداً في كافة الأصقاع بعد منتصف أسرة تشينغ، وتشكلت أوبرا بكين تدريجياً بعد أن دخلت «الفرق المسرحية الأربع الكبرى هوي يان» العاصمة بكين، ومالت شمس المسرحيات الشعرية ومسرحيات أسرتي مينغ وتانغ في العصر القديم إلى المغيب تباعاً وتدريجياً.

المبحث الخامس

الرواية والروائيون

بدأت الرواية الكلاسيكية في الصين من الحكايات والأساطير فيما قبل أسرة تشين، ثم استوعبت بعض الأشياء من أدب السير التاريخية وحكاية النثر، حتى ظهرت الأعمال الأدبية في أسرة هان التي تجمع بين القصص التاريخية والروايات الشعبية؛ مثل: «رواية بستان»، و«رواية جديدة» للأديب ليو نيانغ، و«رواية أمير مملكة يان». كما ظهر ما يطلق عليه «روايات الأسر الإمبراطورية الست (222– 589)» بعد أسرتي وي وجين، وكانت هذه الروايات تنقسم إلى نوعين هما: «رواية النبلاء والطموحات العالية» تسجل بصورة أساسية حكايات ونوادر الطبقة المتوسطة في الصين، ومثال ذلك أعمال الأديب ليو يي تشينغ، ومنها رواية «طرائف وعجائب أسرتي وي وجين». والنوع الثاني «مجموعة الطرائف والعجائب والسحر»، وتسرد القصص الأسطورية والروايات الشعبية بصورة رئيسية، وتغص بالآلهة والملائكة والشياطين والغيلان، ويمثلها كتاب «قصة البحث عن إله» للأديب قان باو.

وورثت أسرة تانغ تقاليد الرواية وتطورت الخاصية المميزة لأدب الرواية في الأسر الإمبراطورية الست، وأصبحت شخصيات الأعمال الأدبية والحبكة القصصية تميل نحو الثراء والوفرة والتنوع، وشكلت ما يطلق عليه «قصص أسرة تانغ»، ويتناول مضمونها كثيراً وصف قصص الحب والشهامة والنخوة، كما اتسمت بآثار الحكايات والنوادر في هذه الأسر الست. وكانت القصص الأسطورية لدى أهالي تانغ كثيرة جداً، وتتمتع بالمستوى الفني الرائع، ومن الأعمال المشهورة: «سجل طرائف وعجائب» للكاتب نيو سينغ رو، و«تكملة سجل طرائف وعجائب» للكاتب لي شيا يان، و«ملاحظات على الأشياء الغريبة والعجيبة» للكاتب شيوه يونغ روا، و«قصص أسطورية» للكاتب بيه شيا. وبالإضافة إلى ذلك، هناك العديد من الأعمال المشهورة التي أصبحت المصدر الأصلي لأساس إبداع الأوبرا التقليدية في العصور اللاحقة، وتركت أثراً كبيراً في الإبداع الروائي في الأجيال المتعاقبة؛ ومن هذه الأعمال: «سيرة لي روا»، و«سيرة ينغ ينغ»، و«سيرة خوا ياو يوي»، و«سيرة ليو يي»، و«قصة رحيل روح»، و«قصة في وسادة»، و«سيرة محافظ نانكه».

ومنذ أسرتي سونغ ويوان، وبسبب نشأة طبقة أهل الحضر، تكونت رواية اللغة الشفهية التي تحتوي على «هوا بن» (نص من الأدب الشعبي القديم) الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً باهتمام أهل الحضر بالفن، ويتناول مضمونه بصورة أساسية نوعين هما: «الرواية»، و«التاريخ». ويشمل النوع الأول من الرواية بصورة رئيسية القصص الأسطورية، والقضايا القانونية المعقدة، والأساطير والحيوانات الغريبة، ويصف مضمونها مشاعر الحب والزواج، والنظر في الدعاوى القانونية والحكم عليها ويترك انطباعاً مؤثراً في النفس بصفة خاصة، مما أثر في إبداع القصص القصيرة تأثيراً عميقاً عبر العصور. أما تناول التاريخ هنا فيعني أن التطور التاريخي هو شكل الرواية، مما أثر تأثيراً هائلاً في الرواية الكلاسيكية في الصين، وكان ذلك بمثابة بداية الرواية الطويلة الصينية. والأعمال النموذجية في هذا الشأن تشمل: «قصص من أسرة سونغ»، و«أشعار راهب الكتب البوذية المقدسة في أسرة تانغ»، و«خمس حكايات شعبية» (تشمل «حكايات شعبية من الملك وانغ يرسل حملة لتأديب الإمبراطور تشو» و«حكايات شعبية في الممالك السبع في فترة الربيع والخريف» و«حكايات شعبية من أسرة تشين والأسر الست» و«حكايات شعبية من كتاب ما قبل أسرة هان» و«حكايات شعبية من تاريخ الممالك الثلاث»).

وشهدت أسرتا مينغ وتشينغ عصر انتشار وازدهار الرواية الكلاسيكية الصينية، وخاصة انتشار أنشطة رواية اللغة الشفهية على نطاق واسع، واتسمت بالمستوى الفني الرائع. وما يطلق عليه في أسرة مينغ «الكتب الأربعة الكبيرة الفريدة» يشمل روايات «قصص الممالك الثلاث»، و«كلنا أخوة»، و«رحلة إلى الغرب»، و«جين وبينغ وميي»، التي مازالت تتلألأ بصورة لم يسبق لها مثيل في الساحة الأدبية منذ الأزل حتى اليوم. ورواية «قصص الممالك الثلاث» اسمها الكامل «قصص تاريخ الممالك الثلاث» من تأليف لوا قوان تشونغ (1330 – 1400 تقريباً) من أهالي مدينة تاي يوان (يقول البعض إنه من هانتشو)، وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة أنه ينحدر من محافظة تشينغ شيو (تقع بجوار تاي يوان) بمقاطعة شانشي اليوم، واعتمد بصورة أساسية على تناول قصص التاريخ في «هوا بن» المذكورة في «حكايات شعبية من تاريخ الممالك الثلاث» في أسرة يوان، وقدم لها معالجة فنية، وقام بترتيبها وتنسيقها حتى انتهى من تأليف روايته التي وصفت الصراع العنيف بين التكتلات السياسية الكبرى

في الممالك الثلاث: وي، شون، وو، وصفاً حقيقياً وحيوياً، وتعتبر لوحة تاريخية كاملة تحوي المشاهدات التاريخية، والحبكة القصصية تتحلى بالتغيرات المتعددة الألوان، وصور الشخصيات تنبض بالقوة والحيوية، وأصبحت نموذجاً تحتذي به الرواية التاريخية في العصور اللاحقة. ومؤلف رواية «كلنا أخوة» هو شي ناي آن (1296 تقريباً — 1370 تقريباً)، ينحدر أصلاً من تشيان تانغ (أو صويتشو)، وانتقل إلى شينهوا (أو هواي آن، تتبع مقاطعة جيانغصو اليوم)، اعتمد على النسخة الأصلية لكتاب «قصص من أسرة سونغ»، واستوعب الكثير من حبكة «أوبرا ضفة نهر» في مسرحيات أسرة يوان الغنائية، وقام بالإبداع الفني من جديد، وألف روايته التي وصفت الانتفاضة الفلاحية ليانغ شان التي تهز قلوبنا فخراً وتدمع عيوننا حزناً بزعامة سونغ جيانغ في أواخر أسرة سونغ الشمالية، وجسدت حقيقة القمع الطبقي في مجتمع عصر سونغ، وكشفت النقاب عن حقيقة «قمع المسؤولين ومقاومة الشعب» في المجتمع الإقطاعي، ورسمت صوراً للعديد من الشخصيات البطولية مثل: لي كوي، وو صونغ، لين تشونغ، لوتشي شين، ونهاية الزعيم سونغ جيانغ وشخصيات أخرى عكست محدودية فكر المؤلف. ورواية «رحلة إلى الغرب» مؤلفها وو تشينغ أين (1500 تقريباً — 1582 تقريباً)، وُلد في شانيانغ (مدينة هواي آن في مقاطعة جيا نغصو)، واعتمد في تأليف روايته على أساس انتشار القصة الشعبية ومفادها: راهب بوذي في أسرة تانغ يسافر إلى المناطق الغربية للحج والحصول على البوذية المقدسة، والكاتب «هوا بن» في أسرتي سونغ ويوان صاحب «أشعار راهب الكتب البوذية المقدسة في أسرة تانغ»، قام بالإبداع الأدبي من جديد، وألف عمله الفني الضخم المشهور الذي يتسم بالتنسيق الكامل المحكم، والحبكة الفنية المعقدة، والخيال الثري الخصب، واللغة نابضة بالحياة والظرف، واستعار الكتاب من أوله إلى آخره الخيال، وأشاد بشخصية صون وو تونغ الذي لا يخشى القوة الغاشمة، ويتحلى بالإرادة الفولاذية التي قهرت الشياطين والغيلان، وفي الوقت نفسه، أكد المؤلف مبدأ هذه الشخصية من حماية الكتب البوذية المقدسة، والحفاظ على النظام السياسي الثابت. ورواية «جين بينغ ميي» اسمها الكامل «رواية سلسلة مُوشاة بالقصائد جين —بينغ— ميي»، وانبثق عنوان الرواية من أسماء الفتيان الثلاثة: بان جين ليان، لي بينغ أر، بانغ تشون ميي، أما المؤلف فقد استعار اسم «الضاحك في مدينة لان فينغ». ولكن مَنْ هو مؤلف هذه الرواية في نهاية

المطاف، تعددت الأقوال واختلفت الآراء ومازال من الصعب البت فيه إلى الآن. والخيط الروائي في الرواية يبدأ من قصة شيمين تشنغ وبان جين ليان، ووصف تاريخ شيمين تشينغ من كسب الجاه والثروة إلى الموت، وتجسيد حياة أسرته من المقابح والمفاسد، وإماطة اللثام عن حقيقة القمع الوحشي لعامة الشعب جراء التآمر المتبادل بين تجار الجشع وملاك الأراضي البيروقراطيين في أواسط عصر تانغ، وجاء رسم صور الشخصيات دقيقاً ومحكماً، واللغة سلسة ومتدفقة، ولكن الرواية وصفت طبيعة الحياة الجنسية، ولذا تركت أثراً سيئاً في النفوس. وفي المرحلة المتأخرة لعصر مينغ، ظهرت القصص القصيرة باللغة العامية والتي حققت انتشاراً وازدهاراً آنذاك؛ ومن أشهرها ما يعرف بـ «سان يان» (ثلاث مجموعات قصصية قصيرة)، وهي: «قصة إدراك الحقائق في العالم»، و«قصة الحذر والانتباه في العالم»، و«قصة النهوض واليقظة في العالم»، فضلاً عما يطلق عليه «أرباي» (القصة القصيرة «ضرب الطاولة وانتفض مدهوشاً» في جزأين) من تأليف لينغ مينغ لونغ. وتشمل «سان يان» مختارات من القصص القصيرة في أسر سونغ ويوان ومينغ، ولكن «أرباي» من تأليف شخص بمفرده المذكور أعلاه، وجسدت هذه الأعمال الأدبية التناقض الاجتماعي، ووصفت الحياة العاطفية لدى أهل الحضر وصفاً كاملاً، كما وصفت مصائر الفتيات وصفاً ينبض بالحياة، فعلى سبيل المثال، في «سان يان» نجد القصص القصيرة مثل: «دوشي ليانغ غاضبة وتغرق صندوق النفائس»، و«عاهرات بائع الزيت»، و«يوي تانغ تشون تقابل زوجها عندما وقعت في ورطة»، التي تعتبر قصصاً مشهورة ومشرقة في تاريخ الأدب الصيني. كما اهتمت «سان يان»، و«أرباي» بوصف حياة التجار وعكست نمو العناصر الرأسمالية بعد منتصف عصر مينغ.

وفي مرحلة ازدهار أسرة تشينغ، بلغ الإبداع الأدبي للرواية الكلاسيكية الصينية قمة الازدهار أيضاً، وتنافست الروايات القصيرة والطويلة من كل شكل ولون، ومن بينها روايات: «تأليف قصص قصيرة في غرفة المكتب» للأديب بو صونغ لينغ، و«تاريخ غير رسمي لجمهرة المثقفين» للأديب وو جينغ تسي، و«حلم المقصورة الحمراء» للأديب الكبير تساو شيوه تشين، التي بلغت ذروة الإبداع الروائي الكلاسيكي في الصين. والأديب بوصونغ لينغ (1640– 1715م) من أهالي تستشو (مدينة تسيبو بمقاطعة شاندونغ اليوم)، وروايته «تأليف قصص قصيرة في غرفة المكتب» ورثت تقاليد رواية الحكايات والنوادر في الأسر الإمبراطورية

الست والقصص الأسطورية في أسرة تانغ، وانتهجت الأسلوب الرومانسي، واستخدمت أشكال الثعالب والشياطين والعفاريت والأزهار لوصف مشاعر البهجة والسعادة والغضب والضجر، وعكست آمال وتطلعات الشباب والفتيات في السعي وراء حرية الحب والزواج، وسلطت الأضواء على ظلام وجرائم الحكم الإقطاعي، ووجهت طعنة نجلاء لمساوئ وعيوب الامتحان الإمبراطوري، وأثرت تأثيراً هائلاً في الإبداع الأدبي للغة الصينية الكلاسيكية والأديب رو جينغ تسي (1705 – 1754م) من أهالي تشوان جياو بمقاطعة آنهوي، وعمله الأدبي «تاريخ غير رسمي لجمهرة المثقفين» هو رواية تهكمية تمحور إبداعها على تجارب وخبرات مؤلفها، ووجهت ضربة قاصمة وكشفت فساد الحكم الإقطاعي في العديد من المجالات، ناهيك عن نقائص المقالة المقُولبة في الامتحان الإمبراطوري، ووصفت بقوة وحيوية ثُلة من المثقفين الذين تعرضوا للأضرار جراء الامتحان الإمبراطوري، والسلوكيات السيئة للتجار الجشعين، وكشفت تماماً الروح الشريرة التي تسكن قلوب المزيفين والخادعين، وأبرزت للعيان من جديد الحقائق الاجتماعية في المرحلة الأخيرة للمجتمع الإقطاعي. أما الأديب الكبير تاسو شيوه تشين (1716 تقريباً – 1763 تقريباً)، واسمه الأصلي تشان، ومسقط رأس أجداده في محافظة فينغ رون في خبي، فقد وُلد في مدينة نانكين، وفي أواخر أيامه استقر في منطقة شيشان في العاصمة بكين، وأبدع أعظم رواية كلاسيكية طويلة في الصين هي «حلم المقصورة الحمراء» (تسمى أيضاً «قصة حجر» و«حظ الذهب واليشم»)، و«قضى عشر سنوات من الحذف والإضافة، وقام بتنقيحها وتهذيبها خمس مرات»، وتقع في مائة وعشرين فصلاً، ألف تساو شيوه تشين ثمانين فصلاً الأولى، وسائر الفصول الأخرى وعددها أربعين فصلاً من تأليف قاو أر. الخيط الروائي الرئيسي يدور حول علاقة الحب والزواج بين جيا باو يوي، ولين داي يوي، وشيوه باوي تشاي، ووصفه –من خلال التحولات التي طرأت على أسرة إقطاعية كبيرة من الازدهار والاضمحلال – صراع التناقضات العنيفة والمتشابكة والمعقدة داخل هذه الأسرة وخارجها في المجالات السياسية والأخلاقية والثقافية والتعليمية والمالية، وأبرزت المصير المأساوي للشباب والفتيات، والمصير التاريخي المحتوم لزوال واندثار النظام الإقطاعي، وأظهرت القدرة التعبيرية الصائبة والكاملة لدى المؤلف حيال الحياة الاجتماعية، مما جعل هذه الرواية من الأعمال الأدبية العالمية المشهورة.

ولا مندوحة أن تطلق عليها «دائرة المعارف المتداولة» في فرنسا لقب «مرآة المجتمع الصيني في القرن الثامن عشر» و«عمل خالد الأثر في الأوساط الأدبية العالمية». وتُرجمت إلى عشرات اللغات الأجنبية منذ صدورها، وأسست أبحاثها ودراساتها علماً ذائع الصيت في العالم يُعرف بـ «علم دراسة وبحث رواية المقصورة الحمراء»، كما أصبح مؤلفها تساو شيوه تشين شخصية ثقافية عالمية مشهورة.

وبدأت شمس الإبدع الروائي تميل نحو المغيب بعد منتصف عصر تشينغ، وأصبحت الأعمال الأدبية الجيدة أندر من نجوم الصباح. والأعمال التي تستحق الذكر في هذا المقام، هي روايات: «حظ أزهار المرأة» من تأليف لي رو تشين التي سردت مشاهدات السائح تانغاو في خارج البلاد، و«أحوال غريبة في عشرين عاماً» للأديب وو جيان رين التي وصفت التصرفات المستهجنة في الدوائر الرسمية، ومدينة المغامرين الأجانب، والأسواق في المجتمع الصيني في أواخر أسرة تشينغ، و«مذكرات الرحالة لاوتساي» للأديب ليوأر، أبرزت للعيان حقيقة الحياة في منطقة شاندونغ في أواخر هذه الأسرة، وكشفت حقيقة ما يطلق عليه استبداد «الموظف نظيف اليدين»، ورواية «أزهار بحر الخطيئة» للمؤلف زينغبو، وصفت أناساً من شتى الألوان والأشكال والأطياف الاجتماعية من الملكة تسي شي إلى العاهرات في المواخير، وشجبت جميع تجار الجشع البيروقراطيين، وعبيد الأجانب مثل الكلب التابع، والمظاهر الدميمة والقميئة في المجتمع آنذاك.

الفصل الرابع عشر

فنون من شتى الأنواع

أنواع الفنون التقليدية الصينية متعددة ومتنوعة جداً، وتشمل تشكيلات جديدة أيضاً، وتجمع العام والخاص جنباً إلى جنب، وتغص بالحيوية والنشاط، وتشكل نظاماً فنياً ضخماً بفضل فكرها الفني الموحد. ويتجسد الفن الكبير في الطقوس المتعددة والمتنوعة في الكهوف الحجرية البوذية، كما يظهر الفن الصغير في كافة أنواع وأشكال الفنون اليدوية الشعبية، ويبرز للعيان الفن الرفيع في أوبرا بكين، وفي التمثيل الفني لأوبرا كونتشيوي، كما ينعكس الفن الشعبي في الأغاني الشعبية في القرى النائية والمناطق القاصية، وجسد ذلك كله فهم الصينيين وسعيهم وراء مقاييس الجمال، ناهيك عن مهارتهم الفنية واهتمامهم بالفن، وشكل الفن الصيني التقاليد المميزة والفريدة الخاصة به، وأصبح من أغلى التراث في كنوز الثقافة العالمية في خضم عملية تطوره وتقدمه التي يرجع تاريخها إلى عدة آلاف من السنوات خلت. وإلقاء رؤية شاملة على الفن التقليدي الصيني نجده -مقارنة بالفن الغربي- يتمتع بالخصائص الأربع الجلية التالية:

(1) مبدأ «التكامل بين الطقوس والموسيقى»: ويشير ذلك إلى شيئين مهمين، أولهما: إن الطقوس يجب أن تكون مقرونة بالموسيقى، والموسيقى تابعة للطقوس. وثانيهما: إن الطقوس تتبوأ مكانة مرموقة وفريدة في جميع أنواع الفنون؛ وذلك لأن الكونفوشيوسيين اعتبروا «الموسيقى» بمثابة وسيلة للهداية والإرشاد إلى الأخلاق الحميدة والتثقيف السياسي عبر العصور. ويكفينا أن نذكر في هذا المقال، إن الكونفوشيوسيين قدروا عالياً «نظام الطقوس والألحان الموسيقية» لدى دوق أسرة تشو. وفي عبارة أخرى، أنهم اعتبروا الطقوس والفن معاً بمنزلة الدعامتين الأساسيتين لحماية نظام ملاك العبيد في أسرة تشو الغربية (1046 ق.م – 771 ق.م)، ومن ثم ما إن جاءت فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة حتى حدثت تغيرات اجتماعية هائلة، واعتقد الكونفوشيوسيون أن «الطقوس أفسدت الموسيقى». وتحتل الموسيقى المكانة المرموقة والسامية في الحياة الاجتماعية وفي المجال الفني، وذلك بسبب أن الكونفوشيوسيين كانوا يشجعون ويبرزون للعيان دائماً أن الموسيقى والطقوس جنباً إلى جنب يمثلان أداة الحكام الإقطاعيين. وذكر كونفوشيوس أن: «ازدهار الشعر يوطد أركان الطقوس ويصبح موسيقى»، ويوضح ذلك أن كونفوشيوس اعتبر «الموسيقى» مفتاح تهذيب الذات والتضحية بالحياة في سبيل قضية ما، كما أردف قائلاً: «إذا لم تزدهر

الطقوس والموسيقى، تصبح العقوبات خاملة، وإذا أصبحت العقوبات خاملة، نقع في شرك الاضطراب الشديد والحيرة». وندرك من ذلك أن كونفوشيوس اعتبر «الموسيقى» أساس نهوض البلاد وإدارة شؤون الدولة، وحظي تأثير «الموسيقى» بالاهتمام الشديد من جانب سائر الكونفوشيوسيين الآخرين الذين جاؤوا بعد كونفوشيوس مثل مينشيوس وشون تسي. وكتب شون تسي مقالاً بعنوان: «نظرية الموسيقى» شرح فيه جمال الموسيقى وتأثيرها التربوي، واعتقد أن الموسيقى يمكن أن «تهذب مشاعر الشعب» و«تغير العادات الاجتماعية»، وتجعل «صفوف الشعب في الوضع الصحيح»، وتحقق «التنسيق بين التقدم والتراجع»، كما اعتقد أن الموسيقى المناسبة والملائمة، والوقورة والمهيبة يمكن أن تحقق «الانسجام بين الشعب»، وتقوم بـ«إعداد الشعب وتربيته»، و«تحفز همم الجنود»، ومن ثم لا يجرؤ العدو على الهجوم، ولكن الموسيقى الساحرة المغرية يمكن أن تؤدي إلى «انتشار التهور والطيش بين صفوف الشعب»، ويقود ذلك إلى الحروب. كما يشرح كتاب «الطقوس – فصل ملاحظات على الموسيقى» بصورة منظمة طبيعة الموسيقى وجمالها وتأثيرها والعلاقة بين الطقوس والموسيقى وغيرها من المسائل الأخرى، ويرى أن: «مصدر جميع الأصوات يكمن في أعماق الإنسان، والأشياء هي التي تحرك مشاعر وأحاسيس الإنسان، ولذلك تتجسد هذه المشاعر في صوت»، واعتقد أيضاً أن: «صوت الاستقرار في إدارة شؤون البلاد ينعكس في تحقيق البهجة، أي الانسجام السياسي، وصوت الشكوي في العداوة نجده في الغضب، وهذه سياسة لا يقبلها العقل السليم، وصوت الحزن على انحلال الدولة نجده في القلق، وهو يعكس صعوبات الشعب، وترتبط حجة الحق بالإدارة المنطقية في الدولة». وهنا تعتبر الموسيقى مقياس تطور الازدهار والانكسار، والسيطرة على الاضطرابات في البلاد، ويعد ذلك بمثابة السبب الذي جعل الحكام يولون اهتماماً شديداً للموسيقى على مر الدهر. ويعتبر كتابا «كتاب الأغاني» و«ديوان شعر مملكة تشو» بمنزلة كلمات أغانٍ موسيقية في الأصل، وليسا مؤلفات أدبية مستقلة. وأسست أسرة تشين «ديوان الموسيقى» بصفة خاصة، وخصصت مسؤولاً عن شؤون الموسيقى. وشهد عصر الإمبراطور هان وودي توسيع نطاق ديوان الموسيقى بشكل أكبر، وتعيين مسؤول عن إدارة استقبال ضيوف الديوان الملكي وإقامة الولائم، والاستعراضات في الممرات تصطحبها ألوان شتى من الموسيقى، وجمع الأغاني الشعبية في آن واحد. وأشعار الأغاني الشعبية في أسرة هان والتي في حوزتنا اليوم هي عبارة عن ألحان موسيقية لكلمات الأغاني. ويمكن القول إن الطقوس في المجتمع الإقطاعي بأسره يجب أن تصطحبها الموسيقى، والافتقار إلى الموسيقى يفسد الطقوس. ومثال ذلك، كان الأجداد الأولون يستخدمون الموسيقى عند تقديم القرابين للسماء والأرض، والجبال والأنهار، وأُطلق

عليها «المقطوعة الموسيقية الرئيسية في معبد الضاحية»، كما كانت الموسيقى تعزف في الحفلات والمآدب في القصر الإمبراطوري، ويطلق عليها «المقطوعة الموسيقية الرئيسية للمآدب»، وكذلك في التدريبات العسكرية والرياضية، ويطلق عليها «لحن موسيقي يشحذ الهمم» أو «جيشان اللحن الموسيقي». ويمكن القول إن جميع أنشطة الطقوس والمراسم لدى الأباطرة والملوك في الأسر الإقطاعية كانت تعزف فيها الموسيقى المناسبة، ولذلك كان البلاط الإمبراطوري يمتلك الفرق الموسيقية الكبيرة، وتتولى مسؤولية إدارتها والإشراف عليها «إدارة تاي تشانغ» (إدارة موسيقى الطقوس في معابد الضاحية). ويعد ذلك بمنزلة موسيقى طقوس القصر الإمبراطوري. كما كان عامة الشعب يتمتعون بموسيقى الطقوس الخاصة بهم، مثل الأفراح والمآتم في القرى تعزف فيها الألحان الموسيقية الملائمة، وكذلك المناسبات السعيدة والاحتفالات تشهد تمثيل البرامج الفنية من جانب فرقة مسرحية ريفية. وكان مبدأ الدمج بين الطقوس والمراسم والموسيقى بارزاً وجلياً. ولكن تتباين الأحوال في الغرب؛ فالموسيقى لدى الغربيين لا تنتمي إلى الطقوس والمراسم، وبالأحرى لا تنبثق من فنون السحر، بل تعد فناً مستقلاً بذاته، ويتبوأ الموسيقار مكانة متميزة ومستقلة، وتعد الحفلات الموسيقية نشاطاً فنياً متميزاً.

(2) روح الاندماج والترابط المتبادل؛ بمعنى أن جميع أنواع الفنون في الصين ليست مستقلة بذاتها في مجالها ويسودها التنافر وعدم التماسك، بل يجمعها الترابط والاتصال الوثيق وتنصهر في بوتقة واحدة. وما أُطلق عليه في العصر القديم من مصطلح «الموسيقى»، لا يعني في الواقع الموسيقى فقط، بل يشمل الوحدة الشاملة من الموسيقى والرقص والشعر. والفيلسوف موه تسي يرى أن مقولة الكونفوشيوسيين ومفادها: «قراءة ثلثمائة قصيدة، وتلحين ثلثمائة قصيدة، وغناء ثلثمائة قصيدة، ورقص ثلثمائة قصيدة»، يعني أن الثلثمائة قصيدة في «كتاب الأغاني» يمكن قراءتها قراءة تعبيرية، ويمكن تلحينها، ويمكن التغني بها والرقص على ألحانها أيضاً. وكانت الألحان الموسيقية والأغاني يمكن أن تعزف وتغني في حفلات إنشاد الشعر والرقص في العصور اللاحقة فيما بعد. وبعد أسرتي هان وتانغ، انتشر الخط والرسم معاً، وبات من الصعب التفرقة بينهما، وأُطلق عليهما في المستقبل لقب «الرسم والخط مصدرهما متشابه»، ونظريتهما وفنهما يرتبطان ارتباطاً وثيقا. وفي العادة كان الرسامون في التاريخ الصيني خطاطين في الوقت نفسه أيضاً. وكان الشعر والرسم على هذا المنوال أيضاً. ويؤكد ذلك القول القديم المأثور: «الشعر هو رسم دون استخدام ألوان، والرسم هو شعر بالألوان، وموضوع الرسم يبرز الشعر جوهره بلمسة بارعة، وخطوط الرسم تعكس هدف الرسم». وازدهرت الأوبرا التقليدية بعد أسرة يوان، وتعد نوعاً من الفن الشامل يجمع بين القراءة الجهرية،

والغناء، والرقص، وتشيوي (نوع من الشعر الغنائي)، والشعر، والموسيقى، وينصهر ذلك كله في بوتقة واحدة، ونقص عنصر من هذه العناصر يشوه فن الأوبرا التقليدية. وإذا أجرينا مقارنة بين مظهر وتمثيل جميع أنواع الشخصيات التي تظهر على خشبة المسرح في الأوبرا التقليدية من جهة، وتماثيل الإله بوذا عبر العصور المتعاقبة من جهة أخرى، ندرك رابطة لا تفك عراها بين فن هذه الأوبرا وفن هذه التماثيل. ويمكن أن نعتقد أن مظهر الشخصيات في الأوبرا التقليدية وتمثيلهم استوعبا خلق الجمال في فن التماثيل عبر العصور، والفنانون المثّالون ربما حصلوا على تنوير محدد من مظهر وتمثيل شخصيات الأوبرا التقليدية. وأشار العالم التايواني تشياو مو في مقارنته بين الثقافة الصينية والثقافة الغربية، أشار إلى أن الأولى تهتم بـ«الاندماج والوحدة»، بينما تحرص الثانية على «التقسيم والتجزئة». وفي الثقافة الصينية، ينتمي الشعر والرسم إلى عائلة واحدة، والخط والرسم مصدرهما متشابه، وصعوبة التفرقة بين الأدب والتاريخ والفلسفة منذ القدم. ولكن في الثقافة الغربية لا توجد ثمة علاقة بين الشعر والرسم، والانفصال بين الموسيقى، والرقص، والأدب، والتاريخ، والفلسفة لأنها علوم مستقلة بذاتها، حتى هناك الحد الفاصل بين المسرحية والمسرحية الغنائية. ولماذا يتحلى الفن الصيني بالاندماج والتشابه؟ لأن الفن الصيني يهتم بالمشاعر والأحاسيس، ويهتم بالرغائب والميول، كما يجسد مشاعر الحب والغضب والألم والسعادة، والميول القريبة والبعيدة، والمشاعر الحقيقية والزائفة، وهذه المشاعر والأحاسيس والرغائب تعود إلى القلب، والقلب هو مجرد موضع يمكن أن يستوعبها وتتجمع فيه، بينما الفن الغربي يهتم بالحجج والبراهين، ويهتم بالأشكال أيضاً، فضلاً عن اهتمامه بمنطق الكائنات والمخلوقات، والأشكال الطويلة والقصيرة والمستطيلة والدائرية، وهاتان الثقافتان ينتميان إلى الأشياء، والأشياء تشمل كل مظهر من مظاهر الطبيعة والكون، ولذا يختلفان بكل تأكيد.

(3) الاهتمام بفن السحر الرومنطيقي: بمعنى أن الفهم الصيني يهتم كثيراً بإبراز الافتتان بالأشياء والمشاعر الكامنة داخل الإنسان، ويدعو إلى التشابه قلباً وقالباً في الإبداع الفني. وفي الصين القديمة، كان الفنانون ونقاد الفن يحرصون دائماً على مسألة «التشابه الكامل». وما يعرف بـ«التشابه الكامل» هو دعوة الإبداع الفني إلى إظهار الملامح النموذَجية للأشياء المعنية وكشف روحها الكامنة. ويقول قو كاي جي: «وصف الروح من خلال الشكل»، وقد قيل إنه عندما كان يرسم إنساناً يهتم كثيراً بالعينين اللتين يلتمع فيهما بريق السحر، والخطاط وانغ زينغ شيوه في مملكة تشي الجنوبية يقول: «التشابه الكامل في المقام الأول، والشكل في المرتبة الثانية»، ويقول شيهخه منظّر عِلْم الرسم في هذه المملكة إن: «المفهوم الفني يجب أن ينبض بالحياة»؛ والخطاط تشانغ هوا جين في أسرة تانغ يدعو إلى «التناغم الاجتماعي والخلق المتين»، وذكر

أويانغ في عصر سونغ أن: «الرسم القديم يرسم مغزى الصورة وليس شكل الصورة»، والمغزى الكامل لهذه الأقوال يذكر أن الإبداع الفني لا يمكن أن يسعى وراء التشابه شكلاً ومظهراً، بل يدعو إلى البحث عن التشابه الكامل، وما يعبر عنه الفنانون لا يجوز أن يكون الأشياء الموضوعية التي تتشابه تماماً مع العالم الخارجي، بل يجب أن يكون مظاهر هذه الأشياء ومفهومها الفني، ويعد ذلك بمنزلة افتتان وشغف الفنانين ومشاعرهم وأحاسيسهم. والمثل القائل: «أفقده الزهو لُبّه»؛ معناه الأصلي أن المرء غمرته الغبطة لدرجة أنه نسي شكله الأصلي. وإذا شرحنا الفن الصيني في ضوء هذا المثل، يمكن أن نقول لا توجد ثمة ضرورة للتفكير ملياً في شكله وتكوينه، مادام هناك تمثّل حقيقي لجوهر الأشياء وملامح الشخصيات. والرسم الصيني يحرص على الرسم التعبيري (نوع من الرسم الصيني التقليدي) على وجه الخصوص، وفي أوبرا بكين يحوي نماذج وجوه مسرحية، والبكاء والضحك في التمثيل، ويعتبر ذلك كله نوعاً من الرسم التعبيري يبحث عن التشابه الكامل. وذكر شيوه وي في عصر مينغ: «لا نبحث عن التشابه في الشكل والمظهر، نبحث عن المفهوم الفني»، وكان فناناً عظيماً في الرسم التعبيري. وكانت رسوم تشودا في أواخر هذا العصر تشير إلى هذا الدرب بشكل أكبر، ورسومه للطيور والحيوانات عبارة عن لمسات قليلة من ريشته في أغلب الأحيان، وتتشح بفيض من الحبر الصيني، ولا نعرف ماهيتها عند مشاهدتها للوهلة الأولى، ولكن تدقيق النظر فيها بإمعان، يجعلنا ندرك أنها تتحلى بالافتتان والشغف اللذين لا حدود لهما. ويجب أن نذكر أن الرسم التعبيري بالريشة هو الخاصية الجوهرية للفن الصيني.

(4) تحقيق هدف التثقيف؛ بمعنى أن الفن التقليدي يعتني بهدف الفن والوظائف الاجتماعية كثيراً. وبدءاً من كونفوشيوس، يهتم بحاث المدرسة الكونفوشيوسية اهتماماً كبيراً بالتأثير التربوي الفكري في «كتاب الأغاني». ويقول كونفوشيوس: «الشعر يمكن أن يحقق نهضة البلاد، ويمكن الاضطلاع بالمراقبة والملاحظة، ويمكن أن يهذب الأخلاق، ويمكن أن يعبر عن الأنين والشكوي، ويقوم على خدمة الوالدين عن كثب، وخدمة البلاد عن بعد». وفي عبارة أخرى، إن التأثير التربوي الفكري في «كتاب الأغاني» يمكن أن يشحذ عزيمة الأفراد، ويمكن أن يرقب نواقص ومزايا الازدهار والاضمحلال، ويمكن أن يرفع مستوى الأخلاق وتهذيب الذات، كما يمكن أن يعبر عن مشاعر المرارة عن كثب، ويقوم على خدمة الملك عن بعد. ولهذا السبب بالضبط، كان الكونفوشيوسيون يقدرون عالياً «كتاب الأغاني» بصفة خاصة على مر الدهر، انطلاقاً من اعتقادهم أن «الشعر» لا يقترب منه الفشل والأخطاء، واهتزاز السماء والأرض، والإحساس بالشياطين والإلهات. كما جسد الأولون الشعر في احترام المرأة، وفي بر الوالدين، وفي مدارات المجتمع العميقة،

والتثقيف الجمالي، وتغيير العادات الاجتماعية». ومن ثم يتمتع «كتاب الأغاني» بالوظائف الاجتماعية القيمة، ولذلك ذكر كونفوشيوس: «لا تجيد فن الحديث إذا لم تدرس الشعر». والموسيقى تتحلى بكل هذه المزايا بشكل أكبر. ويعتقد الكونفوشيوسيون أن الموسيقى تفضي إلى الأخلاق، ولذا التدقيق وفحص الموسيقى يمكنك من معرفة الشؤون السياسية. وقال تشانغ شوان في أسرة هان الشرقية: «الاستماع إلى الموسيقى يجعلك تعرف النجاح والإخفاق في الشؤون السياسية، ولذا نستطيع تقديم طقوس الملك والوزراء والشعب والأشياء». ونظراً لأن الحكام الإقطاعيين منذ عصر هان يعتبرون المذهب الكونفوشيوسي بمثابة أفكارهم في الحكم، ولذا يؤكدون بصفة خاصة التأثير الاجتماعي للفن في «مدارات المجتمع العميقة، والتثقيف الجمالي، وتغيير العادات الاجتماعية»، ويجب أن تغير الموسيقى المشاعر والأحاسيس، ويعبر الشعر عن الطموح، وتمثيل الأوبرا التقليدية يعلم الناس الصفات الحميدة. ولكن هناك جانب آخر وهو أن الطبقة الحاكمة كانت تحتقر فن الشعب الكادح. وفي فترة الربيع والخريف وفي عصر الممالك المتحاربة، كان الكونفوشيوسيون يقسمون الموسيقى إلى نوعين هما: «الموسيقى رفيعة الذوق» و«الموسيقى الشعبية». والنوع الأول هو فن الطبقة الحاكمة، والنوع الثاني هو فن الشعب العامل. ويرى الكونفوشيوسيون أن فن «الموسيقى رفيعة المستوى» يسهم في التثقيف، بينما فن «الموسيقى الشعبية» يلحق الأضرار بالتثقيف. ولذلك لم يدخر الحكام الكونفوشيوسيون وسعاً في إقصاء فن الشعب الكادح دائماً. ومن منظور الأوبرا التقليدية منذ أسرتي يوان ومينغ، نجد أن مصدر الفن الأول يكمن في صفوف الشعب حتى انتشر على نطاق واسع فن طبقة أهل الحضر. وبغض النظر عن تجسيد التعاليم الإقطاعية في الإبداع الفني من جانب المشتغلين في الحقل الموسيقي واهتمام الحكام الشديد بـ«الموسيقى رفيعة الذوق» من قبل، إلا أن هذه التعاليم تزدري الأوبرا التقليدية دائماً، ولذلك يعاني فن الأوبرا التقليدية من الاحتقار دائماً، كما يعاني كتّاب وممثلو هذه الأوبرا من الازدراء أيضاً، ويعتبرون من ذوي الدرجات الدنيا. والفن الغربي لا يتناول الوظائف الاجتماعية الواضحة، ومطلب الناس الرئيسي من الفن هو التسلية والترفيه عن النفس، وشحذ الهمم، أو الحصول على المتعة الفنية، ولا توجد حدود فاصلة بين الفن الرفيع والفن الشعبي. وبالمثل الكاتب المسرحي العظيم شكسبير يتبوأ مكانة مرموقة في الغرب، بينما نظيره الصيني قوان هان تشينغ يمكن أن يدرج اسمه فقط في «دليل سجل الأشباح». ومازال هدف الفن في الصين والغرب مختلفاً.

المبحث الأول

فن الخط

أصبح الخط فناً قائماً على أساس الهيكل المربع للرموز الصينية وتغيرات الخطوط والمقاطع الصينية. ولا مندوحة أن نعتقد أن الأقدمين عندما ابتدعوا الرموز المربعة، قد حققوا الدمج بين الأفكار الصينية الأساسية في خلق الجمال، ويعني ذلك توازن الهيكل، والخطوط السلسة والمتناسقة والمتغيرة والتي تخضع للمقارنات، ويقدم ذلك مجالاً لنشاط الخطاطين لإظهار القدرة الفنية وتقديم الخيال الفني بخطوات واسعة. ومن ناحية أخرى، إن حقيقة هيكل الرموز الصينية وفكرة وحدة جسم الإنسان جعلا الرموز الصينية ذاتها تتسم بالجمال الطبيعي، وأوجد عناصر الجمال لدى الأجداد. ولذلك عندما يكتب أو يرسم الخطاط بريشة صينية، يمكنه الاعتماد الكامل على إحساسه بالجمال وتحقيق الاندماج الوثيق بين جمال السماء والأرض والجبال والأنهار من جهة، وجمال بيوت الشخصيات وجمال هيكل الرموز الصينية من جهة أخرى. وجسد الخطاطون الصينيون ذلك تجسيداً حياً ودقيقاً. ولا يمكن أن يوجد فن الخط بمنأى عن الهيكل المربع للرموز الصينية. والكتابة اللاتينية في الغرب هي بمثابة الدليل الدامغ في هذا الخصوص.

وفن الخط عريق ومستمر عبر التاريخ، ويجب أن نقول إنه بدأ انطلاقاً من النقوش على العظام ودروع السلاحف في أسرة شانغ (القرن 16– 11 ق.م). ولكن من منظور وجهة النظر الشاملة، نقول إن فن الخط تبلورت ملامحه الحقيقية في مرحلة أسرتي هان ووي. وقبل ذلك، كانت هناك «نقوش ماو جونغ دينغ» في المرحلة المتأخرة لأسرة تشو الغربية، و«نقوش الطبول الحجرية» في فترة الربيع والخريف، و«كتابة النقوش في جبل تاي» في عصر تشين، ونظراً لأن الوعي بفن الخط لم يتشكل آنذاك، ولم تظهر مقاييس الجمال أيضاً، ولم تتحدد إرهاصات نظرية الخط، ولذلك فإن الكتابة المعدنية والحجرية قبل أسرة هان تمثل مرحلة نشأة فن الخط. وكان شكل الخط في ذلك الحين عبارة عن النقوش المعدنية، وشياو جوان (شكل من أشكال الخط الصيني القديم) بعد أن قام الإمبراطور الأول في أسرة تشين بتوحيد الكتابة في البلاد. ولا ريب أن الخطاط لي سي يمثل الخطاطين في هذه المرحلة.

وبلغ فن الخط مرحلة النضج في عصر هان. وشهدت هذه المرحلة تبلور ملامح خط لي شو (الخط الديواني الصيني القديم)، كما كان يستخدم آنذاك الخط الارتجالي، والخط الرشيق، والخط النسخي الصيني، وشكّل ذلك كله خط لي شو وانتشاره في نهاية المطاف، وتمتعت جميع أشكال الخطوط بالانتشار والازدهار أيضاً. ويجب الإشارة إلى أن نشأة لي شو كانت موغلة في القدم، وتذكر سجلات تاريخية أن قضايا الدولة كانت كثيرة ومتعددة في أسرة تشين، وزاد عدد المذكرات إلى العرش الإمبراطوري، ومن أجل التوصل إلى قرار سريع والاستخدام الأسرع، طلبت السلطات المحلية من لي رين (العبيد) نسخ هذه القضايا والمذكرات؛ ومن هنا جاءت تسمية «لي شو». وشكل خط شو استخدام في عصر تشين فقط، حيث اتخذ الخط الأفقي المفلطح شكله النهائي في عصر هان، ومن هنا تكونت ملامح شكل الخط الصيني وأصبحت تتحلى بالقواعد المحددة، وفي أسرة هان الشرقية أصبح خط لي شو بمثابة معيار شكل الخط الذي تحدده الدولة. وشهد خط لي شو تغيرات يُطلق عليها في تاريخ الكتاب «لوبيان». وما يُعرف بـ«هان لي» هو خط لي شو بعد انتشار تغيرات لي بيان. وورث لي شو خط لي في عصر تشين، كما أظهر التناسق في «هان لي»، وجسد خاصية الحرية في الكتابة. وفي عصر هان، كان معظم ألواح البامبو والأنصاب الحجرية والأختام تستخدم هان لي. وبعد تحرير الصين، تم العثور على العديد من ألواح البامبو في مقبرة أسرة هان في مقاطعة شاندونغ مثل: «المفكر العسكري صون تسي»، و«فن الحرب عند صون بينغ»، و«الفيلسوف لاوتسي» في مقبرة هان في مقاطعة خونان، وينتمي ذلك كله إلى شكل الخط في أسرة هان الغربية. أما شكل الخط في أسرة هان الشرقية تمثله الكتابة المشهورة في كل من «شاهدة تشانغ تشيان»، و«شاهدة قبر شيان يوي هوانغ محافظ يانمين»، و«شاهدة أواني الطقوس»، و«شاهدة هواشان»، و«تاريخ شاهدة معبد تسانغجية». وجسد ذلك كله خصائص فن هان لي بصورة كاملة من البراعة في فن الخط وإحراز النجاح في فن الكتابة، وبعضها كان قوياً ومتيناً ومربع الشكل، وبعضها اتسم بالاستعراض الحر والتغيرات مثل التنين. ويجب أن يكون عدد الخطاطين في أسرتي هان كبيراً جداً، ولكن لم يحظ العديد من أعمالهم بالشهرة، ولذلك لم نعرف إلا القليل منهم في وقتنا الحاضر، ومن بينهم تساي يونغ، وتساو شي، وقد قيل إن «شاهدة

أغنية الريح العاتية» في مقاطعة جيا نغصو كتبها الأديب تساي يونغ.

والخط في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية استفاد من التطورات في المرحلة السابقة، ثم مضى قدماً على درب تحول أسلوب الخط بصورة كاملة، ومن ملامحه أن جميع أشكال الخطوط: لي شو، وشياو جوان، والخط الرشيق، والخط النسخي الصيني، أصبحت كاملة وتامة، وأوجدت كمية كبيرة من أعمال الخط الممتازة والخطاطين العظام مثل: تشونغ تشاو، ووانغ شي جي. وتتلمذ تشونغ على يد تساي يونغ وتساو شي، وتدرب على استيعاب مزايا الخطاطين الآخرين، وأكمل الشكل النهائي للخط النسخي الصيني. وتسجل «شاهدة شانغ زونغ هان»، الموجودة في مقاطعة خنان، الحدث التاريخي في تنازل الإمبراطور نان في أسرة هان عن العرش للإمبراطور تساو بيه، ونقوش الشاهدة كتبها تشونغ تشاو، وتعتبر نموذجاً لأسلوب خطه في لي شو، ولم يُعثر على آثار خطه في الخط النسخي الصيني إلى الآن. ووصف السلف مميزات خطه في لي شو بأن: «البنط مثل جبل متصدع، وقطرات الحبر مثل أمطار غزيرة، والخط دقيق مثل خصلة الشعر، وخفيف مثل السحاب، ومقدمة الحرف مثل طائر العنقاء يسبح في الفضاء، ونهاية الحرف مثل فتاة حسناء تدخل غابة زهور». والمميزات الفنية لدى وانغ شي جي (303 – 361م، أو من 323 – 379م) غير عادية تماماً، وأطلق عليه الخلف لقب «الجنرال وانغ (الملك)» لأنه كان جنرالاً في الجيش، كما ظفر بلقب الاحترام «قديس الخط»، وأطلق عليه ونجله وانغ شيان جي لقب «أروانغ» (شخصان اسمهما وانغ). وأسلوب في الخط يمثل المزايا الأخرى لدى الآخرين وأسس أسلوبه الخاص في الخط، وتفوق على الآخرين وليس له مثيلاً في الماضي والحاضر. وفي الأسر الجنوبية والشمالية، اعتقد الملك وو في مملكة ليانغ أن خطه يتحلى بـ«شكل الحرف جميل وأنيق ويتفوق على الآخرين مثل تنين يقفز من السماء، ونمر ينبطح في مقصورة العنقاء»، كما ذكر آخرون أن خطه مثل «ريح تهب من الرقبة، والقمر الوضاء يدخل حضن الإنسان»، كما قال الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ: «انظر إلى بنوطه تجد فيها مهارة فنية، وتكوينها ينم عن براعة وإتقان، الدخان المتطاير وقطرات الندى، ويبدو شكلها متقطعاً، ولكنه متصل وجامد؛ مثل طائر العنقاء يحلق عالياً والتنين يكور نفسه، كما تبدو معظم حروفه مائلة ولكنها مستقيمة، ولا تشعر بالملل

من النظر إليها، ولا تعرف نهايتها إذا أمعنت النظر فيها. وتجسد يده ما يحدو القلب من آمال، وليس لهذا الخطاط من نظير. والخطاطون الآخرون ليس لهم قيمة، فهل يستحقون الدراسة والمناقشة؟ ولذلك عندما توفي هذا الإمبراطور، وضعت في مقبرته المخطوطة الأصلية لـ«شاهدة سان تينغ» بخط يد وانغ شي جي. والخط في الأسر الجنوبية والشمالية تأثر بأسلوب الكتابة كثيراً في أعمال «أروانغ»، وظهرت أعمال الخط في العادة من قبل خطاطين غير مشهورين، ويستحق الذكر منهم في هذا المقام الراهب تشي يونغ في مملكة تشين وهو يمثل الجيل السابع لأحفاد الخطاط وانغ شي جي، واكتسب مميزات الخط في عائلته وتمثلها جيداً، وحظي كتابه «كتاب في ألف رمز» بالإشادة من الأجيال المتعاقبة. أما عن الخط في الأسر الشمالية، فقد كانت شاهدة مملكة وي (386 – 550) الأفضل والأحسن، وتكوينها محكم ودقيق، والبراعة في الخط مدهشة، وأشاد باوشي جيو، وكانغ يوي وي بأسلوب الخط في هذه المملكة. وشاهدات مملكة وي النموذجية الموجودة حالياً تشمل كل من: «شاهدة صناعة تمثال شي بينغ قونغ» في مقاطعة خنان، و«شاهدة تشانغ مينغ لونغ» في مقاطعة شاندونغ، و«شاهدة جينغ ون جونغ» في مقاطعة شاندونغ أيضاً.

وشهد فن الخط مرحلة قمة الازدهار في أسرتي سوي وتانغ، ويرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بالرخاء الاقتصادي والازدهار الثقافي في هاتين الأسرتين. وأصبح الخط من المواد التعليمية في المدارس بفضل تشجيع الطبقة الحاكمة، وحقق مستوى جيداً على الصعيدين النظري والإبداعي. وفي هذه المرحلة، زاد عدد الخطاطين عن العصور السابقة، كما زاد عدد المؤلفات المشهورة المتخصصة في نظرية الخط مقارنة بالأسر السابقة أيضاً، ومن هنا كانت بداية تأثير الخط الصيني في الخط الياباني. وفي مطالع أسرة تانغ، كان هناك أربعة خطاطين كبار هم: «يوي، أو، تشو، شيوه». وكان يوي شي نان (558 – 638م) تلميذ يونيغ، وأستاذ الإمبراطور زونغ في هذه الأسرة» وخطوطه دائرية، وحروفه مربعة، وتجمع بين المرونة في الخارج والصلابة في الداخل، كما أن خطه مدبب مثل سكين يقطع تيار الماء، ومن أعماله المشهورة «شاهدة معبد كونفوشيوس». ويعتبر أويانغ شون (557 – 641م) أمهر خطاط في الخط النسخي الصيني، ويبدو أسلوب خطه وهيكله محكماً ودقيقاً، وشكل الحروف مثل «ثعبان مدهوش في أحضان العشب، والبرق بين السحاب،

كما تشبه نظرات الغضب لحارس بوذا، والتلويح بقبضة اليد بقوة أيضاً». ومن أعماله النموذجية «نقش ينبوع الخمر في قصر جيو تشينغ» و«شاهدة هوانغ بودان» ويحتلان الصدارة في الخط النسخي الصيني في أسرة تانغ، وأُطلق عليه وعلى نجله أويانغ تونغ تسمية «أويانغ الكبير والصغير». والخطاط تشو سوى ليانغ (569 – 658م) تعلم من مهارة وانغ شي جي، ويوي شي نان. وتأسيساً على ما قيل إنه اكتشف سر ولُب فن الخط عند وانغ شي جي، فقد طلب منه الإمبراطور تاي زونغ أن يميز بين آثار الخط عند وانغ شي جي الحقيقية والزائفة التي كان يحتفظ بها، وقد أبلى بلاء حسناً في هذا المضمار. وسمات الخط عنده هي: «الذهب يترقرق بين الحروف، ويتغلغل اليشم بين السطور، وأسلوبه هادئ وأنيق، وحروفه جميلة ومعظمها مربعة»، ومن أهم آثاره «شاهدة سان تسانغ شين». ولم يحظ الخطاط شيوه جي (649 – 713م) بالشهرة الكبيرة على غرار الخطاطين الثلاثة المذكورين أعلاه، ولكنه استخدم «الخطوط الرفيعة الدقيقة، وأشكال الحروف الأنيقة الجذابة»، ووضع إرهاص تكوين الخط الأنيق والدقيق في العصور اللاحقة، ومن أهم أعماله «سيرة الأمير شينغ شيان». وبعد ذلك بقليل، ظهر خطاطون كبار في عصر تانغ مثل: لي يونغ، تشانغ شيوي، يان تشين تشينغ، ليو قونغ تشوان، زينغ هواي صو. وبدأ الخطاط لي يونغ من حيث انتهى «أر وانغ»، ولكنه تفوق على أسلوبهما، وكان خطه يتراوح بين الخط الرشيق والخط النسخي الصيني، وأهم أعماله تشمل: «شاهدة معبد يوه لو»، و«شاهدة الجنرال يون هوي»، أسلوبه في الخط متصلب وصارم، وبراعته هادئة ومتزنة. واشتهر تشانغ شيوه بالخط الارتجالي. وأُطلق عليه «تشانغ المجذوب»؛ لأن سلوكه وخطه كانا مثل المجنون والمخبول. ووصفه الأديب هان يوي قائلاً: «يتمتع بدرجة عالية من مشاعر الحب والكراهية والحرج، ومشاعر القلق والحزن والبهجة والسعادة، ويئن بالشكوي والكراهية والشوق والإعجاب، ولا يكل من احتساء الخمر، وكانت تهتز كتلة المشاعر هذه في قلبه بصورة غير متوازنة، ومن المحتوم أن تتجسد في خطه الارتجالي. وينظر إلى الأشياء، ويرى الجبال والأنهار والوديان والطيور والحيوانات وأسماك والحشرات والنباتات والجُرفة، كما شاهد تغيرات الشمس والقمر والنجوم والريح والمطر والماء والنار والبرق والرعد والأغاني والحروب والسماء والأرض وكافة الكائنات، ويمكن أن

يحب ذلك كله ويبدو مندهشا ويجسده في أسلوب خطه. وخط تشانغ شيوه يتغير مثل الشياطين والآلهات، ولا يمكن أن يكون له ملامح، وسار على هذا النهج طوال حياته، ولذا حظي بالشهرة عبر التاريخ». وفي قصيدته «ثمان حوريات يشربن الخمر»، وصفه الشاعر دوفو قائلاً: «ترتبط شهرة تشانغ شيوه بأنه قديس الخط الارتجالي، ويخلع قبعته أمام الملك والجنرال بعد أن يحتسي ثلاثة كؤوس خمر، ويحرك ريشته على الورق مثل ألسنة الدخان والسحب»، ويمكن للناس أن يتصوروا مظهره في حالتي الخمر والسَكِر. ويغص خطه الارتجالي بالسحر الرومنطيقي والافتتان والشغف، وخطوط ريشته مجنونة وطائشة، ولكن ليست غريبة، وتجمع بين اللين والصلابة، ويربطها المفهوم الفني، ومن أهم أعماله «لصيقة المغص». وتأثر يان تشين تشينغ بالخطاط تشانغ شيوه، واحتذى بالأجيال السابقة، ودشن أسلوبه الخاص المتميز، واستعمل أسلوب خط جوان ولي في كتابه الخط النسخي الصيني والخط الرشيق والخط الارتجالي، ورسم الخطوط الأفقية في الخط النسخي الصيني وكانت دقيقة ورفيعة، كما رسم البنط والخط العمودي، وشرطة يسارية نازلة في الخط الصيني، وشرطة يمينية نازلة. وكانت رسومه في هذا الشأن قوية وسخية، وأطلقت الأجيال اللاحقة على ذلك «أسلوب يان»، وأعماله كثيرة جداً، ومن أشهرها «شاهدة أحاسيس باغودة دوا باو»، و«شاهدة مديح دونغ فانغ هوا»، و«تاريخ قبر الشاعر يوان جيه»، و«شاهدة معبد عائلة يان». وارتبط اسم ليو قونغ تشوان باسم نظيره يان تشين تشينغ، وأُطلق عليهما «يان – ليو»، وتعمد ليو عدم استخدام رسم الخط العمودي القوي السمين عند يان، ورسم الخطوط الأفقية متساوية من حيث القوة والنحافة، ورسم البنط مثل سكين، وابتدع أسلوباً فريداً في الخط عُرف بـ«أسلوب ليو»، وأطلقت عليه الأجيال المتعاقبة تسمية «أسلوب الخط القوي والسمين عند يان»، وأسلوب الخط النحيف عند ليو». ومن أهم أعمال ليو «شاهدة باغودة شوان ميي»، و«شاهدة فولين»، و«شاهدة الجنرال شين تسه». ويعتبر الراهب هواي صو خليفة الخطاط تشانغ في الخط الارتجالي في عصر تانغ، وكان فقيراً منذ نعومة أظافره، ولا يجد نقوداً لشراء الورق، ولذلك زرع عشرة آلاف شجرة موز اليابان، واستعمل ورق الموز بدلاً من الورق، وتدرب بجد واجتهاد وأحرز نجاحاً مبهراً، ولذا أطلق على المعبد الذي يقيم فيه لقب «معبد السماء

الخضراء». ولا تزال أطلال هذا المعبد في مدينة يونغتشو بمقاطعة خونان تحتفظ بالنسخة المقلدة لـ«شاهدة كتاب ألف رمز» التي كتبها هواي صو، وامتدحه الشاعر الكبير لي باي قائلاً: «بعد أن لعب الخمر برأسه، اتكأ على سرير مصنوع من الكتان، وبعد فترة انتهى من كتابة ألف ورقة. وكانت تتساقط أوراقه بغزارة مثل الزهور وكرات الثلج، ونسمع أصواتا مثل زئير الريح وهطول الأمطار، وتلجمنا الدهشة». ومن أهم أعماله «دفتر خط السيرة الذاتية».

وانتشر «علم دفتر التدريب على الخط» في عصر سونغ انتشاراً كبيراً، وأصاب فن الخط الانحطاط. والمقصود بهذا العلم هو تناقل الأيدي إعادة حفر دفاتير الخطوط المشهورة في العصور السابقة، ثم الاحتذاء بدفتر التدريب على الخط. وترتب على ذلك أن إعادة الحفر كثيراً جعله يفقد شكله، وبات من الصعب الحصول على المعنى الحقيقي والجوهر، مما فرض قيودا على الإبداع الجديد في مجال فن الخط في عصر سونغ. وفضلاً عن ذلك، شهد تدريب أهالي سونغ على الخط التحول من الخط الشعبي إلى الخط الأرستقراطي؛ بمعنى التحول إلى أذواق الأباطرة وإلى أسلوب خط الوزير القوي، ومن ثم كان من الصعب أيضاً أن يحدث تطور مميز وفريد في فن الخط. وشهد عصر سونغ أربعة خطاطين كبار هم: صوشي، هوانغ تينغ جيان، ميي فو، تساي شيانغ، والإمبراطور تساو بي صاحب «أسلوب الخط الرفيع». وتفوق الخط في أسرة يوان على أسرتي سونغ الجنوبية والشمالية، وورث مزايا أسرتي جين وتانغ، ولذا ظهر الخطاط العظيم تشاو مينغ فو (1254 – 1322)، وهو من أحفاد الجيل الحادي عشر للإمبراطور تشاو كوانغ ين في أسرة سونغ، وتعلم بإتقان خطوط جوان، لي، الخط الرشيق، الخط الارتجالي، وبعد ذلك فكر في تغييرها، وبلور ملامح فن الخط في أسرتي جين وتانغ، وأصبح الخطاط الرابع العظيم في الخط النسخي الصيني بعد «يان، ليو، أر»، كما تربع على عرش الخط بمفرده في أسرة يوان، ومن أهم آثاره: «نقش شاهدة قبر تشيوغه»، و«الخاتمة الثالثة عشرة في مقصورة لان»، و«كتاب جنازة بوذي»، و«مقامة لواشين»، و«مذكرات معبد مياو يان». والخط في عصر مينغ. من منظور شامل –تدهور من سيئ إلى أسوأ، حيث كانت جامدة ومتصلبة وتفتقر إلى الملامح والحيوية، وشكلت ما يُطلق عليه «أسلوب الخط الرسمي» الذي أثر إلى حد ما في

بعض الخطاطين بصورة أساسية، مثل: جويون مينغ، ون تشينغ مينغ، دونغ تشي تشانغ، شينغ تونغ، ميي وان تشونغ. كما ظهر بعض الخطاطين الذين قدموا إبداعا جديداً مثل: تشانغ روي تو، وشيوي وي وغيرهما. وظهر الخطاطون الأربعة الكبار في أواخر عصر مينغ، وهم: دونغ تشي تشانغ، وميي وان تشونغ، شينغ تونغ، تشانغ روي تو. وازدهر الخط في عصر تشينغ مرة أخرى، وحاول التخلص من تأثير علم دفتر التدريب على الخط، ثم شجع بقوة «علم الشاهدات»، وقسم فترتي حكم الإمبراطور جيا تشينغ ونظيره داو قوانغ إلى مرحلتين الأولى والأخيرة؛ اهتمت المرحلة الأولى بعلم دفتر الخط، ولم يتطور الخط وأصابه الانحلال؛ أما المرحلة الأخيرة فاهتمت بفن الشاهدات، وحرصت على توريث مزايا العصور السابقة والاضطلاع بالتجديد والتغيير، وإبراز الأسلوب الفردي، ولذا ظهرت أوضاع جديدة في تطوير الخط. واحتضن عصر تشينغ العديد والعديد من الخطاطين، وكان من بينهم أصحاب المنجزات البارزة مثل: جينغ بان تشياو، جين نونغ، دينغ شي رو، يي بينغ شو، باوشي تشين، خه شاوجي، وو تشانغ شوا، كانغ يوي وي.

وتتجلى خاصية فن الخط في استخدام الريشة أو القلم، والتهيؤ للكتابة في وضع تكمن داخله قوة، وتنفيذ تكتيك من الخطوط المستقيمة والمعوجة، والحركة والسكون، وأسلوب الكتابة الصحيح والخاطئ، ويجمع بين التباعد والتكاثف، والهيكل العادي وغير العادي، والرئيسي والثانوي، مما يجسد الشعور بالجمال من «الضد يظهر حسنه الضد». وما يطلق عليه «استخدام القلم والتهيؤ للكتابة» يشير إلى أنه عند الكتابة يجب الاهتمام بـ«ني» (الاتجاه المعكوس، وتركيب الحروف (الرموز) يهتم بـ«وي» (التميز)، وفن الكتابة يحرص على مراعاة «تسه» (الميل والانحناء)، ويعني ذلك تشكيل أسلوب محدد في الكتابة. والمقصود بـ«ني» هو اتخاذ وضع معكوس عند بدأ الكتابة، بمعنى إذا كانت بداية الرمز الصيني من اليمين، فيجب أن تبدأ من اليسار قليلاً، وبالمثل إذا كنت ترغب في الكتابة من أسفل، يجب أن تبدأ من أعلى قليلاً، وذلك يمكن أن يجعل مقاطع الرمز الصيني تزخر بالمشاعر المؤثرة. وتعني «وي» الاختلاط والتنوع والتفاوت والتغيير والاختلاف؛ بمعنى دمج هذه المقاطع مع بعضها وتتخذ شكلاً مختلفاً، والبنوط تكون متناسقة، وشكل الأسلوب في الكتابة غير عادي، ولكن لا يمكن أن يكون خليطاً بلا

نظام. أما «تسه» فتعني (الميل والانحناء) عند الكتابة؛ حتى تتخذ مقاطع وهيكل الرموز وضع الميل دائماً، لأن الوضع المائل يؤدي إلى الجمال المفعم بالمزيد من التغيرات. وزبدة القول إن مقاطع الرموز الصينية لا يجوز أن تكون متشابهة، ولا يجوز أن تكون جامدة وصلبة، بل يجب أن تهتم بالتغيير والحرص على التنوع والاختلاف، كما يجب أن تفرق بين الرئيسي والثانوي، والصحيح يتعاقب مع الخطأ، وتجمع بين الصلابة والمرونة، وتحرص على الميل إلى الوسط، حتى الوسط يوجد به انفصال، وحتى الانفصال يكون سلساً ومتحركاً، ويشكل ذاته، وإلا لا يصبح الهيكل من فن الخط.

المبحث الثاني

فن النحت

فن النحت في الصين – مثل الخط والرسم– يهدف إلى إظهار السحر الرومنطيقي في الأشياء الموضوعية. ويمكن القول إن فن النحت الصيني هو الرسم المجسم للشخصيات، ومقاييسه الجمالية المثالية تطلب تحقيق الرسم المعبر النابض بالحياة، وبعبارة أخرى، تجسيد العالم الداخلي للشخصيات، وإبراز ملامحها ومظاهرها. ولكن ونظراً لأن فن النحت من الفنون التشكيلية المجسمة، إذن يجب أن يحتوي على معالم الشخصية المناسبة والجميلة، ناهيك عن الملامح المؤثرة في النفس. ولذلك، يحرص الناس في أغلب الأحايين على الاهتمام بأن فن النحت يجمع بين الشكل والملامح أم لا عندما يستعرضون أعمال النحت من أجل متعة النفس. كما يحرص الفنانون دائماً على نحت الملامح حسب الشكل، ويركزون بجد واجتهاد على إبراز الملامح والمظهر، وتحقيق أفضل فعالية فنية من خلال الجمع بين الشكل والملامح.

وقد أثبتت نتائج الاكتشافات الأثرية، إن فن النحت في الصين يرجع تاريخه إلى المجتمع البدائي العشائري. وفي عام 1986، وفي نهر نيوليانغ بأطلال حضارة لياوشي تم العثور على عينات حقيقية من «عبادة الجني» يرجع تاريخها إلى خمسة آلاف سنة خلت؛ وهي عبارة عن تماثيل آلهة عارية مصنوعة من الفخار، وتماثيل لآلهة جالسة عارية وبدون رأس، فضلاً عن تمثال رأس إله يشبه كثيراً رأس الإنسان، والعينان مرصعتان باليشم الأخضر الزُمردي، وتبدوان عينين براقتين ومشرقتين. وتهتم هذه التماثيل بالخطوط العريضة للملامح الخارجية من القوة والرشاقة والجمال والجاذبية، كما تُظهر تدفق المشاعر والأحاسيس الداخلية، وتشكيلها متناسق وحيوي وصورها حية ونابضة وتبرز للعيان أن فن النحت البدائي في الصين يتحلى بمستوى فني رائع يدهش الإنسان. وفي مقابر أسرة شانغ بمدينة آنيانغ في مقاطعة خنان، تم العثور على أحجار منقوشة يعود تاريخها إلى أسرة شانغ، من بينها نقش حجري استخدم الرخام عبارة عن نمر رأسه رأس نمر وجسمه جسم إنسان؛ جاثيا على ركبتيه، وفاغر الفم ويكشر عن أنيابه، ويزمجر، ويبدو أنه يلتهم شيئاً ما، ويعتبر من أعمال النحت القيّمة أيضاً.

ولا تزال التماثيل الحربية الجنائزية لأسرة تشين التي تم اكتشافها في محافظة لين تونغ في مقاطعة شنشي تمثل أضخم مجموعة متناسقة من أعمال النحت وأكثرها عدداً. وفي الوقت الحاضر، لا تزال هذه التماثيل تمثل مجموعة ضخمة من التماثيل الفخارية الملونة الفريدة في تاريخ الثقافة العالمية، وتم اكتشاف جزء منها إلى الآن، وتشمل أكثر من ستة آلاف قطعة من تماثيل العربات الجنائزية والتماثيل الجنائزية للشخصيات تتماثل كثيراً من الإنسان الحقيقي، مما يشكل موكباً عسكرياً مهيباً يموج بحركة جياشة كاسحة، ويخيم السكون المهيب على المشاهد الجنائزية، وأصبحت هذه التماثيل الجنائزية مشهورة في العالم ويطلق عليها «المعجزة الثامنة في العالم». وعندما قام المثالون بنحت تماثيل هذه الشخصيات والعربات، اهتموا برسم صور هذه العربات انطلاقاً من جوانب متعددة، وأبرزوا ملامح الشخصيات؛ ولذلك بعضهم تنهد صدورهم، وقامتهم منتصبة، وعيونهم شاخصة إلى الأمام، وتتحلى ملامحهم الخارجية بالقوة والصلابة والجسارة وبعضهم عيونهم واسعة، وحواجبهم كثيفة، وأفواههم واسعة وخدودهم عريضة، ويظهرون ذكاء وشجاعة، وبعضهم تتسم طباعهم بالتفاؤل، والاعتصام بالصمت والانخراط في تفكير عميق. كما تجسد الخيول الجنائزية مظاهر الرغبة الكامنة في الانطلاق. وهذه المجموعة الضخمة من التماثيل الجنائزية في أسرة تشين لم تظهر فقط قوة إمبراطور هذه الأسرة بعد التوحيد السياسي، بل أبرزت النضج رفيع المستوى لفن النحت في الصين القديمة على الصعيد الفني.

وفن النحت في عصر هان ورث مزايا النقش في أسرة تشين وتطورها، واستخدم –من ناحية– أسلوب المغزى الكامن، وحقق التأثير الفني للرومانسية، ومن ناحية أخرى، انتهج الواقعية وجسد الحياة الواقعية في العلاقات الأساسية بين البشر. وكانت أبرز أعمال الرومانسية «النقش الحجري لحصان يطأ أهل الهون» أمام قبر هواتشو بينغ في مدينة شينغ بينغ بمقاطعة شنشي، وشُيد هذا القبر على غرار جبل تشيليان، مما يرمز إلى أن مآثر صاحبها خالدة الذكر، والحجر المنقوش أمام القبر عبارة عن حصان حجري يماثل حجمه الحصان الحقيقي، وشكله ضخم وثقيل، وهيكله متناسق وجذاب، وحوافر الحصان تطأ جندياً من قبيلة الهون يتخبط في نزعه الأخير ويبدو مذعوراً خائفاً، مما يعكس المآثر العسكرية للقائد هوا في إرسال حملة لتأديب قبيلة الهون في الشمال. أما أعمال الواقعية النموذجية، فقد

ظهرت في التماثيل الحربية الجنائزية وتماثيل الشخصيات الجنائزية في عصر هان والتي تم اكتشافها تباعاً في المدن التالية: شيان يانغ (مقاطعة شنشي)، شيوي تشو (مقاطعة جيان نغصو)، ولوايانغ (مقاطعة خنان). ولاسيما التماثيل الجنائزية لأسرة هان التي تم العثور عليها في قبر ملك أسرة تشو في مدينة شيوي تشو، والتي بلغ عددها أكثر من ألف وخمسمائة قطعة وتعتبر المجموعة الضخمة الثانية للتماثيل الجنائزية بعد نظيرتها في أسرة تشين، وعند مقارنتها بالأخيرة، نجد حجم تماثيل الأولى أصغر منها بكثير، وأضخمها لا يتجاوز أربعة وخمسين سنتيمتراً، ولا يبلغ ثلث نظيره من تماثيل تشين. ولكن ربما يعكس ذلك التغيرات التي طرأت على مفهوم الفن في الفترة بين أسرتي تشين وهان، وفي عبارة أخرى، إن عصر تشين اهتم بـ«الرسم الواقعي»، بينما كان عصر هان يميل إلى «الرسم التعبيري».

وأثرت الديانة البوذية تأثيراً عميقاً في فن النحت بالصين جراء انتشارها في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، وظهرت مجموعة ضخمة من أعمال النحت التي استقت مادتها من مضمون البوذية، وتزخر الكهوف الأربعة الحجرية في دونغ هونغ، ويون فينغ، ولونغمين، وجبل مايجي تزخر بالتماثيل المصنوعة في هذه المرحلة. ولا يزال التيار الرئيسي لصور الشخصيات في هذه المرحلة يقلد النماذج البوذية الهندية؛ حيث نجد صور الشخصيات تجمع بين القامة الممشوقة، وملامح الوجه صافية ونحيفة، والأنف مستقيمة، والعيون واسعة، وصوان الأذن كبير. وكان صنع التماثيل ناعماً ورخيماً ودقيقاً، واهتم أن تكون التماثيل مثل: «السحب تسبح في الفضاء، والماء يتدفق في الجداول». أما تصوير الشخصيات، فقد حرص على تدرج الألوان الكثيفة والبسيطة، والزخارف الجمالية الحقيقية والبسيطة. وعلى الصعيد الفكري، ونظراً لاندلاع الحروب الفوضوية بين الشمال والجنوب، وانتشار القلاقل الاجتماعية، ذاق الناس مرارة المعاناة والصعاب، وشرعوا يبحثون عن المثل العليا، ولذا علقوا الآمال والأماني على التماثيل، وجعلوها تغص بالهدوء والسكينة، والجمال والجاذبية، وملامحها الطبيعية وسجيتها الحكيمة عكست مشاعر الذوق الرفيع لدى الإنسان.

وأظهر فن النحت أعمالاً مشرقة ومضيئة أخرى في عصر تانغ بسبب الازدهار الاقتصادي والانتشار الثقافي، ومعظم أعمال النحت في هذه المرحلة ألوانها واضحة وسلسة، وتميل إلى الفخامة والروعة، ومقياس تشكيل الشخصيات مناسب وموجز وسليم، وملامح

الشخصيات وديعة، وتتحلى بالحنو والعطف، وبالطابع العاطفي الكثيف والمشاعر الودية، ولاسيما تماثيل بوذا في شكل امرأة، تبدو الأكثر جمالاً وجاذبية، والأكثر رزانة ورصانة، وقدرتها كبيرة على الحلم والتسامح، وعيونها مفعمة بالمشاعر الرقيقة والابتسامة لا تفارق ثغرها، وقلما تتسم بطابع الإله. وفي الكهف الحجري في مدينة لونغمين يوجد معبد فينغ شيان لأسرة تانغ، يحوي تمثال بوذا الكبير خواشانا صاحب الوجه الممتلئ الضخم، وملامحه جميلة وبهي الطلعة، ويحقق التجاوب والتناسق مع تماثيل الحواريين وبوذا وأباطرة السماء الأربعة والأقوياء المرصوصة على جانبيه، ويبدو المشهد حسن الترتيب والتنسيق والجو المفعم بالانسجام والوئام، ويشبه حوار تشاور الإمبراطورة وو تسي تيان مع وزرائها. أما أعمال النحت أمام مقابر الملوك والأباطرة في أسرة تانغ، تبدو معالمها نابضة بالحياة أيضاً، وقلما يظهر تشكيلها المبالغة والفخامة، وتهتم برسم خصائص الأشياء الموضوعية، ومثال ذلك، «الخيول الستة» في قبر الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ، والأسد المترجل أمام قبر والدة الإمبراطورة وو تسي تيان، ويعتبر ذلك من أعمال النحت النموذجية في هذه الأسرة.

وعلى الرغم من أن فن النحت في عصر سونغ لم يشهد أعمالاً زاهية وضخمة، بيد أنه بلغ مستوى عالياً في تجسيد نفسية الشخصيات عند تصوير طباعها. وشهدت تماثيل بوذا في هذه المرحلة إضفاء الطابع الدنيوي بشكل أكبر، وتشكيل الشخصيات يهتم بإظهار المزاج النفسي للشخصيات في حياتها اليومية العادية وفي أعمالها وأقوالها وسلوكها، كما يحرص على رسم ملامح الشخصيات من خلال تقسيمات الوجه، وتعبير العينين، ومن العلاقة المتبادلة بين الشخصيات نفسها من جهة، ومن العلاقة بين الشخصيات والبيئة من جهة أخرى، ومثال ذلك تماثيل الوصائف البالغ عددها أربعة وأربعين تمثالاً في قاعة شينمو في معبد جين في مدينة تاييوان في مقاطعة شانشي، حيث تضطلع كل وصيفة بالشؤون التي تختلف عن الأخرى، ويرتدين ملابس مختلفة، والأدوات في أيديهن مختلفة أيضاً، والأهم من ذلك أن هيئتهن طبيعية، وملامحهن مختلفة، ويظهر الجمال النسوي لكل منهن. وهناك أيضاً التماثيل الملونة للأرهات البالغ عددها أربعين تمثالاً في قاعة ألف بوذا في معبد لينغيان بمدينة جينان في مقاطعة شاندونغ، ويمكن أن تترك أثراً طيبا في النفس لأنها عميقة الغور وتتحلى بالهدوء، وتُظهر مشاعر الحب والغضب والحزن والبهجة، وامتدحها المفكر الكبير ليانغ تشي تشياو

واعتبرها «التماثيل المشهورة التي تحتل المكانة الأولى في الصين». وتحتضن مدينة تشونغ تشينغ النقوش الحجرية لعصر سونغ، ناهيك عن عدد كبير من التماثيل البوذية عكست معالم الحياة الاجتماعية آنذاك.

وبعد أسرتي يوان ومينغ، لم يحرز فن النحت تقدماً كبيراً، وأثر الطابع الدنيوي على صُنع التماثيل أصبح جلياً أكثر فأكثر، واستطاعت بعض الأعمال الممتازة أن تبلغ مستوى عالياً نسبياً. ولكن -من منظور شامل- كان فن النحت في عصر يوان فظاً وغليظاً، ومثقلاً بالتفاصيل التافهة في عصر مينغ، واضطر إلى الابتذال والتسفيه في عصر تشينغ، ويرتبط ذلك بالملامح الفكرية في كل عصر. وزبدة القول، إن فن النحت الصيني يتحلى بالخاصية المميزة في كل عصر، وبالملامح القومية الكلية، ويعبر عن السحر الرومنطيقي تعبيراً كاملاً عن طريق الشكل المحدد، كما يعبر عن المثل العليا بكل جد واجتهاد في ضوء الحقيقة المحددة، ويستطيع أن يبرز المكانة السامية للأشياء الموضوعية وتقديسها واحترامها وتقديرها، ولا يلجأ إلى العلاقة الكاشفة المفضوحة التي تمعن ملياً في جسم الإنسان، ويعتبر ذلك بالضبط موطن الاختلاف عن فن النحت الغربي.

المبحث الثالث

فن الأوبرا التقليدية

الأوبرا التقليدية الصينية هي فن التمثيل الشامل، وظهرت أشكال وألوان من الدراما بسبب التفاوت والاختلاف بين المناطق في الصين. وبغض النظر عن ظهور أنواع مختلفة من الدراما تباعاً، لكنها اتسمت بالخاصية المشتركة من الرسم التعبيري المختلق في فن التمثيل. إن تنوع أشكال الأوبريتات التقليدية وتماثل فن التمثيل، أبرزا للعيان –من جانب واحد– خصائص الهيكل الموحد والمتنوع في الثقافة الصينية، والفكر القومي من الاحتكاك المتبادل والتقدم المشترك. ونتناول – في هذا المقام– مسألتين هما:

(1) **تطور الأوبرا التقليدية وأنواعها:** يكمن مصدر الأوبرا التقليدية الصينية في رقص وغناء العصر البدائي، ثم انتشر السحر انتشاراً واسعاً، وكان الساحر يجعل الإله يهبط إلى الأرض عن طريق الرقص، وأصبحت رقصة السحر بمثابة الرقص الشعبي والأغاني الشعبية رويداً رويداً. وكانت تقام طقوس طرد الشياطين والأمراض في الشهر الثاني عشر القمري من التقويم الصيني في العصر القديم، ويطلق عليها «طرد الأرواح الشريرة» ويؤديها أربعة أفراد يرتدون أقنعة الوجه، ويرتدون ملابس جلد الدب، ويمسكون في أيديهم فأس حربة (سلاح قديم صيني) والمجن، ويصيحون بصوت عال صيحة طرد الأشباح والشياطين، أو يؤديها اثنا عشر ممثلا من ذوي الشعر الأحمر والملابس الزاهية، وفي أيديهم سوط من الكتان، يلوحون به في الهواء ويحدثون دوياً وضجيجاً، وينادون بصوت عال على أسماء الآلهة المختلفة المتخصصة في التهام الشرور والشياطين، ويطلق على ذلك «رقصة طرد الأرواح الشريرة»، وتطورت رويداً رويداً، وأصبح أوبرا تقليدية يُطلق عليها «أوبرا طرد الأرواح الشريرة». وكان هناك بعض الأفراد في العصر القديم، اتخذوا من الموسيقى والرقص والمزح وظيفة لهم. وكانت تقام بعض الأنشطة الفنية من الموسيقى والرقص والأحاديث الفكاهية في حفلات ومآدب الإمبراطور ابن السماء والملوك، وأطلق على هؤلاء الأفراد «الكوميديان» أو «الفنان متعدد المجالات الفنية». ويمكن أن نعتبر هذه الأنشطة من الموسيقى والرقص والتمثيل بمثابة مصدر الأوبرا التقليدية. وظهرت عروض فنية من شتى الألوان والأشكال في مرحلة أسرتي

تشين وهان أطلق عليها «باي شي»؛ من بينها الأكروبات والرقص والغناء. والمعنى الأصلي لكلمة «شي» (المسرحية أو الأوبرا) في العصر القديم هو التحرك العسكري. ولذلك ذكر «قاموس شرح كلمات» أن: «شي» هو جناح الجيش، وهو الجنود أيضاً، ومقاطع الرمز الصيني لكلمة «شي» تشتمل على رمز فأس حربة، ثم أصبحت «شي» تشير إلى المصارعة فيما بعد. وتطورت فنون «باي شي» على نطاق واسع في أسرتي سوي وتانغ وفي أسرتي سونغ الجنوبية والشمالية، وتنوعت وتعددت البرامج الفنية، وأصبح المضمون الفني ثرياً وخصباً، واتسمت بعض البرامج بالحبكة القصصية. وبدأ تأسيس «دار الفنون المتنوعة» في عصر تانغ، وتتولى الإشراف على أنشطة الرقص والغناء، والتدريب على فنون «باي شي» وأنشطة التمثيل، واختار الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ «بستان الكمثرى» في قصره ليكون بمثابة ساحة لتدريب الغنائيين المتخصصين في الرقص والغناء ويعملون داخل القصر، كما اختار عدة مئات من الأفراد لدراسة الرقص والغناء في قصره، وإتقان مقياس النغمة بعمق بعد أن صححها الإمبراطور بنفسه، وأطلق على هؤلاء الفنانين لقب «شباب بستان كمثرى الإمبراطور»، ولذا أطلق على فريق التمثيل «بستان الكمثرى»، وأطلق على الممثلين «شباب الكمثرى»، كما أطلق على الإمبراطور شوان زونغ المُعلم الأول للأوبرا التقليدية. وظهرت «أوبرا الالتحاق بالجيش» في هذه الأسرة على أكتاف الفنانين من ذوي المهارات الفنية المتعددة في عصر تشين وهان، واشتملت على دورين في التمثيل فقط يؤديهما ضابط عسكري ونسر، وقدمت بعض الأحاديث الفكاهية المرحة والحركات التمثيلية التي انتزعت الضحكات والقهقهات من أفواه المتفرجين، وسخرت من سياسة الأسرة الحاكمة والمظاهر الاجتماعية في بعض الأحايين. وتطورت الأوبرا بشكل أكبر في عصر سونغ، وأصبحت «مسرحية شعرية» وأدوارها لا تقتصر على شخصين فقط، بل كانت تشتمل على خمسة ممثلين. وتطورت المسرحية الشعرية في الجنوب فيما بعد وأصبح يُطلق عليها «أوبرا الجنوب»، كما تطورت المسرحية الشعرية في الشمال وأُطلق عليها «المسرحية الشعرية في أسرة يوان». وبعد منتصف عصر مينغ، تطورت أوبرا الجنوب وأصبحت ما يُطلق عليه «مسرحيات أسرة مينغ» التي انتشرت لحين من الوقت أثناء حكم تشيان لونغ في أسرة تشينغ، وكان تكوينها أكثر اكتمالاً، وألحانها أكثر ثراء عن أوبرا الجنوب، وكانت أدوارها متنوعة ومتجزئة، وفن

تمثيلها يقترب من الأوبرا التقليدية في عالم اليوم. وتشمل أنواع الدراما الرئيسية ألحان أوبرا كونتشيوي، وألحان أوبرا قهيانغ، وألحان أوبرا تشينغ يانغ، وألحان أوبرا قاو وغيرها. ومن كتّاب المسرح آنذاك: تانغ شيان زو، هونغ شينغ، كونغ شانغ رين وغيرهم، وألحان أوبرا كونتشيوي اليوم، ومسرح شاو في مقاطعة تشجيانغ، ومسرح قان في مقاطعة جيانغسي تطورت وانبثق منها أوبرا الجنوب ومسرحيات مينغ الشعرية. وانتشرت مسرحيات يوان الشعرية في عصر يوان، وكانت تشمل أدوار الشاب في عز العمر، والفتاة الحسناء والوجه المصطلي (شخصية في الأوبرا التقليدية)، وكانت مراكز تمثيلها في مدينة بكين اليوم، ومدينة لينفين في مقاطعة شانشي، ومدينة هانتشو. ولا تزال مقاطعة شانشي تحتفظ بأقدم الرسوم الجدارية المسرحية الموجود حالياً، ناهيك عن المسارح التي شيدت في أسرتي جين ويوان، مما يوضح أن هذه المقاطعة كانت من منابع مسرحيات أسرة يوان الشعرية. وأصاب الانحلال مسرحيات يوان الشعرية بحلول منتصف أسرة مينغ، ثم اندمجت الألحان الشعبية في منطقة مقاطعتي شنشي وقانصو في المسرحيات الشعرية لأسرة يوان وكونت أقدم مسرحيات بانغتسي وأوبرا شنسي. وفي أواخر أسرة مينغ وأوائل أسرة تشينغ، كانت تعزف ألحان تشيو، وأرهوانغ بصورة أساسية، وتزامن في الوقت نفسه أن أوبرا شنسي في منطقة جنوب مقاطعتي خونان وقوانغدونغ استوعبت ألحان أرهوانغ التي دخلت مقاطعة آنهوي، ثم تطورت تدريجياً وأصبحت ألحان أسرة هان التي اشتملت على ألحان شيبي وأرهوانغ بصورة رئيسية. والفرق المسرحية الأربع الكبرى: «سانتشينغ» و«سيشي» و«تشوا نتاي» و«خهتشوان» بدأت تدلف إلى العاصمة للتمثيل هناك بدءاً من عام 1790، وكذلك ألحان أسرة هان وأوبرا شنسي، ثم أصبحت ألحان أسرتي وي وهان تمثل الألحان الرئيسية، واستوعبت ألحان أوبرا كونتشيوي، وأوبرا شنسي وطريقة الغناء فيهما، كما استوعبت تأثير لهجة الشمال وابتدعت ألحانا جديدة، واستخدمت موسيقى العاصمة في الأقسام المنطوقة في الأوبرا الصينية وأصبحت ما يطلق عليه أوبرا بكين اليوم. وكانت ألحان كونتشيوي وأوبرا شنسي الأقدم في فن الأوبرا التقليدية الموجودة حالياً، وقدمت أعظم الإسهامات في تكوين الأنواع والأشكال المتنوعة والثرية في الأوبرا التقليدية؛ ولاسيما أن أوبرا بانغتسي التي انتشرت انتشاراً واسعاً في الشمال، تأثرت بأوبرا شنسي. وكانت ألحان كونتشيوي رفيعة الذوق، وأشعارها جميلة

وجذابة، وجلبت متعة لكبار الموظفين الإقطاعيين، وأطلق عليها «قسم الألحان المهذبة»، وفرض ذلك قيوداً على قوة تأثيرهما إلى حد ما، ولكن قدمت إسهامات خاصة لتكوين أوبرا بكين لأنها كانت تتمتع بمكانة مرموقة في عاصمة الدولة. وفي الوقت الحاضر، نستطيع أن نسمع دائماً مقطوعات غنائية من الحان كونتشيوي في ألحان أوبرا بكين واستوعبت ألحان كونتشيوي دراما الأوبرا التقليدية في سائر المناطق الأخرى، ولاسيما أوبرا بانغتسي في الشمال، وحظيت بترحيب وحب قطاع عريض من طبقة أهل الحضر بصورة عميقة، لأن أسلوبها كان فظاً وغليظاً، ولغتها مبتذلة وسوقية، ولذا أُطلق عليها «قسم الألحان الهابطة». ولكن أثبتت الحقائق أن هذا الفن كان يروق في أعين كل الجماهير وفي آذانهم، وكان تطوره سريعاً، وقوة حيويته شديدة، ولذلك ألحان العاصمة (أوبرا بكين فيما بعد)، وأوبرا بانغتسي في كافة الأماكن انتشرت وازدهرت يوماً بعد يوم، ولكن مالت شمس ألحان كونتشيوي إلى المغيب. وبعد تحرير الصين، حققت أوبرا «ربطة النقود الخامسة عشرة» نجاحاً كبيراً، ونهضت من جديد بعد أن تمتعت بالمؤازرة والتشجيع.

وكم يبلغ عدد أنواع الأوبريتات التقليدية في الصين حالياً؟ سجل «قاموس فن الأوبرا التقليدية الصينية» مائتين وسبع وثمانين أوبرا، وفي الواقع يوجد ثلثمائة وستون نوعاً، ويشمل ذلك رقصة اليانكو، وأوبرا خيال الظل، ومسرحية عرائس في كافة أنحاء البلاد، ونظراً لأن أوبرا خيال الظل ومسرحية عرائس تصحبها ألحان غنائية محددة، ويتمتع تمثيلها بشكل محدد، ولذلك تم تصنيفها من الأوبرا التقليدية. وكانت أوبرا بكين نوعاً من الدراما، وتعد الأكثر انتشاراً والأكثر تأثيرا، وفن تمثيلها الأكثر نضجاً، وتمثل مستوى تطور الأوبرا التقليدية في الصين. وكان أسلوب التمثيل ينتمي إلى مذهبين هما: مذهب بكين، ومذهب شانغهاي. ويهتم مذهب بكين بالتدريب على المهارات الأساسية ويحرص على مقاييس الفن حرصاً شديداً؛ أما مذهب شانغهاي يتميز بالجسارة في تجديد الإبداع ويهتم باستيعاب الأشياء الجديدة. وكان هناك تبادل بين الجنوب والشمال، وتنافساً في عملية التطوير، وشكلا التيار الرئيسي المتعدد الألوان والأشكال في أوبرا بكين، وظهر «الفنانون الأربعة الكبار في الأدوار النسائية من الأوبرا الصينية القديمة» وهم: ميلان فانغ، شانغ شياو يون، تشينغ يان تشيو، شون جي شينغ، و«الفنانون الأربعة الشبان الذين يؤدون الأدوار النسائية في

الأوبرا الصينية القديمة» وهم: لي شي فانغ، تشانغ جون تشيو، ماو شي لاي، سونغ داجو، فضلاً عن الفنانين الكبار مثل: تشو شين فانغ، ماليان ليانغ، تانغ يون شينغ، تشانغ بينغ جيه. وبالإضافة إلى ذلك، كانت توجد أيضاً أنواع من الدراما الكبيرة نسبياً مثل: أوبرا مقاطعة خنان، أوبرا شنسي، أوبرا مقاطعة سيتشوان، أوبرا يوه، أوبرا لوى لمقاطعة شاندونغ، وأوبرا شانشي، وأوبرا هوانغميي، وأوبرا خبي وغيرها. أما الأوبريتات الثانوية تشمل أوبرا طبل الزهور في خونان، وخوبي وقوانغدونغ، وأوبرا قطف الشاي في مقاطعة جيانغشي ومناطق أخرى، وغناء داو تشينغ (نوع من الغناء الفولكلوري) في الشمال الغربي، ورقصة اليانكو في شمال البلاد، فضلاً عن الألحان الارتجالية، وألحان قاو، وألحان وان وان؛ إنها أوبريتات من شتى الأنواع والأشكال، ويتميز كلٌّ منها بالنكهة الخاصة. وفي مجال الألحان الغنائية، كانت توجد ألحان رفيعة المستوى مثل ألحان قاو (كما في أوبرا الشمال، وأوبرا ألحان قاو في مقاطعة جيانغسي) وكذلك الألحان الهابطة (مثل أوبرا مقاطعة شاندونغ، وألحان تاي بينغ في مقاطعة خنان). كما كانت بعض الألحان الغنائية مجلجلة رنانة (مثل أوبرا شنسي، وأوبرا شانشي، وأوبرا مقاطعة خبي)، ناهيك عن بعض الألحان الحلوة الجذابة العاطفية (مثل أوبرا يوه، وأوبرا شانغهاي، وأوبرا هوانغميي). وفي مجال التمثيل، كان تمثيل بعض الأوبريتات مهيباً وجليلاً ورصينا وأظهر أسلوب العاصمة، والإحساس التاريخي الذي يمنحه للمرء قوي جداً. (مثل أوبرا بكين، وأوبرا كونتشيوي، وأوبرا شانشي، وأوبرا شنسي) كما كان تمثيل بعضها خفيف الظل وحيوياً ونابضاً بالحياة ومفعماً بالمشاعر العاطفية، والشعور الحقيقي الذي يمنحه للمرء قوي نسبياً (مثل أوبرا مقاطعة سيتشوان، وأوبرا طبل الزهور). وكانت بعض الأوبريتات تجيد استخدام الماكياج والأزياء المسرحية القديمة، كما كان يجيد البعض الآخر استخدام الماكياج والأزياء المسرحية الحديثة، ويجسد ذلك كله التاريخ والثقافة، والعادات والتقاليد الاجتماعية والاختلاف الفكري بين الناس في كافة أصقاع الصين.

(2) **خصائص فن تمثيل الأوبرا التقليدية:** ويتحلى هذا الفن بثلاث خصائص أساسية نذكرها في النقاط التالية:

أولاً: البيئة الزمانية والمكانية المختلفة: وتختلف هذه النقطة اختلافاً أساسياً عن قدوم المسرح الغربي. المسرح يعبر عن الحياة بصورة حقيقية، ولذلك، يجب أن يكون تمثيل الممثلين في إطار

بيئة زمانية ومكانية محددة، وبعبارة أخرى، يجب أن يكون هناك بيئة ثابتة، سواء كانت بيئة خارجية أو بيئة مغلقة. وتوجد الأزهار الحمراء والصفصاف الأخضر في الربيع، بينما توجد أوراق الأشجار المتساقطة والزغب المتطاير في الخريف، وتمثيل الشخصيات لا ينأى عن هذه الأحوال البيئية الحقيقية. ولكن الأوبرا الصينية التقليدية تختلف عن ذلك، حيث لا تعرف البيئة المحددة والثابتة، والزمان والمكان يتمتعان فيها بالحرية والمرونة، وتستخدم طريقة الاختلاف في التعبير بصورة كاملة. إن الاختلاق يقوم مقام الحقيقة، والمقصود بالاختلاق هو الخيال والرسم التعبيري. ونرى على خشبة المسرح طاولة وكرسيّن، ولا يعرف جمهور النظارة الزمان والمكان قبل صعود الممثلين خشبة المسرح. ولكن بعد أن يعتلي الممثلون خشبة المسرح ويقومون بـ«الغناء» أو «القراءة الجهرية»، ويقدمون إيضاحاً وتفسيراً، يبدأ يتحرك خيال الجمهور في داخلهم ويدخلون نطاق الزمان والمكان في المسرحية؛ ومثال ذلك، عندما تبدأ أوبرا «صياد سمك يقتل أسرة»، يصعد شياواين، وشياو قوي ينغ خشبة المسرح، ويغنيان كلمات قليلة توضح أن المكان هو «قاع النهر»، ونشاطهما هو «صيد السمك»، ثم يغادران خشبة المسرح، ونسمع جملتين من الحوارات المنطوقة توضح أن الزمان هو «الغسق»، وأحداث القصة تبدأ في هذا الزمان والمكان. وإذا أردنا تغيير الزمان والمكان، لا توجد ثمة حاجة إلى إسدال الستار على غرار المسرحية، بل الممثلون على خشبة المسرح يسيرون في الوسط، ويعتبر ذلك خلق بيئة جديدة. ومثال ذلك، أربعة جنرالات يرتدون ملابس الأوبرا المحبوكة الزاهية، وثمانية من الكومبارس يرفعون الرايات والأعلام عالياً، وقائد القوات يطرح أصلة على منكبيه، ويقف في وسط المسرح ويصدر صيحة «انطلاق الجنود والتقدم إلى الأمام» فيلتف حوله الضباط والجنود في شكل دائرة بمصاحبة موسيقى مقامات تشيوي، وعندما تتوقف الموسيقى، يصيح القائد مرة أخرى قائلاً: «الأفراد والخيول يُصفُون في أرتال»، ويعتبر ذلك نهاية الزحف الطويل لعشرة آلاف جندي، وينتقل الأفراد والخيول من الثكنة العسكرية إلى ساحة المعركة. لقد تحولت خشبة المسرح الصغيرة جداً. إلى ساحة فسيحة الأرجاء على حين غرة، ولا نجد مثل هذه فعالية الزمان والمكان إلا في الأوبرا التقليدية الصينية. ولا غرو حتى الكاتب المسرحي الألماني Bertot Brecht (1898 – 1956)، آثار ذلك إعجابه، وهو الذي يشجع «الفاصل الزمني والمكاني». وهناك أيضاً أوبرا مقاطعة

فوجيان «مقصورة زيارة القمر» الأكثر جمالاً وروعة؛ والتي تصف الأخ جيانغ شي لونغ وشقيقه الأصغر، والأم لان وابنها الذين نزحوا من ديارهم وتشتتوا جراء كارثة، ويبحث كل واحد من الأفراد الأربعة عن قريبه في عدة أمكنة مختلفة، وفي الوقت نفسه، يغنون تارة، وتارة أخرى يسيرون على خشبة المسرح في شكل « ∞ »، ويرى كل منهم الآخر ويتظاهر بعدم رؤيته، ويسمع كل منهم الآخر ولكن يتجاهله، ويفهم الجمهور مشاهد الأوبرا فهماً كاملاً. ويعتبر ذلك بالضبط توظيف خشبة المسرح للزمان والمكان بحرية لا حدود لها، ولا يمكن الاستغناء عن الاختلاق إطلاقاً، لأن ذلك يعد ضرباً من المستحيل. أما بخصوص تمثيل مشهد صعود بناية والهبوط منها، وفتح باب وإغلاقه على خشبة المسرح، فذلك يعتمد على حركات التمثيل المختلفة في إظهارها وتجسيدها. ولذلك، تعد طريقة الاختلاق هذه التي تتمتع بدرجة عالية من الإيجاز المحكم والرسم التعبيري أهم خصائص الأوبرا التقليدية الصينية.

ثانياً: أعراف التمثيل الصارمة: الفن الصيني عبارة عن الدمج بين الحقيقة والخيال، والخيال ينطوي على الحقيقة. ويعتمد الاختلاق في الأوبرا التقليدية على حقيقة الحياة المحددة، وتمثيل الاختلاق لا يمكن أن يفتقر إلى المعايير ويسير على هداه كما يحلو له، بل هذه المعايير تمثل أعراف التمثيل، وهي تعتبر الحياة النموذج الأصلي الذي يخضع للمعالجة الفنية، ويكّون هيكلاً شكلياً بصورة تدريجية. وهناك مسافة تفصل بين الحياة وهذا النموذج، ولكنها بعيدة أحياناً، وقريبة أحياناً أخرى، حقيقية تارة، وزائفة تارة أخرى. فعلى سبيل المثال، فتح الباب وغلقه، فعلى الرغم من إمكانية تأدية حركة الفتح والإغلاق، إلا أنه يجب غلق الباب في مكان ما وكذلك فتحه أيضاً. وعلى غرار ذلك يكون الصعود إلى بناية والهبوط منها، ففي حالة الصعود يجب الخطو بخطوات واسعة، وكذلك عند النزول منها أيضاً. ويعتبر ذلك في حد ذاته بمثابة صرامة وجدية أعراف التمثيل في الأوبرا التقليدية. وكذلك تنظيم قوات الجيش يكفي السير في وسط خشبة المسرح، ولكن هناك قواعد تحدد ذلك بصرامة، ولا يمكن ارتجالية المشي حتى لا تفقد الحقيقة مغزاها. وكذلك الفتاة التي تسلك الخيط في الإبرة وتسحب الخيط من ثقب الإبرة، فعلى الرغم من أنها لا تحتاج إلى الإبرة والخيط، ولكن يجب عليها أن تعبئ الإبرة، ثم تسحب الخيط، وإذا سحبت الخيط أولاً ثم عبأت الإبرة، فذلك

يجافي الحقيقة. وأوبرا «مفترق الطرق» وصفت بطلين يحاربان في دياجير الظلام، وأضواء المسرح التي تشبه بياض النهار كانت مختلفة، ولكن المشاعر التي جسدها الممثلون من التوتر والقلق وحركات الاستطلاع في خفة وسكون كانت حقيقية، وكل حركة وتصرف يعتبران طريقة وأسلوباً، وكلها أعراف التمثيل في بيئة الاختلاق. ومن أجل هذه الحقيقة، إذا أطفأنا أنوار المسرح، وتبقى فقط ظل شخصين يتحركان ويصرخان في الظلام، فهل ينطوي ذلك على مغزى ومتعة؟ ولذلك، أعراف الأوبرا التقليدية هي الصرامة والجدية، وهي أعراف الاختلاق أيضاً، وأنها تشبه قصيدة شعر كلاسيكية حيث الاختلاق هو أسلوب إبداع الإيحاء الفني، والأعراف هي قواعد نظم إبداع القافية وينصهر ذلك كله في بوتقة واحدة.

ثالثاً: المبالغة في التطوير الفني: تنطوي جميع الفنون على المبالغة، وطبعاً لا يستثنى من ذلك الأوبرا التقليدية. ولكن المبالغة في الأوبرا التقليدية تتجسد في التطور بصورة أساسية. وعلى سبيل المثال، نماذج وجوه مسرحية تعد نوعاً من المبالغة والإفراط في التصور بدرجة عالية، فالوجه الأحمر يرمز إلى الإخلاص والتسامح والحلم، والوجه الأسمر يرمز إلى الاستقامة والنزاهة والصرامة، ويرمز الوجه البنفسجي إلى الرزانة والثبات والعدالة، والوجه الأصفر يرمز إلى التأمل والتفكير الداخلي، ويرمز الوجه الأزرق إلى الغطرسة والقسوة، ويرمز الوجه الأخضر إلى الشجاعة والبسالة والغضب السريع، والوجه الأبيض يرمز إلى الخيانة والاحتيال والارتياب، ويستخدم ممثلو الظرف والفكاهة وجوه المهرج الهزلي. ولكن مثل هذه المبالغة لا يمكن أن تكون عشوائية وارتجالية، بل تتحلى بالقواعد الصارمة المحددة، ويجب على كل شخصية تحديد معالمها الرئيسية في ضوء نماذج وجوه مسرحية. فعلى سبيل المثال، شعر العارضين (اللحية المسعارة) ينقسم إلى ثلاثة أنواع هي: لحية من ثلاث خصلات شعر، لحية كثيفة وطويلة، شارب يتدلى على الفم ولا يخفيه، ويبلغ طول بعضها حوالي ذراع صيني (يساوي ثلث متر)، وهل يوجد في الحياة الواقعية مثل هذه اللحية؟ وتقلّد اللحية المستعارة ليس فقط من أجل إظهار عمر الشخصية، بل من الأحرى من أجل فن التمثيل، ومثال ذلك ممثل أدوار الرجال في الأوبرا «يمسد لحيته» و«يطرح شعر العارضين خلف ظهره»، وممثل الوجه المصطلي في الأوبرا «يبعثر شعر لحيته»، ويظهر ذلك المشاعر والعواطف. أما المبالغة في الخيال فقد كانت جلية وواضحة. فالضحك فوق خشبة المسرح ليس مثل الضحكات

والقهقهات في الحياة، والبكاء على خشبة المسرح ليس مثل بكاء الانتحاب والعويل في الحياة. وبالمثل في أوبرا «سيرة ثعبان أبيض»، شياو تشينغ لم يفصل– في الواقع– شيوه شيان من العمل، والخادمة في الحياة لا داعي أيضاً أن تقفز وتثب فوق خشبة المسرح على هذا النحو.

المبحث الرابع

فن الرسم

يعتبر الرسم الصيني من جواهر الثقافة الصينية، وحظيت منجزات فن الرسم وأسلوبه القومي بالإشادة والشهرة من جانب شعوب العالم منذ القدم. ويختلف الرسم الصيني- من حيث الخصائص الفنية- عن الرسم الغربي بصورة أساسية. فالرسم الغربي يهتم بـ«التشابه في الشكل والمظهر»، ويركز على اقتباس الرسم من الحياة (أو من الطبيعة). أما الرسم الصيني فيهتم بـ«التشابه الكامل» ويركز على الرسم التعبيري. ورسم شخصية يحتاج إلى بذل جهود متعبة لإظهار ملامحها وخلقها الشخصي، ورسم الجبال والأنهار، والأزهار والطيور، والنباتات تحتاج أيضاً إلى جهود مضنية لإظهار صفات شكلها والافتتان بها، ومن ثم فالرسم الصيني في تشكيل الصورة يهتم بـ«المغزى والمفهوم» اهتماماً خاصاً، ويعني ذلك توكيد الإيحاء الفني الذي يظهره الرسام، وهذا الإيحاء هو في حد ذاته الطباع والخلق التي يبحث عنهما الرسام. وفي جانب استخدام الألوان، معظم الرسوم الغربية تعتمد على منبع ضوئي محدد، وتعبر عن نكهة التغيير في الأشياء الموضوعية، ونسبة النور والظلال قوية نسبياً، والوصف الحسي بارز إلى حد ما، أما استخدام الألوان في الرسم الصيني فيركز بصورة أساسية على تجسيد الصفات المميزة للأشياء، وليس محاكاة المنبع الضوئي في الطبيعة، وفي الوقت نفسه تعزيز نكهة الجو العاطفي في العمل الفني، والسعي وراء تحقيق الفعالية الزخرفية المحددة؛ ولذا يستخدم ألوانا زاهية جداً، ويشكل ما يطلق عليه الألوان المكررة في قونغ بي (طريقة للرسم الصيني التقليدي). وأسلوب الرسم الصيني يهتم بوصف التناسب والأبعاد في الموضوع اهتماماً كبيراً، ويمنح المرء الشعور الحقيقي من بعيد أو قريب، ولكن الرسم الصيني يهتم فقط باستخدام الخطوط، ويجسد تناغم الألوان الثرية في الرسم، من خلال استخدام خطوط تتحلى بالتباعد والتكاثف، والتنوع والإيجاز، والاعوجاج والاستقامة، والمرونة والصلابة، مما يؤدي إلى تحقيق نوع من التأثير الفني الفعال. وفيما يتعلق بالرسم الصيني في هذا المضمار نتناوله في نقطتين هما:

أولاً: تاريخ تطور الرسم الصيني

كانت بداية الرسم الصيني انطلاقاً من أنشطة البشرية البدائية في مجال مقياس الجمال في الكائنات والمخلوقات في الطبيعة. وفي العصر الحجري الحديث الذي يرجع تاريخه إلى ستة أو سبعة آلاف سنة خلت، استخدم الأولون في العصور السحيقة اللون الأحمر والأسود والأبيض وغيرها من الأصباغ في الأواني الفخارية عند رسم سمكة وغزال وجميع التصميمات الزخرفية، وأظهروا الوعي القوي بمقاييس الجمال. ويجب أن نذكر أن ذلك يعتبر أقدم رسم في العصر البدائي. وفي عام 1982، عُثر على فخار في أطلال قرية يان بمدينة دوتشو في مقاطعة خنان، ويحوي هذا الفخار صورة تنتمي إلى العصر الحجري الحديث وتتمتع بتاريخ خمسة أو ستة آلاف سنة، ويبلغ ارتفاعها سبعة وثلاثين سنتميتراً، وعرضها أربعة وأربعين سنتميتراً، ومضمون الرسم عبارة عن طائر اللقلاق يقبض على سمكة في فمه، وفأس حجري له مقبض خشبي، مما يبرز للعيان بعض مشاهد الحياة آنذاك، ويعد هذا الرسم الموجود حالياً أهم رسم بدائي إلى الآن. وفي عصر أسرتي شانغ وتشو، انتشرت القرابين، وغصت القصور والمعابد والأديرة رسوم الملوك الأسطوريين ياو، يوي، شوان، ناهيك عن رسوم السماء والأرض، والجبال والأنهار، والآلهات. ولذلك ذكر وانغ يي في كتابه «الأسلوب الإنشائي التقليدي في ديوان شعر مملكة تشو» أن: «مملكة تشي شهدت معابد الملوك الأولين، ومعابد الوزراء وكبار الموظفين، ورسوم السماء والأرض، والجبال والأنهار والآلهات، فضلاً عن رسوم القديسين والفضلاء الأقدمين والأشياء العجيبة والغريبة». وقد قيل إن الشاعر تشيوي يوان أبدع قصيدته «تيان ون» بعد أن تجول بنظره في هذه الرسوم الجدارية. وتبين هذه المعلومات، إن الرسم قد نضج وأصبح فناً مستقلا بذاته قبل عصر أسرة تشين. ولكن في المراحل التاريخية الطويلة جداً، لم ير الناس العينات الحقيقية للرسوم في ذلك الحين، حتى عام 1949، ومايو 1973، حيث عُثر تباعاً في مقابر مملكة تشو في مدينة تشانغشا في مقاطعة خونان –عُثر على رسمين من الحرير، الأول رسم لفتاة شعرها متهدل، وتلبس حزاماً، وتسير على جنبها إلى الأمام، وتبدو يداها في شكل تأدية الصلاة، وتحمل فوق رأسها تنيناً وعنقاء ويقودان إلى أرواح الموتى، أما الرسم الآخر عبارة عن شاب يرتدي سروالاً طويلاً، ويرتدي قبعة عالية، ويقبض على تنين ضخم، وجسد الرسمان الرسم التخطيطي

الموجز المحكم، وينبضان بالحياة، ويبرزان أساس الرسم التقليدي الصيني.

واصل الرسم في عصر تشين السير على درب ما قبل أسرة تشين، ولكنه ترك عدداً قليلاً جداً من الأعمال. ومنذ عام 1976، وفي أطلال قصر تشين في مدينة شيان يانغ بمقاطعة شنشى عُثر على جزء من الرسوم الجدارية في هذا القصر، وعلى الرغم من أسلوب رسمها غير دقيق نسبياً، لكن رسوم الشخصيات جاءت صغيرة من بعيد وكبيرة عن كثب، وتتشابه شكلاً ومظهراً، ونابضة بالحياة أيضاً، واستخدم رسم الشخصيات والعربات والقصور والبنايات الخطوط الكبرى، وجسد مستوى فنياً محددا. ومنذ استخدام الألوان البراقة في التماثيل الحربية الجنائزية في أسرة تشين، يجب أن يحوي قصر الإمبراطور الأول لهذه الأسرة أعمالاً من الرسوم الجدارية ذات الألوان الزاهية والمضمون الحيوي. وشهد فن الرسم تطوراً هائلاً في عصر هان الذي استمر أربعمائة سنة ونيف. وأصبح الرسم –بفضل المكانة المرموقة للمذهب الكونفوشيوسي –وسيلة للحكم السياسي والتثقيف الإقطاعي، واستخدم الرسم، الذي يتمحور على الشخصيات، أشكال الرسوم الجدارية في الغالب، التي انتشرت داخل قصور الأباطرة والملوك والأرستقراطيين، وفي الدواوين الحكومية والمعابد والأديرة، وفي البيوت والمقابر أيضاً، بالإضافة إلى نحت عدد كبير من هذه الرسوم على الجدران الحجرية في جميع البنايات، ويشمل مضمونها القصص التاريخية، ومعالم الحياة، والآلهات والشياطين والأساطير والحكايات. ومقابر أسرة هان التي تم اكتشافها تباعاً منذ تحرير الصين، أظهرت أسلوب فن الرسم إذ ذاك. وأقدم الرسوم الجدارية في عصر هان الموجودة حالياً كان الرسم الجداري داخل قبر بوتشيان تشيو الذي عُثر عليه في مدينة لوايانغ عام 1976، ويظهر مضمونه مشهد صعود صاحب القبر إلى السماء بعد وفاته وأصبح ملاكاً، وأسلوب الرسم استخدم الخطوط الكبرى في تجسيد المضمون والأشياء، والمبالغة في الرسم غيرت الشكل، والألوان الزاهية والبراقة تسطع في الرسم، وعكست الاندماج بين القوة والحركة. وإذا أضفنا إلى ذلك، الرسم على الحرير في أسرة هان الغربية الذي اكتشف في قبر هان ماوانغ دوي في مدينة تشانغشا عام 1972، والرسوم الجدارية في مقابر هان الشرقية التي اكتشفت في لياو نينغ ومنغوليا الداخلية، يكون لدينا فهم أساسي للرسم في عصر هان. ورسامو عصر هان المشهورين في العصور اللاحقة بلغ عددهم عشرة فقط، كان أشهرهم رسام القصر ماو تينغ

تشو الذي رسم صورة الوصيفة وانغ جاو جون.

وفي أسرتي وي وجي وفي مرحلة الأسر الجنوبية والشمالية، حظي الرسم الديني المرتبة الأولى (وخاصة الرسم الذي يجسد مضمون الديانة البوذية بصورة أساسية). وفي الوقت نفسه، انتشر الهراء والخرافات جراء القلاقل الاجتماعية، مما جعل الأدباء وكبار الموظفين تميل أحوالهم النفسية إلى حياة العزلة، وحاولوا البحث عن التوازن النفسي والانسجام الداخلي في المناظر الطبيعية، وتشكل رسم الجبال والأنهار، وتطور، وظهرت نظرية رسم المناظر الطبيعية أيضاً. وتطور الفن البوذي تطوراً سريعاً في هذه المرحلة، وأثر تأثيراً هائلاً في انتشار الرسم الديني. وفي عصر الممالك الثلاث، كان تساو بو شينغ أول رسام كفوء في البوذية. ويحكي عندما كان يرسم بارافان (حاجز) لصوان تشوان، سقطت منه نقطة حبر عن طريق الخطأ وأصبحت في شكل بعوضة، مما جعل صون يعتقد عن طريق الخطأ أيضاً أنها بعوضة حقيقية وراح يلمسها بيده. وكان قوكاى جي (345 تقريباً– 406 م) رساماً عظيماً للشخصيات في أسرة جين الشرقية وكان يتمتع بالمهارة الفائقة في الرسم، وأُطلق عليه «صاحب المهارات الثلاث الفائقة» لأنه يتحلى بالموهبة الفنية الفياضة، والكفاءة العالية في الرسم، وتصرفاته تنم عن الولع والشغف بالرسم، وخطوطه في الرسم تشبه دودة القز تنفث الحرير، ومفعمة بالقوة التعبيرية ومشاعر الانسجام، وكان يسعى وراء التأثير «النابض بالحياة» بوعي شديد، ويولي اهتماماً شديداً لرسم ملامح الشخصيات، ولخص نظرية الرسم في وصف الملامح والتي أثرت تأثيراً كبيراً في فن الرسم عبر العصور. وفي الوقت الحاضر، يستطيع الناس مشاهدة أعماله مثل: «ألبوم رسم مسؤولة التاريخ»، و«ألبوم رسم مقامة لواشين». والرسام الأخير العظيم هوتشانغ زينغ باو، وأشارت إليه الأسطورة الصينية في القرن السادس حيث «رسم عيني التنين بعث التنين حيا»، وكان حاذقاً في اقتباس الجديد في أساليب الرسم، وابتدع طريقة استخدام الألوان فقط، وليس رسم الأساس أو الجزء الأهم، واستخدم ظلال الألوان في زيادة فعالية الرسم المجسم. وقد قيل إنه رسم معبداً في مدينة نانكين في مقاطعة جيا نغصو على غرار الرسم الصيني التقليدي للزهور والنباتات، وتجعلك تشعر أن الرسم المجسم غير مستوٍ نظراً لتدرج الألوان، ولذا أُطلق على المعبد «معبد غير مستوٍ»، كما أطلق على رسم المعبد «أزهار غير مستوية». وبالإضافة إلى ذلك، هناك أيضاً الرسام لوتاي وي الذي

يعتني كثيراً بقواعد خطوط الرسم في شخصياته؛ حيث تشبه هذه الخطوط السكين الحاد، وقد أُطلق على هؤلاء الرسامين الثلاثة الاسم الجامع «الرسامون الثلاثة البارزون في الأسر الإمبراطورية الست».

والرسم في أسرتي سوي وتانغ، الذي أحرز منجزات رائعة، كان بمثابة التعبير عن رسم الازدهار الثقافي في ذاك العصر. وأظهرت مهارات وأشكال الرسم من شتى الأنواع تطور فن الرسم بدرجة كبيرة في هذه المرحلة. وكان جان تسي تشيان من مشاهير الرسامين في عصر سوى، ومن أعماله الموجودة حالياً: «رسم رحلة في الربيع» حيث استخدم اللون الأخضر القاتم بإفراط في رسم الربيع وإظهار منظر الضباب الشاسع في الطبيعة وحل هذا الرسم مشكلة الفراغ والمسافات في رسم الطبيعة في الرسم الصيني التقليدي، وجعل رسم الطبيعة ينتقل من مرحلة النشأة حيث «مياه الأنهار ضحلة ولا تفيض، والإنسان أكبر من الجبل» إلى مرحلة النضج من الانسجام الطبيعي. وشهد فن الرسم ازدهاراً فريداً في أسرة تانغ، وظهر العديد من الرسامين الكبار، واتجه الرسم الديني إلى العلمانية أكثر فأكثر، وعكست القصص الدينية الحياة الواقعية، ونشأ رسم الخادمات في إطار رسم الشخصيات. وأحرز الرسامون الثلاثة: «يان لي بين، يان بي، يان لي دا» شهرة كبيرة في أوائل أسرة تانغ، ومن بينهم يان لي بين صاحب أعظم المنجزات، وتوارثت الأجيال أعماله حتى وقتنا الحاضر مثل: «ألبوم رسم الأباطرة عبر العصور»، و«رسم العربة الإمبراطورية»، ناهيك عن سبعة أو ثمانية أعمال أخرى. و«ألبوم رسم الأباطرة عبر العصور» يرسم ثلاثة عشر إمبراطوراً من أسرة هان إلى أسرة سوي، وخصائص الشخصيات كشفت معالمها وملامحها، و«رسم العربة الإمبراطورية» سجل الحدث التاريخي من زواج ابن الأمير الإقطاعي ون تشينغ وملكة التبت سونغ زانغ قانبو، ويصف الرسم الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ يستقبل مبعوث التبت. وكان وو داوتسي (685 تقريباً– 758م) أشهر رسام في أواسط أسرة تانغ، ويُعرف في التاريخ بلقب «قديس الرسم»، ونذر حياته لإبداع الرسوم الجدارية، وخلف وراءه العديد من الأعمال التي استحوذت على إعجاب الآخرين، ورسومه مختلفة ولا يوجد رسم يماثل رسم آخر، وقدم إسهامات في المجال الفني من تطوير «رسم الخطوط الكبرى»، وابتدع نموذج خطوط الرسم «على ورق أزهار السحلب»، وأثرى قوة تعبير الخطوط الكبرى في الرسم الصيني.

وتحكي رواية أنه بعد أن انتهى من «رسم شكل جهنم» غيَّر الجزارون وظيفتهم في العاصمة وآثار أعماله الحقيقية لم تتناقلها الأجيال، وقام رجل من أسرة سونغ بمحاكاة عمله الأصلي «رسم إمبراطور السماء يهديك ابنا»، ومن بعده ظهر الرسامان تشانغ شوان وتشوفانغ اللذين يتمتعان بمهارة في رسم حياة الأرستقراطيين، وأهم أعمال الأول تشمل «رسم رحلة ملكة مملكة قوي في الربيع» (قام الإمبراطور هوي زونغ في أسرة سونغ بمحاكاتها)، وتجلت أعمال الثاني النموذجية في «رسم خادمة زينت شعرها بالزهور»، وبفضل تأثيرها تشكل قسم رسم الخادمات بصورة مستقلة. وكان لي سي ون، ولي داو جاو، والشاعر وانغ وي من أهم رسامي الطبيعة في عصر تانغ. وكان لي سي، ولي داو يميلان إلى استخدام الألوان البراقة والزاهية، وابتدعا طريقة استخدام مجموعة من الألوان الخضراء القاتمة، وقدما رسماً يبهر الأبصار، أُطلق عليه «الطبيعة المرصعة بالذهب» أما الشاعر وانغ دي فقد شق طريقاً لنفسه، رسم الطبيعة من منظور التعبير عن العواطف والمشاعر، وجسد الإيحاء الفني للشعر من الهدوء والطمأنينة في رسومه، ولم يستخدم الألوان، بل استخدم الأحبار الكثيفة في إظهار السحر الرومنطيقي في الطبيعة، وأُطلق على ذلك «رسم الطبيعة بالأحبار»، وبالإضافة إلى ذلك، عرفت أسرة تانغ رسامي الخيول مثل: تساوبا، وهان قان، ورسام البقرة هان قوانغ. وفي الأسر الخمس، كان الناس يسعون سعيا حثيثا وراء حياة الفن بسبب الاستقرار والثراء النسبي في مقاطعة سيتشوان وجنوب حوض تشانغجيانغ، ولذلك أنشأ القصر الإمبراطوري معهد الرسم وحشد فيه الرسامين للاضطلاع بالإبداع في فن الرسم. وتطور رسم الطيور والأزهار من زخارف الفن اليدوي في مرحلته الأولية وأصبح قسما مستقلاً، ويمثل ذلك مرحلة نضج رسم الأزهار والطيور في هذه الأسر. ومن أهم الرسامين في مقاطعة سيتشوان: هوانغ تشوان، هوانغ جيوي تساي، وكانا يستخدمان في رسومهما ملء الخطوط الكبرى بالألوان، ومن ثم، أطلق على ذلك «طريقة الخطوط الكبرى»، كما أُطلق على أسلوب هذا الرسم «أسلوب هوانغ» الذي تطور وأصبح الرسم الحقيقي التقليدي الصيني الذي يهتم بالتفاصيل في الأجيال اللاحقة. وكان شيوي شي أهم رسام في جنوب حوض تشانغجيانغ، ورسمه للطيور والأزهار يضيف التفاصيل إلى الرسم مباشرة دون الحاجة إلى الخطوط الكبرى باستخدام ريشة الأحبار، وأُطلق على ذلك «رسم يخلو من الجزء الأساسي أو الأهم»،

وعُرف أسلوبه في الرسم بـ«أسلوب شيوي» الذي تطور وأصبح الرسم التعبيري في العصور اللاحقة، ورسم الطبيعة آنذاك، كان يستخدم النموذج الأصلي للجبال والأنهار الحقيقية في الطبيعة، وبذل جهوداً مضنية في إبراز الطبيعة وجاذبيتها ومحاسنها، وفي الوقت نفسه، عبَّر الرسم عن أفكار ومشاعر الرسام. وكان جينغ هاو، وقانغ تونغ، ودونغ يوان، وفان كوانغ من الرسامين المشهورين وقتئذ.

واصل الرسم التطور في عصر سونغ. ونظراً لأن الأباطرة وكبار الموظفين المحليين ينعمون بالتربية الثقافية ويتطلعون إلى الفن الأكثر رقياً، ومن ثم دخل فن الرسم عالما جديداً، وفي الوقت نفسه، نهوض طبقة أهل الحضر وتطور الاقتصاد التجاري، أفسحا مجالاً جديداً لفن الرسم. وأسس البلاط الإمبراطوري داخل القصر الأكاديمية الإمبراطورية للرسم، وجذب الرسامين عن طريق الامتحان الإمبراطوري، وأنشأ «أسلوب رسم الأكاديمية الإمبراطورية» الذي يتحلى بالحيوية والدقة ويعتني بالمستوى الأخلاقي، وقدم أعمالاً جلبت متعة كبيرة للأباطرة، وتناول معظم موضوعاتها الطبيعة والأزهار والطيور. وكان تشاو جيه إمبراطوراً في أسرة سونغ، وكان حاذقاً في الرسم، وبرزت موهبته في رسم الأزهار والطيور، وكان أسلوبه دقيقاً وجميلاً وجذاباً ورفيعاً، ويعتبر من رواد أسلوب رسم الأكاديمية الإمبراطورية، ومن آثاره التي تناقلتها الأجيال «رسم اللوتس والديك البري». هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ظهرت رسوم كثيرة تجسد أسلوب الحياة الاجتماعية، و«رسم أحداث عيد الصفاء والنقاء في شانغجه» المشهور في أنحاء الصين كان من إبداع الرسام تشانغ تسه دوان في عصر سونغ. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك رسوم جسدت العادات الاجتماعية في عصر سونغ وتوارثتها الأجيال إلى الآن مثل: «رسم أطباء القرية» للرسام لي تانغ، و«رسم سفينة سيتشوان تعبر المضايق الثلاثة» للرسام لي سونغ، و«رسم زراعة الأرض والغزل»، و«رسم العودة من المرعى» لرسام غير معروف. وكان لي تونغ لين رساماً عظيماً في عصر سونغ، أجاد باقتدار رسم الشخصيات الذي يميز بين معالمها وخصالها وأعمارها. وأعماله الموجودة حالياً تشمل: «رسم خمسة خيول»، و«تمثال البوذي وي ماو»، و«رسم جندي يخلع خوذته للتحية». واشتهر الرسامون ميغو، مييوي، تشاو باوجو، لي تانغ، ليو سونغ نيان، رمايوان، وشياقوي برسم المناظر الطبيعية والأزهار والطيور كثيراً. وأطلق على «لي، ليو، ما، شيا»

لقب «الرسامون الأربعة الكبار في الأكاديمية الإمبراطورية للرسم في أسرة سونغ الجنوبية»، ومن بينهم الرسامان ما، وشيا، وأسس «ما» أسلوب الرسم من «الرسم بالحبر ينبض بالقوة»، أما نظيره شيا فكان يركز رسمه في أحد نصفي الصفحة، وأطلق عليهما «ما في الركن، وشيا في المنتصف». أما بخصوص رسم الأزهار والطيور، فقد شهد عصر سونغ ازدهار رسم زهرة المايهوا، والبامبو، وزهرة السحلب، والأقحوان، وأطلق على ذلك «رسم النبلاء الأربعة»، واستعار هذا الرسم الأشياء للتعبير عن العواطف والمشاعر، وإظهار التناغم والذوق الرفيع لدى الأدباء، ويمثل هذا الاتجاه الرسامون البارزون: ون تونغ، صوشي، جينغ سي شياو، ويانغ وو جيو، وكان الرسم في عصر يوان يهتم بتجسيد المشاعر الحماسية لدى الفنانين بشكل أكبر، وإبراز لون المشاعر والأحاسيس والفكر الشخصي، ولذا اهتم رسم الطبيعة والأزهار والطيور بالرسم التعبيري الذي يستخدم الحبر، وانتشر على نطاق واسع «رسم النبلاء الأربعة». ويكتب الأدباء دائماً قصيدة على الرسم من أجل التعبير عن طباع ومشارب الرسامين، ويلمحون إلى مغزى الرسم باستخدام النثر الشعري والخط والرسم، ويبرز كل منها جمال الآخر؛ وشكّل ذلك الطابع الخاص والفريد لرسم الأدباء، وما زالت هذه الخاصية تضطلع بدورها إلى الآن. و«الرسامون الأربعة الكبار» في عصر يوان هم: «ني زانغ، هوانغ نونغ وانغ، وانغ مينغ، وو تشين.

وبعد منتصف عصر مينغ، ازدهر الرسم بسبب انتعاش الدراسات الأكاديمية في هذه المرحلة إلى حد ما، والإبداع الفريد والمتميز لكل رسام دفع تطور رسم الأزهار والطيور إلى الأمام. والرسامون الذين انحدروا من منطقة صويتشو هم: ون جينغ مينغ، شين تشو، تشو ينغ، تانغ بينغ، وكانوا يجيدون استخدام الحبر في الرسم التعبيري وأُطلق عليهم «الرسامون الأربعة الكبار في مذهب وو»، وسار على دربهم الرسامان دونغ تشي تشانغ، ولو جي رو، ثم انقسما إلى مذهبين فرعيين هما: «مذهب هواتينغ»، و«مذهب صو صونغ». بالإضافة إلى ذلك، كان الرسام داي جينغ يمثل «مذهب تشه»، ونظيره وو وي يمثل «مذهب جيانغشيا». ولكن يجب أن نذكر الرسام الكبير الذي يستخدم الرسم التعبيري في رسم الأزهار والطيور في عصر مينغ ويدعى شيوي وي الذي يرسم بقلمه ويحركه طولاً وعرضاً في حرية كما يحلو له دون التقيد بثمة قواعد، وأبرز للعيان بصورة حقيقية لون قلم الرسام في الرسم الصيني

التقليدي، ولذا أُطلق عليه رسام «الرسم التعبيري العظيم»، وحتى كان يستخدم طريقة رش الخطوط الكبرى بالحبر عند رسم عود الصليب، إنه إبداع جريء حقاً. وكان تشين هونغ شو من الرسامين العظام في أواخر عصر مينغ، وكان حاذقاً في رسم الشخصيات، والمبالغة في تصويرها يغير ملامحها، ويُجمل معالمها بدرجة كبيرة من أجل إظهار الطابع الشخصي لكل شخصية. والرسم في عصر تشينغ تعرض لقيود سياسة القمع الشديدة من جانب الحكام، مما شكل أسلوب العودة إلى القديم. كما كان هناك ثُلة من الأفراد ابتعدوا عن الحقيقة، وانتهجوا المقاومة السلبية، مما أدى إلى ظهور نوع من الأسلوب الغريب والعجيب. وأُطلق على مؤيدي القديم «الرسامون الستة في أوائل أسرة تشينغ» ويمثلهم كل من: وانغ شي مين، وانغجيان، وانغ هوي، وانغ يوان تشي، وو لي، يون قه، أما أصحاب الأسلوب الغريب كان يمثلهم شي تاو، بادا شانرين اللذين استخدما أسلوب المبالغة والتصوير الغريب، وعبّرا عن مكونات النفس من الغيظ الكظيم من خلال المناظر الطبيعية والأزهار والطيور، وورث فكرهما «الغرباء الثمانية في هانتشو» (لي شان، جين نونغ، لوا بينغ، جينغ شيا، مين تشين، وانغ شي شينغ، قاو شيانغ، هوانغ شين، وأحياناً يذكر لي فانغ بينغ ولا يذكر اسم مين تشين) الذين عارضوا ما يُطلق عليه شرعية العودة إلى القديم، أيدوا التجديد في الفن، والتعبير عن الطابع الشخصي، وتشكيل الرسم يجب أن يكون محكما وبليغا، ورسم الملامح البارزة، والرسم الغريب النادر، والأسلوب القوي المتين، وتكوين ملامح فنية فريدة ومميزة، لذا أُعتبر أسلوبهم «غريباً». ولكن يعد ذلك بالضبط الفكر الذي اخترق التقاليد، حتى تمكن من دفع الفن إلى الأمام. وفي أواخر عصر تشينغ، شهدت مقاطعة تشجيانغ وشانغهاي ظهور العديد من الرسامين المشهورين الذين أظهروا الازدهار الثقافي في جنوب حوض تشانغجيانغ؛ كان من أشهرهم: رين جياو، رين شون، رين يي، رين يوي، وو تشانغ شوا. وكان وو تشانغ شوا، ورين يي أبرز الرسامين في هذه المرحلة. وقدم رين يي رسوم رائعة للطبيعة والشخصيات والأزهار والطيور. أما وو تشانغ فقد حقق الاندماج بين الخط والرسم وحفر الأختام المعدنية والحجرية، وأصبح الفنان البارز في هذا المجال. وبعد الحركة الثقافية الجديدة في 4 مايو 1919، بدأ الرسم الغربي ينتشر في الصين، وأثر الرسم الصيني والرسم الغربي كلٌ منهما في الآخر، ودخل الرسم الصيني مرحلة جديدة. وفي هذه الفترة، ورث تشي باي شي السلف

ومهد للخلف، ودمج الرسام شيوه بيه هونغ الرسم الصيني والغربي في بوتقة واحدة. واتسم كلٌ من: تشين هينغ قه، وهوانغ بينغ بطابعه الخاص المميز، وتركا أثراً في أوساط الرسم حتى وقتنا الحاضر.

ثانياً: عدة مسائل تتعلق بنظرية الرسم الصيني

نظرية الرسم الصيني نضجت تدريجياً مع تطور الرسم في الصين، وهي إجمال لنظرية الممارسة العملية للرسم، وهي وصف واكتشاف القوة الكامنة في سيكولوجية الجمال، ومن ثم فهي أفكار تقليدية معينة في نظرية الرسم الصيني تقدم مساعدة كبيرة جداً. في الاستمتاع بقوة السحر الكامنة في الرسم الصيني. ونقول بصفة عامة، إن نظرية الرسم كانت بسيطة وموجزة فيما قبل أسرة تشين وفي مرحلة أسرتي هان، وتبلورت معالمها في أسرتي وي وجين وفي الأسر الشمالية والجنوبية، وشكلت منهجاً في أسرتي وي وتانغ وفي الأسر الخمس، وتعمقت بشكل أكبر في عصر سونغ، وتطورت بعد أسرة يوان. والنقاط الأساسية في هذا الخصوص تشمل الآتي:

(1) الشكل والتعبير الفني: يهتم الرسم الصيني بالمفهوم الفني والتشابه الكامل، كما يحرص على إظهار ملامح الأشياء، والتعبير عن الافتتان والولع لدى الفنانين، أما شكل الأشياء وتكوينها فيأتيان في المرتبة الثانية. ولكن لا يمكن أن نفهم ذلك بأنه عدم الاكتراث بالتشابه مظهراً أو شكلاً، لأن الافتقار إلى الشكل المحدد يجعل الملامح في وضع لا يمكن إظهارها. ومن ثم، يحرص الفن دائماً على «الجمع بين الشكل والتعبير الفني». وما يطلق عليه هنا «التشابه الكامل» يشير إلى الفكر الأساسي في الإبداع الفني، وإلى الرغبة الأساسية في الاستمتاع بالفن. وهذه الفكرة موغلة في القدم، يمكن أن تعود إلى تاريخ «نظرية التعبير النابض بالحياة» التي طرحها الرسام قو كاي جي. ولكن أويانغ شيوي، وشين كوا، وصوشي عمقوا هذه الفكرة وشجعوها. وكان أويانغ أول من طرح أن «الرسم القديم يهتم بالمفهوم الفني وليس الشكل»، وأعتقد أن التعبير عن إيحاء فني مفاده «الوحشة وعدم السعي وراء الشهرة والجاه» أكثر صعوبة من رسم «الطيران السريع» لجميع أنواع الطيور. وأبدى شين كوا إعجاباً شديداً بفكرة أويانغ شيوي ووصفه بأنه «يعي الرسم حقاً»، وقال إن: «مهارة

الرسم تكمن في القدرة على التعبير، ومن الصعب أن يكون الشكل معيار الكفاءة الفنية. والمتفرجون على الرسم يتأمل معظمهم التصوير في الرسم وعيوب الألوان، ومن النادر أن تجد من يعي تقييم فن الرسم بصورة عميقة». ويعد ذلك بمنزلة حجة أظهرت قيمة الرسم وسحره الرومنطيقي انطلاقاً من منظور الاستمتاع الفني. واعتقد الشاعر صو شي أن: «الرأي القائل بأن نظرية الرسم تستخدم التشابه من حيث المظهر والشكل، يشبه رأي الأطفال»، وأردف قائلاً: «انظر إلى رسم المثقفين تجده مثل حصان ينزل من السماء تخضع ملامحه للتقييم»، ولا يزال التأكيد هنا على التشابه الكامل، وحجة تقييم رسم ما تشبه فحص حصان لتقييمه، وبعبارة أخرى، إن تقييم حصان إذا كان جيداً أم رديئاً، يتطلب فحص ملامح الحصان من الإرادة والروح والمعنويات، وبالمثل تقييم رسم ما إذا كان جيداً أم لا، يتطلب فحص سحره الرومنطيقي والافتتان به. وتتشابه أفكار الشاعر تشين يو يي مع نظيره صو شي، ويقول في قصيدته «رسم زهرة المايهوا» إن: «التعبير الفني لا يتطلب تشابه الألوان، وقام جميوفانغ قاو بفحص حصان لتقييمه من قبل». ومادام يمكن التعبير عن روح وإدارة زهرة المايهوا، فإن تشابه الألوان أو عدم تشابهها ليس مهماً. وأثرت هذه الأفكار تأثيراً هائلاً في نظرية الرسم والفن في العصور اللاحقة، مثل الرسام ني زانغ في عصر يوان كان يشجع في الرسم «اللمسات الفنية الجميلة الجذابة، ولا يطلب التشابه شكلاً ومظهراً». كما كان الرسام شيوه وي في عصر مينغ يدعو إلى «البحث عن السحر الرومنطيقي، وليس التشابه شكلًا ومظهراً»، وأبدع أسلوب رسم «الرسم التعبيري العظيم». وقدم الرسام شي تاو تفسيراً لهذه النظرية بعد عصر تشينغ حقق لها تطوراً جديداً، وذكر أن: «الجبل المشهور يمكن زيارته، ولكن ربما لا يمكن رسمه، ومن الغريب حقاً أن الرسم يجب أن يشبه الجبل. إن تماثل اللامتشابه يحظى بالإعجاب». وما ذكره من «تماثل اللامتشابه» هو المنزلة الفنية التي يسعى الفنان إلى التعبير عنها. وورث هذه الفكرة وتطورها الرسام تشي باي شي، وذكر أن قيمة الرسم تتأرجح بين التشابه وعدم التشابه، ويمكن أن نقول إنه وضح المعنى الحقيقي للرسم بجلاء.

(2) **الجاذبية الشعرية والإيحاء الفني:** كان الشاعر صو شي أول من اقترح هذه الفكرة باعتبارها معياراً لدراسة الرسم، ثم أصبحت نكهة التقاليد في الفن القومي في الأجيال المتعاقبة. والجاذبية الشعرية والإيحاء الفني هما جاذبية الحياة التي يجسدها الفنانون، والتأثر

الروحي الذي يربطهم ويدمجهم في الطبيعة. ويعتبر الشعر –بصفته جنساً أدبياً– والرسم، باعتباره فناً، يمثلان أساس هذا التأثر الذي يبرزه الفنانون للعيان. لذلك، يمكن صهر الشعر والرسم في بوتقة واحدة في الصين، والاندماج المشترك بينهما في المرحلة المبكرة كان عبارة عن أن الرسم اقتبس موضوعاته من الأعمال الأدبية مثل «رسم مقامة لواشين» للرسام قو كاي جي، كان على غرار العمل الأدبي «مقامة لواشين» للأديب تساو جي. واستمر هذا الحال حتى عصر تانغ، حيث نظم الشعراء قصائد من أجل الرسم، واستخدم الرسامون الشعر في الرسم، ولا جديد في هذه الأحوال، مثل اقتباس البعض في رسمه ما جاء في شعر لي يه من أن: «الرمال أمام جبل هوي ليه تشبه الثلج الأبيض، وضوء القمر يسطع على الصقيع خارج المدينة التي استسلمت». وهذا النوع من الاندماج يمكن أن نجده في موضوعات الامتحان الإمبراطوري في أكاديمية الرسم الإمبراطورية في عصر سونغ. وكذلك مثل: «لا أحد يعبر النهر الكبير، ومركب وحيد يرسو في منتصف النهر أفقياً»، و«رؤوس البراعم الخضراء الطرية تبدو حمراء بعض الشيء، ويزعجنا أن ألوان الربيع لا تكون كثيرة هكذا» واستعان ذلك بموضوعات الشعر، ويجب على الرسام أن يرسم حسب الشعر، والأهم أن نفحص إذا كان الرسام يتحلى بالمهارة الفنية في التصور والمفهوم أم لا. وهناك شكل آخر للاندماج بين الشعر والرسم، كان وانغ وي أول من ابتدعه ومفاده أن: «الرسم هو شعر صامت، والشعر هو رسم منطوق». ووانغ وي هو شاعر، ورسام في آن واحد، وماهر في التعبير عن الإيحاء الفني للرسم في الشعر، ويجسد جاذبية الشعر في الرسم. ومثال ذلك، «تتصاعد ألسنة الدخان عمودية في الصحراء الفسيحة، وقرص الشمس الدائري يتوسط النهر الطويل» هو عبارة عن رسم فياض يملأ أرجاء الصفحة، وكذلك «يتسلل ضوء القمر بين أشجار الصنوبر، وتتدفق المياه الجوفية الصافية على الحجر» هو عبارة عن مشهد الهدوء والسكون في الغابة. إن الدمج بين الرسم والشعر حقق التكامل بينهما. والاندماج المتبادل بين فن الشعر وفن الرسم قد أظهر أن أنشطة الجمال لدى الناس قد تعمقت وبلغت مرحلة عالية من «التبادل بين الشكل والتعبير الفني». ولكن الشاعر وانغ وي لم يعرف هذه النقطة. وفي عصر سونغ، تعمقت معارف الناس بالفن بشكل أكبر بسبب التأثير الأيديولوجي لجلسة التأمل البوذية وازدهار الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية، ومن ثم ذكر صو شي إن: «تذوق شعر موجيه نجده ينطوي

على رسم، وتأمل رسم موجيه نجده يشتمل على رسم». وأصبح ذلك معياراً لدراسة الرسم في العصور التالية. و«الشعر ينطوي على رسم» يشير إلى أن الإيحاء الفني للشعر واضح مثل الرسم، و«الرسم يشتمل على شعر» يعني أن الرسم يتضمن إيحاءاً فنياً جميلاً وشاعرياً، والشعر والرسم يصفان نوعاً من الحدود، ويعبران عن نوع المشاعر والأحاسيس. ومع تقادم الزمن، أصبحت المشاعر والأحاسيس في الشعر والمفهوم الفني في الرسم من مقاييس الفن في علم الجمال التقليدي.

(3) الخالق هو المُعلم ونظرية مهارة التصور الفني: يشير ذلك –في الواقع– إلى مبدأ الإبداع وأسلوبه في الرسم الصيني. والخالق في حد ذاته يشير إلى الطبيعة، ثم يشير على نطاق واسع إلى كافة الكائنات والمخلوقات في الكون. وظهرت هذه المقولة للمرة الأولى في كتاب «تكملة سجل تذوق الرسم» للمؤلف ياو زوي في مملكة تشين (557 – 589) في الأسر الجنوبية. وأشارت هذه النظرية بصورة صائبة إلى العلاقة بين الرسام والأشياء الموضوعية، وبعبارة أخرى، إن الأشياء الموضوعية هي المنبع الفني للإبداع عند الرسام، وهي الأساس الموضوعي الذي يشِّيد عليه الرسام إبداعه، ويقودنا ذلك إلى القول بأن الرسام يجب عليه أن يتعلم من الحياة والطبيعة، حتى يتمكن من إبداع أعمال تنبض بالحياة. وفي هذا المجال، تمتع الأقدمون بالعديد من القصص، ومثال ذلك هان يوي في عصر تانغ اقتفى أثر تساوبا في دراسة رسم الحصان، وبعد أن أصبح رساماً مشهوراً استدعاه القصر الإمبراطوري، وطلب منه الإمبراطور شوان زونغ في هذه الأسرة أن يكون مُعلم الرسم في القصر هو مُعلمه، ولكنه قال إن: «مُعلمي هو الخيول المشهورة داخل أروقة القصر الإمبراطوري». وكان تشاو مينغ فو رساماً متعدد المهارات، يرسم الجبال والأنهار بإلهام من الطبيعة، ولذلك قال إن: «المعرفة العميقة بالرسم ليست مجرد تسلية، وإن الجبال والسحب في كل مكان هي مُعلمي». وكان قو كاي جي أول من طرح النظرية الخاصة بكيفية معرفة الرسام بالحياة معرفة عميقة حتى يحصل على التصور الفني، وشجع أن الرسم يصف الملامح والتعابير، وعندما سُئل كيف يتحقق ذلك؟ أجاب قائلاً: «عن طريق مهارة تبدل الأفكار»، وماهي مهارة تبدل الأفكار؟ إن ما يطلق عليه «تبدل الأفكار» هو أن الرسام قبل تدشين ريشته يجب عليه –في المقام الأول– مراقبة ودراسة موضوع الرسم، والتمعن بعمق والتحقق من الروح الكامنة والفكر

والمشاعر في موضوع الرسم. وتأسيساً على تبدل الأفكار، يدرك الرسام ويتمكن من المزايا الروحية والفكرية في موضوع رسمه بصورة تدريجية، وبعد أن يجتاز التحليل والتكرار يحصل على التصور الفني، وهذا ما يطلق عليه «المهارة» في هذا الخصوص. ولذلك، عملية تبدل الأفكار للحصول على المهارة الفنية هي في حد ذاتها عملية أنشطة التفكير التصويري، وهي أيضاً عملية معرفة الفنان بالحياة معرفة عميقة والاضطلاع بالتصور الفني، وتركت هذه العملية تأثيراً عميقاً وبعيداً في الممارسة العملية للرسم الصيني.

(4) **الطرائق الست والصفات الأربع:** ما يطلق عليه «الطرائق الست» هي بمثابة المعايير الستة لإبداع ونقد الرسم التي قدمها شيه خه المنظّر في علم الرسم في الأسر الجنوبية، وذكر في كتابه «سجل تذوق الرسم القديم» أن «الطرائق الست» هي: (أ) المفهوم الفني النابض بالحياة: ويشير إلى المزايا الروحية للشخصيات، وهو ما ذكره قوكاي جي من الملامح أو الجاذبية، واعتبر شيه خه ذلك بمنزلة المعيار الأول في تقييم مزايا ومساوئ الرسم، مما يوضح أن هذا المعيار هو الهدف الأساسي للرسم. (ب) البراعة في استخدام القلم: يهتم الرسم الصيني دائماً بالقلم والحبر، ويشمل ذلك مسألة قوة التعبير، لأن استعمال القلم والحبر يجب أن يتسم بالمهارة ويحظى مقدار هذه المهارة وتدرج ظلال الحبر بالاهتمام الشديد. (ج) يجب على الرسم التعبير حسب الملامح التي تتحلى بها الأشياء الموضوعية، ولا يجوز الاختلاق الذاتي، وبعبارة أخرى، إن الاهتمام بالسحر الرومنطيقي لا يمكن أن ينأى تماماً عن الشكل الأصلي للأشياء الموضوعية. (د) استخدام الألوان بما يتناسب مع الأشياء: ويشير ذلك إلى مسألة الألوان في الرسم، بمعنى استخدام الألوان المختلفة في التعبير عن موضوعات الرسم المتباينة. (هـ) تصميم تشكيل الرسم: وتشكيل الصورة في الرسم الصيني يختلف عن الرسم الغربي، فالأول لا يستخدم الرسم المنظوري للأماكن المحددة في الرسم الغربي، بل يستخدم الرسم المنظوري للأماكن المتفرقة، ويهتم بالتباعد والتكاثف؛ ففي التباعد يمكن أن يهرول حصان، وفي التكاثف لا تمر ريح، ويهتم بالمواضع الخالية من الرسم وتبدو أنها تحوي رسماً أيضاً، ورسم الفراغات البيضاء يوضح السماء والسحب. (و) مهارة محاكاة الرسم: حسب الآراء المختلفة، لا يمكن إدراج ذلك في معايير إبداع الرسم وتقييمه، ولكن جرى العرف على التمسك بتسمية «الطرائق الست». أما «الصفات الأربع» فهي معايير تقييم الرسم التي

طُرحت في عصر تانغ، وجسدت نكهة الإبداع في الرسم الصيني، ومضمونها أكثر تجريداً من الطرائق الست المذكورة آنفاً. وفي فترة حكم كاي يوان، ذكر تشانغ هواي قوان في كتابه «تقييم الرسم» ثلاث صفات من التعبير الفني، والمهارة الفنية، والمقدرة على التعبير واعتبرها كمقياس للمقارنة بين مزايا وعيوب الرسم. وبعد ذلك، أضاف جو جينغ شوان في كتابه «سجل الرسوم المشهورة في أسرتي تانغ ومينغ» صفة أخرى هي التفوق، واعتقد أن «صفة التفوق» هي «عدم التقيد بالطرق المعتادة»، ولم يشرح الصفات الثلاث الأخرى شرحاً محدداً. وفي عصر سونغ، وضع هوانغ شيو شيا صفة التفوق في المرتبة الأولى في مؤلفه «الرسوم المشهورة في ايتشو»، وشرح مفهوم الصفات الأربع الواحدة تلو الأخرى. وعكس ذلك التغيير في تذوق مقياس الجمال لدى الناس. و«صفة التفوق» تشير إلى عدم الاكتراث بقواعد الرسم، والبراعة في استعمال القلم والحبر، وإظهار الافتتان دائماً. و«صفة التعبير الفني» تشير إلى الجمع بين الشكل والتعبير الفني، والدمج الطبيعي بين المفهوم الفني والمهارة الفنية. و«صفة المهارة الفنية» تشير إلى أن الرسم يحقق الغاية المنشودة، واستخدام القلم والحبر ببراعة واقتدار، و«صفة المقدرة» تشير إلى البراعة في تقديم أعمال تستطيع التعبير عن الأشياء بقوة وحيوية. وأصبحت هذه الصفات الأربع بمثابة المقياس الأسمى للاستمتاع برسم المثقفين لفترة طويلة، ونعتقد أن العمل الفني لا يعتبر من الطراز الأول إذا كان يزخر بالافتتان.

(5) جلسة الرسم والتأمل البوذية في الجنوب والشمال: يشير ذلك إلى نظرية رسم الطبيعة التي تشكلت في ظل تأثير نظرية جلسة التأمل البوذية الجنوبية والشمالية في الديانة البوذية. ومؤسسو هذه النظرية في أسرة مينغ هم الرسامون: موه شي ليونغ، دونغ تشي تشانغ، لو جي رو، شين هاو، وكان دونغ تشي تشانغ صاحب التأثير الأكبر. وكان موه شي لونغ أول من طرح هذه النظرية، وذكر أن جلسة التأمل في الديانة البوذية تنقسم إلى الجلسة الشمالية والجلسة الجنوبية، وبدأت هذه التفرقة في عصر تانغ، والرسم انقسم إلى الجلسة الشمالية والجنوبية أيضاً. وقد بدأ هذا الاختلاف في عصر تانغ أيضاً، ولكن لا يفرق الناس بين هاتين الجلستين البوذيتين. وابتدع لي سي شون أسلوب رسم جلسة التأمل البوذية الشمالية من تلوين الطبيعة، وتوارثها الأجيال حتى تشاو بوجو، ومايوان، وشيا قوي في عصر سونغ. وكان الشاعر وانغ وي مؤسس أسلوب رسم جلسة التأمل البوذية الجنوبية من الإفراط في

استخدام الحبر، granting وورث هذا الأسلوب الرسامون جينغ هاو، قوان تونغ، دونغ يوان، فإن كونانغ، بالإضافة إلى الرسامين الأربعة الكبار في أسرة يوان. وأبرز هذه الفكرة الرسام دونغ تشي تشانغ وآخرون بشكل أكبر، واعتقد أن جلس التأمل الجنوبية تمثل رسم المثقفين، بينما جلسة التأمل الشمالية ليست من رسم المثقفين. وفي ضوء هذه النظرية، في الواقع أن جلسة التأمل الجنوبية تتوافق مع سيكولوجية كبار الموظفين والمثقفين لأنها تدعو إلى إدراك الحقيقة فجأة وعدم السعي وراء الشهرة والجاه، أما جلسة التأمل الشمالية فلا تتوافق مع ذوق المثقفين لأنها تدعو إلى إدراك الحقيقة تدريجياً والسعي وراء التعمق في الحياة. ولكن نظرية الرسم في هاتين الجلستين تناولت أسلوبين مختلفين في الرسم، وكان فن الرسم فيهما متماثلاً. وفي الحقيقة، إن أسلوب الرسامين في هاتين الجلستين ليس موحداً أيضاً، ولذلك تحديد الاختلاف في الآراء حول رسم الطبيعة في الصين انطلاقاً من جلستي التأمل الجنوبية والشمالية يجافي الحقيقة حقاً.

المبحث الخامس

فن الموسيقى القومية

مصدر الموسيقى –مثل سائر الفنون الأخرى– يكمن في العمل الإنتاجي للبشرية البدائية، كما يكمن في محاكاة الناس للطبيعة وأصوات الحيوانات. ومع تطور البشرية، أصبحت الموسيقى وسيلة للتعبير عن العواطف والمشاعر، وتطورت وأصبحت نوعاً من الفن رويداً رويداً. وفن الموسيقى في المرحلة الأولية كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعر والموسيقى والرقص. ولذلك يقول الأقدمون: «المشاعر تتحرك في القلب وتتجسد في شكل لغة، وإذا كانت اللغة غير كافية، يتنهد الإنسان ويطلق الزفرات، وإذا كان التنهد لا يعكس المشاعر بدرجة كافية، يلجأ إلى الغناء، وإذا لم يحقق الغناء الغرض المنشود، يهتز الإنسان طرباً، ويرقص طرباً دون أن يدري». ومن ناحية أخرى، الموسيقى في المجتمع البدائي ترتبط بعروة لا تفك عراها بالأنشطة الدينية الخاصة بتقديم القرابين في العصر البدائي. ولذلك، جاء في «كتاب التغيرات –فصل التنجيم»: «قال شيانغ: عندما تبرق السماء وتهتز الأرض، يعزف الملوك الأولون الموسيقى على غرار ذلك، ويمجدون الأخلاق، ثم يقومون بإهداء الموسيقى إلى الإمبراطور الذي بدوره يهديها للأجداد والأسلاف». وتوضح هذه المقولة أن مصدر الموسيقى له علاقة بمحاكاة السلف للطبيعة، كما يبرز العلاقة التي تربط بين الموسيقى والقرابين الدينية. وحسب سجلات وثائقية، فقد جاء في أسطورة أن الأباطرة في العصور السحيقة، وفي أسر: شيا، تشانغ، تشو، كان كل إمبراطور يتمتع بموسيقاه الخاصة، مثل موسيقى «يوامين» للإمبراطور هوانغ دي، وموسيقى «شيانتشي» للإمبراطور ياو، وموسيقى «داتشينغ» للإمبراطور شون، وموسيقى «داشيا» لإمبراطور أسرة شيا، وموسيقى «داهوا» لإمبراطور أسرة شانغ، وموسيقى «أوو» لإمبراطور أسرة تشو. ويطلق على موسيقى العصور الستة حتى أسرة تشو لقب «الموسيقات الست» أو «الرقصات الست»، ويكون التمييز بينها من خلال تقديم القرابين للسماء والأرض، والشمس والقمر، والجبال والأنهار، والآباء والأجداد. ويوضح ذلك، إن وظيفة الموسيقى في المرحلة المبكرة تتجلى بصورة أساسية في سحر القرابين، ولم تؤسس نظرية للموسيقى ، والموسيقار آنذاك هو الساحر.

وبعد تأسيس أسرة تشو، يحكى أن دوق تشو اضطلع بتدشين «نظام الطقوس وعزف الموسيقى»، وباتت الطقوس والموسيقى بمنزلة الدعامتين الأساسيتين لحماية نظام ملاك العبيد. وكانت الموسيقى تتسم بثلاث خصائص في ذلك الحين هي: (1) التصنيف الموسيقي، ويعني اختلاف الفرق الموسيقية وترتيب العروض الفنية وعدد الأفراد المشاركين فيها الخاصة بالأباطرة والملوك والحكام، وكبار الموظفين والمثقفين؛ فمثلاً فرقة الإمبراطور الموسيقية تصف في الجهات الأربع، وفرقة الرقص تصف في ثمانية صفوف، كل صف يضم ثمانية أفراد، وفرقة الحكام والأمراء تصف في ثلاث جهات في أربعة صفوف، وكل صف به أربعة أفراد. (2) أصبحت الموسيقى مركز التعليم، ومادة يدرسها الطلاب في المدارس. وذكر كتاب «طقوس أسرة تشو» أن عصر تشو شهد إنشاء ديوان كبير للموسيقى، ورئيس هذا الديوان مسؤول عن التعليم الموسيقي وشؤون الموسيقى. (3) وظيفة الموسيقى تحولت بصورة أساسية من استخدامها في القرابين إلى خدمة السياسة (الطبقة الحاكمة). وعلى سبيل المثال، كتاب «طقوس أسرة تشو– فصل شؤون الشعب» ذكر أن: «الموسيقات الست وحدت مشاعر الشعب وعلمته الانسجام، والمقصود بالانسجام هو «التناغم بين الطبقات». والتغيير الذي طرأ على موسيقى عصر تشو هو أساس نظرية الموسيقى ونشأة المشتغلين بالموسيقى. ولذلك، من فترة الربيع والخريف إلى عصر الممالك المتحاربة، ظهرت مناظرات حول أفكار الموسيقى، وظهرت مؤلفات مشهورة في نظرية الموسيقى مثل: «تاريخ الموسيقى» (يقال من تأليف قونغ صون ني)، و«نظرية الموسيقى» (تأليف الفيلسوف شون تسي)، كما ظهر لفيف من الموسيقيين الذين حققوا شهرة كبيرة في العصور اللاحقة مثل: شي شيانغ، شي كوانغ، قاو جيان لي، وأسطورة الماء يتدفق من جبل سامق ذكرت أن «باويا يعزف على البيانو»، وقصة «مرثية فتاة في مملكة هان» تردد صداها ثلاثة أيام بلا انقطاع، ويُظهر ذلك أن الموسيقى بلغت مستوى عالياً في ذلك الحين.

وفي عصر أسرتي تشين وهان، توطدت أركان الحكم الإقطاعي المركزي الذي يحتاج إلى نظام كامل من الطقوس والموسيقى يتوافق مع النظام الإقطاعي بهدف الحفاظ على نظام الحكم الجديد. وقدر الإمبراطور هان وو دي الفن الكونفوشيوسي تقديراً خاصاً، ولذا حظيت الأفكار الكونفوشيوسية بالشرعية، وبالتالي تمتعت الوظيفة الاجتماعية للموسيقى

بالاهتمام الخاص، فعلى الصعيد النظري، أثنى حكام عصر هان على الموسيقى ثناء عالياً للدور الذي تضطلع به في «شن الحروب، وتهذيب الأخلاق والأدب» و«تثقيف الشعب»، وأظهروا الرغبة في استعادة الموسيقى القديمة. وعلى صعيد الممارسة العملية، وتأسيساً على توريث نظام الطقوس والموسيقى فيما قبل أسرة تشين، قام عصر هان بإعادة تحديد ملامح الطقوس العظيمة لقرابين السماء والأرض من جديد واختيار موسيقى القرابين المناسبة، ومثال ذلك «المقطوعة الموسيقية السابعة عشرة»، و«المقطوعة الموسيقية التاسعة عشرة»، وفي الوقت نفسه، أسس ديوانا مسؤولاً عن الموسيقى بصفة خاصة، أُطلق عليه «ديوان الموسيقى» الذي جمع الأعمال الفنية الموسيقية من بين صفوف الشعب، أو اختيار وكتابة كلمات الأغاني والألحان الموسيقية، وإعداد تمثيل الموسيقى والرقص. وذكر «كتاب هان -فصل تاريخ موسيقى الطقوس» أن ديوان الموسيقى: «يقوم بجمع الشعر وقراءته في الليل، وكانت هذه الأغاني الشعبية في مملكة داي وفي أسرتي تشين وتشو. وكان الموسيقى لي يان نيان يضبط وينسق الألحان، واختار عشرات الأفراد الأكفاء، ومن بينهم الأديب الشهير سيما شينارو لكتابة الشعر والمقامات، وتنظير مقياس النغمة، واستخدام النغمات الثماني في الألحان، وتجهيز أغنية المقطوعة الموسيقية التاسعة عشرة». وإنشاء ديوان الموسيقى احتفظ بجزء من الإبداع الشعبي آنذاك من أجل الأجيال المتعاقبة، ويمثل حدثاً عظيماً في تاريخ الموسيقى الصينية، واثر في تطور الموسيقى في المستقبل تأثيراً عظيماً.

وشهدت الموسيقى الصينية مرحلة مهمة من التطور في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية. ففي **المقام الأول،** الامتزاج بين القوميات الناجم عن الحرب الشعواء بين الجنوب والشمال قدم الشروط الأساسية لتطوير الموسيقى في أسرتي سوي وتانغ بشكل أكبر. ثانياً: إن الموسيقى تحولت إلى البحث عن دور مقاييس الجمال في ضوء تأثير علم الغيبيات في أسرتي وي وجين. ثالثاً: ذاع صيت الموسيقى الدينية جراء انتشار الديانة البوذية انتشاراً واسعاً، واندمجت مع الموسيقى الشعبية وكونت موسيقى الديانة البوذية التي كانت عبارة عن موسيقى أسرة تشين. ونقول بصورة محددة أن الاندماج الكبير بين ثقافة موسيقى كل قومية في هذه المرحلة كان مركزه في المناطق الغربية، وفي مدينة جيوتشوان في مقاطعة قانصو ومنطقة مدينة دونغ هوانغ. ومن الموسيقات المشهورة آنذاك: قوي تسي، شيلهانغ،

فاوتشانغ، ناهيك عن الموسيقات التي دخلت الصين من الخارج مثل: شوليه، شيانغبيه، قاولي، وكانت بعض هذه الموسيقات تعزف في احتفالات ومآدب البلاط الإمبراطوري. وبعد مرور مائتي سنة تقريباً، امتزجت هذه الموسيقات مع موسيقى قومية هان ووضعت حجر الأساس لتطوير الموسيقى في أسرتي سوي وتانغ. كما شهدت الموسيقى الشعبية الاندماج بين الجنوب والشمال. وعندما انتقلت أسرة جين إلى الجنوب، انتقل معها في الوقت نفسه «ألحان شيانغجهه» المنتشرة في الشمال، واندمجت مع ألحان الجنوب من «لحن وو» و«لحن شي»، وشكلت «ألحان تشينغ شانغ» التي كانت واضحة ورخيمة وشجية، كما كانت عاطفية ومؤثرة، وتنتمي إليها الألحان المشهورة من «ليلة مقمرة على ضفة نهر أزهار الربيع»، و«أشجار اليشم خلف فناء الأزهار»، و«أغنية الفصول الأربعة في منتصف الليل». وكان روان جي، وجي كانغ يمثلان نظرية الموسيقى في هذه المرحلة، وتأثراً بأفكار الفيلسوف لاوتسي وتشوانغ تسي بصورة عميقة على غرار «الفضلاء السبعة في غابة البامبو»، ولكن آراءهما في الموسيقى ليست متشابهة تماماً. ونقول بصفة عامة أن روان جي يعتقد أن الموسيقى هي «جوهر السماء والأرض، وطبيعة الأشياء»، ومفعمة بنكهة الأحجية والألغاز، بينما جي كانغ يعتقد أن الموسيقى نشأت في خضم تغيرات الفصول الأربعة، واعترف أن «الكادحين يتغنون بأعمالهم، والمغبوط تجعله مآثره يرقص»، وأكد أن الموسيقى هي وسيلة الناس للتعبير عن العواطف والمشاعر، وأشار إلى أن «ألحان جينغ هي أعذب الألحان قاطبة» وتحتوي على تأثير الإحساس بالموسيقى. وكان جي كانغ ماهرا في العزف على البيانو، وعزف مقطوعة «قوانغ لينغ سان» باقتدار وحققت شهرة كبيرة لحين من الوقت، ولكن مجموعة سيما قتلته لأنها غير راضية عن أدائه، وقبل أن يقضي نحبه «نظر إلى ظل الشمس وعرف أن ميقات أجله لم يحن بعد، وطلب بيانو ليمارس هوايته»، وتنهد في حزن شديد، وعزف مقطوعة موسيقية أطلقت عليها الأجيال المتعاقبة «جي يعزف أعذب وآخر ألحانه».

ويعتبر عصر سوي وتانغ المفعم بالقوة والازدهار مرحلة تطور الفن الموسيقي أيضاً. ونظراً لقوة الدولة الاقتصادية وانتعاشها، كان المجتمع في أسرة تانغ يبدو زاخراً بالثقة في الانفتاح على الخارج، وأظهر القدرة الضخمة على الاستقبال الثنائي في الثقافات المختلفة، واستوعب وامتثل جميع الثقافات الأجنبية التي شهدها المجتمع آنذاك، وكانت الموسيقى والرقص

والغناء الأكثر بروزا بصفة خاصة. وتشكلت ملامح طبقة أهل الحضر بسبب الازدهار السريع في المدن والعواصم الكبرى مثل تشانغآن، وأظهرت الاحتياجات المادية والثقافية لأهل الحضر خصائص متباينة عن سائر الجماهير الأخرى. ولذلك، في أسرة تانغ التي دامت عدة مئات من السنين، وخاصة في مرحلة تانغ المزدهرة، كان التبادل الثقافي مزدهراً ونشطاً للغاية، والحياة الثقافية تزخر بالقوة والحيوية، وتجلت المنجزات الموسيقية في هذه المرحلة في موسيقى يان، والألحان الشعبية، والأدب القصصي النثري للسرد الغنائي. وما يُطلق عليه «موسيقى يان» هي موسيقى الولائم والحفلات في القصر الإمبراطوري. وبعد تأسيس أسرة تانغ حذت حذو أسرة سوي وعزفت «الموسيقات التسع»، وهي: تشينغ شان، شيليانغ، قويتسي، تيانجو، كانغ قوي، شوليه، آنفوى، قاولي، ليبي. وألغيت موسيقى ليبي بعد ذلك، وحلت محلها موسيقى يان التي احتلت المرتبة الأولى، وتغيرت موسيقى تيانجو إلى موسيقى فوشانغ؛ حتى يبقى هناك دائماً الموسيقات التسع، واحتضن الإمبراطور تاي زونغ موسيقى قاو تشانغ وأدمجها في هذه الموسيقات وأصبحت الموسيقى العاشرة، وأُطلق على الموسيقات كلها الاسم الجامع «موسيقى يان». وكان تقديم العروض الفنية لموسيقى يان في عهد هذا الإمبراطور تنقسم إلى نوعين هما: «العزف واقفاً» و«العزف جالساً». وذكر «كتاب تانغ الجديد- فصل تاريخ الموسيقى والطقوس» أنه: «كان يطلق على الفرقة الموسيقية التي تعزف وهي واقفة في قاعة القصر لقب «العزف واقفاً»، وبالمثل الفرقة التي تعزف وهي جالسة، يطلق عليها «العزف جالساً»، وكانت عروضهما الموسيقية مختلفة، ومقدرتهما على العزف والتمثيل تتباين صعوداً وهبوطاً أيضاً. وطبعاً، كان العزف الموسيقى الذي يتمتع بمستوى عال نسبياً، وينتمي إليه «شباب بستان الكمثرى الإمبراطوري» الذين اختارهم الإمبراطور شوان زونغ في هذه الأسرة. والمقطوعتان الموسيقيتان المشهورتان في أسرة تانغ: «موسيقى بوجين» و«ألحان نيشانغ القومية» تنتميان إلى موسيقى الرقص في موسيقى يان. أما «الألحان» فهي ثمرة حياة أهل الحضر، وهي عبارة عن الأغاني ذات الكلمات المناسبة، وكلمات الأغاني المناسبة يطلق عليها «كلمات الألحان»، ويشدو المغني بألحان مختلفة ومتنوعة من الأقليات والقوميات والزقاق، ويختار المناسب من الجمل الطويلة والقصيرة لتأليف الأغاني، ناهيك عن استخدام اللغة الشعبية الشائعة والمتداولة والنغمات المتنوعة الحيوية، ويغني في الملاهي

الليلية، ويحظى بالترحيب من جانب السواد الأعظم من أهل الحضر والشباب الأرستقراطي وكبار الموظفين الذين يدلفون إلى هذه الملاهي، ثم خضعت هذه الألحان للمعالجة من جانب الأدباء، وشكلت الإبداع الأساسي في الشعر في عصر سونغ. وما يُعرف بـ«أدب قصص نثري للسرد والغناء» يعد نوعاً من الأهازيج والمساجلات الشعبية، ويكمن مصدره في الدعاية للديانة البوذية. وكانت البوذية تتمتع بالتأثير الهائل، وكانت قصص الدعاية لهذه الديانة على غرار شكل الأهازيج والمساجلات الشعبية، ومن ثم شكلت نوعاً جديداً من ثقافة الموسيقى انتقل من الأديرة إلى صفوف الشعب. وكان هذا النوع من الأدب يتحلى بالحبكة القصصية، ويحرص على مقياس النغمة، ووزن الألحان أثناء الغناء، وحظي بترحيب الناس، وتطور وأصبح «ألحان القصور» في أسرتي سونغ ويوان. والتطور العظيم للموسيقى في أسرة تانغ جعل ظهور المغنيين والموسيقيين والمؤلفات الموسيقية في أعداد كبيرة، وكانت أشعار تانغ التي وصفت الحياة الموسيقية أكثر من أن تحصى. ومن المؤلفات المشهورة نسبياً آنذاك: «سجل الكتب الموسيقية المهمة» (يقال من تأليف الإمبراطورة وو تسي تيان)، و«تاريخ الرقص والغناء الإمبراطوري» للمؤلف تسوي لينغ تشيان، و«سجل طبل أقلية جيه» للمؤلف بانجوا، و«سجل الأغاني الشعبية المختلفة» للمؤلف دوان آنجيه. وكان خه مانتسي، وكانغ كونلون، ودوان شابني، وليه هاى تشينغ، ولي قوي نيان من المغنيين والموسيقيين المشهورين آنذاك. ويسجل كتاب «سجل الأغاني الشعبية المختلفة» مسابقة العزف على العود الصيني «بيبا» التي جرت بين كانغ لونلون، ودوان شابنى على النحو الآتي: «في البداية كان القحط الشديد يسود مدينة تشانغآن. وانتقل الإمبراطور إلى المدينتين الغربية والشرقية للتضرع والتوسل حتى تهطل الأمطار، وما إن وصل إلى شارع تيانمين، شاهد جهوراً غفيراً من أهل المدينة يتفرج على هذه المسابقة. وكان عزف كانغ يدوي في شرق الشارع؛ حيث عزف لحناً جديداً بعنوان «الخصر الأخضر». وفي بناية عالية في المدينة الغربية، ظهر منافسة دوان شانبي في شكل فتاة حسناء، وما إن حرك الوتر ملأ المكان ضجيجاً كالبرق، وأصابت الدهشة كونلون وقدره كثيراً واعتبره مُعلمه وأمر الإمبراطور أن يتتلمذ كونلون على يد دوان، وقال الأخير للإمبراطور: «يجب على كونلون ألا يقترب من الآلات الموسيقية لمدة عشر سنوات وأكثر بصفة مؤقتة، حتى نجعله ينسى قدراته، ثم يمكن أن أُعلمه. ووافق الإمبراطور على ذلك،

وأتقن كونلون فن منافسه إتقاناً تاماً في نهاية المطاف». وهذه الفقرة من السجلات التاريخية يمكن أن توضح لنا الأحوال المزدهرة للحياة الموسيقية في عصر تانغ.

وتطورت التجارة والاقتصاد في المدن بشكل أكبر في عصر سونغ ويوان، كما ازدادت طبقة أهل الحضر قوة ونماء بصورة ملحوظة، ونشأ معها الفن الموسيقى المناسب لها. ولكن من منظور النظرية الموسيقية، شهدت هذه النظرية العودة إلى القديم جراء تأسيس علم الفلسفة المثالية الكونفوشيوسية وتأثيرها. ويبدو ذلك تناقضاً صارخاً، ولكنه كان ظاهرة طبيعية. ونظراً لتطور فن طبقة أهل الحضر أكثر فأكثر، ودخول التعاليم الشرعية للكونفوشيوسيين نطاق المقارنة، ولذا تبوأ علماء هذه الفلسفة المكانة الشرعية لحماية المذهب الكونفوشيوسي. وكلمات ألحان عصر تانغ أصبحت آنذاك كلمات ومفردات تستخدم في اللغة. وأصبحت كلمات الألحان بمنزلة مقامات تشيوي المحددة ويتقن معظم مؤلفي كلمات الألحان في عصر سونغ مقياس النغمة، ومن بينهم جيان كوي في أسرة سونغ الشمالية، وتشانغ وان في أسرة سونغ الجنوبية. والنوتة الموسيقية ذات الدلالات الواضحة للموسيقّي جيان كوي مازالت محفوظة في حالة جيدة إلى الآن. وتطورت الألحان القديمة حتى أسرة يوان وحلت محلها لحن سانتشيوي. وذكر «سجل حلم ليانغ» للمؤلف وو تسي موان: «الشوارع والبيوت في المدن اليوم تغص بتقليد أصوات الموسيقيين في العاصمة، وهذه الأصوات تشمل جميع ألوان الأغاني في الأحياء بالمدينة، كما تجمع لحن قونغ (نوطة في السلم الموسيقي الصيني التقليدي تساوي «1» في السلم الموسيقي الرقمي)، ولحن شانغ (يساوي «2» في السلم الموسيقي الرقمي)». ويوضح ذلك أن لحن سانتشيوي كان الأكثر تجسيداً لاقتصاد أهل الحضر. وكانت هناك مؤلفات مشهورة في لحن سانتشيوي في عصر يوان قدمها قوان هان تشينغ، وماتشي يوان، وتشانغ يانغ جيه. وبالإضافة إلى ذلك، ظهر في مرحلة أسرتي سونغ ويوان الفنانين، وساحات الارتزاق من العروض الفنية أيضاً، ويعد ذلك انعكاساً لأنشطة التسلية الثقافية المفعمة بالحيوية والنشاط لدى أهل الحضر. وفي ذلك الحين، كان يطلق على ملاهي التسلية والترفيه «وانتسي» أو «وانشه»، وساحة التمثيل «قولان»، والفنان «قولان ايرن». وترتبط معظم برامج التمثيل التي يقدمها الفنانون بالموسيقى، ومن بينها جميع ألحان قونغ الخاصة بالقصور، لأن معظم هذه الألحان تتوافق في إظهار المشاعر المعقدة والحياة

الاجتماعية، ولذلك حظيت بالترحيب الكبير. ومن المؤلفات الموسيقية المشهورة في هذه المرحلة «كتاب الموسيقى» وهو عبارة عن دائرة معارف موسيقية من تأليف تشين يانغ في أسرة سونغ الشمالية، وتقع في مائتي مجلد تسرد تاريخ الموسيقى، وجميع الآلات الموسيقية، والرقص والغناء، والموسيقى متعدد الأشكال والألوان، وجميع أنواع الحفلات، وأبرزت للعيان الإنجازات الموسيقية في الصين في مرحلة ما قبل عصر سونغ.

وامتدت المرحلة المتأخرة للمجتمع الإقطاعي في الصين من أوائل أسرة مينغ إلى عشية حرب الأفيون. وكانت مرحلة الحكم القمعي والوحشي للأسر الأرستقراطية في أسرة تشينغ من ناحية، وظهور العناصر الاقتصادية للرأسمالية من ناحية أخرى، مما جسد التواجد المتزامن من الوعي بالصراع في بعض الأعمال الموسيقية والنظرية الموسيقية والعودة إلى القديم. ولكن دراسات المقامات الموسيقية أحرزت تقدماً فاصلاً بسبب تطور العلوم والتقنية الفنية. ومن الخصائص الجوهرية للفن الموسيقى في هذه المرحلة ازدهار الأغاني الشعبية المختلفة، ولاسيما الأغاني الوطنية التي كانت أكثر انتشاراً، وجسد مضمونها التطلع إلى الحرية والتحرر الذاتي. ولذلك ذكر أهالي عصر مينغ: «في عصر مينغ، الشعر لا يضاهي أسرة تانغ، والنثر لا يضارع أسرة سونغ، والألحان لا تتفوق على أسرة يوان، ولكن – على وجه التقريب– «أغاني مملكة وو»، و«أغنية معلق على غصن شجرة»، و«شكوي نهر لوا»، و«أغنية عصا البامبو تهز البلح»، و«أغنية رباط فضي» في أسرة مينغ فريدة ولم يسبق لها مثيل». وتنطوي هذه المقولة على الحجة والمنطق. وبالإضافة إلى ذلك، انتشرت المونولوجات القصصية المصحوبة بالطبل والأغاني القصصية الشعبية انتشاراً واسعاً بعد عصر مينغ، وتنتمي هذه المونولوجات والأغاني إلى فن الأغاني من الأهازيج والمساجلات الشعبية، ولكن يصحبها العزف الموسيقى، وانتشرت الأولى في الشمال، والثانية في الجنوب. أما بخصوص موسيقى الأوبرا التقليدية فقد تطورت في أسرة مينغ، وأصبحت من المسرحيات بعد أن تفوقت على المسرحية الشعرية في أسرتي سونغ ويوان، ثم تطورت إلى ألحان كونتشيوي، والألحان الشعبية في أسرة تشين، وأوبرا بكين، وبعد ذلك أصبحت موسيقى فريدة ومتميزة في الأوبرا التقليدية. وأعظم منجزات النظرية الموسيقية في هذه المرحلة كان كتاب «الكامل في المقامات الموسيقية» من تأليف تشو زاى يوه الذي درس الفلك والتقويم على يد خاله في سنواته المبكرة، وبعد أن زُج بوالده

في غياهب السجن لأنه اقترف إثماً، اعتكف على دراسة المقامات الموسيقية والرياضيات والتقويم لمدة تسعة عشر عاماً ونيفاً. وعندما عاجلت المنية والده، لم يقتف أثره، وكرس حياته للتأليف على وجه الخصوص، وكان أعظم أعماله الكتاب المذكور أعلاه، حيث شرح فيه بالتفصيل نظرية «الأنغام الموسيقية الوسطية الاثنتا عشرة»، وتعد هذه النظرية أقدم من نظيرتها في أوروبا، والأكثر دقة أيضاً. ولكن من سوء الطالع، إن النظام الإقطاعي أهمل منجزاته، ولم يبرز فعاليتها الحقيقية في عملية التقدم الاجتماعي.

والإشارة إلى «الأنغام الموسيقية الوسطية الاثناعشر»، يقودنا بالضرورة إلى تناول بعض المعارف الخاصة بمقياس النغمة في العصر القديم. ونذكر أن «الأنغام الخمسة» أو «الأصوات الخمسة»، هي الاسم الجامع للسلالم الموسيقية الخمسة في الصين القديمة وهي: قونغ، وشانغ، وجيوه (علامة موسيقية قديمة)، وجي (نوطة في الموسيقى الصينية القديمة تعادل «5» في سلم الموسيقى المبسط)، ويوي (نوطة موسيقية قديمة)، وتتشابه كثيراً مع 1، 2، 3، 5، 6 في السلم الموسيقي الرقمي في العصر الحديث. وتعتبر هذه السلالم الموسيقية بمثابة الأشكال الموسيقية التي نشأت في ظل تأثير الين (السالب) واليانغ (الموجب)، ونظرية العناصر الخمسة، كما كانت أساس النظرية الموسيقية والسلم الموسيقي في الصين القديمة. وإذا كان هناك من لا يجيد الغناء، يطلق على نفسه التسمية المتواضعة «لا يتمتع بالنغمات الخمس الكاملة». وقد تأسست نظرية النغمات الخمس في فترة الربيع والخريف، ثم أصبحت التكوين الرئيسي للموسيقى الصينية دائماً في العصور اللاحقة. وما يطلق عليه «النغمات السبع» أو «السباعية» هو تطور النغمات الخمس بشكل أكبر، بمعنى ظهور نغمة نشاز بين جيوه وجي، وبين يوي وتونغ، وهي تساوي 4، 7 في السلم الموسيقي الرقمي الحديث.

ولعل من نافلة القول، إن نتناول الآلات الموسيقية في الصين القديمة والتي تشمل آلة النفخ، والعزف على البيبا، وآلة النقر، والدق على الطبل، والتي كان يتم تصنيفها من المواد الخام الثماني (المعدن، الحجر، الفخار، الخشب، القرع، الجلد، الحرير، والبامبو) ويطلق عليها «الأنغام الثمانية». ومن منظور تطور الآلات الموسيقية، ظهرت أولاً موسيقى الضرب على الطبول، وموسيقى النفخ في الآلة الموسيقية، ثم ظهرت موسيقى النقر على وتر، وأخيراً موسيقى العزف على الوتر. والآلات الموسيقية في المجتمع البدائي تطورت من أدوات العمل

التي تم استخدامها فيما بعد باعتبارها من آلات العزف الموسيقي تصحب الرقص والغناء في تقديم القرابين، وكانت الآلات الموسيقية يتم تصنيعها من العظام، والفخار، والحجر، والخشب في ذلك الحين، ومثال ذلك صفارة عظمية، وطبل فخاري، وشيون (مزمار قديم فخاري) وناقوس حجري وغيرها وبعد ظهور الأدوات البرونزية، استخدم الناس النحاس في صنع الآلات الموسيقية مثل: مجموعة أجراس بيانتشونغ، ونواقيس بيان. وظهرت الآلات الموسيقية المصنوعة من البامبو في وقت مبكر نسبياً، مثل يوي (مزمار قديم) ومزامير شنغ في عصر شانغ وتشو. وظهرت الآلات الوترية المصنوعة من الحرير مثل الموسيقى الوترية في فترة الربيع والخريف، وفي عصر الممالك المتحاربة، ثم انتشرت بعد أسرتي تشين وهان. وشهدت عملية تطور الآلات الموسيقية، إن الموسيقى في الصين استخدمت عدداً كبيراً من الآلات الموسيقية الأجنبية التي شهدت التعديل والتقويم حتى أصبحت من الآلات الموسيقية الصينية مثل العود الصيني البيبا، وهوتشين (آلة موسيقية بوترين)، وطبل جيه، وابرزت للعيان التبادل والتكامل بين الثقافتين الصينية والأجنبية. وفي هذا المقام، نقدم بعض الآلات الموسيقية النموذجية:

(1) **مجموعة أجراس بيانتشونغ:** من الآلات الموسيقية المهمة في أسرتي شانغ وتشو (تشمل فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة)، وهي من الآلات الموسيقية المعدنية تدخل نطاق النغمات الثنائية وتختص بالضرب والدق، ومن صفاتها أنها مجموعة ضخمة وشاملة ومتسلسلة من الأجراس النحاسية المتباينة الأحجام وتستخدم لإبراز لون النغمة. وذكرت سجلات وثائقية أن عدد الأجراس يصل إلى ستة عشر جرساً، ولكن اكتشاف هذه المجموعة من الأجراس في العصر الحديث لا يتفق مع هذا الرقم. فقد تم العثور على مجموعة أجراس يرجع تاريخها إلى المرحلة المتأخرة في أسرة تشو الغربية في محافظة فوفينغ في مقاطعة شنشي، وكانت المجموعة تشمل ثمانية أجراس فقط. أما المجموعة الأخرى التي تم اكتشافها في مدينة شينيانغ بمقاطعة خنان، ويرجع تاريخها إلى أواخر فترة الربيع والخريف، بلغ عددها ستة عشر جرساً. أما أكبر مجموعة من هذه الأجراس في وقتنا الحالي فقد عُثر عليها في قبر زينغ خو يي في مدينة سويتشو في مقاطعة خونان ويرجع تاريخها إلى عصر الممالك المتحاربة، فضلاً عن ناقوس نحاسي، وبذلك يصل العدد الإجمالي لهذا الاكتشاف إلى خمسة وستين

جرساً معلقاً في ثلاثة طوابق كلٌ على حده، ويشمل المدى الصوتي لها صوت البيانو الحديث ذي المفاتيح البيضاء والسوداء، وتتحلى بالضخامة ولون النغمة الجميلة، والصناعة الدقيقة المحكمة وتعكس مهارة الصناعة اليدوية في الأدوات النحاسية ومستوى ثقافة الموسيقي في ذلك الحين.

(2) **يوي (مزمار قديم)**: شكله يشبه مزامير شنغ، ولكنه أكبر منها، ولذا أطلق عليه مزمار شنغ الكبير، من آلات النفخ الموسيقية، مصنوع من البامبو وينتمي إلى نظام النغمات الثمانية، ظهر في عصر شانغ للمرة الأولى، وانتشر في عصر الممالك المتحاربة. والمثل القائل «عازف لتكملة الجوقة» يحكي قصة الملك شوان وانغ في مملكة تشي الذي جعل ثلثمائة رجل يعزفون على مزمار يوي، مما يدل على انتشاره واسع النطاق. وجاء في سجل وثائقي أن طول يوي بلغ متراً ونصف المتر تقريباً، ويوجد به حوالي ست وثلاثين قصبة، ولكن مزمار يوي في أسرة هان الذي عُثر عليه في قبر ماوانغ دوي في مدينة تشانغآن في مقاطعة خونان كان يحوي اثنتين وعشرين قصبة.

(3) **الآلة الموسيقية الوترية تشين (عود سباعي الأوتار)**: يذكر دائماً مع سه (آلة موسيقية وترية شبيهة بالقانون). وتشين عود مصنوع من الحرير وينتمي إلى النغمات الثماني ويتحلى بالأهمية القصوى في تاريخ الموسيقى الصينية، ويعتبر نموذج الفن الموسيقى، ولذلك يقول الأقدمون: «العزف على تشين والشطرنج والرسم» إشارة إلى قدرات المرء الفنية. وظهرت آلة تشين في عصر تشو، وجاء في كتاب «تاريخ الطقوس» أن: «المثقف والأديب لا يفارقان عود تشين»، كما جاء في «كتاب الأغاني» أن: «العزف على آلة تشين تجذب الفتاة الحسناء». وتشكلت ملامح تشين النهائية في عصر هان. وهيكل عود تشين عبارة عن صندوق مضخم للصوت طويل وضيق ومصنوع من الخشب، ويشتمل على سبعة أوتار، ولذا يطلق عليه «العود سباعي الوتر»، ويعد من أدوات العزف الرئيسية عبر العصور. وتحتفظ الموسيقى القديمة بالثراء والوفرة من الألحان بفضل العود تشين، وانتشرت العديد من ألحانه، فضلاً عن المؤلفات المتخصصة مثل: «تاريخ تشين» للمؤلف تشوتشانغ في عصر سونغ، و«ألحان تشين» (يقال إن المؤلف تساو بي في أسرة هان الشرقية)، و«سلسلة كتب تعلُّم تشين» من تأليف يانغ زونغ جي في العصر الحديث. وقصص الحب العاطفية في العصر القديم ترتبط

ارتباطاً قوياً بالآلة الموسيقية تشين، وتجسد ذلك في العلاقة بين سيما، وتشوا، ونجون.

(4) الآلة الموسيقية كونغهو: من الآلة الموسيقية الوترية القديمة، ويوجد منها نوعان الأفقي والعمودي. وجاء في كتاب «تاريخ عادات اجتماعية» للمؤلف ينغ شاو في أسرة هان الشرقية أن «الموسيقار هويتان صنع آلة كونغهو الأفقية في عهد الإمبراطور هان وو دي، وشكلها يشبه العود تشين، ولكنها أصغر منه بكثير، وتحوي سبعة أوتار، ويعزف عليها بتحريك الوتر. وآلة كونغهو العمودية عبارة عن آلة تشين العمودية في السابق، دخلت إلى الصين من السهول الوسطى في المناطق الغربية فيما بعد في عهد أسرة هان، وهي آلة موسيقية فارسية قديمة، وهيكلها متعرج وطويل وجميل، ويحوي اثنين وعشرين وترا (يقول البعض ثلاثة وعشرين وتراً)، يعزف عليها بنقر الأوتار باليدين ويحتضنها الموسيقار أثناء العزف، وانتشرت انتشاراً كبيراً في أسرتي وي وجين. وهناك العديد من أشعار أسرة تانغ التي تناولت الآلة الموسيقية كونغهو، ووصفت أحوال عزف شباب بستان الكمثرى على كونغهو وصفاً حيوياً.

(5) مزمار بيلي: من آلات النفخ الموسيقية، انتقل من بلاد فارس إلى الصين عن طريق «طريق الحرير البري» في مرحلة الأسر الجنوبية والشمالية، وانتشر على نطاق واسع في أسرتي سوي وتانغ، وهو عبارة عن مزمار عمودي به تسع فتحات، وترتبط به ارتباطاً وثيقاً موسيقات: قوتسي، تيانجو، وآنقوي، وشوليه، وقاوتشانغ، وذكر كتاب «سجل الأغاني الشعبية المتنوعة» أن عهد الإمبراطور دازونغ في أسرة تانغ شهد الجنرال المشهور وي تشي تشينغ الذي كان حاذقاً في العزف على مزمار بيلي، وبلغت مقدرته الفنية الذروة ولا تضاهيها كفاءة أخرى إلى الآن. وكان وانغ مانيو يتمتع بمهارة فنية غير عادية في ولاية يوتشيو، ولم يقتنع بالجنرال وي تشي وسافر إلى العاصمة للتباري معه، ولكن الأول لم يكترث به، ثم سمح له فيما بعد أن يدلف إلى بيته وإجراء مسابقة بينهما، وعزف وانغ مانيو لحن «أغنية ليبوذي» مستخدما ألحان شيه العذبة، وبعد أن انتهى من العزف بدا عليه الإرهاق وتصبب عرقاً من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه. أما الجنرال وي تشي فقد عزف لحن الأغنية ذاتها مستخدماً ألحان شيه العادية، واستحوذ على إعجاب وانغ مانيو الذي بكى بحرقة وقدم اعتذاره له. ويوضح هذا السجل أن مزمار بيلي كان منتشراً بين الطبقتين المتوسطة والدنيا في ذلك الحين.

(6) العود الصيني البيبا: من آلات العزف الموسيقية، ومتعدد الأشكال والأنواع، ومنها

البيبا تشين الذي كان نتيجة تطور الآلات الموسيقية القديمة في العصر القديم بالصين، ولكنه تأثر بموسيقى خو، وشكله دائري، وله قصبة مستقيمة، ورباعي الوتر، ويحتوي على اثنتي عشرة فونيمة، ونظراً لأن روان شيان وهو من «الفضلاء السبعة في غابة البامبو» فقد عزف على هذا العود، ولذا أُطلق عليه «روان شيان»، وأصبح يشمل ثلاث عشرة فونيمة. وفي الوقت الحاضر، يحتفظ معهد جينغ تسانغ في اليابان بعود «روان شيان» في أسرة تانغ. وهناك نوع آخر من البيبا، يطلق عليه تشيوي شيانغ دخل من المناطق الغربية في مرحلة الأسر الجنوبية والشمالية، وانتشر انتشاراً واسعاً في أسرتي سوي وتانغ، وجذب أعداداً كبيرة من المشهورين وأصحاب الكفاءات، وتوجد أشكاله في الرسوم الجدارية والتماثيل في مدينة هوانغ دونغ، ونظراً لاختلاف أشكاله أُطلق عليه البيبا قويتسي، والبيبا ووشانغ، والبيبا شياو خوليه، والبيبا داخوليه، والصفة المشتركة بينها أنها تشبه نصف الكمثرى. وتطور عود البيبا تشيوي شيانغ تطوراً سريعاً بعد أسرتي تانغ وسونغ، وأصبح فن العزف عليه ثرياً أكثر فأكثر، مثل بيبا عزف صدى الصوت، ووصفت العديد من قصائد أسرة تانغ عود البيبا، ومن أشهرها قصيدة الشاعر باي جيوي يي بعنوان «أنشودة البيبا».

المبحث السادس

فن معلقات الدوبيت

تعد معلقات الدوبيت Couplet (مقطع شعري مؤلف من بيتين) فناً فريداً ومميزاً في الصين، وتعلق على الأبواب في عيد الربيع ويطلق عليها «دوبيت عيد الربيع» أي «ترحيبة عيد الربيع»، وتندمج مع الأدب (كلمات الشعر) والخط، كما تنصهر مع النقش والنحت في بوتقة واحدة أحياناً، والدليل على ذلك هناك بعض معلقات الدوبيت من النقش الحجري والخشبي. ويهتم الفن الصيني اهتماماً كبيراً بالتجميل والتزيين، ومعلقات الدوبيت هي في حد ذاتها تعد نوعاً من فن التجميل والتزيين. ولكن مازال مضمونها عبارة عن المثل العليا والمشاعر والعواطف لدى الناس، ويحمل في طياته سعيهم وراء الجمال والخير بصورة حقيقية. وتأثير فن الدوبيت يكمن في تجميل البيئة الموضوعية وإثارة روح ومشاعر الناس. وتتحلى معلقات الدوبيت الجيدة بالقيمة الأدبية والقيمة الجمالية العالية.

ويرجع مصدر الدوبيت في الصين إلى تميمة خشب الدراق في العصر القديم. وذكر «كتاب الجبال والبحار» أن جبل دوصو في البحر الشرقي كان يحوي العديد من أشجار الدراق، وفوقها يقيم الإلهان تو، ويوه ليه اللذان يستطيعان السيطرة والهيمنة على مئات الشياطين، ويستطيعان تكبيل أقدامها بحبال من القصب وتقديمها طعاماً سائغاً للنمور. ولذلك، كان الإمبراطور هوانغ (الأصفر) عندما يقيم الطقوس في عشية رأس السنة الجديدة أو في أول أيام عيد الربيع، كان يعلق على الباب تمثالاً خشبياً لرجل مصنوع من خشب شجرة الدراق، ويرسم صورة «الإلهين» تو، ويوه ليه حتى يتحاشى الشياطين ويطرد الأرواح الشريرة. وأصبح ذلك عادة اجتماعية فيما بعد، إن يعلق الناس تميمة خشب الدراق في عيد الربيع سنوياً. وجاء في سجل وثائقي، أنه بعد الأسر الخمس، وعندما كان إمبراطور مملكة شو ويدعى مينغ تشانغ يحتفل برأس السنة الجديدة، كتب على باب غرفة نومه الخارجي جملتين مشهورتين: «العام الجديد يجلب الخير، وأفضل الأعياد أن يستمر عيد الربيع طويلاً». وهناك اعتقاد –بصفة عامة– أن ذلك يعتبر أول دوبيت في الصين. ولكن المفكر تان سي تونغ ذكر في كتابه «معارف مدينة شي جون نينغ» أن الأديب ليو شياو تشوا في مملكة ليانغ في الأسر

الجنوبية رفض أن يكون مسؤولاً واعتزل الدنيا واعتكف في بيته، وكتب جملتين على باب داره جاء فيهما: «أوصد باب داري، وأرفض التهاني والعزاء، أخلد إلى النوم وأرفض زيارة المسؤولين»، ثم كتبت شقيقاته الثلاث جملتين أيضاً هما: «نجمع الأزهار المتساقطة وتصبح كومة، ونقطف زهور السحلب وتنمو من جديد». ويعتقد تان سي تونغ أن ذلك بالرغم من أنه يشبه الشعر، ولكن الطباق والمقابلة جميلان ودقيقان، وكُتب على باب الدار، ويجب أن يكون بداية معلقات الدوبيت. وشهدت السنوات القليلة الماضية اكتشافاً في محافظة هوانغ مين في مقاطعة خوبي، حيث أُظهر مزارع الدوبيت الذي كتبه الخطاط المشهور وانغ شي جي، وجاء فيه: «المقال يحوي كافة الكائنات والمخلوقات، ويعتبر الإخلاص والبر بالوالدين أجمل صورة». وإذا كان من الآثار الحقيقية لهذا الخطاط، إذن، فإن نشأة معلقات الدوبيت ليست في الأسر الخمس، ولا في مملكة ليانغ في الأسر الجنوبية والشمالية، ولكنها كانت في عصر أسرة جين.

وفي الحقيقة، إن شكل معلقات الدوبيت يمكن أن يرجع مصدرها إلى جمل الطباق والمقابلة في كتابي «كتاب الأغاني» و«ديوان الشعر في مملكة تشو»، ومثال ذلك ما جاء في الكتاب الأول من طباق مثل: «أمس خرجت مع الجيش للقتال، ويصعب عليَّ فراق أشجار الصفصاف، واليوم أعود إلى داري بعد شوق ولهفة، والثلوج تتساقط من السماء تباعاً»، كما جاء أيضاً في الكتاب الثاني أن: «أشد آلام الحزن قسوة تكمن في فراق الأحباء وهم أحياء، وألذ أنواع السعادة مصادقة صديق جديد». وكانت المقامات الشعرية في أسرتي وي وهان وفي الأسر الست الإمبراطورية تشمل على العديد من مثل تلك جمل الطباق والمقابلة وأسلوب الكتابة المتوازية المسجوعة، وتأسيساً على ذلك نشأ شعر العروض الذي يتحلى بالدقة والعناية الصارمة في أسرة تانغ، ومن بينها طباق هان (طباق الجمل الثلاثية أو الرباعية)، وطباق جينغ (الجمل الخماسية أو السداسية) وفي الواقع، يعتبر ذلك من الطباق والمقابلة، ومثال ذلك ما ذكره الشاعر وانغ باو: «الصديق الحميم قريب وإن نأت دياره»، وكذلك ما ذكره الشاعر وانغ وي: «الرياح العاتية تثير الزوابع في الصحراء الشاسعة، وقرص الشمس يسطع على صفحة مياه النهر الأصفر». وبالإضافة إلى ذلك، انتشر في أسرة تانغ نشاط خاص من جمل الطباق والمقابلة؛ حيث يتناول نفرُ من الأفراد جمل الطباق والمقابلة التي تجاوزت

أسلوب جمل الطباق المألوفة من خمس أو سبع كلمات، حيث تكون البداية كلمة، ثم يتسع نطاق الطباق ويشمل تسع كلمات أو أكثر من ذلك. ومثال ذلك، في أسرة تانغ الوسطى، تبادل يان وي ومعه سبعة أفراد مفردات الطباق بدأت من كلمة واحدة إلى تسع كلمات يقابل كل منها الآخر. ولذلك، لا غضاضة أن نعتقد أن عصر أسرتي جين وتانغ شهد نشأة وتكوين شكل الدوبيت وجمل الطباق والمقابلة في المقطع الشعري المألوف من بيتين. ولكن كتابة تميمة شجرة الدراق على الأبواب أصبحت نوعاً من فن التزيين في عيد الربيع أو ربما يعود تاريخها إلى الأسر الخمس.

وإذا قلنا إن معلقات الدوبيت نشأت في الأسر الخمس، إذن، فإنها تطورت في عصر سونغ، وانتشرت وازدهرت في عصر مينغ وتشينغ. والمعلومات المتوفرة توضح أن معلقات الدوبيت حظيت بقبول وحب الأدباء والباحثين في عصر أسرة سونغ بصفتها من المنتجات الفنية التي تزين البيئة الحياتية، وأصبح كتابة هذه المعلقات عادة اجتماعية وجسد بعض الأدباء من خلال معلقات الدوبيت تطلعاتهم وطموحاتهم ومشاعرهم، وبعضهم استخدمها في تزيين القاعات والمكاتب والدواوين الخاصة بهم من أجل إظهار ذوقهم الرفيع وأسلوبهم الأنيق. وكان الشاعر صوشي في أسرة سونغ الشمالية والفيلسوف جوشي في أسرة سونغ الجنوبية يعشقان كتابة معلقات الدوبيت. ويذكر سجل تاريخي، إن صوشي كان في ولاية هوانغ وصادف زيارته لصديقه في عشية رأس السنة الجديدة، وكتب الدوبيت الآتي على باب دار صديقه جاء فيه: «الباب واسع وضخم يتسع لمائة حصان، وصحن الدار واسع وفسيح يتسع لمائة رجل يمرحون». وتنتشر العديد من القصص حول مهارة صوشي في الطباق والمقابلة بين جماهير الشعب إلى الآن. وفي «الأعمال الكاملة للفيلسوف جوشي» نجد العديد من معلقات الدوبيت التي كتبها جوشي مثل: «الشمس والقمر هما عينان للأرض والسماء، والشعر والكتب هما قلب الفضلاء»، ويعكس ذلك بجلاء آراء جوشي الفلسفية. وكانت معلقات الدوبيت تعلق في المعابد والأديرة والقاعات والحانات والبنايات في عصر يوان. وجاء في سجلات وثائقية أن الإمبراطور شي زو في أسرة يوان طلب فجأة من الخطاط تشاو مينغ فوا أن يكتب على باب القاعة إحدى معلقات الدوبيت، فكتب تساو: «نور الشمس وضياء القمر يضيئان السماء، والجبل والنهر يضفيان جمالاً على قصر الإمبراطور».

وتذكر وثيقة أخرى أنه عندما كان الخطاط تشاو في مدينة يانغتشو ومر أمام برج مينغ يوه، طلب منه صاحبها أن يكتب له دوبيت. وفي عصر مينغ، ونظراً لأن الإمبراطور جو يوان تشانغ كان يعشق الأدب والإبداع الأدبي، ولذلك، شجع معلقات الدوبيت تشجيعاً كبيراً وانتشرت على نطاق واسع، وقد قيل إنه أصدر أوامره في عشية رأس السنة الجديدة لكي تكتب كل أسرة في المدينة دوبيت عيد الربيع، ثم ارتدى ملابسه البسيطة وتجول في المدينة، فرأى أسرة لم تعلق الدوبيت على باب دارها، وسأل عن السبب، وعرف أن هذه الأسرة ليس لديها من يكتب لها دوبيت، فاستل قلمه وكتب لها بيده هذا الدوبيت: «أيديكم تصنع الحد الفاصل بين الموت والحياة، وبضربة سكين تستأصلون الجذور». وقد قيل إنه كتب العديد من معلقات الدوبيت، وكان يقدمها هدية للجنرال الكبير شيوه دا. وانتشرت معلقات الدوبيت انتشاراً كبيراً منذ عصر تشينغ، وشهد مضمونها وشكلها تغيراً هائلاً؛ فمن حيث الشكل، ظهر العديد من معلقات الدوبيت الطويلة، حيث كان الدوبيت الواحد يحتوي على عدة مئات من الكلمات، وبعض هذه المعلقات اشتملت على أكثر من ألف كلمة، أما من حيث المضمون، فيمكن أن تعبر المعلقات عن الطموحات والتطلعات والمناسبات السعيدة، كما يمكن أن تجسد الآلام والأحزان، والتهكم والسخرية، ويمكن أن تنقسم إلى دوبيت الأبواب، ودوبيت المقار، ودوبيت المراثي، ودوبيت الغرف وغيرها كثير. ولكن لا يزال دوبيت عيد الربيع الأكثر انتشاراً بين صفوف الشعب؛ لأنه أصبح جزءاً من احتفالات عيد الربيع في الصين.

وقد تطور الدوبيت من الشعر الكلاسيكي الصيني، وتتشابه سماته الفنية كثيراً مع خصائص هذا الشعر من الاهتمام بالدقة المحكمة، والمقابلة والطباق، والنغمتين الشعريتين المنبسطة والمتموجة. ويبرز الدوبيت للعيان الشكل الجميل من التناظر المتناسق الرائع، والقوافي الجميلة من تنغيم الصوت، ووصف المشاهد والأشياء ينطوي على الإيحاء الفني الجميل، والتعبير عن الطموحات والتطلعات تعكس الحكمة الجميلة، ولذا من الصعب أن نكتب الدوبيت الجميل الرائع. ونقول بصفة عامة، إن الدوبيت يهتم -**في المقام الأول**- بتساوى عدد الكلمات في بيتي الشعر الأعلى والأسفل، ويعتبر ذلك الخاصية الأكثر أهمية في الدوبيت، أما عدد الكلمات يمكن أن يكون غير محدد، ولكن على الأقل كلمة والمقابل

لها، ومثال ذلك، بعد حادثة 18 سبتمبر عام 1931، كتب أحد الأشخاص مرثاة دوبيت تأبيناً للمنكوبين في الحادثة، كتب في بيت الشعر العلوي كلمة «الموت»، وفي بيت الشعر السفلي كلمة «الحياة»، معبراً عن تفضيل الموت واقفاً، ورفض الحياة جاثياً على ركبتيه. وأطول دوبيت كان يتألف من ألف وستمائة واثنتي عشرة كلمة، كتبها الأديب تشونغ يوان فانغ من مقاطعة سيتشوان في أواخر أسرة تشينغ. **ثانياً**: تشابه خصائص الكلمة كما جاء في دوبيت معبد مينغ جينغ نيو في مدينة تشين هوانغداو. **ثالثاً**: الهيكل المناسب والملائم؛ بمعنى أن هيكل تركيب الجملة في بيتي شعر الدوبيت يكون متناسقاً ومترابطاً، حيث تركيب المسند والمسند إليه في البيت الأول يقابل تركيب المسند والمسند إليه في البيت الثاني، وعلى غرار ذلك يكون تركيب المصدر ومفعوله، وتركيب المضاف والمضاف إليه، ومثال ذلك دوبيت ينبوع باوتو في مدينة جينان:

ماء صاف عند أقدام بوذا، يتدفق ويتدفق ويتدفق بلا انقطاع، يتدفق في فرعين من اليشم

وماء جار عند منبع النهر، يتدافع، ويتدافع، ويتدافع باستمرار، ويتدافع في عنقود من اللآلئ.

رابعاً: التوازن النسبي في النغمتين الشعريتين المنبسطة والمتموجة، بمعنى أن البيت الأول من المقطع الشعري يستخدم كلمات ذات النغمة الشعرية المتموجة، بينما البيت الثاني يجب أن يستخدم كلمات ذات النغمة الشعرية المنبسطة، ومثال ذلك الدوبيت المزدوج المكتوب أمام قبر يوه فيي في البحيرة الغربية في مدينة هانتشو. والنغمتان الشعريتان المنبسطة والمتموجة في الدوبيت استخدامهما ليس مطلقاً، بل نقول بصفة عامة يتعين عدم استخدام كلمات تفسد المعنى والمغزى في الدوبيت، ولذا يجب المرونة في بعض كلمات الدوبيت كما جاء في الدوبيت البوذي في معبد تان تشه في العاصمة بكين.

ويمكن استخدام طرق عديدة في كتابة معلقات الدوبيت إذا استخدمنا الطباق والمقابلة بصورة محددة والشيء الأساسي هنا هو «تفكيك الرمز الصيني» المستخدم في الدوبيت، ومثال ذلك الرواية التي تحكي أن الإمبراطور جو يوان جينغ ارتدى ملابسه البسيطة وتجول في المدينة، وقابل مثقفاً بالمصادفة من مدينة تشونغ تشينغ، وجال بخاطره أن يجرب قدراته ومهارته في كتابة الدوبيت، فقال:

تشونغ تشينغ تتألف من تشيان ولي، وفيها جبال كثيرة وأنهار عديدة، إنها تشونغ تشينغ الجميلة. وفي هذا الدوبيت، قام الإمبراطور بتفكيك الرمز الصيني لكلمة (تشونغ) الذي يتألف من المقطعين الصينيين (تشيان، لي).

وهناك أنواع عديدة ومختلفة من معلقات الدوبيت، منها «الدوبيت المرصع بالكلمات» مثل مرثية الدوبيت للشهيدة تشيو جينغ، والدوبيت الذي كتبه أحد الأشخاص بعد أن استولى الرئيس يوان شي كاي على العرش عنوة، وجاء فيه:

«الشعب هو الشعب، والبلاد هي البلاد، ولا تقسم الدولة إلى شمال وجنوب،

الإيجاز والاختصار، رئيس البلاد قصير العمر وليس شخصاً مهماً».

وهناك معلقات الدوبيت التي تتألف من «تكرار الكلمات»، ومثال ذلك دوبيت حديقة وانغشي في مدينة صويتشو، وجاء فيه:

«الريح الريح المطر المطر،الدفء الدفء البرد البرد،نبحث نبحث في كل مكان في كل مكان،

طائر الصُفارية الصفارية، طيور السنونو طيور السنونو، الأزهار الأزهار أوراق الشجر أوراق الشجر، تغرد في الصباح في الصباح في المساء في المساء.

ونذكر أيضاً معلقات الدوبيت التي تتألف من «الكلمات المعكوسة»، ومثال ذلك دوبيت معبد بوذا الكبير في محافظة شين تشينغ في مقاطعة تشجيانغ، وجاء فيه:

المارة يمرون أمام معبد بوذا الكبير،

الكبير بوذا معبد أمامه يمر المارة.

وهناك أيضاً معلقات الدوبيت من «الجناس»، ومعلقات الدوبيت التي تتألف من «كلمات مختلفة ونطقها متشابه»، ناهيك عن معلقات الدوبيت التي تشمل «كلمات متشابهة ونطقها مختلف».

والشكل الأدبي لمعلقات الدوبيت لا يجوز أن نعتبره نوعاً من التسلية الأدبية. ومن المنظور الشامل للثقافة الصينية، هناك علاقة وثيقة بين معلقات الدوبيت والرموز الصينية واللغة الصينية، كما أن الدوبيت جزء لا يتجزأ من مفهوم مقياس علم الجمال لدى الصينيين. والرموز الصينية هي عبارة عن مقاطع صينية، وتعبر عن المعنى والمغزى، وهي مقاطع هجائية

أحادية أيضاً، بينما الجزء الأساسي والأهم في اللغة الصينية، بل والجزء الأكثر حيوية يتألف من الكلمات الأحادية المقطع ذات المقاطع الهجائية الأحادية مثل: السماء، الأرض، الشمس، القمر، الرياح، السحب، الجبل، الماء، كثيراً، قليلاً، أولاً، أخيراً، أعلى، أسفل، الربيع، الخريف، يوجد، لا يوجد، حضر، ذهب...إلخ. وتنقسم هذه الكلمات الأحادية المقطع إلى النغمات الأربع القديمة وهي: بينغ، شانغ، تشيو، رو، (وتغيرت هذه النغمات في الوقت الحاضر وأصبحت: يان بينغ، يانغ بينغ، شانغ بينغ، تشيو بينغ) كما أن الكلمات الأحادية المقطع ذات الخواص المتشابهة تنقسم إلى النغمتين الشعريتين المنبسطة والمتموجة، ومثال ذلك، السماء (نغمة شعرية منبسطة)، والأرض (نغمة شعرية متموجة)، أولاً (منبسطة)، أخيراً (متموجة)، رجل (منبسطة)، أنثي (متموجة)، كثيراً (منبسطة)، قليلاً (متموجة)، يحضر (منبسطة)، يذهب (متموجة)، جبل (منبسطة)، ماء (متموجة). وترتيب هذه الكلمات الأحادية المقطع في رتل، تكون الأكثر قدرة على تجسيد الطباق والمقابلة والأكثر دقة وإحكاماً، وتبرز للعيان خصائص تنغيم الصوت، ويتناسب ذلك كثيراً مع سعي الصينيين وراء مقياس الجمال. فعلى سبيل المثال، الشاعر ون تينغ جون في قصيدته «نزهة في جبل شانغ صباحا» يستخدم عشرة أسماء من كلمات أحادية المقطع فقط، ويشكل أسلوباً فنياً في غاية الروعة والجمال ويأخذ بمجامع القلوب، وذلك كما جاء في قصيدته على النحو التالي: «الدجاج الصوت القش الكوخ القمر إنسان مؤثر لوح جسر صقيع». فالشاعر هنا يصف منظراً ريفيا ساعة خروجه من كوخه ليبدأ رحلته، ويقول إن القمر معلق فوق الكوخ، وزقزقة الطيور تصدر صوتاً موسيقياً مؤثراً، والجسر الخشبي لا يمر أحد فوقه، ولا يوجد سوى وقع أقدامي فوق الصقيع. وعند ترجمة ذلك إلى لغمة أجنبية، نحتاج إلى أدوات التعريف وأدوات الربط، بل يجب أن نولي اهتماماً كثيراً للصيغة الزمنية وتصريف الأفعال، وكيف يمكن أن يصبح ذلك من معلقات الدوبيت التي تتحلى بالطباق والمقابلة والإيجاز المحكم؟

ومن وجهة نظري الشخصية، نقول إن الدوبيت يمكن أن يبرز للعيان ذكاء المرء وحكمته وفطنته، لأنك إذا أردت أن تكتب الدوبيت المزدوج؛ يجب عليك أن تتحلى بالمعارف الواسعة، ورد الفعل السريع، وسرعة البديهة. ولذلك، كان الدوبيت يعتبر مقياساً لذكاء المرء وقدرته في العصر القديم. وقد قيل إن الإمبراطور لونغ تشيان فكر ملياً في البحث عن طباق

يتألف من كلمتين مقابل «أمائر الوجه الحزينة»، وقدح زناد ذهنه دون أن يتوصل إلى طباق جميل، ثم راح يبحث عن جي يون مؤلف «الكتب الكاملة حسب الأقسام الأربعة» الذي أجاب عن سؤاله المحير، وأشرقت أمام الإمبراطور الحقيقية فجأة. وقد قيل إن شياجين الذي قام بإعداد وتحرير «القاموس الكبير يونغ ليه»، كان حاضر الذهن والبديهة للغاية في طفولته، وعندما كان يطالع كتاباً قطف كومة من الأزهار يلهو بها، ولم يأخذ حذره، ودخل عليه مُعلمه، فأخفى الأزهار في كمه، ولكن لمحه مُعلمه الذي أنشد في التو دون تفكير:

الطفل الغرير يخفي جمال الربيع في كمه،

فرد عليه شياجين في مقابلة قائلاً:

الرجل الكبير يرقب بجلاء وبرة خريفية.

وبعد أن شب عن الطوق قليلاً، دعاه مسؤول كبير لاختبار قدراته، وأشار إلى رقعة شطرنج وطلب منه أن يفكر في دوبيت، فقال:

إذا كانت السماء رقعة شطرنج مرصعة بالنجوم، فمن يستطيع أن يلعب شطرنجاً؟!

فقال هذا المسؤول:

وإذا كانت الأرض عود البيبا، والطرق تزخر بالأوتار، فمن يستطيع أن يعزف؟!

وقد رآه المسؤول يرتدي سروالاً أخضر، ويشبه الضفدع كثيراً، فقال الدوبيت:

ضفدع يخرج من الماء يرتدي سروالا أخضر، بهي الطلعة وعيناه جميلتان؛

وعندما رأى شياجين المسؤول يرتدي سروالاً أحمر، ويشبه الربيان الأحمر كثيراً، أنشد الدوبيت:

يرتدي سروالاً أحمر وظهره مقوس مثل ربيان أحمر في شربة ساخنة.

وأبدى هذا المسؤول إعجابه الشديد والفائق بشياجين وزوجه ابنته.

ومن منظور الحياة الاجتماعية، كان الأقدمون يستخدمون معلقات الدوبيت في إيجاد حل للمشاكل الكبرى في المجال العسكري والدبلوماسي والقانوني. وفيما يبدو قد ينطوي ذلك على الفكاهة والظرف، ولكن في ظل الاهتمام بالكتابة والقدرة على ضبط النفس، فقد جسدت هذه المعلقات بعض الحوادث الحقيقية التاريخية المحددة، فعلى سبيل المثال، تذكر حكاية شعبية أن باو قونغ استخدم الدوبيت في كشف النقاب عن قضية جنائية، كما

إن الشاعر صوشي استغل الدوبين في السيطرة على مبعوث مملكة لياو، كما استغله المسؤول الكبير في عصر مينغ في سحب قوات الدولة.

الفصل الخامس عشر

العادات والتقاليد

تشكل كل أمة في عملية التطوير التاريخي أسلوب حياتها المختلف وسلوكياتها المتباينة الخاصة بها جراء اختلاف الظروف الطبيعية والبيئة الاجتماعية، وهذا ما يطلق عليه الناس دائماً العادات والتقاليد. ولذلك جاء في القول المأثور: «تتباين عادات الناس وتختلف عقائدهم بين الأماكن القريبة والقاصية». ومن منظور ملاحظة الثقافة والأبحاث الثقافية، فإن عادات وتقاليد أمة ما هي الأكثر قدرة على تجسيد سيكولوجية هذه الأمة وتطلعاتها وطموحها وعقائدها وتطورها التاريخي بصورة كاملة. وهناك بعض علماء الثقافة المشهورين في العالم كلهم تقريباً درسوا ثقافة أمة ما انطلاقاً من ملاحظة عاداتها وتقاليدها. ومثال ذلك، الباحث الأمريكي Robert Hlowie في كتابه «الثقافة وعلم الأعراق البشرية» الصادر في عام 1929، استخدم أكبر مجموعة ضخمة ومتنوعة من العادات والتقاليد في مقارنة الخصائص الثقافية بين الأمم المختلفة، ناهيك عن الباحث الأمريكي Joseph Braddock مؤلف كتاب «سرير الزفاف» الذي قارن فيه بين ثقافات الأمم المتباينة انطلاقاً من عادات الزواج. ولذلك، علماء الثقافة وعلماء الأنثروبولوجية (علم السلالات) يبدؤون دائماً بحث ثقافة أمة ما ومعرفتها من خلال ملاحظة وفهم ومقارنة العادات والتقاليد لدى الأمم المختلفة. ومن منظور الملاحظة الاجتماعية والدراسات الاجتماعية، فإن تطور العادات والتقاليد وتغيرها يعكس تطور وتغيير المجتمع في أغلب الأحايين، وسياسة الاستجابة التي تقوم بإعدادها العادات والتقاليد في الأمة تعتبر عنصراً ضرورياً لصيانة الاستقرار في المجتمع ودفع التطور الاجتماعي إلى الأمام. وتهتم التقاليد الثقافية في الصين بـ«الدين والسياسة» و«التثقيف التربوي»، ولذلك نلاحظ دائماً العادات والتقاليد انطلاقاً من إدارة شؤون المجتمع؛ مما يؤكد تغيير العادات والتقاليد السائدة. ومن منظور حماية النظام الحاكم، نعتقد أن «قوة ونشاط الدولة يتواجدان في العادات والتقاليد بصورة كاملة، وجوهر العادات والتقاليد يكمن في تطبيق النظام الاجتماعي والقوانين، والسلطة السياسية هي عنصر أساسي وتكمن قوتها في مناقشة العادات والتقاليد وتغييرها حتى تصبح رفيعة الذوق وصائبة ونبيلة، ولذلك قام ينغ شاو في أواخر أسرة هان الشرقية بتأليف كتابه «تاريخ العادات والتقاليد» ربما يعد أقدم كتاب في الفولكلور في العالم.

ويوجد ست وخمسون قومية في الصين، عاداتها وتقاليدها مختلفة ومتباينة. إذن، ماهي الخصائص

المشتركة بين هذه القوميات؟

أولاً: التراكم التاريخي: ويعني ذلك أن معظم العادات والتقاليد لدى الصينيين تتمتع بالمصدر التاريخي القديم عميق الأغوار، واجتازت عملية التغيير الطويلة جداً.. والسبب في ذلك بسيط جداً. ويكمن في أن تاريخ الصين يضرب بجذوره في أعماق التاريخ. وكافة أنواع العادات والتقاليد في غضون عدة آلاف سنة خلت شكلت عواطف الناس ومشاعرهم وعقائدهم وآمالهم وسعيهم الدؤوب في الحياة، كما أن الأسلوب البطيء في تغيير هذه العادات والتقاليد يعكس مستوى الحياة المادية في مرحلة تاريخية محددة. ومثال ذلك، عادة تقديم القربان للأسلاف والأجداد نشأت في المجتمع البدائي منذ أربعة آلاف سنة خلت، وأبرزت للعيان مشاعر الخلف تجاه السلف من التقدير والاحترام وإحياء الذكرى، واعتقدوا أن الأجداد والأسلاف أنجبوا الأجيال اللاحقة، وتكمن عظمتهم في وظيفة التناسل لديهم، ومن ثم كانت البداية الحقيقية لعادة تقديم قربان الأجداد التي انبثقت من عادة التوالد والتناسل. ولكن الناس اعتقدوا أن روح الميت لا تموت في المجتمع البدائي، ثم قدموا طعامهم قرباناً لأجدادهم احتراماً وتقديراً، وفي البداية كانوا يقدمون لهم الأسماك والطيور والثمار البرية، ثم الخمور واللحوم فيما بعد على وجه الخصوص. ومع تأسيس النظام العشائري وتطوره، ظفر الأجداد بلقب إله كل أسرة وكل عشيرة، وتمتعوا بالقرابين الأكثر خشوعاً التي يقيمها الأبناء والأحفاد على مدى الدهر، بالإضافة إلى أن الأشياء التي تُقدم في القرابين أصبحت أكثر وفرة وثراء يوماً بعد يوم، ثم تطورت -فيما بعد- واشتملت على ورق النذور والملابس الورقية. ولذا، لم يضطلع الأجداد والسلف بوظيفة إنجاب الأجيال اللاحقة فقط بعد تشكيل النظام العشائري، بل التزموا بضمان ازدهار العشيرة وتطورها، وتحقيق الأمان والطمأنينة والصحة والعافية للعائلة. وفي المرحلتين المتوسطة والمتأخرة للمجتمع الإقطاعي، ارتبطت أنشطة قرابين الأجداد من «ترتيب شؤون البيت، وإدارة شؤون البلاد، وتحقيق السلام والأمان في الدولة، بالمطالب السياسية، واعتبر ذلك «أهم شيء في الحياة». كما اعتبر الناس الكمال الذاتي في الانصياع للتعاليم الإقطاعية والأخلاق الإقطاعية بمثابة أفضل طريقة لرد جميل الآباء والأجداد. ومن ثم، الأفراد من ذوي المآثر والمنجزات والشهرة العريضة والذين يعودون إلى وطنهم بملابس حريرية، يعتبرون أنفسهم دائماً أنهم كسبوا المجد والشرف للآباء والأجداد (فكرة إقطاعية روجت لها طبقة الأسياد)، كما أن الأفراد الذين أفل نجمهم بسبب الأوضاع

المادية للأسرة أو لم يحرزوا ثمة منجزات، يشجبون أنفسهم دائماً في سويداء قلوبهم، ويشعرون بوخز الضمير تجاه «أجيال السلف المتعاقبة». وكان إضفاء الطابع الأخلاقي والسياسي على أنشطة قرابين الأجداد بمثابة الثمرة الناتجة عن تطور النظام الاقتصادي منذ ردح طويل، ويشمل ذلك جميع أنواع التراكمات الفسيولوجية والأخلاقية والسياسية والدينية التي أظهرت التراكم التاريخي من التقاليد هذه القرابين. وكذلك مثل تناول كعك عيد البدر في الخامس عشر من شهر أغسطس، فقد قيل إن هذه العادة نشأت في أواخر أسرة يوان، وكانت -بادئ ذي بدء- من أجل مقاومة الحكام في أسرة يوان باعتبارها وسيلة لنقل المعلومات بين الناس، ثم تطورت وأصبحت عادة وتقليد رويداً رويداً فيما بعد، ولكن مصدر ذلك يرجع إلى عبادة البشرية للقمر في العصور السحيقة وأشكال أنشطة عبادة القمر في أسرتي هان وتانغ، ويتطلع الناس بشغف في هذا اليوم إلى لّم شمل الأسرة، واجتماع شمل الزوج والزوجة. وعندما أصبح الصراع عنيفاً وشرساً في أواخر أسرة يوان، اكتسبت أنشطة عبادة القمر في اليوم الخامس عشر من أغسطس مضموناً جديداً، وأظهرت عقيدة شعب قومية الهان من المطالبة بتحقيق الاتحاد الذاتي. ويعد هذا التغيير نوعاً من التراكم التاريخي.

ثانياً: التعددية: بمعنى أن العادات والتقاليد تتحلى بتعدد القوميات، وتعدد المناطق والأنظمة. وتشكلت العادات والتقاليد المختلفة جراء اختلاف القوميات وتباين المناطق، وهذه القصة من السهل جداً. إدراكها وفهمها. وتتحلى كل قومية بأسلوبها في الجنازة والزواج والقربان، كما تتمتع بأسلوبها المميز في المأكل والمشرب والإقامة والسلوك. والناس الذين ينتمون إلى قومية واحدة، ويقيمون في مناطق مختلفة، يتحلى كل منهم بالعادات والتقاليد الخاصة المختلفة. وتقطن قوميات يي، وليسو، ولاقو، وناشي في المنطقة الجنوبية الغربية، وتحتفل كلها بـ«عيد المشاعل»، ولكنها تختلف فيما بينها بخصوص أصل وفصل هذا العيد وطريقة رفع المشاعل، ويوضح ذلك الاختلاف بين هذه القوميات فيما يتعلق بفهم وشرح النار والنور؛ حيث أن قومية يي تعتقد أن النار يمكن أن تقضي على الجراد، وتعتقد قومية آشي وقومية باي أن النار يمكن أن تخلص الإنسان من هيمنة ملاك العبيد وسيطرة الدولة، وترى قومية ناشي أن النار تستطيع أن تقدم النجدة والمساعدة للإنسان، بينما أرتأت قومية لاقو أن النار يمكن أن تطرد الأرواح الشريرة. أما عادات الزواج لدى كل قومية فهي أكثر اختلافاً وتظهر فروقاً شتى، كما تظهر الجمال الرائع، والسبب في ذلك يرجع

إلى اختلاف مراحل التطور الاجتماعي التي شهدتها كل قومية، ولذا تعرضت لتأثيرات الأعراف الإقطاعية المتباينة. ومن المنظور الشامل، نجد قيود الزواج شديدة وعنيفة لدى قومية الهان، بينما عادات الزواج في الأقليات القومية في مقاطعة يونان تمنح قسطاً أكبر من الحرية للفتى والفتاة. ويعتبر ذلك من عادات وتقاليد القوميات المتعددة في المناطق المختلفة. والعادات والتقاليد في الأنظمة المتعددة تشير إلى الآلهة في جميع النظم الموجودة في العادات الشعبية. وتعرف الصين عبادة تعدد الآلهة منذ القدم، وتعتقد أن كافة الموجودات والكائنات في الكون لها آلهة، فهناك إله السماء، وإله الأرض، وإله الشمس، وإله القمر، وإله الجبال، وإله الأنهار، فضلاً عن الآلهة داخل البيوت مثل إله الباب، وإله الموقد. ولكن الصين –دائماً وأبداً– لم تعرف آلهة تهيمن وتسيطر على كافة الأشياء وجميع الموجودات في هذه الدنيا. وعندما دخلت الديانة البوذية الصين، وبعد نشأة الديانة الطاوية، تأسس تدريجياً النظام الكبير من الثالوث: الكونفوشيوسية، والبوذية والطاوية، كما تكوّن بعد ذلك نظام الثالوث الإلهي بين صفوف الشعب من دمج هذه الديانات الثلاث في بوتقة واحدة. وهناك سجلات مهمة حول هذا الموضوع في كتاب «الموسوعة الكبيرة في الديانات الثلاث» التي تم إعدادها وتأليفها في عصر مينغ. وفي عملية التطور التاريخي الطويلة جداً، اتسم كل نظام من الأنظمة الإلهية بالصفة المميزة المتباينة الخاصة به، ويرتبط ذلك بنشأة المعتقدات لدى الصينيين، وأوجد كافة العادات والتقاليد الدينية المختلفة. وعلى الرغم من نشوب الصراع بين هذه الديانات الثلاث، ولكن لم يؤد هذا الصراع بالضرورة إلى فناء ديانة على حساب حياة ديانة أخرى.

ثالثاً: الاندماج المتبادل: ويعني ذلك أن العادات والتقاليد في كافة القوميات تشهد التأثير المتبادل والاندماج المتبادل، وتتمتع بالخاصية المميزة من السعي وراء التطور المشترك. وفي هذه العملية، ونظراً للثقافة المتطورة نسبياً في قومية هان، كان قوة تأثير هذه الثقافة وقوة اندماجها الأكبر إلى حد ما. ومعظم الأقليات القومية التي دخلت السهول الوسطى تأثرت بثقافة قومية هان. وتفيد سجلات تاريخية أن الإمبراطور شياو ون في مملكة وي الشمالية (386 – 534) قام بإصلاح وتقويم العادات القديمة لدى قومية شيانبي القديمة، ويعتبر ذلك حادثة الأكثر نموذجية في هذا الخصوص. وفي مجال مراسم الجنازة، نستطيع أن نرى قوة تأثير ثقافة قومية هان. وتشجع قومية هان الدفن الترابي، والدفن المحكم المتقن، ولاسيما أن الأباطرة والملوك وكبار المسؤولين أسسوا نظام المقابر

الملكية المحدد في عصر أسرتي تشين وهان. وتأثر سائر الحكام في الأقليات القومية بمراسم قومية هان في تشييع الجنازة، وتجلى ذلك في أن قومية التبت تدعو إلى الدفن الشمسي (الهوائي)، ولكن ملوك التبت في مرحلة قومية توفان (قومية في الصين القديمة) شيدوا المقابر ووصفوا الشاهدات، والملك شيشيا في عصر سونغ والملوك في مملكة لياو بنوا المقابر والضرائح أيضاً. وبعد أن سيطر أهالي أسرة جين على السهول الوسطى، قام الأباطرة بدراسة أسلوب أهالي قومية هان في بناء المقابر بصورة كاملة، وفي منطقة فانغشان في العاصمة بكين اليوم، توجد مقابر أسرة جين ذات النطاق الواسع العظيم. وقبل أن يعبر أباطرة وملوك عصر تشينغ أراضي الصين قاموا بمحاكاة طريقة الدفن لدى قومية هان، ثم شيدوا المقابر الشرقية والمقابر الغربية بعد أن سيطروا على الصين، والتي تشبه المقابر الثلاث عشرة لأسرة مينغ تماماً. ومن بين أباطرة الأقليات الذين سيطروا على السهول الوسطى، كان أباطرة عصر أسرة يوان الذين تمسكوا بطريقة الدفن لدى الأرستقراطيين في منغوليا على النحو التالي: «عندما يقضي أحد الأرستقراطيين نحبه لا تشيد له مقبرة، بل يدفن في حفرة، ثم تدوس حوافر حصان سطح الحفرة وتسويها بالأرض، ويُذبح جمل فوق الحفرة، وتقوم وحدة فرسان قوامها ألف خيّال بحراستها، وفي العام التالي تنمو حشائش الربيع، وآنذاك يرحل أهل الميت ويفكون خيامهم، ويحدقون في الأفق البعيد في البرية، ولا أحد يعرف أنه توجد مقبرة». ولذلك لا نعثر في الصين على مقابر أسرة يوان. إن حياة القبائل الرعوية في منغوليا هي التي حددت طريقة الدفن هذه بصفة عامة، لقد حكمت أسرة يوان الصين زهاء مائة سنة وأكثر، ولكن طريقة الدفن لدى هؤلاء الرعاة في هذه الأسرة لم تغير طريقة الدفن لدى أهالي هان. وطبعاً، ومن منظور تاريخي، نجد أن قومية هان تأثرت في مجالات عديدة بالأقليات القومية. وكان بعض هذه التأثيرات كرهاً وقسراً ولم يدم طويلاً على وجه العموم؛ مثل أهالي أسرة تشينغ أطالوا ضفائر شعرهم، ولكن قصوها بعد ثورة 1911، وبعض التأثيرات كان إيجابياً، واستوعب عادات وتقاليد الأقليات الأخرى وأثرى حياة القومية الخاصة، ومثال ذلك، ترتدي النسوة في قومية هان تشيباو (فستاناً مقبباً مشقوق الجانبين) لقومية مان، ولا يزال حتى اليوم يعتبر أسلوباً لإظهار أزياء وحلية المرأة الهانية. إن الاندماج المتبادل في العادات والتقاليد يعتبر من الوسائل الكفيلة لتحقيق التعايش الودي طويل الأمد داخل أروقة الأمة الصينية.

المبحث الأول

الشاي والخمر وفن الطهي الصيني

في جنوب منطقة شيتشا في العاصمة الصينية بكين يوجد مطعم صغير معلق في داخله دوبيت مزدوج قديم مفاده: «شاي لويو، وخمر يوان ليانغ، وقائمة مأكولات وي جيا، والطباخ جندي مشاة». ويُجمل ذلك ثقافة الأكل والشراب في الصين من: الشاي والخمر وفن الطهي الصيني.

وقد أُطلق على الشاي تسميات عديدة وقديمة مثل: «تو، مينغ، جيا، تشوان»، وقد قيل إن إله الزراعة اكتشف الشاي. وجاء في «كتاب إله الزراعة والأعشاب الطبية» أن: «إله الزراعة تذوق مائة نوع من الأعشاب الطبية، وكان يتذوق اثنين وسبعين نوعاً من السموم في اليوم الواحد، وعندما شرب «تو» تخلص من هذه السموم. وكلمة «تو» تعني الشاي قديماً. وبعد عصر أسرة تانغ، تغير الرمز الصيني لكلمة الشاي وأصبح كما يستخدم في شكله الحالي، وذلك بسبب زيادة الرقعة المزروعة بالشاي زيادة هائلة وتنوع استخداماته يوماً بعد يوم. ويُعد اكتشاف الشاي واستعماله من المنجزات العظيمة التي قدمها الصينيون في تاريخ ثقافة البشرية، ولا يزال الشاي من المشروبات الثلاثة الرئيسية في العالم إلى الآن.

والصين هي مصدر الشاي في العالم، وشرب الشاي في الصين منبعه الأصلي في مقاطعة سيتشوان. وذكر سجل وثائقي أن الشاي في بادئ الأمر كان يعتبر نوعاً من العقاقير الطبية، وأدرك الناس –فيما بعد– من خلال الممارسة العملية في مجال الطب والدواء، إن الشاي لا يستخدم فقط في شفاء الأمراض، بل يمكن أن يخفض الحرارة، ويروي الظمأ، ومذاقه عطري، ورائحته شهية وذكية تعبق بالأنوف، ويُعد من المشروبات لذيذة الطعم جداً.. وقد قيل قبل عصر أسرة تشين، إنه كان يوجد رجل من مقاطعة سيتشوان زرع شاياً وشربه. وبعد أن وحد الإمبراطور الأول في هذه الأسرة الصين، انتشرت عادة شرب الشاي من سيتشوان، حتى في أسرة هان الغربية طرأ تغيير على الشاي من استعماله في المجال الطبي بصورة كاملة إلى احتسائه كمشروب. وفي مرحلة الممالك الثلاث، أصبح شرب الشاي عادة في جنوب حوض تشانغجيانغ. وفي أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية أصبح شرب الشاي

عادة شائعة في الشمال والجنوب، ويستخدم في تكريم الضيوف، وأصبح من وسائل أنشطة الاتصالات الاجتماعية، وظهرت مؤلفات أدبية تمتدح الشاي مثل «مقامة الشاي» من تأليف دويوه في أسرة جين. وبعد أسرتي تانغ وسونغ، انتشرت عادة احتساء الشاي انتشاراً واسعاً وانتقلت إلى الشمال الغربي ومنطقة التبت. وقامت بعض المدن في ذلك الحين بتدشين مقاصف شرب الشاي، كما قامت المراكب والعربات بنقل أوراق الشاي بلا انقطاع، وتم العثور على طقم شاي القصر الإمبراطوري في عصر تانغ في معبد فامين في محافظة فوفينغ بمقاطعة شنشى يوضح المراسم المحددة لشرب الشاي لدى الأرستقراطيين، ويعتبر ذلك بمنزلة «مراسم الشاي» في الصين. وفي عام 80م، عندما عاد الراهب البوذي الياباني، الذي كان يتعبد في معبد قوي تشينغ في جبل تيانتاي، إلى بلاده حمل معه بذور الشاي، وكان ذلك بداية تاريخ شرب الشاي في اليابان. وبعد القرن السابع عشر الميلادي، دخلت أوراق الشاي الصيني تباعاً إلى إندونيسيا، والهند، والرصيف القارى الأوروبي –الأمريكي، وأصبحت من المشروبات العالمية.

ومع تطور التاريخ تغير أسلوب الصينيين في شرب الشاي باستمرار، وفي عصر أسرتي تانغ وسونغ، انتشرت عادة غلي الشاي من خلال تقطيع أوراق الشاي وطحنها وتكوريها، وعند شرب الشاي تفتت كريات الشاي ويضاف إليها بعض التوابل قبل غليها مثل البصل، والزنجبيل، وقشر اليوسفي، والعُناب والملح. وهناك طريقة أخرى من طحنِ أوراق الشاي ونخلها جيداً، ثم غسلها بالماء، والشاي المتبقي يكون في شكل عجينة ويتناول كمشروب، ولذا أُطلق على ذلك «أكل الشاي». وكانت عملية غلي الشاي متعبة ومرهقة، وتجعل الشاي يفقد طعمه ونكهته عند شربه. وبعد أسرتي سونغ ويوان، تعير غلي الشاي إلى نقع الشاي دون إضافة أي توابل، وتذوق الناس نكهة الشاي الذكية العطرة. وبعد أسرتي مينغ وتشينغ، انتشر نقع الشاي انتشاراً هائلاً، وبدأ الناس يعشقون شرب طاس الشاي المغطى بغطاء.

وكان ظهور «كتاب الشاي» من تأليف لويو في عصر تانغ يمثل حدثاً مهماً في تاريخ شرب الشاي في الصين. ويعتبر ذلك أقدم كتاب متخصص في أوراق الشاي عرفته الصين؛ حيث لخص أنواع الشاي وخبرات شرب الشاي قبل أسرة تانغ، وسرد خبرة المؤلف الشخصية في هذا المجال. وكان لويو (733– 804م) معاصراً لأسرة تانغ، وينحدر من مدينة تيانمين في

مقاطعة خوبي اليوم، ولقبه هونغ جيان، وقد قيل إنه كان لقيطاً، وقام الراهب داتشي جي بإعالته وتربيته، واستخدم رموز التنجيم في «كتاب التغيرات» واشتق منها لقب عائلته «لو»، واسمه الشخصي «يو»، ولقبه «هونغ جيان». وكان هذا الراهب مولعاً وعاشقاً لاحتساء الشاي، وكان لويو منذ نعومة أظافره يغلي له الشاي، وجمع خبرات جمة في هذا الشأن، ناهيك عن دراسته بجد واجتهاد، وتجواله في أماكن كثيرة، ورأى أنواعاً عديدة من الشاي، وجسد ذلك كله في كتابه المذكور أعلاه الذي تناول الشاي بالبحث والدراسة في عشرة مجالات تشمل: مصدر الشاي، طقم الشاي، صناعة الشاي، أواني الشاي، غلي الشاي، شرب الشاي، أحوال الشاي، ظهور الشاي، موجز تاريخ الشاي، صور الشاي، ناهيك عن سرد تاريخ تطور شرب الشاي. وهدف هذا الكتاب يكمن في «تذوق نكهة» الشاي؛ بمعنى الاهتمام بمذاق الشاي وطعمه ونكهته، وليس الاهتمام باستخدامات الشاي. ويعتبر ذلك جوهر ثقافة الشاي في الصين. وظفر لويو بلقبي «قديس الشاي» و«ملاك الشاي» لمنجزاته في هذا الشأن، ولا يزال مسقط رأسه يحتفظ بآثاره القديمة لإحياء ذكراه من مقصورة لويو، وماء النبع ونستشيوه. وجاء من بعده الخطاط تساي شيانغ في عصر سونغ، وكان خبيراً يتحلى بمستوى عالٍ في تذوق نكهة الشاي، وألف كتاباً بعنوان «تاريخ الشاي» سرد فيه أنواعاً كثيرة ومشهورة من الشاي المتداولة وشائعة الاستعمال في ذاك العصر. وتحكى رواية أن رهبان معبد نينغ رين في منطقة جيانآن في مقاطعة فوجيان أهدوا إليه أفخر أنواع الشاي من إنتاج معبدهم المعروف باسم «شييان باي»، وعندما عاد أدراجه إلى مدينة كايفنغ، أعد صديقه شاياً طيباً لتكريمه، وعندما حمله بيده وشم رائحته سأل مضيفة: «من أين حصلت على شاي هذا المعبد؟»، مما جعل صديقه يعجب به أيما إعجاب، لأنه كان بالفعل شاي «شييان باي» الممتاز.

وشكّل استعمال الشاي نوعين من العادات الشائعة في تاريخ الثقافة الصينية هما: تقييم مياه الينابيع، وقرض الشعر أثناء احتساء الشاي، وهما يجسدان الخاصية الفريدة والمميزة لشرب الشاي لدى الصينيين. وكان خبير الشاي لويو هو الذي بدأ نشاط تقييم ماء النبع، فقد أدرك من خلال ممارسته العملية وخبراته الطويلة أن نوعية الماء الجيدة أو السيئة تؤثر تأثيراً هائلاً في طعم الشاي، ولذلك كان شديد الحرص على اختيار نوعية الماء عند صنع الشاي،

وقد قيل إنه قسم نوعية مياه الينابيع الجيدة والسيئة والتي تذوقها أثناء تجواله في أماكن عديدة إلى عشرين نوعاً، نذكر منها على سبيل المثال:

ماء النبع قوليان في وادي وانغ كانغ في جبل لوشان في المرتبة الأولى، وينابيع هوي شان في ووشي في المرتبة الثانية، وماء النبع لاشي في محافظة تشي شيوي في المرتبة الثالثة، وماء النبع خهما عند أقدام جبل شيبي في بيتشانغ في المرتبة الرابعة، وماء النبع هان هان في جبل خوتشيو في مدينة صوتيشو في المركز الخامس، ثم ينابيع تشاويين أسفل معبد تشاو شيان في جبل لوشان في المركز السادس، وماء نانلينغ في منطقة نهر اليانجتسي في المرتبة السابعة.

وكان الأدباء والمثقفون -بعد لويو فصاعداً- يحبون تحديد مستوى جودة مياه الينابيع المناسبة في غلي الشاي ونقعه في ضوء تجاربهم وخبرتهم في الحياة؛ حتى يبرزوا خبراتهم المكتسبة ومستواهم في هذا المجال. واعتبر ليو باوتشو -الذي كان معاصراً للخبير لويو تقريباً- ماء نانلينغ في منطقة نهر اليانجتسي يحتل المرتبة الأولى، وأيده في ذلك الشاعر ونتيان شيانغ الذي تذوق هذا الماء. وانتقلت العادة الشائعة من تذوق مياه الينابيع إلى الملوك والأباطرة في أسرة تشينغ، ودخل في زمرة ذَوّاقة مياه الينابيع الإمبراطور لونغ شيان المولع بالإبداع الأدبي، الذي تجاوز معياره في هذا الشأن نطاق غلي الشاي ونقعه، وانصب اهتمامه بصورة أساسية على إذا كان ماء النبع مفيداً في نماء الإنسان أم لا، وفي عبارة أخرى هل شرب ماء هذا النبع لفترة طويلة يساعد في تقوية جسم الإنسان أم لا، ومن ثم اعتقد أنه كلما كانت جودة الماء خفيفة وتحوي شوائب قليلة، كان ماء النبع جيداً، ثم طلب صنع مكيال فضي يستخدم في وزن مياه الينابيع المشهورة في الصين على وجه الخصوص، وكان نتيجة ذلك أن ماء النبع يوي في بكين ظفر بالمركز الأول، وكتب الإمبراطور بنفسه مقالاً وعلقه على شاهدة بعنوان «الإمبراطور يكتب تاريخ ماء النبع يوي الذي يحتل المركز الأول» في الصين، انتقد فيه لويو بلهجة تهكمية، وذكر أنه لم يسافر إلى الشمال، ولذلك لم يعرف جمال وروعة ماء النبع يوي في بكين. وممارسة تقييم ماء النبع عبر العصور اللاحقة أدى إلى ظهور وضع تساوى ترتيب مياه الينابيع المشهورة أدى إلى ممارسة. ويمكن إجمال مياه الينابيع التي حظيت باعتراف وموافقة الأجيال المتعاقبة على النحو التالي:

«مياه الينابيع التي تحتل المرتبة الأولى» في الصين هي:

(1) ماء النبع قوليان في جبل لوشان بمقاطعة جيانغشي، ويقع في وادي كانغ وانغ، وكان من تقييم لويو، ويتناسب مع استعمال شاي «يون وو» حيث المذاق الرائع والنكهة الذكية.

(2) ماء النبع تشونغ لينغ في مدينة تشين جيانغ في مقاطعة جيانغصو، وكان يعرف قديماً باسم ماء نانلينغ في منطقة نهر اليانجتسي، يقع في غرب حديقة جبل جين في هذه المدينة، وكان من تقييم ليو باوتشو، وجودة الماء باردة ونقية وعبقة، وتوتر السطح كبير جداً، ونقع الشاي فيه يعطي مذاقا رائعاً للغاية.

(3) ماء النبع يوي في بكين، كان من تقييم الإمبراطور شيان لونغ يقع في جبل يوتشوان في الضاحية الغربية من العاصمة بكين، وكان القصر الإمبراطوري يستخدم ماء هذا النبع منذ أسرة يوان في غلي الشاي وتخمير الخمر.

(4) ماء النبع باوتو في مدينة جينان في مقاطعة شاندونغ، ويقع على مقربة من جسر شيمين في هذه المدينة، ويأتي في المرتبة الأولى من بين اثنين وسبعين نبعاً في جينان، كان من تقييم الإمبراطور تشيان لونغ الذي عندما وصل إليه وشاهد ماءه منحه بصورة عفوية لقب «ماء النبع الأول في الصين».

«مياه الينابيع التي تحتل المرتبة الثانية» في الصين:

ينفرد بهذه المرتبة ماء النبع هوي شان في مدينة ووشي بمقاطعة جيانغصو، ويقع في حديقة شيهوي في هذه المدينة، من تقييم لويو، ولذا أُطلق عليه «ماء النبع لويو». وحظيت مكانته بالإجماع من جانب الأجيال المتعاقبة، ويحتل المركز الثاني من بين مياه الينابيع المشهورة في الصين، وشهد ولادة المقطوعة الموسيقية «ضوء القمر يسطع على ماء النبع الثاني» للموسيقار آبينغ. وكان وو زونغ رئيس الوزراء في أسرة تانغ مولعاً وشغوفاً باحتساء الشاي وأمر مسؤولاً محليا بأن يبعث أحد الأفراد الذي ينقل ماء نبع هوي شان إلى عاصمة الإمبراطورية تشانغآن آنذاك.

«مياه الينابيع التي تحتل المرتبة الثالثة» في الصين عددها ثلاثة على النحو التالي:

(1) ماء النبع لاشي في محافظة شيشيوه بمقاطعة خبي، من تقييم لويو، ويطلق عليه أيضاً «ماء نبع الشاي لويو»، ويستخدم مع شاي «لاوتشينغ» في هذه المقاطعة، ويعتبر طعمه الأفضل.

(2) بئر لويو في مدينة صويتشو في مقاطعة جيانغصو، ويقع في جبل خوتيشو في هذه المدينة، ويقال إن لويو حفر هذا البئر، ومن تقييم ليو باوتشو، ويعطي المذاق الأفضل مع شاي «بيلوا تشون».

(3) مياه الينابيع خوباو في مدينة هانتشو في مقاطعة تشجيانغ، يستخدم مع شاي «لونغ جينغ»، ويطلق على هذه الينابيع وهذا الشاي «لا مثيل لهما في البحيرة الغربية».

«مياه الينابيع التي تحتل المرتبة الرابعة» في الصين عددها أربعة وهي:

(1+2) مياه الينابيع هوانغ نيو، وخهما في أماكن مختلفة، ولكن تكوينها الجيولوجي متشابه، وتنبع من مصدر مائي واحد، ولذلك كان تقييم لويو لهذه الينابيع في المرتبة الرابعة. واحتسى الشاعر لويوي ماء هذه الينابيع أثناء مروره بمقاطعة سيتشوان، وكتب شعرا يمتدحه، وبعد إنشاء سد قه تشو، تدفقت ماء النبع في نهر اليانجتسي.

(3) ماء النبع شيانغشي في تسي قوي بمقاطعة خوبي، ويقع في مسقط رأس الأميرة وانغ تشاو جون في بلدة شيانغشي بمحافظة تسي قوي، ويقال إنه من تقييم لويو.

(4) ماء النبع لويو في مدينة شانغ راو بمقاطعة جيانغشي، يقع في مدرسة إعدادية في هذه المدينة، وكان معبد قوانغ جياو قديماً الذي ترهبن فيه لويو عدة سنوات، ثم قام بحفر هذا النبع.

«مياه الينابيع التي تحتل المرتبة الخامسة» في الصين هي: هان هان في مدينة صويتشو، ويطلق عليها قوان يين أيضاً، ومن تقييم لويو.

«مياه الينابيع التي تحتل المرتبة السادسة في الصين» يطلق عليها تشاويين في جبل لوشان بمقاطعة جيانغشي، ومن تقييم لويو.

أما بخصوص العادة الشائعة من إنشاد الشعر أثناء احتساء الشاي فلا نعرف متى بدأت

على وجه الدقة. وإذا أخذنا في الحسبان كتاب «مقامة الشاي» من تأليف دويوي في عصر أسرة جين، فيجب أن تكون عادة تقييم مياه الينابيع الأقدم شيوعاً. ولكن نقول بصفة عامة، إن هذه العادة الشائعة تعد نوعاً من الذوق الرفيع، وتعتبر نشاطاً ثقافياً لوظائف مقاييس الجمال المتنوعة والتي تجمع بين التذوق العام والإعجاب بالطبيعة والافتتان بها، والكلام المرسل، والتهذيب الذاتي، والعواطف والمشاعر، كما انتشرت على نطاق واسع بدءاً من أسرتي تانغ وسونغ. ومن المعتاد أن يتجمع الأدباء في المناطق المشهورة بالينابيع ويجلسون في المقاصير والبنايات العالية ويحتسون الشاي ويتأملون ملياً صور الجبال التي تنعكس على صفحة ماء البحيرة، وتهتز أوتار قلوبهم، ثم ينشدون الشعر حسب القوافي حيث يضفي لوناً من الذوق الجمالي والذوق الفني. وهناك قصائد غير قليلة تم نظمها أثناء شرب الشاي في العصور المختلفة.

وبالإضافة إلى ذلك، نشأت «مراسم الشاي» في العصر القديم بالصين بسبب استعمال الشاي وفوائده، حيث كان الشاي وسيلة للزواج بين الفتى والفتاة، فبعد إجراء الخطوبة بينهما، تقدم أسرة الفتاة شاياً كمهر لأسرة العروس، ويطلق على ذلك «زراعة الشاي»؛ وإذا قبلت أسرة الفتاة هذا المهر يُعرف ذلك باسم «قبول مهر الشاي». وكان الأقدمون يعتقدون أن «زراعة الشاي يجب أن تكون من خلال غرس البذور، ولا يمكن نقل شتول الشاي». وفي عبارة أخرى، يمكن زراعة أشجار الشاي فقط من خلال غرس البذور، ولا يمكن نقل الشتول، ومن ثم اقتبسوا هذه الميزة في زراعة الشاي، وجعلوا الشاي مهر الزواج رمزاً لتوطيد أركان الزواج. وفي الماضي «كان الرجل الذي لا يقدم مهر الشاي لا يتزوج». وبالإضافة إلى مراسم الشاي، توجد هناك أيضاً حديث الشاي؛ بمعنى احتساء الشاي تارة، وتجاذب أطراف الحديث تارة أخرى، ثم تطور ذلك وأصبح «حفلة الشاي»، كما بات شكلاً من أشكال اللقاءات التي تشهد احتساء الشاي. وانتشرت المقاهي انتشاراً واسعاً داخل أروقة المدن في العصر القديم، وباتت ساحة تجسد بشدة ثقافة أهل الحضر. ومقصف الشاي في الوقت الحاضر هو التطور الحديث للمقاهي.

وتاريخ الخمر أقدم من الشاي. وتخبرنا الاكتشافات القديمة أن الخمر كان موجوداً في العصر الحجري الحديث في المجتمع البدائي، لأنه عُثر على عشرة مواعين فخارية غير مصقولة

من المرجح جداً أنها كانت تستخدم في صب الخمر، وذلك في أطلال ثقافة يانغشاو في بلدة ماجيا بمحافظة ميي في مقاطعة شنشي. وفي عام 1986، تم اكتشاف إبريق خمر قديم يرجع تاريخه إلى ما قبل ثلاثة آلاف سنة في مقاطعة خنان. ويوضح ذلك أن صناعة الخمر في الصين تتمتع بتاريخ عريق جداً.. ولكن الثقافة القديمة في الصين اعتادت أن تنسب أي إنجاز حضاري إلى المآثر الشخصية، ولذلك جاء في الأساطير أن يي وي، ودو كانغ يعتبران من الأجداد الأولين الذين صنعوا الخمر. وكان يي دي معاصراً للملك ديوان. وذكر كتاب «سياسة الممالك المتحاربة –فصل سياسة مملكة وي» أن يي دي صنع الخمر وقدمها هدية لهذا الملك الذي شربها ولعبت برأسه وأصبح سكراناً، ولذا حدث جفاء بينهما، وحظر الملك تناول الخمر، انطلاقاً من اعتقاده أن «الأجيال اللاحقة ستشرب الخمر بالتأكيد، ويؤدي ذلك إلى فناء وطنهم». وكان دو كانغ من أهالي أسرة شيا، ويعتقد البعض أنه كان ملك هذه الأسرة. وهناك الكثير من الكتب القديمة نسبياً التي ذكرت أن دوكانغ كان يصنع الخمور، وكان تأثيره هائلاً نسبياً في العصور اللاحقة، ولذا كانت توجد قرية دوكانغ، ونبع دوكانغ، ووادي دوكانغ في مقاطعتي خنان وشنشي، وهي الأماكن التي شهدت صناعة الخمر على يد دوكانغ. وعلى الصعيد التاريخي، يعتبر الناس الخمر التي صنعها دوكانغ خمراً جيدة، وبعد ذلك أُطلق على صاحبها لقب «خمر جيوة»، ويقول الأديب تساو تساو: «لا يوجد سوى دوكانغ الذي يبدد أي هموم ويخلصك من القلق»، ويشير ذلك بالتمام والكمال إلى الخمر الجيدة التي صنعها دوكانغ.

ومن منظور تطور الخمر نفسه، كان أول خمر مصنوع من الفاكهة، لأن ثمار الفاكهة البرية تحوي سكراً بصفة عامة وقشرها في طياته خميرة طبيعية يمكن أن تختمر وتصبح خمراً. وهناك حكايات شعبية منتشرة في منطقة خنان تدور حول اضطلاع دوكانغ بتصنيع الخمر، وذكرت أن هذا الخمر كان مصنوعاً من الفاكهة، ثم تطور فيما بعد فأصبح صنع الخمر من الحبوب، حتى تم اختراع خمر تشيوي في عصر ما قبل أسرة تشين. وفي عام 1974، تم العثور على إبريق خمر قديم في قبر وانغشان يرجع تاريخه إلى عصر الممالك المتحاربة في محافظة بينغشان بمقاطعة خبي، وعند رفع غطاء هذا الإبريق فاحت رائحة خمر تشيوي الذكية العطرة. وتطورت تقنية صنع الخمر باستمرار بعد عصر أسرة هان، واهتمت باستخدام مياه

الينابيع الحلوة المنعشة في صنع خمر جيدة. وفي كتابه «فن إدارة شؤون الشعب» ذكر جيا سي شيه، الذي عاصر الأسر الشمالية، أنه كانت هناك تسع طرق في صناعة خمر تشيوي، وفي هذه الأثناء كان يوجد خمر مشهور يطلق عليه «فين تشينغ» قبل ظهور خمر «فين» في مقاطعة شانشي. وبعد أسرتي تانغ وسونغ، زادت أنواع الخمر زيادة هائلة واستخدمت كافة أنواع العقاقير الطبية في تصنيعها، وزادت فعالية الخمور واستعمالاتها بشكل أكبر.

وتتجلى الوظيفة الثقافية للخمر في الحياة الاجتماعية في مجالين بصورة أساسية هما: تقديمها في القرابين، واحتساء الخمر للشعور بالنشوة والغبطة. وتتسم طبيعة هذين المجالين بالمتعة واللذة، ولكن القربان يكون من أجل الإله، واحتساء الخمر يقوم به الإنسان. ونعرف على أقل تقدير أن الخمر كانت في فترة الربيع والخريف وفي عصر الممالك المتحاربة من اللازم تقديمها في القرابين، وفي لقاء التحالف في الصين القديمة، وفي الاحتفال بالانتصارات وإكرام الضيوف واستقبالهم، وكانت تستعمل أيضاً في تحقيق المتعة المشتركة من خلال إقامة جسر من العواطف. وقد دامت هذه العادة الشائعة عدة آلاف من السنين ولم تندثر. أما بخصوص شرب الخمر بصورة معتادة فقد أصبح عادة منتشرة منذ زمن بعيد. ويمكن القول إن عصر «شيا– يين» كان عصر الإفراط في تناول الخمور، وقد عُثر على مواعين الخمر من شتى الأنواع والأشكال من بين أدوات أسرة شيا. وكان الملك تشاو في أسرة يين «يمتلك أحواضاً من الخمر، وأكواماً من اللحم مثل الغابة، ويجعل الشباب والفتيات يتجردون من ملابسهم ويلتقون وهم عُراة، ويسهرون طوال الليل يحتسون الخمر ويلهون ويمرحون»، وقاد ذلك إلى أفول نجم الدولة واضمحلالها في نهاية المطاف، ويذكرنا ذلك بمقولة الملك دايوي. ولذلك أصدر كل من الملك تشينغ في أسرة تشو، وتساو تساو في الممالك الثلاث أوامرهما بمنع تناول الخمر، وحذرا الشعب من الولع بالشراب والإفراط فيه. ويحتفظ «كتاب شانغ» بمقال «تحذير من تناول الخمر» قيل إنه يعتبر بمثابة أوامر الملك تشينغ بمنع تناول الخمر. ولكن رغم تكرار هذه الأوامر، استمر تناول الخمر، وأصبح تناول الخمر الجيدة عادة شائعة وانتشرت وازدهرت عبر العصور اللاحقة. وفي الفترة الزمنية بين أسرتي وي وجين، أصبح شرب الخمر تجسيداً للعادات الشائعة السياسية والاجتماعية. ونظراً لانتشار القلاقل واستمرار القتل الوحشي في أنحاء الصين، سيطرت مشاعر الاغتراب على الطبقات العليا

الاجتماعية كلها، ولذا ظهرت الغيبيات والكلام المرسل في الفلسفة، وبرز للعيان الفساد والفوضى والتساهل في الحياة، وكان الانغماس في تناول الخمر بشراهة نتيجة حتمية للفساد والاضطرابات. كما ظهر بعض الأفراد الذين أبدوا مشاعر السخط وعدم الارتياح إزاء الحقيقة في المجتمع، ولجأوا إلى السُكر حتى ينسوا قسوة العلاقات الاجتماعية. ويعرف الناس جيداً روان جي، وليو لينغ؛ وهما من نماذج السكارى العرابيد، وخاصة ليو لينغ الذي أطلق على نفسه «السكير ليو لينغ بالفطرة، واتخذ الخمر اسماً له» وحتى «أنشودة أخلاق الخمر» جعلت شرب الخمر نوعاً من الأخلاق، ومن ثم انتشرت بين صفوف الشعب الكثير من الحكايات والقصص حول الخمّار ليو لينغ، والتي ذكرت أنه ذات مرة شرب خمر دوكانغ. وسَكر لمدة ثلاث سنوات ولم ينهض من فراشه، وأطلق الناس على ذلك: «دوكانغ يصنع الخمر، وليو لينغ يسكر». والصفة المميزة الرئيسية للخمر في الثقافة الصينية تتجسد في الصلة الوثيقة التي تجمع بين الخمر والأدب، والخمر هو هدف الوصف الأدبي، وهو القوة المساعدة في الإبداع الأدبي أيضاً. وكان الأدباء في العصر القديم يرون أن إنشاد الشعر يحتم احتساء الخمر، وتناول الخمر يؤدي حتماً إلى قرض الشعر، فالشعر والخمر يندمجان في بوتقة واحدة، ولا يفترقان ولا يتجزأان، ومن ثم ظهرت قصائد شعرية لا يحصى عددها. وكان الشاعران تاو يوان مبينغ، ولي باي من النماذج البارزة في هذا المجال. وكان الشاعر الأول يلقب بـ«يوان ليانغ»، ويعد من الشخصيات الأكثر بروزاً التي جسدت خصائص ثقافة الخمر في الصين، ولذلك نشأت مقولة «شاي لويو، وخمر يوان ليانغ». أما الشاعر لي باي، فالجميع يعرف قصته من أنه «نظم مائة قصيدة وهو يحتسي الخمر»، وهنا يكمن السبب في أن الفنادق والمقاصف تعلق على أبوابها لافتة مكتوباً عليها «تناول الخمر عادة شائعة موروثة من جيل السلف لي باي».

وطبعاً، كان الأقدمون يشربون الخمر الحقيقية التي ليست ثقيلة، وعدد درجاتها ليست عالية، ولا تشبه تماماً الخمور القوية في الوقت الحاضر مثل: «أرقوي تو»، و«ماوتاي»، وإلا لا يمكن أن يشرب لي باي «مائة كأس خمر في اليوم الواحد»، ولا يستطيع الشاعر صوشي أن يحتسي «ثماني عشرة سلطانية» في نفس واحد.

ويعد طهي الطعام من الخصائص الأكثر بروزاً في ثقافة الطعام والشراب في الصين؛

وذلك لأن طهي الطعام يعد فناً، كما أن أسلوب الأكل يحرص بشدة على التأنق في الأكل. وقال مؤسس الجمهورية في الصين صن-يات- صن إن: «طهي الطعام يعد نوعاً من الفنون الجميلة»؛ أي أنه جعل طهي الطعام والرسم على قدم المساواة، وهما من أنشطة الفن الجميل. وعبارة «أطيب الأطعمة وألذها» التي انتشرت منذ القدم إلى الآن، أدمجت طهي الطعام في منظومة علم الجمال بشكل أكبر. وفي العادات والتقاليد الصينية، يعد تقديم الطعام دائماً في الزواج والجنازة، وعند زيارة الأقارب والأصدقاء من وسائل الترحيب وإكرام الضيوف المهمة وتجسد ذروة نشاط المضيف تجاه ضيفه، ولذا تختلف حفلات الزواج عن حفلات عيد الميلاد. كما أن هناك فرقا في ترتيب مقاعد المضيفين والضيوف، وفن تقديم الأطباق أثناء تناول الطعام يتسم بالدقة الشديدة. ومن منظور المقارنة بين الثقافتين الغربية والصينية، نجد أن طهي الطعام في الصين يميل إلى الفن، ويحرص كثيراً على المظهر الخارجي لألوان الطعام من حيث اللون والطعم والمذاق، ولكن اهتمامه بالتغذية ضئيل نسبيّاً.

وشهد طهي الطعام عملية تطور طويلة جداً.. وكلمتا «طهي الطعام» تجسدان عملية التطور هذه والرمز الصيني لكلمة «الطهي» يحتوي على المقطع الصيني بمعنى «النار»؛ ويعني ذلك طبخ الأشياء النيئة حتى تنضج. والرمز الصيني لكلمة «النار» يتحلى بالأهمية الكبيرة. والجميع يعرف أن البشرية في مرحلتها الأولية كانت تأكل أي شيء تصطاده، على غرار سائر الحيوانات الأخرى دون ثمة تميز أو اختلاف. ويذكر كتاب «تاريخ الطقوس» أن الأقدمين كانوا «يفتقرون إلى النار، ويأكلون ثمار النباتات والأشجار، ويأكلون الطيور والحيوانات، ويشربون دماءها، ويأكلون ريشها أيضاً»، ولكن بعد أن اكتشفت البشرية النار، تناولت بالصدفة «لحم الطيور والحيوانات» المشوي على نار في العراء، وشعرت بالطعم اللذيذ للغاية، ثم أدركت الطبخ والسلق، وغيرت الطعام النيء إلى الطعام الناضج. ويعد ذلك تقدماً هائلاً في الثقافة، لأن «الطهي» أوجد الاختلاف بين الإنسان وسائر الحيوانات الأخرى. ولكن «الطهي» فقط، دون استخدام «توابل» يعد نوعاً من ثقافة المرحلة المتدنية، بيد أن «الطهي» و«التوابل» معاً يعدان ثقافة مرحلة متقدمة. وما يُطلق عليه «توابل» هو تعديل الطعم بالتزامن مع النضج أو على أساس طهي الطعام، ويعني ذلك استخدام كافة أنواع التوابل ومهارات الطهي المختلفة من أجل تعديل طعم الأطعمة والمأكولات حتى تصبح

جميلة ولذيذة وشهية، حتى يشعر الإنسان بالرضا والغبطة، ولا يهتم ذلك بالطعام الشهي اللذيذ فحسب، بل يحرص أن يكون الطعام يسحر النواظر ويسر الخواطر أيضاً. ولذلك نقول إن «التوابل» تتوافق مع سعي الإنسان وراء المثل العليا والمتعة الحقيقية. وكانت كلمتا «طهي الطعام» لا تستطيعان تجسيد المعنى الثقافي لعملية طهي الطعام في الوقت الحاضر، فقد كانت تعني الاضطلاع بمهمة صنع الطعام فقط على غرار اضطلاع المرأة الحبلى بالإنجاب، والخياط بعمل الملابس، ويعد ذلك نوعاً من تقسيم العمل. ولكن باتت كلمتا «طهي الطعام» تتحليان بالنكهة الثقافية الكثيفة في وقتنا الحاضر.

وأثبتت الآثار القديمة أن الصينيين في العصور القديمة في مرحلة إنسان بكين (Beijing Man) قد استخدموا النار في سلق الطعام وتناوله ناضجاً، وربما يعد ذلك أقدم طريقة في «طهي» الطعام في العالم. ولكن كان ذلك عبارة عن شيّ المأكولات على النار مباشرة. وفي مرحلة ثقافة قانغ التي يعود تاريخها إلى حوالي ثمانية آلاف سنة خلت، استخدموا الأواني الفخارية في طهي الطعام على النار، ثم استخدموا الأدوات البرونزية بعد ظهورها باعتبارها من أواني الشرب. ومن الأدوات البرونزية التي شهدها عصر أسرتي شانغ وتشو، أدوات الطهي والسلق التي بلغت أكثر من عشرة مثل: دنغ (طنجرة ثلاثية القوائم ذات أذنين قديمة العهد)، ولي (قدر قديمة ثلاثية القوائم)، وزنغ (قِدر فخاري قديم لطبخ الأرز)، وفو (خِلقين– مرجل في القديم)، ويوضح ذلك أن طرائق الطهي كانت متعددة ومتنوعة إذ ذاك، وفي الوقت نفسه تبرز للعيان اهتمام الناس بالمأكولات اهتماماً شديداً نسبياً. وكان يطلق على الذين يطبخون الطعام بصفة خاصة عدة ألقاب مثل: «باورين»، و«باو دينغ»، و«باو جينغ»، و«شانفو» وغيرها، وجميعها تعني «الطباخ» في ذلك الحين. وكان يي يين رئيساً للوزراء في عهد الملك تانغ في أسرة شانغ، وكان يعمل طباخاً في الأصل. وأسس الإمبراطور وانغ في أسرة تشو الغربية مصلحة تتولى الإشراف وإدارة الطعام والمأكولات، وكانت تتسم بالفخامة والعمل المقسم تقسيماً دقيقاً، كما كان يوجد «البَرّادون» المسؤولون عن التخزين المبرد، ناهيك عن الطست البرونزي لحفظ الثلج» الذي كان بمنزلة الثلاجة آنذاك حقاً. وفي مجال تعديل وضبط طعم المأكولات، كان يستخدم الملح، والخل، والخمور، وسكر الشعير والزنجبيل وغيرها من التوابل الأخرى. ويجعلنا ذلك ندرك أن طرائق تعديل طعم المأكولات

كانت متنوعة ومتعددة. وذكر كتاب «تاريخ الطقوس» أن عصر تشو شهد الكثير من طرائق الطهي، كما جسد «كتاب الأغاني» بصورة محددة طرائق صنع الطعام والشراب في ذلك الوقت. وظهرت المقالات المتخصصة التي تناولت مسألة الطعام والشراب في مرحلة الممالك المتحاربة جراء تطور وتقدم طهي الطعام، ومثال ذلك كتاب «ليوشي- الربيع والخريف- فصل التذوق الحقيقي» سرد قصة رئيس الوزراء يي ين الذي أقنع الملك تانغ في أسرة شانغ بالمذاق اللذيذ للغاية، وبذلك احتفظ بأقدم نظرية للطهي في العالم. وكان الناس يطالبون بأعلى مستوى في الحفاظ على نظافة المأكولات وقتئذ، ولذا كان كونفوشيوس يدعو إلى «عدم كراهية تقشير الأرز جيداً، وعدم كراهية أن يهرم اللحم»، ودعا إلى عدم «تناول سبعة أنواع من المأكولات»، والمقصود بذلك أنه كان «لا يتناول الأرز الذي أصابته الحرارة والرطوبة فاختمر، ولا السمك المتعفن ولا اللحم الخام ولا الطعام الذي تغير لونه أو خبثت رائحته أو لم يحكم طبخه، ولا الفاكهة التي ليست في أوانها ولا اللحم الذي لم يقطع قطعاً منظماً ولا اللحم الذي ليس فيه توابل ملائمة». ونعرف من الآثار القديمة والوثائق أن الملوك والأمراء في عصر الدول المتحاربة وفي فترة الربيع والخريف، كانوا يقيمون المآدب والولائم التي تزخر بأنواع شتى من المأكولات بلغ عددها أكثر من أربعين نوعاً، حتى أن كتاب «موه تسي» ذكر أن: «أطيب المأكولات وألذها كانت تمتد أمامنا إلى مسافة بعيدة، فلا تستطيع العين أن ترى آخرها، ولا تستطيع اليد أن تبلغ مبلغها، ولا يستطيع الفم أن يتذوقها كلها». ولذلك ذكر كتاب «نظرية الملح والحديد» -الذي ظهر في عصر أسرة هان- ذكر أنه: «كان ينتشر الطعام الطازج في كافة الأنحاء، وتتكدس ألوان الطعام في الأسواق»، مما يوضح انتشار المطاعم والدكاكين الخاصة بالأطعمة الطازجة انتشاراً واسعاً آنذاك.

وكان تطور أساليب وطرائق طهي الطعام من تلقاء نفسها نتيجة سعي الإنسان الدؤوب وراء تحقيق رغائبه في الطعم الشهي اللذيذ، ولكن يتطلب ذلك توافر الظروف الاجتماعية والاقتصادية الملائمة. والرفاهية الاقتصادية في عصر هان دفعت تطور ثقافة الطعام والشراب بشكل أكبر، ووصلت تقنية الطهي إلى مستوى مرتفع جداً، حيث تم إتقان عدة طرق في الطهي بصورة كاملة مثل: دون (سلق فوق نار خفيفة)، وشاو (الشيّ على النار)، وجيان (قلي الشيء بالزيت)، وجو (السلق)، وجيانغ (الطبخ بصلصة الصويا الكثيفة)، ويان (الحفظ

بالملح)، وجي (الشيّ). وعُثر على كتيب في مقبرة أسرة هان في مدينة تشانغآن بمقاطعة خونان؛ ذكر أن أسرة هان الغربية شهدت ألوانا شتى من الطعام الشهي اللذيذ يقترب عددها من مائة نوع، ناهيك عن المواعين المتنوعة والمتعددة والزاهية التي كانت تستخدم في الطعام والشراب آنذاك، وتعد متعة للناظرين حقاً. كما تم اكتشاف رسوم أسرة هان في مقابر هذه الأسرة المنتشرة في جميع مدن مقاطعة شانغدونغ، وكان من بينها «رسم المطبخ» يحوي أربعين طباخاً ونيفاً يضطلع كل واحد منهم بعمله في المطبخ، وجسد ذلك بصورة شيقة مسألة طهي الطعام في عصر هان. وبدأت الصين إجراء الأبحاث المتخصصة في ثقافة المأكل والمشرب وفن طهي الطعام في مرحلة أسرتي وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية، وظهرت العديد من المؤلفات المتخصصة في هذا المجال، ومثال ذلك كتاب «علم التغذية» في أسرة جين الغربية، و«سجل الأطعمة القيمة» في مملكة تشي الجنوبية، و«كتاب المأكولات» في مملكة تشي الشمالية. وكان عصر أسرتي تانغ وسونغ يضم أخلاطاً من الأفكار والآراء حول طهي الطعام الصيني ويتحلى بالمعارف الواسعة والعلم الغزير، وكان ذلك بمنزلة بداية الجدل والنقاش الفكري بين الصين والدول الأجنبية، وأثرت خضراوات البلاط الإمبراطوري في أطعمة عامة الشعب، وجعل ذلك تقنية صنع ألوان الطعام أكثر دقة وإحكاماً، وباتت المأكولات أكثر وفرة وتنوعاً. وكان وي جيو يوان مسؤولاً كبيراً في أسرة تانغ ومتعهد إقامة المآدب والولائم الضخمة الخاصة بالإمبراطور، وسجل ألوان الطعام التي كانت تقدم في تلك المآدب حتى أصبحت ما يطلق عليه «قائمة الطعام» التي تناقلتها الأجيال، ويشير ذلك إلى ما ذكرناه آنفاً من «قائمة طعام وي جيا». وتضمنت «قائمة الطعام «مأكولات مثل: هونثون (كريات لحم بعجين) ويستخدم فيها أربع وعشرون حشوة، مما يصيبنا بالدهشة. وبالإضافة إلى ذلك، هناك وثائق أخرى، ذكرت أن راهبة بوذية معاصرة لأسرة تانغ كانت ماهرة في طهي الطعام، وصنعت طبق مشهيات باستخدام لحم محمر بالصويا والمخللات والسمك، وأظهرت اعتزال الشاعر وانغ وي للناس في «وانغ تشوان حيث تضم واحداً وعشرين منظراً طبيعياً»، وكانت مهاراتها رائعة ودقيقة، وبدا الطبق كأنه من المنتجات اليدوية الفنية الرائعة. ويقول الشاعر دوفو في قصيدته «أنشودة الحسناوات الفاتنات»:

وضعت الحسناوات اللحم العطري لسنام الجمل البنفسجي
في قدور برونزية زاهية الألوان
كما وضعت الأسماك السمينة الجميلة المتلألئة
في أطباق بيضاوية من الكريستال
وعيدان الطعام مصنوعة من قرون الكركدن
ولكنها لا تلتقط الطعام، لأنهن شبعن إشباعا كاملاً
ويثير شفقتنا أن الطباخين قطعوا اللحم والخضر
تقطيعا دقيقاً ومنسقاً وجميلاً،
وانهمكوا في الطبخ فترة طويلة، ولكن دون جدوى.

وهنا نجد أطيب المأكولات وألذها، ومواعين الطعام الجميلة، والألوان الزاهية المتناسقة، ويثير ذلك الشهية بقوة. وأحوال المأكل والمشرب في عصر سونغ سجلها كتاب «حُلم العاصمة الشرقية» تسجيلاً مهيباً وحيوياً، وهو من تأليف مينغ يوان لاو، وجاء فيه: «تكدس الأشياء القيمة في الأسواق في جميع أنحاء البلاد، وتتجمع المأكولات ذات المذاق المتنوع والمختلف في المطبخ»، وتوجد أفضل الأطعمة في الأماكن المشهورة وتجد فيها كل ما تشتهيه النفس، ومن بينها الدجاج المشوي، والأرز المسلوق، والسلطعون المقلي، ولحم الماعز المسلوق فوق نار خفيفة، والجمبري بالزنجبيل، وحساء الدم الثخين، وحساء البودرة، وكانت طرائق صنع هذه الأطعمة مختلفة، ويستخدم فيها العديد من التوابل المختلفة أيضاً. ويقول الشاعر صوشي في أشعاره: «اجعل النار هادئة، وضع قليلاً من الماء، واجعل درجة الحرارة مناسبة وكافية، تجد الطعام لذيذا وشهياً من تلقاء ذاته»، ويكشف ذلك بالضبط النقاب عن الطريقة الذكية في طهي اللحم. وسجل ووتسي مو في كتابه «سجل حُلم مملكة ليانغ» أحوال ازدهار الطعام والشراب في عاصمة أسرة سونغ الجنوبية لينآن (مدينة هانتشو في مقاطعة تشجيانغ اليوم)، وذكر أيضاً أن المقاهي والمطاعم كانت فخمة وجميلة ورائعة وتغص بالأطعمة النادرة الفاخرة من شتى الأنواع والأشكال. ويبين ذلك أن تقنية الطهي كانت رائعة وفائقة للغاية في ذلك الحين.

وتمثل أسرتا مينغ وتشينغ المرحلة المتأخرة في المجتمع الإقطاعي، وتراكمت فيهما الخبرات

السابقة الخاصة بطهي الطعام، وظهرت المؤلفات المشهورة تباعاً التي تناولت خلاصة التجارب السابقة في تقنية طهي الطعام وجميع أنواع أدوات طهي الطعام، ومن بينها كتاب «قائمة طعام سوي ويوان» للأديب يوان ميي في أسرة تشينغ، والذي يعد أكثر المؤلفات نموذجية في هذا الخصوص، حيث سجل ثلثمائة وستة وعشرين نوعاً من الأطعمة المنتشرة من أسرة مينغ إلى أوائل أسرة تشينغ، وقدم الكثير من الأفكار والآراء الصائبة الخاصة بتقنية طهي الطعام. وشهدت هذه المرحلة تطور ألوان الطعام داخل القصر الإمبراطوري تطوراً سريعاً، وعلى وجه الخصوص في أسرة تشينغ، حيث استغل الحكام انضمام الأقليات في الشمال إلى السهول الوسطى، وتأسيساً على الأطعمة القومية الموجودة أصلاً، حذو النظام القديم في إقامة الولائم والمآدب في القصر الإمبراطوري لأسرة مينغ، واستعانوا بالطباخين المشهورين والمهرة في البلاد، وشكلوا المأكولات الخاصة بالقصر الإمبراطوري تدريجياً والتي كانت عبارة عن اندماج طعام قوميتي مان وهان في بوتقة واحدة، ويقيمون المآدب الفخمة العامرة في مناسبات الاحتفال بالأعياد القومية، ومراسم الزواج، ويوم الميلاد، وتتويج الإمبراطور على العرش. وتفيد دراسة في هذا المجال، إن طاولة مأدبة طعام قوميتي مان وهان كانت «تضم مائة واثنين وثمانين نوعاً من الأطعمة على الأكثر، وأربعة وستين نوعاً على الأقل.

وبعد انقضاء عدة آلاف من السنين من التطوير والتغيير، تشكلت النكهة الخاصة المميزة المحلية في كافة المناطق حسب عادات وتقاليد الطعام والشراب وأحوال المأكولات في شتى بقاع الصين، ويعني ذلك طرائق الطهي المتباينة. ويقولون عادة «الطرائق الثماني الرئيسية في الطهي»، وهي: لو (أطباق مقاطعة شاندونغ)، وتشوان (أطباق سيتشوان، ويوه (أطباق قوانغدونغ)، ومين (أطباق فوجيان)، وصو (أطباق جيانغصو، ويشير ذلك إلى أطباق هوي يانغ بصورة أساسية)، وتشا (أطباق تشجيانغ)، وان (أطباق آنهوي)، وشيانغ (أطباق خونان). ويمكن أن تنقسم أيضاً إلى «طرائق الطهي الأربع الرئيسية»، وهي: لو، تشوان، هوي يوه. وتتمتع أطباق لو بالتاريخ العريق، وتنتشر على نطاق واسع، وتبلور ثقافة مملكتي تشي ولو، وبعد أن دخلت منطقة بكين، ونظراً لأن بكين أصبحت تتمتع بالأهمية منذ أن أصبحت عاصمة في مملكة لياو في أسرة يوان، باتت هذه الأطباق من مأكولات القصر الإمبراطوري بعد أن اندمجت واستوعبت نكهة الصحراء ومذاق الأطعمة الأخرى. ولذلك، أطباق

شاندونغ في منطقة بكين اليوم هي في الواقع طعام البلاط الإمبراطوري في هذه المنطقة. وبط بكين المشوي الذي يحظى بشهرة عارمة يرجع أصله إلى شاندونغ، ولا تنأى طريقة تناوله عن عادة أهالي مملكتي لو وتشي حيث كانوا يحبون أكل البصل الأخضر. وأطعمة القصر الإمبراطوري رفيعة المستوى، وتعد نوعاً من الأطعمة «الغالية»، وتشمل «المأدبة الكاملة من مأكولات قوميتي مان وهان»، و«مأدبة طهي الغنمة كاملة»، و«مأدبة الوزة الكاملة»، وعُش السنونو البحري، وزعانف القرش، ومعدة السمك، وكلها تعد من الأطعمة المغذية القيمة الغالية. وموطن أطباق هوي يانغ في هوي يانغ بالمنطقة المتاخمة لصويتشو، حيث يحتشد هناك التجار ويرفلون في الثراء والرفاهية، وفي الوقت نفسه، تتحلى المأكولات بالثراء والوفرة، ويطلق عليها «مسقط رأس السمك والأرز»، ولذلك طهي المأكولات يحرص بشدة على التأنق والجمال، ويعد ذلك نوعاً من الأطباق «الغنية»، ومهارة تقطيع السكين فيها بارعة ودقيقة، وطعمها الأصلي لا يتغير ولا يتبدل، ونكهتها كثيفة وشديدة، ولكنها خالية من الدهن. أما أطباق تشوان فتقترب إلى حد ما من ذوق الجماهير الشعبية وتتحلى بالمذاق القوي نسبياً لحياة الأسرة اليومية، وتوابل هذه الأطباق متعددة الألوان والأشكال، وخاصة نكهة الطعام الخفيف المشهور في الصين، وعلى الرغم من أنها تشتمل على أطعمة غالية وممتازة، ولكن معظمها كان متعة لنفوس العامة والخاصة، وجبن الصويا يمكن أن يقدم في المآدب. وأطباق يوه موطنها الأصلي في مدينة دامين في البحر الجنوبي، وتركزت منذ القدم في ميناء تجاري خارجي، ولذا تأثرت بالمؤثرات الأجنبية في الطعام والشراب، وتتناول في نطاق واسع نسبياً، ونكهتها غريبة وعجيبة، وتشمل القطط والفئران والثعابين التي لا يجرؤ أهل منطقة السهول الوسطى على تناولها.

وذكر الأقدمون: «الرائحة الذكية تجعلك تنزل من فوق الحصان، ومعرفة المذاق الجميل تجعلك توقف العربة». وتوضح هذه المقولة أن الرائحة والنكهة تمثلان عنصرين أساسيين في نجاح طهي الطعام. ولكن بالنسبة لفن طهي الطعام الصيني، لا يكفي وجود الرائحة والنكهة فقط، بل يجب أن يتحلى بالمنظومة الكاملة من اللون والرائحة والنكهة. وبدأ الناس يهتمون بمسألة التغذية في الأطعمة مع التقدم الاجتماعي. وسوف يشهد طهي الطعام الصيني في المستقبل جمالاً فوق جمال بموجب الأساس الذي يتمتع به حالياً.

المبحث الثاني
الأزياء والقبعات والحلى

ذكر الأديب الصيني الكبير قو مورو ا (1892 – 1978) أن: «الأزياء تعبر عن المظهر الخارجي للثقافة، والأزياء هي صورة الأفكار» وأظهرت هذه المقولة العلاقة العميقة والواسعة جداً. بين اللباس والثقافة. وأثبتت الحقائق، إن اللباس والهندام في كل قومية في العالم في جميع المراحل التاريخية هما مقياس الحضارة المادية والروحية في مجتمع هذه القومية، ويدل ذلك على مستوى تطورها الاقتصادي والثقافي، ويجسد الوعي التاريخي والوعي المعاصر للقومية. ولذا تتسم مسألة الأزياء والحلى بالخصائص القومية والعصرية البارزة.

وكانت الأزياء والحلى في الصين القديمة (في منطقة السهول الوسطى على سبيل المثال) تتمتع بالفكر الموحد العظيم القوي ومفهوم المستويات والدرجات المقسمة تقسيماً صارماً، وقررت الأسر الحاكمة عبر مراحل التاريخ القواعد والقوانين الواضحة والحازمة الخاصة بأزياء المستويات العليا من الأباطرة والملوك وكبار الموظفين، والمستويات الدنيا من عامة الشعب، وكان أي فرد يجب عليه أن يرتدي اللباس الذي يتناسب مع مكانته ومنصبه وصفته. ولذا نجد الفروق الواضحة كضوء الشمس في الأزياء الخاصة بالأباطرة والوزراء وموظفي الحكومة، والرجال والنساء، والأسياد والخدم. ولذلك اللباس في العصر القديم بالصين لا يظهر حرية ارتداء الملابس ولا المرونة أيضاً، بيد أنه يدل على مستويات المراسم. ومسؤول رفيع المستوى يصبح إنساناً عادياً في التو ما إن يخلع القلنسوة السوداء والسروال الأحمر الأرجواني، ورجل من سواد الناس يرتدي ملابس قطنية يصبح مسؤولاً كبيراً في التو حالما يحصل على ترقية في السلم الوظيفي، ويلبس قبعة، ويلبس لباساً كاملاً. وعلى الرغم من التغيرات التي شهدها اللباس والحلى على مدى الدهر، لكن كانت القواعد المحددة والمقررة متباينة في هذا الخصوص أيضاً، ولكن الفروق في المستويات والقواعد الصارمة التي أبرزتها الأزياء قد استمرت عدة آلاف من السنين دون ثمة تغيير، ويعتبر ذلك الصفة المميزة الرئيسية في اللباس الصيني في العصر القديم.

وعلى الجملة، تتجسد الوظائف الأساسية للباس في المجالات الثلاثة التالية: الوقاية من

البرد، وستر العورة والزينة والتأنق. ونقول -بصفة عامة- إن أصل الملابس يكمن أولاً في الوقاية من البرد؛ ثم أدرك الناس مفهوم العار والإهانة، ومن ثم فهموا أهمية ستر العورة، وبعد ذلك أدركوا أيضاً أهمية تطور اللباس وتجميله وتزيينه بشكل أكبر مع تطور القوة الإنتاجية وتغيرات الحياة المادية. ولذلك، الوظائف الثلاث للباس -في الواقع- تعتبر بمنزلة المراحل الثلاث لتطور ثقافة الأزياء في المرحلة الأولية. وطبعاً، الأزياء في عالم اليوم قد أدمجت هذه الوظائف في وحدة عضوية واحدة منذ زمن بعيد.

في الصين، وفي العصر البدائي قبل آلاف السنين، أتقن الناس أبسط أنواع الخياطة، وصنعوا إبرة الخياطة من عظام الحيوانات، وخاطوا عدة قطع من جلود الحيوانات يمكن أن تعتبر ملابس خشنة للوقاية من البرد. وتم اكتشاف إبرة مصنوعة من عظام الحيوان واُستخدمت في خياطة جلود الحيوانات في كهف أقيم فيه الإنسان في أعلى قمة جبل بمنطقة تشوكوديان في العاصمة بكين. وظهرت الزراعة والغزل في العصر الحجري الحديث تقريباً؛ حيث بدأ الناس يستخدمون الكتان في حياكة الملابس. وكان هذا العصر هو عصر الإمبراطور (هوانغ) كما جاء في الأساطير الصينية. وذكرت سجلات تاريخية قديمة أن: «الإمبراطور هوانغ بدأ ارتداء الملابس الجلدية»، وأضافت أن «الأباطرة هوانغ، وياو وشون دوموا ارتدوا الملابس جيلاً بعد جيل وأداروا شؤون البلاد». ويتفق ذلك مع الآثار القديمة التي اكتشفت مؤخراً بصورة أساسية. وكانت صناعة الملابس تتألف من سترة وتنورة (أو بنطلون) في ذلك الحين، وكان لون السترة أسود، ولون التنورة أصفر، ويرمز ذلك إلى السماء والأرض؛ حيث أن لون السماء يكون أسود قبل انبلاج الفجر، ولذلك لون السترة التي يرتديها المرء في نصف الجسم العلوي (يرمز إلى السماء) يكون لونها أسود، ولون الأرض أصفر، ومن ثم يكون لون التنورة التي يلبسها المرء في نصف الجسم السفلي (يرمز إلى الأرض) يكون أصفر. إن مفهوم لون اللباس الذي انبثق من «عبادة الأرض والسماء» أثر تأثيراً عميقاً في نظام الأزياء والحلى في الأجيال المتعاقبة.

ولم تشهد المرحلة الأولية لتطوير الأزياء ثمة اختلافات. وتعتبر الأزياء والحلى من المظاهر الثقافية، وأبرز ذلك للعيان أن ثقافة البشرية تطورت إلى مستوى جديد. وأصبحت ألوان الأزياء كثيفة رويداً رويداً بعد نشوء الطبقات الاجتماعية. ومع تأسيس نظام المشيخة

العشائرية وتوطيد أركانه، أصبحت الأزياء رمزاً مهماً للتمييز بين المستويات العليا والدنيا، واستغل هذا النظام تطبيق «الصرامة والحزم في الداخل والخارج، والتفرقة بين وشائج القربى، وأبرز الدرجات العليا والدنيا، والاختلاف بين الأجلاء والوصفاء»، وأسس ذلك نظام الأزياء والحلى في الصين الذي يرجع تاريخه إلى عدة آلاف من السنين خلت.

ونعرف من سجلات وثائقية واكتشافات أثرية، إن الأزياء والحلى في عصر أسرة شانغ كانت لا تزال تتمتع بالفروق الواضحة. وكان الشكل الرئيسي للأزياء في ذلك الحين يتألف من سترة وبنطلون (أو تنورة)»، وكانت أزياء ملاك العبيد العاديين يرتدون قلنسوة مفلطحة، وسترة أكمامها ضيقة في نصف الجسم العلوي، ويصل وجهها الأيمن إلى الرقبة، ويلبسون بنطلوناً أو تنورة في نصف الجسم السفلي، ويربطون حزاماً حول الخصر، ويشدون فوق الحزام قطعة من الجلد تتدلى حتى الركبتين، ويلبسون أحذية مدببة أطرافها مرتفعة. وكان الزي الذي يتكون من السترة والتنورة (أو البنطلون)، ووجه السترة الأيمن يصل إلى الرقبة يمثل الصفة المميزة الرئيسية في أزياء وحلى القومية الصينية في العصر القديم، وتأسس نظام المشيخة العشائرية في أسرة تشو، وكان هناك اختلاف في المستويات بين الإمبراطور ابن السماء، والأمراء والحكام، وكبار الموظفين، ومن ثم، تم وضع نظام محدد لارتداء الملابس واستخدام الحلى لكل من الطبقات العليا والطبقات الدنيا. ونقول بصورة محددة، إنه كانت توجد التيجان، والقبعات (يرتديها الرجال في الصين القديمة)، ويوان دوان، وشين يي. وتعد «التيجان» نوعاً من أزياء المراسم الأكثر قيمة واحتراماً، وهيكلها معقد، ومتعددة الأنواع والأشكال، وترمز زخارفها وزينتها إلى مغزى محدد، وتعد من الحلى التي يستخدمها الأباطرة والأمراء والحكام في تقديم القرابين للسماء والأرض وللأسلاف والأجداد. وشاهد الناس في التلفاز ودار الخيالة الإمبراطور الأول لأسرة تشين وهو يضع فوق رأسه التاج (انظر الصورة رقم -15).

و«القبعة الرجالية القديمة» تأتي في مرتبة ثانوية بعد التيجان، يلبسها الإمبراطور عند عقد الديوان الملكي واستقبال الأمراء والحكام. أما «دوان يوان» فهي الأزياء التي يرتديها ابن السماء بعد الانتهاء من أداء عمله في القصر الإمبراطوري، وهي الأزياء التي يرتديها الأمراء والحكام عند تقديم القرابين في المعابد، وهي أيضاً الأزياء التي يرتديها المثقف عندما يسجد

أمام والديه في الصباح الباكر. والأنواع الثلاثة من الأزياء المذكورة آنفاً، كانت عبارة عن قطعتين لا يجمعهما رابط، ويرتديها المرء في نصف الجسم العلوي والسفلي، ويستثنى من ذلك أزياء «شين يي» (انظر الصورة رقم –16)، وهي عبارة عن اللباس المترابط الذي يرتديه الأمراء والحكام وكبار الموظفين والمثقفين في أوقات الفراغ والتسلية، وهو عبارة عن عباءة فضفاضة وأكمام طويلة، ويغوص «الجسم داخلها»، وطريقة تفصيلها تقوم على أساس أن الجانب الأيسر من القماش مترابط، أما الجانب الأيمن تستخدم فيه قطعة من القماش يتم تفصيلها في شكل قرن يزخرف الحواف السفلية، ويُطلق على هذا الزي «تكملة الصدرية والحواف المشرجة»، ويغطي المرحلة الأخيرة في عصر الممالك المتحاربة، وكان ذلك نتيجة تدريب الملك وولين في مملكة يوه على ركوب الخيل والرماية مرتدياً أزياء قوميات الشمال. وكان هذا الزي عبارة عن سترة قصيرة بأكمام وبنطلون، ويشد على الخصر حزام جلدي، ويتناسب مع النشاط والحركة في ركوب الخيل والرماية، ويمكن القول إنه يعتبر التغيير الأول المهم في تاريخ الأزياء والحلى في الصين.



(الشكل رقم –16)

أزياء شين يي

المصدر: كتاب (تاريخ الأزياء في الصين)



(الشكل رقم –15)

تاج الإمبراطور في الصين

المصدر: كتاب (تاريخ الأزياء والحلي في الصين القديمة)

وحذت الأزياء والحلى في أسرة هان حذو ما كان قبل عصر تشين، وكان الناس يحبون اللباس «شين يي»، واعتبروه من أزياء المراسم، ولكن كان هذا اللباس يلف الجسم كله ويجعل حركة المرء صعبة وغير مناسبة، ثم ظهر نوع من المِئزر بصورة تدريجية، وكان عبارة عن تنورة عمودية وليست فضفاضة تصل إلى الأقدام ولا تكسو الجسم كله. أما في الأوقات العادية، فقد كان الرجال يحبون ارتداء البنطلون القصير، والنساء يرتدين التنورة القصيرة. وكان اللباس القصير آنذاك عبارة عن لباس قصير يصل طوله إلى الخصر فقط، أما التنورة فهي طويلة وتتناسب مع كعكة الشعر، مما يجعل الفتاة ممشوقة القوام وتبدو جميلة وجذابة. وبالإضافة إلى ذلك، انتشرت القبعات التي تحدد المستويات والدرجات في عصر أسرة هان، والتي كانت من الرموز التي تستخدم في التمييز بين المستويات العليا والمستويات الدنيا. والقبعة التي كان يلبسها البالغ في العصر القديم، أصبحت قبعة الفضلاء في عصر أسرة هان، بينما كان الوضعاء يلبسون عمامة صينية قديمة، وتعتبر هذه العمامة لفاعاً. وكانت أنواع وتسميات القبعات كثيرة ومتعددة، مثل: «قبعة السلطات العليا» يلبسها الإمبراطور عندما يتلقى التهاني في القصر الإمبراطوري، و«قبعة التجول البعيد» يلبسها ملوك الولايات، و«قبعة الفضيلة» للمثقفين، و«قبعة القانون» يلبسها منفذو القانون، و«القبعة العسكرية» يلبسها العسكريون والقادة، و«قبعة طرد الأشرار» يلبسها حراس القصر الإمبراطوري، و«قبعة طرد الأعداء» يلبسها حماة الديار والدفاع عن الوطن. ولكن، ونظراً للاختلاف الضئيل نسبياً في أنواع هذه القبعات، كان المرء يلف على خصره في عصر هان شريطاً تزيينيّاً للتمييز بين درجات الموظفين ومناصبهم العليا والدنيا، وكان لون هذا الشريط وطريقة غزله مختلفين بسبب اختلاف درجات ومناصب الموظفين الحكوميين.

وكانت أسرة وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية تمثل مرحلة التبادل والاندماج الثقافي بين الثقافتين الصينية والأجنبية، وحدث تأثير متبادل بين الأزياء والحلى في جنوب الصين وشمالها، وبين الأزياء والحلى الصينية والأجنبية، وشكل ذلك اتجاهين للتغيرات التي الأزياء والحلى في هذه المرحلة؛ أولهما: إنتشار ارتداء أزياء قوميات الشمال بشكل أكبر؛ حيث أن قومية هان في الأسر الجنوبية ارتدت أزياء قوميات الشمال من «البنطلون والعباءة»، وكانت هذه العباءة طويلة نسبياً وضيقة على الجسم، وياقتها دائرية، وكانت الأكمام ضيقة والبنطلون

ضيقا أيضاً، ولكن قامت هذه القومية بتوسيع الأكمام والبنطلون وأصبح فضفاضاً. ثانيهما: إن الأباطرة وكبار الموظفين في الأسر الشمالية، كان لديهم ولع وشغف بارتداء أزياء القصر الإمبراطوري وقبعات وتيجان حكام قومية هان، وكان الإمبراطور شياو ون في أسرة وي الشمالية مثالاً نموذجياً في هذا الخصوص. وعلى هذا النحو، ومنذ الأسر الجنوبية والشمالية فصاعداً، أصبحت أزياء الأباطرة وكبار الموظفين في العصور اللاحقة تتحلى بالصفة الرسمية من «ملابس المراسم» بصورة تدريجية، وظهر الفرق بينها وبين «الملابس العادية». وكانت «الأزياء الرسمية» تستخدم في حفلات القصر الإمبراطوري وتقديم القرابين، وكانت عبارة عن عباءة فضفاضة ذات أكمام كبيرة، والتيجان العريضة العالية. أما «الملابس العادية» فكانت تستخدم في الحياة اليومية المعتادة وتطورت من «البنطلون والعباءة ذات الأكمام الضيقة والياقة الدائرية. واستمر النظام الذي يجمع بين أزياء المراسم والملابس العادية في آن واحد حتى أسرة مينغ.

ومرحلة سوي وتانغ تمثل مرحلة ازدهار تطور الأزياء والحلي في الصين. فقد أظهر تطور الأزياء الجرأة والانفتاح واستيعاب فكر التأثير الأجنبي بصورة إيجابية من ناحية، ومن ناحية أخرى، أصبح نظام أزياء الموظفين الحكوميين يتحلى بقواعد محددة وجلية بشكل أكبر. وكانت تشانغآن عاصمة الإمبراطورية آنذاك سوقاً عالمياً كبيراً يحتشد فيه كوكبة كبيرة من التجار الأجانب، وتجار الأقليات القومية، والمبعوثون الأجانب، والطلاب الأجانب، وكانت ملابسهم من شتى الأشكال والألوان وأثرت تأثيراً هائلاً في مجتمع أسرة تانغ. ولم يشعر كبار الحكام وسواد الناس «بالقلق جراء إضفاء الطابع القومي على الأزياء»، وذكرت كتب تاريخية: كان «الأرستقراطيون والمثقفون وعامة الشعب يعشقون ارتداء أزياء وقبعات القوميات»، وتغص قصائد أسرة تانغ بوصف «التزيين لدى الأقليات القومية»، مما يوضح أن «إضفاء طابع القوميات» على الأزياء والحلي في أسرة تانغ كان -في الواقع- نوعاً من العادات الاجتماعية الشائعة. وبعد أسرة تانغ المزدهرة، كان الناس يرتدون دائماً العباءة ذات الأكمام الضيقة والياقة الدائرية. وكانت ترتدي المرأة عادة جلباباً وتنورة، وتطرح على منكبيها الحرير، وعارية الصدر؛ وهي بذلك تحاكي المرأة الهندية حقاً. وكانت المرأة الأرستقراطية تُعلّم جبهتها بـ«نقطة صفراء»، وترصع ما بين حاجبيها بالصدف الملون، وتزين خديها

بـ«غمازتين»)، ويتجلى ذلك في الرسوم الجدارية في مدينة دونغ هوانغ، وفي الرسوم الجدارية داخل قبر ولي العهد تشانغ هوي. ومن ناحية أخرى، شهدت الملابس العادية في أسرة تانغ تغييراً هائلاً أيضاً في ضوء ما ورثته من العصور السابقة في هذا الخصوص. ففي المقام الأول، كان غطاء الرأس يستخدم «فوتو» بدلاً من القبعة. و«فوتو» عبارة عن منديل الرأس يستخدم أصلاً في ربط كعكة الشعر، ويكون من الشاش الأسود المرن والحرير الشفاف بصفة عامة. وفي البداية، كان يستخدم منديل الرأس المربع، ثم زُينت أركانه الأربع بشرائط أربعة؛ شريطان صغيران في الخلف لربط كعكة الشعر، وشريطان كبيران في الأمام يستخدمان في لف الرأس ويتقاطعان في مؤخرة الرأس ويتدليان على الظهر، ويطلق على ذلك غطاء الرأس «فوتو بالشرائط المرنة» (انظر الصورة رقم–17).

وبعد أسرة تانغ الوسطى، استخدمت أسلاك حديدية التي أسندت هاتين الشريطين قليلاً، وأُطلق على ذلك «فوتو بالشرائط الصلبة»، ويمكن أن يستخدمه الأباطرة وكبار الموظفين عندما يرتدون اللباس العادي. ثانياً: إن «درجات ألوان الأزياء» أصبحت نظاماً محدداً. وما يطلق عليه «درجات ألوان الملابس» يعني استخدام ألوان الأزياء في التمييز بين درجات ومناصب الموظفين الحكوميين، وفي عبارة أخرى، إدخال الألوان في نظام مستويات الأزياء. وقررت أسرة تانغ بصورة محددة أن: الإمبراطور يرتدي عباءة صفراء، ويرتدي أقارب الإمبراطور وموظفو الدولة الأعلى من الدرجة الثالثة العباءة الأرجوانية، ويرتدي موظفو كادر أعلى من الدرجة الخامسة عباءة اللون الأحمر الفاقع، والذين أقل من الدرجة الخامسة يرتدون العباءة الخضراء والزرقاء، ويرتدي الجنود العباءة السوداء، ويرتدي المثقف الذي لم يعين في وظيفة وسواد الناس العباءة البيضاء. وبالإضافة إلى ألوان الأزياء، كان الموظفون يستخدمون أيضاً ذؤابة الحزام للتمييز بين الدرجات والمناصب، وذؤابة الحزام عبارة عن حلية مربعة تربط فوق الحزام. وقررت أسرة تانغ بصورة محددة أن موظفي كادر أعلى من الدرجة الثالثة يرتدون حزاماً يشبياً ذهبياً مرصعاً بثلاث عشرة حلية، ويلبس موظفو الدرجة الرابعة حزاماً ذهبيا مرصعاً بإحدى عشرة حلية، وأصحاب الدرجة الخامسة يلبسون حزاماً ذهبياً مرصعاً بعشر حلى، وموظفو الدرجة السادسة والسابعة يلبسون حزاماً فضياً مرصعاً بتسع حلى، ويلبس موظفو الدرجة الثامنة والتاسعة حزاماً من الحجر الكريم مرصعاً بتسع حلى،

أما حزام عامة الشعب فيكون من النحاس الأصفر والحديد مرصعاً بسبع حلى.

والأزياء في عصر سونغ قلما يطرأ عليها تغيير، لأنها نفذت نظام الأزياء في أسرة تانغ، ولكن لا تضاهي نظيرتها في الأسرة الأخيرة التي كانت مشرقة وجميلة. والتغيرات التي طرأت على أزياء موظفي الحكومة تجسدت في منديل الرأس «فوتو»، وكيس السمكة. وكان منديل الرأس فوتو في عصر سونغ يدعم بخشبية في الداخل، ويصبغ الشاش في الخارج باللون الأسود، وأصبح نوعاً من «قبعة فوتو» يمكن خلعها كما يشاء المرء، والشريطان في الخلف يتم نشرهما نحو الخارج في مستوى أفقي متساوٍ، وأُطلق عليهما تسمية «فوتو بالشرائط الصلبة» (انظر الصورة رقم -18).



(الشكل رقم 18)
غطاء الرأس «فوتو» بالشرائط الصلبة



(الشكل رقم 17)
غطاء الرأس «فوتو» بالشرائط المرنة
المصدر: كتاب (تاريخ الأزياء في الصين)

وكان الموظفون المدنيون يلبسون هذه القبعة، والشريطان يتقاطعان في أعلى مؤخرة الرأس، ويُعرف ذلك باسم «فوتو بالشرائط المتقاطعة» ويلبسه الموظفون العسكريون، وكانت هناك بعض التشكيلات المتنوعة التي يتم إضافتها إلى هذين الشريطين، ومن ثم كان منديل الرأس «فوتو» في عصر سونغ يبدو ثرياً إلى حد ما. أما كيس السمكة الذهبي فكان عبارة عن

كيس يربطه موظفو كادر أعلى من الدرجة الخامسة في أسرة تانغ، ويوجد داخله شارة مميزة في شكل سمكة منقوش فوقها اسم الموظف، وتعتبر بمنزلة بطاقة هوية للدخول والخروج من بوابة القصر الإمبراطوري. وفي عصر سونغ، أصبح وجه الكيس يحوي حلية ذهبية أو فضية على شكل سمكة تربط في حزام الموظف وتتدلى خلف مؤخرته وتوضح منصبه ودرجته الوظيفية الرفيعة أو المتدنية. ويغدق الإمبراطور دائماً على كبار الوزراء الذين يتمتعون بالحظوة لديه ويمنحهم كيس السمكة في شكل حلية ذهبية وأزياء الموظفين الأرجوانية، ناهيك عن كيس السمكة ذي الحلية الفضية والأزياء الحمراء. والرعية التي لا تبلغ مبلغ الوزراء وتظفر بإغداق الإمبراطور تعتبره نوعاً من الشرف والمجد بصفة خاصة. والمؤرخ سيما قوانغ منحه الإمبراطور أزياء الموظف الأرجوانية وحلية كيس السمكة الذهبية، أما الوزير الكبير صو وو والشاعر هوانغ تينغ جيان فقد منحهما الإمبراطور حلية كيس السمكة الذهبية والفضية والأزياء الأرجوانية الحمراء. وشهدت أزياء وحلى المرأة تغييراً أساسياً في الرأس والقدم في أسرة سونغ. وكانت المرأة الأرستقراطية في ذلك الحين مولعة بلبس قبعة دبوس الشعر الزاهية، وتلبس الإمبراطورة تاج العنقاء الذي يحوي رسوم العنقاء وعددها أربعة، ورسوم التنانين وعددها تسعة. وفي أواخر الأسر الخمس انتشرت عادة ضغط القدم بلفافة، ثم انتشرت انتشاراً واسع النطاق في أسرة سونغ، ولذلك كانت المرأة تلف قدمها بلفافة قماشية وتنتظر حتى يبلغ طولها عشرة سنتيمترات، ثم ترتدي حذاء صغيراً في شكل مثلث. أما ملابس المثقف والمزارع والعامل والتاجر فكانت تتصف بالبساطة على وجه العموم، وتحرص على خصالها واستعمالها في المجالات العملية، وأظهرت خصائص عامة الشعب. ولذلك ذكر كتاب «سجل حلم العاصمة الشرقية» أن: «لون لباس المثقف والمزارع والتاجر، وجميع الحرف والأعمال محدودة ومعروفة ولا يجرؤ أحدُ على مخالفتها». والمقصود بمخالفة لون اللباس هنا هو تجاوز الطبقة البيروقراطية التي لا تنتمي إلى أهل الحضر.

وعصر يوان يمثل الأسرة الحاكمة المنغولية التي ورثت نظام الأزياء لدى قومية هان، كما حافظت على ألوان أزيائها القومية الخاصة، وتيجان الأباطرة وأزياء الموظفين حذت حذو النظام القديم والنظام السائد آنذاك من اللباس الطويل والقصير، وفي الوقت نفسه، كانت هناك «أزياء تشي صون» حسب خصائص قومية منغوليا، وكان أهالي قومية هان يطلقون

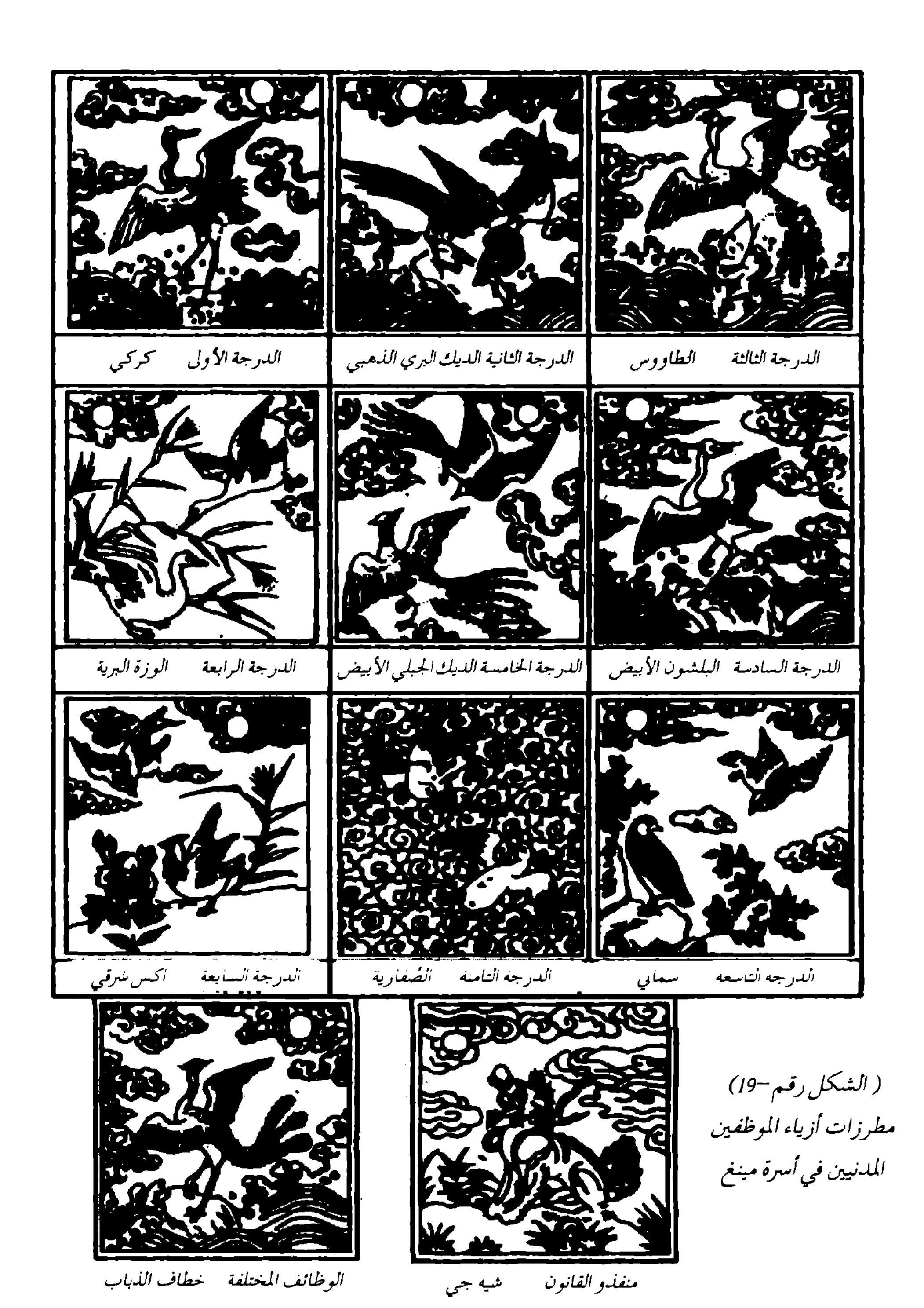
عليها «اللباس صاحب اللون الواحد»، وطريقة تفصيلها تقوم على خياطة السترة بالتنورة أو بالبنطلون، ويبدوان قطعة واحدة ضيقة في أعلى الجسم، قصيرة في الأسفل، وتتحلى بالمرونة وحرية الحركة. وكان الناس آنذاك يلبسون قبعة في الشتاء، وقبعة بامبو في الصيف. وكانت قبعة الشتاء مصنوعة من جلد السمور (حيوان ثديي من آكلات اللحوم، يتخذ من جلده فرو ثمين– المترجم) تبث الدفء في رأس مرتديها، ويظهر شعره على جبينه ويتدلى خلف أذنه. أما قبعة البامبو فهي تشبه الصنج، وقمتها مرصعة باللآلئ. والمرأة الأرستقراطية المنغولية تحب أن تلبس «قبعة العمة» المصنوعة من القماش المخملي المقصب، ويبلغ ارتفاعها حوالي ستة وستين سنتمتراً، وهيكلها مصنوع من الخشب أو البامبو، ويغلف بالقماش المقصب وقمتها مزينة باليشم الأخضر أو ريش الطير.

وبعد تأسيس أسرة مينغ، تم إعادة تأسيس نظام الأزياء من جديد بموجب العادات والتقاليد في قومية هان. وكانت التيجان مقصورة على الإمبراطور وولي العهد، وأقارب الإمبراطور والملك، وملوك الدويلات، وكان استخدام التيجان مقصوراً على مناسبات تقديم القرابين للسماء والأرض، ومراسم القرابين في معبد أجداد الإمبراطور، وفي تنصيب الإمبراطور، وتتويج الإمبراطور على العرش. وملابس الموظفين العادية قررت أن الإمبراطور يرتدي بُردة التنين الأصفر من حرير الستان، ويلبس قبعة «جناح الخير»، ويلف خصره بحزام يشب. أما سائر الموظفين فيرتدون عباءة فضفاضة ومطرزة بخطوط زخرفية وألوانها مختلفة حسب درجاتهم ومناصبهم، ويلبسون القلنسوة السوداء، كما تتحلى أزياؤهم بـ«تطريز» محدد يوضح الفروق والاختلاف في الدرجة والوظيفة (انظر الصورة رقم –19). وقررت أسرة مينغ أن يطرز على أزياء قونغ (مَنْ يحتل المرتبة الأولى في طبقة النبلاء والأشراف التي تتألف من خمس درجات) وخو (مَنْ يحتل المرتبة الثانية) وصهر الإمبراطور وباو (مَنْ يحتل المرتبة الثالثة) يطرز وحيد القرن الصيني وباي تسه (حيوان سماوي في الأساطير الصينية)، ويطرز على أزياء الموظفين المدنيين الطيور المختلفة، وطائر الكركي للدرجة الأولى، والديك البري الذهبي للدرجة الثانية، والطاووس للدرجة الثالثة، والوزة البرية للدرجة الرابعة، والديك الجبلي الأبيض للدرجة الخامسة، والبلشون الأبيض للدرجة السادسة، واكس شرقي aix galericulata للدرجة السابعة، والصفارية للدرجة الثامنة، وسماني للدرجة التاسعة، وخطاف

الذباب للوظائف المختلفة، ويطرز على أزياء منفذي القانون شيه جي (حيوان أسطوري في العصور القديمة)، ويطرز على أزياء الموظفين العسكريين الأسد للدرجتين الأولى والثانية، والنمر والفهد للدرجة الثالثة والرابعة، والدب للدرجة الخامسة، وشبل النمر للدرجة السادسة والسابعة، والكركدن للدرجة الثامنة، وحصان البحر للدرجة التاسعة. وكان الموظفون يعلقون حلية عبارة عن شارة العاج بدلاً من كيس السمكة الذهبية، وكانت هذه الشارة مصنوعة من سن الفيل، ومنقوش فوقها المنصب الحكومي الرسمي وتستخدم الأسماء والألقاب المقسمة إلى درجات، حيث كان يُطلق على قونغ، خو، باو لقب «شون» (المآثر العظيمة)، ويُطلق على صهر الإمبراطور لقب «تشين» (الأقارب)، ويُطلق على الموظفين المدنيين لقب «ون» (مدني)، ويُطلق على الموظفين العسكريين لقب «وو» (عسكري)، أما أزياء وحلية المرأة الأرستقراطية والإمبراطورة فعبارة عن قبعة مرصعة بالآلىء واليشم الأخضر ومطرزة بالتنانين والعنقاء، والأكمام الكبيرة الحمراء مطرزة أيضاً بالتنانين والعنقاء، وترتدي التنورة الحريرية الحمراء الطويلة، بالإضافة إلى الشال الأرجواني الصيني، وشهدت أزياء وحلى سائر النسوة تغيرات حسب الدرجة والمستوى. أما بخصوص ملابس سواد الناس، فكان الشباب يرتدون البنطلون القماشي الأزرق، وترتدي الفتاة بلوزة وتنورة أو عباءة والألوان فاتحة وزاهية، ولا يجوز أن ترتدي اللباس الأحمر والأزرق والأصفر.

وانتهجت أسرة تشينغ السياسة التسلطية في إجبار الناس على ارتداء أزياء قومية مان. ففي المقام الأول، أجبرت الناس على كشط مقدمة الرأس وتضفير شعر مؤخرة الرأس، وانتشرت آنذاك مقولة مفادها: «لا تترك شعر مقدمة الرأس ينمو ويكبر إذا أردت الحفاظ على رقبتك، وإذا تركت شعرك ينمو ويكبر، فلا يمكن أن تحتفظ برأسك»، فيمكن أن نتخيل قسوة ووحشية النظام في هذه الأسرة. ثانياً: إلغاء أزياء أسرة مينغ، وتأسيس نظام القبعات واللباس من جديد في ضوء عادات وتقاليد قومية مان التي يألفها الناس. وكان أبرز الملامح الخاصة باللباس آنذاك تتجسد في «عباءة الأصلة» التي كانت متنوعة ومختلفة جراء تباين الدرجات والمستويات، وكان يلبس الناس فوق هذه العباءة «جبّة»، ويطلق عليها «ملابس تكميلية»، وأكمامها قصيرة، ومشقوقة من الأمام، ومطرزة بخطوط زخرفية من أسرة مينغ في المنتصف، ومن الأمام والخلف تعبيراً عن اللقب الرسمي للموظف. مطرزات الطيور

والحيوانات متشابهة من حيث الأساس مع نظيرتها في أسرة مينغ وكانت أكمام أزياء المراسم في شكل حذوة الحصان. ثالثاً: كانت القبعات مزخرفة بريش الطاووس، وذيل الطاووس متلألئ ويشبه العين، ومن ثم استخدمت العين الأحادية، والعينان، والعيون الثلاث في التمييز بين مناصب الموظفين، وكانت العيون الثلاث ترمز إلى الأكثر احتراماً وتبجيلاً. رابعاً: عقد خرز البلاط الإمبراطوري يعلق في الرقبة ويتدلى على الصدر، ويحوي مائة وثماني خرزات، ويرجع أصله إلى مسبحة الديانة البوذية، ويستخدمه موظفو القصر الإمبراطوري من ذوي كادر أعلى من الدرجة الخامسة، ويرتدي عامة الشعب عباءة طويلة دائماً، وجبة قصيرة، ودراعة. وكان الرجال في قومية مان يشدون حزاماً حول الخصر، ويرتدون عباءة طويلة وفوقها سترة أو دُراعة. أما النساء في هذه القومية فيحبذن ارتداء فستان تشيباو وفوقه درع الحصان. وحذت المرأة في قومية هان حذو نظام الأزياء في أسرة مينغ، فارتدت سترة مبطنة في نصف الجسم العلوي أو جلباباً، وبنطلوناً أو تنورة في نصف الجسم السفلي. وفي المرحلة الأخيرة لأسرة تشينغ، كانت أزياء المرأة في العاصمة تتحلى بالزركشة دائماً.



(الشكل رقم –19)
مطرزات أزياء الموظفين المدنيين في أسرة مينغ

المبحث الثالث

عادات وتقاليد الزواج والجنازة

تعتبر عادات وتقاليد الزواج والجنازة مسألة تتحلى بالأهمية الكبرى في علم الأنثروبولوجيا الاجتماعي (علم السلالات)، وعلم الأنثروبولوجيا الثقافي. ونأخذ الزواج على سبيل المثال، نجد أن التغيرات التي طرأت على نظامه والعوامل التي شكلت عاداته وتقاليده جسدت تقدم البشرية نفسها، كما أبرزت للعيان تطور الحياة الاجتماعية، ولذا يعد الزواج معياراً لتقييم حضارة البشرية أيضاً. كما عبرت الجنازة بصورة عميقة عن فهم البشرية ومعرفتها بمسألة الموت. وتتباين تصورات القوميات المختلفة ووصفها للعالم المستقبلي تبايناً شديداً جراء اختلاف المراحل التاريخية التي اجتازتها كل قومية. كما أن علاقات الزواج ومراسم الجنازة لدى هذه القوميات تغص بالعديد من المظاهر المختلفة اختلافاً شديداً. وملاحظة تباين واختلاف عادات وتقاليد الزواج والجنازة يعد دائماً أكثر الموضوعات استحواذاً على اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا.

وكلمة الزواج في اللغة الصينية تتألف من رمزين. ونقول -بصورة عامة- إن الزواج هو اندماج الجنسين في بوتقة واحدة ويصبحان زوجين. ولكن الأحوال التاريخية والحياة العملية تقدم تفسيراً للزواج ينأى عن ذلك، بل وأكثر تعقيداً. وتقدم الكتب الكلاسيكية في الصين تفسيراً لرمزي كلمة «الزواج» في اللغة الصينية، فالرمز الأول يعني «الغسق»؛ ويعني لقاء الفتاة التي يتزوجها المرء في الغسق، ويدل الرمز الثاني على «السبب»، ويعني أن الفتاة تتزوج بسبب وجود الرجل. وجاء في «كتاب الأغاني» أن: «أشجار حور أبيض سامقة خارج الباب الشرقي، وأوراقها كثيفة ووارفة وخضرة. اتفق الحبيبان على اللقاء في الغسق، ولكن أحدهما لم يحضر، وظل الآخر ينتظره حتى بدد نور الزُهرة ظلمة الليل». ويوضح ذلك أن كلمة «الزواج» نشأت بعد أن اكتملت أركان النظام الأبوي وتوطدت دعائمه.

وفي العصور السحيقة، كانت المجتمعات البشرية تقطن في البرية، وكان الاختلاط المشترك بين الرجال والنساء يتصف بالفوضى العارمة، وكان يعني ذلك إطلاق حرية العلاقة الجنسية والافتقار إلى ثمة مفهوم للزواج. كما كان ذلك أيضاً بالضبط ما أشار إليه كتاب «حوليات

ليوي في الربيع والخريف» حيث ذكر أن: «الناس كانوا يتجمعون ويقيمون في تجمعات، ويعرفون الأم ولا يعرفون الأب، ويفتقرون إلى علاقة الأقارب التي تميز الأشقاء والزوجين والرجال والنساء». مما يجسد مشاعية الزواج في العصر البدائي. وقد قيل إن أبناء قومية يامي والبالغ عددهم أكثر من ألفين وأربعمائة نسمة يقيمون في جزيرة لان لينغ على مقربة من مقاطعة تايوان الصين، وهذه القومية تعيش في عزلة عن العالم، ولا تزال تقبع في العادات البدائية؛ حيث الاختلاط المشترك بين الرجال والنساء وتجمعهم العلاقة الجنسية الفوضوية. ويعتبر ذلك من بقايا مشاعية الزواج البدائي. وانتشرت عادة الزواج من «الارتباط بالسماء» في قومية تو التي تقطن مقاطعة تشينغهاي في الصين، ويعني ذلك أن الفتاة عندما تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، ترتبط في عشية رأس السنة الجديدة، وتصبح الفتاة والسماء زوجين، وتصبح حياتها الجنسية فيما بعد تتمتع بالحرية، وعندما تنجب الأبناء ينتسبون إلى أسرة الفتاة. وكان ذلك بمنزلة عادة الأجيال السابقة في مشاعية الزواج البدائي. وشهدت القوميات في سائر المناطق الأخرى في العالم آثار مشاعية الزواج تباعاً. ولكن، من منظور الوحدة الكلية، فإن الصين في المرحلة المتوسطة للعصر الحجري الحديث منذ قبل فترة زمنية تتراوح بين مائتي ألف سنة إلى ثلاثين ألف سنة تقريباً، وضعت نهاية لمرحلة مشاعية الزواج في العصر البدائي، ودخلت مرحلة مشاعية الزواج حسب قرابة الدم وأواصر الرحم.

وما يُطلق عليه «مشاعية زواج قرابة الدم» يعد من مظاهر مشاعية الزواج في هيكل علاقة رابطة الدم، ومن ملامحه أن الرجل والمرأة اللذين ينتميان إلى السلم العائلي المتشابه داخل العشيرة التي تتمتع برابطة الدم المتشابه يمكن أن يتزوجا، ومادام الفتى والفتاة من جيل واحد، يمكنهما ممارسة الجماع بحرية، ولكن يستثنى من ذلك العلاقة الجنسية بين الأجداد والأحفاد، والأبوين والأبناء. ويمكن أن نرى آثار مشاعية الزواج بين ذوي القربى في الأساطير الصينية، كما جاء في أسطورة زواج الشقيق والشقيقة فوشي ونيووا، وأنجبا كرة لحم تحوي خمسة عشر زوجاً من الذكر والأنثى اللذين ارتبطا معاً في وحدة واحدة وأنجبا الأبناء حتى تكونت البشرية، وتنتشر أساطير زواج الأشقاء والشقيقات في سائر القوميات الأخرى في الصين. ومع تطور المجتمع وتقدم الثقافة، أدركت البشرية بصورة تدريجية الأضرار الناجمة عن زواج قرابة الدم، وعرفت تحريم الزواج بصورة واضحة رويداً رويداً، ويظهر ذلك تحريم

العلاقة الجنسية بين الأقارب من ذوي صلة الرحم والبحث عن الزواج خارج نطاق تجمعات العشيرة التي تنأى عن قرابة الدم، وترتب على ذلك نشوء ما عُرف بـ«ثنائية الزواج» بين العشائر، وهو ما يطلق عليه أيضاً «اللذان يحملان الكُنية نفسها لا يتزوجان» في العصر القديم، وتتجلى خصائصه في أن الرجل والمرأة اللذين تجمعهما رابطة دم مختلفة في العشيرة يمكن أن يتزوجا، والتعايش والاستقرار معاً ليس محدداً وثابتاً، كما لا يعرفان الاقتصار على زوجة أو زوج؛ حيث أن الرجل يستطيع أن يجمع بين أكثر من زوجة، وبالمثل تجمع الزوجة بين أكثر من زوج، ولكن هناك شيئاً مهماً بسيطاً هو أن الزوج يقيم في عشيرة الزوجة، والأبناء ينتسبون إلى عشيرة الزوجة، وتحسب كُنية الأم وقرابة الدم حسب النظام الأمومي، ويرث الأبناء الممتلكات. ويعتبر ذلك بمنزلة مجتمع العشيرة القائم على النظام الأمومي في الصين، ويمتد خلال فترة زمنية تتراوح من خمسين ألف سنة إلى خمسة آلاف سنة من المرحلة الأخيرة للعصر الحجري القديم إلى المرحلة الأخيرة للعصر الحجري الحديث. ولكن هناك بعض القوميات في المنطقة الجنوبية الغربية في الصين مازالت تستمسك بأوضاع بقايا ثنائية الزواج حتى قبل تحرير الصين، ومثال ذلك «زواج العريس يقوم بزيارة العروس» في قومية ياو، و«زواج العريس يدلف إلى غرفة الزوجة» في قوميتي داة، ودولونغ، ومن خصائص ذلك أن العريس يهجر بيته ويقيم في بيت العروس التي اقترن بها، ويمكث العريس في البيت ويضطلع بالشؤون المنزلية، بينما العروس تدلف إلى الخارج بحثاً عن أسباب الرزق، والأبناء ينتسبون إلى أسرة العروس، ناهيك عن أن علاقة الزواج بينهما ليست مستقرة، ويمكن أن ينفصلا إذا كان في جعبة أحدهما سبب للانفصال. وفي الأسطورة زوج الإمبراطور ياو التنينين خهه هوانغ، ونيو ينغ للإمبراطور شوان، ويبين ذلك أن التنينين ذهبا إلى الإمبراطور، ويعد ذلك نوعاً من أحوال الانتقال إلى نظام زوج واحد وزوجة واحدة في المرحلة المتأخرة لثنائية الزواج. وتأسيساً على عادات وتقاليد العشائر آنذاك، كان الزوجان من الرجل والمرأة في ثنائية الزواج، يدفن كلٌ منهما في مقبرة عشيرته. وتم العثور على منطقة مقبرة لعشيرة في العصر البدائي في مدينة باوجي بمقاطعة شنشي، وتنقسم هذه المنطقة إلى قسمين: مقابر الرجال، ومقابر النساء، والمقابر الأولى تحوي الرجال من سائر العشائر الأخرى الذين عادوا إدراجهم ودفنوا في مقابر أسرهم، والمقابر الثانية تشتمل على النساء اللاتي ينحدرن من

العشيرة ذاتها.

وتطورت ثنائية الزواج بشكل أكبر، ويعني ذلك تأسيس «نظام زوج واحد وزوجة واحدة» بصورة محددة، ونشأ منهما «الزواج» في الصين في هذه المرحلة. وبدأت تتشكل ملامح الزواج وتطورت انطلاقاً من المرحلتين المتوسطة والأخيرة في ثقافة يانغشاو إلى مرحلة ثقافة لونغشان، واستمرت بلا انقطاع إلى الآن، واشتملت على عصر النظام الأمومي برمته، وعصر المساواة بين الرجل والمرأة الذي بدأ منذ فترة قصيرة. واكتشف بحاث الآثار القديمة في محافظة هوايانغ بمقاطعة شنشي، مقبرة دُفن فيها زوج وزوجة معاً في مرحلة ثقافة لونغشان، وتمثل بالضبط برهاناً على تشكيل ملامح هذا النوع من الزواج منذ فترة مبكرة. ولكن توطيد أركان النظام الأبوي يعني تضاؤل مكانة المرأة. وما إن تأسس نظام العبودية، حتى أصبحت المرأة -في المقام الأول- هدفاً تكالب عليه ملاك العبيد للاستحواذ عليها وامتلاكها، وكانت المرأة المقهورة والمسلوبة التي امتلكها هؤلاء الأسياد بمثابة دمية وألعوبة في أيديهم، ويجب عليها القيام على خدمتهم والاضطلاع بالأشغال الشاقة، ولذلك، الرمز الصيني لكلمة «العبيد» في اللغة الصينية يحتوي على المقطع الصيني الذي يعني المرأة، كما أن الرمز الصيني لكلمة «الرقيق» معناه الأصلي المرأة الخانعة للآخرين، ومنذ مجتمع العبودية إلى ما قبل تحرير الصين، كان هناك دائماً نظام زوج واحد وزوجة واحدة ظاهرياً، ونظام زوج واحد متعدد الزوجات واقعياً، أو نقول في عبارة أخرى، نظام زوج واحد وزوجة واحدة للشعب العامل، ونظام زوج واحد متعدد الزوجات للطبقة المستغِلة. وكان يوجد في قصر الإمبراطور اثنتان وسبعون محظية وعدد لا يحصى من الوصائف، كما كانت توجد المحظيات بوصفهنّ زوجات في قصور الأمراء والحكام، ناهيك عن الزوجات والمحظيات والخادمات في قصور النبلاء والأشراف والبيروقراطيين؛ فقد كانت المرأة آنذاك تابعة وخانعة للرجل بصورة كاملة.

وظهر إلى حيز الوجود وسيط الزواج وحفلة الزواج في أعقاب تأسيس نظام زوج واحد وزوجة واحدة في الزواج. وكان يعتبر ذلك شأناً عظيماً لأن المجتمع والأسرة وقتئذ يفتقدان الزواج من أجل «الاهتمام بالأجداد الأولين أولاً، ورعاية الأجيال اللاحقة ثانياً»، ومن ثم يجب الحصول على «موافقة الأبوين، وتوصية وسيط الزواج» حتى يمكن إقامة زواج يتلاءم

مع الهدف المذكور أعلاه. وظهر أقدم وسيط للزواج في أسرة تشو تقريباً. وجاء في «كتاب الأغاني» الآتي: «لست أنا أسوف الزواج بصفة خاصة، بل وسيط الزواج عديم الضمير الذي أرسلته المسؤول عن تأجيله»، و«كيف أصبح الخشب يداً للقدوم؟ ولا يمكن قطع الخشب إذا لم يوجد قدوم. وكيف يجب أن يتم الزواج؟ لا يمكن أن يتم الزواج دون خاطبة». ويبين ذلك أنه في أسرة تشو على أقل تقدير بدأ الاعتماد على وساطة الخاطبة لاتمام زواج الفتى والفتاة. وذكر كتاب «طقوس تشو» أن أسرة تشو قد خصصت موظفاً مسؤولاً عن الزواج يطلق عليه «وسيط الزواج»، ويضطلع بتنسيق شؤون الزواج بين الشباب من الجنسين بعد أن يصلوا إلى سن البلوغ، ويسجلون أسماءهم ويوم ولادتهم»، ويتشابه عمل «وسيط الزواج» آنذاك كثيراً مع عمل مسؤولي مصلحة تسجيل الزواج في الوقت الحاضر. أما بخصوص حفلة الزواج، فقد شهد العصر القديم أشكال عديدة لا داعي لها، وخاصة داخل أروقة الأسر الكبيرة، كانت المجاملات أثقل من الجبل، وآداب اللياقة بين الجنسين باتت معقدة ومتشابكة بصورة لا تعد ولا تحصى. ولكن –على الجملة– نقول إنه من أسرة تشو فصاعداً، قررت قوانين الزواج تنفيذ «المراسم الستة» التالية:

(1) يكلف الشاب وسيط الزواج بأن يذهب إلى بيت الفتاة ويعمل خاطباً، ويقدم لها هدية عبارة عن وزة برية كبيرة، لأن الرجل ينتمي إلى الذكورية (الموجب)، والفتاة تنتمي إلى الأنثوية (السالب). والوز البري ينتقل إلى الجنوب شتاء، ثم يعود إدراجه في الصيف، بما يتوافق مع حركة الموجب والسالب، ويُطلق على ذلك «ناتساي»، ويرمز الوز البري إلى الود والتآلف بين الشاب والفتاة، وفي الوقت نفسه، لأن الأنثى والذكر في الوز البري يتمتعان بالاستقرار والثبات على غرار الزوج والزوجة في دنيا البشر، وإذا مات أحدهما، لا يبحث الآخر عن زوج أو زوجة، ويشير ذلك إلى الحب والصدق والإخلاص. ونظراً لصعوبة صيد الوز البري في الأجيال اللاحقة، فقد حل محله الدجاج والبط والوز الأليف.

(2) يبعث الشاب أحد الأفراد ويسلم الفتاة رسالته التي يطلب فيها أن تخبره باسمها ويوم مولدها في رسالة مماثلة. ويطلق على ذلك «السؤال عن اسم العروس».

(3) بعد السؤال عن اسم الفتاة، يخضع عيد ميلاد الشاب والفتاة للتنجيم من جانب

الساحر، فإذا كان التنجيم يبشر بالفأل والخير، فإنه يمكن أن يسودهما الانسجام والتآلف، أما إذا كان التنجيم ينذر بالشؤم، فإن نصيبهما الإخفاق ويجب أن يفترقا. وكان الأقدمون يؤمنون بالخرافات والخزعبلات، ويتحلى التنجيم لديهم بالأهمية القصوى. ويطلق على ذلك «ناجيه».

(4) إذا كان التنجيم مبشراً بالخير ويمكن تأهل الطرفين للزواج، فإن الشاب يرسل إلى الفتاة المهر بصورة رسمية، وقبول الفتاة للمهر يعني الموافقة على الزواج، وكانت هدايا الزواج مختلفة عبر العصور، وإن كانت تنحصر في نطاق الذهب والفضة والقماش الحريري والشاي. ويطلق على ذلك «ناتشينغ».

(5) يطلب من الساحر أن يختار يوماً سعيداً يكون يوم الزواج بعد موافقة الزوجين. ويطلق على ذلك «تشينغ تشي».

(6) في يوم زواجهما، يذهب العريس بالإنابة عن والديه إلى بيت العروس ليستقبل زوجته، ويعود بها إلى بيته حيث تقام مراسم زواجهما، ويشمل ذلك السجود أولاً للسماء والأرض، ثم السجود للوالدين، ثم يجلس كل منهما وجهاً لوجه، ويحتسيان نخب الزواج (أو خمر الزواج)، وبعد ذلك تبدأ مراسم حفل الزواج من ربط كعكة الشعر؛ حيث يجلس العروسان ويتم ربطهما بخصلة شعر، ويطلق على ذلك «الزواج الأول للزوج والزوجة». وكان حفل الزواج يخلو من الضوضاء قبل عصر هان، ولكن بعد ذلك أصبح يتجه نحو الأبهة والفخفخة يوماً بعد يوم. أما زواج الأباطرة فقد كان يشبه احتفالات الدولة ويزخر بالإسراف والتبذير، ولا يمكن مقارنة ذلك بحفل زواج سواد الشعب.

ويقطن الصين العديد من القوميات التي خلفت وراءها عادات وتقاليد الزواج في العصر القديم بدرجات متباينة في مراحل تطورها عبر التاريخ. وقد خضعت هذه العادات والتقاليد للإصلاح والتعديل في أعقاب تحرير الصين، وقد اندثر بعضها، ولا يزال بعضها منتشراً بين الناس. ونقدم مقتطفات من هذه العادات والتقاليد بصورة مقتضبة في السطور التالية:

«زواج تبديل الغرفة»: كان منتشراً لفترة طويلة نسبياً داخل القوميات التي تقطن المنطقة الجنوبية الغربية مثل: نو، ويي، ووا، ودونغ لونغ، وآتشانغ، ومياو، وكذلك في القوميات

التي تقيم في المنطقة الشمالية الشرقية مثل: ألونتشون، وأونكه. والطريقة الأساسية في هذا الزواج أنه إذا مات الشقيق الكبير، فإن زوجته تصبح زوجة الشقيق الأصغر، وكذلك إذا ماتت الشقيقة الكبرى، فإن الشقيقة الصغرى تحل محلها، وإذا مات الأب، فإن الابن يتخذ من الأم المنجبة زوجة له. وكان هذا النوع من الزواج منتشراً داخل قبائل شيونغنو (الهون) عندما عبرت الأميرة المشهورة لدى الجميع وانغ تشاو جون الحدود، وتزوجت – في البداية– الملك خومانيا، ويطلق عليه تشان يوي (لقب ملوك شيونغنو في الصين القديمة) وأنجبت له ابناً، وبعد موت الملك، ورث ابنه الأكبر العرش وأصبح ملكاً، كما أصبحت هذه الأميرة زوجته أيضاً، وأنجبت بنتين. إن «زواج تبديل الغرفة» يتحلى بخصائص عادات الزواج الموروثة من الأجيال السابقة.

«زواج آتشو» ينتشر في قوميتي ناشي ويومي اللتين تقيمان على ضفة بحيرة لوقو في مقاطعة يونان. و«آتشو» هي لغة قومية ناشي ومعناها الرفيق، الصاحب، الصديق. والأفراد الذين تجمعهم أواصر الدم في النظام الأمومي وخلفهم يمكنهم الزواج ويصبحون آتشو، ويتمتعون بحرية الاتصال الجنسي فيما بينهم، ولا يحتاجون إلى وسيط الزواج في إرسال الهدايا، والمهذب يرسل إشارات وتلميحات بعينيه فقط، ويمكن تحقيق رغائبه غير المهذبة مباشرة، فعندما يأتي المساء يذهب الصديق آتشو إلى الصديقة الخاصة به ويضاجعها طوال الليل، ثم يعود إلى بيته عند انبلاج الفجر ويذهب إلى عمله. وعلاقة آتشو بين الجنسين يمكن أن تستمر لمدة تتراوح بين ثلاثة أو خمسة أيام، أو ثلاثة شهور إلى خمسة شهور، أو ثلاث سنوات أو خمس سنوات، ويمكن أن تدوم مدى الحياة. ولكن كل فرد يتمتع بعلاقة آتشو من الأصدقاء والصديقات بصورة مؤقتة، فضلاً عن علاقة آتشو طويلة الأجل بين الأزواج والزوجات. والأبناء ثمرة هذا النوع من الزواج لا يعرفون الأب، وينتسبون إلى أسرة الزوجة. ويعد ذلك من عادات الزواج التي خلفتها ثنائية الزواج في العصر القديم.

«زواج خطف الأنثى» تنفذه قوميات جينغبوه، وليسو، وداي، ومياو التي تقطن منطقة يونان. وهذا النوع من الزواج عبارة عن اضطلاع الفتى بخطف الفتاة وتزوجها. وجاء في الكتب القديمة «زواج القرصنة»، و«حفلة زواج دون تهنئة»، ويعتقد المفكر الكبير ليانغ تشي شياو أن هذه السجلات ربما توضح الزواج عن طريق الاحتكام إلى وسيلة «القرصنة».

وفي الواقع، إن المرحلة الأخيرة من المجتمع الصيني البدائي إلى المرحلة الأولية من المجتمع العبودي شهدت حقاً زواج القرصنة. ولكن انقسم زواج القرصنة إلى نوعين فيما بعد هما: الحقيقي والزائف. فالنوع الأول عبارة عن قيام أسرة الموظف الثري بخطف الأنثى، ويعد ذلك مظهراً من مظاهر الاضطهاد الطبقي، وليس عادة شعبية. أما النوع الثاني، فهو شكلي فقط؛ حيث قبل خطف الأنثى، يتفق الطرفان على تغيير موعد حفلة الزواج، ويختاران ويحددان يوم زواجهما، ولكن في هذا اليوم يتعمد الشاب أن يجذب أنظار الناس، ويختفي في المكان المحدد للقاء حبيبته، وينتظر قدوم عروسه، فيندفع إليها ويحضنها ويكبلها عائداً بها إلى داره، وتصرخ العروس آنذاك طلباً للنجدة وإنقاذ حياتها، ويتظاهر أهلها بمطاردة الزوج. وفي بعض الأماكن يتعارك الطرفان حقاً، ولكن دون إلحاق ضرر أو جرح بالطرف الآخر، وإذا أخفقت أسرة العريس يجب على الأخير أن يعتذر.

وتعد الجنازة حدثاً مهماً في حياة البشرية، ولذا تتسم مراسمها بالمهابة والإجلال دائماً، وهي جزء من مراسم «الدولة»، وتسمى «مراسم الجنازة». ويجب القول إن مجتمع العصور السحيقة لم يعرف دفن الميت. وذكرت الكتب الكلاسيكية أن: «الميت كان يُرفع إلى أعلى، ثم يوضع في وادٍ» وتترك جثته تنهشها الثعالب ويحوم حولها الذباب. ونشأ مفهوم الروح فيما بعد، واعتقد الناس أن الروح لا تموت، بل تبقى حية، وأن هذه الروح الخالدة ربما تعود إلى الميت وتمنحه السعادة أو التعاسة. ولذا، أدى ذلك إلى تمجيد روح الميت والخشية منها، والرغبة في أن تنعم بالهدوء والاستقرار، ومن هنا طور الناس النظام المعقد الخاص بتقديم القرابين للموتى وتشييع جنازاتهم.

وفي البداية، كانت طريقة الدفن بسيطة للغاية، وذكرت الكتب القديمة أن: «الذي يموت في تلٍ يدفن فيه، ومَنْ يموت في أرض رطبة يدفن فيها أيضاً». ومع تأسيس النظام العشائري وتطوره، كان الأموات الذين ينبثقون من عشيرة واحدة يدفنون في مقبرة عامة، وتتجه رؤوسهم صوب اتجاه واحد، ويوضح ذلك أن علاقة رابطة الدم بينهم واحدة. وإذا انتقلت العشيرة إلى مكان آخر، تنتقل معها مقابرها أيضاً، ثم ظهر ما يُعرف بـ«الدفن للمرة الثانية» أو ما يطلق عليه «الدفن من جديد». ويمكن أن نرى مثل هذه الأحوال في أطلال ثقافة يانغشاو. وكانت الأدوات الجنائزية وقتئذ بسيطة نسبياً، وكانت عبارة عن بعض الأدوات الحجرية

البدائية، وأدوات الزينة المصنوعة من عظام الحيوانات. وبعد توطيد أركان النظام الأبوي، تأسس نظام زوج واحد وزوجة واحدة في عملية الزواج، ومن ثم تطور الدفن الجماعي المشترك في العشيرة، وأصبح الدفن المشترك يقتصر على الزوج والزوجة والأسرة، أما الأدوات الجنائزية فقد كانت عبارة عن الأدوات الزراعية وعجلة الغزل التي كان يستخدمها الزوج والزوجة في حياتهما.

وبعد الولوج إلى المجتمع الطبقي في نظام العبودية، أصبحت مراسم الجنازة تختلف اختلافاً شديداً بسبب مكانة الميت السامية أو الوضيعة. وكان ملاك العبيد ينظرون إلى العبيد باعتبارهم أدوات وحيوانات تتكلم. ومن ثم، عندما يموت ملاك العبيد يتبعهم في الدفن جمهور كبير من العبيد مع سائر الأدوات والحيوانات الأخرى. وكان ذلك بمنزلة نظام دفن الأحياء مع الأموات الأكثر وحشية وهمجية في التاريخ. وبعد تحرير الصين، عثر الأثريون على أطلال أسرة ين في مدينة آنيانغ بمقاطعة خنان وفيها عدة مقابر للعبيد القرابين (العبيد المدفونون أحياء)، وبلغ عدد هؤلاء العبيد زهاء ألف عبد على الأكثر، وعدة مئات على الأقل تقريباً، والجثث بدون رؤوس، مما يوضح أن الدفن حياً كان بعد القتل. ويسجل كتاب «موه تسي – فصل الجنازة» أن نظام دفن الأحياء مع الأموات كان موجوداً في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة، ويذكر: «عندما يموت الإمبراطور ابن السماء يذبح عدد من الأحياء يقدر بعدة مئات على الأكثر، وعدة عشرات على الأقل، وكذلك عندما يموت القادة والجنرالات وكبار الموظفين يذبح بعض الأحياء يقدر عددهم بالعشرات على الأكثر، أو بضعة أفراد على الأقل». وفي عام 1986، تم اكتشاف مقبرة أسرة تشين الكبرى في مقاطعة شنشي والتي تحتوي على أكثر من مائة وثمانين فرداً دفنوا أحياء، مما يوضح أن عدد الأفراد الذين دفنوا أحياء مع مُلاك العبيد في دولة تشين كان مقدراً حسب المستويات والدرجات بدءاً من الإمبراطور ابن السماء. وشعر بعض مُلاك العبيد بصورة تدريجية أن دفن الأحياء من الإنسان والحيوان يسبب خسائر جمة للقوة العاملة، ولذلك قرروا استخدام نماذج وتماثيل من الإنسان والحيوان تدفن مع الأموات، وكان ذلك بمثابة «التماثيل الجنائزية» التي نشاهدها دائماً. واكتشاف التماثيل الحربية الجنائزية للإمبراطور الأول في أسرة تشين، يوضح أن دفن الأحياء مع الأموات كان منتشراً في عصر تشين على الأقل. ولذلك تماثيل تشين الجنائزية

تماثل أحجامها تماماً مع الإنسان الحقيقي والحصان الحقيقي، وتبرز للعيان أن دفن التماثيل مع الأموات بدأ منذ زمن بعيد. وحجم التماثيل الجنائزية لأسرة هان، التي عثر عليها في ولاية شيوه، كان صغيراً جداً، بيد أنها تعبر عن المغزى المقصود منها. ولكن، لم ينته دفن الأحياء مع الأموات بصورة كاملة، وخاصة أن الأباطرة الإقطاعيين عندما يموتون تدفن معهم دائماً وصائف القصر. وانتشر هذا النظام انتشاراً واسعاً في أوائل أسرة مينغ، ومثال ذلك أن الإمبراطور الأول في هذه الأسرة ويدعى جو يوان تشينغ عندما وافته المنية، دُفن معه وصائف القصر الأحياء ودام هذا النظام حتى اعتلى الإمبراطور مينغ زونغ العرش وأصدر أوامره الجلية بإلغاء نظام دفن وصائف القصر أحياء.

وفي التاريخ الصيني، نجد أن الدفن الترابي انتشر بصورة أساسية في قومية هان، وكان الأرستقراطيون ملاك الأراضي يهتمون كثيراً بالدفن المحكم المتقن على وجه الخصوص. ويدفن مع الميت جميع الأدوات التي كان يستعملها في حياته، فضلاً عن الأطعمة التي يحبها وملابسه أيضاً. ولذلك، كان تصميم حفرة التابوت لدى الأباطرة وكبار موظفي القصر الإمبراطوري يحوي على العديد من غرف التابوت، فمن ناحية، يحاكي هذا التصميم الغرفة الإمبراطورية التي كان يقيم فيها الإمبراطور في حياته، ومن ناحية أخرى، وضع الأدوات الجنائزية المرافقة له في القبر. ويعتبر ذلك بمثابة السبب في أن هناك مساحات كبيرة من الأرض تحوي أسفلها عدداً لا يحصى من الكنوز والنفائس. ولكن انبثق من ذلك قضية هامة في التاريخ وهي سرقة المقابر. ومقبرة أسرة تشين الكبرى التي عُثر عليها في محافظة فينغ شيانغ بمقاطعة شنشي، تعرضت للسرقة أكثر من مائتي مرة. واستحوذت هذه القضية على اهتمام الناس في العصور اللاحقة، ولكن الإيمان بالخرافات والخزعبلات والعادات والتقاليد جعلت الأموات في الأجيال المتعاقبة يكابرون في الخطأ. وفي عام 1987، تم اكتشاف قبر سيدة أرستقراطية عاصرت أسرة مينغ في مدينة قوانغتشو، أثبت أن هذه المرأة تتمتع بالفراسة والرؤية الثاقبة، فقد سجلت على شاهدة قبرها وصيتها، ومفادها أن جنازتها تكون بسيطة للغاية، ولا يدفن معها جميع النفائس والكنوز، والهدف من ذلك أنها تريد أن تظل تنعم بالهدوء والاستقرار والطمأنينة في جوف الأرض، ولا تشعر بالقلق والإزعاج، ومن ثم كان قبرها خاوياً على عروشه.

وبالإضافة إلى الدفن الترابي، عرفت قومية هان الدفن حرقا أيضاً، ويتمتع الدفن حرقاً بتاريخ موغل في القدم. وحسب سجلات كتابي «موه تسي» و«شون تسي»، فإن الصين عرفت الدفن حرقاً قبل عصر أسرة تشين، حيث تم حرق جثث الأجداد الأولين آنذاك، وهم يمثلون القوميات التي عاشت في المنطقة الشمالية الغربية مثل قومية دي التي اندمجت في قومية هان فيما بعد. ولكن حسب الاكتشافات الأثرية، فقد تم العثور على علبة الرفات في مقبرة داخل أطلال قرية يرجع تاريخها إلى المجتمع البدائي، وتقع في مقاطعة قانصو، ويوضح ذلك أن حرق جثث الموتى كان منتشراً آنذاك. وبعد قدوم البوذية إلى الصين، وبسبب ضرورة حرق جثث الرهبان بعد موتهم، ومن ثم أثرت عادة الدفن حرقاً في المجتمع الصيني تأثيراً محدوداً، واضطلع بالدفن حرقاً كل معتنقي البوذية من الأباطرة والملوك وكبار الموظفين وعامة الشعب. ومثال ذلك، وصفت الرواية الصينية الكلاسيكية «كلنا أخوة» أن شيمين تشينغ، وبانجين نيان قتلا وو داليانغ وحرقا جثته، مما يوضح وجود ساحات مخصصة لحرق جثث الموتى وقتئذ. ولكن المذهب الكونفوشيوسي في الصين يولي اهتماماً شديداً للأخلاق، واعتقد أن الدفن حرقاً يمثل إعاقة لإطلاق البر بالوالدين، ومن ثم أمر الحكام الإقطاعيون بحظر الدفن حرقاً.

ويعرف الناس أن الدفن الترابي يستخدم التابوت الخشبي. ولكن في الصين القديمة كان يوجد «الدفن في التابوت الحجري»، وكان عبارة عن تابوت طويل مستطيل الشكل يصنع هيكله من أحجار أو صخور لوحية، ويوضع فوق الأرض ويعتبر بمثابة مقبرة. ولم تستخدم قومية بعينها طريقة الدفن هذه، بل كانت هناك مناطق تتركز فيها بصورة أساسية في شمال شرق حوض نهر سونغهوا، ونهر مين في غرب مقاطعة سيتشوان، وحوض نهر جينشا، فضلاً عن بعض الأماكن في مقاطعة يونان. وتتسارع عقارب الزمن وتتجاوز أسرتي شانغ وتشو، حيث انتشرت طريقة الدفن في تابوت حجري في عصر الممالك المتحاربة حتى أسرتي هان الشرقية والغربية، واستمرت حتى عصر أسرة مينغ. ويمكن أن نرى التوابيت الحجرية في وقتنا الحاضر، وأشهرها التابوت الحجري لهوانغ هوي في محافظة لوشان بمقاطعة سيتشوان، والتابوت عبارة عن صندوق صغير مستطيل الشكل طوله 2,54 متر، وارتفاعه 1,01 متر، وعرضه 0,83 سنتيمتر، وكان وانغ هوي من أهالي أسرة هان الشرقية، ولقي حتفه في عام

211م. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أيضاً تابوت تشين يي الحجري في محافظة قوميتي يي وهوى ذات الحكم الذاتي في منطقة ويشان بمقاطعة يونان، ويبلغ طوله ثلاثة عشر متراً، وعرضه عشرة أمتار، ومقدمة التابوت منخفضة، ومؤخرته مرتفعة، وتوجد شمعتان حجريتان على جانبي التابوت، يبلغ طول كل منها خمسة أمتار، ويوضع أمام التابوت المذبح الحجري، وطاولات مربعة حجرية، ومقاعد مربعة حجرية على يمنه ويساره. وتفيد سجلات هذه المحافظة أن تشين يي شو كان الوزير الوحيد الذي بقي على قيد الحياة في أواخر أسرة مينغ، واختفى في الجبل عندما داهمت قوات أسرة تشينغ مقاطعة يونان، واعتكف في أخريات حياته على نحت تابوته من الصخر ودفن نفسه. وتذكر الأبحاث الأكاديمية في السنوات الأخيرة أن الدفن في التابوت الحجري يرجع أصله إلى عبادة الأقدمين للأحجار.

وعرفت الصين القديمة طريقة في الدفن يطلق عليها «الدفن في التابوت المعلق»، ويعني تعليق التابوت الخشبي عالياً في خازوق خشبي فوق جُرف أو تعليقه في كهف. وتم اكتشاف طريقة الدفن هذه في منطقة وو يي شان بمقاطعة فوجيان، وفي مدينة قويشي بمقاطعة جيانغشي، وفي محافظة شينغون بمقاطعة سيتشوان، وفي منطقة محافظة قونغ. وتفيد التقديرات العلمية، إن التابوت المعلق في وو يي شان يرجع تاريخه إلى ثلاثة آلاف وثمانمئة سنة، وتنأى بعض هذه التوابيت المعلقة عن أديم الأرض بحوالي عشرات الأمتار، وبعضها يبعد بحوالي مئة متر وأكثر. والتابوت المعلق يشبه المركب الصغير. والتابوت المعلق في سيتشوان يعد من عادات الدفن الموروثة من قومية بو التي كانت تقيم في المنطقة الشمالية الغربية، ومعظم التوابيت معلقة على خازوق خشبي فوق جُرف. وهناك اعتقاد سائد مفاده أن القوميات التي كانت تستخدم التوابيت المعلقة في الدفن يرجع ذلك إلى إيمانها بالخرافات والخزعبلات من أن الروح تصعد إلى السماء، واعتقدت أنه كلما كان التابوت المعلق عالياً ومرتفعاً، يسهل صعود الروح إلى السماء.

وبالإضافة إلى ذلك، ينتشر «الدفن الهوائي» في منطقة قومية التبت، وهو عبارة عن إرسال الجثة إلى ساحة الدفن الهوائي، وبعد أن تقطع أوصالها تترك للنسور والعقبان تنهش لحمها وتلتهمها التهاماً، ولذا يطلق على طريقة الدفن هذه «دفن الطير» أيضاً. وكانت قومية ياو في العصر القديم تنفذ «الدفن المائي» ويعني رمي الجثة في النهر.

المبحث الرابع

حيوانات البُشرى الطيبة لدى القوميات الصينية

تختار كل قومية في العالم حيوانات تعتبرها فأل خير بالنسبة لها. ويعد ذلك -بصورة عامة- عبارة عن أن هناك بعض الحيوانات تتحلى بقدرات طبيعية تتوافق مع متطلبات البشرية وسعيها وعقائدها في عملية التطور التاريخي. ومن ثم، عمل الناس -حسب رغائبهم- على إغناء وتجميل هذه الحيوانات وجعلوها رموزاً للخير والحظ السعيد، وتعبر عن رضاهم النفسي وآمالهم وتطلعاتهم.

ولكن عند البحث عن أصل وفصل حيوانات البشرى الطيبة نجد أنها بدأت -في الواقع- من حيوانات الطواطم في المجتمع البدائي، وتبلور شكلها النهائي كان نتيجة الاختيار السيكولوجي من جانب الناس حقاً. ويعد التنين، والعنقاء، ووحيد القرن الصيني، والسلحفاة بمنزلة حيوانات الحظ السعيد لدى الأمة الصينية، والأكثر جاذبية لاهتمام الناس من كل حدب وصوب، ومن بينها التنين الذي يأسر لباب الناس ويجعلهم يشعرون بالزهو والافتخار بشكل أكبر. ومنذ زمن بعيد في عصر أسرة تشو، يعتقد سواد الناس أن هذه الحيوانات تشمل على «أربع جنيات» تحظى بالعبادة والتقديس من جانبهم، ولذلك جاء في كتاب «سجل المراسم» أن: «وحيد القرن الصيني، والعنقاء، والسلحفاة، والتنين يطلق عليها الجنيات الأربع». ومن بينها السلحفاة هي الحيوان الحقيقي، أما التنين والعنقاء ووحيد القرن الصيني فهي نماذج حيوانات مثالية تطورت من عبادة الطوطم في العصور السحيقة، وتاريخها موغل في القدم، والمغزى القومي الذي ترمز إليه عميق جداً، وتستطيع باقتدار تجسيد السيكولوجية الثقافية للأمة الصينية من السعي وراء السلام والسعادة والحظ السعيد والعمر المديد.

ونتحدث -**في المقام الأول- عن التنين.** يعتبر التنين شيئاً خارقاً للعادة في الثقافة الصينية. كما اعتبر الأباطرة الإقطاعيون التنين بمنزلة جسدهم الحقيقي، وأطلقوا على أنفسهم تسمية «التنين الحقيقي ابن السماء»؛ وكان التنين في نظر عامة الشعب هو الإله، ويظهرون له ذروة الخشوع والورع عند تقديم القرابين له والتوسل إليه طلباً لهطول الأمطار، كما أصبح الرمز

العظيم للأمة الصينية على الرغم من التغيرات التي شهدتها منذ عدة آلاف من السنين خلت. ويطلق الرجال والنساء الصينيون في الصين وخارجها على أنفسهم لقب «خلف التنين». ويطلق اسم التنين على عدد لا يحصى من الجبال والأنهار والبحيرات والينابيع المنتشرة في كافة أنحاء الصين، كما يطلق على مجموعة النجوم الشرقية في علم الفلك «التنين الأغبر» (الربع الشرقي من الأبراج السماوية في علم الفلك الصيني القديم)، حتى أنه يوجد برج من أبراج ولادة البشر يطلق عليه اسم التنين، كما أن الرسوم، والتماثيل، والخط، والأزياء والحلي مرصعة بصورة التنين في كل مكان. وليس ذلك فحسب، بل قد أصبح التنين نوعاً من القوة الروحية التي لا تعرف الوهن وشكلت «ثقافة التنين» ذات المضمون الثري والأفكار العميقة، ويزخر شكلها الخارجي بالقوة المؤثرة، والشعور الجمالي، والمشاعر القوية.

وقد اشتجرت الآراء حول أصل التنين وتكوينه، وأصبح من الصعب البت في هذه المسألة وإصدار حكم قاطع فيها، على الرغم من الدراسات الأكاديمية الحيوية التي شهدتها السنوات القليلة المنصرمة. وعلى الجملة، هناك ثلاثة آراء في هذا الخصوص.

أولاً: إن أصل التنين ظاهرة طبيعية، ويعتقد هذا الرأي أن «التنين إله طبيعي انبثق من خيالات الأجداد الأولين، وأن خلق التنين كان بمثابة الوحي والإلهام لدى الأقدمين، وقد حصلوا عليهما عند ملاحظة الصواعق ووميض البرق عندما تتكاثف السحب في السماء وتهطل الأمطار. ويعتقد مؤيدو هذا الرأي أن الصاعقة والبرق يتسمان بقوة ساحرة عجيبة في فكر الإنسان البدائي، وهذه القوة تستحوذ على إعجابهم بصورة شديدة، ويرون أنها تشكل دائماً كياناً غير موجود في الواقع، ثم شيدوا هذا الكيان غير الموجود حسب الأشياء المألوفة لديهم وفي أذهانهم، وعلى هذا النحو تشكلت صورة التنين الساحر الذي يتصف بالعديد من صفات الحيوانات.

ثانياً: التنين أصله تمساح مثل التمساح البحري والتمساح الصيني لأنهما من الحيوانات الزاحفة منذ العصور السحيقة، ويشتمل علم الفلك والأساطير القديمة على التنين الأغبر، والإله التنين في الشرق الذي يعبده الطاويون، ولونهما يشبه لون التمساح. ويعتقد أصحاب هذا الرأي أيضاً أن التنين يعتبر إله البرق والمطر؛ لأن التمساح يتمتع حقاً بالقدرة على التنبوء بهبوب الرياح وسقوط الأمطار، ويصدر التمساح صيحة رعدية عادة قبل أن تهطل الأمطار

بغزارة ويغط التمساح في سُبات شتوي، ويعود إلى وعيه في أوائل الربيع، ولذا ذكرت الكتب القديمة أن التنين: «يصعد إلى السماء في الاعتدال الربيعي، ويغوص في أعماق المياه في الاعتدال الخريفي».

ثالثاً: التنين يرجع أصله إلى طوطم الثعبان، ونشأة التنين كانت انعكاساً للتطور المشترك التدريجي للعشائر في العصر القديم. وتحتوي سجلات وثائقية قديمة على العديد من العشائر والقبائل التي استخدمت الثعبان كطوطم، مثل كتاب «كتاب الجبال والأنهار» الذي سجل صوراً للأجداد الأولين مثل: «يانشيوه»، و«تشولونغ»، و«شيانغ يانغ»، و«شوان يوان»، وهذه الصور عبارة عن وجه إنسان وجسم ثعبان، أو رأس إنسان وجسم ثعبان، حتى أن قصة زواج الشقيق الأكبر فوشي والشقيقة الصغيرة نيووا في الأسطورة القديمة، عبرت عن هذا الزواج من خلال ثعبانين رأساهما رأس إنسان. ويرى أصحاب هذا الرأي أن التنين تغير وتطور انطلاقاً من طوطم الثعبان. وفي عملية تطور العشيرة، كان الثعبان يعتبر الطوطم الخاص بالأمة الصينية القديمة التي جسدت العديد من العشائر الأخرى، وشكلت اتحاد القبائل العظيم، وفي الوقت نفسه، احتضنت الطواطم لدى العشائر الأخرى مثل: النمر، البقرة، الحصان، الغنم، الغزال، والنسر، والتي تطورت رويداً رويداً، وأصبحت طوطماً يتحلى بالصفات المشتركة وتجسد في التنين. ويتسم التنين بالعديد من الصفات والملامح من «القدرة على الاختفاء والظهور، وتضخيم جسده وتصغيره، وتطويله وتقصيره»، وهي في الواقع تعد من الأشياء الخارقة فوق العادة للطواطم المشتركة، والتي ترمز بصورة أساسية إلى مكانة الشخصيات القيادية في العشيرة أو القبيلة، وتعزيز قوة وبأس هذه العشيرة أو تلك القبيلة، وكلها من ابتداع الإنسان في الأساطير القديمة، مثل الإمبراطور الأسطوري هوانغ (الأصفر)، يمطتي تنيناً، وهنا يكمن السبب الذي جعل الأباطرة في العصور اللاحقة يزعمون أنهم «التنين الحقيقي ابن السماء». وتوضح هذه الآراء والأقوال أن الدراسات الخاصة بالتنين كثيرة في الوقت الحاضر، وتنوعت الآراء فيها، بيد أنه هناك نقطة مشتركة هي أن التنين الذي رآه الناس في الأعمال الفنية عبر العصور ليس موجوداً على الإطلاق، بل هو نوع من الحيوانات الخرافية من ابتداع خيالات الناس عبر آلاف السنين، وهو يرمز إلى العقائد، والسعي الدؤوب، والمثل العليا، والسلطة والنفوذ.

وأقدم صورة للتنين حسب الاكتشافات الأثرية القديمة إلى الآن تم العثور عليها داخل مقبرة تنتمي إلى المرحلة الأولية لثقافة يانغشاو في مدينة بويانغ بمقاطعة خنان، وصورة هذا التنين تتألف من أصداف، كما عثرت هذه الاكتشافات على صورة نمر أيضاً. وكان التنين يوضع في الجانب الأيمن لصاحب القبر، وشكله ملتو، وطوله 1,78 متر، ويرفع رأسه عالياً، وظهره مقوس، وشكله كأنه يسبح في بحر عظيم، ويحلق في سماء سامقة. يرجع تاريخ هذه المقبرة إلى فترة زمنية تتراوح من خمسة آلاف إلى ستة آلاف سنة، وتقدم الأدلة على عبادة وتقديس التنين والنمر في ذلك الحين، وترتبط هذه العبادة ارتباطاً وثيقاً بسلطة الأفراد ونفوذهم ومكانتهم. وفي أطلال ثقافة هونغشان في لياوشي تم اكتشاف صورة تنين مع أدوات اليشم، ويظهر شكله على شكل الحرف «2»، وأطلق عليه «التنين اليشمي على شكل الخنزير» لأن هيئته الكلية تشبه الخنزير. وأماط هذا الاكتشاف اللثام عن بعض المعلومات التي ذكرت أنه ربما توجد علاقة بين أصل التنين والخنزير. وفي أطلال معبد تاو في محافظة شيانغ فين بمقاطعة شانشي تم العثور على رسوم التنين على الفخار الملون، وشكله مثل حرف «C»، ولكن فمه ضخم، ووجهه طويل، وعينه ضيقة، ورأسه وقرونه تتدلى في الخلف، ويحوي جسمه حراشف، ورسم هذا التنين ليس من أشكال الحيوانات المحددة التي يمكن التعرف عليها. وكلمة «التنين» تتجلى بطرق عديدة في الكتابة في نقوش العظام والسلاحف، في أطلال ين، وفي النقوش المعدنية في أسرتي شانغ وتشو. ولكن السمة الأساسية الرئيسية هي أن جسم التنين ملتو، وأسنانه حادة ونافرة، وله حراشف وقرون. أما رسوم التنين على الأدوات البرونزية، نجد جسمه طويلاً بصورة واضحة، وحراشفه رقيقة ودقيقة، ويتمتع بقدرة هائلة على التلوي والتكور. إن روح التنين وخصاله وشكله قد تبلورت ملامحها النهائية بصورة أساسية في عصر أسرة هان بصفة عامة، من الرأس الضخم، والفم الكبير، والرأس والفم شكلهما مثل الحصان، والأسنان بارزة وفتاكة، واللسان طويل ودقيق مثل الثعبان، والقرون مثل السيف، والوجه يشبه الغنم، والمخالب مثل النسر، والذيل مثل النمر والفهد، ويتراقص في الفضاء، ويغص بالقوة البائسة. وشهد تكوين التنين الرئيسي الثراء والتطور بشكل أكبر في الأسر الحاكمة وي، وجين، وسوي وتانغ، ثم لم يطرأ عليه تغيير في أسرة سونغ، ولذلك قام أهالي هذه الأسر بإجمال ملامح صورة التنين نظرياً انطلاقاً من تكوين ونشأة التنين والتعبير

الفني، ويتضح ذلك في كتابي «تكملة قاموس يا أر» للمؤلف لوايوان، و«سجل رسوم التنين» للكاتب قوارووا، حيث قدما وصفاً لصورة التنين، وكانت «قرونه تشبه قرون الغزال، ورأسه رأس حصان، وعينه مثل عين الربيان، ورقبته مثل رقبة الثعبان، وبطنه تشبه بطن البطلينوس (حيوان من الرخويات أو السمك الصدف- المترجم)، وحراشفه مثل حراشف السمك، وكفه يشبه النمر، وأذنه مثل أذن البقرة»، وقد جرت العادة أن يطلق الناس على ذلك «المواضع التسعة المتشابهة في جسم التنين»، وكان إبداع الصورة الفنية للتنين حسب هذه الأوصاف بصفة عامة بعد أسرة سونغ.

والعلاقة بين التنين والأباطرة يمكن أن ترجع إلى أساطير العصور السحيقة. ولكن كانت الشخصيات القيادية تمتطي التنانين وقتئذ؛ مثل الإمبراطور الأصفر يمتطي التنين ويصعد إلى السماء. ويندمج التنين والإمبراطور في بوتقة واحدة بدءاً من الإمبراطور الأول في أسرة هان ويدعى ليو بانغ. وجاء في كتاب «سجلات تاريخية» أن والدة ليوبانغ كانت «تخلد إلى الراحة على ضفة غدير، ورأت في منامها إلها، ولم يومض الرعد والبرق آنذاك، وتوجه إليها زوجها للاطمئنان عليها، ورأى تنين الطوفان فوقها، وحملت منه وأنجبت ابنها ليوبانغ الذي أصبح إمبراطوراً. وكانت أنفه بارزة، ووجهه وجه تنين، وجميل اللحية». وهذه القصة من المرجح إلى حد كبير أنها من فبركة مستشاري ليوبانغ لاعلاء مكانته التي كانت متدنية في نظر سواد الناس قبل أن يعتلي العرش، ولكنها أثرت تأثيراً عميقاً في تاريخ الثقافة الصينية. وقام الأباطرة في العصور اللاحقة بمحاكاة ليوبانغ تباعاً لاثبات مكانته الشرعية، وأطلق كل إمبراطور على نفسه لقب «التنين الحقيقي ابن السماء». كما ذكر «كتاب التغيرات» واعترف بأن الإمبراطور كان يتقمص شخصية التنين، ثم أصبح التنين من الممتلكات الخاصة في بيوت الأباطرة، وكان القصر الإمبراطوري هو «قصر التنين»، وكرسي العرش هو «كرسي التنين»، والطاولات الصغيرة هي «طاولات التنين»، والأزياء هي «عباءة التنين»، والجسم هو «جسم التنين»، والوجه «وجه التنين»، والأبناء والأحفاد هم «أبناء وأحفاد التنين»، ويغص القصر الإمبراطوري في الداخل والخارج، وكافة أنواع الزخارف والزينة برسوم ونقوش التنين. والمدينة المحرمة في بكين هي عالم التنين، ولا يوجد أحد يستطيع أن يتحدث عن أعداد التنانين في هذه المدينة.

وعلى الرغم من أن الأباطرة اعتبروا أبناءهم وأحفادهم هم «أبناء وأحفاد التنين». إلا أن التنين في الأساطير أنجب تسعة أبناء وكلهم لم يصبحوا تنانين. يسمى الابن الأول بولاو، يعشق التغريد مثل الطيور، وهو الزر في الجرس، والثاني يسمى تشيونيو، صوت عذب، وهو حيوان منقوش على قصبة هوتشين (آلة موسيقية بوترين)، والثالث يدعى ياوبي، يعشق سفك الدماء، وهو يشبه السيف الصارم، والرابع يسمى تشاوفينغ، يحب مجابهة الأخطار، وهو حيوان يتجول في أروقة القصر الإمبراطوري، والخامس اسمه سوان ني، يحب الجلوس ويمتطيه أسد بوذا، والسادس يسمى شيابا، لديه القدرة على تحمل المسؤوليات الجسام، وهو الحامل لشاهدة القبر الحجري، والابن السابع يسمى بيآن، يحب رفع الدعوى القضائية، وهو حارس بوابة السجن، ويدعى الابن الثامن بيشي، يحب الكتابة ويمثل قاعدة النصب التذكاري، ويتلوى كالأفعى، والتاسع يسمى تشي ون، يحب التهام الأشياء، يمثل رأس الحيوان في سنام سقف القصر الإمبراطوري. وهناك قول آخر، يذكر أن الابن الأول اسمه شيانجينغ، يحب أن يسجن الناس، والثاني اسمه تاويه، يحب الماء، والثالث يسمى شيبى، يحب أكل اللحم النيء، والرابع يسمى مانتشوان، يحب الريح والمطر، والخامس اسمه تشينمو، يحب الكتابة، والسادس يدعى جين نى، يحب الدخان، والسابع يسمى جياوتو، يحب إغلاق فمه، والثامن اسمه داو دو، يحب المغامرة والمخاطرة، والتاسع يسمى أويوي، يحب التهام النار. وهناك قول ثالث يرى أن الابن الأول اسمه بيشي شكله يشبه السلحفاة، ويحب المسؤوليات الكبيرة، وهو حامل السلحفاة أسفل النصب التذكاري الحجري، والابن الثاني اسمه تشي ون، شكله مثل الحيوان، وهو رأس الحيوان في السقف، والثالث يدعى جولا، شكله يشبه التنين، ولكنه صغير الجرم، ومن خصاله أنه يحب الصياح والصراخ، وهو يمثل الزر في الجرس، والرابع يدعى بيآن، شكله يشبه النمر، يتمتع بالقوة والنفوذ، وهو حارس بوابة السجن، والخامس اسمه تاوتيه، يحب الطعام والشراب، مرسوم على غطاء الطنجرة، والسادس يسمى باشيا، يحب الماء بالفطرة، مرسوم على أعمدة الجسر، والسابع اسمه ياتسي، يحب القتل بالسليقة، مرسوم على مقبض السكين، والثامن يدعى جين ني، شكله يشبه الأسد، يحب الدخان والنار بالفطرة، مرسوم على موقد البخور، والتاسع يسمى جياوتو، شكله يشبه المحارة الحلزونية، يحب الانغلاق والعزلة بالفطرة، يقف على جانب

باب البيت. وهناك العديد من الأقوال المتباينة الأخرى، ومغزاها متماثل قليلاً.

ويتحلى التنين بمظهر آخر لدى صفوف عامة الشعب، ويحظى بالحب والتقدير لأنه يعتبر رمز القوة والروح. إن أنشطة اللهو والتسلية المنتشرة بين سواد الناس من سباق قوارب التنين وفوانيس رقصة التنين منذ القدم، وقيام البلاط الإمبراطوري بتأليه التنين، يعتبران موضوعين مختلفين تمام الاختلاف؛ فالتنين مفعم بالبهجة والتفاؤل والروح المعنوية العالية، وشكله ليس صارماً البتة. ولكن تنين البلاط الإمبراطوري وتنين عامة الشعب لا يفتقران إلى علاقة أيضاً، فإنهما يتسمان بالتأثير الكامن، حتى جعلا التنين يصبح رمزاً لروح الأمة الصينية حتى الوقت الحاضر.

ثانياً: نتحدث عن العنقاء: تنشط الدراسات الخاصة بالعنقاء أكثر فأكثر. وهناك ثلاثة آراء تدور حول العنقاء إلى الآن، هي:

(1) يعتقد الرأي الأول أن عبادة العنقاء أصلها يعود حقاً إلى النعامة في العصر الحجري القديم، لأن العنقاء في الأسطورة هي طائر الشمس، وطائر الرقص والغناء أيضاً. والنعامة في العصر القديم هي طوطم إله الشمس، وتستطيع الاستماع إلى الموسيقى، وماهرة في الرقص. ولكن اتسم هذا النوع من العنقاء بتصورات متعددة الألوان والأشكال على مدى الدهر بسبب اندثاره في الصين حقاً منذ أربعة آلاف سنة خلت.

(2) يعتقد الرأي الثاني أن العنقاء –في الواقع– تتكون من إلهين طبيعيين هما: «فينغ» و«هوانغ». وفينغ هو الريح وعبادة إله الريح، أما هوانغ فهو الإمبراطور وعبادة إله الشمس، وتم تفسير العنقاء تفسيراً مكلفاً في خضم التغيرات في العصور اللاحقة، وتحولت إلى أنواع عديدة من الطيور.

(3) يعتقد الرأي الثالث أن العنقاء هي بمثابة اندماج وتقديس طوطم الطيور، على غرار التنين هو اندماج وتقديس طوطم الحيوان (يستخدم الثعبان بصورة أساسية). وحسب استنتاج سجلات وثائقية، ففي العصر القديم كان يوجد عدد غير قليل من العشائر اتخذت من الطير طوطماً لها، مثل شاوهاو زعيم قبيلة دونغيي اتخذ الطائر طوطماً للقبيلة. وذكر كتاب «زوا تشوان» أنه: «عندما استولى شاوهاو على العرش،

طافت حوله في الوقت المناسب العنقاء والطيور، ولذا أطلق على عصره عصر الطيور واستخدم أسماء الطيور». وفي الواقع، إن جميع سكان هذه القومية كان الطير طوطمهم. وكذلك مثل قومية شانغ؛ حيث جاء في «كتاب الأغاني» أن الجد الأكبر لقومية شانغ ويدعى تشي، أكلت أمه بيضة طائر أسود، ثم حملت بعد ذلك، وأنجبت هذا الجد. ويوضح ذلك بجلاء أن قومية شانغ اتخذت من الطير طوطماً لها. أما فيما يتعلق بسكان أسرة تشو في الجنوب، فقد كان الأجداد الأولون لهذه الأسرة يعبدون الطير، ومن ثم تم العثور على مطرزات في مقبرة أسرة تشو في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة، وكانت معظم زخارف هذه المطرزات من العنقاء. وكانت نشأة الطائر العجيب العنقاء على أساس طوطم الطيور. وذكر كتاب «الجبال والأنهار» أن: «هناك جبلاً يسمى دان شيوه.. يقيم فيه طائر شكله يشبه الدجاج، وريشه متعدد الألوان والأشكال، ويوجد على جسمه زخارف مزينة، ويُعرف باسم العنقاء. ويطلق على رأسه اسم دا، وعلى جناحه يي، وعلى ظهره لي، وعلى صدره رين، وعلى بطنه شين. انه طائر يأكل ويشرب في الطبيعة، ويغرد ويرقص من تلقاء نفسه. وعندما يحلق في السماء، يسود الأرض الأمن والطمأنينة». كما جاء في «قاموس شرح كلمات» أن: «العنقاء ظهرت في بلاد الأشراف والأمراء والنبلاء في الشرق، وتحلق العنقاء في السماء في الأفق البعيد، وتعبر جبال كونلون، وتشرب من غدير ماء، وتغسل ريشها، وتأوي إلى عشها في جبل دان شيوه، وظهورها في السماء يمنح الأرض الهدوء والسلام». وتوضح هذه السجلات أن العنقاء -في الواقع- ترتبط كثيراً بتجمعات العشائر في الشرق، وتعتبر العنقاء رمزاً للخير والأخلاق، والهدوء والاستقرار في الأرض. أما بخصوص شكلها، فقد وصفها كتاب «سيرة غير معتمدة لمؤلف كتاب الأغاني هان» بأن: «مقدمة طائر العنقاء تشبه التّم. ومؤخرتها تشبه وحيد القرن الصيني، ورقبتها مثل الثعبان، وذيلها مثل السمك، وجسمها مثل السلحفاة، وعروقها مثل التنين، وعنقها مثل السنونو، وفمها يشبه الدجاج.. وتمد رقبتها وتهز جناحيها بقوة، وهي متعددة الأشكال والألوان، وعلى الرغم من أن ذلك يشمل تشكيلة مختلفة من الطيور، إلا أن الشكل الرئيسي للعنقاء يمكن أن نجده

في الأعمال الفنية عبر العصور المتعاقبة؛ حيث رأسها رأس الديك الذهبي البري، وفمها فم الببغاء، وجسمها جسم الوز البري، وجناحها جناح الرُخ الكبير، وريشها ريش الطاووس، وقدمها قدم الكركي، وتزدهي بالألوان المختلفة، وتبدو في ذروة الأناقة والجمال والروعة، وتتحلى بالعديد من صفات وملامح الطيور الأخرى. ولذلك، لا غضاضة أن نعتقد أن صورة العنقاء التي ذكرتها السجلات توضح فقط أنها كانت بمثابة الاندماج والتقديس للطوطم، ولا تظهر المكونات المحددة للعنقاء إطلاقاً. ونقول بصفة عامة، إن العنقاء تعتبر إثراءً وتطويراً لطوطم الطيور، وهي أيضاً من ابتداع وخيال وتصور الإنسان.

وبعد أن احتكر الأباطرة الإقطاعيون التنين تقريباً، بدأت الأسرة الحاكمة احتضان العنقاء على وجه الخصوص. وتولي الثقافة الصينية اهتماماً شديداً لمفهوم الاندماج بين الأرض والسماء، والسالب والموجب، والرجل والمرأة، ومادام التنين يمثل الإمبراطور، ويرمز إلى السماء والموجب، إذن، من الضروري أن يوجد مخلوق غريب وساحر يمثل الإمبراطور، ويرمز إلى الأرض والسالب، ولذا تم ابتداع العنقاء، وبسبب عبادتها وتقديسها وقع الاختيار عليها في هذا الشأن. وأصبح من البديهي تحقيق الاندماج بين السماء والأرض، والتنين والعنقاء، ولكن تأسيساً على سجلات، فإن العنقاء هي التسمية الجامعة لطائر العنقاء ذكراً وأنثى. وفي الواقع، إن ذكر العنقاء يطلق عليه «فينغ»، وأنثى العنقاء تعرف بـ«هوانغ»، ولذلك كان الأقدمون يقولون «فينغ يريد الزواج من هوانغ»، إشارة إلى الرجل عندما يتقدم للزواج من فتاة. وكان من نتيجة التطور والتغير، إن ذكر العنقاء أصبح زوجاً لأنثى التنين. وزخارف الحلي التي تم العثور عليها في مقابر الأباطرة نجد فيها رسوم التنين في الأعلى، ورسوم العنقاء في الأسفل، ولكن في قبر الإمبراطورة الأم تسي شي نجد رسوم التنين والعنقاء على الحلي عكس ذلك تماماً.

ثالثاً: وحيد القرن الصيني: يُعرف في اللغة الصينية باسم «تشي لين»، وظهر منذ زمن مبكر نسبياً. وذكر كتاب «خبايا سجلات تاريخية» أن: «ذكر وحيد القرن الصيني يطلق عليه «تشي»، وأنثاه «لين»، وشكله يشبه الإلك، وذيله ذيل بقرة، وحوافره حوافر ذئب، له قرن واحد». وجاء في كتاب «شرح قصائد ماو في كتاب الأغاني» أن: «قدم لين هي قدم

الحصان، وذيلها ذيل بقرة، ولونها أصفر، وحوافرها دائرية، ولها قرن واحد، واللحم يكسو حواف قرنها». وعندما ترى وحيد القرن الصيني تشعر بأنه حيوان شامل لخصائص عدة حيوانات. وفي السنوات القليلة الماضية، كان الناس يعتقدون أن وحيد القرن الصيني يعد نوعاً من الطوطم، ومن المرجح إلى حد كبير أنه كان طوطم قومية تشو، وهناك اعتقاد سائد أنه تطور من الغزال ومن بعض حيوانات من فصيلة الغزال. ويعتقد الأقدمون أن الغزال هو «حيوان الخير الصافي»، «وظهور الغزال يعني إحلال الأخلاق في العالم»، ويوضح ذلك أن الغزال يرمز إلى النوايا الطيبة والأخلاق والعدل. والقول بأن وحيد القرن الصيني كان نتيجة تطور الغزال يتحلى بالمغزى الإيجابي من الاتحاد والاستقرار، ولذلك ذكر كتاب «فترة الربيع والخريف» أن: «وحيد القرن الصيني له قرن واحد، ويعني ذلك وجود إمبراطور واحد في البلاد». وأضاف أن: «ظهور وحيد القرن الصيني يعني الاتحاد بين السلام والشعب». وحتى هذا الكتاب يعتقد أن: «ظهور وحيد القرن الصيني يعني انتشار الأخلاق في كل مكان، بما فيها الأماكن المظلمة. وأنه يطارد الأشرار، ويساعد الفضلاء على اعتلاء المناصب الهامة»، ومن ثم أصبح وحيد القرن الصيني حيواناً يبشر بالخير والحظ السعيد. وذكرت سجلات تاريخية أن الإمبراطور هان وو دي اصطاد وحيد القرن الصيني، ومن ثم أقام بناية وحيد القرن الصيني داخل القصر الإمبراطوري، وعُلقت على جدرانها صور الأكفاء من الوزراء وأبناء الشعب في عهد الإمبراطور هان شوان دي، وأُستخدم وحيد القرن الصيني كثيراً في تشبيه الشخصيات البارزة، كما أُطلق على الأطفال الأعزاء الأذكياء لقب «وحيد القرن الصيني». وعندما تولت الإمبراطورة وو تسه تيان العرش في أسرة تانغ، قررت تغيير الوزارة إلى «مقصورة وحيد القرن الصيني»، كما قررت أن المستشارين العسكريين من ذوي الدرجة الثالثة فأكثر يرتدون عباءة وحيد القرن الصيني، واستمر هذه الحال حتى عصر أسرتي مينغ وتشينغ، وأصبحت أزياء كبار الموظفين والمستشارين العسكريين من الدرجة الأولى تحتوي على حلية عبارة عن تطريز وحيد القرن الصيني.

رابعاً: **السلحفاة**: السلحفاة حيوان حقيقي، وتتحلى بالمقدرة على تحمل المسؤولية وتستطيع أن تعيش طويلاً، ويمكن أن تتنبأ بالخير والشر، ولذا أصبحت جنية وحيوان فأل خير. وتحكي رواية أن السلحفاة في عصر الملك هوانغ (الأصفر) خرجت من الماء وهي

حاملة والدة ملك المناطق الغربية وسلمته للإمبراطور هوانغ، ولذا استطاع أن يهزم زعيم عشيرة تشي يو. وجاء في كتاب «ليه تسي» أنه كان يوجد جبل في بحر بو يتحرك مع أمواج البحر صعوداً وهبوطاً، وشعرت الحوريات التي تقطن هذا الجبل بالقلق والخوف، وأرسلت إليه خمس عشرة سلحفاة ضخمة حملت على أكتافها هذا الجبل، وشعرت الحوريات بالاطمئنان والهدوء منذ ذلك الحين. وعلى الرغم من أن هذه القصة الغريبة والعجيبة من تلفيق الطاويين، ولكنها اضطلعت بدور كبير في تقديس وعبادة السلحفاة. وكان الأقدمون يعتقدون أن السلحفاة عجيبة وغريبة، وألوانها خمسة، وظهرها مثل قبة السماء، وبطنها مستوٍ مثل أديم الأرض، وعينها اليسرى تشبه الشمس، وعينها اليمنى تشبه القمر، ولديها المقدرة على التنبؤ بالخير والشر. وذكر الأقدمون أيضاً أن السلحفاة تتجول بين أوراق اللوتس عندما تبلغ من العمر ثلثمائة سنة، وتعيش بين أخيليا ألبينية Alpine Yarrow عندما يكون عمرها ثلاثة آلاف سنة، ولذلك الأجيال اللاحقة اعتبرت السلحفاة شيئاً خارقاً يحقق العمر المديد والتنبؤ بالخير والشر. وكانت هناك وظيفة «رجل السلحفاة» في عصر أسرة تشو؛ وهو المسؤول عن إدارة شؤون أنواع السلاحف المختلفة على وجه الخصوص، فمثلاً إذا كان القربان يحتاج إلى التنجيم، يحمل هذا الموظف السلحفاة ويضعها في الأمام. ومنذ عصر أسرة هان، كان «تنين السلحفاة» يستخدم في وصف الشخصيات البارزة، و«السلحفاة لين» في وصف العمر الطويل. كما قررت هذه الأسرة أن جميع الأختام التي يستخدمها حكام الولايات والوزراء والجنرالات والقادة يجب أن تكون من سبائك الذهب ومصنوعة على شكل السلحفاة وأُطلق عليها «سلحفاة الرابطة»، ثم أُطلق اسم السلحفاة على خاتم الموظف. وما ذكرته الكتب القديمة من منح المرء خاتم موظف وشريط زينة يعني منحه منصباً حكومياً.

ونتناول في هذا المقام أيضاً النمر؛ وهو حيوان حقيقي، وعلى الرغم من أنه لا ينتمي إلى الجنيات الأربع، ولكن حسب القول القديم بالجنيات الخمس، فالنمر هو الجنية الخامسة. وقدم كونغ ينغدا شرحاً وتفسيراً في كتابه «مقدمة زوا تشوان في الربيع والخريف» ذكر فيه: «يعتبر وحيد القرن الصيني، والعنقاء، والسلحفاة، والتنين والنمر الرابض بمثابة الجنيات الخمس التي تشمل الطيور والحيوانات، ويستبشر بها الملوك والأباطرة ويعتبرونها فأل الخير والحظ السعيد». وكان الأقدمون يعتبرون «النمر» ملك الحيوانات في الجبل، ويرمز إلى

الشجاعة والبسالة، واعتاد الناس استعارة النمر لتعزيز قوتهم ومقدرتهم على طرد الشرور. وتم العثور على صورة التنين والنمر في أطلال ثقافة يانغشاو في مدينة بويانغ بمقاطعة خنان، توضح أن المجتمع البدائي اعتبر النمر شيئاً خارقاً فوق العادة، وانتشرت عادة تعليق صورة النمر على الأبواب لطرد الشرور في عصر أسرة تشو. وطبعاً أصبحت صورة النمر الشجاع الرهيب رمزاً للضباط والأفراد البواسل الذين يخوضون غمار المعركة، وظفروا بتسميات عدة مثل: «الجنرال النمر»، و«الجندي النمر»، و«خلف الجنرال النمر». وقامت أسرة تشو بتعيين موظف حكومي يضطلع بحراسة القصر الإمبراطوري وأطلقت عليه «النمر العداء» يقود ثمانمئة من الذين يطلق عليهم «الجندي النمر». وكان كبار المستشارين العسكريين في العاصمة والقصر الإمبراطوري يتألفون من «الضابط النمر العداء»، و«الفريق النمر العداء» في أسرة هان. وكان النمر العداء يعني الشجاعة والبسالة. وفي العصر القديم، كانت خوذة الجنود، والأسلحة والمجن تزدان بصورة النمر، كما كانت مقاعد القادة والجنرالات العسكريين مفروشة بجلد النمر، وحتى تحرك القوات العسكرية كان يحاكي شكل النمر، وأطلق على ذلك «شارة النمر». وفي عصر الممالك المتحاربة، خطط القائد العسكري شين لينغ جون لسرقة شارة النمر، وأرسل القوات لإنقاذ مملكة تشاو وسرقوا هذه الشارة. ويحتفظ متحف مقاطعة شنشي إلى الآن بشارة النمر في دولة تشين. ومن ناحية أخرى، يعتبر النمر حيواناً شرساً، ويرمز إلى الهيبة والمهابة في قانون العقوبات، ولذلك كان يطلق على سجن المحكوم عليهم بالإعدام «سجن رأس النمر». وفي أوبرا بكين «ربيع القاعة اليشمية» كان المجرم صوسان يقيم في سجن رأس النمر في محافظة هونغ دونغ، وما زال يحتفظ بآثار ما جاء في الحكايات والروايات إلى الآن. ويعتبر النمر بالنسبة لعامة الشعب الإله الخامس للشعب الكادح، ويحمي سلام وأمان سواد الناس الذين يتدثرون بـ«بيت النمر الخامس»، و«النمر طارد الشر». ويلبس الأطفال عادة في الأرياف أحذية مطرزة برأس النمر، ويلبسون قبعات مزدانة برأس النمر أيضاً، كما يعلقون وشائح النمر، وربما يأملون أن يصبحوا مثل «جندي النمر»!

ولكن الأشياء المثالية تتحلى دائماً بالجمال والكمال، بينما الأشياء الواقعية تتسم بالمزايا والعيوب. ويعد التنين، والعنقاء، ووحيد القرن الصيني من الحيوانات المثالية، ولم ير أحدٌ

صورها ويقدسها حقاً، ويكاد الناس لا يعثرون على نقائصها، كما أن القصص والأقوال المأثورة التي انبثقت منها تكاد تكون جميلة ورائعة. ومثال ذلك: «كالتنانين المحلقة والعنقاوات الراقصات»، و«التنين والعنقاء يجلبان الرفاهية»، و«الطيور على كافة أشكالها تثني على العنقاء»، و«العنقاء تنحني أمام الشمس»، و«نادر مثل ريش العنقاء وقرن الوحش الأسطوري»، و«يتمنى المرء أن يصبح تنيناً» (إشارة إلى المستقبل المشرق للأبناء) تتحلى كلها بالإيحاء الفني الجميل والمعنى الرائع، ويبدو ذلك جلياً للعيان. ولكن تختلف السلحفاة والنمر، فهما يعيشان في عالم الواقع، ويستطيع الناس رؤية صورهما، ولذلك تدرك العين نقائصهما للوهلة الأولى. وتتحلى السلحفاة بـ«العمر المديد والمقدرة على التنجيم»، كما أن حركتها بطيئة، وتتراجع خوفاً ولا تتقدم إلى الأمام، والسلحفاة تتقوقع، ويجسد ذلك كله عيوب ومساوئ السلحفاة. والنمر شجاع وباسل من جهة، ومن جهة أخرى، يتصف بأنه حيوان شرس ووحشي، ولذلك يمكن أن يكون مع التنين من الجنيات الخمس، وشكلا بذلك عبارات جميلة ورائعة مثل: «تنانين محلقة ونمور متواثبة»، و«يفيض حيوية ونشاطاً كأنه نمر وتنين»، و«مثل التنين الزاحف والنمر الرابض»، و«زئير التنانين والنمور»، كما يمكن للنمر أن ينضم إلى قطيع الحيوانات المتوحشة ويشكل بعض الكلمات والعبارات المقززة مثل: «نهم مثل ذئب أو نمر»، و«ترك النمر يعود إلى الجبل»، و«ثعلب يصول بجبروت النمر»، و«إذا ذكر النمر امتقع لونه»، و«لئام النمر والذئب»، إن صورتي النمر الحميدة والمذمومة موجودتان في عالم الواقع والحقيقة.

المبحث الخامس

زهور وأشجار نادرة وثمينة

تختار كل أمة الزهور والأشجار الأكثر استحواذاً على إعجابها وحبها، وتجسد مشاعرها وأحاسيسها العميقة من خلالها. وأظهرت هذه المشاعر والأحاسيس حب الناس الشديد للطبيعة، حتى عبرت عن آمالهم وتطلعاتهم. ولذلك العديد من الدول تختار الزهور والأشجار القومية من أجل ذلك. وتتباين الأمم الأكثر حباً وإعجاباً بالزهور والأشجار نظراً لاختلاف عملية التطور الخاصة بكل أمة، وبيئتها الحياتية وأحوالها النفسية واهتماماتها. والصينيون مولعون بالاندماج في الطبيعة، واعتبروا الزهور والأشجار من الكائنات الحية مثل حياتهم تماماً، ويستعيرون الزهور والأشجار، والصفات المميزة لسائر الكائنات الأخرى في تشبيه الخصال الاجتماعية للإنسان، ومن ثم بعض الصفات المميزة للإنسان تنصهر دائماً في بوتقة واحدة مع بعض الخصائص المميزة للزهور والأشجار، ومن بينها الصنوبر، والبامبو، والبرقوق، والصفصاف، والفوانيا الشجرية (عود الصليب) حيث تعتبر الأكثر بروزاً.

الصنوبر: الصنوبر يقترن بالسرو دائماً. ويعشق الصينيون الصنوبر بسبب صفاته المميزة بصورة أساسية من مقاومة البرد والمقدرة على أن يكون دائم الخضرة. ويعد ذلك -في الأصل- صفات طبيعية لدى الصنوبر، ولكن الصينيين فهموا هذه المزايا بأنها تعد نوعاً من مقاومة التغيرات البيئية والمقدرة على الاستمساك بالخصائص الاجتماعية دون تغير، إنه الإدراك الذي يتحلى بروح البساطة والتحدي وعدم الاستسلام. وذكر كتاب «سجل الطقوس- فصل أدوات الطقوس» أنه: «بالنسبة للإنسان، يعتبر الصنوبر والسرو يمثلان القلب، فأوراقهما وأغصانهما لا تتغير في الفصول الأربعة، ويجب على قلب الإنسان أن يحذو حذوهما». وكان ذلك بداية استعارة صفات الصنوبر والسرو في تشبيه خصال الإنسان وطباعه. وبعد ذلك اضطلع كونفوشيوس وآخرون بالترويج لهذه الفكرة؛ حيث يعتقدون أن القدرة على استكشاف صفات المرء تحتاج إلى تجربة شاقة ومضنية لفترة طويلة، فالصنوبر والسرو بعد أن يجتازا البرد القارس، تبدو أمامنا خصالهما وصفاتهما التي تختلف عن صفات الإنسان، ومن ثم جاء في كتاب «الحوار» لكونفوشيوس أنه قال: «عندما يأتي الشتاء، يدرك أشجار

الصنوبر والسرو دائمة الخضرة». وجاء في كتاب «تشوانغ تسي» أن الفيلسوف تشوانغ تسي قال: «أعرف نمو وازدهار أشجار الصنوبر والسرو عندما يبلغ البرد الذروة ويتساقط الثلج والصقيع». ويعكس ذلك صفات وخصائص الصنوبر والسرو من المقدرة على تحمل البرد القارس التي جعلت الأقدمين يعتبرونها رمزاً للعمر المديد، واعتبروهما يمثلان «زعامة جميع الأشجار» أيضاً، ومن ثم يتحليان بمؤهلات خدمة البوابة الإمبراطورية. أما كتاب «سجلات تاريخية» فقد ذكر أن: «الصنوبر والسرو يمثلان زعامة الأشجار، ولذا يحرسان القصر الإمبراطوري»، ولذلك غرس الأباطرة وكبار الموظفين والمثقفين عبر العصور اللاحقة أشجار الصنوبر والسرو أمام مقابرهم على نطاق واسع، وكان قطع هذه الأشجار في العصر القديم يعتبر جريمة كبرى لا تغتفر، لدرجة أنه عقوبتها تكون الإعدام. وحسب ما جاء في سجلات كتب قديمة أيضاً، أنه كانت توجد غرفة حجرية في جنوب ولاية ينغيونغ في أسرة جين، وتوجد شجرة صنوبر وحيدة خلف هذه الغرفة طولها ألف تشانغ (وحدة قياس صينية تبلغ ثلاثة أمتار وثلث المتر)، يطير ويحوم حولها زوجان من الكركي. وقد قيل إن زوجين اعتزلا الناس داخل هذه الغرفة في الماضي، وقد عاشا وبلغ عمرهما عدة مئات من السنين، وبعد موتهما أصبحا زوجين من الكركي، ويعد ذلك مصدر كركي الصنوبر لإطالة العمر، وكركي الصنوبر للعمر المديد في الأجيال المتعاقبة. وتناولت أقلام الكتاب أشجار الصنوبر على مدى الدهر من أجل إظهار روح الصنوبر من التحدي والمقاومة والبسالة والاستمساك بصفاتها التي لا تتغير ولا تتبدل مدى الحياة. واستعان الشاعر ليو تشين بالصنوبر في التشبيه في قصيدته بعنوان «إهداء إلى شقيقي الصغير» وجاء فيها: «أشجار الصنوبر ممشوقة القوام في الجبل، ونزأر الريح في الوادي. وكلما اشتد هبوب الريح، تزداد أغصان الصنوبر قوة. ويتكالب الصقيع على أشجار الصنوبر، ولكنها تبقى سامقة دائماً. ولا تتألم من قسوة البرودة الشديدة، وهذه هي فطرة الصنوبر». وفي قصيدته «إهداء إلى وي مسؤول شؤون القصر الإمبراطوري» ذكر الشاعر الكبير لي باي: «تنمو أشجار الصنوبر في جبل تاي هوا، عالية سامقة وسط الصقيع والثلج، وارتفاعها يطاول عنان السماء، ولا تنال منها الريح والأنواء. ولكن أشجار الخوخ والبرقوق تتباهى بألوانها البراقة، وتأسر لب المشاة، وعندما ينتهي الربيع وتبور الأرض، يذبل لونها الأخضر وتسقط أوراقها. وأريد منك أن تتعلم من أشجار

الصنوبر، ولا تكون مثل أشجار الخوخ والبرقوق تذبل وتسقط على الأرض. ولا يتغير قلبك مهما تعرضت للظلم والاضطهاد، وبعد ذلك تصبح من النبلاء».

البامبو. يعتقد الأقدمون أن البامبو يرمز إلى الذوق الرفيع، وشكله رائع وجميل، ويتفوق على الجميع، ويتحلى بالسحر الرومنطيقي، وصفاته تتجسد في رحابة الصدر والمقدرة على تمالك نفسه، ويستخدم البامبو دائماً في تشبيه أخلاق المرء بأنها رفيعة ونبيلة. كما يعتبره الأقدمون رمزاً للإباء لأنه ينمو وبه عقدة البامبو. وذكر كتاب «الأغاني» أن: «عيدان البامبو تنمو نشيطة وقوية ومزدهرة في مكانٍ بعيد عند منعطف جدول الماء». وفي العصور المتعاقبة، أبدى الأدباء والمثقفون إعجابهم بجمال وروعة البامبو وأخلاقه الكريمة، واستعاروا ذلك في تشبيه صفاتهم المميزة ومشاعرهم العاطفية. وفي عصر أسرتي وي وجين، كان جي كانغ، وروان جي، وشانتاو، وشيانغ شيوه، وروان شيان، ووانغ رونغ، وليو لينغ تجمعهم الروابط الحميمة والصداقة المتينة، ويتجولون بين غابات البامبو، وأطلق عليهم «الفضلاء السبعة»، واستعاروا بصورة مشتركة البامبو في وصف خصالهم، وأطلقت عليهم الأجيال المتعاقبة «الفضلاء السبعة بين غابة البامبو». والخطاط الشهير وانغ شي جي كان نجله يدعى وانغ هوي جي عاشقاً للبامبو طوال حياته، لدرجة أنه كان يحث الناس على زراعة البامبو حتى ولو كان يقيم في مكان ما بصورة مؤقتة، وسُئل ذات مرة: «أنت تقيم بصورة مؤقتة، فلماذا تزرع البامبو؟» فقال: «لا يمكن أن يمر يوم ولا أرى فيه البامبو». واعتزل ستة أفراد، من بينهم الشاعر لي باي وكونغ تشاو فو، الحياة في جبل تسو لاي في شانغدونغ، واتخذوا من البامبو وغدير رمزاً للجمال، والشعر والخمر يبعثان البهجة في النفس، وأطلق عليهم «المتفوقون الستة عشاق البامبو وغدير الماء». وبات البامبو والفضيلة والتفوق على قدم المساواة، مما يوضح أن صفات البامبو كريمة وسامية ونبيلة. والشاعر صوشي كان مولعاً بالبامبو، وحتى ذكر أنه: «يؤثر أن يكون طعامه خالياً من اللحم، ولا يفضل أن يكون بيته خالياً من البامبو». وأشاد الأدباء والمثقفون بالبامبو في قصائدهم في العصور المختلفة، ورسموا البامبو بالحبر الصيني، والأعمال الفنية التي تناولت البامبو كثيرة ومتعددة. والشاعر تشينغ جيو لينغ في أسرة تانغ، ذكر في أشعاره أن: «الناس يهتمون بالنبل والكرامة، ويعرفون رحابة الصدر وكرم الأخلاق»، مشيراً بذلك إلى البامبو. والشاعرة شيوه تاو كانت تعشق البامبو، وتناولت في

قصائدها البامبو التي كانت مشهورة لفترة من الوقت، وجاء في قصيدتها المعنونة بـ«نزهة في غابة بامبو بعد المطر» أن: «عيدان البامبو تنمو بقوة ومزدهرة، وتتحلى بالعقد التي تجعلها تتمتع برحابة الصدر والمقدرة على تمالك النفس». والشاعر صوشي كان شقيقه وتنونغ رساماً قديراً في رسم البامبو، ومن أعماله «رسم البامبو بالحبر الصيني» التي حظيت بشهرة وتعتبر من الأعمال الرائعة، وكانت نظريته في رسم البامبو هي: «صورة البامبو واضحة في ذهني»، والتي أصبحت اليوم من الأمثال المتداولة. وفي أسرة يوان، كتب الشاعر يانغ زاي قصيدة «البامبو مرسوم بالحبر الصيني» جاء فيها: «صفة البامبو المميزة أنه لا يرحل وراء شهرة، ولونه ليس تملقاً وتزلفاً. يعيش وحيداً بين الجُرف والوادي، ويكاد أن يعانق عنان السماء». وفي الوقت نفسه، جسد صفات البامبو الأربع المميزة وهي: لا يسعى وراء جاه، ترَّفع عن المطالب المادية، وتمالك النفس، والصدق والنزاهة، ويمثل ذلك الصفات الفكرية التي يتحلى بها الأدباء والمثقفون الصينيون ويسعون وراءها. والرسام الشهير جينغ بانتشياو في أسرة تشينغ، أبدي تفوقاً رائعاً في الشعر والخط والرسم، وأبدى للعيان صفات البامبو المميزة والروحية على نطاق أكثر رحابة وعمقاً، وحقق الاندماج بين الإنسان والبامبو، والبامبو والرسم في وحدة عضوية واحدة، وتفحص صفات البامبو، وذكر: «ريح الخريف اجتازت أمس بلدة شياو شياو، واخترقت الصخر، وتغلغلت في زراعات البامبو بصورة مجنونة. وظلت عيدان البامبو بمفردها تتصدى للريح وتقاومها أكثر من مرة دون خوف ووجل». وسمع أصوات البامبو فقال: «في مكتبي بدار الوالي، وفوق سريري في بيتي، سمعت حفيف أوراق البامبو، وساورتني الشكوك بأنه صوت الشعب يئن من الألم والصعوبات، وطلبت من موظفي محافظة نساو تشو أن يعتنوا بكل غصن وكل ورقة بامبو». وكتب قصيدتين عن البامبو جسدتا إباء هذا الشاعر وصلابته، وذكر ذات مرة أنه: «يرمي قبعة الوظيفة الرسمية ولا يحب أن يكون موظفاً حكومياً، حتى لو أصبحت جيوبه خاوية. ويفضل أن يصطاد السمك بغصن بامبو أخضر نحيف على ضفة نهر وتهب ريح الخريف»، وأردف قائلاً: «عيدان البامبو وطيدة الأركان لا تهتز في عمق الجبل الأخضر، وتتجذر جذورها في جُرف مهترئ. وتتصدى لتآكل عوامل التعرية مرات عديدة، وهي رابطة الجأش، ولا تنال منها الريح أبداً إذا هبت من الشرق أو الغرب أو من الشمال أو الجنوب». أما استعمالات البامبو فتتحلى

بالطابع المميز الفريد في الثقافة الصينية. وألواح البامبو هي مصدر الكتب في الصين، وكلمة «تسه» معناها الأصلي هي كتاب البامبو. وبدأ استخدام البامبو في تشييد القصور منذ عهد الإمبراطور هان وو دي في أسرة هان، وكان ذلك إيذاناً باستخدام البامبو في البناء والتشييد. وهناك علاقة وثيقة بين البامبو والحب، ويتجلى ذلك في المثل القائل: «الصداقة الحميمة وألعاب البامبو بين الصغار»، و«أغنية أغصان البامبو» التي انتشرت في العصر القديم كانت في الواقع أغنية حب عاطفية. ومنذ قبل أسرة تشين فصاعداً، كان الرمز الذي يمثل سلطة الحاكم مصنوعاً من البامبو، وكذلك كانت علامة وثيقة المبعوثين الدبلوماسيين الذين يعملون في الدول الأجنبية عبارة عن عقدة مصنوعة من البامبو أيضاً. وكانت لوحة التشريفات في الصين القديمة لدى الأسر الحاكمة في العصر القديم مصنوعة من البامبو. وكانت الأقواس والسهام في العصر القديم مصنوعة من البامبو. وكانت «شعيرات البامبو» تسمية بديلة للآلات الموسيقية التقليدية الوترية والنفخية، مما يبرهن على أن معظم هذه الأدوات كانت مصنوعة من البامبو. كما كانت أقدم عيدان الطعام التي يستخدمها الصينيون بصفة خاصة مصنوعة من البامبو. وعلى هذا النحو، تغلغل البامبو في المناحي الثقافية الروحية والمادية على نطاق واسع كما رأينا، ولا يمكن إلا أن نعترف أن ذلك يمثل ظاهرة ثقافية فريدة.

زهرة المايهوا. أشار كتابا «طقوس أسرة تشو» و«كتاب الأغاني» إلى زهرة المايهوا، فقد ذكر الأخير: «ينمو الكستناء والمايهوا بنشاط وقوة في جبل يقع في مكان بعيد عند منعطف جدول ماء». ويوضح ذلك أن الناس في ذلك الحين كانوا يعتقدون أن زهرة المايهوا من أجمل وأروع الأزهار. ويعشق الصينيون زهرة المايهوا لأنها –بصفة خاصة– شكلها أنيق وجميل، وسحرها جذاب يأسر الألباب، وصفاتها المميزة نبيلة وكريمة، وتتحلى بالإباء والشهامة والمهابة والإجلال، وجعلتها هذه الصفات تقاوم البرد، وتتفتق قبل قدوم الربيع، ورائحتها عطرة. وكان الأقدمون يعتبرون «زهرة المايهوا»، وزهرة السحلب، والبامبو والأقحوان بمثابة «النبلاء الأربعة»، كما اعتبروا «الصنوبر، والمايهوا، والبامبو» بمنزلة الأصدقاء الثلاثة الذين يقاومون البرد القارس». كما استعار الأقدمون البتلات الخمس في زهرة المايهوا في تشبيه النعم الخمس في الحياة وتشمل: العمر المديد، والسعادة، والهدوء والاستقرار، والأخلاق الكريمة والميتة الطبيعية، ولذلك يلصق الناس دائماً في عيد الربيع لفيفة أفقية مكتوب عليها

«تفتق أزهار المايهوا يجلب النعم الخمس». وبدأت أزهار المايهوا تنمو بكميات ضخمة في الجنوب منذ عصر أسرة سونغ، وأصبحت تشكل العديد من غابات المايهوا الاصطناعية تدريجياً. وذكر فإن تشينغدا في كتابه «سجل المايهوا» أن عدد أنواع أزهار المايهوا بلغ زهاء مائة نوع في ذلك الحين. وكل نوع من هذه الأزهار يتبارى في الحسن والجمال، ويتراقص ويتمايل مع النسائم، ويزخر بقوة سحر وجاذبية شديدة. وزادت الأعمال الفنية من الشعر والرسم التي تصف أزهار المايهوا أكثر فأكثر بعد عصر سونغ. مثل قصيدة «زهرة المايهوا» للشاعر وانغآن شي، والتي جاء فيها: «تغص قمة السور بأزهار المايهوا، التي تتفتق دون غيرها رغم البرودة الشديدة. ويظن المرء من بعيد أنها ثلوج، لأنها تخفي رائحتها الذكية». ويجسد ذلك الصفة المميزة لأزهار المايهوا من القدرة على مقاومة البرد الشديد. كما جاء في قصيدة «امتداح المايهوا» للشاعر لويوي: «على جانبي جسر متهالك خارج المحطة، تنمو أزهار المايهوا وحدها دون راعٍ. وتشعر بالقلق والوحدة في الغسق، ويتعاظم خوفها عندما تهب الريح ويهطل المطر. وتستحوذ على محاسن الربيع دون قصد، ولا تحسد جمال سائر أترابها. وعندما تسقط على أديم الأرض تتحول إلى طين، وتطحنها الأقدام وتصبح تراباً، ولا يبق منها سوى رائحتها الذكية». ويعد ذلك وصفاً رائعاً للإباء والشهامة والنخوة لدى زهرة المايهوا. وكان الشاعر لين بو في أسرة سونغ الشمالية يعتبر المايهوا مثل زوجته لا يفارقها طوال حياته، ويكن لها المشاعر والأحاسيس الحميمة، وقدم قلمه وصفاً غير عادي لهذه الزهرة، وذلك في قصيدتين عنوانهما «المايهوا العزيزة في البستان»، وجاء في إحداهما: «سقطت أعداد كبيرة من أزهار المايهوا وأحدثت ضجيجاً، والمشاعر الغرامية تملأ أركان البستان. وظل أزهار المايهوا الخفيف يمتد مائلاً وأفقياً على صفحة الماء الصافي، وتفوح رائحتها الذكية في الغسق، ويظهر القمر. ويتوق الصقيع مثل الطيور إلى الهبوط إلى الأرض، ويختلس النظر إليها، ولو عرفت الفراشة ذلك لانكسرت روحها. ولحسن الحظ عندي أغنية حقيقية تقيم علاقة حميمة مع زهرة المايهوا، ولا أحتاج إلى قرع طبل ولا كأس خمر». لقد وصف الشاعر أزهار المايهوا وصفاً مؤثراً، ويستحق بجدارة لقب زوج زهرة المايهوا. ولكن الأدباء والمثقفين من ذوي الذوق الرفيع، أصبح لديهم مشكلة بصورة تدريجية إزاء إدراك مقياس الجمال لدى أزهار المايهوا؛ فقد اعتقدوا أن «المايهوا الملتوية المقوسة جميلة،

ولكن المايهوا العمودية غير ذي شكل، واعتبروا المايهوا المائلة أنيقة وجميلة أيضاً. ولكنها تفتقر إلى المظهر الجميل، وكذلك المايهوا المتباعدة المتناثرة جميلة، ولكن المايهوا الكثيفة تفتقر إلى الشكل الجميل أيضاً»، ولذلك اضطلع رجال البستنة بمسايرة ذوق وميول ورغبات هؤلاء المثقفين، وعدَّلوا عن عمد صفات المايهوا الطبيعية، وأصبحت المايهوا غير الطبيعية التي تتصف بـ«التقوس والالتواء والتباعد» من أجل بيعها بأسعار غالية، ولذا فقدت المايهوا جمالها الطبيعي. وفي أسرة تشينغ، عقد قونغ تشي جين العزم على «استعادة صفات المايهوا الطبيعية»، واشترى خصيصاً ثلاثمائة أصيص من المايهوا غير الطبيعية، ومكث بجوارها يبكي ثلاثة أيام بلا انقطاع، ثم حطم هذه الأصص، وفك أسر المايهوا من الحبال التي تكبل حريتها، واستغرق خمس سنوات حتى جعل المايهوا تستعيد صفاتها الطبيعية الجميلة، وأسس –بصفة خاصة– «ديوان معالجة المايهوا غير الطبيعية»، كما كتب مقالاً بعنوان: «تاريخ ديوان معالجة المايهوا غير الطبيعية» على وجه الخصوص.

الصفصاف: يقترن الصفصاف دائماً بشجر الحَوْر، ويطلق عليهما التسمية المشتركة «الحور والصفصاف»، ويتسمان بالمقدرة القوية نسبياً على التكيف مع الظروف البيئية، وتنمو البراعم على أغصانهما وفروعهما في الربيع قبل سائر الأشجار الأخرى، ومن ثم اعتقد الناس أنهما رسول يبشر بقدوم الربيع، كما اكتشفوا من خلال الاحتكاك الفعلي بالحور والصفصاف، إن الصفصاف المتهدل يتمتع بالخفة والرشاقة والعظمة، ويحظى بحب الناس. ويتبوأ الصفصاف مكانة مهمة أكثر فأكثر في مجال أنشطة الناس الخاصة بمقاييس الجمال، ونشأت «عادة الصفصاف» رويداً رويداً. ومثال ذلك عادة «كسر غصن الصفصاف» في العصر القديم تعبيراً عن الشعور بالألم عند توديع الأصدقاء والأحباب وصعوبة فراقهم. وأصل هذه العادة نجده في «كتاب الأغاني» الذي جاء فيه: «جال بخاطري عند مفارقة الأحباب في الماضي، أشجار الحور والصفصاف الوارفة الناضرة والتي تتراقص مع النسيم». ومن ناحية أخرى، انبثق «الشوق والحنين» أيضاً من «الشعور بالألم عند الفراق». وبعد الأسر الجنوبية والشمالية، كانت المقطوعة الموسيقية «كسر غصن شجر الحور والصفصاف» تعبر دائماً عن الشوق والحنين لدى غريب الدار تجاه مسقط رأسه، ومثال ذلك: «في جبل ومضيق وو يوجد الصفصاف المستحي والحور المتهدل أيضاً. ونكسر غصن الصفصاف والحور بقلب واحد وفي آن واحد. والصديق

القديم يتوق إلى مسقط رأسه. والجبل يكتسي باللوتس ويبدو جميلاً وأنيقاً، وتتدفق المياه مثل ضوء القمر. وأصوات القرود تدوي في جوف الليل شديد البرودة، والدموع تبلل ملابس غريب الدار». والشاعر لي شانغ ينغ في أسرة تانغ كتب قصيدة بعنوان: «كسر غصن الصفصاف والحور» جاء فيها: «الضباب معبأ ببخار الماء ويتراقص داخله، والآلاف من الأغصان والفروع تتراقص مع أشعة الشمس. أيها المشاة، لا تكسروا جميع أغصان الصفصاف والحور، اتركوا نصفها لتوديع الأصدقاء، والنصف الآخر لاستقبالهم عند عودتهم». وبالإضافة إلى عادة كسر غصن الصفصاف، هناك أيضاً عادة تعليق غصن الصفصاف في عيد الصفاء والنقاء في العصر القديم، وذلك بسبب أن جيه جي توي مستشار ملك مملكة جين في فترة الربيع والخريف، اعتزل الحياة هو وأمه في جبل ميان، وأصدر الملك أوامره بحرق الجبل لإجباره على الخروج من الجبل، وكانت النتيجة أن المستشار وأمه لقيا حتفهما وهما يحتضنان شجرة صفصاف. والناس يعلقون غصن صفصاف على الأبواب في يوم هذا العيد إحياء لذكراه.

الفوانيا الشجرية (عود الصليب): يطلق على الفوانيا في الغالب لقب «عبير سماوي وجمال قومي»، وتعتبر ملكة الزهور، وتتحلى بالكبرياء والعظمة اللذين عمقا حب الناس لها. ولكن كانت الفوانيا تفتقر إلى اسم خاص بها قبل عصر أسرة تانغ، وكان يطلق عليها الاسم الدارج «دوح صيني» في ذلك الحين، وأطلق عليها التسمية الخاصة الفوانيا الشجرية انطلاقاً من «شجر دوح صيني». وهنا ندرك أن محاسن الفوانيا وملامحها ومحاسنها لم تظهر للعيان بصورة حقيقية إلا في عصر تانغ. وكان الملوك والأباطرة والأرستقراطيون يتمتعون دائماً بمشهد الفوانيا، كما كان الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ والمحظية الأولى يانغ يتمتعان بالفوانيا الجميلة المزروعة أمام مظلة العبير الكثيف. والقصائد الثلاث للشاعر الكبير لي باي المعنونة بـ«ألحان تشينغ- بينغ» تصف الفوانيا الشجرية والمحظية الأولى يانغ. والتسمية الجميلة «عبير سماوي وجمال قومي» انطلقت في مجلس التمتع بمشهد الفوانيا حضره الإمبراطور شوان زونغ وكبار الوزراء في أسرة تانغ، كما تعد هذه التسمية إجمالاً لما جاء في قصيدة الشاعر لي جينغ فينغ حيث قال: «عبير سماوي يفوح في الملابس في الليل، والجمال القومي يسطع على الخمر في الصباح». وقصيدة «ابتياع أزهار الفوانيا» للشاعر باي جيوي يي، وصفت أحوال عشق وولع الأثرياء بالفوانيا وحياة البذخ والترف في مدينة تشانغآن الإمبراطورية على

النحو التالي: «في المدينة الإمبراطورية تشانغآن، وفي أواخر فصل الربيع، تنطلق العربات جيئة وذهاباً، تحدث ضجيجاً وعجيجاً. وتصدر صيحات مرددين معاً: جاء موسم شراء الفوانيا، سارعوا لابتياع أزهار الفوانيا، أسعار الفوانيا متذبذبة متقلبة في كف القدر. مائة زهرة حمراء يانعة تساوي خمس لفائف من الحرير الأبيض. الزهور تحت الظليلة، يحوطها سياج بامبو متشابك لحمايتها. يُنثر فوقها الماء، وتُغرس جذورها في الطمي، وتُنقل إلى السوق، ولا يتغير لونها الأصلي المشرق اللامع. شراء الفوانيا أصبح عادة داخل أسر الأغنياء والفقراء، ويتمسكون بها تمسكاً أعمى. ذهب فلاح عجوز إلى السوق لشراء الفوانيا مصادفة، أحنى رأسه وأصدر تنهيدة طويلة، لم يدرك أحدُ مغزاها وسرها: شميلة من الفوانيا الحمراء القرمزية تكفي لسداد ضرائب عشر أسر من الطبقة المتوسطة!» وبعد ذلك، أصبحت فوانيا العاصمة لوايانغ تتمتع بشهرة قديمة وواسعة، ومن ثم قال الشاعر أويانغ شيوه إن: «أزهار فوانيا لوايانغ هي الأكثر جمالاً، والفوانيا عجيبة وغريبة في العالم». ويقال إن الموطن الأصلي لفوانيا لوايانغ كان في مدينة تشانغآن، وفي يوم من أيام الشتاء القارس، أصدرت الإمبراطورة ووتسي تيان أوامرها بأن: «تقوم بجولة في البستان في صباح الغد، ويجب أن يعرف الربيع ذلك على وجه السرعة، ويجب أن تتفتق الزهور في الليل، ولا تنتظر هبوب الريح في الفجر». وفي اليوم التالي تفتقت جميع الأزهار عدا أزهار الفوانيا، واستشاطت الإمبراطورة غضباً، وقررت معاقبة الفوانيا ونقلها إلى مدينة لوايانغ. ولم يدر بخلد أحد أن التربة في هذه المدينة هي الأكثر ملاءمة لنمو الفوانيا وازدهارها. وأصبحت هناك أنواع ثمينة ونادرة من الفوانيا مثل: «وي تسي»، و«ياو هوانغ» في عصر أسرة سونغ. وبعد منتصف أسرة مينغ، ازدهرت الفوانيا في ولاية تساو (مدينة خهتسي اليوم) بمقاطعة شاندونغ، وأصبحت هي ومدينة لوايانغ منطقتين كبيرتين للاستمتاع بمناظر الفوانيا الشجرية في الوقت الحاضر.

المبحث السادس
الأعياد القومية

إن الأعياد التقليدية التي نشأت في الصين عبر التاريخ بلغت عدة مئات من الأعياد بسبب أن أراضي الصين فسيحة الأرجاء ويقطنها العديد من القوميات. ولا يزال الكثير من الأعياد الكبرى تؤثر في عادات وتقاليد الصينيين إلى الآن. وبإلقاء نظرة شاملة على تكوين هذه الأعياد ومضامين أنشطتها، نجدها تختلف اختلافاً كبيراً عن الأعياد في أوروبا وفي جميع دول غرب آسيا. ومعظم الأعياد في أوروبا وغرب آسيا يرجع أصلها بصورة مباشرة إلى الأديان أو المؤثرات الدينية، ومثال ذلك في المسيحية، توجد أعياد دينية مثل: عيد الميلاد، وعيد الفصح، وعيد الشكر، وعيد الصوم الكبير، وعيد الاعتقاد أن مجيء المسيح إلى الأرض ثانية قريب، وعيد مسيحي روسي يطلق عليه «Maslenitsa». وفي الإسلام يوجد عيد الفطر وعيد الأضحى. وترتبط أنشطة هذه الأعياد ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات الدينية وتشهد المراسم الدينية المحددة. ومعظم الأعياد القومية في الصين، ولاسيما الأعياد التقليدية لدى قومية هان، لا ترتبط بثمة علاقة بالأديان، ونشأتها وتطورها يرتبطان بالإنتاج الزراعي وعبادة الأجداد ومحرمات المجتمع البدائي بصورة وثيقة. وحددت العادات والتقاليد الصينية بجلاء الصفة المميزة للثقافة الصينية الزراعية، والأعياد في حد ذاتها تعكس الأنظمة في حياة المجتمع الزراعي، ويرتبط الفلك والتقويم بالإنتاج الزراعي، وأثرا تأثيراً مباشراً في نشأة الأعياد، وتوضح أنشطة الأعياد من طقوس قرابين الأجداد، وبهجة لَمّ شمل الأسرى أن العادات والتقاليد في الأعياد تحتفظ بآثار عبادة الأجداد، وجسدت الطابع الأخلاقي المميز في الأعياد الصينية، وفي الوقت نفسه، إن هذه العادات والتقاليد تسعى وراء الهدوء والاستقرار والحظ السعيد، ومطاردة الأمراض، ومكافحة الكوارث، وأنشطة أعياد غير قليلة تتحاشى الشر وتختار الخير، ويمكننا ذلك من إدراك بعض العلاقات الخاصة بالأعياد والمحرمات لدى الأقدمين. أما بخصوص مضمون أنشطة الأعياد التي تشتمل على مآثر الأدباء والمثقفين وذوقهم الجمالي، فتظهر أن عادات الأعياد الصينية تختلف عن نظيرتها في الغرب. وجملة القول، إن الأعياد في الغرب تهتم بـ«الرب»، وتجسد العلاقة بين «الإنسان والرب»، بينما

الأعياد في الصين تهتم بـ«الإنسان»، وتعكس العلاقة بين «الإنسان والإنسان» و«الإنسان والمآثر» (مثل المآثر الزراعية).

(1) عيد الربيع. يطلق على عيد الربيع لقب «رأس السنة الجديدة»، وكان يسمى قديماً «اليوم الأول في السنة الجديدة»، و«عيد رأس السنة الجديدة»، و«الثلاثة الأوائل» (أول السنة الجديدة، والفصل الموسمي الأول، والشهر القمري الأول). ويعتبر عيد الربيع أهم عيد في الصين وأكثر الأعياد التقليدية مهابة وإجلالاً. والسواد الأعظم من القوميات في الصين تحتفل بعيد الربيع. إن نشأة المفهوم الزمني لـ«السنة» ترتبط ارتباطاً مباشراً بالزراعة والتقويم، ويعد هذا المفهوم استنتاج الأقدمين لدورة نمو المحاصيل الزراعية والتغيرات الموسمية. ولذلك، ذكرت سجلات قديمة: «محصولان في السنة». وقد قيل إن هذه الدورة كان يطلق عليها «زاي» في عصر الإمبراطور ياو وشون، و«سوي» في أسرة شيا، و«جي» في أسرة شانغ، و«تيان» في أسرة تشو. وسجل «كتاب الأغاني» أن أسرة تشو الغربية شهدت أنشطة تناوب الفصول القديمة والجديدة في السنة، وكانت توجه كلمات ودية ومجاملة للأجداد عند تقديم القرابين لهم في أسرة تشو. وتعتبر هذه الأنشطة صورة مصغرة للعادات والتقاليد في رأس السنة الجديدة في العصور اللاحقة. ولكن قبل أسرة هان، وبسبب أن التقويم السنوي لم يتبلور في صورته النهائية، فإن المفهوم الزمني لـ«السنة» اختلف من عصر إلى آخر، ومثال ذلك «كتاب الأغاني» ذكر أن نهاية السنة في أسرة تشو كانت في الشهر العاشر، وتبدأ السنة الجديدة في الشهر الحادي عشر. وفي عهد الإمبراطور هان وو دي في أسرة هان تقرر تحديد السنوات تأسيساً على تقويم أسرة شيا، وتم دمج أربعة وعشرين يوماً من أيام شمسية محددة في التقويم السنوي، وأصبح الشهر القمري الأول هو بداية رأس السنة الجديدة، والشهر الثاني عشر القمري هو نهاية السنة. وبعد تحديد رأس السنة الجديدة بدءاً من بداية الشهر القمري الأول، بدأ نظام الأنشطة المختلفة التي تتركز على أول السنة الجديدة في عشية رأس السنة الجديدة، والتي شكلت عادات وتقاليد عيد الربيع رويداً رويداً. ومن منظور أنشطة الاحتفال برأس السنة الجديدة عبر العصور المختلفة. نجد أن النشاطات في عادات وتقاليد رأس السنة الجديدة، تتركز بصورة أساسية في مجالين، أولهما: «تنظيف معبد الأجداد وطقوس القرابين»، ويشمل ذلك أنشطة السجود للسماء والأرض، وتقديم القربان للأجداد

والأسلاف، وأنشطة تقديم التهاني لأفراد العائلة والأقرباء والأصدقاء، تعبيراً عن امتنان الناس وشكرهم لأفضال السماء والأرض بصورة أساسية، والشوق والحنين إلى الأجداد الأولين وتبجيلهم، وتهنئة الأقارب والجيران في مسقط الرأس، ويعد ذلك تجسيداً لاهتمام الأمة الصينية بالوشائج الإنسانية والأخلاق الحميدة، وانعكاساً لمفهوم نظام المشيخة العشائرية في سيكولوجية الشعب الصيني. وثانيهما: «إهداء الخمور وإنزال الآلهة»، ويشمل ذلك نشاطات إطلاق المفرقعات، وتعليق دوبيت الاحتفال بعيد الربيع، واحتساء خمر جياو باي، والقفز فوق إله الموقد. وقد بدأ إطلاق المفرقعات في عصر أسرة هان، وأصبح من العادات والتقاليد الخاصة بتحديد السنوات في الأسرة الجنوبية والشمالية. وفي الأسر الجنوبية، ذكر زونغ لينغ وكان معاصراً لمملكة ليانغ في كتابه «سجل سنوات أسرة تشو» أنه: «في بداية الشهر القمري الأول، وعندما تصيح الديكة، يتم إطلاق المفرقعات أولاً أمام البيت، ثم الاستعانة بشيطان لطرد الروح الشريرة». وقد قيل إن هذا الشيطان يسبب الأمراض، ولكنه يخاف من دوي إطلاق المفرقعات. وفي البداية، كان يتم حرق البامبو، ولذلك كان يقال «تفجير البامبو»، ويتم تعبئة أنابيب البامبو بالبارود، وبعد أسرة سونغ، انتشر استخدام المفرقعات على نطاق واسع. وكان دوبيت عيد الربيع -في البداية- عبارة عن تميمة خشب الدراق، وكانت عبارة عن لوحين من خشب الدراق يعلقان على الباب ومرسوم عليهما إلهين هما: شينتشا، ويوليي وهما المسؤولان -كما ذكرت الأساطير- عن السيطرة على مئات الشياطين، وفي أواخر أسرة تانغ حتى الأسر الإمبراطورية الخمس، أصبح تشونغ قوي إله الباب، وقد قيل إن الإمبراطور تاي زونغ في أسرة تانغ قبض في منامه على رجل على شكل شيطان تتألف صورته من شوان زونغ كوشو، ووو داوتسي. وبعد زوال أسرة سونغ، أصبح تشين تشونغ، ووي تشي قونغ بمثابة إله الباب. وحسب ما جاء في سجلات قديمة، فإن هذا الإمبراطور أصابه مرض عضال، وبات طريح فراش المرض، وكان يرى دائماً شياطين في جوف الليل تقض مضجعه، ثم أخبر تشين تشونغ، الذي ارتدى هو ووي تشي قونغ الزي العسكري ووقفا أمام الباب، وعندما عمّ السكون والهدوء المكان في الليل كما هو متوقعاً، أمر الإمبراطور رساماً برسم صورة لشخصين وتعليقهما على مدخل الباب لطرد الأرواح الشريرة. ويحكى أن احتساء خمر جياو باي يمكن أن يمنع حدوث الحرائق والأمراض،

ويمنح الصحة والعافية والعمر المديد. وكان الاحتفال برأس السنة الجديدة يبدأ في اليوم الثالث والعشرين من الشهر الثاني عشر القمري في العصر القديم، ويطلق على ذلك الاحتفال الصغير، وهو في الواقع يعد التحضير والاستعداد للاحتفال بالسنة الجديدة، حيث تنظيف البيوت، وإرسال إله الموقد إلى السماء، وذبح خنازير وأغنام، وشراء مشتريات خاصة بعيد الربيع، والانهماك في الاستعدادات حتى عشية الاحتفال، ويتم تناول وجبة عشية السنة القمرية. ويقول الناس في الشمال: تقديم قربان إله الموقد في اليوم الثالث والعشرين، وتنظيف البيت في الرابع والعشرين، وتجهيز جبن فول الصويا في الخامس والعشرين، وشراء اللحم في السادس والعشرين، وذبح الدجاج في اليوم السابع والعشرين، ولصق شتى أنواع الزهور في اليوم الثامن والعشرين، وشراء الخمر في اليوم التاسع والعشرين، وتجهيز جياوتسي (لحم بعجين) في اليوم الثلاثين، والسهر طوال الليل في مساء يوم الثلاثين حيث إطلاق المفرقعات إيذاناً ببدء الشهر القمري الأول.

(2) **عيد الفوانيس:** يحلّ هذا العيد في الليلة الخامسة عشرة من الشهر الأول القمري، وكان يسمى قديماً «شانغيوان» أو «يوان شياو» (عيد البدر الأول)، ويعتبر من موروثات الأجيال السابقة في تقديم القرابين في العصر القديم، ويرتبط بعلاقة محددة بتقديس السماء والأرض. وذكر كتاب «سجلات تاريخية -فصل الموسيقى» أن: «الإمبراطور هان وو دي في أسرة هان، كان يقدم القرابين لإله الشمس في قصر قانتشوان في الشهر الأول القمري، وتبدأ طقوس القربان في الغسق وتستمر طوال الليل وتنتهي في صباح اليوم التالي». ويعتقد مؤرخون أن ذلك يمثل أصل عيد الفوانيس. وكان يطلق على إله الشمس في العصر السحيق «تاي يي»، ويعتبر أكثر آلهة السماء إجلالاً واحتراماً، ولذلك كانت أسرة هان تقدم له طقوس القربان التي تتحلى بالمهابة والإجلال. وبعد قدوم البوذية إلى الصين، أثرت تأثيراً محدداً في عادات وتقاليد الأعياد في الصين، ومن بينها عيد الفوانيس. وجاء في كتاب «تاريخ المناطق الغربية في أسرة تانغ» أن: «دولة Magadha (المتاخمة للهند في الوقت الحاضر) كان الرهبان فيها يتجمعون في الليلة الخامسة عشرة في الشهر القمري الأول، ويلقون نظرة على الرفات المقدس لبوذا، ويضيئون الفوانيس وينثرون الأزهار». وأمر الإمبراطور هان مينغ دي في أسرة هان بإضاءة الفوانيس وتقديم القربان لبوذا في معبد قونغ تينغ في الليلة الخامسة عشرة من

الشهر القمري الأول. وعلى هذا النحو، اندمجت أفكار الرهبان الصينيين مع مراسم الديانة البوذية في الصين، وشَكَّلَ ذلك عيد الفوانيس الذي انتشر انتشاراً واسعاً بعد أسرة تانغ، حيث كان يحتشد السواد الأعظم من أهالي قومية تو في الليلة الخامسة عشرة من الشهر القمري الأول، ويعلقون الفوانيس على واجهات البيوت، وتسطع أضواؤها ليلاً ونهاراً في منظر بديع ومشرق. وكتب الشاعر تسوي يه في أسرة تانغ ست قصائد بعنوان «ليلة الاحتفال بعيد الفوانيس» ذكر فيها: «لا تتعجل عقارب الساعة المائية الفضية اليشمية، والعلب المعدنية الذهبية سوف تفتح عما قريب. ومَنْ يرى القمر ويستطيع أن يجلس في بيته ولا يخرج يتفرج على الفوانيس في كل مكان». وفي كتابه «أقوال جديدة عن أسرة تانغ الكبرى» ذكر ليو صو أن: «العاصمة تشهد في اليوم الأول من الشهر القمري الأول احتشاد الفوانيس المزخرفة من شتى الأنواع، ويرفع الحظر عن الأماكن المحرمة ويسمح التجول فيها ليلاً، ويخرج الأرستقراطيون وعامة الشعب لشراء مشتريات عيد الفوانيس، ويتجولون ويطوفون طوال الليل». وقررت أسرة تانغ أن عرض الفوانيس في عشية عيد الفوانيس يستمر ثلاثة أيام هي: اليوم الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر. ولكن أسرة تانغ قررت أن يستمر العرض لمدة خمسة أيام، وتوسيع نطاق أنشطة الاحتفال، والفوانيس المزخرفة أكثر وفرة وثراء. وفي المؤلفات الوثائقية الخاصة بأسرة سونغ مثل: «حُلم هوا في العاصمة»، و«مآثر عهد حكم شوانخهه»، و«أحداث قديمة في وولين» —ذكرت أن في عيد الفوانيس «تغص جميع البيوت بأنوار الفوانيس، وتصدح الموسيقى في كافة الأصقاع»، «وفي القصر الإمبراطوري يتم تصنيع فوانيس زجاجية، وتتكدس كالتلال من شتى الأنواع والأشكال ولا يحصى عددها». وفي قصيدته «عشية عيد الفوانيس» وصف الشاعر شين تشي جي متعة مشاهدة أضواء الفوانيس على النحو التالي: «في عشية عيد الفوانيس، تسطع أضواء الفوانيس المبهرة المشرقة، مثل تفتق الآلاف من الأزهار فوق الأشجار في خضم هبوب ريح الشرق في المساء، كما تشبه السماء المتلألئة بالنجوم التي هبطت إلى الأرض، مثل هطول الأمطار من السماء إلى الأرض. ويعم الضجيج والعجيج الشوارع في المدينة ابتهاجاً بالعيد، وتجوب عربات الأثرياء الفارهة الشوارع وتفوح منها الروائح الذكية في شتى البقاع. وتدوي الموسيقى بلا انقطاع، وأرفع رأسك وانظر إلى السماء، ترى القمر الوضاء ينثر نوره الفضي المشرق، وأخفض رأسك وانظر

في كافة الأنحاء، ترى الناس يحملون الفوانيس المزخرفة على شكل سمكة وتنين، وتغمرهم البهجة والغبطة. وتخرج الفتيات الجميلات، وتسريحة شعورهن تشبه الضباب والسحاب، ومرصعة بالحلي التي تشبه الصفصاف والفراشة، ويغص المكان بالأحاديث والقهقهات، وتفوح منهن الروائح العطرة على طول الطريق ويعبق الفضاء. ويبحث الشاعر عن حبيبته مرات عديدة من بين الجموع الحاشدة، ولكنه لم يعثر حتى على ظلها، ويصيبه اليأس بعد أن كان مفعماً بالأمل. وينظر إلى الخلف فجأة ودون قصد، ويجدها واقفة شاحبة كئيبة في مكان يتشح بنور الفانوس الخافت، ولم ترجع إدراجها، ويبدو أنها في انتظار حبيبها».

واستعادت أسرة مينغ النظام القديم وقررت تعليق الفوانيس لمدة عشرة أيام بدءاً من اليوم الثامن إلى اليوم السابع عشر من الشهر القمري الأول. ووصف كتاب «أشعار جين بينغ ميي» أنشطة عيد الفوانيس في هذه الأسرة على هذا النحو: «تعج المدينة بالضوضاء الصاخبة، ويحتشد فيها جمهرة الناس، ويتصاعد فيها الدخان، وتقام عشرات هياكل الفوانيس في الشوارع، وتزخر بالمحلات التجارية. ويلهو الفتيان والفتيات بالفوانيس من شتى الأنواع، وملابسهم زاهية خضراء كالصفصاف وتسمع قعقعات عجلات العربات كالبرق، وتئن المدينة من شدة الزحام مثل السلحفاة الأسطورية التي تحمل جبلاً فوق ظهرها». وتشاهد جميع أنواع الفوانيس من فانوس اللوتس الذهبي، وفانوس المبنى اليشمي، وفانوس زهرة اللوتس، وفانوس الكرة المطرزة، وفانوس رفع الثلج، وفانوس الجمل، وفانوس الأسد، وفانوس النيل الأبيض، وفانوس السلطعون ذي الأيادي السبع والأرجل الثمان. كما وصف الكتاب المذكور أعلاه إطلاق المفرقعات في عيد الفوانيس، وذكر أسماء المفرقعات المتعددة الأشكال، مما يوضح أن احتفالات هذا العيد آنذاك كانت صاخبة وتبث البهجة والفرح في النفوس. وكان التزيين بالفوانيس في أسرة تشينغ يستمر خمس ليال، ثم تغير إلى ثلاث ليال، حيث تجربة الفوانيس في اليوم الرابع عشر، وإضاءتها رسمياً في اليوم الخامس عشر، وإطفاؤها في اليوم السادس عشر. وسجل كتاب «تاريخ يانجينغ» (بكين)» أنه: «في عيد الفوانيس، تزخر الموائد بالطعام في البيوت لدعوة الأقارب والأصدقاء، وتطلق المفرقعات، وتزدان شوارع المدينة الستة بالفوانيس، وتكون البوابات المزخرفة في حي دونغسي وديآنمين الأكثر ضجيجاً، كما تستمتع بمشاهدة الفوانيس في بوابة دونغآن، وبوابة شينجيه، والبوابات

المزخرفة والأقواس المزينة في دونغسي.. ومنذ الصباح الباكر حتى الهزيع الثاني من الليل يتضاءل الدخان والتراب تدريجياً، ويزداد الناس في المدينة، ويظهر القمر في السماء، ويلهو الشباب والفتيات والعجائز والأطفال... ويتجمعون معاً ويمرحون سوياً، وتتعالى ضحكاتهم وقهقهاتهم، ثم يعودون أدراجهم إلى بيوتهم». واليوم الشارع الكبير الذي يطلق عليه «دينغ شيكهو» كان الساحة الرئيسية في بكين التي تنتشر فيها الفوانيس والمفرقعات آنذاك. إن عادات وتقاليد عيد الفوانيس كونت بعض الأمثال والأقوال المأثورة مثل: «مزين بالفوانيس والأعلام الملونة»، و«مضاء بأنوار المصابيح الوهاجة»، و«مشرق يبهر الأنظار»، و«لا أحد يفكر في مرور الوقت كالطائرة»، و«يباح للولاة إحراق المنازل، ولا يباح للشعب إشعال مصباح».

(3) عيد اليوم الثالث من الشهر القمري الثالث: يرجع أصل هذا العيد إلى «عيد شانغسي» في العصر القديم. وفي هذا اليوم، يدلف الرجال والنساء والأطفال والعجائز إلى ضفاف الأنهار والبحيرات خارج الضاحية للمرح والتسلية، اعتقاداً أن ذلك يكبح جماح الفيضانات، والمسؤول عن هذا النشاط كان يطلق عليه قديماً «شيوشي»، و«شيجي». وتذكر سجلات تاريخية أن هذه العادة كانت معروفة في مملكة جينغ في فترة الربيع والخريف. وجاء في كتاب «تاريخ أسرة تشو» أن: «الرجال يخرجون معاً في اليوم الثالث من الشهر القمري الثالث إلى جزيرة صغيرة ويحتسون كؤوس الخمر المتدفقة على صفحة الماء». وقصيدة «افتتاحية مقصورة لان» للشاعر وانغ شي جي هي سجل حقيقي لهذا النشاط، وجاء في هذه الافتتاحية أنه: «في عام 353م، وفي أوائل نهاية الربيع، يحتشد الناس في مقصورة لان بجوار جبل هوي جي شان، ويحتسون الخمر إيمانا بالخرافات والخزعبلات القائلة إن ذلك يطرد الشياطين ويقاوم الفيضان. ويتجمع الفضلاء والأكفاء والصغار والشيوخ، ويتمتع هذا المكان بقمم الجبال الشامخة، وغابات البامبو الكثيفة حيث تتدفق فيها المياه كالسيل العارم الذي يكفي لدفع كؤوس الخمر على صفحة الماء. وعلى الرغم من أنه لا توجد آلات نفخية موسيقية، إلا أن احتساء كأس مع الترنم بأنشودة يكفي للإفاضة في الحديث عن المشاعر الودية. والسماء صافية والهواء عليل، وتهب النسائم الهادئة التي تداعب الوجوه، والكون فسيح ورحب الأرجاء، ويلقون نظرة على الموجودات، ولذلك يطلقون العنان للهوى، والعيون تتجول

في المناظر الخلابة رغبة في تحقيق سعادة النفس وبهجتها». وعلى الرغم من أن هذا النشاط يهدف إلى طرد الأرواح الشريرة وجلب الحظ السعيد، «إطلاق العنان للهوى والتأمل في الطبيعة العظيمة» و«الحرص الشديد على إسعاد النفس ومتعتها»، إلا أن التأثير الحقيقي لهذا النشاط يتحلى بالمغزى العصري للأنشطة السياحية، ويحقق فائدة جمة لصحة الإنسان. وكان «احتساء كؤوس الخمر المتدفقة على صفحة الماء» يعد نشاطاً دائماً وأساسيا للاحتفال بهذا العيد. و«مقاصير احتساء تدفق كؤوس الخمر» أطلقت عليها الأجيال المتعاقبة عدة تسميات مثل: «مقصورة شيشانغ» أو «مقصورة ليوبيه»، ويوجد في بكين أربع مقاصير هي: مقصورة خرير الماء في تشونغ نانهاي، ومقصورة شيشانغ في حديقة تشيان لونغ في المدينة المحرمة، ومقصورة تدفق كؤوس الخمر قونغ وانغفو، ومقصورة يي فإن في معبد تانتشه (والاسم الشائع لها مقصورة ليوبيه).

(4) عيد تشينغ مينغ (عيد الصفاء والنقاء): كانت نشأة هذا العيد من خلال الاندماج مع «عيد الأطعمة الباردة» في العصر القديم، وميقاته هو اليوم الخامس بعد المائة من الانقلاب الشتوي بصفة عامة، ويوافق ذلك الثلث الأول من الشهر الثالث في التقويم القمري، أي اليوم الخامس تقريباً من شهر أبريل في التقويم الميلادي. ويعد هذا العيد – من بين الأعياد التقليدية الصينية –بمثابة العيد الوحيد الذي يندمج مع أيام شمسية محددة. ومعنى «تشينغ مينغ» (الصفاء والنقاء) أي أن السماء صافية والهواء نقي. ومن الممكن أنه بعد أن قام دايوي بكبح جماح الفيضان، وانتشار الأمن والاستقرار، وصفه الناس بالصفاء والنقاء. وملك أسرة تشو وو وانغ أرسل حملة تأديبية وحقق السلام والأمان في ربوع البلاد، ولذا وصفه «كتاب الأغاني» بالصفاء والنقاء. وحدد نظام التقويم فيما بعد أربعة وعشرين يوماً من الأيام الشمسية المحددة، والأيام الشمسية المحددة الأولى في الشهر الثالث (مارس) تتحلى بالصفاء والنقاء؛ ويعني ذلك أن جميع الكائنات الحية تنمو وتزدهر أثناء تلك الأيام حيث الصفاء والنقاء والنظافة والإشراق، كما ترتفع درجة الحرارة وتزيد كمية الأمطار المتساقطة في ذلك الحين. أيضاً، إنه ميقات الحرث الربيعي والزراعة الربيعية أيضاً، ومن ثم، كان عيد الصفاء والنقاء –في البداية– عيداً للزراعة والحراثة. وهناك رواية تحكي أن دوق مملكة جين ون قونغ دبر مؤامرة لحرق الوزير جي توي هو وأمه في جبل ميان قبل حلول عيد الصفاء والنقاء بيوم

واحد (يقول آخرون يومين)، ومن ثم الناس في منطقة تايوان في مقاطعة شانش يحظرون استعمال النار لمدة شهر (تغيرت هذه العادة وأصبحت ثلاثة أيام) إحياء لذكراه، ويتناولون الأطعمة الباردة فقط، ويتوجهون تباعاً إلى جبل ميان لتقديم القربان للوزير جي توي، ومن هنا كانت نشأة عيد الأطعمة الباردة. ومراسم زيارة المقابر وتقديم القرابين اندمجت مع عادات وتقاليد زيارة الناس لمقابر الأجداد وتقديم القرابين لهم، وأصبح ذلك من نشاطات عيد الصفاء والنقاء. واندمج كل من عيد الصفاء والنقاء وعيد الأطعمة الباردة في وحدة واحدة، وأصبحا عيداً واحداً في أسرة تانغ تقريباً. وفي قصيدته «أنشودة الأطعمة الباردة ومشاهدة البرية» وصف الشاعر باي جيوي يي مشهد زيارة المقابر وتقديم القرابين على هذا النحو: «تغص غابة واسعة باسقة الأشجار بنعيق الغربان وزقزقة العصافير الكئيبة، ومَنْ يبكي في عيد الصفاء والنقاء، وفي عيد الأطعمة الباردة تهب الريح في أرض عراء وتبعثر أوراقاً نقدية جنائزية، والحشائش الخضراء تحوط بالمقابر القديمة. وأزهار شجيرة الكرز الصينية تتناغم مع أشجار الحور الأبيض، وكأنهما يقتربان من الفراق النهائي والوداع الأخير. والأموات في العالم الآخر البعيد جداً. ولا يسمعهم أحد، ويعود زائرو المقابر أدراجهم عندما يهطل المطر في المساء». ويقول الشاعر دومو في قصيدته «الصفاء والنقاء» إن: «الأمطار تهطل بغزارة وبلا انقطاع في عيد الصفاء والنقاء، والمشاة يشعرون بانكسار في أرواحهم». والشاعر هنا يصف المشاة الذين يشعرون بالكآبة والحزن والقلق عندما شاهدوا مشهد زيارة المقابر في عيد الصفاء والنقاء. وبالإضافة إلى زيارة المقابر في هذا العيد، فإن الناس يحبون القيام برحلة ربيعية في الوقت الحاضر حقاً. وقد انتشر هذا النشاط على نطاق واسع في أسرة تانغ. والشاعر تسوي خو في قصيدته «قرية في جنوب العاصمة» يصف «لقاء غرام» تعرض له بالمصادفة عند زيارته للمقابر في جنوب العاصمة، وجاءت قصيدته مفعمة بالحبكة القصصية، ويقول فيها: «في هذا اليوم من العام الماضي رأيت فتاة في هذا البيت، الفتاة وجهها أحمر يضاهي أزهار الخوخ. لا أعرف أين ذهبت الفتاة، ولكن أزهار الخوخ لا تزال تبتسم وتستقبل نسيم الربيع». وذكر كتاب «أحداث قديمة في وو لين» أنه في أسرة سونغ الجنوبية: «كان الشباب والفتيات يتهندمون في ملابسهم الزاهية قبل عشرة أيام من حلول عيد الصفاء والنقاء وبعده، وتظهر الفتاة في حجاب الزفاف المرصع بالأحجار الكريمة، ويتنزه الجميع برشاقة وخفة،

وتتلامس الأكتاف وتتزاحم الأقدام، والقوارب تزدان بالصور وتنبعث منها دقات الطبول والموسيقى طوال اليوم بلا انقطاع». وفي أسرة مينغ وتشينغ، كان أهالي بكين يخرجون في الربيع عندما تخضر الحشائش ويزورون المقابر، فضلاً عن كسر غصن الصفصاف وتعليقه كحلية حيث القول المأثور إنه يمكن أن يدرأ الأذى والشر عن الإنسان، ولذا انتشرت بين عامة الشعب مقولة مفادها: «مَنْ لم يعلق حلية الصفصاف في عيد الصفاء والنقاء، يصبح كلباً أصفر في العالم الآخر». ومن الأنشطة الأخرى في عيد الصفاء والنقاء اللعب على الأرجوحة. وأصل هذه اللعبة يرجع إلى أنشطة التدريب العسكري لدى قومية شانرونغ التي كانت تقطن شمال الصين في فترة الربيع والخريف، ثم انتقلت إلى السهول الوسطى وأصبحت من نشاطات التسلية والترفيه. وكان الإمبراطور هان وي دي يتلقى تهنئة عيد ميلاده في القصر الإمبراطوري، ويتطلع بشغف إلى العَمر المديد، ويطلب من وصائف القصر اللعب على الأرجوحة كنوع من التسلية، فقد كانت الأرجوحة بالنسبة له تمثل نوعاً من التميمة والرمز للعمر الطويل. وانتشر اللعب على الأرجوحة انتشاراً كبيراً في أسرتي تانغ وسونغ. وكان الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ يقيم هيكل الأرجوحة من الخشب داخل قصره، ويطلب من المحظيات والوصائف في القصر أن يمرحن كما تهوى قلوبهن، وأطلق على هذه اللعبة لقب «تسلية نصفها ملائكة»؛ لأن الفتيات أجسامهن خفيفة كطائر السنونو، ويرتدين ملابس زاهية، ويمشين بخفة ورشاقة، مما يجعل المرء يشعر أنه يصعد إلى السماء. وتغص أشعار أسرتي تانغ وسونغ بوصف اللعب على الأرجوحة، ومثال ذلك قصيدة «فراشة تحب الأزهار» للشاعر صوشي، وجاء فيها أن: «الأزهار تذبل ويبهت لونها، وأشجار المشمش خضراء صغيرة، ويحلق السنونو فوق المياه الخضراء التي تحيط بالبيوت. والزغب فوق أغصان الصفصاف قلما يتطاير مع الريح أيضاً، ولا توجد بقعة فيها حشائش خضراء. وأناس يلعبون على الأرجوحة داخل السور، ويوجد طريق ضيق خارج السور، والفتيات الحسناوات تتعالى ضحكاتهن داخل السور، وأقدام المشاة تطأ الطريق خارج السور. تعود الحسناوات أدراجهن، وتتلاشى ضحكاتهن وقهقهاتهن رويداً رويداً، ويستشاط المشاة من ذوي المشاعر العاطفية غضباً، لأن الفتيات لم يدركن حب هؤلاء المشاة».

(5) عيد دوان وو (عيد الخمسة المزدوجة): ويسمى «عيد دوان يانغ» أيضاً، ويصادف اليوم

الخامس من الشهر القمري الخامس من كل سنة. وتعددت الأقوال والآراء حول أصل وفصل هذا العيد. يقول البعض إن أصله يرجع إلى عبادة طوطم التنين في مملكتي وو ويوه، ويقول آخرون إن هذا العيد من أجل إحياء ذكرى الشاعر الصيني الرومانسي العظيم تشيوي يوان (340 ق.م – 278 ق.م)، وقول ثالث يرى أن أصله يرجع إلى الانقلاب الصيفي، وقول رابع يعتقد أن اليوم الخامس من الشهر الخامس القمري يعتبر «يوم شر ونحس»، وأنشطة عيد دوان وو تهدف إلى طرد الشياطين والأرواح الشريرة. وتتسم كل هذه الأقوال بالحجة والمنطق، ومن الصعب جداً، إن نصدر حكماً عليها من حيث الصواب والخطأ. ومن الأرجح إلى حد كبير أن أصل هذا العيد يرجع إلى دمج هذه الأقوال والعناصر معاً في وحدة واحدة، لأن إحياء ذكرى الشاعر تشيوي يوان وإظهار التعاطف جعل نشاطات العيد تفسر تفسيراً مكلفا. وتحكي رواية في منطقة مقاطعة خونان أن هذا الشاعر ألقى نفسه في النهر ومات غرقاً في اليوم الخامس من الشهر الخامس القمري، وهرع السكان المحليون لإنقاذه، وأخذوا يجدفون قواربهم ويتبارون في الانطلاق إلى الأمام، وأصبح ذلك بمثابة مسابقة قوارب التنين في العصور اللاحقة، ويلقون في الأنهار قطع خيزران محشوة بالأرز طعاماً للسمك من أجل حماية جثة الشاعر، وأصبحت مثلثات الأرز من أطعمة هذا العيد في الأجيال المتعاقبة. وتأسيساً على السجلات التاريخية المعنية، فإن عيد دوان وو قد نشأ في الفترة الزمنية الممتدة من أسرة تشين إلى أسرة هان، ولكن كانت عادات وتقاليد هذا العيد في أسرتي هان الشرقية والغربية تتركز بصورة أساسية على طرد الشر والأذى من خلال ذؤابة رفيعة تتألف من خيوط ألوانها خمسة هي: الأزرق والأحمر والأصفر والأبيض والأسود، وتربط على الذراع، وتسمى: «ذؤابة العمر المديد» أو «ذؤابة إطالة العمر». وفي أسرتي سوي وتانغ، أصبح الاحتفال بهذا العيد قلما يشهد طرد الأرواح الشريرة، وتكثر فيه مشاهد الفرح والبهجة، وانتشرت مسابقة القوارب التنينية لحين من الوقت، ولاسيما في منطقة خونان اليوم، وهناك العديد من قصائد أسرة تانغ تصف ساحة سباق هذه القوارب. وتأثر عيد دوان وو بالديانة الطاوية في أسرة سونغ، حيث كانت تعلق على واجهات المنازل تمثالاً طينياً لزعيم الطاويين، ويعني ذلك طرد الشر والأذى أيضاً. ونظراً لأن اليوم الخامس من الشهر الخامس القمري يواكب فصل الصيف، فإن العادات والتقاليد الخاصة بهذا العيد أصبحت تهدف إلى الحفاظ

على الصحة، ومثال ذلك شهدت أسرة مينغ انتشار استخدام رهق الغار (ثاني كبريتيد الزرنيخ الطبيعي) في دهن الجبهة والأذن والأنف، وكانت البيوت تنظف قبل حلول العيد وترش بالماء الممزوج برهج الغار لأنه يقتل الحشرات. وفي العصر القديم، كان الناس يحبون تعليق أوراق الشيح على الأبواب لأن رائحته تمنع الأمراض المعدية. وتقول الأغنية الشعبية: «شَمِّس الفراش واللحاف في اليوم الخامس من الشهر الخامس القمري». ولا مندوحة أن نعتبر عيد دوان وو عيداً للصحة والنظافة في العصر القديم.

(6) عيد تشي تشياو (عيد السبعة المزدوجة): كان يسمى «تشي شي» (عشية اليوم السابع) في العصر القديم أيضاً، يصادف اليوم السابع من الشهر السابع القمري. وترجع نشأة هذا العيد إلى أسطورة راعي البقرة والنساجة. وجاء في الأسطورة أن الزوجين راعي البقرة والنساجة فصل بينهما نهر المجّرة، وظل الزوج في ضفة، والزوجة في الضفة الأخرى، ويلتقيان مرة واحدة كل سنة فوق جسر من العصافير في اليوم السابع من الشهر السابع القمري. وكانت النساء في الماضي تنتهز فرصة لقاء الراعي والنساجة في مساء هذا اليوم وهما تغمرهما السعادة والبهجة، ويطلبن منهما الحكمة والمهارة، ولذا أُطلق على العيد «تشي تشياو» («تشي» تعني اليوم السابع، و«تشياو» تعني المهارة. كما يُسمى أيضاً بـ«عيد البنات». ولكن إذا نظرنا إلى نشأة هذا العيد ونشاطاته وعاداته وتقاليده، نجده عيداً للحب والمشاعر الوطنية في الصين على وجه الخصوص. أما فيما يتعلق بأصل هذه الأسطورة فيرجع إلى «كتاب الأغاني» الذي جاء فيه: «في السماء الزرقاء الباسقة يوجد نهر المجّرة، ومياه النهر مثل المرآة تتلألأ وتلمع. والنساجة عبارة عن ثلاثة نجوم موزعة في ثلاثة أركان، النساجة تغير مكانها سبع مرات في اليوم. وعلى الرغم من أن النساجة غيرت مكانها سبع مرات، لكنها لم تستطع الانتهاء من تصميم القماش. وراعي البقرة نجم متلألئ ومشرق، ولا يمكن أن يجر عربة». وهنا النساجة وراعي البقرة هما نجمان فقط، ولا يوجد بينهما خلاف معقد بشأن الحب. ولكن «قصائد الشعر الكلاسيكي التسع عشرة» في عصر أسرة هان، نجد فيها الحب يربط بين راعي البقرة والنساجة، ولكنهما لا يلتقيان على النحو التالي: «نجم راعي البقرة بعيد جداً، وماء نهر المجّرة صاف وضاء. النساجة تسحب الغزل الأبيض بيدها، وتضعه وترتبه على النول. ولم تصنع قماشاً طول اليوم، وبكت بحرقة وتدفقت دموعها كالمطر. ماء نهر المجّرة صاف وضحل، راعي البقرة والنساجة يتوقان

إلى اللقاء، ولكن مَنْ يسمح لهما؟ المياه الغزيرة الفياضة تفصل بينهما، ولا يمكن أن يتحدثا بكل عطف وحنان». وقد تزوج راعي البقرة النساجة بصورة رسمية في مرحلة أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، ولكن أصبح زواجهما مأساة بعد فترة قصيرة. وذكرت سجلات أنه: «كانت توجد نساجة تقيم في شرق نهر المجّرة، وهي ابنة إله السماء، وتضطلع بأعمال السُخرة على النول طوال السنة، وصنعت قماشاً سماوياً يشبه السحب، وكان ليس لديها وقت لتجميل قسمات وجهها. وكان منظرها يثير الشفقة وتعيش وحيدة، وتم السماح لها بأن تتزوج راعي البقرة الذي يعيش في غرب نهر المجّرة، وبعد زواجها هجرت النول ونسج القماش، ومن ثم استشاط هذا الإله غضباً وأمر بعودتها إلى شرق نهر المجّرة، وتلتقي بزوجها مرة واحدة في السنة». ولم يذكر هذا النص متى كان الزوجان يلتقيان حتى ولو كان مرة واحدة في السنة؟ ولكن ذكرت سجلات أخرى، أنهما كانا يلتقيان في اليوم السابع من الشهر السابع القمري، وربما يمت ذلك بصلة إلى الوصف في «قصة الإمبراطور هان وو». وقد قيل إن الإمبراطور هان وو دي ولد في اليوم السابع من الشهر السابع القمري، وذات مرة في يوم عيد ميلاده مكث في قصر تشينهوا وامتنع عن اللحم والخمر، وحلق فوقه طائر أزرق قادم من الغرب، وسأل مستشاره دونغفانغ ما تفسير ذلك. فقال المستشار إن والدة ملك المناطق الغربية ستحضر، وأرسلت هذا الطير ليبلغنا بالنبأ. وبعد فترة قصيرة هبطت والدة هذا الملك من السماء كما كان متوقعاً. وربما لهذا السبب ذكرت الأسطورة أن راعي البقر والنساجة تقابلا في اليوم السابع من الشهر السابع القمري. وبعد أسرة تانغ، أصبح يوم العيد بمثابة يوم لقاء الغرام والقسم بين الشباب والفتيات لأن قصة حب الإمبراطور شوان زونغ والمحظية الأولى يانغ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعشية العيد في اليوم السابع من الشهر السابع القمري. وذكر كتاب «أحداث قديمة في تيابناو» أن الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ كان يحتفل بعشية هذا العيد مع المحظية الأولى يانغ في قصر هواتشينغ، وجال بخاطر المحظية قصة انفصال راعي البقرة والنساجة، وخشيت أن يهجرها الإمبراطور، ثم اجتمع الإمبراطور والمحظية في قاعة العمر المديد بهذا القصر وأقسما على حب راسخ كالجبل عميق كالبحر، ولا يفترقان في الحياة والموت. ومن ثم قال الشاعر باي جيوي يي في قصيدته «أنشودة الندم طوال العمر» إنه: «في اليوم السابع من الشهر السابع القمري، كان الإمبراطور والمحظية في قاعة العمر المديد، يختلسان الأحاديث

في جوف الليل. وأبديا رغبتهما في أن يكونا جناح طائر واحد يطير إلى السماء، وأن يكونا غصنان ينبثقان من فرع واحد في شجرة على الأرض». أما بخصوص اكتساب مهارات في ليلة العيد، فقد نشأت هذه العادة منذ زمن بعيد في الأسر الجنوبية والشمالية. وفي الطقوس الهامة، كانت طاولة البخور في صحن الدار، وفوقها القرع والفاكهة، وتأخذ النساء الخيوط الملونة لإجراء مسابقة تسليك الخيط في الإبرة تحت ضوء القمر، ومن يعبئ الإبرة بسرعة يعد من أصحاب الكفاءة والمهارة. وفي هذا الخصوص، يقول الشاعر زويونغ في قصيدته «اكتساب المهارة في ليلة عيد السبعة المزدوجة»: «الفتاة البكر في خدرها تتوسل إلى ابنة السماء، وتنهمك في تسليك الخيط في الإبرة في جوف الليل. تقام حفلة الغانيات الحسناوات في البيت الأبيض، ويحملن الصحون الذهبية على راحة أياديهنّ وتتدلى أكمامهن الحريرية. من السهل تعبئة الإبرة في نور الشمس، ويكون صعباً إذا هبت الريح وتبعثرت الخيوط. ولا نعرف من هي صاحبة المهارة والكفاءة، سوف نرى ونتأكد في صباح الغد».

(7) عيد تشونغ تشيو (عيد منتصف الخريف): يصادف في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن القمري، ويطلق عليه، بالإضافة إلى عيد الربيع، وعيد وو دوان، الأعياد التقليدية الثلاثة الكبرى في الصين. ويكون فصل الخريف في الأشهر الثلاثة: السابع، الثامن، والتاسع من التقويم القمري الصيني، ويصادف يوم الخامس عشر من الشهر الثامن القمري منتصف الخريف، ولذلك أطلق عليه «عيد منتصف الخريف». واشتجرت الآراء والأقوال حول أصل وفصل هذا العيد. القول الأول يرى أن أصل هذا العيد يرجع إلى أسطورة «الحورية تشانغ التي هربت إلى القمر بعد أن سرقت الإكسير من زوجها» التي انتشرت في أواخر فترة الممالك المتحاربة. وكان الناس يقدمون القرابين للقمر في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن أملاً في أن تعود الحورية تشانغ إلى الأرض. ويرى القول الثاني أن أصل هذا العيد يرجع إلى عبادة الأقدمين للقمر، وقد عرفت الصين منذ زمن بعيد في أسرة تشو الأنشطة الخاصة بعبادة القمر في الخريف. وهناك سجلات قديمة ذكرت أن: «الإمبراطور ابن السماء كان يعبد القمر في فصل الخريف». ولكن كان الإمبراطور يعبد القمر في الاعتدال الخريفي، وليس في يوم عيد منتصف الخريف، وعيد منتصف الخريف –من حيث الجوهر– هو عيد زراعي للتهنئة بالحصاد الوافر؛ لأن المحاصيل في الحقول آنذاك تكون قد نضجت، ويتطلع الناس إلى حصاد

وافر من المحاصيل والحبوب، ثم تقديم القرابين للقمر عندما يكون في كامل استدارته، تعبيراً عن الأماني الجميلة لدى الناس من «تفتق الأزهار الجميلة، ورؤية القمر في كامل استدارته، والعمر المديد والحصاد السنوي الوافر». ونشأت عادة التمتع بمشاهدة القمر تزامناً مع تقديم القربان للقمر؛ وذلك لأن يوم الخامس عشر من الشهر الثامن القمري يعتبر أفضل وقت للتمتع بمشاهدة القمر في خلال عام. ويقول الأقدمون إن: «القمر يظهر في كامل استدارته اثنتي عشرة مرة في السنة، بيد أنه يكون أكثر جمالاً وروعة واستدارة في منتصف الخريف». ويمكن أن ندرك ذلك من الأعمال الأدبية على مر العصور، فنجد أشعار أسرة تانغ تناولت كثيراً وصف التمتع بمشاهدة القمر، ووصفه يكون جميلاً ورائعا، ويظهر ذلك أن نشأة هذا العيد كانت في عصر أسرة تانغ على أقصى حد. والأساطير والحكايات من «الحورية تشانغ هربت إلى القمر»، و«الأرنب اليشمي والقمر»، و«الإمبراطور شوان زونغ يتجول في قصر القمر ليلاً»، جعلت الناس يعتقدون أن القمر يوجد به عالم يغص بالرومانسية التي تأسر الألباب. ولذلك، تغص القصائد التي امتدحت القمر منذ أسرة تانغ بالأنغام الرومانسية. وأبرز عادات وتقاليد عيد منتصف الخريف تناول كعكة القمر. وقد شهدت أسرة تانغ هذه العادة التي انتشرت انتشاراً واسعاً منذ أسرتي مينغ وتشينغ على وجه الخصوص. ويحكى أن أهالي قومية هان في أواخر أسرة يوان، استخدموا كعكة القمر كوسيلة للاتفاق على موعد القيام بالانتفاضة ضد حكام هذه الأسرة. وكانت بعض كعكات القمر كبيرة جداً. في أسرة مينغ، ويجب على جميع الزوجات اللاتي عدن إلى بيت أهلهن التوجه إلى بيت الحماة في عيد منتصف الخريف، وتناول كعكات القمر مع الحموين، ولذا كان يطلق على هذا العيد لقب «عيد التئام الشمل» في عصر أسرة مينغ. وكانت أنشطة هذا العيد في بكين أثناء أسرة تشينغ تشمل التمتع بمشاهدة القمر، وأكل كعكة القمر، ناهيك عن أبرز العادات المميزة من بيع «الأرنب الصلصالي لعيد منتصف الخريف» في كافة أنحاء الصين، ويرجع ذلك بصفة عامة إلى الأسطورة التي تحكي أن الأرنب اليشمي يقيم في القمر ويطحن العقاقير الطبية.

(8) عيد تشونغ يانغ (عيد التسعة المزدوجة): يصادف اليوم التاسع من الشهر التاسع القمري. وكان الأقدمون يستخدمون الرقم (9) رمزاً للعدد الزوجي، ويتقابل العدد (9) في الشهر التاسع مع العدد (9) في اليوم التاسع، ولذلك أطلق على هذا العيد (عيد التسعة المزدوجة).

ويرجع أصل عادات وتقاليد هذا العيد إلى سجلات الديانة الطاوية. وكان وو يوه معاصراً لمملكة ليانغ في الأسر الجنوبية، وذكر في كتابه «تكملة تاريخ مملكة تشي» أن هوانغ جينغ كان من أهالي لونان في أسرة هان الشرقية، وتعلم الطاوية لعدة سنوات على يد الراهب الطاوي فيتشانغ فانغ، وذات يوم أخبره هذا الطاوي أن أسرته سيحل بها كارثة كبرى في اليوم التاسع من الشهر التاسع القمري، ويجب أن يعود إلى بيته فوراً، ويطلب من أفراد أسرته أن يصنعوا أكياساً صغيرة ليملؤوها بثمار قرنوس دوائي (القرانيا) ويربطوها على أذراعهم، ويصعدوا التلال والقمم العالية، ويحتسوا الخمر الممزوج بأزهار الأقحوان لأن ذلك يمنع حدوث الكارثة. وعاد هوانغ جينغ أدراجه في التو، وفي اليوم التاسع من الشهر القمري التاسع صعد جميع أفراد أسرته الجبل واحتسوا الخمر، ثم عادوا إلى منزلهم في المساء، فوجدوا الدجاج والكلاب والأبقار والغنم قد نفقت جميعاً دون سبب. وأخبر الراهب الطاوي هوانغ جينغ أن هذه الحيوانات نفقت بدلاً من موت أفراد أسرته. ونستنتج من ذلك، إن أنشطة صعود الجبل والتل في عيد التسعة المزدوجة نشأت في أسرة هان الشرقية على الأكثر، وانتشرت على نطاق واسع في منعطف مرحلة أسرتي وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية. والمغزى الحقيقي لهذا العيد يكمن في الهدف الحقيقي من طرد الأرواح الشريرة والشياطين. ولكن عادات وتقاليد هذا العيد في العصور اللاحقة تركزت بصورة أساسية على صعود القمم العالية واحتساء الخمر من أجل طرد النحس والأذى. وصعود التلال والجبال كان من أجل التمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية وأزهار الأقحوان، والتمتع بالمناظر الطبيعية قاد إلى قرض الشعر، واحتساء الخمر يساعد كثيراً في نظم القصائد الشعرية، ولذلك اللقاءات فوق القمم العالية وشرب الخمر وقرض الشعر أصبح ذلك كله من الأنشطة الأساسية في عيد التسعة المزدوجة. وفي يوم العيد، يخرج الناس جميعاً إلى العراء ويصعدون التلال ويتمتعون بمشاهدة المناظر الطبيعية الخلابة، وفي بعض الأماكن يقومون بزيارة الأصدقاء والأقرباء، وعبر عن هذه المشاعر الحميمة الشاعر وانغ وي في أسرة تانغ، وذلك في قصيدته المعنونة بـ«الحنين إلى الأشقاء في شرق الجبل في اليوم التاسع من الشهر التاسع القمري» ويقول فيها: «أنا غريب الدار وحيد طول الوقت في أرض غريبة نائية، أشتاق إلى أبويّ كثيراً كثيراً في يوم العيد الجميل، وأعرف أن أشقائي صعدوا المرتفعات ويمرحون، ويحشرون أغصان شجر الفوانيا

في شعورهم ويفتقدوني كثيراً». ومن منظور العلم الحديث، يعتبر عيد التسعة المزدوجة من الأنشطة السياحية الخرافية الرائعة للغاية ويحقق فائدة جمة لصحة الإنسان مثل الرسم، والطبيعة يمكن أن تصقل أخلاق المرء وتهذبها.

(9) عيد الشهر الثاني عشر القمري (عيد لابا): يصادف اليوم الثامن من الشهر الثاني عشر القمري، ويعتبر من الأعياد التي نشأت بتأثير من الديانة البوذية. ويطلق عليه البوذيون «عيد تشينغ داو» (عيد اعتناق البوذية). وجاء في الشروح البوذية أن مؤسس البوذية ساكيا موني قبل أن يعتنق البوذية ترهبن سنوات عديدة، وكان نتيجة ذلك أنه أصبح نحيفاً ونحيلاً مثل الحطب، ولذلك قرر أن يتخلى عن الزهد والتنسك، ولكنه قابل في ذلك الحين راعية قدمت له بعضاً من الكيلوس (مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه) ليأكله، واستعاد قوته وعافيته تدريجياً، ثم جلس أسفل شجرة بوذا، وانخرط في التفكير والتأمل، وبعد ذلك، «اعتنق البوذية» في اليوم الثامن من الشهر الثاني عشر القمري، ولذلك أطلق البوذيون على ذلك «يوم اعتناق البوذية» أو «عيد اعتناق البوذية». ومعتنقو البوذية في الصين يغلون الأرز والفاكهة، ويصنعون الحساء ويقدمونه لبوذا في يوم العيد، ويُطلق على ذلك «لاباشو» (حساء اليوم الثامن من الشهر الثاني عشر القمري)، وبعد ذلك تسلل هذا الحساء إلى صفوف الشعب، وأصبح عادة شعبية وفقد نكهته الدينية. ويوضح ذلك، إن الأعياد التي نشأت في الصين بتأثير من الأديان، فقدت نكهتها وطابعها الديني في نهاية المطاف، ويختلف ذلك اختلافاً كبيراً عن الأعياد في الغرب.

المبحث السابع
معتقدات ومحرمات أخرى

إن الثقافة الشعبية التي نشأت في مناطق محددة، وفي ظل ظروف تاريخية محددة تشمل في الغالب على العديد من الإيمان بالخرافات والخزعبلات، والمعتقدات والمحرمات؛ فمثلاً الاتجاهات التقليدية في الصين تحبذ الجنوب تماماً (بالضبط)، ولا تحبذ الشمال تماماً، كما أن الألوان التقليدية تحبذ اللونين الأصفر والأحمر، ولا تحبذ اللونين الأسود والأبيض، حتى بعض الأعداد المتداولة على نطاق واسع تحظى بالاهتمام الشديد من جانب الصينيين. ولكن ونظراً لأن مثل تلك المعتقدات والخرافات والمحرمات أصبحت مألوفة ومعتادة لدى الناس، فقلما يبحثون عن أسبابها وجذورها، ولا يفكرون فيما تتضمنه من الوعي الثقافي، والفكر الثقافي الذي تجسده. وفي الواقع، إن الكثير من المعتقدات القومية والمحرمات تعد نتيجة ملاحظة الأمة الصينية ومعرفتها بالكائنات الطبيعة في فترات تاريخية محددة، كما تعتبر نوعاً من التعبير عن أسلوب تفكير الصينيين، وسيرة أحوالهم النفسية وطبائعهم الروحية. ونوجز بعض هذه المعتقدات والمحرمات في الصفحات التالية.

أولاً: أبراج الولادة الاثناعشر: تشير أبراج الولادة إلى اثني عشر نوعاً من الحيوانات تستخدم في حساب عمر الإنسان. وشهدت السنوات الأخيرة، اكتشاف جُرف في سهل وولان تشابو في شمال جبل نينغ في منغوليا الداخلية، منقوش على هذا الجرف طواطم اثني عشر حيواناً من عصر الممالك المتحاربة إلى عصر أسرة هان الغربية، مما يوضح أن عصر ما قبل أسرة تشين شهد أبراج الولادة البالغ عددها اثني عشر برجاً. وسجل كتاب «لون هينغ» (محاورات في الميزان) للمؤلف وانغ يونغ في أسرة هان الشرقية أسماء أبراج الولادة وعددها اثني عشر برجاً. وقد استخدم الناس أبراج الولادة هذه على نطاق واسع جداً. في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية. وفي قصيدة «أبراج الولادة الاثني عشر» للشاعر شين جيونغ المعاصر لمملكة تشين في الأسر الجنوبية، جاء ترتيب حيوانات هذه الأبراج على النحو التالي: «الفأر، البقرة، النمر، الأرنب، التنين، الثعبان، الحصان، الغنم، القرد، الدجاج، الكلب، الخنزير». وبعد ذلك، استمرت أبراج الولادة الاثنا عشر إلى الآن. ولكن لماذا أبراج الولادة

تستخدم هذه الحيوانات البالغ عددها اثني عشر حيواناً؟ تعددت الأقوال والآراء في هذا الجانب منذ القدم على النحو التالي:

(1) «**مذهب السالب والموجب**»: يعتقد هذا المذهب أن أبراج الولادة الاثني عشر هي نتيجة تحقيق الاندماج بين السالب والموجب. ومثال ذلك، ذكر كتاب «يانغقو مانلوم» لمؤلفه هونغ شون في أسرة سونغ، ذكر أن: «تسي (الفرع الأول من فروع الأرض الاثني عشر)، وين (الفرع الثالث)، وتشين (الفرع الخامس)، و وو (الفرع السابع)، و شين (الفرع التاسع)، و شيوي (الفرع الحادي عشر) تتسم باليانغ (الموجب)، وهي فروع الأرض الموجبة، ولذا استخدمت الأعداد الوترية في أبراج الولادة كأسماء للفأر، والنمر، والقرد، والكلب، وكلها من ذوات الأظافر الخمسة، والحصان أحادي الحافر، أما فروع الأرض التي تتسم بالين (السالب) فهي: تشو (الفرع الثاني من فروع الأرض الاثني عشر)، و ماو (الفرع الرابع)، و سي (الفرع السادس)، و وي (الفرع الثامن)، و يو (الفرع العاشر) و هاي (الفرع الاثنا عشر). ولذا استخدمت الأعداد الشفعية كأسماء للبقرة، والغنم، والدجاج، والخنزير، وجميعها من ذوات المخالب الأربعة، والأرنب له مخلبان، والثعبان لسانه ينقسم إلى جزأين».

إن نظرية تفسير مصدر أبراج الولادة في ضوء مذهب السالب والموجب تعد بمثابة الإرث لمذهب العالم وانغ يانغ مينغ في عصر أسرة مينغ، ولكن يوضح ذلك أن ترتيب أبراج الولادة الاثني عشر كان من قبيل المصادفة، ولم يشرح أسباب اختيار واستخدام الحيوانات الاثني عشر.

(2) «**مذهب طريقة التقويم**»: يعتقد هذا المذهب أن أبراج الولادة هي نتيجة ملاحظة واختيار المسؤولين عن التقويم. ومثال ذلك، ذكر كتاب «النباتات والأشجار» للمؤلف يهتسي تشي في أسرة مينغ -ذكر أن: «المسؤولين عن التقويم اختاروا أبراج الولادة الاثني عشر التي تتناسب مع فروع الأرض الاثني عشر، وكل برج يقابله حيوان شكله غير كامل ويعاني من عاهة، فانظر إلى الفأر ليس له أنياب، والبقرة بلا أسنان، والنمر بدون طحال، والأرنب بلا شفاه، والتنين بلا أذن، والثعبان بلا قدم، والحصان بلا مرارة، والغنم يفتقر إلى بؤبؤ العين، والقرد يفتقر إلى الكفل، والدجاجة بلا كلى، والكلب بلا أمعاء، والخنزير بلا عضلات، أما الإنسان فهو خال من العيوب الجسمية». ولكن لم يشرح هذا الكتاب بشكل أكبر لماذا وقع

الاختيار على هذه الحيوانات ذات العيوب والعاهات لتمثل سنوات ولادة الإنسان؟ ولذلك، فإن هذا الشرح من الصعب أن يقنع الإنسان بالإجابة عن هذا السؤال.

(3) **«مذهب الخلط في تحديد الزمن»**: يعتقد هذا المذهب أن أبراج الولادة الاثني عشر هي نتيجة الخلط في طريقة تحديد الزمن لدى قومية هواشيا والقوميات الأخرى في العصر القديم. وتأسيساً على السجلات المعنية، فإن قومية هواشيا التي كانت تعيش في منطقة السهول الوسطى استخدمت هذه الأبراج منذ زمن مبكر في عصر الإمبراطور ياو جذوع السماء العشرة، وفروع الأرض الاثني عشر في تحديد السنوات في التقويم القمري، بينما القوميات التي تقطن شمال غرب الصين، ابتدعت طريقة تحديد السنوات من خلال حيوانات لأنها كانت تمارس أنشطة البحث عن المراعي والكلأ والماء. وفي عصر أسرة هان، كان زعيم قبائل الهون ويدعى الملك خوهان يوه خاضعاً للسلطة السياسية لقومية هان، والسواد الأعظم من القوميات بدأت تعيش مع قومية هان، وأدى ذلك إلى تحقيق الاندماج بين نوعين من الثقافة، وكان ذلك إيذاناً بنشأة أبراج الولادة الاثني عشر. ولكن ما الدليل والسند لهذه النشأة؟ إن ذلك لم يقدم شرحاً مسهبا أيضاً.

(4) **«المذهب الأجنبي»**: يعتقد هذا المذهب أن أبراج الولادة الاثني عشر جاءت من الهند، كما يعتقد بحاث، إن صور حيوانات هذه الأبراج هي بمثابة الحيوانات الاثني عشر التي سيطرت عليها الآلهة في الهند وهي: الفأر، البقرة، الأسد (أو النمر)، الأرنب، التنين، الثعبان، الحصان، الغنم، القرد، الخُضاري، الكلب، الخنزير. وبعد أن دخلت هذه الحيوانات الصين تلاءمت وتوافقت مع فروع الأرض الاثني عشر، وحلت الدجاجة محل الخُضاري.

(5) **«مذهب الاندماج بين الطوطم والظواهر الفلكية»**: يعتقد هذا المذهب أن أبراج الولادة الاثني عشر نشأت نتيجة الدمج بين عبادة طواطم الحيوانات في العصر السحيق والظواهر الفلكية في علم الفلك. وقد تأثر الأقدمون بعبادة هذه الطواطم، واعتادوا استخدام أسماء حيوانات مألوفة عند ملاحظة مواقع الأبراج السماوية. وفي كتابه «تاريخ العلم والحضارة في الصين» ذكر العالم البريطاني جوزيف نيدهام أن متحف التاريخ الطبيعي في الولايات المتحدة يحتفظ بمرآة برونزية يرجع تاريخها إلى أسرة تانغ في الصين، ويحوي سطح المرآة صوراً ومقالات منوطة بها في غاية الروعة، ودائرة داخلية تتضمن تماثيل لآلهة الجهات

الأربع الأصلية مرتبة باتجاه عقارب الساعة وهي: شوان وو، تشينغ لونغ، جو تشيوه، باي خو، وهي ترمز إلى الشمال، الشرق، الجنوب، الغرب على التوالي. والدائرة الثانية تحتوي على صور حيوانات أبراج الولادة الاثني عشر مرتبة على النحو التالي: الفأر، البقرة، النمر، الأرنب، التنين، الثعبان، الحصان، الغنم، القرد، الدجاجة، الكلب، الخنزير. والدائرة الثالثة تشتمل على رموز التنجيم الثمانية ومرتبة هكذا: كان، قين، تشينغ، شون، لي، كون، دوي، تشيان، وتوجد خطوط فاصلة بينها. أما الدائرة الرابعة تشتمل على ثمان وعشرين كوكبة (مجّرة) مرتبة على هذا النحو: دو، نيو، نيوي، شيوه، وي، شي، بيي، كوي، لو، وي، ماو، بي، تسي، شين، جينغ، قوي، ليو، شينغ، تشانغ، يي، تشين، جياو، كانغ، دي، نانغ، شين، وي، تشي. وتعكس هذه المرآة العلاقة الوطيدة التي تربط بين الرموز الثمانية في التنجيم وأبراج الولادة الاثني عشر والكوكبات البالغ عددها ثمانية وعشرين كوكبة. (الكوكبات– مفردها كوكبة، خلاف الكواكب ومفردها كوكب، فالكوكبة مجموعة من النجوم المتجاورة والتي تبدو في صفحة السماء في تشكيل معين يمكن تمييزها به– المترجم). وفي السنوات الأخيرة، اكتشف الناس أيضاً حجراً منقوشاً في أسرة هان يضم صوراً للكوكبات الثماني والعشرين ومسجل عليه موقعها موزعة في صفحة السماء، وتمثل تقسيم الليل والنهار إلى اثنتي عشرة فترة كل منها تعادل ساعتين، ويطلق على ذلك «شين»، وكل شين يضم مجموعتين من النجوم، أما تسي (الفرع الأول)، دو (الفرع السابع)، وماو (الفرع الرابع)، ويو (الفرع العاشر) فيضم ثلاث مجموعات من النجوم. وحسب مواقع الكوكبات الرئيسية تم ترتيبها في أربع مجموعات في الشرق والجنوب، والغرب والشمال. واختار الناس نوعاً من الحيوان يتلاءم مع كل كوكبة، ويتفق ذلك تماماً مع المرآة البرونزية في أسرة تانغ، وهذه المجموعات هي:

(1) الشرق: جياو (تنين الطوفان)، كانغ (التنين)، دي (راكون)، فانغ (أرنب)، شين (ثعلب)، وي (نمر)، تشي (فهد).

(2) الجنوب: جينغ (ألكه)، قوي (الغنم)، ليو (أيّل النهر)، شينغ (الحصان)، تشانغ (الغزال)، يي (الثعبان)، تشين (دودة الأرض).

(3) الغرب: كوي (الذئب)، لو (الكلب)، وي (الديك البري)، ماو (دجاجة)، بي

(طائر)، تسي (قرد)، شين (قرد على شكل إنسان).

(4) الشمال: دو (أو شيه- حيوان أسطوري)، نيو (البقرة)، نيوي (خفاش)، شيوه (فأر)، وي (السنونو)، شي (الخنزير)، بيه (أو يوي- حيوان آكل للحوم مذكور في الكتب القديمة.

وحسب هذا الترتيب والتقسيم، وحسب الكوكبة التي تمثل اثنتي عشرة فترة كل منها تعادل ساعتين، تم عمل رسم تخطيطي على شكل ساعة (انظر شكل -20) تجد أن تسي (الفرع الأول) يتفق تماماً مع الفأر، وتشو (الفرع الثاني) مع البقرة، وين (الفرع الثالث) مع النمر، وماو (الفرع الرابع) مع الأرنب، وتشين (الفرع الخامس) مع التنين، وسي (الفرع السادس) مع الثعبان، و وو (الفرع السابع) مع الحصان، و وي (الفرع الثامن) مع الغنم، وشين (الفرع التاسع) مع القرد، ويو (الفرع العاشر) مع الدجاج، وشيوي (الفرع الحادي عشر) مع الكلب، وهاي (الفرع الأرضي الثاني عشر) مع الخنزير. وهذا الشرح يبدو علمياً إلى حد ما.

ثانياً: خرافة الإيمان بالأرقام: الأرقام في اللغة الصينية ليست مجرد رموز تسجل الأعداد فقط، بل تشتمل على المغزى الفلسفي العميق والمعاني الثقافية الأخرى. وعلى سبيل المثال، الرقم (1) ويكتب بالرموز الصينية هكذا «»، معناه ليس القيمة العددية للرقم واحد فقط، بل يعبر أيضاً عن الوحدة الكلية، والشمولية، والوحدة والتشابه التام، ويمثل «الإله المطلق» وغازات الفوضى الأزلية (اللاتكون) المنبثقة من «الإله الواحد المطلق» في الديانة الطاوية. وفي هذا المقام نقتبس فقرة من «كتاب التغيرات» توضح لنا المغزى الخاص الذي تتمتع به الأرقام في الثقافة الصينية تقرأ فيها الآتي: «السماء في المرتبة الأولى، والأرض في المرتبة الثانية، السماء في المركز الثالث، والأرض في الرابع، السماء في المكانة الخامسة، والأرض في السادسة، والسماء في المرتبة السابعة، والأرض في الثامنة، والسماء في المركز التاسع، فالأرض في المركز العاشر، وعلى هذا النحو السماء لها خمسة أرقام خاصة بها، وكذلك الأرض لديها خمسة أرقام خاصة بها، وكل من الأرقام الخمسة تتحلى بالصفات الخاصة بها أيضاً. ومجموع أرقام السماء الخاصة بها يبلغ خمسة وعشرين رقماً، أما الأرقام الخاصة بالأرض فمجموعها ثلاثون رقماً، ويكون المجموع الكلي لأرقام السماء والأرض خمسة

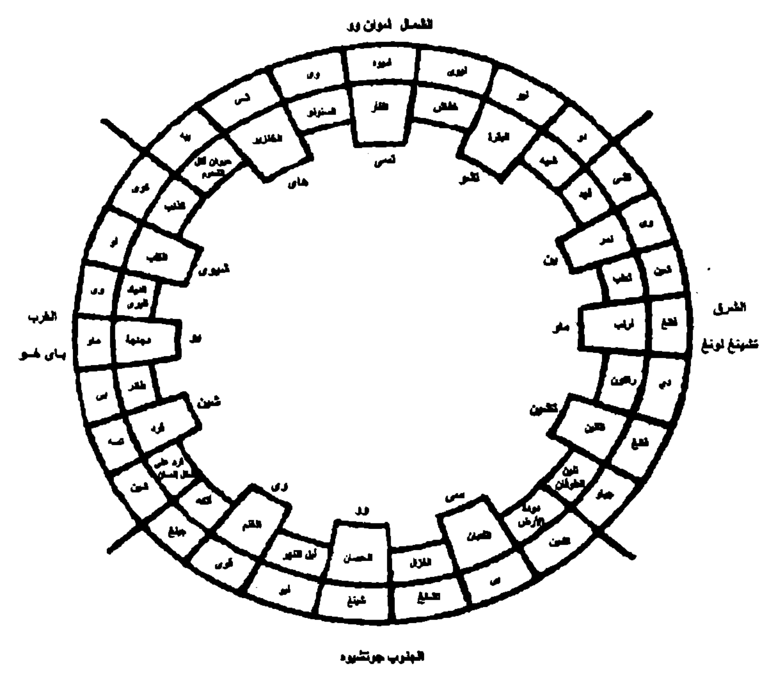
وخمسين رقماً، وتغيرت هذه الأرقام وشكلت الكون وسيرت الشياطين والآلهة في الدنيا». واستخدمت هذه الفقرة العميقة الراسخة الأرقام في التعبير عن مغزاها، مما يوضح أن الأرقام ليست بسيطة وعادية في الثقافة الصينية. ويجب القول إن نشأة الأرقام واستخدامها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بملاحظة الأقدمين ومعرفتهم بالكائنات والموجودات في السماء والأرض، ومن الأرجح الغالب أن الوعي الثقافي الذي تشتمل عليه الأرقام يعد تجسيداً وتطويراً للفكر الفلسفي لديهم. ولا غرو أن نعتقد أن العصر القديم شهد خرافة الايمان بالأرقام، واعتاد الناس على ذلك في العصور اللاحقة. فعلى سبيل المثال، الرقم (3) يعد رقماً غريباً وعجيباً حقاً، ويُعرف في اللغة الصينية بـ«سان»، ومن منظور التعبير عن قيمته العددية ومعناه المحدد، نجد أنه عبارة عن «2+1»، ويعبر عن العدد التقريبي «كثيراً» أيضاً، ويكاد يبدو عادياً وليس عجيباً، ولكن إخضاعه للملاحظة في الحياة الواقعية، نشعر أن استخدامه يكتنفه الأسرار وتعجز الأفهام عن إدراكه، وحتى يتحلى بالنكهة السحرية الغامضة. وعلى صعيد الهيكل السياسي، كان الإمبراطور ابن السماء في العصر القديم يعين ضباطاً رفيعي المستوى مسؤولين عن الحكومة والجيش يطلق عليهم «سان (ثلاثة) قونغ (دوقات)»، ويعرفون باسم: سيما، سيمتو، سيكونغ، ومن بعدهم تأتي ثلاثة مناصب يتولاها كبار الموظفين يطلق عليهم «سان شاو» هم: شاوشي، شاو فو، شاو بو. وفي أسرة هان، كان يطلق على الدواوين: تشونغشو، وميشيا، وشانغشو، اسم: «الدواوين الثلاثة»، ويضطلع كبار مسؤولي هذه الدواوين الثلاثة بالتشاور في شؤون البلاد السياسية ومهام رئيس الوزراء. وعلى صعيد النظام العسكري، تؤسس الدولة «القوات الثلاث» وهي: القوات العليا، القوات الوسطى، القوات الدنيا، وقائد القوات الوسطى يسيطر على القوات الثلاث، وهناك القول القديم المأثور: «القوات الثلاث يمكن أن تزيح قائدها، وعامة الشعب لا تستطيع أن تزيح صاحب الإرادة الصلبة». وفي عصر أسرة هان بدأ مسؤولون ثلاثة يتولون الأجهزة المدنية والعسكرية في العاصمة القديمة يطلق عليهم «الموجهون الثلاثة» (سان فو)، ولذلك أُطلق على الكتاب الذي يسجل أحوال العاصمة الإمبراطورية في أسرة هان «وصف سان فو». وفي أسرة سونغ، كانت توجد ثلاثة أجهزة استرشادية تتولى قيادة جيش المدينة المحرمة في بكين، يطلق عليها التسمية المشتركة «السرايا الثلاث». وفي مجال القوانين وتنفيذ العقوبات، كان النظر في قضية

يجب أن يشهد ثلاثة استجوابات ثم يصدر الحكم في القضية، وأُطلق على ذلك «الأشواك الثلاث»، وتنص القوانين على إمكانية تخفيف العقوبة من خلال ثلاثة أنواع من الحيثيات هي: عدم إدراك تقدير الخطيئة، والغلط غير العمد، والنسيان، وأُطلق عليها «المغفرة الثلاثية»، كما تنص القوانين على إلغاء العقوبة بمقتضى ثلاثة شروط هي: إذا كان المدين حدثاً صغير السن، والطاعن في السن، والجهل، وأُطلق على ذلك «العفو الثلاثي»، وحتى في أوبرا بكين «ربيع القاعة اليشمية» كان رد اعتبار صولان في نهاية المطاف يجب أن يجتاز الاستجواب المشترك من جانب محققين من ذوي الدرجة الثالثة أطلق عليهم «محققو قاعة المحكمة الثلاثة». وفي المجال التعليمي والتربوي كان يطلق على المدارس الحكومية والإمبراطورية والمواد التعليمية الأربع لقب «المدارس الثلاث» في أسرة تانغ، كما كانت توجد «الجامعات الثلاث» هي: هونغ ون، وتشونغ دن، ودبان شويوان. والنجاح في الفحص الإمبراطوري يشترط اجتياز امتحان البلدة، وامتحان الولاية، وامتحان القاعة الإمبراطورية، ويطلق على ذلك «الامتحانات الثلاثة». وكان قبول الطلاب في المدارس ينقسم إلى «ثلاث درجات أولية»، ويختار من الدرجة الأولى «ثلاثة أسماء». وفي مجال طقوس تقديم القرابين، يجب تقديم البقر والأغنام والخنازير «ثلاثة أنواع من الحيوانات»، وعند احتساء الخمور يجب إهداء الخمر «ثلاث مرات»، وتأدية الطقوس يحتم «السجود ثلاث مرات». وفي مجال التقويم الفلكي، كانت السماء تنقسم إلى تاي وي، وتسي وي، وتيانشي، ويطلق على ذلك «الأسوار الثلاثة»، كما أُطلق على الشمس والقمر والنجوم لقب «الأنوار الثلاثة»، وتنقسم السنة إلى أربعة فصول هي: شهور الربيع الثلاثة، وأعمال الصيف الثلاثة (الزرع والحصاد والعناية)، وأعمال الخريف الثلاثية (الحصاد الخريفي، والفلاحة الخريفية، والبذار الخريفي)، وشهور الشتاء الثلاثة. وفي المجال الأدبي والأكاديمي، أُطلق على المشاعر والقصة والبلاغة في المقال لقب «المعايير الثلاثة»، وأطلق على درجات تقييم العمل الأدبي الفني العليا، الوسطى، والدنيا لقب «الدرجات الثلاث»، ومهارات الفنان الفائقة في الشعر والخط والرسم عُرفت باسم «المهارات الثلاثة الفائقة»، والطرائق الثلاث في اختيار مناظر الجبال والأنهار والرسم أطلق عليها «المتباعدات الثلاث» (ويعني ذلك مشاهدة المناظر من مكان مرتفع بعيد، ومن مكان عميق بعيد، ومكان مستو بعيد)، والعيوب الثلاثة عند استخدام الريشة في الرسم

أطلق عليها «المساوئ الثلاثة» (ضعف الساعد والريشة البلهاء ويعرف ذلك بالجمود وعدم المرونة، وما يطلبه القلب لا تنفذه اليد ويطلق على ذلك الحفر، وحركة الريشة ليست سلسة ومرنة، ويطلق على ذلك العقدة). وفي الجانب الأخلاقي، كان يطلق على العلاقة بين الملك ووزرائه، والعلاقة بين الآباء والأبناء، والعلاقة بين الزوج والزوجة اسم «الأركان الثلاثة» (سلطة الملك على الرعية، سلطة الأب على الابن، سلطة الزوج على الزوجة). كما كان يوجد ما يطلق عليه «الغبطات الثلاث» وهي: «الأبوان على قيد الحياة، والأشقاء الأصحاء»، و«استحقاق النظر إلى السماء بحذر لعدم ارتكاب ذنوب، وانحناء الرأس ليس خجلاً من الآخرين» و«تعلّم المواهب والكفاءات في هذه الدنيا»، و«الأشياء الثلاثة» التي تسبب القلق للأشراف والنبلاء هي: «عدم تحصيل العلم، والافتقار إلى فرص التعليم، وعدم استغلال المعارف والعلوم»، و«الأصدقاء الثلاثة» الذين يجلبون المنفعة هم الذين يتحلون بالصفات الثلاث: «الاستقامة، الإخلاص، الشهرة العظيمة»، و«الأصدقاء الثلاثة الذين يسببون الضرر يتصفون بالصفات الثلاث من: «الميل إلى ترويج الإشاعات، والميوعة والنعومة، والمهادنة والمداهنة»؛ ويطلق على ترسيخ الأخلاق، وتسجيل المآثر، ووضع فكرة أو نظرية لقب «الأعمال الثلاثة الخالدة». ووالدة الفيلسوف مينشيوس انتقلت إلى «ثلاثة أمكنة» من أجل تعليم ابنها. وقام ليوبيه بزيارة تونغ مين «ثلاث مرات» ليحرره من عزلته في الجبل.

وفي الوقت الحاضر، نشاهد دائماً بنايات القصور والمعابد التي تشتمل في الغالب على «الأبواب الثلاثة»: الباب الأيسر، الباب الوسط، الباب الأيمن، وكذلك «القاعات الثلاثة الكبرى»: قاعة المقدمة، وقاعة الوسط، وقاعة المؤخرة، وتحوي مباني أقارب الإمبراطور درجات السلم الثلاث: العليا، الوسطى، الدنيا. ويقول كونفوشيوس: «كلما سرت مع رجلين وجدت لنفسي أستاذين»، و«أراقب نفسي وأسألها كل يوم عن أمور ثلاثة»، و«أفكر ثلاث مرات قبل أن أتصرف»، و«الرجل إذا كان والده حيا ينظر الناس إلى همة نفسه، وإذا مات والده ينظرون إلى أعماله، فإن لم يعدل عن سُنة والده مدة ثلاث سنوات كان جديراً بأن يتصف بالمبرة»، و«يمكن أن يقال إن (تاي باي) قد بلغ المثل الأعلى للفضائل، فإنه قد تنازل لأخيه عن الولاية ثلاث مرات، ولجهالة القوم ببواعثه لا يقدرون على استحسان سلوكه». ويقول المثل الشائع: «مزاعم الأفراد الثلاثة عن النمر، تجعلك تصدق أنه بجوارك»،

و«الشموس الثلاث تبشر بقدوم الربيع في أبهى صورة». وجاء في الأقوال الشعبية المأثورة: «إذا اتحدت قلوب ثلاثة أفراد في قلب واحد، يمكن أن يتحول التراب الأصفر إلى ذهب»، و«ثلاثة إسكافيين بسطاء يعادلون الوزير الحكيم تشوقه ليانغ»، و«المرء لا يمكن أن يتفوه بثلاث جمل دون أن تشير إحداها إلى مهنته»، و«لا ينبس ببنت شفة ولو ركلته ثلاث مرات»، و«لا تجرب شيئاً أكثر من ثلاث مرات»، و«ألسنة النيران تمتد إلى ثلاثة تشانغ» (تشانغ يعادل ثلاثة أمتار وثلث المتر- المترجم). ويمكننا ذلك أن نتخيل الغرابة والعجب والقوة السحرية التي يتحلى بها العدد (3). ولماذا يؤمن الصينيون بخرافة هذا الرقم «سان»؟ ربما يمت ذلك بعلاقة



(الشكل رقم-20)
رسم تخطيطي على شكل ساعة يوضح أبراج الولادة الاثني عشر

المعرفة البدائية للأقدمين بالعالم الموضوعي. ففي مجتمع العصور السحيقة، كانت البشرية تشعر بالسحر والغموض تجاه ذاتها وكافة الموجودات المحيطة بها، ومن ثم كانت عبادة الكائنات الطبيعية (وتشمل ظاهرة التناسل لدى البشرية). ولكن مع التقدم الفكري للبشرية، كان من

المحتوم أن تنتقي الأفكار في عملية التطور الفكري، ومن ثم اعتقدت أن السماء والأرض والإنسان من بين الكائنات الطبيعية يمثلون الجوهر والأساس في الكون من بين الكائنات الطبيعية، فالسماء سامقة تغطي كافة الموجودات، والأرض تحمل فوق أديمها السميك جميع الكائنات والموجودات، بينما الإنسان هو «الأكثر إجلالاً وتقديراً لطبيعة السماء والأرض»، ولذلك أُدمجت السماء والأرض والإنسان في بوتقة واحدة، وأطلقت على ذلك «المواهب الثلاث» أو «الجنيات الثلاث». وجاء في «قاموس شرح كلمات» أن: العدد (3) يمثل الأشياء الأساسية والجوهرية وهي: السماء والأرض والإنسان». ويوضح ذلك أن المعنى الأصلي للعدد (3) يمثل السماء والأرض والإنسان، ويعني ذلك أن السماء في الأعالي، والأرض في الأسفل، والإنسان بين السماء والأرض. وبموجب هذه المعرفة، نشأت في الصين منذ زمن بعيد الآلهة الثلاثة: إله السماء، إله الأرض، إله الأجداد والأسلاف، كما نشأت طقوس القرابين الثلاثة: تقديم القربان للسماء والأرض ومعابد الأجداد. كما أدرك الناس تدريجياً في مسيرة التطور التاريخي أن الزمن ينقسم إلى الماضي، الحاضر، المستقبل. والفضاء ينقسم إلى ثلاثة أجزاء: الأعلى، الوسط، الأسفل، ومواقع الأماكن تنقسم إلى الأيسر، الأوسط، الأيمن، وإلى الأمام والوسط والمؤخرة. وفيما يبدو أن الأشياء الثلاثة ترمز إلى الوحدة الكلية، ومن ثم العدد (3) ينطوي على المغزى الكامن من الشمولية والكمال والتمام، وبلور الوعي الكامن داخل الصينيين؛ حيث يستخدم هذا الرقم تلقائيا لإجمال وحدة الأشياء وتوجيه السلوك والتصرفات، والتحية في حفل الزواج تكون عادة بإثناء الظهر ثلاث مرات، ووقفة الحداد في تشييع الجنازة تكون لمدة ثلاث دقائق حتماً، والمؤلفات الأدبية الضخمة تكون ثلاثية. وفي التاريخ الحديث والمعاصر، نجد مؤسس الجمهورية الصينية صن-يات-صن طرح مبادئ الشعب الثلاثية (الوطنية والديمقراطية والحياة الشعبية)، والسياسات الثلاث الكبرى (التحالف مع روسيا، التعاون مع الحزب الشيوعي، ومساعدة الفلاحين والعمال)، وطرحت الثورة الشيوعية الصينية الأسلحة السحرية الثلاثة (الجبهة المتحدة والكفاح المسلح وبناء الحزب) وأساليب العمل الثلاثة الهامة في الحزب (دمج النظرية بالتطبيق العملي، والارتباط الوثيق بالجماهير وممارسة النقد والنقد الذاتي)، وتطبق في الجيش الديمقراطية في المجالات الثلاثة الرئيسية (الديمقراطية السياسية والاقتصادية والعسكرية على مستوى السرية في جيش

التحرير الشعبي). كما أن السلطات في تايوان مازالت تتمسك بسياسة «اللاءات الثلاث» (لا اتصالات، ولا محادثات، ولا مساومات).

وأصل خرافة الايمان بالعددين «4» و«5» لدى الصينيين يكمن في عبادة السماء والأرض، وفي الارتباط الوثيق بالعناصر الخمسة (المعدن، الخشب، الماء، النار، والتراب). ويعتقد الأقدمون أن الأرض مربعة وتضم الجهات الأصلية الأربع: الشرق، الغرب، الجنوب والشمال. والرمز الصيني للعدد «4» عبارة عن شكل مربع تماماً. وهذا المفهوم للاتجاهات واضح ومحدد نسبياً، حيث أن هذه الجهات الأصلية قلما أن تختلط. وفي الصين القديمة، كان تشييد أسوار المدينة وخنادقها، والقصور، والساحات، والأديرة يكون على شكل مربع (الجوانب الأربعة مربعة) في اتجاه الشمال بالضبط، أو في اتجاه الجنوب بالضبط، ويتجلى فيها الجهات الأربع بوضوح تام. وفي اللغة الصينية، معظم المفردات والعبارات التي تتألف من العدد «4» تمت بعلاقة بالأرض الكبيرة المربعة، ومثال ذلك «الجهات الأربع»، و«الأقطاب الأربعة»، و«الأبعاد الأربعة»، و«الزوايا الأربع»، و«الجيران الأربعة»، و«المواقع الاستراتيجية الأربعة»، و«الضواحي الأربع»، و«الأراضي الحدودية الأربع»، و«البحار الأربعة»، و«مراكز الحامية الأربعة» و«المكتبة الكاملة في فروع الأدب الأربعة» (الأقسام الأربعة التقليدية في العلم الصيني الكلاسيكيات، التاريخ، الفلسفة، والأدب المحض – المترجم). كما تنظر اللغة الصينية إلى الأجزاء الأربعة في تكوين جسم الإنسان مثل: «الأطراف الأربعة». بالإضافة إلى ذلك هناك، «الأجزاء الأربعة»، و«المقاييس الأربعة في الجمال» (جمال العقل واللغة والسلوك والبيئة)، و«النغمات الأربع الحديثة»، و«أمام خيارات أربعة صعبة»، و«الأخلاق الأربعة»، ولا يمت ذلك كله بالشكل المربع ولا نجرؤ القيام بالتنظير بصورة ذاتية في هذا الخصوص. ولكن الأمثال التالية تجسد بصورة واقعية المعنى الأصلي للشكل المربع مثل: «ممزق إلى أربعة أجزاء وخمسة شقوق» (مفكك الأوصال وممزق الصفوف)، و«البحار الأربعة هي بيته» (كل الدنيا بيته، كل مكان بيته)، و«السلام في الجهات الأربع» (السلام في أنحاء العالم)، و«مطّوق من الجهات الأربع»، و«من كل حدب وصوب»، و«مفرق الطرق، مواصلات تمتد إلى كل الجهات»، و«متزن ورزين». وتأسيساً على الجهات الأربع، كانت تضاف إليها «في الوسط»؛ فتصبح خمس جهات، ويوضح ذلك

أن خرافة الايمان بالعدد (5) لها علاقة بعبادة السماء والأرض أيضاً. والنقوش على العظام ودرع السلاحف التي تم اكتشافها في أطلال أسرة ين تثبت بالدليل أن أسرة شانغ كانت تقدم القرابين لآلهة الجهات الأربع، ولآلهة الأرياح الأربع، ثم قامت هذه الأسرة بالتوفيق بين هذه الآلهة والفصول الأربعة فيما بعد، اعتقادا منها بأن الشرق يمثل الربيع، والجنوب يمثل الصيف، والغرب يرمز إلى الخريف، والشمال يرمز إلى الشتاء. وفي فترة الربيع والخريف، أصبح آلهة الجهات الأربع بمثابة الأباطرة الأربعة، وأضيف إليهم إله آخر، فأصبح الأباطرة الخمسة. وفي أواخر فترة الممالك المتحاربة، تم تفسير مذهب الين واليانغ للعناصر الخمسة تفسيراً مكلفاً في ضوء عبادة الأباطرة الخمسة، وتعزز الايمان بخرافة العدد (5) بشكل أكبر، وبات العدد (5) يشكل مجموعة من الأشياء، ونرى ذلك دائماً في الكتب والمؤلفات القديمة على النحو التالي: «العناصر الخمسة» (الخشب، النار، التراب، المعدن، الماء)، والجهات الخمس (الشرق، الجنوب، الوسط، الغرب، الشمال)، و«الأباطرة الخمسة»، و«الحيوانات الخمسة» (تنين الطوفان، عصفور دوري، التنين الأصفر، النمر الأبيض، والسلحفاة)، و«سُلّم النغم الخماسي القديم»، و«الألوان الخمسة» (الأزرق، الأبيض، الأحمر، الأصفر والأسود)، و«النكهات الخمس» (الحلو، الحامض، المر، الحريف، والمالح)، و«المكارم الأزلية الخمس» (البر، الاستقامة، الأدب، الحكمة، الإخلاص)، و«الأعضاء الداخلية الخمسة» (القلب، الكبد، الطحال، الرئتان، والكليتان)، و«أعضاء الحواس الخمس» (اللسان، العين، الأنف، الفم، الأذن) وغيرها من الكلمات والعبارات التي لا تحصى.

أما خرافة الايمان بالعدد (9) لدى الصينيين فترجع إلى عبادة السماء، وربما تمّت بصلة إلى طوطم التنين أيضاً. وجاء في «قاموس شرح كلمات» أن: العدد (9) هو رقم ينتمي إلى اليانغ (الموجب) وشكله يشبه ذيل التنين في الرمز الصيني». وتأسيساً على ذلك، أكد البعض أن العدد (9) معناه الأصلي هو رأس التنين. وكان الأقدمون يستخدمون السماء إشارة إلى الشمس، والعدد (9) يمثل قمة الأعداد الموجبة، ولذلك هذا العدد يمثل السماء، ولكن هناك علاقة عامة مختلفة بين السماء والتنين. وفيما يبدو أن ذلك ليس من قبيل المصادفة. ونظراً لأن الأباطرة والملوك كانوا يطلقون على أنفسهم «التنين الحقيقي ابن السماء»، وأصبح العدد (9) يمثل العدد الرمزي للأسرة الإمبراطورية، ولذلك تعززت عبادة وتقديس هذا الرقم، وزادت

أعجوبة ولغز هذا الرقم أيضاً. والسماء تتألف من «تسع طبقات»، والأرض تشتمل على «تسعة أقاليم»، و«تسعة ألقاب» للإمبراطور ووزيره، والسلم يتألف من «تسع درجات»، والمكافآت «تسعة أنواع»، ويوجد في البلاد «تسعة مراجل ثلاثية القوائم» (إشارة إلى السلطة الإمبراطورية –المترجم)، والقانون يحتوي على «تسع مقولات»، والموسيقى تضم «تسعة حروف صوتية»، والشعر يحتوي على «تسع مقامات»، والكتب المترجمة تضم «تسعة كتب»، وجميع البنايات والأدوات الخاصة بالأسرة الإمبراطورية تتوافق مع الرقم (9) وأضعافها، ومثال ذلك، في أسرة مينغ، كانت العاصمة بكين تضم تسع بوابات، وتحوي المدينة المحرمة 999 غرفة، وركائز القاعة فوق بوابة تيان آنمين (السلام السماوية) قائمة على «تسع ركائز»، وبوابة القصر الإمبراطوري تشتمل على «تسع صفوف» من المسامير الصفراء الكبيرة أفقياً وعمودياً، بإجمالي واحد وثمانين مسماراً، وعدد الأطباق في المأدبة الإمبراطورية تبلغ تسعة وتسعين طبقاً، والهدايا التي يقدمها الحكام وكبار الموظفين إلى الإمبراطور يجب أن تتوافق مع العدد (9) وأضعافها. ويمكن أن يوضح ذلك، إن العدد (9) بين صفوف الشعب يعد رمزاً للإشراق، ويتحلى بالتمام والكمال ولا يعلو فوقه، ويمثل الحد الأقصى، ويعد بداية التحول، ويعتبر نوعاً من التغير والتطور أيضاً. والأرقام ذات الصلة بالعدد (9)، مثل العدد (36) في الديانة الطاوية توجد ست وثلاثون جنة دنيوية، وستة وثلاثون من الدببة الكبار، وكذلك العدد (72) تذكر الديانة البوذية اثنتين وسبعين جنة سماوية، كما أن الجبال الثلاثة: سونغ، هينغ، والأصفر تشتمل على اثنتين وسبعين قمة. وتتحلى مثل تلك الأعداد بالنكهة الغريبة والعجيبة والسحرية أيضاً.

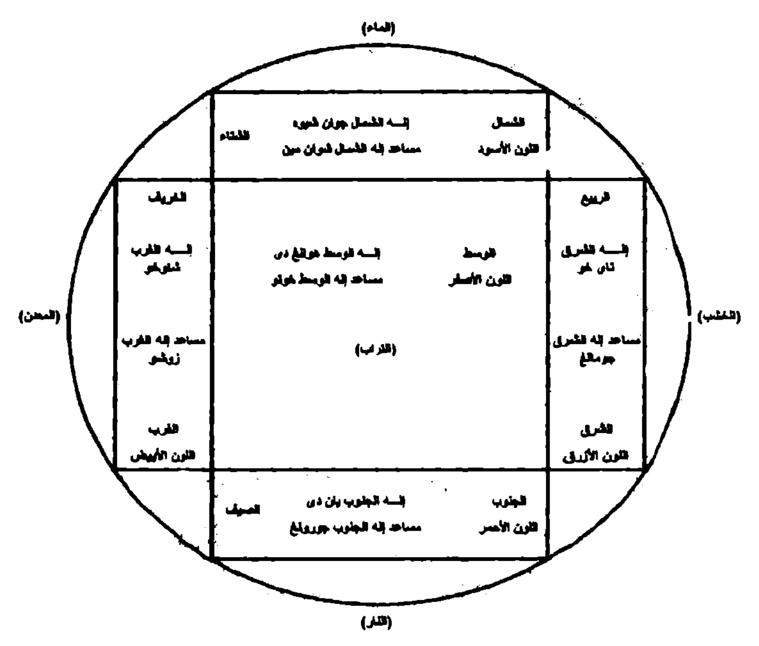
ثالثاً: خرافة الإيمان بالاتجاهات والألوان: الصين تبجل الاتجاه جنوباً، والاتجاه شرقاً منذ القدم، وتقدر اللون الأصفر والأحمر، وتزدري بالاتجاه شمالاً والاتجاه غرباً، وتحتقر اللون الأسود واللون الأبيض، وحتى تعتبر اللون الأبيض والاتجاه غرباً يجلبان الشؤم. ويتجسد ذلك بوضوح شديد في البنايات والحلى والمراسم في الصين القديمة. والجناح الرئيسي، والقاعة الرئيسية والبوابة الكبرى في البيت يكون تشييدها حسب ما تسمح به تضاريس الأرض وتتجه جميعاً نحو الجنوب. ويستطيع المرء أن يجلس في القاعة الرئيسية متجهاً نحو الغرب في حالة إظهار التواضع المهذب فقط. ومثال ذلك، قصر تشي في القبة السماوية في العاصمة

بكين، ونظراً لأن هذا القصر هو المقر المؤقت للإمبراطور عندما يقدم القربان للسماء، ولذا فإنه لا يجرؤ أن يجلس أمام أجداده الأولين متجها نحو الجنوب في المكان المبجل، ويضطر أن يجلس في مكان أقل أهمية متجهاً نحو الشرق. وهناك القول القديم المأثور: «الملك يجلس في العرش متجهاً صوب الجنوب، ويحلف اليمين متجهاً صوب الشمال». وذكر «كتاب التغيرات» أن: «الحكماء يجلسون صوب الجنوب وينصاعون لأوامر السماء». ويظهر ذلك أن التقاليد الصينية تعتبر الاتجاه جنوباً بمثابة المكان الأساسي والرئيسي المبجل. وفي العصر القديم، كان يجب على ابن السماء أن يجلس متجهاً نحو الجنوب عندما يتلقى التهنئة باعتلاء العرش، وعندما يتقبل التعازي في حالة الوفاة، يجب أن يوضع التابوت ناحية الشمال. وإذا كان ابن السماء يعزي في وفاة أحد الرعية، فيجب أن ينقل التابوت مؤقتاً ناحية الجنوب. وعلى الجملة، في العصر القديم كان الاتجاه جنوباً، والاتجاه شرقاً يحظيان بالاحترام والتبجيل، بينما الاتجاه شمالاً، والاتجاه غرباً، كان نصيبهما الازدراء، ولاسيما الاتجاه غرباً يجلب النحس، وكان «الغرب» و«الموت» فيما يبدو صنوين لا يفترقان، ولذلك يقول الناس «الروح تعود إلى الغرب». وبالمثل، كان الإيمان بخرافة الألوان، فاللون الأصفر يحتكره الملوك والأباطرة منذ القدم، وأصبح اللون الخاص بالعائلة الإمبراطورية. والإمبراطور الأول في أسرة سونغ الشمالية قام بتمرد عسكري فوق جسر تشين، وارتدى عباءة صفراء دليلاً على أنه أصبح إمبراطوراً، وانتفاضات المزارعين التي تسعى للسيطرة على مقاليد الحكم كان يجب عليها أن تثبت راية لونها أصفر على غرار لون المشمش وتحفز الجماهير، أو تقوم بتنظيم كتائب يلف أفرادها رؤوسهم بالمناشف الصفراء. وفي أسرتي مينغ وتشينغ، كانت سقوف القصور الإمبراطورية، ومعابد أجداد الإمبراطور والبنايات الإمبراطورية الأخرى مطلية باللون الأصفر. واللون الأحمر يرمز إلى الأهمية والمهابة والشأن العظيم ومنازل كبار الموظفين والأعيان لها «بوابات حمراء»، ولذلك قال الشاعر الكبير دوفو: «توجد خلف البوابات الحمراء الخمور واللحم العفن»، ويطلق على الأزياء التي يرتدونها «الأزياء الحمراء»، والقول القديم المأثور مفاده: «يرتدي الزي الأحمر ويطأطئ رأسه»؛ ويعني ذلك أن مقاله في الفحص الإمبراطوري حظي بموافقة مسؤولي الامتحان، والعربات التي يركبها أصحاب المراتب العليا يطلق عليها «العربات الحمراء» أو «العجلات الحمراء».

وفي الزواج تكتب كلمات البهجة والسعادة باللون الأحمر، والعروس تغطي وجهها بشال أحمر، وتعلق الفوانيس الحمراء في احتفالات الأعياد، كما يعلق دوبيت احتفالية عيد الربيع ذو اللون الأحمر، ويتناول الناس البيض المطلي باللون الأحمر، بعد مرور شهر من ولادة الرضيع، والعامل المثالي يعلق على صدره وردة لونها أحمر صارخ. أما اللون الأبيض فيعتبر لوناً مشؤوماً ومنحوساً، ويرتبط كثيراً بالموت والجنازة، ولذلك الزواج والجنازة، وهما من الأمور عظيمة الشأن، يُطلق عليهما «مسألتان تحظيان بالأهمية: الأحمر والأبيض»، ويطلق على المرأة الفاسقة «نجم النمر الأبيض». وفي العصر الحديث، مازال اللونان الأحمر والأبيض يرمزان إلى الثورة والثورة المضادة، مثل «السلطة السياسية الحمراء»، و«الرعب الأبيض». ومن أين جاءت خرافة الإيمان بالاتجاهات والألوان؟ وما هو أصل وفصل هذه الخرافة؟ إن جذور هذه الخرافة يرجع إلى عبادة السماء والأرض لدى الأقدمين أيضاً، ففي أواخر فترة الممالك المتحاربة تغلغل مفهوم الين واليانغ (السالب والموجب) والعناصر الخمسة مما شَكّل تدريجياً خرافة الإيمان بالاتجاهات والألوان عميقة الأغوار.

ويمكننا الاعتقاد أن الاتجاه جنوباً، والاتجاه شرقاً يحظيان بالاحترام، واللون الأحمر يتمتع بالتبجيل، ويرجع أصل ذلك إلى عبادة إله الشمس، كما أن اللون الأصفر يتمتع بالاحترام، ويرجع ذلك إلى عبادة إله الأرض في العصر القديم. والشمس تشرق من الشرق، وتتمركز في الجنوب بالضبط في وقت الظهيرة، ولون الشمس أحمر كالجمر، ودرجة حرارتها عالية محرقة، ومكانها في الجنوب بالضبط منح الأقدمين شعوراً بالسحر العجيب والغرابة يصعب فهمه، ومن هنا نشأت عبادة الشمس لدى هؤلاء الأقدمين. وقد لاحظ بعض بحاث الثقافة في العصور السحيقة أن عبادة إله الشمس تعد من أقدم وأكبر عبادة الطبيعة لدى البشرية. وفي العصر القديم، كانت الصين تقدم القربان لإله الشمس، و«مراثي تشو» للشاعر تشيوي يوان هي عبارة عن وصف إله الشمس على وجه الخصوص. ويشير باحثون إلى الأساطير والحكايات التي تحتوي على فوشي (ويسمى تاي خو أيضاً) هو بالضبط التبّدل إله الشمس، و«شي» و«خو» يشيران إلى الشمس، والقربان الذي كان يقدم في العصر القديم لـ«الإله الأكبر فوتيان» يجب أن يشير إلى إله الشمس. وذكرت الكتب القديمة أن تاي خو يشير إلى «بدء الربيع»، و«يقع في الشرق»، و«يشبه نور الشمس»، ولذلك اعتقد الأقدمون أن

«الشرق مسؤول عن الحياة والكائنات»، وهو مكان بداية الكائنات الحية كلها. وكما ذكرنا آنفاً، فإنه منذ انتشار مفهوم آلهة الاتجاهات الأربعة في أسرتي شانغ وتشو، ساعد ذلك على تحقيق التوافق بين الفصول الأربعة وهذه الآلهة، مما أسس نظام الآلهة الأربعة ومساعديهم على النحو التالي: الشرق يرمز إلى الربيع، ويطلق على إله الشرق تاي خو، ومساعده جومانغ، والجنوب يرمز إلى الصيف ويسمى إله الجنوب يان دي، ومساعده هو جو رونغ، والغرب يشير إلى الخريف، وإله الغرب هو شاو خو، ومساعده زوشو، والشمال يشير إلى الشتاء، وإله الشتاء هو جوان شيوه، ومساعده شوان مين. وبعد انتشار مذهب الين واليانغ والعناصر الخمسة، توسط هذا المذهب الإله الأصفر (هوانغ) العظيم، ومساعده خوتو (إله التراب)، وتم التوفيق والتنسيق بين العناصر الخمسة والألوان الخمسة، وتكوين نظام الأباطرة الخمسة ومساعديهم الخمسة (انظر الشكل رقم –21). والإله الرئيسي يان دي هو إله الصيف، يقع في الجنوب، ومساعده هو خورونغ، ولونه أحمر زاهٍ. وكلمة «يان» تتكون من مقطعين صينيين معناهما النار، وكلمة «رونغ» معناها نور الشمس يسطع على الدنيا كلها، ويرمز إلى



(الشكل رقم –21)

رسم تخطيطي يوضح الآلهة الخمسة ومساعديهم

الشمس اللاهبة، وإذا تأملنا ذلك نجد أن يان دي، وخوردنغ هما التبّدل لإله الشمس (يعتقد البعض أنهما المريخ). ويعتقد الأقدمون أن لون الشرق أزرق، ويرمز إلى نمو وتكاثر الكائنات الحية، والجنوب لونه أحمر ويرمز إلى نماء وازدهار الكائنات الحية.

وتقدر الكتب القديمة الربيع والصيف تقديراً عالياً، فعلى سبيل المثال، تطلق على الربيع «الربيع العطري»، و«الربيع الأخضر»، و«الربيع الشمسي»، ويطلق على شاهد الربيع «المنظر الخلاب»، و«المنظر البديع»، و«الربيع الجميل»، كما يُطلق على الريح «الريح الناعمة»، و«النسيم العليل»، ويطلق على الريح «ريح لاهبة». ويعد ذلك بمثابة الأسباب التي أنشأت الإيمان بخرافة الاتجاه جنوباً، والاتجاه شرقاً، واللون الأحمر، واللون الأزرق لدى الصينيين. ويختلف عن ذلك تماماً الاتجاه غرباً، والاتجاه شمالاً، واللون الأبيض، واللون الأسود. فالغرب لونه أبيض وينتمي إلى الخريف، والشمال لونه أسود وينتمي إلى الشتاء، ويعتقد الأقدمون أن الخريف هو فصل الحصاد، والشتاء هو فصل التخزين، والكائنات بعد عمر طويل تقترب من نهاية حياتها وتندثر، ويجلب ذلك الحزن والألم والكآبة للإنسان. وتطلق الكتب الكلاسيكية على الخريف لقب «التخزين الأبيض»، ولذا يُطلق على فصل الخريف لقب «الخريف الأبيض». كما يطلق على الريح «الريح البيضاء»، و«الريح الباردة»، و«الريح الحزينة»، وحتى في العصر القديم كان مقرراً تنفيذ حكم الإعدام في الخريف، ولذلك كانت مشاعر الحزن والكآبة تسيطر عادة على الأقدمين في فصل الخريف، وفي كل فصل خريف يعم الألم والحزن، ولذلك فاللون الأبيض يرمز إلى الشؤم والنحس. وفصل الشتاء هو فصل منحوس أيضاً، ويُطلق على الريح لقب «الريح الباردة»، و«ريح الحزن»، و«ريح شريرة»، ويطلق على المشهد الشتوي «المنظر البارد الكالح»، ولذلك يمقت الناس «اللون الأسود»، وهناك كلمات وعبارات التي تشتمل على اللون الأسود مثل: «عصابة الأشرار السوداء»، و«المجتمع الأسود»، و«القائمة السوداء» وكلها نذير بالشؤم وتجلب الحزن والكآبة للنفس.

ولذلك، أصبح اللون الأصفر أكثر الألوان تبجيلاً واحتراماً، والسبب الرئيسي يكمن في عبادة الأقدمين لإله الأرض، ولكنهم تأثروا تأثراً عميقاً بمذهب الين واليانغ والعناصر الخمسة. ويعتقد الأقدمون أن: «الكائنات الحية لديها القدرة على الحياة فوق التراب»، و«الأرض هي أصل تلك الكائنات، وجميع الأحياء تنتمي جذورهم إلى الأرض». وجاء في

«قاموس شرح كلمات» أن: «الأرض لونها أصفر». وذكر كتاب «هاي نانتسي» أن: «اللون الأصفر هو لون الأرض». مما يوضح أن هناك علاقة بين عبادة اللون الأصفر والأرض. وبعد نشأة مفهوم العناصر الخمسة، أصبح اللون الأصفر هو اللون الرئيسي في مركز الأرض، وإله الأرض هو هوانغ دي الذي ذكرت الأسطورة أنه الجد الأول للأمة الصينية. إن مفهوم الثقافة ذات المركزية الذاتية يتلاءم تماماً مع احتياجات الإقطاعيين، ولذا حظي اللون الأصفر بالتقدير والثناء عبر الأجيال المتعاقبة، وحتى أصبح اللون الوحيد الذي يعتلي قمة الألوان الأخرى بمفرده، -وشكّل مع سائر الألوان الأخرى- نظام ترتيب الألوان والدرجات في الصين على النحو التالي: الأخضر، الأحمر، الأزرق، الأسود، الأبيض. وهذا الترتيب هو في حد ذاته ترتيب ألوان الأزياء والحلى في الصين القديمة، ولكن يضاف كلمة «بنفسجي» قبل «اللون الأحمر»، وكلمة «أخضر» قبل «اللون الأسود».

رابعاً: عادة تحاشي ذكر (لفظ كذا أو عبارة كذا): تعتبر هذه العادة بمنزلة نظام الحرمات ذات الطبيعة الخاصة في المجتمع الإقطاعي والتي أثرت في الحياة الاجتماعية، ولكن -بصفتها من التراكمات الثقافية- فإن أفكارها تغيرت وتبدلت وأصبحت تمثل بعض العادات التي مازال تأثيرها موجوداً في الحياة الواقعية.

وماذا يعني «تحاشي ذكر لفظ أو عبارة كذا»؟ يعني ذلك التعبير عن التزام الصمت مهابة وإجلالاً تجاه الحكام الإقطاعيين والأكبر سناً وقدراً، ويجب تحاشي ذكر أسمائهم بصورة مباشرة، واستخدام طريقة أخرى وأسلوب آخر في هذا الخصوص. ويعد ذلك نتيجة أوجدها نظام المشيخة العشائري الإقطاعي، وتجسيداً لاحترام وتقدير الأجداد والعشيرة. ويرجع أصل ذلك إلى أسرة تشو الغربية، واكتملت ملامحه في أسرتي تشين وهان، وانتشر في أسرتي تانغ وسونغ، وتوطدت أركانه وتناغم مع المجتمع في أسرة تشينغ، وبات أكثر صرامة وحزماً في فترة حكم تشيان لونغ في هذه الأسرة، ويوجد عدد غير قليل من الأفراد الذين تعرضوا لضرب عنقهم لأنهم خالفوا نظام المحرمات، ويوضح ذلك مدى صرامة وقسوة هذا النظام.

وهناك نوعان من الأسماء المحرمة هما: الأسماء المحرمة الخاصة بالدولة، والأسماء المحرمة الخاصة بالأسرة. و«الأسماء المحرمة الخاصة بالدولة» هي استغلال الحكام نفوذ الدولة وإجبار الرعية على تحاشي ذكر لفظ كذا أو عبارة كذا، أما «الأسماء المحرمة الخاصة

بالأسرة» فهي اضطلاع كبار الموظفين الإقطاعيين بتطبيق نظام تحاشي ذكر لفظ أو عبارة كذا لاظهار الاحترام والتقدير للأكبر سناً. وإجراء مسح شامل يبين أنه كانت توجد ثلاث طرق لتحاشي ذكر الاسم المحرم على مدى الدهر، هي: تغيير الاسم، عدم ذكر الاسم، وكتابة الاسم ناقصاً. و«طريقة تغيير الاسم» هي استخدام أسماء بديلة تحل محل أسماء الأباطرة والملوك والأكبر سناً وقدرا، وتشمل هذه الأسماء التي تتبدل أسماء الأشخاص والأمكنة والمناصب والوظائف، وعنوان حكم كل إمبراطور جديد، وأسماء الأدوات والكتب القديمة، وحتى تتغير الألقاب والكنى. ومثال ذلك، في عصر أسرة هان تغير اسم «جبل هينغ» إلى «جبل تشانغ» تحاشياً لذكر اسم الإمبراطور ليوهينغ. وبان قو مؤلف «كتاب أسرة هان» تحاشي ذكر اسم الإمبراطور ليو تشوانغ في أسرة هان، وغيَّر التسمية في كتابه من «فن فلسفة لاوتسي وتشوانغ» إلى «فن فلسفة لاوتسي ويان». وقام أهالي أسرة جين الشرقية بتغيير اسم الأميرة من «وانغ تشاو جون» إلى «وانغ مينغ جون» تحاشياً لذكر اسم الإمبراطور سيما تشاو في هذه الأسرة. ومؤلف «كتاب ما بعد أسرة هان» فإنه يتحاشى ذكر اسم والدة «تاي»، وذكر لقب العائلة في كتابه، وبدَّل هذا الاسم بآخر في متن الكتاب كله. وكان ونيان باو بيروقراطياً في أسرة سونغ الشمالية، وغيَّر لقبه من «جينغ» إلى «ون» تحاشياً لذكر لقب الجد تشاو جينغ. وكان «شيان تشينغ» عنوان حكم في أسرة تانغ، تغير إلى الاسم «مينغ تشينغ» تحاشياً لذكر اسم الإمبراطور «لي شيان» في الأسرة نفسها. و«طريقة عدم ذكر الأسماء» فهي عبارة عن عدم كتابة السماء المحرَّمة والمحظورة، وترك مكانها شاغراً أو محاطاً بمربع فارغ، أو كتابة «اسم ما»، أو يكتب صراحة «اسم محرَّم». ومثال ذلك، في أسرة هان الشرقية، استخدم شيوه جين في كتابه «قاموس شرح كلمات» طريقة عدم ذكر الأسماء، واضطر لأن يكتب «أسماء محرمة» فقط؛ حتى يتحاشى ذكر أسماء الأباطرة في خمسة أجيال داخل هذه الأسرة. ومثال ذلك أيضاً المؤرخ الكبير سيما تشيان في كتابه «سجلات تاريخية» استخدم طريقة «اسم ما» تحاشياً لذكر اسم الإمبراطور ليو تشي في أسرة هان. وكذلك تجنب أهالي أسرة تانغ تأليف الكتب التاريخية واستخدام اسم الإمبراطور لي شي مين، ولذلك تعمدوا استخدام اسم وانغ يونغ بدلاً منه في أواخر أسرة سوي. وطريقة «كتابة الاسم مبتوراً» هي حذف المقطع الأخير من الرمز الصيني للاسم المحرم، ومثال ذلك، كان في العصر الإقطاعي كلمة «قديس» تدل

على اسم كونفوشيوس، وأيضاً كان يُكتب اسم كونفوشيوس مبتوراً بالرمز الصيني حيث يحذف منه المقطع الصيني الأخير. وكذلك أهالي أسرة تشينغ كانوا يتحاشون ذكر اسم الجد الأول لهذه الأسرة شوان هوا، ويكتبون اسمه ناقصاً. والأدهى من ذلك، إن العصر الإقطاعي استخدم أيضاً طريقة «تحريم ذكر أسماء الفضلاء والحكماء». وما يطلق عليه «أسماء الفضلاء والحكماء» هي الأسماء التي تتشابه أو يتماثل نطقها مع الأسماء المحرمة، ويجب تحاشي ذكر هذه الأسماء. ومثال ذلك، الشاعر لي خه في أسرة تانغ لم يتمكن أن يكون مُجازاً في الفحوص الإمبراطورية (جين شي)؛ حيث كلمة «جين» في اسم والده «لي جين صو» يتشابه نطقها مع كلمة «جين» في الفحوص الإمبراطورية، مع اختلاف طريقة رموزهما الصينية. واستشاط الكاتب الكبير هان يوي غضباً وكتب مقالاً دافع فيه عن حق الشاعر لي خه في دخول الامتحان الإمبراطوري، ولا يمكن أن يكون التشابه في الأسماء عائقاً أمام الأفراد في الحياة.

ومنذ عام 1911، اندثر نظام تحاشي ذكر الاسم أو ذكر عبارة كذا، بالتزامن مع أفول نجم الحكم الإقطاعي، ولكن لم تندثر الحالة النفسية المزدوجة من عدم السماح بانتهاك المحرمات وخشية الوقوع في انتهاك المحرمات. وشهدت الأخلاق والأدب تجنب النحس والشؤم واجتياز الحظ السعيد، ولذلك اضطلع الناس بصورة واعية أو غير واعية بكافة أنواع تحريم ذكر الأسماء كذا أو العبارة كذا، وعلى سبيل المثال، الشخصية الروائية الشهيرة آكيو كان يعاني من ندبة برص في صلعته، وكان يتحاشى أن يصف الآخرون صلعته بـ«الملساء» أو «اللامعة» أو «بيضاء كالشمع». وعندما «يموت» عجوز في أسرة، يجب القول «طاعن في السن»، «رحل عن دنيانا»، «غادر هذا العالم»، وحتى يقولون أيضاً «توفي» و«رحل». وفي الحياة الواقعية، يمقت الأكبر سناً وقدراً دائماً، أو لم يعتدْ أن يناديه الآخرون باسمه مباشرة، كما يشعر الوضعاء والنشء دائماً، أنه ليس من اللائق أن تنادي الأكبر سناً وقدراً باسمه. ولذلك، لا يستخدم الصينيون أسماء الوالدين وكبار السن وذوي المراتب العليا مباشرة في مخاطبتهم، ويختلف ذلك اختلافاً كبيراً عن العادات في الدول الغربية.

الفصل السادس عشر

التبادل الثقافي بين الصين والبلدان الأجنبية

إن أي ثقافة قومية تتطور ويتعاظم نموها في إطار التبادل والاندماج والتآلف مع الثقافات القومية الأخرى، وبعبارة أخرى، إن التطور الثقافي يحتاج إلى الصدام المتبادل بين عوامل التعددية والاقتباس، ويحتاج إلى مساعدة العناصر الإيجابية في سائر الثقافات الأخرى، وغرس جينات جديدة للتطور الثقافي أيضاً. وقلما نشهد في تاريخ حضارة البشرية تطور ثقافة ذات عوامل أحادية، بل حتى يمكننا القول إن هذه الثقافة تستطيع فقط أن تكون نوعاً من ثقافة معزولة تعاني من الاختناق، وهي ثقافة مفعمة بالحيوية والنشاط والاندثار الذاتي. والثقافة الصينية منذ نشأتها الأولى تجسد حالة الاندماج والاختلاط بعوامل التعددية الثقافية، وتطورها إلى يومنا هذا يعد ثمرة اندماجها وتآلفها وتناغمها مع التعددية الثقافية بدرجة أكبر، وما زالت تستوعب بلا انقطاع أروع الإنجازات في الثقافات الأجنبية إلى الآن. ولذلك، الثقافة والخصائص الفطرية هي بمثابة التبادل مع الثقافات الأخرى وتضطلع في هذه العملية بتعميم مآثر هذه الثقافات أملاً في مضاهاتها واستيعاب نقاط قوتها لسد ثغرات ضعفها حتى تصل إلى حالة جيدة ومرضية في مسيرة التطور.

وتجدر الإشارة بنا إلى أن التبادل بين الثقافات المختلفة هو دائماً تبادل ثنائي حيث يؤثر كلّ منهما في الآخر، حتى أن التميز الواضح بين ثقافتين إحداهما متقدم والآخر متخلف يعتبر نوعاً من العلاقات المؤثرة المتبادلة، ولا توجد ثقافة طرف ما تكون مؤثرة دائماً، ولا توجد ثقافة تتأثر دائماً بالثقافات الأخرى، وإنما يوجد تأثير ثقافة ما في ثقافة أخرى، وقد يكون هذا التأثير كبيراً أو ضئيلاً بعض الشيء. إن الثقافة الناضجة أو المتطورة قد يكون تأثيرها الثقافي في الثقافة غير الناضجة أو المتطورة كبيراً نسبياً بعض الشيء، وقد يكون ضئيلاً إلى حد ما أيضاً. ولكن ليس ذلك قانونا أو قاعدة نسير على منوالها. ويمكن أن نرى في تاريخ الثقافات ظاهرة التأثير الهائل نسبياً للثقافة الأخيرة في الثقافة الأولى في ظل مرحلة محددة. ونقول إن خصائص الثقافة يجب أن تتحلى بالمرونة، والأفق الواسع، والفكرة الجلية، والقدرة على

استيعاب مزايا الثقافات المختلفة، وليس الافتخار من علٍ، واتخاذ موقف القوي والأمر والنهي بالإشارة، والاعتقاد دائماً «أنا أعظم من أَقلته الغبراء وأَظلته السماء»، وجعل الثقافة الذاتية تستأسد على الآخرين.

ونظراً لأن الثقافة الصينية استوعبت عناصر التعددية الثقافية في عملية التطور، ولذلك فإنها تتحلى -على وجه الخصوص- بقوة الاندماج والانصهار الضخمة والهائلة، ويعتبر ذلك في حد ذاته العديد من الثقافات الأجنبية في التاريخ الصيني؛ مثل الثقافة اليهودية وثقافة الأمم الأخرى المتاخمة للصين التي استوعبتها الثقافة الصينية تدريجياً وتمثلتها. ومن ناحية أخرى، الثقافات الأجنبية المتباينة التي تتطلع إلى أن تتجذر وتتطور في محيط الثقافة الصينية، يجب عليها أن تتوافق معها أيضاً، ويتعين عليها أن تضطلع بتعديل ذاتها وإصلاحها خطوة خطوة حسب آلية تعايش الثقافة الصينية، ويتجلى ذلك في انتشار الثقافة الهندية في الصين وتطورها أيضاً، حتى الثقافة المسيحية في العالم الغربي يجب عليها أن تحذو حذو المبشر اليسوعي الإيطالي ماتيو ريتشي، الذي وصل إلى بكين في العام 1601، من دراسة اللغة الصينية أولاً، ثم البحث عن فرصة موطئ قدم، ولكن إذا احتكمت إلى القوة والقمع، أو دك الأبواب بالمدافع، فإن ذلك كله من المستحيل أن يكتب لها البقاء طويلاً داخل أطر الثقافة الصينية.

وأثبتت معلومات تاريخية ونتائج دراسات باحثين، إن التبادل الثقافي بين الصين والبلدان الأجنبية أحرز ازدهاراً وإشراقاً في العصر الحجري الحديث. وحضارة الفخار المزخرف، التي تمثل بداية حضارة يانغشاو، انتشرت في كافة أنحاء البلاد على نطاق واسع، وانطلقت من الغرب من مقاطعة قانصو، ومنطقة نينغشيا، ودخلت شينجيانغ، واستمرت منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد إلى ألف سنة قبل الميلاد، وشهدت المناطق الغربية في منطقة شيجيانغ والتي تشمل خهديان، وبيشان، وشايا، وحوض نهر إيلي انتشار حضارة الخزف المزخرف الآتية من السهول الوسطى. وفي عصر أسرتي شيا وشانغ شهدت كل من حضارة البرونز في منطقة السهول الوسطى وحضارة سهول منطقة سيبريا التجارب العصيبة والاحتكاك المتبادل بينهما. كما أشار بحاث فرنسيون في القرن الثامن عشر أن مؤيدي أسرة شانغ كانت سفنهم تمخر عباب البحار حتى وصلت إلى أمريكا اللاتينية في أعقاب انهيار هذه الأسرة. وشهدت السنوات الأخيرة العثور على الشاهدة الحجرية لـ«مقابر المزارعين في مملكة تشي» في

المكسيك والتي يرجع تاريخها إلى عصر الممالك المتحاربة أو أواخر أسرة تشين. ويوضح ذلك أن الصين لها علاقات وتبادلات مع أمريكا اللاتينية منذ القدم. وظهر التأثير الهائل للتبادل الأجنبي في المرحلة الأولية فيما يطلق عليه قصة «الملك مو في أسرة تشو يقوم بجولة تفقدية في الغرب ويقابل مملكة المناطق الغربية». كما يتجلى ذلك بصورة حيوية في الموسوعة التاريخية «سجلات تاريخية»، و«رحلات الملك مو» التي تم العثور عليها في مقابر عصر الممالك المتحاربة. وذكرت هذه السجلات أن رحلة الملك مو بدأت من مدينة لوايانغ، وعبرت النهر الأصفر شمالاً، واجتازت ما يعرف اليوم بمقاطعة شانشي حتى وصلت إلى منطقة خهتاو، ثم اتجهت غرباً، واجتازت حوض تشايدامو حتى وصلت إلى جبال كونلون؛ حيث التقى الملك مو هناك بمملكة المناطق الغربية، وتبادل مع بعض رؤساء القبائل والإمارات المحلية الأبقار والجياد، والأدوات، وأقام علاقات اقتصادية وثقافية مع سكان آسيا الوسطى ومنطقة غرب آسيا. ثم تعززت التبادلات تدريجياً بين الصين وآسيا الوسطى ومنطقة غرب آسيا في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة، وانتشرت المنسوجات الحريرية الصينية في إيران وغيرها من المناطق الأخرى. وعلى هذا النحو، كانت كتابة صحائف تاريخ التبادلات الثقافية بين الصين والبلدان الأجنبية. ونختار في هذا المقام بصورة مقتضبة بعض الأحداث المهمة التي تلقي قبساً من الضوء على تاريخ التبادلات الثقافية بين الصين والبلدان الأجنبية:

(1) جبال العمر المديد في البحر، وشيوه فو يعبر البحر الشرقي

انتشر سحر استخلاص حبوب إطالة العمر المديد وإكسير الحياة في عصر الممالك المتحاربة واستمر إلى عصر أسرتي تشين وهان، مما جعل الملك وي في مملكة تشي، والملك تشاو في مملكة يان، والإمبراطور الأول في أسرة تشين، والإمبراطور هان وو دي في أسرة هان –كلهم يحلمون بالحصول على حبوب إطالة العمر التي باتت لا تفارق منامهم، كما كما أن وصف صانعو إكسير الحياة لـ«جبال الأولياء والفضلاء في البحر» جعلهم أكثر شغفاً وتطلعاً في أحلامهم للسعي وراء هذه الحبوب. وجاء في حكايات وروايات، إن البحر الشرقي يحتوي على ثلاثة جبال العمر الخالد هي: بينغ لاي، وفانغ تشانغ، وبينغ تشو، وشكلها يشبه الإبريق، ولذا أطلق عليها «جبال الإبريق الثلاثة»، ويقيم فيها الأولياء والفضلاء، ويوجد بها حبوب

إكسير الحياة الخالدة، وقصورها من الذهب الأصفر والفضة البيضاء. وذكرت موسوعة «سجلات تاريخية» للمؤلف سيما تشيان أن الإمبراطور الأول لأسرة تشين قام بجولة تفقدية في شرق البلاد حتى مدينة لانغيا، وحفر مآثره وأعماله على لوح حجري، وقدم له شيوه فو، وهو من أهالي مملكة تشي، مذكرة ذكر فيها أن جبال العمر الخالدة الثلاثة موجودة في البحر، ويقطنها الأولياء والقديسون، وأنه يرغب في أن يصطحب الأولاد والفتيات العذارى، ويمخر عباب البحر بحثاً عن هؤلاء الأولياء والقديسين، ووافق الإمبراطور على أن يرافقه عدة آلاف من هؤلاء الشباب ذكوراً وأناثاً، وركبوا البحر في مهمة البحث عن أصحاب العمر المديد. ويحكى أن شيوه فو وصل إلى سهول فسيحة، ثم نصب نفسه ملكاً ولم يعدْ إدراجه، وشعر عامة الشعب بالألم الشديد وتطلعوا إلى رؤيته بشغف شديد. ولكن، أين ذهب شيوه فو في نهاية المطاف؟ لم توضح الكتب ذلك، حتى تأسست أسرة جين، وألف تشين شو كتابه «تاريخ الممالك الثلاث» الذي جاء فيه أن شيوه فو وصل إلى دانتشو، وأن «دانتشو في البحر، وتناقلت ألسن الطاعنين في السن أن الإمبراطور الأول في أسرة تشين بعث صانع إكسير الحياة شيوه فو ومعه عدة آلاف من العذارى إلى البحر بحثاً عن جبل العمر المديد بينغ لاي وحبوب إكسير الحياة، حتى وصل إلى هذه الجزيرة دانتشو، ولم يرجع إلى بلاده، وكان يقيم فيها عشرات الآلاف من الأسر عبر الأجيال المتعاقبة». ولكن، أين تقع هذه الجزيرة، جزيرة دانتشو؟ يقول البعض أنها جزيرة تايوان، ويقول آخرون إنها جزيرة ليولي، ويقول فريق ثالث إنها اليابان.

وبعد أسرتي تانغ وسونغ، ازدهرت التبادلات بين الصين واليابان، وبدأ بعض الناس يطرحون فكرة أن شيوه فو وصل إلى اليابان وأقام فيها. ويعتقد الراهب يه شيو، المعاصر لأسرة تشو، إن شيوه فو في عهد أسرة تشين اصطحب عدة آلاف من العذارى، وأقام في دولة الأقزام، وأطلق على أبنائه وأحفاده لقب «تشين». وزار رهبان يابانيون الصين في أسرة مينغ، وأشاروا في أشعارهم إلى أن: «معبد شيوه فو أمام جبل شيونغ ياي»، ويوضح ذلك أن اليابان قدمت القربان لشيوه فو في أسرة مينغ على أقل تقدير. وبعد ذلك، قام أناس بتأليف قصة «عبور شيوه فو البحر الشرقي»، و«زيارة قبر شيوه فو»، وغيرها من الكتب التي أكدت تأكيدا شديداً أن شيوه فو عبر البحر آنذاك ووصل إلى اليابان، وقام بتدشين تاريخ التبادل

الثقافي بين الصين واليابان.

ولكن، هل وصل شيوه فو إلى اليابان حقاً؟ طبعاً، إن ذلك مازال مشكلة تاريخية معلقة. ولكن منذ زمن بعيد، بدأت الاتصالات بين الصين واليابان، ويُعد ذلك حقيقة تاريخية من الصعب أن تساورها الشكوك. وفي التركيب الديموغرافي للقومية اليابانية، يوجد فرع شجرة أسرتي تشين وهان الصينيتين، من المهاجرين القادمين من البر الرئيسي الصيني الذين أقاموا في اليابان في القرن الثالث الميلادي. وتذكر ذلك وثائق يابانية في مواضيع عديدة؛ مثل أول كتاب تاريخي عرفته اليابان المعنون بـ«كتاب تاريخ اليابان» الذي جاء فيه: «في حوالي القرن الثاني الميلادي، اصطحب الملك يوه قونغ أناساً من أسرة تشين وسافر إلى اليابان». كما أن اليابانيين في ذلك الحين عبروا البحر، وجاؤوا إلى الصين وخاضوا مغامرة المخاطرة بحياتهم. وذكر كتاب «ما بعد أسرة هان» إن: «مبعوث دولة العبيد الأقزام امتثل بين يدي الإمبراطور الصيني في عام 57م، وأطلق على نفسه أنه من كبار الموظفين. وتقع هذه الدولة في أقصى الحدود الجنوبية. وأهدى الإمبراطور قوانغدو خاتماً لهذا المبعوث». وفي عام 874 تم العثور على هذا الخاتم الذهبي في جزيرة جيخهه في مدينة فوقانغ اليابانية، ومنقوش عليه «إهداء من إمبراطور أسرة هان إلى دولة العبيد الأقزام»، وكانت هذه الدولة من الدويلات الصغيرة المنتشرة في الجزائر اليابانية آنذاك. ويوضح ذلك أن عصر أسرتي تشين وهان شهد التبادلات الوثيقة بين الصين واليابان.

والدراسات المعنية بالملاح شيوه فو في السنوات القليلة الماضية تحظى بالاهتمام والحماس الشديدين في تاريخ العلاقات الصينية- اليابانية، كما تم تحديد مسقط رأس شيوه فو في محافظة قانيوي في مقاطعة جيانغصو، وكانت هذه القرية تتاخم البحر في أسرتي تشين وهان، وكانت ميناء مهما في العصر القديم. وفي المسوح الأولية، تم العثور أيضاً على «مرساة حجرية» كانت تستخدم في الملاحة البحرية قديما، تتشابه تماماً مع نظيرتها التي أُكتشفت على ساحل المحيط الهادي في أمريكا اللاتينية في حقبة السبعينيات من القرن العشرين. وفي الوقت الحاضر، مازالت مدينة شين قونغ اليابانية تحتفظ بقبر شيوه فو والخدم الخاص به ومعبده أيضاً، وتقام له طقوس مهيبة لتقديم القرابين في شهر أغسطس سنوياً. إن مآثر شيوه فو من عبور البحر الشرقي ووصوله إلى اليابان ليس من الضرورة إثباته وتوكيده، وليس من الضروري أيضاً أن

نثبت أنه حقيقة تاريخية، ولكن تكمن أهميته في أنه يمثل رمزاً للتبادلات الودية بين الصين واليابان مازال يستحق أن يبقى معلقاً في ذاكرة الناس.

(2) طريق الحرير البحري

يعرف الجميع أن الإمبراطور هان وو دي بعث تشانغ تشيان (؟ ق.م – 114 ق.م) في مهمة رسمية دبلوماسية إلى المناطق الغربية، وشق «طريق الحرير» الذي يربط بين الصين والمناطق الغربية. وفي عام 138 ق.م، أُرسل تشانغ تشيان إلى المناطق الغربية بحثاً عن قبيلة دايوه جي التي دحرتها قبيلة شينغونو (أهل الهون)، واقامة تحالف معها ومقاومة أهل الهون بصورة مشتركة، ولم يخطر على بال أحد، إن أهل الهون احتجزوه في الطريق لمدة عشر سنوات ونيف، وبعد أن استطاع الفرار من سجنه، وعبر مناطق لولان، وقوي تسي، وجبل تسونغ لينغ، وداوان، وكانغجو، ووصل إلى قومية دايوه جي في نهاية المطاف، ولكن رفض زعيمها الاتحاد والتحالف معه. ولذا لم تحرز مهمة تشانغ تشيان ثمة نتائج، وأثناء عودته إلى بلاده، وقع في أسر أهل الهون مرة أخرى، ولكنه استغل استشراء القلاقل داخل هذه القبيلة بعد مرور عام، حتى تمكن من العودة إلى العاصمة الإمبراطورية تشانغآن. وبغض النظر عن إخفاق مهمته وفشله في التحالف مع قومية دايوه جي، بيد أنه شق طريقاً من تشانغآن إلى المناطق الغربية، وجعل أهالي أسرة هان وجميع الدول في المناطق الغربية يجمعهم التفاهم المشترك في إدراك ومعرفة وجود وثقافة الآخر. كما أُرسل تشيان في مهمة دبلوماسية في المناطق الغربية مرة أخرى في عام 119 ق.م، وفي ذلك الحين استسلم فو نشيهه ملك أهلَ الهون لأسرة هان، واستطاع تشانغ أن يعبر ممر خهشي دون ثمة عوائق، وانطلق ومعه أكثر من ثلاثمائة فرد من أتباعه حاملين كميات ضخمة من الحرير والمنتجات الأخرى إلى ممر يومين حتى وصلوا إلى دولة ووصون (في منطقة نهر إيلي وبحيرة إيسايكه اليوم). وبعد ذلك، استمرت سفارات أسرة هان إلى المناطق الغربية بلا انقطاع. وفي أسرة هان الشرقية، أُرسل بان تشو في مهمة دبلوماسية إلى هذه المناطق في عام 73م، ووصل هو ونائبه قانينغ إلى مسافة قاصية في الخليج العربي. وتزامن مع ذلك، وصول سفارات وتجار المناطق الغربية إلى الصين وجلبوا معهم منتجاتهم، وبادلوها بالحرير الصيني والمنتجات الصينية الأخرى. وعلى

هذا النحو، كان افتتاح وتشغيل «طريق الحرير» الذي ظل حتى عصر أسرة تانغ الممر الرئيسي المهم للتبادلات التجارية والثقافية بين الصين والمناطق الغربية.

وكان «طريق الحرير» يبدأ من الشرق من العاصمة تشانغآن في عصر أسرتي هان وتانغ، ويتجه غرباً ويجتاز ممر خهشي إلى مدينة دونغ هوانغ، ثم يتشعب هناك إلى فرعين، الطريق الجنوبي والطريق الشمالي. يمر الطريق الشمالي ما يعرف اليوم بمناطق تولونان، وكوتشه، وكاشغر، أما الطريق الجنوبي فيجتاز مناطق روا تشيان، خهيتان، شاتشه، ثم يلتقي الفرعان في مدينة مالاي اليوم، ويجتازان بحر الخزر (قزوين) وبغداد وصولاً إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ثم يتحولان إلى جميع مناطق الإمبراطورية الرومانية، وذلك بمسافة يبلغ طولها أكثر من سبعة آلاف كيلو متر. وتدشين «طريق الحرير» شيد جسر التبادل الثقافي بين الشرق والغرب في العصر القديم، وانتقلت المنتجات الصينية من الحرير، والمطرزات، والفخار ومنتجات الفنون اليدوية الرائعة إلى أواسط آسيا وأوروبا، وفي المقابل منتجات البلدان الأجنبية من الجوز والفول والجزر وخمور النبيذ، والفنون المتعددة من الموسيقى والرقص والرسم أثرت تأثيراً هائلاً في المجتمع الصيني في أسرتي هان وتانغ، ولاسيما الديانة البوذية التي اجتازت طريق الحرير ودخلت الصين وأحدثت تغيرات هائلة في ملامح الفلسفة والأدب والفنون في الصين، كما أن «الاختراعات الأربعة الكبرى» الصينية انتشرت في العالم العربي وأوروبا بفضل طريق الحرير، وجعلت حضارة البشرية تشهد تغييراً عميقاً.

وفي الواقع، بالإضافة إلى طريق الحرير البري، كان هناك طريق «الحرير البحري» الذي أقام الاتصالات بين الصين والبلدان الأجنبية. وأقدم كتاب تاريخي ذكر الخطوط الملاحية البحرية كان كتاب «أسرة هان– فصل الجغرافيا» وجاء فيه أن الخط البحري يبدأ من الحدود الجنوبية في أسرة هان الغربية إلى المحيط الهندي، وفي عبارة أخرى، أنه يبدأ من شمال فيتنام اليوم، والمقاطعة الصينية قوانغدونغ، وينطلق من ميناء قوانغشي ويجتاز جنوب شرق آسيا ويصل إلى الساحل الشرقي الهندي وسيرلانكا. وفي أسرة هان الشرقية، عرف الصينيون الطريق البحري من فارس إلى البحر الأحمر. وأشار كتاب «كتاب ما بعد أسرة هان» إلى أن الإمبراطورية الرومانية كان يربطها خط بحري بالصين. وأشار كتاب «تاريخ الممالك الثلاث– فصل البلدان الأجنبية» بصورة جلواء إلى الإمبراطورية الرومانية التي «كانت تحصل على الحرير

الصيني دائماً، وتقوم بتصنيعه ومعالجته. ولذلك أقامت تعاملات تجارية مع جميع دول الإمبراطورية الفارسية في البحر». وفي عصر أسرتي وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية، ونظراً لانتشار القلاقل والاضطرابات في شمال الصين، أصبحت هناك عقبات تعترض سبل المواصلات البرية، وتطورت المواصلات البحرية بدرجة أكبر، وتعززت الاتصالات بين الصين والدول الأجنبية بشكل أكبر، وعبرت السفارات الرومانية والتجار الطريق البحري ووصلوا إلى الصين، وزاد عددهم بصورة مطردة. وكانت الصفقات التجارية تتركز بصورة أساسية على المنتجات الصينية من الحرير والفخار والخزف، ومنتجات الدول الأجنبية من المنتجات المعدنية والزجاج. ومن أجل مواكبة تطورات التجارة البحرية، بدأت أسرتا تانغ وسونغ تأسيس «ديوان إدارة المرسى» في قوانغتشو وتشو انتشو، المسؤول عن إدارة الشؤون التجارية الخارجية. ومع تعاظم نطاق التجارة البحرية، ازدهرت التبادلات بين الصينيين والأجانب يوماً بعد يوم، وأقام بعض الأجانب الذين حضروا إلى الصين في المدن الساحلية، وتشكل ما يطلق عليه «الأحياء السكنية الخاصة بالأجانب». وانتشر الإسلام في الصين مع انتقال العرب وإقامتهم هناك، كما عبر الرهبان الهنود البحر ووصلوا إلى الصين لنشر البوذية. وتأسيساً على سجلات وثائقية، كانت نقطة انطلاق الخط البري تبدأ من قوانغتشو في عصر أسرة تانغ، ويخترق نهر اللؤلؤة، وينحرف تجاه الجنوب الغربي، ويدور حول الساحل الشرقي لجزيرة خينان، ثم يسير في اتجاه الجنوب الغربي مرة أخرى، حتى يقترب من الساحل البحري لفيتنام، ويعبر خليج تايلاند ثم مضيق ميلكا، ويمتد على طول السواحل البحرية في اتجاه الشمال الغربي، ويجتاز شبه الجزيرة الهندية، وخليج بنجلاديش حتى يصل إلى سيرلانكا، ثم يعبر البحر العربي ويتجه نحو الخليج العربي. وبعد أسرتي سونغ ويوان، تقدمت تقنية الملاحة البحرية، وتعززت قدرة الملاحة البحرية، وتطورت التبادلات البحرية بين الصين والبلدان الأجنبية بصورة لم يسبق لها مثيل، حتى الملاح الماهر تشينغ خه خاض عباب المحيطات في الغرب وبلغ قمة الإنجازات الاستكشافية البحرية.

وفي هذه المرحلة، كتب العديد من الملاحين الصينيين مؤلفات مشهورة في ضوء تجاربهم وخبرتهم في البحر، ووصفوا معالم الجزائر الأجنبية، وأهم هذه المؤلفات كتاب «تاريخ الجزائر الأجنبية» من تأليف وانغدا يوان، الذي كان معاصراً لأسرة يوان، وكتاب «عادات وتقاليد

كمبوديا» من تأليف تشو داقوانغ الذي وُلد في مقاطعة تشجيانغ. وكان تشو قام برحلتين بحريتين انطلاقاً من مدينة تشو انتشو (مدينة الزيتون) ووصل إلى جميع الجزائر في جنوب شرق آسيا، ودخل البحر العربي، وذكر في كتابه أنه شاهد مناطق شاسعة فسيحة الأرجاء لم تخطر على باله ولم يسمع عنها من قبل. ولا شك أن عدد الجزائر في البلدان الأجنبية يقدر بالآلاف، واجتاز العديد من الجبال، وسلك الكثير من الطرق الملاحية البحرية، وأقام تبادلات تجارية. وكان تشو قد أُرسل في مهمة دبلوماسية إلى ما يعرف اليوم باسم كمبوديا، وسجل الازدهار الثقافي في عصر ووقه هناك بصورة واقعية.

(3) قدوم الديانة البوذية إلى الصين

يمثل مجيء البوذية أهم حدث في تاريخ التبادل الثقافي بين الصين والبلدان الأجنبية، كما يُعد ذلك من الاندماج الثقافي الأكثر عمقا الذي أثر في المجتمع الصيني. ودخلت البوذية الصين من خلال طريقين، أولهما الطريق البري من وسط آسيا وغرب آسيا، ثم الولوج إلى منطقة شينجيانغ في الصين والتغلغل في أراضيها. وذكرت كتب تاريخية أنه في عهد الإمبراطور مينغ دي في أسرة هان الشرقية، وصل الراهبان الهنديان جيا يماتنج، ولانفالان وآخرون إلى المدينة الصينية لوايانغ من خلال هذا الطريق البري، وبعد ذلك بفترة قصيرة، وصل إلى الصين الراهب آنشقاو وآخرون عبر هذا الطريق. أما الطريق الآخر، فهو الطريق البحري، ففي الأسر الجنوبية والشمالية تقريباً حضر إلى الصين كبار مترجمي الكتاب البوذي من خلال الطريق البحري لنشر الديانة البوذية، وركبوا البحر حتى وصلوا إلى مدينة قوانغتشو، ثم تقدموا صوب الشمال، وترهبنوا في معبد شاولين.

وكما ذكرنا آنفاً، إن الديانة البوذية بعد دخولها الصين، شهدت تطوراً سريعاً في أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية. وفي القرن الرابع الميلادي، شهدت شبه الجزيرة الكورية المجابهة الثلاثية بين ثلاث دويلات هي: قاولي، باي جي، وشين لو. وأوفد فوجيان في عام 372م مبعوثين ورهباناً وزعوا الكتاب البوذي والتماثيل البوذية في طريقهم إلى دويلة قاولي، ثم وصل الراهب أيداو إلى هناك. وبعد فترة قصيرة، شيدت قاولي معبداً وأقام فيه هذا الراهب، وكان ذلك إيذاناً ببداية نشر البوذية في شبه الجزيرة الكورية. وفي القرن السابع

الميلادي، وحدت دويلة شين لوا شبه الجزيرة الكورية، وأقامت تبادلات وثيقة مع أسرة تانغ الصينية، وتدفق إلى الصين عدد كبير من الرهبان للدراسة. وفي عهد أسرتي سوي وتانغ انتشرت المذاهب البوذية في الشرق رويداً رويداً، ولاسيما بعد انتشار مذهب تشيان (جلسة التأمل البوذية) انتشاراً واسعاً آنذاك وتطوره في عصر شين لوا.

وفي القرن السادس الميلادي، انتشرت الديانة البوذية في اليابان عبر طريق دويلة باي جي في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الكورية، وكانت اليابان تشهد آنذاك المرحلة الانتقالية من هيكل سلطة القبائل المتناثرة إلى الحكومة المركزية الموحدة، وقرر الأمير الوصي على العرش شينوا استغلال البوذية واعتبرها وسيلة أيديولوجية سياسية، وطلب من كافة أبناء الشعب اعتناق الديانة البوذية. وبعد ذلك، سافر الرهبان الصينيون والكوريون إلى اليابان لنشر البوذية، كما حضر نفرُ كبير من الرهبان اليابانيين إلى الصين لدراسة البوذية، كان من بينهم جيان تشين راهب معبد دامينغ في مدينة يانغتشو الذي لبى دعوة الرهبان اليابانيين، وغامر بحياته ست مرات، وعبر البحر الشرقي في عام 754م في نهاية المطاف بنجاح، ونشر مذهب الوصايا الدينية في اليابان، وسطّر صفحة مشرقة في تاريخ التبادل الثقافي بين اليابان والصين، كما أصبح مؤسس هذا المذهب في اليابان. كما أن الرهبان اليابانيين الذين جاؤوا إلى الصين لدراسة البوذية مثل: كونغ هاي، زوي دينغ، ويوان رين هم أبطال في تاريخ التبادل الثقافي الياباني- الصيني. وحضر الراهب الياباني كونغ هاي إلى الصين في عام 804م، ودَرَس المذهب البوذي ميي والصينولوجيا في معبد تشينغ لونغ في مدينة تشانغآن، وبعد أن عاد أدراجه، شيد «معبد تشين يان» في اليابان، وأُطلق عليه التسمية التاريخية «معبد مذهب ميي في الشرق»، وتحتفظ مؤلفاته بالمعلومات الثرية بفقه اللغة (الفيلولوجيا) وعلم الأصوات الكلامية (الفونولوجيا) في الصين. كما حضر الراهبان اليابانيان زوي دينغ وكونغ هاي معاً إلى الصين، وسافرا إلى مقاطعة تشجيانغ، وقاما بدراسة المذهب البوذي تيان تاي (المذبح السماوي) في جبل تيان تاي، ثم انتقلا إلى مدينة تشاوشين اليوم في هذه المقاطعة لدراسة مذهب ميي، وأسسا معبد تيان تاي في اليابان بعد عودتهما إلى بلادهما. أما الراهب يوان رين فهو من مريدي زوي دينغ، وجاء إلى الصين من أجل دراسة البوذية، وسجل مشاهداته بصورة واقعية في مؤلفه «مذكرات رحلة ودراسة البوذية وتفقد الأحوال في أسرة تانغ»

الذي يعتبر من أهم المؤلفات في تاريخ التبادل الثقافي الصيني- الياباني. وتشكلت في اليابان مذاهب بوذية متباينة في الفترة من 708 – 781م، من بينها المذهبان البوذيان المذبح السماوي وتشين يان اللذين دخلا الصين في عصر بينغآن (781- 1191م)، وكانت مهمتهما المقدسة إقامة الصلاة من أجل «حماية الدولة، وجلب السعادة، ومكافحة الكوارث»، ولذا حظيا باحترام وتقدير أقارب الإمبراطور والأسر الأرستقراطية، واعتنقهما الكثير من المريدين، وأُطلق عليهما -على الصعيد التاريخي- «المذهبان اليابانيان في عصر بينغآن». وبعد ذلك، شهدت الفترة من 1192 – 1333 انتشار المذاهب البوذية تشيان (جلسة تأمل بوذية)، وجينغ تو (الأرض الطاهرة)، وري ليان انتشاراً واسع النطاق وتطورت وتغلغلت داخل صفوف الشعب. وفي اليابان تأثرت الحياة الاجتماعية، والأدب والفنون، والعادات والتقاليد تأثيراً عميقاً وهائلاً بأفكار البوذية.

وتزامن مع انتشار البوذية الهندية في الشرق، بداية حركة انتقال الرهبان الصينيين إلى المناطق الغربية لدراسة البوذية. وكانت هناك ثُلة من هؤلاء الرهبان لم يخشوا المخاطر والمتاعب، ولم ترهبهم مشاق الطريق الوعر الطويل من أجل السعي وراء المغزى الحقيقي للبوذية؛ حيث أصبح البحث عن الكتب البوذية المقدسة في هذه المناطق موجة محمومة. وتفيد إحصائيات أنه كان هناك ثلاثة رهبان ارتحلوا إلى المناطق الغربية لدراسة البوذية في أسرة جين الغربية، ارتفع عددهم إلى أكثر من سبعة وثلاثين راهباً في أسرة جين الشرقية، كما كان هناك أكثر من مائة راهب في الأسر الإمبراطورية الست (222 – 589). وأحرز الراهب فاشيانغ أعظم الإنجازات في عصر أسرة جين الشرقية. وُلد فاشيانغ في محافظة شيانغ تان في مقاطعة شانشي اليوم، ترهبن في الثالثة من عمره، وأعلن القبول بالمذهب البوذي في العشرين من عمره. وفي عام 339م، وعندما كان شيخاً في الثانية والستين، انطلق مع جي جينغ، وباو يون وآخرين من مدينة تشانغآن، وعبّر ليوشا في الغرب، واجتاز سلسلة جبال تسونغ لينغ، ووصل إلى المكان القاصي بالهند بحثا عن الوصايا الهندية، وبعد زهاء خمسة عشر عاماً من التجوال والطواف في الجزء الشمالي بالهند، اجتاز أراضي دولة سيرلانكا اليوم، وجزيرة جاوه في إندونيسيا، وعبر البحر عائداً إلى بلاده، بعد أن حصل على ستة كتب بوذية مقدسة، وسجل مشاهداته في مؤلفه «مذكرات دولة بوذية» (ويسمى أيضاً «سيرة فاشيانغ»)، وأصبح

من أهم المؤلفات في تاريخ الاتصالات بين الصين والبلدان الأجنبية.

وبعد أسرتي سوي وتانغ، سافر كثير من الرهبان إلى الهند لدراسة البوذية، ومن أبرزهم الراهبين شوان زانغ، ويه جينغ اللذين يتمتعان بشهرة واسعة الآفاق. وشوان زانغ من أهالي محافظة يان اليوم في مقاطعة خنان، وبعد أن ترهبن انتقل إلى تشانغآن، وتشينغدو وغيرها من الأماكن الأخرى التي زارها كمُعلم مشهور ذائع الصيت. وفي عام 627م، ومن أجل إدراك تفاصيل البوذية، عبّر ممر يوي مين سرا، واجتاز المناطق الغربية، وسلسلة جبال تسونغ لينغ حتى وصل إلى الأراضي الهندية، وبدأ الدراسة والبحث والتنقيب، وتجول في كافة أنحاء الهند، ومكث بها زهاء تسعة عشر عاماً، ثم عاد أدراجه إلى الصين في عام 643م بعد أن أحرز شهرة كبيرة، وأشرف على ترجمة الكتب البوذية المقدسة ومؤلفه «مذكرات المناطق الغربية في أسرة تانغ» سجل فيه بإسهاب عادات وتقاليد وأحوال البلدان التي زارها، وأصبح من المآثر الخالدة في تاريخ التبادل الثقافي بين الصين والبلدان الأجنبية. وجاء يه جينغ (635-713م) متأخرا عن نظيره شوان زانغ، وهو من أهالي منطقة بكين اليوم، في سن الخامسة عشرة عقد العزم على الذهاب إلى المناطق الغربية لدراسة البوذية، وفي عام 671م، انطلق من مدينة يانغتشو وعبّر قوانغتشو والبحر متجها صوب الجنوب، وبعد أن وصل الهند قام بدراسة البوذية ودراسة الطب الهندي، ثم عاد أدراجه إلى قوانغتشو في عام 689م في عهد الإمبراطورة وو تسي تيان، وألف كتاباً بعنوان «تاريخ البوذية في البحر الجنوبي»، وصف فيه البوذية، والجغرافيا، والعادات الشعبية والوصفات الطبية في شرق آسيا والهند، ولا تقل أهمية هذا الكتاب وقيمته عن «مذكرات المناطق الغربية في أسرة تانغ». وبعد ذلك، ذهب الراهب هوي تشاو إلى الهند للحج والحصول على الكتب البوذية المقدسة، وهو من أهالي دويلة شين لوا، وبعد أن حضر إلى الصين، اجتاز الطريق البحري حتى وصل إلى الهند وفارس وأفغانستان، ثم عاد إلى الصين برا. ومع قدوم أسرة تانغ، خصصت الحكومة الأموال اللازمة لرحلات الرهبان إلى المناطق الغربية لدراسة البوذية، ولذلك أصبح الرهبان يذهبون إلى هذه المناطق في مجموعات وأفواج. وكانت أكبر مجموعة من الرهبان في عام 966م، تضم مائة وسبعة وخمسين راهباً، وبدأت رحلتها من محافظة وو دو في مقاطعة قانصو اليوم، واجتازت المناطق الغربية حتى وصلت إلى الهند، ومكث أفرادها هناك لفترات زمنية متباينة، حيث

مكث بعضهم عشرات السنين حتى عادوا إلى بلادهم. وتجدر الإشارة بنا إلى أن انتشار الدين والتبادل يمثلان قناة مهمة في الاتصالات والدراسات في التبادل الثقافي بين الأمم في كافة أنحاء العالم. ونظراً لأن الفلسفة الدينية تشتمل على العديد من الموضوعات المهمة المتعلقة بالمجالات الحياتية، وتحوي جوهر الثقافة القومية، ومن ثم، فإن تأثير هذه الفلسفة كان عميقاً وهائلاً أيضاً، ولا يستطيع الناس تقديره وتقييمه. وأثبت التبادل بين الديانة الأجنبية والبوذية الصينية هذه النقطة بما لا يدع مجال للشك.

(4) اليابان ترسل سفارات وطلاباً إلى الصين في أسرة تانغ

ذكر تشو يه ليانغ في كتابه «تاريخ العلاقات الثقافية الصينية– اليابانية» أن: «أكثر الأمثلة التي تستطيع تجسيد التعليم المتبادل والتأثير المتبادل في تاريخ التبادل الثقافي بين الصين والبلدان الأجنبية هو الصين واليابان التي تتاخمها ويفصلها عنها شريط مائي». وفي الواقع، إن التبادل بين الدولتين الصين واليابان بلغ قمة الازدهار في عصر أسرتي سوي وتانغ. وكانت الصين تتبوأ مكانة متقدمة في مرحلة التطور الاجتماعي آنذاك، وكان الاقتصاد والثقافة ينعمان بالتطور الكبير في الصين في عهد أسرة تانغ، وكانا لا يزالان يتقدمان على «إصلاح ميجي» في اليابان، والتطور الاجتماعي الياباني يقبع خلف الصين. ولذلك، في التبادل بين الصين واليابان، أخذت الأخيرة بزمام المبادرة والإيجابية، واستوعبت الثقافة الصينية بنهم وشغف شديدين، كما أرسلت السفارات والطلاب والرهبان من ذوي المعارف الواسعة إلى الصين لاكتساب العلوم والمعارف الصينية. وفي أسرة سوي، أرسلت اليابان خمس سفارات، وكان المبعوث الياباني الخاص قاوشيانغ شوانلي وغيره من المتخصصين في دراسة وبحث البوذية في الصين. وفي أسرة تانغ، وفي غضون أكثر من مائتي سنة في الفترة من 630م إلى 834م، أرسلت اليابان ثماني عشرة سفارة إلى أسرة تانغ (تذكر بعض المعلومات تسع عشرة سفارة) من بينها ست عشرة سفارة (بعض المعلومات تذكر خمس عشرة سفارة) وصلت إلى الصين. وكانت السفارة تتألف من نائب السفير، والرهبان، والطلاب، والحرفيين من شتى المهن الحرفية، وكان عدد أعضاء السفارة في كل مرة يبلغ نحو مائتين وخمسين فرداً، زاد عددهم إلى خمسمائة تقريباً. ووصل عدد أكبر سفارة ستمائة وواحد وخمسين عضواً، وكانت

تقلهم سفينتان في البداية، ثم زادت إلى أربع سفائن. وكانت تقنية الملاحة البحرية متخلفة جداً. في اليابان وقتئذ، حتى لم تتقن كيفية الإفادة من موسم هبوب الريح في تقنية الملاحة البحرية، ولذلك، كانت كل سفارة يابانية تأتي إلى الصين تتكبد تضحيات جسيمة، وتذكر وثائق أن أكثر من خمسمائة شخص فقدوا حياتهم كانوا من أعضاء هذه السفارات، ولكن في سبيل دراسة الثقافة الصينية تدثروا بالصبر والمثابرة ولم يبخلوا بحياتهم، وبعد أن جاؤوا إلى الصين، التحق معظمهم بمدارس قوشي (الحكومية) وتتلمذ الرهبان المثقفون على أيدي أساتذة صينيين في كافة المجالات، واهتموا بدراسة مبادئ وقواعد البوذية، وكانت المواد التعليمية التي يدرسونها في الصين تشتمل على نظام الآثار التاريخية والأنظمة الأخرى، وأسلوب الحياة، والعادات والتقاليد الاجتماعية، والفنون والآداب وسائر المجالات الأخرى، وبعد أن عادوا إلى بلادهم، اعتبروا إصلاح ميجي فترة حاسمة ونقطة تحول في عصر النانو، وجعلوا اليابان تنفذ نظام السلطة المركزية وشهدت المجتمع الإقطاعي. وأحرز بعض الطلاب اليابانيين الدارسين في الصين إنجازات باهرة وقدموا إسهامات من أجل تطوير المجتمع الياباني مثل نانيوان تشينغآن، وقاو شيانغ شوانلي وغيرهما من الذين قلدوا نظام المربعات التسعة في الصين، وساهموا في نجاح الشخصيات الرئيسية في «إصلاح ميجي»، مثل جيبي تشينبى، وكونغ هاي وغيرهما التسعة الذين استعانوا بالرموز الصينية وابتدعوا كانا اليابانية (الحروف اليابانية المستعارة من الصينية)، وقدموا إنجازات مباشرة في الإصلاح الياباني. ونقل جيبي تشينبي نوعاً من الشطرنج الصيني المحلي يدعى «ويتشي» إلى اليابان. وكان شانفو يكن احتراماً وتقديراً لكونفوشيوس ونقل طقوس تقديم القرابين له إلى اليابان. وهناك بعض الطلاب اليابانيين الدارسين في الصين الذين مكثوا فترة طويلة مثل آبيبي تشونغ ماليه (اسمه الصيني تشاو هينغ) الذي جاء إلى الصين في أسرة تانغ مع السفارة اليابانية الثامنة، وأتم دراسته في مدينة تشانغآن، وحظي بالقبول في الفحوص الإمبراطورية، وحقق نتيجة ممتازة وأصبح من الناجحين على مستوى الناحية، وعمل رئيساً للمكتبة الوطنية. وأسس علاقة وطيدة وصداقة حميمة مع الشاعرين الكبيرين لي باي، ووانغ وي، وفي غضون ذلك، ركب تشاو البحر عائدا إلى بلاده، وقبيل سفره، كتب الإمبراطور شوان زونغ والشاعر وانغ وي قصيدة في وداعه. ومن سوء الطالع، إن سفينته تعرضت لأهوال البحر وانقلبت،

ولكن تشاو نجا من الموت بأعجوبة، واعتقد الشاعر لي باي أنه ودع دنيانا وكتب قصيدة بعنوان «البكاء على تشاو هينغ» جاء فيها: «غادر صديقنا تشاو العاصمة تشانغآن، ومخرت سفينته عباب البحر بعيداً، ليزور مسقط رأسه الذي غاب عنه ردحاً طويلاً، ولكن تلاطمت أمواج البحر، وحدقت بسفينته المخاطر! ورحل صديقي الحميم في أحضان البحر، مثل القمر الوضاء الذي غاص في أعماق البحر ولن يعود أبداً، وتكتسي السحب البيضاء بالحزن الشديد فوق جبل تشانغوو في بحر الشمال الشرقي». وأصبحت هذه القصيدة قمة شعرية على مدى الدهر في الوشائج الودية التي تربط بين الصين واليابان.

(5) الملاح المسلم تشينغ خه يجوب العالم الغربي

من أهم الأحداث الكبرى التي شهدها تاريخ الاتصالات بين الصين والعالم الخارجي أعمال «الملاح تشينغ خه يجوب العالم الغربي» في عصر أسرة مينغ. وفي الفترة من 1405 – 1433، أرسل الإمبراطور جودي، ونظيره تشو تشين في هذه الأسرة الملاح تشينغ خه ومساعده وانغ جينغ هونغ على رأس أسطول بحري ضخم جاب أطراف العالم سبع مرات بعد أن رفعا شراع المراكب، وأبحرا بعيداً عن الصين. وقد انطلق هذا الأسطول من ميناء ليوجيا في صويتشو (بلدة ليوخه في محافظة تاي تسانغ في مقاطعة جيانغصو اليوم)، واجتاز الجزء الجنوبي في فيتنام، وجاوه، وسومطرة، وسيرلانكا، حتى وصل إلى الساحل الغربي الهندي، وأبعد محطة بحرية وصل إليها هذا الأسطول كانت البحر الأحمر والصومال وكينيا على ساحل البحر الشرقي في أفريقيا. وذكر كتاب «تاريخ أسرة مينغ» أن عدد قطع الأسطول البحري بقيادة تشينغ خه كانت مختلفة في كل مرة، وأضخم أسطول قاده كان يتكون من أكثر من مائتي سفينة متباينة الأحجام، من بينها سفينة تعد الأكبر ويبلغ طولها أربعة وأربعين تشانغاً (ثلاثة أمتار وثلث المتر)، وعرضها ثمانية عشر تشانغاً، وقدرتها الاستيعابية تتسع لأكثر من سبعة وعشرين ألفاً وثمانمئة من الموظفين والقوات، من بينهم الحرفيون، والجنود، والأطباء، والمترجمون والتجار. وفي كتابه المعنون بـ«تاريخ الدول الأجنبية الغربية» ذكر فانجين الذي اصطحب تشينغ خه في رحلة بحرية –ذكر أنهم: «استقلوا سفناً شامخة ومهيبة وضخمة، ولا يمكن مضاهاتها، وتحتوي كل سفينة على ظليلة وشراع ودفة، ولا يستطيع مائتان أو

ثلاثمائة فرد تحريكها». ومثل هذا الأسطول الضخم يمخر عباب البحار والمحيطات، ويمتد على مدى البصر في المحيطات الواسعة العظيمة، ويقطع مسافات بعيدة بصورة متواصلة، ويبدو منظره مهيباً وجليلاً. وكان حجم الأسطول ضخماً، وأفراد طاقمه كبيراً؛ وتنظيمه صارماً، ورحلته البحرية طويلة جداً، ولم يسبق له مثيل ليس في تاريخ الشحن البحري الصيني في القرن الخامس عشر فقط، بل وفي تاريخ الشحن البحري في العالم في ذلك الحين. وتشينغ خه (1371 – 1435م) لقبه ما (محمد)، واسم الطفولة (سانباو)، من أبناء قومية هوي المسلمة، ومن أهالي محافظة جين نينغ اليوم في مقاطعة يونان في جنوب الصين، سافر أبوه وجده إلى الأراضي المقدسة الإسلامية في مكة لتأدية فريضة الحج، ولذلك تمتع منذ صباه بمعرفة أحوال البحار والمحيطات، وكان من خصيان القصر في مطالع أسرة مينغ، وأحرز مآثر عسكرية في تعبئة الجنود وإخماد التمرد والعصيان في عهد الإمبراطور جودي، ولذلك منحه الإمبراطور لقب تشينغ، وأصدر أمراً بترقيته إلى مسؤول خصيان القصر، وحظي بثقة ومؤازرة هذا الإمبراطور الذي اعتمد عليه كثيراً، وكلفه بالمهام الدبلوماسية الصعبة في خارج البلاد. وتفيد سجلات معلومات تاريخية وأبحاث دارسين أن الأسطول الذي قاده تشينغ خه زار أكثر من خمسين دولة، مثل الدول التي في كل من شبه الجزيرة الهندية، ودول شبه جزيرة الملايو، والدول في جنوب آسيا الشرقية، ودول شبه الجزيرة العربية، ودول ساحل البحر الشرقي في أفريقيا. والأنشطة البحرية التي قام بها أسطول تشينغ خه عززت المكانة الدولية لأسرة مينغ بشكل أكبر، وأقامت علاقات سياسية وتجارية مع كافة الدول التي زارها الأسطول. ونقل الأسطول البحري للملاح تشينغ خه المنتجات المحلية الصينية إلى البلدان الأجنبية مثل: القماش المقصب، والديباج، والشبيكة، والحرير والساتان، بالإضافة إلى جميع أنواع الأدوات البرونزية، والفخار والخزف، والمسك، والذهب والفضة، وفي المقابل نقل هذا الأسطول منتجات البلدان الأجنبية إلى الصين عبر المحيط الهندي مثل المجوهرات، الأدوية، الأصباغ، الأقمشة القطنية، ناهيك عن البخور، والمرجان، وسن الفيل، والأحجار الكريمة واللؤلؤ. لقد أوجد تشينغ خه عالما جديداً وأحرز مآثر عظيمة، ودفع التبادل الثقافي بين الصين وجميع دول أرخبيل الملايو، ووضع إرهاصات مكانته التاريخية باعتباره ملاحاً عظيماً. وفي الوقت الحاضر، لا تزال آثاره ومآثره موجودة في شتى بقاع أرخبيل الملايو؛

حيث يوجد جبل سانباو (تشينغ خه)، ومعبد سانباو، وبئر سانباو على مقربة من ميلكا في ماليزيا، ومدينة سانباو في جزيرة جاوه في إندونيسيا.

(6) العِلْم الغربي ينتشر في الشرق، والعِلْم الشرقي ينتشر في الغرب

يجب القول إن الاتصال بين الشرق والغرب، ولاسيما الاتصال بين الصين وأوروبا، قد بدأ قبل أن يجوب الملاح تشينغ خه البحار والمحيطات في الغرب. ويعد ماركو بولو من مدينة البندقية الإيطالية شخصية رائدة في هذا المجال في أسرة يوان الصينية. وتذكر سجلات ودراسات معنية أن تاجر البندقية ماركو بولو Marco Polo (1254 – 1324) وأبَاه وعمه حضروا إلى الصين في عام 1275م، واستقبلهم قوبيلاي خان في منطقة منغوليا اليوم، ومكث في الصين عشرين عاماً، وبعد أن عاد إلى بلاده، وقع في الأسر إثر حرب نشبت مع بعض التجار، وزُج به في غياهب السجن في جنوا، وفي سجنه أملى على رفيقه في المحنة روستيتشيللو البيزوي مشاهداته وأخبار رحلته في الشرق، وظهر ذلك في المؤلف الشهير «رحلة ماركو بولو» الذي يعتبر أول كتاب قدم الصين إلى الغربيين بصورة تفصيلية منذ فجر التاريخ. وطبعاً، هناك أناس يشككون في حقيقة هذا الكتاب، ويرتابون في أن ماركو بولو وصل إلى الصين، ولكن الجزء الأكبر من مشاهدات وأوصاف الكتاب تتوافق مع الأحوال في ذلك الحين. ومن ثم، لا نزال لا نستطيع نبذ المآثر العظيمة الرائعة التي قدمها هذا الرحالة الإيطالي ماركو بولو.

وفي أسرة مينغ، وبعد أن أبحر الملاح الصيني تشينغ خه في محيطات الغرب، أصبح كل شيء في عالم الملاحة البحرية العربية نادراً وجديداً بفضل الأسطول الصيني والتقنية الصينية، وفي الوقت نفسه، عمل ذلك على تحفيز الاتصالات بين دول أوروبا وتجار البندقية، مما أدى إلى تقديم تنوير جديد في تصميم السفن في أوروبا، وقاد ذلك إلى تحقيق عجائب في الملاحة البحرية على أيدي كولمبس وماجلان. ولذلك، بدأ المستعمرون الأوروبيون انتهاج سياسات استعمارية واسعة النطاق تجاه الشرق، واستعان بابا روما بالبوارج الإسبانية والإيطالية، وأسس رهبانية اليسوعيين، وأرسل مبشرين، وشدد قبضته السلطة الدينية التوسعية تجاه الشرق. وانتشر العلم الغربي، والتقنية الغربية، والأفكار الغربية في الصين بفضل رحلات

المبشرين اليسوعيين إلى الشرق. وكان الراهب الإيطالي ماتيو ريتشي رائد هؤلاء المبشرين ومؤسس هذه الحملات التبشيرية.

وصل ماتيو ريتشي (1552– 1610) Matthaeus Ricci إلى الصين في عام 1582م، ودَرَس اللغة الصينية أولاً في مكاو، وفي العام التالي انتقل إلى مدينة جاوتشينغ، وحصل على تصريح بناء كنيسة، وبدأ نشر الدين المسيحي، وأقام اتصالات مع كبار موظفي الدولة من كافة الطبقات والفئات والشخصيات الاجتماعية المرموقة، وقام بشرح وتفسير الآثار التاريخية والأنظمة الأوروبية، كما قدم المعارف الغربية في الفلك، والرياضيات، والفيزياء والكيمياء، وعرض في بيته الساعات الدقاقة، والخرائط، والموشور الثلاثي، والبلانيتاريوم (جهاز يُظهر حركات الشمس والقمر والكواكب السيّارة والنجوم بتسليط النور على داخل قبة) حتى يتفرج عليها الناس، واضطلع بدور رائع في الدعاية والإعلان. وفي عام 1589م، وصل ماتيو إلى مدينة شاوتشو، ولم يدخر وسعاً في إقامة علاقات حميمة مع المسؤولين والوجهاء والأعيان، واطلع على المؤلفات الكونفوشيوسية المقدسة، وارتدى الأزياء الكونفوشيوسية، واتبع الآداب والمراسم والطقوس الكونفوشيوسية، وذلك في محاولة من جانبه تمهيداً لدخول العاصمة بكين. وفي عام 1601، وصل ماتيو إلى بكين في نهاية المطاف، واستقبله الإمبراطور شين زونغ في أسرة مينغ آنذاك، وقدم المبشر اليسوعي هدايا غربية للإمبراطور من الكتاب الكاثوليكي المقدس، والتماثيل الكاثولوكية، وساعة دقاقة، وخرائط، والبيانو الغربي، وحصل على الموافقة على بناء كنيسة في داخل الحي السكني بوابة شوان وو في قلب بكين من أجل التبشير بالدين المسيحي.

ورفع ماتيو ريتشي راية احترام الكونفوشيوسية أثناء وجوده في بكين، واعتبر كتاب «فقه الكاثولوكية» بمثابة المرجع المسيحي، وبذل قصارى جهده للاضطلاع بالأنشطة الدينية لنشر المسيحية، وعندما عاجلته المنية في بكين، كان عدد مريديه أكثر من ألف وخمسمائة فرد. واهتمت نشاطاته التبشيرية باستيعاب الثقافة التقليدية الصينية، ودمج المذهب الكونفوشيوسي ونظيره الكاثولوكي في وحدة عضوية واحدة، ومن ثم أثر تأثيراً هائلاً على نطاق واسع في صفوف المثقفين والمسؤولين الحكوميين والأعيان والوجهاء في أسرة مينغ الحاكمة. وكان شيوه قوانغ تشي، ولي جي زاو، ويانغ تينغ جون يمثلون الشخصيات المرموقة في البلاط

الحاكم وعامة الشعب الذين تعمدوا وأصبحوا الركائز الثلاث الكبرى للكاثولوكية في الصين في أواخر أسرة مينغ. وترجم شيوه قوانغ تشي وماتيو ريتشي كتاب «مبادئ الهندسة المستوية» لعالم الرياضيات اليوناني إقليدس Euclid، وقام لي جي زاو وماتيو ريتشي بدراسة الجغرافية والتقويم. وشهدت عملية تحرير وترجمة مؤلفات العلوم الشهيرة، اضطلاع الطرفين بتبادل المنجزات العلمية الصينية والغربية، والربط بين التقاليد الأكاديمية في الصين والعالم الغربي، وفتحا آفاقاً جديدة للتبادل الثقافي بين الصين والغرب. ولقي ماتيو حتفه في بكين في العام 1610، ووري جسده الثرى في أرليقو في بكين، ويقع قبره في داخل مدرسة لجنة الحزب في مدينة بكين اليوم. وبعد ذلك، حصل المبشرون اليسوعيون: Nicolaus Longobardi, Johann Adam Schall Von Bell, Francesco Sambiaso, Julio Aleni على الهوية الشرعية تباعاً، وتولوا وظائف في البلاط الإمبراطوري، وظفروا بالترشح والضمان الشخصي من جانب شيوه قوانغ تشي، وشاركوا في تنقيح التقويم السنوي وصناعة الأسلحة. وبعد تأسيس حكومة أسرة تشينغ الحاكمة، حظي المبشر الألماني Johann Adam Schall Von Bell بالثقة والقبول، وأصبح أول أجنبي في حكومة تشينغ الحاكمة يتولى وظيفة الإشراف على الديوان المختص بالإشراف على التقويم الفلكي، وحصل على لقب دافو (من كبار الموظفين) ثم تولى من بعده هذه الوظيفة المبشر البلجيكي Ferdinand Verbiest، الذي قام بالإشراف أيضاً على صناعة الأجهزة والأدوات الفلكية، وتولى بعض المبشرين وظائف في القصر الإمبراطوري، فكان منهم طبيب الإمبراطور، والرسام، والصيدلاني، والساعاتي وغيرهم من أصحاب الوظائف الأخرى، وقدموا إنجازات جديرة بالاعتبار من أجل دفع تطوير العلوم والتقنيات في الصين إلى الأمام.

وكان التبشير بالمسيحية بمثابة الهدف الرئيسي لجميع المبشرين الذين جاؤوا إلى الصين من كافة الدول الغربية، ومن أجل هذا الهدف، درسوا اللغة الصينية، والكتابة الصينية، والكتب الكلاسيكية الصينية، وفهم المجتمع الصيني، ومسايرة العادات والتقاليد الصينية، ولذا ظفروا بالتأثير التدريجي للثقافة الصينية. وفي ضوء هذه الشروط الأساسية، قدموا الثقافة الصينية والمعلومات الأكثر دقة عن الصين لبلادهم ولأوروبا بأسرها أيضاً ففي المقام الأول، ترجم ماتيو ريتشي الكتب الأربعة (رسالة العالم الكبير، رسالة المحجة الوسطى، كتاب

الحوار، كتاب منقوشيوس) إلى اللغة اللاتينية في العام 1593م، كما ترجم الفرنسي Nicolas Trigault أُمهات الكتب الخمس (كتاب الأغاني، كتاب التاريخ، كتاب تقلبات الزمن، كتاب الطقوس، وحوليات الربيع والخريف) إلى اللغة اللاتينية ونشرها في صحيفة هانغتشو. وبعد ذلك، نشر البلجيكي Philippus Couplet كتاب «الفيلسوف الصيني كونفوشيوس» في باريس في العام 1687م. وانطلاقاً من الترجمة وتقديم أحوال الصين، نشر المبشرون الغربيون المؤلفات ذات القيمة البحثية الغالية تباعاً، ومثال ذلك، كتاب «الأفكار الأساسية في كتاب التغيرات» للباحث الفرنسي Joa Chim Bouvet، وكتاب «تعليقات على الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية» للباحث الغربي Joseph De Prenare، وتزامن مع تقديم الكلاسيكيات الصينية، اهتمام المبشرين بتاريخ الحضارة الصينية بشكل أكبر، ثم بدأت تظهر المؤلفات التي تقدم التاريخ والجغرافيا في الصين بصورة تدريجية. وكان الإسباني Juan Gonzalez De Mendoza في طليعة هؤلاء المبشرين، ونشر كتاب «تاريخ الإمبراطورية الصينية» باللغة الإسبانية في روما في العام 1585م، ثم الإيطالي Martino Martini الذي نشر كتاب «تاريخ الصين»، وكتاب «تاريخ الصين العام» للباحث الفرنسي Joseph De Moyria De Maillac، ثم ألف الباحث الفرنسي Jean Baptistedu Halde، كتاب «تاريخ الإمبراطورية الصينية» ونشره في باريس في العام 1735، وأصبح مؤلفاً مشهوراً وبمثابة دائرة معارف ينهل منها الأوروبيون في دراسة الصين؛ فالمجلد الأول من هذا الكتاب يسرد التسلسل الزمني للأسر الحاكمة في كل مقاطعة صينية، وشرح جغرافية كل مقاطعة أيضاً، والمجلد الثاني يبحث السياسة والاقتصاد والتعليم في الصين، أما المجلد الثالث فيقدم الأدب والأخلاق والأدوية في الصين، ويبحث المجلد الرابع القوميات: مان، منغوليا، التبت، كوريا على وجه الخصوص. كما يشمل هذا الكتاب مسرحية «اليتيم تشاو» التي هزت أرجاء أوروبا.

والصين تقع في الشرق الأقصى، وهي دولة كبيرة تتمتع بالثقافة المشرقة ذات الصفات والمزايا التي تتباين بصورة كاملة عن جميع الدول الأوروبية، وبعد أن قام المبشرون بتقديم أحوالها للغربيين، أصبحت المصدر الروحي الذي ينهل منه علماء حركة التنوير في أوروبا. إن الفلسفة الكلاسيكية الصينية، والمذهب الكونفوشيوسي، والمذهب الطاوي، والمبادئ الأساسية لعلم التقنيات في أسرتي سونغ ومينغ، أثرى ذلك كله بصورة كبيرة أفكار الفيلسوف

الفرنسي ديكارت ونظيره فولتير، والفيلسوف الألماني ليبنتز Leibnitz الذي كتب في مقدمة كتاب «الأحوال الراهنة في الصين» قائلاً: «إننا منذ زمن بعيد، لا يوجد بين ظهرانينا من يصدق أن في العالم توجد أمة نظامها الأخلاقي أكثر كمالاً من نظامنا، وطريقها في تثبيت أقدامها ومعالجة شؤونها أكثر تقدماً من طريقنا، والآن تأتي الصين من الشرق، وتجعلنا ننهض من سُباتنا العميق». ويقدم مقارنة مناسبة بين الثقافتين الغربية والصينية، ويقول: «تكمن مزايا الثقافة الأوروبية في علوم الرياضيات والتحليل العقلي، وبعبارة أخرى، تكمن هذه المزايا في المجال العسكري، الصين تختلف عن أوروبا في هذا الخصوص، ولكن في مجال الفلسفة العملية، يختلف الأوروبيون اختلافاً كبيراً عن الصينيين». ثم جاء الفيلسوف الألماني لودفيغ فويرباخ (1804– 1872) وذكر أن: «الصين كانت الدولة الوحيدة التي حققت الاندماج بين السياسة والأخلاق. والتاريخ عميق الأغوار لهذه الإمبراطورية جعل جميع الحكام الصينيين فيها يدركون أنهم يجب عليهم أن يجعلوا بلادهم مزدهرة، ويتعين عليهم الاعتماد على الأخلاق». وانطلاقاً من ذلك، انتشرت ظاهرة في أوروبا لحين من الوقت هي الإعجاب بالصين، كما أن فن الرُّكُوك Rococo الذي انتشر لفترة زمنية استوعب الأسلوب الصيني في الفن المفعم بالحيوية والجمال والروعة واستلهام المناظر الطبيعية، وانتشرت في المجتمع الأوروبي على نطاق واسع المنتجات الصينية من الشاي، والفخار والخزف، والحرير، والمطرزات، ويعد ذلك تجسيداً لانتشار الثقافة الصينية في أوروبا، وأثرت الشخصيات الصينية، والمناظر الطبيعية من الأنهار والجبال في الصين، أثرت في الرسامين الأوروبيين، كما ظهر في بيوت الأوروبيين فن الحدائق الصينية من المقاصير، وأبنية لوقو، ومناظر البحيرات والجبال. وزبدة القول، عندما نقل المبشرون الأوروبيون العلوم والثقافة الغربية إلى الصين، تزامن ذلك مع نشر العلوم والثقافة الصينية في أوروبا. وربما المبشرون في ذلك الحين كانوا يركزون على التبشير بالمسيحية، ولم يخطر ببالهم مهما كانت الأحوال، إن أنشطة التبشير التي اضطلعوا بها أوجدت التبادل والاندماج بين الثقافتين الصينية والغربية، كما أدت إلى تحقيق التفاهم والاتصال اللذين لم يسبق لهما مثيل بين الشعب الصيني وشعوب الدول الأوروبية. ويعد ذلك في حد ذاته من إسهامات المبشرين الأوروبيين التي يجب أن يتذكرها تاريخ ثقافة البشرية، كما يتعين على الصينيين ألا يغيب عن ذاكرتهم هؤلاء المبشرون.

ملاحـــق

الملحق الأول: التشوق والمتعة في الثقافة الصينية

أولاً: الأبراج الثلاثة المشهورة والأدب الكلاسيكي الصيني

يحظى برج يويانغ في مقاطعة خونان، وبرج هوانغ خه في مقاطعة خوبي، وبرج تينغ وانغ في مقاطعة جيانغشي بالشهرة في جنوب حوض تشانغجيانغ في الصين باعتبارها الأبراج الثلاثة الكبرى المشهورة في البلاد (ونشير إليها باسم الأبراج الثلاثة في الصفحات التالية). ويتمتع أقدم برج من هذه الأبراج بتاريخ أكثر من ألف وسبعمائة سنة إذا حسبنا عمره الزمني بدءاً من تاريخ إنشائه. وعلى الرغم من أن هذه الأبراج شهدت تقلبات الزمن الهائلة في غضون أكثر من ألف سنة من الازدهار والانكسار مرات عديدة، وأحياناً اندثارها حتى أصبحت أطلالاً دوارسَ، بيد أنها تتحلى بمعالمها وملامحها الخاصة والمميزة وقوتها الساحرة، وجذبت عدداً لا يحصى من الزائرين والسائحين قديماً وحديثاً، وجعلت هؤلاء الشعراء والمثقفين، الذين يصعدونها ويشرفون منها على آثار قديمة ويقفون على الأطلال، يقرضون الشعر من أجلها، وأصبحت منصة الإبداع الرائعة التي تتمتع بنكهة خاصة ومميزة في تاريخ الأدب الصيني، وتركت أثراً عميقاً وهائلاً في ازدهار الثقافة الصينية وتطورها. وفي الوقت الحاضر، إن إعادة ترميم برج يويانغ، وإعادة تشييد برج هوانغ خه، وبرج تينغ وانغ قد عكس مشاعر الناس العميقة تجاه الثقافة القومية مرة أخرى، وحفَّز سعيهم المحموم وراء الأشياء الجميلة والمستقبل المشرق. وهذه المقالة هي محاولة –من منظور جديد– لاستكشاف مكانة وتأثير الأبراج الثلاثة في تاريخ الثقافة الصينية، ويقوم ذلك البرهان على أن الثقافة القومية لدى الصينيين تتمتع بالقوة الكامنة الوطيدة المستمرة بلا انقطاع.

ازدهار أشعار الأبراج الثلاثة

يوجد في الصين الكثير من الأبنية القديمة منذ القدم حتى يومنا هذا، ومثال ذلك بناية جينغ يانغ (في نانكين مقاطعة جيانغصو اليوم)، وبناية يانتسي (في ولاية شيوه في مقاطعة جيانغصو)، وبناية وانسوي (في نهر تشين بمقاطعة جيانغصو)، وبناية بايونغ (في جينبهوا

مقاطعة تشجيانغ اليوم)، وبناية سانهوا (في تشينغدو في مقاطعة سيتشوان)، وبناية داقوان (في كونمينغ مقاطعة يونان)، وبناية قوان تشيوه (في يونغ جي مقاطعة شانشي)، وبناية فيي يوان، وبناية تشيو فينغ (في وانرونغ في مقاطعة شانشي) وغيرها من الأبنية الأخرى التي لا يمكن مضاهاة مكانتها وتأثيرها في تاريخ الأدب الصيني بالأبراج الثلاثة المذكورة أعلاه، وذلك بصرف النظر عن وجودها أو تدميرها أو تحطمها في الوقت الحاضر، وكذلك أياً كانت عظمتها وروعتها وأحداثها المجيدة ومآثرها. ويمكن أن ندرك بعض الحقائق التالية انطلاقاً من السجلات الوثائقية ودواوين الشعر عبر التاريخ:

(1) في غضون آلاف السنين منذ أسرتي تانغ وسونغ، كانت هذه الأبراج الثلاثة بمثابة المقاصير التي شهدت ازدهار الأنشطة الأدبية بصورة مطردة، وتدفقت الأعمال الشعرية المتعلقة بهذه الأبراج الثلاثة، وشكّلت الأعمال الأدبية الخالدة المشهورة منذ آلاف السنين، وظهرت سلسلة الأعمال الخاصة بهذه الأبراج، ويعد ذلك ظاهرة نادرة في تاريخ الأدب الصيني، كما يعتبر ظاهرة فريدة ومتميزة في تاريخ الأدب العالمي أيضاً.

وكان المثقفون –منذ زمن بعيد– في المجتمع الإقطاعي يحتسون الخمر ويقرضون الشعر، وانتشرت العادة الشائعة من احتساء الخمر وقرض الشعر للتسلية والترفيه. ونعرف منذ تاريخ عميق الغور نسبياً أن الملك يو وو في أسرة هان الغربية شيد حديقة ليانغ، وكان يدعو بصورة جماعية ثُلة من الشعراء والمثقفين لاحتساء الخمر والشعور بالغبطة الغامرة، وعلى رأسهم الشاعر ميي تشينغ، وسيما شيانغرو، ناهيك عن اضطلاع رئيس الوزراء تساو تساو ونجله بتأسيس المجموعة الأدبية جيانآن باعتبارها مركزاً يحتشد فيه الأدباء والمثقفون؛ حيث كان «الأدباء والمثقفون يطوفون ويتجولون، ثم يتوقفون ويجلسون على مقاعدهم، وتدور بينهم كؤوس الخمر، وتعزف الموسيقى، ويحتسون الخمر حتى تحمر وجناتهم، ثم يرفعون رؤوسهم إلى أعلى، ويقرضون الشعر»[1]. ومنذ أسرتي تانغ وسونغ، انتشرت هذه العادة انتشاراً واسعاً، واعتاد المثقفون والدارسون الصعود إلى المقاصير والأبنية الشاهقة، واحتساء الخمور معاً، والتعبير عن أفراحهم وأتراحهم، وكانت الأبراج الثلاثة بمثابة الساحة التي شهدت الأنشطة المحمومة من احتساء الخمر وقرض الشعر. ومعظم الأشعار المتعلقة

(1) تساو بيه: «خطاب إلى وو جي».

بالأبنية العتيقة كانت ثمرة هذه الأنشطة. إن صعود المثقفين الأبراج الثلاثة أو إقامة الولائم الجماعية أو احتساء الخمر وقرض الشعر بصورة منفردة، أبرز ذلك الطابع الصيني الخاص والمميز في أنشطة الإبداع الأدبي في هذه الأبراج. وندرك من سجلات وثائقية أن أنشطة الخمر والشعر في هذه الأبراج كانت تشتمل -بصفة عامة- على الأحوال الثلاثة التالية: **أولاً**: احتساء الخمور بصورة أساسية، والشعر يشجع على الشراب، ويحدث ذلك دائماً في أنشطة الاحتفال بالمناسبات السعيدة، ويكون جو الاحتفال مفعماً بالسعادة والغبطة بدرجة كبيرة. ومثال ذلك الشاعر وانغ بو، الذي يعتبر من الشعراء الأربعة البارزين في أوائل أسرة تانغ، شارك في مأدبة فخمة بمناسبة عيد تشونغ يانغ (في اليوم التاسع من الشهر التاسع القمري الصيني) أقامها الحاكم العام لولاية هونغ تشو (نانتشانغ في مقاطعة جيانغشي اليوم) في برج تينغ وانغ، وفي الواقع أن من أهم أنشطة هذا الشاعر قصيدة خالدة في تاريخ الأدب الصيني، وكان عنوانها «افتتاحية وداع صديق في برج تينغ وانغ في ولاية هونغ في الخريف». **ثانياً**: الخمر والشعر يحظيان بالاهتمام المزدوج، حيث يبددان الهموم ويحدثان انفراجه في النفس. وأكثر الأمثلة بروزاً في هذا الصدد الشاعر تشانغ يوه في أسرة تانغ. وتذكر سجلات تاريخية أنه في العام 716م، تدنت مكانته، ورحل إلى ولاية يو (يويانغ في مقاطعة خنان اليوم)، وشيد هناك بناية نان (برج يويانغ)، وكان يصطحب نجله تشانغ جون، والشاعرين تشاو دونغ شي، وين ماو؛ وصعدوا هذا البرج يحتسون الخمر وينظمون قصائد جوابية، ويتمتع كل واحد منهم بأعماله الشعرية، وجعلوا برج يويانغ يحظى بالشهرة في كافة الأنحاء. وهنا لا نستطيع أن نعرف أيهما الرئيسي، وأيهما الثانوي، الشعر أم الخمر؟ فالشعر يبدد القلق والهموم، بينما الشعر يعبر عن مكنون النفس، وكلاهما تجمعهما علاقة وثيقة لا تفك عراها. ويضطلع بهذه الأنشطة في الأبراج الثلاثة المثقفون الذين خاب أملهم وفشل رجاؤهم. **ثالثاً**: الشعر هو الهدف الرئيسي، والخمر وسيلة ثانوية. ويكون ذلك دائماً عندما يلتقي المثقفون والأدباء. ومثال ذلك، جمعية المثقفين في نانتشانغ في أواخر أسرة مينغ، وكان مركز نشاطها في برج تينغ وانغ، وكانوا ينظمون القصائد ويكتبون المقامات، ويعلقون على الوضع السياسي القائم، ولا يكمن هدفهم الرئيسي في شرب الخمر، وذكر كتاب «تكملة ديوان برج تينغ وانغ» في أسرة مينغ أنه في اليوم الثاني من الشهر الثالث في العام

1634م، كان الشاعر شويوه جينغ يترأس جمعية «برج تينغ وانغ» التي بلغ عدد أعضائها اثنين وعشرين عضواً يجتمعون في هذا البرج، وينظمون القصائد حسب الأوزان والقوافي التي يتقاسمونها، وتغمرهم السعادة وهم يكتبون قصائدهم بريشة صينية، وازدهرت قصائدهم بصورة لم يسبق لها مثيل. ولكن احتساء الخمر ونظم القصائد في الأبراج الثلاثة لم يقتصر على المثقفين فقط. وتأثرت الأجيال بهذه العادة الشائعة عبر عصور التاريخ، مما جعل الملوك والوجهاء، والقادة العسكريين، وزعماء المزارعين يرغبون أيضاً في الولوج إلى الأبنية الشامخة وممارسة الإبداع الأدبي. وفي ربيع الشهر القمري الأول في العام 1362، قوات الإمبراطور جويوان جينغ دحرت قوات تشين يوليانغ، وتوغلت في مدينة نانتشانغ، وأقام الإمبراطور مأدبة ضخمة ابتهاجاً بالنصر في برج تينغ وانغ، وأطلق سراح الغزال الأبيض في مقاطعة شنشي وكان يربيه تشين، وأمر المثقفين والرعية بأن يصعدوا البرج وينظمون قصائد. وعلى الرغم من أن ذلك يعتبر نشاطاً سياسياً مهما، بيد أنه يشتمل على العادة التقليدية من ممارسة الإبداع الأدبي. وكذلك في مطالع أسرة تشينغ، ذكر وو وي يه في كتابه «تاريخ مختصر تهدئة الأعداء» أنه في العام 1643، ذهب زعيم الفلاحين تشانغ شيانغ تشونغ إلى نانتشانغ، وكان يتذوق الشعر في برج هوانغ خه، وأمر أتباعه بأن ينظموا قصائد الشعر»، وما يثير الأسى في نفوسنا، إن أشعار زعماء الفلاحين اندثرت ولم تتوارثها الأجيال، ولكن مثل هذا السجل يوضح أن الأبراج الثلاثة تعتبر بمثابة مقاصير الإبداع الأدبي، لا يتحلى بالاستمرار العمودي عبر مراحل التاريخ فقط من جانب المثقفين، بل ويتسم أيضاً بالنطاق الواسع الأفقي من قبل سائر الطبقات والفئات الأخرى.

ولذلك، الإبداع الشعري المتعلق يالأبراج الثلاثة يتسم بالثراء والوفرة. وتأسيساً على ما جاء في «تاريخ محافظة بالينغ» و«تاريخ جبل هوانغ خو» و«ديوان برج تينغ وانغ» و«تكملة ديوان برج تينغ وانغ» في أسرة مينغ، وحسب ما ذكرته أيضاً معلومات وثائقية من إحصاءات تقريبية أن قصائد الأبراج الثلاثة بلغت أكثر من ألف وثمانمائة قصيدة، ولا يشمل ذلك الأعمال الضخمة في أسرة تشينغ، ويرى صاحب هذه السطور، إن قصائد الأبراج الثلاثة في هذه الأسرة تعد الأكثر عدداً عبر الأجيال المتعاقبة، وإذا جمعنا كل ما يتعلق بالأبراج الثلاثة من قصائد، وأشعار تسي، وكتابات منقوشة وسجل الأحداث، فإن ذلك يكون عملاً ثقافياً

ضخماً ومفيداً بالتأكيد، ويقدم معلومات ثرية لدراسة تاريخ الثقافة الصينية. وفي الواقع، إن هذا العمل قد جذب اهتمام السلف منذ زمن بعيد. وفي أسرة مينغ، ألف يه ون تشوانغ «كتاب قاعة البامبو الأخضر» الذي اشتمل على «قصائد الفضلاء في برج يويانغ في أسرة تانغ»، وفي أسرة تشينغ، ألف تشيان زينغ كتاب «قاعة شوقو» الذي يحتوي على «أشعار برج يويانغ»، و«كتاب بناية جيانغ يون» للمؤلف تشيان تشيان يه، كما ألف تشين قونغ جيوه، ووانغ يان كتاب «قصائد برج يويانغ» كلٌ على حدة. ويحتوي كتاب «كنوز الكتب الأربعة» على «مصادر سجلات الآثار القديمة في برج يويانغ» و«مجموعة أشعار برج تينغ وانغ» في أسرتي مينغ وتشينغ. أما فيما يتعلق بقصائد برج هوانغ خه، فقد شهدت أسرة مينغ كتباً متخصصة في هذا الشأن، وكتب الأديب المشهور فانغ لي رو مقدمة «أشعار برج هوانغ فه». وقد بلغ عدد قصائد برج تينغ وانغ ما قبل أسرة تشينغ أكثر من ألف ومائة قصيدة جمعها كتاب «ديوان برج تينغ وانغ» للمؤلف يه دونغ زونغ في أواسط أسرة مينغ، وكتاب «تكملة ديوان برج تينغ وانغ» للمؤلف لي سي جينغ في أواخر هذه الأسرة. وعلى الرغم من أن هذين الكتابين قد تركا عدداً غير قليل من القصائد سهواً، إلا أنهما مازالا من الكتب الأدبية المتخصصة المشهورة التي تحظى بالاهتمام في تاريخ الأدب الصيني.

(2) أن جميع الأدباء المشهورين منذ أسرتي تانغ وسونغ تقريباً أقاموا علاقة مع الأبراج الثلاثة، ونستطيع أن نعثر داخل هذه الأبراج على آثار سعادتهم وآلامهم، ونجاحهم وفشلهم، وأفراحهم ونكباتهم. ويعتبر ذلك ظاهرة فريدة ومتميزة في تاريخ الأدب الصيني، ولا توجد في تاريخ الأدب العالمي. ويجب القول، إن أقدم شاعر مشهور أقام علاقة مع الأبراج الثلاثة كان يان يان جي في الأسر الجنوبية. ففي عام 426م، انطلق من شيآن (قويلين في مقاطعة قوانغشي اليوم)متجها نحو الشرق عائداً إلى جيان كانغ (نانكين في مقاطعة جيانغصو اليوم) واجتاز مدينة بالينغ في الطريق (يو يانغ في مقاطعة خونان اليوم)، ونظم قصيدة من الوزن الخماسي بعنوان: «صعود بناية بالينغ ونظم قصائد مع تشانغ شيانغ تشو أثناء عودتي من شيآن إلى العاصمة». وبناية بالينغ التي أشارت إليها القصيدة أصبحت فيما بعد برج يويانغ. وفي غضون أكثر من مائتين وخمسين عاماً من ما بعد يان يان جي إلى ما قبل أن ينظم الشاعر وانغ بو قصائد في برج تينغ وانغ، فإنه من الصعب جداً. إن نعثر على شخصية ثقافية مرموقة

أقامت علاقة محددة مع الأبراج الثلاثة. ويوضح ذلك؛ أن كلاً من برج هوانغ خه، وبناية بالينغ قد اضطلعا بتقديم خدماتهما آنذاك، ولكنهما لم يدخلا نطاق الحياة الثقافية، ولذا من النادر جداً إن يقيما علاقات مع المثقفين والأدباء. ولكن تغيرت الأحوال بعد أسرتي تانغ وسونغ، حيث أصبح لا يمكن إحصاء عدد المثقفين الذين يعرجون على الأبراج الثلاثة ويحتسون الخمر، وينظمون قصائد، ويستلون أقلامهم ويسجلون مآثرهم وخواطرهم، وإذا أعددنا قائمة بأسمائهم، فإنها تتضمن تقريباً الأدباء المشهورين النادرين في تاريخ الأدب الصيني قديماً وحديثاً. ونقول بصورة محددة، إن علاقتهم بالأبراج الثلاثة شهدت الأحوال الأربعة التالية: **أولاً**: العمل والإقامة في المناطق الثلاث: يويانغ، ووتشانغ، ونانتشانغ، واحتساء الخمر في هذه الأبراج في أغلب الأحايين. وجسد ذلك الشاعران تشانغ يوه، ودموا في أسرة تانغ، والشاعر شين تشي جي في أسرة سونغ، والشاعر تاو سوي في أسرة يوان. وعمل الشاعر شين تشي جي مرتين في نانتشانغ في عامي 1177، 1181، وكان يقيم المأدبة وينظم قصائد كثيراً في برج شينغ وانغ. وطرائف ونوادر الشاعر شين في الولائم والشعر في هذا البرج يتضمنها كتاب «سجل خواطر خافية» للمؤلف تشين شي تشونغ في أسرة سونغ. **ثانياً**: المرور بالأبراج الثلاثة ذهاباً وإياباً، وصعودها للوقوف على الأطلال، والانخراط في ذكريات الماضي، والتأسي على الحاضر. وكان من بينهم الذي خرج هائماً على وجهه ومتشرداً تحت وطأة كارثة قومية، وخلد إلى الراحة في هذه الأبراج، ومثال ذلك، الشاعر الكبير دوفو في أسرة تانغ، والشاعر تشين يويى في أسرة سونغ، أو كان من بينهم الذي تعرض للتهم والإقصاء من عمله، وانطلق يسعى وراء أسباب الحياة، وطاف بهذه الأبراج، مثل الشعراء لي باي، وهان يوي، ولي شانغ تينغ في أسرة تانغ، والشاعران هوانغ تينغ جيان، وتشانغ شون مين في أسرة سونغ، والشاعر يانغ شينغ في أسرة مينغ، أو الترقية في العمل والنقل إلى مركز آخر، والقيام بجولة تفقدية طبقاً للأوامر، وتتوقف العربة عند هذه الأبراج، كما فعل الشاعر الكبير لي باي في أسرة تانغ، والشاعر لو يوي في أسرة سونغ، والشاعر يانغ جي في أسرة مينغ، والشاعر هوانغ زون شيان في أسرة تشينغ. **ثالثاً**: التطلع إلى زيارة هذه الأبراج الثلاثة والسياحة فيها والتمتع بمناظرها، وكانت الشخصيات المشهورة تمثل الأكثرية في هذه الزيارات، وكان بعضهم من السكان المحليين، أو يقيمون على مقربة من هذه الأبراج، وكان بعضهم من

الشخصيات المرموقة في المناطق البعيدة ويعشقون السياحة؛ مثل الشاعرين وانغشآنشي، وداي فوقو في أسرة سونغ، والشاعرين يوجي، ودينغ خه في أسرة يوان، والشعراء تانغ شيانغ زو، ويوان هونغ داو وشقيقه في أسرة مينغ، ناهيك عن الشعراء جيانغ شي شوان، وشووي، ووي يوان، خه شاو جي في أسرة تشينغ. رابعاً: أناس لم يزوروا هذه الأبراج الثلاثة، ولكنهم لبوا دعوة الأصدقاء وينظمون قصائد في جمال وروعة هذه الأبراج مثل الشاعرين فإن تشونغ يان، وصوشي في أسرة سونغ. فالأول كتب قصيدة «خواطر برج يويانغ» عندما لبى دعوة تينغ تسي جينغ، والأخير نظم قصيدة «تسجيل ما سمعته من فينغ دانغ شي وتلبية دعوة لي قونغ تسه لقرض الشعر في برج هوانغ خه»، ويوضح ذلك أسباب وأجواء نظم القصائد في الأبراج الثلاثة. وعلى الجملة، فإن هؤلاء الشعراء ينتمون إلى عصور تاريخية متباينة، وتعرضوا لنكبات وكوارث مختلفة، ولذا تباينت انطباعاتهم وطرائق التعبير عن مشاعرهم في الأبراج الثلاثة.

(3) تحتل أروع قصائد الأبراج الثلاثة مكانة رفيعة في تاريخ الأدب الصيني دائماً، وينشدها الناس ويتغنون بها على مدى أكثر من ألف سنة، ومن ثم أصبحت من أغلى الثروات الفكرية والروحية. وطبعاً، كانت القصائد الأكثر تأثيراً، والأكثر انتشاراً وذيوعاً هي: «افتتاحية وداع صديق في برج تينغ وانغ في ولاية هونغ في الخريف» للشاعر وانغ خو، و«برج هوانغ خه» للشاعر تسوي هاو، و«وداع مينغ هاوران إلى قوانغ لينغ في برج هوانغ خه (طائر الكركي الأصفر)» للشاعر لي باي، و«صعود برج يويانغ» للشاعر دوفو، و«خواطر برج يويانغ» للشاعر فإن تشونغ يان. وحققت هذه القصائد الامتزاج بين المشاعر والمشاهد الطبيعية. ويعد ذلك ظاهرة فريدة في تاريخ الأدب الصيني؛ حيث أن المعالم البارزة الشهيرة والأدب يضفي كلٌ منهما على الآخر جمالاً وروعة، كما أن الأبراج الثلاثة تعد مثالاً نموذجياً بارزاً إلى حد ما.

ويجب أن نركز اهتمامنا بعض الشيء على العثور على المختارات الشعرية بعد أسرتي تانغ وسونغ، والقصائد المشهورة المذكورة أعلاه قد تم اختيارها ودمجها في مختارات الشعر بعد فترة قصيرة من وفاة مؤلفها أو قبل وفاته، والأبحاث والأطروحات والتعليقات على هذه المختارات زادت أكثر فأكثر بعد أسرة سونغ، كما تم العثور على بقايا مجلد مختارات أشعار

أسرة تانغ في مدينة دونغ هوانغ، ويتضمن ستة شعراء هم: لي آنغ، وانغ تشانغ لينغ، تشيو وي، تاوهان، لي باي، تاوشي، وجميعهم تألقوا في عهد الإمبراطور شوان زونغ، واختار هذا المجلد بتركيز شديد قصيدة لي باي «وداع مينغ هاوران إلى قوانغ لينغ في برج هوانغ خه»، وقد تم اختيارها عندما كان لي باي على قيد الحياة. وقام أهالي تانغ بإعداد «ديوان أروع القصائد» في عام 744، و«ديوان الشعراء الموهوبين»، وسجلوا فيها القصائد حتى عام 753م، واختاروا فيهما قصيدة «برج هوانغ خه» للشاعر تسوي هاو. وفي كتابه «كتاب تانغ القديم– سيرة تسوي هاو» ذكر روآن أن تسوي هاو مات في عام 754م، أو مات بعد عام 758، كما ذكر تان يوي شيوه في كتابه «تسلسل الأحداث الزمنية في عهد تسوي هاو»، ويوضح ذلك أن تسوي هاو كان على قيد الحياة عندما تم اختيار أشعاره. وشهدت الأسر الحاكمة سونغ، يوان، مينغ، تشينغ، والعصر الحديث زيادة دواوين المختارات الشعرية في أسرتي تانغ وسونغ التي اشتملت بالتأكيد على القصائد المشهورة المتعلقة بالأبراج الثلاثة. ويعد كتاب «تنظيم واختيار أشعار تانغ»، للمؤلف شين داتشيان المعاصر لأسرة تشينغ، من المختارات الشعرية في أسرة تانغ التي تتحلى بالتأثير الهائل نسبياً في الزمن القديم، ويشتمل على قصائد «برج تينغ وانغ» للشاعر وانغ بو، و«وداع مينغ ماوران إلى قوانغ لينغ في برج هوانغ خه» للشاعر لي با، و«برج هوانغ خه» للشاعر تسوي هاو، و«الصعود إلى برج يويانغ» للشاعر دوفو، و«الاستمتاع بعزف الناي في برج هوانغ خه مع المسؤول شي» للشاعر لي باي، و«وداع المسؤول داو في برج يويانغ» للشاعر هان يوي، و«ذكريات رحلة قديمة» للشاعر دومو. وكلها من أشعار برج تينغ وانغ. وبعد أواخر أسرة تينغ، كان كتابا «ثلاثمائة قصيدة عن أشو تانغ» و«مقالات صينية قديمة مختارة» الأكثر انتشاراً وذيوعاً، ويحتويان على القصائد المشهورة في الأبراج الثلاثة للشعراء وانغ بو، لي باي، تسوي هاو، دومو، ناهيك عن قصائد في العصر الحديث والمعاصر. وتوضح هذه الحقائق، إن قصائد الأبراج الثلاثة المشهورة حظيت بالتقدير والثناء في ذلك الحين وفي العصور اللاحقة. ومازالت تتمتع بحب وإعجاب الناس في الوقت الحاضر.

وهناك أسباب عديدة شكلت المكانة التاريخية للأبراج الثلاثة، وحققت الازدهار والإنجازات الباهرة لقصائدها الشعرية، ويمكن إجمال هذه الأسباب الرئيسية في النقاط

التالية:

(1) **الموقع الجغرافي:** تقع الأبراج الثلاثة في حوض نهر اليانجتسي الذي يزخر بالمناظر الطبيعية من الجبال والأنهار، ويجب أن يمر به المثقفون والموظفون في المجتمع الإقطاعي أثناء تنقلهم من الجنوب إلى الشمال، ومن الغرب إلى الشرق. ولاسيما منطقة جيانغ هان التي تتقاطع فيها الأنهار والقنوات المائية عمودياً وأفقياً، وتنتشر فيها البحيرات مثل نجوم السماء، وأصبحت هذه المنطقة مركزاً للمواصلات البحرية بسبب أن المواصلات البرية كانت متخلفة في العصر القديم. وذكر يو قونغ أن: «منطقة جيانغ هان تتاخم البحار»، وجاء في «كتاب الأغاني» أن: «منطقة جيانغ هان تحوطها المياه من كل جانب»، مما يوضح أنه منذ زمن بعيد قبل أسرة هان، استفاد الأقدمون من خطوط الملاحة في نهر اليانجتسي. أما فيما يتعلق بموقع برج هوانغ خه في ملتقى ثلاث بلدات في ووهان، فقد أدرك الناس في أسرة هان الدور المحوري لهذا البرج في المواصلات. وهنا يذكر تساي يونغ أن هذا البرج «يقع في ملتقى ثلاث ولايات في الجنوب، ويتاخم العاصمة في الشمال، وبحيرة جيانغ في أسفله، ويحقق ثراء من نقل السلع وأحواله تزدهر بلا انقطاع»[2]. إن الفوائد التي جلبها النقل الملاحي في نهر اليانجتسي تعاظمت وازدهرت ولم تعرف الاضمحلال مع تطور التاريخ والاقتصاد في المجتمع الصيني. ولذلك، ومنذ أسرتي تانغ وسونغ، كان الموظفون والمثقفون والأدباء يستخدمون نهر اليانجتسي في الذهاب والإياب من وإلى مقاطعة سيتشوان. وهذا هو السبب الأول. أما السبب الثاني فهو أن من بين هذه الأبراج الثلاثة برج يويانغ، وبرج تينغ وانغ اللذين يقعان على مقربة من المياه العذبة للبحيرتين دونغ شينغ، ويويانغ، أما برج هوانغ خه يقع أسفل نهر اليانجتسي، وظل برج تينغ وانغ يسطع على صفحة مياه نهر جينغ، مما جعل المكان يغص بالأنهار والبحار التي تتدفق مياهها الزرقاء الواسعة الامتداد، وكان من الطبيعي جداً. إن يستخدم الناس النقل النهري والبحري في ذهابهم وإيابهم، ويتوقفون عند هذه الأبراج، ويأخذون فيها قسطاً من الراحة، ويصعدون إليها، ويمتعون أبصارهم بالمعالم الطبيعية البارزة وتغمرهم الغبطة.

(2) **العامل التاريخي:** قبل أسرتي سوي وتانغ، كان حوض النهر الأصفر هو المركز

---

(2) تساي يونغ: «مقامة هان جينغ».

الاقتصادي للصين. وخاصة عندما تأسست عاصمة الدولة في منطقة قوانغ تشونغ في الأسر الحاكمة تشو، تشين، هان، تانغ، وبسبب التنمية على مدى العصور المختلفة فقد «ازدهرت الزراعة، وتربية دودة القز، والملابس، والمواد الغذائية. وظهرت الطرق البحرية كما كانت الأحوال في شانشي، ونانشان، وأصبحت الصين أفضل البلدان قاطبة»[3]. وعلى الرغم من أن منطقة جنوب حوض تشانغجيانغ كانت تضم جيانغ هان التي تحوطها الأنهار والجبال والغابات، إلا أنها مازالت قابعة في مرحلة «حرق الأرض لزراعتها»، وأراضيها شاسعة، والسكان قليلون، والإنتاج متخلف. وفي أسرتي وي وجين وفي الأسر الجنوبية والشمالية، شهد شمال الصين الاضطرابات والحروب المستمرة، وانتقل عدد كبير من السكان إلى الجنوب، وعاشوا كالمهاجرين في منطقة ولايتي جينغ ويانغ. إن الحراك الديموغرافي جلب تقنية الإنتاج المتقدمة نسبياً إلى الشمال. وشهدت منطقة جنوب حوض تشانغجيانغ التنمية السريعة، وذكر شين يوه في كتابه «كتاب أسرة سونغ» أن هذه المنطقة كانت تضم أراضي خصبة وثرية في ذلك الحين، وكان الناس يكدون ويكدحون في الزراعة، وانتاج ولاية واحدة من الإنتاج الزراعي يكفي لإطعام عدة ولايات. بالإضافة إلى أن إنتاج منطقة ولايتي جينغ ويانغ من الأسماك، والملح، والأخشاب، والحرائر، والأقمشة كان يصدر إلى أماكن قاصية، ولذا ظهرت المدن التجارية مثل نانكين، وجينغ كو، وشيانغ يانغ، وجيانغ لينغ، وتشينغدو، وقوانغتشو. وعندما شق الإمبراطور يانغ دي في أسرة سوي القناة الكبرى التي ربطت بين جنوب الصين وشمالها، تعززت الاتصالات والمواصلات بين الشمال والجنوب، ودفع التبادل الاقتصادي بينهما إلى الأمام، وجعلت منطقة جنوب حوض تشانغجيانغ تشهد التطور الاقتصادي بدرجة أكبر حيث تفوقت على مستوى منطقة حوض النهر الأصفر. وبقدوم أسرتي سونغ وتانغ، كان عدد السكان في منطقة نهر اليانجتسي أكثر من منطقة حوض النهر الأصفر، وانتقل المركز الاقتصادي إلى جنوب حوض تشانجيانغ بصورة كاملة. وفي أسرة سونغ الشمالية، انتقل المركز السياسي لقومية هان إلى مدينة هانغتشو، وازدهر الاقتصاد والثقافة في الجنوب ازدهاراً هائلاً. وتوحدت الصين في الأسر الحاكمة الثلاث: يوان، مينغ، وتشينغ، وأصاب الثراء الوفير جنوب حوض تشانغجيانغ الذي أصبح مركز

(3) «كتاب هان. فصل الجغرافية».

التجارة الخارجية والمواصلات الخارجية آنذاك. وكان من البديهي أن تتجذر الشجرة الثقافية التي تنمو وتزدهر، ولا تعرف الذبول في ظل الازدهار الاقتصادي على هذا النحو.

(3) **العامل الثقافي**: أظهرت سجلات تاريخية واكتشافات أثرية أن موقع الأبراج الثلاثة على ضفتي نهر اليانجتسي أدى إلى نشوء حضارة أسرة تشين المتألقة التي لا تضاهى ويجسدها الشاعر الكبير تشيوي يوان، والتي أثرت تأثيراً عميقاً في تطور الثقافة الصينية. ويتحلى هذا الشاعر بالروح الوطنية العظيمة التي علمت وشجعت أصحاب المثل العليا والهمة العظيمة، وفتحت آثاره الأدبية مثل: «مرثاة لي صاو»، و«الأغاني التسع»، و«الفصول التسعة» آفاقاً عريضة من أجل تطوير الأدب الصيني. إن الطباع والخصال العظيمة لهذا الشاعر ومصيره المأساوي جعلته يحظى باحترام وتقدير الناس وتعاطفهم والشوق إليه على مدى الدهر. إن الأبراج الثلاثة قد شهدت أنشطة تشيوي يوان في حياته والآثار التي تركها بعد وفاته. وفي عام 1978، وفي محافظة سوي بمقاطعة خوبي تم العثور على طقم كامل من الأدوات الموسيقية عبارة عن مجموعة أجراس موسيقية في قبر زينغ خويي، مما يبرز للعيان أن الإبداع الأدبي لدى تشيوي يوان يتحلى بالمضمون الفني، ويبرهن على الإنجازات الرائعة التي حققتها ثقافة أسرة تشو حقاً. وإذا جعلنا مصدر هذه الثقافة يرجع إلى العصر الأقدم في فترة الربيع والخريف، إذن، فإن هذه المنطقة قد شهدت ما جاء في الأساطير من أن: «الإمبراطور الأسطوري هوانغ دي كان يلهو ويتسلى في البراري»[4]، والإمبراطور شون كان «يقوم بحملات تفقدية والصيد في الجنوب، ومات في براري تسانغ وو»[5]، و«العازف الموسيقي بويا كان يعزف على البيانو، ثم كف عن العزف بعد أن مات صديقه الوحيد الذي يقدر ألحانه»[6]. وإذا جعلنا مصدر هذه الثقافة يعود إلى العصر الحديث في أسرتي هان الغربية والشرقية والممالك الثلاث، فإن هذه المنطقة شهدت أيضاً المشاهد التاريخية المفعمة بالقوة والعظمة، والحروب والقلاقل بين الممالك الثلاث: شو، وي، وو، وإقامة الأديب شيوه جي في نانشانغ، وانتقال الأديب جيايي إلى تشانغشا بعد تدني وظيفته. وترك ذلك كله تأثيراً عميقاً وهائلاً في السيكولوجية الثقافية لدى الناس. كما أن العثور على مقابر أسرة هان في مدينة تشانغشا قد قدم البراهين

(4) «تشوانغ تسي. فصل السماء والأرض».

(5) «سجلات تاريخية. تاريخ الأباطرة الخمسة».

(6) «شون تسي. فصل نصيحة الدراسة».

على أن هذه الثقافة بلغت شأواً عظيماً في أسرتي هان. وفي ضوء هذه الإرهاصات الثقافية، استطاع المستوى الثقافي في حوض نهر اليانجتسي -بعد الأسر الجنوبية والشمالية- أن يحرز مستوى عالياً بفضل القاعدة الاقتصادية في هذا الحوض، وتفوق على ثقافة حوض النهر الأصفر رويداً رويداً. وحقق أدب الأبراج الثلاثة ازدهاراً فوق العادة في هذه البيئة الزاخرة بالثقافة، ولا يعد ذلك أمراً غريباً.

(4) العامل الأدبي الذاتي: من التقاليد القومية في الأدب الصيني، إن المشاهد تثير الشجون وتعيد إلى الذهن الذكريات، وتحتوي المشاهد على المشاعر والأحاسيس، لأن الأشياء والمناظر تثير الشجون والأحزان. ويمثل «كتاب الأغاني» بداية هذه التقاليد. ولكن الصعود إلى برج وبناية شاهقة ونظم قصيدة تجسد الأحاسيس والمشاعر ظهر في أسرتي هان ووي. وفي أواخر أسرة هان، غادر الأديب وانغ تسان مدينة تشانغآن بسبب الاضطرابات الناجمة عن الحرب، وعرج على ولاية جينغ وعلق آمالاً على صديقه ليوبيا والذي لم يعره اهتماماً، ثم صعد برج دانغ يانغ تشينغ بصورة ارتجالية، وحملق في الجهات الأربع، وشعر أن العالم تسوده الاضطرابات والزعازع، وأن المآثر غير مجدية، وألف «مقامة صعود برج» الشهيرة، التي جسد فيها غضبه وسخطه في ضوء مشاهداته في هذه الدنيا، وفتح آفاقاً جديدة في التعبير عن العواطف والمشاعر استناداً إلى المشاهد والمناظر في الإبداع الأدبي في الصين. وبعد ذلك، سافر الأديب تشانغ زاي في أسرة جين الغربية إلى مقاطعة سيتشوان لزيارة أبيه، وكتب هناك قصيدة بعنوان «صعود برج باتيو في تشينغدو» وصف فيها الازدهار والثراء في عاصمة هذه المقاطعة تشينغدو، واستعار ذلك في التعبير عن مشاعر الحنين والشوق إلى تراب وطنه. وحذا هذا الحذو من صعود الأبراج ونظم القصائد لفيف «من الشعراء في الأسر الجنوبية مثل: يان يان بي، ليويي لونغ، ليويي قونغ، ليو شيلو تشون، شياو قانغ، جيانغ زونغ، وبصرف النظر عن تباين مكانة هؤلاء الشعراء واختلاف تجاربهم ومسيرتهم، بيد أن قصائدهم تتحلى بالقواسم المشتركة من صعود الأبراج والأبنية السامقة، ومشاهدة المناظر والمعالم البارزة، مما يثير في داخلهم الشجون والأحزان ويعيد إلى أذهانهم الذكريات القديمة، ثم زادت مثل هذه الأعمال الأدبية التي تتمحور على صعود الأبراج والتعبير عن المشاعر في القصائد يوماً بعد يوم مع تطور الأدب في حد ذاته. فالشعراء يصعدون الأبراج ويشاهدون المعالم البارزة،

وتتداعى الأفكار داخلهم بصورة مطردة، و«ينغمسون في متعة المظاهر والمشاهد، ويتغنون وينشدون كل ما يقع عليه بصرهم وتراه عيونهم، ويصفون مشاعرهم وطموحهم، ومعالم المنطقة، ويستعيرون الأشياء للتعبير عن ذلك في أدب ولباقة، كما يصفون الأصوات القريبة منهم وما يعتلج في صدورهم»[7]. ولذلك، المزهو الذي ينسى أصله وفصله، والنازح من مسقط رأسه بسبب الاضطرابات، والحزين على وطنه يذرف الدموع، والقانط من هذه الدنيا ويتطلع إلى أن يكون من الأولياء، يصعد هؤلاء جميعاً الأبراج الشاهقة والبنايات الشامخة، ويعبرون عن اختلاجاتهم وخواطرهم وهم يحدقون في كل صوب وحدب فوق هذه الأبراج وتلك البنايات. إن ازدهار الإبداع الشعري في الأبراج الثلاثة على هذا النحو يرجع إلى أنه ورث التقاليد القومية المفعمة بالقوة والحيوية في الأدب الصيني.

القيمة الجمالية والتاريخية في قصائد الأبراج الثلاثة

هناك بعض القصائد المشهورة، من أشعار الأبراج الثلاثة، تناقلتها الألسن قديماً وحديثاً، ومنذ زمن بعيد استحوذت على اهتمام الدارسين في العصور المختلفة، وأدى ذلك إلى نشأة الكثير من التعليقات والأطروحات القيمة. ومكانة هذه القصائد وتأثيرها لا يقبلان الشك في تاريخ الأدب الصيني. وتتضمن أشعار هذه الأبراج العديد من المقالات التي كانت سبباً في نظم هذه القصائد المشهورة، ولكن لا يعني ذلك إطلاقاً أن هذه الأشعار في المرحلة المتأخرة افتقرت إلى الإبداع الأدبي، بل على العكس تماماً، ظلت قادرة على وراثة التقاليد الأدبية الرائعة والتطور. وجسد ذلك بالضبط القوة الحيوية للإبداع الأدبي الصيني من وراثة الماضي وشق طريق المستقبل. وفي هذا المقام، نلقي نظرة عابرة على القيمة الجمالية، والقيمة التاريخية التي تتحلى بها أشعار الأبراج الثلاثة، في محاولة من جانبنا لتوضيح هذه المسالة بصورة محددة

(1) **ألقيمة الجمالية:** ويعني ذلك تحويل الجمال في الطبيعة إلى الجمال في الفن، وتصغير مناظر الجمال والأنهار في صورة مصغرة، وتحويل الجمال المادي إلى جمال روحي، وعرض مناظر المقاصير الشامخة والبنايات الشاهقة خارج نطاق التصورات والخيالات.

---

(7) «ون شين ينحت تنينا. فصل لون الأشياء».

أشعار الأبراج الثلاثة تعكس أحوال نشأة صعود الأبراج الشاهقة والتمتع بالمناظر الطبيعية بصورة أساسية، وبعبارة أخرى هي نتيجة التمتع بالمناظر والمعالم البارزة في كل صوب وحدب فوق البنايات العالية لوقو، ودمج المشاعر والمناظر في وحدة واحدة يؤدي إلى تدفق سيل من المشاعر والأحاسيس بلا حدود. ولذلك، القوة الجمالية التي تتضمنها هذه الأشعار من الضروري أن ترتبط بوجهة النظر إلى المشاهد والمناظر في التقاليد الصينية، كما ترتبط أيضاً بوجهة نظر الفن تجاه المناظر الطبيعية عبر العصور المختلفة. وذكر كونفوشيوس أن: «الحكماء يحبون الأنهار، والأخيار يحبون الجبال»[8]، ويشجع الفيلسوف تشوانغ تسي التجوال والسياحة في شتى بقاع الأرض والتمتع بالجمال العظيم في الكون، كما يعتقد نظيره شون تسي أيضاً أن «السماء تحتضن كافة الموجودات، والأرض تحمل على عاتقها جميع الكائنات، والجمال المطلق يغمر السماء والأرض»[9]، إن فكرة البحث عن مشاعر الجمال في الكائنات والموجودات في الكون، وفي المناظر الطبيعية كانت دائماً الفكرة التي ورثتها نظرية علم الجمال وتطوراتها في المستقبل، وتمسكت بها وجسدتها في الإبداع الأدبي الفني في رسم الجبال والأنهار وأشعار المناظر الطبيعية. وطبعاً، لا يستثنى من ذلك أشعار الأبراج الثلاثة. وبإلقاء نظرة شاملة على أشعار هذه الأبراج، نجد أن الجمال الذي تتضمنه ينبثق بصورة مركزة من موضوعين هما: المناظر الطبيعية، والأبراج. والشعراء هم الركيزة الأساسية ويستفيدون دائماً من هذين الموضوعين من زوايا متباينة، ويبحثون عن الطرائق الفنية المناسبة للتعبير عن انطباعاتهم ومشاعرهم الفريدة والمميزة، فبعضهم يميل إلى الاهتمام بعرض المناظر الطبيعية من جديد، وبعضهم يهتم بوصف الإيحاء الفني ومغزى الأبراج، وبعضهم يدمج المناظر الطبيعية والأبنية العالية والأبراج الشاهقة في وحدة عضوية، ويستعير ذلك في إبراز القوي الجمالية الكامنة التي يختزنها العالم الموضوعي بصورة كاملة.

وتصف أشعار الأبراج الثلاثة المناظر الطبيعية، ولا تدخر وسعاً في إظهار امتدادها الشاسع، وشموخها وعظمتها وروعتها، بل حتى تتجاوز حدود الزمان والمكان، كما ترسم عظمة ومهابة الارتفاع إلى عنان السماء، والغوص في أعماق الأرض، وتجاوز الماضي واستلهام

---

(8) «كتاب حوارات كونفوشيوس».

(9) «شؤون تسي. فصل وانغ جي».

الحاضر، واسترجاع ذكريات السنين، والتمتع بالنجوم، والركض وراء فروع الأنهار، وهزة التأثر بمصارعة الثيران، كما تتصف هذه الأشعار برحابة الصدر من أن: «حُفر الأرض تسويها مياه البحيرات، والسماء سامقة ولذا آفاق الرؤية عريضة»[10]، وقوة التعبير في إبراز الجمال العظيم الذي تنضوي فيه الموجودات والكائنات في السماء والأرض، وفي جمال الطبيعة من جديد في «المناظر الرائعة خارج الأبراج» و«مناظر الجبال والأنهار والبحيرات»[11]، بل هي لفيفة رسم المناظر الطبيعية من الإبداع الفني. ومثال ذلك، جاء في قصيدة «صعود برج يويانغ» للشاعر دوفو في أسرة تانغ أن: «انفصلت كل من ولايتي وو، وشو في الشرق والجنوب، وتبدو السماء والأرض كشاطئ لهما في الليل والنهار». وقصيدة «وداع مينغ هاوران إلى قوانغ لينغ في برج هوانغ خه» للشاعر لي باي ذكر فيها: «يُبحر وحيداً إلى مكان ناءٍ ويتوارى في الأفق السماوي البعيد، ولا أرى سوى تدفق مياه نهر طويل في السماء». وفي قصيدة «صعود برج يويانغ» يقول الشاعر وانغشي بينغ في أسرة سونغ: «تتدفق مياه الأنهار التسعة في الأفق العريض، وأنوار القمر والشمس والنجوم تتخطى حدود السماء». وفي أسرة يوان يقول الشاعر لي دونغ يانغ في قصيدته «صعود برج يويانغ» أن: «مياه الأنهار الثلاثة تتدافع وتصب في البحر العريض، ويبدو العديد من الأنهار معلقة في السماء، والجزائر خفيفة الوزن». وفي أسرة تشينغ يقول الشاعر يانغ تشينغ شين في قصيدته «صعود برج يويانغ بعد هطول الأمطار»: «تتدافع مياه الأنهار وتتلاطم أمواجها كأنها تتسلل من السماء، والشوامخ التسعة يكسوها رذاذ الأمطار التي ترسم المناظر الطبيعية»[12]. وفي أسرة سونغ، يقول الشاعر يوي يه في قصيدته «برج هوانغ خه» إن: «نهر هان تلتهم مياهه بحيرة يون مينغ في الشمال، ونهر شو تتدفق مياهه وتكوّن بحيرة دونغ تينغ في الغرب». وفي أسرة مينغ، يقول الشاعر المشهور يوان تشونغ داو في قصيدة «صعود برج هوانغ خه مرة أخرى» إن: «السلاسل الجبلية تمتد في جيانيه منذ القدم، ولا تهدأ الأمواج المتلاطمة دائماً في البحار والأنهار!». أما الشاعر وانغ صون وي في أسرة تشينغ فيقول في قصيدته «برج هوانغ خه» إن: «الأنهار تلتف حول الآلاف من القمم الجبلية الممطرة قبيل الفجر، والسلاسل الجبلية

(10) خو بينغ جو (أسرة مينغ) «صعود برج يويانغ».

(11) دو شيانغ (أسرة مينغ) «برج يويانغ».

(12) زونغ بيه جينغ (أسرة سونغ) «برج تينغ وانغ».

دابيه تنبت فيها عشرات الآلاف من الأشجار التي يكسوها الدخان في الصباح الباكر، والبط البري يطير في الشمال مفتوناً بالمناطق المائية الرقراقة، والسحب البيضاء تسبح غرباً وتعرف طريقها إلى سهول تشين». وفي أسرة تانغ، يقول وانغ يو في قصيدته «افتتاحية وداع صديق في برج تينغ وانغ في ولاية هونغ في الخريف»: «يتزامن هبوط الغسق مع طيران البط البري، وألوان مياه الأنهار تتوافق مع ألوان الخريف». ويقول الشاعر وانغ تينغ قوي، المعاصر لأسرة يوان، في قصيدته «صعود برج تينغ وانغ» إن: «السماء تحمل الشمس والقمر، وتطوف بهما في الشرق والجنوب، والأرض تطفو على سطحها الجبال والأنهار ليلاً ونهاراً». وغيرها من قصائد وأشعار الأبراج الثلاثة.

هناك قول قديم مأثور مفاده: «صعد مكاناً عالياً وسرح بنظره في البعيد». ويوضح ذلك أن التمتع بالجمال العظيم الكامن في الكائنات والموضوعات في الكون يحتاج إلى صعود الأبنية والأبراج والمقاصير العالية. كما لا يمكن إدراك جمال المناظر الطبيعية وروعتها وعظمتها وامتدادها إلا من خلال صعود البنايات الشاهقة. والامتداد الشاسع البعيد للمناظر الطبيعية. وجمال الأبراج يعتبران نوعاً من الجمال، وكلاهما يعتمد على الآخر، ويبرز كل منهما جمال الآخر. ويوضح هذه الحقيقة ما يطلق عليه «الأبراج تعانق عنان السماء وتبدو كأنها معلقة في الفضاء، وتمثل صورة مرسومة بالحبر الصيني للسماء من كل حدب وصوب»[13]، و«الحواجز العالية والأطناف الشاهقة تبدو كأنها تحلق في السماء، وتتعانق السحب وجداول الماء، ويصعب على كلٍّ منهما فراق الآخر»[14]، ولذلك عندما وصفت أشعار الأبراج الثلاثة المقاصير ركزت على وصف شموخها وارتفاعها السامق وظهورها في الظلام أو في الضباب. ووصف الشاعر وانغ بو برج تينغ وانغ قائلاً: «يتألف من عدة أدوار، ويبدو شامخاً ينبثق من بين الأشجار الخضراء، وتظهر قمته في أقاصي الفضاء، إنها مقصورة حمراء تحلق في الفضاء، وإذا نظرت أسفلها لا ترى الأرض»، ويجسد ذلك نوعاً من الجمال الذي يحلق عالياً في أجواء السماء. ومعظم أشعار الأبراج الثلاثة وصفت هذه الأبراج انطلاقاً من رؤية علم الجمال هذه. وحتى هذه الأشعار انتهجت الطريقة الفنية من الخيالات والتصورات،

---

(13) شيوه ون شيانغ «صعود برج يويانغ في الخريف».

(14) جياداو (أسرة تانغ) «برج هوانغ خه».

وجعلت المقاصير والأبراج كيانات حقيقية ومادية، كما جعلتها «قصوراً سماوية وبيوتاً ملائكية» موجودة في عالم الأرواح. وظهر ذلك جلياً في قصيدة لي باي المعنونة بـ«صعود برج يويانغ مع صديقي شيا»، حيث وصف فيها هذا البرج بأنه من بيوت الملائكة السماوية يظهر في عالم البشر، وتغص أشعار الأبراج الثلاثة بمثل هذه الأوصاف الخيالية الوهمية. وفي أسرة يوان، كتب الراهب داقوي قصيدة على الرسم بعنوان «برج هوانغ خه» قال فيها: «يبدو كأنه من بيوت الملائكة على مقربة من جبل الأولياء الأسطوري بانغ لاي»، ويوضح ذلك بالضبط أن مشاعر الجمال تجاه برج هوانغ خه في الشعر والرسم الصيني متشابهة تماماً. وهاو جينغ في أسرة يوان، أُرسل في جولة تفقدية في الجنوب، وكتب قصيدة «برج هوانغ خه» التي وصفت هذا البرج من شكله السماوي الخالد إلى آثاره الملائكية، مما أضفى المزيد من النكهة السماوية الملائكية على هذا البرج. وبالإضافة إلى ذلك، قصيدة «أنشودة صعود برج تينغ هوانغ بعد سقوط الثلوج» للشاعر شاو تشانغ هينغ في أسرة تشينغ، وقصيدة «صعود برج تينغ وانغ مع المؤرخ سونغ ياوتشو» للشاعر صون هوا في أسرة تانغ، جسدتا شكل هذا البرج الشاهق في الفضاء الرائع الجمال تجسيداً واضحاً وحياً ودقيقاً بدرجة أكبر. وكتب شين داتشيان تعليقا على القصيدة الأولى قائلاً: «تزخر بالمضمون الثري الوفير، وتغص بالتغيرات الهائلة»[15]. ونسرد هنا مقطوعة من هذه القصيدة: «في الصباح الباكر، ارتديت عباءة على شكل الكركي الأبيض، وصعدت وحدى برج تينغ وانغ. والجبال التسعة، مثل حاجز (بارافان) يتألف من تسع طيات، اختفى لونها الأخضر لأن الثلوج تكسو قممها، وتتدلى من البرج اليشبي الخالص رقائق الثلوج مثل اللآلئ. والأنهار واسعة الامتداد تختفي في خضم أمواجها سفينة صيد، ونرى ساريها عالياً في المرسى. والامتداد الشاسع للمياه بلا حدود يشكل حوض حبات الكريستال، وكل حبة تمثل غطاء على الأرض فسيحة الأرجاء، وفي البداية، ساورتني الشكوك أن جبلاً سماوياً ملائكياً يطفو على سطح البحر، يختفي حيناً ويظهر حيناً آخر، ولا يمكن لمسه. والأشياء داخله لونها أبيض، والقصور مشيدة من الفضة». ونسرد مقطوعة من القصيدة الثانية أيضاً على النحو التالي: «الصور الملونة المعلقة على الجدران والأعمدة تبرز معالم المدينة، والبرج الأحمر والقرميد الأخضر يبدوان على

(15) «مختارات من أشعار أسرة تانغ».

شكل شريط قوس قزح. وتتدفق مياه الأنهار التسعة، والشرفات المستوية العالية تجعل قمة البرج منخفضة. وتسلط الشمس أشعتها على صفحة المياه، وتتدافع أمواج المياه الذهبية وتطفو على السطح مثل الزجاج. وفي أعلى البرج، تصطف النجوم في أرتال كأنها طريق، وفي أسفله توجد الوديان الغائرة بلا طريق».

إذن، جمال المناظر الطبيعية، وجمال المقاصير والأبراج في أشعار الأبراج الثلاثة، أليس هو الجمال المطلق؟! طبعاً، كلا، إن جمال المناظر الطبيعية، وجمال المقاصير والأبراج، وهما من الأشياء الموضوعية، أصبح فناً وجمالاً روحياً بفضل الإنسان الذي يمثل الركيزة الأساسية، ولذلك، مازال الإنسان هو الأجمل، إنه الإنسان الذي أضفى مآثره على المناظر الطبيعية والبنايات الشاهقة، وزاد بهجتها وروعتها. ويشمل ذلك الشخصيات البارزة التي عاشت في مثل هذه الأجواء والمناطق أو التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً لا يفك عراه بالأبراج الثلاثة أمثال الشعراء العظام: تشيوي يوان، جيايي، وانغ يو، تسوي هاو، لي باي، دوفو، هان يوي، فان تشونغ يان. ويعد ذلك بالضبط السبب في أن أشعار هذه الأبراج تشتاق إلى هؤلاء الشعراء وتمجد مآثرهم. وكتب قوي كوي في أسرة مينغ قصيدة «خواطر البرج الأول في شيجيانغ» ذكر فيها أن: «الأرض ليست مكاناً مشهوراً ومعلماً بارزاً من تلقاء نفسها، بل الإنسان هو الذي جعلها كذلك، والأبراج ليست جميلة بذاتها، بل الإنسان أضفى عليها الجمال». وفي أسرة تشينغ، كتب شانغ رونغ قصيدة بعنوان «ذكريات برج تينغ وانغ» جاء فيها: «المناظر الطبيعية الرائعة في الكون يجب أن تتخللها المقاصير والأبراج. والمشاهد الطبيعية والمقاصير يجب أن تحتوي على تسجيل الذكريات. برج هوانغ خه في مقاطعة خوبي تحوطه المياه، وبرج يويانغ في جبل (با) بمقاطعة سينشوان، وبرج تينغ وانغ في مسقط رأسي، وهي الأبراج الثلاثة التي وطدت أقدامها على مدى الدهر». وهنا «تسجيل الذكريات» يحتاج إلى الإنسان، ويعني ذلك أن «الأبراج الثلاثة والمقاصير ليست جميلة بذاتها، بل أصبحت جميلة بفضل الإنسان». ومادامت الأشياء الجميلة في الدنيا هي من ابتداع الإنسان الذي جسدها وأبرزها من جديد، وبعد ذلك، أليس الإنسان مازال هو الأجمل؟ والإشارة إلى هذه النقطة تمكننا من إدراك القيمة الجمالية لأشعار الأبراج الثلاثة بصورة كاملة.

(2) القيمة التاريخية: ذكرنا آنفاً أن جمال الأبراج الثلاثة لا يكمن فقط في المناظر الطبيعية، بل في جمال الأبراج أيضاً، والأكثر جمالاً في الإنسان. ولكن الإنسان كائن اجتماعي، وتاريخي أيضاً. والإنسان يصعد البرج الشاهق والبناية السامقة، وينظم قصيدة تجسد مشاعره وأحاسيسه. ويجب على شعره أن يلوح إلى ذلك، ومن ثم، فنهوض الدولة وسقوطها، وأمن البلاد وانتشار الاضطرابات، يجعل ذلك كله الإنسان يرسل الزفرات ألماً وحزناً وتحسراً. وهنا تكمن القيمة التاريخية لأشعار هذه الأبراج.

وكتب فانغ شياو رو، المعاصر لأسرة مينغ، قصيدة بعنوان «افتتاحية مقطوعة شعر برج هوانغ خه» ذكر فيها أن: «المناظر والمشاهد الطبيعية التي في قمة الجمال والروعة، لا تتعلق بالشؤون الذاتية والدنيوية أصلاً. وازدهار الأبراج واضمحلالها يمكننا من معرفة أحوال استقرار البلاد وانتشار القلاقل فيها وقتئذ. ويحظى برج هوانغ خه بشهرة واسعة النطاق بين عامة الشعب بسبب جماله وعظمته، وعندما كانت البلاد تنعم بالازدهار، كان المقصد السياحي للعربات والمراكب، وكان الناس يتزاحمون بالمناكب والأقدام في الحفلات والولائم التي تعزف فيها الآلات الموسيقية الوترية والنفخية والأجراس الموسيقية والطبول. وفي أواخر أسرة يوان (المانشو) تمسك الأقوياء والوجهاء كل منهم بموقفه في ووتشانغ، وتحولت مناطق الكلأ والعشب إلى مناطق سلب ونهب، وانتشر القتال حتى طال الدجاج والكلاب، ولا يمكن أن تعثر في المدينة على بوصة خشب، ولا حتى ركام الأطلال، واستشرت القلاقل والزعازع في شتى البقاع». وبسبب هذه الاضطرابات اندثر برج هوانغ خه، وجسد الشِعر ذلك، وطبعاً يمكن أن يجعل الناس يعرفون التاريخ. ويعد ذلك السبب الأول. أما السبب الثاني فهو نار الحرب، والفوضى الناجمة عن الحرب، وهزيمة الدولة وضياع الديار، والفساد السياسي، وربما يجعل ذلك العديد من الناس يضطرون إلى الانتقال من مكان غريب إلى الأبراج الثلاثة أو العكس بالعكس، ويصعدون الأبراج ويرسلون الزفرات والتنهدات تحسراً وألماً وحزناً لأسباب عديدة، ويمكن أن يجعل ذلك الناس أن يعوا حقيقة التاريخ أيضاً. ولذلك، أشعار الأبراج الثلاثة تعد مرآة معقدة للتاريخ.

وعلى سبيل المثال، تاريخ أسرة سونغ. كانت البلاد يحكمها الاضطهاد والاستغلال والقمع من جانب كبار الملاك والتجار، مما أدى إلى التناقض الطبقي الحاد، وشنت عليهم

دويلات جين، لياو، وتشو الغربية الهجمات بصورة مستمرة، ونجم عن ذلك تفاقم حدة التناقض القومي أيضاً. وكانت الطبقة الحاكمة في أسرة سونغ تقع بين فكي الاضطرابات داخلياً والهجمات خارجياً، والصراع بين التكتلات السياسية مستمر بلا انقطاع، ولم تأل هذه التكتلات جهداً في توجيه الضربات القواصم فيما بينها، ومحاولة كل منها إقصاء الكتلة الأخرى. وفي أسرة سونغ الشمالية، حطّ الصراع السياسي من مكانة ووظيفة كل من الشعراء والأدباء والساسة وهم: فإن تشونغ يان، تينغ تسي جينغ، هوانغ تينغ جيان، صوشي، صوتشه، تشانغ شون مين، وتم إقصاؤهم إلى مكان آخر، وكونوا علاقة وثيقة مع الأبراج الثلاثة.

وفي أسرة سونغ، كتب تشو هوي في كتابه «خواطر في تينغ يو»: «تُنفى الرعية إلى الأماكن القاصية، ويتحسرون على همومهم وآلامهم التي أصابتهم بالهزال والشحب، وعبروا عن ذلك في أشعارهم، وخاصة الأحزان الدفينة في أعماقهم». وكان تينغ تسي جينغ محافظاً لمدينة بالينغ، وقام بترميم برج يويانغ، وأشاد الناس بنجاحه في إعادة الحياة إلى هذا البرج، ورد عليهم قائلاً: «لقد نجحت في تنفيذ عملية ترميم البرج، وانتظر الحزن العميق الذي يصيبنا مرات عديدة». ولذلك أسدى إليه فإن تشونغ يان النصح في قصيدته «مذكرات برج يويانغ» قائلاً: «لا تجعل الأشياء تشعرك بالسعادة، ولا تجعل ذاتك تشعرك بالحزن»، ويجب أن «نخلص العالم من الهموم والأحزان، ونشعر بالسعادة في الغد القريب». وكان فإن تشونغ يان نزل من وظيفته وحُطت مكانته ثلاث مرات، ومقولته في إسداء النصح لصديقه تينغ تسي جينغ من الأحرى أنها تعتبر إجمالاً لتجاربه وخبراته الشخصية في معترك الحياة. كما تعرض هوانغ تينغ جيان للإقصاء من عمله ووظيفته مرات عديدة في خضم الصراع السياسي، وكان من مؤيدي المحافظين، وسار على درب صوشي وآخرين في مقاطعة القوانين الجديدة التي أصدرها وانغآنشي، ولذلك عندما تولى جناح الإصلاحات القانونية السلطة، وجُهت إليه تهم وافتراءات تاريخية في عام 1095، وحُطت مكانته وتم نقله إلى مدينة بينغ شيوي في مقاطعة سيتشوان، ثم نُقل أيضاً إلى مدينة يي بينغ في المقاطعة نفسها، ولكنه عاد إلى العاصمة في الشرق في عام 1102، وفي طريقه مر بمدينة يويانغ وكتب قصيدتين عنوانهما «مشاهدة جبل جون من برج يويانغ والأمطار تهطل» وتزخران بمشاعر وأحاسيس التخلص

من براثن الموت بأعجوبة، وجسد فيهما وحشية الصراع السياسي داخل صفوف المجموعة الحاكمة في أسرة سونغ الشمالية، وذكر فيهما أنه: «نُفى إلى أماكن جرداء وجدباء، وتعرض للموت مرات عديدة، وأصاب الشيب سوالفه، ولا يصدق أنه مازال حياً ويصعد برج يوبانغ ويتفرج على جبل جون». وفساد السلطة السياسية الحاكمة في أسرة سونغ الشمالية أدى إلى اضمحلال الدولة في نهاية المطاف. وفي عام 1127م، اقتحمت قوات أسرة جين مدينة بيان، وألقت القبض على الإمبراطورين هوي، وتشين، وكان الشاعر تشين بويي لاذ بالفرار إلى يويانغ طلباً للحماية والاختفاء في عشية هزيمة الدولة وتخريب الديار، وتأثر إيما تأثر فوق هذا البرج، وكانت انطباعاته أن: «الأحوال الغريبة من الفوضى والشعوذة تتشابك في المستقبل»[16]، وكتب قصيدتين عنوانهما: «صعود برج يويانغ» ذكر فيهما أن: «البرج يقع في شرق بحيرة دونغ تينغ، وفي غرب نهر جيانغ، وستائره مسدلة حتى قبل غروب الشمس. وصعدت البرج، ورأيت ولايتي وو، وشو يتقاسمان الأراضي أفقياً، وترجلت إلى الجبل والبحيرة حتى حلّ الغسق. يتدفق الزائرون إلى البرج من أماكن نائية، ويسرحون ببصرهم في البعيد، ويتذكرون الأحوال الأكثر سوءاً وتدهوراً لمدة أكثر من ثلاث سنوات. الشيب غزا شعري، وأقدم التعازي إلى الماضي الجميل في خضم الريح والصقيع، وتشعر الأشجار العتيقة وأمواج المياه الرمادية بالحزن الأبدي». وظهر البطل القومي يوه فيي الذي أقسم على مجابهة الخطوب والأخطار ومقاومة العدو عندما واجهت البلاد الفناء والانهيار، وقاد جيشاً من المقاتلين الخلصاء الذين دحروا قوات أسرة جين مرات عديدة، وصدرت إليه الأوامر في عام 1933 إن يتوجه بقواته إلى يوه خه لحماية جيانغشي وخواقوانغ. وفي هذه الأثناء، صعد برج هوانغ خه، وكتب قصيدة تذكارية بعنوان: «مشاعر صعود برج هوانغ خه» عبر فيها عن طموحاته الوطنية في مقاومة العدو قائلاً: «يسرح بصرى في البعيد في السهول الوسطى التي تغص بالمدن، باستثناء الأماكن الجدباء. وتذكرت تلك السنين التي شهدت الزهور اليانعة وأشجار الصفصاف، وأبنية العنقاء والتنانين، والفتيات ترقص أمام جبل وانسوي، وتصدح أصوات الموسيقى والغناء في القصور. ولكن اليوم الخيالة والفرسان ينتشرون في كافة أنحاء الضاحية، وتهب الريح الشريرة، والقوات تنزف دماً، وجثث الشعب متناثرة في الوديان.

(16) «مشاعر وأحاسيس صعود برج يويانغ مرة أخرى».

وأتنهد تحسراً على ما آل إليه حال جبل هان وبات خالياً من البشر. ومتى يكون لدينا جيش جرار بعد الانهيار، يصول ويجول ويسحق الأعداء. ولكن، عدت اليوم وأواصل السياحة والتنزه في هان يانغ وأصعد برج هوانغ خه». وهذه القصيدة –مثل نظيرتها قصيدة «مان جينغ هونغ»– مفعمة بالمشاعر الوطنية والقلق على ما أصاب الشعب من المحن والأحن.

وتفاقمت حدة القلاقل والزعازع في الفترة الممتدة بين الأسرتين الحاكمتين سونغ ويوان. وزحفت قوات يوان إلى الجنوب بلا انقطاع، وأصبحت السلطة السياسية في أسرة سونغ الجنوبية على شفا الهلاك. وكان ون تيان شيانغ من أهالي جيانغشي، وأخذ على عاتقه مسؤولية سلامة البلاد، وقاد بنفسه قوات سونغ وخاض غمار معركة حامية مع جيش أسرة يوان. وكان ون يسعى إلى المناصب الرفيعة، ولذلك قاوم أسرة يوان، وذهب إلى مدينة نانتشانغ مرات عديدة، وقصيدته «برج تينغ وانغ» عكست طموحاته السامية من الوطنية ومقاومة الأعداء، جاء فيها: «أرقب من النافذة الأمواج الزمردية التي تفوح منها رائحة الحبر الصيني. ويبدو فلك البروج في الفصول الأربعة جلياً، وجبل جيانغ مثل لفيفة مرسومة طويلة. ولا أعرف إلى أين يحمل الهواء العائد زوجين من البط البري؟ ومن يقود زورقاً في المطر المجمد؟ أعاني من التشرد طوال عشر سنوات، وأشجار الصفصاف أمام البرج نمت وكبرت. طبعاً، ضحى تيان ون شيانغ بحياته من أجل إحراز النصر وإنقاذ سلامة الأمة. وهكذا يكون الأبطال دائماً، والمرأة تحذو حذوهم أيضاً! ففي مدينة يويانغ القى جيش يوان القبض على عقيلة شيوه جون باو، ونقلها إلى مدينة هانتشو، ونظراً لأنها رفضت الظلم والاضطهاد وامتهان كرامتها، وكتبت موشحاً بعنوان «مان تينغ فان»، ثم رمت نفسها في النهر وماتت غرقاً. ويذكر تاو زونغ يي في كتابه «سجل توقف الزراعة» في أواخر أسرة يوان، أن: «عقيلة شيوه أُعتقلت وتم ترحيلها إلى هانغتشو وأقامت هناك، والمسافة من يويانغ إلى هانتشو تبلغ أكثر من خمسمائة كيلو متر. وافتتن بها مسؤول أسرة يوان افتتاناً شديداً، وحاول الإيقاع بها، ولكن باءت محاولاته بالفشل في كل مرة. وكانت رائعة الجمال والحسن، ولذلك لم يقتلها هذا المسؤول الذي استشاط غضباً ذات يوم، واصدر أمراً بإحضارها كرهاً وقسراً، وقالت له: «انتظر حتى أقدم القربان لزوجي، ثم أصبح زوجة لك، فلا تتعجل ولدينا متسع من الوقت، فعلام كل هذا الحنق والغضب؟ انفرجت أسارير المسؤول وغمرته الغبطة ووافق على

رأيها. وتهندمت الزوجة في أروع ثيابها وحرقت البخور، وركعت مرتين، وهنأت زوجها سراً، ويممت وجهها صوب الجنوب، وانخرطت في البكاء، وكتبت على الجدران الموشح الصيني «مان شينغ فان»، ثم رمت نفسها في مستنقع كبير ولفظت أنفاسها». وقراءة هذه الفقرة، تجسد الإرادة الفولاذية والذكاء والفطنة لدى المرأة الصينية، والقراءة الدقيقة والمتأنية للموشح تجعلنا نشعر بالدهشة، حيث كتبت تقول: «الصين تنعم بالازدهار والثراء، وحوض تشانغجيانغ ينجب الأبطال والشخصيات المرموقة، ومازالت تنتشر العادات والتقاليد الرفيعة في عهد حكم شوان جينغ. النوافذ خضراء، والأبواب حمراء، والقمر وضاء في الأفق البعيد. واندلعت الحرب على حين غرة، وارتفعت الرايات، وتدفق الجنود البواسل إلى ساحة المعركة، وانطلقت القوات إلى الأمام، واكتسحت ريح الحرب أبراج الرقص والغناء، وتساقطت الأزهار، وانتشر القلق والفوضى. وبعد ثلاثمائة سنة، اندثرت الآمال وجاء السخط واليأس. ومن حسن الطالع، أنني نجوت من الموت وسافرت إلى شمال البلاد، وأصبحت من ضيوف مدينة نانتشو. أين زوجي الذي غاب في غبار الحرب؟ لقد وهنت قواي، وأصبحت كسيرة الفؤاد، عاجزة عن لقاء زوجي إلى الآن. ومنذ اليوم فصاعداً، انكسرت روحي وذهبت أدراج الرياح،واشتاق إلى برج يويانغ». وهنا برج يويانغ ليس فقط رمزاً لسعادة المؤلف، بل يعتبر رمزاً لازدهار الأمة وتطورها أيضاً.

ونعرج على تاريخ أسرة تشينغ ونأخذ منه مثالاً. حكمت أسرة تشينغ البلاد لمدة مائتين وسبعة وستين عاماً، وشهدت تغيرات هائلة من الازدهار إلى الانهيار؛ حيث تحولت من إمبراطورية إقطاعية موحدة في عهد حكم كل من كانغشي، وتشيان لونغ إلى دولة شبه مستعمرة وشبه إقطاعية في عهد الإمبراطورة تسي شي التي فرطت بسيادة البلاد وأصابتها بالخزي والعار، وكان ذلك بمثابة ظاهرة التغير النوعي في التاريخ الصيني، ويمكن أن نشعر بها في أشعار الأبراج الثلاثة. وعلى الجملة، إن عهد الإمبراطورين كانغشي، وتشيان لونغ شهد الازدهار الاقتصادي نسبياً، وتعززت قوة الدولة إلى حد ما، وشهدت العلاقات الطبقية والقومية انفراجاً نسبياً أيضاً. وكان النظام الإقطاعي مستقراً بعض الشيء، وتجسد ذلك في جوٍ معتدل هادئ، وسلسل في أشعار الأبراج الثلاثة التي صعد إليها –طبعاً– الأدباء والمثقفون مثل الأديب والخطاط وانغ ون جي، الذي كان معاصراً لفترة حكم الإمبراطور

تشيان لونغ، وترقى بعد الفحوص الإمبراطورية في عام 1760م، وكان مؤلفاً للكتب في معهد هان ين، ومُعلماً للإمبراطور، كما كان محافظاً لمدينة لينآن في مقاطعة يونان، وعندما وطئت قدماه مدينة يويانغ كتب قصيدته «صعود برج يويانغ» وجسد فيها مشاعره الحرة الطليقة، الهادئة والمريحة والتي تختلف اختلافاً نسبياً عن نظيره هوانغ تينغ جيان. وجاء في هذه القصيدة: «تمتزج أصوات الربيع بالأمواج، وتنتشر بين الأزهار، وفي الأصيل يرسو زورق بمفرده في الأفق البعيد. وأجلس فوق قمة برج يويانغ مرتاح البال، وأصنع شاياً من ماء بحيرة دونغ تينغ قبالة جبل جون». وهناك أديب آخر كان معاصراً أيضاً لفترة حكم تشيان لونغ، ويدعى شي يون يوي، وعندما كان يتفقد أحوال المدارس في مقاطعة خونان، كتب أيضاً قصيدة بعنوان «برج يويانغ»، ويمكننا القول إنها أظهرت أحوال المجتمع الطبقية آنذاك، على الرغم من أنها امتدحت الإمبراطور الحاكم، وجاء فيها: «نسمع حفيف أوراق الأشجار التي تتساقط فوق زورقي الفاخر، وجبل جون يبدو على شكل كعكة الشعر سابحاً في الأفق البعيد. وزة برية بمفردها تغرد، والسماء والماء يتعانقان. الشمس تميل نحو المغيب وأنا أصعد البرج. في المساء الأمواج هادئة في تسانغ جيانغ وتزخر بالأسماك والتنانين، وتنتشر أشجار اليوسفي والساج، والبيوت البيضاء يغطيها الصقيع الأحمر في الخريف. تزدهر الحياة في عهد حكم الإمبراطور أكثر فأكثر، وتنعم كافة فئات المجتمع من الأرستقراطيين والوجهاء وعامة الشعب بالحياة الرغدة الهادئة». ولكن اختلفت الأحوال تماماً بقدوم العصر الذي عاش فيه الأديب هوانغ زونغ شيان، حيث ذاقت الصين مرارة حرب الأفيون الأولى والثانية، وأبرمت حكومة تشينغ سلسلة من المعاهدات التي امتهنت كرامة الأمة، وعمقت جراحها، وسببت أراقها، ويستمر تردي الأوضاع حتى نشوب الحرب اليابانية- الصينية في عام 1894، ومنيت القوات الصينية بهزائم قاسية متتالية، وتم تدمير قوات الأسطول الشمالي تدميراً كاملاً، وأُجبرت حكومة تشينغ على التوقيع على «معاهدة ماقوان» التي نصت على تجزئة أراضي الصين ودفع تعويضات لليابان. وفي هذه الأثناء، كان الأديب هوانغ زونغ شيان يقوم بإعداد البرامج والخطط الدراسية في مقاطعة خوبي، كما تولى وظيفة في مقاطعة خونان، ولذا صعد برج هوانغ خه مرتين، وبرج يويانغ مرة واحدة. وكتب قصيدتين جسدتا تاريخ أزمة الأمة وانهيارها وتدهور قوتها، وعبرتا عن الروح العظيمة من الوطنية ومعاداة الأعداء. ومثال

ذلك، قصيدة «صعود برج هوانغ خه» جاء فيها: «طائر الكركي الأصفر يقف فوق صخرة ناتئة، وأشعة الشمس تتدفق من الشرق. واتكئ على داربزين البرج مرة أخرى، بعد أن حضرت هنا للمرة الثانية في الخريف. الجميع يغطون في سُبات عميق ويشخرون، وأنا طاعن في السن، أترنح يمنة ويسرة، وأصعد البرج وحدي. الببغاء يستطيع الكلام ويعبر عن أحزاني، وطائر الرخ مهيض الجناح في السماء يواسيني. وتسيل دموعي تحت الظليلة الجديدة. ومنظر الأمواج يعلوها الدخان يجدد أحزاني وقلقي دائماً». كما جاء أيضاً في قصيدته «صعود برج يويانغ»: «ممر عظيم شامخ في أعالي النهر، وتتراءى أمامي بضع مئات من البحيرات. القلق يعتصر قلبي فجأة، وأرفع رأسي وأحملق في الشمس، واليابان فتتت أوصال بلادي. والأجانب مهرجون أصلاً منذ القدم، فكيف أصبحوا اليوم صخرة راسخة في قلب تيار متدفق؟ ويصعد إلى قمة البرج الأجانب من ذوي العيون الخضراء والذقون الحمراء، وفي أيديهم عدسات مكبرة، يا ترى ما هدفهم؟!» وقدم الشاعر ديباجة في مقدمة قصيدتيه كلّ على انفراد على النحو التالي: «في عام 1895 كنت ضيفاً مؤقتاً في مقاطعة خوبي، وصعدت البرج، وترامت إلى مسامعي فجأة أخبار هزيمة واحتلال مقاطعة تايوان، وعمني القلق والحزن وعدت أدراجي في التو». «رأيت خريطة تبين مناطق نفوذ القوي الغربية في بلادي، وتشمل منبع ومصب نهر اليانجتسي، وتشجيانغ وخونان والتي أصبحت في قبضة الإنجليز!» وعندما كانت تايوان تحت قيادة تشيو فينغ جيا، وليو يونغ خو وآخرين في مايو عام 1835، خاضوا غمار معركة حامية مع المحتلين اليابانيين، وأخيراً وبسبب فساد أسرة تشينغ، استولت اليابان على تايوان، وفشلت مقاومة الجيش والشعب في تايوان في دحر القوات اليابانية، وسمع هوانغ زونغ شيان هذه الأخبار عندما كان يصعد برج هوانغ خه والتي أفسدت متعته وثبطت همته، وخاب رجاؤه. وقصيدة برج هوانغ خه كتبها في خريف عام 1896، عندما زار البرج للمرة الثانية، ولذلك تتضمن جملة «اتكئ على داربزين البرج مرة أخرى، بعد أن حضرت هنا للمرة الثانية في الخريف». وفي ذاك العام، كتب قصيدة برج يويانغ، وشجب فيها بقوة مؤامرة الاستعمار الرامية إلى نهب أراضي الصين. إن مثل هذه الروح العظيمة من الوطنية ومناهضة الأعداء قد ظهرت في أشعار الأبراج الثلاثة، أليس يوضح ذلك بالضبط، إن التاريخ الصيني دخل مرحلة الفوضى والاضطهاد والظلم الناجمة عن احتلال القوي الكبرى؟

إن الأمثلة المذكورة أعلاه توضح بصورة كافية أن أشعار الأبراج الثلاثة –مثل سائر الأعمال الأدبية الصينية– تعد بمثابة مرآة تجعل الناس يفهمون التاريخ، ويدركون التاريخ، وبصرف النظر عن أنها مرآة معقدة، لكنها –على نحوٍ من الأنحاء– مرآة. إن التنهد والتحسر على الاحتلال والاضمحلال يتجسدان في رسم المشاهد الطبيعية، ومشاعر الأفراح والأتراح تتغلل في موجودات الكون، ويعد ذلك بمنزلة القيمة التاريخية لشعار الأبراج الثلاثة، والتقاليد القومية العميقة للأدب الصيني أيضاً.

حكايات وأوبريتات تقليدية وروايات الأبراج الثلاثة

تعتبر أشعار الأبراج الثلاثة جزءاً رئيسياً من الإبداع الأدبي، ومنجزاتها الأدبية رفيعة المستوى نسبياً، وتأثيرها هائل إلى حد ما. وبالإضافة إلى هذه الأشعار، هناك حكايات، وأوبريتات تقليدية، وروايات هذه الأبراج التي تستحق الاهتمام والدراسة؛ لأنها –من منظور أفقي– عكست العلاقة بين الأبراج الثلاثة والأدب الكلاسيكي الصيني. ولذلك لا تعتزم السطور التالية مناقشة هذه الأعمال الأدبية بصورة مسهبة، بل نسعى إلى إجمال ملامح بعض الأعمال المعنية بهذه الأحوال بصورة موجزة.

نشأت حكايات وأساطير الأبراج الثلاثة منذ زمن بعيد نسبياً، ومن بينها كانت روايات برج هوانغ خه الأقدم والأكثر عدداً. ومثال ذلك، فيما يتعلق بأصل وفصل هذا البرج، في مملكة ليانغ ألف شياو تسي شيانغ كتاباً بعنوان: «كتاب مملكة تشي الجنوبية» جاء فيه أن: «برج هوانغ خه يوجد فوق صخرة ناتئة تحمل الاسم ذاته هوانغ خه (طائر الكركي الأصفر)، وامتطى القديس تسيان ظهر هذا الطائر ومرَّ أمام هذا البرج». ويوضح ذلك أن هذه الحكاية نشأت وانتشرت على نطاق واسع بين مملكتي تشي وليانغ. وبالإضافة إلى ذلك، ذكر كتاب «سجل العرفان بالجميل» أن: «شخصاً يدعى تشين كان يبيع الخمور في جبل، وكان هناك راهب طاوي يحتسي خمره مرات عديدة، وشين لا يرغب في أن يدفع الراهب ثمن الخمر، وعندما كان الأخير على وشك الانصراف، أخذ قشرة يوسفي ورسم طائر الكركي على جدار، وقال لبائع الخمور: «عندما يأتي زبون لاحتساء الخمر، صفق بيدك حتى تلفت انتباه الكركي الذي يأتيك راقصاً من السماء ويجذب الزبائن، ثم تصبح

ثرياً»، وبعد عشر سنوات رجع الراهب إلى الجبل، حاملاً معه الناي الحديدي الذي عشقه وينفخ فيه، وبعد أن انتهى من العزف، هبطت السحب البيضاء من السماء، كما هبط طائر الكركي من السماء راقصاً، فامتطى الراهب ظهر الكركي، ثم شيد شين في هذا المكان برجاً، وأطلق عليه برج شين شي»[17]. أما كتاب «طرائف وعجائب» فذكر أن: «شون هاواي كان يعيش بمعزل عن الناس، وقلما يتناول الطعام، ويحب التجوال والسياحة في الشرق، حتى صعد برج هوانغ خه في جيانغشا،ونظر نحو الغرب والجنوب، وشاهد شيئاً ما يهبط من السماء، وسقط أمامه، فرأى جندياً يمتطي ظهر طائر الكركي الذي وقف بجانب الباب، وكان قديس يجلس على حصيرة، ويرتدي ملابس على شكل قوس قزح، ورحب بالجندي، وتناولا الطعام سوياً، ثم استأذن وانصرف، وامتطى ظهر هذا الطائر وصعد إلى السماء وغاب عن الأنظار». ويرى البعض أن كتاب «طرائف وعجائب» من تأليف ليانغ رين فانغ، ولكن توصلت أطروحات أديب الصين لوشون أنه من تأليف كاتب كان معاصراً لأسرة تانغ أو سونغ حقاً. وبذل باحثون جهوداً مضنية من أجل تأريخ برج هوانغ خه على مر العصور، ومعرفة «القديس» الذي يرتبط بعلاقة بهذا البرج. وفي الواقع، وبصرف النظر عن معرفة هذا القديس، فإن ذلك كله يعد أسطورة، ويعتبر بمنزلة خلع الجمال والخيال على برج هوانغ خه، وإثبات أن تاريخه غير طاوي. وتكمن المشكلة في أن أساطير برج هوانغ خه ترتبط بالطاوية، ولا ترتبط بثمة علاقة بالبوذية. ومثال ذلك، في أسرة تانغ كتب دو قوانغ تينغ كتاباً بعنوان «سجل طرائف عجيبة» ذكر فيه: «في مقاطعة خوبي يطل برج هوانغ خه على نهر، وهناك يوجد نصب تذكاري لزعيم طاوي اسمه (لوا)، قيل إنه يظهر دائماً في هذه المقاطعة، وتوجد كعكتا شعر في رأسه، ويكدح بين صفوف الشعب، ولا ينبس بنت شفة. وذات يوم وقعت حادثة جد خطيرة في الولاية، فر على إثرها شخص ما وغادر الولاية مذعوراً، وانحنى أمام القديس، وهرع إلى نهر أسفل البرج، وشعر الجميع بالاستغراب. وسأل محافظ المدينة القديس لماذا سب ولعن هذا الشخص؟ فأجاب قائلاً: «إن الشخص الذي نهرته هو التنين الأبيض الذي يقطن النهر، ويسعى إلى إلحاق الأضرار بالمدينة سراً، ولذلك لعنته وشجبته». وارتاب المحافظ من أن القديس يخدعه، وطلب منه أن يرى هذا التنين إذا كان موجوداً حقاً أم

(17) مقتبسة من كتاب «تاريخ جبل هوانغ خه» من تأليف تشينغ تونغ جي.

مجرد وهم. وصعد القديس والمحافظ البرج، ورمى القديس تميمة في النهر، فأظلمت السماء بعد برهة، وهبط الليل على صفحة الماء، وظهر التنين الأبيض، وطوله عدة أمتار، وشاهده الجميع، ثم اختفى بعد فترة. وكان هذا القديس هو التنين الأبيض الذي يظهر دائماً في مقاطعة سيتشوان والمسؤول عن المياه والجفاف هناك». إن ما ذكره دو قوانغ يعكس الأحوال في عصره، ولكن مثل هذه القصص والحكايات الغريبة هي من فبركة واختلاق الطاويين. وبقدوم عصر سونغ، انتشرت على نطاق واسع أسطورة أن الجندي العجوز الذي يحرس المَدينة أسفل برج هوانغ خه قابل قديساً، وأشار كتاب «سجل مشاهدات غريبة» من تأليف شوا بو إلى هذه الأسطورة حيث ذكر أن: جندياً طاعناً في السن يقوم بحراسة المدينة أسفل برج هوانغ خه، وقبل انبلاج الفجر، يدلف إلى كهف ويتعبد. وفي مساء ذات يوم، سطع نور القمر في السماء مثل بياض النهار، وشاهد ثلاثة رهبان طاويين يخرجون من الكهف، ويترنحون لمدة طويلة، ثم عادوا إلى الهدف، وحاول هذا الجندي الانضمام إليهم طلباً للثروة والمكانة الرفيعة، ولكن قذفه راهب طاوي بحجرٍ، وأوصد باب الكهف. وفي اليوم التالي، رأى الحجر وقد تحول إلى كتلة من الذهب الأصفر، فقطعها إرباً إرباً وباعها، وقام رئيس الكتيبة بحملة تفتيشية وقبض عليه واتهمه بالسرقة، ولكن الجندي أخبره بالحقيقة، ولذا أمر بنقل الحجر إلى دار الوالي، وهناك تغيرت كتلة الذهب الأصفر، ولم تعد ذهباً، ولا حجراً، ولا رصاصاً، ولا يشماً، ومازالت محفوظة في مستودع الجيش إلى الآن». ووصف هذه الأسطورة الأديب صوشي في قصيدته عن هذا البرج بعنوان «تسجيل ما سمعته عن برج هوانغ خه من صديقي فينغ وانغشي»، وصنع هذا الصنيع الشاعر وانغشي بينغ في قصيدته «برج هوانغ خه». ومع ظهور قصة الأولياء الثمانية وذيوعها، انتعشت صورة القديس ليوه دونغ بينغ في الأذهان. ويعتقد الناس أنه خلف وراءه آثار الأولياء والقديسين في برج هوانغ خه، ثم تفسيرات متكلفة حول الآثار القديمة بأنها تنتمي إلى كهف الأولياء والقديسين. كما شهد برج يويانغ العديد من الحكايات المعنية بالقديس ليوه دونغ بينغ، منها القصيدة التي تعتبر مثالاً نموذجياً بعنوان «ليوه دونغ بينغ يسكر ثلاث مرات في برج يويانغ»، والتي مازالت تحظى بشهرة واسعة النطاق بين صفوف الشعب إلى الآن. ومن ثم، تم تشييد ظليلة السكران ثلاث مرات أسفل هذا البرج. وعلى الرغم من أن حكايات برج تينغ وانغ تشير إلى

ليوه دونغ بينغ، إلا أنها ذكرت أن الشاعر وانغ بو كتب افتتاحية هذا البرج، وكانت عبارة عن أنه استعان بقوة الآلهة قبالة جبل مادانغ، ثم أصبح قديساً في نهاية المطاف. ولكن لماذا معظم حكايات الأبراج الثلاثة وأساطيرها ترتبط بالطاوية؟ يرجع ذلك -بصفة عامة- إلى أن الديانة الطاوية نمت ونشأت وترعرعت في التربة الصينية. وتشتمل على العديد من الأساطير الصينية التي تتحلى بطابع ونكهة فطرية من الخيال والرومانسية، بالإضافة إلى أن «القصور السماوية وبيوت الأولياء» في الديانة البوذية عبارة -في أغلب الأحيان- عن بيئة من الخيال لأبنية شامخة وشاهقة وعظيمة في الحياة الواقعية، وفي مثل هذه البيئة يرفرف جناح الخيال بجناحيه ويحتاج إلى أن يحرز المزيد من الود والمحبة والكرم بصورة تفوق كثيراً «الأرض الطاهرة والجنة الغربية» في الديانة البوذية.

وظهرت الأوبرا التقليدية المعنية بالأبراج الثلاثة في أسرة يوان. ومن الأوبريتات الموجودة حالياً ويرجع تاريخها إلى هذه الأسرة، أوبريت «ليوه دونغ بينغ يسكر ثلاث مرات في برج يويانغ» من تأليف ماتشين يوان، وأوبريت «ليو شوان دا يصعد برج هوانغ خه وهو سكران» ولا نعرف مؤلفه، وقد ظهر كلّ منهما على انفراد في كتابي «مختارات أوبريتات أسرة يوان» من تأليف تسانغ جين شو في أسرة مينغ، و«مختارات أخرى من أوبريتات أسرة يوان» من إعداد سوي شو لين. وقصة أوبريت «ليوه دونغ يسكر ثلاث مرات في برج يويانغ» تختلف اختلافاً كبيراً عن قصص الأساطير، وربما تعتبر بمثابة الملامح الأساسية للأسطورة في ذلك الحين. وقصة هذا الأوبريت تحكي أن ليوه دونغ بينغ أقام جنازاً عن روح ميت من أجل أن يحول شجرة صفصاف عتيقة أسفل برج يويانغ إلى جنية، ولذلك احتسى الخمر حتى الثمالة داخل هذا البرج، واستخدم فنون السحر والشعوذة، وفي نهاية المطاف، ودع ليوه وهذه الشجرة، التي أصبحت صاحبة محل الخمور، هذا البرج وصعدا معاً إلى قصر لين شيوه في عالم الجن. وأوبريت «برج يويانغ» لا يعتبر العمل النموذج للأديب ماتشين يوان، وعَبَّر عن الأفكار السلبية التي تنأى عن الحقيقة لدى المؤلف، ولكن جسد بصورة معقدة أيضاً آمال وتطلعات جمهور العبيد الكادحين الذين يسعون وراء السعادة الوهمية، ويعتبر ذلك نوعاً من المقاومة السلبية للاضطهاد الاجتماعي. واقتبس أوبريت «ليو شوان دا يصعد برج هوانغ خه وهو سكران» مادته الأدبية من تاريخ الممالك الثلاث حيث سرد تحالف قوات مملكتي وو،

وشو في منطقة تشي بي وهزمت قوات تساو، وبعد ذلك قاد البطل العسكري جوقة ليانغ جيشه وشق طريقه إلى هوا رونغ لمطاردة شاو، واستغل تشويه هذه الفرصة، ودعا ليوجيه إلى حفلة في برج هوانغ خه، في محاولة لتدبير مؤامرة واغتياله. وعندما سمع جوقه هذه الأخبار بعث قوانغ تينغ، وجيان وي إلى هذا البرج لإنقاذ ليوبيه الذي بدوره انتهز فرصة أن الخمر لعبت برأس عدوه تشووى ولاذ بالفرار. وبصرف النظر عن بناء برج هوانغ خه بعد ثلاثة عشر عاماً من اندلاع حرب تشي بي، لكنه أظهر أن تاريخ الممالك الثلاث أثر تأثيراً عميقاً في ثقافة الأبراج الثلاثة. وفهرس أوبريتات أسرة يوان في كتاب «مختارات أوبريتات أسرة يوان» تتضمن أوبريت «تحطيم برج هوانغ خه»، وليس في جعبتنا وسيلة لنعرف المضمون المحدد لهذا الأوبريت، ولكن نستنتج من اسمه، أنه مقتبس تقريباً من قصائد لي باي التي جاء فيها ما معناه: «أنا أحطم برج هوانغ من أجلك، وأنت تهدم واحة الببغاء من أجلي». أما بخصوص أوبريتات برج تينغ وانغ، فقد شاهدنا «موشح برج تينغ وانغ» من تأليف جينغ يو في أوائل أسرة تشينغ، ولا نعرف تفاصيل حياته، ونعرف فقط أنه كان معاصراً لأسرة تشينغ، ومن المرجح جداً أنه كان من مؤيدي هذه الأسرة، واختفى الاسم الحقيقي لهذا الموشح، وكان يعرف آنذاك بـ«موشح ضيف زهرة المايهوا». و«موشح برج تينغ وانغ» يعكس الخلفية السياسية للتكالب على السلطة بين الإمبراطورة وو تسي تيان، وشيوه جينغ يه الذي قام بتعبئة القوات ضدها، كما يسرد قصة زيارة الشاعر وانغ بو لأقاربه في آننان، وكتب هناك افتتاحية هذا البرج، والتقى مع لواشيا ابنه ملك التنانين، وفي أثناء عودته من هذه الزيارة، التحق بالفحوص الإمبراطورية ونجح فيها، وتزوج لواشيا، وأصبح مسؤولاً في البلاط الإمبراطوري آنذاك، ثم صعد مع الملك تينغ إلى السماء في نهاية المطاف. يركز مضمون القصة كثيراً على عادة شائعة من أن الأكفاء يطاردون الحسناوات، وهيكلها يتسم بالمرونة والتناغم. ولكن المؤلف يجافي الحقيقة التاريخية ويذكر أن هذه الإمبراطورة أُجبرت على الانتحار، ونجحت معارضة شيوه جينغ يه ضدها، وربما يتسم ذلك بالمغزى الكامن المحدد في العصر الذي شهد إحلال أسرة تشينغ محل نظيرتها مينغ. وبالإضافة إلى ذلك، كتب جينغ يوي أوبريت «برج هوانغ خه»، وصاحب هذه السطور لم يره، ولذا لا يعرف شيئاً عن مضمونه.

أما روايات الأبراج الثلاثة فهي ليست كثيرة، حيث توجد روايتان هما: «رياح سماوية

في برج تينغ وانغ» و«أناس ليسوا من قومية هان يخطفون محظية الملك، وقوات وهمية تعيدها أدراجها». الرواية الأولى ظهرت في المجلد الأربعين لكتاب «أقوال خالدة توقظ الأجيال»، أما الرواية الثانية فقد ظهرت في المجلد السابع والعشرين لكتاب «حكايات مثيرة (المجلد الثاني)». تحكي الرواية الأولى أن الشاعر وانغ بو عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، قام بالتجوال والسياحة في أنحاء البلاد بمرافقة خاله، ثم وصل إلى جبل مادانغ حيث قابل هناك حورية النهر تشوانغ يوان، وحملته ريح لحضور مأدبة في تينغ وانغ، وأثناء مشاركته فيها استل قلمه وكتب افتتاحية هذا البرج، ثم توجه إلى مدينة هاي قه لزيارة أقاربه، وفي جزيرة بالبحر قابل هذه الحورية مرة أخرى، وذهبا سوياً إلى جبل الأولياء والجنيات فانغ لانغ. من الجلي أن عقدة القصة تختلف عن «موشح برج تينغ وانغ»، وتتشابه مع «مقتبسات ومقتطفات من أسرة تانغ» من تأليف تشونغ قوانغ التي سجلت مآثر الشاعر وانغ بو، وتتمحور أحداثها على الإبداع الشعبي وأساسه سجلات تاريخية والخيال والتصورات والتجميل. وتختلف الرواية الثانية عن ذلك، فهي تتحلى بنكهة إبداع الأدباء والمثقفين بدرجة أكبر، وتحكي أن ثرياً يدعى وانغ شيوه تساي في محافظة هوانغ فينغ في أسرة مينغ اصطحب محظية جميلة تدعى هوي فينغ للتنزه والسياحة في الأماكن السياحية المشهورة مثل برج يويانغ وبحيرة دونغ تينغ، وتعرضت هذه المحظية لحادث اختطاف من جانب كه تشين زعيم عصابة في هذه البحيرة. وذهب جيانغ شيوه تساي إلى برج هوانغ خه لاحتساء الخمر مع صديقه الحميم شيانغ تشينغ جون، وعرف أن هوي فينغ وقعت في قبضة عصابة اللصوص، فاستعار مركباً ضخماً في التو، وحصل على تصريح من دار الوالي بالسياحة والتجوال في الأنهار والبحار، حتى دخل كهف النمور وأعد خطة أنقذت هذه المحظية. وتفتقر هذه الرواية إلى المغزى العميق، ولكن وقعت أحداثها في برجي يويانغ، وهوانغ خه، وأبرزت للعيان المشاهد الجميلة في هذين البرجين التي قلما نرى مثلها في الروايات الكلاسيكية.

وما ذكرناه آنفاً يمكننا من معرفة تأثير الأبراج الثلاثة في الأدب الكلاسيكي الصيني، ولا يشمل هذا التأثير الشعر فقط، بل يتضمن أيضاً الحكايات والأوبريتات والروايات. وبصرف النظر عن الأجناس الأدبية الثلاثة الأخيرة نوعاً وكماً، إلا أنها لا يمكن مضاهاتها بالشعر. ولكن يوضح ذلك بصورة كاملة مكانة هذه الأبراج في تاريخ الأدب الصيني، وفي تاريخ

الثقافة الصينية أيضاً. وتتوارث الأجيال الأبراج الثلاثة التي مازالت تحفز روح الأمة إلى الآن، وليس ذلك شيئاً عشوائياً أو ارتجالياً إطلاقاً!

ويضيف المؤلف أنه عندما انتهى من مسودة هذه المقالة، سمع أخباراً سارة مفادها أن مكتبة مقاطعة خوبي تقوم بطبع ونشر النسخة الوحيدة لديها من «الأعمال الكاملة في برج هوانغ خه»، ولم يستطع أن يرى هذا المجلد للأسف الشديد. ومن ثم، فإن القصص والأشعار المعنية بهذا البرج والتي ذكرها في متن هذا الكتاب ليست كاملة!

ثانياً: خرافة الإيمان بالألوان في الثقافة الصينية

خرافة الايمان بالألوان تعني أن الناس يقدرون ويمجدون الألوان ويفرضون حظراً عليها أيضاً، ويعد ذلك ظاهرة شائعة جداً في ثقافة جميع الأمم في كافة أنحاء العالم. ولكن أي الألوان تحظى بالاهتمام الشديد والتقدير، وأي الألوان يفرض عليها الحظر والتحريم؟ إن الأمم تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً في هذا الخصوص. والسبب في نشأة هذا الاختلاف هو تباين الخلفية التاريخية، والوعي الفلسفي وسيكولوجية الجمال داخل كل أمة من الأمم. فعلى سبيل المثال، قومية هان تمثل الركيزة الأساسية للأمة الصينية، ونجد في تقاليدها أنها تقدر وتمجد اللونين الأحمر والأصفر، وتزدري اللونين الأسود والأبيض، وتحبذ اللون الأحمر، وتمقت اللون الأبيض على وجه الخصوص. ويعتبر ذلك صفة مميزة وفريدة داخل هذه القومية. والسؤال الآن ما أسباب انتشار هذه العادة؟ وفي أي المجالات تتجسد على الصعيدين التاريخي والعملي؟ تحاول السطور التالية الإجابة عن هذا التساؤل.

اللون – حسب تعريف العلم – هو ظاهرة خاصة بحاسة الرؤية التي تثيرها موجة ضوئية محددة منبعثة من الأجسام أو منعكسة منها أو تتخللها، كما أن اللون هو خاصية أساسية لحاسة الرؤية لدى عين الإنسان. وفي التقاليد الصينية، نشأة الألوان تتحلى بمغزى الغموض والألغاز والمضمون الثقافي الثري، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الكون ومذهب العناصر الخمسة في الصين القديمة، بالإضافة إلى أن خرافة الايمان بالألوان التي تشكلت على هذا الأساس تعد جزءاً لا يتجزأ من حركة الشمس والقمر وتغيرات الفصول الأربعة. وأظهرت الكثير من السجلات القديمة أنه نظراً لأن العلوم الأولية في حد ذاتها بدائية ومتخلفة، والتأثير الهائل لمذهب العناصر الخمسة، فإن المفهوم الرئيسي للكون لدى الصينيين الأقدمين يرى أن السماء دائرية والأرض مربعة، والسماء والأرض ينقسمان إلى الجهات الخمس: الشرق، الجنوب، الغرب، الشمال، الوسط، وهذه الجهات تنتمي إلى الخشب، النار، المعدن، الماء، التراب، ويطلق عليها الفوائد (العناصر) الخمسة، والتي تتحلى بالألوان الخمسة هي: الأزرق، الأحمر، الأبيض، الأسود، الأصفر، أو بسبب أن هذه الألوان الخمسة هي الألوان – من حيث جوهرها – الأساسية في المناطق الخمس الكبرى بين السماء والأرض، ولذلك

تعتبر الألوان الأصلية عبر التاريخ، كما تمتزج هذه الألوان وتكون ألوانا جديدة مثل اللون الأخضر من امتزاج اللونين الأزرق والأصفر، واللون الأحمر الزاهي من امتزاج الأحمر والأبيض، والأزرق الناتج من خلط اللونين الأزرق والأبيض، واللون الأرجواني من خلط الأحمر والأسود، وخلط اللون الأسود باللون الأصفر يشكّل اللون الأصفر الذي يميل إلى الاحمرار، وكلها تعتبر من الألوان الثانوية. كما اعتقد الأقدمون أن الجهات الخمس تتمتع بهذه الألوان الخمسة الأساسية في جوهرها، وتنقسم على النحو التالي: ملك اللون الأزرق في الشرق يدعى لين وي يانغ، وملك اللون الأحمر في الجنوب ويدعى تشي بياو نيو، وملك اللون الأبيض في الغرب ويسمى باي تشاو جو، وملك اللون الأسود في الشمال ويدعى تشي قوانغ جي، وملك اللون الأصفر هان شونيو في الوسط، كما ذكروا أن كل جهة من هذه الجهات يحكمها الملك العظيم ونائبه، فالشرق يحكمه الملك العظيم تاي خو ونائبه جومانغ، والجنوب يحكمه الملك يان دي ونائبه تشو دونغ، والغرب تحت سيطرة الملك العظيم شاو هاو ونائبه روشو، ويحكم الشمال الملك الكبير جوان شيوه ونائبه شوانمين، والإمبراطور هوانغ (الأصفر) يحكم الوسط هو ونائبه خوتو. ويوضح هذا التوزيع الإلهي أن مفهوم الألوان الخمسة والجهات الخمس يتحلى بالنكهة الدينية الشديدة والكثيفة. ولكن الأقدمين في الصين اعتبروا الزراعة هي الركيزة الأساسية وكانوا يتمتعون بالمهارة في رؤية ورصد الظواهر الفلكية، ولا يتسم ذلك كله بالفكر الديني تماماً، وفي الوقت نفسه كان يتحلى بالخيال العلمي أيضاً. فقد تصوروا أن السماء تحتوي على ثمانٍ وعشرين كوكبة، من بينها سبع كوكبات في الشرق وشكلها مثل التنين الأزرق، وسبع كوكبات في الجنوب شكلها مثل العصفور الأحمر، وسبع كوكبات في الغرب شكلها مثل النمر الأبيض، وسبع كوكبات في الشمال وشكلها مثل السلحفاة السمراء. كما اعتقدوا – حسب نمو المحاصيل وتغيرات المناخ– أن الربيع في الشرق ومسؤول عن حياة الكائنات، والصيف في الجنوب ومسؤول عن نمو الكائنات، والخريف في الغرب ومسؤول عن الحصاد، والشتاء في الشمال ومسؤول عن تخزين المحاصيل والحبوب. وعلى هذا النحو، وفي ضوء الاختلاط والامتزاج بين العلم والدين، تأسس نظام الاعتقاد والايمان الذي يتألف من الجهات الخمس، والعناصر الخمسة، والألوان الخمسة، والأباطرة الخمسة، وتغيرات الفصول الأربعة، كما أنه نظام معقد جداً،

ويتحلى بالغموض والألغاز (انظر شكل رقم –21).

واضطلع الناس بكافة الأنشطة داخل أطر هذا النظام، وابتدعوا ثقافة قديمة من الطقوس والمراسم والموسيقى تتسم بالسحر والغموض. وقد نشأت خرافة الإيمان بالألوان في الصين في نطاق هذه العملية. وحسب السجلات المذكورة في كتابي «تاريخ الطقوس» و«حوليات ليوي في الربيع والخريف» وفي غيرها من الكتب الأخرى أن القرارات الحكومية التي كان يصدرها ملك أسرة تشو في خلال اثني عشر شهراً في كل سنة يتم تنفيذها داخل هذا النظام من الإيمان والمعتقدات، وكان يقيم طقوساً محددة من تقديم القرابين في كل شهر، وفي منتصف العام يوم التقاء الخامس والسادس من الجذوع السماوية العشرة من أجل استقبال الفصول الأربعة وإصدار القرارات الحكومية. وكانت عربة وفرس الملك، والرايات التي يستخدمها، والملابس التي يرتديها، والأدوات اليشمية التي تستحوذ على إعجابه، يجب أن يتوافق ذلك كله مع المتطلبات الموسمية واتساق الألوان، فيستخدم اللون الأزرق (في الربيع)، واللون الأحمر (في الصيف)، واللون الأصفر (في منتصف العام)، والأبيض (في الخريف)، والأسود (في الشتاء)، وقرارات الفصول الأربعة تتوافق مع حياة النباتات في الربيع، ونموها في الصيف، وحصادها في الخريف، وتخزينها في الشتاء. ومثال ذلك، يشهد فصل الربيع إصدار القرارات التي تنص على الاهتمام بالشؤون الزراعية، وحظر قطع الأشجار، ومنع قتل الحشرات الصغيرة، والاهتمام بتربية الأطفال الصغار، ورعاية الأيتام، والتخلص من أدوات التعذيب، ووقف تنفيذ أحكام السجن، وتشييد المشاريع المائية والسدود، وشق الطرق وتمهيدها، وفي فصل الصيف تصدر قرارات جمع الأعشاب الطبية، وحظر قطع الأشجار الضخمة، والإفادة من أصحاب الكفاءات والمهارات ومنحهم الرتب النبيلة، واللطف واللين في معاملة السجناء، وعدم تنظيم رحلات تجارية، والحفاظ على المحاصيل وحمايتها من الأضرار، وفي فصل الخريف تكون قرارات تعبئة القوات وإرسالها في حملات تأديبية واسترداد الحقوق، وتطبيق القوانين بصرامة، وإعدام المجرمين، وإصدار الأوامر الصارمة، وجعل كل الموظفين وعامة الشعب يلتزمون بواجباتهم من حصاد وتخزين الحبوب، أما في فصل الشتاء فيجب بذل الجهود المضنية في التخزين والادخار حتى تمتلئ الصوامع بالغلال، وإصلاح أسوار المدينة، وتعزيز قوات الحدود، وإصلاح أدوات الحراثة،

وتنظيم أدوات الزراعة وغيرها.

ويجب الإشارة إلى أن أنشطة القرابين في خضم تغيرات الفصول الأربعة الدورية والقرارات السنوية، تعد – في الواقع– انعكاساً لعبادة الأقدمين الأولين للأرض والسماء والقمر والشمس، وتعتبر هذه العبادة البدائية –بالضبط– مصدر خرافة الايمان بالألوان في الصين. فعلى سبيل المثال، مصدر عبادة اللون الأحمر يكمن في عبادة إله الشمس، وحظر استخدام اللون الأبيض مصدره عبادة إله القمر وتأثره بأنشطة القرابين المذكورة أعلاه وتأثير القرارات الحكومية في الفصول الأربعة. ومن منظور نظام الاعتقاد المذكور آنفاً، فإن المسؤول عن الشرق يرمز إلى الإله تاي خو في الربيع، والمسؤول عن الجنوب يرمز إلى الإله يان وي في الصيف، وفي الواقع كلاهما يشيران إلى إله الشمس الذي كان يعبده الأقدمون الأولون في العصر القديم (كان يان دي هو إله النار لدى الأقدمين، ولا يوجد تناقض بينه وبين إله الشمس). واعتقد نفرٌ غير قليل من البحاث قديماً وحديثاً –بعد التحري وتقصي الحقائق– أن تاي خو هو الإله الكبير خو، وهو أيضاً الإله دامينغ، وجاء في كتاب «تاريخ الطقوس. فصل أدوات القرابين» أن: «الإله دامينغ وُلد في الشرق، وإله القمر وُلد في الغرب». ودامينغ هو الشمس، كما ذكر كتاب «تاريخ الملوك والأباطرة عبر العصور» أن: «الإله (يشير إلى تاي خو) وُلد في البرق، وكان يقيم أصلاً في الشرق، وليس في جعبته ثمة علة، ومسؤول عن الربيع، ووضاء مثل الشمس، ويُطلق عليه تاي خو». ويوضح ذلك أن تاي خو هو تسمية أخرى لإله الشمس. أما الملك يان دى، فقد ذكر كتاب «تاريخ النمر الأبيض– فصل العناصر الخمسة» أن: «يان دي هو الشمس أيضاً». وذكر كتاب «أسرة جين» أن: «الشمس هي جينات النار أيضاً». ويجعلنا ذلك ندرك أن ما تحدث عنه الأقدمون من النار يشير إلى النار الحامية للشمس، ولذلك إله النار يان دي هو بالضبط إله الشمس، ولا غرو أن نعتقد أن الشمس تشرق من الشرق، ودفؤها مثل الربيع، وتنمو الأشجار والأزهار في الربيع ولونها أخضر، ولذلك اعتقد الأقدمون أن الربيع في الشرق، والشرق يرمز إلى الأشجار، والأشجار لونها أخضر، والشمس مركزها في الجنوب، وحرارتها مثل الصيف، وتشبه النار الحامية، ولونها أحمر، ومن ثم اعتقد الأقدمون أن الجنوب هو مركز الشمس بالتمام والكمال، وهناك موقع فصل الصيف أيضاً، والجنوب ينتمي إلى النار، والنار لونها أحمر. كما اعتقد

الأقدمون -حسب ملاحظة الأنشطة الزراعية في الفصول الأربعة- أن «الشمس لها فوائد جمة» و«تنمو الكائنات حينما تصلها أشعة الشمس»، وجسد كتاب «هواي نانتسي» مشاعر نمو الكائنات الحية وازدهارها بقوة وحيوية في فصل الصيف الذي يجعل الإنسان مفعماً بالأمل والنشاط والحركة، ومن ثم تولدت أحاسيس دافئة وحميمة تجاه اللون الأحمر في فصل الصيف على وجه الخصوص. وفي الوقت نفسه، وبسبب أن اللون الأحمر هو اللون الأصلي للشمس التي تقبع في الجنوب، فإنها تمثل الآمال والتطلعات، ولذلك الناس يقدرون ويمجدون اتجاه الجنوب الذي يحظى بالاحترام والتقدير عبر العصور المختلفة. وذكر «كتاب التغيرات. فصل التنجيم» أن: «القديس يمم وجهه صوب الجنوب وينصت إلى ما يدور في هذه الدنيا». وهنا يكمن السبب الرئيسي في أن القاعة الرئيسية في كافة الأبنية المهمة في العصر القديم يكون موقعها في ناحية الجنوب. أما جهة الغرب فتختلف عن ذلك، فهي مكان القمر والخريف معاً. وجاء في مقدمة كتاب «تاريخ الطقوس. فصل أدوات القربان» أن: «دامينغ وُلد في الشرق، والقمر وُلد في الغرب». مما يوضح أن القمر والغرب قد أصبحا وحدة عضوية واحدة، والمسؤول عن الغرب يرمز إلى شاوهاو المسؤول عن الخريف الذي يجب أن يكون تسمية أخرى لإله القمر. كما خلص الأقدمون إلى أن «القمر يصبح أكثر إشراقاً في منتصف الخريف»، ولذلك اعتقدوا أن القمر الوضاء والخريف وحدة واحدة. واعتقد باحثون -بعد تقصي الحقائق والأسباب- أن إله القمر هو شي وانغمو؛ وهي الفتاة نيووا التي جاءت في الأسطورة، والأرنب اليشمي الذي يقطن القمر هو إله النمر، ويطلق عليه تو قديماً، وهو إله السلحفاة، ثم تحول وتبدل إلى النمر الأبيض الحيوان الأسطوري إله الغرب، كما أن الإله شاو هاو ويطلق عليه جين تيان أيضاً، وجين تيان هو إله القتل الذي جاء ذكره في كتاب «تاريخ الجبال والأنهار». وخلاصة القول، إن جهة الغرب مسؤولة عن القتل والوحشية والهمجية. وفي الواقع، إن فصل الخريف تهب فيه الرياح الغربية التي تهلك وتشرد الكائنات الحية في كافة الأنحاء، مما يجعل الإنسان لديه شعور لا نهائي من الآلام والأحزان والمآسي. وكان المثقفون والأدباء يشعرون بالحزن والألم حقاً في فصل الخريف، وكتبوا العديد من الأعمال الأدبية التي جسدت أحزان الخريف وآلامه. كما ذكر كتاب «هواي نانتسي» وبسبب أن: «القمر يرمز إلى العقوبة» و«عودة القمر إلى موقعه تعني موت

الكائنات»، وكذلك نظراً لأن فصل الخريف هو موسم الفشل والآلام والأحزان والموت، حتى الأقدمون كانوا ينفذون العقوبات في الخريف، ولذلك بات اللون الأبيض الذي يمثل الخريف، بات من الألوان التي يتجنبها الصينيون. وبالمثل، اعتبر البعض أن فصل الخريف نذير شؤم وفأل نحس لأن مكانه في جهة الغرب، ويقدم البرهان على ذلك المقولة في اللغة الصينية التي تشير إلى فقدان الحياة في الغرب ومفادها «الحياة تعود إلى الغرب» أما فيما يتعلق بعبادة اللون الأصفر، نستطيع أن ندرك من نظام المعتقدات المذكور آنفاً هذا الأمر بصورة واضحة؛ حيث أن الإمبراطور الأصفر يتوسط الجهات الخمس، وموقعه في الوسط في المركز، والوسط ينتمي إلى التراب. وذكر كتاب «نظرية التوازن» أن: «التراب لونه أصفر». وجاء في «قاموس شرح كلمات» أن: «الأرض لونها أصفر أيضاً». وحسب شرح كتاب «قوانغتسي. فصل الماء والأرض» أن: «الأرض هي مصدر كافة الكائنات، وهي بستان جذور كافة الأحياء». وجاء في كتاب «سيرة شانغ شودا» أن: «التراب هو مصدر حياة الكائنات». وفي الفصول الأربعة إذا لم يوجد تراب لا تنمو كائنات حية، ولذلك التراب مكانه في الوسط تماماً. ولذلك، لا مندوحة أن نعتقد أن اللون الأصفر مازال مصدره يكمن في عبادة التراب وتأثر تأثراً عميقاً بمفهوم أن «التراب يتوسط الجهات الخمس» في مذهب العناصر الخمسة. وأصبح اللون الأصفر لوناً يتحلى بالمكانة الفريدة والمميزة رويداً رويداً لأنه يتوافق مع سيكولوجية الاحترام الذاتي لدى الأقدمين الصينيين من أن «الذات تمثل المركز».

خرافة الإيمان بالألوان في النظام الإقطاعي

كانت خرافة الايمان بالألوان – دائماً وأبدا– ظاهرة ثقافية بارزة جداً. في المجتمع الإقطاعي الصيني الذي يتمتع بتاريخ طويل، وتجلى ذلك في مجالين أساسيين هما: (1) الألوان الخمسة الأصلية والأساسية –تحت تأثير مذهب العناصر الخمسة– أصبحت رمزاً لإرادة الإله أو لفضل السماء ونعمتها، ولذا أصبحت أيضاً رمزاً للعرش الإمبراطوري أو مصير البلاد. (2) تأسيساً على احتياجات حماية النظام الإقطاعي الطبقي جعل الألوان وسيلة للتمييز بين الطبقات الاجتماعية، كما جعلها أيضاً من الملامح الثقافية التي تبرز للعيان الطبقات العليا والدنيا، والمرموقة والوضعية. والصفات المشتركة في هذين المجالين هي أن الألوان باتت

تجسيداً لإرادة الحكام الإقطاعيين وعزيمتهم.

ونسلط الأضواء أولاً على أحوال المجال الأول التي تتمحور على النظرية التي طرحها زاو يان ومفادها «الدوران المتواصل اللانهائي للعناصر الخمسة» والتي تمثل مذهب العناصر الخمسة، وذلك انطلاقاً من اعتقاده أن تغيير وتعاقب الأسر الحاكمة هما ثمرة التنشيط المتبادل والحد المتبادل بين هذه العناصر، بمعنى أن الخشب أوجد النار، والنار أوجد التراب، والتراب أوجد المعدن، والمعدن أوجد الماء، والماء انبثق من الخشب؛ أو الماء فقادر على أن يخمد النار، والنار تستطيع أن تذيب المعدن، والمعدن يتغلب على الخشب، والخشب أقوي من التراب، والتراب يتغلب على الماء، وهكذا يستمر التنشيط المتبادل والحد المتبادل بصورة متواصلة ودون نهاية. والألوان الخمسة التي تتلاءم مع العناصر الخمسة، تتوافق أيضاً مع عملية تعاقب وتبديل هذه الأسر، وأصبح كل لون من هذه الألوان بصورة منفردة اللون الذي يحظى بالتقدير والثناء من جانب كل أسرة حاكمة. (انظر الجدول المنوط بهذه المقالة) وتستخدمه في تزيين وزخرفة الأشياء التي تستخدمها القصور الإمبراطورية من حرس الشرف والعربات والأزياء. كما يعتقد زاو يان وآخرون أن «الدوران المتواصل اللانهائي للعناصر الخمسة» يجب –في المقام الأول– أن يظهر مباركة السماء وفأل خير لتولي أسرة ما الحكم في البلاد، ويدرك ذلك الشعب، فعلى سبيل المثال، ذكر كتاب «حوليات ليوي في الربيع والخريف» أن: «الملوك والأباطرة قبل أن يعتلوا العرش الإمبراطوري، تظهر السماء أولاً فأل خير للشعب ومباركة منها للحاكم».

ففي عهد الإمبراطور الأصفر، أظهرت السماء أولاً دودة الأرض الكبيرة، والجُدجُد (صرار الليل) الكبير، وقال هذا الإمبراطور: «انتصر التراب». انتصر التراب، ولونه الأصفر، وتبنى الإمبراطور اللون الأصفر. وفي عهد الإمبراطور الأسطوري يوي –أظهرت السماء الأشجار والنباتات مخضرة وناضرة في الخريف والشتاء، فقال الإمبراطور: «كانت الغلبة للأخشاب». انتصرت الأشجار، ومن ثم تبنى لونها الأخضر. وكذلك في زمن الإمبراطور تانغ، أبرزت السماء للعيان سكيناً معدنياً ينبثق من الماء، فقال الإمبراطور: «الغلبة للمعدن، انتصر المعدن، ولذا استخدم لونه الأبيض. وفي عهد الإمبراطور ون في أسرة تشو، بينت السماء للناس النار، والطيور الحمراء تلتقط بمناقرها رسائل وتكدسها في معبد تشو، فقال

الإمبراطور: «الغلبة للنار». انتصرت النار، وتبنى لونها الأحمر. والماء بالتأكيد يحل محل النار، فأظهرت السماء كيفية تغلب الماء على النار، واستخدم الناس لونها الأسود». وطبعاً نرتاب ونشكك في مصداقية سطور هذه الفقرة، ولكنها شرحت نظرية «الدوران المتواصل اللانهائي للعناصر الخمسة» بصورة واضحة. وأصبحت هذه النظرية -بسبب المبالغة في تسجيلها وشرحها وتفسيرها- السند الذي يحتكم إليه الملوك والأباطرة في العصور المختلفة لاعتلاء سدة الحكم وإحلال أسرة حاكمة محل أخرى. وكانت كل أسرة حاكمة جديدة تحتكم إلى هذه النظرية، وتقرر التقويم الذي تستخدمه واللون الذي تمجده وتقدره، من أجل أن تقدم البراهين على أن حكمها تباركه السماء ويتوافق مع إرادة الإله وفضل السماء، ويطلق على ذلك في التاريخ «تغيير غُرة الشهر القمري الصيني، وتغيير لون الأزياء».

وكان الإمبراطور الأول في أسرة تشين أول من اضطلع بتطبيق نظرية الدوران اللانهائي للعناصر الخمسة المذكورة آنفاً. وذكر كتاب «سجلات تاريخية- فصل سيرة إمبراطور تشين الأول» أن: «الإمبراطور الأول في أسرة تشين دفع دوران العناصر الخمسة، واعتقد أن أسرة تشو حصلت على نعمة النار، وأسرة تشين تحل محل أسرة تشو، ويجب أن تنتصر عليها، فالماء يتغلب ويخمد النار، وغيّر بداية التقويم القمري، واعتبر الشهر العاشر القمري هو بداية هذا التقويم. وتغيرت ألوان الأزياء والرايات إلى اللون الأسود». واحتكم هذا الإمبراطور إلى أن السماء تبارك خطواته استناداً إلى أن الدوق ون في أسرة تشين حصل على تنين أسود، ولذلك اللون الأسود هو لون العرش الإمبراطوري للأسرة الحاكمة تشين. وبعد أن أسست أسرة هان نظامها وحكمها، غيرت لون الأزياء مرات عديدة. وجاء في كتاب «سجلات تاريخية» أن. «الإمبراطور قوانغ زو قبل أن يعتلي العرش، قتل ثعباناً ضخماً. وأخبرته بعض الحيوانات أن هذا الثعبان هو ابن الإمبراطور باي (الأبيض)، والقاتل هو ابن الإمبراطور تشي (الأحمر). واعتبر الإمبراطور ليوبانغ ذلك مباركة ونعمة من الإله، وبعد أن أسس أسرة هان قرر أن اللون الأحمر هو لون الأزياء. وفي عام 176 ق.م، قدم قونغ صون تشين من مملكة لو مذكرة إلى الإمبراطور في أسرة هان ذكر فيها أن اللون الأحمر يخالف نظرية دوران العناصر الخمسة، وأسرة تشين حظيت بنعمة الماء، وأسرة هان تحل محلها، ويجب أن تتبنى التراب حسب هذه النظرية، وأظهرت السماء نعمة التراب في ظهور التنين الأصفر، ولذا يجب

أن يكون لون الأزياء أصفر. ولكن رئيس الوزراء آنذاك تشانغ تسانغ رفض هذا الاقتراح، واعتبر أن «أمواج النهر ترتطم بجدار السد» بمثابة نعمة الماء وفأل خير من السماء، ولذلك يجب أن يكون الشهر القمري العاشر بداية التقويم، ولون الأشياء من الخارج يكون أبيض، وأحمر في الداخل. ولم يتوقع أحد أنه بعد مرور سنتين، ظهر التنين الأصفر في تشينغ جي، فاستدعى الإمبراطور هان ون دي رئيس الوزراء، وأعلن أن نعمة التراب تباركها السماء لأسرة هان، والشهر العاشر القمري هو بداية التقويم، وتغير لون الأزياء إلى الأصفر، واستمر الحال حتى عهد الإمبراطور هان وو دي في عام 104 ق.م، حيث اضطلع ني قوانغ وآخرون بإعداد «تقويم تاي شو» ومعياره فصل الخريف، واعتبروا الشهر الأول القمري هو بداية السنة القمرية، وتغير لون الأزياء إلى الأصفر، كما أصبح اللون الأصفر بصورة رسمية هو لون العرش الإمبراطوري في أسرة هان الغربية. وعندما أسس الإمبراطور ليو شيوه أسرة هان الشرقية، جعل الأب (تشي) يشير إلى الإمبراطور الأحمر، وقبل أن يعتلي العرش حصل على «علامة تميمة حمراء» واعتبرها مباركة من الإله، وقرر أن السماء أنعمت على أسرة هان الشرقية بالنار، وغيّر لون الأزياء إلى الأحمر. ومن المرجح جداً. إن هذا الإمبراطور قام بفبركة واختلاق هذه التميمة الحمراء. وأسس تساو بي أسرة وي، واتخذ من قبوله تميمة بوذية سبباً، واعتقد أن النار أوجدت التراب، وأن التراب هو نعمة الإله لأسرة وي، وقرر أن الأصفر هو لون الأزياء. وتقبل سيما يان تميمة من أسرة وي، واعتقد أن التراب أوجد المعدن، وأن الإله أنعم على أسرة جين بالمعدن، وقرر أن لون الأزياء -في الأصل- يجب أن يكون الأبيض، ولكن قدم المسؤول خوشوان اقتراحاً مفاده أن: «الإمبراطور يجب أن يتقبل تميمة دوران العناصر الخمسة، ولا يجوز أن يغير التقويم القمري، ولا يغير لون الأزياء أيضاً». واستمر استخدام اللون الأصفر كما كان الحال في الأسرة الحاكمة السابقة. وبعد ذلك، كانت كل أسرة حاكمة تحذو حذو الأسرة السابقة أو تضطلع بتغيير الألوان والتقويم، وأصبح لكل أسرة حاكمة لونها الذي تمجده وتقدره. ويوضح الجدول الآتي الألوان التي عظمتها ومجدتها الأسر الحاكمة في الصين قبل عصر أسرة تانغ:

الأسرة الحاكمة	العناصر الخمسة	مباركة الإله وفأل خير	اللون	ملاحظات
شانغ	المعدن	سكين ينبثق من الماء	الأبيض	
تشو	النار	طيور حمراء تلتقط رسائل حمراء وتكدسها	الأحمر	النار تصهر المعدن
تشين	الماء	دوق تشين يحصل على تنين أسود	الأسود	الماء يخمد النار
هان الغربية	التراب	ظهر التنين الأسود في تسينغ جي	الأصفر	التراب يتغلب على الماء
هان الشرقية	النار	علامة التميمة الحمراء	الأحمر	لا يتوافق مع دوران العناصر الخمسة
وي	التراب		الأصفر	تميمة هان، والنار تتغلب على التراب
جين	المعدن		الأصفر	تميمة وي، التراب أوجد المعدن، لا يتغير اللون
سونغ	الماء		الأصفر	تميمة جين، المعدن أوجد الماء، انظر سابقه
تشي	الخشب		الأصفر	تميمة سونغ، الماء أوجد الخشب، انظر سابقه
ليانغ	النار		الأصفر	تميمة تشي، الخشب أوجد النار، انظر سابقه
تشين	الخشب		الأصفر	لا يتوافق مع دوران العناصر الخمسة، انظر سابقه
وي الأخيرة	الماء		الأسود	وي تخلف جين، المعدن أوجد الماء
تشي الشمالية	الخشب		الأسود	تميمة وي، الماء أوجد الخشب، انظر سابقه
تشو الشمالية	الماء	ظهور الميثان الأسود	الأسود	لا يتوافق مع دوران العناصر الخمسة
سوي	النار	طيور حمراء تحلق في السماء	الأحمر	لا يتوافق مع دوران العناصر الخمسة
تانغ	التراب		الأصفر	النار أوجدت التراب

ونتناول أحوال المجال الثاني، ويعني ذلك استخدام الألوان في التمييز بين الدرجات الاجتماعية. ونعرف من سجلات وثائقية أن الناس استخدموا الألوان للتعبير عن مفهوم علاقة الدرجات الاجتماعية بين الأفراد، وقد نشأ هذا المفهوم قبل عصر أسرة تشو تقريباً. وبعد أن توطدت أركان الطقوس والموسيقى في عصر تشو، زاد استخدام الألوان في تمييز الدرجات الاجتماعية الخاصة بالوظائف بصورة ملحوظة، وتركز نطاق استخدام الألوان بصورة أساسية في عربات وأزياء ملاك العبيد والأرستقراطيين. وذكر كتابا «تاريخ الطقوس» و«طقوس تشو» وغيرهما من الكتب الأخرى، إن الألوان التي كان يستخدمها الإمبراطور، والوزراء، وكبار الموظفين والمثقفين والأشراف والوجهاء في أسرة تشو تحظى بالاهتمام الشديد، حيث كانت ألوان أزيائهم وعرباتهم التي يستخدمونها في تأدية المراسم الخاصة بالأفراح والأتراح، والثناء والمديح، والمجالات العسكرية مختلفة ومتباينة. وعلى الجملة، إن الألوان الأساسية يستخدمها أصحاب المقام الرفيع والوجهاء، وتُستخدم في لباس النصف العلوي من الجسم، وفي الأزياء الرسمية، وملابس الطقوس والمراسم، أما الألوان الثانوية فيستخدمها الوضعاء من الطبقات الدنيا، وتُستخدم أيضاً في لباس النصف السفلي من الجسم، وفي الملابس الداخلية والملابس العادية. ويوضح ذلك أن بين الألوان الأساسية والألوان الثانوية توجد فروق تميز بين درجات ومراتب الأجلاء والوضعاء. فاللون الأحمر يعتبر لوناً قيماً وغالياً يستخدم غالباً في أزياء الأرستقراطيين والأشراف، ومثال ذلك، ذكر كتاب «سيرة شانغ شودا» أن: «مَنْ لا يرقى إلى مرتبة الوجهاء والأشراف، لا يجوز أن يركب العربات الحمراء». واللون الأسود يجلب السعد، وهو فأل خير ويستخدم كثيراً في ملابس تأدية «الطقوس لدى الطبقات الأرستقراطية، ومثال ذلك، ذكر كتاب «تاريخ الطقوس» أن: «الإمبراطور يرتدي الملابس السوداء ويعبد الشمس خارج البوابة الشرقية. والوزراء يرتدون الأزياء السوداء ويؤدون مراسم الطقوس».

وهنا الأزياء السوداء كان يرتديها الأرستقراطيون عند تقديم القرابين في أسرة تشو، ولكن كان يمكن استخدامها أيضاً في مراسم الزواج، كما كان اللون الأسود يستخدم في القبعات. وبعد فترة الربيع والخريف، انهار نظام الطقوس والمراسم والموسيقى، وعمت الفوضى والاضطراب استخدام الألوان. وينتمي إلى الألوان الثانوية اللون الأحمر الزاهي،

واللون الأرجواني، وكلاهما يقتربان من اللون الأسود، ومن ثم أصبحا من الألوان القيمة والثمينة رويداً رويداً، ويستخدمهما الوزراء والأمراء في الملابس الرسمية. وجاء في سجلات تاريخية، إن دوق مملكة لو ونظيره في مملكة تشي، كانا يحبذان ارتداء الأزياء الأرجوانية. وشعر فيلسوف الصين كونفوشيوس بالاستياء الشديد إزاء التغيير الذي طرأ على استخدام الألوان، وذكر: «إني لأكره أن يغتصب اللون الأرجواني منصب اللون القرمزي، وأن تختلط أغاني «كتاب الأغاني» بالأناشيد الرسمية، وأن يهدم البلاد الذين يزخرفون كلامهم». (انظر حوارات كونفوشيوس- الفصل السابع عشر)، وفي الوقت نفسه، حذر الناس قائلاً: «إن الجنتلمان لا يزين أطراف ثيابه باللون الأرجواني ولا باللون الأحمر الداكن ولا يتخذ قميصه من الثوب الأحمر ولا من الثوب الأحمر القاتم». (انظر سابقه، الفصل العاشر). ونظراً لأن اللونين الأرجواني والأحمر الداكن يتشابهان مع اللونين الأحمر والأسود؛ وهما من الألوان الأساسية، فقد كان استخدامهما في ملابس الطقوس والملابس العادية يفسد الآداب والدرجات الاجتماعية المعمول بها منذ ردح طويل.

وبعد أسرتي وي وهان، توطدت أركان النظام الإقطاعي، وانتشر على نطاق واسع نظام أسر الحسب والنسب، وأصبحت العلاقات الاجتماعية أكثر تعقيداً عن ذي قبل، واتسع نطاقها بشكل أكبر مع تغيرات متوالية الألوان. وفي إيجاز، لقد تحطمت تشكيلة الغالي والرديء بين الألوان الأساسية والألوان الثانوية، وبات من الممكن استخدام الألوان الأساسية في التعبير عن الدرجات الاجتماعية العليا والدنيا أيضاً.

ومثال ذلك، الألوان: الأحمر والأرجواني والأصفر والأسود يستخدمها كثيراً الأباطرة والملوك والموظفون، والألوان: الأزرق والأبيض والأخضر تُستخدم كثيراً بين صفوف موظفي الدرجات الدنيا وعامة الشعب، ومن بينها ألوان الأصفر والأسود والأزرق استخدمت بصورة مختلفة. ويوضح الجدول التالي استخدام الدرجات الاجتماعية المختلفة الألوان السبعة المذكورة أعلاه في الأسر الحاكمة: هان، وي، الأسر الجنوبية والشمالية على النحو التالي:

الاسم	شروح وتفسيرات	وثائق وكتب
المرسوم الأرجواني	ختم المرسوم الإمبراطوري بالصلصال الأرجواني	وي هونغ «مراسم هان القديمة»
الغطاء الأرجواني	الغطاء الأرجواني للعربة الإمبراطورية	شعر شيه تياو، مملكة تشي الجنوبية
الشرائط الأرجوانية	الشرائط الأرجوانية التي يتقلدها رئيس الوزراء والوزراء في أسرة هان	بان قو «أسرة هان»
جيب أرجواني	تزيين مناكب الأزياء الإمبراطورية بالجيوب الأرجوانية منذ أسرتي وي وجين	شين يوه «كتاب سونغ»
شارة أرجوانية	شارة أرجوانية يعلقها مؤيدو الإمبراطور عند إعلان الأحكام العرفية العسكرية	شين يوه «كتاب سونغ»
زي أرجواني	الملابس الرسمية لكبار المسؤولين منذ الأسر الجنوبية والشمالية	أويانغ شيوه «كتاب تانغ الجديد»
سلم أحمر	السلم الحجري أمام القصر الإمبراطوري يدهن باللون الأحمر	تشانغ هونغ «مقاطعة العاصمة الغربية»
بطاقة هوية حمراء	بطاقة هوية حمراء يمنحها الإمبراطور للأبطال في أسرة هان	بان قو «كتاب أسرة هان»
بيوت حمراء	الأبواب الحمراء لمساكن الأمراء والحكام في العاصمة في عصر أسرة هان	
باب أحمر	من العطايا التسع التي يمنحها الإمبراطور للأبطال منذ أسرتي هان ووي	بان قو «كتاب أسرة هان»
بوابة حمراء	البوابات الحمراء الكبرى التي يستخدمها الأرستقراطيون والأمراء منذ أسرة جين	فانغ شوان لين «كتاب جين»
خطوط حمراء	تزيين عربات الأشراف والأمراء والأرستقراطيين بالخطوط الزخرفية الحمراء منذ عصر جين	«كتاب أسرة جين»
إطارات حمراء	تستخدم عربات الأرستقراطيين الإطارات الحمراء في عصر هان	بان قو «كتاب هان»
شرائط حمراء	الشرائط الحمراء التي يتقلدها الأمراء والحكام في عصر هان	فان يوه «كتاب ما بعد هان»

الاسم	شروح وتفسيرات	وثائق وكتب
عصا حمراء	عصا حمراء يمسكها موظف تطبيق القانون في العصر القديم	لي يان شو «تاريخ الشمال»
شارة الاعتماد الحمراء	شارات الاعتماد الحمراء لمبعوثي البلاط الإمبراطوري	شياو تونغ «مختارات أدبية»
منديل الرأس الأحمر	الملابس الحمراء للجنود وحراس القصر الإمبراطوري	ينغ شاو «مراسم حكومة هان»
بيت أصفر	استخدام الحرير الأصفر في سقوف البيت، ويقتصر ذلك على الإمبراطور	سيماتشيان «سجلات تاريخية»
أسلحة صفراء	أسلحة ورايات يستخدمها الإمبراطور مزخرفة باللون الذهبي الأصفر	تشين شو «تاريخ الممالك الثلاث»
بوابة صفراء	بوابة صفراء يحظر الدخول منها في القصر الإمبراطوري منذ عصر هان	دويو «التاريخ العام»
مبنى أصفر	الباب الأصفر لمكتب رئيس الوزراء في القصر الإمبراطوري منذ عصر هان	وي هونغ «مراسم هان القديمة»
شرائط صفراء	شرائط صفراء يتقلدها وكيل المحافظة والضباط الصغار وموظفو الدرجات الدنيا في عصر هان	بان قو «كتاب هان»
غطاء أسود	الغطاء الأسود لعربات المحافظ وكبار الموظفين في عصر هان	فان يو «كتاب ما بعد هان»
إطارات سوداء	إطارات سوداء لعربة يجرها ثور يستخدمها الملوك والدوقات من ذوي المآثر في عصر جين	فان شوان لين «كتاب جين»
الزي الأسود	الأزياء السوداء التي يرتديها كبار الموظفين عند دخولهم البلاط الإمبراطوري في عصر هان	فان يو «كتاب ما بعد هان»
كيس أسود	التقارير السرية للوزراء في أسرة هان تستخدم أكياساً سوداء	فان يو «كتاب ما بعد هان»
شرائط سوداء	شرائط سوداء يتقلدها وكيل المحافظة والضابط الصغار وموظفو الطبقة المتوسطة في أسرة هان	فان يو «كتاب ما بعد هان»
أزياء سوداء	الملابس السوداء التي يرتديها الرهبان	تشي بان «خواطر بوذية»

الاسم	شروح وتفسيرات	وثائق وكتب
اللباس الأسود	الملابس السوداء التي يرتديها الوضعاء من ذوي الدرجات الدنيا في أسرتى يي وين	تشين شو «تاريخ الممالك الثلاث»
قبعة سوداء	قبعة شاشية سوداء كان وانغ شيوه رين يلبسها في الأسر الجنوبية	شين يو «كتاب سونغ»
غطاء أزرق	غطاء العربة الأزرق في عربات الابن الأكبر والثاني للإمبراطور في عصر هان	فان يو «كتاب ما بعد هان»
شرائط زرقاء	شرائط زرقاء ويتقلدها كبار المسؤولين والمحافظين في عصر هان	بان قو «كتاب هان»
المبنى الأزرق	بيوت الفتيات الأثرياء الأرستقراطيين، والملوك في الأسر الجنوبية، ثم تشير إلى المواخير والدعارة	
اللباس الأزرق	ملابس أصحاب الدرجات الدنيا ما بعد أسرة هان	تساي يونغ «مقامة الزي الأزرق»
غطاء الرأس الأزرق	غطاء الرأس الذي يستخدمه الخدم والعبيد في عصر هان، ولونه أزرق قاتم	بان قو «كتاب هان»
عربة خضراء	عربة أحفاد الأمبراطور الخضراء في عصر هان	بان قو «كتاب هان»
منديل الرأس الأخضر	الملابس الخضراء التي يرتديها الخدم منذ عصر هان	بان قو «كتاب هان»
الزي الأبيض	الملابس البيضاء التي يرتديها غير المسؤولين في العصر القديم، وصغار الموظفين في عصر هان	بان قو «كتاب هان»
عمامة بيضاء	العمامة البيضاء التي يرتديها غير المسؤولين في عصر أسرتي هان وجين	فان شوان لين «كتاب جين»
عباءة بيضاء	عباءة بيضاء يرتديها سواد الشعب في العصر القديم	ماقاو «ملاحظات الصين قديماً وحديثاً»
قبعة بيضاء	قبعة شاشية بيضاء يرتديها الإمبراطور في الأوقات العادية في الأسر الجنوبية	دويو «التاريخ العام»
مساكن بيضاء	مساكن عامة الشعب في العصر القديم ولا تطلى بالألوان	بان قو «كتاب هان»

وبإلقاء نظرة شاملة على الأحوال المذكورة أعلاه، نجد أن استخدام الألوان في التمييز بين الدرجات الاجتماعية أصبح وسيلة ضرورية ولا غنى عنها في أسرتي هان ووي، ولكن خرجت إلى حيز الوجود ظاهرة الصرامة غير الكافية في استخدام الألوان؛ حيث الاختلاط بين الألوان الأساسية والثانوية، وبين الألوان الثمينة والقيمة والألوان الرديئة والسيئة. وفي عصر أسرتي سوي وتانغ، كان استخدام الألوان يتحلى بالقواعد الصارمة في تمييز الدرجات الاجتماعية جراء نضوج النظام الإقطاعي يوماً بعد يوم. وفي أوائل أسرة سوي، شهدت المراسم والآداب الفوضى والاضطراب حيث أن: «أزياء الموظفين العادية تتشابه مع ملابس عامة الشعب، وكانت عبارة عن عباءة صفراء يرتديها الجميع عند الخروج والدخول من وإلى القصر الإمبراطوري والولايات. ولم تختلف أزياء ابن السماء عن ذلك، إلا إذا كانت مزدانة بثلاث عشرة حلقة». (انظر «كتاب أسرة تانغ القديم»). وفي العام 605م، بدأ تنفيذ أوامر مفادها أن أصحاب الدرجة الخامسة فأكثر يرتدون الأزياء الحمراء الأرجوانية. وفي العام 611م، تعززت هذه الأوامر بشكل أكبر ونصت على أن: «من ذوي الدرجة الخامسة فأكثر يرتدون العباءة الأرجوانية، ومن دون الدرجة السادسة يرتدي الملابس الخضراء. ويستخدم الموظفون اللون الأزرق، وعامة الشعب اللون الأبيض، ويرتدي الجزار والتاجر الملابس السوداء، والجنود والعساكر يرتدون الملابس الصفراء». (انظر «كتاب أسرة سوي»)، ويوضح ذلك بجلاء إقامة نظام للألوان للتمييز بين الدرجات الاجتماعية، بيد أن اللون الأصفر ظل يستخدم في الملابس العادية الرديئة. وبعد تأسيس أسرة تانغ، حذت حذو نظام نظيرتها سوي، حيث كانت العباءة الصفراء هي الأزياء المعتادة للإمبراطور، وبعد ذلك تم فرض الحظر على ارتداء سواد الناس الملابس الصفراء، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أصبحت العباءة الصفراء الزي الخاص للإمبراطور، ولذلك ارتدى قائد الانقلاب العسكري تشاو قوي العباءة الصفراء رمزاً على أنه نصب نفسه إمبراطوراً. وفي العام 630، حدثت تغيرات وتعديلات كثيرة ونصت اللوائح والقواعد على أن مَنْ يتولى منصباً أعلى من الدرجة الثالثة يرتدي الأزياء الأرجوانية، وأصحاب الدرجة الرابعة يستخدمون اللون الأحمر الداكن، والدرجة الخامسة الأحمر الزاهي، والدرجة السادسة اللون الأخضر القاتم، والدرجة السابعة اللون الأخضر الفاتح، والدرجة الثامنة الأزرق الغامق، والدرجة التاسعة الأزرق

الفاتح، أما أصحاب سائر المهن الأخرى الذين لا ينتمون إلى الدرجات الوظيفية، والجنود والعساكر، وعامة الشعب، والجزار والتاجر، فجميعهم يستطيعون ارتداء الملابس البيضاء والسوداء فقط. ويعد ذلك بالضبط هيكل تسلسل الألوان التي تضم الأصفر، الأرجواني، الأحمر، الأخضر، الأزرق، الأسود، الأبيض، وأصبح ذلك رمزاً للتمييز بين الدرجات الاجتماعية في الهيكل الاجتماعي الإقطاعي. ونظراً لأن اللون الأصفر أصبح لون الأسرة الإمبراطورية بصفة خاصة، ولم يجرؤ العساكر والجنود والرعية على استخدامه إطلاقاً، ولذا أصبح اللون الأرجواني من أكثر الألوان قيمة وتقديراً واحتراماً، كما بات «اللون الأرجواني المشهور» بمثابة الراتب الشرفي الذي يبذل المثقفون الإقطاعيون قصارى جهدهم للحصول عليه، كما أصبح وسيلة يستخدمها الأباطرة والملوك لجذب الرعية على مر الدهر، كما كان الأباطرة في أغلب الأحيان يغدقون على المسؤولين من ذوي الدرجات المتدنية ولا يستطيعون استخدام اللون الأرجواني، يغدقون عليهم العباءات الأرجوانية إظهاراً لأفضال الأباطرة على وجه الخصوص. إن استخدام الألوان بمهارة في التمييز بين الدرجات الاجتماعية استمر من ما بعد أسرة تانغ إلى أسرتي مينغ وتشينغ وليس صعباً أن ندرك بعد مناقشة أحوال المجالين الأساسيين المذكورين آنفاً، إن هناك علاقة وثيقة تربط بين الألوان والسلطة السياسية والنظام؛ ويعني ذلك تسييس الألوان، ولذلك خرافة الإيمان بالألوان في المجتمع الإقطاعي أظهرت الوظيفة السياسية الصارمة لهذه الألوان.

خرافة الإيمان بالألوان في العادات الشعبية والمشاعر الشعبية

تتجسد خرافة الإيمان بالألوان في السياسة الإقطاعية -دائماً وأبداً- في صرامتها على هذا النحو، وتراكمها هكذا، وتمييزها للدرجات الاجتماعية بشدة، ولذلك من اللازم الاضطلاع بالدراسة المتأنية والواعية عند تغيير الألوان وإقرار الدرجات الاجتماعية، ثم يتم إعداد مجموعة من الأوامر الحكومية وإعلان تنفيذها. وتختلف عن ذلك خرافة الإيمان بالألوان في العادات الشعبية؛ حيث تتسم بالقوة والحيوية والمرونة إلى حد ما، والمغزى الذي يرمز إليه كل لون قد ترسب وتراكم في أعماق التاريخ عبر العصور المختلفة، ولذلك النظام الذي يسير على دربه يعد نوعاً من الوظيفة السيكولوجية. وعلى الرغم من أن مثل هذا النوع

من الوظيفة النفسية تعرض للتأثير المحتوم من جانب الوظيفة السياسية في عملية التطور، بيد أنها تعد الأكثر قرباً والأكثر التصاقاً بمشاعر الشعب وأحاسيس الجماهير.

واللون الأحمر هو اللون الأصلي والأساسي الذي يحظى بالاحترام والتقدير في ثقافة العادات الشعبية، وجسد السعي الدؤوب للصينيين وتطلعاتهم وآمالهم على الصعيدين المادي والمعنوي. ويرمز اللون الأحمر إلى الثراء والسعد والبشري والمناسبات السعيدة؛ ومثال ذلك، الأسر الأرستقراطية الثرية تطلي القاعات باللون الأحمر، وتعلق الدوبيت الأحمر في احتفالات الربيع، والفوانيس الحمراء في الأعياد، وتعلق الكتابات الحمراء في حفلات الزواج ومفادها: «السعادة المزدوجة»، والعروس تغطي وجهها بالمنديل الأحمر، والعريس يطرح على منكبية الشرائط الحمراء الحريرية، وتغليف الهدايا بالأوراق الحمراء في المناسبات السعيدة، والأطفال يأكلون البيض الأحمر عندما يكون البدر في كامل استدارته، وشريط الافتتاح يكون من القماش الحريري الأحمر، وترفع الشعارات الحمراء في المناسبات السعيدة وفي المظاهرات. كما يدل اللون الأحمر على الثورة، والتقدم، والتطور، ومثال ذلك، المناطق الأولية التي سيطر عليها الحزب الشيوعي الصيني أُطلق عليها المناطق الحمراء، والسلطة السياسية الأولى كان يُطلق عليها السلطة السياسية الحمراء، وأبكر قوات مسلحة كانت تُعرف بالجيش الأحمر، وراية الحزب الشيوعي الصيني، وعلم جمهورية الصين الشعبية والراية العسكرية لجيش التحرير الشعبي الصيني، كل هذه الرايات والأعلام لونها أحمر. وفي الثورة الثقافية الكبرى، كان الناس يعلقون شريط الساعد الأحمر، ويرفعون لافتات الشعر الحمراء، وأسسوا الحرس الأحمر، وكل منطقة تؤسس فيها «لجنة ثورية» يُطلق عليها «منطقة حمراء في جبال وأنهار البلاد»، وجميع المسابقات النهائية توزع جوائز حمراء، وتعلق على صدور الأبطال المثاليين الأزهار الحمراء، والوحدات المتقدمة ترفع الرايات الحمراء، ويُطلق على متطلبات التقدم وفريق العمل الشاق الدؤوب لقب «الأفراد والمتطلبات الحمراء والمتخصصة» وغيرها. كما يرمز اللون الأحمر إلى السهولة واليسر، والنجاح وجلب الفوائد، ومثال ذلك، الإنسان صاحب الحظ السعيد جداً. يُطلق عليه «يسير على درب الخط الأحمر»، والممثل الذي يحقق نجاحات عظيمة ويحظى بشهرة تملأ الآفاق يطلق عليه «الممثل الأحمر»، والإنسان الذي يحظى بثقة الطبقات العليا المسؤولة يطلق عليه «الإنسان العظيم

الأحمر»، وتوزيع الأرباح بين الشركاء في مشروع ما يُطلق عليها «النصيب الأحمر». وفي الوقت الحاضر، يُطلق على الحوافز الإضافية لقب «الصرة الحمراء» وغيرها كثير. كما يرمز هذا اللون أيضاً إلى الإخلاص والعدل، ومثال ذلك، النماذج الحمراء للوجوه المسرحية في تمثيل أوبرا بكين.

ويختلف اللون الأبيض عن اللون الأحمر تماماً، فاللون الأبيض هو اللون الأساسي المحظور في ثقافة العادات الشعبية، وجسد هجر الصينيين ومقتهم على الصعيدين المادي والمعنوي، ويرمز إلى الموت والفناء، وفأل النحس والشؤم، والحزن والألم، ومثال ذلك، منذ القدم يرتدي أهل الميت ملابس الحداد البيضاء، وينصبون قاعة حداد بيضاء، ولهم علم جنائزي أبيض عند تشييع الجنازة، ويعتبر الزواج والوفاة حدثين جللين بين صفوف الشعب ويُطلق عليهما «الحدثان الكبيران الأحمر والأبيض». وفي نهاية الرواية الصينية الكلاسيكية «حلم المقصورة الحمراء» وصفت أفول نجم عائلة جيا بأنها «أرض ناصعة البياض ونظيفة تماماً حقاً» وغيرها. ويرمز اللون الأبيض إلى الفساد والرجعية والتخلف، ومثال ذلك، كان يطلق على المناطق التي يسيطر عليها حزب الكومنتانغ (القوميون) في الماضي «المناطق البيضاء»، ويُعرف جيش الكومنتانغ بـ«الجيش الأبيض»، كما يطلق على سياسة الرجعيين الذين يمارسون الاضطهاد والقتل –«سياسة الإرهاب الأبيض»، كما يُطلق على العصابات التي تلحق أضرارا بمصالح الشعب اسم «العصابات البيضاء». وفي العام 1958، وفي معرض انتقاد ما أطلق عليه الأفكار الأكاديمية لـ«أساتذة الجامعات البرجوازيين»، أُطلق على هذه الأفكار «نزع الرايات البيضاء»، كما أُطلق على الاتجاهات التي لا تكترث بالسياسة وتنخرط في البحث والدراسة في مجال التخصص فقط، يطلق عليها اسم «الطريق المتخصص الأبيض» وغيرها. كما يرمز اللون الأبيض إلى الفشل والإخفاق، والجهل والغباء، والأذى وعدم جلب منافع، ومثال ذلك، أُطلق على الإنسان من ذوي القدرات العقلية الضحلة «باي (الأبيض) تشي» (الأبله). ويطلق على المرأة التي تجلب النحس والمصير المشؤوم للرجل لقب «النمر الأبيض»، وكذلك يطلق على الأحوال التي تبذل فيها الجهود المضنية ولم تحقق فائدة أو النتيجة المرجوة، لقب «باي (أبيض) قان» (جهود ذهبت أدراج الرياح) و«الركض عبثاً»، و«ضاعت جهوده (باي) سدى». وبالمثل، الأشياء المجانية أو التي تكون دون مقابل يطلق

عليها «باي (ابيض) تشي» (الأكل مجاناً)، و«باي (أبيض) نان» (يأخذ دون مقابل). والطرف الذي يصاب بالهزيمة في الحرب يرفع الرايات البيضاء دليلاً على الاستسلام. كما يرمز اللون الأبيض إلى الغدر والخيانة والشر، مثال ذلك، الوجه المسرحي الأبيض الذي يرمز إلى تساو تساو في أوبرا بكين. إن اللونين الأحمر والأبيض يتسمان بالمضمون الثري الوافر، ومغزاهما الرمزي يتسم بالحد الفاصل البارز أيضاً، ويوضحان بجلاء مكانتهما البارزة في خرافة الإيمان بالألوان في الصين، ويوضحان أيضاً أن الصينيين في عملية التطور الثقافي يتمتعون بالمزاج الثقافي من الميل إلى نطاق الفوائد والمنافع، وتجنب الخسائر والأضرار.

وكان الأباطرة الإقطاعيون يستخدمون اللون الأصفر على وجه الخصوص، ولذلك قلما يستخدم في التعبير عن أنشطة العادات الشعبية، باستثناء استخدامه في انتفاضات المزارعين في الشعارات السياسية الصفراء (مثل انتفاضة المناشف الصفراء في نهاية أسرة هان، والانتفاضة العسكرية التي استخدمت الرايات الصفراء في لون المشمش في جبل ليانغ). ويعتبر اللون الأرجواني رمزاً للسعد والحظ السعيد، وكان الأباطرة الإقطاعيون والديانة الطاوية الأكثر استخداماً له. ومثال ذلك، كان يُطلق على القصر الإمبراطوري «القصر الأرجواني»، و«القاعة الأرجوانية»، و«المدينة المحرمة الأرجوانية»، كما يُطلق على الكتاب الطاوي المقدس اسم «الكتاب الأرجواني»، وتُعرف بيوت الأزياء والقديسين باسم «المقاصير الأرجوانية»، والجنية يطلق عليها المحظية الأرجوانية. وما يطلق عليه في اللغة الصينية «كسف من السحب يسبح في أجواء الفضاء» يشير إلى فأل الخير والحظ السعيد لدى الأباطرة أو الطاويين. والسبب في ذلك، إن أسطورة ذكرت أن إله السماء يقيم في القصر الأرجواني في السماء، ولذلك فإن هذا الإله هو أبو الإمبراطور في الدنيا، كما أن الديانة الطاوية تؤمن بالإله السماوي وتعتبر اللون الأرجواني رمزاً للتفاؤل والحظ السعيد، ولم يظهر هذا اللون كثيراً في سائر أنشطة العادات الشعبية. والمغزى الذي يرمز إليه اللون الأسود معقد نسبياً، فمن ناحية تحول من لون يجلب السعد في العصر القديم إلى لون يرمز إلى الصرامة والحزم، والإخلاص والطيبة، والعدل والاستقامة، ومثال ذلك، النماذج السوداء للوجوه المسرحية في أوبرا بكين مثل تشانغ خيى، وياو تشينغ، ولي توي، ومن ناحية أخرى، إن اللون الأسود في حد ذاته قاتم ويبث في النفس إحساسا بالفساد والخطر والخيانة والخوف والإرهاب، مثل

العصابة السوداء، الأيادي السوداء، الجمعية السوداء (المحظورة)، المجتمع الأسود، القائمة السوداء، القلب الأسود، السجل العائلي الأسود، وكلها أشياء تفتقر إلى الإشراق واللمعان ولا تجعل الإنسانَ يشعر بالغبطة والسعادة. وفي الثقافة الصينية، اختار الناس لون الدراق (الخوخ) رمزاً للمرأة، ولذلك يطلق على العلاقة الجنسية غير الشرعية بين الجنسين «حادثة شبيهة بلون الدراق»، ويطلق على الرجل الذي يصادف غراماً وحباً مع امرأة «رجل حظه مثل أزهار الدراق». والسبب في ذلك، إن اللون الأحمر في وجه المرأة يشع منه بياضٌ شفافٌ يطلق عليه منذ القدم «اللون الأحمر»، كما أن المرأة قديماً كانت تستخدم مساحيق التجميل ذات اللون الأحمر الزاهي في التجميل، ومن ثم أُطلق على المومس قديماً لقب «فين تاو» (رأس البودرة). وبالإضافة إلى ذلك، في أسرة تانغ، الشاعر تسوي خو وصف التاريخ الرومانسي لأسرتي تشينغ ومينغ، وكتب يقول: «يشع اللون الأحمر من وجه الفتاة وأزهار الدراق»، وذلك في مقارنة صريحة ومباشرة بين أزهار الدراق والمرأة. وعلى وجه العموم، كانت هذه الأسباب التي جعلت لون أزهار الدراق يرمز إلى لون وجه الفتاة. ويجب أن نوضح على وجه الخصوص، إن الثقافة الصينية لم تستخدم اللون الأصفر رمزاً للجنس. وفي الوقت الحاضر، شيوع مفهوم «اللون الأصفر»، يعد -في الواقع- اقتباساً من الثقافة الأمريكية. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أيضاً ظاهرة الألوان المرتبطة بالجنس؛ ويعني ذلك أن الزوجة الخائنة يطلق على زوجها «الزوج الذي يرتدي قبعة خضراء»، وأصل ذلك يرتبط في العصر القديم بالتزيين والزخرفة في الدرجات الاجتماعية. وكما ذكرنا آنفاً، إن الخدم والعبيد كانوا يرتدون عمامة صينية قديمة خضراء، وبعد أسرتي يوان ومينغ، كانت المومسات وعازفو الموسيقى يرتدون منديل الرأس الأخضر الزمردي الذي يدل على المكانة المتدنية، ثم بات رمزاً للزوج الذي يفقد نور وجهه وإشراقه ويصبح فرداً في الحضيض الأسفل جراء خيانة زوجته التي أقامت علاقة غرامية خارج نطاق حياتها الزوجية.

وإجراء مسح شامل وإلقاء نظرة فاحصة على مغزى الألوان في العادات الشعبية المذكورة آنفاً، نجد أنه على الرغم من الافتقار إلى حد فاصل في التمييز الصارم بين الدرجات الاجتماعية في هذا المضمار، بيد أن مغزى الألوان قد عبر عن السعد والنحس، والمنافع والأضرار، والخير والشر وغيرها من الاتجاهات النفسية والاختيارات الأخلاقية التي تأثر معظمها بالحدود

الصارمة للألوان في النظام الإقطاعي. والألوان التي حظيت بالمكانة الرفيعة والتمجيد في الدرجات الاجتماعية الإقطاعية كانت تعبر عن الحظ السعيد والبشرى الطيبة بصورة عامة، أما ألوان المكانة الوضيعة والتي تتعرض للازدراء في الدرجات الاجتماعية الإقطاعية فكانت تعبر عن اتجاه النحس والشؤم في العادات الشعبية. ولكن، خرافة الإيمان بالألوان في النظام الإقطاعي اندثرت مع أفول نجم هذا النظام في حد ذاته، بينما خرافة الإيمان بالألوان في العادات الشعبية ستواصل تطورها وثراءها وتصبح ظاهرة ثقافية طويلة الأمد.

ثالثاً: الماء والثقافة الصينية

الماء هو شريان الحياة، ومن المقومات الضرورية لوجود البشرية، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بحضارة البشرية. ويتبوأ الماء مكانة خاصة في تاريخ تطور الأمة الصينية، ويتحلى بالطابع الخاص والشكل المميز، وجلب للشعب الصيني الكوارث والنكبات، ومنحه المتعة واللذة، كما أغدق عليه القوة الإبداعية والخيال، وأوجد عظمة الأمة الصينية وهيبتها واجلالها، واضطلع بدورٍ وتأثير خاصين في تطور الثقافة الصينية.

الاعتماد على الماء وإدراك أهميته لدى الصينيين الأولين

أثبت تطور علوم الأحياء بصورة كاملة، إن أصل البشرية ووجودها يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالماء. وفي مرحلة صيد السمك والحيوان، باعتبارها الركيزة الأساسية لطعام البشرية، كان الماء من المصادر المباشرة للطعام والغذاء. وبعد أن دخلت البشرية مرحلة الزراعة، استخدمت الماء في سلق الطعام، وفي صناعة الفخار، وفي ري الحقول، وأصبحت أكثر اعتماداً على الماء، وعاش الصينيون الأولون -منذ البداية- على ضفاف الأنهار، وتعين عليهم التجمع والإقامة في المناطق المتاخمة للمياه من أجل الحياة والبقاء. ويتجسد ذلك أمام أعيننا، وتنعكس هذه الأحوال في الأساطير والحكايات والكتب القديمة. ومثال ذلك، ذكر كتاب «تاريخ الملوك والأباطرة عبر العصور» أن: «إله الزراعة كان يسمى جيانغ، وجسمه جسم إنسان، ورأسه رأس بقرة، ويعيش في نهر جيانغ». «وكان الإمبراطور الأصفر يعيش في منطقة شوشيو، وشب عن الطوق في نهر جي». وذكر كتاب «سجلات تاريخية» كانت: «لوازو المحظية الأولى للإمبراطور الأصفر، وأنجبت ولدين؛ الأول اسمه شوان شياو ويعيش في نهر جيانغ، والثاني اسمه تانغ يه ويعيش في نهر روي». كما أثبت علم العاديات والآثار أن الصينيين الأولين عاشوا في المناطق المجاورة للأنهار. وعلى سبيل المثال، إنسان تيان لان، الذي كان يعيش منذ مليون سنة تقريباً، كان يقيم في المنطقة المجاورة تيان لان (الحقول الزرقاء) ويجري فيها نهر «با» آنذاك وتتدفق مياهه بسرعة، وكان طويلاً نسبياً، ويحتوي على كميات ضخمة من المياه، وقاع النهر مستوٍ، وشواطئه عريضة، ويقدم تسهيلات كثيرة لهذا الإنسان

للحصول على الماء. (انظر كتاب «إنسان تيان لان» من تأليف هوانغ وي ون)، وإنسان بكين الذي عاش منذ قبل سبعة آلاف سنة تقريباً في منطقة تشوكوديان التي «كانت تقع في قاع نهر قديم»، «وكان أهالي بكين يعيشون في كهف حيث اكتشف فيه ثعلب الماء، وحارود، وسلحفاة، وجاموس وغيرها من الحيوانات التي تعيش في الماء أو الطيور المائية. (انظر كتاب «إنسان بكين» من تأليف قولان يو). كما أن «قرى العشائر في يانغشاو كانت منتشرة على تلال التراب الأصفر على ضفتي النهر الأصفر، وكان الناس آنذاك يؤثرون بناء مساكنهم عند منحنى النهر أو عند التقاء نهرين. ولماذا كان الناس يبنون بيوتهم في مثل هذه الأماكن؟ السبب في ذلك سهل وواضح وبسيط؛ هو أن الحياة العادية للناس لا تنأى عن الماء إطلاقاً» (انظر كتاب «ثقافة يانغشاو» من تأليف آنجي ميي). كما أن قرى عشائر ثقافة لونغشان التي تعد أقدم من ثقافة لونغشان بعض الشيء، انتشرت على ضفاف الأنهار. وفي مناطق مصب النهرين الأصفر واليانجتسي عُثر فيها –في الوقت الحاضر– على أكثر الأطلال الثقافية. وأوضحت هذه الحقائق اعتماد الأسلاف والأجداد على الماء، كما أبرزت للعيان أن الثقافة التي ابتدعوها كانت بفضل المياه.

ولكن تعرض الأولون والأسلاف –في أغلب الأحيان– إلى الأضرار الناجمة عن المياه لأنهم كانوا يعيشون على مقربة من مناطقها. ومن الجلي، أنه عندما نشأت علاقة وثيقة العرى بين البشرية والماء، شهدت البشرية منافع وأضرار المياه، مما جعل تزامن اعتماد البشرية على الماء مع محاولتها الجادة والضرورية لتجنب وكبح جماح الفيضانات في آن واحد. والأطلال الثقافية الموغلة في القدم والتي تم العثور عليها في الوقت الحاضر، كانت تقع على الهضاب البارزة من قاع النهر بصفة عامة. ويعد ذلك ابتداعاً عظيماً للأولين والأجداد من الاستفادة من الماء وتحاشي أضراره. وشهدت العصور المختلفة اضطلاع الشعب الكادح بترويض المياه والتمتع بها، ويعد ذلك بمثابة توريث حكمة الأسلاف وتطويرها. وجاء في الأساطير القديمة، إن الأسلاف في العصور الغابرة بذلوا قصارى جهدهم لدرء تهديدات الفيضانات. ومثال ذلك، القصة التي انتشرت بين الأقليات الصينية في الجنوب الغربي وتحكي أن فوشي وشقيقته اختفيا داخل ثمرة كوسا ضخمة لمجابهة الفيضان، وكذلك قصة الفتاة نيووا التي تصقل حجراً من خمسة ألوان وترقع السماء، التي جاءت في أساطير قومية هان في كتاب

«هاواي نانتسي». ويعكس ذلك – في الواقع– الحرب الشرسة بين الأسلاف والفيضانات، وعبر عن نوع آخر من العلاقة بين البشرية والمياه. إن هذه الأساطير، وقصة دايوي يكبح جماح الفيضان أظهرت روح الإرادة والعزيمة للسيطرة على المياه والتحكم فيها من جانب الأسلاف. ويختلف ذلك اختلافاً كبيراً عن الخضوع للمياه الذي جسدته العادات الشعبية من الصلاة من أجل المطر. ويستحق ذلك اهتمامنا الخاص عند الاضطلاع بدراسة تاريخ الثقافة الصينية.

تحدثنا في السطور السابقة عن أضرار المياه، وهناك أيضاً أضرار الافتقار إليها، ونعني الجفاف الذي – من منظور آخر– جسّد علاقة اعتماد الأسلاف على الماء. وذكر كتاب «تاريخ الجبال والبحر» قصة «كوافو يطارد الشمس» التي أظهرت أن الأجداد عندما عانوا من نقص المياه قدموا تضحيات هائلة في سبيل الحصول عليها. كما ذكر كتاب «هاواي نانتسي» قصة «خويي يطلق سهماً على الشمس» التي عبرت بصورة كاملة عن صراع الأسلاف مع الجفاف والقحط. وبصرف النظر عن تباين مضمون ومحتوى هذه الأساطير والحكايات في الكتب القديمة، لكنها جسدت الفكر الموحد والمتشابه في قهر الطبيعة، مما يبرز للعيان علاقة الصينيين بالماء (التي تعد جزءاً من الطبيعة) في العصور السحيقة، وهي علاقة الاعتماد عليها، وتحاشيها وكبح جماحها بقوة وفعالية أيضاً. ولا مراء، إن ذلك يعتبر الطريقة الصائبة للبشرية في مجابهة الطبيعة.

وقد أدرك الصينيون الأولون الماء من خلال تجاربهم العملية. وقد تطور هذا الإدراك وتعمق بصورة مطردة عبر العصور المختلفة. ومن المهم أنه عند مقارنة معرفة الصينيين بالماء ونتائج العلوم الحديثة، نعثر على مواضع متشابهة تصيب البعض بالدهشة؛ فقد أثبتت العلوم أن الماء يعتبر من المقومات الأساسية التي تعتمد عليها كافة الأحياء في حياتها ووجودها، والماء هو الأساس المادي الذي يشكل الحياة. وعدم وجود الماء يؤدي إلى عالم خال من الحياة على غرار خلو سطح القمر من الحياة كما عرفنا. ومن الأرجح أن ذلك يعد بعينه السبب في أن المسطحات المائية تمثل أكثر من 70٪ من مساحة اليابسة، كما أن الكميات الهائلة من الماء التي تختزنها القارات والمياه الجوفية تنتشر في الغلاف الجوي وفي طبقات الصخور، مما يشكل النطاق المائي للغلاف الجوي للبشرية بأسرها. وكيف كان الصينيون يتعاملون مع الماء؟

في المقام الأول، إن الماء يتبوأ المكانة الأولى بين كافة الأحياء والكائنات والموجودات. وأُطلق الأقدمون على العناصر المادية التي أدت إلى نشأة العالم اسم «العناصر الخمسة»، وأجملوا الشؤون الحكومية في الدولة في «العناصر الستة» (العناصر الخمسة + الحبوب). ويحتل الماء المرتبة الأولى في «العناصر الخمسة» وفي «العناصر الستة». وذكر كتاب «التاريخ» أن: «العناصر الخمسة بالترتيب هي: الماء، النار، الخشب، المعدن، والتراب». كما ذكر أيضاً أن «العناصر الستة» بالترتيب هي: الماء، النار، المعدن، الخشب، التراب، والحبوب». أما فيما يتعلق بنشأة الكائنات الحية وحجمها، فقد وضع الأقدمون الماء في المرتبة الأولى في هذا الخصوص. ومثال ذلك، ذكر «كتاب التغيرات» أن: «السماء لها خمسة أعداد، والأرض لها خمسة أعداد أيضاً، وهذه الأعداد متكافئة ومتساوية، ولكن تتحلى بالتركيب المستقل». وذكر أيضاً: «تتكون المياه عندما تتحد علامة السماء الأولى مع علامة الأرض السادسة، وعلى غرار ذلك تتكون النار من التقاء علامة الأرض الثانية مع علامة السماء السابعة، والخشب من التقاء العلامة الثالثة السماوية مع العلامة الثامنة الأرضية، والمعدن ناتج من اتحاد العلامتين الرابعة الأرضية، والتاسعة السماوية، والتراب من اتحاد العلامتين الخامسة السماوية والعاشرة الأرضية». ومازال يضطلع أناس بدراسة هذه النظرية سواء أكانت تشتمل على ألغاز علمية أم لا. ولكن منح نشأة الماء هذه الأهمية القصوى ربما ينطوي على المغزى العلمي. وكذلك ذكر كتاب «قوانغشي» أن: «الماء يشغل سبعة أعشار مساحة الأرض، واليابس ثلاثة أعشار هذه المساحة في عهد الملك قونغ قونغ، والاعتماد على قوة السماء للسيطرة على هذه الدنيا». وتوضح هذه الفقرة أن المنطقة التي كان يقطنها الزعيم قونغ قونغ تمثل مساحة المياه فيها سبعة أعشارها، واليابس ثلاثة أعشارها. ولكن، هناك اتفاق عفوي بين نسبة المياه واليابس هذه وتوزيع المسطحات المائية واليابس في الكرة الأرضية في وقتنا الحاضر، ويكفي ذلك أن يلجم الناس بالدهشة جراء حكمة وذكاء الأقدمين.

ثانياً: أما الدور الذي يقوم به الماء، فقد اعتقد الأقدمون أن الماء هو مصدر الكائنات الحية التي تنمو وتزدهر بفضله. ومثال ذلك، ذكر كتاب «الربيع والخريف»: «ما ماهية الماء؟ إنه مصدر حياة الكائنات، وأصل جميع الأحياء، ويشكّل الجمال والقبح، والأخلاق والرذائل، والذكاء والغباء». وفي أسرة تانغ، تحدث هوانغ شينغ تشينغ عن دور الماء في كتابه «مقدمة

كتاب الماء»، وأشار إلى أنه: «إذا لم يوجد ماء، لا توجد حياة، ولا توجد موانئ، بل ولا توجد كائنات حية إطلاقاً، كما أن الافتقار إلى الماء يعني عدم وجود مقاييس ومعايير، ولا يوجد أيضاً الطعام والشراب، فالماء هو سبب النمو والنماء، وأصل حياة الإنسان الذي طعامه يتمحور على الماء، وعدم وجود الماء لا يمكن من ري الأراضي، ولا يمكن من أن تنمو المحاصيل وتكبر. والتضاريس التي تخترقها المياه تحدد مواقع المدن والمعابد، والحدود بين المقاطعات والولايات، وتسير المراكب في الأنهار وتقيم اتصالات مع المناطق النائية، وتشييد السدود يجعل الأرض الجدباء تتحول إلى حقول غنية وثرية، وتلتقي فروع الأنهار وتكّون اللآلىء، ولا يمكن أن تنمو الغابات في البراري إذا لم يوجد الماء». ووضح هوانغ في هذه الفقرة العلاقة الأساسية التي تربط بين المياه والتطور الاجتماعي.

ولكن معرفة الصينيين بالماء لم تتوقف عند هذا الحد. والصينيون -بصفتهم من المبدعين الأساسيين في الحضارة الشرقية- يكنون للماء التحليل العقلاني في الفلسفة الشرقية الكلاسيكية، وأضفوا على الماء العديد من صفات الإنسان بغرض الحفاظ عليه وصيانته، ناهيك عن الصفات والخصال الاجتماعية، ولذلك الماء في الطبيعة، والإنسان في المجتمع، يتسمان ببعض الملامح والصفات المشتركة المتشابهة والمتماثلة، مما جعل الماء يتحلى بالخصوصية والتفرد في الثقافة الصينية. ويرى الصينيون في العصر القديم أن الماء أظهر روح الأخلاق الكريمة ورحابة الصدر تجاه سائر الكائنات، وأغدق عليها بالنعم التي لا تعد ولا تحصى حقاً، ولذلك، ذكر كتاب «التغيرات» أنه: «بفضل الماء تنمو الأشياء التي لا تعد ولا تحصى». وذكر كتاب «لاوتسي» أن: «الماء يقدم فوائد جمة للكائنات ولا يسعى إلى السلطة والنفوذ». ومن ثم يتحلى الماء بالعديد من الأخلاق الجميلة السامية. وسرد كتاب «تشوانغ شي» مقارنة كونفوشيوس بين الماء والأخلاق على هذا النحو: «كونفوشيوس يتأمل في الماء وهو يتدفق صوب الشرق، ويسأله: أحد مريديه وهو تسي قونغ: لماذا الإنسان النبيل ينظر بإمعان ويحدق في الماء؟ فأجاب الأستاذ كونفوشيوس: الماء يتغلغل في كافة الكائنات، ولا توجد حياة دون ماء، والماء هنا يشبه الفضيلة، والماء يجري نحو المصب في المناطق السفلى، يجب أن نفكر ملياً ونتأمل ذلك لأنه يشبه الحقد والعدالة، وتتدافع أمواج المياه ولا تهدأ مثل الطاو المحرك الأول للكون، ويجتاز الماء الجبال والوديان دون خوف أو وجل مثل الشجاع،

وسطح الماء يجب أن يكون متساويا مثل المساواة في القانون، ويزخر بالثراء والوفرة ولا يسعى وراء المظاهر مثل الصراط المستقيم. والماء يتخلل كافة الأشياء الدقيقة مثل الملاحظة الصارمة، ويتحلى بالطهارة والنقاء مثل الخير، ويجب أن يكون منبعه في الشرق مثل الآمال والتطلعات التي تقطن الشرق. وهذه الأسباب التي تجعل الإنسان النبيل يتأمل بإعجاب تدفق المياه». وورث وجهة النظر هذه وطورها المجلد الثالث من كتاب «شروح كتاب الأغاني» وأشار إلى: «يتدفق سريان الماء ويملأ المساحات والفراغات ولا يترك ثمة فتحة ولا ثغرة مثل الإنسان الحكيم، والماء يتدفق من أعلى إلى أسفل مثل المؤدب المهذب، ولا يتردد في أن يهوي مهاوي الأعماق مثل الشجاع الباسل، ويبدو الماء شفافاً رقراقاً عندما يعترض السدود وكأنه يعرف مصيره، ويجتاز المخاطر والعقبات إلى الأماكن النائية، وينتصر في النهاية مثل صاحب الأخلاق الحميدة المدافع عن قضية. والماء هو سبب نشأة السماء والأرض، وهو حياة الكائنات، ويجعل البلاد تنعم بالسلام، ويجعل الأشياء تعرف الطريق المستقيم، ولذلك يشعر الحكماء الأذكياء بالغبطة عندما ينظرون إلى الماء». واضطلع نفرٌ غير قليل من الأقدمين بدراسة ومناقشة مثل هذه الآراء والنظريات. ويمكن الاعتقاد أن إضفاء الطابع الاجتماعي والأخلاقي على الماء –باعتباره من الكائنات الطبيعية– يعد نوعاً من الإبداع المتميز والفريد الذي ينفرد به الصينيون في تاريخ ثقافة البشرية. والاضطلاع بهذا الإبداع يوطد العلاقة بين الإنسان والماء بشكل أكبر، ويعزز التأثيرات المادية والمعنوية بدرجة أكبر في التطور الثقافي. إن مثل هذه المعرفة أثرت تأثيراً عميقاً في الفن الأدبي، والعادات الشعبية، والمشاعر الشعبية في الصين، ناهيك عن السيطرة على المياه والتمتع بفوائدها والتلذذ بها.

السيطرة على المياه والتمتع بها عبر العصور التاريخية

ظهر تعامل البشرية وعلاقتها بالماء في مجالين هما:(1) التحكم والسيطرة على المياه. (2) التمتع بمنافع المياه والتلذذ بها. ولا يستثنى من ذلك الأمة الصينية، بل قدمت إنجازات للبشرية في هذين المجالين. وعلى الجملة، في المجتمع القديم، وفي المرحلة الأولية للمجتمع الإقطاعي، ركز الصينيون جهودهم على فرض السيطرة على المياه والتحكم فيها، بينما في المرحلتين المتوسطة والأخيرة للمجتمع الإقطاعي كرسوا جهودهم على التمتع بالماء. ومن منظور البيئة

الطبيعية الموضوعية، فإن أراضي الصين في المرحلة الأولية كانت جزءاً من التكوين الطبيعي؛ حيث الأراضي الشاسعة الصينية يتندر بها البشر، وكان الجزء الأكبر منها لا يزال ينأى عن الاستغلال والتنمية بصورة صحيحة، أما أراضي الدولة بعد المرحلة المتأخرة فاجتازت مرحلة طويلة من التنظيم والإصلاح، وجسدت بدرجة أكبر التكوين الثقافي والأدبي. ومن المنظور الذاتي، فإن الصينيين -بعد المرحلة المتوسطة- كانوا يتمتعون بالسعي الدؤوب الجديد والإبداع الأكثر قيمة والأكثر عدداً في الحياة الثقافية، وفي الوقت نفسه، وهنت قوة قهر الطبيعة وتغييرها وتعديلها لدى الصينيين بصورة تدريجية في ذلك الحين، وذلك في ظل تأثير أفكار الأديان الثلاثة: الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية. ويشتمل التاريخ على العديد من سجلات المشروعات العملاقة للسيطرة على المياه، كان معظمها قبل أسرتي وي وجين. ومثال ذلك، دايوي يكبح جماح الفيضان، ولي بينغ يُشيِّد سد دوجيان يان، وفوتشاي يشق قناة قان، وشيمين باو يسيطر على فيضان النهر، وصون شواو يشيد سد تشاو، وجينغ قوي يشق قناة تشين، ولي لو يشق قناة لين، وتشاو شين تشين شيد سد تشيان لو وغيرها من المشروعات التي كانت في الغالب من أجل ترويض مياه الفيضان أو الإفادة من المشاريع المائية، عدا قناة قان، وقناة لين اللتين كانتا تستخدمان في الأغراض العسكرية. ونخص بالذكر من هذه المشروعات دايوي يكبح جماح الفيضان الذي يعتبر أقدم وأضخم مشروع للسيطرة على المياه في تاريخ الصين، كما كان أقدم مشروع يهدف إلى استصلاح أراضي الدولة اعتماداً على ترويض الفيضانات، وجسد بصورة كاملة القوة العظيمة للأمة الصينية في تعديل الطبيعة والإفادة منها، ومن ثم اتسم بالأهمية الثقافية والتأثير الثقافي اللذين انتشرا لعدة آلاف من السنين ولم يأفل نجمهما. وبعد أسرتي وي وجين، حظي المذهب الكونفوشيوسي بالشرعية وسيطر على أفكار الناس بصورة صارمة، كما تغلغلت الديانة الطاوية والفلسفة البوذية في أعمال الناس. وتعمقت مشاعر الخوف من الطبيعة وخرافة الإيمان بها لدى الناس يوماً بعد يوم. وعند مجابهة الفيضان، لا يعد كبح جماحه شيئاً مهماً، بل الأهم هو صنع تمثال بوذا الكبير، وصب تمثال الكركدن المعدني أملاً في الاستعانة بهما لقمع مياه الفيضان، ويعتبر تمثال بوذا الكبير في جبل ليه في مقاطعة سيتشوان، وطائر الكركدن المعدني في تشانغدا في مقاطعة خونان تجسيداً بارزاً لهذه الظاهرة التاريخية. وكذلك عندما لا تهطل الأمطار، ليس المهم

مكافحة الجفاف والقحط، بل الأهم هو تقديم القربان للملك التنين المسيطر على الأنهار والبحيرات توسلاً وتضرعا إليه أن ينعم بتوفير الماء. ومن ثم، انتشرت -في العصر القديم- معابد الملك التنين من مختلف الأحجام في شتى الأصقاع، ويعد ذلك الأكثر وضوحاً وتفسيراً لهذه الظاهرة التاريخية. ومن ثم، وعلى الرغم من إقامة المشاريع المائية غير القليلة في المرحلة التاريخية طويلة الأمد، إلا أن حجمها لا يضاهي نظيرتها في العصور القديمة. وتعد قناة دايون خه في أسرة سوي المشروع المائي العملاق الوحيد الذي يمكن مضاهاته بالمشاريع المائية في العصر القديم، ولكن كان الغرض منه هو نقل الحبوب، والمواد الغذائية، وتوفير التمويل اللازم لرحلات الملوك والأباطرة في جنوب البلاد، ويختلف ذلك عن الهدف من إنشاء المشاريع المائية السابقة.

وقد أحرز الصينيون تطوراً مهما وإبداعا جديداً في التمتع بالمياه والتلذذ بها، وذلك أثناء المرحلة المتأخرة في المجتمع الإقطاعي. وقد أثرى ذلك حياة الصينيين الثقافية، وأثر في خصائصهم وصفاتهم الثقافية، وقدم إسهامات عظيمة لحياة البشرية الثقافية بأسرها أيضاً. ويبرز ذلك بجلاء في المجالات الثلاثة للثقافة المائية وهي: الخمر، الشاي، الاستحمام.

الخمر: يرجع تاريخ صناعة الخمر في الصين إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، ولذلك حسب ما ذكرته الأساطير أو تأسيساً على اكتشافات الآثار القديمة والعاديات. وقبل أسرتي وي وجين، كان الناس يستخدمون الخمر في تقديم القرابين، ويحتسون الخمر للشعور بالغبطة والسعادة، وجعل ذلك الخمر يتحلى بخاصيتين مميزتين في الحياة الاجتماعية. ولكن الإفراط في احتساء الخمر، أبرز للعيان أضرارها. وكان الملك تشو في أواخر أسرة ين «يصب الخمر في أحواض، واللحوم المعلقة في قصره تشبه الغابة» (انظر كتاب «سجلات تاريخية») وأدى ذلك إلى انهيار الدولة واضمحلالها في نهاية المطاف. ولذلك دوق أسرة تشو فيما بعد، ورئيس الوزراء تساو تساو في عصر الممالك الثلاثة أصدرا أمراً بحظر تناول الخمور. وفي عصر أسرتي وي وجين تم توريث استخدام الخمر في تقديم القرابين وجلب السعادة للنفس، وفي الوقت نفسه، تم إحراز تطوير جديد ظهر في موضوعين هما: (1) توثيق العلاقة بين الخمر والسياسة بشكل أكبر، وأصبح احتساء الخمر عادة شائعة في المجتمع السياسي. ففي مرحلة وي وجين عمت القلاقل أنحاء البلاد، واستمر القتال بلا هوادة، وشعرت الطبقات

العليا في المجتمع بأفول نجمها تماماً، ومن ثم، شهدت الفلسفة الكلام الأجوف والغيبيات، كما ظهر في الحياة الفساد والتساهل وترك الحبل على الغارب. وكان احتساء الخمر آنذاك عبارة عن الاندماج بين الفساد والتساهل. ومن ناحية أخرى، شعرت كوكبة من الناس بالاستياء من الحقائق السائدة آنذاك، ولذا انهمكوا في الشراب بجنون حتى ينسوا الأوضاع المزرية في البلاد. ولذلك أصبح احتساء الخمر هواية وعادة شائعة لدى أهل أسرة جين. ويعرف الناس جيداً «الفضلاء السبعة الذين كانوا يتجمعون في غابة البامبو وينخرطون في احتساء الخمر بشراهة» (انظر كتاب «تعليقات وأقوال جديدة عبر العصور»). وكان من بينهم روان جي «مدمن على الشراب، حتى الثمالة دائماً، ويصدر أصواتاً غريبة»، «وظل سكراناً لمدة ستين يوماً» عندما طلب تساو بيه مصاهرته، وكان يعشق الخمر مثل حياته، وقال عن نفسه أنه: «وُلد من رحم الطبيعة، ولكن الخمر هو اسمه، ويحتسي قدحاً كل مرة، ويشرب خمسة عشر لتراً ولا تعرف الثمالة طريقها إليه» (انظر كتاب «كتاب أسرة جين. فصل سيرة ليو لينغ»)، وكتب «مقامة امتداح خصال الخمر» ذكر فيها أنه: «عثر على دنان خمر، وأخذ يحتسي كأساً تلو الآخر، وجلس القرفصاء، وشعر ذقنه متناثر ومبعثر، ويتكئ بذراعه على الدنان ويأخذ سويعة من النوم»، لقد أصبح إنساناً منقوعاً تماماً في دنان الخمر. (2) أصبح الخمر والأدب وحدة عضوية واحدة في عصر أسرتي وي وجين. والخمر ليس موضوعاً يتناوله الأدب بالوصف فقط، بل يعد قوة مُساعدة للإبداع الأدبي أيضاً. وكتب يانغ شيونغ «مقامة الخمر» في أسرة هان الغربية من أجل الدفاع عن أضرار الخمر. وبقدوم أسرتي وي وجين، انتشرت عادة اقتران قرض الشعر باحتساء الخمر انتشاراً واسعاً، وتركزت هذه العادة في المجموعة الأدبية التي أسسها تساو تساو ونجله في عهد الحكم جيانآن، «عندما نخرج للتنزه، تتزاحم العربات في أرتال، وعندما تتوقف نجلس على حصير، وتدور كؤوس الخمر على صفحة الماء، وننهمك في الشراب بمصاحبة الأنغام الموسيقية العذبة، ونحتسي الخمر حتى تتورد الخدود، ونرفع رؤوسنا إلى أعلى وننظم قصائد الشعر» (انظر كتاب «مع كتاب ووجي» من تأليف تساو بيه). وسخر تساو تشي من «مقامة الخمر» من تأليف شيونغ ووصفها بأنها «أوبرا غير مهذبة»، كما كتب وانغ تسان مقامة شرح فيها مزايا ومساوئ الخمر. وفي أسرة جين، كتب تشانغ زاي «مقامة خمر محافظة لينغ» التي امتدحت وظائف

وفعالية الخمر. وكان ذلك إيذاناً ببداية الاندماج بين الخمر والأدب ودخولهما مرحلة الانتشار الواسع النطاق بصرف النظر إذا كان الأدباء والشعراء قادحين أو مادحين للخمر. ومن هنا أيضاً أصبح التكامل بين الشعر والخمر ملمحاً بارزاً في الثقافة الصينية. كما أصبح الشاعر تاو يوان مينغ في ذلك العصر أول شاعر يجسد الرباط الوثيق بين الشعر والخمر في التاريخ الصيني. وتبدو أروع قصائده وأشهرها كأنها انبثقت من الخمر سواء كان نظمها عند احتساء الخمر أو كتبها تقريظا للخمر. وأجرى أديب الصين لوشيون تحليلاً دقيقاً للعلاقة بين الخمر والعادات الاجتماعية والأدب في ذاك العصر، وذلك في المقالة المعنونة بـ«العادات في أسرتي وي وجين والمقال، والعلاقة بين الخمر والمخدرات». وبعد أسرتي سوي وتانغ، أصبحت علاقة المتعة المتبادلة بين الشعر والخمر عرفاً تقليدياً مع تقادم الزمن. وكانت الكثرة الكاثرة من الأدباء والمثقفين يحبذون احتساء الخمر حتى ينظمون قصائدهم، أو كتابة القصائد تتطلب شرب الخمر. وكانوا يضطلعون بذلك بأنفسهم، أو في نطاق حشد من نظرائهم، أو التسلية الفردية من شرب الخمر ونظم قصيدة، أو الشعر يساعد على تحفيز رغبة الشراب، أو الخمر يزيد من النكهة الشعرية، وتستطيع الأوساط الأدبية أن تشاهد الحدث العظيم من الامتزاج المتبادل بين الخمر والشعر عبر عصور التاريخ المختلفة. وقد أصبحت المقاصير والأبنية الشاهقة في المناظر الطبيعية والحدائق بمثابة الساحة المثالية لأنشطة احتساء الخمر وقرض الشعر لدى الشعراء والأدباء، ومن هنا تولدت أعمال أدبية وقصائد شعرية لا يحصى عددها. وفي العصر القديم، يعد الشاعر لي باي المثال النموذجي البارز بلا أدنى شك في تاريخ الخمر والشعر، وذلك ليس لأنه حقق أوثق الصلات بين الشعر والخمر فقط، بل بسبب أن أعماله الشعرية بلغت قمة الإنجازات الأدبية أيضاً. ويمكن القول –من خلال إلقاء نظرة شاملة على نشاطه الأدبي طوال حياته– أنه إذا لم يشرب الخمر لا ينظم قصيدة، وإذا لم ينظم قصيدة يعني أنه لم يشرب خمراً. ولذا، ظفر بإكليلين من الغار هما: «قديس الخمر» و«قديس الشعر». وتعتبر الخمر –انطلاقاً من الوظائف الاجتماعية للخمر المذكورة أعلاه– نوعاً من الثقافة المادية وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة المعنوية، وهاتان الثقافتان شكلتا وحدة واحدة في التاريخ الصيني. وإذا تحدثنا عن تقنية صنع الخمور ومشتقاتها، فإن هذه التقنية شهدت تطوراً هائلاً بعد أسرتي جين ووي. وظهر هذا الجانب في ثراء طرائق صنع الخمور،

ومن ناحية أخرى، ظهر أيضاً في الإفادة من مياه الينابيع المشهورة العذبة. وفي المجلد السابع من كتاب «طرائق إدارة شؤون عامة الشعب» سرد مؤلفه جياسي شيه عشرين طريقة لتقطير الخميرة في صنع الخمور، وجاءت في المجلد السابع من كتاب «حكاية يويانغ» من تأليف دوان تشينغ شي، إن الإمبراطور في أسرة وي الشمالية أمر جيا جيانغ بأن يستقل مركباً صغيراً ويسير صوب مصب النهر الأصفر ويحضر من هناك ماء لاستخدامه في صنع الخمر وكان يُطلق عليه اسم «ماء كونلون شانغ». وفي الوقت الحاضر، خمر فين بدأ تصنيعها في الأسر الجنوبية والشمالية باستخدام ماء «البئر الإلهي». ويقع هذا البئر في قرية أزهار المشمش. ويقول الناس دائماً «مياه الينبوع العذب والخمر الجميلة» في إشارة إلى إجمال وتلخيص خبرات الصينيين في صنع الخمور. واستخدام مياه الينابيع العذبة في صنع الخمر قد أصبح نوعاً من الإبداع في إظهار التمتع بالمياه والتلذذ بها لدى الصينيين.

الشاي: يعتبر الشاي من الإسهامات المهمة التي قدمها الصينيون لحياة البشرية الثقافية. وعرفت الصين الشاي منذ زمن بعيد موغل في القدم، واستخدمته -بادئ ذي بدء- في صناعة الأدوية، ثم أصبح نوعاً من الشراب يحظى بالانتشار في عصر هان الغربية، ولكن عادة احتساء الشاي وازدهارها كانت في مرحلة أسرتي وي وجين، والسبب في ذلك يتشابه طفيفاً مع عادة احتساء الخمر تقريباً، ويرتبط بعلاقة محددة مع عادة الكلام الأجوف آنذاك. وجاء في «كتاب أسرة جن» أن هوان ون كان يقدم الشاي والفاكهة بصورة أساسية عند الترحيب بالضيوف. ويجعلنا ذلك ندرك أن الشاي دخل نطاق الصلات الاجتماعية وقتئذ. ومع مجيء عصر تانغ، أصبحت عادة شرب الشاي أكثر انتشاراً وذيوعاً، وكانت توجد مقاهٍ متخصصة في تقديم الشاي في المدن. ونظراً لاحتساء الشاي على نطاق واسع، فقد أدى ذلك إلى استهلاك كميات ضخمة من الشاي، مما حفَّز إنتاج الشاي وتطوير التجارة بشكل أكبر. وظهرت -في ضوء هذه الأحوال والأوضاع- مؤلفات ضخمة ومشهورة في دراسة وبحث صنع الشاي وشربه، مثل كتاب «كتاب الشاي» من تأليف لويو، الذي كان إصداره وظهوره بمثابة توطيد لمكانة الشاي في الحياة الاجتماعية والثقافية، ورفع مستوى الصينيين في التمتع بفوائد الماء. وتأسيساً على سجلات تاريخية قديمة، فإن لويو في مرحلة تأليفه لكتابه المذكور أعلاه، كان يضطلع بممارسة نوعين من الأنشطة العملية هما: زراعة الشاي، وتذوق طعم

الشاي ونكهته، وصنف جودة الماء في شتى البقاع إلى عشرين نوعاً حسب متطلبات نقع الشاي وفي ضوء ممارسته العملية طويلة الأمد. وكان ترتيب مياه الينابيع حسب جودة مياهها على النحو التالي: جاء في المركز الأول نبع قوليان في وادي كانغ وانغ في جبل لوشان، ونبع هوي شان في ووشي في المرتبة الثانية، ونبع لانشي في محافظة تشي شيوي في المركز الثالث، وينبوع خهموه عند أقدام جبل شيبيي في يي تشانغ في المركز الرابع، أما المرتبة الخامسة فقد تبوأها ينبوع هان هان في جبل تشيو في صوتشو، وينبوع تشاو بينغ أسفل معبد تشاو شيان في جبل لو في المرتبة السادسة، ونبع نانلنيغ في نهر اليانجتسي في المرتبة السابعة، وشلال دونغ في الجبل الغربي في نانتشانغ في المرتبة الثامنة، ونبع هواي خه في جبل تونغ بو في المركز التاسع، وبئر دينغ في جبل لونغ تشي في المركز العاشر، وبئر معبد قوان ين الطاوي في دانيانغ في المركز الحادي عشر، وينبوع معبد دامينغ في يانغتشو في المركز الثاني عشر، ونبع تشونغ لينغ في مصب نهر هان في منطقة آنكانغ في المركز الثالث عشر، ونبع شيان شي أسفل كهف يوشيوه في تسي قوي في المركز الرابع عشر، ونبع شي لوا في وو قوانغ بمحافظة نان في المركز الخامس عشر، ونبع ووسونغ في أعلى جسر قان تشوان بمحافظة ووجيانغ في المركز السادس عشر، وشلال تشيان تشانغ في جبل تيان تاي في المركز السابع عشر، وينبوع يوان في ولاية تشين في مقاطعة خونان في المركز الثامن عشر، ونبع لينغ تان في المركز التاسع عشر، ونبع شيوه شان في المركز العشرين». (انظر كتاب «تكملة كتاب الشاي» من تأليف لويان تسان).

ثم أصبح تذوق الأدباء والمثقفين لمياه الينابيع عادة شائعة ومألوفة في ذلك الحين. ويعتبر وانغآنشي، وصوشي، وتشين قوان، ولويوي، وون تيان شيانغ من خبراء تذوق مياه الينابيع في أسرة سونغ، وتنتشر قصص تذوقهم لمياه الينابيع داخل صفوف الشعب، كما تسجل قصائدهم أنشطة تذوق هذه المياه. وبحلول أسرة تشينغ، حدد الإمبراطور تشيان لونغ معايير تذوق مياه الينابيع وجودتها، وكانت المياه الخفيفة العذبة الحلوة التي تطيل عمر الإنسان هي الأفضل والأجود، ورفع مستوى جودة شرب الماء واستخدامها بشكل أكبر. وفي ضوء تقييمه لجودة مياه الينابيع، احتل ينبوع يوي في الجبل الغربي في بكين المرتبة الأولى وامتدحه في قصيدة شعر نقشها على نصب تذكاري حجري. وبعد ذلك، أصبح الشاي المشهور والينبوع المشهور، وطعمها الحلو العذب، ونكهتهما الطيبة الرائعة من تقاليد الصينيين في

احتساء الشاي. وتجدر الإشارة بنا بشكل أكبر إلى أن تذوق الصينيين للشاي لا يقتصر على تذوق الماء، ولا في تذوق الشاي، بل يمتد إلى المناظر الطبيعية، والمشاعر والأحاسيس، والشعر والرسم. ويجب أن تنبثق مياه الينابيع من الجبال والأنهار، وتشكل ملامح المناظر الطبيعية التي تنضوي على الأحاسيس والمشاعر التي تتجسد في نظم القصائد والرسم، ويعد ذلك من الأنشطة الثقافية الخاصة والمتميزة والتي تتحلى بالتنوع والتعددية لدى الصينيين.

الاستحمام: كان الاستحمام من أقدم السلوكيات التي اضطلعت بها البشرية منذ البداية، لأن الإنسان كان يعيش في بادئ الأمر على ضفاف الأنهار. وكانت مرحلة البداية تتسم باللاوعي بصفة عامة، ثم باتت تتحلى بالوعي فيما بعد. ومتى بدأ وعي «الاستحمام» لدى الإنسان؟ في الواقع من الصعب تقصي حقائق هذا الموضوع. ولكن ذكر كتاب «تاريخ الجبال والبحار» أن العصر القديم شهد العديد من حالات الاستحمام، ومثال ذلك، «كانت توجد بحيرة عميقة في تشيو شي، كانت تستخدم مياهها في الاستحمام»، «وكان ماء باي يوان يستخدمه المُعلم كونوو في الاستحمام»، «وكان الإمبراطور الأسطوري شون يأخذ حماماً مستخدماً ماء تسونغ يوان». وكانت حالات الاستحمام هذه تجري في النهر أو في بركة عميقة. ومنذ العصور السحيقة حتى أسرة تشو، ظهر الاستحمام بالغفت، ويعني ذلك إضافة الغفت إلى الماء عند تسخينه بغرض تحسين جودة ماء الاستحمام لتنظيف الجسم على أحسن وجه. وانطلاقاً من فقه اللغة، فإن الكلمات مو (غسل شعره)، وشي (يغسل وينظف)، وزاو (يستحم -يأخذ حماماً) لها علاقة بالاستحمام. وتظهر سجلات وثائقية أن الاستحمام يعد جزءاً من الآداب في العصر القديم، وذكر كتاب «تاريخ الطقوس» كان: «المسؤولون والمحافظون يستحمون قبل الذهاب إلى البلاط الإمبراطوري لمقابلة ابن السماء». وجاء في كتاب «حوارات كونفوشيوس» أنه: «لما قتل جن جينغ تسي أميره غدراً اغتسل الأستاذ كونفوشيوس ثم ذهب إلى القاعة الإمبراطورية». ويوضح ذلك أن الاستحمام يتمتع بالأهمية القصوى في منظومة الآداب. وبدأ الناس يدركون استخدام مياه الينابيع الدافئة في الاستحمام منذ عصر أسرة تشو تقريباً. وقد قيل إن ماء ينبوع الشيشان الدافئ في مقاطعة شنشي بدأ الإفادة منه في هذا العصر. ويحكى أن الإمبراطور الأول في أسرة تشين كان يغازل معبودة جبل ليشان التي بصقت في وجهه، وظهرت فيه قرحة في التو، وندم الإمبراطور ندماً شديداً

وطلب منها أن تعفو عنه، فأمرته أن يغسل وجهه بماء النبع الدافئ. وتبين هذه الحكاية أن الناس في عصر أسرتي تشين وهان أدركوا استخدام ماء النبع الدافئ في العلاج. ويعد ذلك بمثابة القاعدة الموضوعية الأساسية لتنمية مياه الينابيع الدافئة في العصور اللاحقة. وتفيدنا معلومات وثائق متعددة أن عصر أسرتي وي وجين لا يزال يعتبر المرحلة المهمة في تطوير الاستحمام الذي بلغ مستوى عالياً جداً. في عصر أسرتي سوي وتانغ. ومثال ذلك، شهدت الحمامات العامة الكبيرة نسبياً في مرحلة وي وجين، ثم بدأت تنتشر كثيراً في القصور الإمبراطورية والمعابد البوذية، ثم تطورت وانتقلت إلى المدن داخل صفوف الشعب. وكانت تنمية مياه الينابيع والإفادة منها آنذاك أكثر انتشاراً واهتماماً إلى حد ما عن ذي قبل. وبدأت تنمية ينبوع ليشان منذ زمن بعيد نسبياً، وكان ازدهاره في أسرة تانغ، وأصبحت مياهه في عهد الإمبراطور شوان زونغ في هذه الأسرة تستخدم بصورة كاملة في الاستحمام الخاص والمميز داخل القصور الإمبراطورية الواقعة خارج العاصمة الإمبراطورية، وكان يطلق عليها «قصر هواتشينغ». وبالإضافة إلى ذلك، شهدت مرحلة أسرتي سوي وتانغ تنمية واستخدام وازدهار الينابيع آنينغ في مقاطعة يونان، وتانغ يوي في مقاطعة شنشي، ولوشان في مقاطعة جيانغشي، ونيغ تشينغ تانغ في مقاطعة خوبي. وقد زاد عدد الينابيع التي شهدت التنمية والإفادة من مياهها بعد أسرتي تانغ وصونغ زيادة هائلة.

الوعي الثقافي الذي جسدته الينابيع المشهورة

تعد مياه الينابيع من الموجودات الطبيعية، ولكنها في عيون الصينيين تتحلى بأخلاق الإنسان والحلم والمشاعر والأحاسيس، وأصبحت نوعاً من الأشياء الصينية التي أضفوا عليها الطابع الاجتماعي، واتسمت بالصفات الفريدة والمشتركة مع الإنسان. وأياً كانت نشأة مياه الينابيع، فأسماؤها تحتوي على الأساطير التي اكتسبت هالة من السحر والغرابة التي تركت أثراً بالغا داخل الإنسان، وجسدت بعض معتقداته وتطلعانه الدؤوبة. وإذا أجرينا مقارنة وتصنيفاً لبعض أسماء الينابيع المهمة والمشهورة في التاريخ، نكتشف أن من بين هذه الينابيع يوجد نوعان يتضمنان الوعي الثقافي البارز. النوع الأول من هذه الينابيع ترتبط بنشأتها وأسمائها ارتباطاً وثيقاً بالشخصيات التاريخية المشهورة. وحسب ما ذكرته أسطورة أن هذه

الينابيع كانت ثمرة الأنشطة الاجتماعية التي اضطلعت بها هذه الشخصيات، ويشمل ذلك الأنشطة السياسية والعسكرية أو الثقافية، كما كانت رمزاً لتمجيد وتقدير السلف من جانب الخلف. ويذكر «كتاب التغيرات» كان: «ظهور ينبوع عند أقدام الجبل تجسيداً للأخلاق الكريمة والحميدة التي يتحلى بها النبلاء والفضلاء»، مما يوضح مفهوم أن الأخلاق الصينية تؤدي إلى نشأة الينابيع ومصدرها عريق في القديم. وفي ضوء هذه النظرية، يوجد عدد غير قليل من الينابيع المشهورة التي كانت نتيجة «استمساك البلاد والأسر بالسلوكيات الصينية والأخلاق الحميدة». ومن بينهم الرهبان من ذوي الأخلاق السامية والسمعة الطيبة. ومثال ذلك، النبع باجيان (استل سيفه) في وادي هوانغ تسانغ في محافظة شياو في مقاطعة آنهوي، تحكي الحكاية أن الإمبراطور الأول في أسرة هان الغربية ليو بانغ شعر بالغيظ فاستل سيفه وضرب به الأرض، فانشقت وانبثق منها هذا النبع. ويقال إن مقاطعة قانصو تشمل خمسة ينابيع في جبل ووتشوان في مدينة لانتشو، وإن هوي تشو بينغ الجنرال الكبير للإمبراطور هان وودي، ضرب أديم الأرض بالسوط فانبثقت هذه الينابيع الخمسة من أجل أن يطفئ ظمأ الجنود ويجعلهم يشعرون بالراحة بعد الإرهاق والعناء. كما أرسل حملة عسكرية لتأديب قبيلة شيونغنو (أهل الهون) وانتصر عليها، وأغدق عليه الإمبراطور بجرة خمر، وأراد أن يحتسي هذا الخمر مع جنوده وقواته، ولذا صبّ هذا الخمر في ينبوع قريب، وأصبح ماء النبع خمراً حلو المذاق، وأطلق عليه نبع جيو (نبع الخمر) في مقاطعة قانصو اليوم. وبالإضافة إلى ذلك، هناك ينابيع لها علاقة بالنبلاء والأذكياء والوزراء والفضلاء والأكفاء، والجنرالات العظام مثل: نبع تشوداو والذي ترتبط نشأته بالأديب قوان يوي في الضفة الجنوبية للبحيرة الشرقية في ووهان بمقاطعة خوبي، والنبع حوتشانغ ذو علاقة بالملك تشيان ووصو في قصر دونغ شيا في مدينة صوتيشو، والنبع فإن قونغ يرتبط بالأديب فإن تشونغ يان في خارج البوابة الغربية في مدينة تشينغ تشو في شاندنغ. أما بخصوص الينابيع التي تمت بصلة بالبوذيين تشمل على نبع تشويانغ في ولاية هوي، ونبع هان هان في صوتشو، ونبع خوباو في هانتشو. وتترسب في أعماق هذه القصص الأسطورية تطلعات الناس وسعيهم نحو المثل العليا الاجتماعية والسياسية والمنوطة بالحكام الأذكياء، والوزراء الخلصاء، والموظفين الأكفاء، والجنرالات العظام. ويعتبر ذلك في حد ذاته الوعي الثقافي الذي جسدته الينابيع المشهورة. والنوع

الآخر من الينابيع يتجسد في أن مياه الينابيع نفسها تتحلى بأخلاق الإنسان. ويبدو أن هذا النوع من الأخلاق لم يغدق به الإنسان على الينابيع، بل هو من صفاتها الفطرية وخصائصها الأصلية، فالإنسان يشرب ماء النبع، وتتغير خصاله الطبيعية بصورة ملائمة ومناسبة. ويوضح ذلك، إن مياه الينابيع -باعتبارها من الموجودات الطبيعية- قد تجاوزت المفهوم الطبيعي واكتسبت وظائف اجتماعية إنسانية. ولا يمكن مناقشة ذلك انطلاقاً من الأحوال الواقعية، ولكن بموجب وجهة النظر الفلسفية القائلة بالاندماج بين الإنسان والسماء، ويعتبر ذلك معقولاً ومقبولاً. ويعد ذلك بالضبط مكمن روح الثقافة الصينية.

وعلى سبيل المثال: «**نبع داو» (نبع اللص)**: ذكرت سجلات أنه نبع سي شيوي في مقاطعة شاندونغ اليوم. وذكر كتاب «شي شي» أن كونفوشيوس مرّ بهذا النبع وكان «يشعر بالظمأ ورفض أن يشرب منه لأنه يمقت اسمه». وذكر كتاب «هواي نانتسي» أن: «تلميذ كونفوشيوس ويدعى زينغ تسي حذا حذو أستاذه، ولم يشرب ماء نبع داو». فقد كان الأستاذ وتلميذه يخشيان أن يصبحا من اللصوص إذا شربا ماء نبع داو، وليس في وسعهما سوى الصبر والجلد والظمأ»، ويوضح ذلك أن ماء نبع داو يجلب النحس والشؤم.

«نبع كوانغ» (نبع الجنون): ذكر كتاب «تاريخ الجنوب. فصل سيرة يوان تسان» أنه: «في الماضي كان هناك دولة تشتمل على نبع يطلق عليه نبع كوانغ. وكان الشعب يشرب ماء هذا النبع ويصاب بالجنون حتماً. وحفر ملك البلاد بئراً ليشرب منه، وكان الوحيد الذي لم يصبه الجنون». وتبدو هذه الحكاية أكثر شبهاً بالأسطورة. ولكن الماء الذي يتحلى بالجنون، يعد ماء يجلب الكوارث والمصائب.

«نبع تان» (نبع الطمع): يقع في البوابة الحجرية الشمالية الغربية في مدينة قوانغتشو في مقاطعة قوانغدونغ اليوم. وجاء في «كتاب أسرة جن. سيرة وو ينغ جي» أن: «تقلد نيغ جي العديد من المناصب العسكرية في عهد حكم لونغمآن. وقبل أن يصل إلى محافظته بحوالي عشرة كيلو مترات، وصل إلى مكان يطلق عليه البوابة الحجرية ويوجد به نبع يعرف باسم «نبع تان» (نبع الطمع)، ومن يشرب ماؤه يُصب برغبة جامحة من الطمع. ولكن عندما شرب ينغ ماء هذا النبع، لم يصبه الجشع، وحتى الذين لا يعرفون الجشع والطمع أمثال يي، وتشي إذا شربا هذا الماء لا يغير خصالهما الطبيعية» وما جاء في هذه الفقرة يختلف تماماً عما قيل عن نبع

تان، وعلى الرغم من أن الماء يتسم بالطمع، ولكنه لا يمكن أن يغير أخلاق الإنسان إطلاقاً. ومن ثم، مياه نبع تان (الطمع) تحارب الجشع حقاً.

«نبع ليان» (الصدق والشرف): ماء نبع ليان على النقيض تماماً من نبع تان (الجشع). وذكرت سجلات أن مدينة قانتشو في مقاطعة جيانغشي اليوم يوجد بها نبع ليان (الشرف والصدق)، ويرجع تاريخه إلى أسرة سونغ في الأسر الجنوبية. ونبع ليان الموجود حالياً يقع في الجانب الشرقي لمعبد ياو قونغ في مدينة خهفي في مقاطعة آنهوي، وترتبط نشأته بالموظف نظيف اليدين في أسرة سونغ ويدعى باو جينغ الذي يتحلى بالصدق والشرف. وقد قيل إن الموظف الجشع إذا شرب ماء نبع ليان يصاب بوجع شديد في الرأس لا يتحمل آلامه. وهذا هو ماء نبع ليان الذي يمكن –في الواقع– اعتباره ماء اختبار الصدق والشرف لدى الإنسان.

«نبع تسونغ مينغ» (نبع الذكاء): يقع في معبد دونغ لين في جبل لوشان في مقاطعة جيانغشي. ويحكى أن من يشرب ماء هذا النبع يصبح ذكيا، ويوضح ذلك أن ماء هذا النبع هو ماء الحكمة والذكاء.

«نبع روندا» (نبع المنافع والفوائد): يقع في معبد تشو قونغ في محافظة تشيشان في مقاطعة شنشي. وذكر كتاب «سجل براري شيانغ شان» أن: «معبد تشوقونغ في محافظة تشيشان شهد ظهور ينبوع. وقد قيل إن هذا النبع تدفقت مياهه عندما نعمت البلاد بالاستقرار، ونضب ماؤه عندما اندلعت القلاقل والاضطرابات، وتدفق ماء هذا النبع مرة أخرى، فمنحه الإمبراطور آنذاك لقب –«نبع روندا»، وبعد ذلك نفد ماؤه مرة أخرى. واليوم تتدفق مياه هذا النبع وتتحلى بالشفافية والمذاق الحلو العذب، ويعشقها الإمبراطور تاي زونغ». ويوضح ذلك أن ظهور نبع روندا كان في أعقاب قمع الاضطرابات، ومياهه تتقصى حقائق الأحوال في البلاد. ويجب القول إن الصفات المميزة التي تتحلى بها الينابيع المشهورة هي بمثابة الصفات الاجتماعية المميزة، ويستثنى من ذلك مياه الينابيع التي تحتوي على مواد تصيب الإنسان بالجنون. وطبعاً، هذه الصفات الاجتماعية المميزة لم تنبثق من الماء والحياة، بل كانت نتيجة معتقدات الإنسان وتعليق آماله وتطلعاته ومساعيه في نشر الخير. ودرء الشر عن هذا النبع الطبيعي. ولذا، يعد الماء تجسيداً للوعي الثقافي لدى الإنسان، كما يعتبر انعكاساً للسيكولوجية الثقافية المتراكمة في أعماقه، وعلى هذا النحو، يمكن فقط أن تبرز للعيان

الخاصية المميزة للماء في الثقافة الصينية.

شكل الماء المحدد وعادة الصلاة من أجل المطر

من الظواهر الطريفة أن التنين هو شكل الماء المحدد في الصين. والتنين هو رمز الإمبراطور الإقطاعي في الماضي، وهو أيضاً رمز الأمة الصينية قاطبة.

وأثبتت اكتشافات أن تاريخ التنين موغل في القدم. ويمكن أن نعرف الأدوات اليشمية التي على شكل تنين وتم العثور عليها في أطلال ثقافة هونغشان في منغوليا ولياوشي نعرف أنه في المجتمع البدائي منذ أكثر من خمسة آلاف سنة خلت، كان التنين شعاراً لتحالف العشائر والقبائل. وفيما يبدو أن اعتبار التنين من الأدوات اليشمية يعد انعكاساً لمفهوم الدرجة الاجتماعية أو للسلطة والنفوذ. وربما يكون ذلك السبب الذي جعل الأباطرة في العصور اللاحقة يشبهون أنفسهم بالتنين. ولذلك، ذكر «كتاب الجبال والبحار» أن: «الإمبراطور تشو رونغ امتطى ظهر اثنين من التنانين، وحذا حذوه كل من الأباطرة: روشو، جومانغ، بينغ يي، وبعد أسرة شيا، حذا خو حذو الأباطرة السابقين. وأشار «كتاب التغيرات» إلى مفهوم «ظهور التنين الطائر يعني ظهور إمبراطور جديد»، مما يوضح العلاقة المحتومة بين التنين، والإمبراطور، والسماء. إذن، متى نشأت هذه العلاقة بين التنين والماء؟ اعتقد بعض الخبراء –بعد دراسة الأدوات اليشمية في ثقافة هونغشان– أن التنين هو ثمرة تأليه الاندماج بين الحيوانات المائية والحيوانات البرمائية من شتى الألوان والأشكال واتخاذها كطوطم من جانب الأسلاف الأولين في مناطق الشمال والشمال الغربي بالصين. وإذا كان قولنا هذا موطد الأركان، إذن، فإن هذه المقالة – بلا مراء– تعد أكثر الأدلة والبراهين قوة وحجة.

ونعثر على سجلات قديمة في «كتاب الجبال والبحار» ذكرت أن التنين يعيش في الماء. وفي فصل «الجبال الشمالية» من الكتاب المذكور آنفاً، نقرأ الفقرة التالية: «ينحدر الماء من أعالي سد، وينساب في الشرق، ويصب في نهر يحتوي على العديد من التنانين والسلاحف». وبعد ذلك، ظهرت العديد من الأساطير المختلفة في مرحلة ما قبل أسرة تشين وأسرتي هان الغربية والشرقية إلى أسرتي وي وجين، التي تدور موضوعاتها حول التنين الإله الذي يقطن في جزيرة صغيرة، وتنين الطوفان يطفو فوق سطح الماء، والتنين الأصفر يحمل زورقاً على

ظهره، وظهور تنينين في بئر، ومجموعة من التنانين تسكن في بركة، كما تشتمل الكتب القديمة على سجلات متشابهة كما جاء في الكتب الآتية: «سيرة الأولياء في مملكة تشو»، و«قوانغشي»، و«كتاب أسرة هان. تاريخ العناصر الخمسة»، و«ملاحظات على كتاب الماء» وغيرها. وأظهرت السجلات المتعددة والمتنوعة المذكورة أعلاه، العلاقة الطبيعية بين الماء والتنين. وبعد أسرتي سوي وتانغ، ومع انتشار الديانة البوذية، احتوى كتاب البوذية على سجل الملك التنين (إله المطر) الذي استوعبته الثقافة الصينية، وتطور وأصبح بمثابة عقيدة الملك التنين في نظام عبادة الآلهة في الديانة الطاوية، وظهر ما يطلق عليه «الملك التنين في البحار الأربعة» و«الملك التنين في الجهات الخمس». وهناك أنواع مختلفة الأحجام من الملك التنين التي تقطن في البحار والأنهار والبحيرات والبرك والآبار والينابيع. ولذلك، «مهما كان الجبل شاهقاً وسامقاً، لا يحظى بالشهرة إلا إذا أقامت فيه جِنّيّة، ومهما كان الماء عميقاً، لا يصبح يتمتع بالنكهة الإلهية إلا عندما يقيم فيه تنين»؛ وأطلق على البحار والأنهار والبرك والينابيع اسم التنين تباعاً، وخرج إلى حيز الوجود عدد لا يحصى من برك التنانين، وينابيع التنانين، وسدود التنانين، وآبار التنانين، ويتحلى كل منها بأسطورة تجعل توارد الخواطر واستدعاء الأفكار بلا نهاية لدى الإنسان. ويمكن القول، إن التنين والماء يمثلان وحدة واحدة، وإقصاء أحدهما يعني عدم وجود الآخر، ومجموعة التنانين تدير شؤون المياه، وإذا أردت الحصول على ماء تضرع وتوسل إلى التنين، وقد تراكم ذلك داخل أعماق الصينيين بصفته وعيا ثقافياً وسلوكا ثقافياً أيضاً، وأدى إلى نشأة عادة التضرع إلى التنين من أجل المطر والتي انتشرت انتشاراً واسعاً في العصر القديم، وذكر كتاب «حوليات ليوي في الربيع والخريف» أن: «عادة التوسل والتضرع للمطر يُطلق عليها «يو»، وهو نوع من القرابين في العصر القديم تعد تضرعاً وتوسلاً للمطر. وقد قيل إن هذه العادة بدأت في عهد الإمبراطور تانغ في أسرة شانغ»، «وانتصر الإمبراطور تانغ على أسرة شيا، ونشر العدل في ربوع البلاد، ولكن القحط الشديد انتشر في كافة الأصقاع، ولم تعرف البلاد الحصاد لمدة خمس سنوات، وقدم تانغ نفسه قرباناً في غابة سينغ، وقال: «أنا الوحيد المذنب، وعامة الشعب أبرياء، وإذا كان سواد الناس من المذنبين، فأنا الوحيد بلا جريرة. وانطلاقاً من هذا الإحساس أطلب من الآلهة والشياطين إلا يسببوا أضراراً للشعب»، ثم قص شعره، وفرك يديه، وضحى بنفسه،

وصلى للإله من أجل السعادة، وشعر الشعب بالغبطة، وهطلت الأمطار بغزارة». ولذلك، تقديم القربان للمطر في فترة الربيع والخريف، كان عندما يحل الجفاف بالبلاد حيث يذهب الإمبراطور بنفسه إلى الضاحية الجنوبية، ويركع وينتقد نفسه، ثم يطلب من ثمانية أفراد وهم من الذكور والإناث العذارى بالتساوي -يطلب منهم الرقص والصياح، والتضرع والتوسل للسماء طلباً لسقوط الأمطار، ولا يوضع تمثال بوذا في مكان الصلاة. وفي عصر هان، بدأ الأديب دونغ تشونغ شو صنع تمثال التنين الترابي تضرعاً للمطر. وذكر كتاب «محاورات في الميزان. فصل التنين المضطرب» أن: «دونغ تشونغ شو اضطلع بالاستعدادات لتقديم القربان من أجل المطر، وصنع تمثالاً ترابياً للتنين استدعاء لهطول الأمطار، وكان هدفه أن تتضافر جهود السحب والمطر معاً ويلتقيان مما يؤدي إلى سقوط المطر». وأصبح «اختراع» هذا الأديب قدوة للأجيال المتعاقبة، كما أصبح من المراسم الضرورية التي يجب أن يؤديها الأباطرة عبر العصور المختلفة عند تقديم قرابين سقوط المطر. ومن الطريف أن ما ذكره كتاب البوذية من أن الملك التنين لديه المقدرة على تغيير سير السحب حتى تسقط مطراً يخلص الناس من الجفاف ويقاومون الكوارث» (انظر «كتاب هوايان»)، ويعني ذلك نوعاً من الاتفاق العفوي مع مقولة الصينيين» تضافر جهود السحب والتنين من أجل المطر». وقد تشكلت عادة التضرع للملك التنين من أجل المطر التي انتشرت في الأجيال المتعاقبة في ظل تأثير هذه العوامل الثقافية. ومنذ أسرتي تانغ وسونغ، كان الناس -في أغلب الأحايين- يشيدون معابد الملك التنين في البرك ويصنعون تماثيل الإله الملك التنين، أما فيما يتعلق بتقديم القرابين في هذه المعابد في أوقات الجفاف، فقد ذكر كتاب «حقائق وتاريخ الوثائق» أن: «الإمبراطور شوان رونغ في أسرة تانغ أصدر أمراً بتشييد المعابد في برك التنانين، كما أمر ببناء المذابح والقاعات داخل هذه المعابد، وعزف الموسيقى عند تقديم القربان في الربيع». كما ذكر كتاب «مسودات موجزة في أسرة سونغ» أن: «معبد التنانين الخمسة تم بناؤه في تشون مينغ فانغ في شرق العاصمة الإمبراطورية. وفي العالم الثالث لحكم الإمبراطور تاي زو في أسرة سونغ، قرر نقل المعبد من يوان ومين إلى هنا.. وفي شهر أكتوبر من العام الثاني لحكم الإمبراطور وي زونغ في أسرة سونغ، أصدر أمراً إمبراطورياً بمنح آلهة التنانين الخمسة ألقاباً خاصة بالأمراء». وتوضح سجلات هاتين الفقرتين أن الملوك والأباطرة في أسرة تانغ

وسونغ كانوا يهتمون اهتماماً شديداً بالملك التنين (ليس هو التنين القديم في الصين، ولا الملك التنين في الهند، بل هو الايمان بالملك التنين الناتج عن امتزاج الثقافتين الصينية والهندية) وتقديم القربان له، وإنشاء المعابد وأصبح ذلك أمراً عادياً ومألوفاً آنذاك. ومن ثم، منذ أسرتي مينغ وتشينغ، كان تقديم القرابين للملك التنين عادة شائعة ومنتشرة جداً، وازدهرت داخل القصور الإمبراطورية وبين صفوف عامة الشعب. وهناك قول مأثور مفاده: «تتشرد الأسر عندما ترتطم أمواج المياه بجدار معبد الملك التنين». ويوضح ذلك، عمق ومفهوم الوحدة بين التنين والماء. وعلى الرغم من أن الأباطرة في أسرتي مينغ وتشينغ يحتذون حذو النظام القديم من إقامة طقوس القرابين للإله «يو» من أجل المطر في المذبح السماوي في جنوب العاصمة بكين في كل سنة، ولكنهم –في أغلب الأحيان– يصلون بكل ورع وخشوع في معبد الملك التنين تضرعاً للمطر عندما تجابه البلاد خطر الجفاف، ولا يزال جبل هوامي في الضاحية الغربية في بكين يحتفظ بأطلال معبد الملك التنين في بركة التنين الأسود، ويقدم ذلك الدليل التاريخي على تأدية الملوك والأباطرة الصلاة من أجل المطر في السنوات التالية. ويبدي الملوك والأباطرة النزر اليسير من الخشوع تجاه الملك التنين، بينما يبدي سواد الناس قمة الورع والتقوي عندما يتضرعون للتنين من أجل المطر. وفيما يبدو أن طلب المساعدة والعون من الملك التنين عند مجابهة الجفاف قد أصبح –في هذه المرحلة– نزعة قوية في ثقافة المياه في الصين.

رابعاً: لمحة عن الأسرة العريقة بيه في شرق النهر الأصفر

كانت أسرة بيه من الأسر البارزة الشهيرة في عصر أسرتي هان وتانغ. وكان أبناء هذه الأسرة يتألقون دائماً في الساحة التاريخية الزاخرة بالتغيرات المتعددة والمعقدة في خلال ثمانمئة سنة من أواخر أسرة هان إلى أواخر أسرة تانغ في الصين، واضطلعت هذه الأسرة بدور هام في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية، وفي سائر المجالات الأخرى، وأحدثت تأثيراً هائلاً في جذب الأنظار من كل حدب وصوب، وأنجبت الكثير من الشخصيات التاريخية المتألقة خلال العصور المختلفة. ويتشابه انتشار هذه الأسرة ودورها التاريخي مع الأسر المرموقة الشهيرة القليلة، ولا يزال يعد ذلك ظاهرة ثقافية وتاريخية تستحق الدراسة والبحث. ونقدم في هذا المقام نبذة عن أسرة بيه في إطار جهودنا المتواضعة لتقديم أحوالها للخبراء والباحثين في داخل الصين وخارجها.

أصل أسرة بيه وتطورها الثقافي

عاشت أسرة بيه وتطورت في محافظة ونشي بمقاطعة شانشي، وقد أُطلق عليها لقب خه دونغ (شرق النهر) لأن هذه المنطقة تقع في شرق النهر الأصفر داخل أراضي هذه المقاطعة، وكانت جزءاً من مملكة وي في عصر الممالك المتحاربة، وكانت ولاية خه دونغ في عصر أسرتي تشين وهان وعاصمتها آنيي (مدينة يون تشينغ اليوم)، وينضوي تحت لوائها أربع وعشرون محافظة من بينها محافظة ونشي، وفي أسرة تانغ كانت أيضاً ولاية خه دونغ وعاصمتها بوتشو (غرب محافظة يونع جي اليوم) ويقع تحت سيطرتها أراضي مقاطعة شانشي اليوم، ومحافظة ونشي تتبع محافظة خهتشونغ في ولاية خه دونغ، وفي جنوبها يوجد مصب نهر فين، ونهر صوي، مما يقدم تسهيلات لري الأراضي الزراعية التي تنعم بالخصوبة والحصاد الوافر، وتعد من أقدم المناطق التي شهدت التنمية في السهول الوسطى. وعاشت أسرة خه دونغ بيه وترعرعت فوق هذه الأراضي الخصبة.

وأصل وجذور أسرة بيه يكمن في قاطني الحدود الغربية في غرب الصين. وذكر كتابا «سجلات تاريخية—فصل أسرة تشين» و«كتاب أسرة تانغ الجديد» وسجلات تاريخية أخرى

أن هذه الأسرة ينبثق اسمها من اللقب ينغ الذي يتشابه مع لقب الجد الأول لأسرة تشين. وجد هذه الأسرة يدعى قاوياو، وكان يساعد الإمبراطور الأسطوري شون في تنفيذ الأحكام والسجن، ونجله يدعى باويي وكان يساعد الإمبراطور في تربية الحيوانات والطيور، كما ساعد الإمبراطور يوي في ترويض الفيضان وتسوية الأرض، ولذا منحه لقب ينغ (الفائز). وأنجب ياويي ولدا أسماه داليان، وأنجب داليان حفيد الحفيد ويدعى تشونغ يان الذي أنجب بدوره حفيد الحفيد ويدعى تشونغ يو الذي «عاش في شي رو وقام بحماية الحدود الغربية». وأنجب تشونغ يو ولداً يدعى بيه ليان الذي أنجب إيلاي «الذي كان يتمتع بالذكاء والقوة والعافية، وكان الأب والابن من ذوي القدرات والكفاءات، وساعدا الملك تشاو في أسرة ين». وأنجب إيلان حفيد الحفيد ويدعى فيي تسي الذي كان يقيم في تشوان تشيو (جنوب شرق محافظة شينغ بينغ في مقاطعة شنشي اليوم). وكان ماهراً في تربية الخيول والحيوانات، طلب منه ملك أسرة تشو أن يقوم بتربية الخيول في المنطقة الواقعة بين النهرين تشي ووي، وأصبح لديه العديد من الخيول القوية، ومنحه هذا الملك قطعة أرض في تشين (محافظة تشينغ شيوي في مقاطعة قانصو اليوم). كما حصل أحفاد تسي على قطعة أرض في شيانغ (قرية بيه بو في محافظة ونش) وحمل أحفاد الجيل السادس لقب لينغ، ومنحهم الملك لي في أسرة تشو قطعة أرض في ولاية جيه يي. وذرية لينغ لقبها قاي، وحفيد جيل قاى التاسع يدعى زونغ وكان محافظاً لمدينة هوانغ دونغ، وانتقل من يوان تشونغ إلى سيتشوان وشانشي في عهد الإمبراطور ليوشيو، ثم انتقل إلى محافظة ونشي في الفترة بين الإمبراطور آندي ونظيره شون دي. وبعد ذلك، استقرت أسرة بيه في هذه المحافظة وبدأت مرحلة ازدهارها وتأسيسها بسرعة في تاريخ الصين.

ونستنتج من المعلومات والوثائق المذكورة آنفاً الآتي: (1) أن أسرة بيه هي أسرة بارزة انتقلت من المنطقة الشمالية الغربية ودخلت منطقة السهول الوسطى واعتمدت في حياتها على رعي الماشية، أو قد تكون أقلية اشتغلت بالرعي في منطقة شمال غرب الصين. وكان الأجداد الأولون لهذه الأسرة يتمتعون بالمهارة في تربية الحيوانات والطيور، والجد الأول لهذه الأسرة يدعى زاوفو وكان ماهراً في قيادة عربة الملك مو في أسرة تشو وحظي بثقة الملك، وحصل على خبرات متراكمة وثرية في تربية الخيول في عهد فيي تسي، ولذلك طلب

منه الملك شياو في أسرة تشو أن يتولى الإشراف على تربية الخيول، مما زاد عدد الخيول زيادة هائلة، ويوضح ذلك أن أجداد أسرة بيه الأولين ارتبطوا بعلاقة وثيقة بتربية المواشي والرعي، وثقافتهم -في الواقع- تعد نوعاً من ثقافة المرعى. ومن ناحية أخرى، كان الجد الأول لأسرة بيه يدعى تشونغ يو يقيم في منطقة شيرو ويقوم بحماية الحدود الغربية، وحفيده فيي تسي كان يقطن في تشوان تشيو، وكان يقوم على تربية خيول الملك شياو في أسرة تشو في المنطقة الواقعة بين النهرين تشي ووي، وامتزج أحفاده بالأهالي في شيرو حقاً، حتى حصل أحفاد فين تسي على قطعة أرض في شيانغ وتمكنوا من دخول منطقة السهول الوسطى. وعلى الرغم من أن إقامتهم التاريخية في هذه الأماكن لا يمكن أن تجزم بأن الأجداد الأولين لهذه الأسرة ليسو أقلية قومية، إلا أن الحياة الرعوية التي توارثتها الأجيال تثبت أن أسلوب حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم تختلف عن قومية هواشيا (الصين) في منطقة السهول الوسطى. (2) إن أسرة بيه بعد أن دخلت السهول الوسطى، تأثرت في التو بالثقافة المتقدمة في السهول الوسطى، وقامت بتغيير طبيعتها الثقافية رويداً رويداً في ظل هذا التأثير. ومنطقة شرق النهر الأصفر التي كانت تقطنها أسرة بيه، يقع تحت لوائها بينغ يانغ (مدينة لين فين اليوم)، وبويان (محافظة يونغ تشي اليوم)، وآنسي من المدن والمناطق التي قام فيها الأباطرة ياو، شون، ويوي بتأسيس دولتهم، وما يطلق عليه «عاصمة ياو» و«أطلال يوي» و«المستوى الثقافي المتطور» كان موجوداً داخل الأقليات الأربعة على حدود أسرة تشو في وقت مبكر جداً. وتتمتع أسرة بيه بتاريخ يقترب من ثلاثة قرون ونصف القرن منذ أن انتقلت إلى منطقة شرق النهر الأصفر في المرحلة الأولية لأسرة تشو الغربية حتى عهد الملك لي في أسرة تشو. وتغيرت العادات البالية لأسرة بيه بفضل ثقافة الفخار الأسود في السهول الوسطى، وظفرت بمقاطعة جيه يي من جانب الملك، وكان ذلك بداية تغيير اسمها إلى بيه، ويحمل هذا التغيير في طياته الدلالات والمعاني الثلاثة الآتية: أولاً: أسرة بيه منذ ذلك الحين بدأت تتحلى بمستوى ثقافي محدود من ثقافة تشو والتي ساعدتها على رفع مستواها وتهذيبها، ولذا حصلت على مقاطعة جيه يي، وظفرت بموافقة ابن السماء على أن تتبوأ مكانة أرستقراطية. ثانياً: يجب أن تضطلع هذه الأسرة بكافة أنشطة المراسم والآداب والطقوس لأنها تتمتع بالمكانة الأرستقراطية، وتحتاج إلى الاحتذاء بنظام الأزياء في أسرة تشو وارتداء الملابس والقبعات. ثالثاً: هجرت أسرة بيه

ارتداء الزي القصير الذي كانت تستخدمه عند اضطلاعها بالرعي على نطاق واسع، وبدأت ارتداء الزي الطويل الشائع والمألوف في منطقة السهول الوسطى. ومن ثم، يدل ذلك على التحول في الطبيعة الثقافية لهذه الأسرة؛ حيث ليس من السهل تبديل وتغيير الأزياء. ويجعلنا ذلك ندرك التحول الثقافي الذي طرأ على هذه الأسرة والانتقال من ثقافة الرعي إلى ثقافة الزراعة، وذلك في الفترة من المرحلة الأولية إلى المرحلة الأخيرة في فترة الربيع والخريف تقريباً. ووضع هذا إرهاصات وازدهار هذه الأسرة بعد عصر أسرة هان.

ازدهار أسرة بيه وثقافتها

شهد ازدهار أسرة بيه ثمانية قرون من أواخر أسرة هان إلى أواخر أسرة تانغ. أما مرحلة الاستعداد والتجهيز لنهوض هذه الأسرة، فكان قبل ذلك في عصر أسرتي هان الشرقية والغربية. وفي هذه المرحلة، تبلورت الملامح الأساسية للثقافة الكونفوشيوسية الشاملة انطلاقاً من التقدير المميز والمنفرد للمذهب الكونفوشيوسي، وأثر ذلك تأثيراً هائلاً وعميقاً في تكوين المجتمع في أسرتي هان. وكانت أنشطة أبناء هذه الأسرة آنذاك قليلة ونادرة، والسجلات التاريخية الخاصة بهم موجزة للغاية. والشخصيات التي تذكرها المصادر التاريخية مثل: بيه قاي، بيه زونغ، بيه يوي، بيه يوه، وعلى الرغم من أنها برزت على الساحة السياسية، إلا أن مآثرها كانت ضئيلة للغاية وتكاد لا تذكر ومن بينها تعتبر سجلات بيه يو مسهبة إلى حد ما وكان موظفاً ومسؤولاً عن المكتبات آنذاك، ولكنه كان شخصية تاريخية ثانوية في كتاب «ما بعد أسرة هان. فصل سيرة شي بي». ويوضح ذلك، إن أبناء أسرة بيه مكانتهم ودورهم لا يجذب الأنظار والأحوال التي سردنها هذه السيرة تتحلى بالأهمية الكبيرة في ضوء التحليل التاريخي؛ حيث ذكرت أن شي بي كان محافظا لمنطقة شرق النهر الأصفر في عهد الإمبراطور وي. وأبرزت شخصية بيه يو تفضيل الأخلاق والتضحية من أجل الوطن، مما يجسد ورع الكونفوشيوسيين بصورة حيوية، ويوضح ذلك أن أسرة بيه مثل سائر الأسر المرموقة الأخرى، اعتمدت على ثقافة المدرسة الكونفوشيوسية في توطيد أقدامها في هذه الدنيا، وتقديرها واحترامها لـ«تفضيل الأخلاق والتضحية من أجل الوطن» قد أصبح تقريباً بمثابة عقيدة للأجيال المتعاقبة داخل هذه الأسرة، كما أصبح بمنزلة الأعمال الخالدة الأساسية

لأبناء هذه الأسرة من أجل الإشراق والتألق على الساحة التاريخية في الصين.

وفي الفترة التاريخية من أواخر أسرة هان إلى أسرتي وي وجين، تأسست قوات أسرة بيه التي أصبحت قوة سياسية مؤثرة جداً. في الأسر الجنوبية الشمالية. وذكر كتاب «تاريخ الممالك الثلاث» أن بيه تشيان هو أول شخصية رئيسية نهضت بهذه الأسرة، وأول شخصية ذكرتها كتب السير تنتمي إلى هذه الأسرة، بينما لم تذكر هذه الكتب اسم والده بيه ماو. وذكر كتاب «ملاحظات على تاريخ الممالك الثلاث» في فصل «موجز مملكة وي» أن بيه ماو تولى العديد من المناصب المهمة في عهد الملك شيلين، فقد كان محافظاً لمحافظة لي، والمسؤول عن الكتب والوثائق، ومحافظاً لولاية أخرى أيضاً، وحقق مآثر عسكرية، ومُنح ألقاباً ملكية. أما «كتاب أسرة تانغ الجديد» فقد أشار مؤكداً إلى أن: «بيه ماو أنجب ثلاثة أولاد هم: تشيان، هوي، جي». وكان بيه تشيان ابنه الأكبر. وجاء في كتاب «تاريخ الممالك الثلاث- فصل سيرة بيه تشيان» أن تشيان هرب إلى ولاية جينغ بعد اندلاع الاضطرابات، واعتمد في بداية الأمر على ليو بياو، ثم اشتغل مع رئيس الوزراء تساو تساو في إدارة الشؤون العسكرية، وإدارة شؤون ولاية داي (جنوب غرب محافظة وي في مقاطعة خنان اليوم) وأظهر كفاءة عالية، وكان مسؤولاً كبيراً في مملكة وي، وحصل على ألقاب ملكية، وكان أول رئيس وزراء من أبناء أسرة بيه. أما شقيقه الثاني هوي فلم تشر إليه كتب السير، ولم نعثر على مآثر في سيرته الذاتية الخاصة، وكان يتمتع بـ«مهارات عالية وكفاءة فائقة، وحاذق في فن الحديث وتشعر أنه لغز». وتدرج في المناصب وكان محافظاً لولاية ايتشو. وحظي الشقيقان بالشهرة والمكانة المرموقة لفترة من الوقت وسطعت أنوارهما واشراقتهما على أبنائهما وأحفادهما في الأجيال المتعاقبة بفضل علومهما ومعارفهما وكفاءتهما. ولذلك، حظيت أسرة بيه بالشهرة والمجد بعد تأسيس أسرة جين، وأنجب تشيان ولداً أسماه شيو الذي أنجب ولدين: جون ووي، كما أنجب هوي الأبناء: لي، كانغ، كاى، تشو، وأنجب كانغ ولدين هما: دون وشاو، وأنجب كاي الأبناء: يو، زانغ، شيان، لي، شون وغيرهم من الأبناء والأحفاد الذين تولوا مناصب مرموقة، وأصبحوا من كبار المسؤولين في البلاط الإمبراطوري. وكان من بينهم بيه شيو الذي تولى العديد من المناصب وكان أول رئيس وزراء من أبناء هذه الأسرة يحظى بالألقاب الملكية. كما كان بيه كاي صاحب قدرات وكفاءات عالية، وتولى منصب المسؤول عن المراسم

الإمبراطورية، وكان مركيزاً مسؤولاً عن ألف فرد، وحظي بالألقاب الملكية، وكان رئيساً للوزراء وتمتع بالمجد الذي لا يضاهى. وبعد ذلك بفترة غير قصيرة، ورث كلٌ من بيه وي (ابن بيه شيو) وبيه شيان (ابن بيه كاي) مآثر أبيهما وأجدادهما، وتدرجا في المناصب حتى رئيس الوزراء في أسرة جين. إن الأجيال الثلاثة من الجد إلى الحفيد، كان من بينها خمسة أبناء من هذه الأسرة تولوا منصب رئيس الوزراء في غضون فترة تتراوح من أربعين إلى خمسين عاماً. كما كان من بين أجيال هذه الأسرة بيه شيان الذي كان مسؤولاً عن المراسم الإمبراطورية بعد أن وقع في الأسر على يد القائد العسكري شي ليه، وكان مركيزاً لولاية آندبنغ، وبذلك أصبح ثاني دوق من أبناء هذه الأسرة.

وفي الأسر الجنوبية والشمالية، وبسبب الانقسام بين الشمال والجنوب، اضطر أبناء أسرة بيه إلى الاضطلاع باختيارات متباينة، كما اضطروا إلى الانتقال إلى أماكن مختلفة ومتفرقة بسبب الاضطرابات الناجمة عن الحرب، ومن ثم انقسمت شجرة هذه الأسرة إلى ثلاثة فروع هي: فرع انتقل إلى مملكة يان ويطلق عليه أسرة بيه الشرقية، وفرع انتقل إلى ولاية ليانغ، ويطلق عليه أسرة بيه الغربية، وفرع ظل في مسقط رأس الأسرة، ويطلق عليه أسرة بيه في الوسط. ثم عاد فرع هذه الأسرة من ولاية ليانغ إلى محافظة جيه (مدينة يون في مقاطعة شانشي اليوم) واستقر في ماشي تشون، وأطلق عليه فرع ماشي التابع لأسرة بيه، كما انتقل فرع من هذه الأسرة من الجنوب وعاد إلى الشمال وأطلق عليه فرع لاي وو التابع لأسرة بيه، ناهيك عن العديد من فروع شجرة هذه الأسرة التي لا تعد ولا تحصى. ولكن أيا كانت فروع هذه الأسرة، فإن أبناء أسرة بيه تتجذر جذورهم الأصلية في مسقط رأسهم في محافظة ونشي ونموا وترعرعوا على الساحة السياسيه في الفترة التي شهدت الانقسام بين الشمال والجنوب واستشراء التناقض الحاد في أنحاء البلاد. ولكن أكثر ما يجذب اهتمام الناس في الجنوب أجيال أحفاد عالم التاريخ الشهير بيه سونغ جي الذي تبوأ مناصب مرموقة، وإنجازاته الأكاديمية لا تضاهي آنذاك. فقد قدم هذا العالم شروحاً لكتاب «تاريخ الممالك الثلاث»، وألف كتاب «تاريخ أسرة جين»، أما نجله بيه ين فقد قدم شروحاً للموسوعة التاريخية «سجلات تاريخية»، كما قدم ابن حفيده بيه تسي يه إنتاجاً غزيراً يشمل الكتب التالية: «تاريخ موجز أسرة سونغ الملكية»، «سيرة كوكبة من الرهبان»، «الدرجات التسع لمئة

موظف»، «مبعوثو الدول المختلفة»، «سيرة أسرة بيه» وغيرها من الكتب والمجلدات التي بلغت عشرين مجلداً. وتناولت مؤلفاته الشهيرة العديد من المجالات في التاريخ والجغرافيا والأديان ونظام المراسم والأدب، وأصل ونسب الأسر، مما جعله عالماً كبيراً يتمتع بالمعارف الواسعة والإنجازات البارزة. وفي الشمال، كانت تقطن خمسة أجيال تحمل لقب أسرة بيه تألقت على المسرح السياسي، وتعود جذورها وتاريخها إلى ذرية تشيان. وذكرت سجلات تاريخية أن عدد أفراد هذه الأجيال بلغ أكثر من مئة وأربعين فرداً، وكان من بينهم ثلاثة أفراد تولوا منصب رئيس الوزراء وسبعة عشر فرداً كانوا من كبار القادة العسكريين، بالإضافة إلى ثُلة كبيرة كانت من كبار الموظفين والمحافظين ومسؤولي التاريخ والكتب والمكتبات في كافة الولايات والمحافظات، كما كان من بينهم من تولى الوظائف ذات الدرجات المتوسطة والدنيا. وعلى هذا النحو، تولوا مناصب السلطة السياسية للأقليات القومية في الشمال لأنهم شغلوا المناصب الرفيعة، وقدموا الإنجازات اللائقة بهم من أجل تحقيق الاندماج الثقافي بين القوميات على غرار موظفي قومية هان تماماً.

وأصبحت أسرة بيه أكثر ازدهاراً بدرجة أكبر بقدوم أسرتي سوي وتانغ، ولاسيما عندما أسس الإمبراطور لي أسرة تانغ في جن يانغ في شرق النهر الأصفر (مدينة تاييوان في مقاطعة شانشي اليوم) ووضع إرهاصات وجذور أصبحت تمثل أسرة بيه الشهيرة المرموقة التي –طبعاً– اضطلعت بدور خاص في كافة المجالات. وأول شخصية من أبناء هذه الأسرة آنذاك نقدمها هي بيه جي الذي كان مستشاراً رفيع المستوى للأب ونجله لي يوان عندما أسسا ولاية تايوان، كما كان مستشارا للإمبراطور لي شي مين، وكان أول من قام بتعبئة القوات للسيطرة على السلطة في البلاد. ولذلك، عندما تأسست أسرة لي تانغ وأصبح لي يوان إمبراطورا قال لأبيه جي: «جعلتني إمبراطوراً ولا أنسى أفضالك».(1) وفي الوقت نفسه، أصدر أمراً بتعيينه رئيساً للوزراء. وبعد ذلك، عندما اعتلى لي شي مين العرش الإمبراطوري، كان بيه جي أول بطل أسهم في تأسيس الدولة. وبعد ذلك، استمر أبناء أسرة بيه الاضطلاع بأدوارهم البارزة في كافة المجالات مع التطور الاقتصادي والثقافي في أسرة تانغ. وحسب الإحصائيات غير الكاملة لدى صاحب هذه السطور، فإن السجلات القديمة تحتوي على أسماء الشخصيات من أسرة بيه ويصل عددهم إلى أكثر من ستمائة شخصية، كان من بينهم سبعة عشر فرداً تولوا

منصب رئيس الوزراء في عصر لي تانغ، وواحد وعشرون فرداً تقلدوا مناصب المسؤولين في السيطرة على القوات وتحريكها، والدفاع عن البلاد، والمراقبة والملاحظة، ومعالجة شؤون الشعب والجيش في المناطق الحدودية، بالإضافة إلى خمسة عشر فرداً كانوا من الجنرالات والقادة العسكريين، والحكام العسكريين، ومسؤولي الحماية والدفاع عن المدن والعواصم، وستة عشر فرداً من كبار الموظفين والمثقفين ومسؤولي الكتب والوثائق في الدولة، وواحد وستون فرداً من مدراء المناطق وكُتَّاب التاريخ، وعشرة أفراد كانوا من أصهار الإمبراطور، ناهيك عن سائر الموظفين في الوظائف العليا والدنيا والتي لا يمكن إحصاء عددهم، مما يوضح انتشار وازدهار أسرة بيه في عصر تانغ، ولاسيما منصب رئيس الوزراء الذي انفردت به أسرة بيه في عهد الأباطرة الأربعة: شيان زونغ، مو زونغ، وجينغ زونغ، ون زونغ في أسرة تانغ، مما أظهر كفاءة ومقدرة هذه الأسرة في أزمة انهيار البلاط الإمبراطوري لعصر تانغ في ظل الحكم الانفصالي للحكام العسكريين، وتمكنه بقوة من قمع هؤلاء الحكام وحماية توحيد البلاد، وصدت الخطر الداهم عندما اندلعت الحرب مع وو يوان جي، وأبلت بلاء حسناً وأحرزت النصر، وقدمت مآثر عظيمة وبارزة، وتولت المناصب المهمة في الدولة. كما حصل أبناء هذه الأسرة على لقبي دوق وماركيز في مملكة جن، وكان أكثرهم تألقاً وإشراقاً في تاريخ هذه الأسرة آنذاك كواتسي بي. وبعد الأسر الخمس الإمبراطورية، بدأت أسرة بيه تعاني من الانحلال والاضمحلال، ولكن ظلت تتمتع بتأثير محدود، حتى غابت شمسها تماماً وتلاشى تاريخها المشرق في عهد أسرتي سونغ.

وهناك أسباب تاريخية وثقافية حققت الازدهار لأسرة بيه في الفترة من أواخر أسرة هان إلى عصر أسرتي سوي وتانغ. ففي المقام الأول، شهدت مرحلة الأسر الحاكمة وى، جين، الأسر الجنوبية والشمالية انتشار نظام الحسب والنسب، ونظام الدرجات التسع في اختيار الموظفين، وأدى ذلك إلى نشأة بيئة اجتماعية تعد الأكثر ملاءمة لبقاء وتعايش وتطور الأسر البارزة المرموقة والشهيرة في ذلك الحين، والتي تكونت تدريجياً منذ أواخر أسرة هان وأصبحت كيانات دينية واجتماعية قوية في عصر أسرتي وي وجين. واعتمدت هذه الأسر الشهيرة الكبيرة على قوتها السياسية والاقتصادية، واستعانت بكل وسيلة ممكنة واستأثرت بالسلطة الإمبراطورية، وقامت بإعداد وتنفيذ السياسة التي تحقق مصالحها، وفي الوقت نفسه،

سيطرت على حق الانتخاب وضمان المكانة الاجتماعية التي تتبوؤها من خلال تطبيق «نظام الدرجات التسع في تعيين الموظفين»، كما بذلت قصارى جهدها لضمان تفوقها الثقافي من خلال إقامة اتصالات بالعشائر والقوميات الأخرى عن طريق الزواج، وأسرة بيه باعتبارها من الأسر التي تحمل لقب ولاية قوانغ تشونغ، وبعد إنجازات بيه تشيان في أواخر أسرة هان، فإن أبناء وأحفاد هذه الأسرة تعاقبت أجيالهم التي واصلت مسيرة أسرتهم وجذبوا أنظار واهتمام الناس من كل حدب وصوب، واعتمدوا على مكانة أسرته المرموقة وظفروا بالتوصية والترشح للمناصب المسؤولة المهمة، ولذا كان ازدهار أسرة بيه ليس أمراً غريباً وقتئذ.

وتكمن مشكلة أسرة بيه في أنها حققت ازدهاراً هائلاً في أسرتي سوي وتانغ، ثم انهار نظام الحسب والنسب آنذاك، وحل نظام الفحوص الإمبراطورية محل نظام «الدرجات التسع في تعيين الموظفين». وعلى الرغم من أن أبناء الأسر الأرستقراطية يستطيعون الاعتماد على «الامتيازات العائلية والإقطاعية والالتحاق بالوظائف»، إلا أن السواد الأعظم من الأفراد يجب أن يجتازوا الامتحان الإمبراطوري حتى يتمكنوا من تولي الوظائف والمناصب. وفقدت الأسر البارزة والمرموقة ما كانت تتمتع به أصلاً من الدعم والسند، وبات يتعين عليها الاعتماد على جهودها وتخوض غمار معركة حامية تأسيساً على خصائصها وإنجازاتها الثقافية. وسردت الكتب التالية: «كتاب أسرة جين»، و«تاريخ الجنوب» و«تاريخ الشمال» و«كتاب أسرة تانغ» القديم والجديد، سردت في عدة مواضع صفات وخصال أبناء أسرة بيه على النحو التالي: «المعرفة الواسعة في تدقيق تاريخ العصور القديمة» و«المعرفة العميقة بالكتب القديمة والكلاسيكيات الصينية» و«الإطلاع على العديد من الكتب في العلوم المختلفة»، و«الإلمام والفهم العميق لكتب التاريخ القديمة والكتب الأربعة» و«هواية الدراسة وإتقان المعرفة منذ الصغر» و«الذكاء والفطنة منذ الطفولة» و«الدراسة بجد واجتهاد منذ نعومة الأظافر»، و«نشر المذهب الكونفوشيوسي بين الأجيال المتعاقبة»، و«توريث المذهب الكونفوشيوسي بين أبناء الأسرة»، و«المتعلمون يهتمون بالأدب» وغيرها. وهذه الصفات والخصال تقدم لنا بعض الأحوال والمعارف الخاصة بأسرة بيه التي منذ أواخر أسرة هان تضطلع بـ«نشر المذهب الكونفوشيوسي» واعتبرته أساس وجودها وبقائها، وجوهر ثقافة الأجيال المتعاقبة، والافتقار إلى الدعاية لهذا المذهب الكونفوشيوسي وترويجه يعني انحلال

واضمحلال هذه الأسرة. وهذه النقطة الأولى. أما النقطة الثانية، فكان أبناء هذه الأسرة يتمتعون بالذكاء الفطري والوعي التعليمي، وجعلوا من الإطلاع والمعرفة متعة، واضطلعوا بجمع المعلومات والكتب بصورة مطردة، ويتمتعون برصيد ثقافي ضخم، وبلغوا أوج مستوى المعرفة آنذاك، وشكلوا قوة ثقافية قوية، ويتحلون بروح المبادرة الاجتماعية. وتذكر الكتب التاريخية دائماً أن أبناء هذه الأسرة اجتازوا امتحانات الفحوص الإمبراطورية بجدارة واستحقاق، وأحرزوا نتائج باهرة، واعتلوا وظائف الدرجات العليا في هذه الامتحانات، وليس ذلك مقولة زائفة أو منمقة ومزخرفة إطلاقاً، بل يجسد ذلك – في الواقع– تفاصيل الحياة الثقافية لأسرة بيه.

إنجازات أسرة بيه وخصائصها الثقافية

قدمت أسرة بيه إسهامات تاريخية ومشرقة في العديد من المجالات. ففي المقام الأول، عززت التبادل والاندماج بين الأسر المرموقة. وشهدت الأسر الحاكمة وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية المرحلة التاريخية للاندماج الكبير بين القوميات، وكان أبناء أسرة بيه –مثل سائر الأجيال الأرستقراطية ذات النفوذ السياسي– تولى العديد منهم وظائف ومناصب داخل السلطة السياسية للأقليات القومية في شمال الصين، واعتمدوا على خبراتهم الثقافية المكتسبة رفيعة المستوى نسبياً، وقاموا بإعداد وتجهيز مراسم وتشريفات قومية هان من أجل حكام الأقليات القومية الذين يتولون السلطة السياسية في الشمال، ومن ثم عجلوا بإضفاء طابع قومية هان على هذه الأقليات، ويعد ذلك من المنجزات التاريخية التي تستحق أن تسجلها صحائف التاريخ. ومثال ذلك، بيه شيان كان موظفاً في أسرة جين الغربية، وبعد أن أسره شي ليه أصبح الرجل الكفوء المساعد له الذي يتحلى بالمقدرة الثقافية الكبيرة نسبياً، وعندما تولى ليه شي عرش البلاد وشعر بالغبطة والسرور، جعله في التو المسؤول عن شؤون البلاد والأراضي والممتلكات. كذلك بيه شيو المسؤول عن ديوان المعابد في المرحلة الأولية لأسرة وي الشمالية، وكان مسؤولاً عن الموسيقى والبروتوكولات ويطبق قوانين النظام بدقة. ويوضح ذلك، إن أبناء أسرة بيه بذلوا جهوداً شاقة ومضنية في عملية تعزيز الاندماج والتبادل الثقافي بين القوميات. ثانياً: حماية الاستقرار والتطور في البلاد. وفي هذا الجانب، يجب

الإشارة إلى بيه شينغ جيان المعاصر للإمبراطور قاو زونغ في أسرة تانغ، والذي تولى المناصب العسكرية والمدنية، وكان من الأكفاء ذوي المهارات الفائقة، وقاد القوات العسكرية وخاض معارك ضارية في الجنوب والشمال، ووطد الاستقرار والأمن على حدود البلاد، ولذلك جعله هذا الإمبراطور مسؤولاً عن التاريخ والثقافة في وزارة المراسم والبروتوكولات، كما كان الجنرال العسكري العظيم الذي تولى الإشراف على الشؤون العسكرية، ثم أصبح دوق محافظة ونشي. أما بيه ياو تشينغ فقد كان رئيس الوزراء في عهد الإمبراطور قاوزونغ في أسرة تانغ، وكان يتحلى بقدرات اقتصادية فائقة، واستطاع أن يعالج الأحوال الاقتصادية المتردية في منطقة قوانغ تشونغ من الكثافة السكانية الهائلة والأراضي المحدودة، ومشكلة نقل الحبوب وارتفاع تكاليف النقل النهري، ولم يأل جهداً في إصلاح النقل النهري في نهر تساو، وأنشأ ثلاث صوامع للغلال على طول النهر، واستطاع أن يخزن حوالي سبعمائة مليون لتر من الحبوب، ووفر أموالاً طائلة للدولة، ومن ثم طرأ تحسين هائل على الأحوال المالية داخل حكومة أسرة تانغ آنذاك. وازدهرت أسرة بيه وأنظمتها بعد تأسيس تانغ على يد بيه جي، وكما ذكرنا آنفاً فإن ذلك يوضح الإنجازات التي قدمتها هذه الأسرة العريقة لتطوير البلاد. ثالثاً: إثراء الأفكار الثقافية في الصين. ذكر كتاب «دليل أجيال أسرة بيه» أن أبناء هذه الأسرة تركوا مؤلفات مشهورة بلغت أكثر من مئة نوع، ومن سوء الطالع ضاع معظمها، ووصل إلينا عددُ ضئيل جداً. من هذه المؤلفات، ولكنها تتحلى بالإشراق والتألق في الساحة الثقافية؛ ففي أسرة جين الغربية، لخص بيه شيو خبرات رسم ووضع الخرائط في الصين القديمة، وقدم نظرية «الطرائق الست في وضع الخرائط»، ودمج علم فن رسم الخرائط في إطار العلوم، وأطلق على العالم البريطاني البروفيسور جوزيف نيدهام لقب «أبو علم فن رسم الخرائط في الصين». وفي الأسر الجنوبية، اشتغل الجيل الرابع من أسرة بيه بالتاريخ والأدب، ومثال ذلك بيه شونغ جي الذي كتب العديد من الكتب المشهورة مثل «ملاحظات على تاريخ الممالك الثلاث» و«ملاحظات على سجلات تاريخية» وغيرها من الكتب التي مازالت باقية وخالدة وتعد مرآة ساطعة ومشرقة للباحثين والدارسين. وفي عصر أسرتي سوي وتانغ، كان بيه جو مسؤولاً عن التجارة الحدودية في تشانغ يه (مقاطعة قانصو اليوم) في عصر الإمبراطور يانغ في أسرة سوي، وجمع معلومات غزيرة وألف كتاب «تاريخ خريطة

المناطق الغربية» الذي سرد الأحوال السياسية والدينية، والعادات والتقاليد، والجبال والأنهار والمحاصيل في أربع وأربعين دولة، وقدم إسهامات بارزة من أجل تعزيز وتطوير التبادلات الودية مع المناطق الغربية.

وتتجلى الخصائص الثقافية لأسرة بيه -كما ذكرنا آنفاً- في «اختيار الأخلاق والتضحية من أجل الوطن». ويعد ذلك في حد ذاته بمثابة «الإخلاص والاستقامة ونزاهة اليد واللسان» التي تمجدها -دائماً وأبداً- الأمة الصينية، ويختلف ذلك اختلافاً كبيراً عن «الطمع والفساد والشر». وقد اضطلعت أسرة بيه بنشر وترويج المذهب الكونفوشيوسي عبر الأجيال المتعاقبة، والحفاظ على التقاليد، وجعلت «الشرف والاستقامة والنزاهة» بمثابة عاداتها وتقاليدها التي تتمسك بها، والاعتماد على ذلك في تقديم الخدمة لبلادهم عرفاناً بالجميل. وليس من الصعب أن نعرف من الكتب والوثائق التاريخية أن عدد أفراد أسرة بيه قد بلغ حوالي مئة وخمسة أفراد، جسدوا ملامح «الشرف والاستقامة والإخلاص والنزاهة»، وذلك باستثناء بيه جينغ يان، وبيه شيان بو في الأسر الشمالية، وبيه يوان في أسرة سوي، وبيه يان لينغ، وبيه ميان في أسرة تانغ.

واشتهرت أسرة بيه بخصال الشرف والاستقامة قديماً وحديثاً، وعلى الرغم من أن أبناء هذه الأسرة كانوا من الموظفين، إلا أنهم استطاعوا احترام وتقديس الأخلاق والمبادئ، وازدراء النزوة، ولا يفكرون في أملاك الأسرة وثروتها، ولذلك كانوا يشعرون بالغبطة في العمل الكادح الشاق، وكان بيه تشاو مينغ في الأسر الجنوبية يتسم بـ«الشرف والاستقامة والعمل الكادح في كل ولاية كان محافظاً لها، ويقول للآخرين: «لماذا يقضي الإنسان حياته في جمع الثروة واكتنازها، وهل هناك شيء أغلى من أن يتمتع الإنسان بالصحة الجيدة؟ وإذا كان أبنائي وأحفادي ليس لديهم الكفاءة، فإنهم يبددون ثروتي، وإذا علمتهم الاعتماد على النفس، فإن ذلك يعتبر الحجة والمنطق في عقولهم، ولذا لم يهتم طوال حياته بالثروة العائلية والممتلكات». وحذا نجله بيه تسي يه حذو أبيه حيث عمل «أكثر من عشر سنوات في العاصمة، وكان يحافظ على أخلاقه وتقاليده في صمت تام، ولم يطلب ثمة شيئاً من الإمبراطور، وكان يغدق على أقاربه الفقراء. وكان لا يمتلك بيتاً، واستعار مساحة صغيرة جداً من الحكومة وشيد كوخاً، وكانت زوجته وأولاده يتضوّرون جوعاً، ويعانون البرد

القارس، وعلى هذا النحو، قدم العظة والعبرة لأبنائه»(2) وبيه توا في الأسر الشمالية، كان يتحلى بـ«طهارة اليد واللسان والصدق، ولم يفكر البتة في الثروة والممتلكات، وكانت مساحة بيته لا تزيد عن ثلاثين خطوة، ولا يمتلك أرضاً زراعية، ويوزع راتبه على الفقراء».
وكان بيه شيا في أسرة تشو الشمالية المثال النموذجي الأكثر بروزاً، فعندما كان محافظاً لولاية خبي اشتهر بـ«الاقتصاد في الإنفاق، وكان ذلك من خصاله الفطرية، ويحب الناس مثل أولاده، وكان يأكل البقوليات والعجين والملح والخضراوات فقط، ومن ثم حظي بالاهتمام والإعجاب من جانب الموظفين. وحسب النظام القديم في هذه الولاية، كان هناك ثلاثون رجلاً يقومون بصيد السمك والحيوانات من أجل توفير الطعام له، ولكنه ارتأى أن «هؤلاء الرجال تم تسخيرهم من أجل طعامه، وهو يمقت ذلك تماماً، وأمر بصرفهم من هذه الخدمة».
وعندما ترك منصبه كمحافظ كان خالي الوفاض وصفر اليدين، وامتدحه الناس قائلين إنه: «لم يتناول أشهى المأكولات، وعزف عن استخدام الخدم والحشم، وأظهر للعيان الفضائل والأخلاق، وكان مثالاً نموذجياً للأجيال المتعاقبة». ولم يدرك ابن عمه ويدعى بيه يوفينغ المشاعر العاطفية والسلوك المهذب الذي يتحلى به بيه شيا الذي قال له إن: «نزاهة اليد واللسان هي جوهر الوظيفة، والعمل الدؤوب الكادح هو أساس بناء الجسم، ونحن أبناء أسرة عظيمة وعريقة، تتوارث الأخلاق الحميدة من جيل إلى جيل، ومن ثم نستطيع اعتلاء المناصب في البلاط الإمبراطوري، ونسجل أسماءنا بحروف من نور في كتب التاريخ. وأنا اليوم محظوظ قدرتي وكفاءتي متواضعة، ومنحني الإمبراطور معاملة تفضيلية، ولا أخشى الفقر والحياة الشاقة، وليس ذلك من أجل السعي وراء الشهرة، لأن المثل الأعلى لدي هو تهذيب الذات، وأخشى أن يسبني ويلعنني أجدادي»(3) إن مقولة بيه شيا، ربما شرحت بجلاء الأسباب التي جعلت أسرة بيه تتحلى بالاستقامة والشرف والنزاهة.

وأشاد الناس بإخلاص أسرة بيه على مر العصور، حيث كان أبناؤها يتحلون بالاقتصاد في الإنفاق والتقشف، والصدق والأمانة في الوظيفة، وحب الآخرين والإخلاص لهم، والعدل والاستقامة في التعامل مع الغير. وكان ذلك بمثابة خصال وصفات أبناء هذه الأسرة العريقة.
وفي الأسر الشمالية، كان بيه هان مسؤولاً في أسرة تشو الشمالية، ونظراً لأن يوون خو اغتصب السلطة آنذاك، بتأييد ثلة من الوجهاء والأشراف الذين يسعون وراء المناصب المهمة

في البلاط الإمبراطوري. ولكن بيه هان ظل متمسكاً بأخلاقه ومبادئه، وظل في وظيفته ولم يحظ بالترقية طوال ثماني سنوات»(4) وفي عهد الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ، كان بيه كوان محافظا لكل من خنان وتاييوان، ثم رئيساً للوزراء، «وكان لا يتقرب من ذوي السلطة والنفوذ، ويكرس جهوده على مساعدة الفقراء». ولذلك «أبلى بلاء حسناً في إدارة شؤون الدولة»، وكتب هذا الإمبراطور شعراً يمتدحه جاء فيه: «أخلاقكم تنتشر في البلاد مثل السحب التي تسبح في الفضاء، وقلبكم متألق ومشرق مثل الماء الرقراق»(5). وكان بيه جي رئيساً للوزراء في عهد الإمبراطور شوان زونغ في أسرة تانغ، وكان مسؤولاً عن شؤون الامتحانات في بداية حياته الوظيفية، وكان يتمسك بالأخلاق والاستقامة ويرفض المحسوبية والوساطة، ونتائجه في الفحوص الإمبراطورية تعكس قدرته وكفاءته»، ثم أصبح رئيساً للوزراء، «وعلى الرغم من أنه كان شاباً يافعاً بيد أنه تولى هذا المنصب الكبير فجأة، وكان يعالج الأمور بدقة متناهية وحزم شديد حسب الأصول والقواعد المحددة، وكان كبار الموظفين الأكبر سناً، لا يجرؤون على طلب مساعدته في الشؤون الشخصية»(6) ويكفي ذلك أن يبرز للعيان بصورة كافية استقامة ونزاهة وإخلاص هذه الأسرة.

وأثبتت الحقائق أن صدق وإخلاص وأمانة الموظف تكون -حقاً- من أجل خدمة البلاد والشعب. وقد جسد ذلك بجلاء أبناء أسرة بيه. وفي الأسرة الشمالية، كان بيه يان جون حاكماً لمنطقة يوتشو (في منطقة بكين اليوم)، «وكان في ولاية فإن يانغ سداً قديماً بالياً هجرته المياه ردحاً طويلاً، ولا يمكن أن يسترد عافيته وكانت البلاد تشهد المطر حيناً، والجفاف حيناً آخر، فأرسل بيه يان جون إلى الحكومة الملكية رسالة يطلب فيها إصلاح هذا السد، وذهب لتنفيذ هذا المشروع، واطلع على أحوال السد والمنطقة المحيطة به، واتخذ الإجراءات العاجلة التي أعادت الحياة إلى السد، واستخدم مياهه في ري الكثير من الأراضي، وزادت المحاصيل بدرجة كبيرة، وحقق أكثر المآثر إشراقاً ولمعاناً في البلاد آنذاك عندما كان محافظاً لهذه الولاية لمدة خمس سنوات»(7). وكان بيه سونغ جي محافظاً لمدينة يونغ جيا (مدينة ونتشو في مقاطعة تشاجينغ اليوم). وكان مجتهداً في عمله من أجل مصلحة الشعب. واستفاد من أصحاب الكفاءات في الأعمال المناسبة والملائمة. أما بيه تسي يه فكان محافظاً لمدينة جو جي، «ولا يستخدم الضرب والسوط في عقاب المجرمين، بل كان يحتكم إلى الحجة والمنطق في حل

المنازعات، مما جعل الناس يشعرون بالغبطة، ولم تعرف ولايته الدعاوى القضائية»(8)، وفي الفترة الزمنية بين أسرتي تشو وسوى، كان بيه جينغ يتسم بالتسامح ورحابة الصدر في معالجة شؤون السلطة السياسية، وكان حريصاً على مصالح الشعب، ويحظى أقرانه وأترابه باهتمامه ورعايته. وكان مسؤولاً عن شؤون المحكمة والسجن في عهد أسرة تشو، «وكان مكتبه يغص بالدعاوي القضائية، وكان يعالجها بسرعة استناداً إلى تطبيق القوانين بالمرونة والحلم، ولم يصدر أحكاماً مجحفة ضد أحد إطلاقاً. والمجرم المحكوم عليه بالإعدام، كان يسمح لزوجته وابنه بزيارته في السجن، وكان ينفذ الإعدام في فصل الشتاء، وقال مجرمون: «إذا نفذ بيه جينغ حكم الإعدام ولقينا حتفنا، لا نشعر بالندم والأسف حقاً»، وفي أسرة سوي، تولى إدارة شؤون ولاية شيانغ تشو، «ولم يصطحب زوجته وابنه إلى هذه الولاية، وكان يغدق راتبه وأمواله على صغار الموظفين والعاملين»، وبسبب قدرته الفائقة في إدارة شؤون ولايته، «لم يتم بناء سجون، ولم تشهد المحاكم دعوة قضائية»(9)، وفي عصر الإمبراطورة وو تسه تيان، كان بيه شو جين مسؤولاً عن شؤون السجن داخل البلاط الإمبراطوري، «وكان يعامل المجرمين بالحلم والتسامح ورحابة الصدر، ويطلب من الإمبراطور الصفح عنهم»، ولم يرق للإمبراطورة أسلوبه في العمل، وطلبت منه مغادرة العاصمة، وتولي وظيفة أخرى في مكان آخر»، وكان لا ينتهج أسلوب الحزم والصرامة في العمل، ولذا حظي بحب واحترام عامة الشعب والأقل منه شأناً في الوظيفة، وعندما انتقل إلى مكان آخر كان في وداعه أكثر من ألف شخص». ونجله بيه تسي يو «كان موظفاً مسؤولاً يتحلى بطهارة اليد والنزاهة»، «ويعالج الأمور برحابة الصدر واللباقة والتسامح، وحظي بحب الناس والموظفين»(10). وفي عهد الإمبراطور دازونغ في أسرة تانغ، كان بيه شيانغ نجل رئيس الوزراء بيه زونغ تشينغ في عهد الإمبراطور صو زونغ في هذه الأسرة، وكان «يتحلى بالحكمة والفطنة عندما كان مسؤولاً، ويجلب المنافع للناس جميعاً. وكان يعمل تحت إشرافه أكثر من مئة موظف، ويوزع عليهم راتبه الشهري.. وكان يحرص حرصاً شديداً على أن يمنح الأيتام والمرضى والفقراء معاملة خاصة ومميزة»(11). وتقدم سجلات تاريخية تلك النماذج الفريدة من أسرة بيه التي تستحق المدح والإطراء من الجميع، والتي تركت للأجيال المتعاقبة الفكر العميق والقدوة الحسنة التي تستحق الاحترام على مر الدهر.

وانتقل مركز الثقل الاقتصادي والثقافي إلى جنوب حوض تشانغجيانغ مع التغيرات والتطورات التي شهدها التاريخ والثقافة في الصين بعد عصر أسرة تانغ. وكانت أسرة بيه المرموقة –مثل سائر الأسر البارزة في الشمال– فقدت بيئتها التي عاشت وازدهرت فيها، ومن ثم أفل نجمها –من منظور الوحدة الشاملة– بعد الأسر الإمبراطورية الخمس. ولكن لا يثير ذلك في داخلها الحزن والأسى إطلاقاً بسبب أن تطور الاقتصاد والثقافة في هذا الحوض أنجبا أسراً مرموقة وبارزة وجديدة، وأحوالها مختلفة ومتباينة، وكان من يبنها أسرة تشيان في منطقة مملكتي وو ويوه سابقاً، والتي تعد من أكثر هذه الأسر جذباً للأنظار من كل حدب وصوب، ومازالت تتألق وتفيض بالقوة والحيوية إلى الآن في كافة المجالات في داخل الصين وخارجها. وهذا ليس موضوع هذه المقالة.

هوامش:

(1) «كتاب أسرة تانغ الجديد. سيرة بيه جي».

(2) «تاريخ الجنوب. سيرة بيه سونغ جي».

(3) «تاريخ الشمال. سيرة بيه شيا».

(4) «تاريخ الشمال. سيرة بيه كوانغ».

(5) «كتاب أسرة تانغ القديم. سيرة بيه كوانغ».

(6) «كتاب أسرة تانغ القديم. سيرة بيه جي».

(7) «كتاب تاريخ الشمال. سيرة بيه تينغ جون».

(8) «كتاب تاريخ الجنوب. سيرة بيه سونغ جي».

(9) «كتاب تاريخ الجنوب. سيرة بيه جينغ».

(10) «كتاب تانغ القديم. سيرة بيه شو جين».

(11) «كتاب تانغ القديم. سيرة بيه شيانغ».

(نشرت هذه المقالة في صحيفة «جامعة شانشي» في عام 1994)

خامسا: الأبراج والأبنية الشامخة والثقافة الصينية

تعد الأبراج من الأبنية الأكثر تجسيداً للطابع القومي في الصين القديمة، وينطبق ذلك على «الأبنية الشاهقة وبنايات لوقه». والهيكل الأساسي للأبراج ليس معقداً، ولكن استخدامها كان على نطاق واسع جداً، وأهميتها الثقافية تتسم بالثراء الشديد، وتأثيرها في الحياة الاجتماعية كان عميقاً جداً. عبر العصور المختلفة. ودراسة وبحث أسباب نشأة الأبراج ومجرى تطورها، في خضم الأبنية الباسقة والسامقة التي تطاول عنان السماء وتغطي الأصقاع مثل الغابة، يتسمان بالأهمية في فهم جوهر الثقافة الصينية.

نشأة الأبراج وتطورها

ما هو البرج؟ جاء في «قاموس أريا» أن: «البرج هو أرض مرتفعة وجوانبه الأربعة مربعة»، ويوضح ذلك شكل البرج وخصائصه. كما ذكر «قاموس شرح كلمات» أن: «البرج والمعبد هما عبارة عن أرض مرتفعة مربعة الشكل.. ويتشابه ذلك مع البيوت». مما يوضح بدرجة أكبر أن البرج ينتمي إلى الأبنية العالية الشاهقة التي تقام على جانبي القصور الإمبراطورية أو المعابد. وإذا تأملنا الشروح الشاملة المذكورة آنفاً، نعرف أن الهيكل الرئيسي للبرج عبارة عن بناية تتكون من تكديس التراب، وشكله مربع وجوانبه الأربعة عالية ومرتفعة، وقمته مستوية، والمباني فوق البرج عبارة عن غرف وبيوت يمكن أن تستخدم في الإقامة والمعيشة والسياحة والتنزه. ويبين ذلك أن البرج يمكنه تلبية احتياجات الإنسان المادية (الإقامة والسكن)، كما يمكن أن يفي بمتطلبات الإنسان الروحية من المتعة (السياسة والتنزه والمناظر الطبيعية). وإلقاء نظرة شاملة على سجلات وثائقية عبر العصور المختلفة والبقايا الموجودة حالياً من الأبراج، ندرك أن أبنية الأبراج في العصر القديم تشكل وحدة عضوية واحدة مع أبنية لوقه والبيوت فوق البرج، ويوضح ذلك أن البرج عبارة عن بناية معقدة ومتعددة الوظائف، وتعد نوعاً من التقنية المعمارية المتقدمة نسبياً. وكيف نشأ البرج؟ لم تذكر السجلات التاريخية شيئاً عن الأبراج، ولكن الاكتشافات الأثرية قدمت بعض المعلومات الخاصة بالأبراج، ولاسيما أن حفريات الأطلال في قرى المجتمع البدائي جعلتنا نتمكن من التوصل إلى استنتاج علمي

ملائم حول نشأة الأبراج. وقد عاش معظم الأسلاف الأولين على مقربة من مصادر المياه، وأقاموا -بادئ ذي بدء- في الكهوف المتاخمة للمياه، ثم خرجوا من الكهوف وشيدوا البيوت البدائية فوق الأرض على ضفتي الأنهار، كما اختاروا الأماكن الوعرة المرتفعة في أغلب الأحيان من أجل تحاشي خطر الفيضانات، وهذا ما نطلق عليه اليوم هضبة، أو كدسوا التراب وأسسوا أساس بيت مرتفع نسبياً، وهذا ما نطلق عليه اليوم قاعدة أو أساس هيكل. ويجب القول إن المصدر المباشر للبرج يكمن في هضبة وأساس هيكل بيت بدائي؛ فالهضبة تعد جزءاً من الأشكال الطبيعية، وأساس البيت هو تطوير للهضبة، والتغيرات والتحولات بينهما هي بمنزلة تطور لثقافة وإشراق حكمة البشرية. وذكرت صحيفة «الثقافة الصينية» في عددها الصادر في 11 أبريل عام 1990 أن: «عمال الآثار والحفريات عثروا على أطلال بيوت عاش فيها الإنسان في المرحلة المتأخرة للعصر الحجري الحديث في ضفة قناة شاو يون خه في محافظة لينتشوان في مقاطعة آنهوي، ويقدم ذلك البراهين على حياة الأقدمين والأسلاف في هذه المنطقة منذ خمسة آلاف سنة خلت، وإقامة بيوت على هضبة عالية لتجنب خطر الفيضان. ويوضح هذا الاكتشاف أنه منذ قبل خمسة آلاف سنة خلت على الأقل، ظهر أساس هيكل البيت من صنع الإنسان. وكان أول أساس أو قاعدة يتحلى بالوظيفة العملية من كبح جماح الفيضان. ومع زيادة الوعي الثقافي للإنسان البدائي بصورة تدريجية، اكتشف الناس أن الإنسان البدائي كان يعيش في البيوت المقامة على أساس هيكل الأعمدة، وذلك حتى يستطيع تحاشي تهديد الفيضان، والتمتع بالمناظر المحيطة أسفل البيوت، مما أنشأ الوظيفة الجمالية لقاعدة البيت أو أساسه داخل الأذهان. وفي البداية، ربما كانت قاعدة بيت زعيم العشيرة أو القبيلة أكبر نسبياً من بيوت سائر الأفراد حتى تبرز للعيان أنه محور مركز العشيرة أو القبيلة وتميز مكانته عن الأعضاء الآخرين. وبعد ذلك، شهد مجتمع النظام العبودي تقسيم الطبقات، وكانت بيوت وقصور أسياد العبيد تقام فوق قاعدة مرتفعة حتى تظهر نفوذهم وقوتهم ومكانتهم. وعلى هذا النحو، أصبحت قاعدة وأساس البيت يتسمان بنوع من الوظيفة السياسية وحتى الوقت الحاضر، فإن أقدم أطلال قصور أسرة شانغ التي تم اكتشافها تتحلى جميعها بالقاعدة الترابية المدكوكة الضخمة والمرتفعة نسبياً.

ولم تشر السجلات التاريخية إلى العصر الذي شهد تحول مثل هذه القاعدة الترابية المدكوكة

إلى قاعدة الأبنية العالية التي انتشرت انتشاراً واسعاً في العصور اللاحقة. وكان شكل القاعدة الترابية في العصر القديم -كما ذكرت وثائق قديمة- على هذا النحو ومن الصعب أن نصدر حكماً صائباً عليها. ومثال ذلك، ذكر كتابا «كتاب الجبال والبحار» و«كتاب داهونغ بيه» أنه كان: «زعيما قبيلتي شون يوان، وقونغ قونغ يقيمان في بيوت مشيدة على قاعدة مرتفعة». كما ذكر كتاب «البحار الداخلية» أن: «بيوت الأباطرة ياو، وكو، ودانتشو، وشون كانت مشيدة على قاعدتين مرتفعتين، وكل قاعدة لها أربعة جوانب مربعة، وكانت هذه البيوت في شمال شرق كونلون». وفيما يبدو أن قواعد هذه البيوت كانت خاصة للأباطرة آنذاك، ولكن ينتمي ذلك إلى نطاق الأسطورة، ومن الصعب أن نعتبره من المعلومات التاريخية الموثوق فيها ونخضعه للدراسة والبحث.

والظهور الحقيقي للقاعدة المرتفعة في الأبنية يجب أن يكون في الأسر الحاكمة شيا، شانغ، وتشو التي شهدت تكوين وتطوير نظام العبودية، وذلك تأسيساً على حجم الإنتاج، وتطور التقنية الفنية في المجتمع، وتقصي الحقائق الواردة في تسجيلات وثائقية مشتركة. وهناك ثمة أسباب تكمن وراء ذلك، أولاً: إن ملاك العبيد يمتلكون العبيد الذين يمثلون قوة عاملة ضخمة يمكن تسخيرها وتشكل قوة إنتاجية كبيرة نسبياً أيضاً، وبناء برج عالٍ يحتاج إلى قوة إنتاجية محددة. ثانياً: إن مستوى التقنية الفنية قد أحرز تطوراً وتقدماً نسبياً، وظهر لفيف كبير من العمال الذين يتقنون التقنية المتخصصة ويستطيعون إنتاج الأدوات البرونزية ذات الأحجام الكبيرة. ثالثاً: تشكيل مفهوم قوة ونفوذ ملاك العبيد يتطلب أن يتجسد في أشكال مادية ملائمة ومتنوعة، وتشييد بناية فوق قاعدة مرتفعة يتحلى بخصائص العظمة والأبهة والمكانة الرفيعة، ومن الطبيعي جداً. إن يستخدم ملاك العبيد مثل هذه القاعدة في بيوتهم ومساكنهم وفي مكاتبهم الإدارية أيضاً. ويوضح ذلك، إن تشييد بناية فوق قاعدة مرتفعة لا يحتاج فقط إلى الأحوال الاجتماعية والمادية المحددة، بل يحتاج أيضاً إلى الأحوال المعنوية المحددة أيضاً. إن المنجزات المادية للبشرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأنشطة الفكرية الخاصة، ولا تنأى عن تغيرات المفاهيم وتطورها.

ومن الجلي أن أشكال الأبراج في أسرتي شيا وشانغ التي ذكرتها سجلات وثائقية كانت مرتفعة وهيكلها في غاية الإتقان والدقة، وتقدم الدليل -مع استبعاد عناصر المبالغة في

الوصف– على أن عصر هاتين الأسرتين يجب أن يشهد بنايات القاعدة المرتفعة بما لا يدع مجالاً للشك، كما كانت تعتبر بمثابة ساحة لتأكيد نفوذ وسلطة ملاك العبيد، وتقديس قوتهم التي فوق قوة البشر، كما تعد الأماكن التي يرتادها هؤلاء الملاك للتنزه والسياحة، وذكر كتاب «تسوه تشوان» أن: «الملك تشي في أسرة شيا كان يتمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية في برج دياو». مما يظهر أن الملك تشي أقام وليمة ضخمة احتفالاً بتوليه العرش بصورة رسمية في برج دياو (أطلال موجودة حالياً في مدينة ياوتشو في مقاطعة خنان). ويعد ذلك –في الواقع– إقامة مراسم تأكيد النفوذ والسلطة فوق البرج، ويتشابه ذلك مع حفلة تأسيس الدولة في العصر الحديث. وذكر «كتاب التغيرات» أن: «الملك تشي في أسرة شيا كان يقدم القربان للآلهة في أطلال مملكة جين، ومن أجل ذلك شيد برج شوان في شمال نهر». ويبين ذلك أن الملك تشي شيد برجاً عالياً من أجل قرابين الآلهة، وزينها باليشب الجميل، وأظهرت التقوي والورع تجاه الآلهة والاهتمام بتشييد الأبراج بدقة. وجاء في كتاب «هواي نانتسي» أن: «برج ياو شيده الإمبراطور جيه وتشوه، وكانت قاعدته مزينة بسن الفيل، ويوجد به سرير من اليشب». ويعكس ذلك الاهتمام الشديد والدقة والإتقان في بناء الأبراج، ناهيك عن البذخ والمغالاة في تزيينها وزخرفتها، وكان من الأماكن التي يرتادها الأباطرة والملوك للسياحة والتنزه. وحسب ما ذكره الأديب ليو شيانغ في كتاب «ترتيب جديد. فصل السخرية من البذخ» أن: «الإمبراطور تشو شيد برج لو، واستغرق بناؤه سبع سنوات، وبلغت مساحته حوالي ألف وخمسمائة متر، وارتفاعه ثلاثمائة وثلاثين متراً، وكان شاهقاً يقترب من السحاب والمطر». وجاء في الموسوعة التاريخية «سجلات تاريخية. فصل أسرة يين» أن: «الإمبراطور تشو فرض ضرائب باهظة على الأهالي وجمع أموالاً طائلة لبناء برج لو، ووسع الحدائق والتلال، ووضع داخله العديد من الطيور والحيوانات البرية، وكان يصب الخمر في أحواض، واللحم المعلق يشبه الغابة، وجعل الفتيان والفتيات يلتقون سوياً، ويمرحون ويلهون وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ثم استشاط الملك غضباً وأرسل حملة لتأديب نظيره تشو الذي فر إلى البرج وصعد إلى أعلى، وارتدى ملابسه المصنوعة من اليشب، وأضرم النار في نفسه حتى قضى نحبه». والسجلات المذكورة آنفاً توضح ثلاث نقاط على الأقل هي: (1) أن إنشاءات الأبراج في أواخر أسرة شانغ كانت كبيرة الحجم وتتحلى بالعظمة والأبهة،

وتعتبر نوعاً من الثقافة الماوية التي بلغت مستوى عالياً في ذلك الحين. (2) أصبحت الأبراج من الأبنية التي تقام داخل الحدائق، كما أصبحت جزءاً مهماً من هيكلها. (3) جسدت الأبراج بدرجة أكبر وظيفتها الثقافية بجلاء باعتبارها من مقاصد التنزه والسياحة والتجوال للأسر الأرستقراطية وملاك العبيد.

وكانت مرحلة تطور هندسة بناء الأبراج من أسرة تشو الغربية إلى فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة -ولاسيما في فترة الربيع والخريف- التي شهدت تطلع «الملوك والأمراء إلى الحكم العسكري والسياسي والحاجة إلى متعة الحياة، ولذا شيدوا عدداً كبيراً من الأبراج التي كانت -بصفة عامة- عبارة عن أبنية عالية داخل المدينة تقام على قاعدة ترابية مدكوكة، ويبلغ ارتفاعها عدة أمتار أو عشرات الأمتار، وشيد فوقها الكثير من القاعات والغرف» (انظر كتاب «تاريخ الهندسة المعمارية في الصين» ص8) ويمكن القول، إن هندسة الأبراج في هذه المرحلة أصبحت بمثابة الوحدة الأساسية في هندسة بناء الأبراج والحدائق. ومن الأبراج العالية نسبياً، برج لين الذي شيده الملك ون في أسرة تشو، والذي كان عبارة عن الوحدة الأساسية في بناية مقامة على قاعدة مرتفعة، وتضم حديقة الملك التي تحتوي على أحواض تربية الطيور والحيوانات. (انظر كتاب «كتاب الأغاني- فصل برج لين»). وبعد ذلك، شيد الملك لين في مملكة تشو برج جينغ هوا، والملك فوتشاي في مملكة وو شيد برج قوصو، وكان عبارة عن وحدة أساسية في بناية مقامة على قاعدة مرتفعة في القصر الإمبراطوري خارج العاصمة الإمبراطورية، وكان حجمها ضخماً وتصيب الإنسان بالدهشة. وأقام ملك مملكة تشو وليمة ضخمة في برج جينغ هوا، وعند الصعود إليها كان الضيوف يحتاجون إلى الراحة ثلاث مرات حتى يبلغوا قمته، ولذا أطلق عليه «برج الراحة ثلاث مرات». وبرج قوصو الذي شيده ملك مملكة وو استغرق بناؤه خمس سنوات، وبلغ ارتفاعه حوالي ستمائة وستين متراً. وبالإضافة إلى ذلك، شهدت مملكة تشي بناء أبراج: «تشوان» و«باو تشين» و«تان»، أما مملكة تشو فقد عرفت أبراج: «تشيانغ» و«لان» و«جينغ». وفي مملكة تشاو تم بناء «برج تسونغ» و«برج يه»، و«برج هونغ يو»، كما شُيد «برج هوايانغ» في مملكة يان، وبرج «تشونغ هوا» في مملكة وي وغيرها كثير. وتمتعت الأبراج بالشهرة التي ملأت الآفاق سواء أكانت جزءاً من القصور الإمبراطورية أم من الحدائق الملكية.

وكانت مرحلة الأسر الحاكمة تشين وهان ووي وجين بمثابة مرحلة الانتشار الواسع النطاق لهندسة وتشييد الأبراج. فمن منظور التقنية الفنية، تم استخدام الحجر والطوب بكميات هائلة في مشروعات بناء الأبراج، مما جعل هيكلها أكثر صلابة وقوة، كما انتشر على نطاق واسع بناء الأبراج من الهياكل الخشبية المتعددة الطبقات، ولذلك ظهر قصر ايفانغ في أسرة تشين، وقصر وي يانغ في أسرة هان، وبرج قونغ شيوه في أسرة وي، وكلها تتحلى بالهندسة المعمارية العظيمة والأبهة والفخامة ولم يسبق لها مثيل. أما من منظور المفاهيم الأيديولوجية، فقد انتشر مذهب الخلود والعمر المديد منذ أسرتي تشين وهان الذي حفز أماني وتطلعات الملوك والأباطرة من السعي وراء الصعود إلى السماء والتمتع بالبقاء طويلاً حيث العمر المديد والشباب الدائم، ومن ثم لم يبخلوا بالأموال الطائلة من أجل تشييد الأبراج الضخمة تقرباً إلى القوة السحرية التي يتمتع بها الآلهة. وانتشرت الأبراج الشاهقة السامقة في شتى البقاع مثل الغابة في عهد أسرتي تشين وهان، ولاسيما في عهد الإمبراطور الأول لأسرة تشين، والإمبراطور وو في أسرة هان. وكان تشييد الأبراج في هذه المرحلة يتسم بالتفرد والتميز والفخامة وتقنيتها أعجوبة من الأعاجيب. وذكر كتاب «حكايات منسية» أن: «الإمبراطور الأول في أسرة تشين شيد برج يوان مينغ، وحشد جميع العمال المهرة الأكفاء، وجمع أجود وأثمن الأخشاب من كافة أنحاء البلاد من أجل تشييده. ويحكى أن شخصين حملا فؤوساً وتسلقا أعمدة خشبية وشيدا البرج في الهواء، واستغرقا اثنتي عشرة ساعة فقط، ولذلك يطلق أهالي أسرة تشين على هذا البرج لقب «برج الاثنتي عشرة ساعة»». وتتضمن هذه الفقرة بعض الحقائق التاريخية إذا استبعدنا المبالغة الأسطورية في تشييد الأبراج. وكذلك الإمبراطور وودي في أسرة هان شيد داخل القصر الإمبراطوري جيان تشانغ بعض الأبراج مثل: «برج جيان»، و«برج الآلهة»، و«برج جينغ قان»، من بينها برج جيان بلغ ارتفاعه أكثر من مائة متر، وتحوطه ثلاثة أسوار في الناحية الجنوبية ويبلغ ارتفاعه أكثر من مائة متر، وتتوسطه قاعة تضم اثنتي عشرة غرفة، والسلالم مصنوعة من اليشب، ويعلق في السقف طائر العنقاء، وهو مصبوب من النحاس ومطلي بالذهب الأصفر». وكذلك رئيس الوزراء تساو تساو في عام 210م، شيد عدة أبراج مثل: «برج تونغ شيوه» و«برج بينغ جينغ» و«برج جين فينغ» في مدينة يه (محافظة لين جينغ في مقاطعة خبي اليوم)، من بينها برج تونغ شيوه الذي بلغ ارتفاعه

خمسة وثلاثين متراً، ويضم أكثر من مائة غرفة، ويرتاده جميع الوجهاء والأشراف للتمتع بالمناظر الطبيعية وقرض الشعر، وقد استغرق إنشاء مثل هذه الأبراج الكثير من القوة البشرية والمادية والمالية. وذكر كتاب «حكايات منسية» أن: «الإمبراطور مينغ دي في أسرة دي شيد برج لينغ يون، وحفر بنفسه الأرض، وشاركه الوزراء وكبار الموظفين في نقل التراب باستخدام الجاروف. ولقي كثيرون حتفهم جراء البرد القارس». وفي معرض حديثه عن تشييد هذا البرج، ذكر كتاب «تاريخ الممالك الثلاث. فصل أسرة وي» إن: «شارك المئات من العمال في بناء برج لينغ يون، ويقدرهم المؤلف بعشرات الآلاف، وشارك في عملية البناء كبار الموظفين والطبقات العليا، والطلاب الذين بذلوا جهودا مضنية، كما حفر الإمبراطور بنفسه الأرض بصفته قائداً لفريق العمل». ويوضح ذلك أن تشييد الأبراج قد بلغ الذروة في عهد الأسر الحاكمة تشين وهان ووي وجين.

وبعد أسرتي سوي وتانغ، بدأت شمس الأبراج المتخصصة تميل نحو المغيب، وذلك بسبب انتشار الديانة البوذية انتشاراً واسعاً منذ دخولها الصين في عصر أسرة هان إلى أسرتي سوي وتانغ. كما أن الدولة البوذية ذات الأرض الطاهرة المنتشرة على نطاق واسع حلت محل مذهب الخلود والعمر المديد منذ أسرتي تشين وهان. وعلى الرغم من أن الطاوية –التي تشكلت تدريجياً منذ أسرة هان– تعتمد على فكرة الخلود والأولياء والقديسين إلا أنها تولي اهتماماً شديداً لإكسير الحياة وحبوب العمر المديد، ناهيك عن الاندماج بين المذهب الكونفوشيوسي –الذي خضع للتغيرات العديدة– والديانة البوذية والطاوية. مما شجع الناس على التهذيب الذاتي، ووجه ذلك ضربة قاصمة لأفكار الصعود إلى السماء والعمر المديد التي يعتمد عليها الناس ليكونوا من الأولياء. وفي الوقت نفسه، دخلت باغودة الهند إلى الصين واندمجت مع هندسة إنشاء أبنية لوقه التقليدية في الصين، مما شكل نوعاً جديداً من الأبنية الشاهقة يطلق عليه باغودات تتوافق مع احتياجات البوذيين، وتحلق عالياً في السماء على غرار الأبراج ومن ثم، لم تعد هناك ضرورة لإنشاء أبراج شاهقة وسامقة كما كان الحال في أسرتي تشين وهان. ولكن لا يعني ذلك اندثار إنشاء الأبراج. وفي الواقع، بعد أسرتي سوي وتانغ، كانت لا تزال توجد بعض الأبراج الشاهقة، ولكن معظمها كان يستخدم في تخليد الذكرى والتمتع بالمناظر الطبيعية. وما نقصده بقولنا من أفول نجم الأبراج هو أن «الموجة

المحمومة من بناء الأبراج» في عصر الأسر تشين وهان ووي وجين قد اندثرت بعد أسرتي سوي وتانغ.

حقيقة الأبراج واستخداماتها

لا مراء أن البرج يعد تجسيداً لمفهوم ما داخل الإنسان. والشكل الخارجي للبرج ينطوي على فكر دفين داخل أروقته. ولا يعتمد هذا الفكر في إبراز ذاته على الشكل الخارجي فقط، بل يعتمد على استخدام البرج بشكل أكبر. ويستطيع الناس ملاحظة حقيقة وجوهر البرج من خلال معرفة استخداماته. وعلى وجه العموم، يمكن إجمال استخدامات البرج في النقاط التالية في ضوء تحليل الأحوال التاريخية:

(1) البرج هو ساحة المراسم العسكرية والسياسية، فقد كانت الأنشطة السياسية والعسكرية الرئيسية للدولة الإقطاعية تختار البرج لإقامة المراسم المهيبة والعظيمة مثل تأسيس الدولة، واعتلاء الإمبراطور عرش البلاد، واستعراض القوات. وتعيين القادة العسكريين، ولقاء التحالف في الصين القديمة، وعودة الجيش ظافراً من الحرب وغيرها من الأنشطة المهمة. وأصل هذه الوظيفة يمكن أن يرجع إلى سجلات موثوق بها نسبياً، وما ذكرنا آنفاً أن «الملك تشي في أسرة شيا استمتع ببرج دياو، وأقام هناك حفلة توليه العرش». وحذت الأجيال المتعاقبة حذو أسرة شيا من التواصل الثقافي لـ«الاستمتاع ببرج دياو»، واختارت البرج ليكون بمثابة ساحة كافة الأنشطة الخاصة بالحفلات والمناسبات السعيدة. ومن الصعب، إن نصدر حكماً صائباً على اختيار الملك تشي في أسرة شيا برج دياو ليكون نقطة انطلاق في تدشين مراسم توليه العرش. ولكن التحليل الواقعي يرى أن البرج بناية عالية وشامخة وبارزة، يمكن أن يقيم فيها الإنسان وينظم فيها كافة أنواع المراسم أيضاً، ولا يبرز ذلك للعيان فقط الجو المفعم بالعظمة والأبهة والهيبة، بل يمنح الإنسان شعوراً من التقدير والإجلال والعظمة. ومن ثم، كان اختيار الأبراج، لتكون ساحة مراسم الأنشطة السياسية والعسكرية المهمة، يعد في الواقع تجسيداً للجهود الدؤوبة الساعية إلى تقدير البشرية وإجلالها، ويعكس متطلبات الحالة النفسية من التقدير الذاتي من خلال استعارة كيان واقعي وموضوعي. ويعتبر ذلك بمثابة متطلبات الحالة النفسية من تلبية تقدير الذات عن طريق الاستعانة بكيان واقعي

وموضوعي. وتحلى الكثير من أبراج المراسم المهمة الضخمة، التي ذكرتها سجلات وثائقية عبر العصور، بمثل هذا الإيمان الدفين في أعماقها. ومثال ذلك، فقد قيل إن الملك وو لين في مملكة تشاو شيد برج تسونغ (في مدينة هان دان في مقاطعة خبي اليوم) من أجل استعراض قوات المملكة والتمتع بالمناظر الطبيعية والرقص والغناء. وفي مملكة يوه شيد الملك قوجيان برج خه (في مدينة شاوشين بمقاطعة تشجانيغ اليوم) من أجل الاحتفال بالانتصار على مملكة وو. وبعد ذلك، وفي أواخر أسرة تشين شيد الجنرال شيانغ يو برج شيما (في مدينة شيوي تشو بمقاطعة جيانغصو اليوم) لتدريب القوات، ورفع تشين شينغ و وو قوانغ لواء التمرد وقادا أول انتفاضة فلاحية عظمى في الصين «وأعلنا تحالفهما فوق برج»، وهو البرج الذي يُطلق عليه شهقو (في محافظة صو بمقاطعة آنهوي اليوم). والإمبراطور ليويانغ اختار هان شين ليكون الجنرال العسكري العظيم ومن أجل تعيينه «اختار يوماً سعيداً، واصدر أمراً إمبراطورياً ينص على تشييد برج والاستعداد لمراسم تنصيب هذا الجنرال» (انظر «سجلات تاريخية») ويُطلق على هذا البرج اليوم اسم باي جيانغ (في مدينة هان تشونغ في مقاطعة شنشي). وفي الممالك الثلاث شيد تساو تساو برج جياو مو (في مدينة خهوفي بمقاطعة آنهوي)، وبرج ديان جيانغ الذي يده تشويو (في محافظة شينغ تسي في مقاطعة جيانغشي) وغيرها من الأبراج التي تُعد بمثابة مكان التبجيل والتقديس، وتشهد مراسم وتشريفات التكريم والتبجيل والتقدير، ولاسيما تعيين الإمبراطور ليوبانغ القادة العسكريين فوق البرج وإحرازه النجاح في توظيف الأبراج ترك أثراً عميقاً وهائلاً في التاريخ؛ حيث حقق الترابط الوثيق بين تبجيل وتقديس الأبراج وقيمة المثقفين وقوتهم ومكانتهم، مما جعلهم في الصين القديمة تتبلور فكره في أذهانهم مفادها أن المراسم والتشريفات فوق البرج تعد أسمى مراسم الاستقبال للاحتفاء بالأكفاء والمثقفين. وبعد أسرة هان الشرقية، شوهت كوكبة من المثقفين والباحثين الحقيقة التاريخية التي أكدتها سجلات تاريخية ومفادها أن الملك تشاو وانغ في مملكة يان «قلل من شأنه ومكانته وصرف أموالاً طائلة لاستقبال الأكفاء» و«غيَّر ملامح قصره الإمبراطوري وجعله من المباني العلوية» من أجل قووي، وذكروا أن استقبال الأكفاء شهد بناء برج مرصع بالذهب الأصفر، وبالغوا كثيراً في تفسير مغزى إنشاء الأبراج المطلية بالذهب في أطلال العاصمة القديمة لمملكة يان (في محافظة يي في مقاطعة خبي اليوم) وفي مدينة بكين

اليوم تباعاً. ويوضح ذلك بدرجة أكبر أن الأبراج باعتبارها ساحة إقامة المراسم والتشريفات يمكن أن تلبي متطلبات سيكولوجية الإنسان من احترام الذات وتبجيلها حقاً.

(2) الأبراج هي ساحة القرابين الدينية؛ ويعني ذلك أن الاختيار وقع عليها لإقامة أنشطة تقديم القرابين للسماء جراء الإيمان بالخرافات والخزعبلات وتقديس السماء وعبادتها، ناهيك عن مراسم الاتصال بالقدرة الإلهية الفائقة في السماء. ومن الصعب أن نحدد العصر الذي شهد اضطلاع البرج بهذه الوظيفة. ولكن هناك سجلات في كتاب «طقوس أسرة تشو» ذكرت أن برج يوان شهد تقديم القرابين للسماء. ومع انتشار مذهب الخلود والصعود إلى السماء، اعتبر الناس بناء برج بمثابة وسيلة مرور إلى القصر السماوي، أو على الأقل اعتبروا البروج بيئة تقربهم إلى الآلهة وتمكنهم من الاتصال بهم. وذكر كتاب «كتاب ملاحظات على الأنهار» أن الملك تشاو وانغ في مملكة يان كان يستجدي مساعدة الأولياء والقديسين فوق برج أطلقت عليه الأجيال اللاحقة اسم برج الأولياء لملك مملكة يان (في محافظة لاي يوان في مقاطعة خبي اليوم). وبعد ذلك، كان الإمبراطور الأول في أسرة تشين، والإمبراطور وودي في أسرة هان يتحمسان لإقامة أنشطة التوسل وطلب مساعدة الأولياء والفضلاء، ولذا شيدا العديد من الأبراج في محاولة من جانبهما للاعتماد على ذلك في تطوير الاتصال بالسماء والقدرة الخارقة والاقتراب من القصر السماوي. ومثال ذلك، الإمبراطور وودي شيد في قصره قان تشوان برج تونغ تيان «الاتصال بالسماء»، وبنى معبداً أسفله، واعتبره مكاناً عظيماً للاحتفاء بالأولياء، وكان هذا البرج يرتفع عن الأرض بحوالي ثلاثمائة وثلاثين متراً، ويخترق طبقات السحب والأمطار، ويستطيع المرء من فوقه رؤية العاصمة الإمبراطورية تشانغآن. ويوجد فوق البرج أحد الأولياء يمسك في يده كوباً من اليشب يجمع فيه الندى، كما شيد هذا الإمبراطور برج بوليانغ في قصره تشنغ، وكانت أعمدته من النحاس المصبوب، وقمته على شكل الصُبار، وارتفاعه أكثر من مائتين وثلاثين متراً، وتعرض لكارثة حريق، ولذا شيد الإمبراطور أيضاً برج شين مينغ والبناية الشاهقة جينغ قان، بلغ ارتفاع كلٍّ منهما أكثر من مائة وخمسة وستين متراً، وتم ربطهما بجسر. ويضم هذا البرج تسع غرف يقطنها مائة من الطاويين، ويوضع فوقه أناء لجمع قطرات الندى ارتفاعه أكثر من خمسة وستين متراً، ومصنوع من النحاس، بالإضافة إلى أحد الأولياء يجمع الندى ويشربه في كوب من اليشب. ونعرف من السجلات المذكورة

أعلاه، إن الأبراج ترتفع عن الأرض ارتفاعا هائلاً، وأنشئت من أجل أنشطة الخلود والاتصال بالسماء، وأحدثت داخل الإنسان شعوراً سيكولوجياً من التحرر من الواقع، والصعود إلى السماء والتحليق فيها تحقيقاً للرغبة الملحة أن يكون قديساً أو ولياً.

(3) البرج ساحة الحنين إلى الأهل وترقب عودتهم، ويعني ذلك أن صعود البرج يعني التطلع نحو البعيد، وتم استعارة ذلك تعبيراً عن الشوق إلى رؤية الأقرباء الأبعدين. وإذا كان ما ذكره كتاب «ملاحظات على كتاب الأنهار» صحيحاً، فإن البرج بدأ الاضطلاع بهذه الوظيفة في فترة الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة تقريباً. كما ذكر هذا الكتاب أن تشوانغ قونغ دوق مملكة جينغ نقل أمه إلى منطقة يين لتعيش هناك، وأقسم أنه «يرفض رؤيتها حتى ولو بعد الموت»، ولكنه ندم ندماً شديداً بعد ذلك، واشتاق إلى رؤيتها والحنين إليها، ولذلك «شيد برجاً من أجل ترقب عودة أمه والتلهف إلى رؤيتها. ومن ثم، أطلق على هذا البرج اسم «برج الحنين إلى الأم». وفي عصر أسرة هان، كان الإمبراطور جينغ دي له ابن يدعى دينغ ليوفا، كانت أمه من منبت فقير وتعيش في حالة مزرية من الفقر والصعاب» (انظر «كتاب أسرة هان»)، ولذا أُغدق عليها بقطعة أرض في مدينة تشانغشا وتم نقلها إلى هناك، وكان ابنها يتوق إلى رؤيتها والحنين إليها، ولذا شيد برج الشوق إلى الأم وأُطلق عليه برج دينغ وانغ. كما ذكر «كتاب أسرة هان» أن الإمبراطور هان وودى في أسرة هان، اكتشف ألاعيب نجله الأكبر ويدعى ليوجيو للإطاحة به، ولذا قتله في بحيرة (تقع في منطقة مدينة لينباو في مقاطعة خنان اليوم)، ثم ندم هذا الإمبراطور على قتل نجله وحزن حزناً شديداً، وشيد برج التلهف إلى عودة الابن والشوق إليه. كما أن الأميرة وانغ تشاو جون عندما غادرت بيتها وانضمت إلى القصر الإمبراطوري، وشيد أهل مسقط رأسها برجاً يحمل اسمها رمزاً للحنين والشوق إليها. والأهل الذين يفترقون في مكانين، يشيدون برج الحنين إلى اللقاء تعبيراً عن مشاعر الشوق والحنين، ومثال ذلك، الجندي الذي يغادر مسقط رأسه يشيد برج الحنين إلى الأهل في مسقط رأسه ويطلق عليه برج الحنين إلى مسقط الرأس، والزوج الذي ينضم إلى الحملات العسكرية، تشيد زوجته برجاً ترقب منه عودته، ويسمى برج الحنين إلى الزوج، وغيرها من الأبراج المختلفة، ووظيفة البرج هذه –من منظور مغزى علم الجمال– تتطلب الارتفاع الشاهق حتى يمكن التطلع نحو البعيد، كما أنها –من منظور العوامل النفسية–

تجعل القلب يتأمل ما تراه العين في الأفق البعيد، وذلك يجعل المرء يشعر أن المسافة قصيرة بين الأهل والأقارب.

(4) البرج ساحة احتضان المشاهد الطبيعية، ويعني ذلك صعود البرج باعتباره ساحة التمتع بالمناظر والتنزه والسياحة أيضاً. ويمكن أن يكون البرج جزءاً من الحديقة، أو يكون بناية مستقلة بذاتها. وأصول علم جمال البرج تعتمد على الارتفاع الشاهق ورؤية البعيد، ولكن البرج لا يسعى إلى تقصير المسافة بين الأهل والأقارب على الصعيد السيكولوجي، بل يسعى إلى توسيع نطاق الرؤية ورحابة الصدر والحلم، حتى يتحقق الاستمتاع الكامل بالمشاعر الجميلة على أحسن وجه. ومنذ أسرتي شانغ وتشو، ووظيفة البرج هذه تتوارثها الأجيال المتعاقبة دائماً ولم يأفل نجمها؛ حيث شهد عصر أسرتي تشين وهان العديد من الأبراج على غرار ما ذكرناه آنفاً من برج جينغ هوا، وبرج قوصو. ومثال ذلك، كان الملك ليو وو في مملكة ليانغ يعشق التجوال والسياحة، ولذلك «شيد حديقة الشرق ومساحتها مائة وخمسون كيلو متراً مربعاً، وبنى داخلها العديد من البيوت والقصور الإمبراطورية التي كانت ترتبط بالأبراج عن طريق جسر بلغ طوله أكثر من خمسة عشر كيلو متراً» (انظر «كتاب أسرة هان»). وفي العام 115 ق.م، شيد الإمبراطور هان وو دي برج بوليانغ من أجل «الصعود إليه، واحتساء الخمر، واصدر أمرا إمبراطوريا أن يحتشد فيه كوكبة من الوزراء وكبار الموظفين لقرض الشعر، ولا يصعد إلى البرج إلا من يتمتع بالمقدرة على نظم القصائد من الوزن السباعي» (انظر «كتاب أسرة هان. سيرة وو دي»، وكتاب «الأحداث الثلاثة القديمة»). وبالإضافة إلى ذلك، شيد رئيس الوزراء تساو تساو أبراج: تونغ شيوه، وبينغ، وجين فينغ، وكلها تتسم بالسمات المميزة الجذابة للتنزه والسياحة. وبعد أسرتي سوي وتانغ، أصبحت مثل هذه الأبراج مكاناً يرتاده المثقفون والباحثون للتنزه وإقامة الولائم ونظم القصائد، ومن ثم شهدت الأبراج تطوراً هائلاً. ومثال ذلك، في أسرة سوي، شيد شيوه داو هينغ في محافظة تشوجيانغ بمقاطعة قوانغدونغ برج شياو ياو من أجل إقامة الولائم وحفلات الشراب. وفي أسرة تانغ، نظم تشانغ جيو لينغ قصيدة بعنوان «افتتاحية برج شياو ياو ومصاحبة وانغ سيما في رأس السنة الجديدة». كما يوجد برج يانشي في محافظة يانغشان في مقاطعة آنهوي، وفي أسرة تانغ كان الشاعر لي باي وأصدقاؤه يشربون الخمور وينظمون القصائد فوق برج،

والشاعر يوان جيه الذي كان معاصراً لنفس الأسرة، كان مسؤولاً في محافظة داو بمقاطعة خونان اليوم، وشيد برجاً للاستمتاع بالمناظر في محافظة تشي يانغ في مقاطعة خونان، ونقش على حجارة الجبل ما جاء في شعره قائلاً: «الماء في خونان كلما ازداد عمقاً، ازداد شفافية. وأصعد البرج وأتطلع نحو البعيد وأرى كل شيء أياً كان بعيداً». ويوضح ذلك بجلاء شديد -مرة أخرى- وظيفة السياحة والتنزه التي كان يضطلع بها البرج. وفي أسرة سونغ، كان الشاعر صوشي يهوى مشاهدة المناظر الطبيعية الخلابة، كما كان حاذقاً في قرض الشعر، وشيد العديد من الأبراج، وزار العديد منها الذي يحظى بالشهرة في هذه الأسرة، مثل برج تشاو ران (في مدينة تشو تشينغ في مقاطعة شاندونغ اليوم)، وبرج ون يوي (في مدينة قاو يوي بمقاطعة جيان نغصو اليوم)، وبرج باجينغ (في مدينة قانتشو بمقاطعة جيانغشي اليوم) وخلف وراءه العديد من القصائد المشهورة. ويوضح ذلك، إن الأبراج التي تتحلى بسمات التنزه والسياحة والاستمتاع بالمناظر كانت -في أغلب الأحايين- ساحة للأنشطة الأدبية والإبداع الأدبي أيضاً.

(5) البرج ساحة تخزين الكتب ورصد الظواهر الفلكية، وهاتان الوظيفتان تتسمان بالمنفعة العملية، ولكن أفكارهما الكامنة متباينة أشد التباين؛ حيث أن برج رصد الظواهر الفلكية ينبغي أن يكون شاهقاً وسامقاً يطاول عنان السماء، ويعد ذلك انعكاساً لفكرة الاتصال بالقوة الإلهية الخارقة في العصر القديم. وتأسيساً على معلوماتنا القائلة بأن أسرة تشو بدأت الاضطلاع بهذا النشاط، فإن محافظة دينغ فينغ في مقاطعة خنان لا تزال تحتفظ بأطلال برج قياس ظل الشمس، ويحتوي على نقوش تنتمي إلى أسرة مينغ، جاء فيها: «الطريق المؤدي إلى السماء والأرض له شكل خارجي، وتنطوي الأحجار على السالب والموجب، ولا توجد ظلال داخلها»، مما يوضح تماماً أسباب تشييد برج رصد الظواهر الفلكية. وبعد ذلك، تم تشييد برج لين في كل من تشانغآن في أسرة هان الغربية، وفي لوايانغ في أسرة هان الشرقية، وذلك بغرض رصد الظواهر الفلكية والجوية. وكان العالم الكبير تشانغ هينغ معاصراً لأسرة هان الشرقية، وعمل في برج لين في لوايانغ (لا تزال أطلاله موجودة في مدينة يانشي في مقاطعة خنان اليوم) لمدة أكثر من عشر سنوات. ولا يزال برج رصد النجوم في محافظة دينغ فينغ في مقاطعة خنان، وبرج رصد الظواهر الفلكية في بكين، في حالة جيدة تماماً، وتم

بناؤهما في أسرتي يوان ومينغ على التوالي، وكلاهما يعتبران من الأماكن التي كانت مخصصة لرصد الظواهر الفلكية في ذلك الحين. أما بخصوص أبراج تخزين الكتب، فمن الصعب معرفة الفكرة التي قادت إلى إنشاء مثل هذه الأبراج، وربما يرجع ذلك إلى تجنب اندلاع الحرائق وتبديد الثروة المكتبية. وذكر «كتاب أسرة هان» أنه تم تنفيذ نظام «تخزين الكتب في دواليب معدنية وتحفظ في غرف حجرية» في مطالع أسرة هان، وبعد ذلك تم إنشاء برج لان، والبناية الشاهقة تيان لو، وبناية شي تشو من أجل تخزين الكتب، وكلها من الأبنية العالية الشاهقة. ونستنتج من شكلها وهيكلها ونظامها، أنها كانت تشيد فوق البرج بناية لوقه التي تضم غرفاً حجرية يوضع داخلها دواليب معدنية يحفظ فيها الكتب والمؤلفات السرية. وعلى الرغم من أن أبراج تخزين الكتب عددها محدوداً، بيد أن تأثيرها عميقاً وهائلاً.

(6) البرج ساحة إقامة النشاطات التذكارية، حيث أصبح البرج الشاهق من الأبنية التي تشهد إحياء الذكرى. ومن الصعب تقصي حقيقة هذه الوظيفة والعصر الذي بدأت فيه الأبراج الاضطلاع بهذه الوظيفة. وذكر كتاب «تاريخ العلم الأول» أن الدوق ون في أسرة جين اضطرم النيران في جبل ميان شان من أجل حث جيه جي تسوي على الخروج من الجبل والانخراط في العمل بالدولة، وكان هناك غراب أبيض ينعق ويحوم حول الدخان، وشيد أهالي أسرة جين برج سي يان (الحنين إلى الدخان) في مكان الجبل. وكان إنشاء هذا البرج من أجل تمجيد المبادئ والمثل العليا لدى جيه جي، وفي الوقت نفسه إحياء ذكراه. كما ذكر كتاب «حكايات الخوارق» أن برج تشون تشيو (الربيع والخريف) يوجد في جنوب محافظة تشوفو. وقد قيل إن كونفوشيوس قام بتهذيب وتنقيح كتاب «الربيع والخريف» هناك. كما ذكر كتاب «حكاياب عن الكون» أن محافظة تشوجي (في مقاطعة سيتشوان اليوم) يوجد بها برج شوجينغ حيث قابل هناك ضابط الحدود في منطقة الجمرك الفيلسوف لاوتسي الذي قص عليه كتابه «الطريق إلى الفضيلة». وبالإضافة إلى ذلك، يوجد برج جياو جيا (تعلم زراعة المحاصيل) في محافظة ووقونغ في مقاطعة شنشي، وقد قيل إن الإله خوجي كان يعلم الناس كيفية زراعة المحاصيل في هذا البرج. وفي محافظة هواي يانغ بمقاطعة خونان، يوجد برج شوان قه، قيل إن شخصاً يدعى تشين احتجز كونفوشيوس في هذا المكان حتى نفد طعامه. ويحكى أن الفيلسوف لاوتسي صعد إلى السماء وأصبح قديساً من فوق برج لاو

جون في محافظة لويي بمقاطعة خنان اليوم. ويحكى أن مدرس الموسيقى شي كوانغ في مملكة جين كان يعزف الموسيقى في برج قوتشيوي في مدينة كايفنج في مقاطعة خنان. كما يوجد برج قوتشينغ في مدينة ووهان في مقاطعة خوبي، وكان يعزف هناك الموسيقى الموسيقار يو باويا. وفيما يبدو فإن الأبراج في العصر القديم كانت تشهد إقامة المناسبات الثقافية العظيمة، وإحياء ذكرى الفضلاء والحكماء وتوريث عاداتهم وتقاليدهم، ومثال ذلك برج الرموز الثمانية للتنجيم من اختراع فوشي، وبرج اختراع الكتابة من جانب تسانغ جيه، وبرج الشاعر العظيم تشيوي يوان يسأل السماء، وبرج قه فينغ للإمبراطور ليوبانغ. والأهم من ذلك والأكثر جاذبية للأنظار من كل حدب وصوب، إن العديد من الشخصيات الشهيرة والبارزة في العصر القديم كانت تطالع الكتب في الأبراج. ومثال ذلك، البرج الأشهر دونغ تشونغ شو (في الأطلال القديمة في مدينة واتشو في مقاطعة شاندونغ) حيث كان كونفوشيوس يطالع الكتب هناك، وبرج المطالعة للأديب مارونغ (في الأطلال القديمة لمحافظة تشوجي في مقاطعة شنشي)، وبرج المطالعة للعالم تشانغ هينغ (في الأطلال القديمة لمدينة سوي تشو في مقاطعة خوبي اليوم)، وبرج مطالعة تساوجي (في الأطلال القديمة لمحافظة جون تشينغ في شاندونغ اليوم)، وبرج المطالعة للكاتب هوانغ يومي (في الأطلال القديمة لمحافظة لينتاي في مقاطعة قانصو اليوم)، وبرج المطالعة لولي العهد تشاو في أسرة مينغ (في مدينة تشانغشو بمقاطعة جيانغصو اليوم)، وبرج المطالعة للشاعر صوشي (في محافظة قوانغشان في خنان اليوم)، وبرج المطالعة للشاعر وانغ آنشي (في محافظة وي تشيان في مقاطعة آنهوي اليوم)، وبرج المطالعة لي قانغ (في محافظة تاي نينغ في مقاطعة فوجيان اليوم) وغيرها. ومن الجلي، إن تشييد هذه الأبراج لم يكن فقط من أجل مطالعة الكتب وقتئذ، بل كان من أجل إظهار الأجيال المتعاقبة إعجابهم بالفضلاء والحكماء وتقديرهم لروحهم الدؤوبة والمجتهدة في العمل ومطالعة الكتب، ومدح مآثرهم وأمجادهم التاريخية أيضاً. وكانت الثقافة التقليدية في الصين تعتبر مطالعة الكتب أساس تهذيب الذات وإدارة شؤون البلاد، كما اعتبرت مطالعة الكتب قضية مقدسة وسامية، إذن، تشييد الأبراج الشاهقة لتجسيد فكرة هذه الثقافة يتوافق تماماً مع المنطق التاريخي والسيكولوجيا الثقافية لدى الإنسان الصيني.

(نشرت هذه المقالة في مجلة «الدراسات الثقافية الصينية»– المجلد الرابع، عام 1994)

الملحق الثاني: المعالم والآثار الشهيرة الصينية في «دليل التراث العالمي»

في 16 نوفمبر عام 1972، وافق المؤتمر السابع عشر لمنظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة على «معاهدة حماية الثقافة العالمية والتراث الطبيعي»، اختصارها «معاهدة التراث العالمي». وفي العام 1976، شكلت منظمة اليونسكو لجنة التراث العالمي وأصدرت «دليل التراث العالمي». والأماكن التي يشتمل عليها «دليل التراث العالمي» هي المواقع التاريخية الشهيرة في العالم والتي يمكن أن تحصل على مساعدة صندوق التراث العالمي. وقد انضمت الصين إلى «معاهدة الثقافة العالمية وحماية التراث الطبيعي» في 12 ديسمبر عام 1985، وبدأت ترفع تقارير إلى برنامج التراث العالمي منذ عام 1986 فصاعداً. وبحلول ديسمبر عام 2001، أصبح «دليل التراث العالمي» يحتوي على ثمانية وعشرين من الآثار التاريخية والمعالم الشهيرة والمناظر الطبيعية في الصين، من بينها عشرون من أماكن التراث الثقافي، وثلاثة من التراث الطبيعي، وخمسة من التراث الثقافي والطبيعي، وتم إدراجها وترتيبها في الدليل حسب التسلسل الزمني على النحو التالي:

(1) سور الصين العظيم (تراث ثقافي، عام 1987).

(2) المدينة المحرمة (تراث ثقافي، عام 1987).

(3) قبر الإمبراطور الأول لأسرة تشين (تراث ثقافي، عام 1987).

(4) كهف موقاوكو (تراث ثقافي، عام 1987).

(5) أطلال إنسان بكين في تشوكوديان (تراث ثقافي، عام 1987).

(6) جبل تاي شان (تراث ثقافي، عام 1987).

(7) جبل هوانغ شان (تراث ثقافي وطبيعي، عام 1990).

(8) منطقة المعالم الشهيرة على مستوى الدولة في وولينغ يوان في مقاطعة خونان (تراث ثقافي، عام 1992).

(9) منطقة المناظر الطبيعية جيو تشاي قو على مستوى الدولة في سيتشوان (تراث طبيعي، في عام 1992).

(10) منطقة المعالم الشهيرة هوانغلونغ على مستوى الدولة في سيتشوان (تراث طبيعي،

في عام 1992).

(11) قصر بوتالا في التبت (تراث ثقافي، عام 1994).

(12) دارات الاصطياف الجبلية والمعابد المحيطة بها في مدينة تشينغدا في مقاطعة خبي (تراث ثقافي، عام 1994).

(13) معبد كونفوشيوس، ومقابر أسرة كونفوشيوس في تشوفو (تراث ثقافي، عام 1994).

(14) المباني القديمة في جبل وودانغ شان في مقاطعة خوبي (تراث ثقافي، عام 1994).

(15) منطقة المناظر الطبيعية الشهيرة في جبل ايميي وجبل لي شان في مقاطعة سيتشوان (تراث ثقافي وطبيعي، عام 1996).

(16) منطقة المناظر الطبيعية في جبل لوشان في مقاطعة جيانغشي (تراث ثقافي وطبيعي، عام 1996).

(17) المدينة القديمة بينغ ياو في مقاطعة شانشي (تراث ثقافي، عام 1997).

(18) المدينة القديمة لي جيانغ في مقاطعة يونان (تراث ثقافي، عام 1997).

(19) الحديقة الكلاسيكية في مدينة صوتيشو (تراث ثقافي، عام 1997).

(20) المعبد السماوي في بكين (تراث ثقافي، عام 1998).

(21) القصر الصيفي في بكين (تراث ثقافي، عام 1998).

(22) جبل ووبي (تراث ثقافي وطبيعي).

(23) النقوش الحجرية دازو (تراث ثقافي، عام 1999).

(24) القرية القديمة شي دي هونغ في جنوب مقاطعة آنهوي (تراث ثقافي، عام 2000).

(25) مقابر الأسر الإمبراطورية في أسرتي مينغ وتشينغ (تراث ثقافي، عام 2000).

(26) سد دوجيانغ في جبل تشينغ تشينغ (تراث ثقافي، عام 2000).

(27) كهف لونغمين (تراث ثقافي، عام 2000).

(28) كهف يون فينغ (تراث ثقافي، عام 2000).

القائمة الاحتياطية للتراث العالمي في الصين:

(1) باغودة معبد يون جو والنقوش الحجرية البوذية في بكين.

(2) المرصد الفلكي القديم في بكين.

(3) جسر لوقاو في بكين.
(4) متنزه البحيرة الشمالية في بكين.
(5) جسر آنجي (تشاو شو) في مقاطعة خبي.
(6) باغودة معبد كاي يوان في مقاطعة خبي.
(7) معبد دوله في مدينة تيانجين.
(8) معبد فوقوانغ في مقاطعة شانشي.
(9) أطلال سد نيو خه ليانغ في لياولينغ.
(10) باغودة ساكيموني (الباغودة الخشبية في محافظة ينغ) في المعبد البوذي في مقاطعة شانشي.
(11) بيوت عامة الناس في قرية دينغ في مقاطعة شانشي.
(12) أطلال عاصمة أسرة يوان في منغوليا.
(13) أطلال منجم قونونغ في جبل تونغلو في مقاطعة خوبي.
(14) قصر يونغله في مقاطعة شانشي.
(15) غابة من شاهدات الضرائح في شيآن في مقاطعة شنشي.
(16) أسوار المدينة القديمة في شيآن في شنشي.
(17) أطلال المدينة القديمة في تشانغآن في شنشي.
(18) أطلال قصر دامينغ في أسرة مينغ في شنشي.
(19) المحمية الطبيعية شين نونغ جيا.
(20) طريق الحرير.
(21) البحيرة الغربية في مدينة صويتشو في مقاطعة تشجيانغ.
(22) أطلال ليانغ تشو في تشجيانغ.
(23) أطلال أسرة ين في خونان.
(24) غابة من شاهدات الضرائح في لونان في مقاطعة يونان.
(25) جسر يونغ جي (جسر فينغ يو) في تشينغ يانغ في قوانغشي.
(26) المدينة والبلدة القريبتان من المياه في جنوب حوض تشانغجيان (تشو تشوانغ،

تونغلي في صويتشو).

(27) نهر لي جيانغ في قويلين في قوانغشي.

(28) البيوت الترابية لقومية كهجيا في مقاطعة فوجيان.

الملحق الثالث: أسماء الكتب والمراجع

«كتاب التاريخ».
«كتاب الطقوس والمراسم».
«كتاب التغيرات».
«كتاب الأغاني»
«مذكرات جيالان في لوايانغ».
أويانغ شون «مجموعات تصنيف الفن»
شيوه جيان وآخرون «تاريخ العلم الأول».
دو يو «تونغ ديان».
جينغ تشياو «تسونغ جي».
ما دوان لين «تأملات وقراءات وثائقية».

* * * * * *

- وانغ لي وآخرون «محاضرات في تاريخ الثقافة القديمة في الصين». دار نشر جامعة الإذاعة والتلفزيون المركزي.
- شيانغ ناي دان «معارف الثقافة القديمة في الصين» دار المعارف للنشر.
- فينغ تيان يوي، تشو جي مينغ «لغز الثقافة القديمة في الصين»، دار الشعب للنشر في خوبي.
- لي تشونغ هوا «مدخل إلى الثقافة الصينية»، دار مكتبة الثقافة الصينية للنشر.
- تشانغ داي نيان، فانغ كه لي، «لمحة عن الثقافة الصينية»، دار نشر جامعة المعلمين- بكين.
- شيوه شوآن وآخرون «معارف الثقافة الصينية»، دار معهد بكين للنشر.
- «نظرة عامة على الثقافة في الصين»، دار دونغ فانغ للنشر.
- تشين تشي بينغ «التاريخ العام للصين»، دار نشر هواتشينغ.
- فينغ يولان «تاريخ موجز الفلسفة الصينية» دار جامعة بكين للنشر.

– تشينغ يوي تشين «لمحة عن الأفكار الأكاديمية في الصين»، دار نشر معهد بكين للغات.
– ليوه سي ميان «تاريخ الأنظمة في الصين»، دار التربية للنشر– شنغهاي.
– «نبذة عن نظام الطقوس والآداب والعادات في العصر القديم»، الجزء الأول والثاني، مكتبة تشونغ هوا.
– «سحر الثقافة الصينية»، الأجزء الأول والثاني والثالث، دار شيوه لينغ للنشر.
– «قاموس المعالم البارزة في الصين»، دار نشر القواميس – شنغهاي.
– «لمحة عن المعالم البارزة والآثار التاريخية في الصين»، الجزآن الأول والثاني، دار السياحة للنشر– الصين.
– شياناي «مصدر الحضارة الصينية»، دار الآثار للنشر.
– سونغ تشاو لين وآخرون «تاريخ المجتمع البدائي في الصين»، دار الآثار للنشر.
– يوان كه «تاريخ الأساطير الصينية»، دار الفنون للنشر– شنغهاي.
– شيوه جون يوان وآخرون «مصدر الألقاب والكنى في الصين»، دار العلوم للنشر– خبي.
– وانغ تشوان فين «رؤية شاملة للأسماء والألقاب في الصين»، دار الشعب للنشر– قوانغشي.
– جيانغ ليانغ فو «علم الرموز الصينية القديمة»، دار الشعب للنشر– تشجاينغ.
– هوانغ شين تشوان وآخرون «الأديان الثلاثة الكبرى في العالم»، دار سان ليان للمعرفة الجديدة للنشر.
– لي شين «محاضرات عن الأديان القديمة في الصين»، دار الإذاعة والتلفزيون للنشر، الصين.
– ليان تيان ماو شيونغ «موجز تاريخ البوذية في الصين»، دار الترجمة للنشر– شنغهاي.
– رين جي يوي «تاريخ الطاوية في الصين»، دار الشعب للنشر– شنغهاي.
– بينغ ينغ تشوان «لمحة عن الأديان في التبت»، دار الشعب للنشر، التبت.
– فانغ لي تيان «البوذية والتقاليد الثقافية في الصين»، دار الشعب للنشر– شنغهاي.
– قه تشاو قوانغ «الطاوية والثقافة الصينية»؛ دار الشعب للنشر– شنغهاي.

- قوشو سينغ «أنظمة التعليم في الصين عبر العصور»، دار التربية للنشر، جيانغصو.
- ماولى روي «التعليم القديم في الصين»، دار التعليم الشعبي للنشر.
- تشين يوان قوي وآخرون «أنظمة المكتبات في الصين القديمة»، دار التربية للنشر، شنغهاي.
- تشانغ شوان هوي «إرشادات عامة ومشهورة في علم التاريخ الصيني»، دار الشباب الصيني للنشر.
- تشانغ شوان هوي «أمثلة من الكتب والسجلات القديمة في الصين»، دار الشعب للنشر، خوبي.
- لو ينغ تسي «منجزات العلوم والتقنية في الصين القديمة»، دار الشعب للنشر- شانشي.
- ليو هوانغ تشن «تاريخ الهندسة التقليدية في الصين القديمة»، دار صناعة البناء للنشر.
- يان تشونغ نيان «العواصم والقصور عبر العصور في الصين»، دار مدينة تسي جينغ للنشر.
- ليودا تسن «المدينة العتيقة سيآن» دار الفنون الجميلة الشعبية للفنون- شنشي.
- يانغ كوان «دراسات في تاريخ المقابر والأنظمة في الصين القديمة»، دار الكتب القديمة للنشر- شنغهاي.
- لين لين مينغ «سجل موجز المقابر عبر العصور في الصين»، دار الشعب للنشر- هيلونغجيانغ.
- لواتشه ون «مقابر الأباطرة عبر العصور في الصين»، دار الثقافة للنشر - شنغهاي.
- ليو تسه وآخرون «الحدائق القديمة في الصين»، دار الثقافة للنشر- شنغهاي.
- تشين ون ليانغ وآخرون «أحاديث الحدائق المشهورة في بكين»، دار صناعة البناء للنشر.
- تشين تسونغ تشو «مجموعة أحاديث الحدائق»، دار الثقافة للنشر- شنغهاي.
- وانغ يي «الحدائق والثقافة الصينية»، دار الشعر للنشر - شنغهاي.
- جين شيوه تشي «علم تجميل الحدائق في الصين»، دار الفنون للنشر- جيانغصو.
- فإن هونغ شوان «الجسور القديمة المشهورة في الصين»، دار الثقافة للنشر - شنغهاي.

- لاي قوي لين «الجسور المشهورة في الصين قديماً وحديثاً»، دار تشان وانغ للنشر.
- جيانغ يي «الخط الصيني»، دار الرسم للنشر- شنغهاي.
- جين شيوه تشي «أحاديث عن جمال الخط » ، دار الرسم للنشر - شنغهاي.
- تشانغ قوانغ فو «تاريخ الفنون الجميلة في الصين»، دار المعرفة للنشر.
- تشو قوانغ تشيان «علم الجمال وتاريخ الفنون الجميلة في الصين»، دار المعرفة للنشر.
- قه لو «تاريخ تطور نظرية الرسم القديمة في الصين»، دار الفنون الشعبية للنشر- شنغهاي.
- يه دابينغ «أحاديث الأوبرا الصينية»، دار الشعب للنشر، تشجاينغ.
- تشو تاي باي «تاريخ تطور الأوبرا التقليدية في الصين»، دار الكتب القديمة للنشر، شنغهاي.
- لياو فوشو «موجز تاريخ الموسيقى القديمة في الصين»، دار الموسيقى الشعبية للنشر.
- قو بينغ دان وآخرون «متعة الدوبيت»، دار الثقافة والفنون للنشر.
- يوداتشوان وآخرون «روائع القصص العجيبة والغريبة»، دار الشعب للنشر، يونان.
- تشين شيوه ليانغ «أحاديث الشاي»، دار الشعب للنشر، قوانغشي.
- وانغ شين رين «أحاديث قديمة حول الطعام والشراب في الصين»، دار الصناعة الخفيفة للنشر.
- وانغ مينغوا وآخرون «الطعام والشراب في الصين القديمة»، دار الشعب للنشر، شنشي.
- ليو تشاو روي «فن الشاي في الصين القديمة»، دار الشعب للنشر، شنشي.
هان يانغ مين وآخرون «عادات الأعياد في الصين القديمة»، دار الشعب للنشر، شنشي.
- تشانغ تشي جون «أصول الطهي»، دار التجارة الصينية للنشر.
- شي فينغ يي «الزواج والأسرة في الصين القديمة»، دار الشعب للنشر، خوبي.
- تشوين باو «تاريخ الأزياء في الصين القديمة»، دار المسرح للنشر.
- وانغدا يوي «مصدر ثقافة التنين والعنقاء»، دار الفنون اليدوية للنشر، بكين.
- شين فو وي «تاريخ التبادل الثقافي بين الصين والغرب»، دار الشعب للنشر، شنغهاي.
- تشو يي ليانغ «تاريخ العلاقات الثقافية اليابانية- الصينية»، دار الشعب للنشر،

جيانغشي.
- «جدول تاريخ الثقافة الصينية»، دار المعاجم للنشر، شنغهاي.

خاتمة الطبعة المنقحة

لم يتوقع مؤلف هذا الكتاب –الذي يتناول الثقافة الصينية ولا يجذب الأنظار– أن يحظى بفرصة سانحة للتهذيب والتنقيح والطباعة من جديد؛ وذلك لأن مثل هذه المؤلفات والكتب كثيرة مثل النجوم في السماء، والقليل منها يتمتع بالشهرة والانتشار. وكتابي المتواضع –الذي بين أيديكم –طُبع منه عدة آلاف من النسخ، مما يبث الغبطة والسرور في نفسي. كما لم أتوقع –منذ طبعته الأولى في عام 1998– أن يطبع خمس مرات، وبلغ إجمالي النسخ المطبوعة أربعة وعشرين ألف نسخة. وبالإضافة إلى ذلك، عندما قمت بمراجعة الكتب على الشبكة العنكبوتية، وجدت أن بعض المدارس جعلت هذا الكتاب من مصادر ومراجع البحث والدراسة، وبعضها أدرجته في منظومة كتب المواد الدراسية من أجل تحسين جودة التعليم، وبعضها جعلته مادة تدريسية رسمية، ناهيك عن أن الموقع الإلكتروني (WWW.guoxue.com) خصص عموداً لتقديم محتويات الكتاب. وهذا –بلا ريب– يترك انطباعاً عميقاً في نفسي، ولكنه يجعلني أشعر بالقلق والخوف أيضاً؛ خشية أن بعض أخطاء الكتاب تؤثر تأثيراً سلبيا في نفوس القراء.

ومن حسن الطالع، إن تساي جيان فينغ رئيس التحرير في دار نشر تعليم اللغات الأجنبية والدراسات والأصدقاء في قسم اللغة الصينية التابع لهذه الدار يرغبون في طبع هذا الكتاب مرة أخرى. والمؤلف –في معرض إظهار تقديره وامتنانه لرغائبهم الجميلة والطيبة– انتهز هذه الفرصة واضطلع بتصويب الأخطاء والمواضع غير المناسبة المثبوتة في ثنايا الكتاب، وتصحيح أسماء المدن والأماكن حسب «كتاب التقسيم الإداري لجمهورية الصين الشعبية الصادر في عام 2001»، فضلاً عن تكملة المعلومات الخاصة بمنطقة مكاو الإدارية الخاصة، والأحوال المتغيرة في دليل «التراث الثقافي العالمي». وذيلت هذا الكتاب بملحق خاص عن الثقافة التقليدية الصينية انطلاقاً من اعتقادنا أن ذلك ربما يحقق فائدة جمة للقراء في إطار تقديم المساعدة لهم من أجل فهم فصول هذا الكتاب ومباحثه على الوجه الأكمل.

وعندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، نظمت قصيدة من الوزن السباعي بعنوان «كلمة امتنان» ختمتها بهاتين الجملتين: «بذلت جهوداً مضنية وشاقة تعبيراً عن مواساتي

لذاتي، وأي امرئ يناقش مزايا ومساوئ البحث الأكاديمي». ومازالت نفسي تنضوي تحت هذه الحالة النفسية، ومادمت بذلت من أجل القراء كل جهدي، فذلك أكبر مواساة بالنسبة للمؤلف.

تشنغ يوي نشن

فبراير 2003



لمحة عن الثقافة في الصين..

الكتاب رحلة فكرية عظيمة، وجريئة، وواسعة الخيال، ومثيرة، تسبر أغوار الثقافة الصينية في عصورها السحيقة التي تتجذّر في أعماق الحضارة الصينية منذ ثلاثة آلاف سنة ونيف، ولذا تتسم موضوعات الكتاب بالثراء والوفرة، بدءاً من مفهوم الثقافة في الصين إلى تسليط الأضواء الكاشفة على جوانب هذه الثقافة في شتى الموضوعات التاريخية والجغرافية والأدبية والفنية والإيديولوجية والسيكولوجية والدينية والفن المعماري والعادات والتقاليد، فضلاً عن منجزات الصين في التقدم البشري، وبذلك يشبع نهم القارئ العربي الشغوف لاستجلاء غموض الثقافة الصينية، وفلسفتها وتاريخها، ويسد فراغاً علمياً تعاني منه المكتبة العربية لأن معارفنا بالصين مازالت غامضة وشاحبة.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة




هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

